

يمانيون في موكب الرسول ﷺ

عظماء الصحابة والفاتحين اليمانيين في فجر الإسلام

محمد حسين
الفرح

المجلد الأول

إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء





نبذة عن المؤلف:



محمد حسين الفرح (١٩٥٤-٢٠٠٥م) هو "محمد بن حسين بن محمد بن قائد بن سعد بن محسن بن محمد بن محمد بن محسن بن عبد الله بن حسين بن أحمد بن علي الفرح".

محمد حسين الفرح من آل الفرح بقرية الأحلب منطقة عمار بمحافظة إب. أنهى دراسته الثانوية بصنعاء عام ١٩٧٦م وتخرج من جامعة صنعاء كلية الشريعة والقانون بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف في مايو ١٩٨١م. تولى منصب مدير عام التعاونيات والجمعيات بوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل من عام ١٩٧٧- ١٩٨٦م، ثم مدير عام الوحدات الإدارية والعمل الشعبي برئاسة الوزراء إلى عام ١٩٩٣م ورئاسة الفريق الفني باللجنة العليا للانتخابات عام ٩٢-٩٣م وعام ١٩٩٧م. ثم عين (مستشاراً للجنة العليا للانتخابات بدرجة وزير) بموجب القرار الجمهوري رقم ٢٨٣ في ١٩٩٩/٨/٨م.

حصل على وسام التعاون من رئيس الجمهورية العربية اليمنية في ١٩٧٩/١/٢٥م وحصل على وسام المؤرخ العربي من (اتحاد المؤرخين العرب) في ٢٣/فبراير/١٩٨٧م. قام بنشر الكثير من المقالات والدراسات الأدبية والتاريخية في الصحف والمجلات اليمنية والعربية منذ عام ١٩٨١م.

يمانيون

في موكب الرسول ﷺ

عظماء الصحابة والفاتحين
اليمانيين في فجر الإسلام

محمد حسين الفرج

المجلد الأول



إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

١٤٢٥هـ - 2004 م

رقم الإيداع بدار الكتب بصنعاء

(٢٠٠١/١٩١)

الناشر

الجمهورية اليمنية

وزارة الثقافة والسياحة

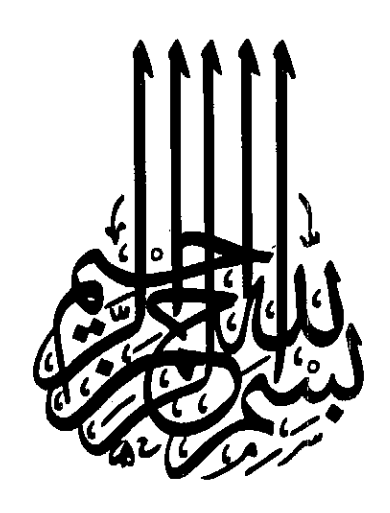
صنعاء - ص.ب. (36)-(237)

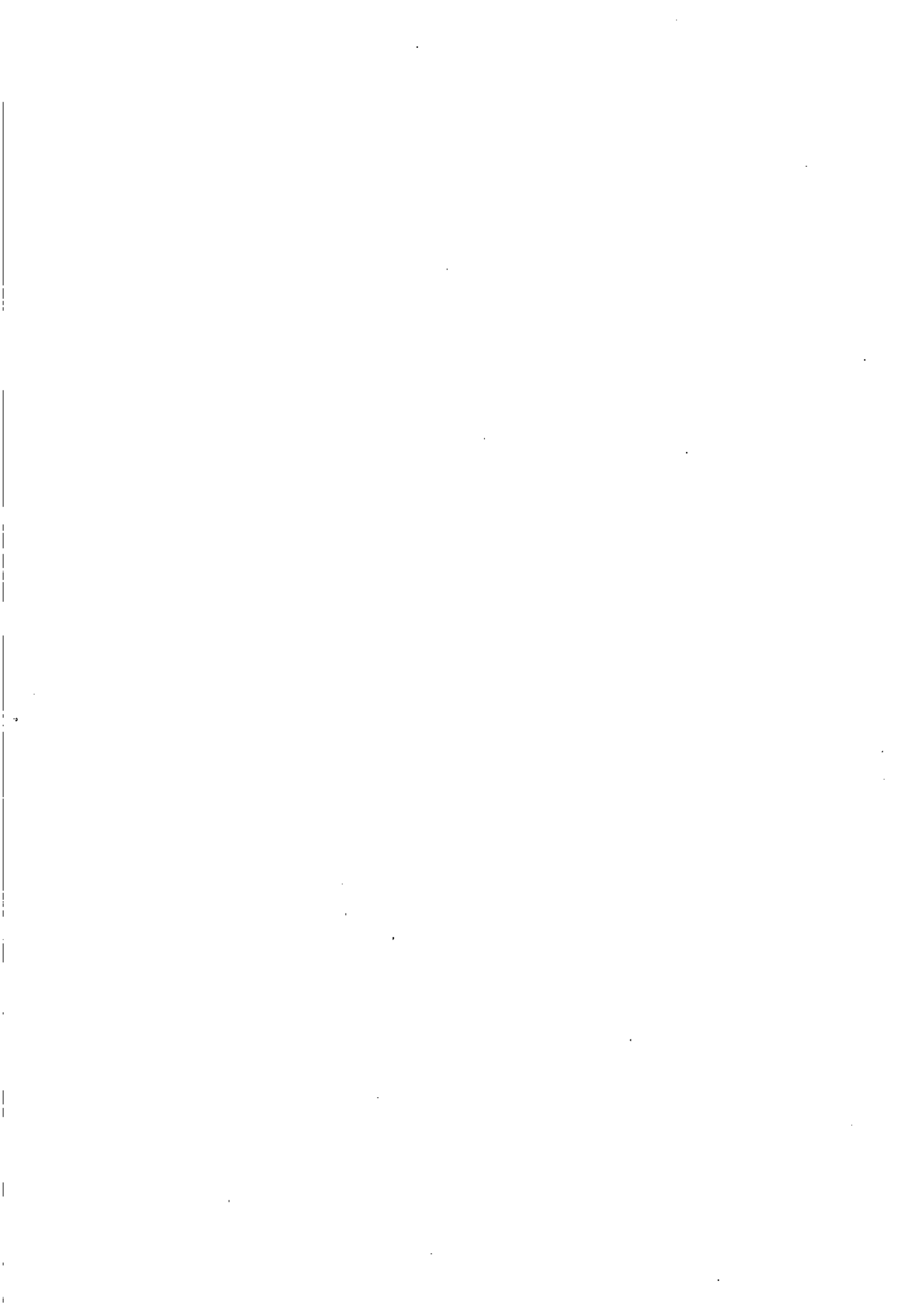
هاتف: 235114 - فاكس: 235113

بريد الكتروني: moc@y.net.ye

من بهاء صنعاءَ... وتجليات عبقها.. في عام تتويجها عاصمةً للثقافة العربية.. يأتي هذا الاحتفاءُ بمجد الكلمة.. وجلال أنوارها.
في بدء الوعي الإنساني كانت الكلمة..
وعلى رأس فعاليات هذا العام الاستثنائي تأتي هذه الإصدارات.. حدثاً يتوج صنعاء فضاءً شاسعاً للثقافة والتاريخ والجمال والخصوصية.

خالد عبد الله الرويشان
وزير الثقافة والسياحة





مُقدمة المؤلف

إن هذا الكتاب الذي سمَّيته "يمانيون في موكب الرسول" ﷺ هو ثمرة سنوات عديدة من البحث في أُمهات كتب التاريخ وتراجم الصحابة ووثائق العهد النبوي والخلافة الراشدة والأموية وكتب التراث والدراسات والمصادر المتناثرة عن تاريخ شخصيات فذّة من الصحابة والزعماء والأمراء الفاتحين اليمانيين، كان لهم إسهامهم الوافر في موكب رسول اللّه ﷺ وتأسيس الدولة والحضارة العربية الإسلامية وحملوا رسالة الإسلام والحرية في ميادين الفتوحات إلى أرجاء واسعة من الآفاق الممتدة في الوطن العربي وفي مشارق الأرض ومغاربها بإيمان لا يتزعزع وعزم لا يلين، فتأسست أعظم دولة وحضارة انتشر نورها في أرجاء واسعة من المعمورة، ولكن تاريخ أولئك العظماء من الصحابة والفاتحين اليمانيين يكاد أن يكون مجهولاً بسبب عدم البحث والدراسة عنهم وبسبب تشتت أخبارهم في عشرات المصادر، فالبحث في تاريخ ودور كل شخصية منهم هو أشبه بمن يغوص في بحر عميق يجمع لؤلؤة من هنا ولؤلؤة من هناك حتى تجتمع اللآلىء وتنتظم في عقد واحد هو تاريخ كل شخصية من أولئك العظماء والأعلام في مباحث هذا الكتاب حيث يضم الجزء الأول مباحث عن ٣٦ من الصحابة والأمراء الفاتحين ويضم الجزء الثاني والثالث مباحث عن ٣٤ من الصحابة والزعماء والأمراء الفاتحين، وبالتالي فإن هذا الكتاب ـ بجزءيه ـ قد احتوى على سبعين مبحثاً عن سبعين من عظماء وزعماء اليمن واليمانيين في موكب رسول اللّه عليه الصلاة والسلام وفي ميادين الفتوحات بمشارق الأرض ومغاربها خلال عصور فجر الإسلام.

إن فكرة أن يكون هذا الكتاب عن سبعين من الصحابة والفاتحين اليمنيين قد جاءتني من أنه كان عدد ملوك اليمن التبابعة العظماء في عصور دولة وحضارة سبأ وحِمْيَر سبعين ملكاً تُبَّعاً، وقد ذكر عددهم العلماء المؤرخون والشعراء عبر الأزمنة والعصور واعتزّوا بذكر تاريخهم وأدوارهم الحضارة المجيدة.

وغني عن البيان أن اختيار سبعين من الصحابة والفاتحين اليمنيين قد استلزم جهداً وبحثاً وترجيحاً بين الشخصيات لأن عدد الصحابة اليمنيين يبلغ عدة آلاف وكذلك فإن عدد الذين ساهموا في الفتوحات لا يحصيهم كتاب، وقد استلزم ذلك أن لا يشمل هذا الكتاب شخصيات قبيلتي الأوس والخزرج اليمانية في يثرب وهم الأنصار ومنهم "السبعون" الذين بايعوا رسول الله ﷺ ويستلزم الأنصار كتاباً كاملاً وتاريخهم معروف، ولذلك فإن غالبية السبعين في هذا الكتاب هم من قبائل اليمن - غير الأنصار - ومن داخل شتى مناطق اليمن بمدلولها ونطاقها التاريخي. ولقد راعيتُ أيضاً أن يتجسد في المباحث الرئيسية عنهم تاريخ اليمن واليمنيين وقبائلهم ومناطقهم والدور اليمني تجسيداً متكاملاً ومترابطاً، ولذلك فإن ترتيب السبعين في هذا الكتاب ليس بحسب أهمية الشخصيات وأهمية الدور التاريخي.

ونشير هنا إلى أن الأخ / **الأستاذ خالد عبد الله الرويشان** / ، وزير الثقافة والسياحة كان قد طبع الجزء الأول عندما كان رئيساً للهيئة العامة للكتاب.

ولما أنهيت العمل في الجزءين الثاني والثالث ارتأى الأخ الوزير طباعتهما وضمهما إلى الجزء الأول ليصبح العمل كاملاً متكاملاً بثلاثة أجزاء تعميماً للفائدة المرجوّة، حيث يضم الجزء الأول ٣٦ اسماً من الصحابة والفاتحين اليمانيين ويضم الجزءان الثاني والثالث ٣٤ اسماً، فاقتضى التنويه.

المؤلف

١

الطُفَيْل بن عمرو الدَوْسِيّ (ذُو النُّور)

من أوائل الصحابة اليمانيين السابقين إلى الإسلام هو ذو النور الطفيل بن عمرو الدوسي، وقد ذكره أبو العباس المبرد في (باب ذكر الأذْواءِ من اليمن في الإسلام) قائلاً (ومن اليمن: الطفيل الدوسي ذو النور. .)(١) ولم يكن ذو النور لقباً كسائر ألقاب أذواء اليمن منذ عصور سباء وحمير وإنما كان نور الطفيل بدعاء رسول الله ﷺ إذْ قال ﷺ: «**اللهم اجعل له آية تعينه على ما ينوي من الخير**»(٢).

ونبدأ بذكر أن الطفيل بن عمرو هو ـ كما جاء في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة ـ (الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فَهْمْ بن غُنْم بن دوْس الدوسي. . وقيل هو ابن عبد عمرو بن عبد الله بن مالك بن عمرو بن فَهْمْ. ولَقَبُه ذو النور)(٣). والصواب كما ذكر أيضاً القرطبي في الاستيعاب إنه: الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فَهْمْ بن غُنْم بن دوس. قال ابن خلدون: (ودَوْس هو: دوس بن عدثان ـ بالثاء المثلثة ـ بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحرث بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سباء بن يشجب بن يعرب بن قحطان)(٤).

وكانت دوس تسكن منطقة السَرَاة بأعالي اليمن، قال الهمداني: (أرض السراة ـ منها ـ سراة بني علي وفهم، ثم سراة بجيله والأزد بن سلامان بن مفرج، وألمع، وبارق، ودوس، وغامد، والحجر إلى جرش)(٥) وكان الطفيل بن عمرو بن طريف الدوسي من رؤساء قبيلة دوس بسراة اليمن وكان أديباً شاعراً وصاحب تجارةٍ، فكان ممن يتردد على مكة في المواسم للتجارة، ولذلك شَدّ الرحال إلى مكة في أوائل سنوات البعثة النبوية.

* * *

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد ـ جـ٢ ص٣٧٤.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ص٢٣٥.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ جـ٢ ص٢٢٥.
(٤) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد حسين الفرح ـ ص١٢٣ و١٤٣.
(٥) صفة جزيرة العرب ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٥٨.

وما أن وصل إلى مكة حتى التقاه رؤوس قريش، (وهيأوا له من الضيافة كل ألوان الترف والكرم والبهجة والنعيم) ثم قالوا له: (يا طفيل إنك امرؤ شاعر وسَيدُ مُطاعُ في قومك، وأنّا قد خشينا أن يلقاك هذا الرجلُ فيصيبك ببعض حديثه، فإنما حديثه كالسحر، فاحذره أن يُدخل عليك وعلى قومك ما أدخل علينا وعلى قومنا، فإنهُ يُفرق بين المرء وابنه وبين المرء وزوجه وبين المرء وأبيه).

قال الطفيل: (فوالله ما زالوا يحدثونني وينهونني أن أسمع منه حتى عزمت على ألا أسمع منه شيئاً ولا ألقاه)[1].

وفي اليوم التالي مَرّ الطفيل بالقرب من الكعبة، فشاهد رجلاً يُصلي ـ ويتكلم ـ عند الكعبة، فأدرك أنه (محمد) الذي حذرته منه قريش، فوقف يتأمله وقال لنفسه: (واثُكْل أمي، إني لرجلُ لبيب وامرؤ ثبتُ ما يخفى عليّ من الأمور حَسَنها ولا قبيحها، فما يمنعني أن أسمع من الرجل ما يقول، والله لأستَمِعَنّ منه). وجاء في الاستيعاب إنه قال في نفسه: (والله إن هذا للعجز، والله إني امرؤ ثبتُ ما يخفى عليّ من الأمور حَسَنها ولا قبيحها، والله لاستمعن منه، فإن كان أمره رشداً أخذت منه وإن كان غير ذلك اجتنبته)[1].

فاقترب الطفيل من محمد ﷺ فسمعه يقول كلاماً.. قال الطفيل واصفاً إياه: (لم أسمع كلاماً قط أحسن من كلام يتكلم به) وقال في نفسه: (يا سبحان الله ما سمعت كاليوم لفظاً أحسن منه ولا أجملْ)، وكان ما سمعه الطفيل هو (سورة الإخلاص والمعوذتين).

ولما انصرف محمد ﷺ تتبعه وقال له: (يا محمد إن قومك حدّثوني عنك كذا وكذا، وقد أبى الله إلا أسمعني ما تقول، فسمعت منك قولاً حسناً، فأعرض عليّ أمْرّك)، فأخبره رسول الله ﷺ أن ما سمعه هو وحيُ من الله الواحد الأحد، قال الطفيل (فعرض عليَّ رسول الله الإسلام فأسلمت).

ومكث الطفيل فترة بمكه ملازماً رسول الله ﷺ، وقد علمت قريش بإسلامه فأزعجها ذلك، وأظهروا بغضهم لرسول الله ﷺ وللطفيل، فقال الطفيل:

ألا أبلغ لديك بني لؤيٍّ ... على الشنآن والعضب المُرّدِ
بأنّ الله ربُ الناسِ فردُ ... تعالى جِدّه عن كل نِدٍّ
وأنّ محمداً عبدُ رسولُ ... دليلُ هدى، ومُوضِحُ كل رُشْدِ

* * *

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ص٢٣٥.

ولما تهيأ الطفيلُ للعودة إلى منطقة قبيلة دوس بسراة اليمن، قال: (يا رسول الله إني راجعٌ إلى دوس، وأنا داعيهم إلى الإسلام) فدعا الرسول ﷺ أن يعينه الله على ما نوى.

وذكر القرطبي في الاستيعاب أن الطفيل قال: (يا رسول الله إني راجع إلى دوس وأنا فيهم مطاع وأنا داعيهم إلى الإسلام لعل الله أن يهديهم، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه. فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم اجعل له آية تعينه على ما نوى من الخير**»، فلما وصل إلى مشارف حاضرة دوس ظهر بين عينيه نور كالشهاب يتراه الحاضر في ظلمة الليل، (فقال الطفيل: اللهم في غير وجهي فإني أخشى أن يظنوا أنها مُثله)، فتحول النور إلى رأس السوط الذي بيده فكان النور في رأس سوطه كأنه قنديل مُعلق. بينما جاء في رواية ثانية بالاستيعاب والإصابة أن ذلك كان في المرة الثانية كما سيأتي.

ولما عاد الطفيل من مكة إلى حاضرة دوس، أخذ يدعو إلى الإسلام، فبداء ببيته، فأسلم أبوه وهو عمرو بن طريف الدوسي، ولم تسلم أُمه أنذاك، وقال الطفيل لزوجته: (إليك عني، فَلَسْتُ مِنْكِ ولَسْتِ مني. قالت: ولِمْ ذاك بأبي وأمي أنت؟ فقال: إن لم تُسلمي وتتبعي دين محمد فلست تحلين لي ولا أحل لك، فقالت: ديني دينك. فقال: فاعمدي إلى هذه المياه فاغتسلي بها وتعالي، ففعلت ثم جاءت إليه فأسلمت ونطقت بالشهادتين، وحسن إسلامها). وكذلك أسلمت أم الطفيل فيما بعد.

* * *

إسلام أبي هريرة رضي الله عنه

ثم أخذ الطفيل يدعو قبيلة دوس للإسلام، وكانت دوس تعبد صنماً يُقال له (ذو الكَفْين)، فلم يستجب. للطفيل ـ في المرة الأولى ـ إلا شخص واحد من دوس، ولكنه كان صاحب دور جليل في تاريخ الإسلام وهو أبو هريرة بن صخر الدوسي. وتكتسب هذه الحقيقة أهمية كبيرة في دحض الشبهات التي استهدفت أبي هريرة كما في الكتاب الذي ألّفه محمود أبو ريّة بأن أبا هريرة لم يسلم إلا سنة ٧ هجرية، وقال محمود أبو ريّة: «كل ما عُرف عن أصل أبي هريرة أنه من عشيرة سُليم بن فَهْمْ من قبيلة أزد ثم من دوس إحدى قبائل العرب الجنوبية، ولم يعرف الناس عن حياته في بلاده اليمن في مدى السنين التي قضاها باليمن قبل إسلامه غير ما قاله هو نفسه من أنه كان يرعى الغنم وكان فقيراً مُعدماً يخدم الناس بطعام

بطنه»[١] والواقع أن ما ذكرته المصادر التاريخية وتراجم الصحابة يتيح معرفة متكاملة عن أبي هريرة فهو كما جاء في الإصابة والاستيعاب: أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر وهو عامر بن عبد ذي الشري بن طريف بن عتاب بن أبي صعب بن منبه بن سعد بن ثعلبة بن سُليم بن فَهْمْ بن غُنْم بن دوس الدوسي الأزدي، وكان مولده ونشأته في حاضرة دوس بسراة اليمن، وقد جاء في الاستيعاب إنه توفي سنة ٥٧ هجرية وهو ابن ٧٨ سنة، ويتبين من ذلك أن مولده كان في حوالي سنة ٢٣ قبل الهجرة ومات أبوه وهو صغير، وفي ذلك قال أبو هريرة (نشأت يتيماً)[٢] فنشاء في كنف والدته وأهله، وجاء في الإصابة إنه (كان يرعى غنم أهله)، وربما كان يعمل أيضاً عن الميسورين من قومه في حاضرة دوس، فلما عاد الطفيل بن عمرو من مكة وأخذ يدعو دوساً إلى الإسلام استجاب له وأسلم أبو هريرة وهو يومذاك غلامُ شاب ابن خمس عشرة سنة أو سبع عشرة سنة، وفي إسلامه قال ابن حجر العسقلاني: «دعا الطفيل قومه إلى الإسلام، فأجابه أبو هريرة وحده»[٣].

ويتبين من ذلك أن أبا هريرة أسلم باليمن قبل الهجرة النبوية ببضع سنين، فكان من أوائل السابقين إلى الإسلام، ولكنه مكث في منطقته باليمن وساهم مع الطفيل في نشر الإسلام بين قبيلة دوس، وربما سار إلى النبيّ ﷺ بمكة مع الطفيل قبل الهجرة لأن الطفيل سار والتقى بالنبي ﷺ مرتين بمكة بعد المرة الأولى ـ كما سيأتي ـ وكان أبو هريرة معه في ذلك المسير، فالذي حدث سنة ٧هـ ليس إسلام أبي هريرة وإنما هجرته إلى رسول الله ﷺ في يثرب، أما إسلامه فكان قبل الهجرة النبوية.

* * *

عودة الطفيل إلى النبي ﷺ: وآية النور

لقد مكث الطفيل يدعو قبيلة دوس إلى الإسلام زهاء سنة فلم يؤمن إلا أبو هريرة، فلما يأس الطفيل منهم شَدّ الرحال إلى رسول الله ﷺ بمكة، فالتقى به وأخبره بإعراض دوس وعدم استجابتها للإسلام وقال: «يا رسول الله إن دوساً عصت، فأدع الله عليهم» فرفع رسول الله ﷺ يده إلى السماء وقال: **«اللهم اهد دوساً»**. وفي رواية ثانية أنه قال: **«اللهم اهد دوساً وائت بهم»**. وفي رواية ثالثة **«اللهم اهد دوساً وائت بهم مسلمين»**. ولعله دعا لهم ثلاث مرات فقال: **«اللهم اهد دوساً. اللهم اهد دوساً وائت بهم. اللهم اهد دوساً وائت بهم مسلمين»**.

---

(١) شيخ المضيرة أبو هريرة ـ لمحمود أبو ريّة ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية ١٩٦٥م ـ ص٤٤.
(٢) كتاب المعارف لابن قتيبة ـ ص١٢٠.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٢٢٦.

وقد أورد القرطبي نباء ذلك اللقاء في رواية عن أبي هريرة، مما يوحي بأن أبا هريرة كان مع الطفيل في ذلك المسير إلى النبي ﷺ واللقاء به في مكة، وقد جاء في ترجمة أبي هريرة بالإصابة أنه قال: (أن أمي كانت مشركة وإني كنت أدعوها إلى الإسلام وكانت تأبى عليَّ، فدعوتها يوماً فاسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره. فأتيتُ رسول الله ﷺ فذكرت له ـ ذلك ـ فقال: اللهم اهد أم أبي هريرة)، فلما عاد أبو هريرة إلى أمه (فتحت الباب، فقالت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، ولم تذكر الرواية زمن ذلك، ونرى أنه عندما قدم أبو هريرة مع الطفيل إلى النبي ﷺ بمكة وأخبره بأمر دوس فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم اهد دوساً**» ثم قال رسول الله ﷺ للطفيل: «**إرجَعْ إلى قومك، فادعهُمْ، وارفُق بهم**».

وجاء في الإصابة أن دعاء النبي ﷺ للطفيل كان في تلك المرة، وقد سلف ما جاء عن ذلك في الاستيعاب وإنه قال الطفيل للنبي ﷺ: «**ادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه. فقال النبي ﷺ: اللهم اجعل له آية تعينه على ما ينوى من الخير**». فلما وصل إلى مشارف حاضرة دوس ظهر بين عينيه نور كالشهاب يترآه الحاضر في ظلمة الليل، فقال: (اللهم في غير وجهي فإني أخشى أن يظنوا أنها مُثله) فتحول النور إلى رأس السوط كأنه قنديلٌ مُعلق. وقال أبو العباس المبرد أن الطفيل (أعطاه ـ دعاء ـ رسول الله ﷺ نوراً في جبينه ليدعو به قومه، فقال: هذه مُثْلَةُ. فجعله في سَوْطه. فلما ورد الطفيل على قومه بالسّراة جعلوا يقولون: «أن الجبل لَيَلْتَهِبُ»[1] وبسبب ذلك النور قيل للطفيل ذو النور، وكان يُلَقَبُ ذو النور بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وقد عمل الطفيل بتوجيه رسول الله ﷺ حيث قال له: «**ارجَعْ إلى قومك، فادعهُمْ، وارفُق بهم**»، فأخذ يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويرفقُ بهم في دعوته، فأسلموا الواحد تلو الآخر، وكان منهم جندب بن عمرو بن حممة الدوسي، وكان جندب يقول في الجاهلية: (إنّ للخلق خالقاً، لكنّي لا أدري من هُوَ)، فلما دعاه الطفيل إلى الإسلام وأنْبَأه بدين الخالق ورسالته التي أرسل بها محمداً ﷺ أسلم جندب، فكان الطفيل وأبو هريرة وجندب يدعون إلى الإسلام في حاضرة وقُرى دوس، وما لبث أن فشا الإسلام وأخذ ينتشر وينمو في قبيلة ومنطقة دوس.

* * *

وفي تلك الفترة من سنوات ما قبل الهجرة كان الإسلام قد أخذ ينتشر أيضاً

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد ـ جـ٢ ص٣٧٤.

في عدة مناطق من اليمن على يد عدد من أوائل الصحابة اليمانيين الذين كانوا قد ساروا إلى مكة لغرض التجارة أو لغير ذلك من الأمور فسمع كل منهم رسول الله ﷺ وآمن بدين التوحيد وعاد إلى منطقته باليمن داعياً إلى الإسلام، وكان منهم أبو عامر الأشعري وأبو موسى الأشعري ـ في منطقة تهامه ـ وقيس بن مالك الهمداني ـ في منطقة حاشد وبكيل ـ وضماد بن ثعلبة الأزدي ـ في أعالي تهامه ـ وعفيف بن معدي كرب الكندي ـ في حضرموت ـ وسيأتي أنباء ووقائع ذلك في المباحث الخاصة بهم وبغيرهم من أوائل الصحابة اليمانيين السابقين إلى الإسلام وكانوا في مناطقهم مثل الطفيل بن عمرو ودعوته إلى الإسلام في دوس.

* * *

وقد سار الطُفيل إلى رسول الله ﷺ بمكة ـ للمرة الثالثة ـ وأخبره بأن الإسلام أخذ في الانتشار والنمو وقد دخل كل بيت في دوس. وربما كان أبو هريرة مع الطفيل في ذلك المسير واللقاء بالنبي ﷺ في مكة، فقد جاء في روايته عن إسلام والدته إنه لما أسلمت أمه عاد إلى النبي ﷺ حيث قال: «**فرجعتُ ـ وأنا أبكي من الفرح ـ فقلتُ يا رسول الله ادع الله أن يحببني وأُمي إلى المؤمنين، فدعا له**»[١].

ولما قدم الطفيل إلى رسول الله ﷺ بمكة ـ في المرة الثالثة ـ كانت قريش قد صَعَّدَتْ من معاداتها لرسول الله ﷺ بمكة، فَعَرَض الطفيل على رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى منطقة دوس باليمن، إذْ إنه كما جاء في الإصابة: «قال الطفيل: يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعه؟ يعني أرض دوس»[٢].

وكذلك فقد عَرَض قيس بن نمط الأرحبي على رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى منطقة همدان باليمن، وفي ذلك جاء في الإكليل إنه: «كان قيس بن نمط قد تزعم لرسول الله ﷺ بالهجرة على أن يؤامر همدان في ذلك، فبدرت على النبي ﷺ الأنصار»[٢] وقد كان النبي ﷺ لا يحب الهجرة من مكه، فعاد الطُفيل إلى أرض دوس حيث استمر في نشر دين وتعاليم الإسلام، وكان الطفيل وأبو هريرة وغيرهم في اليمن يُتابعون أنباء رسول الله ﷺ وهجرته إلى يثرب ـ موطن الأوس والخزرج اليمانيين أنصار رسول الله ﷺ ـ وما تلى ذلك، حتى أتاهم نبأ صلح الحديبية بين النبي ﷺ وقريش في أواخر السنة السادسة للهجرة، حيث أدى صلح الحديبية إلى تأمين الطريق بين اليمن والمدينة المنورة وعدم تَعَرُض قريش وغيرهم من الكفار لمن يريد اللحاق برسول الله ﷺ، فلما أتى نباء ذلك إلى اليمن إنطلقت مواكب المؤمنين

(١) الإصابة ـ ترجمة أبي هريرة جـ٤ ص٢٠٦.
(٢) الإصابة ـ ترجمة الطفيل ـ جـ٢ ص٢٢٥ ـ الإكليل للهمداني ـ جـ١٠ ص١٨٠

من مناطق اليمن إلى رسول الله ﷺ وكان من أوائلها موكب الطفيل. . ذي النور.

* * *

هجرة الطفيل وأبي هريرة في موكب دوس إلى رسول الله ﷺ

لقد انطلق ذو النور الطفيل بن عمرو الدوسي ومعه أبو هريرة في موكب يضم ثمانين أو تسعين أهل بيت من دوس مهاجرين إلى رسول الله ﷺ بيثرب، وكان انطلاقهم من اليمن في ذي الحجة ٦ هجرية أو في محرم ٧هـ فوصلوا ورسول الله ﷺ في خيبر ـ وكانت خيبر في محرم ٧هـ ـ فأخذوا أماكنهم في صفوف أصحاب رسول الله ﷺ كما وصل في ذات الوقت موكب الأشعريين بمعية أبي موسى الأشعري وأبي عامر الأشعري وكانوا نيفاً وخمسين رجلاً.

وقد تطرق محمود أبو ريّة في كتابه عن أبي هريرة لذلك الحدث التاريخي متسائلاً: «لماذا تأخر قدوم أبي هريرة إلى النبي ﷺ إلى وقعة خيبر التي كانت في سنة ٧ من الهجرة؟» ثم أورد نصوص كتب التاريخ وتراجم الصحابة بأنه: «قدم الدوسيون فيهم أبو هريرة والطفيل بن عمرو، كما قدم الأشعريون، ورسول الله بخيبر فلحقوه بها، فكلم رسول الله أصحابه فيهم أن يشركوهم في الغنيمة، ففعلوا»[(١)] ولا خلاف على ذلك، ولكن محمود أبو ريّة اندفع إلى استنتاج خاطئ، فزعم «. . أن هؤلاء الأشعريين لم يقدموا إلى النبي ﷺ في زمن حروبه الطاحنة لينصروه ويجاهدوا معه، بل هرعوا إليه بعد الغزوات الكبيرة التي انتصر فيها، وغنم منها الغنائم. .» وإن «شأن أبي هريرة والدوسيين» مثل «شأن الأشعريين الذين أسلموا معه في وقت واحد» ـ يعني من أجل الغنائم ـ[(٢)] ـ واستند محمود أبو ريّة في استنتاجه وكلامه الخاطئ على أبي هريرة ودوس والأشعريين وسبب تأخر قدومهم إلى النبي ﷺ حتى موقعة خيبر إلى قوله إنه: «تكلم ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عن أسباب تأخر الأشعريين في القدوم إلى النبي ﷺ بأنهم (علموا ما كان المسلمون فيه من المحاربة مع الكفار، فلما بلغتهم المهادنة أمِنُوا وطلبوا الوصول إليه) ـ»[(٣)] وليس فيما ذكره العسقلاني ما يتفق مع الاستنتاج والكلام الخاطئ لمحمود أبي ريّة، فالمقصود بقول العسقلاني (لما بلغتهم المهادنة، أمِنُوا) هو لما بلغهم صلح الحديبية، وذلك لأنه منذ موقعة بدر سنة ٢ هجرية كان كفار

---

(١) طبقات الصحابة لابن سعد ـ جـ١ ص٧٨ ـ إمتاع الإسماع للمقريزي ـ جـ١ ص٣٢٦.
(٢) شيخ المضيرة ـ محمود أبو رية ـ ص٣٨ ـ ٤٥.
(٣) فتح الباري ـ لابن حجر العسقلاني ـ جـ٧ ص٣٩.

قريش وهوازن وثقيف يقطعون الطريق ويقتلون من يسير عبر مناطقهم إلى رسول الله ﷺ، وكان الطريق من اليمن إلى يثرب يَمُرُ بالطائف ومكة، وقد تَعَرَض العديد من اليمانيين للقتل في الطائف وهم يقصدون المدينة، ومما يتصل بذلك ما ذكره القرطبي: (أن زيد بن حارثة إكترى من رجل بغلاً في الطائف، فسار به المُكري، ثم مال به إلى خربه فقال له: أنزل، فنزل. وكان في الخربة قتلى كثيرة، فلما أراد أن يقتله، قال له زيد: دعني أُصلى ركعتين، فقال: صَلْي، فقد صلى قبلك هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئاً). فلما صلى أتى فارس مؤمن فطعن الرجل بالرمح فقتله، ونجا زيد بن حارثة. فتلك الواقعة تدل على أن بعض الكفار بالطائف كانوا يتقطعون للمسلمين القادمين من مناطق اليمن قاصدين يثرب من تلك الطريق، فذلك الخطر في الطائف ومكة جعل الطريق غير آمنة ومحفوفة بالمخاطر بين اليمن ويثرب، فلما وقعت المهادنة في صلح الحديبية تأمنت الطريق بين اليمن ويثرب، وقد كان رسول الله ﷺ بعد عودته من صلح الحديبية إلى يثرب ـ في ذي القعدة ٦هـ ـ يتوقع وصول مواكب من أهل اليمن، وقال عليه الصلاة والسلام: «**يطلع عليكم أهل اليمن كأنهم السحاب، هُمْ خيرُ أهل الأرض**»[١].

وما لبث أن أقبلت مواكب من أهل اليمن، طلعوا كأنهم السحاب، مواكب تتلوها مواكب، فالذين وصلوا إلى رسول الله ﷺ وهو بخيبر ـ في محرم ٧هـ ـ انطلقوا من اليمن قبل غزوة خيبر وقبل غنائم خيبر ـ فالمسافة من زبيد في أسفل تهامة اليمن إلى يثرب كانت عدة أسابيع وكذلك من أغلب مناطق اليمن إلى يثرب، خاصة للمواكب الكبيرة مثل موكب دوس وموكب الأشعريين حيث كما ذكر القرطبي في الاستيعاب: (كان مع الطفيل ثمانين أو تسعين أهل بيت من دوس)[٢] وقد ذكر خالد محمد خالد نبأ قدومهم قائلاً: «بينما رسول الله في خيبر إذا موكب حافل ينتظم ثمانين أسرة من دوس قد أقبلوا مُهللين ومكبرين. . وأخذوا مكانهم في الصفوف الطاهرة خلف رسول الله الأمين»[٣] وكان ذلك موكب الطفيل بن عمرو ومعه أبو هريرة، ثم أقبل موكب آخر من دوس هو موكب جندب بن عمرو بن حممة الدوسي ومعه خمسة وسبعون رجلاً من عشيرته، وكان قد وصل قبلهم موكب الأشعريين وكانوا نيفاً وسبعين رجلاً، وتتابعت المواكب في الوصول إلى رسول الله ﷺ بيثرب من شتى مناطق وقبائل اليمن، فقد جاء في كتاب الأنباء

---

(١) الحديث: أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ جـ٢ ص٢٣٤.
(٣) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٦٤.

أنه: (وَفَد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين في سنة ٧ هجرية)[١] فأخذ أولئك اليمانيون أماكنهم في صفوف أصحاب رسول الله ﷺ واستقروا عند إخوانهم من الأوس والخزرج الأنصار في يثرب.

* * *

وكان أبو هريرة أكثر الصحابة ملازمة لرسول الله ﷺ واحفظهم لأحاديثه، قال القرطبي: «لزم أبو هريرة رسول الله ﷺ وواظب عليه رغبة في العلم، فكانت يده مع يد رسول الله ﷺ وكان يدور معه حيث دار، وكان من أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ وكان يحضر ما لا يحضر سائر المهاجرين والأنصار»[٢].

أما الطُفيل ذو النور فكان معه بيثرب ابنه (عمرو بن الطفيل) وكذلك ابنته وأسرته، وقد تزوج ابنة الطفيل في يثرب الصحابيِ الجليل (أُبيّ بن كعب الأنصاري ـ سيّد القراء وجامع القرآن ـ وهي أم الطفيل بن أُبيّ بن كعب الأنصاري) فصحب الطفيل رسول الله ﷺ وكان من خيار الصحابة ومن السابقين إلى الإسلام.

وفي رمضان ٨هـ انطلق الطفيل والذي معه من دوس وسائر من بالمدينة من اليمانيين مع إخوانهم الأنصار بقيادة رسول الله ﷺ لفتح مكة، فشهد الطفيل فتح مكة في رمضان ٨هـ، وفي ذلك قال القرطبي: (كان الطفيل مع رسول الله ﷺ حتى فتح مكة). وقال ابن حجر العسقلاني (وافى الطفيلُ النبي ﷺ في عمرة القضاء، وشهد فتح مكة)، ولما تم فتح مكة وأذعنت قريش لدين الحق شهد الطفيل غزوة حُنين والطائف مع رسول الله ﷺ ـ في شوال ٨هـ ـ فتم الفتح والنصر.

* * *

وكان الصنم (ذو الكفين) ما يزال قائماً في حاضرة دوس باليمن، فلما تم فتح مكة قال الطفيل: (يا رسول الله ابعثني إلى ذي الكفين صنم عمرو بن حممه فأُحْرِقه. فقال رسول الله ﷺ: أجَلْ فأخرُجْ إليه فحرّقه).

فانطلق الطفيل مع فرسان من دوس إلى بيت الصنم ذي الكفين، فأوقد عليه النار، وهو يقول:

(يا ذا الكفين لسنا من عُبّادِكا ميلادنا أقدم من ميلادكا إني حشوتُ النار في فؤادكا)

وعاد الطفيل إلى رسول الله ﷺ بيثرب ـ سنة ٩هـ ـ وقد شمل الإسلام كل أفراد قبيلة دوس وسائر ربوعها، فأقام الطفيل بالمدينة مُصاحباً رسول الله ﷺ حتى

---

(١) الأنباء ـ لمحمد المفتي ـ ١٥.

(٢) الاستيعاب ـ ترجمة أبي هريرة ـ جـ٤ ص٢٠٩.

انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى - في ربيع سنة ١١هـ - وتولى الخلافة أبو بكر الصديق، فلما استفحلت ردة مسيلمة الكذاب والذين معه في نجد واليمامة، انطلق الطفيل في الجيش الذي بعثه أبو بكر لقتال المرتدين في نجد واليمامة، وكان مع الطفيل ابنه عمرو بن الطفيل فخاضا غمار المعارك حتى استشهد الطفيل في الموقعة الأخيرة باليمامة، بينما واصل عمرو بن الطفيل القتال حتى تم النصر وترسخت في اليمامة ونجد دعائم الإسلام.

ثم شهد عمرو بن الطفيل فتح الشام وأُصيب في موقعة اليرموك - سنة ١٣هـ - وكان وهو يجود بأنفاسه يبسط ذراعه اليُمنى ويفتح كفّه كما لو كان سيصافح بها أحداً - أو نوراً - يدعوه من أعلى، وارتفعت روحه إلى السماء لتستقر في جنة الخلود مع روح أبيه ذي النور الطفيل بن عمرو رضي الله عنه وأرضاه.

٢

جَنْدب بن عمرو بن حُمَمة .. ابن ذي الحُكْم

ـ الذي له قُرعت العصا ـ

مِنْ أعلام الزعماء والصحابة اليمانيين هو جَنْدَب ابن ذي الحُكْم عمرو بن حُمَمَة بن رافع بن الحارث بن ربيعة بن ثعلبة بن لؤيّ بن عامر بن دهمان بن دوس الدوسي.

قال ابن حجر العسقلاني: (كان أبوه ـ عمرو بن حممة ـ من حكام العرب في الجاهلية، وأحدّ المُعَمَرين.. وكان يُقال له ذو الحكم، وضربت العرب به المثل في قَرْعِ العصا.. وإليه أشار الحرث بن وعلة بقوله:

أن العصا قُرِعتْ لذي الحكم

وقال الفرزدق:

كأنّ العصا كانت لذي الحكم تُقرعُ

وقال آخر:

لذي الحكم قبل اليوم ما تُقرعُ العصا

.. وذكر أبو بكر بن دُريد أن عمرو بن حُمَمَة وَفَدَ على النبي ﷺ، والذي ذكره غيره إنه مات في الجاهلية، وكان معمراً، وهو الذي يقول:

أُخَبِّرُ أخبار القرون التي مَضَتْ ولا بُدّ يوماً أن أطار لمصرعي[1]

* * *

حُمَمَةُ بن رافع في مجلس ملك حِمْيَر

ونستهل هذا المبحث بذكر حُمَمَة بن رافع ـ والد عمرو بن حممة ـ فقد كان حممة بن رافع من حكماء اليمن في العصر الحميري والجاهلية، وله أقوال وحكم كان الناس يتناقلونها ويحفظونها لما فيها من حكمة وتجربةٍ وحثٍ على مكارم الأخلاق، فمِن ذلك ما جاء في كتاب الأمالي أنه: «اجتمع عامر بن الظَّرِب العدواني وحُمَمَةُ بن رافع الدَّوْسي عند مَلِك من مُلوك حِمْير.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ١ ص٢٤٩ وجـ٢ ص٥٣٣.

فقال ملك حمير: تساءلا حتى أسمع ما تقولان.

فقال عامر لحُمَمَة: أين تُحِبُّ أن تكون أياديك؟ قال حُممة: عندَ ذِي الرَّثْيَة العديم، وذي الخَلَّةِ الكريم، والمُعْسِر الغَرِيم، والمُسْتَضْعَف الهَضِيم[١].

.. قال عامر: ـ مَنْ أجدَرُ الناس بالصنيعة؟ فقال حُمَمة: مَنْ إذا أُعْطِيَ شَكَرَ، وإذا مُنِعَ عَذَر، وإذا مُوطِلَ صَبَر، وإذا قَدُم العَهْدُ ذكر.

قال: ـ مَنْ أكرمُ الناس عِشْرة؟ فقال حُمَمة: مَنْ إنْ قَرُب مَنَحْ، وإن بَعُدَ مَدَحْ، وإن ظُلِمَ صَفَحْ، وإن ضُويق سَمَحْ.

قال: فَمَنْ ألأَمُ الناس؟ قال حُمَمة: مَنْ إذا سَأل خَضَعْ، وإذا سُئل مَنَعْ، وإذا مَلَكَ كَنَعْ..»[٢].

وقد مضى الحديث على هذا النحو في مجلس الملك الحميري، حيث وصف حممة بن رافع صفات الناس بأقوال حكيمة ذكرها أبو بكر بن دريد وأبو علي القالي في كتاب الأمالي[٣] ومنها قول حممة بن رافع: «ـ أحْلَمُ الناس: مَنْ عَفَا إذا قدر، وأجْمَل إذا انْتَصَر، ولم تُطغِه عِزَّةُ الظَّفَر.

ـ وأحْزَمُ الناس: مَنْ أَخَذَ رقابَ الأمُور بِيَدَيه، وجعل العواقبَ نُصْبَ عينيه، ونَبَذَ التَّهَيُّبَ دبر أُذُنَيْه[٤].

ـ وأغني الناس: مَنْ اسْتَشْعَر اليأس، وأبدى التُّجَمُّلَ للناس، واسْتَكْثَر النِّعَم، ولم يسخط على القِسَم.

ـ وأشْقَى الناس: مَنْ حَسَدَ على النِّعَم، وتَسَخَّطَ على القِسَم، واسْتَشْعَر النَّدَم على فَوْتِ ما لم يُحْتَمْ.

ـ وأنْعَمُ الناس عَيْشاً: مَنْ تَحَلَّى بالعَفاف، ورَضِيَ بالكفاف، وتجاوز ما يَخافُ إلى ما لا يخاف.

ـ وأحْكَمُ الناس: مَنْ صَمَتَ فادَّكَر، أو نَظَرَ فاعْتَبر، أو وُعِظ فازْدَجَر».

فأجزل الملك الحميري العطاء لِحُمَمَة بن رافع، وأمر بتدوين حكمته

---

(١) الرَّثْيَة: وجع المفاصل واليدين والرجلين، فقوله: (ذي الرثية العديم: أي المريض الذي ليس معه مال). و(ذو الخَلَّة: ذو الحاجة).

(٢) كنع: قال أبو علي القالي (كَنَع: تَقَبَّضَ، يقال: قد تكنّع جلده إذا تَقَبَّض). وكلمة: كنع، تعني أيضاً ابتعد، يريد تباعد عن الأصحاب والرعية.

(٣) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ جـ٢ ص٢٧٧ ـ ٢٧٩.

(٤) يقال: نبذ الشيء دبر أذنيه، إذا لم يلتفت إليه.

وكلامه، فعاد حممة بن رافع إلى منطقة دوس في السَراة بأعالي اليمن، وكان قد بلغ من الكبر عتياً، فمات في أواخر العصر الحميري.

* * *

عمرو بن حُمَمَة . . ذو الحُكْم

وكان عمرو بن حممه بن رافع الدوسي أكثر من أبيه حكمة وعلماً، فأجمعت قبيلة دوس على اختياره حاكماً ورئيساً لقبيلة دوس، ربما قبل الإسلام بزهاء خمسين سنه، واشتهر عمرو بن حُمَمة بالحكمة والمعرفة والعدل في القضاء بين الخصوم، فكان الناس يقصدونه من أرجاء اليمن والجزيرة العربية فيحتكمون إليه وينقادون لحكمه، وقيل له ذو الحكم لأن حُكْمه كان لا يُرَد، وكان المتخاصمون يقبلون بحكمه فيما يقع بينهم من اختلاف، وفي ذلك قال عَتِيك بن قيس في مرثيته لعمرو بن حممة:

وَيَنْقادُ ذو البأوِ الأَبِيُّ لِحُكمه ... فيَرْتَدُّ قَسْراً وَهْو جَمُّ الدَّغاوِلِ

وقال حاطب بن قيس في مرثيته إياه:

وقُد كُنتَ تُمْضِي الحكم غير مُهَلِّل ... إذا غال في القول الأَبَلُّ الغَشَمْشَمُ

وجاء في ترجمة عمرو بن حممة بكتاب الإصابة إنه (كان أحد حكام العرب في الجاهلية) وقال ابن عباس: (كان عمرو بن حممة يقضي بين العرب).

* * *

لقد عاش عمرو بن حممة عمراً طويلاً، وفي ذلك قال المرزباني إنه (كان أحد حكام العرب في الجاهلية، وكان مُعمّراً، يقال إنه عاش ثلثمائة وتسعين سنة) وقال الأصفهاني (كان عمرو بن حممة حاكماً على دوس ثلثمائة سنة، وإليه يُنْسَبُ الصنم ـ ذي الكفين ـ) وجاء في رواية عن ابن عباس بكتاب الإصابة إنه (قَضَى بين العرب ثلاثمائة سنه فكبُر، فكان إذا غَفَل قُرع له العصا). ونرى أن أصل ذلك هو (ثلاث ومائة سنة) فوقع تصحيف أو خطأ فقيل: (ثلاثمائة سنة)، وقد جاء ذلك القول في الأصل من بيت شعر لعمرو بن حممة شاعت روايته بلفظ:

(ثلاث مئين من سنينٍ كواملِ ... وها أنا ذا: أرتجي مَرّ أربع)

فشاع الظن بأنه حكم ثلثمائة سنة وقال ذلك الشعر وهو يرتجي أن تمر عليه أربعمائة سنة، وعاش ثلثمائة وتسعين سنة، وذلك غير ممكن ولا بدّ أن أصل البيت هو (ثلاث ومئن من سنين كوامل) ـ أي ١٠٣ سنة ـ ويرتجي أن تمر السنة الرابعة بعد المائة، ومات وهو ابن تسع ومائة سنة، وقد قال في ذلك الشعر وهو ابن ثلاث ومائة سنة:

كبرتُ وطال العمر منّي كأنني ... سَليمُ أفاعٍ ليلهُ غيرُ مُودعِ

وما السقم أبلاني ولكن تتابعت ... عليّ سُنونُ مِنْ مصيفٍ ومربعِ
(ثلاث ومئنٍ) من سنينٍ كواملٍ ... وها أنا ذا: أرتجي مَرّ أربعِ
فأصبحتُ بين الفخ والعش نادباً ... إذا رام تطياراً يُقال له: قعِ
أُخَبِّرُ أخبار القرون التي مَضَتْ ... ولا بدّ يوماً أن أطار لمصرعي[1]

وقد قال عمرو بن حممة ذلك الشعر بعد البعثة النبوية بنحو ثلاث سنوات لأنه أدرك الإسلام، وكان ما يزال على قيد الحياة حين أسلم الطفيل بن عمرو في مكة وعاد إلى منطقة دوس وأخذ يدعو إلى الإسلام فلم يسلم إلا أبو هريرة، ثم رجع الطفيل إلى رسول الله ﷺ وأخبره بأمر دوس، فقال: «**اللهم أهد دوساً وائت بهم مسلمين**» وقال للطفيل: (ارجع إلى قومك، فادعهُمْ، وارفق بهم). فعاد الطفيل وأخذ يدعو بالحكمة والرفق والموعظة الحسنة، فكان من أوائل من استجاب وآمن جندب بن عمرو بن حممة، ويمكن إدراك أن عمرو بن حممة أسلم آنذاك وهو شيخ عجوز، وقد ذكره العسقلاني في القسم الأول من الصحابة وقال: (ذكر أبو بكر بن دريد إنه وفَدَ على النبي ﷺ، وذكر غيره إنه مات في الجاهلية)، ولكن التعارض يزول بمعرفة أن الطفيل وفد إلى رسول الله ﷺ بمكة ـ مرة ثالثة ـ بعد انتشار الإسلام في دوس فيمكن أن يكون ذلك هو وقت وفادة عمرو بن حممة وكان عجوزاً ـ ربما ابن سبع ومائة سنة ـ ثم رجع إلى حاضرة دوس فمات وهو ابن تسع ومائة سنة وذلك قبل الهجرة النبوية إلى يثرب بنحو سنة، ويتفق ذلك مع القول بأنه مات في الجاهلية لأن فترة ما قبل الهجرة تُعتبر من فترةِ الجاهلية في التصنيف العام.

* * *

وكان عمرو بن حممة هو الذي استحدث عبادة الصنم (ذي الكفين) في دوس، وهو الذي صَنَعَهُ وجعله معبوداً لدوس، وكان ذلك بعد مولد الطفيل بن عمرو، بدليل قول الطفيل ـ فيما بعد ـ (يا ذا الكفين لسنا مِنْ عبادكا. ميلادنا أقدم من ميلادكا) مما يشير إلى أن عمرو بن حُممة قام باستحداث ذي الكفين وجعله معبوداً لدوس قبل البعثة النبوية بنحو عشرين سنة، وكان لذلك دلالة سياسية، فقد كانت مناطق دوس والسَرَاة بأعالي اليمن وسائر أرجاء اليمن الطبيعية مشمولة بسلطة الدولة الحميرية في العصور السابقة ثم في عهد الملك سيف بن ذي يزن الذي حكم عشرين سنة[2] من سنة (٥٧١ ـ ٥٩٠م) وكان عمرو بن حممة من أقيال اليمن

---

(١) معجم الشعراء للمرزباني ـ الإصابة للعسقلاني ـ ص
(٢) شرح الدامغة ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٥٤١.

وحاكماً لدوس ويتحاكم إليه العرب في ذلك العهد، فلما مات سيف بن ذي يزن وسيطر الفرس المجوس على الحكم في صنعاء وغيرها وتفككت الدولة، إستقلّ أغلب أذاود وزعماء مناطق وقبائل اليمن بحكم مناطقهم، وكان من مظاهر استقلال القبيلة عن غيرها من القبائل والمناطق أن يكون لها معبودها الخاص فاستحدث عمرو بن حممة عبادة الصنم (ذي الكفين) وجعله معبود قبيلة ومنطقة دوس تعبيراً عن تلك الاستقلالية لدوس وخاصة عن قبيلتي بجيلة وخثعم اليمانية ومعبودها (ذي الخلصة) بأرض السَرَاة التي فيها كانت منطقة دوس، وإلى زعيمها عمرو بن حُممة ـ ذي الحكم ـ كان المُتخَاصمون من أرجاء الجزيرة العربية يتحاكمون، ولحكمه وقضائه ينقادون.

* * *

ولما كَبُرَ عمرو بن حُمَمَة أخذ يَذْهلُ أو يَغْفَلُ ويَشردُ تفكيره في بعض الأحيان وربما يؤدي ذلك إلى أنه يخطئ في الحكم أو يوشك أن يخطئ، فقد تحاكم إليه ذات مرة بعض العرب فأخطأ في بعض حكومته فنبهته ابنته إلى ذلك، قال أبو رياش: (وكان عمرو بن حممة قد أسَنّ وتغير، فقالت له ابنته: إنك قد صرت تَهِمُ ـ على الغلط ـ في حكمك. فقال لابنته: إذا رأيت ذلك فاقرعي لي العصا، فكان إذا قُرِعت له العصا ثاب إليه حلمه فأصاب في حكمه)، فضرب العرب به المثل.

قال المرزباني: «ضربت به العربُ المثل في قرع العصا لأنه بعد أن كبر صار يذهل، فاتخذ له من يوقظه فيقرع العصا، فيرجع إليه فهمه»[١] وكان جندب بن عمرو بن حممة هو الذي يقرع له العصا غالباً. وجاء في ترجمة جندب بكتاب الإصابة إنه: «كان أبوه من حكام العرب. قال ابن دريد: حدّثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن الشرقي وعن مجالد عن الشعبي قال: كُنّا عند ابن عباس وهو في ضفة زمزم يُفتي الناس، إذْ قام إليه أعرابي فقال: أفتيتهم فأفْتِنَا. قال: هات. قال: ما معنى قول الشاعر:

لذي الحُكم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العصا   وما عُلِّم الإنسانُ إلا لِيَعْلَمَا

فقال ابن عباس: «ذاك عمرو بن حُمَمَة الدوسي، قضى بين العرب ثلاث مائة سنة، فكبُر، فكان إذا غَفَل قُرع له العصا». وقد وقع تصحيف في قوله: (ثلاث مائة سنة) وإنما هو (ثلاث ومائة سنة)، وقد أكد ابن عباس في جوابه أن ذا الحكم الذي قيل فيه ذلك الشعر هو عمرو بن حُممة الدوسي. ونذكر هنا أن الشعر

---

(١) معجم الشعراء للمرزباني ـ الإصابة للعسقلاني ـ ص

للمتلمس العبدي الجاهلي معاصر النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وكان المُتلمس قد وقع في خطاء، فضرب المثل بعمرو بن حممه ذي الحُكم، الذي كان أحكم وأعلم وأقضى العرب في ذلك الزمان ومع ذلك كان يَذهلُ ويغفل فيخطئ فَتُقْرَعُ له العصا فَيُصِيب، فقال المتلمس معتذراً عن الخطأ الذي وقع فيه وضارباً المثل بذي الحكم عمرو بن حُممة الدوسي:

لذي الحكم قبل اليوم ما تُقْرَع العصا ... وما عُلِّم الإنسانُ إلا لِيَعْلَمَا
وما كنتُ إلا مثل قاطع كفّه ... بكفّ له أخرى فأصبح أجذمَا

وقد أمر النعمان بن المنذر عامله على البحرين بقتل المتلمس فقتله بطريقة مذكورة في كتب التراث، ثم مات النعمان بن المنذر مقتولاً سنة ٦٠٢ ميلادية، وذلك قبل البعثة النبوية بثمان سنوات وكان عمرو بن حممة آنذاك ابن ٩٢ سنة تقريباً.

وكان من شعراء تلك الفترة الحارث بن وعلة الجَرْمي القضاعي الحميري، وكانت عشيرة جَرْم تسكن منطقة السراة بأعالي اليمن، فوقعت فتنة بين جرم وبين قبيلة أخرى، فقيل أن جَرْماً لم تتصرف بحكمه، فقال الحارث بن وعلة:

وزَعَمْتُمُ أن لا حلوم لنا؟ ... إن العصا قُرعت لذي الحُكْم

يريد أن الذين قالوا ذلك كان عليهم تنبيه جَرْم فقد قُرعت العصا لذي الحكَم عمرو بن حممة؛ وقد شهد الحارث بن وعلة موقعة يوم الكُلاّب المشهورة في الجاهلية، وكانت في أول البعثة النبوية، وكان عمرو بن حممة قد بلغ عمره مائة سنة، وأصبح قرع العصا لذي الحُكْم مثلاً سائراً عند العرب منذ الجاهلية وفي الإسلام، ومن ذلك قول الفرزدق:

فإن كنتُ أستأني حلوم مُجَاشِعٍ ... فإن العصا كانت لذي الحُكْم تُقرع

فكان ذلك المثل يُضرب للمرء عند نسيانه وعند غير ذلك من مقاصد ذلك المثل.

* * *

وقد أدرك عمرو بن حممة الإسلام، فأسلم وهو بمنطقة دوس باليمن على يد الطفيل بن عمرو الدوسي، ثم وَفَد إلى رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة النبوية إلى يثرب، وكان عمرو بن حممة آنذاك شيخاً عجوزاً ـ ربما بلغ عمره مائة وسبعة من السنين ـ فرزقه الله حسن الخاتمة بإسلامه ووفادته إلى رسول الله ﷺ ورؤيته وصحبته لرسول الله ﷺ ثم عاد إلى منطقة حاضرة دوس فمات بها وهو ابن تسع ومائة سنة، وجاء في رواية ابن عباس بالإصابة أنه: «لما حضره الموت اجتمع إليه قومه فأوصاهم وصية حسنة»، وكانت وفاته قبل الهجرة النبوية إلى يثرب.

وكان ثلاثة من رجالات الأوس والخزرج قد أقبلوا من يثرب قاصدين عمرو بن حممة فلما وصلوا إلى حاضرة دوس باليمن وجدوه قد مات، فتوجهوا إلى قبره، وعَقَروا عدداً من الإبل فوق قبره، وقال كلٌّ منهم قصيدة، وقد ذكر أبو علي القالي عن أبي بكر بن دريد أنهم «الهِدْم بن امرئ القيس بن الحارث بن زيد، أبو كلثوم بن الهدم الذي نزل عليه النبي ﷺ ـ لما هاجر إلى يثرب ـ وعتيك بن قيس بن هِيْشة.. وحاطب بن قيس بن هَيْشة، فَعَقَروا رَواحِلَهم على قبر عمرو بن حممة، وقام الهِدم بن امرئ القيس[1] فقال:

لَقد ضَمَّتِ الأثْراءُ منك مُرَزَّاءً ... عَظِيمَ رَماد النار مُشْتَرَكَ القِدْرِ
حليماً إذا ما الحِلْم كان حَزَامةً ... وَقُوراً إذا كان الوقوفُ على الجَمْرِ
إذا قُلتَ لم تترك مقالاً لقائلٍ ... وإن صُلْتَ كنتَ الليث يَحْمِي حِمَى الأَجْرِ

.. وقام عَتِيك بن قيس[2] فقال:

بِرَغم العُلَىٰ والجُود والمَجْدِ والنَّدىٰ ... طَواكَ الرَّدَىٰ يا خَيْرَ حَافٍ ونَاعِلِ
لَقدْ غال صَرْفُ الدهر منك مُرَزَّاءً ... نَهُوضاً بَأعباءِ الأمورِ الأثاقِلِ
يَضُمُّ العُفَاةَ الطارِقِين فِنَاؤُه ... كما ضَمَّ أُمُّ الرأسِ شَعْبَ القبائِلِ
ويَسْرُو دُجَى الهَيْجَا مَضَاءُ عَزِيمةٍ ... كما كَشَفَ الصُّبْحُ إطِّراقَ الغَياطِلِ[3]
ويُسْتَهْزَم الجيشُ العَرَمْرَم باسمه ... وإن كان جَرَّاراً كثير الصَّوَاهِلِ
وَيَنْقَادُ ذو البَأوِ الأَبِيُّ لِحُكْمِهِ ... فيَرْتَدُّ قَسْراً وَهْوَ جَمُّ الدَّغاوِلِ[4]
وَيَمْضِي إذا ما الحربُ مَدَّ رواقَه ... على الرَّوْع وارْفَضَّتْ صُدُور العواملِ
فإمَّا تُصِبْنَا الحادثات بِنَكْبَةٍ ... رَمَتْكَ بها إحدى الدواهي الضَّآبلِ[4]
فلا تَبْعَدَنْ إن الحُتُوفَ مَوَارِدُ ... وكلُّ فتًى من صَرْفِها غيرُ وائلِ

---

(١) هو ابن كلثوم بن الهدم بن امرئ القيس بن الحرث بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك بن عوف بن مالك الأوسي الأنصاري. جاء في ترجمته بالإصابة (أن النبي ﷺ نزل عليه بقباء أول ما قدم المدينة) ـ جـ٣ ص٣٠٥.

(٢) هو الصحابي عتيك بن قيس بن هيشة بن الحرث بن أمية بن معاوية الأنصاري، كما في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة وجاء في ترجمته أنه (شهد أُحُداً ـ موقعة أحد ـ) [جـ٢ ص٤٥٨].

(٣) الغياطل: جمع غيطلة، قال أبو علي القالي (والغَيْطَلة: الظُّلمة.. والغيطلة: الشجر المُلتَف.. والتفاف الناس واجتماعهم).

(٤) الدغاول: قال أبو علي القالي (الدواغل: هي الدواهي، ولم أسمع له بواحد). وقال: (الضَّآبل: الدواهي، واحدها ضِئْبِل).

وقام حاطب بن قيس[١] فقال:

سَلامٌ على القبر الذي ضَمَّ أَعْظُماً تَحُومُ المَعالي حَوْلَه فتُسَلِّمُ
سلامٌ عليه كلما ذَرَّ شارقٌ[٢] وما امْتَدَّ قِطْعٌ من دُجَى الليل مُظْلِمُ
فيا قَبْرَ عمرو جَادَ أرْضاً تَعَطَّفَتْ عليك مُلِثٌّ دائمُ القَطْر مُرْزِمُ[٢]
تَضَمَّنْتَ جسماً طاب حَيّاً ومَيِّتاً فأنت بما ضُمِّنْتَ في الأرض مُعْلَمُ
فلو نَطَقَتْ أرضٌ لقال تُرابُها إلى قبر عمرو الأزد حَلَّ التَّكَرُّمُ
إلى مَرْمَسٍ قد حَلَّ بين ترابِه وأحجارِه بَذْرٌ وأضبَطُ ضَيْغَمُ
فلو وأَلَتْ من سطْوة الموت مُهْجَةٌ لكُنْتَ، ولكنَّ الرَّدى لا يُثَمْثِمُ[٣]
فلا يُبْعِدَنْك الله حَيّاً ومَيِّتاً فقد كنتَ نُورَ الخَطْبِ، والخَطْبُ مُظْلِمُ
وقد كنتَ تُمْضِي الحُكْمَ غير مُهَلل إذا غال في القول الأَبَلُّ الغَشَمْشَمُ[٤]
لَعَمْرُ الذي حُطَّتْ إليه على الوَنَا حَدَابِيرُ عُوجُ نَيُّها مُتَهَمِّمُ[٤]
لقد هَدَّم العَلْيَاءَ مَوْتُك جانباً وكان قديماً رُكْنُها لا يُهَدَّمُ»[٥]

فَشَكَرَهُمْ جندب بن عمرو بن حممة، ومضوا عائدين إلى يثرب.

* * *

جُنْدُب بن عمرو بن حُمَمَة

وكان جندب بن عمرو بن حممة يشترك مع أبيه في رئاسة قبيلة ومنطقة دوس في الجاهلية، وبما أن أباه كان كبير السن فإن الرئاسة الفعلية كانت لجندب منذ أخذت العصا تُقْرعُ لذي الحُكْم.

ولما بدأ الطفيل بن عمرو يدعو إلى الإسلام في قبيلة دوس، ولم يستجب له

---

(١) جاء في الأمالي أنه (حاطب بن قيس الذي قامت بسببه حرب حاطب). ويبدو أن التباساً وقع بسبب تشابه الاسم، لأن حرب حاطب قديمة، والذي أدرك الإسلام وصحب رسول الله ﷺ حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك الأوسي الأنصاري، شهد بدراً مع رسول الله ﷺ ـ الاستيعاب ص٢٩٠ ـ الإصابة ـ جـ١ ص٣٠٠.

(٢) الشارق: الشمس، يريد شروقها وأشعتها. وقوله: (مُلِثٌ دائم القَطْر) يعني المطر الغزير.

(٣) قال أبو علي القالي: (وأَلَت: نَجَتْ. ويُثَمثم: يبطئ، يحرك ويدفع).

(٤) قال أبو علي القالي: (المهلّل: المتوقِّف. يقال: حَمَل عليه فما هَلَّل. والأَبَلُّ: الظلوم. والغشمشم: الذي يركب رأسه لا يثنيه شيء عما يحب ويهوى. والحدابير: جمع حدابر وهي الظهر ـ أي الجمال ـ والنَّيُّ: الشحم. والمُتَهَمِّ: الذائب.

(٥) الأمالي لأبي علي القالي ـ جـ٢ ص١٤٣ ـ ١٤٥.

إلا أبو هريرة، كان لجندب موقفاً متميزاً فقد ذكر العسقلاني عن أبي هريرة قال: (كان جندب بن عمرو بن حممة يقول في الجاهلية: إن للخلق خالقاً لكني لا أدري مَنْ هو). فإن هذا الموقف والقول يعني عدم القناعة بعبادة الصنم (ذي الكفين) والتسليم بوجود خالق واحد للخلق. ثم لما رجع الطفيل إلى رسول الله ﷺ بمكة وأخبره بأمر دوس وعدم استجابتها للإسلام وقال له رسول الله ﷺ: «**ارجع إلى قومك، فادعهم، وأرفق بهم**»، أخذ الطفيل يدعوهم بالحكمة والموعظة والرفق، فكان جندب من أوائل من استجاب وأسلم.

وقد دمجت الرواية بين إسلام جندب في منطقته باليمن، قبل الهجرة النبوية، وبين مسيرته إلى رسول الله ﷺ في يثرب على رأس خمسة وسبعين رجلاً من قومه وعشيرته المؤمنين في مطلع سنة ٧ هجرية، حيث كان كما جاء في الإصابة «لما سمع جندب بخبر النبي ﷺ خرج ومعه خمسة وسبعون رجلاً من قومه فأسلم وأسلموا»[١].

فالصواب أن جندب كان قد سمع بخبر النبي ﷺ ودعوة دين الإسلام منذ أخذ الطفيل يدعو إلى الإسلام والنبي ﷺ بمكة، لأن جندب هو زعيم دوس التي كان الطفيل يدعوها إلى الإسلام، فأسلم جندب وفشا الإسلام وأخذ ينمو وينتشر ـ تدريجياً ـ حتى دخل كل بيت في دوس.

ثم في مطلع سنة ٧ هجرية أخذت مواكب أهل اليمن تنطلق إلى رسول الله ﷺ وتطلع إلى يثرب كأنها السحاب، وكان من أوائلها موكبان من دوس، **أحدهما**: موكب الطفيل الذي وصفه خالد محمد خالد قائلاً: «بينما رسول الله ﷺ في خيبر إذا موكب حافل ينتظم ثمانين أسرة من دوس قد أقبلوا على الرسول مهللين ومُكبرين»، وقال القرطبي: «كان مع الطفيل ثمانين أو تسعين أهل بيت من دوس». **وثانيهما**: موكب جندب بن عمرو بن حممة وكان يضم خمسة وسبعين رجلاً من دوس فوصلوا إلى رسول الله ﷺ مهللين مكبرين، قال العسقلاني: «قال أبو هريرة، فكان جندب يُقدمهم رجلاً رجلاً» يُسلمون على رسول الله ﷺ ويأخذون أماكنهم في الصفوف الطاهرة خلف رسول الله الأمين.

* * *

ولما تم فتح مكة في رمضان ٨هـ عاد الطفيل إلى منطقة دوس وأحرق الصنم ذي الكفين ثم رجع إلى رسول الله ﷺ بيثرب، بينما مكث جندب بن عمرو رئيساً لقبيلة دوس باليمن إلى أن استنفر أبي بكر الصديق أهل اليمن للجهاد وفتح الشام

(١) الإصابة ـ ترجمة الطفيل بن عمرو الدوسي ـ جـ٢ ص٢٢٦.

في أوخر سنة ١٢هـ، فكان جندب في أوائل أقيال ومواكب أهل اليمن الذين نفروا إلى المدينة المنورة استجابة لقول الله تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١].

وكان مع جندب وفرسان دوس الذين وصلوا معه إلى المدينة المنورة أهاليهم ـ كغيرهم من مستنفري اليمن ـ وأثناء بقاء جندب في المدينة ـ قُبيل المسير إلى الشام في صفر ١٣هـ ـ رأى جندب أن لا يصطحب معه ابنته (أم أبان) إلى ميادين الجهاد في الشام حيث قد يكون النصر وقد يستشهد، قال العسقلاني: «وخَلَّف جندب بن عمرو ابنته أم أبان عند عمر بن الخطاب، وقال له: إن وجدت لها كفؤاً فزوجها ولو بشراك نعله، وإلا فأمسكها حتى تُلحقها بدار قومها»[١]، فقوله لعمر بن الخطاب: إن وجدت لها كفؤاً فزوجها.. إلخ. يعني إذا استشهد في الشام.

وانطلق جندب مع الصحابة والفرسان والجنود الذين انطلقوا إلى الشام ـ في صفر ١٣هـ ـ حاملين رسالة الإسلام ومجاهدين جحافل الإمبراطورية الرومانية وصولاً إلى موقعة اليرموك حيث كان الجيش العربي الإسلامي (٣٦٠٠٠) مقاتل، تم تقسيمهم، إلى (٣٦) كردوساً، كل كردوس ألف مقاتل، ويقود كل كردوس أمير قائد من الصحابة، فكان من القادة اليمانيين للكراديس باليرموك الصحابة (شرحبيل بن حسنة الكندي على كردوس، والمقداد بن عمرو البهراني على كردوس، ودَحْية بن خليفة الكلبي على كردوس، وجرير بن عبد الله البجلي على كردوس، والسمط بن الأسود الكندي على كردوس، ومعاوية بن حُديج السكوني على كردوس، وجُنْدب بن عمرو بن حممة الدوسي على كردوس، وذو الكلاع الحميري على كردوس، وحوشب ذو ظليم الحميري على كردوس، وعمرو بن معدي كرب على كردوس، وامرؤ القيس بن عابس على كردوس، ومسروق العكي على كردوس، ويزيد بن يحنس على كردوس..) وكان قيس بن مكشوح المرادي قائد فرقة الخيل من وراء الميسرة.

والمهم هنا أنه «كان جندب بن عمرو بن حممة على كردوس في موقعة اليرموك»[٢] وقد تتوجت موقعة اليرموك بالنصر المبين في أول خلافة عمر بن الخطاب، وكان لجندب بن عمرو ولفرسان دوس بقيادته إسهامهم في تحقيق ذلك النصر.

وتواصلت معارك فتوح الشام، وفي موقعة أجنادين الثانية استشهد جندب بن

(١) الإصابة ـ ترجمة جندب بن عمرو بن حممة ـ جـ١ ص٢٤٩.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ ابن جرير الطبري ـ جـ٤ ص٢٤.

عمرو بن حُممة رضي الله عنه، وفي ذلك جاء في ترجمته بالإصابة أنه كان «فيمن قُتل يوم أجنادين من الصحابة».

وكانت ابنته (أم أبان) عند عمر بن الخطاب منذ استودعها عمرو بن حممة لديه وقال له: (إن وجدت لها كفؤاً فزوجها ولو بشراك نعله، وإلا فأمسكها حتى تلحقها بدار قومها)، وقد التزم عمر بن الخطاب بوصية الشهيد بأن لا يزوج ابنته إلا بِمَنْ هو كفؤ لها فهي حفيدة ذي الحُكم عمرو بن حُمَمة، قال ابن حجر العسقلاني: (فكانت عند عمر تدعوه أباها إلى أن زوجها بعثمان بن عفان، فولدت له عمرو بن عثمان في عهد عمر بن الخطاب) رضوان الله عليه[١].

---

(١) وقد تزوج «حبيب بن عمرو بن حممة الدوسي بفارعة بنت عتبة بن ربيعة أخت هند وخالة ومعاوية بن أبي سفيان» ـ جـ٤ ص٣٧٦ الإصابة.

٣

أبو عامر الأشعري.. الداهية الأربد

من كبار أوائل الصحابة السابقين إلى الإسلام هو أبو عامر عُبيد بن سليم الأشعري، فقد وصفه ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب قائلاً:

«كان أبو عامر هذا من كبار الصحابة»[١].

وقال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«أبو عامر الأشعري، عم أبي موسى الأشعري، اسمه عبيد بن سُليم بن حَضّار.. ذكره ابن قتيبة فيمن هاجر إلى الحبشة، فكأنَّه قَدم قديماً فأسْلَم.. وثبت ذكره في الصحيحين»[٢].

وكذلك قال القرطبي: «أبو عامر الأشعري، عم أبي موسى، اسمه عبيد بن سُليم بن حَضّار بن حرب، من ولد الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سباء»[١].

* * *

والأشعر جد قبيلة الأشاعر هو: نَبْت الأشعر بن أدد بن زيد بن عمرو بن عَريب بن زيد بن كهلان بن سباء بن يشجب بن يعرب بن قحطان[٣]، ويقال: إن الأشعر اسمه: نَبْتْ بن أدد، ولُقِب بالأشعر لأنه وُلِد وكله شعر[٣] أو لأنه وُلد أشعر الجسم[٤] ولكن نقوش المسند اليمنية القديمة تعطينا اليقين بأن أسماء أقيال وملوك اليمن كانت تتكون من كلمتين اسمُ ونعت، مثل الملك (شعرام أوتر) والملك (شمر يرعش) وغيرهما، وبالتالي يمكن القول أن اسم جد الأشاعر كان يتكون من كلمتين (نبت أشعر) وهو اسم ونعت كغيره من أسماء أقيال وزعماء اليمن القديم.

وكانت الأشاعر تسكن منطقة تهامة اليمن ـ بمحافظة الحديدة حالياً ـ وقد

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ جـ٤ ص١٣٥.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ جـ٤ ص١٢٤.
(٣) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ١٠ ص٣٠.
(٤) المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ـ لنجم الدين عمارة ـ تحقيق القاضي محمد علي الأكوع ـ ص٤٤.

وصفها المؤرخ القاضي محمد بن علي الأكوع قائلاً: «الأشاعر: قبيلة يمنية قوية الشوكة والشكيمة مرهوبة الجانب، ومنازلها ما بين سِيف البحر ـ أي ساحل البحر الأحمر ـ غرباً إلى حزاز الجبال شرقاً، وفيما بين شمير (مقبنة) جنوباً إلى بيت الفقيه شمالاً، ومن مُدنهم: «زبيد وحيس وبيت الفقيه. وقبائلهم الجماهر والرَكْب.. والمعازبة والقراشية»[1].

ومن عشيرة الجماهر كان أبو عامر الأشعري، عم أبي موسى الأشعري، وهو أبو عامر عبيد بن سُليم بن حضّار بن حرب بن عامر بن غنْم بن بكر بن عامر بن عذب بن وائل بن ناجية بن جماهر بن الأشعر الأشعري. وأبو موسى هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن غنم بن بكر بن عامر بن عذب بن وائل بن ناجية بن جماهر الأشعري. وكان والد أبي موسى ـ وهو قيس بن سليم ـ من وجهاء قبيلة الأشاعر وكان تاجراً يمتد نشاطه التجاري إلى مكة وإلى البحر، وكانت لهم سفينة كبيرة يمتد نشاطها إلى بلاد النجاشي في ساحل الحبشة.

* * *

لقد كان أبو عامر وأبو موسى من السابقين إلى الإسلام بعد البعثة النبوية بأمد يسير في مكة المكرمة، ولذلك كما ذكر العسقلاني فقد «ذكره ابن قتيبة فيمن هاجر إلى الحبشة، فكأنَّه قدم قديماً فأسلم». وكان قدومه مع أبي موسى فقد ذكر القرطبي: أن أبا موسى قدم مكة في جماعة من الأشعريين، فأسلم، وهاجر إلى أرض الحبشة.. وقال الأستاذ خالد محمد خالد أن أبا موسى: «غادر اليمن بلده ووطنه إلى مكة فَوْرَ سماعه برسول ظهر هناك يهتف بالتوحيد ويدعو إلى الله على بصيرة، ويأمر بمكارم الأخلاق.. وفي مكة، جلس بين يدي رسول الله ﷺ وتَلقّى عنه الهدى واليقين.. وعاد إلى بلاده يحمل كلمة الله»[2].

وقد كان أبو عامر مع أبي موسى في مسيرهما إلى مكة، وكان مسيرهما لأمر يتصل بالتجارة غالباً، وكانا قد سمعا أيضاً بأمر ظهور نبيّ يدعو إلى الله على بصيرة ويأمر بمكارم الأخلاق، فالتقيا برسول الله ﷺ في مكة وسمعا منه القرآن وآمنا بدين التوحيد الحنيف.

وقد ذكر القرطبي عن الإمام الواقدي: أن أبا موسى قدم مكة فحالف سعيد بن العاص بن أمية، وكان قدومه في جماعة من الأشعريين، فأسلم، وهاجر

(١) المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ـ لنجم الدين عمارة ـ تحقيق القاضي محمد علي الأكوع ـ ص٤٤.
(٢) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٤.

إلى أرض الحبشة. . وقال ابن إسحاق أن أبا موسى لما قدم حالف آل عتبة بن ربيعة، وذكره فيمن هاجر إلى أرض الحبشة، وقال طائفة من أهل العلم أن أبا موسى لما قدم مكة وحالف سعيد بن العاص انصرف إلى بلاد قومه ولم يهاجر إلى أرض الحبشة. قال القرطبي: والصحيح أن أبا موسى رجع بعد قدومه مكة ومحالفته من حالف من بني عبد شمس إلى بلاد قومه[١]. بينما ذكر أبو قتيبة أن أبا عامر الأشعري هاجر إلى الحبشة.

ويمكن القول على ضوء ذلك أن أبا عامر الأشعري وأبا موسى لما قدما مكة وآمنا برسول الله ﷺ مكثا فترة بمكة، وكانت قريش تؤذي المسلمين فأذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر معهم أبو عامر الأشعري، وكذلك أبو موسى لأن أبا موسى وإخوته كانت معهم سفينة ينقلون تجارتهم بها إلى ساحل الحبشة وغيرها من السواحل، وبعد وصول المهاجرين إلى الحبشة عاد أبو موسى إلى اليمن فأخذ يدعو إلى الإسلام بمنطقة الأشاعر في اليمن حيث أخذ الإسلام ينتشر منذ ما قبل الهجرة النبوية إلى يثرب بعدة سنوات.

وكان أبو عامر الأشعري والمهاجرون في الحبشة وأبو موسى الأشعري والذين آمنوا من الأشاعر وغيرهم باليمن، يُتابعون أنباء رسول الله ﷺ والذين معهم من المسلمين في يثرب والحرب مع قريش والكفار منذ موقعة بدر ـ سنة ٢ هجرية ـ إلى صلح الحديبية ـ في ذي الحجة ٦ هجرية ـ والذي ترتب عليه تأمين الطريق إلى يثرب بحيث كما ذكر العسقلاني أن الأشعريين: «لما بلغتهم المهادنة أَمِنُوا، وطلبوا الوصول إلى رسول الله ﷺ»[٢]، وقد تزامن وصولهم إلى رسول الله ﷺ مع وصول جعفر بن أبي طالب والمهاجرين في الحبشة، وذلك على متن سفينة أبي موسى الأشعري وإخوته، ويبدو أن أبا موسى لما بلغه نباء صلح الحديبية والمهادنة، اصطحب إخوته والمؤمنين من الأشاعر وتوجهوا بسفينتهم إلى عمه أبي عامر وإلى جعفر بن أبي طالب والمهاجرين في الحبشة، ثم أتوا سوياً بسفينة أبي موسى أو بسفينتين إلى ساحل يثرب وقدموا إلى رسول الله ﷺ وهو بخيبر في صفر ٧ هجرية.

وفي ذلك أخرج البخاري عن أبي موسى قال: خرجنا من اليمن مهاجرين إلى النبي ﷺ أنا وإخوانٌ لي، أنا أصغرهم، في ٥٣ رجلاً من قومي، فركبنا سفينة ألقتنا إلى (أرض) النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه حتى

---

(١) الاستيعاب ـ ترجمة أبي موسى الأشعري ـ جـ٤ ص١٩.

(٢) فتح الباري ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٧ ص٣٩.

قَدِمْنا جميعاً فوافَقْنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر[١]. وجاء في كتاب الإصابة من طريق يزيد بن عبد الله بن أبي بردة عن أبي موسى قال: (خرجنا من اليمن في بضع وخمسين رجلاً من قومنا، ونحن ثلاثة إخوة موسى وأبو بردة وأبو رهم، فأخرجتنا سفيتنا إلى النجاشي. الحديث)[١]. وكذلك جاء في الاستيعاب وبقية الحديث: «فأخرجتنا سفينتنا إلى النجاشي بأرض الحبشة وعنده جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فأقبلنا جميعاً في سفينتنا إلى النبي ﷺ حين افتتح خيبر»[١]. وقيل في رواية بالاستيعاب: (قدم أبو موسى مع الأشعريين في سفينة، فألقتهم الريح إلى النجاشي بأرض الحبشة، فوافقوا خروج جعفر وأصحابه، فأتوا معهم، وقدمت السفينتان معاً، سفينة الأشعريين وسفينة جعفر وأصحابه على النبي ﷺ حين افتتح خيبر)[١] وربما كانت السفينة الثانية سفينة أبي عامر وكانت معه بالحبشة.

ويمكن القول أن مسير أبي موسى والذين معه بسفينتهم إلى أرض النجاشي بساحل الحبشة لم يكن من باب المصادفة، فقد كان أبو عامر الأشعري هناك مع جعفر والمهاجرين بالحبشة، وكان أبو عامر عم أبي موسى وكبير الأشاعر، فكان المسير إلى الحبشة مقصوداً، ثم توجهوا جميعاً من ساحل الحبشة إلى ساحل يثرب، حيث كما قال أبو موسى: «أقبلنا جميعاً في سفينتنا إلى النبي ﷺ حين افتتح خيبر» أو كما جاء في رواية الاستيعاب: «قدمت السفينتان معاً، سفينة الأشعريين وسفينة جعفر وأصحابه على النبيّ ﷺ حين افتتح خيبر» وذلك في محرم سنة ٧ للهجرة.

* * *

لقد كان قدوم وهجرة أبي عامر الأشعري وأبي موسى الأشعري والذين معهما من الأشعريين إلى رسول الله ﷺ في محرم سنة ٧ هجرية متزامناً مع قدوم المئات من المؤمنين من أهل اليمن بعد المهادنة في صلح الحديبية وصيرورة الطريق آمنة لمن يريد اللحاق برسول الله ﷺ في يثرب، وكان رسول الله ﷺ يذكر اليمن واليمانيين كثيراً منذ عودته من الحديبية إلى يثرب، وفي تلك الفترة وما تلاها، ومن ذلك:

ـ «أن رسول الله ﷺ قال: «**جاء الفتح وجاء أهل اليمن.. قوم رقيقة قلوبهم لينة طباعهم، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية**» أخرجه الطبراني والنسائي».

ـ «وفي الصحيحين عن أبي مسعود عقبة بن عامر البدري: أشار النبي ﷺ نحو اليمن، وقال: «**ألا أن الإيمان هاهنا**»».

---

(١) الإصابة ـ جـ٤ ص١٨ ـ الاستيعاب ـ جـ٤ ص١٩.

ـ «وفي الجامع الكبير للسيوطي عن سلمة بن نفيل أن النبي ﷺ قال: «**إني أجد نَفَس الرحمن من هاهنا، وأشار إلى اليمن**»».

ـ «وعن عمرو بن عنبسة أن رسول الله ﷺ قال:

«**خيار الرجال رجال أهل اليمن، والإيمان يمان، وأنا يمان**».

أخرجه أحمد والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد، وقال صاحب كنز العمال: رواه الطبراني من ثلاث طرق».

ـ وعن جبير بن مطعم قال، قال رسول الله ﷺ:

«**يطلع عليكم أهل اليمن كأنّهم السحاب، هُمْ خير أهل الأرض**».

أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني».

وما لبث أن أقبلت مواكب من أهل اليمن، طلعوا على يثرب وكأنهم السحاب، مواكب تتلوها مواكب، وكان من أوائلها موكب الطفيل بن عمرو ذي النور في ثمانين أو تسعين أهل بيت من دوس، وبينهم أبو هريرة راوية الإسلام، وموكب جندب بن عمرو بن حُممه في خمسة وسبعين رجلاً من قومه، وموكب أبي عامر الأشعري وأبي موسى الأشعري في نيف وخمسين رجلاً من الأشعريين، ومواكب ضماد بن ثعلبة، وقيس بن مالك الهمداني، وجرير بن عبد الله البجلي، وعفيف بن معدي كرب الكندي، وغيرهم من أوائل الصحابة اليمانيين السابقين إلى الإسلام، فأخذوا أماكنهم في صفوف أصحاب رسول الله ﷺ، وكان لأبي عامر مكانة عالية بين الصحابة وهي المكانة التي ذكرها القرطبي قائلاً: «كان أبو عامر هذا من كبار الصحابة». وقال خالد محمد خالد: «كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يضرب بالأشعريين المثل الأعلى لأصحابه، فيقول فيهم وعنهم:

«**إن الأشْعَريّين إذا أرْمَلُوا في غَزْوٍ، أوْ قَلَّ في أيديهم الطعام، جَمعوا ما عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بالسَّوِيَّة، فَهُم مِنّي، وأنا مِنْهُمْ**»»[١].

❊ ❊ ❊

وفي رمضان ٨ هـ كان أبو عامر وأبو موسى والأشعريون في جيش رسول الله ﷺ الذي انطلق لفتح مكة، وكان الأوس والخزرج الأنصار وغيرهم من اليمانيين يمثلون الغالبية العظمى في جيش رسول الله ﷺ حيث كانوا كما قال عبد الرحمن بن حسان الأنصاري:

وغزوة الفتح كانوا في سَريّته   يمشون كلهم مستأسِدٌ بَطَلُ

---

(١) رجال حول الرسول ـ ص٧٤٥.

فقد كان في جيش رسول الله ﷺ الأوس والخزرج الأنصار وفرسان قبيلة خزاعة اليمانية بقيادة بُديل بن ورقاء الخزاعي وفرسان الأشاعر بقيادة أبي عامر الأشعري وفرسان دوس بقيادة الطفيل بن عمرو ذي النور وفرسان بجيلة بقيادة جرير بن عبد الله البجلي وفرسان كندة بقيادة شرحبيل بن حسنة الكندي والمئات من الصحابة من قضاعة وكلب وبهراء ومذحج وغيرهم من رجالات وقبائل اليمن في جيش رسول الله ﷺ غداة فتح مكة في رمضان ٨هـ حيث أذعنت قريش لدين الإسلام، ثم سار رسول الله ﷺ من مكة لقتال هوازن وثقيف في غزوة حُنين ـ شوال ٨هـ ـ فلما انهزمت هوازن وثقيف تراجعت فرقة منهم وتحصنت في أوْطَاس، فبعث النبي ﷺ أبا عامر الأشعري لقتالهم.

* * *

غزوة أوْطاس بقيادة أبي عامر الأشعري (شوال ٨هـ)

قال الحافظ ابن كثير: «كان سبب غزوة أوطاس أن هوازن لما انهزمت ـ في حُنين ـ سارت فرقة منهم فعسكروا بمكان يُقال له أوطاس، فبعث إليهم رسول الله ﷺ سرية من أصحابه عليهم أبو عامر الأشعري، فقاتلوهم، فغلبوهم.. قال البخاري: لما فرغ رسول الله ﷺ من حُنين بعث أبا عامر الأشعري على جيش إلى أوطاس، فلقي دريد بن الصمّة فَقُتل دريد وهزم الله أصحابه»[(١)].

وأوْطاس ـ بفتح الهمزة وسكون الواو وبعدها طاء مهملة ـ قال ياقوت الحموي: (أوطاس: واد في ديار هوازن كانت فيه وقعة حنين). والظاهر أن (حنين) كانت في أول وادي هوازن وكانت (أوطاس) بأسفل وادي هوازن، فلما انهزموا في حنين، تراجعت فرقة من هوازن فتحصنوا في (أوطاس) فلحق بهم فلول المنهزمين من هوازن وثقيف فتحصنوا في (أوطاس) و(الطائف)، قال ابن هشام: «فبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجّه قِبَلَ أوطاس أبا عامر الأشعري»[(٢)].

فكان أبو عامر أميراً قائداً على جيش من أصحاب رسول الله ﷺ حيث كما ذكر ابن كثير «بعث رسول الله ﷺ سرية من أصحابه عليهم أبو عامر الأشعري»، وقال البخاري أن رسول الله ﷺ: (بعث أبا عامر الأشعري على جيش إلى أوطاس)، وكانت موقعة أوطاس ثلاث جولات بثلاثة أماكن من أوطاس، أو في ثلاثة أيام بمنطقة أوطاس.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٤ ص٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٢) السيرة النبوية ـ جـ٤ ص٨٧ و٨٩.

الموقعةُ الأولى بأوطاس: انتصر فيها أبو عامر الأشعري وجيشه على الكفار بقيادة دريد بن الصمّة، وفي ذلك ذكر البخاري أن أبا عامر (لقي دُريد بن الصمة فَقُتل دريد وهزم الله أصحابه). وقال ابن كثير: (أن رسول الله ﷺ بعث إليهم سرية من أصحابه عليهم أبو عامر، فقاتلوهم وغلبوهم). وقيل إن الكفار كانوا بقيادة ابن دريد فقتله أبو موسى الأشعري وقيل إن أبا موسى قتل دريداً في تلك المعركة، قال القرطبي: (وإنما كان ابن دريد لا دريد فقد ذكرنا قتل دريد يوم حنين في غير هذا الموضع). وسواء كان المقتول دريد بن الصمة أو ابن دريد فقد تتوجت موقعة أوطاس الأولى بالنصر.

الموقعة الثانية بأوطاس: وفيها قتل أبو عامر تسعة من المشركين مبارزة وكانوا، إخوة، وأفلت العاشر. وفي ذلك ذكر ابن هشام في السيرة النبوية وابن كثير في البداية والنهاية: «أن أبا عامر الأشعري لقي يوم أوطاس عشرة إخوة من المشركين، فحمل عليه أحدهم، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام، ويقول: اللهم اشهد عليه، فقتله أبو عامر، ثم حمل عليه الثاني فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه، فقتله. ثم جعلوا يحملون عليه وهو يقول ذلك حتى قتل تسعة وبقي العاشر فحمل على أبي عامر، وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه، فقال الرجل: اللهم لا تشهد عليّ، فكفّ عنه أبو عامر، فأفلت، فأسلم بعد، فحسن إسلامه، فكان النبي ﷺ إذا رآه قال: هذا شريد أبي عامر»اهـ.

موقعة أوطاس الثالثة: وهي الجولة الثالثة في غزوة اوطاس، وفيها هاجم أبو عامر والمسلمون بقيّة العدو في آخر معقل لهم بأوطاس، فترصد اثنان من المشركين لأبي عامر وهما العلاء بن حارث الجشمي وأوفى بن حارث الجشمي، فرمى العلاء بن حارث أبا عامراً بسهم مسموم في ركبته. وقيل رماه العلاء وأوفى بسهمين مسمومين، فلما أُصيب أبا عامر تولى قيادة المسلمين أبو موسى الأشعري، قال ابن كثير: (فولى المسلمون أبا موسى، فحمل عليهما، فقتلهما، فقال رجل من بني جشم يرثي العلاء وأوفى الجشميين:

إنّ الرزيّة قَتْلُ العلاء ... وأوفى جميعاً ولم يُسندا
هُما القاتلان أبا عامر ... وقد كان داهية أربدا
فلم يُرْ في الناس مِثْليهما ... أقلّ عثاراً وأرمى يدا

وجاء البيت الثاني في السيرة النبوية لابن هشام:

هُما القاتلانِ أبا عامرٍ ... وقد كان ذا هَبَّةٍ أَرْبَدَا

وقال في الهامش: «ذا هبّة: يريد سيفاً وهبة السيف ـ بفتح الهاء وتشديد الباء

ـ اهتزازه. والأربد: الذي فيه طرائق. ووقع في بعض نسخ السيرة (وقد كان داهية أربدا)» وكذلك هو في البداية والنهاية، فقد كان أبو عامر داهية أربداً على المشركين وكان يقال له الداهية الأربد.

استشهاد أبي عامر: فلما أصيب أبي عامر بالسهم المسموم في ركبته، أقبل إليه أبو موسى، وكان أبو موسى في ذلك الجيش، فقال له: يا عم من رماك، فأشار أبو عامر، وقال ذاك الذي رماني. فقصد له أبو موسى، فلما رآه ـ العلاء ـ ولى فلحق به وهو يقول: ألا تستحي، ألا تثبت، فكفّ. فالتحما بالسيف فاختلفا ضربتين بالسيف فقتله أبو موسى، ـ فأقبل أوفى بن حارث فحمل عليه أبو موسى فقتله ـ ثم رجع أبو موسى إلى أبي عامر وقال له: قتل اللَّهُ عدوك: قال: فانتزع هذا السهم، فنزعه أبو موسى فَنَزا مِنْهُ الماء. فقال أبو عامر: يا ابن أخي أقرئ رسول الله السلام وقُل له استغفر لي، واستخلف أبو عامر أبا موسى على الجيش، وما لبث أن مات أبو عامر، فولى المسلمون أبا موسى. قال ابن هشام: (فأخذ الراية أبو موسى الأشعري فقاتل الكفار، ففتح الله على يديه وهزمهم). فتتوجت غزوة أوطاس بالنصر والفتح بقيادة أبي موسى.

* * *

وعاد الجيش الإسلامي بقيادة أبي موسى إلى رسول الله ﷺ ـ بمكة المكرمة ـ وكان لواء القيادة بيد أبي موسى، «فلما رآه رسول الله ﷺ يحمل اللواء، قال: أبا موسى قُتِل أبا عامر؟ فقال أبو موسى: نعم يا رسول الله. وأخبره بما حدث وبما قال أبو عامر، فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال:

«اللَّهمّ اغفر لِعُبيدِ أبي عامر».

«اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك ـ أو من الناس ـ».

«اللهم اجعله فوق الأكثرين يوم القيامة»[1].

وكان استشهاد أبي عامر الأشعري رضي الله عنه في شوال من السنة الثامنة للهجرة[2].

---

(١) الإصابة للعسقلاني والاستيعاب للقرطبي والبداية والنهاية لابن كثير عن البخاري. وقد ذكرت إحدى الروايات أن النبي ﷺ دعا له قائلاً: «اللهم اغفر لعبيد أبي عامر» وفي الرواية الثانية: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك..» وفي الثالثة: «اللهم اجعله فوق الأكثرين يوم القيامة» ويجمع ذلك أن رسول الله ﷺ دعا له بتلك الدعوات الثلاث في ذلك الموقف والمشهد الأخير من تاريخ أبي عامر الأشعري رضي الله عنه.

(٢) ومنذ ذلك اليوم أصبحت زعامة الأشاعر لأبي موسى وهو من كبار الصحابة السابقين إلى الإسلام كما سيأتي في المبحث الخاص به.

٤

ضِمَادْ بن ثعلبة.. الطبيبُ الأولُ إسلاماً

من الصحابة السابقين إلى الإسلام هو الطبيب اليماني ضِمَادْ بن ثعلبة الأزدي، وفي ذلك قال ابن عبد البر القرطبي: «أسلم ضِمَادْ في أول الإسلام»[١].

وقد استهل ابن حجر العسقلاني ترجمته بأنه: «ضِمَادْ بن ثعلبة الأزدي من أزد شنؤه»[٢] وقال القرطبي: «ضِمَادْ بن ثعلبة الأزدي من أزد شنؤه.. وكان رجلاً يتطبَبُ ويَرْقي ويطلب العلم»[١].

وأزد شنؤه الذين منهم ضِمَادْ بن ثعلبة هم قبائل الأزد الذين كانوا يسكنون منطقة تهامة ومنطقة السَرَاة باليمن، وذلك أن قبائل الأزد لما نزحت من مأرب في سيل العرم سارت فرقة منهم إلى عُمان فسكنت عُمان وقيل لهم أزدُ عمان، وسارت فرقة منهم إلى الحجاز والشام فسكنوها وهم خزاعة بمكة والأوس والخزرج بيثرب وغسان بالشام، وبقت منهم فرقة باليمن فسكنت بتهامة والسروات فقيل لهم أزد شنؤه وأزد السراة، ومنهم قبيلة عك، كانت مساكنهم ما بين البحر الأحمر غرباً إلى الجبال شرقاً، ومن مدنهم قديماً المهجم والكدراء[٣] وحديثاً المراوعة وباجل والزيدية والزُهرة واللُحيّة، ومن بطونهم: ذوال، وفشال، ولعسان، واللامية، والقحرة، والواعظات، وصليل، وغافق[٤]. ومن أزد شنؤه بسراة اليمن العليا (الأزد بن سلامان بن مفرج، وألمع، وبارق، ودوس، وغامد، والحجر بن هنؤ)[٥].

ومن إحدى عشائر وقبائل أزد شنؤه تلك بتهامة والسروات كان ضِمَادْ بن ثعلبة، وكان ضِماد رئيساً في قومه وقبيلته من أزد شنؤة باليمن، وكان في ذات الوقت طبيباً جوالاً في الجاهلية يتنقل في المدن والمناطق الرئيسية ويتوجه إلى مكة

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ترجمة ضماد بن ثعلبة ـ جـ٢ ص٣٧٨.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ترجمة ضماد بن ثعلبة ـ جـ٢ ص٢١٠.

(٣) قال ابن خلدون: (المهجم: من أعمال زبيد، وتقع على ثلاث مراحل منها) وذلك عند شاطئ وادي سردد ـ (ص٦٤٦ ـ اليمن في تاريخ ابن خلدون).

(٤) المفيد لنجم الدين عمارة تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع ـ ص ٤٥.

(٥) صفة جزيرة العرب ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٥٨.

في المواسم ويعود إلى منطقته بالمهجم أو غيرها من أعالي تهامة وسراة اليمن، وقد عرف ضماد محمداً ﷺ منذ الجاهلية حين كان يتردد إلى مكة قبل البعثة النبوية، وفي ذلك قال القرطبي: «كان ضماد بن ثعلبة صديقاً للنبيّ محمد ﷺ في الجاهلية، وكان رجلاً يتطبب، ويَرْقَى، ويطلب العلم»[١].

* * *

وفي أوائل سنوات البعثة النبوية سار ضماد بن ثعلبة من منطقته باليمن إلى مكة، فأخبرته قريش بأن محمداً أصابته رياح فالتاث عقله وإن به جُنّه، وكانت تهمة الجنون إحدى التُهم التي أطلقتها قريش على النبي ﷺ في أوائل البعثة النبوية، وقد صارحوه بذلك في الواقعة المشهورة إذْ عرضوا عليه أن يولوه الحكم إن كان يريد مُلكاً، أو أن يطلبوا الأطباء لعلاجه إن كان أصابه ريح، وقد ذكر الله عزّ وجلّ في أكثر من آية في القرآن مزاعمهم بأن النبي ﷺ به جُنون، وربما كان بعضهم يعتقد أن الأمر كذلك بالفعل، فلما قدم ضماد بن ثعلبة إلى مكة أخبرته قريش بأمر محمد وأنه مجنون أصابته رياح فالتاث عقله، وفي ذلك «أخرج مسلم والنسائي من طريق عمرو بن سعيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن ضِماداً قَدِم مكة، وكان يرقى، فسمع أهل مكة يقولون لمحمد ساحر أو كاهن أو مجنون»[٢] وكان الغالب قولهم أصابته رياح فالتاث عقله، قال الحافظ ابن كثير:

وكان ضِمَاد يرقى من هذه الرياح. فقال لهم ضماد: ـ أين هذا الرجل، لعل الله أن يشفيه على يدي»[٣].

فأخبروه أن محمداً في بيته ـ غالباً ـ فتوجه ضِمَادُ إلى مكان محمد ﷺ وقريش تنتظر ما يكون، وتؤمل في أنه سيعود بما يوافق أهوائهم، ويؤكد مزاعمهم وأوهامهم بأن محمداً أصابته رياح وبه مسٌ من الجنون، فقد كان ضماد طبيباً ذائع الصيت ولشهادته قيمة كبيرة.

وسار ضِمَادُ إلى محمد وقال له: (يا محمد: إني أُعالج) وفي رواية مسلم والبيهقي (قال ضماد: يا محمد إني أرقى من هذه الرياح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء، فهلُمْ)[٣].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ترجمة ضماد بن ثعلبة ـ جـ٢ ص٣٧٨.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ترجمة ضماد بن ثعلبة ـ جـ٢ ص٢١٠.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٣ ص٣.

فقال محمد ﷺ: «**الحمد لله نحمده ونستعينه، مَنْ يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له**».

فقال ضماد: (أعدْ عليّ كلماتك هؤلاء ـ يا محمد ـ فلقد بَلَغْن ناموس البحر).

فأعاد محمد ﷺ تلك الكلمات، وقرأ آيات من القرآن الكريم.

فقال ضماد: (والله لقد سمعتُ قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء: فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، فَهَلُمْ يدك أبايعك على الإسلام. فبايع ضماد النبي ﷺ على الإسلام).

* * *

لقد كان إسلام ضماد ومبايعته لرسول الله ﷺ صدمة شديدة لقريش، فهو برهانٌ من طبيب كبير بأن محمداً ما به جنون وإنما هو رسولُ من الله يهدي إلى دين الحق والتوحيد، وإن كلام محمد ما هو كلام كاهن ولا ساحر ولا شاعر وإنما هو وحيٌ من الله عزّ وجلّ.

وكان إسلام ضماد ـ كما ذكر القرطبي ـ (في أول الإسلام)، وذلك في أوائل سنوات البعثة النبوية بمكة، وقبل الهجرة النبوية إلى يثرب بعدة سنوات.

وقد جاء في البداية والنهاية أنه لما بايع ضِمَاد النبي ﷺ على الإسلام، قال له النبي ﷺ: «**وعن قومك؟ قال ضماد: وعن قومي**». وكذلك جاء في الإصابة أنه (أسلم ضماد، وبايع عن قومه).

ويستلزم ذلك أن ضماد بن ثعلبة رجع إلى قومه من أزد شنؤة باليمن فدعاهم إلى الإسلام، فآمن كثير منهم، وعاد ضماد إلى رسول الله ﷺ فأخبره بإسلام قومه وبايع عن قومه، فهو في ذلك مثل الطفيل بن عمرو الدوسي وأبو عامر الأشعري وأبو موسى الأشعري وقيس بن مالك الهمداني، الذين التقوا برسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة النبوية، فآمنوا، وعادوا إلى مناطقهم وقبائلهم باليمن يدعون إلى دين الحق ونشروا دين الإسلام، ومما يُعطي ضماد بن ثعلبة مكانة متميزة أنه كان طبيباً، وكان الطبيب الأول إسلاماً، وكان لإسلامه في الوقت الذي أسلم فيه أهمية كبيرة، وأن قومه من أزد شنؤة أسلموا بإسلامه، وقد وصفهم فيما بعد أحد الصحابة قائلاً:

«هؤلاء قوم ضِماد الذي بايع رسول الله ﷺ وشُرِّف وكُرِّم»[1].

* * *

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٢٥١.

إنّ قدوم ضماد بن ثعلبة إلى رسول الله ﷺ بيثرب مع من قدم إليه من أزد شنؤة سنة ٧ هجرية هو أمر مُحتمل، ولم تذكر الروايات قدومه ولا عدم قدومه إلى يثرب، وكان ضماد قد بلغ من الكبر عتياً، ويبدو أنه توفي ما بين السنة السابعة والسنة التاسعة للهجرة بمنطقته في اليمن، فلما علم رسول الله ﷺ قام بتشريف خالد بن ضماد بن ثعلبة الأزدي فكتب له كتاباً نبوياً هو من الوثائق التاريخية والسياسية للعهد النبوي، وقد ذكره ابن سعد في طبقات الصحابة وابن حميد الله في وثائق العهد النبوي، وفيما يلي نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله، لخالد بن ضماد الأزدي.

إنّ له ما أسلم عليه من أرضه، على أن يؤمن بالله لا شريك له ويشهد أن محمداً عبده ورسوله، وعلى أن يُقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصومُ شهر رمضان ويحُجُّ البيت. ولا يُؤوي مُحْدِثاً ولا مُرتابا. وعلى أن ينصح لله ولرسوله، وعلى أن يُحبَّ أحبّاء الله ويُبْغِض أعداء الله.

وعلى محمد النبيّ أن يَمْنَع منه نفسَه وماله وأهله.

وإن لخالد الأزدي ذِمّة الله وذِمّة محمد النبيّ إن وفى.

وكتب أبيّ [بن كعب]»(١).

ولقد ثَبَتَ خالد بن ضماد، وثَبَتَ قوم ضماد على دين الإسلام، في عهد رسول الله ﷺ وبعد وفاته، فقد بعث أبو بكر الصديق بَعثاً مع أحد الصحابة ـ سنة ١١ هجرية ـ فوجد أزد السراة وأزد شنؤة ثابتين على الإسلام، وعندما مَرّ بمنطقة قبيلة ضماد قال ذلك الصحابي: «هؤلاء قوم ضِماد الذي بايع رسول الله ﷺ، وشُرِّف وكُرِّم»(٢).

فقد نال ضِماد بن ثعلبة رضي الله عنه الشرف والتكريم من رسول الله ﷺ، والخلود في التاريخ.

---

(١) الوثائق السياسة للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٢٣٨ ـ طبقات الصحابة ـ لابن سعد ـ جـ٢ ص٢١.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٢٥١.

٥

قيس بن مالك نَمَطْ الأرحبي البكيلي

ـ عامل رسول الله ﷺ على همدان ـ

من الصحابة السابقين إلى الإسلام بعد البعثة النبوية بمكة وقبل الهجرة النبوية إلى يثرب بسنوات هو قيس بن مالك نَمَط بن قيس بن مالك بن سعد الأرحبي البكيلي الهمداني رضي الله عنه.

وقد ذكرته تراجم الصحابة باسم (قيس بن مالك) وباسم (قيس بن نمط) إذْ وقع التوهم بأنه شخصان وتمشياً مع ذلك ذكره ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة مرتين، ثم رَجَحَ أنه شخص واحد وهو الصواب.

فقد ذكر العسقلاني ـ أولاً ـ «قيس بن مالك بن سعد بن مالك بن لأي بن سلمان بن معاوية بن سفيان بن أرحب... قدم على النبي ﷺ وهو بمكة»[(١)].

ثم ذكر العسقلاني ـ ثانياً ـ «قيس بن نمط بن قيس بن مالك بن سعد بن مالك بن لأي بن سلمان بن معاوية بن سفيان بن أرحب الهمداني. خرج في الجاهلية حاجاً، فوقف على النبي ﷺ وهو يدعو إلى الإسلام».

ثم أضاف العسقلاني قائلاً: «وقد تقدم قيس بن مالك، وهو في الظاهر جَدُّ هذا، وفي ثبوت ذلك بُعد، فالذي يظهر أنه واحد اخْتُلِّفَ في اسمه ونسبه»[(٢)] وذلك هو الصواب، ووقع الاختلاف في اسم أبيه هل هو (مالك) أو (نمط) والظاهر أن (نمط) كان لقباً ونعتاً اشتهر به أبوه (مالك) فكان يقال له (قيس بن مالك) و(قيس بن نمط) فهو (قيس بن مالك نمط بن قيس بن مالك بن سعد) وقد أورد الحسن بن أحمد الهمداني نسبه كاملاً في الإكليل، وهو: (قيس بن نمط بن قيس بن مالك بن سعد بن مالك بن لأيْ بن سلمان بن معاوية بن سفيان بن أرحب بن الدعام بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل بن جُشم بن خيران بن نوف بن همدان بن زيد»[(٣)]. فهو همداني: نسبة إلى الزعيم (همدان بن

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٢٥٨.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٢٦٢.

(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٢٢.

مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سباء بن يشجب بن يعرب بن قحطان) فتفرع من (نوف بن همدان بن مالك بن زيد) فرعان هما: (حاشد بن جُشم بن خيران ـ أو جبران ـ بن نوف بن همدان بن زيد) و(بكيل بن جُشم بن خيران ـ أو جبران ـ بن نوف بن همدان بن زيد)[١] فكان قيس بن مالك نمط من بكيل، قال الهمداني: (ومعنى بكيل زعيم: تَبَكلْت بالأمر: تَزَعمتْ به، والتبكلُ والتحشُدُ: التجمع)[٢]. وتفرعت من بكيل عدة بطون منهم سفيان بن أرحب، قال الهمداني: (ومعنى أرحب أوسع في الشرف)[٢]. ومن أحفاد وسلالة (قيس بن مالك بن سعد بن مالك بن لأي بن سلمان بن معاوية بن سفيان بن أرحب) كان قيس بن مالك نمط بن قيس بن مالك الأرحبي البكيلي الهمداني، وقد جاء في الإكليل أنه:

«ولد ـ أي أنجب ـ قيس بن مالك بن سعد بن لأيْ: نمطاً، فأولد نمطُ: قيس بن نمط الوافد على رسول الله ﷺ والملتقي به بمكة أيام كان يدعو العرب»[٢].

* * *

وقد كان قيس بن مالك نمط من رؤوساء ومشايخ بكيل ثم بني سفيان بن أرحب بمناطق قبيلة شاكر ـ ومنهم ذو محمد وذو حسين في ناحية برط وما جاورها بمحافظة الجوف حالياً ـ وبني سفيان بن أرحب بناحية حرف سفيان بمحافظة عمران حالياً وما جاور حرف سفيان إلى ناحية خيوان، ووائلة بن شاكر بمحافظة صعده إلى نجران حالياً، وكانت الديانة الشائعة في قبائل بكيل وهمدان هي عبادة (يعوق) و(يغوث)، قال ابن كثير في حديثه عن الأصنام المعبودة في الجاهلية منها «يعوق: لبني خيوان من همدان، وكان منصوباً بأرض همدان، ويغوث: لبني أنعم من طيئ ولأهل جرش من مذحج، وكان منصوباً بأرض جرش». وقال ابن هشام في السيرة النبوية: «خيوان بطن من همدان اتخذوا يَعُوقَ بأرض همدان من اليمن». فكان الغالب في همدان عبادة (يعوق). وكان الناس من شتى مناطق وقبائل اليمن الذين يدينون بتعدد الآلهة الوثنية يحجون إلى بيت الله الحرام بمكة في الجاهلية وكان موسم الحج من مواسم التجارة الهامة أيضاً، وقد يرتبط المسير إلى الحج بالنشاط التجاري.

وقد سار قيس بن مالك نمط الأرجي البكيلي من منطقته بناحية حرف سفيان في اليمن إلى مكة المكرمة للحج والنشاط التجاري، وذلك بعد البعثة النبوية

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ١٠ ص١٨٠.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٢٢.

بسنوات محدودة، فسمع قيس النبي محمد ﷺ يدعو إلى الإسلام، فأيقن بأنه يدعو إلى الحق، فالتقى بالنبي ﷺ وأسلم بمكة، وذلك قبل الهجرة النبوية إلى مكة بعدة سنوات فكان قيس من الصحابة السابقين إلى الإسلام، وفي ذلك ذكر العسقلاني في الإصابة أنه: «خرج قيس بن نمط في الجاهلية حاجاً فوقف على النبي ﷺ وهو يدعو إلى الإسلام». وذكر الهمداني في الإكليل أنه: «الوافد على رسول الله ﷺ والملتقى به بمكة أيام كان يدعو العرب» وجاء في كتاب الأنباء أنه: «أسلم بمكة قبل الهجرة قيس بن مالك الأرحبي الهمداني»[١].

ووعد قيسُ رسول الله ﷺ بأنه سيعود إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام، وأنه سيرجع إلى رسول الله ﷺ ربما في العام التالي، وقد وفى قيس بما وعد، وسماه رسول الله ﷺ: الوفيّ.

* * *

لقد عاد قيس إلى منطقة سفيان بن أرحب وبكيل باليمن حاملاً كلمة الله وداعياً إلى الإسلام والتوحيد، فآمن أخوه مالك بن نمط بن قيس بن مالك بن سعد الأرحبي، وآمن ابنه نمط بن قيس بن مالك نمط، وآمن أبو يزيد قيس بن عمرو، وأخذ الإسلام في الانتشار بمناطق أرحب وبكيل وهمدان على يد قيس منذ ما قبل الهجرة النبوية إلى يثرب، ورجع قيس إلى النبي ﷺ بمكة، فأخبره بانتشار الإسلام في قومه باليمن.

وفي ذلك قال العسقلاني في ترجمته بالإصابة: «رجع قيس بن مالك إلى النبي ﷺ ـ وأخبره ـ بأن قومه أسلموا، فقال النبي ﷺ: نِعْمَ وافد القوم قيس». وقال في ترجمته لقيس باسم قيس بن نمط أنه: «قال له النبي ﷺ: هل عند قومك من منعه؟ فقال قيس: نحن أمنع العرب، وقد خلفت في الحيّ فارساً مطاعاً يكنى أبا يزيد واسمه عمرو بن قيس فاكتب إليه حتى أوافيك أنا وهو». وقد كان مع قيس في المرة الثانية أخوه مالك بن نمط، ويدل على ذلك قول ابن حجر العسقلاني: (وقد قيل إن صاحب هذه القصة مالك بن نمط)[٢]. ويزول التعارض بين القولين بإدراك قدومهما معاً إلى النبي ﷺ بمكة.

* * *

وكانت قريش قد أخذت في تصعيد عداوتها لرسول الله ﷺ والمسلمين بمكة

---

(١) الأنباء ـ لمحمد المفتي ـ ص١٧.

(٢) الإصابة ـ جـ٢ ص٢٦٢.

حين قدم قيس إلى رسول الله ﷺ بمكة، في المرة الأخيرة، فعرض قيس على رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى منطقة همدان باليمن، وفي ذلك جاء بالإكليل أنه: «كان قيس بن نمط قد تزعم لرسول الله ﷺ بالهجرة على أن يؤامر همدان في ذلك، فبدرت على النبي ﷺ الأنصار»[١]. إن عرض قيس على رسول الله ﷺ الهجرة إلى منطقة قومه باليمن هو غالباً سبب ما ذكره العسقلاني بأن النبي ﷺ قال له: (هل عند قومك من منعه؟ فقال قيس: نحن أمنع العرب)[٢]. وكذلك عرض الطفيل بن عمرو الدوسي على رسول الله ﷺ الهجرة إلى منطقة دوس بسراة اليمن، فلم يرغب رسول الله ﷺ في الهجرة إلى منطقة همدان أو منطقة دوس، فقد كان مكتوباً منذ الأزل أن هجرته تكون إلى يثرب، فبدر على النبي ﷺ الأوس والخزرج الأنصار من يثرب، ثم هاجر النبي ﷺ إلى يثرب، وكان قيس قد عاد إلى منطقته باليمن، ومضى في الدعوة إلى الإسلام، ومعه مالك بن نمط، فأخذ الإسلام ينتشر وينمو في أرجاء عديدة من بلاد همدان بمدلولها الواسع القديم.

* * *

ثم وَفَد قيس إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، ولم تذكر المصادر زمن وفادته، إلا أنها ذكرت قدوم سبعمائة من أهل اليمن على رسول الله ﷺ سنة ٧ هجرية، وقد سبق ذلك مهادنة وصلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش ـ في ذي الحجة ٦هـ ـ وقول رسول الله ﷺ: «**يطلع عليكم أهل اليمن كأنهم السحاب، هُمْ خير أهل الأرض**». ثم أخذت مواكب من أهل اليمن تتوافد على رسول الله ﷺ وكان من أوائلها موكب الطفيل بن عمرو في ثمانين أو تسعين أهل بيت من دوس وموكب أبي عامر وأبي موسى الأشعري في نيف وخمسين رجلاً من الأشاعر، وموكب جندب بن عمرو بن حممة في خمسة وسبعين رجلاً من عشيرته، وموكب قوم ضماد بن ثعلبة، فيكون ذلك هو أيضاً زمن وفادة قيس بن مالك بن نمط الأرحبي البكيلي الهمداني في كوكبة من فرسان قومه، ومما يتصل بوفادته قول الهمداني في الإكليل.

(قيس بن نمط: الوافد على رسول الله ﷺ بالمدينة).

وأخبر قيسُ النبي ﷺ بإسلام قومه، قال العسقلاني في الإصابة:

(فقال رسول الله ﷺ: نِعْمَ وافد القوم قيس).

---

(١) الإكليل ـ جـ١٠ ص١٨٠.
(٢) الإصابة ـ جـ٢ ص٢٦٢.

وقال الهمداني في الإكليل:
(فقدم عليه قيس بن نمط وهو في المدينة، فسماه رسول الله ﷺ الوفيّ، وكتب له بطعمة من خيوان ومن عُمران الجوف)(١).

* * *

وقد كتب رسول الله ﷺ كتاباً لقيس على قومه همدان (بكيل وحاشد)، والظاهر أنهما كتابان أحدهما ـ سنة ٧ هجرية ـ وثانيهما مع مالك بن نمط لما وفد إلى رسول الله ﷺ في وفد همدان ـ سنة ٩ هجرية ـ لأن استعمال قيس على قبائل همدان جميعها لا يمكن أن يكون إلا بعد قدوم مالك بن نمط ـ سنة ٩ هجرية ـ.

وقد جاء نص كتاب رسول الله ﷺ لقيس بن مالك نمط الأرحبي الهمداني في طبقات الصحابة لابن سعد والمطالب لابن حجر والرسائل النبوية ووثائق العهد النبوي، وأورده محمد حميد الله عن تلك المصادر في الوثائق السياسية للعهد النبوي بعنوان: «عهده ﷺ لقيس الهمداني على قومه» وبالنص التالي:

«قَدِمَ قيس بن مالك بن سعد بن لائي الهمداني ورسول الله بمكة.

وكتب له رسول الله ﷺ عهده على قومه همدان.

أحمورها (يعني قبائل قُدَم، وآل ذي مران، وآل ذي لعوة، وأذواء همدان).

وغَرْبها (يعني قبائل أرحب، ونهم، وشاكر، ووادعة، ويام، ومرهبه، ودالان، وخارف، وعذر، وحجور).

وخلائطها ومواليها. أن يسمعوا له ويطيعوا. وأن لهم ذمة الله وذمة رسوله، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة. وأطعمه ثلاثمائة فَرَق من خيوان: مائتان زبيب وذرة شطران. ومن عمران الجوف مائة فَرق بُرّ، جارية من مال الله أبداً. انتهى(٢).

وذكر ابن الأثير في (أسد الغابة) وابن حجر في المطالب، كتاب رسول الله ﷺ لقيس بن مالك نمط الأرحبي الهمداني أنه (أخرج ابن منده وأبو يعلى وأبو نعيم) نص الكتاب ونسخته كما يلي:

«باسمك اللهم من محمد رسول الله إلى قيس بن مالك الأرحبي:

سلام عليك؛ أما بعد، فإني استعملتك على قومك غَرْبهم وأحمورهم ومواليهم.

---

(١) قال الأكوع في هامش الإكليل: (عُمران الجوف ـ بضم أوله ـ وهو في بلاد مراد بالجوف كما قال ياقوت) ـ جـ١٠ ص١٨٠ الإكليل.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٢٣٢ ـ طبقات الصحابة لابن سعد ـ جـ٢ ص٧٣.

وأقطعتُك من ذُرة نسار مائتي صاع، ومن زبيب خيوان مائتي صاع، جارٍ لك ولعَقِبك من بعدك أبداً أبداً أبداً»[١].

قال الهمداني في الإكليل: (فكانت تلك الطمعة تجري على أعقابه من الرجال والنساء حتى قطعها يحيى بن الحسين العلوي) فقال القاضي محمد بن علي الأكوع تعليقاً على ذلك، أن (انتهاك الهادي ـ يحيى بن الحسين ـ لإقطاع رسول الله ﷺ لقيس بن نمط ولعقبه من بعده، وإبطاله لهذه الطمعة المؤكدة بقوله: أبداً أبداً، يعتبر تحدياً صارخاً لمخالفته أوامر النبي ﷺ وشريعته، ولو صدرت هذه المخالفة من غير الهادي لسلقوه بألسنة حداد وأخرجوه من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر)[٢]. وقال صاحب كتاب أنباء الزمن في أحداث سنة ٢٩٠هـ. «كانت تلك الطُعمة تجري على أعقابه من الرجال والنساء حتى قُطعت في القرن الثالث الهجري»[٣] وقد قطعها الإمام الهادي يحيى بن الحسين العلوي لما حكم صعده وعمران ونواحيهما سنة ٢٨٤ ـ ٢٩٨هـ، ويدل ذلك أيضاً على استمرار التقدير العظيم لقيس بن مالك الأرحبي في اليمن على مدى ثلاثة قرون كامتداد لتقدير رسول الله ﷺ لذلك الصحابي الجليل الذي على يده وعلى يد أخيه مالك بن نمط أسلمت قبائل حاشد وبكيل جميعها، فرضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٢٣٢ ـ طبقات الصحابة لابن سعد ـ جـ٢ ص٧٣.

(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ تحقيق القاضي محمد علي الأكوع ـ جـ١٠ ص١٨١.

(٣) إنباء الزمن في حوادث اليمن ـ ٢٩٠هـ ـ الأنباء ـ ص١٧.

٦

مالك بن نَمَطْ الأرحبي الهَمْداني

ـ رائد بكيل وحاشد إلى رسول الله ﷺ ـ

هو الصحابي الزعيم مالك بن نَمَطْ بن قيس بن مالك بن سعد بن لأيْ بن سلمان بن معاوية بن سفيان بن أرحب ـ الأرحبي ـ بن الدعام بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل ـ البكيلي ـ بن جُشم بن خيران بن نوف بن همدان ـ الهمداني ـ بن مالك بن زيد بن أوْسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سباء.

كان مالك بن نمط من السابقين إلى الإسلام، فقد التقى أخوه الأكبر قيس بن نَمَطْ برسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة النبوية إلى يثرب بعدة سنوات، فأسلم، وعاد إلى منطقته وقبيلته باليمن يحمل كلمة الله ويدعو إلى الإسلام، ثم رجع قيس بن نمط إلى رسول الله ﷺ بمكة فأخبره أن الإسلام بدأ ينتشر في قومه، وعرض عليه الهجرة إلى منطقته باليمن، وجاء في الإصابة أنه: (قال له النبي ﷺ: هل عند قومك من منعه؟ فقال قيس بن نمط: نحن أمنع العرب، وقد خلفت في الحيّ فارساً مطاعاً يكنى أبا يزيد واسمه قيس بن عمرو فاكتب إليه حتى أوافيك أنا وهو). ثم قال العسقلاني: (وقد قيل إن صاحب هذه القصة مالك بن نمط)[1] ويدل ذلك على أمرين؛ أحدهما أن مالك بن نمط كان قد أسلم ورسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة النبوية إلى يثرب بعدة سنوات، وبما أن الروايات لم تذكر أنه كان مع أخيه قيس لما أسلم في لقائه الأول بالنبي ﷺ بمكة، يمكن إدراك أنه أسلم على يد أخيه قيس في منطقتهما باليمن عندما بدأ قيس يدعو إلى الإسلام. والأمر الثاني: أن مالك بن نمط قدم مع أخيه قيس إلى رسول الله ﷺ بمكة لما رجع قيس إلى رسول الله ﷺ وأخبره أن الإسلام بدأ ينتشر في قومه وعرض عليه أن يهاجر إلى منطقة قومه باليمن، حتى أنه قيل إن صاحب تلك القصة إنما هو مالك بن نمط، وذلك يدل على أنهما كانا سوياً في ذلك اللقاء مع رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة النبوية، ثم عاد إلى منطقة قومهما باليمن حيث كان لمالك بن نمط إسهامه

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٢٦٢.

الوافر في الدعوة إلى الإسلام مع أخيه قيس في بلاد همدان بمدلولها الواسع القديم.

* * *

إن همدان هي قبائل بكيل وحاشد جميعها، فحاشد وبكيل: (هما قبيلا هَمْدَان العظيمان)، إذْ إن حاشد هو: حاشد بن جُشم بن خيران بن نوف بن همدان. وبكيل هو: بكيل بن جُشم بن خيران بن نوف بن همدان. وهمدان هو: همدان بن زيد بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سباء.

وقد كانت همدان وغيرها من قبائل اليمن تدين بعبادة الله ذي السموات (ذ ي س م و ي) كما جاء في نقوش المسند المعثور عليها في مناطق همدان من عصور ملوك سباء وحمير، ومنها نقش مُسند من ريده باسم القيل (مرثد الن يارم بن همدان) يسجل قيامه بأعمال عمرانية تم إنجازها بعون الله سيد السماء والأرض (م ر ا/س م ي ن/وارض) في عهد (أبي كرب أسعد ملك سباء وذو ريدان وحضرموت ويمانت وأعرابهم طوداً وتهامت)[١] ويُسجل نقش مسند باسم شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد بناء قصر (هرجم) وأنه تم العمل (بنصر/وعون/سيدهم/الرحمن/رب السماء والأرض)[١] وتوجد عشرات النقوش تنطق بعبادة الله (ا ل ل هـ م) ذي السموات (ذ ي س م و ي) في مناطق همدان وغيرها من أرجاء اليمن، ثم أعرضوا عن دين التوحيد، ولما انتهى عصر الدولة الحميرية التي كانت تحكم كل اليمن شاعت العبادات الوثنية، وأصبح للعديد من كبار القبائل اليمنية معبودها الخاص ومنها همدان.

والمعبود الذي اتخذته همدان هو (يعوق) وهو من الآلهة الوثنية القديمة جداً التي ذكرها الله في نبأ قوم نوح بالقرآن الكريم قائلاً: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤] ـ صدق الله العظيم ـ.

وقد عادت تلك العبادات في الجاهلية، فكان (ودّ) معبوداً في الجوف، قال ابن هشام: (وكلبُ بن وبره من قضاعة، اتخذوا (ودّا) بدُومَةِ الجنْدَل. وأنْعُم من طيء وأهل جُرش من مذحج اتخذوا (يَغُوثَ) بجُرَش. وخَيْوَان بطن من همدان اتخذوا (يَعُوقَ) بأرض همدان من أرض اليمن)[٢].

وخيوان بطن من بطون همدان وهو (خيوان بن زيد بن مالك بن جشم بن

---

(١) نقش ريدة ـ ٥٤٣ ت. س ـ النقش ٥٧٣ جاربيني.

(٢) السيرة النبوية ـ ابن هاشم ـ جـ١ ص٨٤.

حاشد) وباسمه سُميت قرية خيوان، قال الهمداني: (والي خيوان بن زيد دفع عمرو بن لحيّ يعوق الصنم فكان في قرية خيوان)(١). وبما أن خيوان كانت مقر عبادة (يعوق) الذي شاعت عبادته في همدان جميعها بالجاهلية كانت خيوان بمثابة عاصمة دينية لهمدان في الجاهلية وكان نصف سكانها من حاشد ونصف سكانها من بكيل، وكان سادن يعوق العوام بن جهيل الهمداني كاهناً كبيراً في همدان.

* * *

وقد أخذ مالك بن نمط الأرحبي الهمداني يدعو إلى الإسلام وعبادة الله الواحد الأحد وينتقد عبادة يعوق بالحكمة والموعظة الحسنة والشعر، وكان مالك بن نمط شاعراً، وقد وصلنا من شعره في ذلك بيت واحد ذكره ابن هشام في السيرة النبوية قائلاً: «وقال مالك بن نمط الهمداني:

يَرِيشُ اللّهُ في الدُّنْيَا ويَبْري ... ولا يَبْرِي يَعُوقُ وَلَا يَرِيشُ

وهذا البيت في أبيات له»(٢).

وقوله: (يريش الله في الدنيا ويبري) أصله من رياشة السهام، يقال: (رشت السهم) و(بريته) ثم استعير للنفع والضر، يريد أن الله ينفع ويضر ولا يضُر يعوق ولا ينفع، ومن ذلك قول الشاعر:

فَرِشْنِي بخَيرٍ طالما قَدْ بَريتَني ... وخَيْرُ الموالي مَنْ يَريشُ ولا يَبْري

* * *

وفي الوقت الذي انتشر فيه الإسلام على يد مالك بن نمط وقيس بن نمط في بلاد همدان وبلغ إلى خيوان معقل عبادة يعوق، سمع العوام بن جُهيل سادن يعوق هاتفاً يقول: (يا ابن جُهيل حلّ بالأصنام الويل، هذا نور سطع من الأرض الحرام، فودع يعوق بالسلام).

فقد جاء في ترجمة العوام بن جُهيل الهمداني بكتاب الإصابة أنه (ذكر أبو أحمد العسكري عن ابن دريد في الأخبار المنثورة من طريق هشام بن الكلبي قال: كان العوام يُحدث بعد إسلامه قال: كنت أسمر مع جماعة من قومي فإذا أوى أصحابي إلى رحالهم بِتُّ أنا في بيت الصنم، فقمتُ في ليلة ذات ريح وبرق ورعد فلما انهار الليل سمعت هاتفاً من الصنم يقول ـ ولم أكن سمعت منه كلاماً قبل ذلك ـ: يا ابن جُهيل، حلّ بالأصنام الويل، هذا نور سطع من الأرض الحرام،

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ١٠ ص٧٢.

(٢) السيرة النبوية ـ ابن هاشم ـ جـ١ ص٨٤.

فودع (يعوق) بالسلام[١]. قال: فألقى الله في قلبي البراءة من الأصنام، فكلمت قومي ما سمعت. فإذا هاتف يقول:

هل تَسْمَعَنَ القول يا عوامْ أم قدِ صَمَمتَن عن الكلامْ
قد كُشِفَتْ دياجرُ الظلام وأصفق الناسُ على الإسلامْ)

والظاهر أن هذا الهاتف الثاني كان من وسط أصحاب العوام الذين كلمهم بأمرِ الهاتف الأول، حيث قال: (فكلمت قومي بما سمعت فإذا هاتف يقول) ـ أي من بين قومه الذين كلمهم بما سمع ـ وربما شعر العوام بأنه نفس صوت الهاتف الأول الذي سمعه من الصنم ـ أو من وراء الصنم ـ فقال له:

(يا أيها الهاتف بالعوام لستُ بذي وَقْرٌ عن الكلام
فَبَيِّنَنْ عن سنة الإسلام)

فأخبره الهاتفُ بتعاليم دين الإسلام وأن يؤمن ويرحل مع وفد همدان إلى رسول الله ﷺ قائلاً:

(ارحل على اسم الله والتوفيق رحلة لا وانٍ ولا مشيقِ
إلى فريق خير ما فريق إلى النبيّ الصادقِ المصدوقِ

قال العوام: فخرجت أُريد النبيّ ﷺ فصادفتُ وفد همدان)[٢] وهو الوفد الذي سار بمعية مالك بن نمط مما قد يشير إلى أن الذي هتف بالعوام هو أحد أصحاب مالك بن نمط الذي يدل حجم وتشكيل الوفد على مدى الدور العظيم لمالك بن نمط مع أخيه قيس في نشر الإسلام وفي اعتناق همدان لدين التوحيد الحنيف.

* * *

لقد توجه مالك بن نمط إلى كافة بطون ورؤساء همدان يدعوهم إلى الإسلام ـ على مدى عدة سنوات وبصفة خاصة منذ السنة الثانية للهجرة ـ وكان مالك وأخوه قيس يتابعان أنباء رسول الله ﷺ والمسلمين الذين معه بيثرب ومسار الصراع مع قريش والكفار إلى المهادنة وصلح الحديبية ـ في ذي الحجة ٦هـ ـ وقد سار قيس بن نمط إلى رسول الله ﷺ بيثرب ـ سنة ٧هـ ـ وأخبره بانتشار الإسلام في قومه فقال رسول الله ﷺ: «**نِعْمَ وافدُ القوم قيس**». وعاد قيس إلى منطقة قومه بسفيان

---

(١) جاء في الرواية (فودع يغوث) والصواب (فودع يعوق) فقد كان العوام (سادن يعوق) لا (سادن يغوث).

(٢) الإصابة ـ ترجمة العوام بن جهيل الهمداني ـ جـ٣ ص٤٠.

وارحب من بلاد بكيل، وكان قيس قد بلغ من الكبر عتياً، واستمر مالك بن نمط في الدعوة إلى الإسلام بمناطق بكيل وحاشد حتى أشرق نور الإسلام في كل ربوعها.

ثم اتصل مالك بن نمط برؤساء ومشايخ وبطون حاشد وبكيل لمسير وفد يُمثل همدان كلها إلى رسول الله ﷺ وكان ممن اتصل بهم وسار إليهم مالك بن نمط كبار رؤساء همدان الذين كان قد دعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وقد ذكرت المصادر التاريخية منهم (أبو ثور ذو المشعار، ومالك بن أيفع، وضمام بن مالك السلماني، وعميرة بن مالك الخارفي)، ومنهم (عمير ذو مران، وسعيد بن العاقب ذو زُوُد، ومالك بن حمرة، وابن ذي لعوة، وغيرهم).

* * *

وفي رجب ٩هـ انطلق مالك بن نمط على رأس مائة وعشرين من رؤساء ووجهاء ورجالات حاشد وبكيل يُمثلون كافة بطون وقبائل همدان، فساروا في موكب مهيب بقيادة مالك بن نمط إلى رسول الله ﷺ في المدينة المنورة. وقد سجلت كتب السيرة النبوية والتاريخ وتراجم الصحابة نباء قدومهم أنه كما جاء في السيرة النبوية.

«قدم وَفْدُ همدان على رسول الله ﷺ: منهم مالك بن نَمَطْ، وأبو ثور وهو ذو المشعار، ومالك بن أيفع، وضمام بن مالك السلماني، وعميرة بن مالك الخارفي، فلقوا رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، وعليهم مُقَطَّعاتُ الحِبَرَات والعمائم العدنية، برحال الميْس على المَهْرية والأرحبية» [اهـ].

والحَبَرات التي عليهم هي البرود اليمانية، قال أعشى قيس في آل عبد المدان بن الديان رؤساء مذحج باليمن:

إذا الحَبَراتُ تَلوَّتْ بِهِمْ وجَرّوا أسافلَ هُدّابِهَا

وجاء في هامش البيت (الحبرات، الواحدة حبرة: ضرب من برود اليمن)[1]. وهي عباءات يرتديها الأقيال كانت تُصنَعُ باليمن، وكانت عليهم (العمائم العدنية) وهي أفخر العمائم، وكان قدومهم إلى المدينة (برحال الميس على المهرية والأرحبية) وجاء في الإصابة (على الرواحل المهرية) وهي الإبل وكانت إبل منطقة المهرة باليمن وخيول أرحب أجود الإبل والخيول.

فلما وصلوا المدينة المنورة نزلوا من الإبل والخيول، ودخلوا راجلين إلى حيث وقف رسول الله ﷺ لاستقبالهم أمام المسجد النبوي، فتقدموا وهم يرتجزون

(١) ديوان الأعشى ـ ص٢٥.

(يزملون) وقد انقسموا إلى مجموعتين يتقدم إحداها مالك بن نمط الأرحبي البكيلي ويتقدم الأخرى ابن ذي المشعار الحاشدي، وفي ذلك جاء في السيرة النبوية بعد النص السالف عن قدومهم:

«ومالك بن نمط ورجل آخر يرتجزان بالقوم، يقول أحدهما:

هَمْدَان خَيْرُ سُوقَةٍ وأقْيالْ[١] ليس لها في العالمينَ أمْثَالْ

مَحلُّهَا الهَضْبُ ومِنْها الأبطالْ لها أطاباتٌ بها وآكالْ[٢]

ويقول الآخر: (وهو مالك بن نمط)[٣]:

إلَيْكَ جاوَزْنَ سَوَادَ الرِّيفِ

في هَبَوات الصيف والخريف

مُخَطَّمَاتٍ بِحبَالِ اللِّيف»[٤]

ثم اصطفوا بشكل دائري أو نصف دائري أمام رسول الله ﷺ بساحة المسجد النبوي، ومما يشير إلى شكل اصطفافهم قول العوام بن جهيل (فصادفتُ وفد همدان يدور بالنبي ﷺ)[٥] فلما اصطفوا تقدم رائد الوفد مالك بن نمط عدة خطوات عن سائر الوفد مواجهاً رسول الله ﷺ حيث كما جاء في السيرة النبوية بعد الرجز السالف في قدومهم:

«فقام مالك بن نمط بين يديه، فقال: يا رسول الله، نصيَّةٌ مِنْ همدان، مِنْ كل حاضرٍ وَبَادٍ، أَتَوْكَ على قُلُصٍ نَوَاجٍ[٦]، متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم.

---

(١) جاء في الهامش: (السُّوقة: الذين دون الملوك من الناس. والأقيال: جمع قَيْل. والقيل: هو الملك). وإنما الأقيال الزعماء وكان بعضهم ملوكاً.

(٢) الهضب: الأمكنة المرتفعة. والإطابات: الأموال الطيبة. وجاء في هامش السيرة (الآكال: ما يأخذه الملك من رعيته وظيفة له).

(٣) قال العسقلاني في ترجمة مالك بن نمط «.. ومالك بن نمط يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ يقول: إليك جاوزن سواد الريف.. الخ».

(٤) السواد ههنا: القرى كثيرة الشجر والنخل. والريف: الأرض القريبة من السيول ومياه الوديان. والهبوات: جمع هبوة، وهي الغبرة. ومخطمات: قد جُعل لها خطم، وهي الحبال التي تُشد في رؤوس الإبل على آنافها. والليف: هو ليف النخل.

(٥) الإصابة: ترجمة العوام ـ جـ٣ ص٤١.

(٦) القُلُص ـ بضمتين ـ جمع قلوص وهو الفتى من الإبل. والنواجي: جمع ناج أو ناجية وهو السريع.

مِنْ مخلاف خارف. ويام، وشاكر أهل السَّوْد والقودْ، أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا الالهات والأنصاب. عَهْدُهم لا يُنقضْ، ما أقامت لعلعْ، وما جرى اليعفور بضلع[١]» انتهى[٢].

ولقد قال رسول الله ﷺ في تلك المناسبة وغيرها، (قال رسول الله ﷺ: «**السلام على همدان، السلام على همدان. مرتين**». وفي رواية ثلاث مرات). وروى السيوطي في الجامع الكبير مرفوعاً: «**نِعْمَ الحيّ همدان ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد**»[٣] وجاء في طبقات الصحابة لابن سعد والإصابة للعسقلاني: «قدم وفد همدان إلى رسول الله ﷺ وفيهم حمرة بن مالك، فقال رسول الله ﷺ: «**نِعْمَ الحي همدان**». الحديث».

وقد تضمنت كلمة مالك بن نمط بين يدي رسول الله ﷺ تقديماً للوفد وتعريفاً عاماً بهم وبأنهم (نصيَّةُ من همدان) والنصية خيار القوم، وبأنهم (من كل حاضرٍ وباد) يمثلون كل الحواضر ـ وهي المدن والقرى ـ وكل البوادي في بلاد همدانَ وهي مناطق بكيل وحاشد وتشمل بالتسميات الحالية محافظة عمران جميعها ومحافظتي حجة والمحويت جميعها وأغلب محافظات الجوف ومأرب وصنعاء، ومناطق وائلة بصعدة ويام بنجران، وقد ذكر العسقلاني أن الوفد كانوا مائة وعشرين رجلاً، وقد شملهم جميعاً قول مالك بن نمط لرسول الله ﷺ: (أتَوْكَ على قُلُصٍ نَوَاج، متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم).

ويدل قوله بعد ذلك (من مخلاف خارف) على أنه انتقل من التقديم والتعريف العام إلى تقديم رؤساء وممثلي كل منطقة وقبيلة من مناطق وقبائل همدان الذين في الوفد والتعريف بهم قائلاً: من كذا، ومن كذا، ومن كذا، ومن كذا، فقد تقدم في المبحث الأسبق عن جندب بن عمرو بن حُممة الدوسي نباء قدومه إلى رسول الله ﷺ في خمسة وسبعين رجلاً من قومه وأنه كما جاء في الإصابة (كان جندب يُقدمهم رجلاً رجلاً)، ويبدو أن مالك بن نمط كان كلما ذكر اسم منطقة أو قبيلة في كلمته يبرز من الصف رجالها الذين في الوفد بشكل جماعي، وقد جاء في نص السيرة النبوية قول مالك بن نمط: (من مخلاف خارف، ويام، وشاكر أهل السود والقود).

---

(١) اليعفور: ولد الضبية. وضلع: اسم منطقة ووادي ضلع همدان بالقرب من صنعاء. ولعلع: ربما يكون اسم جبال.

(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ ٤ ص٢٦٧ ـ ٢٩٦.

(٣) الجامع الكبير للسيوطي ـ الأنباء ـ ص١٩ ـ اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤١.

وخارف هو (خارف بن عبد الله بن كثير بن مالك بن جشم بن حاشد). وقد انحدر من أبناء خارف اثنا عشر بطناً من بطون حاشد، وهم (أنعم بن خارف، وهِمِل بن الخارف، وأنمار بن خارف، وجشم بن خارف، وزبير بن خارف، وزيد بن خارف، ووبير بن خارف. قال الهمداني: وعَصُمان بن خارف ـ بفتح العين وضم الصاد ـ بطن وهم الأعصوم وإليه يُنسب وادي عَصُمان من بلد حاشد. وعمرو بن خارف، وصعب بن خارف وبدر بن خارف وعبد عمرو بن خارف). فمن بني همل بن خارف (الأحطوب وهم بطن يسكنون ظبرة بني حاطب بالبون) ومن بني انعم بن الخارف (ظليمة بن أنعم، وعبس بن عاصم بن أنعم) ومن بني خارف (نطع بن عمرو، بطن، ولوم، بطن) ومن صعب بن خارف (شهر بن صعب، بطن) وغيرهم[١]. فقد كان مخلاف بني خارف مخلافاً كبيراً يمتد من ناحية خارف وناعط في عمران إلى ظليمة وعبس في أعالي غرب حجه. وقد كان في الوفد من شخصيات خارف عميرة بن مالك الخارفي، وضِمام السلماني، قال ابن هشام: ضمام بن مالك السلماني، وجاء في الإكليل أنه (ضمام بن زيد بن ثوابة بن الحكم بن سلمان بن عبد عمرو بن خارف، وهو وافد بني خارف إلى النبي ﷺ، وكان شريفاً)[١]. ولكن أكبر شخصية في الوفد من حاشد ومخلاف خارف هو القيل أبو ثور مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار الناعطي، وكان زعيم ناعط ومخلاف خارف وكبير أقيال حاشد وكان بمثابة الملك، قال علقمة:

وكانت ناعطُ عجباً عجيباً ... وذو المشعار ساكنها فطابا[٢]

وَيَامْ هو (يام بن اصبا بن دافع بن مالك بن جُشم بن حاشد) فأنجب يام: جُشم بن يام ومذكر بن يام، فانحدرت من مذكر بن يام ثلاثة بطون هبرة، ومواجد، والأغز. وانحدر من جشم بن يام بطنان: صعب، والدؤول. ومنهم كان الشاعر الجاهلي عبد العز بن سبع بن النمر بن ذهل بن مسلمة بن دؤول بن جشم بن يام، وابنه مدرك بن عبد العز، وهو القائل:

وأنى لكمْ أن تبلغوا مجد يامنا ... وأرحبَ حتى يُنفد التُربَ ناقِلُه

فَهُمْ أصلُ همدان الوثيق وفَرْعُها ... قديماً، وأعلا هَضْبها وأطاوِلُه

وجاء في ترجمة العوام بن جهيل بالإصابة أنه (العوام بن جهيل الهمداني ثم المسلمي) فيكون من بني مسلمة بن دؤول بن جُشم بن يام.

(١) الإكليل ـ جـ١٠ ص٧٠.
(٢) أفردنا لمالك ذي المشعار الحاشدي مبحثاً خاصاً في هذا الكتاب.

أما شاكر فهو (شاكر بن ربيعة بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل)، وانحدرت بطون شاكر من أبناء شاكر الثلاثة وهم أمير بن شاكر، ودهمه بن شاكر، ووائلة بن شاكر.

فانحدر من (أمير بن شاكر: بطنان كبيران هما: بنو عبد، وبنو منبه. وأكبرهم (بنو عبد بن أمير بن شاكر) قال الهمداني في الإكليل: (فَمِنْ بني عبد: بنو عثمان، وبنو سيف، وبنو مالك، وبنو نمرة، وبنو الذّواد)، أما (منبه) فهو (مُنَبه بن أمير بن شاكر) قال الهمداني (وأمير بن شاكر هي اليوم أثرى شاكر، وذهبت عليها وائلة ودهمة بالصوت والنجدة).

وكانت وائلة بن شاكر أربعة بطون: واهب بن وائلة، وجذيمة بن وائلة. والْغَزْ بن وائلة، وبَدّا بن وائلة، ومناطقهم في النصف الشرقي من محافظة صعده إلى نجران، وكان منهم الفارس الشاعر الجاهلي جذيمة بن وائلة بن ربيع (بن سحمة) بن جذيمة بن وائلة بن شاكر وهو القائل:

يا لهمدان ابن زيد إنما ... نفلُ الحرب لنا حين تُشَدْ
لا يملّ الحرب يوماً مثلكم ... فيكم الثروة تُخشى والعدد

ومن ولده المجالح بن عمرو بن جذيمة بن وائلة بن ربيع، كان فارس همدان وأدرك الإسلام وله قال عمرو بن معدي كرب الزُبيدي:

لعمري لقد مَنَّ المجالح مِنَّةً ... عليَّ فنعماها له آخر الدهر

وأما دهمه بن شاكر، فكانوا بطوناً كثيرة انحدرت من ابنّي دهمة بن شاكر، وهما: وابش بن دهمه، وثوابه بن دهمة فَمِنْ بني ثوابة بن دهمة: (عِتلة ـ بكسر العين ـ (وهم العتلات في جبل برط)، وعفر بن ثوابة وهم العفور، ونسير بن ثوابة وهم النسور، وغراب بن ثوابة وهُمْ الغرابات، وساوان، وجعدة وهُم الجعود، وصفي بن ثوابه وهم الصفيات، وجذيمة، وجحش، وسعيد). ومِنْ بني وابش بن دهمة بن شاكر: بنو حيّ، وبنو نوف، وبنو حطبان، قال الهمداني: (بطونُ كلها، فمن بني حطبان قيس بن زرارة من بني عمرو بن حطبان بن وابش كان من أصحاب عليّ، وقيس بن الأرقط بن الحارث من ولد عمرو بن حطبان شهد القادسية وكان من فرسانها)[1]. وقد اجتمعت دهمة بن شاكر في خمسة بطون هم: بنو عوف،

(١) الإكليل للهمداني ـ جـ١٠ ص١٩١ ـ وقال القاضي المؤرخ محمد بن علي الأكوع رحمه الله في هامش كلام الهمداني عن شاكر بالإكليل: (ومن رجالات شاكر اليوم قبيلة ذي غيلان: محمد وحسين، فمن ذي حسين: الشهيد الحسن بن صالح الشائف والمناضل =

وآل عمار، وآل سالم، والعمالسة وذو غيلان، وذو غيلان هم ذو محمد وذو حسين. وتنقسم ذو محمد إلى قسمين آل أحمد بن سويدان وهم آل أحمد بن كول[(١)]. وآل دمينة، وآل صلاح، والقسم الثاني: المحلف وهم ذو زيد وذو موسى. والقسم الثالث: آل محمد وهم المعاطرة ويقال لهم الخميس السادس، وبذلك فإن مناطق وقبائل شاكر كانت واسعة، وقد وصفهم مالك بن نمط في كلمته بين يدي رسول الله ﷺ قائلاً: (وشاكر أهل السود والقود) وجاء في هامش السيرة أن (السود ههنا: الإبل، والقود: الخيل) ولم يذكر مصدر ذلك التعريف، والظاهر أن أهل السود والقود إنما هو أهل السيادة والقيادة.

وقد اكتفت الروايات بذكر قول مالك بن نمط في كلمته (من مخلاف خارف، ويام، وشاكر) ولا بد أنه ذكر بقية بطون بكيل وحاشد التي كانت متمثلة في الوفد، ولم تحفظ وتروي كتب السيرة النبوية والتاريخ سوى ما تقدم من كلمته، والواقع أن ما حفظته وروته السيرة من كلمة مالك بن نمط يعتبر كثيراً، فلم تحفظ لنا المصادر شيئاً من كلمات رؤساء وفود مماثلة قدمت إلى رسول الله ﷺ مثل وفد دوس، والأشاعر، وكندة، ومذحج، وغيرهم، مما يدل على الأهمية الكبيرة التي حظي بها قدوم وفد همدان بمعية مالك بن نمط إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام.

* * *

= ناجي بن علي الشائف ونجله الشريف حمود بن ناجي الشائف. ومن ذي محمد: الشهيدان محمد بن الحسن بن قاسم أبو راس وعبد الله بن الحسن بن قائد أبو راس، وأمين بن الحسن بن قاسم أبو راس أحد أعمدة الثورة. ومن آل دماج المناضل الكبير العالم الأديب مطيع بن عبد الله دماج. ومن آل أحمر عبد الله بن الحسن خرصان وعبد الله بن ناجي دارس، ومن آل ثوابه الرجل الصالح البطل عبد الله بن محسن ثوابه).

(١) آل أحمد بن كول خميس كبير في برط وانتقلت منهم بيوت عديدة منذ مئات السنين إلى محافظة إب، منهم آل بوراس في ناحية ذي سُفال، وآل دماج وأبو إصبع في نواحي السياني وجبله والتعكر، وآل الفرح في مخلاف عمار وناحية الرضمة بمنطقة ذي رعين قال القاضي الأكوع في هامش الإكليل: (ومن زعماء ذي رعين الذين أدركنا عصره الشيخ طاهر بن الحسين الفرح والشيخ عبد الله بن أحمد صلاح، كان من حذقة الرجال وكملتهم، وكان ـ الفرح ـ من أمجاد وأجواد عصره) [جـ٢ ص٣٣٥] ومن آل الفرح مؤلف هذا الكتاب محمد بن حسين بن محمد بن قائد بن سعد بن محسن بن محمد بن محمد بن محسن بن عبد الله بن حسين بن أحمد بن الفرح. ومن كبار إقيال وإعلام عصرنا الوزير صادق بن أمين بن حسن بن قاسم بن حسين بن ناجي بن مفلح بن قائد بن حسين أبو راس وهو من أنبل الرجال وأصدق الرجال وأشجع الرجال وأوفى الرجال. والدكتور الأديب همدان بن زيد بن مطيع بن عبد الله دماج.

وقد مكث الصحابي مالك بن نمط والذين معه من أقيال ورجالات بكيل وحاشد فترة من الزمن في المدينة المنورة وصحبوا رسول الله ﷺ وأضحوا جميعهم من الصحابة، وألقى مالك بن نمط قصيدة بين يدي رسول الله ﷺ والصحابة (ربما في اللقاء الذي تلى وصول الوفد بين رسول الله ﷺ ومالك بن نمط وكبار شخصيات الوفد بحضور كبار الصحابة الذين كانوا في المدينة المنورة)، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة تلك القصيدة قائلاً: «وكان مالك بن نمط شاعراً محسناً وهو القائل:

ذكرتُ رَسُولَ اللَّهِ في فَحمَة الدُّجى ... ونَحْنُ بأَعْلَى رَحْرَحَان وَصَلْدَدِ[١]

وهُنَّ بِنَا خُوصٌ طلائحُ تَغْتَلِي ... بِرُكبانها في لاحبٍ مُتَمَدِّدِ[٢]

على كُلِّ فتلاء الذِّرَاعَيْنِ جَسْرَةٍ ... تَمُرُّ بِنَا مَرَّ الهِجَفِّ الْخَفِيدَدِ[٢]

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقصات إلى مِنًى ... صَوَادِرِ بالرَّكبانِ مِنْ هَضْبِ قَرْدَدِ[٣]

بأَنَّ رَسُولُ الله فِينَا مُصَدَّقٌ ... رسول أتى مِنْ عند ذي العرش مُهْتَدِ

فَمَا حَمَلتْ من ناقةٍ فَوْقَ رَحْلِها ... أشدَّ على أعدائه من مُحَمَّدِ

وأعْطى إذا ما طالِبُ العُرْفِ جاءه ... وأمْضى بِحَدِّ المَشْرَفِيِّ المُهَنّدِ»[٤]

وكان ممن دخل إلى رسول الله ﷺ وتحدث معه في ذلك اللقاء العوام بن جهيل سادن بيت الصنم يعوق الذي سمع الهاتف فأسلم ولحق بالوفد، قال العوام بن جهيل: (فصادفتُ وفد همدان، فدخلت على النبي ﷺ فأخبَرْتُه خبري، فسُرَ النبي ﷺ ثم قال لي: أخْبِر المسلمين. وأمرني النبي ﷺ بكسر الأصنام، فرجعتُ إلى اليمن وقد امتلأ قلبي بالإسلام، وقُلتُ في ذلك:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنّا شآمي قَوْمِنَا ... وَمَنْ حلّ بالأجوافِ، سِراً وأجْهَرَا

بأنّا هدانا اللَّهُ الحق بَعْدَمَا ... تَهَوَد مِنّا حائرُ أو تَنَصَرا

وأنّا سَرينا مِنْ يَغوثَ وقُربه ... يَعُوقَ، وتابعناك يا أخير الورى)

---

(١) الفحمة: السواد في أول الليل. والدُّجى: الظلام. ورحرحان وصلدد: موضعان مَرَّ وفد همدان بهما في طريقه من اليمن إلى المدينة.

(٢) وهُنّ: يريد الإبل. خُوصُ: الخوص جمع خوصاء وهي الغائرة العين. وطلائح: جمع طليح وهي ذات العياء. وتغتلي: تشتد في سيرها. واللاحب: الطريق الواضح. والجسرة: الناقة القوية السير. والهجف: الذكر من النعام. والخفيدد: السريع.

(٣) الراقصات: نوع من سير الإبل فيه حركة. وهضب قردد: هضبة قردد، والقردد: ما ارتفع من الأرض.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة مالك بن نمط ـ جـ٣ ص٣٥٦.

وقد ذكرت تراجم الصحابة والمصادر التاريخية والوثائقية أسماء زهاء عشرين من الصحابة الذين وفدوا إلى رسول الله ﷺ مع مالك بن نمط والتقوا برسول الله ﷺ وصحبوه من بينهم كل من الصحابة:

١ ـ أبو ثور مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار بن أيفع بن ربيب بن شراحيل الناعطي رئيس ناعط وكبير أقيال حاشد.

٢ ـ مالك بن أيفع: قال القرطبي في الاستيعاب (مالك بن أيفع بن كرب الناعطي قدم على رسول الله ﷺ في وفد همدان)[١].

٣ ـ ضِمام السلماني: وهو كما في الإكليل (ضمام بن زيد بن ثوابة بن الحكم بن سلمان بن عبد عمرو بن مالك الخارفي الحاشدي، وافد بني الخارف إلى النبي ﷺ وكان شريفاً). وجاء في كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة (ضمام بن زيد الهمداني: وفد على النبي ﷺ، وكتب له النبي ﷺ كتاباً، وذلك مرجعه من تبوك)[٢]. وقد جاء في السيرة النبوية أنه كان في الوفد مع مالك بن نمط.

٤ ـ عميرة بن مالك الخارفي الحاشدي الهمداني: قال العسقلاني في الإصابة: (عميرة ـ بالتصغير ـ ابن مالك الخارفي: ذكره أبو عمر في ترجمة مالك بن نمط، واستدركه ابن الأثير)[٣].

٥ ـ حمرة بن مالك أبو شعيرة: ذكره العسقلاني في الاصابه فقال: (حمرة بن مالك بن ذي المشعار. قال ابن سعد في طبقات الصحابة: قدم وفد همدان إلى رسول الله ﷺ وفيهم حمرة بن مالك بن ذي المشعار، فقال رسول الله ﷺ: نعم الحي همدان. الحديث)[٤] وقد كان في الوفد ابن ذي المشعار وهو مالك بن حمرة ذي المشعار بن أيفع بن ربيب بن شراحيل بن عامر الناعطي، أما هذا فقد ذكر العسقلاني نسبه بأنه (حمرة بن مالك بن ذي المشعار بن مالك بن منبه بن سلمة بن مالك بن عذر بن سعد بن رافع بن مالك بن جشم بن حاشد) وليس ذلك نسب ذي المشعار وإنما هو نسب أبي شعيرة وهو كما في الإكليل (حمرة بن مالك بن سعد بن حمرة بن مالك وهو أبو شعيرة بن منبه بن سلمة بن مالك بن عذر ـ العذري ـ بن سعد بن دافع بن جشم بن حاشد)[٤]

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ترجمة مالك بن أيفع ـ ص٣٧٥.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص٤٣ ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص٢٣٤.

(٣) الإصابة ترجمة عميرة بن مالك الخارفي ـ جـ٣ ص٣٩.

(٤) الإصابة ـ ترجمة حمرة بن مالك ـ جـ١ ص٣٥٣ ـ والإكليل للهمداني ـ جـ١٠ ص٥٤.

وأنه (كان أبو شعيرة من عظماء عذر في الجاهلية)[١] فكان حمرة بن مالك أبو شعيرة كبير قبيلة عذر وممثلها في وفد همدان إلى رسول الله ﷺ.

٦ ـ علك ذو خيوان الحاشدي: كان كبير وقيل خيوان في الجاهلية فقدم عليه مالك بن نمط ودعاه إلى الإسلام فأسلم، ثم لحق بالوفد وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً، وجاء في وثائق العهد النبوي عن أسد الغابة لابن الأثير وطبقات الصحابة لابن سعد أنه (قدم علك ذو خيوان على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ إن مالكاً[٢] قدم علينا يدعو إلى الإسلام، فأسلمنا ولي أرض فيها رقيق ومال، فاكتب لي به كتاباً فكتب: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله لعك ذي خيوان: إن كان صادقاً في أرضه وماله ورقيقه، فله الأمان وذمة الله وذمة محمد رسول الله. وكتب خالد بن سعيد بن العاص). انتهى[٣].

٧ ـ عمير ذي مران بن أفلح ذي مران الحاشدي كان من كبار الأقيال، وهو (المشارك لذي المشعار في أرض البون ومخلاف خارف)، ولم يكن في الوفد وإنما بعث رسالة شفوية مع مالك بن نمط إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ كتاباً مع مالك بن نمط ـ كما سيأتي ـ والظاهر أن الذي كان في الوفد هو ابنه مران بن عمير ذي مران وهو صحابي ومن كبار الأقيال[٤].

٨ ـ حارث العريان النهْمي، من بني حريب بن حرب بن نهم ـ النهمي ـ بن ربيعة بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل، البكيلي الهمداني، وبنو نهم أخوة شاكر، وقد انحدرت من أبناء نهْم بطون كثيرة وهم بناحية نهم بمحافظة صنعاء وفي عدة نواحي بمحافظة مأرب، قال الهمداني في الإكليل: (وهاجر العريان واسمه حارث، وشهد بعض أيام النبي ﷺ فقاتل بإزار بقوس وقرن، فقال النبي ﷺ: من هذا العريان، فسُمي العريان وله طعمة بجوف المحورة)[٥].

٩ ـ عبد الله بن مالك الأرحبي البكيلي الهمداني، من رجالات قبيلة أرحب، قال العسقلاني في ترجمته بالإصابة: «كان من أصحاب رسول الله ﷺ، له هجرة وفضلُ في دينه».

---

(١) الإصابة ـ ترجمة حمرة بن مالك ـ جـ١ ص٣٥٣ ـ والإكليل للهمداني ـ جـ١٠ ص٥٤.
(٢) جاء في الوثائق (مالك بن مرارة) وهو مبعوث أقيال حمير إلى رسول الله ﷺ ولم يكن في همدان، فالذي كان في همدان هو مالك بن نمط.
(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٢٣٤.
(٤) انظر المبحث الخاص بعمير ذي مران في هذا الكتاب.
(٥) الإكليل ـ لأبي الحسن الهمداني ـ جـ١٠ ص١٩٦.

١٠ ـ نمط بن قيس بن مالك نمط السفيان الأرحبي، نجل الصحابي قيس بن نمط، ذكره العسقلاني في الإصابة، وكان قد وفد مع أبيه إلى رسول الله ﷺ ثم وفد مع عمه مالك بن نمط في وفد همدان فهو من المائة والعشرين الذين وفدوا مع مالك بن نمط، وكان قيس بن نمط قد بلغ من الكبر عتياً.

١١ ـ العوام بن جهيل المسْلمي اليامي الهمداني سادن يعوق بخيوان، وتولى هدم الصنم يعوق وغيره من الأصنام بعد رجوعه إلى اليمن مع مالك بن نمط والذين معه من الصحابة الهمدانيين رضي الله عنهم.

* * *

وكان رسول الله ﷺ قد التقى بمالك بن نمط والذين معه حين تهياء مالك للعودة إلى اليمن، وفي ذلك اللقاء الأخير، كتب رسول الله ﷺ ـ وأعطى ـ عدة كتب لمالك بن نمط تتصل بتنظيم الوضع الإداري ـ السياسي ـ والزعامات وبالتعاليم الدينية وغير ذلك من الأمور التي تحويها تلك الكتب، كما عهد رسول الله ﷺ لمالك بن نمط بقتال قبيلة ثقيف الحجازية بالطائف وما جاورها، فقد ذكر ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة والقرطبي في كتاب الاستيعاب نباء وفد همدان، ثم ذكرا:

«إن رسول الله ﷺ أمّر عليهم مالك بن نمط، واستعمله على من أسلم من قومه، وأمره بقتال ثقيف، فكان لا يخرج لهم سرجُ إلا أغار عليه»[١].

ويتبين من ذلك أن مالك بن نمط وفرسان همدان تولوا حصار ثقيف بالطائف وما جاورها لفترة من الزمن، ولعل ذلك كان من أسباب إذعان ثقيف للحق ومسير وفدهم إلى رسول الله ﷺ ودخولهم في دين الإسلام.

* * *

أما الكتب النبوية التي كتبها رسول الله ﷺ وأعطاها لمالك بن نمط أو بعثها معه، فهي ثلاثة كتب أو أربعة:

١ ـ كتاب رسول الله ﷺ لذي المشعار مع مالك بن نمط:

وهو كتاب تذكره كافة المصادر وتذهب إلى أنه (كتاب رسول الله ﷺ لذي المشعار مالك بن نمط)، ولا شك في وقوع التباس وخلط بين ذي المشعار ومالك بن نمط، فذو المشعار هو مالك ذو المشعار بن حُمرة بن أيفع الناعطي

(١) الإصابة ـ جـ٣ ص٣٥٦ ـ ولاستيعاب ـ ص٣٧٩.

الحاشدي الهمداني كبير أقيال ناعط ومخلاف خارف وحاشد، ومالك بن نمط أرحبي بكيلي، وإنما وقع الالتباس لأن ذا المشعار وفد مع مالك بن نمط، وإن اسميهما كليهما (مالك) فالكتاب إنما هو (لذي المشعار الوافد مع مالك بن نمط)، ونذكر فيما يلي نص الكتاب كما جاء في وثائق العهد النبوي وهو.

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لمخلاف خارف وأهل جناب الهَضْب وحِقاف الرمل، مع وافدها ذي المشعار، لمالك بن نمط[١] ومَنْ أسلم مِنْ قومه: أن لهم فِراعَهَا ووهاطَها[٢]. يأكلون عَلاَفَها ويرعون عفاءها[٣]. ما سلموا بالميثاق و الأمانة. لهم من الصدقة: الثالب، والناب، والفصيل، والفارض، والداجن، والكبش الحوري، وما عليهم فيها الصالغ والقارح. لهم بذلك عهدُ الله وذمام رسوله. وشاهدهُم المهاجرون والأنصار». انتهى[٤].

٢ ـ كتاب رسول الله ﷺ لعمير ذي مران مع مالك بن نمط:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ إلى عمير ذي مران، ومَنْ أسلم من همدان. سلام عليكم، فإنّي أحمد الله إليكم، الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد ذلكم، فإنه بلغني إسلامكم مرجعنا من أرض الروم[٥]، فأبشروا فإن الله قد هداكم بهُداه. وأنكم إذا شهدتم[٦] أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبد الله ورسوله، واقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، فإنّ لكم ذمة الله وذمّة رسوله، على دمائكم وأموالكم، وأرض البون التي أسلمتم عليها، سهلها وجبلها وعيونها وفروعها، غير مظلومين ولا مضيّق عليكم. وإن الصدقة لا تحل لمحمد وأهل بيته إنما هي زكاة تزكونها عن أموالكم لفقراء المسلمين. وإن مالكاً[٧] قد حفظ الغيب

---

(١) لعل الصوب هنا (لوافدها ذي المشعار مع مالك بن نمط).

(٢) الفراع ـ بكسر الفاء ـ أعالي الأرض. والوهاط: جمع وهط، وهو المنخفض المطمئن من الأرض.

(٣) العلاف: ثمر الطلح. والعافي: الكثير النبات، يقال: عفا النبتُ إذا طال وكثر.

(٤) أسدُ الغابة لابن الأثير ـ جـ٤ ص٤٩٢ ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٦٩ ـ إعلام السائلين ـ جـ١ ص١٧ ـ والوثائق السياسية للعهد النبوي ص٢٣٣.

(٥) مرجعنا من أرض الروم: مرجعنا من تبوك. وكانت تبوك في رجب ٩ هجرية.

(٦) إذا شهدتم. هكذا في الأصل. والأصوب (إذْ شهدتم) لأنهم قد أسلموا وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

(٧) جاء في الوثائق السياسية هنا عن إعلام السائلين أن مالكاً هو (مالك بن نويرة) وعن الروايات الأخرى (مالك بن مرارة) والصواب (مالك بن نمط).

وبَلِّغَ الخبر، فأمركم به خيراً فإنه منظور إليه. وآمرك به يا ذا مَرّان خيراً فإنه منظور إليه. والسلام عليكم»[١].

٣ ـ كتاب وعهد رسول الله ﷺ لمالك بن نَمَطْ وقيس بن نَمَطْ

قال القرطبي في الاستيعاب: «وكتب رسول الله ﷺ كتاباً لمالك بن نمط فيه إقطاع»[٢]. ولم يذكر نص الكتاب، ولكن عبارة (فيه إقطاع) تشير إلى كتاب رسول الله ﷺ لقيس بن نمط، وهو أخو مالك بن نمط.

وقال العسقلاني بعد ذكر نباء وفد همدان: «فكتب رسول الله ﷺ كتاباً، وأقطعهم فيه. وأمَّرَ عليهم مالك بن نمط واستعمله على مَنْ أسلم من قومه»[٢]، وكذلك جاء في كتاب الأنباء «فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً، وأمَّرَ عليهم مالك بن نمط»[٢].

بينما جاء في الإصابة وأسد الغابة وطبقات الصحابة ووثائق العهد النبوي أن الذي استعمله رسول الله ﷺ هو قيس بن مالك نمط الأرحبي الهمداني، ويمكن أن يكون رسول الله ﷺ بعث الكتاب مع مالك بن نمط، وقد أخرج ابن مندة وأبو يعلى وأبو نعيم نص كتاب رسول الله ﷺ لقيس باستعماله على همدان، وجاء فيه:

«سلام عليك؛ أما بعد، فإني استعملتك على قومك، غَرْبهم، وأحمورهم، ومواليهم..»[٣].

وفي وثائق العهد النبوي عن طبقات ابن سعد والمطالب لابن حجر: «كتب رسول الله ﷺ لقيس الهمداني عهده على قومه همدان: أحمورها، وغَرْبها، وخلائطها ومواليها: أن يسمعوا له ويطيعوا»[٣] وجاء في الوثائق بين قوسين: (غَرْبها: يعني قبائل أرحب، ونهم، وشاكر، ووادعه، ويام، ومرهبه، ودالان، وخارف، وعذر، وجحور). و(احمورها: يعني قبائل قُدم، وآل ذي مران، وآل ذي لعوه، واذواء همدان)[٣]. ويشمل ذلك كل همدان حاشدها وبكيلها.

فأصبح قيس بن نمط الأرحبي عامل رسول الله ﷺ على قبائل ومناطق بكيل وحاشد جميعها ومعه مالك بن نمط الأرحبي الهمداني، وكان قيس قد بلغ من الكبر

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوية ـ ص٢٣٠ ـ عن إعلام السائلين ـ جـ١ ص٨ ـ واليعقوبي ـ جـ٢ ص٨٩ ـ المصنف لابن أبي شيبة ـ جـ١ ص٩٨ ـ معجم الصحابة لابن قانع ـ جـ١ ص١٢١ ـ سنن أبي داود ـ جـ٢٧ ص١٩ ـ أسد الغابة ـ جـ٢ ص١٤٥ ـ المعارف لابن قتيبة ـ ص٢٣٤.

(٢) الاستيعاب ـ ص٣٧٥ ـ الإصابة ـ جـ٣ ص٣٥٦ ـ والأنباء ـ ص١٧.

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٢٣٢.

عتياً، فكان مالك بن نمط يتولى الأمور كعامل لرسول الله ﷺ على همدان، وذلك في إطار الولاية العامة لمعاذ بن جبل الأنصاري على عُمال اليمن حتى وفاة رسول الله ﷺ.

* * *

ولما توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام كان مالك بن نمط من بين زعماء همدان الذين تنادوا إلى اجتماع عام عند ذي المشعار في ناعط حينما توفي رسول الله ﷺ، قال ابن حجر العسقلاني:

«فقام فيهم عبد الله بن مالك الأرحبي، وكان من أصحاب النبي ﷺ، وله هجرة وفضل في دينه، فقال: يا معشر همدان، إنكم لم تعبدوا محمداً، إنما عبدتم رب محمد وهو الحيّ الذي لا يموت، غير أنكم أطعتم رسوله بطاعة الله، واعلموا أنه استنقذكم من النار، ولم يكن الله ليجمع أصحابه على ظلاله، ثم أنشد:

لَعَمْري لئن مات النبيُّ محمدُ ... لما مات، يا ابنَ القيل، ربُّ محمدِ

دعاهُ إليه ربه فأجابه، ... فيا خير غوري، ويا خير مُنجد»[١]

فثبتت همدان وسائر اليمن على الإسلام، وبعثت همدان وفداً إلى الخليفة أبي بكر الصديق، فيهم عبد الله بن مالك بن نمط الأرحبي ومران بن عمير ذي مران ومسروق بن ذي الحرث الحاشدي الهمداني فكان لهم ولهمدان موقف خالد في الثبات على الإسلام[٢] ولم يزل مالك بن نمط من الصحابة الزعماء في اليمن إلى أن توفي رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) الإصابة ـ ترجمة عبد الله بن مالك الأرحبي ـ جـ٢ ص٣٦٥.

(٢) انظر موقف همدان وكلمات وقصائد الوفد في الثبات على الإسلام عند أبي بكر الصديق في المبحث الخاص بذي المشعار وعمير ذي مران بهذا الكتاب.

٧

زيد بن حارثة.. أولُ المُسلمين.. وأول الصحابة

مِنْ كبار الصحابة، وأول الصحابة، وأول من أسلم وآمن برسول الله ﷺ هو زيد بن حارثة الكلبي القضاعي الحميري. قال ابن عبد البر القرطبي في ترجمته بالاستيعاب: (ذكر معمر في جامعه عن الزهري قال: ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة)[١]، وجاء نص الإمام الزهري في الإصابة بلفظ (ما نعلمُ أن أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة) ثم قال العسقلاني: (وقد ذكره الواقدي بإسناد له عن سليمان بن يسار جازماً بذلك ـ أي بأن زيد بن حارثة أول من أسلم ـ)[٢].

* * *

ونستهل هذا المبحث بذكر أن زيد بن حارثة رضي الله عنه هو: (زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى ـ وهو كعب ـ بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبدو ودّ بن عوف بن بكر بن عوف بن كعب بن عوف بن عامر بن عوف بن عدي بن زيد بن رفيدة بن كلب الكلبي). وكلب هو: كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرّة بن زيد بن مالك بن حمير بن سباء[٣].

وكانت كلب من القبائل القضاعية الحميرية الكبيرة التي انتشرت في العصر الحميري للسيطرة على الطرق التجارية وتأمينها بين اليمن والشام، فسكنت فرقة من كلب في تبوك ودومة الجندل بين الحجاز والشام فحكموها، وفي ذلك قال ابن خلدون: (فكانت لكلب دومة الجندل وتبوك)[٣] وانتشرت فرقة من كلب ما بين الدهناء ورملة عالج إلى تدمر بالشام، وفيهم قال شاعر جاهلي:

وكلبٌ لها ما بين رملة عالجٍ إلى الحرّة الرجلاء من أرض تدمر[٤]

بينما مكثت فرقة من كلب بمنطقتهم في اليمن وهي منطقة صعده، وما يليها

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ترجمة زيد بن حارثة ـ ص٥٤٥.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة زيد بن حارثة ـ جـ٢ ص٥٦٣.
(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١١٥ و١٢٠.
(٤) صفة جزيرة العرب ـ للحسن الهمداني.

في سروات أعالي اليمن من مناطق قضاعة الحميرية، ومما يتصل بذلك ويدل على منطقة كلب الذين منهم بنو عوف عشيرة زيد بن حارثة وهي صعد، وسراة اليمن، أن حرباً وقعت في الجاهلية بين عشائر همدان الساكنة في النصف الشرقي من لواء صعده وبين خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة الساكنين في حقل صعدة والنصف الغربي من لواء صعدة وكانت كلب مع خولان في تلك الحرب بل أن عقيل بن مسعود العوفي الكلبي كان زعيم قضاعة في تلك الحرب، قال الهمداني في الإكليل: (وكان يزيد بن معاوية بن دومان بن عميرة بن الدعام الهمداني فارساً مُضرّاً في حرب خولان وهو الذي طعن عقيل بن مسعود الكلبي سيد قضاعة فخرم أنفه، وفي ذلك قال عقيل:

معاوي إني قد ذهبتُ بوسمة   من ابنك في وجهي وليس تغيب
فإن غاب يوماً كنت أنت مكانه   وسوف تراني يوم ذاك ألوب[١]

وكذلك جاء في الإكليل أنه: (أولد عميرة بن الدعام أوسله ودومان، فأولد أوْسَلَه زيداً، فأولد زيد مالكاً ويُعرف بالحما، وهو أحد من قام بحرب خولان وهو القائل لعقيل بن مسعود الكلبي سيد قضاعة باليمن:

أبا ربيعة إنّ الحقّ مغضبةُ   آثرت قومِك إذْ نادى مُناديها
وكُنْتَ عَدْلاً تقولُ الحقّ مُعْتَلِماً   وللعدالة أسبابُ تؤديها)[١]

وانتهى ذلك الخلاف القبلي ـ الهمداني القضاعي ـ في صعدة بتحكيم عقيل بن مسعود الكلبي سيد قضاعة بصعدة في الجاهلية والذي من أقاربه كان حارثة بن شراحيل العوفي الكلبي والد زيد بن حارثة، وكان حارثة من مشايخ وأعيان كلب وقضاعة بصعدة.

قال القرطبي: «وأم زيد: سُعدىٰ بنت ثعلبة بن عبد عامر بن أفلت. من بني معن من طيئ»[٢]، وهم: بنو أفلت بن مَعْن بن عمرو بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن غوث بن طيئ، وطيئ أخو مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عَريب بن زيد بن كهلان بن سباء. وقد انتقلت وانتشرت طيئ في العصر الحميري من منطقتها في براقش بالجوف إلى جبلى أجا وسلمى بنجد وعلى طريق التجارة من الجوف إلى نجد والدهناء وتخوم العراق، فكان بنو أفلت بن مَعْن يسكنون في منطقة بالطريق بين نجد والحيرة، ومنهم كانت سُعدى بنت ثعلبة والدة زيد بن حارثة.

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ١٠ ص١٣٦.
(٢) الاستيعاب للقرطبي ـ ص٥٤٥.

فرغبت (سُعدى) في زيارة أهلها، فأعدّ لها حارثة الراحجلة والمتاع، فسافرت مع ابنها زيد بن حارثة في قافلة من صعدة إلى ديار بني مَعن أخوال زيد، وبعد فترة عادت سُعدى مع بعض أقاربها بدون زيد، وأخبرت زوجها حارثة بما حدث لزيد، فأثناء مكوثها مع ابنها زيد في ديار بني معن، أغارت عصابة على ديار بني معن وكان زيد مع بعض الأولاد في ضواحي الديار، فاختطفتهم العصابة وأخذتهم سبياً، فلما علم حارثة بذلك أصابه حزن شديد، وخرج في فرسان من كلب يبحثون عن زيد، فما وجدوا له ولا للذين خطفوه وسبوه خبراً، وأطال حارثة وقبيلته البحث عن زيد، فقد كان أول شخصُ يُخطفُ أو يُسبى من قبيلة كلب العتيدة ومن سلالة حمير بن سباء ملوك اليمن والعرب القدماء، فكان حارثة يشد الرحال من منطقة إلى أخرى في نجد إلى الحيرة وغيرها عسى أن يجد زيداً فيفديه أو يجد أثراً يدل عليه، ومَضَت الشهور وما زال حارثة يبحث عن زيد، فسألته قبيلة كلب أن يكُفّ عن ذلك، فقال حارثة أبياتاً ذكرها القرطبي في الاستيعاب عن المؤرخ هشام بن الكلبي وهو من نفس عشيرة ومنطقة زيد بن حارثة[١] وأبيات حارثة هي:

بَكَيْتُ على زيدٍ ولَمْ أدْرِ ما فَعَلْ ... أَحَيٌّ يُرَجَّى؟ أم أتَىٰ دونه الأجَلْ؟
فوالله ما أدْري، وإني لسَائِلُ ... أغالَكَ بَعْدِي السَّهْلُ؟ أم غَالَكَ الجَبَلْ؟
. تُذَكِّرُنِيه الشمسُ عند طلوعها، ... وتَعْرِضُ ذِكراهُ إذا غَرْبُهَا أفَلْ
وإنْ هَبَّتَ الأرواح[٢] هَيَّجْنَ ذِكْرَه ... فيا طولَ ما حُزني عليه، ويا وَجَلْ
سأُعْمِلُ نص العِيسِ في الأرض جاهداً[٢] ... ولا أسأم التطواف، أو تسامُ الإبلْ
حياتيَّ، أو تأتي عليَّ منيتي، ... وكل امرئٍ فانٍ، وإنْ غَرَّهُ الأملْ
سأوصي به قيساً وعمراً كليهما ... وأُوصي يزيداً. ثم من بعده جَبَلْ

وبذلك أكّد حارثة أنه لن يفتاء يبحثُ عن زيد في حياته، وإذا مات سيوصي إخوة زيد بمواصلة البحث عنه، وهم قيس وعمرو، (وجَبَلة بن حارثة أخا زيد وكان أكبر من زيد، ويزيد أخا زيدٍ لأُمه وهو يزيد بن كعب بن شراحيل)[٣].

* * *

(١) هو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحرث بن عبد العزى ـ كعب ـ بن امرئ القيس ـ عامر ـ بن النعمان بن عامر بن عبد ودّ بن عوف الكلبي ـ جـ٢ ص٢٤٨ ـ تاريخ ابن خلدون.

(٢) الأرواح: الرياح. والعيس: الإبل، يريد نواصي الإبل.

(٣) الاستيعاب للقرطبي ـ ص٥٤٥.

وكانت قبيلة كلب وأغلب طيئ ومذحج يعبدون (ودّ) وهو المعبود الرئيسي في نقوش المسند اليمنية القديمة المعثور عليها في براقش ويثل وغيرها بمنطقة الجوف إلى صعدة ونجران، وقد تقدم في نسب زيد بن حارثة أنه من بني (عبد ودّ بن عوف)، وكان اليمانيون على تعدد الآلهة واختلاف أسمائها يعبدون (الله) أيضاً ويحجون بيت الله الحرام بمكة، ويقصدون مكة للحج والتجارة في المواسم.

وفي أحد مواسم الحج التي حج فيها ناسُ من كلب في الجاهلية، رأوا زيداً بمكة فعرفوه والتقوا به فعرفهم، وأخبروه أن أباه ما فتاء يبحث عنه منذ اختطافه من ديار بني معن فلم يجد له أثراً ببلاد طيئ ونجد، فأخبرهم زيد بأن الذين خطفوه من ديار بني معن جاءوا به إلى (سوق حباشه وهو سوق بناحية مكة كان مجمعاً للعرب يتسوقون به كل سنة)[1] فباعوه لحكيم بن حزام بن خويلد اشتراه منهم لعمته خديجة بنت خويلد، فوهبته خديجة لزوجها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فهو مولى محمد الذي يعامله خير معاملة ويرعاه ويعطف عليه أكرم عطف ورعاية. فأخبروه بلوعة أهله وبالشعر الذي قاله أبوه وأن أباه وإخوته ما فتأوا يشدون الرحال بحثاً عنه، (فقال زيد: أبْلِغوا أهلي هذه الأبيات:

أحِنُّ إلى قَومي وإن كنتُ نائياً ... فإني قعيدُ البيت عند المشاعرِ
فكفّوا من الوجد الذي قد شجاكُم ... ولا تُعْمِلُوا في الأرض نَصَّ الأباعرِ
فإني بحمد الله في خير أسرة ... كرام مَعَدٍّ كابراً بعد كابرِ

وقال لهم: أخبروا أبي أني هنا مع أكرم والد).

***

فلما عاد أولئك الكلبيون إلى منطقتهم بنواحي صعده وأخبروا أباه بنباء زيد، شَدّ أبوه حارثة بن شراحيل وعمه كعب بن شراحيل رحالهما إلى مكة ومعهما مال جزيل لفداء واستعادة زيد، فلما وصلا مكة سألا عن بيت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ثم سارا إليه، فلما دخلا عليه قالا له:

(يا ابن عبد المُطّلب، يا ابن سيد قومه، أنتم أهلَ حَرم الله[2] وجيرانه، تفكون العاني، وتُطعمون الأسير. . جئناك في وَلَدِنَا، فامنُنْ علينا، وأحسِن في فدائه.

---

(١) الاستيعاب ص٥٤٧، وفي مصادر أخرى إن السوق هو سوق عكاظ.

(٢) يتفق هذا الوصف مع قول عبد المطلب بن هاشم للملك سيف بن ذي يزن الحميري لما وفد إليه بصنعاء: «فأنتَ ملك العرب وربيعها الذي تخصب به البلاد ورأس العرب الذي إليه تنقاد. . ونحن أيها الملك، أهل حرم الله وسدنة بيته. . .» ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ ٢ص٣٢٠.

فقال محمد: مَنْ هو؟

فقالا: زيد.

قال محمد: فَهَلا غير ذلك؟

فقالا: ما هو؟

قال محمد: أدْعَوا زيداً، فأخيّره، فإن اختاركم فهو لكم بغيرِ فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختارُ عَلَى مَنْ إختارني فِداء.

فقالا: قد زدتنا على النَصَفِ وأحسنت).

ثم بعث من يدعو زيداً (فلما أتى سأله: هل تعرف هؤلاء؟

قال زيد: نعم، هذا أبي، وهذا عمي كعب).

فعانق زيد أباه وعمه، وأخبره محمد بما قاله لهما،

(وقال محمد لزيد: إخْتَرني أو إخْتَرهِما).

فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مِني مكان الأب والعم.

فقال أبوه وعمه: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك؟

فقال زيد: نعم قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً، ما أنا بالذي أختار عليه أحدُ أبداً).

وأعلن محمد أن زيداً لم يعد عبداً ومولى له، فأعتق زيداً، بل وأخذ بيده وخرج به إلى فناء الكعبة، ونادى في الناس فاجتمعوا إليه، فقال محمد: «**يَا مَنْ حَضَرْ، اشهدوا أنَّ زَيْداً ابني، يَرِثني وأرِثُهُ**»».

فلما رأى ذلك أبوه وعمه، طابت نفسيهما، وعادا إلى اليمن، بينما أصبح زيد ابناً بالتبني لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وكان ذلك قبل البعثة النبوية بنحو ثمان سنوات ومن المفيد هنا تبيين التالي:

ـ كان زيد شاباً يافعاً حينما تم اختطافه، ثم حين تبناه محمدﷺ، وقيل إنه كان ابن ثمان سنين، وذلك لا يمكن، فقد جاء في تراجم الصحابة أن محمداًﷺ كان أكبر منه بنحو عشر سنوات، وغني عن البيان أن محمداً تزوج خديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وقد استشهد زيد في غزوة مؤتة سنة ٨ للهجرة وهو ابن خمس وخمسين سنة، فيتبين من ذلك كله أن زيد بن حارثة كان شاباً يافعاً حينما تم اختطافه وسبيه قبل البعثة بنحو ١٧ عاماً فاشتراه حكيم من الخاطفين لخديجة فوهبته لزوجها محمد فبات مولى لمحمد بن عبد اللهﷺ إلى أن أعتقه وتبناه محمد فأصبح ابناً لمحمد بالتبني، وهو ابن ٢٣ سنة تقريباً، وذلك قبل البعثة النبوية بثمان سنوات، لأن زيداً كان ابن ٣١ سنة تقريباً حين بُعث محمدﷺ وهو ابن أربعين

سنة، وبذلك يكون أكبر منه بعشر سنوات، أما إذا أخذنا بوفاة زيد وهو ابن ٥٥ سنة. فيكون عمره في البعثة النبوية نحو ٣٧ سنة وأن محمداً تبناه قبل البعثة بنحو ١٤ عاماً وليس بثمان سنوات.

ـ ومنذ ذلك اليوم الذي خرج فيه محمد إلى فناء الكعبة مُمسكاً بيد زيد ونادى الناس قائلاً: «**يا مَنْ حَضَر، اشهدوا أنّ زيداً ابني يرثُني وَأرِثُه**»، لم يعد زيد مولى لمحمد، فقد انتهت صفته بأنه مولى أو مستعبد لأن محمداً أعتقه، ثم إنه تبناه، فأصبح لا يُسمى إلا (زيد بن محمد) وذلك على مدى ثمان سنوات قبل البعثة النبوية ثم عشر سنوات بعد البعثة بمكة، ثم عدة سنوات بعد الهجرة إلى المدينة حتى أنزل الله الآية القرآنية: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥]، وفي ذلك «قال عبد الله بن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلتْ: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾. أخرجه البخاري»[١] ويتبين من ذلك أن بعض الرواة الذين يصفون زيداً بعد الإسلام بأنه مولى محمد ﷺ وأنه من العبيد يقعون في خطأ فادح ويخالفون رسول الله ﷺ والصحابة والقرآن الكريم، فلا يجوز أن يوصف النبي يوسف بأنه مولى وعبد للذي اشتراه من مصر وإنما يوصف بأنه النبي ﷺ يوسف بن يعقوب وانتهت صفة أنه مولى للعزيز منذ أن انتهت تلك الصفة وأصبح على خزائن مصر، ولا يجوز أن يوصف زيد بن حارثة سليل أقيال وملوك حمير بأنه مولى، وذلك لأن أهله عندما عرفوا مكانه عرضوا الفدية لتخليصه ولكنه اختار محمداً واختاره محمد فأعتقه وتبناه وكان يسمى زيد بن محمد على مدى أكثر من عشرين سنة منها ثمان سنوات قبل الإسلام وعشر سنوات بعد البعثة بمكة وعدة سنوات بعد الهجرة فلما نزلت الآية القرآنية ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ أصبح يدعى زيد بن حارثة الكلبي رضوان الله عليه.

ـ ولقد عاش زيد أيام البعثة النبوية منذ بدايتها الأولى، لأنه كان ابن محمد بالتبني وكان أهل بيت وأسرة محمد ﷺ يومذاك هم محمد وزوجته خديجة وزيد بن محمد وزوجته أم أيمن، فلما أوحي إلى محمد ﷺ عاد من غار حراء إلى بيته حيث كان (زيد) وكانت (خديجة) وكانت (أم أيمن) في ذلك البيت المبارك، والذي فيه أسلم زيد وأسلمت خديجة، فكان أول من أسلم وأول من عرف بالوحيّ والبعثة النبوية هو زيد بن حارثة وهو يومذاك زيد بن محمد، وهو يومذاك رجل حُرّ، لا يقل عمره عن ثلاثين سنة، فهو أول من أسلم من الرجال وخديجة أول مَنْ أسلم مِنْ النساء، بل إنه أول المسلمين.

---

(١) الإصابة ـ جـ٢ ص٥٦٣.

وقال خالد محمد خالد: «ما إن حمل رسول الله ﷺ تَبِعَةَ الرسالة حتى كان زيد ثاني المسلمين، بل قيل إنه كان أول المسلمين»[(١)]، والظاهر من قوله: (كان زيد ثاني المسلمين) أن خديجة هي أول المسلمين، ثم استدرك قائلاً: (بل قيل إنه كان أول المسلمين)، وفي ذلك قال ابن عبد البر القرطبي: «ذكر معمر في جامعه عن الزهري قال: ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة. وقال عبد الرزاق: وما أعلم أحداً ذكره غير الزُهري وقد رُوي عن الزهري من وجوه أن أول من أسلم خديجة»[(٢)] وقد عَقَبَ ابن حجر العسقلاني على قول الحافظ عبد الرزاق: (لم يذكر أن زيداً أول من أسلم غير الزهري)، فقال الحافظ ابن حجر: «قد ذكره ـ أيضاً ـ الإمام الواقدي بإسناد له عن سليمان بن يسار جازماً بذلك، وذكره زائدة أيضاً». ونص ما ذكره في الإصابة: «ما نعلم أن أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة»[(٢)] وليس هناك تعارض بين ذلك وبين ما أشار إليه القرطبي بأن أول من أسلم خديجة، فيجمع ذلك أنهما أسلما معاً، فكانت خديجة أول المسلمات وكان زيد بن حارثة أول المسلمين المؤمنين وأول أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكذلك أسلمت أم أيمن زوجة زيد بن حارثة، فكان الثلاثة أول المؤمنين بالرسالة النبوية، ثم كان أسامة بن زيد أول مولود مسلم، منذ مولده في بيت رسول الله ﷺ بمكة بعد البعثة النبوية، فقد ذكر ابن سعد في طبقات الصحابة أن رسول الله ﷺ توفي في شهر ربيع ١١هـ وأسامة ابن عشرين سنة، وكانت والدة أسامة هي أم أيمن رضي الله عنها. ولما بدأ رسول الله ﷺ يدعو قريشاً إلى الإسلام كان أبو بكر أول من أسلم من قريش وذلك بعد زيد بن حارثة بفترةٍ من الزمن.

* * *

وكان زيد مع رسول الله ﷺ في سائر المواقف منذ البعثة النبوية، قال الحافظ ابن كثير: (وكان يقال له زيد بن محمد، وكان رسول الله ﷺ يحبه حباً شديداً)[(٣)] قال القرطبي: (وكان يقال لزيد بن حارثة حِبّ رسول الله ﷺ وروي عنه ﷺ أنه قال: «**أحبُّ الناس إليّ من أنعم الله عليه وأنعمتُ عليه، يعني زيد بن حارثة**»). وجاء في الإصابة أن رسول الله ﷺ قال لزيد: «**أنت أحبُّ الناس إليّ**». وذكر ابن كثير أن رسول الله ﷺ زَوّجه بأم أيمن واسمها بركة (فولدت له أسامة بن زيد، فكان يُقال له الحِبُّ بن الحِب)[(٣)] وقال حسان بن ثابت الأنصاري في زيد بن حارثة:

حِبُّ خير الأنام طُرّاً جميعاً ... سيِّد الناس حبه في الصدور

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٣٢٩.

(٢) الاستيعاب ـ ص٥٤٦ ـ والإصابة ـ جـ٢ ص٥٦٤.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٤ ص٥٤.

إن زيـداً قـد كـان مِـنّـا بـأمـرِ لـيـس أمـر الـمـكـذِّب الـمـغـرور

* * *

فقد كان زيد من أوائل المهاجرين إلى المدينة المنورة مع ابنه أُسامة وزوجته أُم أيمن، وكان أسامة يومذاك ابن تسع سنين أو عشرة بينما كان زيد ابن أربعين سنة ونيف، وهو من أعلام الصحابة الذين شهدوا موقعة بدر، ثم كان هو أمير وقائد الصحابة في غزوة القَرَدَةِ بنجد.

سريتا زيد بن حارثة إلى القَرَدة من مياه نجد

وكان نباء ذلك أن قُريشاً خافوا طريقهم التي كانوا يسلكون إلى الشام، بعد أن كان من وقعة بدر ما كان، فأخذوا يسلكون بقوافلهم طريقاً من نجد يَمُرُّ بموضع ماء يُسمى (القَرَدَة) بنجد ويُفْضِي إلى فلجات الشام ـ والفلجات مواضع مياه وأنهار صغيرة بتخوم الشام ـ ثم يسيرون منها إلى الشام، فسلكوا تلك الطريق بعد موقعة بدر ـ قاصدين بتجارتهم الشام ـ، فبعث رسول الله ﷺ زيداً على رأس سرية من الصحابة إلى القَرَدة، في الوقت الذي سلك ذلك الطريق (تُجارُ من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فِضّةُ كثيرة وهي عُظْمُ تجارة قريش)، وكانت تلك القافلة التجارية لقريش بمعية أبي سفيان وقوة من قريش. قال ابن هشام: (فلقيهم زيد على ذلك الماء، فأصاب تلك العير ـ القافلة ـ وما فيها، وأعجزه الرجالُ ـ ربما لسرعة فرارهم ـ فَقَدِمَ زيد بالقافلة وما فيها على رسول الله ﷺ. فقال حسان بن ثابت الأنصاري ـ بعد أُحُد ـ يُوءَنِّبُ قريشاً لأخذهم تلك الطريق) ـ بل يحذرهم من سلوكها بعد انتصار زيد بن حارثة والذين معه:

«دَعُوا فَلَجاتِ الشَّامِ قَدْ حَالَ دُونَهَا جِلَادُ كأَفْوَاهُ الْمَخَاضِ الأوَارِكِ[1]
بأَيْدي رِجالٍ هَاجَرُوا نحوَ رَبِّهِمْ وأَنْصَارِهِ حقاً وأَيْدِي المَلائكِ
إذا سَلَكَتْ لِلْغَوْرِ مِنْ بَطْنِ عَالِجٍ فَقُولَا لها: لَيْسَ الطَّرِيقُ هُنَالِكِ»[2]

بينما جاء في عيون الأثر: كانت غزوة الفردة لهلال جمادى الآخرة على رأس ثمانية وعشرين شهراً من الهجرة، والفردة من أرض نجد من الربذة، فبعث رسول الله ﷺ زيداً في مائة راكب من الصحابة يعترض العير لقريش، فيها صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، وعبد الله بن أبي ربيعة، ومعه مال كثير وآنية

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ١ ص٤٢٩.
(٢) الجلاء: المجالدة في الحرب. والمخاض: الإبل الحوامل. والأوراك: شجر الأراك وهو السواك.

فضة، وزن ثلاثين ألف درهم. وكان دليل عير قريش فرات بن حيان، فخرج بهم على ذات عرق ـ طريق العراق ـ فاعترضهم زيد فأصاب العير، وأفلت أعيان القوم، وأُسِرَ فرات بن حيان، وقدموا بالعير على رسول الله ﷺ فَخَمسها فبلغ الخمس قيمة عشرين ألف درهم، وقَسم ما بقي على أهل السرية. وأسلم فرات بن حيان.. والفَرْدة بالفاء المفتوحة وسكون الراء، وضبطها بعضهم بفتح القاف والراء[١].

وتدل تفاصيل الغزوة التي ذكرها ابن هشام وتفاصيل الغزوة التي ذكرها ابن سيد الناس في عيون الأثر عن ابن سعد، إننا أمام غزوتين وسريتين بقيادة زيد بن حارثة إلى منطقة مياه نجد، فالقافلة المذكورة في عيون الأثر لم يكن فيها أبو سفيان، وقام زيد والذين معه بالتعرض لها في منطقة ذات عرق، فغنموها، وكان ذلك في جمادى الثاني سنة ٣ هجرية، بينما الغزوة والسرية التي ذكرها ابن هشام في السيرة كان في القافلة أبو سفيان، وتم التعرض لها في موضع ماء القردة نفسه، وبمناسبتها قال حسان ذلك الشعر الذي حدد ابن هشام زمنه بأنه (بعد موقعة أحد في غزوة بدر الآخرة)، وكانت موقعة أحد في شوال ٣هـ وغزوة بدر الأخرى في شعبان ٤هـ، مما يشير إلى أن سرية زيد التي غنم فيها قافلة قريش التي كان فيها أبو سفيان إنما كانت بعد موقعة أُحد.

* * *

عودة زيد إلى منطقة كلب باليمن وحادثة الطائف

وكان زيد من الصحابة الذين نفروا إلى قومهم يدعون إلى الإسلام، وربما قام بزيارة أقاربه وقبيلته بمنطقة صعدة في اليمن إذا وقعت أمور تستلزم ذلك قبل البعثة النبوية أو بعدها، إلا أنه عاد إلى منطقته باليمن مرة واحدة على الأقل داعياً إلى الإسلام خلال الفترة ما بعد غزوة القردة الأولى (جمادى الثاني ٣هـ) وما قبل غزوة الخندق (شوال ٥هـ) فمكث فترة بمنطقة كلب في نواحي صعدة وما جاورها داعياً إلى الإسلام في عشيرته وقبيلته ومنطقته، فأخذ الإسلام ينتشر في أوساط كلب وقضاعة منذ ذلك الوقت المبكر كما كان ينتشر في دوس على يد الطفيل بن عمرو ذي النور، وفي أزد شنؤه علي يد ضماد بن ثعلبة وفي همدان على يد قيس بن نمط ومالك بن نمط وفي الأشاعر على يد أبي موسى الأشعري، ولم تذكر الروايات عودة زيد إلى منطقته باليمن للدعوة إلى الإسلام، ولكنها ذكرت ما يدل على ذلك، وهو ما حدث لزيد في الطائف ـ وهي طريق الرجوع من صعدة إلى

---

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ ابن سيد الناس ـ جـ١ ص٣٦٤.

المدينة ـ وكذلك انتشار الإسلام بين عشيرة وقبيلة زيد منذ تلك الفترة، وكان بعض الكفار بالطائف وما جاورها يتقطعون للمسلمين القادمين من مناطق اليمن قاصدين يثرب مما جعل طريق الطائف محفوفة بالمخاطر. وقد ذكر القرطبي في الاستيعاب والليث بن سعد ما حدث لزيد في الطائف وهو:

«إن زيد بن حارثة إكترى من رجل بغلاً في الطائف، واشترط عليه المُكري أن ينزله حيث شاء، فسار به المكري ثم مَالَ به إلى خربه فقال له: انزل، فنزل، فإذا في الخربة قتلى كثير، فلما أراد أن يقتله، قاله له: دعني أصلي ركعتين، قال: صَلّي فقد صلى قبلك هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئاً. فلما صلى، أتى الرجل ليقتله، وزيد يقول: يا أرحم الراحمين، فسمع الرجل صوتاً يقول: لا تقتله، فهاب ذلك فخرج يطلب صاحب الصوت فلم يجد شيئاً، فرجع إلى زيد فنادىٰ زيد: يا أرحم الراحمين ثلاثاً، فإذا بفارس على فرس في يده حربة حديد على رأسها شعلة من نار، فطعن الرجل بالحربة، فوقع ميتاً».

فَنَجّىٰ الله زيداً، فسلك طريقاً حتى رجع إلى المدينة المنورة، فبالرغم من أن الطريق لم تصبح آمنة إلا بعد صلح الحديبية ـ في ذي الحجة ٦هـ ـ فإن ذلك لم يمنع العديد من الفرسان والجماعات من المسير من اليمن والوصول إلى يثرب من طرق فرعية، أو من نفس الطريق، وكان منهم العديد من رجالات قبيلة كلب وقضاعة الذين ساروا من منطقة وقبيلة زيد باليمن إلى رسول الله ﷺ ما بين السنة الثالثة والسنة الخامسة للهجرة، وكان أبرزهم الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي وهو من نفس عشيرة زيد بن حارثة، وقد شهد دحية موقعة أُحُدْ وغزوة الخندق ـ كما سيأتي ـ وحَمَلْ بن سعدانة الكلبي وعشرات الكلبيين الذين هاجروا إلى رسول الله ﷺ في تلك الفترة والتي رجع فيها زيد بن حارثة إلى المدينة فتوجه إلى رسول الله ﷺ.

«وأخرج الترمذي عن عائشة قالت: قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي، فأتاه، فقرع الباب، فقام إليه رسول الله ﷺ حتى اعْتَنَقَه وقَبلَه» [ص٥٦٤ ـ الإصابة].

* * *

قيادة زيد للمهاجرين في غزوة الخندق

وفي غزوة الخندق كان المسلمون ثلاثة آلاف جميعهم من الصحابة، وكان لزيد بن حارثة مركزاً قيادياً عالياً يؤكد مكانته الصحيحة بصفته أول المسلمين وأول الصحابة منذ اليوم الأول للبعثة النبويه، فقد جاء في عيون الأثر لابن سيد الناس

عن ابن سعد قال: «كانت غزوة الخندق في ذي القعدة سنة خمس.. وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة»[1].

فكان زيد هو قائد كافة المهاجرين إلى المدينة سواءً كانوا من قريش ومن سائر بقية القبائل وأغلبهم من اليمانية فاسم المهاجرين يشمل كل من هاجروا إلى المدينة قبل فتح مكة. وإسناد لواء وقيادة المهاجرين إلى زيد في غزوة الخندق له دلالة على أقدميته وتقديم رسول الله ﷺ إياه على جميع الصحابة المهاجرين، بينما كان سعد بن عبادة قائد الأنصار الذين هم الأوس والخزرج اليمانيون أهل المدينة المنورة.

«وكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم الأنصاري في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل، يحرسون المدينة ويظهرون التكبير، وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قُريظة. وكان عبادة بن بشر على حرس رسول الله ﷺ مع غيره من الأنصار يحرسونه كلّ ليلة»[1].

وقد كان للصحابي العظيم سعد بن معاذ الأنصاري دوره الجليل في سائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وفي موقعة بدر وحتى غزوة الخندق حيث تقدم سعد بن معاذ الصفوف وعليه درع له مقلصه وذراعه كلها خارج الدرع وفي يده حربته، وهو يتمثل بقول حمل بن سعدانة بن حارثة الكلبي:

لَبْثَ قَليلاً يدرك الهيجا حَمَلْ ... لا بأسَ بالموتِ إذا حَانَ الأجلْ

ويروى (ما أحسن الموت إذا حان الأجل). فأُصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم ثم استشهد، وكان عدد قريش وحلفائها من كفار الحجاز ونجد عشرة آلاف، قال حسان بن ثابت الأنصاري عنهم.

حتى إذا وَرَدوا المدينةَ وارْتَجو ... قَتْلَ الرسولِ ومغنمَ الأسلابِ
وَغَدَوْا علينا قادرين بأيْدِهم ... رُدُّوا بغيظِهِمُ على الأعقابِ
بهبوبِ معصفةٍ تفرق جمعَهم ... وجنودِ ربِّك سيِّد الأربابِ
وكفى الإلهُ المؤمنين قتالهم ... وأثابَهم في الأجر خيرَ ثواب
وأقرَّ عين محمد وصحابِه ... وأذلّ كل مُكذِّبٍ مُرْتابِ

وفي أعقاب غزوة الخندق شهد زيد مع النبي ﷺ غزوة بني قريظة في أواخر ذي القعدة سنة خمس للهجرة.

* * *

(١) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس الأندلسي ـ جـ٢ ص٨١ و١٢٣.

استخلاف زيد على المدينة، ونبأ زوجاته

ولم يشهد زيد غزوة بني المصطلق مع رسول الله ﷺ، وقد ذكر ابن هشام أنها في شعبان ٦هـ، بينما نقل ابن سيد الناس عن ابن سعد أنها في شعبان سنة ٥ للهجرة والخندق بعدها. وكان سبب عدم مشاركة زيد في تلك الغزوة هو كما ذكر ابن سعد: (أن رسول الله ﷺ استخلف زيد بن حارثة على المدينة)[١]. وسواءً كان استخلاف زيد على المدينة في السنة الخامسة أو السادسة، فإن فترة استخلافه التي لم تتجاوز شهر ونصف، تبدو فرصة للإشارة إلى زوجات زيد الأربعة، فقد كانت أولهن السيدة بركة أم أيمن والدة أسامة بن زيد. كما تزوج زيد ـ في المدينة ـ السيدة أم كلثوم بنت عقبة، وكانت أم كلثوم: (أُمها أروى بنت كريز، وأم أروى البيضاء بنت عبد المطلب)، فولدت له أم كلثوم: زيد بن زيد. ورقية بنت زيد، وقد تزوج زيد أيضاً (درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم، ولما طلقها تزوج هنداً بنت العوام وهي أخت الزبير بن العوام). وذلك في السنة الخامسة أو السادسة للهجرة.

وكان زيد قد تزوج السيدة زينب بنت جحش وهي ابنة أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، زَوَجَهُ إياها رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وكان زواجها من زيد تلبية لاختيار رسول الله ﷺ، ثم تعثرت الحياة الزوجية بين زيد وبينها، فحاول رسول الله ﷺ الإصلاح بينهما ـ قبل ثم بعد أن طلقها زيد ـ وقال له: (أَمْسِك عليك زوجك) فلم يرغِب زيد في ذلك، فتحمل رسول الله ﷺ مسؤوليته إزاء ذلك الزواج الفاشل وتجاه ابنة عمته فَضَمّها إليه وتزوجها.

تخليد زيد بن حارثة في القرآن الكريم

لقد كان في زواج رسول الله ﷺ بزينب مطلقة زيد حكمة إلهيه لإنزال تشريع سماوي بإلغاء عادة التبني الكامل التي كانت سائدة والتمييز بين التبني والبنوّة الحقيقية وتبيين العديد من الأمور، فقد أدى زواج النبي محمد ﷺ بزينب إلى احتيار وتساؤل الناس في المدينة: كيف يتزوج محمد مُطلقة زيد وهو ابنه؟ كيف يتزوج الأب مطلقة ابنه؟ فأنزل الله الآيات القرآنية التي ألغت ذلك الشكل من التبني بقوله تعالى: «وما كان أدعياؤكم أبنائكم»، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]. ومنذ ذلك اليوم لم يعد زيد يدعى (زيد بن محمد) وأصبح يدعى لأبيه (زيد بن حارثة).

---

(١) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس الأندلسي ـ جـ٢ ص٨١ و١٢٣.

قال الحافظ ابن كثير: ونزل في زيد بن حارثة آيات من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وقال ابن كثير (ولم يسم الله تعالى أحداً من الصحابة في القرآن غيره)(١).

وقد يأتي في بعض التفاسير والروايات الأخبارية نظرة قاصرة كالقول بأن معنى أنعم الله عليه أي بالإسلام وأنعمت عليه أي بالعتق، وهي نظرة قاصرة لا تدرك معنى أن أهله عندما عرفوا مكانه بعد اختطافه توجهوا لاستعادته ولدفع الفدية، وقد كانت عادة العرب لا تتجاوز ذلك في حالة الخطف أو السبيّ فبدفع الفدية ينتهي الأمر ويستعيد الشخص حريته، ولما أختار زيد محمداً أعتقه بدون فدية وكان ذلك قبل زهاء ثلاثين سنة، وليس ذلك مقصود الآية ولا قال بذلك أحد من الصحابة والتابعين كما أن القول بأن معنى أنعم الله عليه أي بالإسلام نظرة أقصر، فقد أنعم الله بالإسلام على جميع الناس، والصحيح أن ما أنعم به الله على زيد لم ينعم به على أحد غيره فقد أنعم الله عليه بنعمة السبق إلى الإسلام فكان أول المسلمين وأول الصحابة وأنعم الله عليه بنعمة ذكر وتخليد اسمه في القرآن فلم يسم الله تعالى أحداً من الصحابة في القرآن غيره فنال بذلك أعظم تخليد من الله عزّ وجلّ إلى الأبد، وأنعم عليه رسول الله ﷺ بأنه تبناه وكان ابناً لمحمد ﷺ منذ ما قبل الإسلام ثم زهاء خمس عشرة سنة بعد الإسلام، وأنعم عليه بأنه أحبّ الناس إليه وكان يحبه حباً عظيماً فهو حبيب رسول الله ﷺ، وقد جاء في الاستيعاب أن رسول الله ﷺ قال: «**أحبُّ الناس إليّ من أنعم الله عليه وأنعمتُ عليه. وهو زيد بن حارثة**»، وبيّنت الآيات أمراً أجلّ وأعظم بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، فقد كانت حكمة الله أن لا يكون لمحمد ﷺ أبناء ـ لا بالولادة ولا بالتبني ـ وهي حكمة إلهية لمستقبل الإسلام ولكون الأمر شورى في الإسلام. وليس في دعوة زيد إلى أبيه إلا تكريم لزيد، فقد عرف الجميع بذلك إنه سليل بني حمير بن سباء ملوك اليمن والعرب الأوائل الذين فيهم قال حسان بن ثابت الأنصاري:

تَواضَعُ أشرافُ البريةِ كلها … إذا ذُكِرَتْ أشْرافُها الصِيدُ حِمْيَرُ

---

(١) البداية والنهاية ـ جـ٤ ص٢٥٤.

سرايا زيد بن حارثة بعد غزوة الخندق

لقد كان زيد بن حارثة من أمراء وقادة الصحابة في الغزوات والسرايا الحربية منذ السنة الثالثة للهجرة، قال العسقلاني: (أخرج البخاري عن الصحابي سلمة بن الأكوع قال: غزوت مع النبي ﷺ سبع غزوات ومع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره علينا رسول الله ﷺ). قال العسقلاني: (وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سَرّية إلا أمّرَهُ عليهم، ولو بَقَى لاستخلفه. أخرجه أبو بكر بن أبي شيبه بإسناد قوي». [ص٥٦٤/ الإصابة].

وقال الحافظ ابن كثير: «قال الإمام أحمد والإمام الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا محمد بن عبيد عن وائل بن داود عن البهي أن عائشة كانت تقول: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سَرّية إلا أمّرَة عليهم ولو بقى بعده لاستخلفه. ورواه النسائي عن أحمد بن سلمان عن محمد بن عُبيد به. وهذا إسنادُ جَيّدُ قوي على شرط الصحيح. .»[(١)].

وقد تواصلت السرايا والغزوات التي قادها زيد بن حارثة بعد غزوة الخندق وبني قريظة وهي:

غزوة زيد إلى الجَمُوم (ربيع الثاني ٦هـ)

وقد أشار إليها ابن هشام في السيرة النبوية بأنها «غزوة زيد بن حارثة الجَمُومَ من أرض بني سُلَيم»[(٢)] وذكرها ابن سيد الناس في عيون الأثر بعنوان «سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجَمُوم» قال ابن سعد: (وهي في شهر ربيع الآخر سنة ست)، حيث: بعث رسول الله ﷺ زيد ابن حارثة لغزو بني سليم، فسار حتى ورد الجموم ـ ناحية بطن نخل عن يسارها، وبطن نخل من المدينة على أربعة برد ـ فأسر زيد جماعة من المشركين، وأصاب نعماً وشاءً. فكان في الأسرى حليمة المزنية وزوجها، فلما قفل زيد بن حارثة بما أصاب، وهب رسول الله ﷺ لحليمة المزنية نفسها وزوجها، فقال بلال بن الحرث المزني في ذلك:

لعمرُكَ ما أخَنَى المسولُ ولا وَنَتْ حليمةُ حتَّى راحَ ركْبُهما معا[(٢)]

وبتلك الغزوة شملت سلطة الدولة الإسلامية منطقة الجموم وبني سليم.

سرية زيد إلى الْعِيص (جمادى الأول ٦هـ)

وكان سببها أن رسول الله ﷺ بلغه أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام، فبعث

---

(١) البداية والنهاية ـ جـ٤ ص٢٥٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٨٤ و٢٩٠ ـ عيون الأثر ـ جـ٢ ص١٣٩ ـ ١٤٤.

زيد بن حارثة في مائة وسبعين من الصحابة. وهي سرية زيد إلى العيص ـ وبينها وبين المدينة أربع ليال، وبينها وبين ذي المروة ليلة ـ وتقع عند ساحل البحر ـ فاعترض زيد بن حارثة عير قريش في العيص، فأخذها وما فيها، وأخذ يومئذٍ فضة كثيرة لصفوان بن أمية، وأسر ناساً ممن كان في العير، منهم أبو العاص بن الربيع وقدم بهم المدينة. فاستجار أبو العاص بزينب بنت رسول الله ﷺ فأجارته، ونادت في الناس حيث صلى رسول الله ﷺ الفجر: إني قد أَجَرْتُ أبا العاص. فقال رسول الله ﷺ: ما علمتُ بشيء من هذا، وقد أجرنا من أجَرْتِ. وَرَدَّ عليه ما أخذ منه.

قال ابن سعد: وكانت سرية زيد إلى العيص في جمادى الأول سنة ست للهجرة[١].

سرية زيد إلى الطَّرَف بنجد

قال ابن هشام في السرايا والبعوث: (وغزى زيد بن حارثة أيضاً الطَّرَفَ من ناحية نَخْلٍ من طريق العراق). وقال ابن سيد الناس: (سرية زيد بن حارثة إلى الطرف، وهو ماء قريب من المراض دون النخيل، على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة).

وكانت تلك الغزوة على بني ثعلبة والأعراب البدو بتلك المنطقة من نجد، فلما وصل زيد والذين معه (كان شعارهم: أمت أمت)، وهربت الإعراب (وقال الواقدي فيما ذكر عنه الحاكم: وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم). قال ابن سيد الناس: (فأصاب زيد نعماً وشاءً وهربت الأعراب، وصبّح زيد بالنعم المدينة، وهي عشرون بعيراً، ولم يلق كيداً، وغاب أربع ليال).

سرية زيد الأولى إلى وادي القُرى (رجب ٦هـ)

قال ابن سعد: (خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ فلما كان دون وادي القرى، لقيه ناس من بني فزاره بن بدر) ـ فأغاروا عليه ـ وذلك هو سبب تلك السرية التي ذكرها ابن هشام قائلاً: (غزا زيد بن حارثة وادي الْقُرْى، فلقى به بني فزارة، فأصيب ناسُ من أصحابه، وَارْتُثَّ زيد من بين القتلى ـ أي رُفع من بين القتلى وبه بقية حياة ـ وفيها أُصيب وَرْدُ بن عمرو بن خداش). وقال ابن سعد: أن بني فزارة أصابوه وأصابوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم)[١]. ويتبين من ذلك إنه لم يكن في سرية حربيه وإنما كان سائراً في تجارة إلى الشام ومعه نفر قليل، ولم يكن هناك صراع سابق بين المسلمين وبني فزارة، فلما مَرَّ بمنطقتهم في وادي القرى بأعالي الحجاز، فوجئ بهجوم بني

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٨٤ و٢٩٠ ـ عيون الأثر ـ جـ٢ ص١٣٩ ـ ١٤٤.

فزارة بن بدر، وكان ذلك بتدبير أو مشاركة امرأة عجوز يقال لها (أم قِرْفَة) وهي (في بيت شرف من قومها، وكان يُضرب بها المثلُ فيقال: (لَوْ كُنتَ أعَزَّ من أم قِرْفَة ما زدتَ) قال ابن سيد الناس؛ وإنما قالوا: أعز من أم قرفة. لأنها كانت يعلَّق في بيتها خمسون سيفاً، كلهم لها ذو محرم).

فلما أصيب زيد وبعض الذين معه، (وَارتُثَّ زيد من بين القتلى) في ذلك الهجوم الغادر من قبيلة بني فزارة، أخذ بنو فزارة ما كان معهم ومضوا، وكان ذلك في رجب ٦هـ، فعاد زيد وهو مُصاب بجراح مؤثره إلى المدينة. فذكر ابن هشام وابن إسحاق وابن سيد الناس وابن سعد إنه: (لما قدم زيد بن حارثة آلى - أي أقسم - أن لا يَمَسَّ رَأسَهُ غِسْلُ من جنابه حتى يغزو بني فزاره. فلما اسْتَبَلَّ - أي تعافى - من جراحه، بعثه رسول الله ﷺ في جيش إلى بني فزارة)، قال ابن سيد الناس (وكذا ثبت عن ابن سعد، لزيد سريتان بوادي القرى، إحداهما في رجب والثانية في رمضان). وكانت الثانية عندما تعافى من جراحه فانطلق على رأس جيش من الصحابة إلى وادي القرى.

غزوة زيد الثانية إلى وادي القرى (رمضان ٦هـ)

قال ابن هشام: (فلما اسْتَبَلَّ زيد من جراحه بعثه رسول الله ﷺ إلى بني فزارة في جيش، فقتلهم بوادي القرى، وأصاب فيهم). وكان من أصحاب زيد قيس بن المُسَحَّر اليعمري فقتل مسعدة بن حكمه بن مالك بن حذيفة بن بدر، وقال في ذلك:

سعيتُ بوردِ مِثْلَ سَعْي ٱبْنِ أُمِّهِ ... وإنِّي بِوَرْدٍ في الحياةِ لَثَائِرُ[١]
كَرَرْتُ عليهِ المُهْرَ لَمَّا رأيْتُهُ ... عَلَى بَطَلٍ مِنْ آلِ بدرٍ مُغَاوِرِ[٢]
فَرَكَّبْتُ فيهِ قَعْضَبِيًّا كأنَّهُ ... شِهابُ بِمعراةٍ يُذكَّى لِنَاظِرِ[٢]

وتم أسر أم قرفه وهي فاطمة بنت زمعة بن بدر، وكانت عند حذيفة بن بدر عجوزاً كبيرة وهي التي يقال فيها: (لو كُنت أعزَّ من أم قِرْفَة ما زدتَ)، فأمر زيد بن حارثة بقتلها. قال ابن سيد الناس: (وذكر الدولابي أن زيداً إنما قتلها لسبِّها رسول

---

(١) جاء في هامش البيت بالسيرة النبوية: (ورد: يجوز أن يكون اسم فرسه، ويجوز أن يكون وصفاً للفرس) وهو تفسير خاطئ وإنما هو (ورد بن عمر بن خداش، وهو أحد بني سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن سلم بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير) وقد قتلته بنو فزارة في سرية زيد الأولى إلى وادي القرى، فسعى قيس اليعمري للأخذ بثأره وقتل قاتله في هذه الغزوة.

(٢) المغاور: كثير الغارة على الأعداء. والقعضبي: السنان أي الرمح. والمعراة: الموضع الذي لا يستره شيء. ويذكي: يُوق.

الله ﷺ). قال: (وذكر الواقدي أنها قُتلت يوم بزاخه، وإنما المقتول يوم بزاخة بَنوها التسعة). وذلك في نفس الغزوة.

وأسر زيد جماعة من بني فزارة، وكان من الأسرى: ابنة أم قرفة، وعبد الله بن مسعدة الفزاري، فتم لزيد في تلك الغزوة فتح منطقة بني فزارة ووادي القرى بأعالي الحجاز فامتدت سلطة الدولة الإسلامية إلى وادي القرى بأعالي الحجاز. قال ابن سيد الناس (وذكر محمد بن إسحاق ومحمد بن سعد أن أمير هذه السرية زيد بن حارثة. وقد رُوينا في صحيح مسلم، أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر إلى بني فزارة). وليس هنالك تعارض فقد كان أبو بكر في تلك السرية ولكن أميرها وقائدها كان زيد بن حارثة ويؤكد ذلك حديث عائشة المتقدم والحديث الذي أخرجه البخاري عن سلمة بن الأكوع بأنه غزا مع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره رسول الله ﷺ علينا. ومنها غزوة بني فزارة بوادي القُرى، (وكان سلمة هو الذي أسر بنت أُم قرفة في تلك الغزوة، قال ابن هشام وابن سيد الناس: (كانت بنتُ أم قرفة لسلمة بن الأكوع، كان هو الذي أصابها. فسألها رسول الله ﷺ سَلَمَةُ، فوهبها له، فأهداها لخاله حَزْن بن أبي وهب. فولدت له عبد الرحمن بن حزن). قال ابن سعد: (وقدم زيد بن حارثة من تلك الغزوة، فقرع باب النبي ﷺ فقام إليه عرياناً يجرّ ثوبه، حتى اعتنقه وقبّله وسأله، فأخبره بما ظفره الله به). ـ وقد كانت تلك الغزوة في رمضان، وكان النبي ﷺ غزا بني المصطلق في شعبان وقدم المدينة لهلال رمضان ثم بعث زيداً في تلك الغزوة فتم له الظفر في رمضان ٦هـ.

سَرِيّة زيد إلى مِدْيَنْ (شوال ٦هـ)

وبعث رسول الله ﷺ سرية من الصحابة بقيادة زيد بن حارثة إلى مِدين ـ وهي بأعالي وساحل وادي القُرى بأعالي الحجاز ـ كما بعث رسول الله ﷺ ـ في شوال ـ سرية من الصحابة بقيادة عبد الله بن رواحة الأنصاري إلى خيبر.

قال ابن سيد الناس: (وذكر ابن إسحاق سرية زيد بن حارثة إلى مدين، فأصاب سبياً من أهل مينا وهي السواحل وفيها جمعٌ من الناس) ـ فامتدت السلطة الإسلامية إلى تلك المنطقة وساحلها ـ فعاد زيد بالسبي إلى المدينة، وتم عرضهم للبيع، قال ابن إسحاق (فَفُرق بينهم، يعني بين الأمهات والأولاد، فخرج رسول الله ﷺ وهم يبكون، فقال: ما لهم؟ فقيل: يا رسول الله فُرِّق بينهم. فقال: لا تبيعوهم إلا جميعاً. وكان مع زيد بن حارثة في تلك السرية ضُميره مولى علي بن أبي طالب وأخ له).

وأما سرية عبد الله بن رواحة فكانت إلى بسير بن رزام اليهودي وأصحابه

بخيبر، فتم أسرهُ مع ثلاثين من اليهود، فقدم بهم عبد الله بن رواحة إلى رسول الله ﷺ بالمدينة في شوال ٦ هجرية، وكان من أصحاب عبد الله بن رواحة في تلك الغزوة الصحابي عبد الله بن أنيس الجهني القضاعي الحميري.

صلح الحُديبية وغزوة خيبر إلى غزوة حِسْمَي

وفي ذي القعدة ٦هـ سار رسول الله ﷺ بالمسلمين من المدينة معتمراً لا يريد حرباً، واستخلف على المدينة نميله بن عبد الله الليثي لأن زيد بن حارثة سار مع رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية، أي في المسير إلى مكة لأداء العمرة، وبالرغم من أن قريشاً منعت النبي ﷺ والمسلمين من أداء العمرة، فقد أدى ذلك المسير إلى عقد صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش والذي نص على المهادنة وأن يلحق بالنبي ﷺ من يريد اللحاق به، بما يعنيه ذلك من تأمين الطريق لِمَنْ أراد اللحاق بالنبي ﷺ من اليمن أو مكة وغيرها، وكان لذلك الصلح فوائد عظيمة.

وذكر ابن عائذ: أن رسول الله ﷺ أقام في غزوته شهراً ونصفاً. وقال ابن سعد: أقام بالحديبية بضعة عشر يوماً، ويقال عشرين ليلة، ثم انصرف رسول الله ﷺ، فلما كانوا بضنجان نزلت عليه سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة في أوائل ذي الحجة ٦هـ. وكان رسول الله ﷺ يبشر بقدوم أهل اليمن بعد مهادنة الحديبية وذلك لأن الطريق باتت آمنة بين اليمن والمدينة المنورة. وقال رسول الله ﷺ وهو بالمدينة، وبعد نزول سورة الفتح: «**الله أكبر، جاء الفتح وجاء أهل اليمن.. قوم رقيقة قلوبهم لينة أفئدتهم**» الحديث وأخرج أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني عن جبير بن مطعم قال، قال رسول الله ﷺ: «**يطلع عليكم أهل اليمن كأنهم السحاب، هُمْ خيرُ أهل الأرض**».

وفي محرم ٧هـ سار رسول الله ﷺ بالمسلمين غازياً خيبر، وكان زيد بن حارثة، ودحية بن خليفة الكلبي مع النبي ﷺ في غزوة خيبر التي تتوجت بالنصر في صفر ٧هـ، وفيما رسول الله ﷺ بخيبر، وصلت إلى المدينة وإلى خيبر مواكب أهل اليمن الذين تتابعوا كأنّهم السحاب، وكان من أوائلهم موكب الطفيل بن عمرو الدوسي ومعه أبو هريرة في ثمانين أو تسعين أهل بيت من دوس، وموكب جندب بن عمرو بن حممة في خمسة وسبعين رجلاً من قومه، وموكب أبي عامر الأشعري وأبي موسى الأشعري في نيف وخمسين من الأشاعر، وضِمَاد بن ثعلبة، وقيس بن مالك نمط الأرحبي الهمداني، وعمرو بن جَبَلة الكلبي ـ ابن أخ زيد بن حارثة ـ في جماعة من فرسان كلب، وقال عمرو بن جبلة الكلبي:

أجَبْتُ رسول الله إذْ جاء بالهُدى .. وأصبحتُ للأوثان ما عِشْتُ مُنكرا

كان قدومهم إلى النبي ﷺ بالمدينة بعد غزوة خيبر ما بين صفر وجمادى الأول سنة ٧هـ، وفي تلك الفترة أسلمت قبيلة جذام وهي قبيلة يمانية كبيرة بالأردن وأعالي الحجاز حيث قدم إلى رسول الله ﷺ رفاعة بن زيد الجذامي فكتب رسول الله ﷺ معه كتاباً يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا، قال ابن هشام «ثم لم يلبث أن قدم دِحيْة بن خليفة الكلبي من عند قيصر صاحب الروم حين بعثه رسول الله ﷺ إليه ومعه تجارة له، حتى إذا كان بوادٍ من أودية جذام يقال له (شِنار) أغار عليه الهُنيد بن عوص وابنه عُوصُ بن الهنيد الضُّلَعيانِ)، فكان ذلك سبب غزوة زيد بن حارثة إلى أرض حسمي.

غَزوة زيد إلى أرض حِسْمَى (جمادى الثاني ٧هـ)

قال ابن سيد الناس: (أقبل دحية بن خليفة الكلبي من عند قيصر، وقد أجازه وكساه، فلقيه الهنيد وابنه (عوص) في ناس من جُذام بحسمي ـ وهي وراء وادي القُرى ـ فقطعوا عليه الطريق فلم يتركوا عليه إلا سمل ثوب. فسمع بذلك نفر من بني الضبيب، فنفروا إليهم فاستنقذوا لدحية متاعه. وقدَم دحية على النبي ﷺ فأخبره بذلك، فبعث زيد بن حارثة في خمسمائة رجل ومعه دحية) [ص١٤١ عيون الأثر].

وذكر ابن هشام في السيرة النبوية أن دحية الكلبي قَدَم من عند قيصر صاحب الروم حين بعثه النبي ﷺ إليه وكان معه تجارة له، فأغار عليه الهُنَيْدُ بن عُوص وابنه عُوصُ بن الهنيد الضُلَعِيَّان ـ (والضُّلَيْعْ: بطن من جُذَام) فأصابا كل شيء كان معه، فبلغ ذلك قوماً من الضُبَيْب رهطِ رفاعه بن زيد ممن كان أسلم وأجاب، فنفروا إلى الهنيد وابنه، حتى لقوهم، فاقتتلوا. وانتمى يومئذٍ قُرّةُ بن أشقر الضُّلعي فقال: أنا ابن لُبْنَى ـ وكانت له أم تدعى لُبْنَى ـ فرمى النعمان بن أبي جعال الضبيبي بسهم فأصاب ركبته، فقال حين أصابه: خذها وأنا ابن لُبْنَى ـ فاستنقذ بنو الضبيب ما كان في يد الهُنيد وابنه، فردُّوه على دحية، فسار دحية حتى قدم على رسول الله ﷺ فأخبره خبره، واستسقاه دم الهنيد وابنه، فبعث رسول الله ﷺ إليهم زيد بن حارثة، فذلك الذي هاج غزوة زيد لِجذامَ بأرض حِسْمَى، وبعث معه جيشاً. [ص٢٨٦/ ٤ ـ السيرة النبوية].

قال ابن سيد الناس: (وحِسْمَي على مثال فِعْلى مكسور الأول، قيده أبو علي، موضع من أرض جذام، وذكروا أن الماء في الطوفان أقام به بعد نُضوبه ثمانين سنة). وقد كانت جذام ومناطقها بالأردن وأداني الشام إلى أعالي الحجاز مرتبطة بالأمبراطورية الرومانية.

فانطلق زيد من المدينة في خمسمائة من الصحابة ومعه دحية الكلبي إلى أرض حسمي، (وكان زيد يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل من بني عذرة،

فأقبل زيد حتى هجم مع الصبح على القوم). قال ابن هشام: (كانت غُطفان من جُذام ووائل ومن كان من سلامان وسعد بن هذيم ينزلون الحَرَّة حَرَّة الرَّجْلاء، ورفاعة بن زيد في (كُراع رِيَّة) لم يعلم، ومعه ناسٌ من بني الضبيب، وسائر بني الضُبيب بوادي مِدَان من ناحية الحَرَّة مما يَسِيل مُشَرِّقاً. وأقبل جيش زيد بن حارثة من ناحية الأَوْلاج، فأغار بالماغِصِ من قِبَل الحَرّة)، قال ابن سيد الناس: (فأغاروا على القوم، فقتلوا فيهم فأوجعوا، وقتلوا الهنيد وابنه، وأغاروا على ماشيتهم ونُعمهم وأهاليهم، فأخذوا مِنْ النُعم ألف بعير، ومِنْ الشاء خمسة آلاف شاة، ومن السبيّ مائة من النساء والصبيان). وقال ابن هشام: (جمعوا ما وجدوا من مال أو أُناس، وقتلوا الهنيد وابنه ورجلين من بني الأحنف.

فلما سمعت بذلك بنو الضبيب، والجيشُ بفَيْفَاء مَدَان، ركَبَ نَفَرُ منهم، وكان فيمن ركب حسان بن مِلّة الضبيبي ـ وكان حسان قد صحب دحية بن خليفة الكلبي قبل ذلك فعلمه أُم الكتاب ـ فركب حسان على فرس يقال لها العجاجة، وأُنيفُ بن مِلَّة على فرس له يُقال له رغال، وأبو زيد بن عمرو على فرس له يقال له شَمِرْ. فانطلقوا حتى إذا دنوا من الجيش أقبل نَفَرُ من الجيش يبتدرونهم، فقال لهم حسان: إنا قومُ مُسْلمون. فرافقوهم إلى الأمير زيد بن حارثة، فلما وقفوا عند زيد قال حسان: إنّا قوم مسلمون. فقال له زيد: فاقرأ أم الكتاب، فقرأها حسان. فقال زيد بن حارثة: نادوا في الجيش أن الله قد حَرّم علينا ثُغْرَةَ القوم التي جاءوا منها إلا من ختر[1] وكانت أخت حسان بن مِلّة ـ وهي امرأة أبي وبر بن عدي ـ في الأسارى، فقال له زيد: خذها، فأخذت بِحَقْوَيْه[1] وقالت أم الفِزْرِ الضُلعيه: أتنطلقون ببناتكم وتَذَرُون أمهاتكم؟ ـ فتركها حسان وانصرف مع أنيف وأبي زيد ـ فأخبر بعض الجيش زيد بما قالت أم الفزر، وكانت أخت حسان قد أخذت بحقوى زيد، فلما علم زيد بما حدث، أمر بأخت حسان فَفُكّتْ يداها من حَقْوَيْه[2] وقال لها: اجلسي مع بنات عمك حتى يحكم الله فيكُنَّ حُكْمَهُ، ونَهَى الجيش أن يهبطوا إلى وادي الضبيب الذي جاء منه حسان وصاحباه.

وأما حسان فعاد إلى وادي الضبيب، ثم أصطحب ثمانية من رجال قومه بينهم أنيف وأبو زيد، فساروا في اليوم التالي إلى رفاعة بن زيد الجُذامي (حتى صَبَّحوا رفاعة بكُراع رِيّةَ بظهرِ الحَرَّة عند بئر هنالك من حَرَّة لَيْلَى، فقال له حسان بن مِلَّة: إنك لجالسٌ تَحْلُبُ المِعْزى، ونساء جُذَام أَسَارى قد غرَّهَا كتابك

---

(١) ثغرة القوم: ناحيتهم التي يحمونها. وخنز: خاس ونقض العهد.

(٢) حقويه: الحقو ـ بفتح فسكون ـ الخصر.

الذي جئت به (يعني كتاب رسول الله ﷺ مع رفاعة إلى جذام) ـ فدعا رفاعةُ بِجَمَلٍ له، فجعل يَشُدُّ عليه رَحْلَهُ وهو يقول:

هَـلْ أنْـتَ حَـيٌّ أو تُـنَـادي حَـيَّـا

ثم غَدَا وهُمْ معه بأُمية بن ضَفَارة أخي الخصيبي المقتول مُبَكِّرين من ظهر الحَرّة، فساروا إلى المدينة ثلاث ليال، فلما دخلوا المدينة مضوا إلى رسول الله ﷺ بالمسجد النبوي، فلما دخلوا رآهم رسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده أن تعالوا من وراء الناس، فأتوا إليه، فكلموه بما جاءوا مِنْ أجله وبأمر الأسرى والقتلى، فقال رسول الله ﷺ: «**كيف أصنعُ بالقتلى؟**» فقال رفاعة: (أنت يا رسول الله أعلم، لا نُحَرِّم عليك حلالاً، ولا نحلُّ لك حراماً. فقال أبو زيد بن عِمرو: أطلِقْ لنا يا رسول الله مَنْ كان حَيّاً، ومَنْ قُتِلَ فهو تحت قَدَمي هذه. فقال رسول الله ﷺ: «**صَدَق أبو زيد**».

ثم قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «**اركَبْ مَعَهُمْ يا عَليّ**» ـ يعني إلى زيد بن حارثة لِيُطلق الأسرى ـ فقال علي بن أبي طالب: إنّ زَيْداً لن يُطيعني يا رسول الله، قال: «**فَخُذْ سَيفي هذا**». فأعطاه سيفه ليكون برهاناً بأنه مبعوث من النبي ﷺ إلى زيد ـ فقال عليٌّ: «**ليس لي يا رسول الله راحلة أركبها، فحملوه على بعير لثعلبة ابن عمرو الجذامي يُقال له المكحال. فساروا، فلَقُوا زيد بن حارثة والجيش بفيفاء الفحلتين من أرض جُذام، وفي ذلك قال ابن سيد الناس: (بعث رسول الله ﷺ معهم علياً إلى زيد بن حارثة يأمره أن يُخلي بينهم وبين حرمهم وأموالهم. فتوجه عليّ ولقى زيداً بالفحلتين ـ وهي بين المدينة وذي المروة ـ فأبلغه أمر رسول الله ﷺ، فَرَد زيد إلى القوم كل ما كان أُخذ لهم**» [ص١٤١ عيون الأثر].

وكان لغزوة زيد بن حارثة إلى حسمي وما جاورها من أرض جذام نتائج وآثار إيجابية، في القضاء على المُفسدين وقطاع الطُرق، وفي تثبيت وتأكيد انضواء أرض وقبيلة جذام في إطار الدولة والسلطة الإسلامية، كما كان اطلاق الأسارى والأموال نهجاً حكيماً في تأكيد سماحة الإسلام، فأمر زيد بن حارثة الجيش برد الأسرى والأموال والإبل لرفاعة بن زيدٍ الجذامي وأصحابه، فتم ردهم جميعاً، ولما اطمأن زيد إلى استتباب الأمر في أرض جذام عاد مع جيشه إلى المدينة المنورة وقد انبسطت سيادة وهيبة الإسلام بإرجاء وادي القُرى ـ بأعالي الحجاز ـ ومناطق جُذام إلى أداني الشام.

* * *

غزوةُ مؤتَه . . أول غزوة إسلامية إلى الشام

ثم إن الروم في الشام أخذوا يوجسون من الإسلام خيفة، فقاموا ـ في أواخر سنة ٧هـ وأوائل سنة ٨هـ ـ بممارسَات للحَدِّ من تقدم وانتشار الإسلام بين القبائل العربية بأداني الشام، ولما بعث رسول الله ﷺ الحرث بن عمير الأزدي بكتاب إلى ملك بُصْرَى وحوران بالشام، أمر الروم شرحبيلاً ابن عمرو الغساني بالقبض عليه وقتله. قال ابن سيد الناس (فعرض للحرث بن عمير الأزدي شرحبيلُ بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضربُ عنقه. ولم يُقتل رسول للنبي ﷺ غيره، فاشتد ذلك على النبي ﷺ حين بلغه الخبر عنه. فكان ذلك سبب غزوة مؤته) ـ وربما كان ذلك أحد أسباب غزوة مؤته وليس سببها الوحيد، فقد كانت هناك تحركات رومانية واستنفار للقبائل العربية المسيحية في الشام للمشاركة في عمل روماني يستهدف ضرب الدولة العربية الإسلامية، وكانت تلك التحركات الرومانية ـ في مطلع وأوائل سنة ٨هـ ـ محل معرفة ومتابعة رسول الله ﷺ والمسلمين بالمدينة المنورة، فقرر رسول الله ﷺ توجيه جيش لغزو الروم ومَنْ معهم بالشام.

فقام رسول الله ﷺ بتجهيز جيش من ثلاثة آلاف مقاتل كلهم من الصحابة بقيادة زيد بن حارثة الكلبي، وكان ذلك أكبر جيش يسير للغزو منذ الهجرة وقيام الدولة الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، وربما نَفَسَ بعض الذين أسلموا مِنْ قريش والتحقوا بالنبي ﷺ بعد موقعة أحد وغيرها أن يكون زيد أميراً لكل ذلك الجيش وكل أولئك الصحابة(١)، وغاب عنهم أن زيداً ـ الذي شرفه الله بالذكر في القرآن ـ هو أول المسلمين وأول وأقدم أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وربما يرى البعض أن توجيه رسول الله ﷺ ذلك الجيش إلى الشام كان مجازفة خطيرة في ذلك الزمن ـ السابق لفتح مكة وغيرها من الحجاز ونجد ـ وأن ذلك الجيش بآلافه الثلاثة يعتبر ضئيلاً مقارنة بالحجم المحتمل لجيش الروم الذي سيواجههم في الشام، والواقع أن أهمية الغزوة تتمثل في أنها برهان على تصميم الإسلام على المقاومة فإذا لم يكن النصر فإن الروم سيتراجعون عن أفكارهم للوثوب على الإسلام في المدينة وأعالي الجزيرة العربية، كما أن استشهاد مَنْ يستشهد في تلك الغزوة له قيمة كبيرة وعظيمة على درب تحرير الشام ودروب الجهاد في سبيل الله.

---

(١) أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر: (أن رسول الله ﷺ) بعث بعثاً وأمّرَ عليهم أسامة بن زيد بن حارثة، فطعن بعض الناس في أمرته، فقال رسول الله ﷺ: «إن تطعنوا في أمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل، وأيم الله أنه كان لخليقاً للأمارة» ـ [جـ٤ ص٢٥٤ البداية والنهاية].

ولما تهيأ الجيش للانطلاق من المدينة المنورة في يوم الخميس من شهر جمادى الأول سنة ٨هـ، خرج رسول الله ﷺ يودع ذلك الجيش الذين هم ثلاثة آلاف من الصحابة بقيادة أميرهم زيد بن حارثة ـ وفيهم عبد الله بن رواحة، وجعفر بن أبي طالب، ودحية بن خليفة الكلبي، وشرحبيل بن حسنه الكندي، والمقداد بن عمرو ـ وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأبو هريرة، والطفيل بن عمرو ذي النور، والمئات من كبار الصحابة ـ وأخذ رسول الله ﷺ يتأمل بنظرات عميقة ثلاثة وجوه، وكأنَّما كان يقرأ غيب المعركة القادمة، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**إنْ أصِيبَ زيدُ بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإنْ أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس**». وخرج الجيش وخرج رسول الله ﷺ يُشَيِّعُهُم، فَوَدع زيداً وجعفراً وابن رواحة والذين معهم في موضع يُسمى النخل، فلما ساروا قال عبد الله بن رواحة الأنصاري في أبيات له:

خَلَفَ السَّلَامُ على امْرِئٍ وَدَّعْتُهُ ... في النَّخْلِ خَيْرِ مُشَيَّعٍ وخَلِيلِ

ومَضَى الجيش بقيادة زيد بن حارثة إلى الشام فدخلوها، ونزلوا في مَعَان، وكانت معان مدينة كبيرة عاصمة بالأردن في الشام، وبينما هُمْ في معان أتاهم الخبر بقدوم هرقل ملك الروم في مائة ألف من الرومان وإنهم تجمعوا في (مآب) من أرض البلقاء وقد ألزموا أمراء القبائل العربية بالشام بأن يحشدوا معهم، فحشدوا عشرات الآلالف من العرب الذين انضموا إلى جيش الروم في مآب بالبلقاء فتشاور الجيش الإسلامي في معان ومكثوا يومين يفكرون في الأمر، فرأى بعضهم العودة إلى المدينة المنورة دون مواجهة، ورأى بعضهم رأياً أوسط فقالوا: (نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يُمِدّنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي إليه). بينما رأى عبد الله بن رواحة ومعه زيد رأيا أحسن وأشجع لأن رسول الله ﷺ إنما وَجَههم من المدينة لقتال العدو، فقال عبد الله بن رواحة: (إنْطَلِقوا، فإنما هي أحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة. فقال الناس: قَدْ واللَّهِ صَدَق ابنُ رواحة).

فانطلق الجيش الإسلامي إلى البلقاء، وكان الروم قد نزلت فرقة منهم بمكان يُسَمَى (مشارف) بالبلقاء، فنزل المسلمون بجوار قرية تُسَمَى (مُؤته) بالبلقاء وهي التي باسمها سُميت غزوة مؤته، وقال ابن كثير: (انطلق المسلمون حتى إذا لقوا ابن أبي سبرة الغساني بمؤته وبها جموع من نصارى العرب والروم، فأغلق ابن أبي سبرة دون المسلمين الحصن ثلاثة أيام، ثم التقوا على زرع أحمر ـ بمؤته ـ فاقتتلوا قتالاً شديداً). ـ وذلك عند وصول طلائع جيش الروم من مآب ومشارفها إلى مؤته ـ فدارت موقعة مُؤْته في يوم جمعة من شهر جمادى الأول سنة ٨ هجرية.

إستشهاد زيد بن حارثة رضي الله عنه

وفي ذلك اليوم ـ يوم موقعة مُؤته بالبلقاء من أرض الشام ـ انطلق زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة في كوكبة من فرسان المسلمين فاقتحموا صفوف الرومان وقاتلوا ببسالة منقطعة النظير، وكان زيد بن حارثة يحمل بيده اليسرى راية رسول الله ﷺ ويُجندل بسيفه ـ ويده اليُمنى ـ فُرسان الروم، وقد وصف خالد محمد خالد ذلك الموقف قائلاً: «.. لم يكن زيد يرى حواليه رمال البلقاء ولا جيوش الروم، بل كانت روابي الجنة وَرَفْرَفها الخُضْرُ تخفق أمام عينيه كالأعلام تُنْبِئهُ أن اليوم يومُ زِفَافِه. وكان وهو يضربُ، ويُقاتلُ، لا يُطَوِّح رؤس مقاتليه إنما يفتح الأبواب إلى دار السلام، وجنات الخلد، وجوار الله، وكانت روحه وهي في طريقها إلى الجنة تبتسم محبورة وهي تُبصر جثمان صاحبها، لا يلفه الحرير الناعم. بل يُضَمِّخه دم طهور سال في سبيل الله»[١].

بينما في ذات الوقت بالمدينة المنورة كان رسول الله ﷺ يتحدث في المسجد النبوي، وقد ذكر ابن كثير الحديث عن أبي قتادة قال: (صعد رسول الله ﷺ المنبر، فأمر فَنُودي الصلاة جامعه). فاجتمع الناس على رسول الله ﷺ فقال: «**أخبركم عن جيشكم هذا، إنهم انطلقوا، فلقوا العدو، فَقُتِل زيد شهيداً، فأستغفر له**» الخ. الحديث ـ (وعن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم قال: لما التقى الناس بمؤته، جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وكشف الله له ما بينه وبين الشام فهو ينظر إلى معتركهم، فقال رسول الله ﷺ: أخذ الراية زيد بن حارثة فجاء الشيطان فحبب إليه الحياة وكَرّه إليه الموت، فقال زيد: ألآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تُحبب إلى الدنيا، فَمَضَى قُدماً حتى استشهد، فصلى عليه رسول الله ﷺ وقال: استغفروا له فقد دخل الجنة وهو شهيد)[٢].

وقال خالد محمد خالد في وصفه المتقدم لاستشهاد زيد بن حارثه: (.. وكانت روحه وهي في طريقها إلى الجنة تبتسم محبورة وهي تبصر جثمان صاحبها لا يلفه الحرير الناعم بل يُضَمِّخه دم طهور سال في سبيل الله، ثم تتسع ابتسامتها المطمئنة الهانئة وهي تُبصر ثاني الأمراء جعفراً يندفع كالسهم صَوب الراية ليتسلّمها، وليحملها، قبل أن تغيب الراية)[١] بينما في ذات الوقت قال رسول الله ﷺ وهو يتحدث بالمسجد النبوي بعد حديثه عن استشهاد زيد: «**ثم أخذ الراية**

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٣٣٤.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٢ ص٢٤٦ ـ والسيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ٣ ص٤٢٧.

جعفر بن أبي طالب فجأة الشيطان فحبب إليه الحياة وكرّه إليه الموت، فقال: ألآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين يمنيني الدنيا، ثم مضى قُدماً حتى استشهد. .» وجاء في السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ صَمَتَ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا إنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون. ثم قال رسول الله ﷺ: «**ثُمَّ أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قُتِل شهيداً**»[١] والظاهر أن لحظة الصمت النبوي تلك، هي اللحظة التي أخذ فيها الراية عبد الله بن رواحة وانطلق إلى صفوف العدو، وهو يقول:

يـا نَـفْـسُ إلَّا تُـقْـتَـلـي تَـمُـوتِـي ... هـذا حِـمَـامُ الـمَـوْتِ قَـدْ صَـلِـيـتِ
ومـا تـمـنـيـتـي فـقـد أُعْـطِـيـتِ

فقاتل عبد الله بن رواحة حتى استشهد.

ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم الأنصاري فرجع إلى حيث الجيش الإسلامي ـ [والظاهر عدم وقوع مواجهة شاملة، وأن غالبية الروم كانوا في (مآب) وإنما وصلت فرقة منهم إلى مُؤته، فَدَلَفتْ إليهم كوكبة من فرسانِ الإسلام فيها الأمير زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة، فاستشهد الثلاثة واستشهد معهم خمسة من الأنصار، فأخذ الراية ثابت بن أرقم ورجع مع بقية تلك الكوكبه إلى حيث الجيش الإسلامي] ـ فقال ثابت: يا معشر المسلمين اصْطَلِحُوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل. فاتفقوا على تأمير خالد بن الوليد فانسحب بهم وعادوا إلى المدينة المنورة، وانتقد البعض في المدينة ذلك الانسحاب، وقال ابن اسحاق: أخذ الصبيان يحثون عليهم بالتراب ويقولون: يا فرار فررتم من سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «**ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله عزّ وجلّ**». وقد وَصَف حسان بن ثابت الذين استشهدوا بمؤته بأنهم (خيار المؤمنين)، وهُم: زيد بن حارثة الكلبي، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة الأنصاري، وعَبّاد بن قيس الخزرجي الأنصاري، والحرث بن النعمان الأنصاري، وسُرَاقه بن عمرو الأنصاري، بالإضافة إلى رجلين من الأنصار، فقال حسان بن ثابت يرثي شهداء مؤته:

تَـأَوَّبَـنـي لـيْـلُ بِـيَـثْـرِبَ أعْـسَـرُ ... وَهَـمُّ إذَا مَـا نَـوَّمَ الـنَّـاسُ مُـسْـهِـرُ[٢]
. . رأيـتُ خِـيَـارَ الـمـؤمـنـيـن تَـوارَدُوا ... شَـعُـوبَ، وخَـلْـفاً بَـعْـدَهُـم يـتـأَخَّـرُ[٣]

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٢ ص٢٤٦ ـ والسيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ٣ ص٤٢٧.
(٢) تأوبني: عادني ورجع إليّ. واعسر: شديد العسر. ومسهر: داع إلى السهر ومانع من النوم.
(٣) شعوبَ: اسم للمنيّة ـ أي الموت ـ لأنها تشعب الأحباب أي تُفرقهم. وقوله: (وخلفاً بعدهم =

فلا يبعدنَّ اللهُ قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفرُ
وزيدُ وعبدُ الله حين تتابعوا جميعاً وأسبابُ المنيَّةِ تخطِرُ

* * *

ولما انتقد بعض أهل المدينة وصبيانها الذين رجعوا من مؤته، قال رجلُ مِمَنّ رجع من مؤتة مع الجيش:

كفى حزناً أني رجعتُ وجعفرُ وزيدُ وعبدُ الله في رمسِ أقبُرِ
قضوا نحبَهم لما مضوا لسبيلهم وخُلِّفتُ لِلْبَلوى مع المتغيِّرِ

ولقد كانت غزوة مؤته ذات تأثير إيجابي لأنها أثبتت قدرة المسلمين على التقدم إلى داخل الشام، وجعلت الروم يتراجعون عن فكرة مهاجمة أعالي الجزيرة العربية، وفتحت باباً لما تلى ذلك من نشاط إسلامي بمناطق أداني الشام وخاصة بعد فتح مكة ومن غزوة تبوك (في رجب ٩هـ) وحتى وفاة رسول الله ﷺ والجيش متهيئ لغزو الشام بقيادة أسامة بن زيد في ربيع ١١هـ.

وقد كان حُزن رسول الله ﷺ والصحابة على استشهاد زيد بن حارثة والذين معه حزناً عميقاً، وقال حسان بن ثابت الأنصاري يرثي زيد بن حارثة أبياتاً هي خيرُ ختام لسيرته العظيمة، حيث قال حسان بن ثابت:

عَيْنُ جُودِي بِدَمْعِكِ المنْزُورِ واذكُرِي في الرَّخَاءِ أهْلَ القُبُورِ(١)
واذكري مُؤْتَةَ وما كان فيها يَوْمَ رَاحُوا في وَقْعَةِ التَّغْوِيرِ(١)
يوم رَاحُوا وغَادَرُوا ثَمَّ زَيْداً نِعْمَ مأوَى الضَّرِيكِ والمأسُورِ(١)
حِبُّ خَيْرِ الأنَام طُرّاً جَمِيعاً ـ (سَيِّدِ النَّاسِ حُبُّهُ في الصُّدُورِ
ذَاكُمُ أحمدُ الذي لا سِواهُ) ـ ذاكَ حُزْني لهُ مَعاً وسروري
إنَّ زَيْداً قد كانَ مِنّا بأمْرِ لَيْسَ أمْرَ المُكَذِّب المغْرُور

وكان استشهاد زيد بن حارثة في جمادى الأول سنة ٨هـ، (وهو ابن خمس وخمسين سنة)، وذلك قبل وفاة رسول الله ﷺ بثلاث سنوات، ولذلك قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (ما بعث رسول الله ﷺ زيداً بن حارثة في سَرِيَّةٍ إلا أمَّرَهُ عليهم، ولو بَقَي بعده لاسْتَخْلَفَهُ). فرحمة الله ورضوانه عليه.

* * *

= يتأخر) يريد الذين تأخروا عن القتال وانسحبوا وعادوا مع خالد بن الوليد. وتزعم إحدى الروايات: وقوع انتصار وفتح بقيادة خالد، ولا صحة ذلك وإنما تم الانسحاب والعودة بسلام.

(١) المنزور: القليل. والضريك: الفقير.

٨

دِحْيَة بن خليفة الكَلْبيُّ الْحِمْيَريْ

ـ شبيه جبريل ورسول النبي ﷺ إلى هرقل ـ

من كبار الصحابة وأعلام اليمانيين السابقين إلى الإسلام هو دحية بن خليفة الكلبي الحميري شبيه جبريل عليه السلام، وقد أفرد أبو العباس المبرد باباً بعنوان: «تسمية من كان بينه وبين الملائكة سبب من اليمانية» قال فيه: «ومنهم دِحْيةُ بن خليفة الكَلْبِيُّ، كان جبريل ﷺ يَهْبِطُ في صورته فمن ذلك يوم بني قُرَيْظة لما انصرفَ رسول الله ﷺ من الخَنْدَق وهبط عليه جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، أقد وضعتُمُ سلاحكم، ما وضعتِ الملائكةُ أسلحتَهَا بَعْدَ، إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قُرَيظة، وها أنا ذا سائر إليهم فمُزَلْزِل بهم، فأمر رسول الله ﷺ الناس ألَّا يُصَلُّوا العصر إلا في بني قُريظة، فجعل يَمُرُّ بالناس، فيقول: أمَرَّ بكم أحد؟ فيقولون: مَرّ بنا دِحْيةُ بن خليفة على بغلة عليها قطيفةُ خَزٍّ نحو بني قُريظة. فيقول ﷺ: ذاك جبرائيل. ثم مَرَّ دحيةُ بعد ذلك. وكان لا يزال عليه السلام في غير هذا اليوم ينزل في صورته، كما ظهر إبليسُ في صورة الشيخ النَجدِيّ»[١].

وفي ذلك قال لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني مُتباهياً بدحية الكلبي لأنه من اليمن:

ومِنّا شِبْهُ جِبْرِيلٍ، ومِنْكُمْ سُراقةُ شبْه إبليس اللّعِيْنَا[٢]

وقال ابن حجر العسقلاني في ترجمته بالإصابة.

«كان دحية الكلبي رجلاً جميلاً، وكان يُضربُ به المثلُ في حسن الصُورة، وكان جبريلُ عليه السلام ينزل على صورته، جاء ذلك في حديث أُم سلمة، وفي حديث عائشة وروى النسائي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي.

وأخرج الطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كان جبريل يأتيني على صورة دحية الكلبي.

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد ـ جـ٢ ص٣٧٦.

(٢) قصيدة الدامغة في مفاخر اليمن ـ للحسن بن أحمد الهمداني.

وقال ابن عباس: كان دحية إذا دخل المدينة لم تبق مُعصراً، إلا خرجت تنظر إليه»[١].

وقال ابن عبد البر القرطبي في الاستيعاب:

«كان رسول الله ﷺ يُشَبِّهُ دِحية الكلبي بجبريل عليه السلام»[٢].

* * *

ودحية الكلبي هو: (دِحْية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن خزرج بن عامر بن بكر بن عامر بن عوف بن بكر بن عوف بن كعب بن عوف بن عامر بن عوف بن عدي بن زيد بن رفيدة بن ثور بن كلب ـ الكلبي ـ بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرّة بن زيد بن مالك بن حمير بن سباء)[٣]. وقد وصفه ابن خلدون بأنه (صاحب رسول الله ﷺ الذي أتاه جبريل عليه السلام في صورته)[٣] وكان دحية من بيوت وسلالة أقيال حمير الذين اشتهرت كثير من بيوتهم بأنهم كانوا من أحسن الناس صورة وجمالاً وجلالاً ومهابة، قال الشاعر الجاهلي عمرو بن علقمة العقدي يمدح زرعة بن عمر والحميري وهو من أقيال حمير في عهد الملك سيف بن ذي يزن الحميري، قال عمرو بن علقمة العقدي:

زُرعُ ابن عمرو خَيرُ مَنْ ذَملتْ به ... أدُمُ المَطيّ وكلّ أجْرَدِ شَاحِ[٤]

يَسْمُو بصِيدٍ مِنْ مقاولِ حِمْيَرِ ... بِيْضُ الوجُوه، مُنَعَّمين، صِباحِ

مِنْ شَمّرٍ، أو مِنْ مُهَتِّكِ عَرْشِه، ... والغُرُّ آل جذيمةِ الوضاح

حيث كان آل زرعة بن عمرو وآل شمر وآل مُهتك وآل جذيمة من بيوت أقيال حمير المعروفين بالوسامة وبياض الوجوه، المُنّعمين، الصِبَاح ومنهم حجر بن زرعة بن عمرو الحميري، قال الهمداني: وفيه يقول مالك بن عمرو الكلبي:

مَتَى تَفْخَر بزُرْعَة أو بحُجْرٍ ... تَجِدْ فَخْراً يَطِيرُ به السَّنَاءُ

هُمُ السَادَاتُ مِنْ أبناء عَمْرٍو ... ومَنْ لهُمُ المهابَةُ والبَهاءُ[٥]

وكان أبناء حجر بن زرعة من أقيال حمير الذين سكنوا صعدة في أيام سيف بن ذي يزن حيث أمدّ بهم سيف قبيلة خولان وقبيلة كلب وسائر قبائل

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ جـ١ ص٤٧٣.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ جـ١ ص٤٧٢.

(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد حسين الفرح ـ ص١١٥.

(٤) ذملت: الذمول نوع من مشي الإبل. أدم المطيّ: جلود الإبل. وكل أجرد شاح: يريد الخيول.

(٥) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ٢ ص١١٦.

قضاعة بن مالك بن حمير في صعدة وما يليها من سراة اليمن التي كانت تسكنها قضاعة وتمتد إلى أسفل بيشه، ومما يشير إلى ذلك قول ابن أبان بن حجر بن زرعة في أبيات بالإكليل:

قُضاعيةُ حَلّتْ بأسفل بيشةٍ أو الجَزْعِ مِنْ حَوراء أو ثَبَجِ الرَمْلِ[1]

فالذين كانوا يسكنون نواحي صعدة من قبيلة كلب هم بنو عوف، ومنهم كان عقيل بن مسعود الكلبي سيد قضاعة بصعدة، ومنهم حارثة بن شراحيل والد زيد بن حارثة، ومنهم دحية بن خليفة الكلبي، وكان دحية من بيوت أقيال حمير ذوي المهابة والبهاء، بيض الوجوه، المُنَعمين، الصِباح.

* * *

وقد كان دحية من السابقين إلى الإسلام قبل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة، والظاهر أنه سمع وهو بمنطقته في صعدة باليمن بأمر ودعوة النبي محمد ﷺ بمكة، فسار إليه، وأسلم، ثم عاد إلى منطقته باليمن يدعو إلى دين التوحيد، ثم هاجر إلى المدينة المنورة وأخذ مكانه في الصفوف الأولى بين أصحاب رسول الله ﷺ منذ أوائل السنة الثالثة للهجرة، ومما يدل على زمن هجرته أنه لم يشهد موقعة بدر ـ سنة ٢هـ ـ ولكنه كان من الصحابة الذين شهدوا موقعة أُحد ـ في شوال ٣هـ ـ وما بعدها من المشاهد، قال الحافظ ابن كثير: «دحية الكلبي: صحابي جليل، أسلم قديماً، ولكن لم يشهد بدراً، وشهد ما بعدها»[2] وجاء في الإصابة أنه «صحابي مشهور، شهد أُحُد، ولم يشهد بدراً». وقال القرطبي: «كان دحية الكلبي من كبار الصحابة».

* * *

لقد هاجر دحية الكلبي من اليمن إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة في السنة الثالثة للهجرة، وكان ممتطياً صهوة بغلته البيضاء، وكان إذا دخل المدينة لم تبق مُعصراً إلا خرجت تنظر إليه لأنه كان أحسن الناس صورة وجمالاً وجلالاً، فكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ بصورة دحية الكلبي، وكان رسول الله ﷺ يُشَبِّه دحية الكلبي بجبريل عليه السلام، قال العسقلاني: «أخرج الترمذي من حديث المغيرة: أن دحية الكلبي أهدى إلى النبي ﷺ خُفَّيْن فلبسهما.

وروى أحمد في مسنده عن طريق الشعبي عن دحية قال: قُلتُ يا رسول الله

---

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ٢ ص١١٦.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص٤٧.

ألا احمل لك حماراً على فرس، فيُنتج لك بغلاً فتركبها؟ قال: إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون.

.. وفي سنن أبي داود عن دحية: أُهديّ إلى النبي قباطي، فأعطاني منها قبطية»(١).

* * *

وكان دحية الكلبي من الصحابة المجاهدين في سبيل الله، فقد شهد موقعة أُحد مع رسول الله ﷺ ـ في شوال ٣هـ ـ وموقعة بدر الأخرى ـ في شعبان ٤هـ ـ وغيرهما من المشاهد مع رسول الله ﷺ ومع زيد بن حارثة الكلبي.

ولما حشدت قريش أحلافها من كفار الحجاز ونجد لغزو المدينة المنورة في شوال سنة ٥هـ ـ وهي غزوة الخندق ـ كان دحية بن خليفة الكلبي من الصحابة المهاجرين الذين تصدوا لقريش في غزوة الخندق، إذْ إنه في غزوة الخندق: (كان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة)(٢) فكان ممن شهد الخندق من الصحابة المهاجرين بقيادة زيد بن حارثة الكلبي: دحية بن خليفة، وحمل بن سعدانة الكلبي، وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي وغيرهم، وقد دحر الله تعالى قريشاً وأحزابها في غزوة الخندق فانسحبوا من المدينة وكفى الله المؤمنين شر القتال، ورجع رسول الله ﷺ إلى منزله يوم الخندق. قالت عائشة أم المؤمنين:

«رجع النبي ﷺ يوم الخندق، فَبَيْنَا هو عندي إذْ دُق الباب، فارتاع لذلك رسول الله ﷺ وخرج، فخرجتُ في إثره، فإذا رجلٌ على دابَّة والنبي ﷺ متكئ على معرفة الدابَّةُ يكلمه، فَرَجَعْتُ فلما دخل قلتُ: مَنْ ذلك الرجل الذي كُنت تكلمه؟ قال: ورأيتِه؟ قلت: نعم. قال: بمن تُشبهينه؟ قلتُ: بدحية بن خليفة الكلبي. قال: ذاك جبريل، أمرني أن أمضي إلى بني قريظة»(٣).

وكان بنو قريظة اليهود قد تآمروا وحاولوا الغدر بالنبي ﷺ والمسلمين بالمدينة، واتفقوا على ذلك مع قريش في أيام الخندق، فلم يتمكنوا من ذلك، فلما انسحبت قريش والأحزاب وكفى الله المؤمنين شر القتال، أتى جبريل في صورة دحية الكلبي وأمر النبي ﷺ بالمسير لقتال بني قريظة، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالمسير إلى بني قريظة، فسار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة وذلك لسبع بقين من ذي القعدة سنة خمس للهجرة.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ١ ص٤٧٤ ـ والقباطي: نوع من الثياب.

(٢) عيون الأثر في المغازي والسير ـ ابن سيد الناس ـ جـ٢ ص٨١ و٩٠.

(٣) عيون الأثر في المغازي والسير ـ ابن سيد الناس ـ جـ٢ ص٨١ و٩٠.

«ومَرَّ رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مرَّ بكم أحد؟

قالوا: يا رسول الله مرَّ بنا دِحْيَة بن خليفة الْكَلْبِيُّ على بغلة بيضاء عليها رحَالة، وعليها قَطيفةُ ديباج.

فقال رسول الله ﷺ: ذٰلِكَ جِبْرِيلُ، بُعِثَ إلى بَنِي قُرَيْظة يُزَلْزِلُ حُصُونَهُمْ، ويَقْذِفُ الرُّعْبَ في قُلُوبِهِمْ»[١].

قال أبو العباس المبرد: «ثم مَرَّ دحيةُ بعد ذلك»[٢] وتم النصر على بني قريظة.

* * *

بعث دحية إلى قبيلة كلب بدومة الجندل

وكان لدحية بن خليفة الكلبي دور أساسي في إسلام الذين بدومة الجندل من قبيلة كلب القضاعية الحميرية في السنة السادسة للهجرة، وذلك أن قبيلة كلب كانت منهم فرقة بمنطقتهم في صعدة باليمن، بينما كانت فرقة أخرى كبيرة من قبيلة كلب قد انتقلت في العصر الحميري إلى منطقة دومة الجندل وما يليها بأعالي الحجاز إلى أداني الشام فاستقروا هنالك كمستوطنات تجارية وحاميات عسكرية حميرية فامتلكوا دومة الجندل وما إليها بأعالي الحجاز، وهُم (بنو جناب بن أبل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عدي بن زيد ـ اللات ـ بن رفيدة بن كلب) وكانت تلك الفرقة من قبيلة كلب بدومة الجندل يتفرعون إلى ثلاثة بطون، وهم: بنو عدي بن زهير بن جناب، وبنو عليم بن جناب، وبنو زهير بن جناب. قال ابن خلدون: «كان في أول من ملك دومة الجندل: دجانة بن قنافة بن زهير بن جناب الكلبي»[٣].

وقد بعث رسول الله ﷺ دحية الكلبي إلى قبيلة كلب بدومة الجندل ـ في الفترة ما بين جمادى الثاني وشعبان ٦هـ ـ وجاء في ترجمة دحية بالإصابة أن دحية: «بعثه رسول الله ﷺ سَرِيّة وحده». وبما أنه كان وحده فلا يمكن أن يكون سَرِيّة حربية، وإنما كان مبعوثاً من رسول الله ﷺ لدعوة قبيلة كلب بدومة الجندل إلى الإسلام، وهم بنو عليم بن جناب، وبنو زهير بن جناب، وبنو عدي بن جناب، فاستجاب لدحية بنو عليم وبنو زهير بن جناب، وكان رئيسهم: حارثة بن قَطَنْ بن زابد بن حصن بن كعب بن عليم بن جناب الكلبي، وابنه قَطَنْ بن حارثة

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٣ ص٢٥٣.

(٢) الكامل ـ لأبي العباس المبرد ـ جـ٢ ص٣٧٦.

(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٦.

الكلبي، فأسلما مع قومهما، ووفد قطن بن حارثة وكذلك حارثة بن قطن الكلبي إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وهما من الصحابة، وقال قطن بن حارثة لرسول الله ﷺ:

رأيتُكَ يا خير البرية كُلها نَبَتَ نضاراً في الأرومة من كعبِ
أغَرّ كأنّ البَدر سنة وجهه إذا ما بدا للناس في حُلَلِ العَصْبِ
أقَمْتَ سبيل الحَقِ بعد اعوجاجها وربتْ اليتامى في السقاية والجَدْبِ

وكتب رسول الله ﷺ كتاب عهد لحارثة بن قطن وطوائف كلب بدومة الجندل فيما يلي نصه:

«هذا كتاب من محمد رسول الله لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب مع حارثة بن قطن.

لنا الضاحيةُ من البَعل ولكم الضامِنة من النخل. على الجارية العُشر وعلى الغائرة نصف العُشر، ولا تُجمع سارِحَتكم ولا تُعَدّ فارِدتكم. تقيمون الصلاة، وتؤتون الزكاة. لا يُحظرُ عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البِتات.

لكم بذلك العهد والميثاق، ولنا عليكم النُصح والوفاء، و[لكم] ذمة الله وذمة رسوله»[(١)].

وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً ثانياً يتضمن تفصيلاً للزكاة التي يؤدونها، ويبدأ الكتاب بلفظ:

«هذا كتاب من محمد رسول الله. لبني جناب وأحلافهم ومن ظاهَرَهُم».

وفي خاتمة الكتاب:

«شهد سعد بن عبادة، وعبد الله بن أُنيس، ودحية بن خليفة الكلبي»[(١)].

وأما عشيرة بني عدي بن جناب فكانوا يدينون بالنصرانية وكان رئيسهم نصرانياً مسيحياً وهو الأصبغ بن عمرو بن ثعلبة بن حصين بن ضمضم بن عدي بن جناب الكلبي، فبعث إليهم رسول الله ﷺ سرية حربية بقيادة عبد الرحمن بن عوف فغزاهم - في شعبان ٦هـ - ثم استجاب الأصبغ بن عمرو بن ثعلبة وأغلب عشيرته إلى الإسلام - الذي كان دحية قد سبق أن دعاهم إليه - وتزوج عبد الرحمن بن عوف بابنة الأصبغ وهي تماضر بنت الأصبغ أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

وقد أصبحت زعامة قبيلة كلب كلها بدومة الجندل لحارثة بن قطن العليمي

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي - محمد حميد الله - ص١٩١ - ١٩٣ - طبقات الصحابة لابن سعد - جـ١ ص٦٩ و٣٤.

الكلبي الذي كتب له رسول الله ﷺ الكتاب سالف الذكر، ويبدو أن حارثة كان قد بلغ من الكبر عتياً، فبعد ذلك الكتاب بفترة من الزمن كتب رسول الله ﷺ كتاباً شهد فيه أيضاً دحية بن خليفة الكلبي، ويبدأ الكتاب بلفظ:

«هذا كتاب من محمد رسول الله، لعمائر كلب وأحلافها ومن ظأرّه الإسلام من غيرها، مع قطن بن حارثة العليمي» وجاء في خاتمته أنه كُتِب:

«بمحضر شهود، منهم: دحية بن خليفة الكلبي، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن أنيس»(١).

وقد كان إسلام قبيلة كلب الذين بدومة الجندل في السنة السادسة للهجرة قوة للإسلام والمسلمين، فقد أخذ العشرات من فرسان ورجال قبيلة كلب أماكنهم في الصفوف المؤمنة مع أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا في جيش رسول الله ﷺ لما سار رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية والتي تم فيها الصلح والمهادنة بين رسول الله ﷺ وقريش - في ذي القعدة ٦هـ - فتأمنت الطريق بين اليمن والمدينة المنورة بعد صلح الحديبية، وتتابعت مواكب الإيمان في الوصول من اليمن إلى رسول الله ﷺ وكان منهم عمرو بن جبلة الكلبي ورجال من كلب وغيرهم من قبائل قضاعة بصعدة وما إليها، إذْ شمل الإسلام قبيلة كلب في مطلع سنة ٧ هجرية.

وكان لدحية الكلبي دور في إسلام بني الضُبيب من قبيلة جُذام اليمانية فيما يلي دومة الجندل بأعالي الحجاز إلى أيلة (العقبة)، قال ابن خلدون: «وأما جُذام: فبطنٌ مُتسعٌ وقبائل كثيرة، مثل غطفان، وبنو حرام، وبنو ضُبيَّبْ، وبنو مخرمة، وبنو بعجة، وبنو نفاثة، وكانت ديارهم حوالي أيلة، وكانت لهم الرياسة في معان وما حولها من الشام». [اهـ] وكان أولهم إسلاماً رِفَاعَة بن زيد الضُبيبي الجُذْامي وحسان بن مِلَّة الضُبيبي. قال ابن هشام في السيرة النبوية: «وقدم على رسول الله ﷺ في هُدْنَة الحديبية قبل خيبر رِفاعة بن زيد الجذامي ثم الضبيبي، فأهدى لرسول الله ﷺ غلاماً، وأسلم، فحسن إسلامه، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً إلى قومه.. فلما قدم رِفاعة على قومه أجابوا وأسلموا، ثم ساروا إلى الْحَرَّةِ حَرَّة الرَّجْلَاء، فنزلوها»(٢) وكان من أبرز شخصياتهم حسان بن مِلَّة الضبيبي، وقد كان قدوم رفاعة بن زيد إلى رسول الله ﷺ في مطلع ٧هـ، وجاء في نباء مرور دحية بأرض

(١) الوثائق السياسية - ص١٩٣ - وجاءت أسماء الشهود في العقد الفريد وفي إمتاع الأسماع للمقريزي كما يلي: «سعد، عبد الله بن أنيس، دحية بن خليفة الكلبي».
(٢) السيرة النبوية - ابن هشام - جـ٤ ص٢٦٧ و٢٨٥.

جذام عند عودته من مسيرة إلى قيصر بالشام ـ في جمادى الثاني ٧هـ ـ أنه: «كان حَسَّان بن مِلَّة الضبيبي قد صحب دِحْيَة بن خليفة قبل ذلك فعلمه أم الكتاب»(١) ويدل ذلك على أن دحية كان له دور في إسلام بني الضبيب الجُذاميين ما بين صلح الحديبية وغزوة خيبر في مطلع سنة ٧ للهجرة.

* * *

بعث دحية إلى هرقل ملك الروم سنة ٧هـ

ولقد كان من أجلّ وأخلد المواقف في سيرة دحية بن خليفة الكلبي بعث رسول الله ﷺ إياه إلى القيصر هرقل امبراطور الامبراطورية الرومانية، ولذلك وصفته تراجم الصحابة وكتب التاريخ بأنه «رسول رسول الله إلى هرقل ملك الروم» وجاء ذكره في كتاب الوثائق السياسية بلفظ: «دحية الكلبي رضي الله عنه سفير النبي عليه السلام إلى هرقل»(٢).

وقد أجمعت كتب السيرة النبوية والمصادر التاريخية على أن بعث دحية إلى هرقل كان بعد صلح الحديبية، وقد كان صلح الحديبية في ذي القعدة ٦هـ ورجع النبي ﷺ والمسلمون من الحديبية إلى المدينة المنورة واستقروا بها ـ في ذي الحجة ٦هـ ـ وبالتالي يكون زمن بعث دحية الكلبي في أوائل سنة ٧هـ، وبالذات بعد العودة من غزوة خيبر ـ في صفر ٧هـ ـ فيكون بعث دحية في شهر ربيع سنة ٧هـ، وقد بعثه رسول الله ﷺ مرة ثانية إلى هرقل، حيث جاء في تاريخ ابن عساكر ومسند أحمد عن سعيد بن أبي راشد قال: «قدم رسول الله ﷺ تبوك، فبعث دحية الكلبي إلى هرقل»(٢) وكانت تبوك في رجب ٩هـ، وليس هنالك تعارض بين التاريخين، إذْ إننا أمام بعثين لدحية إلى هرقل، أولهما ـ في ربيع ٧هـ ـ وثانيهما ـ في رجب ٩هـ ـ ويؤكد ذلك وجود صيغتين لرسالة النبي ﷺ إلى هرقل، وبتعبير أصح وجود رسالتين، لأن النبي ﷺ كتب إليه مرتين، وكان دحية هو رسول النبي ﷺ في المرتين مما يتيح وصفه بالسفير وقد اختاره رسول الله ﷺ لتلك المهمة الكبيرة لأنه كان ذا شخصية فذة فقد كان أوسم وأحسن الناس صورة وله مهابة وبهاء، وهو من السابقين إلى الإسلام ومن كبار الصحابة فهو عارف بتعاليم الإسلام وبالقرآن الكريم والسنة معرفة تتيح له تبيين ما قد يستلزم التبيين من أمور، ومناقشة ما قد يطرأ من نقاش بعد تسليم الرسالة، وربما كان يعرف أيضاً اللغة السريانية فقد

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٦٧ و٢٨٥.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ـ ص١٠٩ ـ عن صحيح البخاري، وكتب السيرة النبوية وكتب السنن وكتب التاريخ الصحيحة.

كانت السريانية الأرامية لهجة عربية قديمة وكانت لغة الديانة المسيحية التي كانت منتشرة في القبائل والمناطق الحميرية باليمن ومنها قبيلة كلب التي كان فيها من يدين بالمسيحية سواء في صعدة بالقرب من نجران أو في دومة الجندل كما كانت السريانية منتشرة بالشام.

وقد مضى دحية الكلبي من المدينة المنورة ـ في ربيع ٧هـ ـ إلى دمشق ومنها إلى بُصرى في حوران بالشام ثم إلى مدينة حمص التي فيها كان يقيم القيصر هرقل امبراطور الروم حينما يكون في الشام، وقد وقف دحية بين يدي هرقل في بلاط قصره بحمص يقرأ ـ بثبات ـ الرسالة النبوية التي جاء حاملاً إياها، وفيما يلي نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هِرَقِل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسْلِمْ تسلم، أسلم يؤتك اللَّهُ أجرك مرّتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[(١)] [آل عمران: ٦٤].

وقد ذكرت روايات الإخباريين موقف هرقل من رسالة النبي ﷺ في خبر طويل ربما لا تطمئن إليه النفس، حيث تذهب بعض الروايات إلى أنه أسلم وكتم إسلامه، أو أنه أوشك على الإسلام ولكنه خاف رجال الدين الرومان، بينما المواقف اللاحقة لهرقل لا تؤيد ذلك، فغاية ما تطمئن إليه النفس هو أنه أجاب بجواب حسن، فقد ذكرت الروايات التاريخية أنه قال لدحية الكلبي: «اذهب إلى نبيكم، فأخبره أني معه، ولكن لا أريد أن أدع مُلكي».

وتضيف الرواية أن هرقل «بعث مع دحية دنانير هدية إلى رسول الله ﷺ، فرجع دحية فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «كَذَبَ». وقسم الدنانير». وقد علق أبو عبيد على ذلك قائلاً: أرى الدنانير التي وصلت إلى رسول الله ﷺ من هرقل، إنما وصلت إليه بتبوك»[(٢)] فتكون الدنانير في البعث الثاني لدحية الكلبي إلى هرقل سنة ٩ هجرية.

أما في البعث الأول فقد رجع دحية من عند هرقل في جمادى الأول ٧هـ حيث مَرّ دحية بمنطقة جُذام في أعالي الحجاز قاصداً المدينة المنورة، فأغار عليه

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ـ ص١٠٩ ـ عن صحيح البخاري، وكتب السيرة النبوية وكتب السنن وكتب التاريخ الصحيحة.

(٢) كتاب الأموال ـ لأبي عبيد القاسم بن سلام ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص١١٤.

الهنيد بن عُوص وعشيرته الضلعيون، وفي ذلك جاء في السيرة النبوية أنه: «قدم دِحْيَةُ بن خليفة الكلبي من عند قيصر صاحب الروم حين بعثه رسول الله ﷺ إليه، ومعه تجارة له، حتى إذا كان بوادٍ من أودية جذام يقال له (شِنار) أغار على دحية بن خليفة الهُنَيْدُ بن عُوصٍ وابنه عُوصُ بن الهنيد الضُّلَعِيَّانِ، فأصابا كل شيء كان معه. فبلغ ذلك قوماً من بني الضُبيب رهط رفاعة بن زيد ممن كان أسلم وأجاب، فنفروا إلى الهنيد وابنه... فاستنقذوا ما كان في يد الهنيد وابنه، فردُّوه على دِحْية» وكذلك جاء في عيون الأثر أنه «أقبل دحية بن خليفة الكلبي من عند قيصر، وقد أجازه وكساه، فلقيه الهنيد وابنه في ناس من جذام بحِسْمَى، فقطعوا عليه الطريق فلم يتركوا عليه إلا سمل ثوب. فسمع بذلك نفر من بني الضُبيب، فنفروا إليهم فاستنقذوا لدحية متاعه»(١).

فمَضَى دِحْيَةُ الكلبي حتى قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة ـ في نهاية جمادى الأول ٧هـ ـ فأخبره بنتائج لقائه مع هرقل عندما سلمه كتاب رسول الله ﷺ، وبأن هرقل قال له (اذهب إلى نبيكم فأخبره أني معه ولكن لا أريد أن أدع مُلكي)، كما أخبره بحادثة قطع الطريق التي تعرض لها في أرض (حِسْمَى)، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة الكلبي في خمسمائة رجل من الصحابة ومعه دحية الكلبي إلى أرض حِسْمَى ـ فيما يلي وادي القرى بأعالي الحجاز ـ وذلك في جمادى الثاني سنة سبع للهجرة(٢) فتم القضاء على الهنيد وعصابته. وتثبيت سلطة الإسلام في تلك المنطقة من أرض جذام، وقد سلف ذكر تلك الغزوة في المبحث السابق عن زيد بن حارثة.

* * *

معالم الفترة من رجب ٧هـ إلى رجب ٩هـ

وكان من الأحداث الهامة التي شهدها دحية بن خليفة الكلبي بعد عودته من بعثته الأولى إلى هرقل ومن غزوة حِسْمَى ما يلي:

ـ سرية غالب بن عبد الله الكلبي الحميري ـ في رمضان ٧هـ ـ إلى بني عُوال ـ بضم العين ـ وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة وهي وراء بطن نخل بناحية نجد، حيث بعث رسول الله ﷺ إليهم الصحابي غالب بن عبد الله الكلبي في مائة وثلاثين رجلاً

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٨٥ ـ عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ جـ٢ ص١٤١.

(٢) جاء في عيون الأثر أن غزوة حسمي (في جمادى الآخرة سنة ست) ثم ذكر سببها بأنه قطع الطريق على دحية عند عودته من عند قيصر، فالصواب أنها سنة ٧هـ.

من الصحابة غالبيتهم من كلب وقضاعة، وكان فيهم أسامة بن زيد بن حارثة، وكان أسامة شاباً يافعاً ابن خمس عشرة سنة يومذاك، فهجموا على العدو بناحية نجد، فقتلوا جماعة من العدو، وغنموا غنائم جيدة، وعادوا إلى المدينة.

ـ وكان رسول الله ﷺ قد بعث بشير بن سعد الأنصاري في سرية إلى بني مرة بمنطقة فدك ـ في شعبان ٧هـ ـ فأُصيب بشير وعدد من رجال سريته بنبال العدو، فرجعوا إلى المدينة مُصابين بجراح من النبال، ثم تعافى بشير بن سعد فبعثه النبي ﷺ في سرية إلى غطفان فهربوا إلى عليا بلادهم، فأسر رجلين منهم فأسلما، وعاد بالغنائم إلى المدينة، وكانت تلك السرية في شوال ٧هـ ـ ثم (بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي في سرية إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك في صفر ٨هـ، وخرج أسامة بن زيد بن حارثة فيها) ونجحت تلك السرِيّة الكلبية في إصابة بني مرة بفدك، وعادت بالظفر إلى المدينة.

ـ وفي ربيع سنة ٨هـ أتى الخبر إلى المدينة بقتل الحرث بن عميرة الأزدي رسول الله ﷺ إلى ملك بُصرى بالشام، وقيل إن النبي ﷺ بعثه بكتاب إلى الشام إلى ملك الروم، وقيل إلى ملك بُصرى بالشام، فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني بأمر الروم، ولم يُقتل رسول للنبي ﷺ غيره، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر، وقد كان ذلك أيضاً في إطار نشاط روماني لمنع امتداد الإسلام إلى القبائل العربية بالشام، فبعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى الشام بقيادة زيد بن حارثة، فاستشهد زيد بن حارثة في تلك الغزوة وهي غزوة مؤته في جمادى الأول سنة ٨هـ وقد تقدم ذكرها في مبحث زيد بن حارثه رضي الله عنه.

ـ وفي رمضان سنة ٨هـ شهد فتح مكة مع رسول الله ﷺ المئات من فرسان ورجال كلب وقضاعة، منهم أسامة بن زيد بن حارثة، ودحية بن خليفة، وغالب بن عبد الله الكلبي، وعمرو بن جبلة الكلبي، وحمل بن سعدانه الكلبي، وقطن بن حارثة، وعبد الله بن أنيس الجهني القضاعي، وعقبة بن عامر، وأمثالهم من الصحابة رضي الله عنهم، وكان أسامة بن زيد بن حارثة رديف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وكان أسامة يومئذٍ ابن سبع عشرة سنة[1] وكان اليمانيون يمثلون الغالبية العظمى في جيش رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فإلى جانب الأوس والخزرج اليمانيين ـ أنصار رسول الله ﷺ ـ فقد كانت قبيلة خزاعة اليمانية بأكملها في جيش رسول الله ﷺ وكذلك كان المئات من فرسان قضاعة والمئات من دوس والعشرات

(١) قال العسقلاني في الإصابة «ولد أسامة في الإسلام ومات النبي ﷺ وله عشرون سنة وقال ابن أبي خيثمة: ثماني عشرة». ـ ص٣١ جـ١ ـ الإصابة في تمييز الصحابة.

من بجيلة ومن خثعم ومن الأشاعر وغيرهم من القبائل اليمنية في جيش رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري:

ويوم سار رسول الله محتسباً إلى تبوك وهُمْ راياته الأُولُ

وكانت تبوك في رجب ٩هـ.

* * *

البعث الثاني لدحية الكلبي إلى هرقل ملك الروم

وكان دحية بن خليفة الكلبي من كبار الصحابة الذين شهدوا غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ وكانت تبوك في رجب ٩ هجرية، وقد جاء في تاريخ دمشق لابن عساكر ومسند أحمد عن سعيد بن أبي راشد أنه: «قدم رسول الله ﷺ تبوك، فبعث دحية الكلبي إلى هرقل»[(١)].

وكان ذلك هو البعث الثاني لدحية الكلبي إلى هرقل ملك الروم، وقد بعث معه رسول الله ﷺ رسالة إلى هرقل تتميز عن الرسالة الأولى التي قال له رسول الله ﷺ فيها «أسْلِمْ تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين». أما الرسالة النبوية التي حملها دحية الكلبي رسول النبي ﷺ إلى هرقل في رجب ٩هـ، وقرأها دحية على هرقل في قصره بمدينة حمص، فكان نصها كما يلي:

«من محمد رسول الله إلى هرقل ملك الروم.

ـ إني أدعُوكَ إلى الإسلام، فإن أسلمتَ فَلَكَ ما للمسلمين وعليك ما عليهم.

ـ فإن لم تدخلْ في الإسلام فأعط الجزية فإن الله تبارك وتعالى يقول: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَرِّمون ما حَرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أُوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهُمْ صاغرون.

ـ وإلا فلا تَحُلْ بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه، أو يُعطوا الجزية». انتهى[(٢)].

وقد تحدثت بعض الروايات عن موقف هرقل بما يعطي انطباعاً بأنه آمن برسول الله ﷺ وأسلم، أو كاد أن يسلم، وبما أن تلك الروايات تتعارض مع مواقفه اللاحقة ومع مسار الأحداث، فإن أرجح ما ذكرته الروايات والنصوص هو ـ كما تقدم ـ أنه قال لدحية الكلبي: «اذهب إلى نبيكم فأخبره أني معه، ولكن لا أريد أن

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ـ جـ١ ص٤١٧ ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص١١٢.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص١١٠ ـ صبح الأعشى للقلقشندي ـ ص٣٧٧.

أدع مُلكي. ويبعث معه دنانير هدية إلى رسول الله ﷺ فرجع دحية فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: كَذَبَ. وقسم الدنانير» قال أبو عبيد: «أرى الدنانير التي وصلت إلى رسول الله ﷺ من هرقل، إنما وصلت إليه بتبوك» وهو الصواب، وقد وقعت سنة ٩هـ (٦٢٩م) حرب بين هرقل ملك الروم وبين كسرى ابرويز ملك فارس، وفيها تغلب الروم على الفرس ودخلوا المدائن واستعادوا الصليب، ثم عقد الروم وفارس اتفاقية تَعَهد الفرس بموجبها بعدم القيام بغزوات ضد الروم في الشام وتركيا، وكانت تلك الظروف من أسباب حرص هرقل على عدم فتح صراع مع المسلمين وجوابه المذكور على رسول الله ﷺ والهدية ـ الدنانير ـ التي بعثها مع دحية إلى النبي ﷺ بتبوك.

وقد جاء في كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل قول رسول الله ﷺ: «**وإلا فلا تحُلْ بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه، أو يعطوا الجزية**» والمقصود بالفلاحين القبائل العربية بالشام، وقد كانت فترة غزوة تبوك ـ (رجب إلى رمضان ٩هـ) ـ نقطة تحول هامة في انضواء العديد من الزعامات ومن القبائل العربية في دومة الجندل وتبوك إلى أداني الشام في الإسلام أو في سلطة الإسلام، إذْ إنه:

ـ كانت تسكن دومة الجندل وتبوك بطون من قبيلة كلب القضاعية الحميرية، وفي ذلك قال ابن خلدون: «وكان لقُضاعة مُلْكُ في كلب بن وبرة يتداولونه مع السكون من كندة، فكانت لكلب دومة الجندل وتبوك ودخلوا في دين النصرانية، وجاء الإسلام والدولة في دومة الجندل لأكيدر بن عبد الملك من السكون ويقال أنه كندي من ذرية الملوك الذين ولاهم التبابعةُ على كلب (أي على دومة الجندل وتبوك في العصر الحميري) ـ ومنهُمْ ـ أي من قضاعة ـ بنو عمران وبنو جرم انتشروا إلى غزة وجبال الشراة من الشام وجبال الشراة من جبل الكرك. وكانت جهينة تنزل ما بين ينبع ويثرب، وفي شماليهم إلى عقبة أيلة مواطن قبيلة بَلِيْ من قضاعة..». قال ابن خلدون: «وأما جذام: فبطنٌ مُتسعُ وقبائل كثيرة، مثل غطفان، وبنو حرام، وبنو ضبيْبْ، وبنو مخرمة، وبنو بعجة، وبنو نُفاثة، وكانت ديارهم حوالى أيلة، وكانت لهم الرياسة في معان وما حولها من الشام»[1] وكانت تلك القبائل ومناطقها ترتبط بالسلطة الرومانية بما في ذلك دومة الجندل وتبوك وكانت قبائلها تدين بالمسيحية، لذلك تصف النصوص غزوة تبوك بأنها إلى (أرض الروم).

وقد أخذت قبيلة كلب تدين بالإسلام منذ سنة ٦هـ وسنة ٧هـ وكان لدحية

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٢٤٠ و٢٤٨.

الكلبي دوراً رئيسياً في ذلك، وكتب رسول الله ﷺ لحارثة بن قطن الكلبي وطوائف كلب بدومة الجندل كتابه سالف الذكر، ثم كتب رسول الله ﷺ كتابه (لعمائر كلب وأحلافها ومن ظأره الإسلام من غيرها، مع قطن بن حارثة العليمي)، وشهد في خاتمة الكتاب (دحية بن خليفة الكلبي، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن أنيس). ويمكن أن يكون ذلك في تبوك ولم يتبق في دومة الجندل وتبوك سوى (أكيدر بن عبد الملك) وقد بعث إليه رسول الله ﷺ من تبوك، سَرية بمعية خالد بن الوليد، فأتى (أكيدر بن عبد الملك إلى رسول الله ﷺ وكتب له كتاباً) وبذلك استكملت دومة الجندل وتبوك دخولاً في الإسلام.

ـ وبعث رسول الله ﷺ من تبوك شرحبيل بن حسنة الكندي إلى (يُحنة بن رؤبة ملك أيلة وسروات أهل أيلة) وإلى (أهل مقنة) وإلى (أهل أذْرُح وأهل جرباء) ـ وهي جميعاً بالأردن وفلسطين من الشام ـ فاستجابوا إلى المصالحة، قال ابن هشام: «أتى يحنة بن رؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية. وكتب له كتاباً»[(١)] وجاء في خاتمة كتاب رسول الله ﷺ ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة: «وهذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله»[(١)] وكذلك كتب رسول الله ﷺ عهداً لأهل أذرح وأهل جرباء، وجاء فيه: «إن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة»[(١)] وذلك لأن الكتاب في رجب ٩هـ ورسول الله ﷺ بتبوك. وكذلك استجاب مالك بن أحمر العوفي الجذامي وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً، واستجاب بنو جفال بن ربيعة الجذاميين وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً (إنّ لهم إرَم لا يحلّها عليهم أحد). ومنطقة إرم بالأردن وفلسطين. وأسلم العديد من شخصيات وقبائل غسان في البلقاء وسورية، وكان رسول الله ﷺ كتب إلى بعضهم مع دحية بن خليفة الكلبي، فاستجابوا وكتبوا إلى رسول الله ﷺ وكتب لهم رسول الله ﷺ كُتباً وعهوداً، وقد رجع رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة المنورة في رمضان ٩هـ، وبينما رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة أتاه كتاب فروة بن عمرو النُفاثي الجذامي ملك معان وما حولها من الشام، قال ابن هشام: «كان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام»[(٢)] وقد كتب فروة الجذامي إلى رسول الله ﷺ قائلاً:

«إلى محمد رسول الله، إنّي مُقِرٌ بالإسلامُ مصدّق به. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص١٨٠ ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص١١٧.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٦١.

أنت الذي بشَّر بك عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام»[١].

قال ابن الجوزي: «وبعث فروة بن عمرو الجذامي إلى رسول الله ﷺ ببغلة بيضاء وفرس وحمار، وبأثواب، وبقباء سندس مخوّص بالذهب»[٢] وجاء في سنن أبي داود عن دحية الكلبي قال: «أُهديَ إلى رسول الله ﷺ قباطي، فأعطاني منها قبطية». والقباطي نوع من الأثواب ربما تكون من هدية فروة إلى رسول الله ﷺ عندما كتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ بعد عودته من تبوك إلى المدينة بأمد يسير، إما في أواخر سنة ٩هـ وإما في أوائل سنة ١٠هـ وقد جاء في سيرة ابن هشام أن إسلام وكتاب فروة (في سنة عشرة للهجرة) فيكون في أوائلها، فكتب رسول الله ﷺ إلى فروة بن عمرو الجذامي.

«أما بعد، فقد قدم علينا رسولك، وبَلّغ ما أرسلت به، وخَبَّر عما قِبلكم، وأتانا بإسلامكم.

وإنّ الله هداك بِهداهُ إن أصلحتَ وأطعتَ الله ورسوله، وأقمت الصلاة وآتيت الزكاة»[٢].

وكان إسلام فروة الجذامي حاكم معان وما حولها من الشام يمثل ذروة في انتشار الإسلام ودخول القبائل العربية بالشام في دين الإسلام أو في طاعة الدولة العربية الإسلامية بزعامة رسول الله ﷺ في الأردن وفلسطين بل وحتى في دمشق وديار الغساسنة التي كان دحية بن خليفة الكلبي قد سار إليها ـ ومَرّ منها ـ إذْ إنه جاء في الوثائق السياسية للعهد النبوي عن ابن الجوزي قال: «وأسلم جِبلة بن الأيهم الغساني وكتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ»[٢] وقد كان جبلة بن الأيهم ملك غسان والعرب في جِلّق ـ دمشق ـ وسورية، وكان ذلك الانتشار للإسلام بالشام وذلك الانضواء في الدولة العربية الإسلامية محل اهتمام وقلق الدولة الرومانية وملكها هرقل، ويبدو أن الدولة الرومانية التي كانت مشغولة بمحاربة الدولة الفارسية سنة ٩هـ (٦٢٩م) لم يكن من مصلحتها آنذاك الدخول في صراع مع الدولة العربية الإسلامية ومع رسول الله ﷺ ثم توصل الرومان والفرس إلى اتفاقية أنهت الصراع بينهما ووضعت ضوابط لعلاقاتها، فلما اطمأن الروم إلى تلك الجبهة، قاموا ـ في أوائل سنة ١٠هـ ـ بتوجيه ضربة لمنع انتشار الإسلام بالشام

* * *

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي ـ جـ١ ص٥٠٦ ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص١٢٥.

(٢) الوفاء لابن الجوزي ـ ص٧٤٠ ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص١٢٥.

قَتْل فروة الجُذَامي وسَرِيّة أسامة بن زيد إلى الشام

وقد تمثل العمل الروماني ضد الانتشار السلمي لدين الإسلام بالشام في قيام الروم بحبس فروة بن عمرو الجذامي حاكم مَعَانْ، فأخذوه إلى موضع ماء يقال له عَفْرى بفلسطين، وفي ذلك قال فروة:

ألَا هَـلْ أتـى سَـلْـمـى بـأنّ حَـلِـيلـهـا ... على ماءِ عَفْرَى فوق إحْدَى الرَّواحِلِ

عـلـى نـاقـةٍ لـم يَـضْـرِبِ الـفَـحْـلُ أُمَّـهـا ... مُـشَـذَّبَـةٍ أطـرَافُـهَـا بـالـمـنـاجِـلِ

وقام الروم بتعذيب فروة ثم صلبوه وقتلوه، فلما قدموه للقتل قال لأحد أقاربه:

بَـلّـغ سَـرَاةَ الـمُـسْـلِـمِـيـنَ بـأنـنـي ... سِـلْـمٌ لِـرَبِّـي أعْـظُـمِـي ومـقـامـي

وسَرَاة المسلمين هم زعماء المسلمين من الصحابة الذين عرفهم فروة الجذامي أمثال دحية بن خليفة الكلبي وشرحبيل بن حسنة الكندي ثم سائر الزعماء والقادة من الصحابة، وكان صلب وقتل فروة الجذامي رضي الله عنه في شهر صفر أو شهر ربيع الأول سنة ١٠ هجرية، ولا شك أن رسول الله ﷺ والذين معه لم يكتفوا بالحزن على فروة وباستنكار ذاك العدوان الروماني الخطير، فقد بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى الشام بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي ومعه كبار الصحابة القادة وفيهم دحية بن خليفة الكلبي، وشرحبيل بن حسنة الكندي والمقداد بن عمرو البهراني وعبد الرحمن بن عوف، وكبار المهاجرين والأنصار بالمدينة المنورة.

والظاهر أن الروايات دمجت بين واقعتين، إحداهما: سرية أسامة بن زيد إلى الشام ـ في ربيع الثاني سنة ١٠هـ ـ والثانية: الجيش الذي جهزه رسول الله ﷺ لغزو الروم بالشام بقيادة أسامة بن زيد قُبيل وفاة النبي ﷺ في أوائل سنة ١١هـ مما أدى إلى اعتبار الغزوة لم تتم، وأن الواقعة الأولى كانت بعد وفاة رسول الله ﷺ واستخلاف أبي بكر، بينما تدل العديد من النصوص والأحاديث على أن رسول الله ﷺ بعث بالفعل جيشاً إلى الشام بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة سنة عشر للهجرة، وجاء في ترجمة أسامة بن زيد بكتاب الجامع أنه «أمّرَه رسول الله ﷺ قبل أن يبلغ العشرين من عمره فكان مُظفراً مُوفقاً. وفي تاريخ ابن عساكر أن رسول الله ﷺ استعمل أُسامة على جيش فيه أبو بكر وعمر»[١] وجاء في كتاب عيون الأثر بعنوان: (سَريّة أسامة بن زيد إلى أرض الشراة بناحية البلقاء) أنه: (أمر رسول الله ﷺ الناس

---

(١) الجامع لإعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص٨١.

بالتهيؤ لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد فقال له: سر إلى موضع مقتل (أبيك)، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فأغِرْ عليهم، وأسرع السير تسبق الأخبار، فإن ظفرك الله فاقلل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء، وقدم العيون والطلائع معك. فلما أصبح عقد رسول الله ﷺ لأسامة لواءً بيده، ثم قال له: اغْزُ بسم الله، وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، فخرج أسامة بلوائه معقوداً. . فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة). ولكن الرواية تعود إلى دمج ذلك بواقعة ما قبيل وفاة رسول الله ﷺ وأن مسير أسامة كان بعد استخلاف أبي بكر، (فسار أسامة في شهر ربيع الآخر إلى أبْنَى، وهي أرض الشراة ناحية البلقاء، فسار إليها عشرين ليلة، فشن عليهم الغارات، وأجال الخيل في عرصاتهم، وقتل مِنْ العدو مَنْ أشرف عليه، وسَبَى، وغَنم، وكان أسامة على فرس أبيه (سبحه). . ثم أغذَّ ـ أي أسرع ـ السير، فورد بجيشه وادي القُرى في تسع ليال، ثم بعث بشيراً إلى المدينة بسلامتهم، ثم قصد بعد في السير، فسار إلى المدينة سِتاً، وما أُصيب من المسلمين أحد. . ودخل المدينة على فرس أبيه سبحه، واللواء أمامه حتى انتهى إلى باب المسجد النبوي). فكانت عودته في شهر جمادى الثاني تقريباً، وقد سار أسامة بعد ذلك إلى وادي القُرى، ولم يكن ذلك للإقامة فيها، وإنما يقتضي سير الأحداث أنه رابط فيها على رأس قوة إسلامية لمواجهة أي احتمالات عدوانية من جانب الروم. وقد كان هرقل ملك الروم في مدينة حمص حينما غزا أسامة بن زيد ناحية البلقاء سالفة الذكر وفتك بالأعداء ورجع سالماً غانماً، قال ابن سيد الناس: (وبلغ هرقل وهو بحمص ما صنع أسامة، فبعث رابطة يكونون بالبلقاء، فلم تزل هناك حتى قدمت البعوث إلى الشام في خلافة أبي بكر). ومقتضى ذلك أن تلك الرابطة الرومانية بالبلقاء تم وضعها قبل خلافة أبي بكر، حينما قام أسامة بتلك الغزوة إلى ناحية البلقاء في عهد رسول الله ﷺ وأن أسامة رابط بعد تلك الغزوة في وادي القرى ما بين جمادى الثاني وذي الحجة لأن أسامة شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، وقد كان دحية مع أسامة في تلك الغزوة.

* * *

زواج رسول الله ﷺ بأخت دحية الكلبي

وقد تزوج رسول الله ﷺ بالسيدة شراف بنت خليفة الكلبي أُخت دحية الكلبي. قال العسقلاني في ترجمتها بالإصابة: «وقد ورد التصريح بذكرها عند ابن سعد عن هشام عن القطامي قال: لما هلكت خولة بنت الهذيل، تزوج رسول الله ﷺ شراف بنت خليفة أخت دحية بن خليفة الكلبي. . . وأورد أبو موسى في الذيل

في ترجمة شراف: إن رسول الله ﷺ لما خطبها، بعث عائشة تنظر إليها، فذهبت ثم رجعت فقالت: ما رأيتُ طائلاً، فقال رسول الله ﷺ: أقد رأيتِ حالاً عندها اقشعرت كل شعرة منك. فقالت عائشة: ما دونك سعيه»[١].

وقال ابن جرير الطبري: «لَمْ تمت عند رسول الله ﷺ في حياته من أزواجه غير زينب بنت خزيمة، وخديجة، وشراف بنت خليفة أخت دحية بن خليفة الكلبي»[٢].

وقال القرطبي في الاستيعاب: «شراف بنت خليفة، أخت دحية، تزوجها رسول الله ﷺ فهلكت قبل دخوله بها»[١] بينما مقتضى ما ذكره العسقلاني بأن النبي ﷺ تزوجها بعد وفاة خولة بنت الهذيل، إن شراف بنت خليفة مكثت زوجة لرسول الله ﷺ فترة من الزمن، وكانت زوجته كغيرها من زوجات النبي ﷺ إلى أن توفت في حياته بحيث قال الطبري «لم تمت عند رسول الله ﷺ في حياته من أزواجه غير زينب، وخديجة، وشراف» فكانت شراف من نساء النبي ﷺ وأمهات المؤمنين.

* * *

في رحاب فتوحات الشام

لقد قام رسول الله ﷺ ـ في أوائل سنة ١١هـ ـ بتجهيز جيش لغزو الروم بالشام وأسند قيادته إلى أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، وفي ذلك قال ابن هشام «بعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام، وأمره أن يوطئ الخيل تخُومَ الْبَلْقَاء والدَّارُومَ من أرض فِلَسطين، فتجهَّز الناس، وأوْعَبَ مع أسامة المهاجرون الأولون، فبينا الناس على ذلك ابْتُدِئ رسول الله ﷺ بشكواه الذي قَبضَهُ الله فيه إلى ما أراد به من كرامته ورحمته، في ليال بقَينَ من صفر، أو في أول شهر ربيع الأول. وجاء في عيون الأثر: «أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم، وعقد لأسامة اللواء بيده، فخرج بلوائه معقوداً وعسكر بالجرف ـ يوم الخميس ٣٠ صفر ١١هـ ـ فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة، منهم: أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم، فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين. فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فما قالة بلغتني عن بعضكم في

(١) الإصابة ـ ترجمة شراف بنت خليفة ـ الاستيعاب ترجمة شراف بنت خليفة ـ جـ٤ ص٣٤٠.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ لابن جرير الطبري ـ جـ٣ ص١٧٩.

تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي إياه فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وأيّم الله، إن كان لخليقاً للإمارة، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وأنه لمخيلان لكل خير ـ أي لمضنّة لكل خير ـ فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم. ثم نزل فدخل بيته، وذلك في ١٠ ربيع الأول، وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ ويخرجون إلى المعسكر بالجرف، وثقل رسول الله ﷺ فجعل يقول: انفذوا بعث أسامة. فلما كان يوم الأحد اشتد برسول الله ﷺ وجعه فدخل أسامة من معسكره والنبي ﷺ مغمور، فجعل يرفع يديه إلى السماء، ثم يضعهما على أسامة. قال أسامة: فعرفت أنه يدعو لي ورجع أسامة إلى معسكره، ثم دخل يوم الإثنين، وأصبح رسول الله ﷺ مُفيقاً فقال له: أغدُ على بركة الله، فودعه أسامة وخرج إلى معسكره، فأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب إذا رسول أمّه أم أيمن قد جاء يقول: إن رسول الله يموت، فأقبل وأقبل معه عمرو وأبو عبيدة فانتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو يموت، فتوفي يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة».

ويرى بعض الدارسين أن عملية بعث الجيش بقيادة أسامة بن زيد تعرضت للعرقلة المتعمدة من بعض الشخصيات الذين عزّ عليهم أن يتولى ذلك الصحابي الشاب أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي قيادة وإمرة المهاجرين والأنصار، ولكن الروايات تقول أن أبا بكر الصديق لما بويع بالخلافة قام بتوجيه الجيش بقيادة أسامة، بالرغم من حركات الردة التي وقعت في بعض المناطق، وأنه «كلّم أبو بكر أسامة في عمر بن الخطاب أن يأذن له في التخلف ففعل، وخرج أسامة بالجيش في مطلع شهر ربيع الثاني ١١هـ، فشن الغارة على منطقة أبْنَى بالبلقاء ـ في ٢٠ ربيع الثاني ـ ثم عاد إلى المدينة ولم يصب من المسلمين أحد، وخرج أبو بكر في المهاجرين وأهل المدينة يتلقونهم سروراً بسلامتهم، ودخل أسامة على فرس أبيه سبحه، حتى انتهى إلى المسجد النبوي، فدخل فصلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته»[١] وجاء في كتاب الجامع أنه «لما توفي رسول الله ﷺ رَحَلَ أسامة إلى وادي القرى فسكنه» ولا بد أن يكون ذلك بعد عودته من تلك السرية التي لم تكن بحجم الجيش الذي أمّره رسول الله ﷺ عليه، وربما كانت سرية (رمزية) لأن الوضع في أول خلافة أبي بكر لا يسمح بأكثر من ذلك، وقد استقر أسامة في وادي القرى وكذلك في المدينة معتزلاً ـ فيما يبدو ـ الحياة السياسية والعسكرية، فلم يشهد فتوح الشام التي كان من قادتها دحية بن خليفة الكلبي.

* * *

---

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ جـ٢ ص٣٥٦.

لقد كان دحية الكلبي من كبار الصحابة الذين شهدوا فتوح الشام وخاضوا غمار معاركها ضد الرومان منذ انطلاق الجيوش العربية الإسلامية إلى الشام في صفر ١٣هـ، وقد شهد دحية الكلبي موقعة اليرموك على رأس ألف مقاتل غالبيتهم من فرسان قبيلة كلب القضاعية الحميرية بصعدة ودومة الجندل، وفي ذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه: «شهد اليرموك فكان على كردوس (فرقة) من اليمانية، ونزل دمشق وسكن المَزَّة»[١] وقد كان الجيش الإسلامي في موقعة اليرموك (٣٦٠٠٠) فتم تقسيمهم إلى ٣٦ كردوس يضم كل كردوس ألف مقاتل، وعلى كل كردوس أمير قائد من الصحابة، فكان دحية الكلبي واحداً منهم، قال العسقلاني في الإصابة: «شهد دحية اليرموك وكان على كردوس».

ثم كان لدحية الكلبي ولفرسان ورجال قبيلة كلب بزعامته إسهامهم في فتح دمشق بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، واستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان حينما سار إلى (حمص)، قال الطبري: «وبَقي بدمشق مع يزيد بن أبي سفيان من قواد أهل اليمن عدد منهم عمرو بن شمر ابن غزية، وسهم بن المسافر بن هزمه، ومشافع بن عبد الله بن شافع، وبعث يزيدُ دحية بن خليفة الكلبي في خيل بعد فتح دمشق إلى تَدْمُر، وأبا الزهراء القشيري إلى البَثْنية وحوران، فصالحوهما على صلح دمشق، وولّيا القيام على فتح ما بُعثا عليه»[٢] وبذلك كان دحية الكلبي هو فاتح تدمر والمناطق التابعة لها وأول أمير لتدمر في الإسلام، وكانت تدمر من أعمال دمشق في إطار ولاية الشام التي شهد دحية وفرسان كلب سائر فتوحاتها ومنها فتح حمص وفلسطين سنة ١٦هـ.

وقد تولى دحية الكلبي إمرة تدمر وأسس عصرها العربي الإسلامي، وسكن بمدينة دمشق وهو من الصحابة الذين نزلوا دمشق، وفي ذلك قال الحافظ ابن كثير: (أقام دحية بالمَزّة غربي دمشق) وقال العسقلاني: (نزل دمشق وسكن المزّة). وذلك منذ خلافة عمر بن الخطاب، وولاية يزيد بن أبي سفيان على دمشق ثم على الشام، فلما توفي يزيد ـ سنة ١٨هـ ـ استعمل عمر على الشام معاوية بن أبي سفيان (١٩ ـ ٢٣هـ) فكان دحية من كبار الصحابة بدمشق وأميراً لتدمر في خلافة عمر وولاية معاوية للشام، وقد تزوج معاوية السيدة ميسون بنت بحدل بن أنيف، من بني حارثة بن جناب الكلبي الحميري، فأنجبت له يزيد بن معاوية سنة ٢٥هـ بدمشق،

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ ص٢٠٣.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ جـ٤ ص٥٨.

وكان أخوها مالك بن بحدل الكلبي ثم ابن أخوها حسان بن مالك الكلبي من زعماء اليمانية الذين استقروا بفلسطين، قال الطبري: «وكان حسان بن مالك الكلبي أميراً على فلسطين لمعاوية، ثم ليزيد بن معاوية بعده، وكان سيد أهل فلسطين»[١]

وقال المسعودي في مروج الذهب: «كان حسان الكلبي رئيس قبائل قحطان بالشام»[١].

وقد ذكرنا في هذا المبحث أنباء أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي رضي الله عنه، وقد جاء في كتاب الجامع أنه: «لما توفي رسول الله ﷺ رحل أسامة إلى وادي القرى فسكنه، ثم انتقل إلى دمشق أيام معاوية، فسكن المزّة، وعاد بعد إلى المدينة» ونشير هنا إلى أن أسامة بالرغم من أنه لم يتول أي عمل ودور في خلافة عمر فقد كان محل تقدير عمر، ومما يتصل بذلك ما جاء في ترجمته بالإصابة: «قال عبد الله بن عمر: فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لي ـ [يعني في العطاء] ـ فسألته، فقال: إنه كان أحبّ إلى رسول الله منك، وإن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك، صحيح». وقد كان لأسامة أرض في وادي القرى فكان يسكن تارة بها وتارة بالمدينة المنورة، ولما تولى الخلافة عثمان بن عفان أقطع عثمان عدداً محدوداً من كبار الصحابة أرضاً في سواد العراق فكان منهم أسامة بن زيد، قال البلاذري: (اقطع عثمان عبد الله بن مسعود أرضاً بالنهرين، واقطع عمار بن ياسر أسبينا، واقطع خباب بن الأرت صعبنا، واقطع أسامة بن زيد أرضاً بالسواد باعها ـ وقال موسى بن طلحة: اقطع عثمان خمسة نفر من أصحاب النبي ﷺ: عبد الله بن مسعود، وسعد بن مالك، والزبير بن العوام، وخباب بن الأرت، وأسامة بن زيد)[٢] ولما وقعت الفتنة بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ـ في ذي الحجة ٣٥هـ ـ كان أسامة بن زيد من الصحابة الذين اعتزلوا جميع الأطراف، حيث كان أشهر الصحابة الذين اعتزلوا (عبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وسعد بن مالك، ومحمد بن سلمة)[٣] ولما اجتمع الأمر لمعاوية (انتقل أسامة إلى دمشق، فسكن المزّة) وبما أن دحية الكلبي كان يسكن المزّة، فقد كان انتقال أسامة إلى دحية الكلبي وهو بمثابة عمه، ولم يزل دحية ساكناً بدمشق إلى أن بلغ من الكبر عتياً، قال العسقلاني: «سكن دحية المزّة وعاش إلى خلافة معاوية» وقال ابن كثير: «أقام

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٨ ص٣٤ ـ مروج الذهب للمسعودي ـ جـ٣ ص٩٥.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٧٢.
(٣) الاستيعاب ـ ترجمة أسامة بن زيد ـ جـ١ ص٥٩.

دحية بالمزّة إلى أن مات في خلافة معاوية سنة خمسين للهجرة» وقال با مطرف في كتاب الجامع: «وقبر هذا الصحابي الجليل ـ دحية الكلبي ـ بقرية الدَّحي جنوب الناصرة بفلسطين» أما وفاته فكانت سنة ٥٠هـ كما في البداية والنهاية، وعاد أسامة بن زيد إلى المدينة فعاش بها إلى أن توفي قال القرطبي: «توفي أسامة في خلافة معاوية سنة ٥٤ للهجرة» وذلك بعد أربع سنوات من وفاة شبيه جبريل دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه وأرضاه.

* * *

٩

شُرحبيل بن حَسْنَة الكِنْدي

ـ فاتح الأردن وأمير فلسطين ـ

مِنْ كبار الصحابة وأوائل السابقين إلى الإسلام وعظماء الفاتحين هو شُرَحْبيل بن حَسْنَة الكندي، وهو شُرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عمرو بن الغطريف بن عبد إل بن جثامة بن مالك الكندي[١] وكندة هو كندة بن عفير بن عدي بن الحارث بن مُرّة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سباء.

وكان عبد الله بن المطاع الكندي ـ والد شرحبيل ـ صاحب تجارة ونشاط تجاري ما بين منطقة حضرموت باليمن ومنطقة البحرين (وهي الخليج العربي) ومكة، وذلك في الجاهلية، وكانت زوجته أم شرحبيل السيدة حَسْنَة من أهل عدولي من ناحية البحرين التي إليها تُنسبُ السفن العدولية[٢]. وبما أن عبد الله بن المطاع كان صاحب تجارة بمكة فقد أقام بها مع ابنه شرحبيل وزوجته السيدة حسنة أُم شرحبيل، وأثناء إقامتهم بمكة توفي عبد الله بن المطاع، فتولت السيدة حسنة مع شرحبيل إدارة النشاط التجاري الذي كان لهم بمكة، فاشتهر شرحبيل باسم شرحبيل بن حسنة، ثم تزوجت أُمه رجلاً يقال له سفيان بن معمر بن حبيب الجُمحي من بني جُمَح من قريش، ولكنه في الأصل والنسب الصحيح من بني زُريق من الأوس والخزرج تبناه معمر الجُمحي فقيل له سفيان بن معمر الجُمحي وإنما هو سفيان بن زريق فتزوجته السيدة حسنة فولدت له جابراً وجنادة ابني سفيان وهما شقيقا شرحبيل من أمه، ولما بعث اللّهُ محمداً نبياً ورسولاً، وأخذ محمد ﷺ في إبلاغ رسالته داعياً إلى دين التوحيد بمكة، كان شرحبيل يتابع باهتمام مسار وتعاليم هذا الدين، وكان المقداد بن عمرو البهراني صديقاً لشرحبيل، والمقداد هو

---

(١) جاء نسب شرحبيل في الاستيعاب بأنه (شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عمرو بن كندة). وفي الإصابة: (شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عبد الله بن الغطريف بن عبد العزى بن جثامة بن مالك الكندي) وفي كتاب الجامع (شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن الغطريف الكندي الحضرمي).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص١٤٠.

سابع من أسلم بمكة في فجر البعثة النبوية، ثم ما لبث أن أسلم شرحبيل وأخذ مكانه بين أوائل الصحابة السابقين إلى الإسلام، وفي ذلك جاء في ترجمة شرحبيل بكتاب الإصابة أنه «أسلم قديماً بمكة»[١]. وأدخل شرحبيل نور الإسلام إلى البيت الذي هو أحد أفراده، فأسلمت أمه حسنة وأسلم أخواه لأمه جابر وجنادة وكذلك أبوهما سفيان، فكان ذلك البيت من أوائل البيوت التي دخلها نور الإسلام بمكة.

* * *

ثم كان شرحبيل من الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء قريش للمسلمين بمكة، فأشار عليهم رسول الله ﷺ بالخروج إلى أرض الحبشة قائلاً: «**إنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحدُ وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً**»[٢]. وقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية وابن سيد الناس في عيون الأثر أسماء الذين هاجروا إلى الحبشة، وكان من بينهم العديد من اليمانيين المقيمين بمكة والذين كانوا من السابقين إلى الإسلام، وهم: المقداد بن عمرو البهراني، وشرحبيل بن حسنة الكندي، ومُعَيْقيب بن أبي فاطمة الدوسي، ومُعَتِّب بن عوف بن عامر الخزاعي، ومحمئة بن جزء الزبيدي، وسعد بن خولة من أهل اليمن[٢] قال ابن سيد الناس (وعمار بن ياسر، وفي هجرته إلى الحبشة خلاف بين أهل السير)[٢] وكان من اليمانيين غير المقيمين بمكة الذين هاجروا إلى الحبشة أبو عامر الأشعري، كما هاجرت مع شرحبيل بن حسنة والدته السيدة حسنة، وأخويه لأمه جابر وجنادة وأبيهما سفيان وهم في الأصل من الأوس والخزرج، وكانت الهجرة إلى الحبشة في رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية، وكان من بين المهاجرين ثلاثة صحابة من قريش مع زوجاتهم اليمانيات وهم: جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس الخثعمية اليمانية، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية وامرأته أمينة بنت خلف بن أسعد الخزاعية اليمانية، وجهم بن قيس وامرأته أم حرملة الخزاعية، وقد مكث المهاجرون في الحبشة إلى أن وقعت المهادنة في صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش في ذي القعدة ٦ هجرية، فلما وقعت المهادنة أبحر أبو موسى الأشعري وأخوته في خمسين من الأشعريين بسفينة من ساحل اليمن إلى الحبشة فالتقوا بالمهاجرين هناك، فانطلقوا جميعاً إلى المدينة المنورة فوصلوا ورسول الله ﷺ في غزوة خيبر فتوجهوا إليه والتقوا به في محرم ٧هـ، ومنذ ذلك اليوم اضطلع شرحبيل بدور متميز في رحاب رسول الله ﷺ

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ جـ٢ ص١٤٣.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ١ ص٣٥٠ ـ عيون الأثر في المغازي والسير ـ جـ١ ص١٤٦.

وقد كان شرحبيل يجيد الكتابة والتعبير كما يجيد التفكير والتدبير، فأسند إليه رسول الله ﷺ كتابة كثير من الرسائل والعهود، وكان شرحبيل أحد كتبة الوحيّ، ولا يذكره الإمام الواقدي في كتاب فتوح الشام إلا بأنه (شرحبيل بن حسنة الكندي كاتب الوحي لرسول الله ﷺ) والثابت أنه (أحد كتبة الوحي)[١].

وكان شرحبيل يكتب الرسائل والعهود والوثائق بالكتابة واللغة العربية، وأمره رسول الله ﷺ أن يتعلم اللغة والكتابة السريانية الأرامية وهي كتابة عربية قديمة وكانت ذات أهمية بالغة لأن الإنجيل ـ عند العرب في الشام وغيرها ـ كان مكتوباً بالسريانية وكان المسيحيون يستعملونها، فتعلمها شرحبيل من بعض الصحابة الكلبيين أو غيرهم ممن كانوا يدينون بالمسيحية كما أمره، بتعلم اللغة العبرية، وجاء في ترجمة شرحبيل بكتاب الجامع أنه: «أمره النبي ﷺ أن يتعلم اللغتين السريانية والعبرية من شبان المدينة» وأنه «أصبح كاتب سر النبي ﷺ في كل شؤونه»[١].

* * *

كُتب ومهام شرحبيل بالشام في عهد رسول الله ﷺ

ولقد كان لشرحبيل بن حسنة اختصاص بشؤون الشام في عهد رسول الله ﷺ فالوثائق والكُتب النبوية التي يأتي فيها اسم شرحبيل كاتباً وشاهداً أو مبعوثاً تتصل بالشام، ومن ذلك:

الكتاب النبوي للداريين من لَخْم بفلسطين

كانت قبيلة لخم من القبائل العربية اليمانية السبائية التي انتقلت من اليمن إلى الشام في عصور ما قبل الإسلام، وهي لخم، وجذام، وعامله، وغسان، فالقبائل الثلاث لخم وجذام وعامله بنو عدي بن الحرث بن مُرّة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سباء. قال ابن خلدون: «أما لَخْم، فبطن مُتسع ذو شعوب وقبائل، منهم: الدار بن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم»[٢] وكانت لخم تجاوز جذام في العديد من مناطق الشام، وفي ذلك قال حسان بن جيشان الحميري الجاهلي:

وحَلّتْ جُذَامْ حيث حَلّت وشاركتْ   هنالك لخماً في العلا والتَّجَبُّر

قال الهمداني: «كان للخم ومن يخالطها ما حول الرملة إلى نابلس، وللخم أيضاً ما جاز تبوك إلى زُغر ثم البحيرة الميتة التي يرمى فيها وادي اليرموك ونهر الأردن.. وكانت للخم أيضاً مساكن في الجولان وما يليها وفي حوران والبثنية

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص٢٦٢.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٣٧.

ومدينة نوى وجبال الشراة وفي شقص من أرض حوران»[١] وكان بنو الدار بن هانئ، وهم الداريون، أول من أسلم من العرب في الشام، وكانت منطقة الداريين بفلسطين هي: حبرون الخليل، وبيت عينون، والمرطون، وبيت إبراهيم، وقدم تميم بن أوس الداري إلى رسول الله ﷺ في نفر من الداريين فأسلموا وصحبوا رسول الله ﷺ قبل فتح مكة ثم قدموا مرة ثانية بعد فتح مكة، وكتب رسول الله ﷺ لتميم بن أوس الداري وللداريين كتاباً بأنّ «لهم بيت عينون، وحبرون بيت إبراهيم، ومرطوم، وما فيهن إلى الأبد. شهد عباس بن عبد الله، وجهم بن قيس، وشرحبيل بن حَسَنة وكَتَب»[٢] ـ أي شهد وكتب شرحبيل بن حسنة.

وقد كتب رسول الله ﷺ أيضاً كتاباً إلى (زياد بن جهور اللخمي) يدل على إسلامه مع عشيرته من لخم بفلسطين، وجاء في الكتاب: (إن من أتى من عُمم فإنه آمن بأمان الله ومحمد رسول الله ﷺ). قال ابن قانع في معجم الصحابة: (عمم: بطن من اليمن)[٣] يعني بطن من لخم لأن قبيلة لخم جميها من اليمن.

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً (لمن أسلم من حدس من لَخْم)[٣]، وتدل تلك الكتب على انتشار الإسلام في قبيلة لَخْم بفلسطين والشام منذ عهد رسول الله ﷺ بالسنة الثامنة والسنة التاسعة للهجرة.

بعث شرحبيل بن حسنة إلى ملك أيلة وزعماء جُذام بالشام

ولما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك، في غزوة تبوك، في رجب ٩هـ، بعث رسول الله ﷺ من تبوك: دحية بن خليفة الكلبي برسالة إلى هرقل ملك الروم وبرسائل إلى زعماء غسان بالشام، يدعوهم إلى دين الإسلام. كما بعث رسول الله ﷺ من تبوك شرحبيل بن حسنة الكندي، وأبو حرملة، وحريث بن زيد الطائي إلى يُحنة بن رؤبة ملك وصاحب أيله ـ العقبة ـ وما إليها من الشام، وكان يُحنة بن رؤبة من قبيلة جذام اليمانية بالشام.

قال ابن خلدون: (وأما جُذام: فبطنٌ متسعٌ وقبائل كثيرة، مثل غطفان، وبنو حرام، وبنو ضُبَيْب، وبنو مخرمة، وبنو نُفاثة، وكانت ديارهم حوالي أيلة، وكانت

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ـ ص٢٧٣.
(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص١٢٩ ـ عن صبح الأعشى للقلقشندي، والضوء الساري للمقريزي، وابن عساكر، والقسطلاني.
(٣) معجم الصحابة لابن قانع ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص١٢٨ ـ المعجم الكبير للطبراني ـ ص٧٨.

لهم الرياسة في معان وما حولها من الشام)[١] وكانوا يدينون بالمسيحية.

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه: «**من محمد رسول الله إلى مَرْ يُحَنَّه بن رُؤبة وسروات أهل أيله**[٢] **سِلْم أنتم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، فإني لم أكُنْ لأُقاتلكم حتى اكتب إليكم. فأسْلِمْ أو أعط الجزية، وأطع الله ورسوله، ورسل رسوله..؛ فإني رسول الله ﷺ بالحق، أؤمن بالله وكُتُبه ورُسُله، وبالمسيح ابن مريم أنه كلمة الله، وإني أؤمنُ به أنه رسول الله ﷺ**». ثم قال رسول الله ﷺ في الكتاب:

«**وإنّ رُسُلي شرحبيل، وأبو حرملة، وحُرَيثُ بن زيد الطائي، فإنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيتُه، وإن لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله ﷺ. والسلام عليكم إن أطَعْتُم**»[٣].

وجاء في كتاب رسول الله ﷺ ليحنة بن رؤبة: (وجهزوا أهل مقنا) ويدل ذلك على أن مهمة شرحبيل شملت (أهل مقناً) وهي جنوب أيله ـ إيلات حالياً ـ وكذلك زعماء جذام في (أذْرُح) وفي (جرباء) وفي (إرم) و(معان).

فاستجاب يُحنة بن رؤبة إلى المصالحة على أداء الجزية، وبالتالي الدخول في سلطان الدولة العربية الإسلامية، وأتى يُحنة إلى رسول الله ﷺ في تبوك بمعية شرحبيل بن حسنة، قال ابن هشام: «أتى يُحنة بن رؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتاباً»[٤] وجاء في تاريخ اليعقوبي والبخاري: «..وأهدى ملك أيلة للنبي ﷺ بغلة بيضاء، وكساه النبي ﷺ بُرداً، وكتب لهم»[٥].

كتاب شرحبيل بإذن النبي ﷺ ليُحَنَّة بن رُؤبة وأهل أيلة

وقد كتب شرحبيل بن حسنة وأبو حرملة جهم بن قيس بن الصلت بإذن رسول الله ﷺ كتاب العهد التالي نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أَمَنَةٌ مِنْ الله ومحمد النبي رسول الله، ليُحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سُفُنِهِمْ وسَيّارَتِهِمْ في البَرِّ والبحر. لهم ذِمَّةُ اللَّهِ وذِمَّةُ محمدٍ النبي ﷺ، ولِمَنْ كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. فَمَنْ أحدث

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣٨.
(٢) كلمة (مر) في قوله: (مر/يُحنة بن رؤبة) بمعنى السيد، فقد ورد في نقوش المسند اليمنية (مِراهم) بمعنى (سيدهم).
(٣) أبو حرملة هو جهم بن قيس وكان من الصحابة المهاجرين إلى الحبشة مع شرحبيل بن حسنة.
(٤) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ٤ ص١٨٠.
(٥) الوثائق السياسية عن تاريخ اليعقوبي ـ جـ٢ ص٧٠، والبخاري، ومسلم، والمطالب لابن حجر.

منهم حَدَثاً، فإنه لا يَحُولُ مالُه دون نفسه، وإنه طيبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنْ الناس. وإنه لا يَحلُّ أن يُمْنَعوا من ماءٍ يَرِدونه، ولا طريقاً يُريدونه من بَرٍّ أو بحر.

وهذا كتاب جهم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بأذن رسول الله ﷺ» ـ انتهى ـ[١]

فقوله في الكتاب: (ولمن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن)، فالمقصود بأهل اليمن الذين يسكنون هناك من القبائل اليمانية وهم لخم وجُذام وبعض قبائل قضاعة وغسان بالشام، وقد جاء في كتاب الإصابة أنه:

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله جعل هذا الحيّ من لَخْم وجُذام بالشام معونة لأهل اليمن**»[٢].

إسلام مالك الجذامي وبني جفال وأهل أذرحْ وجَرْباء

وقد شملت مهمة شرحبيل زعماء قبائل جُذام بالأردن وفلسطين، فقد ذكر ابن خلدون أن ديار جذام (حوالي أيلة) وأنه (كانت لهم رياسة في معان وما حولها من الشام) ثم قال: (وبقيتهم اليوم في مواطنهم الأولى في شعبين من شعوبهم، يعرف أحدهما: بنو عائد، وهم ما بين بلبيس من أعمال مصر إلى عقبة أيلة إلى الكرك من فلسطين. وتُعرف الثانية: بنو عقبة، وهم من الكرك إلى الأزلم من برية الحجاز، وضمان السايلة ما بين مصر والمدينة إلى حدود غزة من الشام، وغزة من مواطن جرم إحدى بطون قضاعة). وذكر الهمداني أنه: «كان لجذام ما بين مدين إلى تبوك فإلى أذرحْ» ـ كما كانت من جُذام بطون في «البقارة والواردة والعريش وغزة.. وفيما يلي طبرية إلى اللجون واليامون فإلى ناحية عكا» وكان من جذام أيضاً بنو جفال أهل منطقة إرم بضفة نهر الأردن.

وقد استجاب يُحنة بن رُؤبة وأهل أيلة إلى المصالحة وأداء الجزية وكتب لهم شرحبيل كتاب العهد بإذن رسول الله ﷺ، كما استجاب أهل أَذْرُح وأهل جَرْبَاء ـ وبين أذرح وجرباء مسيرة ثلاث ليال ـ وأذرُحْ بمنطقة البتراء بالأردن ـ فأتى وفد منهم مع يُحنة بن رؤبة وشرحبيل إلى رسول الله ﷺ في تبوك، فكتب النبي ﷺ لهم:

«**بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي، لأهل أذرُح، ولأهل جرباء، إنهم آمنون بأمان الله، وأمان محمد. وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافيةً طيبة. والله**

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوية ـ ص١١٧ ـ عن طبقات ابن سعد ـ المغازي للواقدي ـ دلائل النبوة للبيهقي ـ الأموال لابن زنجويه.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢.

كفيل عليهم بالنُصح والإحسان للمسلمين ومن لَجَاء إليهم من المسلمين..»[١].

وأسلم مالك بن أحمر العوفي الجذامي، وقدم إلى رسول الله ﷺ بتبوك، فكتب له رسول الله ﷺ كتاباً ـ في قطعة من أدم ـ أي من جلد ـ عرضها أربعة أصابع وطولها قدر شبر ـ «**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لمالك بن أحمر الجذامي ولِمَنْ اتبعه من المسلمين، أماناً لهم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأدّوا الخُمس من المغانم وخالفوا المشركين، فهم آمنون بأمان الله عزّ وجلّ، وأمان محمد رسول الله**».

وقدم إلى رسول الله ﷺ بنو جفال بن ربيعة بن زيد الجذاميين، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً:

«**إن لهم إرَم لا يَحلّها عليهم أحد أن يغلبهم عليها ولا يُحاقّهم فيها، فَمَنْ حاقّهم فلا حقّ له، وحقّهم حقٌ**»[١].

ومنطقة إرم بالأردن وكان اسمها (أرامو) وهي بين البحر الميت ووادي عربة من الأردن وفلسطين، وبذلك انتشر الإسلام بين قبائل لخم وجذام بالأردن وفلسطين، ثم أسلم فروة بن عمرو الجُذامي أمير معان ـ في أوائل السنة العاشرة للهجرة ـ فأصبحت قبائل ومناطق جُذام بالشام إلى بلبيس من أعمال مصر وإلى العريش إما إسلامية وإما تؤدي الجزية وترتبط بالدولة الإسلامية، وفي جُذام قال جميل بن معمر العذري:

جُذامُ سيوف الله في كل موطن ... إذا أزمت يوم اللقاءِ إزامِ
هُمُ منعوا ما بين مصر فذي القُرى ... إلى الشام من حِلّ به وحرامِ
إذا قصرتْ يوماً أكُفُّ قبيلةٍ ... عن المجد نالته أكفُّ جُذامِ

ولما قام الروم بتدبير قتل فروة بن عمرو الجذامي بعث رسول الله ﷺ سَرِية حربية إلى منطقة البلقاء بالشام بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، ومعه شرحبيل بن حسنة الكندي، وغيره من الصحابة، فأغارت تلك السرية على العدو بناحية البلقاء ورجعت إلى المدينة المنورة ـ في شهر جمادى سنة ١٠هجرية ـ فلما علم هرقل ملك الروم بتلك الغارة بعث قوة رابطت في البلقاء بالأردن وتم تعزيز القوات الرومانية بالبلقاء والأردن وأداني الشام.

***

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوية ـ ص١١٧ ـ عن طبقات ابن سعد ـ المغازي للواقدي ـ دلائل النبوة للبيهقي ـ الأموال لابن زنجويه.

وفي أوائل سنة ١١هـ قام رسول الله ﷺ بتجهيز جيش بقيادة أسامة بن زيد، وأمره بغزو البلقاء والدَّارُوم من أرض فلسطين، ولكن مرض رسول الله ﷺ أدى إلى عدم مسير الجيش حيث أقام أسامة والجيش في الجُرْف على مسافة فرسخ من المدينة لينظروا ما اللَّهُ قاضٍ في رسول الله ﷺ وما لبث أن توفي رسول الله ﷺ في ١٢ ربيع الأول ١١هـ فعاد الجيش إلى المدينة، ولم يكن شرحبيل في ذلك الجيش، إذْ إنه:

«بعث رسول الله ﷺ شرحبيل بن حَسَنة إلى مصر، فمات رسول الله ﷺ وهو في مصر»[١].

ولما عاد شرحبيل إلى المدينة المنورة وَلَّاه أبو بكر الصديق على قبائل قضاعة التي بدومة الجندل ووادي القرى وأعالي الحجاز إلى أداني الشام، فقام شرحبيل بضبط الأمور في تلك الجهات والقبائل وتولاها إلى أن استقر الأمر في سائر الجزيرة العربية سنة ١٢ هجرية، فتهيأت الظروف للعمل على فتح الشام.

***

قيادة شرحبيل لِرُبع جيش فتح الشام

كان شرحبيل بن حسنة الكندي أمير وقائد ربع الجيش العربي الإسلامي الذي وجهه أبو بكر الصديق لفتح الشام، فقد تم تجهيز وتوجيه أربعة جيوش لفتح الشام - في أواخر سنة ١٢هـ فكان شرحبيل أمير وقائد إحدى تلك الجيوش الأربعة، بل كان هو قائد الجيش الأول أو الجيش الثاني من تلك الجيوش الأربعة.

قال الحافظ ابن كثير: «كان شرحبيل أحد أمراء الأرباع، وهو أمير فلسطين، جَهَزَه أبو بكر الصديق إلى الشام أميراً على ربع جيش الشام، وكذلك كان في الدولة العُمَرَية»[٢].

وقال ابن عبد البر القرطبي: «كان شرحبيل بن حسنة أميراً على رُبع من أرباع الشام»[٣].

وقال ابن حجر العسقلاني: «كان شرحبيل ممن سيره أبو بكر في فتوح الشام. وولاه عمر على ربع من أرباع الشام»[٣].

***

وكان قد سبق توجيه الجيوش إلى الشام، أن أبا بكر الصديق بعث الصحابي

---

(١) الإصابة - ترجمة شرحبيل بن حسنة - جـ٢ ص١٤٣ - الجامع لبامطرف - ص٢٦٢.

(٢) البداية والنهاية - لابن كثير - جـ٧ ص٩٣.

(٣) الاستيعاب للقرطبي - ص١٤٠ - الإصابة للعسقلاني - جـ٢ ص١٤٣.

أنس بن مالك الأنصاري إلى اليمن يستنفر أهل اليمن للجهاد ولأخذ الشام من الروم ـ أي تحريرها من الروم ـ فأتى أنس بن مالك رضي الله عنه إلى اليمن بكتاب أبي بكر الصديق يستنفر أهل اليمن للجهاد وأخذ الشام من الروم، وكان أمير اليمن يومئذ ـ سنة ١٢هـ ـ الصحابي أبان بن سعيد بن العاص ومعه بصنعاء الصحابي قيس بن مكشوح المرادي، وكان بقية عمال مناطق اليمن ـ في إطار ولاية أبان بن سعيد لليمن ـ منهم الصحابي جرير بن عبد الله البجلي في نجران، وخالد بن سعيد بن العاص في مذحج ومع فروة بن مسيك المرادي، وكان سميفع ذو الكلاع الحميري قائد قبائل حمير في منطقة الجَنَد ومخاليفها، وعكرمة بن أبي جهل في حضرموت ومعه الأشعث بن قيس الكندي والسمط بن الأسود الكندي، فاتجه أنس بن مالك إلى سائر مدن ومناطق اليمن الرئيسية وقراء عليهم كتاب أبي بكر، فتهيأوا للمسير، وما لبث أن انطلقت مواكب فرسان وقبائل اليمن إلى المدينة المنورة، قال ابن جرير الطبري:

«قَدِم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن وفيهم ذو الكلاع الحميري وجرير بن عبد الله البجلي وقيس بن مكشوح المرادي.. وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعَنَاهُ أمره». وقال ابن خلدون: «.. وَافَقَ وصول المستنفرين وفيهم ذو الكلاع ومعه حِمْيَر.. وحينئذ اهتم أبو بكر بالشام»[1].

* * *

وقام أبو بكر ـ بادئ ذي بدء ـ بتجهيز وتوجيه جيشين أحدهما بقيادة شرحبيل بن حَسْنَة الكندي والثاني بقيادة خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وكان خالد بن سعيد من عمال اليمن الذين قدموا مع أوائل مستنفري أهل اليمن، وكان خالد من الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة مع زوجته أمينة بنت خلف الخزاعية اليمانية، ثم كان من عمال رسول الله ﷺ على مناطق اليمن، ثم قدم مع أوائل مستنفري أهل اليمن، فبعثه أبو بكر على رأس ثلاثة آلاف مقاتل، وشرحبيل بن حسنة على رأس ثلاثة آلاف مقاتل، وعقد لكل منهما لواء على جيشه، وذلك في أواخر سنة ١٢ هجرية، وجاء في فتوح البلدان للبلاذري أنه:

«عقد أبو بكر ثلاثة ألوية لثلاثة رجال، خالد بن سعيد بن العاص، وشرحبيل بن حسنة الكندي، ويزيد بن أبي سفيان»[2]، وليس كذلك، وإنما عقد أبو بكر لواءً لشرحبيل بن حسنة ولواءً لخالد بن سعيد، ثم كما ذكر البلاذري نفسه:

(١) تاريخ الطبري ـ تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص٨٣.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ـ ص١١٥ و١١٦.

«وَجَّه أبو بكر الصديق أبا أروى الدوسي لأخذ لواء خالد بن سعيد فلقيه بذي المروة، فأخذ اللواء منه وورد به على أبي بكر، فدفعه إلى يزيد بن أبي سفيان. . ويقال إن أبا بكر كتب إلى خالد بن سعيد، وسار خالد محتسباً في جيش شرحبيل»(١).

وكان ذو الكلاع الحميري وكتائب حمير ومذحج في جيش خالد بن سعيد الذي أصبح أميره يزيد بن أبي سفيان، فسار بالجيش إلى البلقاء ـ وهم ثلاثة آلاف رجل ـ فلقيهم جيش روماني بقيادة خمسة من البطارقة في ثمانية آلاف من الروم، فهاجموهم، «وبينما هُمْ في القتال، وقد طمع الروم في العرب لِقلتهم وظنوا أن ليس وراءهم أحد، أقبل جيش المسلمين ـ الثاني ـ مع شرحبيل بن حسنة الكندي كاتبُ الوحي لرسول الله ﷺ، فحملوا على الروم حملة صادقة، وحكمت سيوفهم في الروم فلم ينج من الروم أحد، ثم إن المسلمين أخذوا الأموال والغنائم وسلموا على شرحبيل، فجمع شرحبيل المال والغنائم وبعثها إلى أبي بكر الصديق إلا العدة والسلاح، فلما وصل رسول شرحبيل بذلك وهو شداد بن أوس إلى المدينة رفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير»(٢).

فكان ذلك النصر العربي الإسلامي بقيادة شرحبيل الكندي بالبلقاء ـ في صفر ١٣هـ ـ أول انتصار في فتوح الشام، وكان المستنفرون للجهاد يتوافدون إلى المدينة المنورة، فتم تنظيم وتقسيم المسلمين إلى ثلاثة جيوش، يضم كل جيش سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل، الأول بقيادة شرحبيل والثاني بقيادة يزيد بن أبي سفيان والثالث بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وذلك: «بعد مقام الجيوشُ معسكرين بالجُرف ـ في شهر محرم ـ فكان البعث مع كل أمير من الأمراء الثلاثة سبعة آلاف وخمسمائة. وأمر أبو بكر الأمراء أن يعقدوا لكل قبيلة لواء يكون فيهم. . ثم ساروا في مستهل شهر صفر. . فنزل شرحبيل الأردن، ونزل أبو عبيدة الجابية، ونزل يزيد البلقاء»(٢). ثم وصل إلى المدينة المزيد من المستنفرين فتم تكوين الجيش الرابع وتأمير عمرو بن العاص على ذلك الجيش فسار عمرو بهم باتجاه غرب فلسطين، وبذلك أصبحت جيوش فتح الشام أربعة جيوش بقيادة أربعة أمراء: شرحبيل، ويزيد، وأبي عبيدة، وعمرو بن العاص، ولذلك قال ابن كثير أن شرحبيل بن حَسْنَة: (أحد أمراء الأرباع. . . جهزه أبو بكر إلى الشام أميراً على ربع جيش الشام، وكذلك كان في الدولة العُمَرية). وقال الواقدي: (فنزل شرحبيل الأردن).

* * *

(١) فتوح البلدان للبلاذري ـ ص١١٥ و١١٦.

(٢) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٦.

فَتْح شرحبيل للأردن وأغلب فلسطين

لقد مضى شرحبيل بن حسنة الكندي بجيشه إلى الأردن فدخلها في صفر ١٣هـ، فافتتح منطقة (جرش) وما والاها من (معان) و(البتراء: أذرح، والجرباء) ومنطقة (إرم: أرامو، ومنها وادي عربة) ومناطق (الكرك، والصلت) إلى (إربد، وبيت رأس) وكذلك (سواد الأردن وجميع أرضها، وهي منطقة الأغوار وما إليها من الضفتين الشرقية والغربية لنهر الأردن بفلسطين، ثم تقدم شرحبيل إلى طبرية ومناطق الضفة الغربية لنهر الأردن بفلسطين فافتتحها، في شهري صفر وربيع أول سنة ١٣ هجرية وفي ذلك قال البلاذري في فتوح البلدان:

«إفتتح شرحبيل بن حسنة الكندي الأردن عنوة ما خلا طبرية فإن أهلها صالحوه على أنَّ أمَّنَ أهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم، وإستثنى لمسجد المسلمين موضعاً.

وقد فتح شرحبيل جميع مدن الأردن وحصونها على هذا الصلح، وفَتَح بليان، وسوسية، وأفيق، وجرش، وبيت راس، وقَدَس، وجولان، وسواد الأردن وجميع أرضها»[١].

ومنطقة جرش التي افتتحها شرحبيل معروفة إلى اليوم باسم جُرش في الأردن، وكانت من مواطن قبيلة جُذام، وكذلك معان وأذرح وغيرها، ثم تلي منطقة جرش منطقة عجلون وإربد، وكانت قاعدة منطقة إربد مدينة بيت رأس التي ذكر البلاذري فتح شرحبيل إياها، وهي من المدن والمناطق الرئيسية التي كان يشملها سلطان الغساسنة أمراء العرب بالشام في ظل الحكم الروماني بالجاهلية، وقد ذكرها حسان بن ثابت الأنصاري في مدائن غسان لما وَفَد إلى جَبَلَة بن الأيهم الجفني الغساني بالجاهلية، حيث قال حسان:

لِمَنْ الدار ـ أسفرت ـ بِمعانِ ... بين أعلى اليرموك فالصَّمّان
فَحِمَىٰ جاسم إلى بيت رأسٍ ... فالحواني، فجابة الجولان
فالقريّات من بلاس، فداريا، ... فسكاء، فالقصور الدواني
ذاك مغنى لآل جفنة في الد ... هر ـ (وحقُ) ـ تقادُم الأزمان[٢]

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١٢٣.

(٢) بنو جفنة هم الغساسنة ملوك العرب بالشام تحت سلطة الرومان. وبلاس المذكورة في الشعر هي (بالس في الدهناء ومنها تخرج إلى تدمر).

وتقع إربد التي عاصمتها (بيت راس) في تخوم سورية، وقد مضى شرحبيل ـ من بيت راس ـ فافتتح الأغوار وجميع أرض سواد الأردن، صُلحاً على أداء الجزية، وأمَّنَ أهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم، واستثنى لمسجد المسلمين موضعاً في كل مدينة ومنطقة، ثم تقدم داخل فلسطين فافتتح مدينة طبرية على الصلح الذي ذكره البلاذري، وقد جاء في ترجمة شرحبيل بالإصابة أنه «الذي افتتح طبرية» [ص١٤٣/ ٢].

وقد افتتح شرحبيل ما جاور طبرية من مناطق فلسطين، باستثناء (بيسان) وما إليها حيث تأجل فتحه لبيسان إلى سنة ١٤هـ، وسيأتي نبأ فتح بيسان في ترتيبه الزمني، إذْ إن شرحبيل تقدم من طبرية إلى عكا.

فتح شرحبيل لعكا وصور وصفورية

لقد كانت تسكن طبرية وعكا ـ بفلسطين ـ قبيلة عاملة العربية اليمانية التي انتقلت من اليمن إلى الشام مع جُذام ولخم في العصور القديمة قبل الإسلام، وعامله هو: الحرث عاملة بن عدي بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيد بن عمرو بن زيد بن كهلان بن سبأ. قال ابن خلدون: (وأما عاملة، واسمه الحرث بن عدي، وهم إخوة لَخْم وجُذَام، وإنما سُمي الحرث عاملة بأمه القضاعية، وهُمْ بطن مُتسع، ومواطنهم ببرية الشام. وكان مُلك العرب بأرض الجزيرة ـ الفراتية ـ ومشارف الشام في بني الظرب بن حسان من بني عاملة، وكان آخرهم مُلكاً الزباء بنت عمرو بن السميدع، فلما هلكت الزباء وانقرض أمر بني الظرب بن حسان، مَلَكَ العربَ تنوخ من بطون قضاعة)[1]، وقد كان مُلك بني الظرب بن حسان في إطار سلطة الرومان بالشام ثم تلاهم تنوخ والضجاعم ثم غسان، وقد ذكر الهمداني مواطن عامله قائلاً: «ديار عاملة المجاورة لنهر الأردن، وجبل عاملة المشرف على طبرية وعكا من قِبل البحر ونحو البحر»[2] فلما سار شرحبيل بن حسنة إلى طبرية استجاب أهلها العامليون إلى المصالحة والدخول في سلطة الدولة العربية الإسلامية، كذلك استجاب أهالي جبل عاملة ومدينة عكا الفلسطينية التي تشرف على البحر الأبيض المتوسط في شمال فلسطين، وعلى تخوم منطقة صور وما جاورها من سورية ولبنان، فقام شرحبيل بمصالحة أهل عكا ـ العامليين ـ على صلح أهل طبرية، ثم تقدم إلى منطقة صور ـ بلبنان حالياً ـ وكانت تسكن صور

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣٩.
(٢) صفة جزيرة العرب ـ للحسن أحمد الهمداني ـ ص٢٧٣.

وصفورية وصيدا قبائل عربية من عاملة وقضاعة وغسان، وقد كانت مدينة حارب في صيدا مقر الأمير الغساني على العرب في مناطق صيدا وصور، ومما يتصل بذلك قول النابغة الذبياني في الجاهلية للملك عمرو بن الحارث الجفني الغساني:

لئن كان للقبرين: قَبْرُ بِجلّقٍ وقبرُ بصيداء التي عند حَارِبِ
وللحارث الجفني سيد قومه ليلتمسن بالجمع أرض المُحارِبِ

وقد ذكر ابن خلدون ملوك الشام الغساسنة فذكر الملك الحارث الأعرج بن جَبَلة، وقال: (ثم مَلَك منهم المنذر بن الحارث، ثم النعمان بن عمرو الذي بنى قصر السويداء وقصر حارب عند صيدا، وهو مذكور في شعر النابغة). يعني قصر حارب، وقد كان ملوك وأمراء غسان نواباً للرومان، ومنهم الحارث الأعرج بن جبلة ملك العرب بالشام وكان عهده من (٥٢٨ ـ ٥٦٩م) وقد (سافر الحارث هذا سنة ٥٦٣م إلى القسطنطينية ليفاوض القيصر الروماني (جوستنيان) في شؤون الحرب ـ مع الفُرس وعرب الحيرة ـ وفي من يخلفه على كرسيه، ومات سنة ٥٦٩م[1] ثم خَلَف الحارث ابنه المنذر بن الحارث وكان عهده من (٥٧٠ ـ ٥٩٩م) وكان أخوته أمراء على مناطق العرب بالشام، ومنهم عمرو بن الحارث الذي وفد إليه النابغة وحسان بن ثابت، والنعمان الذي بنى قصر حارب بصيداء، وعندما تقدم شرحبيل بن حَسْنَه من عكا إلى صور وصيدا وصفورية ـ في شهر ربيع ١٣هـ ـ استجاب أهل صور وصيدا للمصالحة هم وأميرهم الغساني فصالحهم شرحبيل على صلح طبرية كما صالح أهل عكا، وفي ذلك قال البلاذري. «وافتتح شرحبيل عكا، وصور، وصفريه»[2].

* * *

فتح الجولان وموقعة بُصْرَى

ثم مضى شرحبيل من صور وما جاورها إلى منطقة الجولان وحوران ـ في سورية ـ حيث ذكر البلاذري إنه: «فَتَحَ بليان، وسوسيه، وأفيق... وقَدَس، وجولان»[1].

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن الجولان وسائر مقاطعة حوران كانت من ديار قبيلة غسان اليمانية بالشام ومن مناطق حكمهم في إطار سلطة الرومان، وفي ذلك قال حنا الفاخوري: «مملكة الغساسنة، وهم أولاد جفنة: كانوا يقيمون في بلاد حوران، أي بُصرى وما حولها، وقد امتد عهدهم من القرن الثالث للميلاد إلى

(١) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص٢٠.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١١٧ و١٢٣.

الفتح الإسلامي»[١] وقال المستشرق (نولدكه) و(هنري لامنس): «كانت عاصمة وكرسي دولة بني جفنة الغسانيين في الجابية بالجولان»[٢] وقال أحمد أمين: «إمتد حكم الغساسنة على مقاطعتي حوارن والبلقاء.. ويُفهم أحياناً من قول الشعراء أن الجولان والجابية عاصمتهم، وأحياناً يذكرون جِلَقْ على إنها العاصمة».[٣] وليس هنالك تعارض في ذلك، فقد كان الملك الغساني ـ الأعلى ـ يقيم في جِلق بغوطة دمشق، وكان هناك في ذات الوقت ملك غساني من أقاربه في جابية الجولان ومدينة بُصْرَى بمقاطعة حوران، وقد كان الملك في جِلق ـ بالجاهلية وعند ظهور الإسلام ـ جَبَلة بن الأيهم الغساني، بينما كان الملك في الجولان وبُصرى الحارث بن أبي شمر الغساني، وذلك في إطار سلطة الرومان، ومن شعر حسان بن ثابت وهو عند جبله بن الأيهم في جِلق بالجاهلية:

انظر خليلي بباب جِلَّقِ هل تؤنسُ دون البلقاء مِنْ أحد
.. مِنْ دون بُصرى، ودونها جبل الثلج عليه السحاب كالفِردِ

وقال حسان بن ثابت:

لله درّ عصابةٍ نادمتُهمْ يوماً بجِلّقِ في الزمان الأولِ
أولاد جَفْنَة حولَ قبرِ أبيهُمُ: قبر ابن ماريةِ الكريم المُفْضَلِ
.. بيضُ الوجوه، كريمةٌ أحسابُهم، شُمُّ الأنوفِ، مِنْ الطراز الأولِ

ولجَبَلة بن الأيهم قال حسان بن ثابت:

أشهرنها فإن مُلكك بالشام إلى الروم فَخْرُ كل يماني

قال ابن خلدون: «واستفحلُ مُلك جَبَله بن الأيهم، وجاء الإسلام وهو على

(١) تاريخ الأدب العربي القديم ـ حنا فاخوري ـ ص٧٧ ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٨٦م.

(٢) الشعر في ظلال المناذرة والغساسنة ـ د. عمر شرف الدين ـ ص٣٩ ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٨٧م.

(٣) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص١٨ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٦٩م. ومدينة جِلق هي دمشق، فكانت جِلق هي غوطة دمشق، وهي عاصمة ومقر الملوك الغساسنة.

خارطة مناطق فتوح شرحبيل الكندي

مُلكه، ولما افتتح المسلمون الشام أسلم جبلة. .» وقد كان رسول الله ﷺ كتب إلى جبلة بن الأيهم الغساني وإلى الحارث بن أبي شمر الغساني كتابين يدعو كلاً منهما إلى الإسلام، قال ابن الجوزي (فأسلم جَبَلة بن الأيهم، وكتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ)(١) أما الحارث بن أبي شمر وهو الملك في بُصرى والجولان فكان موالياً للرومان مُتعصباً للنصرانية، فأساء إلى رسول النبي ﷺ فازداد تكريم الروم له واعتمادهم عليه، أما جبلة بن الأيهم فربما اضطر إلى كتم إسلامه عن الروم حتى الفتح الإسلامي لدمشق.

وقد سلف ذكر أن أبا بكر الصديق لما بعث الجيوش الثلاثة إلى الشام، سار أبو عبيدة بن الجراح بجيشه من البلقاء حتى نزل بمنطقة الجابية في الجولان، بينما مضى شرحبيل بن حسنه الكندي من الأردن فافتتح طبرية وعكا وصور، ثم أقبل من صور وما جاورها إلى الجولان ومقاطعة حوران، فافتتح جولان وبعض المناطق، ولم يتعرض لمدينة بُصرى التي كانت مركزاً تجارياً كبيراً بالشام وبها قوات رومانية كثيفه، كما أنها مقر الحارث بن أبي شمر، فتفادى شرحبيل مدينة بُصرى وما إليها، ومضى من الجولان إلى الجابيه التي فيها كان أبو عبيدة بن الجراح، فالتقى شرحبيل بأبي عبيدة، فشاوره في غزو بُصرى، فاستصوب أبو عبيدة ذلك، فانطلق شرحبيل إلى مدينة بُصْرَى.

* * *

قال الإمام الواقدي في فتوح الشام: «توجه شرحبيل بن حسنه كاتب وحيّ رسول الله ﷺ إلى بصرى في أربعة آلاف فارس، وكانت ـ بُصْرَى ـ آهلة عامرة بالناس، وكان العرب يقصدونها ببضائعهم وتجارتهم من أقصى اليمن وبلاد الحجاز. . وكان على بُصرى بطريقٌ عظيم الشأن والقدر عند الروم اسمه روماس(٢) فإذا كان في أيام الموسم يُنصب لبطريقهم كرسي ليجلس عليه ويجتمع الناس إليه ويستفيدون من علمه وحكمته، فبينما هُمْ قد اجتمعوا إليه إذا بالضجة بقدوم شرحبيل بن حسنه وعسكره» فعسكر شرحبيل وجيشه بمشارف مدينة بصرى، وأمر البطريق قومه أن لا يقوموا بشيء حتى يسمع كلام القوم، وخرج إلى مكان مناسب عند باب المدينة ونادى المسلمين طالباً أميرهم.

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ عن كتاب الوفاء لابن الجوزي ـ ص٧٤٠.

(٢) بطريق: كلمة رومانية أصلها بتريكوس Patricius وهي بمعنى نائب الملك، وقد كان الحارث بن جبلة الغساني ـ أشهر ملوك غسان ـ يحمل لقب Phylarch and Patricius وهو أعلى لقب بعد الأمبراطور القيصر الروماني، وكان عهد الحارث بن جبلة من (٥٢٨ ـ ٥٦٩م)

«فتقدم إليه شرحبيل، فقال له البطريق روماس: من أنتم؟ قال شرحبيل: نحن من أصحاب محمد رسول الله النبيّ المنعوت في التوراة والإنجيل. قال البطريق: ما فعل الله به؟ قال شرحبيل: قبضه الله إليه ووليّ الأمر بعده أبو بكر عتيق بن أبي قحافة ـ ثم دعاه وقومه إلى الإسلام ـ فقال البطريق: قد أعلم بأنكم على الحق.. وأنا أُشفِقُ عليكم إذْ لستم في جمع كثير ونحن في جمع كثير، ولكن ارجعوا فإنّا لا نتعرض لكم. واعلم يا أخا العرب أن أبا بكر صاحبي ولو كان حاضراً ما قاتلني!.. فقال شرحبيل: لسنا نبرح عنكم إلا بإحدى ثلاث، إما أن تدخلوا في دين الإسلام، أو تؤدوا الجزية أو الحرب، فقال البطريق: لو كان الأمر إليّ ما أُقاتلكم لأني أعلم أنكم على الحق، وهؤلاء الروم والقوم مجتمعون وأنا راجع إليهم وناظر ما عندهم».

فرجع البطريق إلى الروم ومن معهم داخل المدينة، وأخبرهم بالأمر، وأشار عليهم بأن يؤدوا الجزية، (فغضب الروم من كلامه، وشَوَشوا. وهَمّوا بالوثوب عليه، فقال: إنما أردتُ أن أرى حمية دينكم، والآن دونكم القوم) ـ ويبدو أن البطريق كان في الأصل عربياً من غسان، فلما هَمّوا بالوثوب عليه قال لهم ذلك الكلام ـ فتجهز الروم بالدروع والخيول، وخرجوا من مدينة بصرى للحملة على المسلمين، فكان الروم ومن معهم من أهل بصرى اثنا عشر ألفاً، وشرحبيل وجيشه أربعة آلاف، وقد كان جيش شرحبيل في الأصل سبعة آلاف وخمسمائة، فيبدو أنه ترك حاميات من جيشه في المدن والمناطق التي افتتحها بالأردن وفلسطين وصور وغيرها، بحيث كان الذين معه في بصرى أربعة آلاف، وكان الروم الذين خرجوا لقتاله اثنا عشر ألف مقاتل.

«فلما رأى شرحبيل بن حسنة ذلك، وعظ أصحابه وقال: إعلموا أن رسول الله ﷺ قال: الجنة تحت ظلال السيوف.. وقراء آيات من القرآن ثم حمل شرحبيل وحمل المسلمون على جيش بُصرى.. وحمل عليهم الروم.. قال عبيد الله بن عدي ـ وهو أحد فرسان جيش شرحبيل ـ: لم يزل القتال بيننا وبين الروم وقد طمعوا فينا وصبرنا لهم صبر الكرام، فرأيتُ شرحبيل بن حسنة قد رفع يديه إلى السماء وهو يقول: يا حيّ يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام انصرنا على القوم الكافرين، فوالله ما استتم شرحبيل كلامه ودعاءه حتى رأينا غبرة قد أشرفت علينا من صوب حوران، فلما قربت رأينا تحتها سوابق الخيل، فلاحت لنا الأعلام الإسلامية، وقد سابق إلينا فارسان أحدهما ينادي: يا شرحبيل أبشر بالنصر لدين

الله. . وأشرفت العساكر من كل جانب، وأشرفت راية العُقاب يحملها رافع بن عميرة الطائي»[١].

وكان رافع بن عميرة من الصحابة في الجيش الذي وجهه أبو بكر لفتح نواحي الحيرة في العراق بقيادة خالد بن الوليد ـ سنة ١٢هـ ـ فافتتح ذلك الجيش نواحي الحيرة وعين التمر بالعراق صلحاً، ثم أتى كتاب من أبي بكر إلى خالد وهو في عين التمر بأن يسير مدداً للمسلمين بالشام، فاستخلف خالد على المسلمين في ناحية الحيرة المثنى بن حارثة الشيباني والقائد عروة بن زيد الخيل الطائي، واستخلف على عين التمر سعد بن عمرو بن حرام الأنصاري، وسار خالد بن الوليد من عين التمر ـ في شهر ربيع الأول ١٣هـ ـ في ثمانمائة رجل من المسلمين، وكان رافع بن عميرة الطائي هو دليلهم ورائدهم فسلك بهم طريقاً صحراوياً من بادية السماوة حتى خرج بهم إلى الشام في خمسة أيام، فالتقى خالد بأبي عبيدة بن الجراح في الجابية، وعلم منه بمسير شرحبيل لفتح بُصرى، فبادر خالد بالمسير إلى بصرى لدعم شرحبيل، فوصل وشرحبيل يقاتل الروم، وكانت مع رافع بن عميرة الطائي راية العُقاب، قال البلاذري: (وهي راية سوداء كانت لرسول الله ﷺ. والعرب تُسمى الراية العقاب، وقوم يقولون إنما سميت بعقاب من الطير كانت ساقطة عليها ـ أي مرسومة عليها ـ والخبر الأول أصح)[٢] فلما وصل خالد والفرسان والجنود الذين معه أشرفوا على جيش شرحبيل، وأشرفت راية العقاب مع رافع بن عميرة الطائي، قال الإمام الواقدي: «فأقبل المسلمون يسلم بعضهم على بعض، وأقبل شرحبيل على خالد يسلم عليه، فقال خالد: يا شرحبيل أما علمت أن بُصرى ميناء الشام والعراق وفيها عساكر الروم وبطارقتهم فكيف غررت بنفسك وبمن معك من المسلمين. قال: كله برأى أبي عبيدة، فقال خالد: أبو عبيدة رجل خالص النية وليس عنده غائلة الحرب. . فقال شرحبيل: إن الله ناصرُنا عليهم».

وفي اليوم التالي التحم المسلمون والروم، قال الواقدي: «فلم يكن للروم ثبات مع العرب، فولى المشركون الأدبار، ودخل فلولهم بُصرى فأغلقوا الأبواب، وتحصنوا بالأسوار»[١] فلما كان الليل بعث البطريق روماس أحد غلمانه سراً إلى شرحبيل والمسلمين، ودَّلهم على باب في السور ففتحه غلمان البطريق، فدخل شرحبيل مع مائة من المسلمين من ذلك الباب فقتلوا بعض حرس الروم وفتحوا الأبواب، فدخل الجيش الإسلامي إلى المدينة فانهزم الروم وطلبوا الأمان، وبذلك

---

(١) فتوح الشام ـ الواقدي ـ جـ١ ص١٤ ـ ١٦.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١٥.

تم لشرحبيل والمسلمين فتح بُصرى، وصالح أهل بُصرى على أداء الجزية وغير ذلك من شروط المصالحة مثل أهل طبرية وعكا وغيرها من فتوح شرحبيل، ومكث شرحبيل في بصرى وحوران، بينما عاد خالد بن الوليد والذين معه إلى أبي عبيدة بن الجراح والذين معه، وكان فتح شرحبيل لمدينة بصرى في ربيع الثاني سنة ١٣هـ.

***

شرحبيل في موقعتي أجنادين واليرموك

يبدو أن فتوح الشام شهدت موقعتين في أجنادين وليس موقعة واحدة، فقد ذكر الواقدي في فتوح الشام: (أن موقعة أجنادين كانت ليلة ست خلت من جمادى الأول سنة ١٣هـ. وذلك قبل وفاة أبي بكر بثلاث وعشرين ليلة). وبالتالي فإنها قبل موقعة اليرموك، إذ إن موقعة اليرموك (كانت في جمادى الثاني ١٣هـ) قال ابن خلدون (وبينما الناس في القتال باليرموك قدم البريد من المدينة بموت أبي بكر وولاية عمر) وقد توفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الثاني ١٣هـ، وتم النصر باليرموك في أواخر جمادى الثاني، قال الطبري (.. لأيام بقيت من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ في خلافة عمر بن الخطاب). ثم ذكر الطبري وابن خلدون وغيرهما أن موقعة أجنادين كانت بعد اليرموك، فذكر الطبري موقعة أجنادين في أحداث سنة ١٤هـ، وأشار في ذات الوقت إلى قول بعض المؤرخين أن اليرموك وأجنادين كانتا في سنة ١٥هـ، وقال البلاذري في فتوح البلدان (كانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة)، والظاهر إننا لسنا بإزاء اختلاف بين الرواة حول زمن اليرموك وأجنادين، وإنما شهدت أجنادين موقعتان إحداهما في جمادى الأول سنة ١٣هـ والأخرى بعد اليرموك في سنة ١٥هـ وبما أن الروايات اعتبرت أجنادين موقعة واحدة وقع الالتباس والاختلاف في زمن أجنادين واليرموك.

لقد كانت أجنادين الأولى في جمادى الأول ١٣هـ حيث كان شرحبيل بن حسنة الكندي في مدينة بُصرى بحوران منذ افتتاحها في ربيع الثاني ١٣هـ وكان خالد بن الوليد مع أبي عبيدة بن الجراح في الجابية ومرج الصُفّر ـ على طريق دمشق ـ فعلم شرحبيل وهو في بُصرى بأن هرقل ملك الروم ـ وكان في حمص ـ قام بحشد وتوجيه تسعين ألفاً من الروم إلى أجنادين، وأمر هرقل قائد ذلك الجيش بتوجيه قوات من ذلك الجيش إلى دمشق وإلى فلسطين والأردن، فكتب شرحبيل بذلك إلى خالد بن الوليد وأبي عبيدة. قال روح بن طريف: (كنتُ مع خالد بن الوليد إذْ ورد علينا عُباد بن سعيد الحضرمي وقد بعثه شرحبيل بن حسنه الكندي من بُصرى، يُعْلِمُ خالداً بمسير الروم من أجنادين في تسعين ألفاً، فلما سمع خالد ذلك

ركب إلى أبي عبيدة وقال له: يا أبا عبيدة هذا عباد بن سعيد الحضرمي قد بعث به شرحبيل بن حسنة، يُخبرُ أن طاغية الروم هرقل قد وُلى فلاناً على من جمع بأجنادين من الروم وهم تسعون ألفاً، فما ترى من الرأي؟ فقال أبو عبيدة: أن أصحاب رسول الله ﷺ متفرقون ـ بالجيوش ـ شرحبيل بأرض بُصرى ومعاذ بن جبل بحوران ويزيد بن أبي سفيان بالبلقاء وعمرو بن العاص بفلسطين، والصواب أن تكتب إليهم ليقصدونا حتى نقصد العدو، فكتب خالد إليهم)[(١)].

وقد كانت الجيوش الإسلامية بالشام أربعة جيوش بقيادة الأمراء الأربعة الذين كان كل منهم أميراً على جيشه، وهم شرحبيل وجيشه بالأردن وبُصرى حوران، ويزيد بن أبي سفيان مع جيشه بالبلقاء، وعمرو بن العاص في منطقة من فلسطين، وأبو عبيدة بن الجراح في الجابية وانضم إليه خالد بن الوليد مع الفرسان الذين قدم بهم من العراق، فرأى خالد وأبو عبيدة اجتماع الجيوش، قال ابن خلدون: (وبلغ كتاب أبي بكر بذلك) ـ فكان كتاب أبي بكر بالموافقة على اجتماع الجيوش الأربعة أمراً بذلك، واقترن بتولية خالد القيادة العامة للجيوش ـ فكتب خالد إلى الأمراء الثلاثة: شرحبيل ويزيد وعمرو بالقدوم بجيوشهم، قال الواقدي: «فقراء كل واحد من الأمراء كتابه، فساروا جميعهم إلى أجنادين»[(١)] فدارت موقعة أجنادين الأولى مع الروم ـ في ٦ جمادى الأول ١٣هـ ـ وكان شرحبيل قائد ميمنة الجيش الإسلامي، وخالد بن الوليد قائد قلب الجيش، كما كان من القادة أبو عبيدة بن الجراح، وقيس بن المكشوح، ويزيد بن أبي سفيان، ومعاذ بن جبل، وذو الكلاع الحميري، وجندب بن عمرو الدوسي، وخالد بن سعيد بن العاص، وجرير بن عبد الله البجلي، والمقداد بن عمرو، وكان النصر حليف المسلمين في تلك الموقعة التاريخية الأولى بأجنادين في ٦ جمادى الأول ١٣هـ وذلك قبل وفاة أبي بكر بثلاث وعشرين ليلة.

***

وكانت حشود الروم تتدفق أثناء ذلك إلى هرقل في حمص، فيبعثها إلى جبهات المواجهة، فقد بعث هرقل ثمانين ألفاً إلى منطقة فحل، وبعث الإمدادات إلى الروم بالياقوصة واليرموك ودمشق، وأمرهم بالتجمع في اليرموك، فاجتمع أغلبهم باليرموك، وكذلك اجتمع الجيش الإسلامي باليرموك، والوادي خندق بينهم، (وكان المسلمون يومئذٍ ستة وثلاثين ألفاً، سبعة وعشرون منها مع الأمراء

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص١٧.

الأربعة، وثلاثة آلاف من إمداد جيش العراق مع خالد بن الوليد ـ ويقال جاء معه ثمانمائة فربما لحق بهم الآخرون ـ وستة آلاف من عرب الشام الذين أسلموا ـ غالباً ـ)، وتم تقسيم وتنظيم الجيش إلى ٣٦ كردوساً، يضم كل كردوس ألف مقاتل، وعلى كل كردوس أمير قائد من الصحابة، وتم تقسيم الكراديس إلى ثلاث فِرق: كراديس القلب، وكراديس الميمنة، وكراديس الميسرة، ولكل مجموعة من الكراديس الثلاثة قائد عام، فكانت:

كراديس الميمنة: بقيادة شرحبيل بن حسنة الكندي ومعه عمرو بن العاص، وكل منهما على كردوس، وكان من القادة اليمانيين لكراديس الميمنة: ذو الكلاع الحميري على كردوس، وجندب بن عمرو بن حممة على كردوس، وعمرو بن معدى كرب الزُبيدي على كرودس، والسمط بن الأسود الكندي على كردوس، ومعاوية بن حُديج السكوني على كردوس، وعبد الله بن قيس الحارثي.

كراديس الميسرة: بقيادة يزيد بن أبي سفيان، وهو على كردوس، وكان من قادة كراديس الميسرة: حوشب ذو ظليم الحميري على كردوس، ولم تحدد الروايات موقع عدد من أمراء الكراديس في الميمنة أو الميسرة أو القلب، منهم جرير بن عبد الله البجلي على كردوس، ومسروق العكي على كردوس.

كراديس القلب: بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وهو علي كردوس، وكان من قادة كراديس القلب: دحية بن خليفة الكلبي على كردوس، وامرؤ القيس بن عابس الكندي على كردوس، ويزيد بن يحنس على كردوس، وعياض بن غنم الأشعري علي كردوس، والمقداد بن عمرو على كرودس. كما تم تقسيم الخيل (الفرسان) إلى فرقتين: ـ فرقة وراء الميمنة بقيادة خالد بن الوليد، وفرقة وراء الميسرة بقيادة قيس بن مكشوح المرادي.

وكان لكل أولئك الصحابة القادة وسائر الصحابة والجيش إسهامهم في تحقيق النصر بموقعة اليرموك، وقد توفي الخليفة أبو بكر الصديق أثناء القتال باليرموك ـ في ٢٢ جمادى الثاني ـ وتولى الخلافة عمر بن الخطاب، وأتى الكتاب بذلك وبتولية أبي عبيدة بن الجراح القيادة العامة بدلاً عن خالد بن الوليد، فكتم أبو عبيدة وخالد ذلك إلى نهاية الموقعة في أواخر جمادى الثاني ثم تولى أبو عبيدة القيادة العامة، وبعث أبو عبيدة الصحابي جرير بن عبد الله البجلي بنبأ انتصار اليرموك إلى عمر بن الخطاب، واستخلف أبو عبيدة في اليرموك بشير بن كعب الحميري على رأس قوة من المسلمين، وذلك في رجب ١٣هـ.

* * *

موقعة (فحل) وافتتاح بيسان بقيادة شرحبيل

توجه المسلمون بعد أجنادين الأولى واليرموك قاصدين دمشق بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ومعه الأمراء والقادة، وكان هرقل ملك الروم قد بعث ثمانين ألفاً من الروم إلى منطقة (فحل) بالقرب من بيسان بفلسطين بقيادة أخيه (تدارق) والقائد (سقلار) كما بعث بالمدد إلى الروم بدمشق، ثم إن المسلمين: (كرهوا أن يصمدوا لجيش هرقل ـ بإزاء دمشق ـ وخلفهم ثمانون ألفاً في فحل، وعلموا أن مَنْ بإزاء فحل جُنَة الروم وإليهم ينظرون، وإن الشام بعدهم سلمْ)[1] وهنا تذهب إحدى الروايات إلى أن المسلمين ساروا جميعاً إلى فحل، وتذكر رواية ثانية مسير شرحبيل وعمرو بن العاص وعدد من القادة إلى فحل، وهو الصواب إذْ إنه مضى أبو عبيدة في فرقة من الجيش باتجاه دمشق، بينما سار أغلب الجيش مع شرحبيل وعمرو وبعض القادة إلى فحل، وكان أميرهم شرحبيل، وفي ذلك قال ابن خلدون: «وصل الأمراء إلى فحل، فَبَيّتهم الروم، فظفر المسلمون بهم، وكان على الناس في وقعة فحل شرحبيل بن حسنة الكندي»[2] قال الطبري: «نزل المسلمون في فحل، وبينهم وبين الروم مياه وأوحال تُسمى ذات الرغدة، فاغترهم الروم وعليهم سقلار، وقد رجا أن يكون المسلمون على غرة، فكان هجومهم ليلاً، وكان المسلمون ـ (بقيادة شرحبيل) ـ على حذر لا يبيتون ولا يصبحون إلا على تعبئة». فلما اغترهم الروم وهجموا عليهم (غافصهم المسلمون ولم يُناظروهم، فاقتتلوا بفحل أشد قتال ما اقتتله المسلمون والروم قط) فاقتتلوا ليلتهم وطوال اليوم التالي حتى الليل (فأظلم الليل، وقد حار الروم وأُصيب قائدهم سقلار والذي يليه فيهم نسطورس، فانهزموا فلحقهم المسلمون وظفروا أحسن ظفر، وأسلمت الروم هزيمتهم إلى الوحل، فركبوه، ولحق المسلمون بهم وقد وجلوا، فقتلوهم في الوحل). قال الطبري: «فكانت هزيمة الروم في فحل، وكان مقتلهم في الرداغ، فأُصيب الثمانون ألفاً لم يسلم منهم إلا الشريد»[1] وقال ابن خلدون: «ظفر المسلمون بالروم وهزموهم، فَقُتل منهم ثمانون ألفاً، وكان على الناس في وقعة فحل شرحبيل بن حسنة»[2] قال البلاذري: «وكانت موقعة فحل لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ثلاث عشرة من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب»[3] أي في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣هـ.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٥٩.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٧٨ و١٠٥.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١٢٢.

وكان الجيش الإسلامي في موقعة فحل لا يتجاوز عشرين ألفاً، ولكن آلاف من قبائل جذام ولخم وغسان وقضاعة الذين كانوا قد أسلموا بالشام انضموا إلى شرحبيل لما سار إلى فحل، وبمساهمتهم تم النصر على الروم في موقعة فحل، وكان شرحبيل قد سبق أن فتح طبرية وصالح أهلها ـ في ربيع أول ١٣هـ ـ فلما بعث هرقل ذلك الجيش إلى فحل، باتت طبرية تحت سيطرتهم غالباً، بينما لم يكن قد سبق فتح بيسان، فلما تم النصر في موقعة فحل ـ في ٢٨ ذي القعدة ١٣هـ ـ تقدم شرحبيل بالمسلمين من فحل إلى بيسان ـ في ذي الحجة ١٣هـ ـ وكان بها قوة من الروم، فحاصرهم وقاتلهم حتى افتتحها، وفي ذلك قال ابن خلدون: (سار شرحبيل بالناس إلى بيسان وحاصرها، فقتل مقاتلتها، وصالحه الباقون، فقبل منهم). وقال الطبري: (لما فرغ شرحبيل من وقعة فحل، نَهَدَ في الناس إلى بيسان فحاصرها أياماً) ـ وأثناء محاصرة شرحبيل لبيسان بعث قوة بقيادة أبي الأعور السلمي إلى طبرية فحاصر الروم بها، فلما فتح شرحبيل بيسان، وقتل المقاتلين الروم، وصالح أهل بيسان ـ (كان أبو الأعور السلمي على طبرية محاصراً لها، فلما بلغهم شأن بيسان، صالحوا شرحبيل)، وذلك على الصلح الذي تقدم ذكره عن فتوح البلدان للبلاذري، قال ابن خلدون: (فكمل فتح الأردن ـ أي ضفتي نهر الأردن ـ صلحاً، ونزلت القواد في مدائنها وقراها، وكتبوا بالفتح إلى عمر).

* * *

شرحبيل في فتح دمشق.. إلى أجنادين الثانية

ثم عاد شرحبيل والذين معه من القادة والجيش ـ بعد فتح بيسان ـ إلى حيث كان أبو عبيدة بن الجراح والذين معه في المرج ـ مرج الصُفر ـ وكان أبو عبيدة والذين معه حاربوا وهزموا الروم في مرج الصُفر في مستهل المحرم سنة ١٤هـ، فأقاموا بالمرج خمس عشرة ليلة، وصل خلالها شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص وبقية الجيش، قال البلاذري: «ثم ساروا إلى مدينة دمشق لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة أربع عشرة، فأخذوا الغُوطة ـ غُوطة دمشق ـ وكنائسها عنوة، وتحصن أهل المدينة وأغلقوا أبوابها، فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي في زهاء خمسة آلاف ضمهم إليه أبو عبيدة، ونزل عمرو بن العاص على باب توما، ونزل شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية، ونزل يزيد بن أبي سفيان على باب كيسان، وجعل أبو الدرداء عويمر بن عامر الخزرجي على مسلحة ببرزة»[١] وكذلك «نزل قيس بن مكشوح المرادي على باب

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٤٥ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص١٢٩ ـ ١٣٠.

الفرج» ـ في جنوب شرق دمشق ـ فحاصر أولئك الأمراء مدينة دمشق من جميع الاتجاهات، وكان هرقل بمدينة حمص، فوجه أبو عبيدة ذا الكلاع الحميري في جيش من المسلمين فرابط ذو الكلاع بين دمشق وحمص لمنع وصول الإمدادات من هرقل إلى الروم بدمشق، قال ابن خلدون: «فحاصر المسلمون دمشق سبعين ليلة، وقيل ستة أشهر، وقد جعلوا بينهم وبين هرقل ذو الكلاع في جيش من المسلمين، وبعث هرقل المدد إلى دمشق فكاد فيهم ذو الكلاع» قال الطبري: «فأشجتهم الخيول التي مع ذي الكلاع. . ولما أيقن أهل دمشق أن الإمداد لا تصل إليهم وهنوا، وانقطع رجاءوهم». قال ابن خلدون: «وطمع المسلمون فيهم، واستغفلهم خالد في بعض الليالي فتسور السور من ناحيته، وفتح الباب ـ وهو الباب الشرقي ـ واقتحم البلد ـ أي ناحية الباب الشرقي ـ فقتلوا كل من لقوه»، وصالح خالد أسقف دمشق في تلك الناحية، «وفزع أهل نواحي دمشق إلى الأمراء الذين يلونهم فنادوا لهم بالصلح والدخول، فدخلوا من نواحيهم صلحاً، وكان الفتح في رجب ١٤هـ».

وكان شرحبيل على رأس قواته عند باب الفراديس، وأبو عبيدة في باب الجابية، وبقية الأمراء عند بقية الأبواب، ثم طلب أسقف دمشق ورؤسائها المصالحة فأجابهم أبو عبيدة إلى ذلك، وأمر خالداً بأن يكتب لهم كتاب الصلح، قال الواقدي: «ثم قالوا لأبي عبيدة، قُمْ معنا لاستلام دمشق، فقام واصطحب معه أعيان الصحابة، منهم: معاذ بن جبل، وأبو هريرة، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، وخالد بن الوليد، وقيس بن المكشوح، وعمرو بن معدي كرب، الخ»[(١)] فكان شرحبيل أحد أمراء الصحابه الذين دخلوا دمشق وتسلموها مع أبي عبيدة، قال البلاذري: «وكان فتح دمشق في رجب ١٤هـ، وتاريخ كتاب خالد بصلحها في شهر ربيع الآخر سنة ١٥هـ، وذلك أن خالد كتب الكتاب بغير تاريخ، فلما تجمع المسلمون للنهوض إلى من تجمع لهم باليرموك أتى أسقف دمشق خالداً فسأله أن يُجدد له كتاباً ويشهد عليه أبا عبيدة والصحابة، ففعل، وأثبت في الكتاب شهادة أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، وغيرهم، فأرخه بالوقت الذي جدده ـ وهو ربيع الآخر سنة ١٥هـ ـ»[(١)].

لقد كان شرحبيل من الأمراء القادة الذين افتتحوا دمشق في رجب ١٤هـ ثم كان من الشهود على تجديد كتاب الصلح لأهل دمشق وأسقفها ـ في ربيع الثاني ١٥هـ ـ حينما تجمع المسلمون للنهوض لمواجهة جموع الروم عند نهر اليرموك

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٤٥ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص١٢٩ ـ ١٣٠.

في أجنادين الثانية التي دارت في رجب ١٥هـ، وبين الزمنين ـ رجب ١٤هـ ورجب ١٥هـ ـ وقعت أحداثُ أدى عدم ترتيبها إلى الالتباس والاختلاف في زمن موقعة اليرموك وأجنادين وفتح دمشق، وتتمثل معالم تلك الأحداث فيما يلي:

ـ في فترة حصار الروم بدمشق والتي تتوجت بفتح دمشق ـ في رجب ١٤هـ ـ كانت العراق تشهد حشوداً فارسية من جهة وإسلامية من جهة أخرى بمنطقة القادسية، وأسند عمر القيادة العامة للمسلمين في القادسية إلى سعد بن أبي وقاص واستنفر الناس من اليمن وبقية الجزيرة إلى القادسية، وأثناء ذلك تم فتح دمشق، قال ابن خلدون: (كان فتح دمشق في رجب ١٤هـ وبعثوا إلى عمر بالفتح، فوصل كتابه بأن يصرف جند العراق إلى العراق فخرجوا وعليهم هاشم بن عتبة وعلى مقدمته القعقاع). وقال البلاذري: «كتب عمر إلى أبي عبيدة: ابعث قيس بن مكشوح إلى القادسية فيمن انتدب معه، فانتدب مع قيس خلق، فقدم متعجلاً إلى القادسية» وكذلك مضى إلى القادسية عمرو بن معدي كرب، وشرحبيل بن السمط بن الأسود الكندي، وعياض بن غنم الأشعري، ومعاوية بن حديج السكوني، والعديد من القادة، وبما أن كل قائد معه فرسان قبيلته، يمكن القول أن جيش الشام انخفض انخفاضاً مؤثراً.

ـ بينما في الشام استخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان، وسار أبو عبيدة في قوة من الجيش إلى حمص، بينما توجه شرحبيل بن حسنة الكندي في قوة من الجيش إلى الأردن بصفته أمير جيش الأردن، وتوجه عمرو بن العاص إلى منطقة غرب فلسطين، قال الطبري: «وبقي بدمشق مع يزيد بن أبي سفيان من قواد أهل اليمن عددُ، منهم: عمرو بن شمر بن غزية، وسهم بن المسافر، ومشافع بن عبد الله بن شافع، وبعث يزيد دحية بن خليفة الكلبي في خيل إلى تدمر، وأبا الزهراء القشيري إلى البثينة وحوران، فصالحوهما على صلح دمشق، ووُليّا القيام على ما فتحاه وبُعثا إليه». أما الجيش الذي سار مع أبي عبيدة إلى حمص، فكان فيه خالد بن الوليد، وعبادة بن الصامت الأنصاري، والسمط بن الأسود الكندي، فقد تعرض ذلك الجيش للحصار، حيث استنفر هرقل الرومان وأهل الجزيرة الفراتية فأصبحت للروم قوة كبيرة، ولكن الروايات لا تذكر ذلك إلا في سياق ما بعد موقعة القادسية وانتصار المسلمين بالقادسية ـ في محرم سنة ١٥ هجرية ـ قال ابن كثير: «فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص أن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة ـ الفراتية ـ الذين مالأوا الروم على حصار أبي عبيدة بن الجراح، ويكون أمير

الجيش عياض بن غنم الأشعري، فسار إليها عياض وفي صحبته أبو موسى الأشعري»[١]. وشملت التعليمات عودة القادة الذين جاءوا من الشام وخاضوا موقعة القادسية إلى الشام مع فرسانهم ورجالهم، وقد جاء في رواية لابن خلدون أن عدد الذين وصلوا من العراق إلى الشام قبل موقعة نهر اليرموك ـ من جند العراق ـ كانوا (تسعة آلاف). ويتبين من الأحداث التي تلت ذلك أن منهم قيس بن المكشوح، وشرحبيل بن السمط، وعمرو بن معدي كرب، ومعاوية بن حُديج، وغيرهم، بينما في ذات الوقت كان أبو عبيدة بن الجراح قد رجع إلى دمشق، وكتب إلى شرحبيل بن حسنة وإلى عمرو بن العاص بالقدوم إليه مع جيشهما من الأردن وفلسطين، فأقبلوا إليه، فتجمع المسلمون إلى دمشق للنهوض لمواجهة جموع الروم الذين بعثهم هرقل إلى نهر اليرموك وأجنادين، وكان الروم زهاء مائة وعشرين ألفاً، بينما بلغ المسلمون زهاء أربعين ألفاً، فتم تجديد كتاب الصلح لأسقف وأهل دمشق ـ في ربيع الثاني سنة ١٥هـ ـ والذي شهد فيه أبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان.

ـ وفي ربيع سنة ١٥هـ مضى المسلمون من دمشق إلى منطقة نهر اليرموك والياقوصة، ولذلك تذكر طائفة من الروايات أن موقعة اليرموك كانت في رجب ١٥هـ، وأنه (اجتمع الروم بحيال المسلمين ووادي اليرموك خندق بينهم، فأقاموا بإزائه ثلاثة أشهر) ـ من ربيع الثاني إلى رجب ـ ثم وقعت المعركة الحاسمة التي تذكرها بعض الروايات بأنها موقعة اليرموك التي قبل أجنادين، حيث تدمجها بعض الروايات باسم اليرموك، ويمكن تمييزها باسم (موقعة نهر اليرموك) وقد كان شرحبيل بن حسنة من كبار قادتها، وانهزم الروم فيها هزيمة كبرى، قال ابن خلدون: (وتتابع الروم على الهزيمة، وكانوا مائة وأربعين ألفاً، وتقسموا بين القتل والغرق في الياقوصة، والهوى في الخندق، وقُتل صناديد الروم وفرسانهم، وقُتل تدارق أخو هرقل) ثم قال في موضع آخر (كان مقتل تدارق أخو هرقل في أجنادين)، وأنه (انتهت الهزيمة ـ باليرموك ـ إلى هرقل وهو دون حمص فارتحل وأخلد إلى ما وراءها). ويقابل ذلك قول البلاذري (لما انتهى خبر وقعة أجنادين إلى هرقل نخب قلبه وسقط في يده ومُلئ رعباً، فهرب من حمص إلى أنطاكية) وبذلك كانت موقعة نهر اليرموك وأجنادين الثانية هي أعظم الانتصارات في فتوح الشام.

وقد توجه شرحبيل بن حسنة إلى منطقة الأردن وفلسطين التي هو أميرها وقائد جيشها، وتوجه عمرو بن العاص إلى منطقة غرب فلسطين ـ يافا/ غزة ـ التي هو أميرها

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٧٦.

وقائد جيشها، بينما عاد أبو عبيدة بن الجراح إلى دمشق وبعث منها جيشاً بقيادة السمط بن الأسود الكندي إلى حمص فافتتحها وتولاها، ثم أتى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بالمسير لفتح بيت المقدس، فدعا أبو عبيدة الأمراء، فأقبلوا إليه، وعقد لهم الرايات لفتح القدس ونواحيها سنة ١٦هـ وكان منهم شرحبيل بن حسنة الكندي.

* * *

فتح القدس (بيت المقدس)

كان شرحبيل سابع سبعة أمراء عقد لهم أبو عبيدة الألوية لفتح القدس ونواحيها، وقام بتوجيههم إلى القدس في كل يوم أمير بجيشه، حيث وجه أبو عبيدة خالداً بن الوليد في خمسة آلاف وعمرو بن العاص في خمسة آلاف ويزيد بن أبي سفيان في خمسة آلاف، قال الإمام الواقدي: «ثم دعا أبو عبيدة شرحبيل بن حسنة كاتب وحيّ النبي ﷺ وعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من أهل اليمن، وقال له: سر بِمَنْ معك حتى تقدم بيت المقدس وانزل بعسكرك عليها ولا تختلط بعسكر مَنْ قبلك»[١] فسار شرحبيل بجيشه إلى القدس، ثم عقد أبو عبيدة راية للمسيب بن نجبة في خمسة آلاف فسار في اليوم الخامس. قال الواقدي: «وعقد أبو عبيدة راية سادسة لقيس بن هبيرة المكشوح المرادي وضم إليه خمسة آلاف وسيّره ورائهم، ثم عقد راية سابعه لعروة بن مهلهل بن زيد الخيل الطائي في خمسة آلاف، فكان جملة من سرحهم خمسة وثلاثين ألفاً، وسارت السبعة أمراء في سبعة أيام، في كل يوم أمير، وذلك ليرهب أعداء الله، ففي كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه[١] ثم سار أبو عبيدة واشترك معهم في حصار بيت المقدس ونواحيها، وفي المناوشات التي تخللت ذلك، قال البلاذري: «ثم طلب أهل القدس من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل الشام.. على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فقدم عمر إلى بيت المقدس، فعقد صلح أهلها، وكتب لهم به»[١].

فكان شرحبيل بن حسنة من الصحابة الأمراء الذين دخلوا القدس مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يوم افتتاح القدس وشروق عصرها العربي الإسلامي الخالد سنة ١٦هـ، وقد كان أهل القدس عرب مسيحيون من جُذام ولَخْم وقضاعة وبقية العرب الفلسطينيين الأوائل كما كان الحال في معظم أرجاء فلسطين والشام ثم دخل كثيرون منهم في دين الإسلام بعد الفتح بأمد يسير.

---

(١) فتوح الشام ـ الواقدي ـ ص١٤٤ ـ فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١٤٥.

ولاية شرحبيل للأردن وفلسطين

لقد كان شرحبيل بن حسنة الكندي هو القائد الفاتح للأردن وأغلب فلسطين، والمقصود بالأردن في المصادر التاريخية عن الفتوحات وفجر الإسلام هو مناطق فلسطين الواقعة في الضفتين الشرقية والغربية لنهر الأردن، ثم إن شرحبيل بن حسنة أصبح أميراً والياً على الأردن وفلسطين، فجاء في البداية والنهاية لابن كثير: أن شرحبيل بن حسنه «أحد أمراء الأرباع، وهو أمير فلسطين» وقال العسقلاني: «ولاه عمر على ربع من أرباع الشام». وقال القرطبي: «كان أميراً على ربع من أرباع الشام».

ذلك أنه منذ فتح الشام في خلافة عمر تم تقسيم الشام إلى أربعة أقسام إدارية عسكرية لكل منها أمير وكانت تُسمى (أجناد) وهي الأردن، وفلسطين، ودمشق، وحمص. قال البلاذري: «وقد اختلفوا في (سبب) تسمية الأجناد؛ فقال بعضهم: سمى المسلمون فلسطين جنداً لأنه جَمَع كوراً، وكذلك الأردن، وكذلك دمشق، وكذلك حمص. وقال بعضهم: سُميت كل ناحية لها جُندُ يقبضون أطماعهم بها جنداً»(١).

ونرى أن لا اختلاف ولا تعارض بين التعريفين والمعنيين، إذ إن أحدهما إداري والثاني عسكري وكان مصطلح (جند) يشملهما معاً، فقد كان كل قسم يضم عدة مناطق (كُور) ـ بمثابة محافظات ـ كما كان لكل قسم جيشاً ـ جنداً ـ يقبضون استحقاقاتهم المالية بذلك القسم، وكان لكل قسم من الأقسام الأربعة أمير هو في ذات الوقت قائد الجيش، فكان شرحبيل بن حسنة هو أمير وقائد الأردن، وقد وصفه ابن كثير بأنه (أمير فلسطين) لأن المقصود بالأردن هو مناطق فلسطين الواقعة في الضفتين الشرقية والغربية لنهر الأردن، كما أن ولاية شرحبيل كانت تشمل مناطق طبرية وعكا (شمال فلسطين) ـ التي افتتحها شرحبيل ـ كما أن مناطق القدس كانت في إطار قسم الأردن وفلسطين الذي أميره شرحبيل، إذْ إن مدينة عمواس كانت مركز قيادة وإمارة شرحبيل، وعمواس هي من قرى القدس، وكانت من أكناف بيت المقدس(٢).

---

(١) فتوح البلدان ـ ص١٣٧.

(٢) أما القسم الذي سُمّي (جند فلسطين) فكان مناطق (يافا، واللد، وغزة) وجهاتها، وكان أمير ذلك القسم عمرو بن العاص قبل أن يتولى قيادة الجيش الإسلامي في فتح مصر، ويصبح أميراً لمصر ـ سنة ٢٠هـ ـ بينما كان عبادة بن الصامت أمير قسم حمص ويزيد بن =

فكان شرحبيل بن حسنة فاتح وأمير الأردن وأغلب فلسطين، ومؤسس عصرها العربي الإسلامي، ولم يزل أميراً لها إلى أن مات في طاعون عمواس سنة ١٨هـ مع أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الأنصاري عليهم رحمة الله ورضوانه.

= أبي سفيان أمير قسم دمشق، فلما توفي أبو عبيدة الذي هو والي الشام وقائدها العام وتوفي مع شرحبيل في طاعون عمواس سنة ١٨هـ، وتولى الشام يزيد بن أبي سفيان فمات آخر سنة ١٨هـ فاستعمل عمر على الشام معاوية بن أبي سفيان، وأصبح عبادة بن الصامت الأنصاري قاضياً أميراً لفلسطين، وشرحبيل بن السمط الكندي أميراً لحمص، وقد توفي عبادة بن الصامت عام ٣٨هـ بالقدس وهو أول من تولى القضاء بفلسطين، وقبره معروف ببيت المقدس.

١٠

المِقْدَاد بن عَمْرُو البَهْرَاني

ـ أولُ فارس من الصحابة ـ

مِنْ كبار الصحابة ومِنْ أسبق السابقين إلى **الإسلام هو المقداد بن عمرو بن** ثعلبة البهراني الحميري، قال ابن عبد البر القرطبي في الاستيعاب: **«كان المقداد** من الفضلاء النجباء الكبار الخيار من أصحاب النبي ﷺ، **وعن عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: أول من أظهر الإسلام سبعة منهم المقداد»[١].

* * *

والمقداد هو: (المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود البهراني)[٢] من قبيلة (بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن عمرو بن مُرّة بن زيد بن مالك بن حمير بن سباء)[٣] قال نشوان الحميري: «بَهْرَاءُ: قبيلة من اليمن، وهم ولد بهراء بن عمرو بن الحاف، والنسبة إليهم: بهراني، بنون على غير قياس»[٤] وهم أخوة خولان وبليّ، قال نشوان: «بليُّ: قبيلة من اليمن، والنسبة إليهم: بلوي، وهم ولد بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، قال المثلم بن قرط البلوي:

بَـلِـيٌّ وبـهـراءُ وخـولان إخـوة لعمرو بن حاف، فرع من قد تفرعا»[٤]

فقد تفرع من عمرو بن الحاف بن قضاعة أربعة بطون؛ قبيلة خولان، وقبيلة بليّ وقبيلة بهراء وقبيلة مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، فكانت خولان بين مأرب وصنعاء وفي صعدة وتجاورها بليّ وبهراء، بينما قبيلة مهرة بن حيدان في منطقة المهرة شرق حضرموت، وهذا قد يفسر سبب مسير عمرو بن ثعلبة ـ والد المقداد ـ من منطقته في صعدة إلى حضرموت في الجاهلية، إذْ إنه وقعت قضية ثأر بين عشيرتين من بهراء وكانت عشيرته إحداهما، ويمكن أن يكون

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ القرطبي ـ ص٤٧٣.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص٤٥٤.
(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٠.
(٤) شمس العلوم ودواء كلام من الكلوم ـ نشوان بن سعيد الحميري ـ جـ١ ص١٨٤ و١٩٣.

مستهدفاً في قضية الثأر، فاختار مفارقة قبيلته وسار إلى حضرموت، وكان اسم حضرموت يشمل منطقة حضرموت والمهرة، وكانت زعامة حضرموت والمهرة لقبيلة كندة فاستقر هناك، قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة: «قال ابن الكلبي: كان عمرو بن ثعلبة أصاب دماً في قومه، فلحق بحضرموت، فحالف كندة، فكان يقال له الكندي، وتزوج هناك امرأة فولدت له المقداد»[(١)].

* * *

فكان مولد المقداد بن عمرو بحضرموت قبل البعثة النبوية بسبعة وعشرين سنة، فنشأ بحضرموت، وكان شاباً شجاعاً، فوقع بينه وبين ابن أبي شمر الكندي خصام، فطلب ابن أبي شمر مبارزته بالسيف، وربما لم يجد المقداد مفراً من المبارزة، فتبارزا فضرب المقداد رجل ابن أبي شمر بالسيف، وكان أبو شمر ظالماً متجبراً، فهرب المقداد إلى مكة، وفي ذلك جاء في كتاب الجامع أنه: «وقع بين المقداد في صباه وابن شِمْر بن حُجْر الكندي خصام، فضرب المقداد رجله بالسيف، وهرب إلى مكة»[(٢)].

وجاء في الإصابة أنه: «لما كبر المقداد وقع بينه وبين أبي شمر بن حجر الكندي خصام، فضرب المقداد رجله بالسيف، وهرب إلى مكة[(١)] وتشير عبارة (لما كبر المقداد) إلى أنه كان يومئذٍ ابن عشرين سنة تقريباً، فيكون لحاقه بمكة قبل البعثة النبوية بنحو سبع سنوات، وقد كان بمكة العديد من التجار والمقيمين اليمانيين، وكان من العادة السائدة أن يحالف من يقيم بمكة شخصاً أو أسرة فتتوفر له بذلك الحماية، فهيأ له بعض اليمانيين هناك محالفة الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، قال ابن خلدون: (الأسود بن عبد يغوث بن وهب خال رسول الله ﷺ أخي أمه، فتبنى المقداد، فنُسِب إليه). فلما حالف المقداد بن عمرو الأسود بن عبد يغوث ثم تبناه، استقرت أحوال المقداد بمكة، فكتب إلى أبيه عمرو بن ثعلبة بأن أحواله جيدة بمكة وأن يقدم إليه، فقدم أبوه وعاش معه بمكة، قال العسقلاني: «وتزوج المقداد ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي ﷺ» وكان المقداد يُكنَى أبو معبد، ومعبد هو ابن المقداد.

* * *

ولما بعث اللّهُ محمداً نبياً ورسولاً، وبدأ دعوته بمكة، كان المقداد من أسبق

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص٤٥٤.
(٢) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ ص٥٨٨.

السابقين إلى الإسلام، فهو سابع سبعة كانوا أول الصحابة الذين أظهروا الإسلام، وفي ذلك قال ابن حجر العسقلاني: «أسلم المقداد قديماً. وعن عبد الله بن مسعود: أول من أظهر إسلامه سبعة فذكره فيهم». وكذلك جاء في طبقات الصحابة لابن سعد وأسد الغابة لابن الأثير والاستيعاب للقرطبي، وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أن «هو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام» وقال خالد محمد خالد: «المقداد من المبكِّرين للإسلام، وسابع سبعة جاهروا بإسلامهم وأعلنوه، حاملاً نصيبه من أذى قريش ونقمتها، في شجاعة الرجال وغبطة الحواريين»(١) فيكون إسلام المقداد في السنة الأولى للبعثة النبوية وهو يومئذٍ ابن سبع وعشرين سنة.

ومن المفيد الإشارة هنا أن من السبعة زيد بن حارثة الكلبي القضاعي الحميري أول المسلمين، وأبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وجاء في ترجمة عمار بن ياسر بالإصابة: «كان عمار من السابقين إلى الإسلام هو وأبوه.. قال عاصم عن زرّ بن عبد الله من مسعود: أن أول من أظهر اسلامه سبعة فذكر منهم عمّار بن ياسر. أخرجه ابن ماجه». وبذلك يكون من المتيقن أن من السبعة: زيد بن حارثة، وأبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، والمقداد بن عمرو، وعمار بن ياسر، رضي الله عنهم.

وكان المقداد من الصحابة الذين جعلهم الله نجباء ووزراء ورفقاء رسول الله ﷺ، وفي ذلك جاء بكتاب الاستيعاب للقرطبي: «قال رسول الله ﷺ: لم يكن نبيٌّ إلا أعطي سبعة نجباء ووزراء ورفقاء، وإني أُعطيتُ أربعة عشر، فذكرهم النبي ﷺ في الحديث» فذكر منهم المقداد بن عمرو [ص٤٧٣ ـ الاستيعاب].

وجاء في الإصابة: «قال النبي ﷺ: أن الله عزّ وجلّ أمرني بحب أربعة من أصحابي وأخبرني أنه يُحبهم، فقيل يا رسول الله مَنْ هُمْ؟ قال: علي، والمقداد، وسلمان، وأبو ذر، أخرجه الترمذي وابن ماجه».

وكان المقداد من الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة ـ في رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية ـ وقد بلغ الذين هاجروا إلى الحبشة آنذاك ـ وفي السنة التالية ـ زهاء ثمانين رجلاً وامرأة، ثم رجع بعضهم قبل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة، وكان المقداد من الذين رجعوا قبل الهجرة إلى المدينة بنحو سنتين، وربما منذ تلك الفترة كانت للمقداد اتصالات وعلاقة بقبيلته في اليمن، وهي اتصالات يمكن إدراكها من واقعة لاحقة بالمدينة وهي قدوم وفد بهراء إلى رسول

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص١٨٤.

الله ﷺ بالمدينة المنورة، فقد جاء في عيون الأثر أنه: «قدم وفد بهراء من اليمن وهم ثلاثة عشر رجلاً، فأقبلوا يقودون رواحلهم إلى بيت المقداد، فخرج إليهم المقداد فَرّحب بهم، وأنزلهم... وأقاموا أياماً»[1] فذلك يدل على علاقة وروابط المقداد بمنطقته وقبيلته باليمن ومساهمته في دعوتهم إلى الإسلام، ربما منذ ما قبل الهجرة، وربما بعد الهجرة النبوية إلى يثرب.

* * *

هجرة المقداد إلى يثرب (المدينة المنورة)

لقد كان المقداد من الصحابة الذين هاجروا إلى يثرب في بداية الهجرة النبوية، قال ابن حجر العسقلاني: «أسلم المقداد قديماً، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد بعدها». ويعني بالهجرتين، الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة المنورة.

وكان المقداد يومئذٍ ـ أي في مطلع السنة الأولى للهجرة ـ ابن سبع وثلاثين سنة، وقد وصفه أحد الصحابة قائلاً: (كان المقداد طويلاً، كثير الشَعْر، أعين، آدم)[2].

وقد نزل المقداد في بيت واحد من بيوت الأنصار مع رسول الله ﷺ في أول الهجرة إلى المدينة، وفي ذلك قال المقداد: «لما نزلنا المدينة عشَّرنا رسول الله ﷺ عشرة عشرة في كل بيت، فكنت في العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ. ولم يكن لنا إلا شاة نتجزاء لبنها»[3]. وفيما بعد أصبح للمقداد منزله الخاص في حيّ بني حديلة بالمدينة المنورة، فقد جاء في خبر وفد بني بهراء: «عن كريمة بنت المقداد عن أمها ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، قالت: قَدِم وفد بهراء من اليمن، و هم ثلاثة عشر رجلاً، فأقبلوا يقودون رواحلهم حتى انتهوا إلى باب المقداد ونحن في منزلنا ببني حديلة»[4] ويدل ذلك على أن المقداد وأسرته أصبح لهم منزل معروف بالمدينة المنورة في بني حديلة، وكان المقداد من نجباء ووزراء ورفقاء رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة.

* * *

الموقف التاريخي الخالد للمقداد

ولما أقبلت قريش في بأسها وخيلائها وكبريائها لمحاربة رسول الله ﷺ في

---

(١) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس ـ جـ١ ص٣٢٠.
(٢) أعين: ذو عيون كبيرة. وآدم: أي أسمر شديد السُمرة.
(٣) الاستيعاب ـ ص٤٧٦ ـ وكان نزول رسول الله ﷺ في منزل كلثوم بن امرئ القيس بن الهدم الأنصاري.
(٤) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس ـ جـ١ ص٣٢٠.

السنة الثانية للهجرة ـ أي في موقعة بدر ـ كان من المواقف التي خلدها التاريخ موقف المقداد بن عمرو البهراني الحميري وموقف سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنهما، ولقد قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود عن موقف المقداد:

«لقد شهدتُ مِنْ المقداد مشهداً، لأنْ أكُونَ صاحبَهُ، أحبُّ إليّ مما طلعت عليه الشمس».

وقال: «لقد شهدتُ من المقداد مشهداً، لأن أكُونَ صاحبَهُ، أحبُّ إليّ مما في الأرض جميعاً».

فقد جمع رسول الله ﷺ أصحابه يشاورهم في أمر قريش التي جمعت جموعها وأقبلت لمحاربة رسول الله ﷺ والمسلمين، فشاور رسول الله ﷺ أصحابه ليبلو مدى استعدادهم لقتال قريش.

فقال المقداد رضي الله عنه: «يا رسول الله، إنّا والله لا نقولُ لك كما قال أصحاب موسى لموسى: اذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إنّا هٰهُنا قاعدون، ولكنَّا نُقَاتِلُ مِنْ بين يديك ومنْ خلفك وعن يمينك وعن شمالك.

قال ابن مسعود: فرأيتُ رسول الله ﷺ يشرق وجهه لذلك، وسرّه وأعجبه»[١]

وجاء في السيرة النبوية لابن هشام أنه:

«قال المقداد: يا رسُول الله. امضْ لما أراكَ اللّهُ، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنّا ههنا قاعدون. بل نقول لك: اذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلَا إنّا معكما مُقاتِلون. فوالذي بعثك بالحق، لو سِرت بنا إلى بَرْكِ الغِماد لجالدْنا معك من دونه حتى تَبْلُغه[٢]، ولنُقاتِلَنَّ عن يمينك، وعن يسارك، وبين يديك، ومِنْ خَلْفك حتى يَفْتَحُ الله لك»[٣].

وكان لكلمات المقداد تأثيرها البالغ في جموع المؤمنين، وفي ذلك قال خالد محمد خالد: «انطلقت الكلمات كالرصاص المقذوف، وتهلل وجه الرسول وأشرق فمه عن دعوة صالحة دعاها للمقداد وسَرَت في الجمع المؤمن الصالح حماسة الكلمات الفاصلة التي أطلقها المقداد بن عمرو والتي حددت بقوتها وإقناعها نوع القول لِمَنْ أراد قولاً وطراز الحديث لمن يريد حديثاً. . . لقد بلغت كلمات المقداد

(١) الاستيعاب ـ حديث عبد الله بن مسعود ـ ص٤٧٦.

(٢) جاء في هامش السيرة: «بَرْكِ الغِمَاد: موضع بناحية اليمن، ويقال هو: أقصى حِجر» وهو أقصى وادي حِجر بحضرموت التي بها عاش المقداد.

(٣) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٢ ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.

غايتها من أفئدة المؤمنين»[١] وكان أبو بكر قد تكلم فأحسن الكلام وكذلك عمر، فلما تكلم المقداد أذهل كلامه الألباب وحفظت كلماته كتب السيرة وصدور الصحابة وسُرّ رسول الله ﷺ لكلام المقداد، ودعا له خيراً. (ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليَّ أيها الناس) قال ابن هشام: ـ إنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس ـ «فقام سعد بن معاذ زعيم الأنصار وقال: كأنّك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجَلْ.

فقال سعد لقد آمَنَّا بك، وصَدَّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، فامْض يا رسُولَ الله لما أردْتَ فنحنُ معك، فوالذي بعثك بالحق لو اسْتَعْرَضْت بنا البحر فخُضْتَه لخضناه معك ما تَخَلَّفَ مِنّا رجلُ واحد؛ وما نكرهُ أن تلقي بنا عَدُونا غداً. . . إنّا لصُبُرُ في الحرب، صُدُقُ في اللّقاء، ولعل الله يُرِيكَ مِنَّا ما تَقَرُّ به عَيْنُكَ، فَسِرْ بنا على بركة الله. فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونَشَّطَهُ ذلك، ثم قال: سِيروا وأَبْشِرُوا»[٢].

ولقد كانت كلمات المقداد بن عمرو ـ سليل حمير بن سباء ـ وسعد بن معاذ ـ سليل كهلان بن سباء ـ تَنْبَعُ من مشكاة يمانية إيمانية واحدة، فانطلق الصحابة بقيادة رسول الله ﷺ إلى بدر.

* * *

أولُ فارس من الصحابة (في موقعة بدر)

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة في ١٢ رمضان ٢هـ وكانت موقعة بدر في ١٧ رمضان ٢هـ وكان جيش رسول الله ﷺ في موقعة بدر ثلاثمائة وخمسة من الصحابة ولم يكن بينهم على فرس غير المقداد، فكان المقداد أول فارس من الصحابة، وفي ذلك قال ابن حجر العسقلاني.

«كان المقداد فارساً يوم بدر، حتى أنه لم يثبت أنه كان فيها على فرس غيره.
وذكر البغوي من طريق أبي بكر عن عياش عن عاصم عن زرّ قال:
أول من قاتل على فرس في سبيل الله المقداد.
وقد شهد المقداد بدراً على فرس له يقال لها سبحة»[٣]. وقيل: فرس المقداد يقال لها (بعرجة)[٣] وقال خالد محمد خالد: «كان فرسان المسلمين يوم

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص١٨٥.
(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٢ ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.
(٣) الإصابة ـ ترجمة المقداد ـ ص٤٥٤ ـ عيون الأثر ـ موقعة بدر ـ جـ١ ص٣٤٠.

بدر ثلاثة لا غير: المقداد بن عمرو، ومرثد بن أبي مرثد، والزبير بن العوام، بينما كان بقية المجاهدين مشاة، أو راكبين إبلاً». ولكن كما ذكر العسقلاني: لم يثبت أنه كان في موقعة بدر على فرس غير المقداد بن عمرو، ولذلك قد يكون خبر مرثد بن أبي مرثد والزبير بن العوام في موقعة بدر الثانية ـ في شعبان ٤ هجرية ـ وليس في موقعة بدر الكبرى الأولى ـ في ١٧ رمضان ٢هـ ـ حيث لم يكن من المسلمين على فرس غير المقداد، وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله.

أما الإبل فكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين بعيراً، وقد خرجوا إلى بدر وهم كل ثلاثة على بعير، والبقية مشاة، وكان جميع المسلمين في موقعة بدر ثلاثمائة وخمسة من الصحابة، وفي ذلك قال ابن إسحاق وابن هشام وابن سيد الناس: «خرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة رجل وخمسة نفر كان المهاجرون منهم أربعة وستون رجلاً، وسائرهم من الأنصار» وبذلك فإن الغالبية العظمى من جيش وأصحاب رسول الله ﷺ في موقعة بدر كانوا من اليمانيين، إذْ إنَّه:

ـ كان عدد الأوس والخزرج اليمانيين وَهُمْ الأنصار: مائتان وواحد وأربعين صحابياً، مِنْ الأوس ٧٤ ومن الخزرج ١٦٧.

ـ وكان زهاء ثلث المهاجرين من اليمانيين، ومنهم: المقداد بن عمرو البهراني، وزيد بن حارثة الكلبي، وعمار بن ياسر العنسي، وأبو مخشى سويد بن مخشي الطائي، وحاطب بن عمرو أبي بلتعة بن راشد بن معاذ اللخمي، وذو الشمالين عمير بن عبد عمرو بن نضلة بن غبشان الخزاعي، وعبد الله بن طارق البلوي، وأبو بردة هانئ بن نيار البلوي، والنعمان بن عَصَر بن عبيد البلوي، وأبو عقيل عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة البلوي، وأبو عدي بن أبي الزغباء الجهني، وسواد بن غزية بن وهب البلوي القضاعي الحميري وهو الذي أسر خالداً والعاصي والحارث إخوة أبي جهل بن هشام. والمجذر بن زياد البلوي، وعبدة بن الحسحاس، وبحاث بن ثعلبة، وأخوه عبد الله بن ثعلبة البلوي، وعتبة بن ربيعة بن خالد بن معاوية من بني بهراء أخي بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، وعمرو بن إياس بن زيد بن جشم من أهل اليمن، وعقبة بن عامر الجهني، فهؤلاء تسعة عشر من اليمانيين المهاجرين الذين شهدوا بدراً، وقد تتوجت موقعة بدر بالنصر المبين في ١٧ رمضان ٢هـ.

ما بين موقعة بدر وغزوة تبوك

وقد شهد المقداد سائر المشاهد والغزوات بعد موقعة بدر مع رسول الله ﷺ،

ولم تكن تُسمع في المدينة فزعة، إلا ويكون المقداد في مثل لمح البصر واقفاً على باب رسول الله ﷺ ممتطياً صهوة فرسه أو ممتشقاً حسامه.

وذات مرة (أغار عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر الفزاري في خيل من غطفان، على لقاح رسول الله ﷺ بالغابة، وفيها رجل من بني غفار وامرأة له، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح، وكان أول من نذرهم بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع ـ فعاد سلمة إلى المدينة وأبلغ الناس بالغارة، (وبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع، فصرخ في المدينة: الفزع الفزع، فكان أول من انتهى إلى رسول الله ﷺ من الفرسان المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر، وسعد بن زيد الأنصاري، وأسيد بن ظهير، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضالة، وأبو قتادة، وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت أخو بني زريق، فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ، أمَّرَ عليهم سعد بن زيد، ثم قال: اخرج في طلب القوم حتى ألحقك بالناس)[1] فخرجوا ولحقوا بالعدو ثم خرج رسول الله ﷺ في الناس، فغزا العدو في (ذي قَرَد: فكان ذلك سبب غزوة ذي قَرَد، ويقال لها غزوة الغابة، وكانت في ربيع الأول سنة ست من الهجرة[1].

وفي تلك الغزوة، أو غيرها، بعث رسول الله ﷺ المقداد بن عمرو في سرية من الصحابة، فأصاب بني اللقيطة، قال ابن سعد: (والثبت عندنا أن سعد بن زيد أمير هذه السرية، ولكن الناس نسبوها للمقداد لقول حسان بن ثابت:

وَلَسَرَّ أولاد اللقيطة أنّنا سِلْمٌ غداة فوارس المِقْداد)[1]

ويمكن أن يكون سعد بن زيد أمير السرية والمقداد بن عمرو قائد الفرسان ولذلك قال حسان بن ثابت:

(غداة فوارس المِقْدادِ)

وشهد المقداد مع رسول الله ﷺ غزوة الحديبية ـ في ذي القعدة ٦هـ ـ وغزوة خيبر ـ في صفر ٧هـ ـ والتي صادفت وصول سبعمائة مؤمن من أهل اليمن أخذوا أماكنهم في صفوف المهاجرين والأنصار بالمدينة المنورة، فكان المقداد وإياهم وسائر من بالمدينة مع الأنصار في جيش رسول الله ﷺ يوم فتح مكة ـ في رمضان ٨هـ ـ كما شهد المقداد ما بعد فتح مكة من المشاهد مع رسول الله ﷺ وسار معه إلى تبوك في رجب ٩ هجرية.

* * *

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ جـ٢ ص١١٤ و١١٨.

وجاء في ترجمة (معبد بن المقداد) بكتاب الإصابة، أنه: «بعث رسول الله ﷺ سَرِيّة، أمَّرَ عليها المقداد، فلما رجع قال له النبي ﷺ: كيف رأيت الإمارة يا أبا معبد؟ قال: خرجتُ يا رسول الله وأنا كأحدهم ورجعتُ وأنا أراهم دوني - أو كالعبيد لي - فقال النبي ﷺ: «**كذلك الإمارة يا أبا معبد إلَّا مَنْ وقاهُ اللّهُ شرها**» فقال المقداد: والذي بعثك بالحق لا أتأمّرَنَ على رجلين».

وقال خالد محمد خالد أن المقداد: «ولاه رسول الله ﷺ إحدى الإمارات يوماً، فلما رجع سأله النبي: كيفَ وجدتَ الإمارة؟ فأجاب المقداد في صدق عظيم: لقد جعلتني أنظُرُ إلى نفسي كما لو كنتُ فوق الناس، وهم جميعاً دوني، والذي بعثك بالحق، لا أتأمَّرَنَ على اثنين بعد اليوم، أبداً». ونرى أن المقصود أن لا يتأمر على أحد في غير الجهاد.

* * *

قدوم وفد بهراء إلى رسول الله ﷺ

ولقد كان للمقداد علاقة وروابط وثيقة بعشريته وقبيلته في منطقة صعدة باليمن، وهي قبيلة، بهراء وكذلك قبيلة بَلِيّ وخولان بمنطقة صعدة وسراة أعالي اليمن، وكان للمقداد إسهامه في انتشار الإسلام بينهم، ولما قدم وفدُ بهراء إلى رسول الله ﷺ كان وصولهم إلى المقداد، ونزلوا عنده. فقد جاء في عيون الأثر: «عن كريمة بنت المقداد عن أُمِّهَا ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قالت: قَدِمَ وفد بهراء من اليمن وهم ثلاثة عشر رجلاً، فأقبلوا يقودون رواحلهم حتى انتهوا إلى باب المقداد، ونحن في منزلنا ببني حديلة، فخرج إليهم المقداد فرَّحب بهم، وأنزلهم، وجاءهم، بجفنة من حيس كنّا قد هيأناها قبل أن يَحِلّوا[(١)] فحمل أبو معبد المقداد إليهم الطعام، فأكلوا منها حتى نهلوا، وكان ما يزال من تلك الأكلة بقية، فجعلناها في قصعة صغيرة، ثم بعثنا بها إلى رسول الله ﷺ مع سدرة مولاتي، فوجدته في بيت أم سلمة، فقال رسول الله ﷺ: ضباعةُ أرسلت بهذا؟ قالت سدرة: نعم يا رسول الله، قال: ضَعِي. ثم قال: ما فعل ضيف أبي معبد؟ قالت: عندنا. فأكل رسول الله ﷺ ومَنْ معه في البيت حتى نهلوا وأكلت معهم سدرة، ثم قال: اذهبي بما بقي إلى ضيفكم. فرجعت سدرة بما بقي في القصعة، فأكل منها الضيفُ ما أقاموا (أي طيلة مدة إقامتهم بالمدينة) نرددها عليهم وما تغيض، حتى جعل الضيف يقولون: يا أبا معبد إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا،

---

(١) الحيس: الطعام المصنوع من التمر والأقط والسمن.

وما كُنّا نقدر على مثل هذا إلا في الحين ـ أي أحياناً ـ وقد ذُكِرَ لنا أن مدينتكم قليلة الطعام إنما هو العلقُ أو نحوه، ونحن عندك في الشمع ـ أو الشبع[١] ـ فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله ﷺ أنه أكل منها أكلاً، وردّها، فهذه بركة أصابع رسول الله، فجعلوا يقولون: نشهد أنه رسول الله، وأقاموا أياماً، وتعلموا الفرائض، وقد صحبوا رسول الله ﷺ ثم جاؤوا رسول الله ﷺ فودعوه، وأمر لهم بجوائز، ثم انصرفوا إلى أهليهم باليمن»[٢].

وقَدَم آنذاك إلى رسول الله ﷺ وفد بَلِيّ ـ في ربيع أول ٩هـ ـ فنزلوا عند رويفع بن ثابت البلوي، وقدم بهم رويفع على رسول الله ﷺ فقال: هؤلاء قومي. فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بك وبقومك، وقال لهم: الحمد لله الذي هداكم إلى الإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار»[٢].

* * *

ولم يزل المقداد من نجباء ووزراء ورفقاء رسول الله ﷺ وكان حافظاً قارئاً لكتاب الله تعالى، وذكر ابن عبد البر القرطبي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (إن النبي ﷺ سمع رجلُ يقرأ ويرفع صوته بالقرآن فقال: أواب، وسمع آخر يرفع صوته فقال: مراء، فنُظِرَ فإذا الأول المقداد بن عمرو)[٣].

وقال رسول الله ﷺ للمقداد: «**إن الله أمرني بُحبِّك، وأنبأني بأنه يُحبُّك**»[٣] فكان المقداد حبيب الله وحبيب رسول الله ﷺ إلى أن انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

* * *

المقداد في فتوح الشام والجزيرة الفراتية

وكان المقداد من كبار الصحابة الذين شهدوا موقعة اليرموك وفتوح الشام، وقد ذكر الطبري أمراء الكراديس الصحابة في موقعة اليرموك وقال: «وكان القارئ المقداد، ومِنْ السُّنّة التي سنّ رسول الله ﷺ بعد بدر، أن يقرأ سورة الجهاد عند اللقاء وهي سورة الأنفال، ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك»[٤] وبقراءة المقداد لسورة الجهاد في موقعة اليرموك ثم في موقعة نهر اليرموك أجنادين الثانية ـ في

(١) العلق: جمع علقة، وهي ما يتبلغ به من العيش.
(٢) عيون الأثر ـ جـ١ ص٣٢٠.
(٣) الاستيعاب ـ ص٤٧٦ ـ رجال حول الرسول ـ ص١٩١.
(٤) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٣٤.

رجب ١٥هـ ـ انطلق المقداد مع فرسان الإسلام يجاهدون الروم فتم النصر والفتح المبين في اليرموك وأجنادين الثانية.

ثم كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: (أعقد عقداً لعياض بن غنم الأشعري وجهز معه جيشاً إلى أرض ربيعة وديار بكر. وكتب كتاباً آخر إلى عياض بن غنم بالولاية والمسير إلى أرض ربيعة الفرس وديار بكر، وبعث بالكتابين مع ساعدة بن قيس المرادي فسار إلى أن ورد على أبي عبيدة في طبرية، فسلم إليه كتاب عمر وسلم الكتاب الثاني لعياض بن غنم الأشعري، فعقد أبو عبيدة لعياض على ثمانية آلاف، منهم ألف صحابي بينهم خالد بن الوليد، وطلحة، والمقداد، وعمار بن ياسر، فسار عياض بالجيش من طبرية في شوال من تلك السنة، ففتحوا (الرقة) صلحاً»[١]. ومضى ذلك الجيش إلى أرجاء مدن ومناطق الجزيرة الفراتية بقيادة عياض بن غنم الأشعري ومعه المقداد، وخالد، وعمار بن ياسر، وقيس بن مكشوح المرادي، وغيرهم من الصحابة، ففتحوا القلعتين (زبا) و(زلوبيا) ثم فتحوا (قرقيسياء) ومدائن (الخابور) وقلعة (ماردين) وصولاً إلى فتح (رأس العين) في ربيع الأول سنة ١٧هـ وافتتاح (ميافارقين) و(آمد) في جمادى الأولى ١٨هـ قال الواقدي: (ثم ارتحل عياض إلى الحصون وأهل جبل الجودي والسيوان وذي الفرض، ففتحوها صلحاً، حتى نزلوا على قلعة (الهتاج) وكان صاحبها (يانوس بن كليوس) وكان جباراً عنيداً ـ من بطارقة الروم ـ فقال عياض: اعزموا على بركة الله، فنهض خالد والمقداد وعمار وسعيد بن زيد وعمرو بن معدي كرب والمسيب بن نجبة وقيس بن هبيرة المكشوح، وساروا إلى القلعة[١] فتم فتحها بعد قتال شديد، وافتتحوا ما بعدها حتى دخلوا أرض أرمينية فتم فتح أرض (أرزن) وأرض (أخلاط) واكتملت فتوح الجزيرة الفراتية وما يليها من أرمينية بقيادة عياض بن غنم الأشعري سنة ١٩هـ وعاد المقداد إلى الشام.

***

معالم الدور الكبير للمقداد في فتوح مصر

وقد كان للمقداد في فتوح مصر دور كبير، قال القرطبي في الاستيعاب: (شهد المقداد فتح مصر) قال البلاذري: (كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص إلى مصر.. وكان مسير عمرو بالمسلمين إلى مصر في سنة ١٩هـ فنزل العريش ثم أتى الفرماء) فشاور أمير الشام من معه من الصحابة،

---

(١) فتوح الشام ـ الواقدي ـ جـ٢ ص٥٩ و١١٣.

فقيل له: كم جهدك أن تُرسل؟ قال: أربعة آلاف فارس. فقيل له: فابعث أربعة من المسلمين فهم مقام أربعة آلاف فارس. فقال: مَنْ الأربعة؟ قالوا؛ خالد بن الوليد، والمقداد، وعمار بن ياسر، ومالك بن الحرث النخعي، فدعاهم وأعلمهم بما عزم عليه، فقالوا: سمعاً وطاعة، ومضوا يريدون مصر، فلما قربوا من عقبة أيلة، إذا هم بمطايا وخيل عليها زهاء ألف فارس من طيئ وغيرهم قد وجههم عمر بن الخطاب إلى مصر مع رفاعة بن قيس وبشار بن عون، فلما رأوهم سلموا عليهم، واستبشروا بالنصر لما رأوا خالداً وعماراً والمقداد ومالكاً، وارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير، وساروا جميعاً»، فكان لقدومهم، ولجهادهم مع بقية المسلمين بقيادة عمرو بن العاص دوراً حاسماً في فتح مدينة مصر ـ وهي قلعة بابليون ـ ثم مدينة مريوط، وذلك سنة ٢٠هـ ثم افتتح المسلمون الإسكندرية ـ سنة ٢١هـ ـ قال البلاذري: (فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بالفتح مع معاوية بن حُديج الكندي ثم السكوني وبعث إليه معه بالخُمس)(١).

فَتْحَ المقداد لمدينة دمياط

ثم (بعث عمرو بن العاص المقداد ومعه أربعون فارساً منْ الصحابة، وأمرهم بالمسير إلى دمياط، وأمَّرَ عليهم المقداد، فساروا إلى دمياط، وكان أميرها البامرك خال الملك المقوقس، وكان قد حَصَّن البلد وجمع فيها آلة الحصار من الزاد وغيره، فلما أشرف عليه الصحابة ونظر إلى قلّتهم وقال: إن قوماً ينفذون إلينا منهم أربعين ليملكوا بلادنا إنهم لفي عجز أو قلة عقل، وكان ولده الأكبر فارساً مشهوراً في جميع بلاد النيل، واسمه هرير بن البامرك، فخرج إلى الصحابة وهو لابسُ لأمة حربه وطلب البراز، فبرز له ضرار بن الأزور ـ الكندي ـ وحمل عليه فطعنه فقتله، وحمل المسلمون على عسكر دمياط فالجأوهم إلى داخل البلد، ثم إن البامرك اجتمع بأرباب دولته وقد صعب عليه قتل ولده، وكان عندهم حكيمُ عالمُ اسمه الديرجان، فاستشاروه في الأمر، فأشار عليهم بمصالحة العرب على أداء الجزية، فلما سمع البامرك ذلك من الحكيم أمر بضرب عنقه، فنطق الحكيم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فلما سمع البامرك كلامه قتله، وأمر بالتأهب للحرب). وكان للحكيم ابن ورث فضائل أبيه، وكانت داره ملاصقة للسور، فلما كان الليل نقب نقباً واسعاً وخرج منه وقصد الصحابة، فلما رأوه قالوا له: من أنت؟ قال: إن أبي قد قُتِل من أجلكم وقد نقبتُ نقباً وخرجت منه فقوموا وادخلوا

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٢٢.

المدينة، فقال له ضرار: ويلك، إن الذي بعثك بهذه الحيلة أراد قتلك. فقال له المقداد: تمهل يا ضرار وفقك الله إلى الخير. قال الإمام الواقدي: (ثم قال المقداد: إني رأيتُ رسول الله في المنام وهو يشير إلى شخص بين يديه وكأنَّمَا أتأمل هذا الغلام فرأيته على ما هو عليه الآن وكان على وسطه مَنْطَقَةُ من الأديم ـ أي الجلد ـ وفيها حلقُ فضه وهي تحت ثوبه، ثم أن المقداد قال: يا غلام اكشف عن ثوبك، فكشف عن ثوبه، وأن المنطقة بعينها، فقال ـ ابن الحكيم ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقام المسلمون فصافحوه).

ثم مضى بهم ابن الحكيم إلى أن دخل بهم النقب فوسعوه بأيديهم فدخلوا جميعاً، قال ابن إسحاق: (وكان للحكيم بنو عم ثمانون رجلاً فطاف عليهم ابن الحكيم في الليل وأخبرهم بما فعل، فأقبلوا معه وأسلموا عن آخرهم)، فلما كان الغد خرجوا إلى الأبواب فامسكوها وخرج الصحابة ورفعوا أصواتهم بالتكبير، فلما نظر إليهم أهل البلد علموا أنهم قد ملكوها وأن الذي فعل ذلك بنو عم الديرجان الحكيم، فوقف الملك ينظر إلى ما فعله الصحابة وبنو عم الديرجان وشَعَر أنهم أخذوا أبواب وسور المدينة. وكان للملك البامرك ابن عاقل لبيب ـ من تلاميذ الحكيم الديرجان ـ اسمه شطا، فقال ظهر الحق وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وحرك جواده وقال: مَنْ أحبني مِنْ رجالي وغلماني فليتبعني، فتبعه زهاء ألف رجل ولحقوا بالمقداد والصحابة والقوا بسلاحهم وأسلموا. وعندئذٍ بعث المقداد إلى الملك البامرك يدعوه إلى الإسلام، فلما نظر البامرك ما فعل ولده شطا قال: ما فعل ولدي شطا ذلك إلا وقد عرف الحق، فأسلم ولحق بولده، فلما نظر أرباب دولته ذلك قالوا: إذا كان الملك وولده قد أسلما فما وقوفنا نحن فأسلموا جميعاً على أيدي المقداد ومن معه من الصحابة. قال الإمام الواقدي: (وفتح المقداد النقب الذي دخلوا منه وأمر ببنائه باباً فسماه باب اليتيم وهو ابن الحكيم، وترك المقداد عندهم رجلاً من الصحابة يعلمهم شرائع الإسلام وهو يزيد بن عامر رضي الله عنه، ورجع المقداد وأصحابه إلى اسكندرية، وحدثوا عَمْراً بما فتح الله عليهم)[١].

وكان بالقرب من دمياط جزيرة يقال لها جزيرة تنيس فتم فتحها بعد دمياط، وأسلم بعض أهلها، وتم وضع الجزية على من لم يسلم، وبنى المسلمون جامعاً في تنيس، وبنوا في جميع الجزائر جوامع.

---

(١) فتوح الشام ـ الواقدي ـ جـ٢ ص٥٢ و٥٤ و٥٩.

فتح المقداد القلعة الفرماء

وبعث عمرو بن العاص هلالاً بن أوس لفتح القلعة المسماة (الفرماء) وهي على جانب بحيرة تنيس مما يلي شرقها، وفيها قومُ وعليهم الصامت بن مرة بن آل مرداس، فسار إليها هلال بن أوس في جماعة من المسلمين، فأمر الصامت بن مرة أصحابه أن يرموهم بالسهام وكان بها ألف رجل فرموا ألف سهم، فلم يقدر عليها هلال بن أوس، فبعث إلى عمرو بن العاص يخبره بما وقع ويستنجده، (فأرسل إليه عمرو: المقداد في خمسمائة من عسكر الإسلام، وأرسل معه ثلاثة آلاف ممن أسلم من القبط، فلما نزل المقداد على الفرماء تأهب أهلها للقتال، فنزل بالصامت بن مرة ما نزل به، فعلم أنه بيد القوم لأنه ليس له ناصر ولا مُعين، فصالح المقداد على أن يؤدي للمسلمين أربعة آلاف مثقال من الذهب وأربعمائة ناقة وألف رأس من غنم، وأن يمهلوه إلى تمام السنة فإن شاء دان إلى الإسلام وإلا ارتحل بأمانه، فأجابه المقداد إلى ذلك)[١] وبذلك تم فتح الفرماء صلحاً على يد المقداد بعد فتح الإسكندرية ودمياط ـ سنة ٢١هـ ـ وقد ذكر البلاذري أن فتح العريش والفرماء كان قبل فتح مدينة مصر ـ قلعة بابليون ـ سنة ٢٠هـ ـ فالظاهر أن المسلمين مرّوا بالفرماء آنذاك ولم يقاتلوها، فلما تم فتح دمياط وجزيرة تنيس ومنها سار المسلمون إلى الفرماء فافتتحها المقداد سنة ٢١هـ، وقيل في رمضان سنة ٢٠ هجرية.

فتح البقارة والواردة والعريش

وذكر الواقدي أن المقداد وهلال بن أوس سارا بجيشهما من الفرماء إلى البقارة، قال الواقدي: (فنزلوا على البقارة وكان عليها الباقر بن الأشرف، فأسلم هو ومن معه، ومضوا إلى القصر المشيد ففتحوه صلحاً، ثم ارتحلوا إلى الواردة فسلمها أهلها، وارتحلوا إلى العريش فصالحهم أهلها)[١] والأصواب أن فتح البقارة والواردة والعريش كان في بداية فتح مصر ـ سنة ٢٠هـ ـ وقد «كان يسكن البقارة والواردة والعريش بنو راشدة من لَخْم، مخالطين لبني بياضة من جُذام»[٢] فبعث إليهم عمرو بن العاص جيشاً بمعية المقداد وهلال بن أوس، فنزلوا على البقارة، فأسلم الباقر بن الأشرف اللخمي هو ومن معه، وكذلك أهل الواردة، واستجاب أهل العريش إلى المصالحة فصالحهم المقداد، ثم عاد المقداد والذين معه إلى الجيش الأسلامي بقيادة عمرو بن العاص، وشهد فتح مدينة مصر ـ بابليون ـ

(١) فتوح الشام ـ الواقدي ـ جـ٢ ص٥٢ و٥٤ و٥٩.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣٨.

واختطاط الفسطاط ـ سنة ٢٠هـ ـ ثمّ تلى ذلك فتح الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرماء والوجه البحري سنة ٢١هـ.

***

فتوح البهنساء وصعيد مصر

ثم أتى كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بتوجيه الجيوش لفتح البهنساء وأهناس والصعيد، فاستدعى عمرو الأمراء والقادة الصحابة، فاجتمعوا إليه بالفسطاط (وذلك في ربيع الأول سنة ٢١هـ وقيل سنة ٢٢هـ) وهو الأصوب ـ فقراء عليهم كتاب أمير المؤمنين، فاتفقوا على اجتماع الجيوش بالجيزة، فتكاملت الجيوش في ربيع الثاني فكانت عدتهم ستة عشر ألفاً، فانتدب منهم عشرة آلاف فارس لفتح البهنساء وأهناس وصعيد مصر، وعقد عمرو الألوية لعشرين صحابياً أميراً، كلُ منهم على خمسمائة فارس، فكان من الأمراء العشرين خالد بن الوليد، المقداد بن عمرو، عمار بن ياسر، الفضل بن العباس، عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، أبو دجانة الأنصاري، الزبير بن العوام، عبد الله بن عمر بن الخطاب، عقبة بن عامر الجهني، ذو الكلاع الحميري، عدي بن حاتم الطائي، مالك الاشتر النخعي، جابر بن عبد الله الأنصاري، المغيرة بن شعبة، أبو ذر الغفاري، غانم بن عياض الأشعري، شرحبيل الكندي، والمسيب بن نجبة، وقيس بن هبيرة المكشوح المرادي، ومعهم المئات من الصحابة، فمضوا بالجيوش وتفرقوا في أرجاء بلاد البهنساء والصعيد، فكانت فتوح البهنساء وصعيد مصر وجهاتها أصعب فتوح مصر وأشدها جهاداً، وكان البطليوس أمير البهنساء من أعظم البطارقة الروم ومعه جيش من الروم والصعيد والنوبة والسودان، وتقاتل المسلمون مع جيشه فترة طويلة، وفي إحدى المعارك: «طلب بطليوس المبارزة، فبرز له المقداد، فتعاركا وتجاولا وتطاعنا، قال المقداد: قاتلتُ ملوكاً وفتحت قلاعاً ولاقيت حروباً في الجاهلية والإسلام فلم أر أخدع من البطليوس ولا أشد بأساً ولا أصعب مراساً منه. فتقاتلنا حتى كلّ الجوادان، والتفت إليّ وقال: ما أجراء فرسك كيف تقاتل عليه وهو بثلاثة أرجل، قال المقداد: فمن شفقتي على فرسي طأطأت رأسي أنظر إلى قوائمه، فضربني البطليوس ضربة قوية قطعت الخوذة وأثرت قليلاً في رأسي، ولوي عنان فرسه» فتتبعه المقداد، فلم يلحق به، ولحق بطليوس بجيشه، فحمل المسلمون فتقاتلوا قتالاً شديداً، فقتلوا الكثير من جنود البطليوس واستشهد المئات من المسلمين، وكان من الشهداء في تلك المعارك عبد الله بن المقداد، فقال صديق له من أبناء الصحابة هو زياد بن المغيرة:

يا عين جودي بفيض الدمع منك دماً (ولْتَنْدُبي) فارساً قد كان ضرغاما

السيدُ الفردُ عبدُ الله قد حكمتْ به المنايا وحكم الله قد داما
نَجْلُ (الفتى) العَلَمُ المقداد، خير فتى قد كان في ملتقى الأعداء هجاما

وحاصر المسلمون مدينة البهنساء تسعة أشهر، وسط معارك شديدة، ثم تسلق السور أربعون من المسلمين فدخلوا وفتحوا الباب، فاندفع المسلمون إلى الباب، فكان من أوائل الداخلين ضرار بن الأزور، والمقداد، وذو الكلاع الحميري، والزبير بن العوام، والفضل بن العباس، وشرحبيل الكندي، ومالك الأشتر، وعبادة بن الصامت، وأبو هريرة، وقيس بن المكشوح، وعبد الرحمن بن أبي بكر، والنعمان بن بشير، وتدفق الفرسان يتلو بعضهم بعضاً، ودخلوا المدينة فقاتلوا الروم أشد قتال، واقتتلوا في الأزقة والشوارع وبين الأبواب، فنصر الله المسلمين، وقُتِل البطليوس في نحو ثلاثين ألفاً من الروم واتباعهم، وأُسر منهم عشرون ألفاً، فتم فتح البهنساء، وذلك في آخر خلافة عمر بن الخطاب.

ثم سار الصحابة إلى صعيد مصر، ففتحوها مدينة بعد مدينة إلى آخر الصعيد وبلاد النوبة، وكان المقداد بن عمرو وعقبة بن عامر الجهني القضاعي ومعاوية بن حديج السكوني من الأمراء القادة الذين ساهموا في الفتح وفي تأسيس العصر العربي الإسلامي بالصعيد وجنوب مصر حيث استقر المجاهدون من قبيلة بهراء وبلِيْ ـ الذين كانوا مع المقداد ـ في صعيد مصر، وجاء في كتاب الجامع: أن قبيلة بهراء سكنوا إبان فتح مصر في صعيد مصر إلى كسلاء بالسودان والاريتريا ومناطق الدناكل بالحبشة [ص١١٤] فساهموا في تأسيس عصر الإسلام في تلك الأرجاء الشاسعة.

وفاة المقداد رضي الله عنه

وعاد المقداد من مصر فسكن في أرض له بالجُرف بضواحي المدينة، فمات في أرضه بالجُرف، وهو ابن سبعين سنة، فحُمل جثمانه الطاهر من الجُرف إلى المدينة وصلى عليه الخليفة عثمان بن عفان والناس بالمسجد النبوي، ودُفن بالمدينة المنورة، وللمقداد ٤٨ حديثاً في كتب السنن والأحاديث النبوية، وكانت وفاة المقداد سنة ٣٣هـ/ ٦٥٣م فعليه رحمة ورضوان الله تعالى.

١١

عَمَّار بن يَاسِر العَنْسِي

ـ عملاق مذحج وأمير ولاية الكوفة ـ

مِنْ كبار الصحابة ومِنْ أسبق السابقين إلى الإسلام هو عمار بن ياسر العنسي الذي كان عملاقاً في مواقفه، وعملاقاً في جسمه، فقد وصفته كتب تراجم الصحابة بقولها:

«كان عمار بن ياسر: طويلاً، أشْهَلْ، بعيدُ ما بين المنكبين[١]».

ووصفه الرواة فقالوا:

«كان عمار طويلاً، أشْهَل، رَحْب ما بين المنكبين»[٢].

وكان ذلك الجسم العملاق من سِماتِ بعض عشائر وقبائل مذحج باليمن في الجاهلية، ومنهم بنو عبد المدان بن الديان، وفيهم قال حسان بن ثابت:

وقد كُنّا نقولُ إذا رأينا ... لذي جسم يُعَدُّ وذي بيانِ

كأنّك أيُّها المُعْطَىٰ بياناً ... وجسماً من بني عبد المدانِ

وكان بنو عبد المدان بن الديان من أقيال مذحج، وفيهم قال الشاعر:

والبيتُ، بيت بني الديان نعرفه ... في آل مذحج مثل الجوهر الغالي[٣]

وكانت قبيلة بني الحرث بن كعب المذحجية مشهورة بطول أجسام رجالها، فكانوا كأنّهم سيوف ورماح الهند، ولما قدم وفد بني الحرث بن كعب إلى رسول الله ﷺ بيثرب، تقدموا إلى رسول الله ﷺ فلما رآهم قادمين نحوه، قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ هؤلاء الذين كأنّهم رجال الهند؟ فقيل له: يا رسول الله هؤلاء بني الحرث بن كعب»**[٤] وكان منهم ابن أنس الحارثي القائل:

ونحنُ بحمد الله هامة مذحجِ ... بنو الحرث الخير الذين هُموا مَدَرْ[٥]

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ص٤٧٧.

(٢) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٢٦٦.

(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٧١.

(٤) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٦٤.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٣٨٧.

فالجسم الطُوال العملاق لعمار بن ياسر كان من سِمات بني عبد المدان بن الديان وبني الحرث بن كعب وغيرهم من عشائر وقبائل مذحج ومنهم العشيرة العنسية المذحجية التي كان منها ياسر بن عامر ـ أبو عمار ـ في منطقة عنس باليمن.

* * *

وياسر ـ أبو عمار ـ هو ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين بن الوديم، من بني ثعلبة بن عوف بن حارثة بن عامر بن عنس بن مذحج(١) ومذحج هو مالك مذحج بن أدد بن زيد بن عمرو ـ يشجب ـ بن عَريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان(٢).

ولقد سافر ياسر بن عامر مع أخوين له هما الحارث ومالك من منطقتهم بناحية عنس ـ بمحافظة ذمار حالياً ـ للبحث عن أخ لهم رابع، كان قد سار في نشاط تجاري إلى خارج اليمن (مثل البحرين أو الحيّرة بالعراق أو الشام أو مكة ويثرب) ومضت الفترة التي كان من المفترض أن يرجع فيها، ولكنه لم يرجع، فسافر إخوته الثلاثة للبحث عنه، فبحثوا في مكة وغيرها من المناطق، ويبدو أن البحث بدأ بمكة وانتهى بمكة، فلم يعثروا عن أي خبر عن أخيهم، فقرر ياسر البقاء في مكة، وعاد أخواه الحارث ومالك إلى اليمن، وفي ذلك جاء في كتاب الاستيعاب:

«إن ياسراً والد عمار، قدم مكة مع أخوين له، أحدهما يقال له الحرث والثاني مالك، في طلب أخ لهم رابع، فرجع الحرث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة».

وقد صاغ خالد محمد خالد ذلك النبأ قائلاً:

«خرج ياسر بن عامر، والد عمار، من بلده في اليمن يطلُبُ أخاً له، ويبحث عنه. وفي مكة طاب له المقام، فاستوطنها مُحالفاً أبا حذيفة» [ص٥٨].

وربما كان من أسباب إقامة ياسر بمكة أن يستقصي خبر أخيه لأن مكة يأتي إليها كثيرون للتجارة والحج في المواسم، ولأن أخاه إذا عاد سيأتي عن طريق مكة، فمكث ياسر بمكة، واشتغل بالتجارة، وتتابعت على ذلك السنون.

وقد حالف ياسر ـ منذ استقراره بمكة ـ أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي، إذْ إن كل من يقيم بمكة للتجارة وغيرها لا بد أن يحالف شخصية أو أسرة من مكة،

---

(١) الإصابة ـ ترجمة عمار بن ياسر ـ جـ٢ ص٥١٢.
(٢) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ١٠ ص٣١ ـ اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣١.

فتتوفر له بذلك الحماية لأن حليف القوم في الجاهلية يكون كأنّه منهم.

وتزوج ياسر بن عامر بمكة امرأة عربية هي سُمَيَّة بنت خياط، فأنجبت له عمار بن ياسر، وعبد الله بن ياسر، وكان ذلك في الجاهلية، فلما بعث الله محمداً ﷺ كان آل ياسر من السابقين إلى الإسلام، وقد سبقت ذلك واقعة مجهولة في الجاهلية، وهي سبب صيرورة آل ياسر موالي لأبي حذيفة المخزومي بينما هم حلفاء وليسوا موالي؟

لقد قدّم القرطبي محاولة لتفسير ذلك، فقد ذكر القرطبي محالفة ياسر لبني مخزوم وإن عمار بن ياسر حليف لبني مخزوم، ثم قال: «. . وقال الواقدي وطائفة من أهل العلم بالنسب والخبر: إن ياسراً والد عمار عربي قطحاني مذحجي من عنس في مذحج، إلا أن ابنه عماراً مولى لبني مخزوم لأن أباه ياسراً تزوج أَمَةً لبعض بني مخزوم فولدت له عماراً، فَمِنْ هنا هو ـ أي عمار ـ مولى لبني مخزوم»(١).

ولكن القول بأن سُميّة بنت خياط كانت أمة لبني مخزوم ـ أو لأبي حذيفة المخزومي ـ فتزوجها ياسر، لا يترتب عليه أن يكون عمار مولى لبني مخزوم، فلم يكن هناك مثل هذا الأمر في الجاهلية نهائياً، وإذا صح القول بأن سُمية كانت أمةُ لأبي حذيفة فلا بد أنّه أعتقها أو قبض ثمنها من ياسر ثم تزوج ياسر بها، فالزواج لا يمكن أن يفسر تلك النقطة المجهولة، ثم إن الولاء لم يقتصر على عمار وإنما شمل ياسر فتم تعذيب آل ياسر لأنهم موالي أبي حذيفة، فيما تقول الروايات.

لذلك نرى أن ذلك التحول من حلفاء إلى موالي ربما كان سببه ديون ربا تراكمت على ياسر لأبي حذيفة، وإن عدم رجوع الأخ الذي كان ينتظره ياسر بمكة، أو عدم قدرة ياسر على دفع الربا الذي تراكم وتضاعف عليه أضعافاً مضاعفة لأبي حذيفة يمكن أن يكون سبب تحول آل ياسر من حلفاء إلى موالي لأبي حذيفة المخزومي قُبيل البعثة النبوية، والله أعلم.

* * *

إيمان وتعذيب آل ياسر . . وعمار بن ياسر

لقد أعطى الله تعالى آل ياسر نعمة أن يكونوا مِنْ أوائل الصحابة ومِنْ أسبق السابقين إلى الإسلام، قال القرطبي: «لما جاء الله بالإسلام، أسلم ياسر، وابنه عمار، وسُميّة، وعبد الله أخو عمار بن ياسر، وكان إسلامهم قديماً في أول الإسلام»(٢).

---

(١) الاستيعاب ـ ص٤٧٦.

(٢) الاستيعاب ـ ص٦٧٧ ـ الإصابة ـ جـ٢ص٥١٢.

وكان عمار سابع سبعة رجال هم أول من جاهر بالإسلام وأعلنوه، قال العسقلاني: (كان عمار من السابقين الأولين هو وأبوه. قال عاصم عن زرّ عن عبد الله بن مسعود: أول من أظهر إسلامه سبعة منهم عمار بن ياسر. أخرجه ابن ماجه)[١].

ولما أخذ جمع المؤمنين في النمو والازدياد، أخذت قريش تتربص بالمؤمنين، وتؤذي رسول الله ﷺ والمؤمنين بأنواع الأذى، ولكن موقف قريش لم يقف عند الأذى بالنسبة للمُستضعفين فأخذت قريش في تعذيبهم أشد أنواع العذاب لكي يرجعوا عن الاسلام، وأسندت قريش إلى بني مخزوم تعذيب آل ياسر، فكانوا يخرجون بهم كل يوم إلى رمضاء مكة الملتهبة، ويصُبُّون عليهم من جحيم العذاب ألواناً وفنوناً، فكان صمود آل ياسر أعظم صمود، وكان رسول الله ﷺ يمُرّ عليهم ويقول: «**صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة**»، ولقد صبر آل ياسر أعظم ما يكون الصبر، وذات يوم خرج رسول الله ﷺ إلى آل ياسر برمضاء مكة، وكان العذاب قد اشتد عليهم، فقال عمار: «يا رسول الله، لقد بلغ منّا العذابُ كلَّ مبلغ. فناداه الرسول قائلاً: «**صبراً أبا اليقظان، صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة**»»[٢].

وذات يوم ـ في السنة الخامسة للهجرة ـ كان ياسر بن عامر العنسي وسُميّة أم عمار يُعذبان في رمضاء مكة الملتهبة، وكانت حرارة الشمس الشديدة كافية لتعذيبهما، فقد كان ياسر في نحو السبعين من عمره وكانت سُميّة قد جاوزت الستين، فماتت سُميّة شهيدة من التعذيب في ذلك اليوم الذي وصفه خالد بن محمد خالد قائلاً: «أن (سُميّة) الشهيدة وقفت يومذاك موقفاً يمنح البشرية كلها من أولها إلى آخرها شرفاً لا ينفَد، وكرامةً لا يَنْصل بهاؤُها. . موقفاً، جعل منها (أمّاً) عظيمة للمؤمنين في كل العصور، وللشرفاء في كل الأزمان».

وما أن ارتفعت روح سُميّة إلى السماء حتى لحقت بها روح ياسر بن عامر العنسي، فكان ياسر وسميّة أول شهيدين في الإسلام، إذْ إنه (مات ياسر وسميّة تحت عذاب المشركين بمكة في نحو السنة الخامسة من البعثة النبوية).

* * *

وكانت قريش قد أذهلها صمود وصبر عمار بن ياسر ـ عملاق مذحج ـ فضاعفت تعذيبه بأشد ألوان العذاب، قال عمرو بن الحكم: (كان عمار يُعذّب

---

(١) الاستيعاب ـ ص٦٧٧ ـ الإصابة ـ جـ٢ص٥١٢.

(٢) أبو اليقظان: هو عمار بن ياسر، كان عمار يُكنى أبو اليقظان.

حتى لا يدري ما يقول)، وقال عمرو بن ميمون: (أحرق المشركون عماراً بالنار، فكان رسول الله ﷺ يَمُرُّ به، ويُمِرُّ يده على رأسه ويقوله: يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار، كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم).

وتم تعذيب عمار بكل الأساليب الشيطانية، مِنْ الصلب على الرمضاء المستعرة، تحت الحجارة الملتهبة، إلى الحرق والكيّ بالنار، وأوحى إليهم الشيطانُ بأن يغطّوا عماراً في الماء حتى تختنق أنفاسُه وتتسلخ قُرُوحه وجُروحه، بينما أوحى الله عزّ وجلّ إلى رسوله بالآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. وهي الآية التي نزلت في عمار بن ياسر.

فذات يوم، عذب المشركون عماراً بالحرق والكيّ ثم غَطّوه في الماء حتى كان يفقد وعيه تحت ذلك الهول، وهم يقولون له: اذكر آلهتنا بخير، قل كذا، فأخذ يردد وراءهم القول في آلهتهم بما يشاؤون، فلما استعاد وعيَه وتذكَّر ما قاله أصابه شعور بالندم والإثم، فإذا برسول الله ﷺ قد أقبل إليه، فألفاه يبكي، فجعل يمسح دموعه بيده ويقول له: أخذكَ الكُفار فغطّوكَ في الماء، فَقُلْتَ كذا وكذا. قال عمار: نعم يا رسول الله. فقال له وهو يبتسم: إن عادوا، فقل لهم مثل قولك هذا، وتلا عليه الآية الكريمة التي أنزلها الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ فاسترد عمار سكينة نفسه.

قال القرطبي: (كان عمار ممن عُذب في الله، ثم أعطاهم ما أرادوا بلسانه واطمأن بالإيمان قلبه، فنزلت فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ وهذا ما أجمع عليه أهل التفسير). قال: (وروى سفيان عن قابوس ابن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس في قوله الله عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] قال هو عمار بن ياسر. ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] قال هو أبو جهل ابن هشام) [ص٤٧٨ الاستيعاب].

* * *

ولما أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة ـ في رجب ٥هـ ـ كان عمار بن ياسر من الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة، وفي ذلك قال القرطبي: (هاجر عمار إلى الحبشة، وصلى القبلتين) وقال العسقلاني: (اختلف في هجرته إلى الحبشة)، وكذلك جاء في عيون الأثر، والظاهر أن سبب الاختلاف هو عودته من الحبشة في وقت مبكر مع المقداد بن عمرو البهراني قبل الهجرة إلى يثرب بنحو سنتين، وربما كانت عودتهما مع آخرين إلى اليمن فمكثا فترة باليمن،

ثم عادا إلى رسول الله ﷺ فهاجرا مع رسول الله ﷺ والمهاجرين إلى مدينة الأوس والخزرج أنصار رسول الله عليه الصلاة والسلام.

* * *

هجرة عمار.. ومعالم سيرته بالمدينة

لقد كان عمار بن ياسر من كبار الصحابة المهاجرين، قال القرطبي في ترجمة عمار: (وهو من المهاجرين الأولين)، فاستقر عمار بالمدينة منذ مطلع الهجرة النبوية، وأثناء بناء المسجد النبوي بالمدينة المنورة ـ إثر استقرار النبي ﷺ فيها ـ كان عمار يعمل في بناء ناحية من المسجد، وكان أحد الصحابة قد ارتجز أنشودة، فأخذ عمار ينشدها أثناء العمل ويرفع صوته، وهي:

لا يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُر المساجدا
يدأبُ فيها قائماً وقاعدا
ومَنْ يُرَىٰ عن الغبار حائدا

فظن نفر من القاعدين أنّ عماراً يُعرِضُ بهم، فقام رجل من قريش فغاضب عماراً ببعض القول، فلما علم رسول الله ﷺ غضب وقال عليه الصلاة والسلام:

«ما لَهُمْ ولِعَمَّار، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار! إنَّ عَمَّاراً جِلْدَة ما بين عَيْنَيَّ وأنفي».

* * *

وكان عمار من وزراء ونجباء ورفقاء رسول الله ﷺ الذين ذكرهم قائلاً: «**لم يكن نبيٌّ إلا أعطي سبعة نجباء ووزراء ورفقاء، وإني أعطيت أربعة عشر**» فذكرهم النبي ﷺ وذكر أن منهم عمار بن ياسر[(١)].

قال القرطبي: (وقال رسول الله ﷺ: **«إن عماراً مُلِئ إيماناً إلى مُشاشِه»**. ويروى: إلى أخمص قدميه.. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما مِنْ أحدُ من أصحاب رسول الله ﷺ أشاء أن أقول فيه إلا قُلتُ، إلا عمار بن ياسر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: مُلئ عماراً إيماناً إلى أخمص قدميه)[(١)].

* * *

وكان عمار من أبطال الإسلام في موقعة بدر التي تكبدت فيها قريش أول هزيمة على يد المسلمين، وكان عدد المسلمين في موقعة بدر ثلثمائة وخمسة صحابياً، غالبيتهم من اليمانين.

---

(١) الاستيعاب ـ ص٤٧٣ و٤٧٩.

وقد ذكرنا في المبحث السابق عن المقداد ما جاء في عيون الأثر بأن من الثلثمائة وخمسة الذين شهدوا موقعة بدر: مائتان وواحد وأربعون من الأوس والخزرج اليمانيين أنصار رسول الله ﷺ.

وإن من بين المهاجرين الذين شهدوا بدراً وعددهم أربعة وستون كان زهاء الثلث من اليمانيين، وقد ذكرنا أسماء تسعة عشر من أولئك المهاجرين اليمانين، ونذكر هنا أن منهم أيضاً عبد الله بن سعد السلهمي المذحجي، وهو (عبد الله بن سعد بن جابر بن عمير بن بسيس بن عويمر بن الحارث بن كثير بن صدقة بن مظة بن سلهم السلهمي من مذحج) وجاء في ترجمته بالإصابة أنه: (سكن مكة وحالف قريشاً، وتزوج آمنة بنت عفان أخت عثمان بن عفان، فولدت له ابنه محمداً بالمدينة، وكانت تحته أخت أم سلمة زوج النبي ﷺ أيضاً)[١].

* * *

وشهد عمار ما بعد بدر من المشاهد، وفي ذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه: (شهد بدراً، وأُحداً، والخندق، وبيعة الرضوان)[٢] وكانت بيعة الرضوان في غزوة الحديبية ـ في ذي القعدة سنة ٦هـ ـ وقد أدى صلح الحديبية إلى تأمين الطريق إلى المدينة، فأخذت مواكب المؤمنين تتدفق إلى رسول الله ﷺ من اليمن ـ سنة ٧هـ ـ وتعاظمت شوكة الإسلام والمسلمين، فكان عمار في جيش رسول الله ﷺ يوم فتح مكة ـ في رمضان ٨هـ ـ حيث تتوجت التضحيات بذلك النصر والفتح المبين، ثم عاد عمار في موكب رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة.

* * *

ولم يزل عمار من نجباء ووزراء ورفقاء رسول الله ﷺ وكانت مكانته عند رسول الله ﷺ لا تزداد إلا عُلوّاً، حتى أن رسول الله ﷺ كان يغضب لغضب عمار ويغضب على من يحاول أن يسيء لعمار، فقد وقع ذات يوم سوء تفاهم عابر بين عمار بن ياسر وبين خالد بن الوليد المخزومي، وفي ذلك قال خالد: «كان بيني وبين عمار كلامُ فأغلظت له، فشكاني إلى النبي ﷺ، فجئتُ إليه، فرفع رسول الله ﷺ رأسه فقال:

«مَنْ عادىٰ عماراً عاداه اللّهُ، ومَنْ أبْغَضَ عماراً أبغضه الله».

قال خالد: فما زلتُ أحبه من يومئذ[٣].

---

(١) الإصابة ـ جـ٢ ص٣١٦.

(٢) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ ص٤٠٤.

(٣) الإصابة ـ ترجمة عمار ـ ص٥١٢ ـ الاستيعاب ـ ص٤٧٩.

وفي رجب ٩هـ شهد عمار غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ ولما رجع رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة المنورة، كان بانت]اره وفودُ من قبائل اليمن جاءوا وهو في تبوك، كما أخذت العديد من الوفود في الوصول إلى المدينة زرافات ووحداناً، وكان من بينهم وفد حاشد وبكيل بزعامة مالك بن نمط الأرحبي الهمداني، ووفد كندة وحضرموت بزعامة الأشعث بن قيس الكندي، ووفود بهراء، وحمير، وطيىء، وكان من القادمين شخصيات ورؤساء ووفود يمكن القول أن قدومهم كان محل اهتمام وارتياح عمار بن ياسر، وهم شخصيات ووفود مذحج، فقد كان الصحابة المهاجرين بالمدينة يبتهجون بِمن يقدم من قومهم، فعندما قدم وفد بهراء نزلوا عند المقداد، وعندما قدم وِفد بِليٍّ إصطحبهم رويفع بن ثابت البلوي إلى رسول الله ﷺ وقال له: هؤلاء قومي، فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بك وبقومك.

ولقد جاء في كتب الحديث وتراجم الصحابة أنه: «جاء عمار بن ياسر يستأذن على النبيّ يوماً، فعرف صوته، فقال النبي ﷺ: مَرْحباً بالطَّيب المُطيَّب، إئذنوا له»[١].

ولم تذكر المصادر مناسبة ذلك، وقد كانت المدينة مزدحمة في تلك الفترة بالوفود، وكان من القادمين رؤساء وشخصيات ووفود قبائل مذحج ـ قوم عمار ـ فقد وفد إلى رسول الله ﷺ فروة بن مُسيك المرادي في جماعة من فرسان مراد ومذحج، ووفد عمرو بن معدي كرب الزُبيدي في كوكبة من فرسان بني زُبيد من مذحج، ووفد قيس بن المكشوح المرادي في رجال من بني غُطيف من مذحج، ووفد من قبيلة عنس: (ربيعة بن رواء العنسي) قال العسقلاني: «. . قدم ربيعة بن رواء العنسي على النبي ﷺ فوجده يتعشى فدعاه إلى العشاء فأكل، فقال له النبي ﷺ قل: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فقالها، فقال النبي ﷺ: أراغباً أم راهباً؟ فقال: أما الرغبة فوالله ما هي في يديك وأما الرهبة فوالله أنّا لببلاد ما تبلغنا جيوشك. . وفيه قال النبي ﷺ: رُبّ خطيبُ مِنْ عنس. ومات ربيعة وهو راجع إلى بلاده»[٢] وكان آخر وفود مذحج وفد بني الحرث بن كعب، قدموا في جمادى الأولى سنة عشر فمكثوا إلى شوال، أو إلى صدر ذي القعدة، وعادوا إلى اليمن.

* * *

(١) رجال حول الرسول ـ ص٢٧٣ ـ الاستيعاب ـ ص٤٧٩.

(٢) الإصابة ـ ترجمة ربيعة العنسي ـ جـ١ ص٥٠٨.

وفي ذي الحجة سنة ١٠هـ شهد عمار حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، ولم يزل عمار من وزراء ورفقاء رسول الله ﷺ حتى انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى.

ولعمار بن ياسر اثنان وستون حديثاً نبوياً، رواها عمار عن رسول الله ﷺ، وروى عن عمار جماعة من الصحابة منهم أبو موسى الأشعري، وابن عباس، وعبد الله بن جعفر، وأبو لاس الخزاعي، وأبو الطفيل، وجماعة من التابعين.

وكان رسول الله ﷺ يقول: (اهْتَدُوا بِهَدْيِ عمار)، قال العسقلاني: (عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «اقْتَدُوا باللَّذَيْن مِنْ بعدي أبي بكر وعمر، وأهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّار» أخرجه الترمذي وابن ماجه[١].

* * *

محاربة عمار للمرتدين في اليمامة

وكان لعمار بن ياسر إسهامه الوافر في إعلاءِ راية الإسلام ومحاربة المرتدين بنجد واليمامة في خلافةِ أبي بكرالصديق، فكان عمار من كبار الصحابة الذين انطلقوا في الجيش الذي بعثه أبو بكر لمحاربة مسيلمة الكذاب والمرتدين في نجد واليمامه، فقد خاض عمار القتال بإيمان لا يتزعزع، فكان لا تنبو لسيفه ضربة، ولا تأخذه عن الله رغبة، وكان كلما تكاثر عليه العدو يخترق الصفوف وهو يقول: (اليوم ألقىٰ الأحبة، محمداً وصَحْبه) وكان كثير من الصحابة يتبعونه كأنّه عَلَمُ لهم.

وفي موقعة اليمامة، وهي الموقعة الحاسمة بين المسلمين، وبين جيش مسيلمة الكذاب، استشهد عدد من الصحابة بينَهم الطفيل بن عمرو الدوسي ذو النور، وأُصيب آخرون بجراح، وكاد الجيش الإسلامي أن يتقهقر، ولكن ثبات عمار وجهاده الباسل كان قدوة للمسلمين، فقد قُطعت أذن عمار في المعركة، فما تزحزح عن موقفه ولا توقف عن الزحف، قال عبد الله بن عمر بن الخطاب: «رأيتُ عمار بن ياسر يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف يصيح: يا معشر المسلمين أمِنَ الجنة تفرون، أنا عمار بن ياسر هلموا إليّ. وأنا أنْظُر إلى أذنه قد قُطِعَت فهي تدبدب، وهو يُقاتل أشد قتال»[٢] ويقول خالد محمد خالد:

«لقد أصيبت ـ أُذُن عمار ـ في سبيل الله يوم اليمامة، وكان يومُ من أيام عمار المجيدة، إذْ انطلق هذا العملاق في استبسال عاصف يحصُدُ في جيش مسيلمة الكذاب، ويُهدي إليه المنايا والدمار»[١].

---

(١) الإصابة ـ ترجمة عمار ـ ص٥١٢ ـ الاستيعاب ـ ص٤٧٩.

(٢) الاستيعاب ـ ص٤٧٧ ـ رجال حول الرسول ـ ص٢٦٧.

فتتوجت موقعة اليمامة بانتصار الحق على الباطل نصراً كان لعمار في تحقيقه دور مجيد، وعاد عمار إلى المدينة وقد ترسخت سلطة الإسلام ودولة الخلافة في نجد واليمامة كما هي راسخة في أرجاء الجزيرة العربية، فكان عمار بالمدينة من كبار الصحابة الذين يستشيرهم أبو بكر الصديق في الأمور، وكذلك كان في أوائل خلافة عمر بن الخطاب.

* * *

شهود عمار لفتوح الشام والجزيرة الفراتية

وانطلق عمار بن ياسر إلى ساحات الجهاد والفتوحات بالشام والجزيرة الفراتية، ونظراً لأن أغلب الروايات لم تهتم بذكر تلك الفترة من تاريخ عمار، كما أن ترتيب وزمن تلك الفتوح ومسار الأحداث في الروايات لا يخلو من الالتباس، فإن من المفيد تبيين الفتوح التي شهدها عمار وترتيب زمن ذلك بشيء من الدقة.

ـ لقد بعث عمر بن الخطاب بالإمدادات إلى أبي عبيدة بن الجراح والمسلمين بدمشق، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص قائد الجيش الإسلامي بالعراق بعد القادسية ببعث إمدادات لقتال الروم الذين كانوا حاصروا المسلمين بحمص وجمعوا جموعاً كبيرة، فوصلت الإمدادات إلى دمشق واجتمع بها المسلمون، فسار أبو عبيدة بالمسلمين من دمشق ـ في ربيع الثاني ١٥هـ ـ ووقعت المعركة مع الروم في نهر اليرموك وأجنادين الثانية في ـ رجب ١٥هـ ـ وكان عمار من الصحابة الذين شهدوا تلك الموقعة التي تكللت بالنصر المبين، بدليل وجود عمار مع أبي عبيدة في طبرية بعد تلك الموقعة.

ـ ووصل إلى أبي عبيدة وهو في طبرية كتاب عمر بن الخطاب بأن يوجه جيشاً إلى بلاد الجزيرة يكون أميره عياض بن غُنم الأشعري، قال الواقدي: (فعقد أبو عبيدة لعياض على ثمانية آلاف، منهم ألف صحابي بينهم خالد بن الوليد، وطلحة، والمقداد، وعمار بن ياسر. . فسار عياض بالجيش من طبرية ـ في شوال ـ فافتتحوا (الرقة) صلحاً»[١] وكان عمر بن الخطاب قد كتب أيضاً إلى سعد بن أبي وقاص قائد الجيش الإسلامي بالعراق: (أن يبعث جيشاً إلى أهل الجزيرة الذين تمالأوا مع الروم)[٢] وكان الجيش الذي سار من العراق بقيادة أبي موسى الأشعري، قال الذهبي: (وجه أبو عبيدة عياضاً إلى الجزيرة فوافق بها أبو موسى الأشعري)[٢].

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ٢ ص٥٩.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٩٣.

وقال ابن كثير: (سار عياض ومعه أبو موسى فنزل الرها فصالحه أهلها على الجزية) وقال الذهبي: (ثم افتتحا ـ سوياً ـ حران، ونصيبين، وطائفة من الجزيرة)[1] ويتيح ذلك تحديد الزمن فشهر شوال ـ الذي ذكره الواقدي ـ زمناً لفتح (الرقة) ليس سنة ١٧ هـ وإنما هو شوال سنة ١٦هـ، ثم التقى جيش عياض وجيش أبي موسى فافتتحا (الرها) و(سميساط) و(حران) و(نصيبين) فيكون ذلك في الفترة من ذي القعدة سنة ١٥هـ إلى حوالى صفر ١٦هـ لأن أبا موسى سار إلى أبي عبيدة بالشام سنة ١٦هـ ثم سار إلى عمر بن الخطاب، فولاه عمر على البصرة سنة ١٦هـ، بينما واصل عياض فتح بلاد الجزيرة الفراتية لأنه أصبح أميرها.

ـ وقد شهد عمار بن ياسر فتوح (الرقة) و(الرُّها) و(سميساط) و(حران) و(نصيبين) مع عياض بن غنم وأبي موسى، ثم شهد عمار الفتوح التي قادها عياض منذ شوال ١٦هـ ومنها فتح (قرقيسياء) ومدائن (الخابور) وقلعة (ماردين) وفتح (رأس العين) وصولاً إلى فتح (ميافارقين) و(آمد) في جمادى الأولى ١٧هـ.

قال الواقدي: (ثم ارتحل عياض إلى الحصون وجبل الجودي، والسيوان، ففتحوها صلحاً، حتى نزلوا على قلعة (الهتاج)، فقال عياض: اعزموا على بركة الله، فنهض خالد، والمقداد، وعمار بن ياسر، وسعيد بن زيد، وعمرو بن معدي كرب، والمسيب، وقيس بن هبيرة المكشوح، وساروا إلى قلعة (الهتاج)، فحاربوا حاكمها (يانوس بن كليوس) من بطارقة الروم، فتم افتتاح القلعة بعد قتال شديد، وهي من ثغور الجزيرة الفراتية في جنوب تركيا حالياً، وكان فتحها في رجب ١٧هـ.

ـ ثم دخل عياض وعمار بن ياسر وأولئك الصحابة بجيشهم إلى بلاد أرمينية، فافتتحوا إقليم (أرزن) وإقليم (أخلاط) بعد جهاد عظيم، واجتاحوا مناطق شاسعة من بلاد أرمينية بمدلولها الواسع القديم، وصالحوا أهلها على الجزية، وغنموا الغنائم الوافرة، ونشروا الحاميات الإسلامية، وذلك سنة ١٨هـ ثم عادوا إلى أرض الجزيرة فنزل عياض بالموصل، وكتب إلى عمر بما فتح الله عليهم وبعث إليه بخمس الغنائم مع شرحبيل بن السمط الكندي، ورجع عمار بن ياسر من تلك الفتوح إلى المدينة المنورة في أواخر سنة ١٨ هجرية.

* * *

ولاية عمار بن ياسر على الكوفة

وفي أوائل عام ١٩هـ أصبح عمار بن ياسر أميراً والياً لولاية الكوفة، فكان

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٩٣.

عمار ثاني أمراء الكوفة وما إليها من العراق منذ الفتح الإسلامي للعراق.

وغني عن البيان أن العراق منذ الفتح العربي الإسلامي في خلافة عمر كانت ولايتان؛ **أولاهما**: ولاية البصرة وعاصمتها مدينة البصرة التي تم اختطاطها سنة ١٤هـ ثم أصبحت مدينة كبيرة وعاصمة لولاية البصرة وقد ولى عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري على البصرة سنة ١٦ هجرية. **والثانية**: ولاية الكوفة وعاصمتها مدينة الكوفة وتم اختطاطها في ولاية سعد بن أبي وقاص سنة ١٧هـ فأصبحت الكوفة عاصمة لقسم واسع من العراق، وكان أول ولاة الكوفة سعد بن أبي وقاص، وكانت ولايته منذ اختطاط الكوفة زهاء سنتين، ويُروى أن أهل الكوفة شكوه إلى عمر بن الخطاب وزعموا (إنه لا يُحسن الصلاة، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية) وأن سعداً قال لأهل الكوفة (اللهم لا تُرضِ عنهم أميراً ولا تُرضِهم بأمير)، ولما عزله عمر قام باختيار عمار وولاه على الكوفة، وفي ذلك قال خالد محمد خالد:

«حين كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يختار ولاة المسلمين في دِقّةٍ وتَحفُّظٍ من يختارُ مصيره، كانت عيناه تقعان دوماً في ثقة أكيدة على عمار بن ياسر، وهكذا سارع إليه وولاه الكوفة».

وكتب عمر إلى أهل الكوفة بتولية عمار كتاباً ذكره ابن سعد في الطبقات والحاكم في المستدرك وابن القيم في إعلام الموقعين والذهبي في تذكرة الحفاظ، قال فيه:

«أما بعد: فإني بعثتُ إليكم عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النُجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، من أهل بدر، فاقتدوا بهما واسمعوا لهما»[(١)].

* * *

وكانت تولية عمار على الكوفة في أوائل سنة ١٩هـ وذلك بعد زهاء سنتين من تأسيس الكوفة، وكان تأسيسها سنة ١٧هـ، واستقربها عشرون ألفاً من الفاتحين العرب بعيالاتهم حيث (كان جند أهل الكوفة عشرين ألفاً منهم اثنا عشر ألفاً من أهل اليمن، وثمانية آلاف من ربيعة ومضر وسائر الناس) قال البلاذري (وأسهم

---

(١) الوثائق السياسية ـ محمد حميد الله ـ ٤١٦ ـ عن الطبقات لابن سعد ـ جـ٣ ص١٨٣ ـ أنساب الأشراف للبلاذري ـ جـ١ ص١٦٣ ـ المستدرك للحاكم ـ جـ٣ ص٣١٥ ـ إعلام الموقعين لابن القيم ـ جـ٤ ص١٢٥ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي ـ جـ١ ص١٤ ـ سنن الدارقطني ص٥١٢.

سعد لنزار وأهل اليمن بسهمين على إنه من خرج سهمه أولاً فله الجانب الأيسر وهو خيرهما، فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي وصارت خطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات، وترك ما دونها فناء للمسجد ودار الأمارة). قال الإمام الشعبي الهمداني: (كُنا ـ يعني أهل اليمن ـ اثني عشر ألفاً، وكانت نزار ثمانية آلاف، ألا ترى أنّا أكثر أهل الكوفة، وخرج سهمنا بالناحية الشرقية فلذلك صارت خططنا بحيث هي)(١) والمقصود بالخطط المناطق التي تسكنها كل قبيلة، وتدل خريطة مدينة الكوفة والخطط القبلية بالكوفة على أن أهل اليمن كانوا يمثلون الغالبية، فمنهم (طيىء) وهمدان ـ شمال الكوفة ـ ثم

خارطة مدينة الكوفة والخطط القبلية للكوفة

بجيله والأزد ـ في غربها ـ ومذحج وكندة ـ في جنوب الكوفة، ويبدو أن مصطلح الناحية الشرقية يتصل بالنهر وليس بالمدينة، وفيما بين كندة ومذحج ـ جنوباً ـ وهمدان وطيئ ـ شمالاً ـ كانت دار الأمارة التي بها استقر عمار بن ياسر، وكانت تتبع الكوفة نواحي الحيرة ونواحي سواد الكوفة الشاسعة ونواحي المدائن ونواحي حلوان إلى تخوم إيران.

وكان عهد عمار بداية للتنظيم الإداري وظهور التخصصات في بنيان الولاية، فقد كان عمار أمير الكوفة وهو في ذات الوقت قائد الجيش وأمير الصلاة، قال

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٧٦.

البلاذري: (كان عمار بن ياسر على صلاة أهل الكوفة وجيوشهم) بينما كان عبد الله بن مسعود وزيراً لعمار ومسؤلاً عن بيت المال، وقد جاء في كتاب عمر لأهل الكوفة: (بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً.. الخ). ثم قال: (وقد جعلتُ عبد الله بن مسعود على بيت مالكم). وتضيف رواية البلاذري: (وحذيفة وعثمان بن حنيف على السواد) فاستعمل عمار بن ياسر: (حذيفة بن اليمان على ما وراء دجلة، وبعث عثمان بن حنيف الأنصاري على ما دون دجلة ومساحة أرض السواد)، وبأمر عمر بن الخطاب وعمار بن ياسر: (حذيفة بن اليمان على ما وراء دجلة، وبعث عثمان بن حنيف الأنصاري على ما دون دجلة ومساحة أرض السواد)، وبأمر عمر بن الخطاب ولّى عمار بن ياسر: (مسح عثمان بن حنيف الأنصاري أرض السواد ـ سواد الكوفة والعراق ـ فوجدها ستة وثلاثين ألف ألف جريب ـ أي مليون جريب ـ فوضع الخراج على كل جريب درهماً وقفيزاً، وجعل على جريب النخل عشرة دراهم، وعلى جريب الكرم ـ أي العنب ـ عشرة دراهم، وعلى جريب القصب ثلاثة دراهم، وعلى جريب البُرّ أربعة دراهم، وعلى جريب الشعير درهمين. وعلى جريب الشجر عشرة دراهم وعشرة أقفزة ـ [قال القاسم بن سلام: كان القفيز مكوكاً لهم يدعى الشابرفان] ـ. وجعل على رؤوس الرجال غير المسلمين من أهل السواد ثمانية وأربعين درهماً، وأربعة وعشرين، واثنى عشر. وكتب بذلك كله إلى عمر بن الخطاب فأجازه). وذكر البلاذري عن عمر بن عبد العزيز قال: (كان خراج السواد على عهد عمر بن الخطاب مائة ألف درهم)، وذلك في ومنذ ولاية عمار للكوفة.

* * *

وكان الذي افتتح سواد العراق الصحابي اليماني الأمير جرير بن عبد الله البجلي وقومه من بجيله وخثعم، وذلك سنة ١٦هـ حيث هزم المسلمون جموع الفرس في موقعة جلولاء، و(كان جرير بن عبد الله في خيل كثيفة بجلولاء) قال البلاذري: (وأتى جرير بن عبد الله خانقين ـ وهي قاعدة جلولاء ـ وبها بقية من جند الأعاجم فقتلهم.. ومضى المسلمون يغيرون في نواحي السواد من جانب دجله الشرقي، ولم يبق من سواد دجلة ناحية إلا غلب عليها المسلمون، وكانت وقعة جلولاء في آخر سنة ١٦هـ.. وأعطى عمر بن الخطاب بجيلة ربع السواد ـ نافلةً وغنيمة ـ فأخذوه ثلاث سنين، ثم وَفَد جرير على عمر بن الخطاب مع عمار بن ياسر) ـ وذلك في أواخر سنة ١٩هـ ـ (فقال عمر لجرير: لولا إني قاسم مسؤولُ لكنتُ على ما جعلت لكم، وإني أرى الناس قد كثروا، فَرُدوا عليهم أرض

السواد. ففعل وفعلوا (أي جرير وبجيله) ـ وجعل عمر أرض السواد خراجيه ـ وَعَوض بَجيله بأن فرض لهم من ألفين (درهم) في العطاء (أي الراتب الشهري للمسلمين)، وأجاز عمر جريراً بأربعمائة دينار). ورجع جرير مع عمار بن ياسر إلى العراق وقام عمار بتنظيم الخراج على سواد العراق على النحو المتقدم، فبلغ الخراج مائة ألف ألف درهم سنوياً.

* * *

معالم الفتوحات في ولاية عمار للكوفة

كان كسرى يزدجرد ملك الأمبراطورية الفارسية مقيماً في (حلوان) عندما افتتح المسلمون جلولاء والسواد في آخر سنة ١٦ هجرية وأوائل سنة ١٧هـ فمكث جرير بن عبد الله أميراً قائداً في جلولاء ومعه خيل كثيفة، وذلك في ولاية سعد بن أبي وقاص للكوفة، (ثم أن سعداً وجه إليه ثلاثة آلاف من المسلمين، وأمره أن ينهض بهم وبمن معه إلى حلوان)، وكان ذلك بناء على تعليمات عمر في أواخر سنة ١٨هـ، فانطلق جرير بفرسان وجند الإسلام إلى حلوان، فبلغ كسرى يزدجرد ذلك فجمع أساورته ورجال دولته وفرسانه وخزانته والنساء والذراري الذين في حلوان وغادر العراق إلى أصبهان في بلاد إيران. قال البلاذري: «لما بات جرير بالقرب من حلوان، هرب يزدجرد إلى ناحية أصبهان، ففتح جرير حلوان صلحاً على أن كَفَّ عن أهلها وأمَّنَهم على دمائهم وأموالهم، وجعل لمن أحب منهم الخروج ـ إلى بلاد فارس ـ أن لا يتعرض لهم»، وقد تزامن فتح حلوان وخروج كسرى يزدجرد من العراق إلى أصبهان مع قدوم عمار بن ياسر والياً على الكوفة وما إليها من العراق، وأقام جرير في حلوان أميراً عليها في إطار ولاية عمار للكوفة.

* * *

وبناءً على موافقة عمار بن ياسر أو تعليماته: (استخلف جرير بحلوان عزرة بن قيس البجلي، ومضى جرير نحو الدينور فلم يفتحها، وفتح قرماسين على مثل ما فتح عليه حلوان. وقدم حلوان فأقام بها والياً عليها)[١] ثم أتاه كتاب عمار بالمسير لمساندة قوات أبي موسى الأشعري في (تستر) فسار إليها جرير ثم لحق به عمار في جند الكوفة.

* * *

وكانت موقعة تُستَر من المعارك التاريخية، وكان سببها أن أبا موسى

---

(١) فتوح البلدان ـ ص٢٩٩.

الأشعري أمير ولاية البصرة سار بالمسلمين من البصرة فافتتح الأهواز وما يليهما من فارس وصالح بعض حكامها على أداء الجزية ومنهم حاكم الأهواز ورامهرمز ـ وذلك سنة ١٨هـ. وكانت (تُسْتُر) من الأهواز، ثم أن يزدجرد لما انسحب إلى أصبهان أخذ في تحريض الفُرس، قال ابن كثير في سبب موقعة تستر: «كان سبب ذلك أن يزدجرد كان يحرض أهل فارس ويؤنبهم بملك العرب لبلادهم وقصدهم إياهم في حصونهم. فكتب إلى أهل الأهواز وأهل فارس فتحركوا وتعاهدوا وتعاقدوا على حرب المسلمين، وأن يقصدوا البصرة»[١] فجمعوا حشودهم في تستُر بقيادة (الهرمُزان) الذي يوصف بأنه (ملك الأهواز) وهو نائب للملك كسرى يزدجرد، وقال المدائني (وَجَهَه يزدجرد إلى تستر)، فلما علم أبو موسى الأشعري بتجمع العدو في تستر، قرر المبادة بالهجوم عليهم.

قال البلاذري: (سار أبو موسى إلى تستر وبها شوكة العدو وحَدّهم، فكتب إلى عمر يستمده، فكتب عمر إلى عمار بن ياسر يأمره بالمسير إليه في أهل الكوفة، فَقَدم عمار جريراً البجلي». وذكر البلاذري إنه: «أقام جرير بن عبد الله البجلي في حلوان والياً عليها إلى أن قدم عمار بن ياسر الكوفة، فكتب إليه عمار يعلمه أن عمر بن الخطاب أمره أن يمد به أبا موسى الأشعري، فاستخلف جرير عزره بن قيس البجلي على حلوان، وسار حتى أتى أبا موسى، وذلك سنة تسع عشرة»[٢].

وكان أبو موسى الأشعري قد سار بجيش ولاية البصرة إلى تستر، فوصل إليه جرير البجلي بفرسانه من حلوان، وما لبث أن وصل عمار بن ياسر في جند ولاية الكوفة، قال البلاذري: «وسار عمار حتى تُستْر، فكان على ميمنة ـ جيش ـ أبي موسى البراء بن مالك، وعلى ميسرته مجزأة بن ثور السدوسي، وعلى الخيل أنس بن مالك. وكان على ميمنة عمار البراء بن عازب الأنصاري، وعلى ميسرته حذيفة بن اليمان، وعلى خيله قرظة بن كعب الأنصاري، وعلى رجالته النعمان بن مقرن المأزني». وقد تولى القيادة العامة أبو موسى الأشعري، ولذلك قال خالد محمد خالد: «وفي موقعة تُسْتُر كان أبو موسى بطل هذه الموقعة وقد أمدّه أمير المؤمنين عمر يومئذٍ بأعداد هائلة من المسلمين على رأسهم عمار بن ياسر.. والتقى الجيشان، جيش المسلمين بقيادة أبي موسى، وجيش الفرس بقيادة الهُرمزان في معركة من أشد المعارك ضراوة وبأساً..» قال البلاذري: «تقاتلوا قتالاً شديداً، وحمل أهل البصرة وأهل الكوفة حتى بلغوا باب تستر..» وذكر ابن كثير إنهم

(١) البداية والنهاية ـ جـ٧ ص٨٩.
(٢) فتوح البلدان ـ ص٢٩٩.

«تزاحفوا أياماً متعددة. ثم هزمهم المسلمون حتى أدخلوهم خنادقهم واقتحموها عليهم، فلجاء المشركون إلى البلد فتحصنوا به..» حيث «انسحب الفرس إلى مدينة تستر المُحصنة، فحاصرها المسلمون أياماً طويلة، ثم اقتحموها، وأنقض أبو موسى عليهم، فاستولى على المعقل الخطير، واستسلم الهرمزان وقادة الفرس». فكان فتح تستر من أعظم الانتصارات في فتوح بلاد فارس، ولما تم الفتح والنصر عاد عمار بن ياسر إلى الكوفة، ثم قام عمار ومعه جرير بزيارة عمر بن الخطاب حيث تنازل جرير عن ربع سواد دجلة الذي كان لبجيله، وتم التباحث في شؤون الفتوحات وغير ذلك، ورجع عمار إلى الكوفة، وذلك في أواخر سنة ١٩ هجرية كما رجع جرير إلى حلوان وسار منها إلى منطقة الجبال مما يلي حلوان فافتتحها، وامتدت الفتوح إلى عدة مناطق داخل إيران.

* * *

وكان كسرى يزدجرد ما يزال يستنفر الفرس في أرجاء بلاد فارس وما يزالون يتدفقون إليه حينما وقعت موقعة تُستْر وتم النصر للمسلمين، فمضى يزدجرد فيما هو عليه فاجتمع إليه جيش كثيف قام بتوجيههم من أصبهان إلى نهاوند ـ في سنة ٢٠ هجرية ـ فكتب عمار بن ياسر إلى عمر بن الخطاب بخبر ذلك الحشد الفارسي في نهاوند حيث ذكر البلاذري في سبب موقعة نهاوند أنه: ـ «لما هرب يزدجرد من حلوان في سنة تسع عشرة، تكاتبت الفُرس وأهل الريْ وقومس وأصبهان وهَمَذان والماهين، وتجمعوا إلى يزدجرد ـ في أصبهان ـ فأمَّرَ عليهم (مردانشاه) وأخرجوا رايتهم (الدرفشكابيان) وكانت عدة المشركين يومئذٍ ستين ألفاً ويقال مائة ألف. وقد كان عمار بن ياسر كتب إلى عمر بن الخطاب بخبرهم، فَهَمَّ عمر أن يَغْزُوهم بنفسه ثم خاف أن ينتشر أمر العرب بنجد وغيرها، وأشير عليه أن يُغزي أهل الشام مِنْ شامهم.. فخاف إن فعل ذلك أن تعود الروم..» وكذلك لم يرغب عمر بتوجيه أبي موسى الأشعري وجيش أهل البصرة ولا توجيه عمار وجيش أهل الكوفة جميعهم إلى نهاوند خشية أن يتغلب الفرس أو يستولون على البصرة وأعمال الكوفة، وإنما كتب عمر إلى عمار بن ياسر الكتاب الذي يذكره البلاذري قائلاً: «فكتب عمر إلى أهل الكوفة يأمرهم أن يسير ثلثاهم ويَبْقى ثلثهم لحفظ بلدهم وديارهم، وبَعَثَ من أهل البصرة بعثاً»[1].

وبما أن عمار بن ياسر هو أمير ولاية الكوفة في موقعة نهاوند وهو الذي كتب إلى عمر بخبر الجمع الفارسي بنهاوند وما يراه بشأن ذلك، فإن كتاب عمر بن

(١) فتوح البلدان ـ ص٣٠٠ ـ ٣٠١.

الخطاب إلى أهل الكوفة لا بدّ إنه إلى أمير الكوفة عمار بن ياسر، وهو الذي قام بتجهيز وتوجيه الجيش إلى نهاوند، وفقاً لتعليمات عمر بتوجيه ثلثي أهل ولاية الكوفة إلى نهاوند وأن يتولى قيادة الجيش (النعمان بن مقرن فإن أصيب فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أصيب فالأمير جرير بن عبد الله، فإن أصيب فالمغيرة، فإن أُصيب فالأشعث بن قيس الكندي)، وكان أولئك الخمسة من عمال ونواب عمار بن ياسر في مناطق ولاية الكوفة، فمضى الجيش إلى نهاوند وكان فيه من القادة الصحابة أيضاً قيس بن المكشوح، وعمرو بن معدي كرب، وعُروة بن زيد الخيل، وعبد الله بن بديل الخزاعي، وأمثالهم، كما وصل مدد البصرة بقيادة أبي موسى الأشعري إلى نهاوند، وقد تولى النعمان بن مقرن قيادة الجيش الإسلامي في بداية موقعة نهاوند حيث «كان النعمان أول مقتول يوم نهاوند، ثم أخذ الرأيه حذيفة بن اليمان»[١] وتواصلت موقعة نهاوند يوم الأربعاء ويوم الخميس ثم تحاجزوا ثم اقتتلوا يوم الجمعة فانهزم الفرس وظفر المسلمون في نهاوند، (فَسُمي ذلك الفتح: فتح الفتوح) وكانت نهاوند سنة عشرين للهجرة في ولاية عمار للكوفة وقام بتوجيه مبعوث إلى عمر بنبأ النصر والفتح.

* * *

وبعد شهرين من موقعة نهاوند بعث عمار جيشاً لفتح إقليم الريّ ودستبي ـ بلاد الديلم ـ بشمال إيران ـ وكان عمار قد كتب أو بعث رسولاً إلى الخليفة عمر بن الخطاب بشأن أهمية وفكرة فتح تلك البلاد فجاء كتاب عمر بالموافقة على شكل أمر بتوجيه جيش لفتحها بقيادة الصحابي اليماني عروة بن زيد الخيل الطائي، وفي ذلك قال البلاذري في فتوح البلدان: «كتب عمر بن الخطاب إلى عمار بن ياسر وهو عامله على الكوفة، بعد شهرين من وقعة نهاوند، يأمره أن يبعث عروة بن زيد الخيل الطائي إلى الريّ ودستبي في ثمانية آلاف، ففعل. وسار عروة إلى هنالك فجمعت له الديلم وأمدهم أهل الريّ فقاتلوه، فأظهره الله عليهم، فقتلهم، واجتاحهم. ثم استخلف عروة حنظلة بن زيد أخاه ـ على الريّ ـ وقدم على عمار وسأله أن يوجهه إلى عمر ـ بنبأ الفتح ـ وذلك أنه كان القادم عليه بخبر الجسر فأحبَّ أن يأتيه بما يسره ـ فوجهه عمار ـ فلما رآه عمر قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال عروة: بل إحمد الله فقد نُصِرنا وأظهرنا الله، وحدثه بحديثه، فسماه ـ عمر ـ البشير». وكان ذلك الفتح في أواسط سنة ٢٠هـ، وربما أواخرها، وهو آخر فتوح ولاية عمار للكوفة.

* * *

(١) فتوح البلدان ـ ص٣٠٠ ـ ٣٠١.

وكان عمار في ولايته للكوفة ـ التي دامت سنتين ـ مِثالاً عظيماً في العدل والورع والزُهد والتواضع، قال خالد محمد خالد: «وقد سار عمار في ولايته سيراً شقّ على الطامعين في الدنيا تَحَمُّله حتى تألّبُوا عليه أو كادوا.. وذات يوم قال له واحد من العامة وهو أمير الكوفة: (يا أجدَع الأُذُن) فلا يزيد الأمير الذي بيده السلطة على أن يقول لشاتمه: «خَيْرَ أُذُنَيَّ سَبَبْتَ.. لقد أُصيبت في سبيل الله) ـ».

وقال ابن أبي الهذيل: (رأيْتُ عمار بن ياسر وهو أمير الكوفة يشتري من قِثّائها، ثم يربطها بحبل ويحملها فوق ظهره ويمضي بها إلى داره).

وقد توسعت ولاية الكوفة في عهد عمار، وامتدت فتوحات أهل الكوفة إلى غرب وشمال إيران، وتم تنظيم الخراج وبيت المال، وكذلك القضاء حيث تولى قضاء الكوفة منذ عهد عمار القاضي شريح الكندي، وسار عمار في أهل الكوفة أحسن سيره.

وفي أواخر عام ٢٠هـ غادر عمار الكوفة متوجهاً إلى المدينة المنورة والتقى بالخليفة عمر بن الخطاب، فأعفاه عمر من ولاية الكوفة[(١)] وتقول إحدى الروايات أن بعض أهل الكوفة شكوه إلى عمر وزعموا إنه (ضعيف، لا علم له بالسياسة، فعزله عمر، وولى على الكوفة المغيرة بن شعبة) ـ فإذا صح ذلك فإن زعمهم بأن (لا علم له بالسياسية) هو مثل زعمهم بأن سعد بن أبي وقاص (لا يُحسن الصلاة)، والواقع أن أهل الكوفة كانوا يضربون بعمار المثل الأعلى ولم يزالوا كذلك، ولعل عمار هو الذي طلب من عمر أن يعفيه من ولاية الكوفة، وكان عمار يومئذٍ قد جاوز الستين عاماً، ويُقال السبعين، ولكنه استجاب لمواصلة الجهاد في سبيل الله، ومضى إلى مصر وذلك فور قدومه من الكوفة وانتهاء ولايته عليها في أواخر سنة ٢٠ هجرية.

* * *

مشاركة عمار في فتوح مصر

لقد كان عمار من الصحابة الذين انطلقوا إلى مصر، مدداً للجيش الذي بعثه عمر إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص، حيث كتب عمر إلى أمير الشام بتوجيه قوة من الشام مدداً لجيش عمرو بن العاص، وفي ذات الوقت بعث عمر مدداً من المدينة، فجاء في رواية الواقدي أن عمار بن ياسر كان بالشام مع خالد بن الوليد والمقداد ومالك بن الحرث فدعاهم أمير الشام وأخبرهم بما عزم عليه من بعثهم مدداً إلى مصر، (فقالوا: سمعاً وطاعة، ومضوا يريدون مصر، فلما قربوا من عقبة

(١) قال البلاذري: كانت ولاية عمار للكوفة (سنة وتسعة أشهر).

أيلة، إذا هُم بزهاء ألف فارس من طيئ وغيرهم قد وجههم عمر بن الخطاب إلى مصر مع رفاعة بن قيس وبشار بن عون، فلما رأوهم سلموا عليهم واستبشروا بالنصر لما رأوا خالداً وعماراً والمقداد ومالكاً، وساروا جميعاً)(١) وقد وقع في تلك الرواية التباسُ طفيف، فالأصوب أن عمار بن ياسر كان في المدد الذي بعثه عمر من المدينة فالتقوا بالمدد الذي بعثه أمير الشام فساروا جميعاً من عقبة أيلة إلى مصر، وكان ذلك في الشهور الثلاثة الأخيرة من سنة ٢٠هـ حيث كان لمساهمتهم وجهادهم مع بقية المسلمين بقيادة عمرو بن العاص تأثيراً حاسماً في فتح مدينة مصر (بابليون) واختطاط الفسطاط، ثم تلى ذلك فتح الإسكندرية والوجه البحري سنة ٢١هـ.

وكتب عُمَر إلى عمرو بن العاص ببعث عشرة آلاف مقاتل لفتح أقليم أهناس والبهنساء والصعيد، فدعا عمرو بن العاص كبار الصحابة الذين بمصر ومنهم عمار بن ياسر وقراء عليهم كتاب أمير المؤمنين، وذلك في ربيع الأول ٢١هـ (وقيل سنة ٢٢هـ) فتم تجميع الجيش في الجيزة، وعقد عمرو الألوية لعشرين من الصحابة على ذلك الجيش كل واحد منهم على خمسمائة ـ بموجب تعليمات كتاب أمير المؤمنين ـ ومنهم عمار، قال الواقدي: (. . ثم استدعى عمرو بن العاص المقداد وأمَّره على خمسمائة فارس وسَلّمه الراية. . ثم استدعى من بعده عمار بن ياسر وأمَّرَه على خمسمائة فارس وسلّمه الراية). ولما اكتمل عقد الألوية للصحابة القادة العشرين انطلقوا متساندين، ففتح الله على أيديهم القرى والحصون والمناطق صلحاً وعنوة، وفي موقعة مرج دهشور ومنطقة سيزا (قاتل الصحابة جيش العدو قتالاً شديداً، وكان قائد العدو لاوى أرميا صاحب سيزا فارساً شديداً فبرز إليه فارس من المسلمين يسمى سنان بن نوفل الدوسي فقتله لاوي أرميا، فخرج إليه عمار بن ياسر فتجاولا وتطاعنا فطعنه عمار بالرمح في صدره فقتله، فعندها غضب الروم وحملوا على عمار في كبكبة من الخيل فعقروا الجواد من تحته وتكاثروا عليه فقتلوه ـ أي الجواد ـ وحمل المسلون على الروم فهزموهم) فتم فتح تلك المنطقة، ومضى المسلمون إلى البهنساء فخاضوا معارك عديدة طيلة تسعة أشهر تتوجت بفتح البهنساء والصعيد في أواخر خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي عمر رضي الله عنه في أواخر ذي الحجة ٢٣هـ وعمار بن ياسر ما يزال في مصر يجاهد في سبيل الله ويساهم في نشر الإسلام ثم رجع إلى المدينة في أوائل عهد خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

* * *

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ٢ ص٣٨.

سنوات عمار الأخيرة

كان عمار بن ياسر قد بلغ من الكبر عتياً في خلافة عثمان، وتقديراً من عثمان لعمار بن ياسر وجهاده العظيم وتاريخه المجيد منذ البعثة النبوية قام عثمان بمنح عمار أرضاً في سواد العراق هو وعدد من كبار الصحابة حيث: (اقطع عثمان عبد الله بن مسعود أرضاً بالنهرين، وأقطع عمار بن ياسر أرض اسبينا، وأقطع خباب بن الأرت صعنبا، وأقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز.. وأقطع طلحة، والزبير، وأسامة بن زيد، وعدي بن حاتم الطائي، والأشعث بن قيس الكندي، وجرير بن عبد الله البجلي قطائع بالسواد).

وكان عمار من كبار الصحابة الذين وقفوا إلى جانب علي بن أبي طالب، وكان يقين عمار بأن الحق مع عليّ في صراع الفتنة الكبرى التي وقعت بعد مقتل عثمان والتي كان فيها عليّ بن أبي طالب يُمثل جانب الحق في يقين عمار وأغلب الصحابة، وشهد عمار موقعة صفين مع علي ـ في صفر ٣٧هـ ـ وجاء في كتاب الجامع إنه (شهد موقعة صفين وعُمره ثلاثة وتسعون عاماً)[١] ويبدو من ذلك إنه كان قد بلغ غاية العمر ولم يكن من الممكن أن يخوض قتالاً وهو في ذلك السن، فلما التحم الجيشان المسلمان في صفين مات عمار مقتولاً يوم الخميس ٩ صفر ٣٧هـ فارتاع المسلمون من الجانبين لمقتل عمار وغيره من الصحابة وتنادى المسلمون إلى حقن الدماء فانتهت الحرب في صباح اليوم التالي، وسكنت روح عمار بن ياسر رضي الله عنه في جنات الخلود.

(١) تتفق الروايات على أن جيش الشام في موقعة صفين هم الذين قتلوا عمار بن ياسر وإن النبي ﷺ قال: «تقتل عماراً الفئة الباغية» وقد نفى معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام أن يكونوا قد قتلوا عماراً، وقال معاوية: «إنما قتله الذين جاءوا به»، ويعني أنه كان شيخاً عجوزاً فالمجيء به إلى ميدن القتال وهو في ذلك السن أدى إلى مقتله عند التحام الجيشين وإن قتله لم يكن مقصوداً. والله أعلم.

١٢

فَرْوَة بن مُسَيْك المُرادي

ـ أمير رسول الله ﷺ على مذحج ـ

فروة بن مسيك هو الصحابي الجليل زعيم مراد ومذحج: فروة بن مسيك بن الحرث بن سلمة بن الحرث بن كُريب بن زيد بن مالك بن مينا بن غُطَيْف ـ الغطيفي ـ بن عبد الله بن ناجية بن مراد المرادي[1] ومراد هو مُراد يُحابِرْ بن مذحج بن أدد بن زيد بن عمرو بن عَريبْ بن زيد بن كهلان بن سبأ[2].

ولقد تزامنت وفادة فروة بن مسيك على رسول الله ﷺ مع نزول سورة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]. . . الخ الآيات عن سبأ، فسأل فروة بن مسيك النبي ﷺ عن سبأ مَنْ هو؟ لذلك نبدأ هذا المبحث بالحديث عن سبأ.

* * *

الحديث عن سبأ . . وعن مذحج

قال الحافظ ابن كثير: «قال الإمام أحمد، حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن دعلة عن عبد الله بن العباس: أن رجلاً ـ وهو فروة بن مسيك ـ سأل النبي ﷺ عن سبأ ما هو: أرجل أم امرأة أم أرض؟ فقال رسول الله ﷺ: بل هو رجلٌ ولد عشرة، فسكن باليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير، وأما الشامية فَلَخْم، وجذام، وعاملة، وغسان. قال ابن كثير: وقد ذكرنا في التفسير أن فروة بن مسيك الغطيفي هو السائل عن ذلك، كما استقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه هناك. والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها، وقد كان فيهم التبابعة بأرض اليمن،

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ جـ٣ ص١٩٩ ـ وجاء فيه أنه (فروة بن مسيك بن الحرث بن سلمة بن كريب الغطيفي المرادي). والإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٢٠٤ ـ وجاء في الإصابة أنه (فروة بن مسيك بن الحرث بن سلمة بن زيد بن مالك بن مينا بن غطيف بن عبد الله بن ناجية بن مراد المرادي الغطيفي).

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣١ ـ الإكليل للحسن الهمداني ـ جـ١٠ ص٣٠.

وكانت العرب تسمى كل من مَلَك اليمن مع حضرموت والشحر تُبعاً»[١].

وأول فوائد هذا الحديث أن سبأ اسم رجل، وقد جاء هذا الحديث أيضاً بلفظ (سبأ رجلُ من العرب، أولد عشرة، فتيامن منهم ستة وتشأم أربعة). وسبأ المقصود في الحديث قد يكون سبأ الأقدم وهو (سبأ بن قحطان بن النبي هود عليه السلام)[٢] وقد يكون الملك (سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان) وهو سبأ الأكبر بن يشجب الذي بزعامته توحدت قبائل ومناطق اليمن في مملكة واحدة وقام ببناء مدينة عاصمة سماها (سبأ) في مأرب، وباسمه وباسم المدينة العاصمة سميت البلاد والمملكة (سبأ) فكان اسم (سبأ) يجمع كل قبائل اليمن وكل مناطق اليمن في عصور مملكة سبأ الأولى، وتم تقسيم اليمن إدارياً إلى أربعة أقسام: (سبأ، وريدان (حمير)، وحضرموت، والشحر (يمانت) وذلك في عصور تبابعة سبأ الذين أشار إليهم ابن كثير وكان لا يُسمى بلقب تُبّع إلا مَنْ يملك ويحكم اليمن جميعها بما في ذلك حضرموت ويُمانت وهي (الشحر ومهرة وعمان) حيث يحمل الملوك التبابعة في نقوش المُسند اليمنية القديمة لقب (ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويُمانت).

وقد جاء في الحديث النبوي أن (مذحج) إحدى قبائل سبأ العشرة المذكورة في الحديث، وتؤكد ذلك نقوش المسند اليمنية السبائية القديمة في عصور ملوك سبأ وحمير التبابعة، ومنها نقش مسند من محرم بلقيس في مأرب باسم القيل (سعد تالب بن جَدَنْ) حيث يصف نفسه في النقش بأنه (كبير أعراب كندة ومذحج وحرمم وباهل وزيدإل، وكل أعراب سبأ وحمير وحضرموت ويمانت) وأنه من كبار قادة آمرهُ (ياسر يُهنعم ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمانت)[٣].

كما جاء ذكر مذحج في نقش مسند للملك أبي كرب أسعد الأول وهو (تُبّع) المذكور في القرآن الكريم وكان مؤمناً وهو أول من كسا الكعبة، وأطاعته كل جزيرة العرب وغزا بلاد بابل وفارس وداما ـ وادي الظلمات ـ وغيرها، وجاء في الإكليل وكتب التراث أنه ذكر القبائل التي شاركت في الغزو قائلاً:

ومعي مقاول حمير وملوكها	والأزد: أزد شنؤة وعمان
ومعي قُضاعتنا وكندتنا معاً	والقلب مذحج والذُرىٰ همدان

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص١٥٩.

(٢) جاء في التوراة ـ سفر التكوين ـ (أنجب قحطان ثلاثة عشر ولداً، منهم سباء بن قحطان، وحضرموت بن قحطان).

(٣) نقوش سبائية من محرم بلقيس ـ ألبرت جام ـ النقش رقم ٦٦٥.

وقد تم العثور على نقش مسند في صخرة ماسل الجمح بنجد (على بعد مائتي كيلومتر من الرياض) باسم الملك (أبو كرب أسعد ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويُمانت. .) ويسجل النقش أن أبا كرب أسعد مَرّ بذلك المكان ورابط فيه مع جيشه (أشعب: سباء، وحضرموت، وحمير، وأسد (الأزد)، ومذحج، وكندة) الذين شاركوا في غزواته التي بلغت «أرض م ي د م (ميديا) وأرض دام (داما)»[١] وأرض ميديا هي (ميدي: شمال إيران) وأرض داما في جهات القوقاز. وتنطق نقوش عهد أبي كرب أسعد بعبادة (الله، الرحمن، ذي السماوات والأرض) وذلك هو دين التوحيد الحنيف الذي كان سائداً في مملكة سبأ قبل سيل العرم، قال تعالى: ﴿ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦]، أي اعرضوا عن دين التوحيد الحنيف الذي تؤكد نقوش المسند أنه كان سائداً في أرجاء اليمن في عصور ملوك سبأ التبابعة قبل سيل العرم المذكور في القرآن الكريم، وهو سيل العرم الأول الذي بعده تفككت مملكة سبأ وتفرقت أيادي سبأ.

* * *

وكانت مذحج إحدى قبائل سبأ التي بقيت باليمن بعد سيل العرم والتي ذكرها النبي ﷺ في جوابه على سؤال فروة بن مسيك عن سبأ بأنهم (تيامن منهم ستة وتشأم منهم أربعة)، وكان ذلك بعد سيل العرم، وفي ذلك قال ابن كثير: «وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أُصيبوا بسيل العرم بل أقام أكثرهم بها، وهو مقتضى الحديث المتقدم أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن وإنما تشأم منهم أربعة وبقي باليمن ستة وهم مذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار ـ وأنمار هو أبو بَجِيلة وخثعم ـ وحمير، فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا في اليمن، واستمر فيهم المُلك والتبابعة»[٢].

ويتفق ذلك مع معطيات دراساتنا النقوشية والتاريخية بأنه لما وقع سيل العرم الأول تفككت مملكة سبأ التي كانت تضم كل اليمن، وهاجرت بعض قبائل سبأ إلى الشام ـ ومنهم لخم وجذام وعاملة ـ بينما أكثر قبائل سبأ بقيت في اليمن، وقد أسست القبائل التي بقيت في اليمن ست ممالك، بحيث ـ كما قال ابن كثير ـ (استمر فيهم المُلك، والتبابعة)، وتلك الممالك هي: مملكة معين وكان مركزها بمنطقة الجوف بزعامة مذحج، ومملكة حضرموت بزعامة كندة، ودولة مكارب سبأ في مأرب بزعامة الأزد وخولان من حمير، ومملكة قتبان، ومملكة أوسان

(١) نقوش ماسل الجمح ـ ركمانز ـ نقش أبي كرب أسعد ـ ٥٠٩ ركمانز.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص١٦١.

الحميرية، ودولة حمير في مناطق ريدان حيث كانت مدينة ظفار الحميرية[١] ثم توحدت تلك الممالك في إطار الدولة الحميرية وملوك حمير التبابعة، وقد كان لمذحج ذكر ودور تاريخي في نقوش وتاريخ تلك المرحلة المعينية ثم الحميرية.

فلقد كانت مذحج إحدى القبائل الرئيسية التي أسست مملكة معين، وقد سميت القبائل المنضوية في مملكة معين باسم (المعينين) نسبة إلى اسم المملكة (معين) وهم في الأصل والنسب من قبائل سبأ، وهم بالتحديد مذحج وطيئ والأوس وقضاعة بن مالك بن حمير، وقد جاء في النقش المسند المعيني رقم ١ بموقع مدينة يثل (براقش) بمنطقة الجوف ذكر التقاء زعماء (مراد، وبني هانئ، وأوس)[٢] وقد كان: بنو مراد زعماء قبيلة مذحج، وبنو هانئ زعماء قبيلة طيئ، وكان زعماء وملوك معين من بني غُطيف بن عبد الله ـ يحابر ـ بن ناجية بن مراد يُحابر بن مذحج، وفي ذلك قال في الجاهلية فروة بن مُسيك الغطيفي المرادي:

أحَلَّ يُحابِرُ جدي غُطيفاً مَعِينَ المُلْكِ من دون البَنِينَا

ومَلَّكَنَا براقش، دون أعْلَىٰ وأنعم إخوتي وبني أبينا

يقول إن ملوك معين وبراقش كانوا من بني غطيف اليحابري المرادي، وقد كانت معين ـ وتُسمى (قرناو) ـ وبراقش وهي يثل ـ العاصمتان الدينية والسياسية لمملكة معين بمنطقة الجوف، فكانت لمراد الزعامة الدينية والسياسية على سائر شعب مملكة معين وخاصة قبائل مذحج وكانت مناطق قبائل مذحج تمتد من العوالق ـ أبين ـ وشبوه، والبيضاء، وذمار، ومناطق مراد في مأرب ثم براقش والجوف ونجران وتثليث إلى تخوم الطائف وإلى ساحل البحر الأحمر غرباً وإلى وادي الكسر بحضرموت شرقاً، قال ابن خلدون: (وكانت طيئ تسكن الجوف من أرض اليمن.. وكانت الرياسة على طيئ في الجاهلية لبني هانئ بن عمرو بن الغوث بن طيئ، وطيئ أخو مذحج)[٣] ويقال (طيئ بن مذحج) وقد جاء ذكر بني هانئ في نقوش المسند المعينية ومنها نقش يذكر أن (بني هانئ رؤساء جَوّ، قدموا قرباناً إلى معبد معين، في عهد آمرهم تُبع كرب ملك معين)[٤] وقد انتقلت قبيلة

---

(١) مدينة ظِفار في منطقة السدة بمحافظة إب حالياً.

(٢) النقش المعيني رقم ١ فخري ـ رقم ٢٩٢٩ هومل.

(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٢٩.

(٤) نقش بني هاني ـ ٤٨٥ هاليفي ـ ونقش صادق إيل ملك معين وحضرموت.

طيئ من الجوف إلى اليمامة (جو) وإلى جبلى أجا وسلمى في نجد لتأمين الطرق التجارية والسيطرة عليها ـ إلى الحيرة والشام ـ في العصر المعيني والعصر الحميري، وكذلك العديد من قبائل قضاعة الحميرية التي انتشرت إلى تخوم الشام، وكانت لمملكة معين روابط وثيقة بحضرموت وكندة منذ ذلك الزمن، بحيث كان بعض ملوك معين يحكمون معين وحضرموت وقد حملوا في النقوش لقب (ملك معين وحضرموت)[١] كما كان لمعين علاقة بدولة مكارب سبأ وممالك قتبان وأوسان وظفار الحميرية في ذلك العصر.

* * *

ثم توحدت الممالك والقبائل اليمنية في إطار الدولة الحميرية التي شملت كل اليمن، وجاء ذكر مذحج في نقش مسند للزعيم القيل (سميفع أشوع بن شرحبيل يكمل بن ذي يزن الحميري) يسجل النقش مرابطة سميفع في فرسان (من مذحج، وكندة، والرماة اليزنيين) في منطقة نجران، بأمر الملك الحميري (يوسف أساريثار) في سنة ٦٣٣ من التقويم الحميري (٥١٨م) ويختتم سميفع النقش قائلاً أنه: (وضع هذا المسند في حماية السماء، ويستعيذ بالرحمن العليّ من كل مخادع يحاول طمسه. صِيغ وسُطِر وقُدِمَ باسم الرحمن. صاغه تميم ذو حذية الربهدي. بمحمد)[٢] ويدل ذلك النقش وغيره من نقوش ذلك العصر على عبادة (الله، الرحمن، العَليّ، ذي السموات)، وهو دين التوحيد وصاحب هذا النقش هو جد الملك سيف بن ذي يزن الذي أخبر وبشر عبد المطلب بن هاشم بالنبي محمد ﷺ بعد مولد محمد بسنتين كما هو معروف ومتواتر في كتب التاريخ، فلما انتهى عهد سيف بن ذي يزن بدأ عصر الجاهلية في اليمن.

* * *

نبأ مذحج.. وفروة.. في الجاهلية

انقسمت اليمن انقساماً سياسياً بعد وفاة الملك سيف بن ذي يزن الحميري، حيث سيطر الفُرس على الحكم في العاصمة صنعاء وبعض المناطق، وأدى ذلك إلى استقلال أغلب أذواء وأقيال مناطق وقبائل اليمن بحكم مناطقهم وكان من معالم الواقع السياسي في اليمن:

---

(١) نقش بني هاني ـ ٤٨٥ هاليفي ـ ونقش صادق إيل ملك معين وحضرموت.

(٢) نقش سميفع أشوع بن ذي يزن ـ رقم ١٠٢٨ جام.

ـ إن مناطق حمير ـ وهي مخاليف الجَنْد ـ استقل بحكمها أذواء وأقيال حمير وبات كل منهم ملكاً على منطقته ومخلافه، وكان من أبرزهم الحارث بن عبد كلال ذو رُعينْ، وزرعه بن سيف بن ذي يزن، وفهد بن النعمان قيل المعافر، وسميفع ذو الكلاع(١).

ـ إن حضرموت استقل بحكمها أقيال كندة وعلى رأسهم الملك قيس بن معدي كرب الكندي والد الأشعث بن قيس(١).

ـ إن مناطق وقبائل همدان (حاشد وبكيل) كان يحكمها زعماء ومشائخ وأقيال همدان، وكان أكبرهم مالك ذو المشعار الناعطي.

ـ إن مناطق وقبائل مذحج وبجيلة وخثعم وأزد شنؤة والسراة وقضاعة كانت تحت حكم زعماء قبائلها ومناطقها.

ـ إن الحكم الفارسي كان مقتصراً على صنعاء وبعض المناطق، وكانت صنعاء مقر الحاكم الفارسي باليمن باذان بن ساسان عامل كسرى ابرويز بن هرمز في اليمن.

* * *

وكانت مذحج قبيلة كبيرة، وجاء ذكرها في الحديث: (خير الرجال رجال اليمن، الإيمان يمان، وأكثر قبيلة في الجنة مذحج) وهذا الحديث رجاله ثقاة، وفيه إرسال، ويشهد له حديث عمرو بن عَبَسة (خيار الرجال أهل اليمن والإيمان يمان، أخرجه أحمد والطبراني ورجاله ثقات، وصححه الحاكم وأقرّه الذهبي، وروى الطبراني عن معاذ بن جبل مرفوعاً مثله، وفيهما معاً ذكر مذحج وحضرموت وكندة).

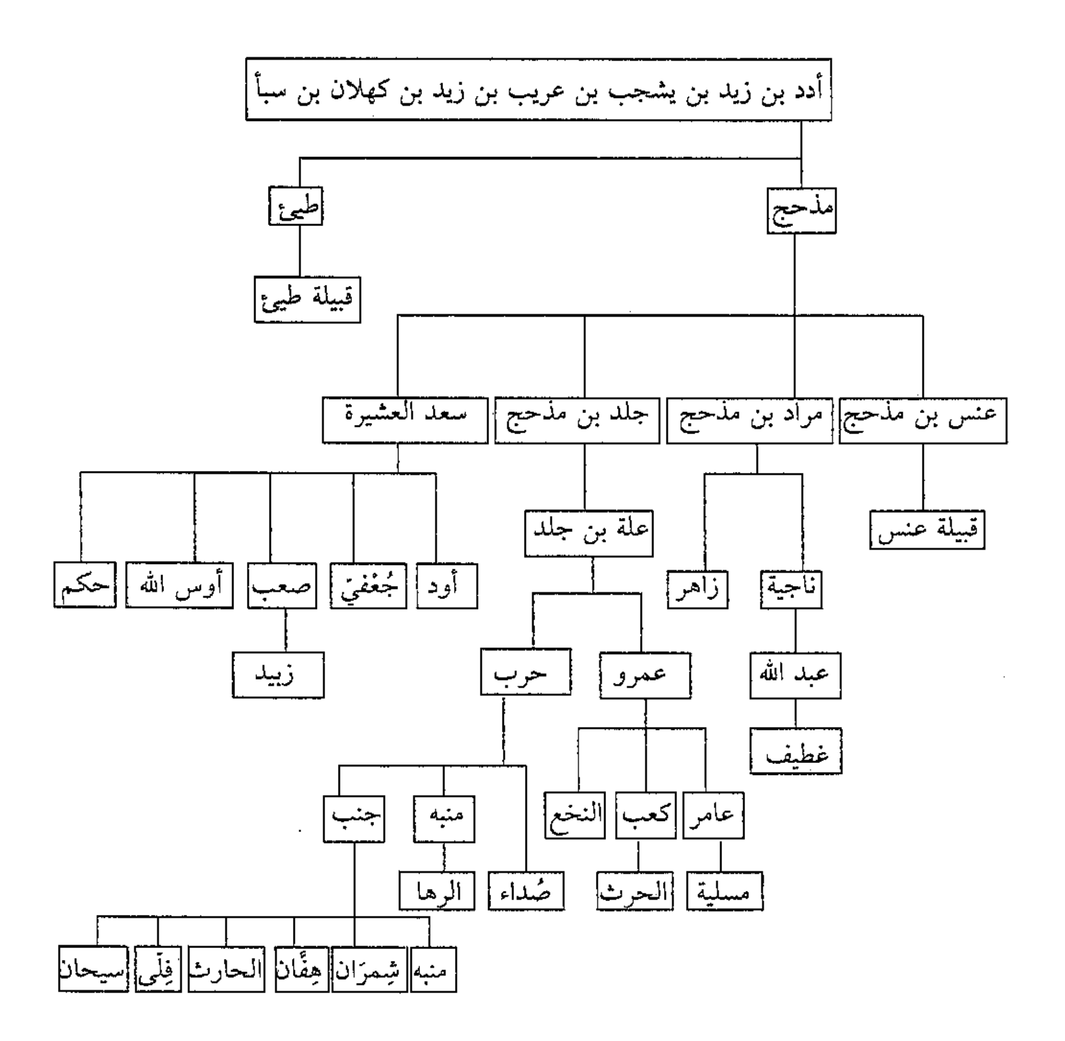
قال ابن خلدون: (وأما مذحج، واسمه مالك بن أدد بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، فمنهم مراد واسمه يحابر بن مذحج، ومنهم سعد العشيرة بن مذحج بطنٌ عظيم لهم شعوب كثيرة، منهم: جُعفى بن سعد العشيرة، وزُبيد بن صعب بن سعد العشيرة. ومن بطون مذحج: النخع، ورها، ومسلية، فأما النخع فهو جسر بن عمرو بن عُلّة بن جلد بن مذحج، ومسلية بن عامر بن عمرو بن جلد، ورها ابن منبه بن حرب بن علة، وأما بنو الحرث بن كعب: فالحرث أبوهم ابن كعب بن علة بن جلد بن مذحج وديارهم بنواحي نجران)(٢). ونذكر

---

(١) أدرك أولئك الزعماء الإسلام وهم من الصحابة ولهم مباحث خاصة في هذا الكتاب.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣٢.

بطون قبائل مذحج الرئيسية في الجدول التالي:



وقد كان لكل بطن وقبيلة من مذحج زعيمها، وذلك لأن قبائل مذحج تلك كانت تسكن مناطقاً شاسعة من اليمن، تشمل بالأسماء الحالية مناطقاً من محافظات أبين وذمار وشبوه والبيضاء ومأرب والجوف ونجران وعسير وسروات اليمن العليا، ولكنها كانت ترتبط برباط قبلي وثيق، وكان أبرز زعماء مذحج فروة بن مسيك المرادي، والحصين بن قنان الحارثي، ويزيد بن عبد المدان بن الديان، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وقيس بن المكشوح المرادي، وعبهلة بن كعب العنسي، وبرئاسة أولئك الزعماء خاضت مذحج موقعة يوم الردم.

ثورة مذحج . . وموقعة يوم الرَّدم

عندما وفد فروة بن مسيك على رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، «قال له رسول الله ﷺ: يا فروة هَلْ سَاءَكَ مَا أَصَابَ قَوْمَكَ يَوْمَ الرَّدْم؟ فقال: يا رسول الله مَنْ ذا يُصيبُ قَوْمَه مِثلُ ما أَصَابَ قومي يوم الرَّدْم ولا يسؤه ذلك. فقال رسول الله ﷺ: أما إنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزِدْ قَوْمَكَ في الإسلام إلا خَيْراً»(١).

ويدل ذكر رسول الله ﷺ لموقعة يوم الردم على أنها كانت موقعة بالغة الأهمية امتد العلم بها إلى سائر جزيرة العرب، وقد دارت تلك الموقعة في منطقة تُسمى (الردم) ويقال (الرزم) في وادي مذاب بالجوف بين قبيلة مذحج وقبيلة همدان (حاشد وبكيل) فتغلبت فيها همدان على مذحج، وقد جاء في الإكليل أن موقعة الردم كانت في السنة الثانية للهجرة، وهي من فترة الجاهلية باليمن لأن مذحجا وهمدان لم تكونا قد أسلمتا، وكانت صنعاء تحت حكم الفرس المجوس الذين أشار إليهم فروة بن مسيك في قصيدته عن موقعة الردم حيث قال:

وما إنْ طِبُّنَا جُبْنُ ولكنْ   منايانا وَدوْلةُ آخِرينَا

ومؤدى ذلك أن موقعة الردم لم تكن معركة قبلية بين مذحج وهمدان، وإنما كانت وراء همدان (دولة آخرينا) وهي (دولة الفرس) وقد ذكرت المصادر في حديثها عن تلك الموقعة أنها بين مذحج وهمدان، ولم تذكر، ولم تدرك، لماذا اجتمعت مذحج في الجوف ولماذا تجمعت همدان وسارت لقتال مذحج في الجوف، ولكن واقعة حلف الفُرس وهمدان تتيح إدراك خلفية موقعة الردم وسبب تجمع مذحج في منطقة الجوف وسبب اجتماع همدان (حاشد وبكيل) ومسيرها لقتال مذحج.

لقد ذكر المؤرخ الرازي في تاريخ صنعاء خبر (الحلف بين فارس وهمدان)، فاستهل خبر الحلف بذكر ما يلي نصه: «اجتمع جماعة من الرؤساء فتشاوروا وأجمعوا على حرب باذان بن ساسان عامل كسرى بن هرمز في اليمن، وكان اجتماعهم بمذاب في الجوف، وفيهم عمرو بن معدي كرب الزبيدي، والحصين بن قنان، ويزيد بن عبد المدان الحارثي، وعنبسة بن زيد الخولاني، وجماعة من الفُرسان والأشراف، فعسكروا عسكراً عظيماً وجمعوا جمعاً كثيفاً»(٢).

ونشير هنا إلى أن أولئك الذين اجتمعوا في منطقة مذاب بالجوف كان

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥٠.
(٢) تاريخ صنعاء ـ للرازي ـ ص٣٦ ـ والأساورة هم فرسان الفُرس.

غالبيتهم من مذحج، فقد كان عمرو بن معدي كرب الزبيدي زعيم بني زبيد وسعد العشيرة وهو فارس مذحج جميعها، وكان الحصين بن قنان الحارثي قائد مذحج في حروبها وكان له أربعة أبناء يقال لهم فوارس الأرباع وكانوا إذا وقعت الحرب يتولى كل منهم قيادة ربع مذحج فيها، أما يزيد بن عبد المدان بن الديان الحارثي فكان زعيم نجران وكان بنو الديان أقيال مذحج ومن كبار أقيال اليمن، قال يزيد بن عبد المدان بن الديان:

إن تلق حيّ بني الديان تلقهم ... شُمّ الأنوف إليهم غُرة اليمن
ما كان في الناس للديان مِنْ شبهٍ ... إلا رعينُ وإلّا آل ذي يزن

وأما عنبسة بن زيد الخولاني فكان من زعماء خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة في صعدة وكانوا حلفاء مذحج، قال الرازي (وجماعة من الفرسان والأشراف)، وهُم مِنْ فرسان وزعماء مذحج أمثال فروة بن مسيك وقيس ابن المكشوح وسيف بن معاوية بن قيس الجنبي وشهاب بن الحصين وقيس بن الحصين، فقد كان ذلك الجمع والحشد يمثل قبيلة مذحج ومعهم حلفاء مذحج من خولان وغيرها من قضاعة، وكان الهدف من ذلك الجمع هو الثورة والمسير لمحاربة باذان والفُرس بصنعاء، «فعسكروا عسكراً عظيماً وجمعوا جمعاً كثيفاً» وذلك في منطقة وادي مذاب بالجوف.

ثم ذكر الرازي ما يلي نصه:

«وبَلَغ ذلك باذان بن ساسان فخرج إليهم ـ من صنعاء ـ في خيل الأساورة، وخرجت همدان في عشرة آلاف ما بين فارس وراجل في عدة كاملة، فعرضوا على باذان النُصرة والحلف.. وذلك أن همدان لم تزل تميل ميل الأساورة وتنصرهم»[1].

ويتبين من ذلك أن قبائل همدان (حاشد وبكيل) ـ التي تمتد مناطقها من مشارف صنعاء إلى الجوف ـ قامت بحشد عشرة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل في عدة كاملة، لمناصرة ومساندة الفُرس الأساورة، وملكهم باذان في محاربة مذحج الذين تجمعوا في الجوف للهجوم على باذان والفرس بصنعاء، فالتقت همدان بباذان والفرس في مكان تم الاتفاق عليه ما بين صنعاء والجوف، (وعرضوا على باذان النُصرة والحلف) ويعود موقف همدان إلى وجود خلافات بين همدان ومذحج من جهة ووجود تحالف بين همدان والفُرس بصنعاء من جهة أخرى وهو تحالف سابق يشير إليه قول الرازي (وذلك أن همدان لم تزل تميلُ ميل الأساورة

(١) تاريخ صنعاء ـ للرازي ـ ص٣٦ ـ والأساورة هم فرسان الفُرس.

وتنصرهم)، ثم ذكر الرازي نص كتاب الحلف الذي تم عقده ـ أو تجديده ـ بين باذان والفرس من جهة وبين زعماء همدان الذين جمعوا العشرة آلاف مقاتل والتقوا بباذان ـ من جهة أخرى ـ وبما أن موضوع الرازي هو ذكر الحلف وكتاب الحلف فقط، فقد اكتفى بذلك، ولم يتطرق إلى ثمرة الحلف وإلى المواجهة التي وقعت مع الثائرين الذين (عسكروا عسكراً عظيماً وجمعوا جمعاً كثيفاً في وادي مذاب بالجوف) والذين هُم مذحج، ويمكن استنتاج أن نوعاً من الاتفاق تم بين باذان وهمدان على أن تتولى همدان الهجوم ومحاربة مذحج الثائرين المجتمعين بالجوف وأن يتولى باذان دعم همدان بالخيول والمال، ويعود إلى صنعاء، بحيث تبدو الحرب صراعاً بين همدان ومذحج.

* * *

لقد دارت موقعة الردم ـ في أواخر سنة ٢ هـ ـ وكانت غالبية همدان تدين بعبادة (يعوق) وغالبية مذحج تدين بعبادة (يغوث) و(ودّ) وكان الفرس بصنعاء يدينون بالمجوسية ويتبعون الدولة الفارسية وملكها كسرى أبرويز بن هرمز الذي كان باذان عاملاً له في صنعاء[1]، فقد قام عشرة آلاف مقاتل من همدان بالهجوم على مذحج الثائرين وقال سيف بن معاوية بن قيس الجنبي شعراً وصف فيه موقفه البطولي لما أقبلت خيل عدوهم في بطن وادي مذاب بالجوف قائلاً:

ولما رأيتُ الخيل جئن أفايحاً ... يَغْبُرنَّ بين صفاصفٍ وروابي
قَرَّبْتُ سابحة اليدين رجيلةً ... تهوىٰ بي الموطَىٰ هوى عُقَّابِ
ودعوتُ قومي فاستجاب لدعوتي ... منهم فوارس نجدةٍ وضرابِ
حتى إذا لحقت أوائل خيلنا ... أُخْرَاهُمُ وجَزَعنّ بطن مذابِ
تركنَّ فارسهم صريعاً مُجهضاً ... وخضبن لمتَّهُ بشرٍّ خضابِ

وقد كان فروة بن مسيك من زعماء وفرسان مذحج في تلك الحرب، حيث أوشكت مذحج على هزيمة همدان في موضع يُسمى (نوفان) لولا خمسة من فرسان همدان وصلوا بالخيول فتراجعت مذحج، وفي ذلك قال فروة بن مسيك:

والله لولا مَعْمَرُ وسلمان ... وابنا عرار، ووفيّا همدان
لقد تواردن حوالا نوفان

وكانت كثافة خيل العدو سبب انكسار مذحج في موقعة الروم، وكان من زعماء

---

(١) كسرى أبرويز بن هرمز: هو الذي قتل النعمان بن المنذر ملك الحيرة عام ٦٠٢م وكتب إليه النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام سنة ٧هـ ثم سنة ٩هـ فمزق كتاب النبي.

وفرسان مذحج الثائرين عمرو بن معدي كرب، فقاتل إلى أن تراجعت منهزمة قبيلة جرم غيرها وإلى أن بقي عمرو يقاتل وحده، فكان موقف عمرو شبه باليوم الذي قال عنه:

ولما رأيتُ الخيلَ زَوراً كأنّها جَداولَ زرعٍ خيّلت فاسبطرَّتِ
فجاشت إليَّ النفس أول مرةٍ، ورُدَّت على مكروها فاستعرّتِ
عَلَامَ تقولُ الرمحُ يُثْقلُ ساعدي إذا أنا لم أطعن إذا الخيلُ كرَّتِ
لحا اللَّهُ جرماً كلما ذرّ شارقٌ وجوه (كلاب) هارشت فازبأرتِ
ظللتُ كأني للرماح رديئة أقاتِلُ عن أحساب جُرمٍ وفَرّتِ
فلو أن قومي أنطقتني رماحُهم نَطَقتُ، ولكنّ الرماحَ أجرّتِ

وكان من زعماء مذحج الثائرين الحصين بن قنان الحارثي وكان شيخاً كبيراً وإنما كان أولاده الأربعة يتولون قيادة مذحج في الحروب وهُم فوارس الأرباع: يزيد بن الحصين، وشهاب بن الحصين، وقيس بن الحصين، وزياد بن الحصين، وجاء في الإكليل وكتاب الأمالي أن أبناء الحصين (هم فوارس الأرباع، وقتلتهم همدان في يوم الردم، وكان قائد همدان الأجدع بن مالك، وقال في ذلك:

أسألتني بركائب ورحالها ونسيت قتل فوارس الأرباع)

والصواب أن الأجدع لم يكن قائد همدان، قال ابن هشام في السيرة النبوية: (الذي قاد همدان يوم الردم مالك بن حريم الهمداني) ثم أن الذي قُتل يوم الردم هو واحد من فوارس الأرباع، وفي ذلك جاء في كتاب (أيام العرب في الجاهلية) إن (شهاب بن الحصين قُتِل يوم الردم وهو أحد فوارس الأرباع)، ويؤكد ذلك أن أحد فوارس الأرباع وهو قيس بن الحصين وفد إلى رسول الله ﷺ مع يزيد بن عبد المدان سنة عشر للهجرة[(١)]، فيمكن أن يكون عجز بيت الأجدع: (ونسيت مقتل فارس الأرباع)، ثم إن الأجدع هذا لم يكن مع همدان وإنما كان مع مذحج وبني الحرث بن كعب، فهو الأجدع بن مالك الوادعي الهمداني من وادعة همدان بصعدة، وقد كان الأجدع هذا متزوجاً بكبشة أخت عمرو بن معدي كرب الزُبيدي[(٢)] وكانت كبشه في منزل الأجدع بصعدة، قال الهمداني: (وكان له منزل بنجران)[(٣)] وكانت له امرأة بنجران هي بنت الحصين أخت فوارس الأرباع، قال أبو عبيد البكري: (أن امرأة الأجدع كانت من بني الحرث بن كعب بنجران، ولها قال هذا

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٦٤.
(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ١٠ ص٩٢.
(٣) شرح الدامغة ـ للحسن الهمداني ـ ص٢٦٣.

الشعر بعد يوم الردم)[١] وذلك بعد انهزام مذحج والذين معهم في يوم وصول الأجدع بن مالك مع المنهزمين من بني الحرث بن كعب وزُبيد وجرم إلى نجران، فسألت بنت الحصين زوجها الأجدع عن الركائب ـ الجمال ـ ورحالها، فقال الأجدع:

أسَألْتَنِي بركائبٍ ورحالها ونَسَيْتِ قتل فوارس الأرباع[٢]
والحارث ابن يزيد، ويحكِ أعولي محضاً شمايله رحيب الباع
بنت الحصين: ألمْ يُرْعِكِ نَعِيُّهم أهل اللواء وسادة المرباع[٣]
تلك الرزيّةُ لا قلائص غُودرت برحالها مشدودة الأنساع
. .خيلان مِنْ قومي ومِنْ أعدائهم خفضوا أسِنَّتهم فكُلّ ناعِ
خفضوا الأسنَّة بينهم فتواسقوا يمشون في حُلَلٍ من الأدراعِ

فلما التقى الخيلان والجيشان ـ جيش مذحج ومَنْ معهم من الثائرين وجيش همدان ومَنْ معهم مِنْ الأساورة ـ وخفضوا الأسنة بينهم ومشوا بالدروع والعدة الكاملة وتقاتلوا في المعركة الأخيرة بموقعة يوم الردم، قُتِل شهاب بن الحصين وغيره من فوارس الأرباع والحارث بن يزيد ومرثد المرادي وعمرو بن مرثد، فبادرت قبيلة جرم وغيرها بالانسحاب والفرار من ميدان المعركة، فلحقت بها بقية قبائل بطون مذحج فانسحبوا منهزمين أو متراجعين، وبذلك تغلبت همدان ـ نيابة عن الفرس ـ على مذحج في موقعة يوم الردم، وقد حفظت كتب التاريخ والسيرة النبوية قول فروة بن مسيك المرادي في يوم الردم:

فإن نَغْلِبْ فَغَلَّابُونَ قِدْماً وإن نُغْلَبْ فَغَيْرُ مُغَلّبِينَا
وما إنّ طِبُّنَا جُبْنٌ وَلَكِنْ منايانا ودولةُ آخرينا[٤]
كَذَاكَ الدَّهْرُ (دَوْلَتُهُ) سِجَالٌ[٥] تَكِرُّ صُروفُهُ حِيناً فَحِينَا

---

(١) التنبيه على كتاب الأمالي لأبي علي القالي ـ ص٢٥.

(٢) قد يكون عجز البيت (ونسيت مقتل فارس الأرباع) يعني شهاب بن الحصين، وقد يكون (قتل فوارس الأرباع) شهاب وثلاثة من إخوته، وإن مرتبة فوارس الأرباع استمرت في أبناء الحصين فأصبح قيس بن الحصين وزياد بن الحصين من فوارس الأرباع بعد يوم الردم.

(٣) في الأصل (وبني الحصين) والأنسب (بنت الحصين) لأن الشعر موجه لها وهي زوجة الأجدع بنجران.

(٤) قوله: (طِبُّنَا) بمعنى (عادتنا)، أي ليس عادتنا الجُبن والانهزام ولكن ما حدث كان وراءه دولة أخرينا وهم الفُرس غالباً.

(٥) سجال: أي تكون تارة للإنسان وتارة عليه. ولعل الأصل (كذلك الدهر (دورته) سجالٌ)، ودولته هناك من التداول.

فَبَيْنَا ما نُسَرّ بِهِ ونَرْضَى ـ ولو لُبِسَتْ غَضَارَتُهُ ـ سِنينَا[١]
إذا انقَلَبَتْ بِه كرَّاتُ دَهْرٍ فألْفَيْتَ الأُلَىٰ غُبِطُوا طَحِينَا[١]
فَمَنْ يُغْبِطْ بِرَيْبِ الدَّهْرِ مِنْهُمْ يَجِدْ رَيْبَ الزَّمَانِ لهُ خَؤُنَا
فَلَوْ خَلَدَ المُلُوكَ إذَنْ خَلَدْنا وَلَوْ بَقِيَ الكِرَامُ إذاً بَقِينَا
فأفْنَىٰ ذَلِكُمْ سَرَوَاتِ قَوْمِي[٢] كما أفْنَى القُرُونَ الأوَّلِينا»[٣]

إجلاء مذحج عن الجوف بعد يوم الردم وموقف فروة

وقد أعقب يوم الردم إجراءُ ـ عقابي ـ غير معهود، وذلك أن بعض بطون قبيلة مذحج كانوا يسكنون منطقة الجوف منذ الزمن القديم وعصر مملكة معين، ومنهم (غُطيف/ مراد) و(الأوس/ أوس الله) وبعض بطون (عنس بن مذحج)، وقد جاء ذكر (مراد، والأوس) في نقوش براقش (يثل) المعينية، ومما يتصل بذلك قول فروة بن مسيك:

أحَلَّ يُحابِرُ جدي غُطيفاً مَعِينَ المُلك من دون البنينا
ومَلَّكنا براقش دون أعلى وأنعم إخوتي وبني أبينا[٤]

فقامت همدان بعد يوم الردم بأمد يسير ـ سنة ٣هـ ـ باءجلأ الذين في الجوف من قبيلة مذحج ومصادرة أراضيهم وتوطين عشائر من همدان في مناطقهم بالجوف، وفي ذلك جاء في الإكليل أنه: (كانت الجوف من مواطن مذحج، فأجْلَتهم عنها همدان) يوم الردم وقد ساء ذلك مذحج، وكان فروة بن مسيك هو كبير زعماء مذحج في الجاهلية، وكان لمذحج زعيم ديني كاهن يقال له عبهلة بن كعب العنسي يقيم في منطقة (خبّ) بالجوف، فلما قامت همدان بإجلاء مذحج وتوطين عشائر من همدان قال فروة بن مسيك:

دَعُوا الجوفَ إلا أن يكون لأُمكم بها عَقَرُ في سالفِ الدهر أو مَهْرُ
وحِلُّوا بيعمونٍ فإنّ أباكم بها وحليفاه المذلةُ والفَقْرُ[٤]

وتلك الحادثة هي السبب والزمن الصحيح للرسالة التي تذكر الروايات أن عبهلة العنسي كتبها إلى عمال باذان حيث قال عبهلة فيها: (أيها المتوردون علينا،

---

(١) غضارة الشيء: طراوته ونعمته. وغبطوا: استحسنت حالتهم.
(٢) سروات القوم: زعماء القوم، قال الأفوه الأودي المذحجي الجاهلي:
لا يصلح القوم فوضى لا سَرَاة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
(٣) أبيات فروة بن مسيك ـ السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥٠.
(٤) الإكليل وصفة جزيرة العرب للحسن الهمداني.

أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جَمَعْتُمْ، وأنتُم على ما أنتُم عليه)[١] فليس لتلك الرسالة علاقة بردة عبهلة التي وقعت بعد ذلك بسبع سنوات، وإنما هي موجهة لعشائر همدان المتحالفين مع الفرس وقد سماهم (المتوردون)، وتتصل بالأرض التي تم إجلاء مذحج منها بعد يوم الردم وما جمعته همدان من الغنائم، فهو يعرض عليهم الاحتفاظ بما غنموه (وفروا ما جمعتم) وإعادة الأرض التي صادروها وأجلوا مذحج منها (أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا)، ولكن ذلك الإجراء العقابي الهمداني الفارسي تم تنفيذه وبات أمراً واقعاً لا يغيره كتاب عبهلة ولا شعر فروة بن مسيك، وقد كانت موقعة يوم الردم في رمضان ٢هـ، وتم إجلاء مذحج عن الجوف سنة ٣ هجرية تقريباً.

* * *

استنصار فروة بملوك كندة وهجرته إلى النبي محمد ﷺ

لم يكن بمقدور مذحج مواجهة تحالف همدان والفرس بمفردها بعد نكسة يوم الردم وإجلاء الذين بالجوف من مراد ومذحج، وقد كان بين مذحج وبين كندة في حضرموت تحالف قديم منذ عصر معين وفي العصر الحميري، ولذلك سار فروة بن مسيك ـ بمفرده أو مع بعض وجوه مراد ومذحج ـ إلى أقيال كندة ملوك حضرموت الذين كان على رأسهم الأشعث بن قيس الكندي ـ وهو الملك ـ وعفيف بن معدي كرب الكندي والسمط بن الأسود الكندي وشرحبيل بن السمط الكندي، وتتفق الروايات وتراجم الصحابة على أن فروة بن مسيك كان عند ملوك كندة قبل وفادته إلى النبي ﷺ وأنه فارق ملوك كندة ووفد إلى النبي ﷺ، ولم تدرك الروايات سبب وجود فروة في كندة، سوى ما أشار إليه ابن حجر العسقلاني قائلاً: (كان سبب مفارقة فروة لملوك كندة الوقعة التي كانت بين مراد وهمدان فأصابوا من مراد حتى أثخنوا فيهم ـ يوم الردم ـ)[٢] فكان ذلك سبب مسير فروة إلى ملوك كندة في حضرموت لأن بينهم وبين مذحج حلف تليد، فكان يريد من كندة وحضرموت مناصرة مذحج في الحرب ضد الفرس وهمدان، فمكث فروة والذين معه فترة عند ملوك كندة بحضرموت ثم استقر موقف كندة على أنها لا تستطيع أن تستجيب لطلب فروة ومذحج، وعند ذلك فارق فروة ملوك كندة وعاد إلى منطقة مراد في مأرب ثم توجه إلى النبي محمد ﷺ بالمدينة المنورة.

---

(١) لقد وقع التباس في رواية تاريخ الطبري بأن كتاب عبهلة كان في الردة إلى عمال النبي ﷺ والصحيح أنه إلى عمال باذان وعشائر همدان بعد يوم الردم.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٢٠٥ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ص٢٠٠.

قال القرطبي: (قدم فروة بن مسيك على رسول الله ﷺ مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لهم)[١] وقال ابن هشام في السيرة النبوية: (توجه فَرْوَةُ بن مُسَيك إلى رسول الله ﷺ مفارقاً لملوك كندة)، قال العسقلاني: (فلما رحل فروة قال في طريقه:

لَـمَّـا رَأَيْـتُ مُـلُـوكَ كِـنْـدَةَ أَعْـرَضَـتْ كـالرَّجْلِ خَانَ الرِّجْلَ عِرْقُ نِسَائِهَا[٢]

يَـمَّـمْـتُ راحِـلـتـي أمـام مُـحَـمَّـدٍ أرْجُـو فَـوَاضِـلَـهَـا وحُـسْـنَ ثَـرَائِـهَـا

وجاء البيت الثاني في السيرة النبوية:

قَـرَّبْـتُ رَاحِـلَـتِـي أَؤُمُّ مُـحَـمَّـداً أرجُـو فَـوَاضِـلَـهَـا وحُـسْـنَ ثَـرَائِـهَـا[٣]

قال ابن هشام: أنشدني أبو عبيدة: «أرْجُو فواضِلَهُ وحسن ثنائها»[٣].

* * *

فروة بن مسيك في رحاب رسول الله ﷺ

لقد أسلم فروة بن مسيك في اليمن منذ وقت سابق لمسيرة إلى رسول الله ﷺ وهو ما يدلُّ عليه قول فروة: (قَرَّبْتُ راحلتي أؤمُ محمداً) فقد كان مؤمناً بالنبي محمد ﷺ قبل ذلك المسير بفتره من الزمن، بل أنه كان قد ساهم في دعوة قومه من مراد ومذحج إلى الإسلام باليمن قبل ذلك المسير، قال القرطبي: (وكان فروة من وجوه قومه، وكان شاعراً محسناً) وقال العسقلاني في الإصابة وابن سعد في الطبقات: (كان من وجوه قومه وله أحاديث منها ما روى أبو سبرة النخعي عنه قال: قلت يا رسول الله ألا أقاتل من أدبر من قومي. الحديث. وعنه أن النبي ﷺ أوصاه بالدعاء إلى الإسلام، وسأله عن سبأ. أخرجه ابن سعد والترمذي وابن السكن). ثم ذكر العسقلاني عن أبي عمرو الشيباني أنه (وفد فروة مع مذحج فأسلموا)، ويتبين من التحقيق أن فروة لم يقدم على رسول الله ﷺ مرة واحدة فقط، بل مرتين، بل ثلاث مرات، فقد جاء في كتاب الأنباء أنه (وفد في صفر سنة سبع) وجاء في السيرة النبوية وعيون الأثر والبداية والنهاية أنه (وفد على رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك) وذلك في رمضان ٩هـ، قال العسقلاني (وذكر غير أبي عمرو: أن وفادته كان سنة تسع أو سنة عشر)، ويمكن إدراك أن سبب ذلك الاختلاف في الزمن هو أنه وفد إلى رسول الله ﷺ ثلاث مرات.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٢٠٥ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ص٢٠٠.

(٢) النسا: عرقٌ مستبطن في الفخذ، وهو مقصور غير ممدود؛ فإن مدّ في شعر فلضرورة، وقد روى هذا البيت ممدوداً.

(٣) أؤمُ: أقصد. و(ثنائها) هو الذي يتحدث به الرجل من خير أو شر، ويروى في مكانه (ثرائها) ويعني به على هذه الرواية الجود والعطاء ـ جـ٤ ص٢٥١ ـ السيرة النبوية.

وقائع وأحاديث وفادة فروة الأولى:

كان فروة بن مسيك قد أسلم في اليمن منذ سنوات سابقة لوفادته الأولى، فلما وقع صلح الحديبية ـ في ذي القعدة ٦هـ ـ تأمنت الطريق بين اليمن ويثرب، وربما أتى فروة نبأ المهادنة وصلح الحديبية وهو عند ملوك كندة في حضرموت يحاول إقناعهم بمناصرة مذحج في حرب ضد الفرس وحلفائهم من همدان، فلما علم بنبأ المهادنة وتأمين الطريق فارق كندة وعاد إلى منطقة مراد في مأرب وشدّ راحلته يؤُمُ محمداً ﷺ في ذات الوقت الذي انطلق فيه الطفيل بن عمرو في موكب المؤمنين من دوس ومعه أبو هريرة، وموكب الأشعريين بمعية أبي موسى الأشعري، فوصلوا إلى المدينة في صفر ٧هـ، فجاء في كتاب الأنباء عن وفود اليمن سنة سبع للهجرة ما يلي نصه:

«في صفر سنة ٧هـ وفد إلى المدينة أبو موسى الأشعري في اثنين وخمسين رجلاً من الأشعريين عقيب فتح خيبر، وفيها وفد فروة بن مسيك المرادي فأسلم وأجازه رسول الله ﷺ باثنتي عشر أوقية، وأعطاه حلّة من نسيج عمان، وفيها وفد أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني الحافظ الفقيه»[(١)].

وقال ابن سمرة: (وهاجر من مراد: فروة بن مسيك المرادي)[(١)] فوفادة فروة تلك هي هجرة لأنها قبل فتح مكة، فالذين قدموا وعلى النبي ﷺ قبل الفتح مهاجرون وتتصل بتلك الهجرة والوفادة الأولى لفروة الأحاديث والوقائع التالية:

ـ إن رسول الله ﷺ قال لفروة: (يا فروة، هَلْ سَاءَكَ ما أَصَابَ قَوْمَكَ يَوْمَ الرَّدْمِ؟ فقال: يا رسول الله مَنْ ذَا يصيبُ قَوْمَه مثلُ ما أصاب قومي يوم الردم لا يسؤه ذلك. فقال رسول الله ﷺ: أما إنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَزِدْ قومك في الإسلام إلا خَيْراً)[(٢)] ويستفاد من هذا الحديث أن الإسلام كان قد أخذ ينتشر في مذحج في الفترة التي تلت موقعة يوم الردم وسبقت وفادة فروة، كما أخذ ينتشر في همدان على يد قيس بن مالك الأرحبي الهمداني، والظاهر أن انتشار الإسلام في مذحج كان على يد فروة بن مسيك، وليس المقصود أن الاسلام شمل مذحج قوم فروة وإنما بدأ في الانتشار وأصبح في مذحج مسلمون.

ـ وفي تلك الفترة بالسنة السابعة سمع فروة سورة سبأ فسأل رسول الله عن

---

(١) الأنباء ـ للمفتي محمد زبارة ـ ص١٨ ـ طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة الجعدي ـ ص١٤.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٧٠ ـ عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ جـ٢ ص٣٠٦ ـ السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥١.

سبأ، فقال رسول الله ﷺ: سبأ رجل من العرب، أولد عشرة، فتيامن منهم ستة وتشأم أربعة. الحديث. قال الحافظ ابن كثير: (وقد ذكرنا في التفسير أن فروة بن مسيك الغطيفي هو السائل عن ذلك واستقصينا طُرق هذا الحديث وألفاظه). وقال القرطبي في ترجمة فروة: (روى عنه الشعبي وأبو سبرة النخعي وسعيد بن أبيض حديثه في سبأ، حديث حسن). وقال العسقلاني في الإصابة: (وله أحاديث منها ما روى أبو سبرة النخعي عنه قال: قلت يا رسول الله ألا أقاتل من أدبر من قومي. الحديث. وعنه أنه أوصاه بالدعاء إلى الإسلام، وسأله عن سبأ. أخرجه ابن سعد وأبو داود والترمذي وابن السكن). وقد أسلفنا ذكر نص ذلك الحديث عن سبأ.

ـ ولقد أقام فروة بن مسيك فترة بالمدينة المنورة، وجاء في تاريخ ابن خلدون أنه: «نزل فروة بن مسيك على سعد بن عبادة الأنصاري، وتعلم القرآن وفرائض الإسلام»[١]. وامتدت إقامة فروة بالمدينة وصحبته للنبي ﷺ إلى السنة الثامنة.

ـ وكان النبي ﷺ قد (بعث أبا زيد الأنصاري إلى عبيد وجيفر ابني الجُلَنْدي في عمان بكتاب منه يدعوهما فيه إلى الإسلام، فأسلما)[٢] وقدم أبو زيد الأنصاري من عمان إلى النبي ﷺ بالمدينة سنة ٨ هجرية، ومما يتصل بذلك ما جاء في الأنباء بأن رسول الله ﷺ أعطى فروة (حلّة من نسيج عمان)، فيكون ذلك بعد قدوم أبي زيد من عمان، مما يؤكد إقامة فروة بالمدينة إلى السنة الثامنة وفيها كان فتح مكة ـ في رمضان ـ والطائف ـ في شوال ـ وانصرف النبي ﷺ من الطائف إلى الجعرانة ـ في شوال ـ وبعث بعوثاً إلى اليمن وعندئذٍ ـ غالباً ـ كانت عودة فروة بن مسيك إلى مناطق مراد ومذحج باليمن.

* * *

عودة فروة إلى اليمن ومعالم ما قبل وفادته الثانية:

لقد مكث فروة في رحاب رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة منذ هجرته ووفادته الأولى ـ في شهر ربيع سنة ٧هـ ـ ونزل بمنزل سعد بن عبادة الأنصاري وتعلم القرآن وفرائض الإسلام، ثم كان مع رسول الله ﷺ والصحابة حتى نزول رسول الله ﷺ بالجعرانة، وكان نزول رسول الله ﷺ بالجعرانة بعد فتح مكة ـ في رمضان ٨هـ ـ وأثناء غزوة الطائف ـ في شوال ٨هـ ـ ومن الجعرانة بعث رسول الله ﷺ البعوث، قال ابن سيد الناس: «لما انصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة بعث بعوثاً

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٥٥.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٧٨.

إلى اليمن»[1] إذْ إنه (بعث رسول الله ﷺ الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين في شوال ٨هـ) قال القرطبي: (وبعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع وذي رعين وذي ظليم باليمن) وهُم ملوك حمير الأذواء بمناطق حمير (مخاليف الجَنَد) يدعوهم إلى الإسلام، وجاء في عيون الأثر أنه (بعث المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث بن عبد كلال الحميري) وأنه: (بعث رسول الله ﷺ المصدقين ـ أي الذين يجمعون الصدقات ـ فبعث زياد بن لبيد إلى حضرموت، وبعث عدي بن حاتم إلى طيئ)[1] وفي ذلك الإطار كانت عودة فروة بن مسيك إلى قومه مراد ومذحج باليمن، ومما يتصل بذلك:

ـ إن فروة لما تهيأ للعودة إلى اليمن: (قال يا رسول الله ألا أُقاتل مَنْ أدبر مِنْ قومي. الحديث. وأوصاه رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الإسلام). قال العسقلاني: «قال أبو عمرو الشيباني: استعمل رسول الله ﷺ فروة على صدقات من أسلم، وقال له: ادع الناس وتألفهم».

ويتبين من ذلك أن فروة بن مسيك في عودته تلك إلى مناطق مراد ومذحج كان مبعوثاً مفوضاً لقبض صدقات مَن أسلم ـ مَنْ يُسلم ـ من قومه، وكان مبعوثاً من رسول الله ﷺ لدعوة قومه مذحج إلى الإسلام.

ـ وكانت أول بطون قبيلة مذحج التي مرّ بها فروة في عودته تلك إلى اليمن قبيلة (صُداء بن حرب بن علة بن جلد بن مذحج) ـ بمنطقة أعالي نجران ـ ويبدو أنه أخبرهم بأنّ رسول الله ﷺ قد هياء بعثاً لن يلبث أن يصل إليهم بقيادة قيس بن سعد بن عبادة ودعاهم إلى الإسلام وأن يبعثوا وفداً منهم إلى رسول الله ﷺ فقد جاء في عيون الأثر أنه: «قدم على رسول الله ﷺ وفد صُداء سنة ثمان للهجرة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الجعرانة بعث بعوثاً إلى اليمن، وهيأ بعثاً استعمل عليهم قيس بن سعد بن عبادة، وأمره أن يطأ ناحية من اليمن فيها صداً. فقدم رجل منهم ـ هو زياد بن الحارث الصدائي ـ وقد علم بالجيش. فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئتك وافداً على من ورائي، فاردد الجيش وأنا لك بقومي، فرد رسول الله ﷺ قيس بن سعد، وخرج الصدائي ـ زياد بن الحرث ـ إلى قومه. ثم قدم على رسول الله ﷺ في خمسة عشر رجل منهم، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله، دعهم ينزلوا علي، فنزلوا عليه، فحباهم، وأكرمهم، وكساهم، ثم راح بهم إلى النبي ﷺ فبايعوه على الإسلام، وقالوا: نحن لك على من وراءنا من قومنا، فرجعوا إلى قومهم، ففشا فيهم الإسلام.

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ ص٣٢٤.

فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع»[١] وكان قدوم الخمسة عشر رجلاً من صداء إلى النبي ﷺ وهو بالمدينة ونزلوا على سعد بن عبادة، فيكون ذلك في أوائل سنة ٩ هجرية.

ـ ولقد قام فروة بن مسيك بالدعوة إلى الإسلام في مناطق وقبائل مذحج بصفة عامة، وفي مراد وسعد العشيرة وزُبيد بصفة خاصة، وكان الإسلام قد أخذ ينتشر منذ ما قبل ذلك، وكان ممن قد أسلم عمرو بن معدي كرب الزُبيدي وقال في ذلك أبياتاً منها:

إنني بالنبيّ موقِنَةٌ نفسي ... وإنْ لم أرَ النبيّ عيانا
جاء بالناموس من لَدُنِ الله ... وكان الأمين فيه المعانا
فعليه السلام والسلم مِنّا ... حيثُ كُنّا من البلاد وكانا[٢]

ولم يأت شهر رجب ٩هـ إلا وقد انتشر الإسلام في قبائل ومناطق مذحج، وكان لفروة بن سميك إسهامه الوافر في ذلك.

وفادة فروة الثانية إلى رسول الله ﷺ:

في شهر رجب ٩ هجرية انطلق فروة بن مسيك في موكب من فرسان قبائل مذحج ومعه عمرو بن معدي كرب الزبيدي في فرسان بني زُبيد يؤمون رسول الله ﷺ، ويقال إن الجعد بن قيس الغطيفي المرادي سمع أثناء مروره في واد من أودية اليمن هاتفاً يقول:

ألا أيُها الركبُ المُعرسُ بلغوا ... إذا ما وقفتم بالحطيم وزمزما
محمداً المبعوث منّا تحية ... تُشيعه من حيث سار ويمما

وقد وصل فروة بن مسيك وعمرو بن معدي كرب والذين معهما إلى المدينة المنورة فالتقوا برسول الله ﷺ مُنصرفه من غزوة تبوك، وكانت تلك هي الوفادة الثانية لفروة والتي تتميز عن وفادته الأولى بالوقائع والمعالم التالية:

ـ إن فروة بن مسيك في وفادته الأولى كان بمفرده ولم يكن قومه ـ مذحج ـ قد أسلموا، وأوصاه رسول الله ﷺ بدعوة قومه إلى الإسلام، وقال له: ادع الناس وتألفهم، بينما في وفادته الثانية كان قومه مذحج قد أسلموا وكان معه وفد يمثل مذحج، وفي ذلك جاء في الإصابة أنه: «وفَدَ فروة مع مذحج فأسلموا».

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ ص٣٢٤.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٧٢.

ـ ولم يكن عمرو بن معدي كرب مع فروة في وفادته الأولى، ولذلك جاء في بعض الروايات وفي الاستيعاب أنه: «قدم فروة بن مسيك على رسول الله ﷺ قبل قدوم عمرو بن معدي كرب».

بينما في وفادة فروة الثانية مع وفد مذحج كان عمرو معه، وفي ذلك ذكر الأصفهاني عن أبي عبيدة قال: «قدم علينا عمرو في وفد مذحج مع فروة بن مسيك المرادي على النبي ﷺ»[١].

ولكن عمرو بن معدي كرب لم يكن كسائر الوفد فهو رئيس بني زُبيد وأشهر فرسان اليمن والعرب، وكان مع عمرو رجال من بني زبيد وسعد العشيرة، قال ابن هشام وابن كثير: «قدم عمرو بن معدي كرب في أُناس من بني زبيد.. فركب حتى قدم على رسول الله ﷺ فأسلم، وصَدَّقَهُ، وآمن به» وقال المدائني: «أقبل النبي ﷺ من غزوة تبوك يريد المدينة، فأدركه عمرو في رجال من بني زبيد، فأسلم وبايع لقومه على الإسلام. وذلك منصرف رسول الله ﷺ من تبوك وكانت في رجب من سنة ٩هـ»[١] وقد كان فروة وعمرو قدموا المدينة مع وفد مذحج بينما رسول الله ﷺ ما يزال في تبوك، فنزلوا بمنزل سعد بن عبادة، فلما أقبل رسول الله ﷺ من تبوك يريد المدينة، بادر عمرو بالخروج إليه ـ في ضواحي المدينة ـ فبايعه ودخل معه، بينما انتظر فروة حتى دخول النبي ﷺ فالتقاه مع بقية وفد مذحج، وكانت عودة النبي ﷺ من تبوك في أوائل شهر رمضان ٩هـ.

ـ وقد مكث فروة وعمرو بالمدينة المنورة فترة من الزمن ونزلا بمنزل سعد بن عبادة، وفي ذلك قال القرطبي في الاستيعاب (أقام عمرو بالمدينة برهة) وقال العسقلاني في الإصابة: (نزل عمرو على سعد بن عبادة بالمدينة فأكرمه سعد). وقال ابن خلدون: (نزل فروة بن مسيك على سعد بن عبادة، وتعلم القرآن، وفرائض الإسلام)، وذلك في الوفادتين.

وما لبث أن لحق بفروة وعمرو الزعيم قيس بن مكشوح المرادي ـ وهو ابن أخت عمرو بن معدي كرب ـ وقد وصل قيس بن مكشوح مع أخته كبشة بنت المكشوح إلى منزل سعد بن عبادة، فأكرمه سعد وراح به إلى النبي ﷺ، فالتقى قيس برسول الله ﷺ وبايعه، وأقام فترة بالمدينة ومعه أخته كبشة، فخطبها وتزوجها بالمدينة الصحابي إبان بن سعيد بن العاص، وقد جاء في ترجمتها بالإصابة: (كانت كبشة بنت مكشوح المرادية، أخت قيس الفارس

---

(١) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٦.

المشهور، موصوفة بالجمال، وتزوجها إبان بن سعيد بن العاص، زَوَّجَه إياها أخوها قيس)[١].

ـ وأثناء إقامة فروة وعمرو وقيس بالمدينة، وصل مبعوث ملوك وأذواء مناطق حمير إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، وبعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصاري إلى (الجَنَد) وأميراً على عمال اليمن، ووصل وفد همدان بزعامة مالك بن نمط الهمداني، ووصل وفد كندة بزعامة الأشعث بن قيس الكندي، فصحبوا رسول الله عليه الصلاة والسلام.

* * *

تولية فروة بن مسيك على مذحج

ولما تهيأ فروة وعمرو وقيس للعودة إلى اليمن بعد أن صحبوا رسول الله ﷺ زهاء ثلاثة أشهر، استعمل رسول الله ﷺ فروة بن مسيك عاملاً أميراً على مناطق وقبائل مذحج جميعها ـ وذلك في شوال أو ذي القعدة سنة ٩هـ ـ وقد سجلت ذلك كتب السيرة النبوية والتاريخ والتراجم، فجاء في السيرة النبوية وعيون الأثر والبداية والنهاية ما يلي نصه:

«واستعمل النبي ﷺ فروة بن مسيك على مُراد وزُبَيْد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ وأقام عمرو بن معدي كرب في قومه من بني زُبيد وعليهم فروة بن مسيك (إلى أن) توفي رسول الله ﷺ»[٢].

وقال ابن خلدون:

«وكان فروة بن مسيك على بني زُبيد لأنه وفد قبل عمرو بن معدي كرب.. وقد كان فروة وعمرو أسلما وكذلك قيس، واستعمل رسول الله ﷺ قيساً على صدقات مراد. واستعمل رسول الله ﷺ فروة بن مسيك على مُراد وزُبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة فكان معه في بلاده حتى كانت الوفاة»[٣].

وقال ابن سمرة الجعدي في طبقات فقهاء اليمن:

«وهاجر من مُراد: فروة بن مسيك المرادي، واستعمله النبي ﷺ، على مراد

---

(١) الإصابة ـ ترجمة كبشة بنت مكشوح ـ جـ٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥١ ـ عيون الأثر ـ جـ٢ ص٣٠٦ ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٧٠.

(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٣.

وزُبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة»[١].

وجاء في الإصابة عن البخاري وعن أبي عمرو الشيباني في ترجمة فروة:

«واستعمله النبي ﷺ على مراد وزبيد ومذحج كلها. وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ».

ويتبين من كافة تلك النصوص والمصادر أن فروة بن مسيك كان عامل وأمير رسول الله ﷺ على قبائل ومناطق مذحج جميعها منذ عودة فروة وعمرو وقيس ومعهم خالد بن سعيد بن العاص ـ في شوال أو ذي القعدة سنة ٩هـ ـ وحتى وفاة رسول الله ﷺ ـ في ربيع الأول سنة ١١هـ ـ ومن المفيد هنا تبيين الإطار العام التالي لمعالم ووقائع تلك الفترة:

ـ لقد وقع في رجب ٩هـ حدث تاريخي هام في مناطق حمير التي كان يحكمها أذواء حمير وكان كل منهم مستقلاً بحكم منطقة شاسعة وكان يقال لهم ملوك حمير، وكان رسول الله ﷺ قد بعث إليهم جرير بن عبد الله البجلي يدعوهم إلى الإسلام، وتم ذلك تدريجياً، ثم أعلن جميع أذواء حمير في وقت واحد ـ هو رجب ٩هـ ـ إسلامهم والانضواء في الدولة الإسلامية وبعثوا بذلك رسولاً وكتاباً إلى رسول الله ﷺ، قال ابن هشام: (قدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حمير، مَقْدَمه من تبوك، ورسولهم إليه بإسلامهم، ـ وهم ـ الحارث بن عبد كلال، ونُعيم بن عبد كلال، والنعمان قيلُ ذو رعين ومعافر، وبعث إليه زُرعة ذو يزن بإسلامهم) ثم ذكر ابن هشام كتاب رسول الله ﷺ إلى ملوك حمير وهو مذكور في سائر المصادر، ويهمنا منه هنا قول رسول الله ﷺ: (وإني قد أرسلت إليكم من صالحي أهلي وأولى دينهم وعلمهم: معاذ بن جبل، وعبد الله بن قيس ـ وعبد الله بن زيد ـ ومالك بن عُبادة، وعقبة بن نمر، وأصحابهم، وإن أميرهم معاذ بن جبل، وآمركم به خيراً)[٢] وكان ذلك في آخر رمضان، أو في شوال سنة ٩ هجرية، فكان أولئك عمال رسول الله ﷺ على مناطق حمير، وهي أكثر اليمن إذْ تشمل بالتسميات الحالية مناطق ومحافظات تهامة وتعز وإب ولحج وعدن وأبين والضالع ورداع ووصاب والقسم الأدنى من محافظة شبوه وكانت مدينة الجَنَد العاصمة الإدارية لذلك القسم من اليمن، وكان يُعرف باسم (مخاليف الجَنَدْ) وقد وصل معاذ بن جبل إلى مدينة الجَنَدْ، ولم يكن معاذ واحداً من العمال وإنما كان

(١) طبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة الجعدي ـ ص١٤.
(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص٢٢٠ ـ ٢٢٣.

أمير جميع عمال مناطق حمير، حيث قال رسول الله ﷺ في كتابه إلى أذواء حمير: «وأميرهم جميعاً معاذ بن جبل».

ـ وفي ذات الوقت تقريباً بعث رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري عاملاً على تهامة ومخلاف الأشاعر ومعه الطاهر بن أبي هالة عاملاً على صدقة عك، وبعث زياد بن لبيد الأنصاري عاملاً على حضرموت ومعه عكاشة بن ثور، وبعث رسول الله ﷺ فروة بن مسيك عاملاً على مذحج ومعه خالد بن سعيد بن العاص واستعمل رسول الله ﷺ قيس بن مالك نمط الأرحبي على همدان، وأمرهم جميعاً بطاعة معاذ بن جبل، فكان معاذ هو أمير جميع عمال اليمن وهو عامل رسول الله ﷺ على اليمن جميعها، ومما يتصل بذلك، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

(بعثني النبي ﷺ خامس خمسة على مخاليف اليمن، فبعثنا متساندين، وأمرنا أن نتياسر، وأن نُيسر ولا نعسر، ونبشر ولا ننفر، وأن إذا قدِم معاذ بن جبل طاوعناه)[1] وجاء في رواية سيف لحديث أبي موسى بعد قوله: (خامس خمسة على مخاليف اليمن) أنه قال: (أنا ومعاذ وخالد بن سعيد بن العاص، والطاهر بن أبي هالة، وعكاشة بن ثور)[1] وإنما كان خالد بن سعيد من عمال الصدقة مع فروة بن مسيك، وكان عكاشة عاملاً على صدقة السكون مع زياد بن لبيد عامل حضرموت، والمهم من حديث أبي موسى ـ هنا ـ هو أن النبي ﷺ أمرهم جميعاً بطاعة معاذ بن جبل، بما يدل على أن معاذ بن جبل كان أمير جميع عمال رسول الله ﷺ على اليمن منذ شوال سنة ٩ هجرية.

ـ وقد أجمعت الروايات والنصوص التاريخية على تبيين أن رسول الله ﷺ استعمل فروة بن مسيك (على مراد وزُبيد ومذحج كلها)، وتتمثل أهمية ذلك في أن مناطق مذحج لم تكن مترابطة وإنما يمكن تقسيمها إلى قسمين:

أ ـ مناطق مراد وناجية والنخع وأود وعنس وغيرهم من بطون مذحج، وكانت مناطقهم في شبوه وبيحان والبيضاء وعنس والحداء ومأرب، وما تزال منطقة مراد معروفة حتى اليوم في مأرب، فكانت مراد هي مركز ذلك القسم من مناطق مذحج، وقد كان مقر فروة عندما ولاه النبي ﷺ في منطقة مراد، وكان معه قيس بن المكشوح عاملاً على صدقة مراد، فقد ذكر ابن خلدون: أن فروة كان في مراد ومعه قيس بن مكشوح، وأنه (استعمل رسول الله ﷺ قيساً على صدقة مراد).

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ جـ٣ ص٢٤٠.

ب ـ مناطق زُبيد، وصداء، وجُنب، وبني الحرث بن كعب، وبطون سعد العشيرة، وكانت مناطقهم في نجران وعسير وأعالي تهامة، وكانت منطقة زُبيد في تثليث نجران وهي منطقة عمرو بن معدي كرب الزبيدي، فكان فروة بن مسيك عاملاً أميراً على ذلك القسم من مذحج أيضاً، وكان خالد بن سعيد بن العاص عاملاً على صدقة ذلك القسم من مذحج، وقد ذكر ابن خلدون وغيره من المؤرخين أنه (كان على ما بين نجران ورمع، خالد بن سعيد بن العاص) وذلك كعامل على الصدقة في تلك المناطق والقبائل المذحجية في إطار ولاية فروة بن مسيك على مذحج، وقد كان عمرو بن معدي كرب مع خالد بن سعيد في زُبيد وتلك المناطق من مذحج، قال العسقلاني في ترجمة خالد بن سعيد: (وثبت في ديوان عمرو بن معدي كرب أنه مدح خالد بن سعيد لما بعثه النبي ﷺ مصدقاً عليهم بقصيدة قال فيها:

فقلتُ لباغي الخير إن تأت خالداً تُسَّرُ وترجع ناعم البال حامدا)[١]

وقد كان خالد بن سعيد من خيار الصحابة، وكانت أم خالد بن سعيد يمانية وهي أمينة بنت خلف بن سعد الخزاعية، وتزوج أبان بن سعيد بن العاص كبشة أخت قيس بن مكشوح المرادي وكانت كبشة بنت أخت عمرو بن معدي كرب، ونظراً لتلك الروابط بعث رسول الله ﷺ خالد بن سعيد بن العاص عاملاً على الصدقة مع فروة بن مسيك، وكان فروة يتنقل بين قسم مراد وقسم زُبيد، ومما يتصل بذلك، قال ابن هشام: «أقام عمرو بن معدي كرب في قومه من بني زُبيد، وعليهم فروة بن مسيك حتى توفي رسول الله ﷺ». وقال العسقلاني: «رجع عمرو ـ من المدينة ـ إلى قومه، فأقام مسلماً مطيعاً وكان عليهم فروة بن مسيك حتى مات النبي ﷺ».

ـ وقد كان رسول الله ﷺ لما استعمل فروة بن مسيك على مذحج أمره بدعوة من تبقى من مذحج إلى الإسلام، وجاء في الإصابة أن رسول الله ﷺ أوصاه بالدعوة إلى الإسلام، وقال أبو عمرو الشيباني: قال له رسول الله ﷺ: ادع الناس وتألفهم، فإذا رأيت الغفلة فاغتنمها واغز. ويمكن القول أن الجديد في هذا الأمر النبوي هو قوله: (فإذا رأيت الغفلة، فاغتنمها، واغز) وكذلك ذكر الأصفهاني عن أبي عبيدة أن النبي ﷺ قال لفروة: (إذا رأيت الغفلة، فاهتبلها، واغز). ولم تذكر الروايات الطرف الذي أمر النبي ﷺ أميره على مذحج بغزوهم إذا تهيأت الفرصة والظروف لذلك، وما إذا كان المقصود بذلك الفرس المجوس بصنعاء قبل إسلام باذان؟

---

(١) الإصابة ـ ترجمة خالد بن سعيد ـ جـ١ ص٤٠٧.

فأما بصدد إسلام مَنْ تبقى مِنْ مذحج، فقد كان من ثمرة جهود فروة بن مسيك إسلام قبيلة الرها وقبيلة النخع ومسير وفد من كليهما إلى رسول الله ﷺ، قال ابن خلدون: (وفي السنة العاشرة قدم وفد الرها من مذحج في خمسة عشر نفراً وأهدوه فرساً، فأسلموا وتعلموا القرآن وانصرفوا، ثم قدم نفر منهم وحجوا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع). وجاء في عيون الأثر عن وفد النخع إنه: (قدم على رسول الله ﷺ وفد النخع من مذحج، وهم آخر وفد، قدموا للنصف من محرم سنة إحدى عشرة في مائتي رجل، فنزلوا دار الأضياف، ثم جاءوا رسول الله ﷺ مُقرّين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل باليمن)(١) وقد كان معاذ يتنقل بين عمل كل عامل من عمال اليمن، فيكون تارة في الجَنَد وتارة عند أبي موسى الأشعري في زَبيد وتارة عند زياد بن لبيد في حضرموت وتارة عند فروة بن مسيك في مذحج وعند قيس بن مالك الأرحبي في همدان. قال أبو سمرة في الطبقات: (كان معاذ ابن جبل عاملاً لأهل اليمن وحضرموت، فكان معاذ يتنقل في عماله من عامل إلى عامل في اليمن وحضرموت)(٢).

وكان من قبائل مذحج المشهورة: بنو الحرث بن كعب في نجران، قال ابن خلدون: «وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ربيع أو جمادى سنة عشر إلى نجران وما حولها يدعو بني الحرث بن كعب إلى الإسلام.. فأسلموا، وكتب خالد بذلك إلى رسول الله ﷺ فكتب إليه أن يقدم مع وفدهم»، وكذلك ذكر ابن هشام، بينما الذي كان في نجران وما حولها هو خالد بن سعيد بن العاص منذ بعثه رسول الله ﷺ مع فروة بن مسيك، ويبدو أن التباساً وقع بسبب اسم (خالد) فقيل (خالد بن الوليد) وإنما هو خالد بن سعيد بن العاص وأن مسيره إلى بني الحرث بن كعب كان في إطار توجيهات رسول الله ﷺ لفروة بن مسيك بدعوة من تبقى من مذحج إلى الإسلام، وأياً كان الأمر فقد أسلم بنو الحرث بن كعب في ربيع الثاني، ثم سار وفدهم إلى رسول الله ﷺ في جمادى الأول مع خالد، قال ابن خلدون: «فأقبل خالد ومعه وفد بني الحرث بن كعب، منهم: قيس بن الحصين ذو الغصة ـ بن قنان ـ ويزيد بن عبد المدان بن الديان، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قراد الزيادي، وشداد بن عبد الله الضبابي وعمرو بن عبد الله الضبابي، فأكرمهم النبي ﷺ وقال لهم: بِم كنتم تغلبون مَنْ قاتلكم في الجاهلية؟ ـ قالوا: لم نكن نغلب أحداً، قال:

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٦ و٢٣٨ ـ عيون الأثر لابن سيد الناس ـ جـ٢ ص٣٢٨.

(٢) طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة الجعدي ـ ص١٨.

بَلَى كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ـ فقالوا: يا رسول الله كُنّا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم. فقال: صدقتم، فأسلموا ـ أي بايعوا رسول الله ﷺ ـ وأمَّرَ عليهم قيس بن الحصين، ورجعوا في صدر ذي القعدة سنة عشر»[١].

وقد كان قيس بن الحصين بن قنان ويزيد بن عبد المدان من قادة مذحج في ثورة مذحج وموقعة يوم الردم، حيث أسلفنا تبيين ما ذكره الرازي بأنه: (اجتمع جماعة من الرؤوساء فتشاوروا وأجمعوا على حرب باذان بن ساسان عامل كسرى بن هرمز، وكان اجتماعهم بمذاب من الجوف، وكان فيهم عمرو بن معدي كرب، والحصين بن قنان، ويزيد بن عبد المدان، وجماعة من الفرسان والأشراف، فعسكروا عسكراً عظيماً وجمعوا جمعاً كثيفاً، فبلغ ذلك باذان فخرج إليهم من صنعاء في خيل الأساورة ـ الفُرس ـ فخرجت إليه همدان في عشرة آلاف مقاتل وعرضوا عليه الحلف والنصرة)، ثم تولت همدان محاربة مذحج الثائرين بالجوف، فتغلبت همدان على مذحج في موقعة يوم الردم، وكان مِنْ قتلى مذحج في تلك الحرب فوارس الأرباع أخوة قيس بن الحصين، وكانت موقعة يوم الردم قد أدت إلى انكفاء بني الحرث بن كعب، وربما أراد النبي ﷺ أن يعيد إليهم الثقة بأنفسهم فقام بتذكيرهم بأنهم كانوا يغلبون مَنْ قاتلهم في الجاهلية، وسألهم عن سبب ذلك، فقالوا: (يا رسول الله كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم، فقال: صدقتم»، فكان في ذلك التصديق النبوي إشارة إلى أهمية اجتماع جميع مذحج وغيرهم من أجل تحقيق النصر على العدو، ثم إن رسول الله ﷺ اختار شقيق فوارس الأرباع الذين قتلهم حلفاء الفرس في يوم الردم وهو قيس بن الحصين فأسند إليه زعامة بني الحرث بن كعب ونجران، قال ابن هشام عن وفد بني الحرث بن كعب: (فرجعوا في بقية من شوال أو صدر ذي القعدة، وأمَّرَ عليهم رسول الله ﷺ قيس بن الحصين بن قنان الحارثي) وذلك في إطار ولاية فروة بن مسيك على مذحج، والذي كان رسول الله ﷺ قد قال له: «**إذا رأيت الغفلة فاغتنمها وأغز**».

ثورة ذي الحجة ١٠هـ على الفُرس بصنعاء

منذ عودة قيس بن الحصين ويزيد بن عبد المدان مع وفد بني الحرث بن كعب إلى نجران ـ في صدر ذي القعدة ـ بدأت تجري اتصالات واسعة بين زعماء مذحج وهمدان وازد السراة وقضاعة، فأجمعوا على محاربة الفُرس بصنعاء وأن يجتمعوا إلى نجران في ذي الحجة وينطلقوا منها لمحاربة الفُرس بصنعاء وتحرير صنعاء والمناطق التي بيد الفُرس من الحكم الفارسي المجوسي.

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٦ و٢٣٨ ـ عيون الأثر لابن سيد الناس ـ جـ٢ ص٣٢٨.

ولقد تقدم نص الرازي بأن (باذان بن ساسان كان عامل كسرى بن هرمز في اليمن) وكسرى بن هرمز هو كسرى أبرويز بن هرمز، وقد حكم ٣٨ سنة وكان عهده من (٥٩١ ـ ٦٣٠م) وقد كتب إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام سنة ٧هـ-٦٢٧م) فمزق كسرى كتاب النبي ﷺ فلما علم رسول الله ﷺ بذلك قال: مزق الله مُلكه، ولقد خاض كسرى أبرويز بن هرمز حرباً مع هرقل ملك الروم سنة ٩هـ (٦٢٩م) وهي حرب مشهورة تغلب فيها الروم على الفرس ودخلوا المدائن ـ عاصمة كسرى ـ واستعادوا الصليب، وتم بعد ذلك توقيع اتفاقية بين الدولتين الفارسية والرومانية تعهد بموجبها الفرس بعدم الاعتداء على الأقاليم التابعة للروم في تركيا والشام، ويدل ذلك ـ بصفة قاطعة ـ على أنه في سنة ٩هـ (٦٢٩م) كان كسرى أبرويز بن هرمز على قيد الحياة[١].

ولقد اكتفت الروايات بذكر أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى هرقل سنة ٧ هجرية، ولكن التحقيق يدل على إنه كتب إليهما مرتين، وقد ذكر ابن عساكر أن النبي ﷺ كتب وبعث دحية الكلبي إلى هرقل في غزوة تبوك ـ في رجب ٩هـ ـ وذلك هو الكتاب الثاني إلى هرقل، وكذلك كتب النبي ﷺ إلى كسرى مرة ثانية، وذلك بعد فتح مكة وانصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة ـ في ذي القعدة ٨هـ ـ حيث كتب النبي ﷺ إلى عدد من الملوك وبعث المبعوثين إليهم عند عودته من الجعرانة ومكة إلى المدينة في أوائل سنة ٩هـ، فمزق كسرى أبرويز بن هرمز كتاب النبي ﷺ ـ ولا مانع من قيامه بتمزيق الكتاب مرتين إلا إنه في المرة الثانية كان ما رواه ابن إسحاق وغيره من الرواة بأنه ـ (مزق كتاب النبي ﷺ وقال: يكتب إليّ هذا وهو عبدي، ثم كتب كسرى إلى باذان وهو عامله في اليمن أن أبعث إلى هذا الرجل ـ يعني محمداً ـ رجلين من عندك فليأتياني به، فبعث باذان قهرفانهُ بانويه ومعه خرخسرة من الفرس، وكتب إلى محمد ﷺ معهما أن ينصرف إلى كسرى، فقدما على رسول الله ﷺ بالمدينة، فكلمه بانويه وقال: إن شاهنشاه كسرى قد كتب إلى الملك باذان بأن يبعث إليك من يأتيه بك، فبعثني لتنطلق معي، وإنْ أبيتَ فهو من علمت ويُهلكُ قومك ويخرب بلادك. فأخرهما النبي ﷺ إلى غد، وجاءه الوحيّ بأن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله ليلة كذا من شهر كذا لعشر مضين من جمادى الأول). ـ وهناجاء في الرواية المنسوبه إلى ابن إسحاق: (ليلة كذا من شهر كذا لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع). وهو تحديد خاطئ بدليل الحرب بين كسرى بن هرمز ـ هذا ـ وبين هرقل ملك الروم

---

(١) مجلة العربي ـ العدد ٢٣٠ ـ يناير ١٩٧٨م.

سنة ٩هـ (٦٢٩م) ثم التصالح بينهما في أواخر سنة ٩هـ، مما يدل على أن مقتل كسرى لم يكن (لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع)، وإنما كان (لسبع مضين من جمادى الأولى سنة عشر) ـ فدعا النبي ﷺ الرسولين الفارسيين وقال لهما: اذهبا وأخبرا باذان: بأنّ ربي قتل ربك الليلة على يد ابنه، وقولا له: (إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء). فعادا إلى باذان فأخبراه بما قال محمد عن مقتل كسرى، فقال: إن كان الأمر كما قال فهو نبيّ، وانتظر باذان ما سيأتيه من فارس. وكان الوضع مضطرباً في مملكة الفرس بعد مقتل كسرى فلما استتب الأمر لشيرويه بن كسرى كتب إلى باذان بمقتل كسرى واجتماع الأمر لشيرويه وقال له: (خُذلي البيعة مِمَنْ قِبَلك، واعمد إلى ذلك الرجل ـ الذي كتب إليك كسرى بشأنه ـ فلا تُهنه) وجاء في رواية ابن الأثير إنه (كتب ابن كسرى إلى باذان يأمره بأخذ الطاعة له باليمن، وبالكف عن النبي محمد)، وقد كان الزمن الصحيح لذلك في شهر شوال أو في ذي القعدة سنة عشر للهجرة، وهو وقت كان فيه عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح والأسود العنسي وغيرهم من زعماء مذحج وهمدان قد تكاتبوا وأجمعوا على الالتقاء بنجران والمسير منها المحاربة الفرس بصنعاء. وتوجد بشأن موقف باذان بعد وصول كتاب ابن كسرى ثلاث روايات.

تقول الرواية الأولى: وقد ذكرها ابن حجر العسقلاني في الإصابة عن الإمام الشعبي أن باذان لما أتاه كتاب ابن كسرى وعلم بمقتل كسرى كما كان النبي ﷺ قد قال، أسلم باذان، وأنه: (خرج باذان من اليمن إلى النبي ﷺ فلحقه الأسود العنسي فقتله)[1].

وتتفق هذه الرواية مع الرواية الثالثة في إسلام باذان ـ وحده ـ وأما موت باذان فالصواب إنه كان مريضاً فمات بصنعاء في آخر ذي القعدة، وكان خروج ومسير الأسود العنسي والذين تجمعوا بنجران إلى صنعاء في ذي الحجة بعد موت باذان وتمليك ابنه (شُهر بن باذان).

أما الرواية الثانية: وهي الشائعة في العديد من الكتب، فقد رواها سيف بن عمر التميمي ـ وهو من القصاصين المتأخرين غير الموثوق بهم ونقلها عنه الطبري فانتشرت في بقية الكتب، وتقول تلك الرواية: لما أتى باذان كتاب ابن كسرى أسلم، وأسلمت معه الأبناء من الفرس الذين كانوا في اليمن، واستعمله رسول الله ﷺ على اليمن، وتزعم تلك الرواية: أن رسول الله ﷺ حين أسلم باذان أمَّرَه على جميع اليمن ولم يستعمل معه فيها أحداً حتى مات باذان في ذي الحجة سنة عشر

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ١ ص١٧٠.

للهجرة، فَقَسّم النبي ﷺ عمله على جماعة، فولّى على الجَنَد معاذ بن جبل ويعلى بن أمية، وعلى مأرب أبا موسى، وعلى همدان عامر بن شهر، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبي هالة، وعلى ما بين نجران ورمع خالد بن سعيد، وعلى حضرموت زياد بن لبيد وعكاشة بن ثور.. وعلى صنعاء شهر بن باذان). وتلك الرواية غير صحيحة، فالثابت والصحيح في كتب رسول الله ﷺ إنه لما رجع من غزوة تبوك بعث واستعمل معاذ بن جبل على الجَنَد ومناطق حمير وبعث معه العمال المذكورين في كتاب النبي ﷺ وقال في الكتاب (وأميرهم معاذ بن جبل) وذلك في شوال ٩هـ، وبعث واستعمل في ذات الوقت أبا موسى الأشعري على بلاد الأشعريين وعك ـ تهامة ـ ومعه الطاهر بن أبي هالة، وعلى حضرموت زياد بن لبيد ومعه عكاشة بن ثور، وعلى مذحج فروة بن مسيك ومعه خالد بن سعيد، وعلي همدان قيس بن مالك الأرحبي الهمداني ومعه مالك بن نمط الهمداني. ولم يكن بيد الفرس وباذان سوى صنعاء وبعض المناطق فكان ملكاً على الأبناء الفُرس بصنعاء وتلك المناطق ليس إلّا، وقد ذكر ابن خلدون في نبأ المبعوثين اللذين أرسلهما باذان بأمر كسرى إلى النبي ﷺ أن النبي ﷺ أخبرهما بمقتل كسرى وقال لهما: قولا لباذان: (إن أسلمت ملكتك على قومك من الأبناء)، فهذا يؤكد إنه كان ملكاً على الأبناء الفرس في صنعاء وما حولها، وإنه حين يُسلم سيكون عاملاً على صنعاء والأبناء فقط، وذلك في إطار الولاية العامة لمعاذ بن جبل الذي كان هو أمير جميع عمال اليمن منذ السنة التاسعة للهجرة.

وتذكر الرواية الثالثة: وهي أصح الروايات ـ وقد ذكرها ابن سيد الناس في عيون الأثر أنه: «أتى باذان الخبر بمقتل كسرى وهو مريض، فاجتمعت إليه أساورتُه فقالوا: مَنْ تُؤمِّر علينا، فقال: مَلِكٌ مُقبِلٌ ومَلِكٌ مُدبِر، فاتبعوا هذا الرجل وأدخلوا في دينه، ومات باذان»[1]. فقام الأساورة الفرس بتمليك ابنه شُهر بن باذان، وذلك في أواخر شهر ذي القعدة سنة عشر للهجرة، ويتبين من قول باذان للفرس (اتبعوا هذا الرجل وأدخلوا في دينه)، إن أحداً من الفرس لم يكن قد أسلم إلا باذان، بينما كان جميع الفرس الأبناء ما زالوا مجوساً كافرين، فقاموا بتمليك ابنه شُهر بن باذان وهو المقصود في الرواية الأولى بأنه أراد أن يُسلم (وخرج من اليمن ـ صنعاء ـ للمسير إلى النبي ﷺ فلحقه الأسود العنسي فقتله)، وذلك لأنه حين مات باذان وقام الفرس بتمليك شُهر بن باذان، كان زعماء وفرسان مذحج والذين معهم من همدان وخولان وازد السراة قد عسكروا عسكراً عظيماً وجمعوا جمعاً كثيفاً في

(١) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٣٥.

نجران، وانطلقوا إلى صنعاء، وكان فيهم الأسود عبهلة العنسي، والصحابي قيس بن مكشوح المرادي، والصحابي عمرو بن معدي كرب، والصحابي قيس بن الحصين، والصحابي يزيد بن عبد المدان، والصحابي يزيد بن المحجل، ويزيد بن الأفكل الأزدي، وثان ابن ذي جرة الحميري، وغيرهم من زعماء وفرسان مذحج وهمدان وكندة، فوصلوا إلى مشارف صنعاء وذلك (لعشرة أيام من مسيرهم من نجران)، وعند ذلك كان خروج شهر بن باذان من صنعاء والذي قيل إنه خرج يريد المسير إلى النبي ﷺ فلحقه الأسود العنسي فقتله، والأصوب إنه خرج من مدينة صنعاء مع جيش الأساورة للقتال، فعسكروا في معسكر الجيش الفارسي في منطقة حيّ شعوب خارج السور الشمالي القديم لمدينة صنعاء، بينما عسكر اليمانيون الثائرون الذين فيهم الأسود العنسي وقيس بن مكشوح المرادي في مواجهة معسكر الجيش الفارسي بمنطقة حيّ شعوب ـ وذلك في ذي الحجة ـ فالتقى الجيشان، جيش الفرس الأبناء بقيادة شهر بن باذان وجيش مذحج واليمانيين بقيادة قيس بن مكشوح المرادي، وأسفر القتال عن مقتل شهر بن باذان وهزيمة الفرس هزيمة ساحقة في تلك الموقعة حيث تم النصر للثائرين وذلك (لخمس عشرة ليلة من مسيرهم من نجران)، وتُسمى تلك الموقعة باسم (يوم صنعاء) وكان مقتل شهر بن باذان على يد قيس بن مكشوح المرادي، وفي ذلك قال ابن ذي جرة الحميري:

لَعَمْرِكَ أنّا يوم صنعاء عصبة ... يمانية الأحساب غير لئام
غداة جَدَعْنَا فَيِّ (شُهر) بضربة ... أبَانَ بها المكشوحُ رأس هُمام

وكان النصر ودخول صنعاء في أوائل ذي الحجة سنة ١٠هـ، وصلى المسلمون صلاة العيد في ساحة من معسكر الفرس بمنطقة شعوب وهي التي أصبحت منذ ذلك اليوم (المشهد) الذي تتم فيه صلاة العيد بصنعاء[1] وسُميت المنطقة التي دارت فيها الموقعة وتم فيها النصر على الفُرس باسم (فروة بن مسيك) وما تزال تحمل اسم (فروة بن مسيك) حتى اليوم وفيها مسجد صغير بناه فروة بن مسيك رضي الله عنه.

ومن المفيد هنا التنبيه إلى ما يلي:

أن الأسود عبهلة العنسي كان من أبرز زعماء مذحج الذين تكاتبوا واتفقوا على التجمع في نجران والانطلاق منها لمحاربة الفرس بصنعاء، ووصل الأسود

(١) تم قبل نحو عشرين سنة بناء مسجد حديث في موقع المشهد التليد وسُمي جامع فروة بن مسيك وهو غير جامع فروة بن مسيك القديم الصغير.

العنسي من منطقة خبّ بالجوف إلى نجران في سبعمائة مقاتل، ووصل قيس بن مكشوح في فرسان مراد، وعمرو بن معدي كرب في فرسان زُبيد، وعشرات القادة من مذحج وهمدان وكندة وأزد السراة، ثم انطلقوا من نجران إلى صنعاء، وبما أن الأسود العنسي كان أبرز شخصيات وزعماء مذحج في ذلك التجمع بنجران والمسير إلى صنعاء ثم إنه ارتد وادعى النبؤة بعد النصر ودخول صنعاء بأمد يسير ـ في محرم ١١هـ ـ فقد دمجت الروايات بين واقعة التجمع بنجران والمسير إلى صنعاء ـ في ذي الحجة ـ وبين ردة الأسود العنسي بعد ذلك في صنعاء، وبسبب ذلك الدمج قيل بأن زعماء مذحج لما تكاتبوا وتواعدوا على التجمع بنجران مع الأسود العنسي، (وثبوا بها، واخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص من نجران، ووثب قيس بن مكشوح على فروة بن مسيك وهو في مراد فأجلوه من مراد، ولحق قيس بالأسود العنسي في نجران، وكان عمرو بن معدي كرب مع خالد بن سعيد بن العاص فخالفه ولحق عمرو بالأسود، ثم ساروا من نجران، وكان أمر جند الأسود العنسي إلى قيس بن المكشوح في ذلك المسير وفي موقعة يوم صنعاء التي تم فيها هزيمة الفرس ودخول صنعاء.

ـ والظاهر أن الأسود العنسي لم يكن قد أظهر أي نوايا مشبوهة عند التجمع في نجران والمسير إلى صنعاء والانتصار على الفرس، ولم يظهر منه المخالفة ثم ادعاء النبؤة إلا فيما بعد دخول صنعاء بفترة ـ في محرم ١١هـ ـ وقد أشارت الروايات إلى ذلك مجرد إشارة ولكنها إشارة بالغة الأهمية، حيث قال الطبري: (كان الأسود العنسي متستراً بأمره حتى بادى بعد)[١] ووصفه القرطبي بأنه (الأسود العنسي الكذاب المتنبئ بصنعاء) وقال إنه (كان قبل ذلك متستراً)[١] وبالتالي يمكن القول إن فروة بن مسيك بل وخالد بن سعيد بن العاص كانا من الصحابة الذين ساروا من نجران في ذلك الجيش مع قيس وعمرو والأسود العنسي إلى أن تم النصر على الفرس في موقعة يوم صنعاء وذلك (لخمس وعشرين ليلة من اجتماعهم بنجران) فدخلوا صنعاء في أوائل ذي الحجة، ثم رجع كثير من الذين شاركوا في الموقعة إلى مناطقهم في مذحج وهمدان وغيرها، ورجع فروة إلى مراد، بينما أقام بصنعاء مع الأسود العنسي قيس بن مكشوح، وعمرو بن معدي كرب، وخالد بن سعيد بن العاص، وجموع من مذحج وهمدان.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ جـ٢ ص٢١٤ ـ الاستيعاب للقرطبي ـ جـ٣ ص٢٠٥.

إدعاء الأسود العنسي للنبوة بصنعاء والقضاء عليه

كانت موقعة يوم صنعاء سالفة الذكر في ذي الحجة ١٠ هجرية ورسول الله ﷺ في حجة الوداع وكان قد سار من اليمن وشهد حجة الوداع معاذ بن جبل أمير عمال اليمن وأبو موسى الأشعري وجرير بن عبد الله البجلي وعمرو بن حزم والعديد من شخصيات وزعماء اليمن والآلاف من شتى مناطق وقبائل اليمن، وانصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة المنورة في أواخر ذي الحجة، ومعه معاذ بن جبل وعدد من العمال والزعماء، ثم أمر رسول الله ﷺ معاذاً بالعودة إلى عمله أميراً على اليمن، واستعمل رسول الله ﷺ عمرو بن حزم الأنصاري على نجران، والطاهر بن أبي هالة على (عك) أو (مأرب)، والمهاجر بن أبي أمية على صنعاء، فتوجه معاذ إلى حضرموت ونزل في السكون ـ لأنه كان يتنقل في عمل كل عمال اليمن ـ وتوجه بقية العمال إلى أعمالهم، وكان أغلبهم في أعمالهم التي هم عليها ومنهم فروة بن مسيك عامل مذحج وكان مقيماً في (الأحسية من مراد) بينما وصل إلى صنعاء المهاجر بن أبي أمية المخزومي الذي بعثه النبي ﷺ عاملاً على صنعاء، وكان بصنعاء الأسود العنسي وقيس وعمرو وخالد بن سعيد بن العاص، فلما وصل المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، تمرد الأسود العنسي وتغلب على صنعاء وأخرج المهاجر بن أبي أمية ثم ارتد وادعى النبوة بصنعاء، وذلك في شهر المحرم سنة ١١هـ بعد وصول المهاجر إلى صنعاء وليس قبل ذلك، وهو ما تنطق به وتدل عليه العديد من النصوص والمصادر الموثوقة، فقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية إنه: (بعث رسول الله ﷺ عماله وأمرائه. فبعث المهاجر بن أبي أمية على صنعاء، فخرج عليه الأسود العنسي وهو بها)[١] وكذلك جاء في كتاب الكامل لابن الأثير[١] وقال العسقلاني في ترجمة المهاجر بالإصابة: (ولاه النبي ﷺ على صنعاء فخرج عليه الأسود العنسي)[١] وجاء في تاريخ الرازي أنه «بعث النبي ﷺ المهاجر بن أبي أمية على صنعاء، فخرج عليه الأسود العنسي وغلب على صنعاء وهو بها، فرجع المهاجر إلى المدينة»[١] وقال البلاذري: (غلب الأسود العنسي على صنعاء.. وأخرج المهاجر فانحاز المهاجر إلى ناحية زياد بن لبيد)[٢] ثم ارتد الأسود العنسي وادعى النبوة بصنعاء، ولم يعترض على خروج الذين ليسوا معه، فخرج منها أغلب الذين دخلوها من اليمانيين المسلمين في موقعة يوم صنعاء كما

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٧١ ـ الكامل لابن الأثير ـ جـ٢ ص٢٠٥ ـ الإصابة ـ ص٢٠٥ ـ تاريخ صنعاء للرازي ـ ص٨٠ و٤٩٦.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٤ ـ الإصابة ـ جـ٣ ص٥٨٥.

خرج منها الصحابيان خالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن معدي كرب، بينما اختار قيس بن مكشوح البقاء بصنعاء في جماعة من فرسان مذحج وهمدان والتظاهر بالولاء للأسود العنسي إلى أن تأتي تعليمات النبي ﷺ، وقد ذكر العسقلاني أنه: (لما غلب الأسود العنسي على صنعاء فَرَّ غالب أهلها)[١] وقال البلاذري: (غلب الأسود العنسي على صنعاء وأخرج خالد بن سعيد بن العاص عنها)[١] وأما عمرو بن معدي كرب فقد نصح قيس بن مكشوح بأن يخرج معه من صنعاء ويسيرا إلى رسول الله ﷺ ولا يبقى مع الأسود العنسي ذي الخمار بصنعاء فرفض قيس، فخرج عمرو من صنعاء وسار إلى فروة بن مسيك في مراد وأخبره بخبر الأسود العنسي، فانطلق فروة بالخبر إلى رسول الله ﷺ.

* * *

قال الطبري: (كان أول خبر وقع إلى النبي ﷺ عن فعل الأسود العنسي من قِبل فروة بن مسيك)[٢]. فأخبر فروة بن مسيك رسول الله ﷺ بأن الأسود العنسي تغلب على صنعاء عندما وصل المهاجر بن أبي أمية وأخرج المهاجر، ثم ارتد وادعى النبؤة، وأن قيس بن مكشوح معه بصنعاء يتظاهر بطاعته، فبادر رسول الله ﷺ باتخاذ الإجراءات التي ذكرتها المصادر التاريخية، وفي ذلك قال البلاذري: (لما بلغ رسول الله ﷺ خبر الأسود العنسي بعث فروة بن مسيك وقيس بن مكشوح المرادي لمصاولته)[٢] والمقصود أنه أمر فروة بن مسيك باستنفار مذحج والمسير لمصاولة الأسود، كما بعث رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى قيس بن مكشوح في صنعاء يأمره بالعمل على مصاولة الأسود العنسي وكان المبعوث وبر بن يحنس الخزاعي، قال ابن كثير: «فلما أعلم وبر بن يحنس قيساً وأنبأه الشأن وأبلغه عن النبي ﷺ كان كأنما وقع عليه من السماء لأنه كان في غَمّ وضيق من أمره»[١] فأخذ قيس في استمالة بعض الأبناء الفرس والعمل من داخل صنعاء، وكان مع قيس جماعة من فرسان مذحج وهمدان داخل صنعاء، وقد كتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل وأبي موسى وسائر العمال بالتوجه إلى صنعاء، وبعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع الحميري وحوشب ذي ظليم بالمسير بفرسان مناطق حمير إلى صنعاء، كما بعث رسول الله ﷺ الأقرع بن عبد الله الحميري إلى عمير ذي مران الهمداني وسعيد العاقب الهمداني بالمسير بفرسان همدان لمصاولة

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٤ ـ الإصابة ـ جـ٣ ص٥٨٥.

(٢) تاريخ الطبري ـ جـ١ ص٢٦٧ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص١١٤ ـ البداية والنهاية لابن كثير ـ جـ٦ ص٣٠٧.

الأسود العنسي بصنعاء، بينما استنفر فروة بن مسيك فرسان مذحج، فأقبل الأمراء والعمال والزعماء والفرسان من أرجاء اليمن وحاصروا صنعاء، (فكتب إليهم قيس بن مكشوح: أن لا تُحدثوا شيئاً حتى نبرم أمرنا).

وكان قيس قد استمال فيروز الديلمي وداذويه فاشتركا معه في تدبير وتنفيذ قتل الأسود العنسي في الليل، قال ابن كثير: (فلما كان الصباح قام قيس على سور المدينة..) حيث كما ذكر البلاذري: (علا قيس سور المدينة، فقال: الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإن عبهلة كذاب، وخرج أصحاب قيس ففتحوا الأبواب، فدخل المسلمون ـ وهم الأمراء والعمال والفرسان المحيطين بصنعاء ـ وانهزم أصحاب الأسود العنسي لما ألقى إليهم قيس برأس الأسود، وظهر الإسلام وأهله)[1] وكان من الأمراء والزعماء الذين دخلوا صنعاء في ذلك اليوم معاذ بن جبل، وفروة بن مسيك، وجرير بن عبد الله البجلي، وأبو موسى الأشعري، وعمير ذو مران، وسميفع ذو الكلاع، وحوشب ذو ظليم، فاستتب الأمر بصنعاء، وصلى معاذ بن جبل بالناس في صنعاء، قال ابن خلدون: «وكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر، وكان قد أتى النبي ﷺ خبر الواقعة من السماء فقال في غداتها: قُتل العنسي الكذاب بصنعاء البارحة». وكان مقتله في أواخر صفر سنة ١١هـ، ورجع العمال والقادة إلى أعمالهم ومناطقهم في مخاليف اليمن، وأقام معاذ بن جبل بصنعاء لأنه أمير رسول الله ﷺ على جميع اليمن.

معالم سنوات فروة الأخيرة

وكان فروة بن مسيك من الصحابة الذين ذكرت المصادر التاريخية إنهم بنوا الجامع الكبير بصنعاء، وهم معاذ بن جبل، ووبر بن يحنس، وفروة بن مسيك، وذلك في حياة رسول الله ﷺ، وقد عاد ـ واستمر ـ فروة بن مسيك إلى عمله أميراً على مذحج ومعه خالد بن سعيد بن العاص عاملاً على الصدقة، حتى وفاة رسول الله ﷺ ـ في ربيع أول ١١هـ ـ وكذلك كان مع فروة عمرو بن معدي كرب، ويُروى أنه غضب من فروة فقال يهجوه: (وجدنا مُلك فروة شرَّ مُلكٍ.. الخ). ولا يخلو ذلك الهجو من فائدة فهو يؤكد أن فروة بن مسيك كان أميراً على مذحج واستمر كذلك في خلافة أبي بكر بحيث وصفه عمرو بأنه (ملك)، وما لبث أن صفا الجو وعاد الوداد بين فروة وعمرو بن معدي كرب.

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٤ ـ وسيأتي نباء يوم صنعاء وأمر الأسود العنسي بالتفصيل في المبحث التالي عن قيس ابن مكشوح المرادي.

وقد انطلق قيس بن مكشوح وعمرو بن معدي كرب إلى ميادين الجهاد والفتوحات بالشام في مطلع سنة ١٣هـ ومكث فروة عاملاً على مذحج في إطار ولاية يعلى بن منيه الذي ولاه عمر بن الخطاب على اليمن، فقد ذكر العسقلاني في الإصابة وابن سعد في الطبقات أنه (استعمل عمر بن الخطاب فروة بن مسيك على صدقة مذحج)(١).

ثم كان فروة بن مسيك من الزعماء والقادة الذين انطلقوا مدداً للجيش العربي الإسلامي في فتوح العراق، فسكن فروة بالكوفة حينما تم اختطاطها سنة ١٧هـ، وفي ذلك جاء في الإصابة عن ابن سعد وعن البغوي أن فروة بن مسيك: «سكن الكوفة» وذكره البخاري في الصحابة الذين سكنوا الكوفة فقال إنه: «يعد في الكوفيين»(١) وقال القرطبي في الاستيعاب «انتقل فروة بن مسيك إلى الكوفة في زمن عمر فسكنها»(١) وقد سكن الكوفة أيضاً عمرو بن معدي كرب، وكان فروة وعمرو وقيس بن المكشوح بالكوفة في ولاية عمار بن ياسر العنسي للكوفة وموقعة نهاوند سنة ٢٠ هجرية.

وعاد فروة بن مسيك إلى اليمن ـ في أواخر حياته ـ وسكن في الحيّ الذي سُميّ باسمه ـ (حيّ فروة بن مسيك) ـ في صنعاء إلى أن توفي وتم دفنه في قبره بمسجد فروة بن مسيك حيث ما يزال قائماً حتى اليوم قبر ومسجد فروة بن مسيك رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) الإصابة ـ ترجمة فروة بن مسيك ـ جـ٣ ص٢٠٥ ـ الاستيعاب ـ جـ٢ ص٢٠٠.

١٣

قيس بن مَكْشُوح المُرَادي

ـ بطل اليمن في فجر الإسلام ـ

من أعلام اليمن والعروبة والإسلام في فتوحات العراق والشام ومصر وبلاد فارس هو الزعيم الصحابي قيس بن مكشوح المرادي. قال عنه ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

«هو أحد الصحابة الذين شهدوا فتح نهاوند، وله ذكر صالح في الفتوحات بالقادسية وغيرها.. وكانت فيه نجدة وبسالة، وكان شجاعاً فارساً بطلاً شاعراً، وهو ابن أخت عمرو بن معدي كرب الزُبيدي.. وهو القائل:

فلو لاقيتني لاقيت قرناً ... وودعتَ الأحِبَّة بالسلام
ومِثلك قد قَرَنْتُ له يديه ... إلى اللحيين يمشي في الخطام»[١]

* * *

وقيس بن مكشوح هو: ـ قيس بن هبيرة المكشوح بن عبد يغوث بن الغُزيل ـ بمعجمتين مصغراً ـ ابن بداء بن عامر بن عوثبان بن زاهر بن ناجية بن مراد المرادي. والمكشوح: لقبُ لأبيه هبيرة. قال ابن الكلبي: قيل له المكشوح لأنه ضُرِب على كشحه أو كُويّ. وينبغي أن يُكتب ابن مكشوح بألف، فإنه لقبُ لأبيه لا اسم)[٢].

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في الإصابة أنه: (اختُلِف في اسم أبيه ونسبه.. واختلف في صحبته)[٢] والواقع أن سبب الاختلاف هو وقوع خلط والتباس من بعض الرواة بينه وبين (قيس بن عبد يغوث بن مكشوح بن هلال بن الحرث بن عمرو بن عامر بن أسلم بن أحمس بن أنمار البجلي، الذي شهد صفين مع عليّ، وقُتل في صفين). فقيس بن عبد يغوث بن مكشوح البجلي الذي شهد صفين ليس صحابياً، بينما قيس بن مكشوح المرادي المذحجي كان صحابياً وهو الذي قتل (شُهر بن باذان: وقتل (الأسود العنسي) وقد أدرك ذلك ابن حجر

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ جـ٣ ص٢٤٤.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ جـ٣ ص٢٧٤ ـ ٢٧٥.

العسقلاني فقال: «ثم اتضح لي الصواب من كلام ابن دريد، فإنه فَرّق بين قيس بن مكشوح الذي قتل الأسود العنسي وبين قيس بن المكشوح البجلي الذي شهد صفين، وهذا هو الصواب.. وكان قيس بن مكشوح المرادي فارساً شجاعاً.. وقد جزم دعبل بن علي في طبقات الشعراء بأن له صحبة.. وهو ابن أخت عمرو بن معدي كرب.. وهو القائل:

فلو لاقيتني لاقيتَ قرناً ... وودعتَ الأحبة بالسلام»[١]

من أنباء قيس في الجاهلية

لقد كان قيس من زعماء وفرسان مذحج المشهورين في الجاهلية، فهو زعيم ورئيس بني زاهر بن ناجية بن مراد ـ الذين كانوا غالبية مراد ـ وكان بمثابة القائد الحربي العام لقبيلة مراد ومن يليها من قبائل وبطون مذحج في الحروب، وقد وصفه القاضي المؤرخ محمد بن علي الأكوع الحوالي قائلاً: «كان قيس بن المكشوح زعيماً عظيماً من زعماء مذحج ثم من مراد، ورئيساً كبيراً، وفارساً نجداً، وشاعراً مجيداً، وسيداً كريماً، وكان مِن علماء النجوم والأنواء: سأله سليك بن سعد أن يصف له منازل قومه، فقال قيس: سر ما بين مهب الجنوب والصَبَا، ثم سر حتى لا تدري أين ظل الشجرة، فإذا انقطعت المياه فسر رابعاً حتى تبدو لك رملة، وأقفُ بينهما الطريق، فإنك تَرِدُ على منازل قومي. أو: فثمّ منازل قومي»[٢].

ومنطقة قيس هي منطقة مراد وهي ناحية جبل مراد وناحية الجوبة بمحافظة مأرب حالياً[٣]. وكانت مناطق مراد تمتد إلى منطقة وادي مذاب في الجوف والي معين وبراقش في الجاهلية.

وقد شهدت تلك المنطقة من الجوف اجتماع رؤساء مذحج لمحاربة الفُرس المجوس بصنعاء، وهو الاجتماع الذي ذكره الرازي قائلاً: «اجتمع جماعة من الرؤساء فتشاوروا وأجمعوا على حرب باذان بن ساسان عامل كسرى بن هرمز في

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ جـ٣ ص٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٢) قرة العيون لابن الديبع ـ تحقيق محمد بن علي الأكوع ـ ص٦٧.

(٣) من أعلام قبيلة مراد في عصرنا آل القردعي، منهم الشهيد الشيخ علي ناصر القردعي الذي تصدى لطغيان الإمام يحيى حميد الدين وصوّب رصاصته إلى صدر الطاغية في حركة الأحرار الدستورية عام ١٩٤٨م، ومن أعيان ورجالات مراد البواسل الشيخ علي ناصر طريق وهو من رجالات الثورة والجمهورية ومن المشائخ المثقفين، والعقيد على عبد ربه القاضي وهو من الضباط القادة الوطنيين القوميين البواسل، والشيخ علي القبلي نمران، والشيخ غالب الأجداع، وأمثالهم من مشائخ وأعيان ورجالات قبيلة مراد المذحجية السبائية العريقة.

اليمن، وكان اجتماعهم بمذاب في الجوف، وكان فيهم عمرو بن معدي كرب، والحصين بن قنان، ويزيد بن عبد المدان الحارثي، وعنبسة بن سحيم الخولاني، وجماعة من الفرسان والأشراف، فعسكروا عسكراً عظيماً وجمعوا جمعاً كثيفاً. وبلغ ذلك باذان فخرج إليهم في خيل الأساورة، وخرجت همدان في عشرة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل في عدة كاملة وعرضوا على باذان النُصرة والحلف، وذلك أن همدان لم تزل تميل ميل الأساورة وتنصرهم»(١).

ثم تولت همدان الدور الرئيسي في الهجوم على الثائرين الذين كانت غالبيتهم مذحج، حيث دارت موقعة يوم الردم التي كان من زعماء وفرسان مذحج فيها، فروة بن مسيك، وعمرو بن معدي كرب، ويزيد بن عبد المدان، والحصين بن قنان ـ والد فوارس الأرباع ـ وقيس بن مكشوح، وسيف بن معاوية بن قيس الجُنبي، وكانت همدان في عشرة آلاف مقاتل ومعها خيل كثيفة ـ أمدهم بها باذان غالباً ـ وربما اشترك مع همدان بعض الأبناء (الفُرس/الأساورة)، فتغلبت همدان على مذحج، حيث قُتل في المعركة شهاب بن الحصين وأخوته فوارس الأرباع، وقُتل مرثد وعمرو بن مرثد المرادي وعندئذٍ أدركت مذحج تفوق العدو فانسحبت مذحج، فتغلبت همدان في تلك الموقعة والتي قال فيها فروة بن مسيك:

فإن نَغْلِبْ فغلابون قُدماً وإنْ نُغلبْ فغير مُغلبينا
وما إن طِبُنَا جُبنٌ ولكن منايانا ودولة آخرينا

وأقسم قيس بن مكشوح بأنه سيأخذ بثأر مرثد وعمرو من الأبناء (الفُرس) في صنعاء ذات يوم، وهو ما حدث في موقعة يوم صنعاء التي نذكر قبلها إسلام ووفادة قيس إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام.

* * *

وفادة قيس وصحبته للنبي ﷺ

كانت أنباء بعثة النبي محمد ﷺ بمكة قد وصلت اليمن منذ وقت مبكر، سواءً عن طريق الذين يقصدون مكة للحج والتجارة، أو الذين أسلموا وعادوا إلى مناطقهم وقبائلهم باليمن يدعون إلى الإسلام منذ سنوات ما بعد البعثة بمكة أمثال الطفيل بن عمرو الدوسي وضماد بن ثعلبة وأبو عامر الأشعري وقيس بن مالك نمط الأرحبي وأبو موسى الأشعري، وكانت ديار بني زُبيد ـ قوم عمرو بن معدي كرب ـ في منطقة تثليث بأعالي نجران قريبة من مكة، فسمع عمرو بظهور النبي ﷺ منذ

---

(١) تاريخ صنعاء ـ للرازي ـ ص٣٦.

وقت مبكر، فأراد المسير مع ابن أخته قيس بن مكشوح المرادي لمعرفة النبأ اليقين، فقد جاء في السيرة النبوية لابن هشام إنه: «كان عمرو قد قال لقيس بن مَكْشوح المرادي: يا قيس، إنك سيد قومك، وقد ذُكِر لنا أن رجلاً مِنْ قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول: إنه نبيّ. فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه فإن كان نبياً كما يقول فإنه لن يَخْفَى عليك، إذا لقيناه اتبعناه. وإن كان غير ذلك علمنا علمه. فأبى عليه قيس ذلك»(١).

والظاهر من تلك الرواية أن كلام عمرو مع قيس كان في سنوات البعثة بمكة، ولم يقبل قيس بفكرة عمرو بن معدي كرب آنذاك.. وتقول الرواية: (فركب عمرو حتى قدم على رسول الله ﷺ فأسلم، وصَدَّقَهُ، وآمن به)، ثم تقول الروايات أن عمراً قال لقيس آنذاك:

أَمَرْتُك يَوْمَ ذي صَنْعَاء أمْراً بَيِّناً رَشَدُهْ
(رسول الله تأتيه وللمعروف تَتَّعِدُه)

بينما هذه الأبيات إنما هي في (يوم ذي صنعاء) بعد موقعة يوم صنعاء ـ في ذي الحجة ١٠هـ ووفادة عمرو إلى النبي ﷺ إنما كانت في رجب ٩هـ مع فروة بن مسيك ووفد مذحج، ولم تكن حين عرض عمرو فكرة المسير إلى النبي ﷺ على قيس فقد كان ذلك في وقت مبكر ـ قبل الهجرة النبوية إلى يثرب ـ وقد أجلّ عمرو فكرة المسير آنذاك، ثم أخذ دين الإسلام ينتشر تدريجياً في قبائل اليمن ومنها مذحج ومراد، فكان من أوائل من أسلم من مراد (الجعد بن قيس الغطيفي المرادي) ثم (فروة بن مسيك المرادي) وهاجر فروة إلى رسول الله ﷺ في صفر سنة ٧هـ ثم عاد إلى اليمن يدعو قومه إلى الإسلام، وكان عمرو قد أسلم باليمن، وكذلك أسلم قيس وأخته كبشة وأسرته.

* * *

وفي رجب ٩ هجرية انطلق فروة بن مسيك في وفد من مذحج ومعه عمرو بن معدي كرب في ناس من بني زُبيد، فلقوا رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك ـ في أوائل رمضان ٩هـ ـ ثم ما لبث أن لحق بهما قيس بن مكشوح، ويبدو أنه لم يرغب في أن يسير في نفس موكب مذحج مع فروة وعمرو لوجود أخته كبشة معه، فسار قيس ومعه أخته كبشه بنت مكشوح يؤمّان رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة في أعقاب مسير فروة وعمرو في موكب مذحج، وقد نزل فروة وعمرو بمنزل سعد بن

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥٢.

عبادة الأنصاري، فلما وصل قيس وأخته كبشة نزلا بمنزل سعد بن عبادة، والتقى قيس برسول الله ﷺ فبايعه، ومكث فترة بالمدينة المنورة، ومما يتصل بذلك وبصحبته للنبي ﷺ ما يلي:

ـ إن قيس بن مكشوح كان قد أسلم، ووفد إلى النبي ﷺ وصحب النبي ﷺ فترة بالمدينة المنورة، وفي ذلك قال ابن خلدون: (وقد كان فروة وعمرو أسلما ـ وقدما على النبي ﷺ ـ وكذلك قيس)(١). وقال ابن حجر العسقلاني في ترجمته بالإصابة: (وقد جزم دعبل بن علي بأن لقيس بن مكشوح صُحبة). وقال القرطبي في ترجمة قيس: (هو أحد الصحابة الذين شهدوا فتح نهاوند) وقال ابن خلدون: (استعمل رسول الله ﷺ قيساً على صدقات مراد)(١) وبذلك تتظافر النصوص والدلائل على أن قيساً من الصحابة.

ـ وكانت مع قيس لما وفد إلى المدينة المنورة أخته كبشة بنت مكشوح، وهي مذكورة في النساء الصحابيات، وقد نزلت مع أخيها قيس بمنزل سعد بن عبادة وكذلك فروة بن مسيك وعمرو بن معدي كرب، وبينما هم في المدينة وصل وفد كندة بزعامة الأشعث بن قيس الكندي، فأقام فترة بالمدينة وصحب رسول الله ﷺ، فتزوج الأشعث بن قيس الكندي بأخت أبي بكر الصديق، وتزوج أبان بن سعيد بن العاص بأخت قيس بن مكشوح، وفي ذلك جاء في ترجمتها بكتاب الإصابة: (كانت كبشة بنت مكشوح المرادية، أخت قيس الفارس المشهور، موصوفة بالجمال، وتزوجها إبان بن سعيد بن العاص، زوَّجَها إياه أخوها قيس)(٢) وقد كان من الصحابة المهاجرين بالمدينة من مذحج (عبد الله بن سعد بن جابر السلهمي المذحجي، وتزوج عبد الله بن سعد آمنة بنت عفان أخت عثمان بن عفان، فولدت له ابنه محمداً بالمدينة، وكانت تحته أخت أم سلمة زوج النبي ﷺ أيضاً)(٣). وقد وقعت المصاهرات بالمدينة المنورة.

ـ وأثناء وجود قيس بن مكشوح والعديد من الوفود بالمدينة وصل إليها الشخصان الفارسيان المجوسيان اللذان كتب كسرى أبرويز بن هرمز ملك الإمبراطورية الفارسية إلى باذان بن ساسان عامله في صنعاء بأن يبعثهما ليأتياه بالنبي محمد ﷺ. وهو موقف

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٣.

(٢) الإصابة ـ ترجمة كبشة بنت مكشوح المرادية ـ جـ٤ ـ وسيأتي بناء زواج الأشعث بن قيس باخت أبي بكر في المبحث الخاص بالأشعث.

(٣) الإصابة ـ ترجمة عبد الله بن سعد السلهمي المذحجي ـ جـ٢ ص٣١٦.

يُمثل ذروة الغرور الفارسي المجوسي بصفة عامة، وغرور واستخفاف كسرى أبرويز بن هرمز بصفة خاصة. ومن المفيد أن نذكر هنا الخلفيات التالية:

ـ لقد حكم كسرى أبرويز بن هرمز ٣٨ سنة، وذلك منذ حوالى عام ٥٩١م، وكان باليمن نحو ستمائة من الفُرس الذين أمَدّ بهم كسرى أنوشروان سيف بن ذي يزن وساهموا في القضاء على الأحباش ـ عام ٥٧١م ـ فأسكنهم سيف بمنطقة من صنعاء، فلما مات سيف بن ذي يزن، أخذ الدعم الفارسي يتحول إلى احتلال فقد بعث كسرى أبرويز قوة من الفُرس عن طريق البحر، ثم بعث ـ سنة ٥٩٤هـ ـ أربعة آلاف من الفرس مع عائلاتهم براً، فاستقروا بصنعاء، واستتب الحكم فيها للفرس وحاكمهم باذان.

ـ وقام كسرى أبرويز بن هرمز بالقضاء على مملكة العرب المناذرة في الحيرة وما حولها إذ إنه قام بحبس النعمان بن المنذر (آخر الملوك المناذرة) فمات النعمان في الحبس، قال أحمد أمين: (وكان ذلك حوالي عام ٦٠٢م، وبموت النعمان ألغت الحكومة الفارسية نظام إمارة اللخميين ـ المناذرة ـ بالحيرة، وولّت من قِبلها حاكماً فارسياً يخضع له أمراء العرب)[1] وكان ذلك حوالى سنة ٦١٢م، حيث أدت مضاعفات ذلك إلى وقوع معركة بين جيش فارسي وقبائل عربية في (ذي قار) فانهزمت الفرس، وقد جاء في تاريخ الطبري (أن النبي ﷺ قال: هذا أول يوم انتصفت فيه العربُ من الفُرس، وبي نُصروا) قال أبو عبيدة ـ كانت وقعة ذي قار ـ «وقد بُعث النبي ﷺ فقال النبي ﷺ في ذلك: اليوم انتصفَتِ العربُ من العجم بي. فحُفِظ ذلك اليومُ فإذا هو يومُ وقعة ذي قار»[2] وقد بُعث النبي ﷺ لعشرين سنة من عهد كسرى أبرويز ـ سنة ٦١٠م ـ وكانت ذي قار ـ حوالى سنة ٦١٢م ـ وقد استمر الفُرس في حكمهم المباشر على إمارة الحيرة، وكذلك على مناطق من منطقة البحرين والخليج العربي بالإضافة إلى صنعاء وبعض المناطق في اليمن.

ـ وتمكن الفرس في عهد كسرى أبرويز بن هرمز من هزيمة الروم في تخوم تركيا والشام ودخلوا الشام فقتلوا ونهبوا وأخذوا الصليب المقدس من بيت المقدس وعادوا بالظفر والغنائم إلى عاصمتهم (المدائن) ـ بالعراق ـ ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: ١ ـ ٣] صدق الله العظيم، ثم انتصر الروم بقيادة الملك هرقل على الفرس وملكهم كسرى أبرويز بن هرمز ودخل الروم المدائن واستعادوا الصليب، وذلك سنة ٩هـ الموافق ٦٢٩م، وتم بعد ذلك إبرام

---

(١) فجر الإسلام ـ لأحمد أمين ـ ص١٥.

(٢) كتاب النقائض ـ لأبي عبيدة البصري ـ ص٦٣٩.

اتفاقية بين الفرس والروم، وصلحت العلاقة بينهما، ويدل ذلك على أن كسرى أبرويز بن هرمز كان على قيد الحياة حتى أواخر السنة التاسعة للهجرة.

ـ وكان رسول الله ﷺ قد بعث إلى كل من هرقل ملك الروم وكسرى ملك الفرس يدعوهما إلى الإسلام، في سنة ٧هـ، ثم بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل مرة ثانية ـ في رجب ٩هـ ـ وكذلك يكون الأمر بالنسبة لكسرى أبرويز بن هرمز، فمزق كسرى كتاب النبي ﷺ ـ ربما للمرة الثانية ـ ولم يقتصر الغرور والاستخفاف الفارسي المجوسي بالنبي ﷺ والعرب على تمزيق كتاب النبي ﷺ وإنما قال كسرى: (يكتب إليّ هذا وهو عبدي. ثم كتب إلى باذان وهو عامله في اليمن: أنْ ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز ـ الذي يقول أنه نبيّ ـ رجلين من عندك جَلْدين فليأتياني به)[١].

ـ وبينما قيس بن مكشوح في المدينة وصل الرجلان اللذان بعثهما باذان، وكان أحدهما (خرخسرة من الفرس) وتذكر الروايات ثانيهما بأنه (بانويه قهرمان باذان وكان حاسباً كاتباً بكتاب فارس)، ويبدو أن تصحيفاً وقع في اسمه وأنه (داذويه). وكان من أشد الفرس المجوس استخفافاً بالعرب وكان هو الذي كلم النبي ﷺ لما وصل مع (خرخسرة) إلى المدينة، حيث قال: «إن شاهنشاه[٢] ـ كسرى ـ قد كتب إلى الملك باذان أن يبعث إليك من يأتيه بك، وبعثني لتنطلق معي، وإن أبَيْتَ فهو من علمت ـ يهلكك ـ ويُهلك قومك ويُخرب بلادك»[١] فوعدهما النبي ﷺ بالجواب في اليوم التالي، (فجاءه الوحي بأن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله ـ الليلة ـ. فدعاهما النبي ﷺ وأخبرهما. فقال داذوية وصاحبه للنبي: هل تدري ما تقول، يخوفه عاقبة هذا القول. فقال النبي ﷺ: اذهبا وأخبراه بذلك عني وقولا له. . إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، ومَلَّكْتُك على قومك من الأبناء. فعادا إلى باذان وأخبراه بما قال الرجل، فقال: إذا كان الأمر كما قال فهو نبيّ) وقد قيل إن النبي ﷺ أخبرهما بمقتل كسرى ليلة كذا (لعشر مضين من جمادى الأولى) وعلى ذلك قد يكون زمن قدوم المبعوثين الفارسيين المجوسيين إلى النبي ﷺ بالمدينة في أوائل جمادى الأول سنة عشر للهجرة وربما كان قيس بن مكشوح ما يزال بالمدينة.

ـ وكان الإسلام قد انتشر في أرجاء مناطق وقبائل اليمن، وكان اليمن ينقسم

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٣٤.

(٢) شاهنشاه: لقب فارسي يعني ملك الملوك.

إلى ثلاثة أقسام رئيسية، وهي قسم مناطق حمير (مخاليف الجند) وقد شملها الإسلام وبعث إليهم النبي ﷺ العمال وأميرهم معاذ بن جبل ـ في شوال ٩هـ ـ وقسم مناطق حضرموت والمهرة وظفار عمان (مخاليف حضرموت) وقد بعث إليهم النبي ﷺ زياد بن لبيد الأنصاري عاملاً ومعه عكاشة بن ثور، وأمرهما بطاعة معاذ بن جبل. وقسم (مخاليف صنعاء) حيث استعمل النبي ﷺ قيس بن مالك نمط الأرحبي على همدان (حاشد وبكيل) واستعمل فروة بن مسيك المرادي على مذحج وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، وعاد عمرو بن معدي كرب معهما، بينما مكث قيس بن مكشوح في المدينة إلى سنة عشر للهجرة، حيث وصل في جمادى الثاني ـ أو في شهر ربيع أول ـ وفد بني الحرث بن كعب المذحجيين وفيهم قيس بن الحصين الحارثي ويزيد بن عبد المدان بن الديان ـ وهما من رؤساء الثائرين بالجوف في موقعة يوم الردم ـ وقد أمَّرَ رسول الله ﷺ قيس بن الحصين على بني الحرث بن كعب فرجعوا إلى نجران ـ في شهر شعبان ـ وكذلك رجع قيس بن مكشوح المرادي إلى منطقة مراد حيث «استعمل رسول الله ﷺ قيساً على صدقة مراد»، فكان قيس بمنطقة مراد مع فروة بن مسيك أمير النبي ﷺ على مذحج بينما كان الفرس بصنعاء ما يزالون مجوساً، وما يزال ملكهم باذان عاملاً لكسرى على صنعاء والمناطق الخاضعة لسلطة الفرس ونفوذهم باليمن.

* * *

قيادة قيس لموقعة يوم صنعاء الأول (ذو الحجة ١٠هـ)

وفيما بين شعبان وذي القعدة تكاتب وتشاور رؤساء مذحج وخولان وهمدان وكندة وأزد السراة، وأجمعوا على حرب الفرس المجوس بصنعاء، واتفقوا على التجمع بفرسانهم ورجالهم في نجران والانطلاق منها إلى صنعاء، وقد كان الأسود عبهلة بن كعب العنسي من رؤساء مذحج وكان هو الكاهن والزعيم الديني لمذحج في الجاهلية وكان مقرّه في منطقة (خبّ) بالجوف، وقد وصفه القاضي محمد بن علي الأكوع قائلاً: «كان الأسود العنسي أحد أقيال اليمن المرموقين والمتطلعين للمُلك والسلطان. وكان ممُدحاً، وفد إليه أعشى قيس فمدحه، فاستبطأ جائزته، فقال له الأسود: ليس عندنا عين ولكن نُعطيك عرضاً فأعطاه خمسمائة مثقال ذهباً وبخمسمائة حللاً»[1] والأصوب أنه أعطى الأعشى عنبراً قيمته خمسمائة مثقال ذهباً، وأعطاه حللاً قيمتها خمسمائة مثقال ذهباً، وقد ذكر ذلك الأصفهاني في كتاب الأغاني.

---

(١) قرة العيون لابن الديبع ـ ص٦٦.

وكان الأسود العنسي من أبرز الزعماء الذين تكاتبوا على التجمع بنجران، بل إن الروايات تنسب ذلك إليه بقولها: «كاتب الأسود العنسي مذحجاً عامة، فأجابوه ووعدوه نجران» وأنه «خرج الأسود العنسي من خبّ[1] فوافى نجران في سبعمائة مقاتل»، وقد استجاب له ووافاه بنجران زعماء وفرسان مذحج وهمدان وكندة وغيرها، وقد كان بينهم العديد من الصحابة، وذلك لأنه لم يكن قد أظهر أي نوايا مخالفة للإسلام، ومما يشير إلى ذلك قول ابن جرير الطبري: «كان الأسود العنسي متستراً بأمره حتى بادى بعد»[2] فتوافد زعماء وفرسان مذحج إلى نجران وفيهم قيس بن مكشوح المرادي في فرسان مراد وعمرو بن معدي كرب في فرسان بني زبيد وقيس بن الحصين في بني الحرث بن كعب، وكان من القادة الذين وافوا نجران يزيد بن الأفكل الأزدي في فرسان أزد السراة ـ من منطقة عسير ـ وثات ابن ذي جرة الحميري في فرسان من خولان، وقد ذكر ابن خلدون أنه: (كان كندة قد تابعوا الأسود العنسي)، وبذلك يكون الذين احتشدوا بنجران هم رؤساء وفرسان قبائل مذحج وخولان وأزد السراة وكندة ويمثلون جمعاً كبيراً يزيد عن عشرين ألف مقاتل، وقد تولى القيادة العامة لذلك الجيش قيس بن مكشوح المرادي، وفي ذلك قال ابن الأثير: «سار الأسود العنسي من نجران إلى صنعاء وكان خليفته على جنده قيس بن مكشوح المرادي، وكان عمرو بن معدي كرب على مذحج»[3] وقال ابن خلدون «وكان أمر جنده إلى قيس»، وكان اجتماعهم بنجران ـ في ذي القعدة ـ وانطلقوا منها إلى صنعاء.

بينما في تلك الفترة كان شيروية ابن كسرى قد استتب له أمر الحكم ـ بعد فترة اضطراب تلت مقتل كسرى أبرويز على يده ـ فلما استتب الأمر لشيرويه كتب إلى باذان عامله بصنعاء يخبره بمقتل كسرى، قال ابن خلدون: ـ وكتب شيرويه إلى باذان ـ «فإذا جاءك كتابي هذا فخُذْ لي الطاعة من قِبْلَكْ، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تُهنه ـ أو: فلا تتعرض له ـ حتى يأتيك أمري فيه».

وتوجد عن موقف باذان والفرس بعد وصول كتاب شيرويه ثلاث روايات، حيث تقول الرواية الشائعة أنه (لما بلغ باذان كتاب شيرويه أسلم، وأسلمت الأبناء الفُرس معه، واستعمله النبي ﷺ على اليمن). وجاء في كتاب الإصابة للعسقلاني

---

(١) قال ابن خلدون إن الأسود العنسي (كانت دارة كهف خَبّان) وقال القرطبي (كهف خبّار) والمقصود ناحية خَبْ بالجوف حالياً.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٢ ص٢١٤.

(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ جـ٢ ص٢٢٧.

عن الإمام الشعبي أنه (خرج باذان من اليمن ـ أي صنعاء ـ يريد النبي ﷺ فلحقه الأسود العنسي فقتله) وجاء في عيون الأثر لابن سيد الناس: «إن الخبر أتى باذان بمقتل كسرى وهو مريض، فاجتمعت إليه أساورته فقالوا: مَنْ تؤمر علينا؟ فقال لهم: مَلِكٌ مُقبل ومَلِكٌ مُدبر، فاتبعوا هذا الرجل وادخلوا في دينه، ومات باذان»[(١)] فقاموا بتمليك شهر بن باذان، فتقول رواية شائعة أنهم كتبوا إلى النبي ﷺ بإسلامهم وأن النبي ﷺ استعمل شهر بن باذان على صنعاء، ولكن روايات موثوقة تذكر أن إسلام الأبناء كان بعد يوم صنعاء الثاني، وهو ـ كما سيأتي ـ الصحيح. والظاهر أن الوقت لم يكن كافياً بعد موت باذان إلا لتمليك شهر بن باذان والخروج إلى القتال، لأن الجيش الذي انطلق من نجران بقيادة قيس بن مكشوح كان قد بلغ مشارف صنعاء.

ونرى أن الروايات قد نسبت الزعامة إلى الأسود العنسي لأنها خلطت بين ذلك المسير من نجران لمحاربة الفرس وبين ردة الأسود العنسي بصنعاء فيما بعد، بينما لم يكن الأسود العنسي في ذلك المسير إلا واحداً من الرؤساء، قال الطبري: «وكان أول من اعترض الأسود العنسي عامر بن شهر الهمداني في ناحيته وفيروز وداذويه في ناحيتهما»[(١)] فوقعوا أسرى غالباً، وكان عامر بن شهر الهمداني عاملاً من عمال وأعوان الفرس بمنطقة من همدان، وكانت غالبية همدان مع الثائرين الزاحفين إلى صنعاء، فقد كان عامل النبي ﷺ على همدان هو قيس بن مالك الأرحبي ومعه مالك بن نمط الأرحبي وكان قائد همدان عمير ذو مران الناعطي، أما عامر بن شهر الهمداني فإنما كان عاملاً للفرس فوقع أسيراً، ومضى اليمانيون بقيادة قيس إلى صنعاء وفيهم الأسود العنسي. وروى الطبري عن عبيد بن صخر وهو من أصحاب معاذ بن جبل وكان مع معاذ في منطقة السكون قال: «فبينا نحن ننظر الأمر، قيل هذا الأسود العنسي بشعوب وقد خرج إليه شهر بن باذان، وذلك لعشرين ليلة من منجمه ـ في نجران ـ فانتظرنا على من تكون الدبرة»[(١)] فالتحم الجيشان، جيش الفرس الأبناء بقيادة شهر بن باذان وجيش الثائرين اليمانيين بقيادة قيس بن مكشوح بمنطقة شعوب حيث دارت موقعة يوم صنعاء فسقط (شهر بن باذان) صريعاً بسيف قيس بن مكشوح، وانهزم الفُرس الأبناء هزيمة ساحقة. قال عبيد بن صخر في تتمة روايته بتاريخ الطبري: «فأتانا الخبر أنه قتل شهر بن باذان وهزم الأبناء وغلبهم على صنعاء، وذلك لخمس وعشرين ليلة من منجمه»[(٢)] أي

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ لابن سيد الناس الأندلسي ـ جـ٢ ص٣٣٥.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٦ ص٣٠٧.

لخمس وعشرين يوماً من اجتماع الأسود العنسي والرؤساء والثائرين بنجران حيث تولى قيس قيادة جيش اليمانيين إلى أن تم النصر في موقعة يوم صنعاء التاريخية، وفي ذلك قال القاضي محمد الأكوع: «لما ظهر الأسود العنسي كان قيس بن مكشوح هو فارسه المُعْلَمْ وقائده البطل الذي بجهوده تم النصر والظفر ودخولهما صنعاء فاتحين»[1] وَوَفَىٰ قيس بن مكشوح بالقسم الذي كان قد أقسمه بعد إخفاق حركة الجوف بأن يأخذ بثأر فرسان مراد ومذحج الذين سقطوا في تلك الحركة، فقد أخذ قيس بثأرهم في موقعة يوم صنعاء بقتل الملك شهر بن باذان والعديد من فرسان الأبناء الفرس الذين بارزهم فسقطوا بسيفه في المعركة، فقال قيس بن مكشوح في يوم صنعاء:

وفيتُ لقومي واحتشدتُ لمعشرٍ ... أصابوا على الأحياء عمراً ومرثدا
وكنتُ لدى الأبناء لما لقيتُهم ... كأصيد يسموا في العزازة أصيدا

وقال ابن ذي جرة الحميري:

لعَمْركَ أنّا يومِ صنعاء عُصْبَةٌ ... يمانية الأحساب غير لئام
غداة جدعنا فَيْ (شُهر) بضربةٍ ... أبان بها المكشوح راس هُمام[2]

وقد كانت موقعة يوم صنعاء عملاً تحريرياً وطنياً من وجهة نظر اليمانيين، ولم يجد الرؤساء والقادة الذين شاركوا في ذلك ما يتعارض مع الإسلام، وكان بينهم العديد من الصحابة، وكان جميع اليمانيين من المسلمين، ولكن وجود الأسود العنسي في موقع قيادي منذ التجمع في نجران إلى دخول صنعاء، أدى إلى أن الروايات ذكرت ذلك في إطار ردة الأسود العنسي بينما ردته وادعائه للنبوة كان بعد ذلك بأمد يسير.

فبعد هزيمة الفرس في موقعة يوم صنعاء ـ وكانت في ذي الحجة سنة عشر للهجرة ـ أقام الأسود العنسي بصنعاء ومعه فرسانه السبعمائة الذين كانوا معه منذ التجمع في نجران وهم رجاله وأتباعه المخلصين له لأنه كان من الرؤساء المرموقين، وأقام بصنعاء أيضاً قيس بن مكشوح المرادي ومعه فرسان من مراد وهمدان لأنه كان قائد الجيش في موقعة يوم صنعاء واستمر كذلك، وكان بصنعاء أيضاً عمرو بن معدي كرب وثات بن ذي جرة وخالد بن سعيد بن العاص، ومجاميع من اليمانيين،

(١) هامش قرة العيون ـ ص٦٧.
(٢) يروى صدر البيت (غداة جدعنا فيَّ عنس بضربة)، وذلك لأن قيس ابن مكشوح هو الذي قتل الأسود العنسي أيضاً كما سيأتي.

وعاد بقية الرؤساء والفرسان إلى مناطقهم، وكان رسول الله ﷺ آنذاك في حجة الوداع: «وانصرف النبي ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة في بقية ذي الحجة سنة ١٠هـ». وكانت بلاد اليمن من أقصاها إلى أقصاها في دولة الإسلام.

* * *

ادعاء الأسود العنسي للنبؤة وموقف قيس (محرم ١١هـ)

ولما انصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة المنورة، أعاد بعث معاذ بن جبل أميراً على عمال اليمن ـ لأن معاذاً كان قد شهد حجة الوداع ـ فتوجه معاذ إلى مأرب ومنها إلى حضرموت، وبعث رسول الله ﷺ عدداً من العمال كان منهم عمرو بن حزم الأنصاري على مخلاف نجران والمهاجر بن أبي أمية المخزومي على صنعاء، فوصل المهاجر إلى صنعاء في محرم ١١هـ، وعندئذٍ تمرد الأسود العنسي وأظهر ما كان يكتمه ويعمل من أجله فتغلب وسيطر على صنعاء، وأخرج المهاجر بن أبي أمية منها، وقد تواترت بذلك النصوص التاريخية، فجاء في السيرة النبوية لابن هشام وفي الكامل لابن الأثير وفي تاريخ صنعاء للرازي وفي الإصابة للعسقلاني: (أن رسول الله ﷺ بعث المهاجر بن أبي أمية على صنعاء، فخرج عليه الأسود العنسي وهو بها) قال الرازي: (فغلب الأسود العنسي على صنعاء، فرجع المهاجر إلى المدينة)، وقال البلاذري: (غلب الأسود العنسي على صنعاء وأخرج المهاجر عنها، فانحاز المهاجر إلى ناحية زياد بن لبيد فكان عنده)[1].

ولم يعتمد الأسود العنسي في ذلك على أتباعه السبعمائة فحسب، وإنما قام بتقوية نفسه من خلال استمالة الأبناء الفُرس الذين كانوا زهاء ستة آلاف بعائلاتهم، وكان قادة وجنود الفرس بمثابة أسرى منذ موقعة يوم صنعاء، وكانوا على دين المجوسية، وكان من الأسرى بكل تأكيد فيروز الديلمي وداذويه لأنهما أول من اعترض وحارب الأسود العنسي والثائرين لما زحفوا من نجران إلى صنعاء، ثم أنهما التاليان لملكهم شهر بن باذان في المكانة عند الفرس، فقد كان داذويه قهرمان باذان، وكانت زوجة شُهر بن باذان ابنة عم فيروز الديلمي، فأطلق الأسود العنسي سراح فيروز وداذويه وقادة وجنود الفرس، وتزوج بامرأة شهر بن باذان واسمها (زاذ)، وأسند أمر الأبناء ـ الفرس ـ إلى فيروز الديلمي ومعه داذويه، فلما استكمل تعزيز قوته وأحكم سيطرته على صنعاء ارتد وادعى النبؤة وأعلن ذلك في يوم مشهود بصنعاء.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٧١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ جـ٢ ص٢٠٥ ـ تاريخ الرازي ـ ص٨٠ و٤٩٦ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص١١٤.

ونشير قبل ذكر تفاصيل ذلك أن الأسود عبهلة بن كعب العنسي الذي وصفه القاضي محمد الأكوع بأنه: «كان من أقيال اليمن المرموقين والمتطلعين للمُلك والسلطان»، قد كان في ذات الوقت كاهناً. فقد ذكر ابن خلدون أنه: «كان كاهناً مشعوذاً يفعل الأعاجيب ويخلب بحلاوة منطقه» وقال الطبري: «كان كاهناً شعباذاً، وكان يريهم الأعاجيب ويسبي قلوب من سمع منطِقَه»، وقد كانت الكهانة مرتبة كبيرة في الجاهلية: «وكان الكاهن مستشار القبيلة وحكمها، لا يُرد له كلام، ولا يُرفض له طلب، وكان العرب يعتقدون أن لكل كاهن صاحبُ من الجن يخبره بما يريد، ويقال له الرئي، وكانت للكهان لغة خطابية تمتاز بالسجع»[١] وبما أن عبهلة العنسي كان كاهن مذحج فقد كانت مكانته أكبر من رؤساء القبائل فهو المرجع الأعلى لقبائل مذحج، وكان يقال له (الأسود) بمعنى (السيد المُسود) على الجميع.

وقد اشتهر الأسود عبهلة العنسي بلقب (ذي الخمار)، قال البلاذري: (لأنه كان مُعتماً مختمراً أبداً). وقال المقدسي: «كان يقال له ذا الخمار لأنه كان يُلقى خماراً رقيقاً على وجهه، ويُهمهم فيه».

ولما عقد الأسود العنسي العزم على الردة وادعاء النبؤة بصنعاء، واستمال الأبناء الفرس، وأحكم سيطرته على صنعاء، دعا كل من بصنعاء إلى اجتماع في (رحبة صنعاء)، فاجتمع الناس، وكان جنوده ـ السبعمائة ـ منتشرين بأسلحتهم في الميدان وبجوار مجلسه، وكان يضع الخمار الرقيق على وجهه ويُهمهم فيه، ثم أعلن للناس أنه نبيّ، قال المقدسي في كتاب (البدء والانتهاء) إن الأسود العنسي: (ادعى النبؤة ولم ينكر نبؤة محمد، وزعم أن سُحيقاً وشقيقاً ملكين يأتيانه بالوحي، وجعل يتلو عليهم: (والمايسات ميساً، والدارسات درساً، يحجون عُصَباً وفرادى، على قلائص حُمر وصهباً) وزعم أن شقيقاً أوحى إليه أن (لا غسل من جنابة في وادي صنعاء)[٢].

وبعد أن أعلن ما أعلنه: (قام الأسود العنسي في وسط الميدان ومعه حربه، ثم دعا بحصان الملك فطعنه بالحربة، ثم أطلقه، فجعل الحصان يجري في الميدان والدماء تسيل منه حتى مات. وكان قد هيأ مائة من الجُزر ـ أي من الإبل والبقر والغنم ـ وجعل حولها خطاً فاصلاً، وكانت أعناقها ورؤوسها في الخط لا يجزيه، فدعا بواحدة من الجزر فطعنها بحربته، ثم استقبلهن مع بعض جنوده فنحرهن واحدة واحدة، فجالت الجُزر في الميدان والدماء تسيل منها).

---

(١) الجامع في تاريخ الأدب العربي ـ حنا فاخوري ـ ص٨٤.
(٢) البدء والانتهاء ـ للمقدسي ـ جـ٢ ص١١.

ووسط ذلك المشهد الرهيب أعلن جنود الأسود العنسي السبعمائة تصديقهم به، (ثم أكبّ برأسه على الأرض، ثم رفع رأسه، ثم دعا بفيروز الديلمي) ـ قال أحد الحاضرين (ما كُنتُ آمنُ أن ينحره بحربته كما ينحر الجزور) ولكن فيروزاً تقدم إلى الأسود العنسي واثقاً مما سيكون، وأعلن تصديقه هو والأبناء الفرس ـ الذين كانوا ما زالوا مجوساً ـ بنبوءة عبهلة، وقال له: (قد اجتمع لنا بك أمر الدنيا والآخرة) ـ يعني زواج عبهلة ببنت عم فيروز وقيامه بإطلاق سراح الأسرى من الأبناء وتأمير فيروز عليهم ـ فقال له العنسي: (إنك أشرف من ههنا، وأعلمهم بأهلها، فقسم هذه الجُزر بينهم).

ثم «أكبّ برأسه على الأرض، ثم رفع رأسه، ودعا قيس بن مكشوح المرادي، فسار إليه قيس في عشرة من مذحج وهمدان. فقال له: إن شقيقاً يقول إن ابن مكشوح من الطغاة يا عبهلة اقطع قنة رأسه العليا. وأخذ في مثل هذا الكلام حتى ظن قيس أنه قاتله. فقال: إنه ليس من الحق أن أُقاتلك ـ أو أخالفك ـ وأنت نبيّ، فمُرّني بم أحببت»(١) فَسُرَّ العنسي بكلام قيس، وأخبره أن شقيقاً ـ الملاك ـ يصدقه، وأنه قائد الجيش.

* * *

ولقد كان بصنعاء في ذلك اليوم خالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن معدي كرب وثات بن ذي جرة، وجموع من اليمانيين المسلمين من سكان صنعاء ـ أمثال بني شهاب ـ ومِنْ الذين دخلوها في موقعة يوم صنعاء الأول ـ في ذي الحجة ـ من همدان ومذحج وغيرهم، ويبدو أن الأسود العنسي يوم ادعى النبؤة وكان من أمره ما سلف ذكره انصرف إلى قصر الإمارة بصنعاء، وأعلن للناس أن من ليس معه فليغادر صنعاء خلال فترة معلومة ـ يوم أو يومين ـ فغادر صنعاء أغلب اليمانيين المسلمين الذين بها، وهو ما يمكن إدراكه من قول العسقلاني أنه: «لما غلب الأسود العنسي على صنعاء فَرَّ غالب أهلها»(٢). أي خرجوا منها وأما الصحابي خالد بن سعيد بن العاص فقد ذكر البلاذري: «إن الأسود العنسي لما غلب على صنعاء أخرج منها خالد بن سعيد بن العاص»(٢) وهذا يدل على أن خالد بن سعيد كان بصنعاء مع عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح منذ موقعة يوم صنعاء ـ في ذي الحجة ـ إلى يوم ادعاء الأسود العنسي للنبؤة بصنعاء ـ في أواسط شهر محرم ١١هـ ـ وتتيح أبيات عمرو بن معدي كرب الزُبيدي إدراك ما لم

(١) تاريخ الطبري ـ جـ٢ ص٢١٢ ـ والبداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٣٠٧.

(٢) الإصابة ـ جـ٣ ص٥٨٥ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص١١٤.

تذكره الروايات، فقد حاول عمرو إقناع قيس بن مكشوح بعدم البقاء مع ذي الخمار الأسود العنسي بصنعاء وأن بقائه مع ذي الخمار كقائد لجيشه يعني أنه مثله، وأشار عمرو على قيس بأن يسير من صنعاء معه إلى رسول الله ﷺ ويخبره بما حدث، فأبَىٰ قيس ذلك وسَفَّه رأي عمرو، فسار عمرو من صنعاء غاضباً من ابن أخته ـ قيس ابن مكشوح ـ وقال الأبيات التي توهمت الروايات أنه قالها حين وفد إلى النبي ﷺ ـ في رجب ٩هـ ـ بينما تدل الأبيات على زمنها ومناسبتها فقد ذكر فيها (صنعاء) وذكر فيها (ذا الخمار) بالتصغير (ذي الخُميّر) وهو الأسود العنسي، فزمنها هو شهر محرم ١١هـ بعد مغادرة عمرو لصنعاء حيث قال أبياته المشهورة في قيس بن مكشوح، والصحيح منها ثلاثة أبيات هي قول عمرو بن معدي كرب لقيس بن مكشوح:

أمَرْتُكَ يَوْمَ ذي صَنْعاءَ أَمْراً بَيِّناً رَشَدُهْ
رَسُولَ اللَّهِ تأتِيهِ[1] وأمر الحزم تتَّعدُه[2]
فكُنْتَ كذي الخُمَيِّرِ غرّه، مِمَا به وتِدُه

ولم يكن قيس مثل ذي الخمار ولا كان موالياً له، وإنما رأى قيس البقاء بصنعاء والتظاهر بطاعة الأسود العنسي وتصديقه حتى تأتي تعليمات رسول الله ﷺ لأن وجوده في صنعاء يتيح له مصاولة الأسود العنسي أو القضاء عليه من الداخل أو تسهيل المواجهة على الذين سيأتون لمصاولته من خارج صنعاء، بينما كان رأى عمرو هو عدم بقاء قيس في صنعاء.

وقد سار عمرو إلى فروة بن مسيك عامل رسول الله ﷺ على مذحج، وأخبره بكل ما حدث في صنعاء؛ وكذلك لحق بفروة خالد بن سعيد بن العاص، وكان فروة في منطقة الأحسية من مراد، ثم سار فروة إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، فأخبره بما حدث، قال الطبري: «كان أول خبر وقع إلى النبي ﷺ عن فعل الأسود العنسي من قِبل فروة بن مسيك»[3] وعلى ضوء ذلك أصدر النبي ﷺ التوجيهات وبعث الكتب والرسل لمصاولة الأسود العنسي بصنعاء.

* * *

(١) جاء صدر البيت هكذا: (رسول الله تأتيه) في كتاب البداية والنهاية، وجاء في سيرة ابن هشام (أمرتك باتقاء الله).

(٢) ويروى (وللمعروف تتعده). والأصوب (رسول الله تأتيه. وأمر الحزم تتعده).

(٣) تاريخ الطبري ـ جـ٢ ص٢١٢.

وتدل التوجيهات والوقائع على أن النبي ﷺ استصوب بقاء قيس بصنعاء وأسند إليه الدور الرئيسي في المواجهة مما أدى إلى الظن بأن النبي ﷺ بعث قيساً بتلك التوجيهات، فجاء في شرح الدامغة للهمداني وفي تاريخ البلاذري أنه: «لما بلغ رسول الله ﷺ خبر الأسود العنسي بعث قيس بن مكشوح وفروة بن مسيك لمصاولته»[١] وأصل ذلك أن رسول الله ﷺ بعث فروة لاستنفار مذحج وبعث رسولاً إلى قيس بن مكشوح بصنعاء هو وبر بن يحنس الخزاعي، حيث شملت الإجراءات التي اتخذها رسول الله ﷺ والكتب التي قام بتوجيهها لمصاولة الأسود العنسي ما نذكره فيما يلي ليتكامل النبأ اليقين عن ما حدث:

ـ فقد بعث رسول الله ﷺ الزعيم اليماني الكبير ـ الصحابي جرير بن عبد الله البجلي في مهمتين أولاهما: إلى الأسود العنسي بصنعاء يدعوه إلى العودة للحق والإسلام، وفي ذلك قال البلاذري: «لما ادعى الأسود العنسي النبوة بعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي يدعوه إلى الإسلام، فأبى»[٢] فلما أبى الأسود العنسي غادر جرير صنعاء وتوجه إلى تنفيذ المهمة الثانية وهي إبلاغ معاذ بن جبل وعمال وزعماء مناطق حمير (مخاليف الجَنَد) بكتاب رسول الله ﷺ يأمرهم بالمسير إلى صنعاء لمصاولة الأسود العنسي، وفي ذلك جاء في الوثائق أن رسول الله ﷺ: (بعث جرير بن عبد الله البجلي إلى سميفع ذي الكلاع وذي عمرو وحوشب ذي ظليم في قتال الأسود العنسي)[٣] وجاء في تاريخ ابن خلدون أن النبي ﷺ: «كتب إلى معاذ وأبي موسى الأشعري والطاهر يأمرهم في أن يعملوا في أمر مصاولة الأسود العنسي» وجاء في الوثائق وتاريخ الطبري عن عبيد بن صخر وكان مع معاذ بن جبل في الجَنَدَ أو السكون بحضرموت قال: «جاءتنا كتب النبي ﷺ يأمرنا فيها أن نبعث الرجال لمصاولة الأسود العنسي، ونُبلغ كل من رجا عنده شيئاً من ذلك عن النبي ﷺ، فقام معاذ في ذلك بالذي أُمِّر به»[٣].

ـ وفي ذات الوقت: «بعث رسول الله ﷺ الأقرع بن عبد الله الحميري إلى عُمير ذي مران، وسعيد بن العاقب ذي زود»[٣] وهما قائدا همدان (حاشد وبكيل) يأمرهما بالمسير لمصاولة الأسود العنسي بصنعاء، كما بعث النبي ﷺ بكتاب إلى أهل نجران[٣] وبعث رسول الله ﷺ منذ البداية فروة بن مسيك بمثل ذلك إلى مذحج وكان معه عمرو وخالد بن سعيد.

---

(١) شرح الدامغة ـ للحسن الهمداني ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص١١٤.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٤.

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٢٣٤.

ـ وتتبين من كل ذلك حقيقة هامة وهي أن الأسود العنسي لما ارتد وادعى النبؤة لم تتجاوز سيطرته مدينة صنعاء، فقد كانت سائر بقية أرجاء اليمن فيها عمال النبي ﷺ والصحابة والزعماء الذين كتب وبعث النبي ﷺ إليهم بالمسير إلى صنعاء فاستنفروا الناس وتهيأ للانطلاق إلى صنعاء.

ـ وكان رسول الله ﷺ قد بعث وبر بن يحنس الخزاعي في مهمة سرية إلى قيس بن مكشوح المرادي بصنعاء، وكان قيس في غَمٍّ وحيرة من أمره ـ منذ مغادرة عمرو بن معدي كرب لصنعاء، وربما شعر قيس بأن رأي عمرو كان الأصوب، وخاصة عندما وصل جرير بن عبد الله مبعوثاً من النبي ﷺ إلى الأسود العنسي يدعوه إلى العودة إلى الحق والإسلام فلم يستجب لذلك فغادر جرير صنعاء ولم يقم بإبلاغ قيس بأي شيء، ولكنه لم يلبث أن فوجيء بوجود وبر بن يُحنس الذي اتصل به والتقى به وأبلغه بتوجيهات النبي ﷺ، قال الحافظ ابن كثير: «لما أعلم وبر قيساً، وأنبأه الشأن، وأبلغه عن النبي ﷺ كان كأنّما وقع عليه من السماء، لأنه كان في غمّ وضيق من أمره»[1] وقد ذكر البلاذري «إن النبي ﷺ بعث ـ إلى ـ قيس ابن مكشوح لقتال الأسود العنسي، واستمالة الأبناء»[2] فأبلغ وبر قيساً بذلك وبأمر النبي ﷺ بالعمل على قتل الأسود غيلة أو مصادمة، وبأن النبي ﷺ قد بعث الرسل والكتب إلى العمال والرؤساء في أرجاء اليمن بالتوجه إلى صنعاء، وسوف يتصلون بقيس.

* * *

قيادة قيس للمواجهة مع الأسود العنسي

لقد كان مع قيس بصنعاء فرسان مسلمين من مذحج وهمدان، وكان معه القائد ثات بن ذي جرة الحميري، فأخذ قيس بعد قدوم وبر بن يحنس يعمل ـ بصفة سرية ـ في عدة اتجاهات تمهيداً للمواجهة، وقد شمل ذلك:

ـ **استمالة الأبناء الفرس وبداية إسلامهم**: كان الأبناء الفرس قد باتوا قوة أساسية موالية للأسود العنسي، وكان من بين توجيهات النبي ﷺ لقيس مع وبر بن يحنس (استمالة الأبناء) قال البلاذري: «فاستمال قيس فيروز الديلمي، ثم أتيا داذويه فأسلم»[2] ولم يكن قد أسلم قبلهما أحد من الأبناء الفرس ـ إلا باذان وقبل وفاته ـ ومما يؤكد ذلك ما ذكره العسقلاني في ترجمة وبر بن يحنس أنه: «قدم وبر بن يحنس على الأبناء من عند النبي ﷺ فنزل على بنات النعمان بن برزخ

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٦ ص٣٠٧.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٤.

فأسلمن، وبعث إلى فيروز الديلمي فأسلم وإلى مركنود فأسلم»[١] وجاء في ترجمة النعمان بن برزخ بالإصابة: «كان أول من قدم على الأبناء بصنعاء وبر بن يحنس فنزل على بنات النعمان فأسلمن، وبعث إلى فيروز الديلمي فأسلم وإلى مركنود فأسلم. وكان ذلك لما غلب الأسود العنسي على صنعاء»[١] وجاء في تاريخ صنعاء للرازي أنه: «كان أول من أسلم من الأبناء أم سعيد بنت برزخ زوجة داذويه، وكانت تقيم في الكنيسة التي بباب مدينة صنعاء من نحو القبلة، فقراء عليها وبر بن يحنس القرآن فأسلمت»[١] ثم كما ذكر العسقلاني «بعث وبر إلى فيروز الديلمي فأسلم» أو كما ذكر البلاذري: «استمال قيس فيروز الديلمي، ثم أتيا داذويه فأسلم». ويتبين من ذلك النبأ اليقين بأن أحداً من الأبناء الفرس لم يكن قد أسلم في موقعة يوم صنعاء الأول ـ في ذي الحجة ١٠هـ ـ وإن بداية إسلام الأبناء كانت بعد قدوم وبر بن يحنس إلى قيس بن مكشوح بصنعاء ـ في صفر ١١هـ ـ فتم استمالة وإسلام أولئك الأبناء الفرس فقط، وبصفة سرية، لأن مهمة وبر بن يحنس كانت سرية، فقام هو وقيس باستمالة فيروز ومركنود فأسلما، ثم أتيا داذويه فأظهر الاستجابة للإسلام، وكان فيروز وداذويه هما رئيسا الأبناء الفرس، ولذلك اقتصرت الاستمالة عليهما وعلى مركنود في إطار خطة عمل للفتك بالأسود العنسي داخل صنعاء أو تأمين عدم مساندة الأبناء للأسود العنسي في حالة الحرب.

ـ **العمل السري للفتك بالأسود**: وقد أخذ قيس في عقد اجتماعات سرية لا يحضرها إلا قيس وفيروز وداذويه وثات بن ذي جرة ـ غالباً ـ بحيث كما ذكر ابن كثير: «توافقوا على الفتك بالأسود وتعاقدوا عليه»[٢] وكان كلما وضع قيس خطة يتسرب خبرها ـ فيما يبدو ـ إلى الأسود العنسي، فذات يوم: «استدعى الأسود العنسي قيساً وقال له: يا قيس ما يقول شقيق ـ أي الملاك المزعوم ـ؟ فقال قيس: وما يقول؟ قال: يقول، عَمَدْتَ إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل وصار في العزّ مثلك مال ميل عدوك وأضمر لك الغدر، فَطُفْ به وخُذ أعلاه. فقال قيس: أنت أعظم في نفسي وأجَلّ عندي من أن أحدث بك نفسي.. فقال الأسود: ما أخالَكَ تُكذِبُ المَلَكْ فقد صَدَق المَلَك، وعرف الآن أنك تائب عمّا اطّلع عليه منك»[٢] ثم ذات يوم توجه قيس إلى الأسود العنسي فلم يقابله إلا وقد أحاط نفسه بعشرات الجنود، فقال قيس: (يا ذا الخمار. أمِنّي تَحَصَّنُ بالرجال، ألم أخبرك الحق) فأظهر الأسود العنسي أن لا علاقة لذلك بقدوم قيس.

---

(١) الإصابة ـ ترجمة وبر ـ جـ٣ ص٦٣٠ ـ ترجمة النعمان ـ جـ٣ ص٥٨٥ ـ تاريخ الرازي ـ ص٦٣٠.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٦ ص٣٠٨ ـ ٣١٠.

وفي مرة ثالثة كان قيس في اجتماع سري مع فيروز وداذويه، ولا يعرف بالاجتماع إلا الثلاثة، فبينما هُم مجتمعون دخل عليهم مبعوث الأسود العنسي فدعا قيساً وفيروز للقاء ذي الخمار ـ وكذلك داذويه ـ فلما مثلوا بين يديه قال لقيس: ألم أُخبرك بالحق وتُخبرني بالكذابة، إن شقيقاً يقول: يا سواه يا سواه، إن لم تقطع من قيس أعلاه قطف قنتك، إن لَمْ تقطع من قيس يده يقطع رقبتك العليا، فطف به وخُذْ مِنْ قيس أعلاه وإلا قطف قنتك، فقال قيس: إنه ليس من الحق أن أفعل ذلك وأنت نبيّ، فقَتْلي أحبُّ إليّ من موتات أمُوتها كل يوم، فرّق الأسود له، وأمره بالانصراف) ثم عاتب الأسود فيروزاً، فقال فيروز: لقد اخترتني صهراً، وفضلتني على الأبناء فكيف أميل عنك، فصدقه، وأمره بالانصراف). وتذهب بعض الروايات إلى تفسير معرفة الأسود العنسي بأنه كما قال ابن خلدون: (أخبر الأسود شيطانه بغدر قيس وفيروز وداذويه). ونرى أن مصدر معرفة الأسود كان شيطاناً قهرماناً من الأنس مثل داذويه وليس من الجن، وقد تميزت المرة الرابعة بأن شيطان الأسود أخبره بموعد اجتماع سري لقيس وأصحابه: «فبينما هُم يتشاورون، إذْ دخل الأسود العنسي، فقال: ألم أشرِفكم على غيركم؟ قالوا: بلى. قال: فماذا يبلغني عنكم، ولِمْ تُضْمِرُون الغدر؟» فأكّدوا له الولاء وأنهم لن يجتمعوا بعد الآن (وقالوا: أقِلْنَا مرتنا هذه. فقال: لا يبلغني عنكم فأقيلكم ـ بعد اليوم ـ)[1].

وتقول الروايات أنهم أصبحوا في خوف وخطر إلى أن «جاءتهم كتب ذي الكلاع وذي مران.. يبذلون لهم النصر» والواقع أن ذلك لم يكن مصادفة فقد كان قيس يعلم بأنهم سيأتون وينتظر قدومهم إلى مشارف صنعاء.

يوم صنعاء الثاني (نهاية الأسود العنسي)

لقد سلف تبيين أن رسول الله ﷺ لما بعث وبر بن يحنس إلى قيس بن مكشوح في صنعاء للعمل في أمر الأسود العنسي واستمالة الأبناء، بعث في ذات الوقت بالكتب والرُسل إلى معاذ وأبي موسى وذي الكلاع الحميري وحوشب ذي ظليم وعمير ذي مران الهمداني والعاقب ذي زود يأمرهم باستنفار الناس والمسير إلى صنعاء لمصاولة الأسود العنسي، وأن وبر بن يحنس أبلغ قيساً بذلك، فاستمال قيس ووبر بعض الأبناء وبدأ بالعمل السري داخل صنعاء تمهيداً ليوم وصول العمال والرؤساء والفرسان الذين كتب إليهم النبي ﷺ بالمسير إلى صنعاء، ولم يكشف قيس تلك المسألة للذين استمالهم من الأبناء وتوقف عن الاجتماع بهم بعد مفاجأة

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٦ ص٣٠٨ ـ ٣١٠.

دخول الأسود العنسي عليهم في الاجتماع الأخير، فتقول رواية منسوبة إلى واحد منهم بأنهم كانوا في حالة خطر وخوف «فجاءتنا كتب ذي زود، وذي مران، وذي الكلاع، وذي ظليم، وبذلوا لنا النصر، فكاتبناهم وأمرناهم أن لا يحركوا شيئاً حتى نُبرم أمرنا»[١] وقد صيغت تلك الرواية بشكل يفتقر إلى الوضوح فالذين وصلت منهم الكتب هُمْ العمال والرؤساء الذين كتب وبعث إليهم النبي ﷺ بالمسير إلى صنعاء حيث بعث النبي ﷺ جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع وذي ظليم فانطلقوا بكتائب وفرسان مناطق حمير ـ وهي مخاليف الجَنَد ـ إلى صنعاء، وكان النبي ﷺ قد بعث الأقرع بن عبد الله إلى عمير ذي مران الهمداني والعاقب ذي زود ورؤساء همدان فانطلقوا بفرسان حاشد وبكيل إلى صنعاء، وكذلك فروة بن مسيك في فرسان مذحج، ومعاذ بن جبل الأنصاري أمير عمال اليمن وغيرهم من العمال والرؤساء فلما وصلوا بفرسانهم ورجالهم إلى مشارف صنعاء كتبوا إلى قيس وأصحابه الذين قال ابن الأثير: «جاءتهم كُتب ذي زود، وذي مران، وذي الكلاع، وذي ظليم، يبذلون لهم النصر، فكاتبوهم أن لا تفعلوا شيئاً حتى نُبرم أمرنا. وبلغ ذلك الأسود العنسي فأحس بالهلاك»[١] فالذي بلغ الأسود العنسي وجعله يحس بالهلاك هو وصول العُمال والرؤساء بفرسانهم ورجالهم إلى مشارف صنعاء حيث عسكروا وانتشروا حول مدينة صنعاء التي كانت ذات سور منيع، وأما الكتاب الذي كتبوه فلا يمكن أن يكتبوا إلى مجهولين بصنعاء فلا بد أنهم كتبوا ـ أو بعثوا رسولاً ـ إلى قيس بن مكشوح، فكتب ـ أو بعث إليهم ـ «أن لا تفعلوا شيئاً حتى نُبرم أمرنا» يعني أن لا يهاجموا صنعاء حتى يُبرم أمر القضاء على الأسود العنسي ويفتح الأبواب، وكان قيس قد وضع خطة لذلك.

* * *

وفي الليل ـ قُبيل فجر يوم صنعاء الثاني ـ توجه قيس في مجموعة من أصحابه الذين بصنعاء ومنهم ابن ذي جرة الحميري وجماعة من الغُطيفيين المراديين إلى دار الأسود العنسي في غمدان بأعالي صنعاء وكان مع قيس فيروز الديلمي، وكانوا قد اتفقوا مع (آزاد) امرأة الأسود العنسي التي هي بنت عم فيروز على أن ينقبوا البيت من ظهره ويدخلوا مخدع نوم الأسود العنسي، ففعلوا ذلك، وتقدم قيس إلى الأسود العنسي فضربه بالسيف وأطاح برأسه. وتقول رواية شائعة أن قيساً وفيروز وداذويه اشتركوا في قتل الأسود العنسي وأن قيساً قطع رأسه، وقال ابن خلدون: «دخل فيروز ومعه قيس ففتل عنقه ثم ذبحه» ولم يذكر مشاركة داذويه

---

(١) تاريخ الطبري ـ جـ٦ ص٢١٣ ـ الكامل لابن الأثير ـ جـ٢ ص٢٥٧.

نهائياً وهو الصواب، وأما فيروز فقد دخل مع قيس وشاهد قيام قيس بقتل الأسود العنسي ولم يكن فيروز رجل حرب وقتال وإنما دخل مع قيس لأن امرأة الأسود العنسي كانت ابنة عم فيروز، فالصحيح أن الذي قتل الأسود العنسي هو قيس بن مكشوح، وفي ذلك قال لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني:

وزَارَ الأسود العنسيّ قَيْسُ ... بِجَمْعٍ مِنْ غُطيفٍ مردفينا
فَعَمَّمَ رأسه بِذُباب سيفٍ ... فطار القُحف يسمعه حنينا
وهَلْ غير ابن مكشوح هُمامٌ ... يكونُ به مِن المُتمرسينا[١]

وقد كان مع قيس بن مكشوح رجالات غطيف المُراديين الذين ذكرهم الهمداني كما كان معه ثات بن ذي جرة الحميري منذ يوم صنعاء الأول الذي فيه أطاح قيس برأس شُهر بن باذان ثم في المسير لقتل الأسود العنسي ليلة يوم صنعاء الثاني حيث جاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة أنه قال في ذلك:

لعُمري وما عُمري عليّ بهينٍ ... لقد جزعت عنسُ لقتل المُسَوّد
وقال رسول الله: سيروا لقتله ... على خير موعود وأسعد أسعد
فسرنا إليه في فوارس بهمة ... على خير أمرٍ من وصاة محمد

وقال ابن ذي جرة أيضاً:

لعمرك أنّا يوم صنعاء عصبة ... يمانية الأحساب غير لئام
غداة جدعنا فيَّ (عنس) بضربة ... أبان بها المكشوح راس هُمام

* * *

وقد تم قتم الأسود العنسي في تلك الليلة قُبيل شروق فجر يوم صنعاء الثاني، وخرج قيس والذين معه من دار الأسود العنسي بصمت من حيث دخلوا، فلم يشعر بهم حرس الأسود العنسي، ثم قام قيس بتوجيه جماعات من رجالات مذحج وهمدان الذين تحت قيادته وأمرهم بالتموضع بالقرب من أبواب صنعاء ليقوموا بفتحها عندما يسمعون النداء الذي أخبرهم بوقته، كما بعث شخصاً إلى حيث معاذ بن جبل وذي الكلاع وجرير وذي مران والمسلمين خارج صنعاء ليتهيأوا.

قال الحافظ ابن كثير: «فلما كان الصباح قام قيس ابن مكشوح على سور المدينة..»، حيث كما ذكر البلاذري: «عَلَا قيس ابن مكشوح سور المدينة فقال: الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإن عبهلة كذاب،

---

(١) قصيدة الدامغة التاريخية للحسن الهمداني صاحب الإكليل.

وخرج أصحاب قيس ففتحوا الباب»(١)، وقال ابن كثير: «..ألقى قيس رأس الأسود العنسي ونادى: أشهد أن محمداً رسول الله وإن عبهلة كذاب، فانهزم أصحابه، وظهر الإسلام وأهله»(١). فعندما فتح أصحاب قيس الأبواب دخل معاذ والرؤساء والفرسان اليمانيين الذين كانوا محيطين بصنعاء، وألقى قيس برأس الأسود العنسي فوق جنود الأسود والذين هم السبعمائة رجل الذين كانوا مع الأسود العنسي منذ البداية وبعض الذين جَندهم من الفُرس الأبناء، وما لبث أن انهزم جنود الأسود العنسي فاستسلموا، وظهر الإسلام وأهله، قال الطبري: (وخلصت صنعاء، وأعز الله الإسلام).

* * *

ولقد كان قيس ابن مكشوح هو بطل ذلك اليوم الذي فيه انتهت فتنة ادعاء الأسود العنسي للنبوة بصنعاء والتي يتبين من كل ما تقدم عدم صواب الظن بأنها شملت اليمن، فقد بدأت داخل مدينة صنعاء حين قام الأسود العنسي بإخراج المهاجر بن أبي أمية وسيطر على السلطة بصنعاء وادعى النبوة، وذلك في أواسط شهر محرم ـ أو في أواخر شهر محرم ١١هـ ـ ولم يتجاوز نطاقها صنعاء إلى أن تم قتل الأسود العنسي وذلك في حياة رسول الله ﷺ إما في أواخر شهر صفر، أو في أوائل ربيع ١١هـ ـ قال القرطبي: (كان قتل الأسود العنسي بصنعاء قبل وفاة النبي ﷺ). ومن المفيد هنا تبيين الحقائق والمعالم التالية:

ـ أن رسول الله ﷺ عرف بمقتل الأسود العنسي وأخبر الناس بذلك، وقد رُوي عن عبد الله بن عمر قال: (أتى الخبر إلى رسول الله ﷺ من السماء الليلة التي قتل فيها الأسود الكذاب العنسي فخرج ليُبشر فقال: قُتل الأسود العنسي البارحة، قتله رجل مبارك من أهل بيت مُباركين). وقد نقلت كتب التاريخ ذلك الخبر عن طريق أحد القصاصين وهو سيف التميمي حيث أضاف إلى الخبر عبارة موضوعة هي: (قيل: وَمَنْ قتله يا رسول الله؟ قال: فيروز الديلمي) وربما كان هدف تلك الإضافة التشكيك في معرفة رسول الله ﷺ ولم يأخذ العلماء بتلك الإضافة الموضوعة وغاية ما ذهبا إليه هو قول القرطبي (ولا خلاف أن فيروز الديلمي مِمَّن قتل الأسود العنسي)(٢) فمشاركته في قتل الأسود العنسي يمكن أن تتحق لأنه دخل مع قيس وحضر مقتله وينطبق ذلك على ابن ذي جرة الحميري وفرسان غطيف الذين كانوا مع قيس حين قتل الأسود العنسي، وقد أخبر وبشر النبي ﷺ الناس

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٠٨ ـ البلاذري ـ ص١١٤.
(٢) الاستيعاب ـ للقرطبي ـ جـ٣ ص٢٠٦.

بمقتله ولم يذكر اسم الذي قتله ولم يسأله أحد عن ذلك، وقد تقدم ذكر النصوص بأن الذي قتل الأسود هو قيس ابن مكشوح رضي الله عنه.

ـ وبعد مقتل الأسود العنسي ودخول معاذ والعمال والرؤساء والفرسان اليمانيين في ذلك اليوم ـ يوم صنعاء الثاني ـ صلى معاذ بن جبل بالناس، واستتب الأمر بصنعاء، قال ابن كثير: «وتراجع نواب رسول الله ﷺ إلى أعمالهم.. وكتبوا بالخبر إلى رسول الله ﷺ وقد أَطْلَعَهُ اللّهُ على الخبر من ليلته». وكذلك ذكر ابن خلدون أنه «خلصت صنعاء وتراجع أصحاب النبي ﷺ إلى أعمالهم.. واتفقوا ـ بصنعاء ـ على معاذ بن جبل، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر».

فنواب وأصحاب النبي ﷺ الذين رجعوا إلى أعمالهم ومناطقهم هم الذين دخلوا بفرسانهم ورجالهم في ذلك اليوم، كما رجع عمير ذي مران الناعطي والعاقب ذي زود بفرسان همدان (حاشد وبكيل) إلى منطقتهم، وأما قائدا فرسان وكتائب حمير وهما ذو الكلاع الحميري وحوشب ذو ظليم فقد رجع حوشب ذو ظليم بفرسان وكتائب حمير إلى منطقتهم (مخاليف الجند) بينا توجه ذو الكلاع مع جرير بن عبد الله البجلي إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة وكذلك توجه إلى المدينة الأقرع بن عبد الله الحميري، ولا بد أن الذي كتب بالخبر إلى النبي ﷺ هو معاذ بن جبل لأنه أمير جميع عمال اليمن وكان الكتاب مع جرير بن عبد الله البجلي غالباً، وكان عمال مناطق اليمن مستقرين في أعمالهم بسائر أعمالهم في أرجاء اليمن، وأقام مع معاذ من الصحابة بصنعاء قيس ابن مكشوح ووبر بن يُحنس.

ـ وقد أسلفنا ذكر النصوص عن إسلام فيروز الديلمي ومركنود على يد وبر بن يحنس وقيس بن مكشوح وأنهما (أتيا داذويه فأسلم) فكانوا أول من أسلم من الأبناء وكان إسلامهم سراً وذلك في أوائل صفر ١١هـ فلما تم القضاء على الأسود العنسي أسلم عدد كبير من الأبناء وفرض معاذ الجزية على الذين تمسكوا بالمجوسية من الأبناء الفرس حيث ذكر المؤرخ الرازي أنه: «لما قُتل الأسود العنسي بعث الأبناء بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ»(١) ولكن ليس كل الأبناء أسلموا وإنما بقي كثير منهم على دينهم المجوسي فقد ذكر البلاذري أن معاذ بن جبل أخذ الجزية من مجوس اليمن وكان قد حددها النبي ﷺ حيث «فرض على كل من بلغ الحلم من مجوس اليمن من رجل وامرأة ديناراً، أو قيمته من المعافر».

ـ وقد ذكرت العديد من المصادر ـ بعد نبأ القضاء على الأسود العنسي ـ

(١) تاريخ صنعاء ـ للرازي ـ ص٦٣٠.

رواية منسوبة إلى أحد أولاد الأبناء الفُرس الذي يبدو أنه لا يعرف وضع معاذ حيث تقول الروايه أنه: (تنازع الإمارة في صنعاء قيس وفيروز وداذويه، ثم اتفقوا على معاذ بن جبل، فكان معاذ يصلي بالناس في صنعاء). والواقع أن الأمر ليس كذلك، فقد صلى معاذ بالناس وتولى الإمارة بصنعاء وأخذ الجزية من المجوس وأقام بصنعاء لأنه أمير جميع عمال اليمن بمعنى أنه أمير اليمن وواليها، فقد قال رسول الله ﷺ في كتابه إلى أذواء حِمْيَر حينما بعث العمال أن: «أن أميرهم معاذ بن جبل»[١]. وقال أبو موسى الأشعري: «بعثني رسول الله ﷺ خامس خمسة على مخاليف اليمن، فبعثنا متساندين.. وأنْ إذا قدم معاذ طاوعنا»، وقال ابن سمرة في الطبقات: «كان معاذ عاملاً على اليمن وحضرموت، أمَّرَه النبي ﷺ، فكان معاذ يتنقل في عماله من عامل إلى عامل في اليمن وحضرموت»[٢]. وقال الحافظ ابن كثير: «إن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان قاضياً للنبي ﷺ باليمن وحاكماً في الحروب ومصدِّقاً إليه تُدفع الصدقات. وكان يبرز للناس يصلي بهم الصلوات الخمس»[٣]. فقد استقر معاذ بصنعاء بصفته والياً لليمن وأميراً على عُمال جميع مخاليف ومناطق اليمن حتى وفاة رسول الله ﷺ، قال ابن سمرة: «وأقرّ أبو بكر بقاء معاذ وسائر عمال النبي ﷺ باليمن»[٢] فمكث معاذ والياً لليمن نحو شهرين أو ثلاثة في خلافة أبي بكر، وكان الاستقرار سائداً في أرجاء اليمن، ثم غادر معاذ صنعاء متوجهاً إلى المدينة المنورة، وانتهت ولايته لليمن، فقام أبو بكر بتولية فيروز الديلمي وعندئذ أخذ قيس بن مكشوح في التهيئة للثورة التي قادها في يوم صنعاء الثالث.

* * *

ثورة قيس ابن مكشوح ضد الأبناء الفُرس

(يوم صنعاء الثالث ـ رجب ١١هـ)

لم تذكر الروايات التاريخية أسباب قيام أبي بكر الصديق بعزل معاذ بن جبل الأنصاري من ولاية اليمن وتولية فيروز الديلمي الفارسي. فبعد وفاة رسول الله ﷺ، وكما ذكر ابن سمرة: «أقرّ أبو بكر بقاء معاذ وسائر عمال النبي ﷺ باليمن» وقد كان مع معاذ بصنعاء قيس ابن مكشوح المرادي ووبر بن يحنس الخزاعي، وكانت صنعاء حافلة بالأبناء الفُرس الذين كان أبرزهم فيروز الديلمي وداذويه القهرمان الفارسي وجشيش الديلمي ومهران بن باذان وغيرهم.

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص ٢٦٠ جـ ٤.

(٢) طبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة ـ ص١٨.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص١٠٣.

وبعد نحو شهرين أو ثلاثة من خلافة أبي بكر غادر معاذ بن جبل صنعاء إلى المدينة المنورة وقام أبو بكر بما يمكن تسميته عزل معاذ وإعفائه من ولاية اليمن وجرى كلام حول حصول معاذ على مال من تجارة تاجر بها في اليمن، فقد ذكر ابن كثير أن عمر بن الخطاب قال لمعاذ: (هل لك أن تطيعني فتدفع هذا المال إلى أبي بكر فإن أعطاكه فاقبله. فلما أتىٰ معاذ، انطلق عُمر إلى أبي بكر فقال: أرسل إلى هذا الرجل فخذ منه ودع له. فقال أبو بكر: ما كنت لأفعل إنما بعثه رسول الله ﷺ ليجبره فلستُ آخذُ منه شيئاً. فلما أصبح معاذ إنطلق إلى أبي بكر بكل شيء جاء به حتى جاءه بسوطه وحلف له أنه لم يكتمه شيئاً، فقال أبو بكر: هو لَكَ لا آخذ منه شيئاً)[١]. وربما أن ذلك يشير إلى أن اتهام معاذ بالمتاجرة بمال من بيت مال المسلمين كان سبب استدعائه من اليمن وقد اتضح لأبي بكر حينما أتاه معاذ بكل شيء جاء به من اليمن، أن ما حصل عليه معاذ هو حق له وليس إلا شيئاً يسيراً فلم يأخذ منه شيئاً، ولكنه قام بتولية فيروز الديلمي على اليمن، وكان فيروز قد أسلم على يد وبر بن يحنس وقيس بن مكشوح بصنعاء ـ في صفر ١١هـ ـ وكذلك داذويه، وقد ذكر الرازي أنه «لما قُتل الأسود العنسي، أسلم الأبناء، وكتبوا بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ». فسار فيروز الديلمي آنذاك إلى المدينة فيُقال أنه التقى برسول الله ﷺ ويُقال إن خبر مقتل الأسود العنسي وإسلام الأبناء وصل إلى المدينة بعد وفاة النبي ﷺ فيكون قدوم فيروز في أول خلافة أبي بكر ثم رجع إلى صنعاء، أما (داذويه) فيبدو أنه سار إلى المدينة قُبيل استدعاء معاذ بن جبل، فلما تم عزل معاذ كتب أبو بكر الصديق إلىٰ قادة اليمن كتاباً بتولية فيروز فيما يلي نصه:

«مِنْ أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى عمير بن أفلح ذي مران، وسعيد بن العاقب ذي زود، وسميفع ذي الكلاع، وحوشب ذي ظليم، وشُهْر ذي يناف.

أما بعد، فأعينوا الأبناء على من ناوأهم، وحوطوهم، واسمعوا لفيروز فإنّي قد وليته»[٢]. وكان فيروز وقيس بن مكشوح في صنعاء حينما وصل كتاب تولية فيروز، ولم تذكر الروايات اسم الشخص الذي أحضر كتاب التولية، ويبدو أنه (داذويه)، وتشير صيغة الكتاب إلى أن الشخص الذي كان حاضراً عند كتابة أبي بكر لكتاب التولية كان يتوقع أن تؤدي تولية فيروز إلى وقوع معارضة ومناوءة للأبناء ـ الفرس ـ ولذلك فقد تضمن الكتاب أمراً لقادة اليمن بأن يعينوا الأبناء وأن يحوطوهم أيضاً، ولما وصل

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص١٠٢.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٢ ص٧٨ ـ والوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد الله ـ ص٣٤٣.

كتاب تولية فيروز إلى صنعاء، أظهر قيس ابن مكشوح ترحيبه بولاية فيروز بينما ابتهج الأبناء بتوليه فيروز وافتخروا بداذويه الذي لا ندري سبب افتخارهم به وهل يعود ذلك إلى أن له دور في عزل معاذ بن جبل، أم في تولية فيروز، أم فيهما معاً.

* * *

وقد ظهر أول رد فعل على عزل معاذ وتولية فيروز في أبيات قالها ـ وبعث بها ـ عمرو بن معدي كرب الزُبيدي من منطقة بني زُبيد في تثليث نجران إلى الأبناء الفرس وإلى قيس ابن مكشوح في صنعاء، حيث قال عمرو (مُخاطباً الأبناء):

وما أنْ داذويه لَكُمُ بفخرٍ ولكن داذويه فَضَحَ الْذِمَارَا
وفيروزَ غداً سَيُصابُ فيكم ويضربُ في جموعكم القِفارا

وقد ذكر الطبري البيتين في سياق رواية تزعم أن عمرو بن معدي كرب انتقد وعارض الثورة التي قادها قيس ضد داذويه وفيروز والأبناء بصنعاء، ولكن البيتين ـ فيما نرى ـ ينطقان بلوم الأبناء وداذويه والوعيد بأن فيروزاً سيُصاب فيهم ويَضْرِبُ في جموعهم القِفارا.. إلى خارج اليمن.

أما القول بأن عمرو بن معدي كرب انتقد وَلَامَ موقف قيس، فقد كان ذلك بسبب تعاون قيس مع فيروز والأبناء في صنعاء بعد تولية فيروز حيث شاع وصف قيس بأنه قد بات (صاحب الأبناء)، فقال عمرو بيتين بعثهما إلى قيس وهما:

غَدَرتَ ولَمْ تُحْسِنْ وفاءً، ولم يكنْ لِيَحْتَمِلُ الأسبابَ إلا المُعَوَّدِ(١)
وكيف لقيسٍ أنْ يُنَوِّط نفسه إذا ما جَرَىٰ، والمِصْرُ حيُّ المُسَوَّدِ(٢)

ولم يُدرك عمرو بن معدي كرب ما كان قيس ابن مكشوح يُخطط ويتهيأ له في صنعاء، فقد كان قيس يتظاهر بالولاء لسلطة فيروز والأبناء، وقام في ذات الوقت باتصالات وتهيئة سرية للقيام بثورة جذرية ضد الأبناء الفرس لا تستهدف مجرد إنهاء سلطة فيروز بل تستهدف إخراج ونفي الأبناء الفُرس من اليمن وترحيلهم براً وبحراً إلى بلاد فارس، وهو عمل وتفكير كبير لم تقتصر ساحته على صنعاء ثم امتدت تأثيراته من اليمن إلى عُمان وإلى البحرين.

* * *

(١) غدرت: لأنه بات صاحب الأبناء، وقد يكون (قدرت) ولكنك لم تُحسن الوفاء لمعاذ بن جبل ولقومك ولا يتحمل المسؤولية إلا من تعود عليها.

(٢) المِصر: يريد بالمصر هنا مدينة صنعاء. والمُسود: الذي أصبح سيداً والياً وهو فيروز. وقوله: حي المسود، يعني الأبناء الفرس بصنعاء.

لقد بعث قيس ابن مكشوح عدداً من أصحابه برسالة شفوية سرية من صنعاء إلى ذي الكلاع الحميري وحوشب ذي ظليم وإلى عُمير ذي مران وسعيد بن العاقب ذي زود الهمداني وغيرهم من الأذواء والقادة اليمانيين في أرجاء اليمن، وقد ذكرت المصادر التاريخية ذلك ونَصُّ الرسالة كما يلي:

«أرسل قيس ابن مكشوح إلى ذي الكلاع وأصحابه أن: (الأبناء نُزّاع في بلادكم، نُقَلاء فيكم، وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم. وقد أرى من الرأي أن نقتل رؤوسهم، ونُخْرجهم مِنْ بلادنا». ويروى: «أن أقتل رؤوسهم، وأخرجهم من بلادنا»[1].

وبما أن أبا بكر الصديق كان قد كتب إلى القادة الرؤساء بأن يعينوا الأبناء على من يناوئهم وأن يحوطوهم وأن يسمعوا ويطيعوا فيروز، فقد أثارت رسالة قيس جدلاً ونقاشاً بين أذواء وقادة مناطق وقبائل اليمن، وجَرَت مشاورات واسعة لم تذكر الروايات تفاصيلها لأنها كانت سرية، وأسفرت عن النتيجة التي ذكرتها المصادر التاريخية وهي:

إن الرؤساء الأذواء: **«لم يمالئوا قيساً، ولم ينصروا الأبناء، واعتزلوا، وقالوا: لسنا مما هاهنا في شيء. أنت صاحبهم وأصحابك»**[1].

وإنه: **«استجاب لقيس عامة قبائل من كتب أبو بكر إلى رؤسائهم، وبقي الرؤساء معتزلين»**[1].

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أنه كان باليمن نظام حربي منذ عصر الدولة الحميرية وفي الجاهلية وبداية الإسلام ويتمثل ذلك النظام في أن قبائل ومناطق حمير جميعها لها قائد حربي عام أو قائدان فكل أقيال ورؤساء وفرسان وقبائل حمير يكونون تحت قيادة ذلك القائد الحربي العام لكتائب وقبائل مناطق حمير في الحروب وكان ذلك هو مركز ومرتبة سميفع ذي الكلاع ومعه حوشب ذي ظليم فهما القائدان الحربيان لمناطق وقبائل حمير (التي تشمل بالتسميات الحالية ألوية ومحافظات: إب، وتعز، ولحج، وأبين، وعدن، والضالع، ورداع، وعتمة، ووصاب، والحديدة) وكذلك كان لقبائل ومناطق همدان (حاشد وبكيل) قائد حربي عام أو قائدان، وكان ذلك هو مركز ومرتبة عمير ذي مران الناعطي الحاشدي ومعه سعيد بن العاقب ذي زود فهما القائدان الحربيان لمناطق وقبائل همدان التي هي حاشد وبكيل (وتشمل بالتسميات الحالية مناطق محافظات صنعاء، وعمران،

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ ص٣٤٢ ـ تاريخ الأمم والملوك للطبري ـ جـ٢ ص ٧٨.

وحجة، والمحويت، وعدة نواحي من مأرب وصعدة ونجران)، وكان قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معدي كرب وقيس بن الحصين الحارثي القادة الحربيون لقبائل ومناطق مذحج (وتشمل مناطق مذحج بمحافظات البيضاء وذمار ومأرب ونجران وبيحان وما جاورها من شبوة) بينما كان الأشعث بن قيس الكندي القائد الحربي العام لكندة وحضرموت والمهرة إلى مفاوز عمان.

وقد شارك أغلب أولئك الرؤساء القادة في يوم صنعاء الأول حين تولى القيادة قيس ابن مكشوح، وحينما كتب وبعث النبي ﷺ في أمر مصاولة الأسود العنسي كان الذين كتب وبعث إليهم النبي ﷺ هم ذو الكلاع وحوشب ذو ظليم وعمير ذو مران وسعيد العاقب ذو زود وقيس ابن مكشوح، وشاركوا في القضاء على الأسود العنسي في يوم صنعاء الثاني، وإليهم أيضاً كتب أبو بكر بأن يعينوا الأبناء ويسمعوا ويطيعوا فيروز، ثم كتب إليهم قيس يدعوهم للثورة ضد الأبناء وإخراجهم من اليمن (فاستجاب لقيس عامة قبائل من كتب أبو بكر إلى رؤسائهم، وبقي الرؤساء معتزلين)، وذلك يعني أن عامة قبائل وفرسان مناطق حمير وهمدان وحمير ومذحج سوف يشاركون، وعندئذ بعث إليهم قيس بموعد العمل الثوري والوصول إلى صنعاء، وهو ما تشير إليه نصوص تاريخية بقولها أنه:

«كَاتَبَهم قيسُ في السر، وأمرهم أن يتعجلوا إليه، ويكون أمرهم وأمره واحداً، ويجتمعوا على نفيْ الأبناء من اليمن».

وفي الموعد المحدد (وهو غالباً في أوائل شهر رجب ١١هـ) كانت كتائب حمير وفرسان ورجال همدان ومذحج يحيطون بمشارف صنعاء:

«فأتى قيس إلى فيروز كالفِرق ـ أي المنزعج ـ من هذا الخبر، وأتى داذويه، فاستشارهما قيس لِيُلَبِس عليهما، ولئلا يتهماه، فاطمأنوا إليه، ثم إن قيساً دعاهم من الغد إلى طعام ـ وهم داذويه وفيروز وجشيش ـ فلما دخل عليه داذويه عاجله قيس فقتله»(١).

ويبدو أنه كان قد قرر الاكتفاء بقتل داذويه، وقام بتدبير وسيلة تؤدي إلى هروب فيروز من صنعاء وتتيح له وسيلة الهروب، «.. فلما دخل عليه داذويه عاجله قيس فقتله، وأقبل فيروز فسمع ـ وهو بالقرب من منزل قيس ـ امرأتين على

---

(١) أثيرت فيما بعد مسألة قيام قيس بقتل داذويه «فقال أبان بن سعيد بن العاص لقيس ابن مكشوح: أقتلت رجلاً مسلماً؟ فأنكر قيس أن يكون داذويه مسلماً». والمقصود أنه كان يتظاهر بالإسلام ويتآمر على المسلمين، وقد كان داذويه كاهن وقهرمان الفرس.

سطحين تتحدثان، قالت إحداهما هذا مقتول كما قُتِل داذويه، فركض فيروز هارباً، ولقي جشيش فهربا سوياً، ثم لحقا ببلاد خولان» لأن أخوال فيروز كانوا من خولان، وفي ذات الوقت دخلت صنعاء كتائب حمير وهمدان ومذحج بينما لحق قيس وبعض الفرسان بفيروز وجشيش حيث قال ابن خلدون: «..هرب فيروز وجشيش، وخرج قيس في أثرهما، فامتنعا بخولان أخوال فيروز». وعاد قيس إلى صنعاء مطمئناً بأن خطة الثورة تم تنفيذها بنجاح في ذلك اليوم ـ وهو يوم صنعاء الثالث ـ الذي يوجز حقيقته قول الطبري «ثار قيس بصنعاء وجَبَى ما حولها» فعبارة «ثار قيس بصنعاء» هي التعبير الصحيح عن ما حدث بأنه (ثورة) وأن التعبيرات التي وصفت ما حدث بأنه (رده) هي تعبيرات خاطئة أدت إلى عدم إدراك حقيقة ما حدث والانسياق وراء بعض الأوهام والتلفيقات التي سيأتي تبيين عدم صحتها بعد استكمال تبيين حقيقة ما حدث لأن تلك الثورة كانت ذات هدف محدد في الوثائق والنصوص الصحيحة سالفة الذكر وهو إخراج ونَفْي الأبناء الفرس من اليمن.

* * *

لقد نجحت الثورة التي قادها قيس ابن مكشوح في يوم صنعاء الثالث واستجابت له قبائل حِمْيَر وهمدان ومذحج، فتم تجميع الأبناء الفُرس الذين بصنعاء وغيرها مع عائلاتهم وأولادهم إلى مكان واسع ـ مثل رحبة صنعاء ـ حيث ذكرت النصوص التاريخية أنه:

«عَمَدَ قيسُ إلى الأبناء، فَفَرَّقهم ثلاث فرق؛ أَقَرَّ فرقَة منهم وأقرَّ عيالهم، وأما الفرقة الثانية، فأمَرَ أن يُحْمَلوا في البحر، وأمر بالفرقة الثالثة لِيُحْمَلوا في البر، وقال لهم جميعاً: إلحقوا بأرضكم، وبعث مَنْ يُسيرهم بحراً وبراً»[1].

ومن المفيد هنا تبيين ما يلي:

ـ لم تذكر ـ ولم تدرك الروايات سبب قيام قيس ابن مكشوح والذين معه بتمييز وتفريق الأبناء إلى ثلاث فرق، ويعود السبب إلى بداية ذلك الوجود للأبناء الفُرس حيث كان قدومهم إلى اليمن في ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: هُمْ الذين أَمَدَّ بهم كسرى أنوشروان الملك سيف ابن ذي يزن ـ سنة ٥٧١م ـ وكانو نحو ستمائة رجل غالبيتهم من الديلم، فساهموا مع اليمانيين في القضاء على الأحباش، وأسكنهم سيف في منطقة من صنعاء،

---

(١) تاريخ الطبري ـ جـ٢ ص٧٩ ـ البداية والنهاية لابن كثير ـ الكامل في التاريخ لابن كثير ـ اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٦٣.

وامتزجوا مع اليمنيين بالمصاهرة ـ مثل فيروز الديلمي الذي كان أخواله من خولان ـ وقد أسلمت تلك المجموعة بالذات من الأبناء في يوم صنعاء الثاني ـ سنة ٦٣١م ـ وكتبوا بإسلامهم إلى النبي ﷺ، وهُمْ الفرقة التي أقرّ قيس ابن مكشوح أن يبقوا باليمن وأقرّ عيالهم.

المجموعة الثانية: هُمْ الذين بعثهم كسرى أبرويز بن هرمز إلى اليمن بحراً بعد وفاة سيف ابن ذي يزن ـ سنة ٥٩١م وكانوا ثمانمائة من الفُرس، وكانوا بمثابة حامية عسكرية فارسية بصنعاء.

المجموعة الثالثة: هُمْ الذين بعثهم كسرى أبرويز إلى اليمن براً ـ سنة ٥٩٣م ـ حيث «بعث كسرى أربعة آلاف من الفرس الأساورة مع عائلتهم إلى اليمن عن طريق البر» فاستقروا بصنعاء، فكانوا هُمْ والمجموعة الثانية ـ قوة احتلال فارسية وهم الأساورة جيش باذان عامل كسرى أبرويز بن هرمز وقوم داذويه. وحينما أسلم الأبناء ـ المجموعة الأولى غالباً ـ لم يدخل الأساورة في دين الإسلام ففرض عليهم معاذ بن جبل الجزية التي كان النبي ﷺ قد حددها حيث ذكر البلاذري أنه: «فرض على كل من بلغ الحلم من مجوس اليمن من رجل وامرأة ديناراً، أو قيمته من المعافر». فكانت تلك المجموعتان الثانية والثالثة على دين المجوسية، وهم الفرقة الثانية التي أمر قيس بأن يحملوا في البحر والفرقة الثالثة التي أمر بأن يحملوا في البر وقال لهم جميعاً: إلحقوا بأرضكم، فغادروا اليمن إلى أرضهم براً وبحراً في رجب ١١هـ الموافق ٦٣١م.

ـ وقد بعث قيس مع الفرقة التي أمر بترحيلهم بحراً مَنْ يرافقهم ويُسيرهم إلى البحر، وقد جاء في رواية الطبري عن الذين تابعوا قيساً عبارة (السيارة اللحجية) ويمكن أن نستنتج من ذلك أنهم فرسان منطقة لحج الحميريين الذين قاموا بتسيير الفرقة التي أمر قيس بأن يحملوا في البحر فتم تسييرهم إلى لحج ثم ساحل عدن، بحيث حملتهم المراكب إلى ساحل حضرموت ثم إلى ساحلُ عُمان ومنها إلى أرض فارس. وقد شهدت عُمان في ذات الفترة حركة ضد الفرس الذين كانوا يحتلون منطقة من ساحل عُمان، وقد كان العرب الأزد أهل عمان وملكهم جيفر بن الجُلَنْدي أسلموا في عهد رسول الله ﷺ وكان الفرس يحتلون منطقة (الرستاق) ولهم حامية عسكرية في (صحار) وبقوا على مجوسيتم، ثم شهدت عمان الواقعة التي يذكرها د. فاروق عمر قائلاً: «حين رفض الفرس الدخول في الدين الجديد قاد العرب حملة ضدهم في الرستاق، وكذلك حاصروا الحامية الفارسية في صحار التي استسلمت بشرط أن يؤمِنَ العربُ إجلاء الفُرس مع عوائلهم وأموالهم إلى

الساحل الشرقي من الخليج، وقَبل العرب بذلك الشرط»[١] فتم تسييرهم بالمراكب كما حدث للذين تم تسييرهم من ساحل عدن وحضرموت إلى ساحل عمان، فلحقوا جميعاً بأرض فارس في الساحل الشرقي من الخليج.

ـ أما الفرقة التي أمر قيس ابن مكشوح بتسييرهم براً، فكانوا زهاء أربعة آلاف من الفرس الأساورة بعائلاتهم، وقد جاء في رواية الطبري عن الذين تابعوا قيساً عبارة (الفالة ـ السيارة ـ من أصحاب الأسود العنسي ما بين صنعاء ومأرب ونجران) وكذلك جاءت عبارة (وتابعت حضرموت الأسود العنسي) وأنه (جعل أمره يستطير إستطارة الحريق ما بين صنعاء وحضرموت إلى عدن وإلى البحرين)، ولا علاقة للأسود العنسي بذلك فأمره لم يتجاوز صنعاء وهلك وتم القضاء عليه في حياة النبي ﷺ، وإنما الذي استطار أمره كالحريق إلى حضرموت وإلى البحرين هو قيس بن مكشوح وأمر إجلاء الفُرس، فالسيارة ما بين صنعاء ومأرب ونجران هم فرسان مذحج ومراد الذين رافقوا الذين أمر قيس بترحيلهم براً من الفُرس ـ المجوس ـ بعائلاتهم إلى مأرب ومنها إلى الأشعث بن قيس الكندي في وادي حضرموت، وقد شهدت حضرموت في ذات الفترة حركة بقيادة الأشعث بن قيس الكندي ضد زياد بن لبيد البياضي عامل أبي بكر في حضرموت بسبب ناقة من نوق الصدقة أخذها زياد غلطاً[٢] فقام الأشعث بالسيطرة على الموقف في حضرموت وقام فرسان كندة وحضرموت بتسيير الأبناء الفرس الذين تم ترحيلهم من صنعاء ومأرب إلى حضرموت فتم تسييرهم من حضرموت إلى البحرين، ولذلك قيل أن الأمر «استطار كاستطارة الحريق ما بين صنعاء وحضرموت إلى أعمال البحرين». وقد كان الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي أمير وعامل رسول الله ﷺ على البحرين، وكان مصطلح البحرين يشمل منطقة الخليج العربي حالياً وكان أمير البحرين المنذر بن ساوي العبدي مرتبطاً بالفرس فأسلم المنذر وأهل البحرين العرب على يد العلاء بن الحضرمي، وكان للفرس تواجد عسكري في (الزارة) و(السابون) و(هجر) بالبحرين فبقوا على ديانة المجوسية وفرض العلاء بن الحضرمي الجزية على بعضهم، ثم سار العلاء بن الحضرمي إلى أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة فبقي بالمدينة مثل معاذ بن جبل، فوقعت في ولاية البحرين حركة بقيادة المنذر الغرور بن النعمان بن المنذر ضد المنذر بن ساوي العبدي وكذلك ضد من كان في (هجر)

---

(١) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٣١ ـ وانظر المبحث الخاص بجيفر بن الجُلندىٰ الأزدي في هذا الكتاب.

(٢) تفاصيل ذلك في المبحث الخاص بالأشعث بن قيس الكندي والمبحث الخاص بالعلاء بن الحضرمي أمير البحرين في هذا الكتاب.

وغيرهما من الفُرس ـ المجوس ـ وتم ترحيلهم من (هجر) إلى (السابون) وإلى جزيرة (دارين)[١]، ونرى أن ذلك هو المقصود بعبارة «استطار الأمر كالحريق ما بين صنعاء وحضرموت إلى أعمال البحرين». وإن الذين تم تسييرهم براً من اليمن إلى البحرين لحقوا منها بأرضهم، أرض فارس، بحراً أو براً، وكانوا بقيادة مهران بن باذان الفارسي، فأخذوا أماكنهم في صفوف الجيش الفارسي المجوسي حيث كان مهران بن باذان قائد الفُرس المجوس في موقعة البويب بالعراق ضد المسلمين بقيادة جرير بن عبد الله البجلي ـ في رمضان سنة ١٣هـ ـ فقد ذكر الطبري أنه: «برز مهران بن باذان، ونادى طالباً المبارزة وقال:

إن تسألوا عني فإني مهران   أنا لِمَن أنكرني ابن باذان

قال الطبري: (..وكان مهران عربياً ـ أي يتكلم العربية ـ لأنه نشاء مع أبيه باليمن، إذْ كان أبوه عاملاً لكسرى باليمن)[٢] وقد سقط مهران بن باذان صريعاً بسيف جرير بن عبد الله البجلي في موقعة البويب ـ سنة ١٣هـ ـ كما سقط أخوة شهر بن باذان صريعاً بسيف قيس ابن مكشوح في موقعة يوم صنعاء الأول ـ سنة١٠هـ ـ وكما سقط داذويه صريعاً بسيف قيس في ثورة يوم صنعاء الثالث ضد الأبناء الفُرس باليمن في رجب سنة ١١هـ.

ـ وقد وصفت المصادر التاريخية ثورة قيس ابن مكشوح ضد الأبناء الفرس وقتل داذويه وإجلاء الأبناء الفُرس من اليمن بأنها (ردة عن الإسلام) أو (ردة أهل اليمن عن الإسلام) استناداً إلى تعبيرات رواية نقلها الطبري عن سيف بن عمر التميمي وهو أحد القصاصين المتأخرين المشايعين للفرس بالعراق في العصر العباسي، وقد زعمت رواية سيف التميمي أن أبا بكر الصديق بعث القادة والجيوش من المدينة لمناصرة الأبناء الفرس الذين سَيّرهم قيس من اليمن في البر والبحر، وتم استنقاذ أولئك الفرس الأبناء وإعادتهم إلى صنعاء مع فيروز الديلمي وهزيمة اليمانيين وأسر قيس ابن مكشوح المرادي وعمرو بن معدي كرب والأشعث بن قيس الكندي وغيرهم من القادة اليمانيين الذين وصفتهم الرواية بالمرتدين، وانتصر فيروز والأبناء فاستتب لفيروز حكم وولاية اليمن في بقية خلافة أبي بكر الصديق، ولكن التدقيق والبحث يعطينا اليقين بعدم صحة مزاعم تلك الرواية، وإن ما حدث في اليمن لا يصح أن يُوصف بأنه (ردة عن الإسلام) وإنما كان استياء بسبب عزل

---

(١) تفاصيل ذلك في المبحث الخاص بالأشعث بن قيس الكندي والمبحث الخاص بالعلاء بن الحضرمي أمير البحرين في هذا الكتاب.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٢ ص٧٨.

الصحابي الجليل معاذ بن جبل الأنصاري عامل رسول الله ﷺ على اليمن وتولية فيروز الديلمي الفارسي، وقد أدت تولية فيروز إلى العمل الثوري الذي حددت هدفه رسالة قيس ابن مكشوح إلى ذي الكلاع الحميري وعمير ذي مران الهمداني وأذواء اليمن حيث قال: (إن الأبناء نُزاعُ في بلادكم، وأن تتركوهم لن يزالوا عليكم، وقد أرى من الرأي، أن نقتل رؤوسهم، ونخرجهم من بلادنا) فاعتزل الأذواء الرؤساء واستجاب لقيس عامة قبائلهم (وأجمعوا على نفي الأبناء من اليمن). فلم يكن هناك أي ردة عن الإسلام، وغاية ما يمكن اتهام قيس والذين معه هو عدم الامتثال لقرار وكتاب الخليفة أبي بكر الصديق بتولية فيروز وبأن يعينوا الأبناء، فثار قيس واليمانيون وتم تمكين فيروز من الهروب واللجوء إلى أخواله في خولان فأقام عندهم حتى قدوم أبان بن سعيد بن العاص إلى صنعاء.

ـ إن الذين بعثهم أبو بكر الصديق بعد ثورة قيس ابن مكشوح وإجلاء أغلب الفرس الأبناء من اليمن لم يكونوا جيوشاً لاستنقاذ الأبناء وإعادة فيروز والياً لليمن، فالذين تم ترحيلهم من اليمن براً وبحراً لحقوا ببلاد فارس بالفعل واستقروا هناك وقد كانوا مجوساً مثلهم في ذلك مثل الذين تم ترحيلهم من عُمان ومن البحرين فلحقوا بأرض فارس، أما الصحيح في الذين بعثهم أبو بكر الصديق فإنه بعث ثلاثة من الصحابة هُم جرير بن عبد الله البجلي، وأبان بن سعيد بن العاص، والمهاجر بن أبي أمية، ومعهم عدد من الرجال، وفي ذلك قال ابن خلدون: (بعث أبو بكر جريراً ليستنفر من ثبت على الإسلام ويقيم بنجران، فسار جرير إلى نجران ـ فأقام بها ـ وأمر أبو بكر المهاجر بن أبي أمية بأن يسير إلى اليمن ـ إلى صنعاء ـ ليُصلح من أمره ثم ينفذ إلى ـ عمله في حضرموت، ومَرَّ جرير بمكة والطائف فسار معه خالد بن أسيد وعبد الرحمن بن أبي العاص بمن معهما ـ وكان معه أبان بن سعيد بن العاص ـ ومَرَّ جرير بمكة والطائف فسار معه خالد بن أسيد وعبد الرحمن بن أبي العاص بمن معهما ـ وكان معه أبان بن سعيد بن العاص، ومَرّ بجرير بن عبد الله البجلي وعكاشة بن ثور فضمهما إليه ثم مرّ بنجران وانضم إليه فروة بن مسيك المرادي، وجاءه عمرو بن معدي كرب وقيس ابن مكشوح فأوثقهما وبعثهما إلى أبي بكر، فتاب عمرو واستقال، فأقالهما أبو بكر وردهما، . . وسار المهاجر حتى نزل صنعاء، وكتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء فجاءه الجواب بأن يسير إلى كندة بحضرموت)[١].

ومقولة مجيء عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح إلى المهاجر في نجران غير صائبه، فقد كان عمرو في منطقة زُبيد بتثليث نجران بالفعل أما قيس

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٦٥.

فكان بصنعاء[١]، وقد التقى المهاجر وإبان بن سعيد بن العاص بجرير بن عبد الله وفروة بن مسيك وعمرو بن معدي كرب في نجران، فعبارة (أوثقهما، وبعث بهما إلى أبي بكر) لا تتفق مع الوقائع، وإنما تشاور أولئك الصحابة وغيرهم من الزعماء اليمانيين في نجران، وكتبوا وبعثوا إلى أبي بكر بالرأي الذي رأوه وبطبيعة وخلفية الثورة التي قادها قيس ابن مكشوح ـ من وجهة نظر اليمنيين ـ فاستطاع أبو بكر أن يتفهم الموقف، فعفا عما حدث، وبعث بتولية أبان بن سعيد بن العاص على اليمن، فتوجه أبان إلى صنعاء ـ وربما كان معه المهاجر بن أبي أمية وجرير بن عبد الله البجلي ـ وكان قيس ابن مكشوح بصنعاء فاستقبل أبان بن سعيد والذين معه، بينما توجه المهاجر ـ من نجران أو من صنعاء ـ إلى مأرب ومنها مضى إلى عمله ومهمته في كندة وحضرموت، واستقر أبان بن سعيد بن العاص في صنعاء وأصبح والياً لليمن، وكانت تولية أبان بن سعيد محل رضا قيس بن مكشوح واليمانيين، فقد كان أبان بن سعيد زوج كبشة بنت مكشوح أخت قيس، زوجها إياه أخوها قيس لما وفد إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة مع أخته كبشه في السنة التاسعة للهجرة وكان أبان بن سعيد من الصحابة الفضلاء، فلما وصل إلى صنعاء أميراً والياً مِنْ قِبلِ أبي بكر الصديق ـ في أواخر سنة ١١هـ ـ استقرت الأمور في اليمن، وكان فيروز الديلمي مستجيراً مقيماً عند أخواله في خولان، فلما قدم أبان بن سعيد وتولى الأمر بصنعاء أقبل فيروز إلى صنعاء، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة النباء اليقين عما حدث، قائلاً: «لما بعث أبو بكر الصديق أبان بن سعيد إلى اليمن، كلمه فيروز في دم داذويه الذي قتله قيس بن مكشوح، فقال أبان لقيس: أَقَتَلتَ رجلاً مسلماً؟ فأنكر قيس أن يكون داذويه مسلماً. فقال أبان لفيروز: إلحق بأمير المؤمنين ـ أبي بكر ـ وأنا أكتب لك بما قضيتُ بينكما، فكتب له، فأمضى ـ أبو بكر ـ ما كتبه أبان» ـ انتهى ـ ولم يذكر العسقلاني محتوى كتاب أبان بن سعيد الذي أمضاه وأقرّه أبو بكر الصديق وكذلك عمر بن الخطاب، وقد ذكر ابن خلدون إنه «خَطَرَ عند أبي بكر أمر قتل داذويه فلم يجد ـ أبو بكر ـ أمراً جلياً في أمره»، ويبدو أن قيس ابن مكشوح كانت عنده أدلة قوية بأن داذويه كان يتظاهر بالإسلام ويتآمر على المسلمين فاقتنع أبان بن سعيد بذلك وأقرّ أبو بكر ما كتبه أبان، وقد اقترن ذلك بأن يقيم فيروز بالمدينة ولا يعود إلى صنعاء، وسواً كان ذلك برأي أبان بن سعيد أو برغبة فيروز، فقد أقام فيروز بالمدينة حتى توفي بها، بينما مكث قيس ابن مكشوح ـ

---

(١) قال الطبري في رواية صحيحة «بعث أبو بكر المهاجر بن أبي أُمية إلى صنعاء وحضرموت، فاتخذ المهاجر مكة طريقاً، ومرّ بالطائف، ثم مضى حتى حاذى جرير بن عبد الله البجلي فضَمّه إليه، ثم قدّم على أهل نجران، فانضم إليه فروة بن مسيك. وفارق عمرو بن معدي كرب قيساً وأقبل مستجيباً حتى دخل على المهاجر» ـ [ص٧٨ جـ٤ ـ تاريخ الطبري].

قائداً بصنعاء ـ مع أبان بن سعيد بن العاص عامل أبي بكر الصديق على اليمن إلى أن وصل إلى صنعاء الصحابي أنس بن مالك الأنصاري ـ في أواخر سنة ١٢هـ ـ يستنفر أهل اليمن لجهاد الروم بالشام.

* * *

إنطلاق ابن مكشوح وأهل اليمن للجهاد بالشام

كان قيس بن مكشوح في صنعاء لما وصل إليها أنس بن مالك الأنصاري بكتاب أبي بكر الصديق الذي يستنفر فيه أهل اليمن للجهاد وأخذ الشام من الروم، وكان أنس بن مالك يقرأ كتاب أبي بكر ويحث أهل اليمن للمسير إلى الجهاد في كل مدينة من المدن والمناطق الرئيسية باليمن، فقد مَضَى من منطقة السراة وتهامة إلى مناطق حمير (الجَنَد ومخاليفها) ـ وفيها ذو الكلاع الحميري وأذواء وأقيالُ حمير ـ فاستجابوا وأخذوا يتهيأون للمسير، ثم أقبل أنس بن مالك إلى صنعاء ـ وفيها الأمير أبان بن سعيد بن العاص وقيس بن مكشوح ـ فأبلغهم بكتاب أبي بكر، فبادر قيس بن مكشوح والذين معه بالاستجابة وبعث قيس إلى مراد ومذحج فأخذوا يتهيأون للمسير بالسلاح والدروع والعتاد، بينما مضى أنس بن مالك إلى ناعط ومنطقة همدان فأبلغهم بكتاب أبي بكر، ومضى إلى نجران ومخاليفها ـ وكان فيها جرير بن عبد الله البجلي ـ فاستنفر جرير أهل مخاليف نجران والسراة للمسير، وعاد أنس بن مالك إلى المدينة وقال لأبي بكر الصديق: «يا خليفة رسول الله ـ والله ـ ما قرأت كتابك على أحد إلا وبادر إلى طاعة الله ورسوله وأجاب دعوتك، وقد تجهزوا في العدد العديد والزرد النضيد.. وقد أقبلتُ إليك ـ يا خليفة رسول الله ـ مبشراً بقدوم أبطال اليمن وشجعانها وملوكها.. فتأهبْ إلى لقائهم. فسرّ أبو بكر وحمد الله كثيراً، وأقام يومه ذلك حتى إذا كان من الغد لاحت غبرة القوم لأهل المدينة فأقبلوا إلى أبي بكر فأخبروه، فركب مع أهل المدينة وأظهروا زينتهم ونشروا الألوية الإسلامية، فما كان إلا القليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضاً. فكان أول أهل اليمن وصولاً قبائل حمير يتقدمهم ذو الكلاع الحميري رضي الله عنه، فلما قرب من أبي بكر الصديق وكبار أصحابه أشار بالسلام، وقال مُنشداً ـ (هو وطليعة من أصحابه أبياتاً بأسلوب الزامل اليمني، منها) ـ:

أتتك حِمْيَرُ بالأهلين والولد ... أهل السوابق والعالون بالرتب
أُسدُ غَطَارِفَةُ، شُوسُ جَحَاجِحَةُ ... يُرِدوا الكُماة غداة الحرب بالقُضبِ

ثم أقبلت كتائب مراد ومذحج يتقدمهم قيس ابن مكشوح المرادي رضي الله

عنه ـ فلما قرب من أبي بكر وأصحابه أشار قيس بالسلام، وقال مُنشداً ـ (هو وطليعة من أصحابه بأسلوب الزامل اليمني) ـ:

أتتك كتائبُ مِنَّا سِرَاعاً ذوي التيجانِ، أعني مِنْ مُرادِ
فَقَدِمْنَا أمامك كيْ ترانا نُبيد الروم بالأسلِ النِجاد»[1]

وكان قيس قد استنفر كتائب وفرسان مراد ومذحج فاجتمعوا إليه بصنعاء، فسار منها إلى المدينة، ويدل على ذلك قوله:

جَلَبتُ الخيلَ من صنعاء تردى بكل مُدَجَّج كالليث سامي

وتتابعت كتائب ومواكب أهل اليمن في الوصول خلال الأيام التالية إلى أبي بكر بالمدينة المنورة، وعند ذلك عقد أبو بكر العزم على فتح الشام، وفي ذلك قال ابن جرير الطبري: «قدم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن وفيهم ذو الكلاع الحميري وجرير بن عبد الله وقيس بن مكشوح، وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره» وقال ابن خلدون: «وحينئذٍ أهتم أبو بكر بالشام».

معالم دور قيس في اليرموك وفتح دمشق

وقد كان قيس ابن مكشوح من الصحابة القادة الذين شهدوا فتوح الشام منذ بدايتها وانطلاقها ـ في أواخر عام ١٢هـ ـ وحتى موقعة اليرموك ـ في جمادى الثاني ١٣هـ ـ حيث تم تقسيم الجيش العربي الإسلامي إلى ٣٦ كردوساً، يضم كل كردوس ألف مقاتل، ويقود كل كردوس أمير قائد من الصحابة، وكان خالد بن الوليد وقيس بن مكشوح في موقع قيادي أكثر أهمية وأعظم، حيث تم تقسيم الجيش إلى ٣٦ كردوساً، وتم تقسيم الخيل (الفرسان) إلى فرقتين؛ (فرقة الميمنة بقيادة خالد بن الوليد، وفرقة الميسرة بقيادة قيس بن مكشوح المرادي)، وبذلك كان قيس ابن مكشوح قائد نصف خيل وفرسان الجيش العربي الإسلامي بموقعة اليرموك التي تتوجت بالنصر على الروم ـ في أواخر جمادى الثاني سنة ١٣هـ ـ وكان ذلك بعد أيام من وفاة أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب، فلما تم النصر بعث أبو عبيدة بن الجراح الصحابي جرير بن عبد الله البجلي بنبأ النصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب، وتم إبقاء قوة في اليرموك بقيادة بشير بن كعب الحميري، وانطلق قيس بن مكشوح مع أبي عبيدة والجيش الإسلامي صوب دمشق، وقد قال قيس بن مكشوح في قصيدة لاحقة يذكر مسار فتوح الشام التي شهدها مع فرسان مراد ومذحج؛ قال قيس:

جَلَبْتُ الخيل من صنعاء تردى بكل مُدَجج كالليث سامي

---

(١) الأسل: السيوف ـ فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ١ ص٣.

إلـى وادي الـقُـرى وديـار كـلـبٍ ... إلـى الـيـرمـوك والـبـلـد الـشـامِ
فـلـمـا أن زويـنـا الـروم عـنـهـا ... عـطـفـنـاهـا صـواهـل كـالـسـهـام

وقد عطف قيس الخيول مع الجيش العربي الإسلامي الذي انطلق في اتجاه مدينة دمشق، فافتتحوا مرج الصُفْر وتقدموا إلى دمشق في محرم سنة ١٤هـ وكان بدمشق جيش روماني وكان يحكم دمشق نسطاس بن نسطورس الروماني، فانتشر الجيش الإسلامي وحاصروا دمشق حيث قام أبو عبيدة بن الجراح بتقسيم الجيش إلى ست فِرق ـ أو ثمانية ـ فرابطت الفرق الست في مواجهة أبواب دمشق ـ الستة ـ وعلى رأس كل فرقة أمير قائد من الصحابة فكان قيس بن مكشوح أحد القادة الصحابة الستة الذين قادوا حصار فتح دمشق على رأس الفِرق الست التي رابطت في مواجهة أبواب دمشق وهم كل من:

ـ أبو عبيدة بن الجراح عند باب الجابية.

ـ شرحبيل بن حسنة الكندي عند باب توما ـ (شمال دمشق)[١] ـ وقال البلاذري: (نزل شرحبيل عند باب الفراديس)[٢].

ـ خالد بن الوليد عند الباب الشرقي.

ـ قيس بن هبيرة المكشوح المرادي عند باب الفرج[١] ـ في ناحية جنوب شرق دمشق ـ.

ـ يزيد بن أبي سفيان عند الباب الصغير الذي يُعرف بباب كيسان.

ـ عمرو بن العاص عند باب الفراديس[١] وقال البلاذري: (نزل عمرو عند باب توما، ونزل شرحبيل عند باب الفراديس)[٢].

ـ وكان رافع بن عميرة الطائي في عسكر الزحف على الباب الشرقي[١] وأبو الدرداء عويمر بن عامر الخزرجي على مسلحة ببرزة[٢].

ـ وكان ذو الكلاع الحميري على رأس قوة من فرسان حمير ما بين دمشق وحمص ليمنع وصول المدد من هرقل في حمص إلى دمشق، قال الطبري: (فلما جاءت خيول ومدد هرقل أشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع.. ولما أيقن أهل دمشق أن الإمداد لا تصل إليهم وهَنوا وانقطع رجاؤهم)[٣].

وكانت المعارك حول دمشق تدور بالترامي بالنبال وبالمجانيق والزحوف،

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ١ ص٣٩.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٢٧.
(٣) تاريخ الطبري ـ جـ٣ ص٥٧.

وكان ممن أُصيب فيها أبان بن سعيد بن العاص، فلما يأس الروم والذين بدمشق من وصول الإمدادت من هرقل، بعثوا إلى أبي عبيدة يطلبون الصلح والأمان فأجابهم إلى ذلك، وتم كتابة كتاب الصلح، ثم قالوا له: (قُمْ معنا لاستلام المدينة، فقام أبو عبيدة وركب معه خمسة وثلاثون صحابياً فدخلوا دمشق وتسلموها ـ في رجب ١٤هـ ـ وكان منهم أبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة الكندي، وخالد بن الوليد، وقيس بن مكشوح، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وذو الكلاع الحميري، وأبو هريرة، ومعاذ بن جبل، ونعيم بن عمرو، وعبد الله بن عمرو الدوسي، وحسان بن النعمان، وجرير بن نوفل الحميري، ودحية بن خليفة الكلبي، وعمرو بن معدي كرب، وأبو الدرداء، ورافع بن عميرة الطائي، رضي الله عنهم).

* * *

ملاحم قيس بن مكشوح في القادسية

بعد فتح واستلام دمشق التي كان قيس بن مكشوح من كبار قادة الصحابة الذين فتحوها واستلموها ـ في رجب ١٤هـ ـ كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب بنبأ فتح دمشق، فكتب عمر إلى أبي عبيدة بتوجيه قيس بن مكشوح إلى القادسية.

وكانت المعارك مع الفُرس بالعراق قد احتدمت منذ قيام عمر بتوجيه جرير بن عبد الله البجلي في جيش إلى العراق حيث ألحق جرير هزيمة كبيرة بالفُرس في موقعة البويب ـ في رمضان ١٣هـ ـ ثم افتتح جرير نواحي الحيرة والأنبار وغيرها، وبعث عمر الإمدادات من مستنفري أهل اليمن وغيرهم إلى العراق وكان جرير هو الأمير إلى أن بعث عمر سعداً بن أبي وقاص أميراً ـ سنة ١٤هـ ـ ثم بعث الفُرس جيشاً كثيفاً بقيادة رستم فاجتمع المسلمون بالقادسية في مواجهة الفرس وأتى عمر نبأ فتح دمشق ـ في رجب ١٤هـ ـ فكتب عمر إلى أبي عبيدة كتاباً عامة بأن يبعث الذين جاؤوا من العراق وشهدوا فتح الشام من الجيش إلى العراق مدداً لسعد في القادسية، وكتاباً خاصاً بأن يبعث قيساً إلى القادسية، وفي ذلك جاء في فتوح البلدان للبلاذري إنه: «كتب عمر إلى أبي عبيدة: إبعث قيس بن مكشوح إلى القادسية فيمن أنتدب معه، فانتُدب مع قيس خلق، فقدم متعجلاً إلى القادسية»[١].

وقال قيس بن مكشوح يذكر ذلك في قصيدة له بعد القادسية:

جَلَبْتُ الخيل من صنعاء تردى ... بكل مدجج، كالليث، سامي

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٧.

إلى وادي القُرى فديار كلب ... إلى اليرموك فالبلد الشام

[يعني بالبلد الشام: دمشق]

فلما أن زوينا الروم عنها ... عطفناها صواهل كالسهام

أتينا القادسية بعد شهر، ... مرشقةً نواصيها دوامي[(١)]

فناهضنا هنالك جمع كسرى ... وأبناء المرازبة الطِغام

كما وصل إلى القادسية الأشعث بن قيس الكندي في فرسان كندة وحضرموت، وعمرو بن معدي كرب في فرسان بني زبيد، ومعاوية بن حديج السكوني في فرسان السكون، وأبو موسى الأشعري في فرسان الأشاعر، وشرحبيل بن السمط الكندي، وفروة بن مسيك، وتدفق الزعماء والفرسان العرب من كل حدب وصوب إلى القادسية حيث المواجهة الكبرى مع جيش الأمبراطورية الفارسية وكانت تلك المواجهة بالغة الأهمية للعرب، وبصفة خاصة لليمانيين الذين خاضوا نضالاً طويلاً إلى أن تم النصر بقيادة قيس بن مكشوح على الفرس بصنعاء في يوم صنعاء الأول وتم إجلاء الفرس المجوس من اليمن في يوم صنعاء الثالث بقيادة قيس بن مكشوح - (في رجب ١١هـ) - كما تم إجلاء الفُرس من الرستاق وصحار في عمان، وقاد العلاء بن الحضرمي معارك تحرير البحرين من الوجود الفارسي المجوسي إلى أن اكتمل ذلك سنة ١٣هـ - فإذا لم ينتصر العرب في القادسية فإن عودة الاحتلال الفارسي وزوال السلطان العربي الإسلامي كان احتمالاً قائماً. قال الطبري: «كانت العرب تَوَقَّعُ وقعة العرب وأهل فارس بالقادسية، ما بين العذيب إلى عدن وفيما بين الأُبلة وأيلة، يرون أن ثبات مُلكهم وزواله بها، وكانت في كل بلد مُصيخة إليها تنظر ما يكون من أمرها، حتى كان الرجل ليُرِيدُ الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية، فلما كانت وقعة القادسية، بدرت امرأة - مِنْ النخع مِنْ مذحج - على جبل صنعاء - في صنعاء - وهي تقول:

حيتكِ عني الشمس عند طلوعها ... وحياكِ عني كل ناجٍ مُغردِ

وحيتك عني عصبة نخعية[(٢)] ... حِسان الوجوه آمنوا بمحمدِ

أقاموا لكسرى يضربون جنوده ... بكل رقيق الشفرتين مُهَنَّدِ

إذا ثَوَّب الداعي أناخوا بكلكلٍ ... من الموت تَسْوَدُّ الغياطلُ مُجْرِدِ»[(٣)]

(١) مرشقة نواصيها دوامي: يعني الخيول.

(٢) عصبة نخعية: أي عصبة مذحجية، وجاء في هامش تاريخ ابن خلدون: (عصبة يمنية).

(٣) قد يكون الأصوب: (إلى الموت مُسود الغياطل مُجْرد) - تاريخ الطبري - جـ٤ ص١٤١.

وكان قيس بن مكشوح قائد ميسرة الجيش العربي الإسلامي بالقادسية بينما كان قائد الميمنة جرير بن عبد الله البجلي، أما الأمير والقائد العام للمسلمين فكان سعد بن أبي وقاص إلا إنه كان قد أصابه مرض فأقام في قصر العذيب ولم يتمكن من حضور موقعة القادسية، قال ابن خلدون أن سعداً «كان به عرق النساء، وأصابته معه دماميل لا يستطيع معها الجلوس». فكان سعد في قصر العذيب حين اندلعت موقعة القادسية بينما كما ذكر الحافظ بن كثير: «**كان على ميمنة المسلمين بالقادسية جرير بن عبد الله البجلي، وعلى الميسرة قيس ابن مكشوح**»[١]. وقد وقف قيس يَحثُّ الجيش على الجهاد، قال الطبري: «**قام قيس بن مكشوح فقال: يا معشر العرب، إن الله قد مَنَّ عليكم بالإسلام وأكرمكم بمحمد عليه الصلاة والسلام، فأصبحتم بنعمة الله أخواناً دعوتكم واحدة وأمركم واحد، بعد إذْ أنتم يعدو بعضكم على بعض عَدْو الأسد ويختطف بعضكم بعضاً اختطاف الذئاب. فانصروا الله ينصركم، وتَنَجزُّوا من الله فتح فارس، فإن إخوانكم من أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام وإنتثال القصور الحُمر والحصون الحُمر**»[٢].

ثم كبّر قيس وكبّر المسلمون، والتحموا بالجيش الفارسي في أول أيام القادسية ـ ويُقال له يوم أرماث ـ ثم في ثاني أيام القادسية ـ ويُقال له يوم أغواث ـ وفي ذلك اليوم: «كانت كتيبة من الفُرس عليهم دروع، لا ينفذ فيها السلاح، فازدلف لهم المسلمون فجالدوهم بالسيوف فرؤا أن السيوف لا تعمل في دروعهم الحديد فارتدعوا، فحمل عليهم الأشعث بن قيس في سبعمائة من كندة خاصة، فأزالهم، وقتل قائدهم»[٢] وفي ذلك اليوم قام الفرس بتوجيه أفيالهم إلى ميمنة الجيش الإسلامي التي كان قائدها جرير بن عبد الله البجلي وفيها فرسان بجيلة، قال الطبري: (علم الفُرس أن بأس المسلمين في الجانب الذي فيه بجيلة، فوجهوا إليهم ستة عشر فيلاً وإلى سائر المسلمين فيلين، وجعلوا يُلقون تحت أرجُل خيول بجيله حسك الحديد ويرشقونهم بالنشاب ـ من فوق الأفيال ـ وكان إسوارُ منهم لا يكاد تسقط له نشابه، فقالت بجيلة لعمرو بن معدي كرب: يا أبا ثور نُق ذلك الفارسي، فحمل عليه عمرو فاعتنقه فذبحه). قال البلاذري: (وحطم عمرو بن معدي كرب فيلاً من الفيلة وقال: ألزِموا سيوفكم خراطيمها فإن مقتل الفيل خرطومه)[٣] والمقصود بأنه حطم فيلاً هو تحطيم وكسر ما فوق ظهرها من صناديق

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٤٣.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص١١٦.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٥٧.

تحمل الجنود والرماة الفُرس، ففعل المسلمون كما فعل عمرو بن معدي كرب فصدوا الفيلة وحطموا صناديقها.

ـ قال ابن خلدون: «**ثم أصبحوا في اليوم الثالث ـ ويُقال له يوم عُماس ـ وقد أصبح الفُرس على مواقفهم وأعادوا الصناديق على الفيلة وأحدقوا الرجال بها يحمونها أن تُقَطَّع وضُنَّها. فتزاحفت الكتائب طعناً وضرباً.. وكان فيهم قيس بن مكشوح المرادي فلما خالط القلب كَبَّر، وكبّر المسلمون معه، ثم كبّر قيس فخرق الصفوف إلى العتيق.. وكان هذا اليوم وهو يوم عُماس شديداً إلا أن الطائفتين فيه سواء، وأبلى فيه قيس بن مكشوح وعمرو بن معدي كرب**»(١). وقد بلغ قيس في اختراقه صفوف الفُرس يومذاك إلى العتيق وهو موقع آخر عسكر الفرس حيث «كان صف الفرس على شفير العتيق، وكان صف المسلمين على حائط قُدَيس، والخندقُ من ورائهم، فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق».

ـ **وفي ليل يوم عماس ـ وتُسمى ليلة الهرير** ـ «سار عمرو بن معدي كرب وطليحة بن خويلد إلى مخاضة أسفل من العسكر ليقوما عليها خشية أن يؤتى المسلمون منها»، فرابطا بالمخاضه.وكان مع عمرو مائتان من الفرسان وكذلك طليحة، فقالا: لو خضنا فأتينا الأعاجم من خلفهم، فأغار عمرو بأصحابه وأصحاب طليحة على أسفل معسكر الفرس فقاتلوهم، ثم «ثارت بهم الأعاجم» قال الطبري: «**وكان سعد خشى الذي كان، فبعث قيس بن مكشوح المرادي ـ في سبعمائة رجل ـ وقال له: إن لحقتهم فأنت عليهم، فخرج قيس نحوهم، فلما كان عند المخاضه وجد القوم ـ الفرس ـ يكردون عمراً وأصحابه، فَنَهنه ـ قيسُ ـ الناسَ عن عمرو**». ولعل الأصوب أن مسير قيس كان من ذات نفسه، لأن سعداً كان مريضاً في قصره بمنطقة العذيب ـ قال ابن خلدون في نبأ ليلة الهرير: «أغار عمرو بن معدي كرب في أسفل المخاضه» فلما سمع جيش المسلمين تكبير عمرو والذين معه انطلقوا للقتال حيث قال ابن خلدون: «زاحفهم الناس دون أذن سعد، وأول من زاحفهم القعقاع وقومه، ثم حمل بنو أسد، ثم النخع، ثم بجيله، ثم كنده»، وكان ذلك بعد انطلاق قيس بن مكشوح في سبعمائة من الفرسان إلى حيث كان عمرو بن معدي كرب يقاتل الفرس بأسفل معسكرهم عند المخاضة، وكان الفرس قد تكاثروا على عمرو وأصحابه، فَنَهنَه قيس الجنود الفرس عن عمرو بن معدي كرب، فلما رأى جيش المسلمين انطلاق قيس والتحامه مع الفرس في أسفل معسكرهم زحف المسلمون بأجمعهم، وكان أول من زحف القعقاع وأصحابه مع

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٩٨.

بني أسد ثم قبيلة النخع المذحجية بقيادة دريد بن كعب النخعي، ثم بجيله ـ قال الطبري: كانت بجيله رُبع المسلمين ـ فزحفوا بقيادة جرير، ثم كندة بقيادة الأشعث بن قيس وشرحبيل بن السمط، ثم بقية الجيش، فاخترقوا ظلام الليل ولحقوا بقيس بن مكشوح وعمرو في القتال داخل معسكر الفرس، وكان الفُرس قد تنبهوا فقاموا بتنظيم كتائبهم وصفوفهم في ثلاثة عشر صفاً، بينما قام المسلمون بتنظيم أنفسهم في ثلاثة صفوف؛ صفُ فيه الرّجالة ـ المشاة ـ وصف فيه المرامية ـ رماة النِبال ـ وصفُ فيه الخيول ـ الفرسان ـ أمام الرّجالة ـ المشاة ـ قال الطبري: «وقام قيس بن مكشوح فيمن يليه من المسلمين فقال: أن عدوكم قد أبى إلا المزاحفة، والرأي ليس أن تحمل الخيل ليس معها الرّجالة، فإن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوُّهم على الخيل لا رجال معهم عقروا بهم ولم يطيقوا أن يقدموا عليهم، فَتَيَسروا للحملة ـ جميعكم ـ وانتظروا التكبيرة».

«وقال دريد بن كعب النخعي وكان معه لواء النخع: أن المسلمين قد تهياؤوا للمزاحفة فاسبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد فإنه لا يسبق الليلة أحدُ إلا كان ثوابه على قدر سَبْقه. نافسوهم في الشهادة وطيبوا بالموت نفساً فإنه أنجى من الموت إن كنتم تُريدون الحياة وإلا فالآخرة ما أردتم».

وتقول الرواية أن سعد بن أبي وقاص كان قد بعث إليهم قائلاً: إذا كبّرت ثلاثاً فازحفوا، ولذلك قال لهم قيس (انتظروا التكبيرة) ولكنهم لم ينتظروا التكبيرة الثالثة، وتقول الرواية «عصى الناس كلهم سعداً فلم ينتظروا التكبيرة، وحملوا على الفُرس، فقال سعد: اللهم اغفر لهم وانصرهم». والواقع أن سماع تكبيرة سعد كان مستحيلاً لأنه كان مريضاً في قصر العذيب وبينه وبين المسلمين منطقة الخندق ثم منطقة قديس ثم منطقة معسكر الفرس التي في أسفلها كان المسلمون في مواجهة الفُرس، فكبّر قيس بن مكشوح وكبّر القادة المسلمون، وحملوا على العدو، قال الطبري: «فاجتلدوا تلك الليلة من أولها حتى الصباح لا ينطقون، كلامهم الهرير، فَسُميت ليلة الهرير. قال أنس بن الحليس: شهدتُ ليلة الهرير فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون، ورأى العرب والعجم فيها أمراً لم يروا مثله قط، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وسعد، وأقبل سعد على الدعاء، حتى إذا كان وجه الصبح انتهى الناس ـ أي رجع المسلمون إلى معسكرهم ـ فأُستدل بذلك على أنهم الأعلون والغلبة لهم»، وقد كان عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح، ودريد ابن كعب النخعي، أبرز أبطال معركة ليلة الهرير التي أسفرت عن مقتل ألفين وخمسمائة من الفُرس، وكان لها تأثير كبير في انعقاد عزم المسلمين على تحقيق النصر الحاسم في اليوم التالي وهو يوم القادسية.

ـ وقد اندلعت في اليوم التالي الهرير ـ وهو يوم القادسية ـ الحرب الشاملة والحاسمة في القادسية بين الجيش العربي الإسلامي والجيش الفارسي المجوسي، قال الطبري، (فقام في المسلمين رجال ـ يحضونهم ـ فقام قيس بن مكشوح، والأشعث بن قيس، وعمرو بن معدي كرب، وابن ذي السهمين الخثعمي، وابن ذي البرُ دين الهلالي، فقالوا: لا يكونن هؤلاء أجراء على الموت ولا أسخى أنفساً عن الدنيا). وقد ذكر ابن كثير إنه: «كان على ميمنة المسلمين يوم القادسية جرير بن عبد الله البجلي وعلى الميسرة قيس بن مكشوح المرادي». قال البلاذري في فتوح البلدان: «قال قيس ابن مكشوح ـ يوم القادسية ـ: يا قوم إن منايا الكرام القتل، فلا يكونن هؤلاء القُلف أولى بالصبر وأسخى نفساً بالموت منكم. ثم قاتل قتالاً شديداً، فقتل الله رستم. .» ثم قال البلاذري: «فَوُجِد بدن رستم مملوءاً ضرباً وطعناً، فلم يُعلم مَنْ قاتِله، وقد كان مشى إليه عمرو بن معدي كرب. .» ثم ذكر البلاذري عدة أشخاص يُنسب إليهم قتل رستم، والأصوب أن الذي قتله قيس ابن مكشوح، فقد كان رستم في ذلك اليوم على ظهر سرير فوق فيل، قال الواقدي: «وحمل عمرو بن معدي كرب وفعل يومئذٍ بالعدو الأفاعيل، ولحق به المسلمون. . وشَدّ عمرو على رستم وهو على فيل، فضرب الفيل فجذم عرقوبه فسقط الفيل. . فحمل عمرو على رستم. .» وكان صندوق سرير رستم قد انقلب به، فهوى في العتيق، فنهض رستم، فحمل عمرو إلى حيث سقط السرير برستم، وكان قيس بن مكشوح في نفس موضع العتيق فانطلق إلى مكان رستم، وفي ذات الوقت اندفع إلى مكان رستم بالعتيق الفرسان: زهير بن عبد شمس البجلي، وهلال بن علفه التميمي، وكثير بن شهاب الحارثي، وطليحة بن خويلد، والقعقاع بن عمرو، وجالت الخيول، فوثب قيس ابن مكشوح إلى رستم فضربه بالسيف فقتله، وفي ذات الوقت رمى عمرو بن معدي كرب نفسه فوق رستم وجرّه برجله، وحمل كل من زهير بن عبد شمس البجلي، وهلال بن علفه التميمي، وكثير بن شهاب فضربوه بالسيوف وكذلك فعل آخرون بعد موته، بحيث وُجِدَ بدنه مملوءاً ضرباً وطعناً، فقيل قتله قيس بن مكشوح، وقيل عمرو بن معدي كرب، وقيل هلال بن علفه، وقيل زهير البجلي، وقيل كثير بن شهاب الحارثي. . وقد كان لعمرو دور هام فهو الذي ضرب فيل رستم فسقط بسريره في العتيق، وأما الذي وثب إليه وقتله فهو قيس بن مكشوح، وقيل أن هلال بن علفه رماه بسهم ثم وثب إليه فطعنه وإنما كان ذلك بعد موته، قال البلاذري: «وقيل إن هلال بن علفه قتله، وقيل زهير بن عبد شمس البجلي». وكذلك (قيل أن كثير بن شهاب قتله). ولقد قتل زهير بن عبد شمس أحد كبار القادة الفرس،

وقتل كثير بن شهاب الجالينوس، ولذلك وقع التباس وخلط عند بعض الرواة بين أولئك القادة الفرس وبين الملك القائد رستم الذي قتله قيس بن مكشوح. قال الحسن الهمداني: «أن الذي قتل رستم قيس بن مكشوح، ويقال قتله كثير بن شهاب، وقيس أثبت»[١] وقد ذكر الهمداني في شرح الدامغة والبلاذري في فتوح البلدان أبيات الصحابي قيس بن مكشوح المرادي رضي الله عنه التي أولها «جَلبتُ الخيل من صنعاء تردى..» وقد ذكر فيها موقعة القادسية ومقتل رستم بسيفه، حيث قال:

أتينا القادسية بعد شهر، مرشقةً نواصيها دوامي
فناهضنا هنالك جمع كسرى وأبناء المرازبة الطغام
على جُردٍ، مُقدمةٍ، خفافٍ، ضوامر، شُزَّبٍ، صُمِّ الحوام
فلما أن رأيتُ الخيلَ جالتْ قصدتُ لموقف الملك الهمام
فأضربُ قَرْنَه، فهوى صريعاً بسيفٍ، لا أفلَّ ولا كُهامِ

وأبيات قيس هذه قالها بعد القادسية، وكان رستم هو الملك القائد الحربي للفَرس بالقادسية فلما سقط قتيلاً، وتدافع إليه فرسان المسلمين ضربه عدد منهم بالنبال والسيوف وإنما تدافعوا إليه لأنه قائد وعظيم الفرس، وفي قتله هزيمة للفرس، فلما تيقنوا أنه قد هلك، أطاف المسلمون به وكبروا، ونودي في الناس: قُتل رستم، فانهزم قلب الجيش الفارسي.

ـ وعندئذٍ تولى أمر الفرس القائد الجالينوس، ونادى الفرس بالإنسحاب والعبور من العتيق، فعبروا، ولحق بهم المسلمون فأثخنوا فيهم، وبلغ الفرس في انهزامهم موضع نهر في دجلة، (ولحق بهم جرير بن عبد الله البجلي، وقيس بن مكشوح، وعمرو بعد معدي كرب، والأشعث بن قيس)، ثم وجه سعد القعقاع بن عمرو وشرحبيل بن السمط الكندي في قوة، فاشتركوا في مطاردة العدو، ومضى كثير بن شهاب الحارثي المذحجي وزهرة بن حيوة فلحقا الجالينوس، وبذلك اكتمل الانتصار العظيم بالقادسية.

قال البلاذري: (وكان قتال القادسية يوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت وهي ليلة الهرير، ثم يوم القادسية)، بينما في بقية المصادر أن أول يوم هو يوم أرماث ـ ويقابل الخميس ـ ثم يوم أغواث ـ ويقابل الجمعة ـ ثم يوم عماس ـ ويقابل السبت ـ ثم ليلة الهرير ـ فتكون ليلة الأحد ـ ثم يوم القادسية ـ فيكون يوم الأحد ـ وتواصلت مطاردة العدو ـ يوم الإثنين ـ وذكر ابن كثير عن رواية سيف

---

(١) شرح الدامغة ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٣٦٩.

التميمي أن يوم القادسية (كان يوم الإثنين من محرم سنة أربع عشرة. قال ابن كثير: وقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن وقعة القادسية كانت في سنة خمس عشرة)، وكذلك ذكر البلاذري أن القادسية (سنة خمس عشرة للهجرة) وهو الصحيح. قال ابن كثير: «أبلى في القادسية جماعة من الشجعان أمثال عمرو بن معدي كرب، وجرير بن عبد الله، وقيس بن مكشوح» وأولئك هم أعظم أبطال وقادة القادسية الحقيقيين، وقد بعث سعد بنبأ الفتح إلى عمر بن الخطاب مع عمرو بن معدي كرب[١]، وذكر الواقدي: (أن سعد بن أبي وقاص قال: كان لعمرو بن معدي كرب موطن صالح يوم القادسية عظيم الغناء شديد النكاية للعدو. فقيل له: فقيس بن مكشوح؟ فقال: هذا أبذلُ لنفسه، وأن قيساً لشجاع»[٢] ويؤكد ذلك إنهما أعظم أبطال القادسية.

* * *

عودة قيس إلى الجهاد والفتوحات بالشام

في أعقاب موقعة القادسية بفترة يسيرة انطلق قيس بن مكشوح والقادة الذين كانوا قدموا بفرسانهم من الشام وشهدوا القادسية، انطلقوا عائدين إلى الشام، ونظراً لما يكتنف الروايات من التباس حول مسار الأحداث بالشام، فإن إدراك مسار الأحداث وزمنها يستلزم تبيين ما سبق ذلك ثم مسار الفتوحات بعد عودة قيس إلى الشام.

ـ فبعد فتح دمشق ـ في رجب ١٤هـ ـ ومسير قيس بن مكشوح والقادة والفرسان الذين ساروا مدداً للمسلمين في القادسية، توجه أبو عبيدة بن الجراح في جيش من دمشق لفتح حمص التي كانت مقر (هرقل) ملك الروم، فاستنفر هرقل جيوش الرومان وأهل إقليم الجزيرة الفراتية، فأصبحت للروم قوة كبيرة، فتمكنوا من حصار جيش أبي عبيدة في حمص، ـ وذلك في أواخر سنة ١٤هـ ـ قال ابن كثير: «وكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، واستشار أبو عبيدة المسلمين في أن يناجز الروم أو يتحصن بالبلد حتى يجيء أمر عمر، فكلهم أشار بالتحصن، إلا خالد بن الوليد فأشار بالمناجزة، فعصاه وأطاعهم، فتحصن بحمص وأحاط به الروم، وكل بلد من بلدان الشام مشغول عنه بأمرهم (يعني جيش شرحبيل بن حسنة بالأردن، ويزيد بن أبي سفيان بدمشق، وعمرو بن العاص بجهة فلسطين) ولو تركوا ما هُمْ فيه وأقبلوا إلى حمص لانخرم النظام في الجيش كله. وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص أن يندب الناس مع القعقاع بن عمرو إلى حمص نجدة لأبي

(١) العقد الفريد ـ لابن عبد ربه ـ جـ٢ ص٦٥.

(٢) الأغاني ـ للأصفهاني ـ جـ١٤ ص٣١.

عبيدة فإنه محصور، وكتب إليه أن يبعث جيشاً إلى أهل الجزيرة ـ الفراتية ـ الذين مالأوا الروم على حصار أبي عبيدة، ويكون أمير الجيش إلى الجزيرة عياض بن غنم الأشعري»[١]. وقد كان الزمن الصحيح لذلك بعد موقعة القادسية ـ في حوالي شهر صفر ١٥هـ ـ فسار القعقاع بن عمرو مع عدد من القادة في أربعة آلاف من الجند الذين كانوا بالعراق وشهدوا القادسية ولم يكونوا قبل ذلك بالشام، وكذلك كان مسير عياض بن غُنم إلى أبي عبيدة بالشام، أما القادة والفرسان الذين هم من جيش الشام وقدموا إلى القادسية مدداً للجيش الإسلامي فقد انطلقوا عائدين إلى الشام ـ لأنهم من جيش الشام ـ وكان منهم قيس بن مكشوح، وشرحبيل بن السمط الكندي، ومعاوية بن حديج السكوني، وغيرهم من القادة الصحابة مع فرسانهم. وقد تمكن أبو عبيدة بن الجراح والجيش الذين معه في جهة حمص ـ ليس من التغلب على الروم كما في إحدى الروايات ـ وإنما تمكنوا من فك الحصار والعودة إلى دمشق.

ـ وأثناء ذلك ـ في أوائل سنة ١٥هـ ـ بعث هرقل ملك الروم جيوشاً كثيفة إلى منطقة نهر اليرموك وغيرها من جهات الشام، بينما اجتمع إلى أبي عبيدة جيوش الشام التي بقيادة شرحبيل بن حسنة الكندي ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، والجيش الذي عاد من القادسية بقيادة قيس بن مكشوح وغيره من القادة، فتهيأ أبو عبيدة والمسلمون للمسير من دمشق لمواجهة الروم، وذلك في ربيع الثاني سنة ١٥ هجرية، بدليل ما ذكره البلاذري عن زمن كتاب الصلح لأهل دمشق قائلاً: «كان فتح دمشق في رجب سنة ١٤هـ وتاريخ كتاب خالد بصلحها في ربيع الآخر سنة ١٥هـ، وذلك أن خالداً كتب الكتاب بغير تاريخ، فلما تجمع المسلمون للنهوض إلى من تجمع لهم باليرموك أتى أسقف دمشق خالداً فسأله أن يجدد له كتاباً ويشهد عليه أبو عبيدة والصحابة، ففعل، وأثبت في الكتاب شهادة أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وغيرهم. فأرخه بالوقت الذي جدده». وهو وقت تجمع المسلمين للمسير والنهوض إلى من تجمع لهم من الروم بمنطقة نهر اليرموك، وذلك في ربيع الثاني ١٥هـ.

ـ وقد كان لقيس بن مكشوح موقفاً تاريخياً حينما استشار أبو عبيدة بن الجراح الصحابة والقادة الذين معه في أمر مواجهة الروم، فقد ذكر الواقدي في فتوح الشام أن أبا عبيدة لما استشار الناس، (قال له رجل من أهل السبق: أشِرْ أنت علينا بما يكون فيه الصلاح للمسلمين، فقال: إنما أنا رجل منكم تقولون وأقول وتشيرون وأشير. فقام رجل وقال: أيها الأمير الذي نشير به عليك أن تسير بنا مِنْ

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٧٥.

مكانك وتنزل في فرجة من وادي القرى فيكون المسلمون قريباً من المدينة، والنجدة تصل إلينا من الخليفة عمر بن الخطاب وإذا طلب الروم أثرنا وأقبلوا إلينا كنا عليهم ظاهرين. فقال أبو عبيدة: إني إن برحتُ من موضعي هذا كره لي عمر بن الخطاب ذلك ويعنفني ويقول تركت مدائن فتحها الله فنزحت عنها، ثم قال: أشيروا عليّ برأيكم، فقام إليه قيس بن هبيرة المكشوح المرادي وقال: أيها الأمير، لا رَدّنا الله إلى أهلنا سالمين إن خرجنا من الشام، وكيف ندع للروم هذه الأنهار والزروع والذهب والفضة والديباج والعيش الرغد، فإن قُتلنا فالجنة وعدنا، وكنا في نعيم لا يشبه نعيم الدنيا. فقال أبو عبيدة: صدق والله قيس بن هبيرة وبالحق نطق، فيا معاشر المسلمين أتدعون لهؤلاء الأعلاج قصوراً وحصوناً وبساتين وأنهاراً وطعاماً وشراباً وذهباً وفضة مع مالكم عند الله عزّ وجلّ في دار البقاء من حسن الثواب، لقد صدق قيس بن هبيرة في قوله لنا، ولسنا ببارحين من منزلنا هذا حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين.

فقام قيس بن هبيرة فقال: صدق الله قولك أيها الأمير وأعانك على ولايتك، فتوكل على الله، وقاتل أعداء الله، فإن فاتنا فتح عاجل فما يفوتنا ثواب آجل.

فقال أبو عبيدة: شكر الله فضلك، وغفر لنا ولك، والرأي رأيك. وتتابع قول المسلمين بحسن رأيه[١].

- ومضى المسلمون بقيادة أبي عبيدة بن الجراح حتى نزلوا بمنطقة نهر اليرموك، وهنا لا بد من التمييز بين:

أ - **موقعة اليرموك**: التي وقعت في بداية فتوح الشام وسبقتها موقعة أجنادين - وراء الرملة شرقاً - وكانت أجنادين في شهر جمادى الأول ١٣هـ في خلافة أبي بكر، ثم تلتها موقعة اليرموك التي بدأت أيضاً في خلافة أبي بكر وكان خالد بن الوليد القائد العام للجيوش، ومات أبو بكر - في ٢٢ جمادى الثاني - وتولى عمر الخلافة، والمسلمون مواقعون للروم باليرموك، وتم النصر للمسلمين في أواخر جمادى الثاني ١٣هـ، وكان عمر قد كتب بتولية أبي عبيدة بن الجراح قيادة الجيوش، وتتابعت الوقائع إلى فتح دمشق في رجب ١٤هـ.

ب - **موقعة نهر اليرموك**: التي يظن البعض بأنها موقعة اليرموك نفسها، وأن المؤرخين اختلفوا في زمنها هل كانت في جمادى الثاني ١٣هـ أم في رجب ١٥هـ، وليس الأمر اختلاف في زمن وقوعها، وإنما هما موقعتان، فقد كانت

---

(١) فتوح الشام - للواقدي - جـ١ ص٩٩ و١١٨.

موقعة اليرموك قبل فتح دمشق بينما هذه الموقعة انطلق المسلمون إليها من دمشق في ربيع الثاني سنة ١٥هـ بقيادة الأمير أبي عبيدة بن الجراح، وقد ذكرتها المصادر التاريخية بنفس الاسم (موقعة اليرموك) قال البلاذري (وكانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة)، وكذلك ذكر الواقدي، وهو ما يؤكده التسلسل الزمني للوقائع والأحداث. ونظراً لأن نفس الاسم (اليرموك) يؤدي إلى الالتباس، يمكن تمييز هذه الموقعة باسم (موقعة نهر اليرموك) ولا بد أنها وقعت في مكان من نهر اليرموك غير مكان الموقعة الأولى، وقد جاء اسم المكان بأنه (الواقوصة).

قال الإمام الواقدي: (ورتب أبو عبيدة صفوف المسلمين، وقال لخالد بن الوليد: قد وليتك على الخيل والرجال.. ودعا أبو عبيدة بالضحاك بن قيس وقال له: أبلغ أصحاب الرايات أن الأمير أبا عبيدة يأمركم أن تسمعوا لخالد، ففعل الضحاك ذلك حتى انتهى إلى معاذ بن جبل فقال له مثل ذلك) فأثنى معاذ على خالد وأوصى معاذ الناس بطاعة خالد والامتثال لأمر أبي عبيدة، «ثم إن خالد بن الوليد جمع خيل المسلمين ـ أي الفرسان ـ فقسمهم أربعة أرباع، فجعل على أحدهم قيس بن هبيرة المرادي وقال له: أنت فارس العرب فكن على هذه الخيل. وجعل على الربع الثاني ميسرة بن مسروق العبسي، وعلى الربع الثالث عامر بن الطفيل، وجعل نفسه على عسكر الزحف»[1] وكان الجيش الإسلامي زهاء أربعين ألفاً.

وأما جيش الروم فكانوا أكثر من مائة ألف من الفرسان سوى المشاة وقد جعل هرقل ملك الروم على رأس ذلك الجيش الملك ماهان الأرمني «قال عدي بن الحرث الهمداني ـ وكان ممن شهد الفتوح من أولها إلى آخرها ـ: كانت الصفوف التي صفها ماهان ثلاثين صفاً كل صف منها مثل عسكر المسلمين كله، وقد أظهر ماهان بين الصفوف القسوس والرهبان وأكثر من الرايات والأعلام والصلبان، فلما تكاملت صفوفهم، برز بطريق عظيم الخلقة عليه درع مذهب ولامة حرب وتحته فرس أشهب، وكان البطريق من عظماء الروم ممن يقف عند سرير الملك» فطلب البطريق المبارزة، فخرج إليه من المسلمين قائد من أهل الشام الذين أسلموا وهو صاحب بُصرى، فأصابه البطريق بضربة في وجهه فانثنى راجعاً نحو المسلمين فاتبعه البطريق وكاد أن يدركه فصاح به فرسان المسلمين فتراجع البطريق ودخل صاحب بصرى عسكر المسلمين والدم على وجهه فأخذه جماعة من المسلمين

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ١ ص٩٩ و١١٨.

وشدوا جراحه، وأخذ البطريق يطلب المبارزة وقد تهيب منه المسلمون فأراد ميسرة بن مسروق العبسي الخروج إليه فقال له خالد: (أنت شيخ كبير وهذا علج عظيم الخلق والشباب شجاع ولا أحب أن تخرج إليه) ثم أراد عامر بن الطفيل الخروج فأعاده خالد لأنه ليس كفؤاً للبطريق، وكذلك لم يسمح خالد للحارث بن عبد الله الأزدي وقال له: لا تخرج فهذا فارس قد جرب الحروب وجربته وعرف مصادرها وما أحب أن يخرج إليه إلا رجل مثله بصير بالحروب، وجعل خالد يقول ذلك وينظر إلى قيس بن مكشوح، فقال قيس: يا أبا سليمان.. إياي تعني، أنا أبرز إليه، فقال خالد: أبرز على اسم الله تعالى فإنك كفؤاً له، والله يعينك عليه. فخرج قيس بن مكشوح وأجرى جواده حتى ليّن عريكته ثم مضى نحو البطريق وهو يقول بسم الله وعلى بركة رسول الله ﷺ وقرب من البطريق فلما نظر البطريق إلى فعاله علم أنه فارس شديد من فرسان المسلمين فقصد إليه وتبارزا فضربه قيس على هامته فتلقاها البطريق في جحفته، فقَدّ سيف قيس الجحفة ووصل إلى البيضة فاشتبك فيها، وهَمّ قيس أن يخرج سيفه فامتنع عليه، وضرب البطريق قيساً على حبل عاتقه فتفادى الضربة، فطرح البطريق نفسه عليه يريد أسره فانجذب قيس من يده وبعد عنه وجعل ينظر إليه شزراً إلا أن سيفه قد خرج من يده فثنى عنان فرسه يريد عسكر المسلمين ليأخذ سيفاً ويعود إلى القتال وقد أيس من نفسه فلما عطف راجعاً صاح البطريق في أثره وسعى في طلبه، فقصر قيس في سيره وقال في نفسه: أنت مرادك الشهادة وتهرب من هذا العلج، (فرجع إلى البطريق، فصاح به خالد: يا قيس سألتك بالله ورسوله إلا رجعت. فقال قيس: يا خالد لقد أقسمت عليّ بعظيم ولكن إن رجعتُ إليك أتزيدُ في أجلي؟ قال: لا، قال: فَلِمَ أختارُ الفرار وأكون من أصحاب النار بل أصبر وأفوز بالغفران من الله تعالى) ثم أنه عطف على البطريق وليس في يده سيف وإنما استل خنجراً كان معه على وسطه[١] ونظر خالد إلى قيس وليس في يده سيف فقال: من يأخذ هذا السيف ويدفعه إلى قيس ابتغاء ثواب الله؟ فقال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق: أنا يا أبا سليمان، فقال خالد: أنت والله لها يا ابن الصديق، فأخذ عبد الرحمن السيف ولحق قيساً يريد أن يناوله السيف، فلما نظرت الروم إلى عبد الرحمن وقد لحق قيس ظنوا أنه يريد أن يعاون قيساً على صاحبهم فخرج عليه بطريق آخر. وناول عبد الرحمن قيساً السيف. وحمل عبد الرحمن على العلج الذي خرج إليه فطعنه برمحه.. وحمل قيس على البطريق وضربه ضربة هشم بها هامته فسقط إلى الأرض صريعاً، فلما نظر الروم إلى ذلك قالوا ما هؤلاء العرب إلا شياطين.. وأما قيس وعبد الرحمن فأخذا سلاح وأسلاب البطريقين ورجعا إلى

---

(١) الخنجر الذي في وسط قيس هو: الجنبية.

المسلمين فدفعا السلب إلى أبي عبيدة فقال: هو لكما، مَنْ قَتَل فارساً فله سلبه. فأخذا السلب، ورجع قيس في موضعه قائداً لربع خيل المسلمين.

ثم إن ماهان أمر عشرة من صفوف الروم أن يحملوا على المسلمين، وحمل المسلمون عليهم، فتقاتلوا في ذلك اليوم ـ وهو اليوم الأول ـ حتى غروب الشمس وفرق الليل بينهم، وقد قُتل جَمْعٌ من الروم، واستشهد من المسلمين عشرة: رجلان من حضرموت هما مازن وصارم، وواحد من الأنصار هو عبد الله بن الأخرم، وثلاثة من عسفان، وثلاثة من بجيلة، وواحد من مراد وهو سويد ابن أخي قيس ابن مكشوح، (فحزن عليه قيس لما فقده فعلم أنه في القتلى، فخرج قيس معه رجال من قومه حتى أتوا موضع المعركة وفتشوا عليه فلم يروه، وفيما هُمْ في ذلك نظر قيس إلى نار قد أقبلت من جهة الروم يطلبون مكان الوقعة وهم يطلبون بطريقاً كان عظيماً عندهم، فقال قيس لجماعته: أخمدوا ناركم فوالله لآخذن بثأر ابن أخي من هؤلاء القوم، فأخمدوا نارهم ورقدوا بين القتلى وتأهبوا للقتال، وإذا بالروم قد أتوهم نحو مائة وهم في زينة وعدة كاملة، وكان مع قيس سبعة من قومه فقالوا له إن القوم مائة ونحن سبعة وقد مسنا التعب، فقال قيس: ارجعوا أنتم فإني والله أطلبُ الموت لا أريد غيره وأجاهد في الله حق جهاده، فوقفوا معه وقفة الكرام. وأقبل الروم يدورون بين القتلى فوجدوا جثمان البطريق فلما حملوه صاح فيهم قيس وأصحابه فذهلوا وأصابهم الرعب ورموا البطريق، ووضع المسلمون السيف فيهم، فقتل قيس منهم ستة عشر رجلاً، وقتل أصحابه أكثر القوم، وانفلت الباقون هاربين. وعاد قيس يطلب ابن أخيه، فسمع أنيناً، فأقبل نحوه فإذا هو ابن أخيه سويد بن بهران المرادي، فلما عرفه قال: يا عماه إني تبعت الروم فطعنني واحد منهم في صدري وإني لأعالج منها أمراً عظيماً، وهؤلاء الحور العين في حذائي ينظرون خروج روحي، فبكى قيس وقال: يابن أخي لكل أجل كتاب ولعل أن يكون في أجلك طول، فقال: هيهات والله يا عم، أفتقدر أنَّ تحملني إلى عسكر المسلمين فأموت هناك؟ قال: أجل، وحمله على ظهره، وأقبل به إلى عسكر المسلمين، وقصد به إلى رحْلِهِ وسجته ـ أي خيمته ـ. وسمع أبو عبيدة بمجيء قيس فأتى إليه ورأى الغلام يجود بنفسه فجلس عند رأسه، فقال له أبو عبيدة: كيف تجدك يا ابن أخي؟ فقال: بمغفرة الله، وهذه الحور تنادي وتشخص، فمات وبكى أبو عبيدة والمسلمون، وأخبر قيسُ أبا عبيدة بمن قتل في تلك الليلة من الروم، ففرح أبو عبيدة فرحاً شديداً وعلم أن ذلك علامة النصر)[1].

---

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله الواقدي ـ ص١٢١ ـ ١٢٢ جـ١.

ولم يقع قتال بعد ذلك اليوم سبعة أيام، وكان ماهان يتهيأ لهجوم مفاجئ على المسلمين، فلما كان فجر اليوم الثامن خرجت جحافل الروم للهجوم فوجدوا المسلمين متأهبين للحرب، وكان أبو عبيدة بن الجراح قد عقد رايات القيادة لكبار الصحابة والقادة وفيهم: معاذ بن جبل، والمقداد بن عمرو الكندي، وعمار بن ياسر، والزبير بن العوام، ويزيد بن أبي سفيان، وعبد الله بن أنيس الجهني الحميري، وأبو هريرة، وعمارة الدوسي، وعمرو بن معدي كرب، وعياض بن غنم الأشعري، وأبو ذر الغفاري، وذو الكلاع، وأمثالهم. قال الواقدي: (وجعل على الرجالة شرحبيل بن حسنة الكندي، وعلى الجناح الأيمن يزيد بن أبي سفيان، وعلى الجناح الأيسر قيس بن مكشوح المرادي).

وبدأت الحرب في ذلك اليوم وهو يوم اليرموك ـ في رجب ١٥هـ ـ بهجوم الروم (على ميمنة المسلمين وكان فيها مذحج وحمير وحضرموت فقاتلوا قتالاً شديداً، وكان عمرو بن معدي كرب هو المقدم على زُبيد والأمير عليهم وهم زهاء خمسمائة فارس وراجل، فشدوا معه على الروم شدة واحدة وحملت معه حمير وحضرموت وخولان فأزالوا الروم من أماكنهم. وحملت دوس والأزد مع أبي هريرة حملة صادقة وكان صاحب لوائهم عياض بن غُنم الأشعري. . وحمل جرجير الأرمني في ثلاثين ألفاً من الأرمن والروم على شرحبيل بن حسنة الكندي فانكشف أصحابه ولم يثبت معه إلا خمسمائة فجعل شرحبيل يحمل على الروم وهو يقول: يا أهل الإسلام الصبر الصبر فتراجع أصحابه. . ونظر قيس بن مكشوح إلى صفوف شرحبيل وقد تراجعت فحمل قيس بمن معه ونادى هو وأصحابه بشعارهم، وكان شعارهم: يا نصر الله انزل. ويا منصور أمِتْ أمِتْ). فصَدّوا الروم، وكان خالد بن الوليد على عسكر الزحف، وتواصلت الحرب إلى أن انهزم الروم هزيمة ساحقة وقُتِل منهم عشرات الآلاف وغرق في الياقوصة مثلهم، وتفرق كثير منهم في الجبال والأودية وخيول المسلمين من ورائهم يقتلون ويأسرون إلى منتصف الليل، فانتصر المسلمون في ذلك اليوم أعظم انتصار.

وتمكن ماهان ـ قائد الروم ـ من الفرار ومعه زهاء أربعين ألفاً من الروم فساروا باتجاه دمشق ـ كما ذكر الواقدي ـ فبعث أبو عبيدة إليهم جيشاً، فلحقوا بهم، فتقاتلوا، (وكان ماهان قد ترجّل عن جواده، فأتاه النعمان بن جهلة الأزدي فحامى عن نفسه فقتله النعمان. وقيل إن الذي قتله عاصم بن خوال اليربوعي) ولعله اشترك مع النعمان في قتله، فانهزم الروم الذين مع ماهان وكذلك الذين لحقوا بأجنادين ـ شمال الرملة بفلسطين ـ وكان من أبرز أمراء الروم تدارق أخو

هرقل، وقد ذكر ابن خلدون رواية مقتل تدارق في اليرموك، ثم قال في موضع آخر (كان مقتل تدارق أخو هرقل في أجنادين)، فيكون ذلك بعد موقعة نهر اليرموك في أجنادين الثانية، وكان هرقل ملك الروم مقيماً بمدينة حمص، قال ابن خلدون: «انتهت الهزيمة ـ أي هزيمة الروم باليرموك ـ إلى هرقل وهو دون حمص فارتحل وأخلدَ إلى ما وراءها». وقال البلاذري: «لما انتهى خبر وقعة أجنادين إلى هرقل نخب قلبه وسقط في يده وملئ رعباً، فهرب من حمص إلى أنطاكية»، وذلك بعد موقعة اليرموك وأجنادين الثانية في رجب سنة ١٥هـ، وعاد قيس مع أبي عبيدة إلى دمشق وتم تثبيت سلطة الإسلام في مناطق الشام المفتوحة.

* * *

مسير قيس لفتح بيت المقدس

وكان قيس بن مكشوح المرادي سابع سبعة أمراء عقد لهم أبو عبيدة بن الجراح الألوية لفتح القدس ونواحيها، حيث كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة في دمشق ببعث الجيوش والمسير لفتح بيت المقدس ونواحيها سنة ١٦هـ، فجمع أبو عبيدة الصحابة والقادة والجيوش المنتشرة بمناطق من الشام، فاجتمعوا إلى دمشق ـ ثم الجابية ـ وقام بتقسيم الجيوش إلى سبع فرق، كل فرقة خمسة آلاف من فرسان وجنود الإسلام، وعقد أبو عبيدة ألوية قيادة الفِرق لسبعة من الصحابة الأمراء وهم خالد بن الوليد، وشرحبيل بن حسنة الكندي، وقيس بن مكشوح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، والمسيب بن نجبة، وعروة بن مهلهل بن زيد الخيل الطائي، وكان أبو عبيدة يوجه في كل يوم فرقة مع أميرها، فسار بفرقته كل من خالد، ويزيد، وعمرو، قال الواقدي: (ثم دعا أبو عبيدة شرحبيل بن حسنة الكندي كاتب وحيّ رسول الله ﷺ وعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من أهل اليمن، وقال له: سِرْ بِمَنْ معك حتى تقدم بيت المقدس وانزل بعسكرك عليها ولا تختلط بعسكر مَنْ قبلك)، وكذلك وَجّه أبو عبيدة المسيب بن نجبة في اليوم الخامس، قال الواقدي: وعقد أبو عبيدة راية سادسة لقيس بن مكشوح المرادي وضمّ إليه خمسة آلاف، وسيّره إلى بيت المقدس، ثم عقد راية سابعة لعروة بن مهلهل بن زيد الخيل الطائي في خمسة آلاف، فكان جملة من سرحهم خمسة وثلاثين ألفاً، وسارت السبعة أمراء في سبعة أيام، في كل يوم أمير، وذلك ليرهب أعداء الله، ففي كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه» [ص١٤٤ ـ فتوح الشام].

وقد نزل قيس بجيشه في منطقة تواجه سور مدينة القدس من الناحية التي نزل فيها، فقام قيس بمحاصرة القدس من تلك الناحية، ثم أتى أبو عبيدة واشترك مع

الأمراء السبعة في حصار القدس ونواحيها وفي المناوشات التي تخللت ذلك والتي ساهم فيها قيس بن مكشوح وفرسانه في فترة الحصار التي استمرت أربعة أشهر، ثم أعلن أسقف وأهل القدس المسيحيون ـ وهم من عرب الشام القدماء ـ رغبتهم في الصلح وتسليم القدس على أن يكون المُتَولي لعقد الصلح خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ويتسلم القدس بنفسه، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فجاء عمر إلى بيت المقدس، فعقد صلح أهلها وكتب لهم كتاب الصلح، ودخل القدس مع كبار الصحابة والأمراء، فكان قيس بن مكشوح، وشرحبيل بن حسنة الكندي، ومعاذ بن جبل الأنصاري، من الصحابة الأمراء الذين شهدوا فتح القدس ودخلوها مع عمر بن الخطاب يوم شروق فجرها العربي الإسلامي سنة ١٦ هجرية، وأمّرَ عمر بن الخطاب على الأردن ومناطق فلسطين التي منها القدس شرحبيل بن حسنة الكندي رضي الله عنه.

* * *

مشاركة قيس في فتح أعمال حمص وحَلَبْ

وسار قيس بن مكشوح مع أبي عبيدة بن الجراح من فلسطين إلى حِمص، وكان هرقل ملك الروم قد غادر حمص حينما أتاه نبأ هزيمة جيشه في موقعة نهر اليرموك ـ في رجب سنة ١٥هـ ـ وقد بعث أبو عبيدة آنذاك الصحابي السمط بن الأسود الكندي وشرحبيل بن السمط في جيش إلى حمص، وكان من قادة ذلك الجيش عمرو بن معدي كرب الزبيدي فافتتح السمط مدينة حمص وصالح أهلها، وذكر البلاذري: «إن السمط الكندي قسم حمص خططاً بين المسلمين حتى نزلوها وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله وساحة متروكة». ومكث السمط أميراً قائداً في حمص إلى أن قدم إليها أبو عبيدة بن الجراح من فلسطين ومعه قيس بن مكشوح وخالد بن الوليد وعبادة بن الصامت الأنصاري في جيش من المسلمين، فأمضى أبو عبيدة الصلح الذي عقده السمط لأهل حمص، واستعمل على إقليم حمص عبادة بن الصامت الأنصاري.

وسار أبو عبيدة من حمص إلى منطقة من أعمال حمص يقال لها (الرستن) فحاصر المسلمون الرستن وكان حصناً منيعاً مشحوناً بالرجال والعتاد لا يمكن اقتحامه، فاستقر رأي أبي عبيدة والذين معه على أن يجعلوا عشرين رجلاً في عشرين صندوقاً من صناديق الطعام المنتخبة ويتم إدخال الصناديق مع صناديق الطعام التي كان سكان بوادي الرستن يسوقونها إلى الحصن. فتم إعداد الصناديق العشرين وانتخب أبو عبيدة عشرين من الصناديد الأبطال فدخلوا الصناديق وكان منهم

ـ كما ذكر الواقدي في فتوح الشام ـ (قيس بن مكشوح المرادي، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وذو الكلاع الحميري، وعمرو بن معدي كرب، وضرار بن الأزور الكندي، ومالك بن الأشتر النخعي، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب . .) وارتحل أبو عبيدة بالجيش إلى قرية يقال لها السودية، وتم دخول الصناديق العشرين مع صناديق الطعام إلى حصن الرستن وكان أمير الحصن (نقيطاس الروماني) فلما كان الليل خرج قيس والذين معه من الصناديق فسيطروا على دار الإمارة وقبضوا على امرأة نقيطاس وأهله، وقالوا: نريد مفاتيح الأبواب، فأعطاهم المفاتيح، ففتحوا الأبواب ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، وكان خالد بن الوليد مع ألف من المسلمين قد كمنوا بالقرب من الحصن فلما سمعوا التكبير اندفعوا إلى الحصن فدخلوه، وتم الاستيلاء على الرستن واستسلم أهل الرستن بدون قتال، ثم أسلم بعضهم وبقي أكثرهم يؤدون الجزية، ورحل نقيطاس وأهله إلى حمص، واستعمل أبو عبيدة على الرستن هلال بن مرة اليشكري وترك معه (ألف رجل من أهل اليمن وأوصاهم بحفظ الرستن).

وسار أبو عبيدة والذين معه ـ وبينهم قيس بن مكشوح ـ إلى (حماه) فصالح أهلها، وكذلك أهل شيزر وأهل قنسرين وتقدم المسلمون إلى (حلب)، فامتنعت قلعة حلب، فدعا أبو عبيدة خمسة من القادة وأسند إليهم محاصرة القلعة بفرسانهم وكان من الخمسة قيس بن مكشوح وعبد الرحمن بن أبي بكر بن الصديق، وسار أبو عبيدة إلى نواحي حلب الأخرى، وحاصر قيس بن مكشوح والذين معه قلعة حلب حتى عاد أبو عبيدة فاستسلمت القلعة، ورفرفت فوقها رايات الإسلام كما رفرفت في سائر أعمال حمص وقنسرين وحلب إلى أنطاكية، ثم رجع قيس من حلب مع أبي عبيدة إلى دمشق وفلسطين.

* * *

مساهمة قيس في فتوح الجزيرة الفراتية وأرمينية

وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح بتوجيه جيش بقيادة عياض بن غُنم الأشعري لفتح إقليم الجزيرة الفراتية ـ الذي يشمل ديار بكر في جنوب تركيا حالياً ـ وكتب عمر كتاباً آخر إلى عياض بالولاية والمسير إلى تلك الديار، وبعث بالكتابين مع ساعدة بن قيس المرادي، فسار إلى أن قدم على أبي عبيدة وهو في طبرية، فسلم إليه كتاب عمر وسلم الكتاب الثاني إلى عياض، فعقد أبو عبيدة لعياض على ثمانية آلاف مقاتل بينهم عدد من كبار الصحابة والقادة، منهم المقداد بن عمرو البهراني، وعمار بن ياسر، وعمرو بن

معدي كرب، فإذا كان مسيرهم في شوال ١٦ هـ فلم يكن قيس بن مكشوح معهم وإنما لحق بهم بعد موقعة جلولاء ـ سنة ١٧هـ ـ وإذا كان مسير عياض لفتح الجزيرة الفراتية سنة ١٧هـ ـ كما ذكر ابن كثير والواقدي وغيرهما ـ يكون قيس بن مكشوح معهم وكذلك خالد بن الوليد منذ مسير عياض بالجيش من طبرية، ولعل الأصوب أن مسير عياض كان قبل ذلك فافتتح بعض مناطق الجزيرة الفراتية ومنها مدائن (الخابور) و(رأس العين) ـ سنة ١٧هـ ـ ثم (ميافارقين) و(آمد) ـ في جمادى الأول ١٨هـ ـ ولما عاد قيس من جلولاء انطلق مع آخرين إلى إقليم الجزيرة الفراتية وأخذ مكانه القيادي في جيش عياض، فشهد فتح حصون جبل الجودي والسيوان وذي الفرض، وكان فتحها صلحاً. ثم ساروا إلى (الهتاج) التي كان لقيس بن مكشوح دوراً هاماً في فتحها. وكانت (الهتاج) قلعة كبيرة أو مدينة محصنة وهي مقر الحاكم الروماني لمنطقة شمال الجزيرة الفراتية حيث ديار بكر ـ في جنوب شرق تركيا حالياً ـ وكان اسم ذلك الحاكم الروماني (يانوس بن كليوس) فلما تقدم عياض بن غنم الأشعري والمسلمون إلى الهتاج نصب (يانوس) الرعادات والمجانيق وتهيأ لقتالهم، (فنظر عياض إلى ذلك فعظم عليه وقال هذا حصن منيع، ومتى تركناه ومضينا عنه أغاروا على أهل البلاد الذين صالحونا وإذ أقوهم الشر، فلن نحيد عنه حتى نفتحه إن شاء الله)، فنزل عياض والمسلمون على مشارف الهتاج، وسار قيس بن مكشوح في جماعة من الفرسان إلى اتجاه منطقة قُلب والحصن الحديد ـ غير البعيدة من الهتاج ـ فرأى موكباً من الروم فأغار عليهم، فما لبث أن استسلموا، فأسرهم قيس، وكانوا يرافقون أميرة رومية ومعها جماعة من بنات البطارقة وكان في الموكب أموال وأشياء تخص الأميرة وكانوا متوجهين إلى الهتاج، فلما أسرهم قيس بن مكشوح وغنم كل تلك الغنائم رأى العودة بالأسرى والغنائم إلى عياض بن غنم الأشعري.

بينما في (الهتاج) كان الحاكم الروماني (يانوس بن كليوس) يتوقع قدوم زوجته «ميرونا بنت يربول أمير قُلبْ والحصن الحديد» فلما نزل المسلمون في مشارف (الهتاج) عرف أن زوجته سيتعذر وصولها إليه، قال الواقدي: (فرأى يانوس أن يصالح المسلمين حيلة منه ومكراً وخديعة حتى تحصل زوجته عنده ويغدر ولا يعطي أحداً طاعة، فأرسل إلى عياض رجلاً من متنصرة العرب وكان ذلك الرجل مدير بلاد الهتاج هو وبنو عمه وكان اسمه مرهف بن واقد، وكان ميله إلى العرب أكثر من الروم، فلما أدى رسالة (يانوس) ـ بعرض المصالحة وشروطها ـ إلى عياض، استجاب إلى الصلح لئلا يطول مقامهم) وعندئذٍ أسرّ مرهف بن واقد إلى عياض بحقيقة نوايا الحاكم الروماني يانوس وأنه ينوي الغدر بعد وصول زوجته إليه،

وبينما كان يُحدث عياضاً بذلك، أقبل قيس بن مكشوح بالغنائم والأسرى الذين أسَرهم (فوصل قيس وسلم على عياض وعرض عليه الغنائم، ومرهف بن واقد يتأملها، إلى أن عرضت عليه فتاة رومية تخجل الشمس منها وعليها زيّ الملوك، فأطرق المسلمون إلى الأرض يستعملون الأدب لقوله تعالى: ﴿وقُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] فلما رآها مرهف بن واقد قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن دينكم الحق. فقال له عياض: ما بالك أيها الرجل؟ قال: هذه (ميرونا) زوجة (يانوس) وقد طرحها الله في أيديكم. فسجد عياض شكراً لله فلما رفع رأسه قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ثم قال عياض لمرهف: ارجع إلى يانوس واكتم إسلامك وأخبره بما رأيت وقل له إن أراد أهله فيسلم لنا هذه القلعة ومهما أردنا منه، واستعملْ النصح للمسلمين، فرجع مرهف إلى يانوس وحدثه بما رأى فعظم ذلك عليه وقال لمرهف: ما الذي ترى؟ قال: إن هؤلاء القوم ما قالوا قولاً إلا وفوا به، ومن الرأي أن تُسلم لهم القلعة ويعطوك زوجتك وجميع مالك، وأنا أضمن لك منهم ذلك، فقال يانوس: انزل إليهم وائتني بعشرة رجال حتى استوثق لنفسي ولا تأتني إلا بمن يُقبل قوله ويمضي فعله فإذا استوثقتُ بما أُريد سلمتُ لهم القلعة، فنزل مرهف إلى عياض وأخبره) فبعث إليه عياض عشرة من الصحابة بينهم (المقداد، وعمار، وقيس، وعمرو بن معدي كرب، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق) وقال الواقدي أن منهم خالد بن الوليد، وقد ذكر البلاذري القول بمشاركة خالد في فتوح الجزيرة بقيادة عياض وأنه (يقال: إن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة ولزم حمص حتى مات بها). وقد سار الصحابة العشرة الذين أرسلهم عياض إلى يانوس فدخلوا قلعته وبينهم قيس بن مكشوح، فيقال إنه حاول الغدر بهم فقتلوه ودخل عياض والمسلمون القلعة فتم فتحها عنوة، وقد يكون فتحها قد تم صلحاً، حيث ذكر الواقدي أنه (أطلق عياض الأسارى الذين أتى بهم قيس، وبينهم زوجة يانوس)، وامتلك المسلمون قلعة الهتاج وأطاعتهم قرى رستاق الهتاج من فسطاس وفرساط، ثم أتى (أهل الجبال وقُلب ومتنان والحصون فأعطاهم عياض الأمان وضُربت عليهم الجزية وردهم إلى بلادهم، واستعمل مولاه سالماً على (الهتاج) وجعل معه مائة من فرسان المسلمين، ورجع عياض والجيش إلى (ميافارقين). وبذلك اكتمل فتح الجزيرة وديار بكر في أواخر سنة ١٨هـ ـ وقال البلاذري سنة ١٩هـ ـ.

ـ ثم عقد عياض العزم على فتح أرمينية فسار بالمسلمين من (ميافارقين) ـ سنة ١٨هـ ـ فدخل إقليم (بدليس وارزن) فنزل في (سوقاريا) وبعث منها قيس ابن

مكشوح مع رجل من أعيان الجزيرة الذين أسلموا واسمه (يوقنا)، وقد بعثهما عياض إلى صاحب بدليس وارزن وهو بطريق اسمه (سروند)، فسار قيس ويوقنا إليه في حصن (بدليس) فاستقبلهما في قصره بالحصن، فكلمه يوقنا ـ بلغة الروم ـ وقال له: (إن أمير جيش المسلمين عياض بن غنم أرسلنا إليك ندعوك إلى توحيد الله ورسالة نبيه ولكم ما لنا وعليكم ما علينا، وأن تعتبر بمن تقدم من الملوك وأصحاب الأقاليم فقد أصبحوا هالكين. فقال صاحب بدليس: إني كنتُ أريد أن أرسل إلى أميركم في طلب الصلح وأعطيه شيئاً وأن أبقى على ديني، ومَن أراد من أهل بلدي أن يدخل فلا أمنعه)، فترجم يوقنا كلامه لقيس فأخبره قيس بالجواب وأن يقول له كذا وكذا ـ (فقال يوقنا لصاحب بدليس: بكم يطيب قلبك أن تدفع في صلحك على بدليس وأرزنْ وما تحت يدك من البلاد، فإني إذا أمضيت لك الصلح فقد رضي به العرب. فقال: أُعطيهم مائة ألف دينار وخمسمائة زرد وألف قوس، شرط أن لا يُولى على مملكتي غيري حتى أموت وأن يكون أمري نافذاً في مملكتي ومِن أسلم يكون أمره إليكم وما يكون لي عليه حكم) ـ فترجم يوقنا كلامه لقيس ثم (قال يوقنا: قد أمضينا صلحك وأتممنا عهدك على ما ذكرته، وأعطاه ـ قيس ـ عهد الله ورسوله والمسلمين) ـ وبقي يوقنا عنده ـ قال الواقدي: (وذهب قيس إلى عياض فأعلمه بما استقر بينهم) فنهض عياض والذين معه وساروا مع قيس إلى بدليس وتلقاهم بطريق بدليس وأنزلهم في أحسن منزل، وكتبوا كتاب العهد، فتم فتح بدليس ومناطقها بذلك الصلح، وأقام المسلمون في بدليس ومناطقها فترة، وانضوت في إطار الدولة الإسلامية.

ـ ثم تحدث يوقنا مع عياض بشأن المسير إلى إقليم أخلاط وهو مقر ملك أرمينية، فأشار عليه يوقنا وأخبره بأمر يستلزم المبادرة بالمسير، قال الواقدي: (فقال عياض إذا كان الأمر كذلك فيجب أن نُطلع عليه خالد وقيس والمسيب وعمرو بن معدي كرب وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. فدعاهم، وحدثهم بالحديث، وقال لهم: ما ترون من الرأي)، فاتفق رأيهم على أن يسير خمسة وثلاثون من الصحابة والفرسان مع يوقنا وعشرين من قومه إلى مدينة أخلاط مقر الملك يوسطيوس ملك أرمينيا لدعوته إلى الإسلام أو الصلح على أداء الجزية، فانطلقوا إلى مدينة أخلاط وكان منهم قيس ابن مكشوح، وعمرو بن معدي كرب، والمقداد، وعمار، وعبد الرحمن بن أبي بكر، ويذكر الواقدي أن منهم خالد بن الوليد ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة الكندي، والأصوب أنهم كانوا بالشام وقد سار قيس والذين معه من الصحابة إلى ملك أرمينية في أخلاط. فلم يستجب إلى الإسلام أو إلى أداء الجزية، وسار عياض بالجيش إلى أخلاط، وآلت الأمور

إلى معركة أخلاط، فانتصر المسلمون وتم فتح أخلاط والمناطق التابعة لها من أرمينية، واستعمل عياض العمال ثم عاد إلى منطقة الجزيرة الفراتية ومعه قيس وعمرو بن معدي كرب وعمار بن ياسر وغيرهم من الصحابة، ومكث عياض بمنطقة الجزيرة أميراً والياً على إقليم الجزيرة الفراتية وأرمينية.

ـ ومنذ أوائل سنة ١٩هـ أصبح عمار بن ياسر أميراً لولاية الكوفة، وعاد عمرو بن معدي كرب، إلى الكوفة وسكن بها، وحينما انطلق الجيش العربي الإسلامي من الكوفة والعراق لمحاربة جموع الفرس الذين احتشدوا في «نهاوند» كان قيس ابن مكشوح من قادة ذلك الجيش الذي تقدم إلى نهاوند في إيران.

* * *

شهود قيس لفتح نهاوند في إيران

قال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: «ـ وقيس ابن مكشوح: ـ هو أحد الصحابة الذين شهدوا فتح نهاوند، وله ذكر صالح في الفتوحات بالقادسية وغيرها، وكانت فيه نجدة وبسالة، وكان شجاعاً فارساً بطلاً شاعراً»[١].

ولقد كان قيس من أبرز أبطال موقعة القادسية التي فيها تمت هزيمة الجيش الفارسي بالعراق ـ في محرم ١٥هـ ـ ثم انتقل قيس إلى الشام وكان من أبطال فتوحات الشام والجزيرة الفراتية وأرمينية ـ إلى عام ١٩هـ ـ وكان ملك الفرس كسرى يزدجرد قد هرب من المدائن ثم من حلوان في العراق واستقر في (أصبهان) ببلاد إيران سنة ١٩هـ فاستنفر يزدجرد أهل بلاد فارس للهجوم على العراق ومحاربة المسلمين وقام بتوجيههم إلى منطقة نهاوند ـ في أواخر عام ١٩هـ ـ بحيث قال ابن كثير: «إن أهل فارس اجتمعوا من كل فج عميق بأرض نهاوند حتى اجتمع منهم مائة ألف..»[٢] قال البلاذري: «وكان عمار بن ياسر كتب بخبرهم إلى عمر بن الخطاب»[٣]، وذلك لأن عمار بن ياسر كان أمير ولاية الكوفة، وكانت منطقة نهاوند في إيران تقع في مواجهة مناطق العراق التابعة لولاية الكوفة. فكتب إليه عمر بتوجيه ثلثي أهل ولاية الكوفة وأن يبقى عمار وثلث أهل الكوفة للدفاع عنها، وكتب عمر إلى النعمان بن مقرن بأن يكون قائد ذلك الجيش فإن أصيب النعمان فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أصيب حذيفة فالأمير جرير بن عبد الله

---

(١) الاستيعاب ـ للقرطبي ـ جـ٣ ص٢٤٤.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٧ ص١٠٨.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٠٠.

البجلي، فإن أصيب جرير فالأمير قيس ابن مكشوح المرادي، فإن أصيب فالمغيرة بن شعبة، فإن أصيب فالأشعث بن قيس الكندي، وكتب عمر إلى أمير ولاية البصرة أبي موسى الأشعري بأن يسير بجند البصرة إلى نهاوند مدداً لجيش الكوفة ويبدو أنه كتب أيضاً إلى أمير الجزيرة الفراتية حيث كان قيس ابن مكشوح مع عياض بن غنم الأشعري فانطلق قيس منها بالفرسان إلى نهاوند.

وكان قيس سابع سبعة من الصحابة الذين كتب عمر بأن يتولوا قيادة الجيش الإسلامي في نهاوند، فقد ذكر البلاذري أنه: (كتب عمر إلى النعمان بن مقرن بتوليته الجيش وقال: إنْ أُصبت فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أُصيب فجرير بن عبد الله البجلي، فإن أصيب فالمغيرة بن شعبة، فإن أصيب فالأشعث بن قيس»[١]، وذكر الحافظ ابن كثير أنه: «كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجنود البصرة إلى نهاوند، وكتب إلى النعمان بن مقرن أن يسير إلى نهاوند، وإذا اجتمع الناس فكل أمير على جيشه، والأمير على الناس كلهم النعمان بن مقرن، فإذا قُتِل فحذيفة بن اليمان، فإن قُتل فجرير بن عبد الله، فإن قتل فقيس ابن مكشوح، فإن قُتل قيس ففلان ثم فلان حتى عَدّ سبعة أحدهم المغيرة بن شعبة»[٢] فيكون السبعة هم: النعمان بن مقرن، وحذيفة، وجرير، وقيس ابن مكشوح، والمغيرة، والأشعث بن قيس، وأبو موسى الأشعري.

وقد ذكر ابن كثير قيساً ابن مكشوح بين سادات الصحابة ورؤساء العرب الذين شهدوا نهاوند، حيث قال ابن كثير: «وكان جيش المسلمين في ثلاثين ألفاً، فمنهم من سادات الصحابة ورؤساء العرب خلق كثير وجَمٌّ غفير، منهم عبدالله بن عمر أمير المؤمنين، وجرير بن عبد الله البجلي، وحذيفة بن اليمان، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وقيس ابن مكشوح المرادي. فسار الناس نحو نهاوند.. فحطوا أثقالهم، وتركوا رحالهم، وضربوا خيامهم وقبابهم، وضُرِبت للنعمان خيمة عظيمة، كان الذين ضربوا ـ الخيام والقبب ـ أربعة عشر من أشراف الجيش»[٢] منهم (حذيفة بن اليمان، وجرير بن عبد الله البجلي، والأشعث بن قيس الكندي، والمغيرة بن شعبة، والأقرع بن عبد الله الحميري، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حجر الحضرمي وكذلك أمير البصرة أبو موسى الأشعري، وعمرو بن معدي كرب، وقيس ابن مكشوح، وقد كان لعمرو (خباء كبير) أي خيمة كبيرة كما في موقعة اليرموك وغيرها.

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٠٠.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٧ ص١٠٨.

واندلعت الحرب في نهاوند يوم الأربعاء، قال البلاذري: «وكانت عدة المشركين يومئذ ستين ألفاً، ويقال مائة ألف. . وكان النعمان بن مقرن أول مقتول في يوم نهاوند»(١).

فتولى القيادة العامة حذيفة بن اليمان، وكان على ميمنة الجيش الإسلامي الأشعث بن قيس الكندي، وكان قيس ابن مكشوح من قادة الفرسان، وكانت فيه نجدة وبساله، فكان قيس من شجعان وأبطال موقعة نهاوند التي استمرت ثلاثة أيام، وتكللت بالنصر والفتح المبين في يوم الجمعة، وكانت موقعة نهاوند في سنة ٢٠هـ وقيل سنة ١٩هـ وقيل سنة ٢١هـ، والصواب أن موقعة تستر هي التي كانت في سنة ١٩هـ وأن موقعة نهاوند كانت في ولاية عمار بن ياسر للكوفة سنة ٢٠هـ في يوم الجمعة ـ ربما في شهر رجب ٢٠هـ ـ وقد سُمّي فتح نهاوند (فتح الفتوح) لأن الفتوح انطلقت بعد فتح نهاوند إلى أرجاء بلاد إيران بِيُسر وسهولة، فقد بعث عمار بن ياسر جيشاً بقيادة عروة بن زيد الخيل الطائي فافتتح إقليم الريّ وبلاد الديلم، وافتتح جرير بن عبد الله البجلي إقليم هَمَذان، وافتتح الأشعث بن قيس أذربيجان، وافتتح أبو موسى الأشعري أصبهان وبقية أقاليم فارس، بينما انطلق قيس ابن مكشوح من نهاوند ـ في إيران ـ شرقاً ـ إلى مصر ـ غرباً ـ للمشاركة في فتوحات مصر.

* * *

مشاركة قيس ومراد في فتوحات مصر

كان قيس ابن مكشوح أحد الصحابة القادة الذي شهدوا فتح مصر، وقد كان لفرسان ورجال قبيلة مراد إسهاماً وافراً في الفتح العربي الإسلامي لمصر، وكان قيس ابن مكشوح خامس خمسة من شخصيات مراد البارزين في فتح مصر، وأولئك الخمسة هم:

ـ شراحيل بن حجيَّة المرادي، وهو ـ كما جاء في ترجمته بكتاب الجامع ـ (صحابي، من القادة الأبطال الفاتحين، شهد فتح مصر، وهو الذي اقتحم حصن بابليون بمصر) وجاء في كتاب الجامع ـ (اشتركت مراد في فتح مصر، وكان من قادتهم البارزين في مصر شراحيل بن حجيَّة المرادي الذي اقتحم على الروم حصن بابليون على سُلَّم غير السُّلّم الذي اقتحم به هذا الحصن الزبير بن العوام)(٢) وقال العسقلاني: «شراحيل بن حجية المرادي: أحد الأبطال، شهد فتح مصر، وكان هو والزبير أول من طلع الحصن حين فتحت مصر» [ص١٦٥ ج٢ ـ الإصابة].

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٠٠.

(٢) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ ص٢٦٠ و٢٦٣ و٥٦٧.

ـ وكان من أبطال مراد «شريك بن سُمَيّ المرادي: أحد القادة الفاتحين، كان على مقدمة جيش عمرو بن العاص الذي فتح مصر، وهو الذي هزم الروم عند (الكوم) الذي سُميّ فيما بعد باسمه (كوم شريك) بمصر»[١].

ـ وكان من شخصيات مراد «سالم بن عامر المرادي» ولما اختط عمرو بن العاص والمسلمون مدينة الفسطاط وبنوا مسجد الفسطاط الذي سُمّي جامع عمرو بن العاص تولى الآذان بالمسجد سالم بن عامر المرادي وكان سالم بن عامر «رئيس المؤذنين بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط، وقد ظلت مهمة الأذان في أبناء وأحفاد سالم هذا حتى انقرضوا»[١].

ـ وكان من العلماء بمصر بعد الفتح (ابن فراس المرادي) حيث شهدت فرقة من مراد بقيادة قيس ابن مكشوح فتح منطقة رشيد في مصر واستقروا بمنطقة رشيد، (وكان من المراديين أهل رشيد عبد الوارث بن إبراهيم بن فراس المرادي وهو من كبار رواة أحاديث رسول الله ﷺ)[١].

ـ وكان قيس ابن مكشوح المرادي أحد الصحابة القادة الذين عقد لهم عمرو بن العاص ألوية القيادة لفتح صعيد مصر والبهنساء حين أتى كتاب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بتوجيه الجيوش لفتح البهنساء وصعيد مصر، فاستدعى عمرو سائر الصحابة القادة بمصر، قال الواقدي: (وكان ذلك نهار الأربعاء عاشر شهر ربيع الأول سنة ٢١هـ وقيل سنة ٢٢هـ، فأقبل الأمراء والأجناد والسادات من الصحابة، فأقاموا الأربعاء والخميس والجمعة فخطب عمرو بالناس فلما فرغ من خطبته أمر أن لا يتفرقوا حتى يقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب)[٢] ثم قرأ الكتاب عليهم، أو على الصحابة القادة، قال الواقدي: (حضر ذلك معظم الصحابة وكبراؤهم مثل عبد الله بن عمرو بن العاص أمير الجيوش بمصر، وخالد بن الوليد وابنه سليمان، وقيس بن هبيرة المرادي ـ وهو قيس ابن مكشوح ـ والمقداد بن الأسود ـ وهو المقداد بن عمرو البهراني ـ والزبير بن العوام، والفضل بن العباس، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وأمثالهم)[٢] فاتفقوا على تجميع الجيش إلى منطقة الجيزة قريباً من الهرم الشرقي، فأقبلوا يضربون خيامهم حوله حتى تكاملت العساكر وذلك في شهر ربيع الآخر، فانتدب منهم عشرة آلاف فارس، وتم تقسيمهم إلى عشرين كتيبة تضم كل منها

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ ص٢٦٠ و٢٦٣ و٥٦٧.
(٢) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ٢ ص١٣٦ و١٣٩.

خمسمائة من الفرسان وقام عمرو بن العاص بتسليم رايات القيادة لعشرين من الصحابة، كل واحد منهم أميراً قائداً على خمسمائة من الفرسان، فكان من أولئك الصحابة القادة العشرين: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعمار بن ياسر، وأبو دجانة الأنصاري، وقيس ابن مكشوح المرادي، وعياض بن غنم الأشعري وعقبة بن عامر الجهني، وذو الكلاع الحميري، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعدي بن حاتم الطائي، وبقية القادة الصحابة العشرين، فانطلق كل منهم بكتيبته، وانطلقوا جميعاً إلى أرجاء إقليم البهنساء وصعيد مصر، ثم اجتمعوا جميعاً إلى مدينة البهنساء التي شهدت أصعب معارك فتح مصر، فقد تواصلت المعارك مع حاكم البهنساء والصعيد ـ البطريق ـ (بطليوس الروماني) وجيشه من الروم وأهل الصعيد والنوبة زهاء تسعة أشهر، وحاصر المسلمون مدينة البهنساء حصاراً شديداً، ثم تسلق سور المدينة سبعة من المسلمين منهم أبو مسعود البدري الأنصاري، ففتحوا الباب، وكان مسعود أول من فتح الباب، فاندفعت كتائب المسلمين إلى داخل المدينة بقيادة أمير كل كتيبة، قال الواقدي: (فكان أول من دخل ضرار بن الأزور الكندي، ثم دخل من بعده خالد، ثم دخل من بعده ذو الكلاع الحميري، ثم الزبير بن العوام، ثم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ثم عبد الله بن جعفر، ثم الفضل بن العباس، ثم المقداد، ثم شرحبيل الكندي. . ثم مالك الأشتر، ثم عبادة بن الصامت الأنصاري، ثم أبو ذر الغفاري، ثم أبو هريرة الدوسي، ثم قيس بن هبيرة المرادي ـ وهو قيس ابن مكشوح ـ ثم أبو دجانة الأنصاري، ثم جابر بن عبد الله، ثم البراء بن عازب، ثم النعمان بن بشير الأنصاري ثم سعيد بن زيد رضي الله عنه وعنهم أجمعين، ثم بقية المسلمين يتلو بعضهم بعضاً، فقاتلوا البطليوس وجيشه قتالاً شديداً داخل المدينة وفي الأزقة والشوارع وبين الأبواب، وقُتِل من الرومان نحو ثلاثين ألفاً بوسط البلد، وأُسِر منهم نحو عشرين ألفاً)[١]. قال ابن نوفل المرادي: «كان بمدينة البهنساء حين فتحناها أربعمائة بقال يبيعون البقل وغيره، وكانت مدينة عظيمة. .»[٢]. وقال ابن المنهال: «لما فُتحت مدينة البهنساء كانت آهلة بالجند، فاجتمع السوقة والمتسببون فكانوا أربعين ألفاً»[٢]، وقام الصحابة ببناء مسجد في البهنساء، وأصبحت قاعدة لانتشار الإسلام وانطلاق الفتوحات إلى أرجاء الصعيد

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ٢ ص١٣٦ و١٣٩.

(٢) فتوح الشام ـ الواقدي ـ ص١٩٣ جـ٢.

والنوبة، وقد كتب عمرو بن العاص كتاباً بفتح البهنساء إلى عمر بن الخطاب، وبعث الكتاب وخُمس الغنائم مع أبي نعيم الأنصاري، فسار أبو نعيم ومعه ثلاثون من الصحابة والفرسان فدخلوا المدينة وهم يكبرون، ودخل أبو نعيم الأنصاري على عمر بن الخطاب فناوله الكتاب وأخبره بالنصر والفتح، فتهلل وجه عمر وفرح فرحاً شديداً، ونادى في الناس الصلاة جامعة فخطب وحمد الله وأثنى عليه وأخبرهم بذلك النصر والفتح المبين، وكان ذلك في أواخر سنة ٢٢هـ ما لم يكن في أوائل سنة ٢٣هـ وذلك في آخر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد توفي عمر ـ سنة ٢٣هـ ـ وقيس ابن مكشوح يجاهد في صعيد مصر.

* * *

سنوات قيس ابن مكشوح . . الأخيرة

إن آخر الأنباء الموثوقة عن قيس ابن مكشوح المرادي هو مشاركته في فتوح البهنساء وصعيد مصر حيث تواصلت فتوح صعيد مصر وبلاد النوبة في خلافة عثمان بن عفان حتى انتشر الإسلام وامتدت دولته إلى سواكن في السودان وساحل أريترية.

ثم انتقل قيس ابن مكشوح إلى الكوفة التي استقر فيها العديد من عشائر مراد في الفتوح، كما استقر فيها عمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وفروة بن مسيك المرادي، فاستقر قيس معهم بالكوفة حيث ما لبث أن توفي عمرو بن معدي كرب في خلافة عثمان، وعاد فروة بن مسيك إلى اليمن، أما قيس ابن مكشوح فقد ذكر العسقلاني في ترجمته بالإصابة قول القرطبي أن قيس ابن مكشوح شهد صفين مع علي بن أبي طالب وقالت له بجيلة: يا أبا شداد خذ رايتنا اليوم، فقال: غيري خير لكم، قالوا: ما نريد غيرك، قال: فوالله إن أخذتها لا أنتهي بكم دون صاحب الترس المُذهب، وهو رجل كان عند رأس معاوية، فأخذ قيس الراية وحمل حتى وصل إلى صاحب الترس، فاعترض رومي لمعاوية فضرب رجله فقطعها فقتله قيس، وأشرعت إليه الرماح فَقُتِلَ. قال العسقلاني: (وهذا يقوي قول من زعم أنه بجلي، ثم اتضح لي الصواب من كلام ابن دريد فإنه فَرَق بين قيس ابن مكشوح المرادي وبين قيس بن المكشوح البجلي الذي شهد صفين، وهذا هو الصواب)[1].

ومؤدى ذلك أن قيس بن مكشوح المرادي مات قبل موقعة صفين، وجاء في كتاب الجامع أنه مات (سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م) فرضي الله عنه وأرضاه.

* * *

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٢٧٥.

١٤

العَلَاء بن الحَضْرَمي الصَّدفي

ـ أميرُ رسول الله على البحرين والخليج ـ

مِنْ أعلام كبار أصحاب رسول الله ﷺ هو العَلَاء بن الحضرمي الصدفي أمير رسول الله ﷺ على إقليم البحرين والخليج.

قال عنه الحافظ ابن كثير: «كان العلاء بن الحضرمي من سادات الصحابة، العلماء، العباد، مُجابي الدعوة»[١].

وقال عنه الحسن الهمداني: «كان العلاء بن الحضرمي من علية الصحابة.. وهو أول مَنْ بَنَىٰ مسجداً في أرض الكُفر، وأول مَنْ ضرب الجزية على الكفار، وأولُ مَنْ بَيَّتَ الكفار ليلاً، وأول مَنْ نقش في خاتم الخلافة (محمد رسول الله)»[٢].

* * *

والعلاء بن الحضرمي هو: العلاء بن عبد الله بن عماد بن سَلَىٰ بن أكبر بن زيد بن ربيعة بن مالك بن عويف بن مالك بن خزرج بن آبد بن أبيود بن مالك بن الصَّدِف ـ الصدفي ـ[١] وقد اشتهر والد العلاء بلقب الحضرمي منذ الجاهلية، قال ابن هشام: «واسم الحضرمي: عبد الله بن عماد، أحد الصَّدِف، واسم الصَّدِف عمرو بن مالك. أحد السَّكون بن أشرس بن كندة. ويقال: كندي»[٣] وليس الأمر كذلك، فليس الصَّدِف من بني السكون ثم من كندة، وإنما الصَّدِف أخو كندة، وهما ـ أي الصَّدِف وكنده، من قبائل كهلان بن سبأ.

قال الهمداني في الإكليل: «الصُدُف ـ بالضم ـ مِنْ حِمْيَرْ، والصَّدِف ـ بالفتح ـ من كهلان.. والصُدُف: ولد مالك الصُدف بن عمرو بن ديسع بن السَّبب بن شرحبيل بن الحارث بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر، وفيهم قال أسعد تُبع:

حِمْيَرُ قومي عَلَىٰ علاتها حضرموت الصِيد منهم والصُدُف»[١]

---

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ٢ ص٣٠.

(٢) البداية والنهاية ـ للحافظ ابن كثير ـ جـ٦ ص٣٢٧.

(٣) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ٢ ص٢٤٠.

وحضرموت المقصود هو: حضرموت الأصغر بن حمير الأصغر بن سبأ الأصغر، فالصُدُف وحضرموت من حمير.

أما الصَّدِف، جد قبيلة الصَّدِف فهو أخو كندة، وهما ـ أي الصَّدِف وكندة ـ إبنا: (مرتع بن معاوية بن عفير بن كندي بن عفير بن عدي بن الحارث بن مُرّة بن أدد بن عَريب بن زيد بن مالك بن سبأ)[١] فقد أنجب مرتعُ ولدين: كندة بن مرتع ومالكاً الصدف بن مرتع، وأمهما: رهم امرأة من حمير، فنشأ مالك الصدف في أخواله من حمير بشبوة، وانقطع عن أبيه مرتع وعن أخيه كندة، وكان ذلك سبب دخول الصدف في حضرموت بن حمير الأصغر، فلما نزلت كندة في وادي حضرموت تألفت كندة والصدف، وتذكروا الأواصر والقرابات، وقال شاعر قديم من الصدف:

إلى مَرْتَعٍ نَسْمُو ويَسْمُو عَدِيدُنَا ونحنُ إليهم نَسْتَنِيمُ ونُذْعِنُ

وقد انتشرت قبيلةِ الصدف في مساكنها بمناطق وادي حضرموت، وهُمْ ستة بطون: جدام بن الصدف، وخوار بن الصدف، وحريم بن الصدف، وألَمى بن الصدف، وشريج بن الصدف، وأبيود بن الصدف، بطون كلها، ومن بني أبيود بن الصدف كان القيل الزعيم: أكبر بن زيد بن ربيعة بن مالك بن عويف بن مالك بن خزرج بن آبد بن أبيود بن الصدف، وكان من أقيال الصدف وحضرموت في عصر الدولة الحميريه، فمِنْ بني أكبر: «آل الحضرمي رأس بني أكبر، وهو عبد الله بن عماد بن سلي بن أكبر، وهو الحضرمي أبو العلاء بن الحضرمي صاحب رسول الله ﷺ»[١].

* * *

وقد كان الحضرمي عبد الله بن عماد من أبرز الشخصيات اليمانية التي سكنت في مكة بالجاهليه، حيث جاء في كتاب الإصابة أنه: (قد سكن مكة، وحالف حرب بن أمية)[٢] ولكنه لم يسكن في مكة فقط وإنما كانت له زوجة وأسرة في كل من اليمن والطائف ومكة ويثرب، فقد كان الحضرمي تاجراً ثرياً يمتد نشاطه التجاري من اليمن إلى الطائف ومكة ويثرب ثم إلى الشام وكذلك إلى البحرين.. ثم مِن مكة وتلك المناطق والمراكز إلى اليمن، ومما يشير إلى ذلك أنه كان ـ كما وصفه الهمداني ـ «رأس بني أكبر» ـ وهم أقيال ورؤساء الصدف بمنطقتهم المجاورة لقبيلة السكون في وادي حضرموت ومنهم كانت زوجته التي في اليمن وهي (أم شريح بنت جعفر بن سعد، وهي امرأة من تُجيب من ولد الأشرس بن

---

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ٢ ص٣٠.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٤٩٨.

شبيب بن السكون بن كندة) وكان له منها ثلاثة أولاد هُمْ: شريح بن الحضرمي، وأُم فروة وأُم عمرو ابنتي الحضرمي.

وكذلك كانت له زوجة وأسرة في الطائف، وزوجته التي من الطائف هي (الغضوب بنت عفيف بن عوف بن عباد بن يربوع وهي امرأة من هوازن) وكان له منها أربعة أبناء هم: الحارث، وعبيدة، وعبد الحارث، وعماد، وبنو الحضرمي في الطائف.

وأما زوجته وأسرته في مكة، فقد كانت زوجته هي (عاتكة بنت وهب بن عبد الدار بن قصي القريشية) وكان له منها ثلاثة أولاد أو أربعة، وهم (أبو هِدْم بن الحضرمي، وشعبة بن الحضرمي، والصعبة بنت الحضرمي)، وكذلك عمرو بن الحضرمي حيث جاء في الإصابة أنه (أخو العلاء بن الحضرمي) وقد كان لعمرو بن الحضرمي تجارة في عير قريش التي كانت متوجهة إلى الشام فهاجمها المسلمون في السنة الأولى للهجرة حيث قُتل عمرو بن الحضرمي في ذلك الهجوم، قال العسقلاني: (وماله أول مال خُمِسَ للمسلمين وبسببه كانت وقعة بدر)، ثم ذكر أن عمرو بن الحضرمي المقتول كان عمره تسع سنين. ويبدو لنا من ذلك أنه حفيد الحضرمي وليس ابنه، وقد ذكره الهمداني قائلاً: (عبد الله بن عمرو: الذي وقعت على يده ـ أي بسببه ـ وقعة بدر).

وأما زوجة وأسرة الحضرمي في يثرب، فكانت زوجته (زهرة بنت مالك بن مجدعة بن جحجب الأوسية الأزدية اليمانية) وكان لها منها سبعة أبناء في يثرب، هُمْ: (عامر، والعلاء، وأبو عمرو ـ طلحة ـ ومالك، وعبد مالك، والنعمان، وعمرو) وقدكان من أصحاب رسول الله ﷺ المشهورين ثلاثة من أبناء الحضرمي، وهم طلحة، وشريح، والعلاء:

ـ وكان (طلحة أبو عمرو بن الحضرمي) من الصحابة الذين بايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة مع الأنصار لأنه كان في يثرب، وذلك قبل الهجرة النبوية، وشهد طلحة موقعة بدر مع رسول الله ﷺ، وقد جاء في الإكليل: «طلحة بن عمرو: شهد بدراً والعقبة». والأصوب طلحة أبو عمر. وكذلك ذكره الرشاطي عن الهمذاني بأنه (طلحة أبو عمرو: شهد بدراً والعقبة).

ـ والثاني (شريح بن الحضرمي) ـ الذي أُمه مِنْ السكون وكان معها في اليمن ـ فهاجر إلى يثرب وأخذ مكانه بين أصحاب رسول الله ﷺ مع ابنه مخرمة بن شريح قال الهمداني في كتاب الإكليل أنه كان «حامل راية رسول الله ﷺ» وقال ابن عبد

البر القرطبي في كتاب الاستيعاب أنه (كان من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ)، وقال العسقلاني في الإصابة: «إنّ مخرمة بن شريح بن الحضرمي ذُكر عند رسول الله ﷺ فقال: ذاك رجلٌ لا يتوسد القرآن».

ـ والثالث (العلاء بن الحضرمي) وهو كما ذكر الحافظ ابن كثير: «من سادات الصحابة، العلماء، العُباد».

* * *

وفادة وهجرة العلاء إلى رسول الله ﷺ

إن والدة العلاء بن الحضرمي هي السيدة زهرة بنت مالك الأوسية، فهو من أبناء الحضرمي الذين وُلِدوا ونشأوا في يثرب، وكان أخوه طلحة بين أهل يثرب الذين بايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة وشَهَدَ موقعة بدر، ولكن العلاء لم يكن في يثرب وإنما وَفَدَ وهاجر إلى النبي ﷺ من خارج يثرب، ويبدو أنه كان قد أتى من يثرب إلى منطقته في حضرموت باليمن فمكث بها إلى أن وَفَدَ وهاجر مع أخيه شريح، فكان من نبأ وفادته ما جاء في (بلوغ الأرب) وهامش الإكليل أنه:

«لما وَفَدَ العلاء بن الحضرمي على النبي ﷺ قال له: أتقرأ شيئاً مِنْ القرآن؟ فقرأ (سورة عبس) ثم زاد من عنده (هو الذي أخرج من الحبلى، نسمة تسعى، بين شراسيف وحَشَىٰ) فقال له رسول الله ﷺ: كُفَّ، فإن السورة كافية. ثم قال له رسول الله ﷺ: أتقولُ شيئاً من الشعر؟ فأنشده العلاء قوله:

وَحَيْيّ ذوي الأضغانِ تَسْب قلوبهم ... تحيتك الأدنى فقد يُدْبَغُ النَغَلْ[1]

فإنْ دحسوا بالكره فاعف تكرماً ... وإنْ أخنسوا عنك الحديث فلا تَسَلْ[2]

فإنَّ الذي يؤذيك منه استماعه ... وإنَّ الذي قالوا وراءك لم يُقَلْ

فقال رسول الله ﷺ: إن مِنْ البيان لسحراً، وإن من الشعر لحِكما»[3].

وقال ابن حجر العسقلاني: «ذكر المرزباني في معجم الشعراء هذه الأبيات للعلاء بن الحضرمي، وإن النبي ﷺ قال لما سمعها: «إنّ من البيان لسحراً»[4].

---

(١) في الإصابة (فقد يدبغُ النغل) وفي بلوغ الأرب وهامش الإكليل (فقد يدبغ النعل)،

(٢) عجز هذا البيت في الإصابة ومعجم الشعراء (وإن كتموا عنك الحديث فلا تسلْ).

(٣) بلوغ الأرب ـ جـ٣ ص١٣٣ ـ وهامش الإكليل للهمداني ـ تحقيق القاضي محمد الأكوع ـ جـ٢ ص٣١.

(٤) الإصابة ـ جـ٢ ص٢٤٦ ـ وقد تمثّل بهذه الأبيات قيس بن الربيع، وعامر بن الأزور، ورجل من وفد بني أسد بن خزيمة، فقيل إن الشعر لكل واحد منهم، والصواب إنهم تمثلوا واستشهدوا به لأنه وافق أحوالهم، ولا يتعارض ذلك مع كون الشعر للعلاء بن الحضرمي وهو الصحيح.

ومنذ ذلك اليوم الذي وفد وهاجر فيه العلاء بن الحضرمي، أخذ العلاء مكانه في الصفوف الأولى من أصحاب رسول الله ﷺ وأصبح عالماً بالقرآن وفرائض الإسلام، وقد أشار الهمداني إلى المرتبة التي بلغها العلاء بين الصحابة قائلاً: «كان من علية الصحابة» وقال ابن كثير: «كان من سادات الصحابة، العلماء، العباد»، وشهد العلاء بن الحضرمي المَشَاهد مع رسول الله ﷺ وصولاً إلى غزوة وصلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش ـ في ذي القعدة سنة ٦هـ ـ حيث أدى صلح الحديبية إلى المهادنة وتأمين الطرق، فلما عاد رسول الله ﷺ من الحديبية إلى المدينة اختار وبعث العلاء بن الحضرمي لدعوة أهل وحكام بلاد البحرين إلى دين الإسلام ومنهم المنذر بن ساوي العبدي ملك البحرين، ويكتسب زمن ذلك أهمية أساسية، فقد جاء في (عيون الأثر) باب (كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوي مع العلاء بن الحضرمي بعد انصرافه من الحديبية)[١] وكذلك جاء في السيرة النبوية لابن هشام إنه «بعد الحديبية.. بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين»[١] ويتبين من ذلك أن النبي ﷺ بعث العلاء إلى البحرين في ذي القعدة أو في ذي الحجة سنة ٦هـ وتتمثل أهمية ذلك في إدراك أن النبي ﷺ بعث العلاء مرة ثانية إلى البحرين سنة ٨هـ وهي المرة التي ذكرها البلاذري قائلاً: «لما كانت سنة ٨ هجرية وَجَه رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى البحرين ليدعو أهلها إلى الإسلام، وكتب معه إلى المنذر بن ساوي وإلى سيبخت مرزبان هجر يدعوهما إلى الإسلام أو الجزية»[٢] ومن المفيد هنا ـ أولاً ـ تبيين مدلول وواقع أرض البحرين التي بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إليها ليدعو أهلها إلى الإسلام.

البحرين التي إليها انطلق العلاء

لقد كان اسم البحرين يشمل منطقة الخليج العربي التي تمتد من تخوم عُمان ـ جنوباً ـ إلى كاظمه وهي الكويت وساحلها حتى تخوم العراق ـ شمالاً ـ ومِنْ جزيرة دارين في الخليج العربي ـ شرقاً ـ إلى تخوم اليمامة والربع الخالي ـ غرباً ـ بما في ذلك منطقة الإحساء وما إليها من شرق الجزيرة وأرض الخليج حيث كانت تقع مدينة (هَجَر) عاصمة أقليم البحرين.

---

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ لابن سيد الناس الأندلسي ـ جـ٢ ص٣٣٩ ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٧٩.
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ـ ص٨٩.

قال الهمداني في صفة جزيرة العرب: «إذا أجملنا أرض البحرين وهي أرض المشقر، فهي: هَجَر مدينتها العظمى، والعقير، والقطيف، والإحساء، ومحلم نهرهم، ومما يطوف بها.. سفوان، وكاظمه، ومسلحة بثر، والنقيرة، والسودة، ووادي أبي جامع، والشرية، والقرنتان،.. انقضت أرض البحرين»[١].

أما سبب تسمية تلك الأرض باسم البحرين، فيكاد أن يكون الهمداني هو المؤرخ الوحيد الذي أشار إلى السبب القديم الصحيح لتلك التسمية فقد ذكر الهمداني أن أرض «البحرين: سُميت البحرين من أجل نهرها مُحلّم، وكان نهراً عظيماً بهَجَرْ البحرين، يُقالُ أن تُبَّعاً نزل عليه فَهَالَهُ»[١١] يعني أن الملك تُبّع ملك اليمن لما سار إلى هَجَرْ البحرين وشاهد ذلك النهر استعظمه، وهو نهر مُحلّم وكان نهراً عظيماً يجري في أرض هَجَرْ وغيرها من تلك الأرض في الزمن القديم وحتى العصر الحميري، فكانت تلك الأرض تمتد بين بحرين، **أحدهما**: عَذْبُ فُرات وهو نهر مُحلّم، **والثاني**: ملحُ أجاج وهو بحر الخليج، ولذلك سميت تلك الأرض باسم البحرين. ثم أن نهر مُحلّم جَفّ وغار، فجهل الناسُ أصل التسمية، ويتجلى ذلك فيما ذكره ابن المجاور ـ في القرن السابع الهجري ـ حيث قال ابن المجاور الدمشقي: «يقال أن البحرين جزيرة في بحر مالح فوق بحر عذب فلأجل ذلك سُميّ البحرين. وحدّثني جماعة من أهل البلاد قالوا: إذا غاص إنسان بين المائين وشرب، يشرب ماءً عَذْباً فراتاً وأعلاه ماءُ مالحُ ملحاً أجاجاً»[٢] ولكن تلك الأقوال التي ذكرها ابن المجاور بعد مئات السنين من زمن نهر مُحلّم فيها ما يشير إلى أصل التسمية، فعبارة (بحر مالح فوق بحر عذب) وعبارة (يشرب ماءً عَذْباً فراتاً وأعلاه ماءُ مالحُ ملحاً أجاجاً) إنما تشيران إلى زمن وجود بحرين في تلك الأرض أحدهما بحر مالح وهو بحر ومياه الخليج العربي وثانيهما بحر وماء عذبُ فرات وهو مياه سيول وادي مُحلّم التي كانت تتدفق كالنهر العظيم في أرض هجر ومنطقة الخليج، ولذلك سميت تلك الأرض جميعها باسم البحرين.

ـ وقد جاء ذكر أرض البحرين وعاصمتها مدينة (هَجَرْ) في نقوش المسند

---

(١) صفة جزيرة العرب ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٣١٧.

(٢) كتاب المستبصر في صفة بلاد اليمن والحجاز ـ لابن المجاور الدمشقي ـ ص٣٠٠.

اليمنية الحميرية القديمة ومنها نقش للملك التُبَّعْ «ملشان أريم» مؤرخ بعام ٤٧٠ للتقويم الحميري ويوافق عام ٣٥٥ ميلادية، وقد أوجز د. محمد بافقيه ما ذكره النقش فيما يتصل بالبحرين قائلاً أن النقش يُسجل: «أن ملشان أرْيَم تولى قيادة حملات واسعة خارج اليمن خاصة في مكان يعرف باليمامة وفي البحرين بمدلولها الواسع القديم»[١] وكانت تلك الحملة من أجل بسط سلطان ونفوذ الدولة الحميرية وملوكها التبابعة على مدينة (هَجَرْ) ـ التي ذكرها النقش ـ ومناطق وقبائل أرض البحرين التي انضوت في الدولة الحميرية لعدة قرون، وقد كانت مدينة (هَجَرْ) عاصمة أقليم البحرين منذ مئات السنين قبل الإسلام واستمرت عاصمة للبحرين بعد الإسلام، وكلمة (هَجَرْ) تعني (مدينة) في النقوش الحميرية، وقال الهمداني: «الهجر: القرية بلغة حمير والعرب العاربة.. ومِنْ أسواق العرب القديمة هَجَرْ البحرين» وإن «المشقر: بالبحرين نحو هجر، وبه نخل لا يبرح الماء أصوله» وجاء في هامش الإكليل أن (المشقر: حصنٌ بالبحرين عظيم، وكان إلى جانبه مدينة هجر قاعدة البحرين»[٢] وكان قصر المشقر مقر حاكم أرض البحرين وكذلك كانت مدينة هجر، وقد مرت أرض البحرين بأطوار سياسية عديدة، فقد كانت تحت حكم نواب وعمال الدولة اليمنية الحميرية في عصر التبابعة فترة من الزمن، وكانت تحت حكم ملوك وأمراء محليين عرب، تارة من الأزد وتارة من كندة وتارة من ربيعة وغيرها، ثم امتد إليها حكم المناذرة ملوك الحيرة وكان آخرهم النعمان بن المنذر الذي قتله الفُرس بعد البعثة النبوية ـ عام ٦١٢م ـ واخضعوا أقليم الحيرة بالعراق للحكم الفارسي المباشر، وعندئذٍ بصفة خاصة شمل احتلال ونفوذ الفُرس أرض البحرين.

ـ وقد كانت تسكن أرض البحرين قبائل عربية عديدة من الأزد ومن حمير وقبيلة ربيعة، وكان من أقدمها قبائلُ من الأزد السبائيين، قال العوتبي في تاريخ عُمان: «أول مَنْ لحق بعمان من الأزد مالك بن فَهْمْ دخلها في عسكر جَمّ بالخيل والعدة والعدد.. ثم توالت هجرات أزدية أخرى فبسطوا سيطرتهم على الإحساء والبحرين»[٣] ومما يتصل بذلك قول حسان بن جيشان:

وأزدُ لها البحران والسيف كله ... وأرضُ عُمان بعد أرض المُشقر

وكانت في البحرين بعض القبائل الحميرية، قال ابن خلدون: «سارت تيم

---

(١) نقش ملشان أريم ـ د. محمد بافقيه ـ مجلة دراسات يمنية ـ العدد ١٣ ـ سبتمبر ١٩٨٣م.
(٢) صفة جزيرة العرب ـ ص٣٣٠ و٣٣٢.
(٣) مصادر التاريخ العُماني ـ د. فاروق عمر ـ ص١٧.

اللات من قضاعة الحميرية وبعض بني رفيدة منهم، وفرقة من الأشعريين نحو البحرين ونزلوا هَجَرْ، فأجلوا من كانوا بها ومَلكوها»[١] وكان مُلكهم إياها الفترة من الزمن في العصر الحميري وكذلك سكنت البحرين عشائر من كنده والسكون ومن طيئ ومن لَخْم وغيرها.

وكانت القبيلة الرئيسية في البحرين قبيلة ربيعة، ومنهم بكر بن وائل وعبد القيس، قال الهمداني كانت (ديار بكر بن وائل من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر»[٢] وأما عبد القيس فكانوا في هَجَرْ وغيرها، ومنهم المنذر بن ساوي الذي بعث النبي ﷺ إليه العلاء بن الحضرمي، وقد أضفت عليه بعض الروايات لقب (ملك البحرين) أو (صاحب البحرين)، ولكنه لم يكن الملك أو الحاكم الوحيد وإنما كان أهم الملوك أو الحكام العرب في ظل الاحتلال والنفوذ الفارسي في أرض البحرين.

قال البلاذري: «كانت البحرين من مملكة الفُرس، وكان بها خلق كثير من العرب، وكان على العرب بها مِنْ قِبْل الفرس على عهد رسول الله ﷺ المنذر بن ساوي.. وَوَجّه رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى البحرين ليدعوا أهلها إلى الإسلام أو الجزية، وكتب معه إلى المنذر بن ساوي وإلى اسبيخت مرزبان هَجَرْ يدعوهما إلى الإسلام أو الجزية».

* * *

وقائع البعث الأول للعلاء إلى البحرين

لم تميز الروايات بين توجيه رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى البحرين حين عاد من الحديبية ـ في ذي القعدة ٦هـ ـ وبين توجيهه مرة ثانية ـ سنة ٨هـ ـ وإنما دمجت وقائع ووثائق الفترتين، ولكن منطوق الوثائق وتسلسل الأحداث ومعرفة معالم الواقع في أرض البحرين يتيح إدراك المسار التالي لوقائع البعث الأول للعلاء إلى البحرين.

ـ لقد انطلق العلاء بن الحضرمي من المدينة المنورة ـ في أواخر ذي القعدة أو في ذي الحجة سنة ٦هـ ـ فوصل إلى مدينة هَجَرْ ـ العاصمة الرئيسية في أرض البحرين ومقر الملك المنذر بن ساوي ـ وقد كانت مدينة هجر مركزاً تجارياً كبيراً، وكان النشاط التجاري لآل الحضرمي يمتد في فترة سابقة إلى البحرين، وكانت في

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٢٤٠.

(٢) صفة جزيرة العرب ـ ص٣٠٦ ـ وسِيف كاظمه هو ساحل الكويت، ومعنى سيف ـ بكسر السين ـ ساحل البحر.

مدينة هجر بيوتٌ يمانية كثيرة من السكون وكندة الذين هم مِنْ حضرموت، وكذلك من طيئ ولَخْم والمناذرة، وليس من المستبعد أن يكون للعلاء أقارب ومعارف بمدينة هجر، وقد وصل إليها العلاء ـ في ذي الحجة ٦هـ، أو مطلع سنة ٧هـ ـ وتوجه إلى قصر الملك المنذر بن ساوي العبدي وقراء عليه كتاب رسول الله ﷺ ثم ناوله الكتاب، وكان نَصّه كما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي. سلامُ على مَنْ اتَبَع الهُدى، أما بعد، فإني أدعوك إلى الإسلام، فأسْلِمْ تَسْلَمْ، يجعل اللّهُ لك ما تحت يديك. وأعْلَمْ أن ديني سيظهرُ إلى مُنتهى الخُفّ والخافر»[1].

وليس في هذا الكتاب ذكر (الجزية) التي قال البلاذري أن رسول الله ﷺ وجه العلاء بن الحضرمي وكتب معه إلى المنذر بن ساوي ومرزبان هجر يدعوهما إلى الإسلام أو الجزية (سنة ثمان للهجرة)، فعدم ذكر (الجزية) في هذا الكتاب يدل على أنه كتاب النبي ﷺ الذي بعثه مع العلاء حين عاد من الحديبية (أواخر سنة ٦هـ) في البعث الأول للعلاء إلى البحرين.

ولقد كان العلاء أديباً، بليغاً، عارفاً بالقرآن وتعاليم الإسلام، يستطيع الرد على أي تسأولات يمكن أن يثيرها المنذر بن ساوي، وتبيين دعوة الإسلام تبييناً كافياً، وقد قام العلاء بذلك خير قيام، ولكن الزمن كان مبكراً للقول بأن المنذر كان يمكن أن يسلم، أو يعلن إسلامه، في وقت لم يكن فيه الإسلام يتجاوز المدينة المنورة وبعض المناطق ـ من جهة ـ وفي وقت كان فيه أهل بلاد البحرين جميعهم على غير دين الإسلام، ولكن المنذر لم يعترض على أن يمضي العلاء في إبلاغ دعوة الإسلام إلى أرجاء البلاد.

ـ وقد أخذ العلاء بن الحضرمي في دعوة أهل مدينة هجر وأعمالها إلى الإسلام، وكان منهم العديد من العشائر الأزدية والطائية والحميرية واللخمية والحضرمية، ولكن الغالبية العظمى هم قبيلة عبد القيس وبكر بن وائل الذين هم (ربيعة)، وقد ذكر ابن سعد في الطبقات واليعقوبي وأبو عبيد والبيهقي «أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل هجر يدعوهم إلى الإسلام» ويمكن أن يكون ذلك مرتين، وأن دعوة العلاء إياهم إلى الإسلام في المرة الأولى كانت تمهيدية وكانت تعريفاً بدين الإسلام.

ـ وقد تنقل العلاء في مناطق بلاد البحرين لأنه لم يكن مبعوثاً إلى المنذر بن

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص١٤٤ ـ عن طبقات الصحابة لابن سعد، وزاد المعاد لابن القيم، وإعلام السائلين والزرقاني.

ساوي وأهل هجر فحسب وإنما «وَجّه رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى أهل البحرين جميعاً يدعوهم إلى الإسلام» وقد كان بأرض البحرين ملوك وحكام عرب غير المنذر بن ساوي توجه إليهم العلاء ودعاهم إلى الإسلام، منهم كما ذكر ابن سعد في الطبقات (الهلال صاحب البحرين)، ويدل لقب (صاحب البحرين) على أنه كان يحكم منطقة من أرض البحرين بمدلولها الواسع القديم، ومنهم (المنذر الغرور بن الملك النعمان بن المنذر) وكان في منطقة قريبة من هجر، ومنهم زعماء القبائل، وكان من أبرزهم (الجارود بن المعلى، وكان نصرانياً) ومن رؤساء عبد القيس (ابن عوف الأشج) وكانت تسكن المناطق الجنوبية من أرض البحرين قبائل من الأزد لا يدينون للمنذر، وقد جاء ذكرهم في الوثائق باسم (أسد عمان مَنْ كان منهم بالبحرين) حيث شملتهم الاتصالات التمهيدية للعلاء.

ـ وقد تقدم قول البلاذري: «كانت أرض البحرين من مملكة الفرس»، وذلك لأنها كانت تحت احتلال ونفوذ الأمبراطورية الفارسية وملكها كسرى أبرويز بن هرمز، وقد كان في مدينة هجر ـ مقر المنذر بن ساوي ـ ممثل للسلطة الفارسية هو المرزبان المذكور في قول البلاذري أن النبي ﷺ كتب مع العلاء «إلى المنذر بن ساوي وإلى اسبيخت مرزبان هجر» ولم يكن عامل كسرى فقد كان هناك أمير حاكم فارسي مقره في قصر المشقر ومعه جيش فارسي في حصن المشقر وهو (الهرمزان) كما كان هناك حاكم فارسي مقره في (الزارة) وهو (المكعبر فيروز بن جشيش)، ولم تشمل اتصالات العلاء أولئك الفرس.

ـ وفي أواخر سنة ٧هـ ـ غالباً ـ عاد العلاء بن الحضرمي من البحرين إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وتتمثل أهمية فترة البعث الأول التي قضاها في البحرين بالتمهيد للإسلام وتعريف زعماء وقبائل العرب بما يلزم عن العهد الجديد، وباستقصاء ومعرفة الواقع السياسي والسكاني وغير ذلك من الأمور والمعلومات في أرجاء البحرين بمدلولها الواسع القديم، وكان ذلك كله هو أساس النجاح العظيم الذي حققه العلاء في مسيرة الثاني إلى البحرين.

* * *

إسلام وفتح البحرين على يد العلاء

في شهر ربيع من سنة ٨هـ بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي حاملاً رسائل الإسلام والحرية إلى البحرين، ذلك إنه ـ كما ذكر البلاذري: «كانت أرض البحرين من مملكة الفُرس.. وكان على العرب بها من قِبل الفُرس المنذر بن ساوي، فلما كانت سنة ثمان للهجرة، وجَهَ رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى

البحرين يدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية. وكتب معه إلى المنذر بن ساوي وإلى سيبخت مرزبان هجر يدعوهما إلى الإسلام أو الجزية»[١] وقد ذكر ابن هشام زمن ذلك في السنة الثامنة بأنه «قبل فتح مكة»[٢] ويمكن تقدير الزمن في حوالي شهر ربيع من سنة ٨ هجرية ثم بعثه أيضاً بعد فتح مكة عند منصرفة من الجعرانة في ذي القعدة ٨هـ ولم يمكن التمييز بين وقائع كل منهما.

ـ لقد انطلق العلاء بن الحضرمي ومعه كوكبة من الفرسان ـ سنة ٨ هجرية ـ إلى مدينة هجر في البحرين، ومعه نحو تسعة كتب من رسول الله ﷺ من بينها كتاب إلى المنذر بن ساوي وإلى أهل هجر والبحرين العرب، وكتاب إلى أسبخيت مرزبان هجر وإلى الفرس المجوس في هجر، وكتاب إلى الهرمزان عامل كسرى في حصن المشقر، وقد ذكر الهمداني في الإكليل ذلك المسير للعلاء قائلاً: «أغزاه رسول الله ﷺ إلى البحرين والمشقر» وأضاف القاضي محمد الأكوع قائلاً: «المشقر حصن بالبحرين عظيم، وكان إلى جانبه مدينة هجر، وفتحها مع المشقر العلاء بن الحضرمي سنة ثمان للهجرة»[٣].

ـ ولم يكن فتح العلاء لمدينة هجر عاصمة البحرين فتحاً بالمعنى الحربي لكلمة (فتح)، وإنما وصل العلاء إلى مدينة هجر وتوجه إلى قصر الملك المنذر بن ساوي فقراء عليه كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر وإلى أهل هجر والبحرين ـ العرب ـ يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية، ويبدو أن المنذر بن ساوي كان مُهيأً لما أتى به العلاء، فلما قراء عليه العلاء كُتب رسول الله ﷺ ودعاه إلى الإسلام، استجاب المنذر بن ساوي وأسلم. وفي ذلك قال الحافظ ابن كثير: «بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين، فأسلم المنذر على يديه، وأقام فيهم الإسلام والعدل»[٤].

ـ وقال ابن هشام في السيرة النبوية «بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوي العبدي، فأسلم، فحسن إسلامه»[٢].

فلما أسلم المنذر بن ساوي ناوله العلاء كتاب رسول الله ﷺ إلى أهل هجر والبحرين العرب الذين بمدينة هجر لكي يقرأ الكتاب عليهم، فقام المنذر ومعه العلاء بقراءة الكتاب عليهم، وقد ذكر البلاذري عن طريق ابن عباس كتاب رسول

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٨٩.
(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٤٣.
(٣) الإكليل ـ للهمداني ـ تحقيق الأكوع ـ جـ٢ ص٣٠.
(٤) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٦ ص٣٢٧.

الله ﷺ مع العلاء إلى أهل البحرين بأنه قال فيه: «أما بعد، فإنكم إذا أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ونصحتم لله ورسوله.. فلكم ما أسلمتم عليه.. وإن أبيتم فعليكم الجزية» وذكر ابن حجر في المطالب العالية كتاب رسول الله ﷺ مع العلاء إلى أهل هجر والبحرين وهو كتاب طويل، فجمع المنذر بن ساوي أهل هَجَرْ البحرين ـ العرب ـ وقرأ عليهم الكتاب، وقام العلاء فيهم خطيباً ودعاهم إلى الإسلام وأخبرهم بتعاليم العهد الجديد مثل بقاء المنذر بن ساوي ملكاً على ما تحت يديه بالبحرين ولم يعد تابعاً للفُرس ومثل فرائض الصدقة التي على المسلمين وغير ذلك من الأمور، فلما سمعوا العلاء وقراء عليهم المنذر كتاب رسول الله ﷺ أسلم العرب جميعاً. وفي ذلك ذكر البلاذري من طريق هشام بن الكلبي عن ابن عباس قال: «كتب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوي فأسلم، ودعا أهل هجر فكانوا بين راضٍ وكاره، أما العرب فأسلموا، وأما المجوس واليهود فَرَضوا بالجزية فأخذت منهم» وذكر البلاذري أنه أسلم المنذر «وأسلم جميع العرب هناك».

وبعد إسلام المنذر بن ساوي والعرب بمدينة هجر على يد العلاء، أصبحت هَجَرْ تحت السيطرة العربية الإسلامية، وتوجه العلاء والمنذر إلى (أسبيخت مرزبان هجر) وإلى الفرس المجوس الذين في هجر، وقد تم تجميعهم مع اليهود، فَقُرِئ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وقد ذكر البيهقي في السنن الكبرى وابن حجر في المطالب العالية إنه «كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يدعوهم إلى الإسلام، فمن أسلم قُبِلَ منه، ومن أتى ضُربت عليه الجزية..»[1] فأسلم (أسبيخت مرزبان هجر) ولم يقبل سائر الفرس المجوس في هجر الدخول في الإسلام وكذلك اليهود، وفي ذلك قال ابن عباس: «أما العرب فأسلموا، وأما المجوس واليهود فَرَضوا بالجزية» وقال البلاذري: «كَرِه المجوس واليهود الإسلام، وأحبوا أداء الجزية». وكذلك ذكر البلاذري إنه لما «وَجّه رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى أهل البحرين يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية، أسلم المنذر ساوى واسبيخت مرزبان هجر، وأسلم معهما جميع العرب هناك.. فأما المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء، وكتب بينه وبينهم كتاباً هذا نسخته: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمي أهل البحرين، صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا الثمر، فَمَنْ لم يف فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وأما جزية الرؤوس فإنه أخذ من كل حالم ديناراً».

وقد كتب العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ بإسلام المنذر وأهل هَجَرْ

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص١٤٨.

البحرين ودخول البلاد في طاعة الإسلام وبأمر المجوس، وأثنى العلاء في كتابه على المنذر بن ساوي، وأشار العلاء على المنذر بأن يكتب إلى رسول الله ﷺ فكتب المنذر بن ساوي بإسلامه إلى رسول الله ﷺ وقال في كتابه: «أما بعد يا رسول الله، فإني قرأتُ كتابك على أهل بحرين، فمنهم من أحبَّ الإسلام ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدِث في ذلك أمرك»[١]. وكذلك كتب (أسبيخت مرزبان هجر) كتاباً بإسلامه إلى رسول الله ﷺ، وبعث العلاء كتابه وكتاب المنذر وكتاب أسبيخت مع (الأقرع) ـ ويبدو أنه الأقرع بن عبد الله الحميري ـ فأتى الأقرع إلى رسول الله ﷺ وأخبره بدخول هجر البحرين في الإسلام وأعطاه الكُتب، فكتب رسول الله ﷺ كُتباً إلى العلاء وإلى المنذر بن ساوي وإلى أسبيخت مرزبان هَجَرْ، وقال رسول الله ﷺ في كتابه إلى العلاء وإلى المنذر بن ساوي «مَنْ أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية» وفي رواية أخرى: «فَمَنْ أحب الإسلام من المجوس فإنه آمن، ومَنْ أبى فعليه الجزية دينار من قيمة المُعَافِري» وفي رواية ثالثة: «وَمَنْ أبى ضُربتْ عليه الجزية، على أن لا يؤكلُ لهم ذبيحة، ولا تُنكح لهم امرأة» وإنه «كتب رسول الله ﷺ في أمر مجوس هجر: إعرض عليهم الإسلام، فإن أسلموا، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا. ومَنْ أبى، فعليه الجزية ـ على رأسه دينار، على الذكر والأنثى ـ في غير أكل لذبائحهم ولا نكاح لنسائهم»[١]. ففرض العلاء بن الحضرمي الجزية على الفُرس المجوس في هَجَر البحرين، وكذلك على من كان بها من اليهود، وقام العلاء ببناء مسجد في هَجَرْ، وكان مسجد العلاء أول مسجد بأرض البحرين ولذلك قال الهمداني في الإكليل أن العلاء بن الحضرمي: «أغزاه رسول الله ﷺ إلى البحرين والمشقر، وهو أولُ مَنْ بَنَى مسجداً في أرض الكُفر، وأول من ضرب الجزية على الكفار، وأولُ من بَيَّت الكفار ليلاً».

ـ وبعد أن استتب الأمر في مدينة هجر، توجه العلاء بن الحضرمي إلى حصن المُشَقَّر الذي قال عنه الأكوع في هامش الإكليل: «المشقر: حصن بالبحرين عظيم، وكان إلى جانبه مدينة هَجَر قاعدة البحرين، وفتحها مع المشقر العلاء بن الحضرمي سنة ٨هـ» وقد كان حصن المُشقر مقر (الهرمزان عامل كسرى بالبحرين)، وجاء في وثائق العهد النبوي أنه «كتب رسول الله ﷺ إلى الهرمزان عامل كسرى» ـ (مِنْ محمد رسول الله إلى الهُرمُزان: إني أدعوك إلى الإسلام. أسْلِمْ تَسْلَم»[٢].

وقد أعطاه العلاء بن الحضرمي كتاب رسول الله ﷺ ودعاه إلى الإسلام. ولم

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص١٤٨.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص١٤٤.

تذكر المصادر موقف (الهرمزان) أو أنه أسلم، وكان معه قوة حامية من الفُرس هُمْ (وضائع كسرى) ويشملهم مع الهرمزان قول البلاذري: «بعث رسول الله ﷺ إلى وضائع كسرى بهَجَرْ، فلم يسلموا، فوضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل منهم». وكان قد بَيّتَهم العلاء والذين معه، بحيث (فتح العلاء حصن المشقر)، فأصبح حصن المشقر بيد المسلمين وتم فرض الجزية على المجوس، وبذلك أصبحت مدينة هجر والنواحي التابعة لها وحصن المشقر تحت سيادة الإسلام، وزال منها الاحتلال والنفوذ الفارسي المجوسي.

وتوجه العلاء بن الحضرمي بدعوة الإسلام إلى قبيلة عبد القيس ومن معها مِنْ بكر بن وائل، وكانت عبد القيس من أهم قبائل البحرين ويسكنون عدة مناطق من البحرين، وكانت طائفة منهم يدينون بالنصرانية مع رئيسهم الجارود بن المُعلى، بينما كان يتزعم طائفة من عبد القيس رئيسهم عبد الله بن عوف الأشج، وقد كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى عبد القيس يدعوهم إلى الإسلام، فقرأ عليهم العلاء كتاب رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، فأسلموا، وكتب العلاء بأسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وقد توجه وفدان من عبد القيس إلى رسول الله ﷺ أحدهما قبل فتح مكة والثاني بعد فتح مكة، فقد ذكر الحافظ بن كثير نبأ قدوم وفد عبد القيس إلى رسول الله ﷺ بعد فتح مكة ـ كما تؤكد ذلك روايتين ذكرهما ابن كثير ـ ثم قال: «ولكن في سياق رواية ابن عباس ما يدل على أن قدوم وفد عبد القيس كان قبل فتح مكة.. والله أعلم»[١] ويبدو أن ليس هنالك تعارض بين قدوم وفد عبد القيس قبل فتح مكة ثم بعد فتح مكة، لأنهما وفدان، أولهما: وفد عبد القيس برئاسة الجارود بن المُعلى وقد وجههم العلاء إلى رسول الله ﷺ وقدموا عليه قبل فتح مكة، قال ابن سيد الناس «قدم الجارود بن بشر بن المعلى في وفد عبد القيس وكان نصرانياً. وقد رُوينا خبر قدومه من حديث سليمان بن عليّ، عن علي بن عبد الله، عن عبد الله بن العباس، وفيه إنشاده النبي ﷺ حين قدم عليه في قومه ـ أبياتاً أولها:

يا نبيّ الهُدى أتتك رجالُ   قطعت فدفداً وآلاً فآلا»[٢]

وكان قدوم الجارود ووفد عشيرته إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، فأسلموا، فمكثوا أياماً وعادوا إلى البحرين، وكانت غالبية عبد القيس هُمْ الذين كان رئيسهم ابن عوف الأشج، وهُمْ الذين قدم وفدهم ـ مع العلاء ـ إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٤٨.

(٢) عيون الأثر ـ جـ٢ ص٢٩٨ ـ والفدفد: الفلاة من الأرض. والآل: السراب.

قدوم العلاء إلى رسول الله ﷺ بعد فتح البحرين

لقد أتم الله تعالى إسلام العرب في البحرين وفَتَح هجر والمشقر على يد العلاء بن الحضرمي حين بعثه رسول الله ﷺ إليها، مُنصرفه من الجعرانة إلى مكة، فمكث العلاء بالبحرين منذ أوائل شهر ذي القعدة ٨هـ إلى أن أسلمت قبيلة عبد القيس وكتب العلاء بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ عند مسير الجارود بن المعلى في وفد عشيرته إلى النبي ﷺ بالمدينة المنورة ـ أو في آخر سنة ٨هـ ـ ثم كتب رسول الله ﷺ إلى العلاء بأن يقدم إليه بعشرين رجلاً من وجوه عبد القيس.

وكان رسول الله ﷺ لما بعث العلاء إلى البحرين، منصرفة من الجعرانة ـ بعث معه أبو هريرة الدوسي فدخل معه مدينة هَجَر، وشهد إسلام المنذر بن ساوي وأهل هجر، فمكث أبو هريرة في (هَجَرْ)، بينما سار العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ ومعه وجوه قبيلة عبد القيس، فقدم العلاء على رسول الله ﷺ في المدينة المنورة وهو القدوم الذي ذكره ابن سعد في طبقات الصحابة قائلاً: «كتب رسول الله ﷺ إلى العلاء بن الحضرمي أن يقدم عليه بعشرين رجلاً من عبد القيس، فقدم عليه بعشرين رجلاً منهم، رأسهم عبد الله بن عوف الأشجّ. واستخلف العلاء على البحرين المنذر بن ساوي»(١) ولم يذكر زمن ذلك، إلا أنه جاء في رواية الزرقاني: «أن رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرميُ منصرفه من الجعرانة إلى المنذر بن ساوي وأهل البحرين» وجاء في المطالب العالية: (أن النبي ﷺ بعث العلاء إلى البحرين في ذي القعدة)، وعلى ضوء ذلك يمكن إدراك أن العلاء قدم إلى رسول الله ﷺ في آخر سنة ٨هجرية أو في مطلع سنة ٩هـ، ثم عَهَد إليه رسول الله ﷺ بالولاية الكاملة على أرض البحرين بمدلولها الواسع القديم.

* * *

ولاية العلاء على البحرين في عهد رسول الله ﷺ

إن ولاية العلاء بن الحضرمي على البحرين لم تبدأ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوي منصرفه من الحديبية في ذي القعدة ٦هـ ولعل تلك هي المرة التي ذكر الواقدي: «أن رسول الله ﷺ قال للعلاء: إنْ أجابك فأقِمْ حتى يأتيك أمري»(٢). وكذلك لم تبدأ ولاية العلاء حين بعثه رسول الله ﷺ ـ في ذي القعدة ٨هـ ـ وكان العلاء يتوقع آنذاك استجابة المنذر وأهل البحرين ـ العرب ـ للإسلام،

---

(١) طبقات الصحابة ـ ابن سعد ـ جـ١ ص١٩ وجـ٢ ص٧٧.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوية ـ ص١٤٤ و١٥٩.

فقد جاء في الوثائق عن الزيلعي والواقدي إنه «قال العلاء: يا رسول الله فاكتب لي كتاباً يكون معي، فكتب له رسول الله ﷺ فرائض الإبل والبقر والغنم والحرث والذهب والفضة على وجهها»(١) وجاء في طبقات ابن سعد إنه «كتب رسول الله ﷺ للعلاء كتاباً فيه فرائض الصدقة في الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال، يصدّقهم على ذلك، وأمره أن يأخذ من أغنيائهم ويردها على فقرائهم»(١) فكانت صفة العلاء هي أنه رسول النبي ﷺ إلى المنذر وأهل البحرين يدعوهم إلى الإسلام، وإنه عامل على الصدقة، يقبض الصدقات، فأسلم الناس على يده وأدّوا الصدقة ـ وهي الزكاة ـ وقام بفرض الجزية على المجوس، وأسلم على يده العديد من زعماء وقبائل العرب، ثم قدم العلاء إلى رسول الله ﷺ ـ آخر سنة ٨هـ ـ فمكث أياماً مع رسول الله ﷺ ثم وجهه رسول الله عليه الصلاة والسلام أميراً والياً على البحرين، وعندئذٍ بدأت ولاية العلاء على البحرين حيث كتب رسول الله ﷺ معه كتاباً إلى أهل البحرين قال فيه رسول الله ﷺ ما يلي نصه: «وإن العلاء بن الحضرمي أمين رسول الله على بَرّها، وبحرها، وحاضرها، وسراياها، وما خَرَج منها. وأهل البحرين خُفَراؤه من الضيم، وأعوانه على الظالم، وأنصاره في الملاحم. عليهم بذلك عهد الله وميثاقه، ولا يُبدِّلوه قولاً، ولا يُريدوا فُرقةً. ولهم على جند المسلمين الشركة في الفيء، والعدلُ في الحكم، والقصدُ في السيرة، حُكم لا تبديل له في الفريقين كليهما. والله ورسوله يشهد عليهم»(١).

وكان وصول العلاء بن الحضرمي إلى البحرين ـ في مطلع سنة ٩ هجرية ـ نقطة تحول في تاريخ أرض البحرين بمدلولها الواسع القديم، حيث بدأت مرحلة جديدة كان من أبرز معالمها ما يلي:

ـ إن العلاء بن الحضرمي أصبح أمير رسول الله ﷺ على أرض البحرين، بَرّها، وبحرها، وحاضرها، وسراياها، وتشمل أرض البحرين بالتسميات الحالية (مناطق الأحساء والقطيف وما إليها من شرق السعودية، ومنطقة دولة الإمارات العربية المتحدة، ودولة قطر، ودولة البحرين، ودولة الكويت)، وكذلك الجزر العربية في الخليج وهي المقصودة بكلمة (وبحرها). وبذلك توحدت أرض البحرين والخليج جميعها تحت ولاية العلاء بن الحضرمي في إطار الدولة العربية الإسلامية بزعامة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ـ وقد مكث المنذر بن ساوي ملكاً حاكماً في مدينة هَجَرْ ـ بالأحساء ـ وما

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوية ـ ص١٤٤ و١٥٩.

كان تحت يده من مناطق هجر والبحرين، وذلك في إطار سلطة وولاية العلاء الشاملة لكل البحرين والخليج، وأسلم على يد العلاء بقية قبائل وحكام إقليم البحرين، فقد «كتب رسول الله ﷺ إلى أزد عمان من كان منهم بالبحرين»[١] كتاباً يدعوهم إلى الإسلام، فتوجه العلاء إلى منطقة أزد عمان بالبحرين ـ وهي المنطقة الجنوبية من أرض البحرين والتي هي منطقة الإمارات العربية المتحدة حالياً ـ فأسلمت أزد البحرين ومن معهم بتلك المنطقة من غير الأزد، وكان من حكام أرض البحرين حاكم اسمه (الهلال) ـ في المنطقة الشمالية من أرض البحرين حيث قطر وكاظمه غالباً ـ فتوجه إليه العلاء بن الحضرمي وقرأ عليه وناوله كتاب رسول الله ﷺ وكان نص الكتاب كما يلي: «من محمد رسول الله إلى الهلال صاحب البحرين. سِلمُ أنت. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، لا شريك له، وأدعوك إلى الله وحده تؤمن بالله، وتُطيع وتدخل في الجماعة فإنه خير لك. والسلام على مَنْ اتبع الهُدى»[١].

فأسلم الهلال صاحب البحرين وأسلمت عشائر بكر بن وائل التي ذكر الهمداني أن ديارها (من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمه إلى البحر). وكاظمه هي الكويت، وسيفها: ساحلها إلى البحر.

ـ وأرسى العلاء بن الحضرمي والذين معه من الصحابة دعائم الإسلام في ولاية البحرين، وكان مع العلاء الصحابي الجليل أبو هريرة الدوسي، وكان أبو هريرة يتولى الآذان والصلاة بالمسلمين في مدينة هَجَرْ، كما كان أبو هريرة من عمال الصدقة، وكذلك كان (قُدامة بن مظعون) وجاء في المطالب العالية أن رسول الله ﷺ لما بعث العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين ـ في ذي القعدة ـ بعث معه خالد بن الوليد، وكتب أن الأمير العلاء فإن أصيب فخالد. ولكن سائر المصادر لم تذكر بعث خالد بن الوليد إلى البحرين، ويبدو أن خالداً الذي بعثه رسول الله ﷺ مع العلاء هو (خالد بن سعيد بن العاص) وقد ذكر البلاذري أن رسول الله ﷺ بعث إلى البحرين (أبان بن سعيد بن العاص)، وقد رجع خالد بن سعيد إلى المدينة في أواخر سنة٩هـ وبعثه رسول الله ﷺ مع فروة بن مسيك المرادي عاملاً على صدقة مذحج باليمن، ويبدو أن رسول الله ﷺ بعث أبان بن سعيد إلى البحرين عاملاً للصدقة بعد ذلك ـ سنة ١٠هـ ـ.

ـ وقد قام العلاء بفرض الجزية على المجوس الفُرس الذين في هَجَرْ وكذلك

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوية ـ ص١٤٤ و١٥٩.

اليهود، فكان المنذر بن ساوي يتولى قبض الجزية منهم. وجاء في كتاب الوثائق عن طبقات ابن سعد والرسائل النبوية أنه:

أ ـ «كتب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى: أما بعد: فإني قد بعثتُ إليك قُدامة وأبا هريرة. فادفع إليهما ما اجتمع عندك من جزية أرضك. والسلام، وكتب أُبَيّ».

ب ـ «وكتب رسول الله ﷺ إلى العلاء بن الحضرمي: أما بعد: فإنّي قد بعثتُ إلى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية، فعجّله بها. وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور. والسلام. وكتب أُبيّ».

فقام العلاء ببعث الجزية وما اجتمع وفاض من الصدقة إلى رسول الله ﷺ مع أبي هريرة في أواخر سنة ٩ هجرية.

ـ ومن أنباء العلاء في ولايته البحرين لرسول الله ﷺ ما ذكره الهمداني في الإكليل بأن العلاء: «أول من نقش في خاتم الخلافة: (محمد رسول الله» وقال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: «كان رسول الله ﷺ قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، ثم ولاه على البحرين إذْ فتحها الله عليه. . وهو أول من نقش خاتم الخلافة»(١). وقد تقدم قول الهمداني أن العلاء «أغزاه رسول الله ﷺ البحرين والمشقر» وقول الأكوع: إن حصن المشقر ومدينة هجر (فتحهما العلاء بن الحضرمي) ويتفق ذلك مع قول القرطبي أن العلاء (ولاه النبي ﷺ على البحرين إذْ فتحها الله عليه). وكان العلاء أول من نقش في خاتم الخلافة ـ وهو خاتم الولاية ـ (محمد رسول الله).

وجاء في الوثائق عن ابن ماجه وابن كثير والطبقات: «إن العلاء بن الحضرمي كتب إلى رسول الله ﷺ من البحرين في الحائط يعني البستان يكون بين الإخوة، فيسلم أحدهم؟ فأمره أن يأخذ العشر ممن أسلم، والخراج (يعني ممن لم يسلم). وفي رواية ابن ماجه عن العلاء بن الحضرمي قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى البحرين، أو إلى هجر، فكنتُ آتى الحائط يكون بين الإخوة يُسلم أحدهم، فآخذ من المسلم العشر، ومن المشرك الخراج.

وجاء في الوثائق عن «سنن أبي داود ـ كتاب الأدب باب فيمن يبدأ بنفسه في الكتاب ـ عن أحمد بن حنبل، عن هشيم. . إن العلاء بن الحضرمي كان عامل النبي ﷺ على البحرين، فكان إذا كتب إليه ﷺ بدأ بنفسه. وفي رواية: أنه كتب إلى النبي ﷺ فبدأ بنفسه».

---

(١) الاستيعاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ جـ٣ ص١٤٧.

ـ وفي السنة التاسعة كان الإسلام قد انتشر في أرجاء أرض البحرين، بَرّها وبحرها، على يد العلاء، وذلك باستثناء الفُرس المجوس الذين يؤدون الجزية في هجر وما إليها، ولم تذكر الروايات شيئاً عن «المكعبر صاحب كسرى وهو المرزبان فيروز بن جشيش مرزبان الزارة، والذين معه من الحاميات الفارسية في الزارة والسابون والغابة والساحل إلى جزيرة دارين» فإما أنهم قبلوا بأداء الجزية ثم امتنعوا بعد وفاة رسول الله ﷺ وإما أنهم كانوا ما يزالون تابعين لدولة الفُرس المجوسية ويحتلون تلك المنطقة، ولم يفتح العلاء حرباً معهم، وقد ذكر البلاذري بسنده عن قتادة. قال: «لم يكن بالبحرين في أيام رسول الله ﷺ قتال؛ ولكن بعضهم أسلم ـ وهم العرب ـ وبعضهم صالح العلاء»[(١)].

وقد بلغت الجزية وفائض الصدقات والعشور بالبحرين مبلغاً كبيراً، فذكر البلاذري من طريق سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: «بعث العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ مالاً من البحرين يكون ثمانين ألفاً، ما أتاه أكثر منه قبله ولا بعده، فأعطى منه العباس عَمّهُ»[(١)]

ـ وفي شهر ربيع الأول سنة ١١هـ توفي رسول الله ﷺ والعلاء في البحرين أميراً عليها، حيث ذكر ابن حجر العسقلاني في الإصابة أن العلاء بن الحضرمي: «ولاه رسول الله ﷺ على البحرين، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عليها، فأقرّه أبو بكر»[(٢)] وذكر البلاذري أن «قوم يقولون: إن العلاء كان على ناحية من البحرين منها القطيف، وأن أبان بن سعيد بن العاص كان على ناحية أخرى منها الخط»[(١)] وأياً كانت المنطقة التي كان فيها العلاء عند وصول نبأ وفاة رسول الله ﷺ فقد كان العلاء هو أمير البحرين، وكان أبان بن سعيد عاملاً على الصدقة، ثم توجه العلاء إلى أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة، لأن أكثر عمال رسول الله ﷺ توجهوا إلى أبي بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ واستخلاف أبي بكر، ومنهم معاذ بن جبل أمير اليمن، والعلاء بن الحضرمي أمير البحرين، وعمرو بن العاص عامل عُمان، وغيرهم.

وأثناء مكوث العلاء في المدينة المنورة انتقضت الأمور في البحرين، ووقع ما تسميه الروايات (ردة أهل البحرين) وعندئذٍ حدث ما يذكره البلاذري قائلاً: «خرج أبان بن سعيد من البحرين فأتى المدينة، فسأل أهل البحرين أبا بكر الصديق أن يرد العلاء عليهم، ففعل»[(١)].

* * *

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٩٢.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٤٩٨.

ولاية العلاء للبحرين في خلافة أبي بكر وعمر

أثناء بقاء العلاء بن الحضرمي بالمدينة المنورة في أوائل خلافة أبي بكر، انتقض الأمر بالبحرين حيث وقع ما تسميه الروايات (ردة أهل البحرين)، ويتمثل ما حدث في أن قبيلة ربيعة وغيرهم من العرب (نَصبوا المنذر الغرور بن النعمان بن المنذر، فأقاموه ملكاً بالبحرين كما كان أبوه النعمان بن المنذر في الحيرة، وخرج الحطم بن ربيعة أخو بني قيس بن ثعلبة حتى نزل بين القطيف وهجر، وأرسل الحطم إلى المنذر الغرور وقال: اثبتْ فإن ظفرت ملكت بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة. والحطم هو شريح بن ضيعه من ولد قيس بن ثعلبة من ربيعة، وسُميّ الحطم بقوله:

قد لفّها الليلُ بسواق حطم

فبعثه المنذر الغرور إلى جواثا، فحاصر الحطم حصن جواثا الذي تحصن فيه جماعة من المسلمين، منهم عبد الله بن حذف الكلابي القائل:

ألا أبْلِغْ أبا بكرٍ ألوكاً[١] وفتيانَ المدينة أجمعينا
فهل لك في شباب منك أمسوا أسارى في جواثا مُحصرينا

وجاء في تاريخ ابن خلدون أن «عبد القيس وبكر بن وائل وغيرهم من أحياء ربيعة ارتدوا بعد الوفاة، وكذا المنذر بن ساوى من بعدها بقليل، فأما عبد القيس فردهم الجارود بن المُعلى وكان قد وفد وأسلم ودعا قومه فأسلموا، فلما بلغهم الوفاة ارتدوا وقالوا: لو كان نبياً ما مات، فقال لهم الجارود: تعلمون أن لله أنبياء من قَبْلِه لم تروهم وتعلمون أنهم ماتوا ومحمد ﷺ مات، ثم تشهد ـ نطق بالشهادتين ـ فتشهدوا معه وثبتوا على إسلامهم، وخلوا بين سائر ربيعة وبين المنذر بن ساوى والمسلمين»[٢] والثابت أن المنذر بن ساوى كان قد توفي، قال ابن هشام في السيرة النبوية «كان رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوى، فأسلم فحسن إسلامه، ثم هلك بعد رسول الله ﷺ قبل ردَّة أهل البحرين والعلاء عنده أميراً لرسول الله ﷺ على البحرين»[٣] وذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ، أي في بداية خلافة أبي بكر، وكان العلاء ما يزال بالبحرين، ثم سار العلاء إلى المدينة المنورة، وبقي فيها، وعندئذٍ انتقض الأمر في البحرين،

---

(١) ألوكاً: الألوكة: الرسالة.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٧٦.
(٣) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٤٣.

وقد استدرك ابن خلدون الرواية الأولى قائلاً: «لما كانت الوفاة ـ ومن بعدها بقليل ـ ارتدت ربيعة ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر وكان يُسمى الغرور، فأقاموه ملكاً كما كان قومه بالحيرة، وثبت الجارود وعبد القيس على الإسلام، واستمرت بكر بن وائل على الردة»[1] وقال البلاذري «ارتد سائر من بالبحرين من ربيعة خلا الجارود ومَنْ تبعه من قومه. وأمّروا عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر» قال ابن خلدون «وخرج الحطم بن ربيعة حتى نزل بين القطيف وهجر، وبعث إلى دارين فأقاموا ليجعل عبد القيس بينه وبينهم، وأرسل إلى المغرور بن سويد أخي النعمان بن المنذر، وقال له: اثبتْ فإن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة، وبعثه إلى جواثا، فحاصر المسلمين بجواثا»[1] واستتب الأمر للمنذر الغرور في (هجر) و(حصن المشقر) و(القطيف) و(الخط) وغيرها، ويبدو أن الفرس المجوس تعرضوا إلى ما يشبه الإجلاء من بعض المناطق، فقد ذكر البلاذري أنه «انضم إلى مرزبان الزارة، مجوسٌ كانوا تجمعوا بالقطيف، فلحقوا بالزارة» وقد تزامنت أحداث البحرين مع ثورة قيس بن مكشوح المرادي في صنعاء وإجلاء أغلب الفُرس الأبناء من اليمن براً وبحراً، وما أشارت إليه الروايات بأن الأمر استطار كالحريق من صنعاء إلى حضرموت وإلى البحرين ـ وكان ذلك في شهر رجب ١١هـ ـ ويبدو أن أغلب أرجاء البحرين دانوا للمنذر الغرور بن النعمان بن المنذر، وملكوه على بلاد البحرين.

* * *

واستجاب الخليفة أبي بكر الصديق لِمَا أشار إليه البلاذري قائلاً: «سأل أهلُ البحرين أبا بكر أن يرد العلاء عليهم، ففعل». والظاهر أن العلاء لم يُعزل، وإنما بقي فترة بالمدينة، مما ساهم في وقوع تلك الأحداث التي تطورت إلى الردة، أو إلى التمرد والخروج على الدولة والخليفة، فعقد أبو بكر لواء الإمارة للعلاء بن الحضرمي فانطلق العلاء في جماعة من المسلمين إلى البحرين وفيما هو في الطريق حدثت الحادثة التي ذكرها الحافظ ابن كثير بأن العلاء بن الحضرمي «كان من سادات الصحابة العلماء العُباد مجابي الدعوة، اتفق له في هذه الغزوة أنه نزل منزلاً فلم يستقر الناس على الأرض حتى نفرت الإبل بما عليها من زاد الجيش وخيامهم وشرابهم، وبقوا على الأرض ليس معهم شيء سوى ثيابهم ـ وكان ذلك ليلاً ـ ولم يقدروا منها على بعير واحد، فركب الناس من الهَمّ والغَمِّ ما لا يُحد ولا يُوصف، وجعل بعضهم يوصي إلى بعض، فنادى منادي العلاء فاجتمع الناس إليه، فقال

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٧٦.

العلاء: أيها الناسُ ألستم في سبيل الله، ألستم أنصار الله؟ قالوا: بلى. قال: فأبشروا، فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم. ونودي بصلاة الصبح حين طلع الفجر، فصلى بالناس، فلما قضى الصلاة جثا على ركبتيه وجثا الناس، ونصب في الدعاء ورفع يديه وفعل الناس مثله حتى طلعت الشمس، وجعل الناس ينظرون إلى سراب الشمس يلمع مرة بعد أخرى وهو يجتهد في الدعاء، فلما بلغ الثالثة إذْ قد خلق الله إلى جانبهم غديراً عظيماً من الماء القراح، فمشى ومشى الناس إليه فشربوا واغتسلوا، وأقبلت الإبل من كل فج بما عليها. لم يفقد الناس من أمتعتهم سلكاً، فسقوا الإبل عللاً بعد نهل، فكان هذا مما عاين الناسُ من آيات الله في هذه السَرِيّة»[١].

ـ وما إن وصل العلاء إلى مشارف أرض ولاية البحرين حتى أقبل رؤساء ورجال قبائل اليمامة والبحرين وانضموا إليه، وفي ذلك قال ابن خلدون: «جاء العلاء بن الحضرمي لقتال أهل الردة بالبحرين، ومَرَّ باليمامة فاستنفر ثمامة بن أثال في بني حنيفة. ثم مرَّ ببلاد بني تميم فاستقبله بنو الرباب وبنو عمرو.. فلما رأى قيس بن عاصم تَلَقِي الرباب وبني عمرو للعلاء، قدم وجاء بالصدقات إلى العلاء وخرج معه للقتال.. فسار مع العلاء من بني تميم مثل عسكره ونزل هَجَرْ»[٢].

وقال ابن كثير أن أهل البحرين «بعث أبو بكر الصديق إليهم العلاء بن الحضرمي، فلما دنا مِنْ البحرين جاء إليه ثمامة بن أثال في محفل كبير، وجاء كل أمراء تلك النواحي فانضافوا إلى جيش العلاء بن الحضرمي، فأكرمهم العلاء ورحب بهم وأحسن إليهم»[١] والمقصود بأمراء تلك النواحي رؤساء القبائل العشائر في اليمامة وأغلب أرض البحرين، ومنهم عبد القيس برئاسة الجارود بن المعلى، وعشائر بكر بن وائل وغيرهم، فدخل العلاء مدينة هَجْر بدون قتال.

ـ وانحصرت جماعة (الردة) في (جواثا) بقيادة الحطم بن ضبيعة ومعه بنو قيس بن ثعلبة ومن اجتمع إليه في جواثا، فسار العلاء إلى جواثا فحاصرهم، «فبينما المسلمون في الليل إذْ سمع العلاء ضوضأة شديدة ـ أي جلبة وأصواتاً عاليه ـ فقال: مَنْ رجلُ يكشفُ لنا خبر هؤلاء؟ فقام عبد الله بن حذف فدخل إليهم فوجدهم سُكارى، فرجع إلى العلاء فأخبره، فركب العلاء من فوره ومعه جيشه، فكبسوا أولئك السكارى، وفرّوا هراباً فمُترِدٍ وناجٍ ومقتول ومأسور، وكان الحطم

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٦ ص٣٢٩.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٧٦ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص٩٥.

نائماً، فقام دهشاً وركب جواده فانقطع ركابه، فجاء رجل من أصحاب العلاء فضرب رجله فقطعها، فقال له الحطم: أجهزْ عليّ، فقال: لا أفعل، فوقع صريعاً كلما مرّ به أحدُ يسأله أن يقتله، فيأبى، ثم قتله قيس بن عاصم فلما وجد رجله مقطوعة ندم على قتله». وقال البلاذري: «حاصرهم العلاء حتى فتح جواثا، وقتل الحطم، واسم الحطم شريح بن ضبيعة، وفي قتله قال مالك بن ثعلبة العبدري:

تركنا شريحاً قد عَلَتْهُ بصيرةٌ كحاشية البُرْد اليماني المُحَبّرِ

ـ وأما المنذر الغرور بن النعمان بن المنذر، فكان قد غادر مدينة هَجَرْ وتحصن بالمشقر ـ وربما كان أصلاً في حصن المشقر ـ وإن الذي كان في (هجر) ثم في مدينة (الخط) هو المغرور بن سويد بن المنذر، وقد خلط الرواة بينهما، قال ابن خلدون: (وأُسِّر المغرور بن سويد بن المنذر، وقال للعلاء: أجرّني، فقال له العلاء: أنت غررت بالناس؟ فقال: لكني أنا المغرور. فأُرسل ـ أي أطلق سراحه ـ وأقام بهجر، ويقال أن المغرور اسمه وليس بلقب) وقال البلاذري أن المنذر الغرور لحق بمدينة الخط، «فأتاها العلاء ففتحها وقتل المنذر، ويقال ـ وهو الأصوب ـ إن المنذر نجا فدخل حصن المشقر، وأرسل الماء حوله، فلم يُوصل إليه حتى صالح على أن يُخلي المشقر فخلاها.. وقومُ يقولون: إنه استأمن ثم هرب فَقُتل»[1] وبتلك المواجهة الطفيفة انتهى طموح المنذر الغرور وطموح الحطم إلى الحكم، واستتب الأمر في ولاية البحرين على يد العلاء بن الحضرمي.

فتح العلاء للسابون والغابة والزارة

في سنة ١٢هـ بدأ العلاء في مواجهة الوجود الفارسي المجوسي بمناطق السابون والغابة والزارة وجزيرة دارين، وقد ذكرت الروايات ذلك في إطار محاربة أهل الردة مما يعني أن أولئك الفرس كانوا قد صالحوا العلاء على أداء الجزية في عهد رسول الله ﷺ ثم امتنعوا عن أداء الجزية وخرجوا عن الطاعة في خلافة أبي بكر، ولعل الأصوب أن تلك المناطق كانت تحت حكم الفرس والدولة الفارسية ولم يسبق امتداد سلطة الإسلام عليها، فالفُرس المجوس الذين صولحوا على أداء الجزية هم الذين كانوا بمدينة (هَجَرْ) وحصن (المشقر) إلى مدينة (القطيف) ولم تشمل تلك المصالحة القوات والحامية الفارسية في الزارة والغابة والسابون ودارين، وكان عامل وقائد الفُرس بتلك المناطق المرزبان فيروز بن جشيش وتُسميه العرب (المكعبر).

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٧٦ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص٩٥.

قال البلاذري: «تحصن المكعبر صاحب كسرى، واسمه فيروز بن جشيش، في الزارة، وانضم إليه مجوس كانوا تجمعوا بالقطيف وامتنعوا عن أداء الجزية، فحاصرها العلاء»، وكانت هناك منطقتان غير الزارة يسيطر عليها الفُرس وهي منطقة السابون وقراها ومنطقة مدينة الغابة بالإضافة إلى جزيرة دارين، وقد بدأ العلاء في شن الغارات على الحاميات الفارسية في السابون وفي الغابة أثناء محاصرته للزارة، وبينما هو في ذلك توفي أبو بكر وتولى الخلافة عمر بن الخطاب في جمادى الثاني ١٣هـ.

* * *

ولما تولى عمر الخلافة أقرّ العلاء بن الحضرمي أميراً على ولاية البحرين، فمضى العلاء في العمل على تحرير تلك المناطق التي ما تزال تحت الاحتلال الفارسي في الخليج العربي وهي السابون والغابة والزارة ودارين، قال البلاذري: «أقام العلاء على الزارة فلم يفتحها في خلافة أبي بكر وفتحها في أول خلافة عمر، كما فتح العلاء السابون ودارين في خلافة عمر عنوة، وهناك موضع يعرف بخندق العلاء».

وقد بدأ العلاء بفتح السابون، وحفر خندقاً لجيشه حول السابون، ثم اقتحم السابون فهزم الفُرس وفتحها، ثم غزا الحامية الفارسية في مدينة الغابة فقاتلوه قتالاً شديداً فقتلهم العلاء والمسلمون، وبذلك تم تحرير وفتح السابون والغابة ـ في حوالى شهر رجب ١٣هـ ـ وفي ذلك قال المعمر بن المثنى:

«غزا العلاء قرى السابون في أول خلافة عمر ففتحها، ثم غزا مدينة الغابة وقَتَل مَنْ بها من العجم، ثم أتى الزارة وبها المكعبر فيروز بن جشيش فحصره».

* * *

وكانت (الزارة) المعقل الرئيسي لقوات الفُرس بالخليج ومقر المكعبر فيروز بن جشيش صاحب كسرى ـ أي نائبه وقائد جيشه المتمركز في منطقة الخليج ـ وقد لحق بالمكعبر في الزارة الفُرس المجوس الذين كانوا بالقطيف وهَجَرْ والمشقر، وفلول الحاميات الفارسية التي انهزمت في السابون والغابة، فأتى العلاء إلى الزارة وحاصرها، ودارت على مشارف الزارة ـ أثناء الحصار ـ معركة طلب فيها المرزبان الفارسي المبارزة فخرج إليه البراء بن مالك الأنصاري، وفي ذلك ذكر البلاذري أنه: «دعا مرزبان الزارة إلى البراز، فبارزه البراء بن مالك فطعنه فوق صلبه فصرعه، ثم نزل فأخذ سلب المرزبان وسواري ذهب في يديه ويلمقاً كان

عليه ومَنطَقْه، فبلغ قيمة السلب أربعين ألف دينار، فَخَمَّسَهُ عمر لكثرته، وكان أول سلب خُمس في الإسلام»[١].

وتحصن الفُرس داخل الزارة ـ بعد مقتل المرزبان ـ وحاصرهم العلاء، «ثم خرج رجل من الزارة مُستأمِناً ودلّ العلاء على شرب القوم وهي العين الخارجة من الزارة، فسَدّها العلاء، فلما رأوا ذلك صالحوه على تسليم الزارة، وأن له ثلث المدينة وثلث ما فيها من ذهب وفضة ونصف ما كان لهم خارجها» وبذلك الصلح تم للعلاء فتح الزارة، ولجاء المكعبر فيروز وأغلب جنوده إلى جزيرة دارين، وكان فتح الزارة في شعبان أو شوال سنة ١٣ هجرية[٢] وبذلك باتت جزيرة (دارين) آخر معقل للإمبراطورية الفارسية في الخليج العربي والجزيرة العربية، وعقد العلاء بن الحضرمي العزم على تحرير وفتح دارين.

* * *

فَتح العلاء بن الحضرمي لجزيرة دارين

كانت جزيرة دَارِينْ جزيرة كبيرة ذات أهمية استراتيجية وتجارية كبيرة في الخليج العربي، فبينما كانت منطقة الخليج تُسمى (البحرين) كانت جزيرة دارين تُسمى (ميناء البحرين)، قال الطبري: «وكان ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر في بعض الحالات»[٣] وقد تكون (دارين) هي جزيرة (البحرين) في الخليج العربي حالياً، وكانت دارين توصف بميناء بلاد البحرين قديماً لأن السفن تصل إليها بالتجارة من فارس وبلاد الهند ثم تُنقل بزوارق صغيرة إلى (هَجَرْ) ومناطق ساحل الخليج، وقد ذكر (دارين) الشاعر الجاهلي أعشى قيس حيث قال:

يَمُرّون بالدهناء خفافاً عيابهم ويَرْجَعْنَ مِنْ دارين بَجرٌ الحقائبِ

ولما افتتح العلاء بن الحضرمي السابون والزارة انسحب فلول الفرس إلى جزيرة دارين، فكانت دارين آخر معقل للفرس في الخليج العربي، فانعقد عزم

(١) المرزبان هذا ليس المكعبر فيروز، وقد يكون هو (الهرمزان) الذي كان عامل كسرى في حصن المشقر فلما فتحها العلاء انسحب إلى الزارة.

(٢) تزامن انتصار العلاء وفتح الزارة مع موقعة الجسر بين العرب والمسلمين وبين الفرس في بلاد الحيرة بالعراق، وكانت موقعة الجسر في شعبان ١٣هـ وأصيب فيها المسلمون بخسائر كبيرة فانهزموا وانسحبوا مع قائدهم المثنى بن حارثة، فبعث عمر بن الخطاب الزعيم اليماني جرير بن عبد الله البجلي فألحق جرير هزيمة كبيرة بالفرس في موقعة البويب التي تزامنت مع فتح العلاء لجزيرة دارين.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ جـ٢ ص٢٦٠.

العلاء على فتحها، فاستنفر العرب المسلمين إلى ذلك فأجابوه، فانطلق بهم إلى الساحل ليسيروا بالزوارق من الساحل إلى دارين، وفي ذلك قال ابن كثير: «قال العلاء للمسلمين: اذهبوا بنا إلى دارين لنغزو مَنْ بها مِنْ الأعداء، فأجابوا إلى ذلك سريعاً، فسار بهم حتى أتى ساحل البحر ليركبوا في السفن، فرأى أن الشقة بعيدة لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهبُ أعداء الله..» وقال ابن خلدون «ندب العلاء الناس إلى دارين وأن يستعرضوا البحر، فارتحلوا واقتحموا البحر»، وذلك أنه كانت هناك مخاضة قليلة المياه بين الساحل ودارين، وهي مخاضة «على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل». وقد دَلّ العلاء على تلك المخاضة رجل من بكر بن وائل يقال له كراز، وفي ذلك قال البلاذري: «دَلّه كراز البكري على المخاضة إلى دارين، فتقحم العلاء في جماعة من المسلمين البحر إلى دارين».

* * *

وقد تَهَيب المسلمون اقتحام المفاضة البحرية بخيولهم وإبلهم حينما دعاهم العلاء إلى ذلك، فاقتحم العلاء بفرسه المخاضة البحرية وهو يدعو الله عزّ وجلّ، وعندئذٍ لحق به المسلمون بخيولهم وإبلهم يسيرون داخل المفاضة البحرية خلف العلاء وهُمْ يدعون الله تعالى بثقةٍ وبإيمان صادق لا يتزعزع، فقد ذكر الحافظ ابن كثير أنه: «اقتحم العلاء البحر بفرسه وهو يقول: يا أرحم الراحمين، يا حكيم يا كريم، يا أحد، يا صمد، يا حي يا محيي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت يا ربنا. وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا، ففعلوا ذلك، فأجاز بهم الخليج بإذن الله يمشون على مثل رملة دمثة فوقها ماء لا يغمر أخفاف الإبل ولا يصل إلى ركب الخيل، ومسيرته للسفن يوم وليله». وقال ابن خلدون: «ندب العلاء الناس إلى دارين وأن يستعرضوا البحر، فارتحلوا، واقتحموا البحر على الظُهر ـ أي الإبل والخيول ـ وكلهم يدعوا: يا أرحم الراحمين يا كريم يا حليم يا أحد يا صمد يا حي يا محيي الموتى يا حيّ يا قيوم لا إله إلا أنت ربنا. فأجازوا الخليج يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل، في مسيرة يوم وليلة»[1] فلما بلغوا جزيرة دارين أمرهم العلاء بمهاجمة الحاميات الفارسية من ثلاث جهات فانطلقوا إليها وفي مقدمتهم العلاء بن الحضرمي وعرفجة بن هرثمة الأزدي وعفيف بن المنذر العبدي وكراز البكري، قال البلاذري: «فلم يشعر أهل دارين إلا بالتكبير، فخرجوا، فقاتلهم المسلمون من ثلاثة أوجه، فقتلوا مقاتلتهم

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٦ ص٣٢٩ ـ تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٧٦.

وحووا الذراري والسبيّ، فلما رأى المكعبر ذلك أسلم. وقال كراز البكري في ذلك:

هاب العلاء حياض البحر مقتحماً فخضتُ قُدماً إلى كفار دارينا»[١]

وكان عفيف بن المنذر ممن شهد ذلك الفتح مع العلاء بن الحضرمي، فقال في ذلك:

أَلَمْ تر أنّ اللّهَ ذَلّلَ بَحْرَه وأنزل بالكفار إحدى الجلاجلِ
دَعَوْنَا الذي شَقّ البحارَ فجاءنا بأعجب مِنْ فَلْقِ البحارِ الأوائل

وقد ذكر علماء الأمة ومنهم البخاري وابن كثير والقرطبي أن العلاء كان مجاب الدعوة وأن ذلك المسير فوق مياه المخاضة البحرية في الخليج إلى دارين كان من الكرامات التي عاينها الناس في ذلك الفتح، قال ابن كثير: وكان مع المسلمين في هذه المشاهد والمواقف التي رأوها من أمر العلاء وما أجرى الله على يديه من كرامات، رجلٌ من أهل هجر راهب، فأسلم حينئذٍ، فحسن إسلامه وكان الصحابة يسمعون منه»[٢].

وذكر المؤرخون ومنهم الطبري وابن خلدون أن الغنائم التي غنمها المسلمون في فتح دارين كانت من أعظم الغنائم، حيث «قَسّم العلاء الغنائم فبلغ نفل الفارس ـ أي الراكب ـ ستة آلاف، والراجل ألفين مع كثرة الجيش»، وذلك سوى خمس الغنائم الذي بعثه العلاء إلى الخليفة عمر بن الخطاب مع نباء فتح دارين، وكانت جزيرة دارين آخر قاعدة للإمبراطورية الفارسية في الخليج العربي، وبتحريرها وفتحها على يد العلاء بن الحضرمي خفقت رايات الإسلام والحرية والعروبة في أرجاء منطقة الخليج العربي، وتم بذلك قول رسول الله ﷺ لما ولّى العلاء على البحرين:

«إن العلاء بن الحضرمي أمين رسول الله على برّها وبحرها»[٣].

وفي ذات الفترة التي فتح فيها العلاء جزيرة دارين، حقق جيش عربي إسلامي بقيادة الزعيم اليماني الصحابي جرير بن عبد الله البجلي أول انتصار كبير على جيوش الفُرس بالعراق وذلك في موقعة البويب والنخيلة بإقليم الحيرة في رمضان ١٣ هجرية، فكانت فتوح العلاء في الخليج وفتوح جرير في الحيرة بالعراق فاتحة الانتصارات العربية الإسلامية التي أدت إلى سقوط الإمبراطورية الفارسية المجوسية في بضع سنين.

* * *

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٩٦.
(٢) البداية والنهاية ـ جـ٦ ص٣٢٩.
(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوية ـ ص١٤٩.

فتح أول جزيرة فارسية . . بحراً

وكان العلاء بن الحضرمي أول من قام بتكوين أسطول بحري حربي يضم عدداً من السفن والمراكب الحربية العربية الإسلامية، فقد كان العلاء يفكر في غزو وفتح بلاد فارس بحراً بعد استكمال تكوين الأسطول.

فقام العلاء ـ في أوائل سنة ١٤هـ بتوجيه أول غزوة بحرية في الإسلام من ساحل الخليج إلى جزيرة فارسية بالقرب من الساحل الفارسي بقيادة الأمير اليماني القائد عرفجة بن هرثمة البارقي الأزدي فانطلق عرفجة بالسفن وفتح تلك الجزيرة، وقد أشار إلى ذلك الفتح البلاذري في فتوح البلدان قائلاً:

«كان العلاء بن الحضرمي وهو عامل عمر بن الخطاب على البحرين، وَجَّهَ عرفجة بن هرثمة البارقي من الأزد، ففتح جزيرة في البحر مما يلي فارس. ثم كتب عمر إلى العلاء أن يمدّ به عتبة، ففعل»[١].

وكان عمر بن الخطاب قد وَجَه الصحابي عتبة بن غزوان في جيش مِنْ مستنفري أهل اليمن والبحرين إلى منطقة البصرة بالعراق وفيهم أبو موسى الأشعري وسبرة بن أبي رهم وحذيفة بن محصن الحميري، قال ابن خلدون: «نزل عتبةُ البصرة في شهر ربيع سنة ١٤هـ»[٢] وذكر ابن كثير أنه: «كتب عمر إلى عتبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة قائلاً: وقد كتبتُ إلى العلاء يمدك بعرفجة بن هرثمة فإذا قدم عليك فاستشره وقرّبه». وكذلك كتب عمر إلى العلاء بتوجيه عرفجة مدداً لعتبة في البصرة، فاستدعاه العلاء من الجزيرة الفارسية التي افتتحها، وبعثه ـ مع قوة من جند ولاية البحرين ـ إلى عتبة في البصرة، وذلك فيما بين شهر ربيع وشهر رجب سنة ١٤ هجرية. وفي تلك الفترة أخذ عمر في بعث الإمدادات من مستنفري اليمن من البصرة ومن الشام إلى القادسيّة وولّى على الجيش الإسلامي بالقادسية سعد بن أبي وقاص، وبينما كانت الأنظار تتطلع إلى القادسية في إقليم الحيرة بالعراق كان العلاء يتهيأ لغزو بلاد فارس عن طريق البحر.

* * *

غزو قوات العلاء لبلاد فارس . . بحراً

لقد مضى العلاء في تكوين الأسطول البحري العربي الإسلامي بالخليج العربي لتنفيذ فكرة فتح بلاد فارس عن طريق البحر، وفي أوائل سنة ١٥ هجرية،

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٧٨.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص١٠٣.

قام العلاء بتقسيم السفن والقوات إلى ثلاث فِرق، الأولى بقيادة الجارود بن المعلى، والثانية بقيادة السوار بن همام، والثالثة بقيادة خليد بن المنذر، وعقد لهم العلاء ألوية القيادة على متن السفن والمراكب في ساحل الخليج، وحدد لهم الهدف وهو فتح إقليم اصطخر وكان من أهم أقاليم بلاد فارس، فانطلقوا بالسفن والمراكب عابرين الخليج إلى بلاد فارس، فكان ذلك الجيش أول جيش إسلامي يغزو في البحر، وكان العلاء يرى أن ذلك من صلاحياته لأنه أمير أرض البحرين ـ منطقة الخليج ـ برَّها وبحرها، فلم ير حاجة إلى استئذان الخليفة عمر بن الخطاب للقيام بذلك الغزو البحري لبلاد فارس، وفي ذلك قال ابن خلدون:

«نَدَب العلاء بن الحضرمي الناس إلى فارس فأجابوه، وفَرّقهم أجناداً بين الجارود بن المعلى، والسوار بن همام، وخُليد بن المنذر، وأَمَّرَه على جميعهم، وحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر وكان عمر يَنْهَىٰ عن ذلك خوف الغرق».

وقال ابن كثير: «. . فحملهم العلاء في البحر، وذلك بغير إذن عمر، وكان عمر يكره ذلك لأن رسول الله ﷺ وأبا بكر ما أغزيا فيه المسلمين، فعبرت الجنود من البحرين إلى فارس».

* * *

وقد حققت قوات العلاء نجاحاً بوصولها إلى ساحل فارس ونزلت القوات من السفن ودخلت أرض فارس، ولم يغرق أحدٌ من المسلمين، ثم حققت تلك القوات انتصاراً أكيداً بدخولهم إقليم اصطخر ففتحوا مدن ونواحي إقليم اصطخر حتى بلغوا منطقة (طاوس) فيما يلي ذلك الإقليم، بل إن بعض حكام مناطق اصطخر صالحوا قادة جيش العلاء على أداء الجزية، ويدل على ذلك ما جاء في البدية والنهاية عن فتح اصطخر سنة ٢٣هـ حيث قال ابن كثير: «افتتح المسلمون اصطخر، وهذه المرة الثانية، وكان أهلها قد نقضوا العهد بعدما كان جند العلاء الحضرمي افتتحها حين جاوزوا في البحر والتقوا هُمْ والفرس في مكان يُقال له طاوس»[1].

ويبدو أن قادة جند العلاء لم يتوقفوا عند تنفيذ تعليمات العلاء بفتح منطقة الساحل وما يليها من إقليم اصطخر ـ وهو ما تم تحقيقه بنجاح ـ ولكن قادة الجند اندفعوا وتوغلوا حتى بلغوا منطقة (طاوس) فباتوا بين إقليمين هما إقليم فارس وإقليم إصطخر بحيث «تداعى عليهم أهل فارس من كل ناحية» فقد أتاهم جند وأهل فارس بقيادة الهربذ ـ من إقليم فارس ـ وعندئذ نقض أهل اصطخر العهد

(١) البداية والنهاية ـ جـ ٧ ص١٣٠.

واحتشدوا بقيادة المرزبان شهرك، فالتحم جند العلاء بالجيش الفارسي بقياد (الهربذ ومعه أهل فارس) في (طاوس) بينا خرج (شهرك في أهل إصطخر، فحالوا بينهم وبين السفن)، قال ابن خلدون: «فخاطب خليد بن المنذر المسلمين وقال: إنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب، ثم ناهدوهم واقتتلوا بطاوس، وقُتِل الجارود والسوار، وأمر خُليد أصحابه أن يقاتلوا رَجَّالَةً، وقُتِلَ من الفُرس مقتلة عظيمة، ثم خرج المسلمون نحو البصرة، وأخذ الفُرس عليهم الطرق، فعسكروا وامتنعوا». وكانوا قد تراجعوا من (طاوس) إلى اصطخر والساحل للعودة إلى سفنهم، قال ابن كثير: «لَمْ يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً، ووجدوا شهرك في أهل إصطخر قد أخذوا على المسلمين الطرق، فعسكروا وامتنعوا عن العدو».

وانسحبت ورجعت بعض السفن إلى العلاء بن الحضرمي، وأخبروه بما حدث وبان الجنود قد عسكروا بقيادة خليد بن المنذر في مكان منيع بين ساحل اصطخر والبصرة، فبعث العلاء بالخبر إلى عمر بن الخطاب لكيّ يمدهم بقوة من جيش المسلمين في البصرة، فأصدر عمر تعليماته إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة «بإنفاذ جيش إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا، فأرسل عتبة اثني عشر ألفاً فيهم عرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، وعاصم بن عمرو، والأحنف بن قيس، وعلى الجميع سبرة بن أبي رهم، فَسَاحَلَ بالناس حتى لقوا خليداً بن المنذر والعسكر، وقد تداعى عليهم أهل فارس من كل ناحية، فاقتتلوا، فانهزم المشركون وقُتلوا، ثم انكفاء المسلمون بما أصابوا من الغنائم، وكتب إليهم عتبة بالرجوع إلى البصرة، فرجعوا إليها غانمين».

* * *

وفاة العلاء.. رضي الله عنه

في أعقاب ذلك الغزو البحري لبلاد فارس انتهت ولاية العلاء الحضرمي للبحرين، فقد أخذ عليه عمر بن الخطاب قيامه بذلك الغزو بدون إذنه، فأعفاه من ولاية البحرين، قال ابن كثير: «عزله عمر عن البحرين وولى مكانه أبا هريرة الدوسي»، وقال البلاذري.

«كتب عمر بن الخطاب إلى العلاء بن الحضرمي وهو عامله على البحرين يأمره بالقدوم عليه.. فلما قدم عليه بالمدينة ولاه البصرة مكان عتبة بن غزوان، فلم يصل إليها حتى مات وذلك في سنة أربعة عشر أو في أول سنة خمسة عشر». ولم يكن توليته على البصرة عند قدومه إلى عمر بالمدينة مباشرة فقد رجع من المدينة واختار الإقامة في منطقة (توج) بأرض البحرين، ثم كتب إليه عمر «أن صرُ

إلى عتبة بن غزوان فقد وليتك عمله»، فسار العلاء قاصداً البصرة ومعه جماعة من أصحابه، فتوفي بموضع يُقال له تِياسْ ـ بكسر أوله وبالسين المهملة ـ وهو موضع من بلاد بكر بن وائل«قال ابن مقبل وذكر ظبيةً: أخلى تياس عليها فالبراعيم»[١].

قال الحسن الهمداني: «وكانت وفاة العلاء بن الحضرمي بموقع يقال له تياس، وهو يريد البصرة من البحرين، فلما حضرته الوفاة قال لأصحابه: إذا فرغتُ فهيلوا عليّ هذا الكثيف، وأمضوا فإنكم في أرض بكر بن وائل.. فلما قضى هالوا عليه الكثيب.. والكثيب الرمل الكثيف ـ فقال بعض من هال عليه: والله لتكشفن عنه الرياح أو السباع، فأراهم رأيه أن يحفروا له قبراً، فلما حفروه ذهبوا يطلبونه ليُحوّل فكأنما ذهبت به السماءُ فما قدروا عليه»[٢].

وقال بامطرف في كتاب الجامع: «العلاء بن الحضرمي.. صحابي، من رجال الفتوح.. أصله من حضرموت.. ولاه رسول الله ﷺ البحرين سنة ٨هـ.. وقد أسلم أهل البحرين على يد العلاء وبعثوا بخراجهم فكان أول مال ورد المدينة خراج البحرين وهو سبعون ألفاً.. وبعد وفاة النبي ﷺ أقرّه أبو بكر ثم عمر.. وهو الذي سيّر عرفجة بن هرثمة إلى شواطئ فارس سنة ١٤هـ بالسفن، فكان أول من فتح جزيرة بأرض فارس في الإسلام، ويقال: إن العلاء أول مسلم ركب البحر للغزو. ووجهه عمر إلى البصرة فمات في الطريق، في قرية اسمه (لياس) وقيل مات في البحرين»[٣] والصواب أنه مات في موضع اسمه (تياس) وهو من إقليم ولاية البحرين في منطقة كاظمة ـ الكويت ـ على الطريق إلى البصرة لذلك قيل أنه مات في البحرين.

ولما أهال أصحابه الكثيب على جثمانه، «إذا مكان القبر مَدّ البصر نور يتلألأ، فأتى رجل بعد فراغهم من دفنه، فقال: مَنْ هذا؟ فقالوا: هذا خير البشر، هذا ابن الحضرمي»[٤].

وكانت وفاة العلاء بن الحضرمي رضوان الله عليه، في سنة ١٥ هجرية، وقيل سنة ١٤هـ وقيل توفي سنة ٢١هـ، والأصوب أنه توفي في أول سنة ١٥ هجرية.

---

(١) معجم ما استعجم ـ جـ١ ص٣٢٨ ـ هامش الإكليل ـ جـ٢ ص٣١ ـ وجاء فيه أن (تياس: موضع في بلاد تميم). والصواب كما في الإكليل أنه موضع من بلاد بكر بن وائل، وكان في جهة كاظمة وهي الكويت.

(٢) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ٢ ص٣١.

(٣) الجامع لشمل إعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص٣٨١.

(٤) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٦ ص١٥٥.

١٥

أبو هُرَيْرَة بن صَخْر الدَوْسي

ـ حافظ أحاديث رسول الله ﷺ ـ

مِنْ أعلام الصحابة خالدين الذكر عبر الأزمنة والعصور هو أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي الأزدي اليماني حافظ أحاديث رسول الله ﷺ وراوية الإسلام[١] قال البخاري: «روى عنه ثمانمائة رجل مِنْ أهل العلم مِنْ الصحابة والتابعين وغيرهم»[٢] وقال عنه ابن كثير: «كان أبو هريرة مِنْ حُفاظ الصحابة. وحَدَث عنه الخلائق من أهل العلم قد ذكرناهم مرتبين على حروف المعجم في كتاب التكميل»[٢] وجاء في كتاب الأنباء: «. .أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي الأزدي اليماني، الحافظ الفقيه: جميع حديثه خمسة آلاف وثلثمائة وأربعة وسبعون حديثاً، وهو أكثر الصحابة السبعة الذين رووا من الحديث النبوي فوق الألف»[٣] والصحابة السبعة الذين رووا فوق الألف حديث هُمْ: أبو هريرة (٥٣٧٤) حديثاً، وأنس بن مالك الأنصاري (٢٢٨٦) حديثاً، وعبد الله بن عمر بن الخطاب (٢٦٣٠) حديثاً، وعائشة أم المؤمنين (٢٢١٠) حديثاً، وعبد الله بن عباس (١٦٦٠) حديثاً، وجابر بن عبد الله الأنصاري (١٥٤٠) حديثاً، وأبو سعيد سعد الخدري (١١٧٠) حديثاً، وقد حصرهم بعض أهل العلم بقوله:

سَبْعُ مِن الصَحْبِ فوق الألفِ قد نَقَلوا ... من الحديثِ عن المختار، خَيْر بَشَرْ

أبو هريرة، سعدُ، جابرُ، أنسُ، ... عائشةُ، وابن عباس، وابن عُمَرْ

---

(١) «أبو هريرة راوية الإسلام» هو عنوان كتاب للخطيب العجاج أصدرته وزارة الثقافة في مصر سنة ١٩٦٣م.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٨ ص١٠٣.

(٣) الأنباء ـ للمفتي محمد زبارة ـ ص١٨ ـ وقال العسقلاني في الإصابة (ذكر ابن حزم أن مسند ابن مخلد احتوى من حديث أبي هريرة على خمسة آلاف وثلاثمائة حديث).

النبأ اليقين عن أبي هريرة قبل إسلامة

لقد أثار بعض ذوي الأهواء جدلاً واسعاً في محاولة للنيل من أبي هريرة وشخصيته الفذة وتاريخه المجيد، بهدف التشكيك بالسنة النبوية، وفي هذا الإطار استهل (محمود أبو ريّة) كلامه عن أبي هريرة قائلاً: «لم يختلف الناس في اسم أحد في الجاهلية والإسلام، مثل ما اختلفوا في اسم أبي هريرة، فلا يُعرف على التحقيق اسمه الذي سماه به أهله ليدعى بين الناس به، وكذلك اختلفوا في اسم أبيه اختلافاً كثيراً. . ».

أما عن (أصله ونشأته) فقال محمود أبو ريّة «كُلُ ما عُرف عن أصله، أنه من عشيرة سُليم بن فهم، من قبيلة أزد، ثم من دوس إحدى قبائل العرب الجنوبية، أما نشأته فلم يعرفوا عنها شيئاً، وكذلك، لم يعرف الناس عن حياته في بَلَدِهِ اليمن في مدى السنين التي قضاها بها قبل إسلامه غير ما قاله هو نفسه من أنه كان يرى الغنم وكان فقيراً. . »[١].

والواقع أن ليس هناك ما لا يعرفه العلماء عن أبي هريرة وأصله ونسبه واسمه ونشأته وحياته في اليمن قبل إسلامه وقبل هجرته إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وفيما يلي النبأ اليقين عن ذلك:

ـ أن أبا هريرة من عشيرة سُليم بن فَهْم بن غُنْم بن دوس، قال ابن خلدون: «ودَوس هو: دوس بن عُدَثان ـ بالثاء المثلثة ـ بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحرث بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ»[٢]، وقال القرطبي في الاستيعاب: «أبو هريرة الدوسي صاحب رسول الله ﷺ. ودوس هو ابن عدثان بن عبد الله بن زهران بن الحارث بن كعب بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث»[٣] والغوث هو ابن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، قال الشاعر:

ونحنُ بنو النَبْت ابن غوث ابن مالك	ابن زيد ابن كهلان وأهلُ المفاخر
يمانون تدعونا سباء فَنُجيبُها	إلى الجوهر المكنون خير الجواهر

وكانت عشيرة سُليم بن فهم من عشائر قبيلة دوس الكبيرة بمنطقة دوس في

(١) شيخ المضيرة أبو هريرة ـ محمود أبو ريّة ـ ص٤٣.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٤٣.
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ جـ٤ ص٢٠٢ ـ والإصابة للعسقلاني ـ جـ٤ ص٢٠٣.

أرض السراة بأعالي اليمن، فكان من وجوه بني سليم بن فهم في الجاهلية صخر والد أبي هريرة وهو «عامر بن عبد ذي الشرى بن طريف بن عتاب بن أبي صعب بن مُنبه بن سعد بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غُنم بن دوس»[1].

واسم عامر بن عبد ذي الشرى: صخر، وربما كان اسمه يتكون من كلمتين (عامر صخر) وكانت كثيرٌ من أسماء أقيال وشخصيات اليمن في العصر الحميري والجاهلية تتكون من كلمتين: اسم ونعت، فكذلك ـ غالباً ـ كان اسم (عامر صخر بن عبد ذي الشرى بن طريف الدوسي) فتزوج عامر صخر بن عبد ذي الشرى امرأة فاضلة هي (ميمونة بنت صفيح بن الحارث بن أبي صعب بن منبه بن سعد بن ثعلبة بن سليم بن فهم الدوسي)[2] فعامر صخر بن عبد ذي الشرى هو والد أبي هريرة، وميمونة بنت صُفيح هي أم أبي هريرة.

ـ واسم أبي هريرة الذي سماه به أهله لِيُدْعَىٰ بين الناس به هو (عبد شمس)، وتوجد أقوال عديدة في اسم أبي هريرة ليس من المهم كثرتها وليس من المهم اختلاف الناس ووجود عدة أقوال عن اسمه، وإنما المهم هو القول والاسم الصحيح وهو عبد شمس ثم سماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن، وفي ذلك جاء في كتاب الإصابة للعسقلاني أنه:

«أخرج الدولابي بإسناد حسن عن أسامة بن زيد الليثي عن عبيد الله بن أبي رافع والمقبري قالا: كان اسم أبي هريرة عبد شمس بن عامر بن عبد الشرى، والشرى اسم صنم لدوس.

ـ وأخرج ابن خزيمة بسند قوي عن محمد بن عمر وعن أبي سلمة: اسم أبي هريرة عبد شمس من الأزد ثم من دوس.

ـ وقال إسماعيل بن أبي أويس: وجدتُ في كتاب أبي: كان اسم أبي هريرة عبد شمس.. وذكر الترمذي عن البخاري مثله.

ـ وقال ابن إسحاق، قال لي بعض أصحابنا عن أبي هريرة: كان اسمي في الجاهلية عبد شمس بن صخر، فسماني رسول الله ﷺ عبد الرحمن وكُنيتُ أبا هريرة لأني وجدت هرة فحملتها في كمي فقيل لي أبو هريرة. وهكذا أخرجه أبو

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ جـ٤ ص٢٠٢ ـ والإصابة للعسقلاني ـ جـ٤ ص٢٠٣.

(٢) قال ابن كثير: «قال ابن سعد وابن سعد والطبراني: اسم أم أبي هريرة ميمونة بنت صفيح بن الحارث بن أبي صعب بن منبه بن سعد بن ثعلبة».

أحمد الحاكم في الكُنى من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق، وأخرجه ابن مندة من هذا الوجه مطولاً»[١].

وجاء في كتاب الاستيعاب للقرطبي:

«ـ قال عباس سمعت يحيى بن معين يقول: اسم أبي هريرة عبد شمس.

ـ وقال أبو نعيم: أبو هريرة عبد شمس.

ـ وقال الهيثم بن عدي: كان اسم أبي هريرة في الجاهلية عبد شمس..

ـ وذكر البخاري عن إسماعيل بن أبي أوس قال: كان اسم أبي هريرة في الجاهلية عبد شمس..»[٢].

ثم ذكر القرطبي أقوال عدد من العلماء منهم محمد بن عمرو وأبو سلمة والفضل بن موسى والزهري، وقال: إن روايتهم في أن اسم أبي هريرة في الجاهلية (عبد شمس صحيحه)[٢]. وبذلك كله يتحقق العلم الصحيح بأن اسم أبي هريرة الذي سماه به أهله لِيُدعَىٰ بين الناس به هو عبد شمس، وهو اسم يماني سبائي تليد كان أول من سُمّي به الملك سبأ عبد شمس والملك عبد شمس والد الملكين أيمن وقَطَنْ من ملوك سبأ وحمير، وفيه قال شاعر قديم في أبيات بالإكليل:

وأبونا عبد شمس وابنه أيْمَن القيل وذي التاج قَطَنْ

والملك عبد شمس نمران ملك سباء وذوريدان، وكان أبو هريرة آخر من سماه أهله عبد شمس في تاريخ اليمن.

أما نشأة أبي هريرة وحياته في بلاده باليمن، فقد كان مولده قبل الهجرة النبوية بنحو (٢٣) سنة[٣] في منطقة حاضرة دوس في سَرَاة أعالي اليمن[٤]، فنشأ وترعرع في حاضرة دوس، ومات أبوه وهو صغير، وفي ذلك قال أبو هريرة:

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ جـ٤ ص٢٠٢ ـ ٢٠٥.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ جـ٤ ص٢٠٢ ـ والإصابة للعسقلاني ـ جـ٤ ص٢٠٣.

(٣) يدل على زمن مولد أبي هريرة أنه توفي سنة ٥٧هـ وقيل ٥٨هـ وهو ابن ٧٨ سنة. وقوله: «قدمت على رسول الله ﷺ بخيبر وأنا يومئذ قد زدت على الثلاثين» وكان قدومه ذلك في شهر محرم سنة ٧هـ.

(٤) قال الهمداني: «أرض السراة: منها سراة بني علي وفهم، ثم سراة بجيلة والأزد بن سلامان، والمع، وبارق، ودوس، وغامد، والحجر بن هنوء، إلى جرش» ـ ص٢٥٨ ـ صفة جزيرة العرب.

«نشأتُ يتيماً»[١] يعني يتيم الأب، فنشأ في كنف والدته وأهله، وكانت أسرته متوسطة الحال، فلم تكن ذات ثراء وتجارة وذات رئاسة ولا كانت أسرة مُعدمة، وقد ذكر العسقلاني في ترجمة أبي هريرة أنه «كان وسيطاً في دوس»، وكان وهو غلام (يرعى غنم أهله) ووجد ـ ذات مرة ـ هرة صغيرة فحملها في كُمّه وكان يراها ويلعب بها وتكاد لا تفارقه، فقيل له أبو هريرة، وفي ذلك ذكر ابن إسحاق أنه قال: «كنيتُ أبا هريرة لأني وجدت هرة فحملتها في كمي فقيل لي أبو هريرة» وأخرج الترمذي عن عبيد الله بن أبي رافع قال: قلتُ لأبي هريرة لِمَ كُنيت بأبي هريرة؟ قال: «كنتُ أرعى غنم أهلي وكانت لي هرة صغيرة فكنتُ أضعها بالليل في شجرة وإذا كان النهار ذهبت بها معي فلعبتُ بها، فكنوني أبو هريرة». ويدل السياق على أنه كُنِّي بأبي هريرة منذ كان غلاماً يرعى غنم أهله.

وقد تَعَمَّد (محمود أبو ريّة) في كلامه على أبي هريرة أن ينسب إليه القول بأنه: «كان يرعى الغنم، وكان فقيراً معدماً يخدم الناس بطعام بطنه»، ويتجلى قيام (أبو ريّة) بتحريف الكلام عن موضعه في قوله: (كان يرعى الغنم) بينما الأصل في النصوص والتراجم هو (كان يرعى غنم أهله)، فاستبعد كلمة (أهله) لأنها لا تَدُلُ على أنه لم يكن فقيراً معدماً، أما القول بأنه (كان يخدم الناس)، فالمقصود أنه كان يعمل عند الميسورين من قومه في حاضرة دوس، فيكون ذلك مرحلة ثانية من حياته انتقل فيها من رعاية غنم أهله إلى العمل لدى تجار وكبراء دوس، فتوسعت مداركه الفكرية واتسعت معارفه لأنّ حاضرة دوس كانت من المراكز الفكرية والدينية والتجارية والقبلية والإدارية الهامة والرئيسية في اليمن، فهي مقر (ذي الحُكم عمرو بن حُمَمَة الدوسي) الذي كان إليه العرب يحتكمون في الجاهلية[٢] وكان فيها الكاهن العرّاف سويد بن قارب وهو أشهر كاهن عرّاف وكان يقصده الناس من شتى مناطق اليمن ومن نجد والحجاز[٣] وكانت حاضرة دوس مقر عبادة الصنم (ذي الكفين) والصنم (ذي الشرى) وفيها من يدين بالمسيحية، كما أنها بالقرب من (نجران) التي كانت من مناطق الديانة المسيحية، وكان أبو هريرة يسمع ويستوعب ويحفظ ويتأمل، ومما يدل على ذلك الاهتمام قول أبي هريرة: «كان جندب بن عمرو بن حممه يقول في الجاهلية: إن للخلق خالقاً لكنّي لا أدري مَنْ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ـ جـ٨ ص١١٠.

(٢) انظر المبحث الخاص بجندب بن عمرو بن حُممة في هذا الكتاب.

(٣) كان سويد بن قارب: الكاهن الأول إسلاماً. وهو من أعلام الصحابة المذكورين في هذا الكتاب.

هو»[١]. وكان أبو هريرة تربطه روابط العشيرة والمعرفة الوثيقة ـ وربما العمل أيضاً ـ بجندب بن عمرو بن حممة وبالطفيل بن عمرو الدوسي الذي كان من رؤساء وتُجار دوس، وكان نشاط الطفيل التجاري يمتد إلى مكة التي توجه إليها الطفيل في أوائل البعثة النبوية، فالتقى الطفيل برسول الله ﷺ في مكة، فآمن الطفيل وعاد إلى منطقته باليمن يدعو دوساً إلى الإسلام، فأسلم أبو هريرة رضي الله عنه.

* * *

إسلام أبي هريرة. . وهجرته إلى يثرب

لقد كان أبو هريرة من السابقين إلى الإسلام، ولكن بعض الروايات استخدمت كلمة (أسلم) في موضع ذكرها لهجرة أبي هريرة إلى رسول الله ﷺ في يثرب ـ المدينة المنورة ـ في محرم سنة ٧هجرية مما أدى إلى الالتباس، بينما إسلام أبي هريرة كان حينما عاد الطفيل بن عمرو من مكة وأخذ يدعو دوساً إلى الإسلام، وذلك في حوالي السنة الرابعة من البعثة النبوية، فقد ذكر ابن حجر العسقلاني في ترجمة الطفيل بن عمرو أنه: «عاد إلى قومه، فدعا أبويه إلى الإسلام فأسلم أبوه ولم تسلم أمه، ودعا قومه فأجابه أبو هريرة وحده»[٢] وذكر أبو العباس المبرد في كتاب الكامل دعاء رسول الله ﷺ للطفيل بأن يعطيه الله نوراً في جبينه ليدعو به قومه، فقال: هذه مُثْلَةٌ، فجعل النور في سوطه، قال أبو العباس: «فلما ورد على قومه بالسَّراة جعلوا يقولون: إن الجبل لَيَلْتَهِب، وكان أبو هريرة ممن اهتدى بتلك العلامة»[٣] وذكر أبو فرج الأصفهاني من طريق ابن الكلبي أن الطفيل لما قدم مكة ذكر له ناس من قريش أمر النبي محمد ﷺ وحذروه أن يسمع منه، فأتاه، فتلا عليه النبي ﷺ الإخلاص والمعوذتين فأسلم في الحال وعاد إلى قومه ثم ذكر خبر سوطه ونوره إلى أن قال: «ودعا قومه إلى الإسلام فأجابه أبو هريرة وحده»[١].

ومكث الطفيل يدعو دوساً إلى الإسلام حتى الموسم التالي ـ تقريباً ـ ولم يكن قد أسلم إلا أبوه وزوجته وكذلك أسلم ابنه (عمرو) بينما لم يُسلم من سائر قبيلة دوس إلا أبو هريرة، وكان أبو هريرة يومئذ ابن خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة، وقد سار الطفيل إلى مكة مرة ثانية فالتقى برسول الله ﷺ وأخبره بأن دوساً أعرضت ولم تستجب للإسلام، وقال: «يا رسول الله أن دوساً عصت، فادع الله عليهم». ويبدو أن أبا هريرة كان مع الطفيل في ذلك اللقاء برسول الله ﷺ في

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٢٢٦.

(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد ـ جـ٢ ص٣٧٤.

(٣) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ـ جـ١٢ ص٥١.

مكة، فقد ذكر القرطبي نبأ ذلك اللقاء بسند قوي عن أبي هريرة قال: «قدم الطفيل بن عمرو وأصحابه فقال: يا رسول الله إن دوساً قد عصت وأَبَتْ فادع الله عليها. فقلنا: هلكت دوس. فقال: اللهم اهد دوساً وائت بهم»[١]، فعندما سأل الطفيل رسول الله ﷺ أن يدعو على دوس، خاف الحاضرون أن يدعو النبي ﷺ على دوس، قال أبو هريرة «فقلنا: هلكت دوس» ويدل ذلك على أنه كان حاضراً، فدعا رسول الله ﷺ لدوس بالهداية قائلاً: (اللهم اهد دوساً، وائت بهم مسلمين)،.

ويبدو أن ذلك أيضاً هو زمن ما ذكره الفيروزآبادي في القاموس المحيط مادة (هرة) قائلاً: «وعبدُ الرحمن بن صخر رأى النبي ﷺ في كُمِّهِ هِرَّة فقال: يا أبا هريرة، فاشتهر به»[٢] فوجود الهرة معه يدل على أنه كان في سن تتناسب مع ذلك، بحيث كان ابن خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة، قال ابن كثير: «وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال له: (يا أبا هريرة)»[٣].

ومما يتصل بذلك القدوم والزمن أيضاً ما ذكره ابن كثير قائلاً: «قال أبو داود الطيالسي وغير واحد عن أبي خلدة، خالد بن دينار عن أبي العالية، عن أبي هريرة، قال: لما أسلمت قال رسول الله ﷺ: ممن أنت؟ فقلت: مِنْ دوس، فوضع يده على جبهته، وقال: ما كنتُ أرى أن في دوس رجلاً فيه خير»[٣] فهذا الحديث يرتبط بالحديث والموقف الأول وهو قول الطفيل: (يا رسول الله إن دوساً عصت، فادع عليهم) فقد كان الطفيل يرى أن دوساً عصت وأبت الإسلام وليس فهم خيرُ ويريد أن يدعو رسول الله ﷺ عليهم بالهلاك، وهو موقف يتناسب مع التذكير المتمثل في قول النبي ﷺ لأبي هريرة: (مَمَّن أنت؟ فقال: من دوس، فوضع النبي ﷺ يده على جبهة أبي هريرة وقال: ما كنتُ أرى أن في دوس رجلاً فيه خير) ويمكن أن نلمس في ذلك تذكير للطفيل بأن في دوس رجل فيه خير، ودعا رسول الله ﷺ لدوس بالهداية.

ومما يتصل بذلك أيضاً الحديث عن دعاء رسول الله ﷺ لأم أبي هريرة بالهداية، وكان أبو هريرة لما دعاه الطفيل إلى الإسلام فأجابه وأسلم وهما بحاضرة دوس قد أخذ يدعو والدته إلى الإسلام فأَبَتْ، فلما قدم رسول الله ﷺ بمكة أخبره بذلك، وهو جوهر الخبر والحديث الذي أخرجه الإمام أحمد قال: «حدثنا عبد

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ جـ٤ ص٢٠٣.

(٢) القاموس المحيط ـ للفيروزآبادي ـ جـ٢ ص١٦٦.

(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٨ ص١٠٣ و١٠٤.

الرحمن عن عكرمة بن عامر عن يزيد بن عبد الرحمن بن أذينة السحيمي الأعمى عن أبي هريرة قال: إن أمي كانت امرأة مشركة، وإني كنت أدعوها إلى الإسلام وكانت تأبىٰ عليّ، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فكانت تأبى عليّ، وإني دعوتها يوماً فأسمعتني فيك ما أكره، فأدع الله أن يهديها، فقال: (اللهم اهد أم أبي هريرة)[1] وقد اختزل واختصر رواة هذا الخبر والحديث ما جرى بعد دعاء رسول الله ﷺ لأم أبي هريرة بالهداية، بأنه: خرج يعدو ليبشرها بدعاء رسول الله ﷺ لها، قال أبو هريرة: «فلما أتيت الباب إذا هو مجاف، وسمعت خضخضة (خشخشة) وسمعتُ خشف رجل ـ أي وقعها ـ فقالت أمي: يا أبا هريرة كما أنت. ثم فَتَحت الباب وقد لبست درعها وَعَجَلَتْ عن خمارها أن تلبسه، وقالت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فرجعت إلى رسول الله ﷺ أبكي من الفرح كما بكيتُ من الحزن، فقلت: يا رسول الله أبشر فقد استجاب الله دعاءك، قد هدى الله أم أبي هريرة..»

ويمكن استكمال الاختزال والاختصار في هذه الرواية من خلال ربط الوقائع ومسار الأحداث، بأنه لما قال رسول الله ﷺ: «**اللهم اهد دوساً وائت بهم مسلمين**» أخبر أبو هريرة رسول الله ﷺ بأمر والدته وهو حزينٌ لأنه يُحبها، وسأل رسول الله ﷺ أن يدعو لها بالهداية فقال: «**اللهم اهد أم أبي هريرة**» وقال رسول الله ﷺ للطفيل: «**ارجَعْ إلى قومك، فادعهُمْ، وتَرَفَّقْ بهم**»، فرجع الطفيل ورجع معه أبو هريرة إلى حاضرة دوس، وعندئذٍ انطلق أبو هريرة يعدو إلى منزله، وكانت أُمه تتلهف لعودته كما كان يتلهف لإيمانها، فلما بلغ الباب استقبلته أُمه على النحو الذي وصفه في الرواية ونطقت بالشهادتين. ولم يرجع في نفس اللحظة إلى رسول الله ﷺ بمكة، وإنما رجع عند رجوع الطفيل الذي كان قد انتهج المنهج الذي أمره به رسول الله ﷺ بدعوة قومه بالرفق والموعظة الحسنة، فأسلم جندب بن عمرو بن حممة، وأسلم كثيرون، ثم رجع الطفيل إلى مكة ورجع معه أبو هريرة، فأخبر الطفيل رسول الله ﷺ بأن الإسلام ينتشر وينمو في دوس، وقال أبو هريرة ـ وهو يذرف دموع الفرح ـ «يا رسول الله أبشر فقد استجاب الله دعاءك، قد هدى الله أم أبي هريرة. ثم قال: يا رسول الله ادعو الله أن يُحببني وأُمي إلى عباده المؤمنين. فقال: «**اللهم حبب عبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحببهم إليها**»» قال ابن كثير: «وقد رواه ـ أي هذا الحديث ـ مسلم من حديث عكرمة عن عمار، وهذا الحديث

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٨ ص١٠٣ و١٠٤.

من دلائل النبؤة فإن أبا هريرة مُحَبَبٌ إلى جميع الناس، وقد شهر الله ذكره بما قدره أن يكون من روايته من إيراد هذا الخبر عنه على رؤوس الناس في الجوامع المتعددة في سائر الأقاليم في الإنصات يوم الجمعة بين يدي الخطبة، والإمام على المنبر، وهذا من تقدير الله العزيز العليم، ومحبة الناس له رضي الله عنه»(١).

وغني عن البيان أن الروايات والوقائع سالفة الذكر ليس فيها تحديد لزمن ومكان وقوعها بحيث قد يظن البعض أنها في المدينة بعد قوم وهجرة أبي هريرة إليها في مطلع سنة ٧هـ بينما السياق الذي ذكرناه يدل على أنها في مكة المكرمة قبل الهجرة بعدة سنوات، ومما يتصل بتلك الفترة أيضاً، «قال الشافعي: قال أبو هريرة: رأيت هنداً بمكة كأن وجهها فلقة قمر، وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس، ومعها صبي يلعب، فمرّ رجل فنظر إليه فقال: إني لأرى غلاماً إن عاش ليسودن قومه، فقالت هند: إن لم يسد إلا قومه فأماته الله. وهو معاوية بن أبي سفيان»(١) وكل ذلك يؤكد أن أبا هريرة أسلم باليمن على يد الطفيل قبل الهجرة بنحو خمس سنوات والتقى بالنبي ﷺ في مكة، ثم عاد إلى اليمن. وقد أكّد العجاج إسلام أبي هريرة وهو باليمن على يد الطفيل والنبي ﷺ بمكة، وقال: «الصحيح أن أبا هريرة أسلم قبل الهجرة النبوية وبقي في اليمن يتابع أخبار المسلمين ويحفظ ما ينزل من القرآن الكريم»(٢). ثم هاجر أبو هريرة والطفيل إلى المدينة فقدموا إلى النبي ﷺ في محرم سنة ٧ للهجرة.

وقد ذكر (محمود أبو ريّة) ما جاء في المصادر التاريخية وتراجم الصحابة بأنه:

«قدَمَ الدوسيون وفيهم أبو هريرة والطفيل بن عمرو، كما قدم الأشعريون، ورسول الله بخيبر فلحقوه بها» ثم قال: «لماذا تأخر قدوم أبي هريرة إلى النبي ﷺ إلى وقعة خيبر التي كانت في سنة ٧ من الهجرة؟» وقد ذهب محمود أبو ريّة إلى استنتاج خاطئ بداء بقوله لقد تكلم ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عن أسباب تأخر الأشعريين في القدوم إلى النبي ﷺ بأنهم (علموا ما كان فيه المسلمون من المحاربة مع الكفار، فلما بلغتهم المهادنة أمِنوا وطلبوا الوصول إليه)(٣) ثم اندفع محمود أبو ريّة في استنتاجه الخاطئ قائلاً: «إن هؤلاء الأشعريين لم يقدموا إلى النبي ﷺ في زمن حروبه الطاحنة لينصروه ويجاهدوا معه، بل هرعوا إليه بعد

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٨ ص١٠٣ و١٠٤.

(٢) أبو هريرة رواية الإسلام ـ للخطيب العجاج ـ ص٣٣١ وقد أكد ذلك أيضاً الشيخ محمد أبو زهرة في تقريظة لكتاب العجاج،

(٣) فتح الباري ـ للعسقلاني ـ جـ٧ ص٣٩.

الغزوات الكبيرة التي انتصر فيها، وغنم منها الغنائم. . . ». ثم قال إن «شأن أبي هريرة والدوسيين» مثل «شأن الأشعريين الذين أسلموا معه في وقت واحد»[١] يعني أنهم أسلموا وقدموا إلى النبي ﷺ بعد الغزوات التي انتصر فيها وغنم منها الغنائم لأنهم قدموا ورسول الله ﷺ بخيبر، «فكلم رسول الله ﷺ أصحابه أن يشركوهم في الغنائم، ففعلوا»[١] ولكن استنتاجات محمود أبو ريّة غير صحيحه، أما النبأ اليقين فيتمثل في النقاط التالية:

ـ إن قدوم أبي هريرة والطفيل بن عمرو الدوسي وأبي موسى الأشعري والذين معهم إلى رسول الله ﷺ وهو بخيبر ـ في محرم ٧هـ ـ لا يعني أن ذلك وقت إسلامهم، فقد أسلموا ورسول الله ﷺ ما زال بمكة وذلك قبل الهجرة النبوية بعدة سنوات، بل إن الطُفيل بن عمرو حينما قدم على رسول الله ﷺ بمكة في المرة الثالثة والأخيرة كانت قريش قد تمادت في إيذاء رسول الله ﷺ بمكة، فَعَرَض الطفيل على رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى منطقة دوس باليمن، وفي ذلك جاء في ترجمة الطفيل بكتاب الإصابة أنه «قال الطفيل لرسول الله ﷺ: هل لك في حصن حصين ومنعه؟ يعني أرض دوس»[٢] وكذلك فقد عَرَض قيس بن نمط الهمداني على النبي ﷺ أن يهاجر إلى منطقة همدان، وفي ذلك جاء في الإكليل أنه: «كان قيس بن نمط قد تزعم لرسول الله ﷺ بالهجرة على أن يؤامر همدان في ذلك، فبدرت على النبي ﷺ الأنصار»[٣] وكان الطفيل لما عرض على النبي ﷺ الهجرة إلى منطقة دوس، لم يرغب النبي ﷺ في ذلك، فرجع الطفيل إلى منطقة دوس في سراة اليمن ومعه أبو هريرة كما رجع قيس بن نمط إلى منطقة همدان، واستمروا في الدعوة إلى الإسلام بين قبائلهم ومناطقهم وكذلك كان أبو موسى الأشعري وأبو عامر الأشعري في منطقة الأشاعرة.

ـ وكان شأن أبي هريرة مثل شأن الطفيل حيث قال القرطبي: «رجع الطفيل إلى بلاد قومه من أرض دوس، فلم يزل مقيماً فيها حتى هاجر رسول الله ﷺ ـ إلى المدينة ـ ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بخيبر». ولم تذكر الروايات شيئاً عن الطفيل منذ هجرة النبي ﷺ إلى قدومه مع أبي هريرة على النبي ﷺ وهو بخيبر، سوى أنه كان مقيماً في منطقة دوس وكذلك أبو هريرة الذي كان عمره قد بلغ نحو ثلاثة وعشرين سنة حين هاجر النبي ﷺ إلى يثرب، أما (لماذا تأخر قدوم أبي هريرة

---

(١) شيخ المضيرة ـ محمود أبو ريّة ـ ص٣٨ ـ ٤٥.
(٢) الإصابة ـ ترجمة الطفيل بن عمرو ـ جـ٢ ص٢٢٥.
(٣) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ جـ١٠ ص١٨٠.

إلى النبي ﷺ حتى وقعة خيبر في محرم ٧هـ)؟ فإن الإجابة الصحيحة على ذلك تأتي من خلال إدراك الأمور التالية:

الأمر الأول: أن اندلاع الحرب بين رسول الله ﷺ والمسلمين الذين معه في يثرب ـ من جهة ـ وبين قريش ومَنْ إليهم من الكفار في مكة ـ من جهة ـ أدى إلى قيام قريش وهوازن وغيرهم بالتعرض إلى مَنْ يمر بمناطقهم من المسلمين، وقد تعرض العديد من اليمانيين للقتل في الطائف وهم يقصدون المسير إلى يثرب، ومما يتصل بذلك أن زيد بن حارثة الكلبي أتى إلى منطقة قبيلته في صعدة ثم سار إلى الطائف وهي الطريق إلى يثرب، حيث ذكر القرطبي: «إن زيد بن حارثة اكترى من رجل بغلاً في الطائف، فسار به المُكري إلى خربه وقال له: انزل، فنزل، وكان في الخربة قتلى كثيرة، فلما أراد أن يقتله، قال له زيد: دعني أصلي ركعتين، فقال: صَلي، فقد صلى قبلك هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئاً». ويدل ذلك على أن ذلك الرجل وغيره كانوا يتقطعون للمسلمين القادمين من مناطق اليمن قاصدين يثرب من طريق الطائف، وقد نجا زيد بن حارثة من القتل، ولكن الطريق كانت غير آمنة ومحفوفة بالمخاطر بين اليمن ويثرب، سواء في الطائف أو مكة.

الأمر الثاني: وقوع مشكلة بين قبيلة دوس في سراة اليمن وبين قريشٍ في مكة بسبب مقتل تاجر من دوس كان مقيماً بمكة ومحالفاً لأبي سفيان وهو أبو أزيهر الدوسي حيث «قتل هشام بن المغيرة أبا أزيهر الدوسي وكان حليف أبي سفيان بن حرب، فثار الشر بين الفريقين، وأرادت عشيرة أبي سفيان الطلب بدم أبي أزيهر الدوسي ـ من عشيرة هشام بن المغيرة ـ فمنعهم أبو سفيان خشية أن يشمت بهم المسلمون، وكان ذلك بعد الهجرة. ثم اتفق أن ناساً من قريش خرجوا إلى أرض دوس ـ أي مَرّوا منها ـ فأحس بهم قومٌ من دوس فأرادوا قتلهم بأبي أزيهر، فأجارتهم امرأة من دوس كانت تمشط النساء يقال لها أُم غيلان، فأمضوا إجارتها»[1]. ويمكن القول أن قضية أبي أزيهر أدت إلى مضاعفة مخاطر المرور من مكة بالنسبة للدوسيين.

الأمر الثالث: إن «شأن أبي هريرة والدوسيين» هو بالفعل مثل «شأن الأشعريين» الذين قال العسقلاني: «لما بلغتهم المهادنة أمِنُوا وطلبوا الوصول إلى رسول الله ﷺ في المدينة المنورة» والمقصود بالمهادنة هو صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش في ذي القعدة سنة ٦ هجرية، وكلمة (أمنوا) ليست بمعنى

---

(١) الإصابة ـ ترجمة أم غيلان الدوسية ـ جـ٤ ص٤٨٢.

(أسلموا) وإنما هي (أمِنوا) بمعنى أن الطريق أصبحت آمنة وأصبح مَنْ يريد اللحاق برسول الله ﷺ في يثرب لا يتعرض له بموجب صلح الحديبية، ولقد كان أبو هريرة والدوسيون والأشاعرة وغيرهم باليمن يتابعون أنباء رسول الله ﷺ والذين معه من المسلمين في يثرب ويرتبطون معهم برباط روحي وفكري عميق، فلما أتاهم نبأ صلح الحديبية والمهادنة عقدوا العزم على المسير إلى رسول الله ﷺ في يثرب.

الأمر الرابع: إن واقعة قدوم أبي هريرة والطفيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ في شهر محرم سنة ٧هـ تتيح معرفة وإدراك الدور الكبير الذي قاما به منذ لقائهما برسول الله ﷺ في مكة وعودتهما إلى منطقة دوس في اليمن وحتى أتاهما نبأ صلح الحديبية والمهادنة، ذلك الدور هو الدعوة إلى الإسلام في قبيلة دوس، وهو أمر لا يقل أهمية عن التواجد مع المسلمين الذين كانوا في يثرب خلال الفترة من السنة الأولى للهجرة إلى صلح الحديبية لأن الدور الرئيسي للذين كانوا في يثرب هو نشر الإسلام وحينما وقعت غزوة الخندق في أواخر سنة ٦ هجرية كان عدد المسلمين هناك ثلاثة آلاف مسلم، وهو عدد لا يزيد عن عدد قبيلة دوس والذين معهم بمنطقة السراة في اليمن حيث كان أبو هريرة والطفيل يدعوان إلى الإسلام وكان كل يوم أو كل شهر يشهد دخول المزيد من الناس في دين الله على يد الطفيل وأبي هريرة بحيث أصبحت منطقة دوس على يدهما منطقة إسلامية قبل صلح الحديبية، أما دلالة قدوم أبي هريرة والطفيل إلى النبي ﷺ بيثرب على ذلك، فتتمثل في الموكب الدوسي الكبير الذي هاجر معهما إلى يثرب حين وصلوا ورسول الله ﷺ بخيبر، حيث كان معهما ثمانين أو تسعين أهل بيت مِنْ دوس، ليس ثمانين أو تسعين فرداً وإنما ثمانون أو تسعون أسرة بأكملها قدموا مهاجرين إلى رسول الله ﷺ وأخذوا أماكنهم بين أصحاب رسول الله ﷺ، فقد ذكر القرطبي في الاستيعاب أنه: «كان مع الطفيل ثمانين أو تسعين أهل بيت من دوس»[(١)] وهم الذين كانوا مع الطفيل وأبي هريرة حيث كما ذكر محمود أبو ريّة عن عدة مصادر «قدم الدوسيون وفيهم أبو هريرة والطفيل بن عمرو، ورسول الله بخيبر» وفي ذلك قال الأستاذ خالد محمد خالد: «بينما رسول الله ﷺ في خيبر إذا موكب حافل ينتظم ثمانين أسرة من دوس قد أقبلوا مهللين ومكبرين.. وأخذوا أماكنهم في الصفوف الطاهرة خلف رسول الله الأمين»[(٢)] ووصل بعدهم «جُندب بن عمرو بن حممة الدوسي ومعه خمسة

---

(١) الاستيعاب ـ ترجمة الطفيل بن عمرو ـ جـ٢ ص٢٣٤.

(٢) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٦٤.

وسبعون رجلاً من دوس» قال أبو هريرة: «فكان جندب يُقَدِمَهم رجلاً رجلاً»[1] فكان كل منهم يُسلم على رسول الله ﷺ ثم أخذوا مكانهم في الصفوف الطاهرة خلف رسول الله ﷺ مع الثمانين أو التسعين أسرة من دوس الذين قدموا بقيادة الطفيل وأبي هريرة رضي الله عنهما، فذلك العدد الكبير من المؤمنين الذين قدموا من دوس إلى رسول الله ﷺ هو شاهد لا تخطئ دلالته على الدور الكبير للطفيل وأبي هريرة في نشر الإسلام بمنطقة وقبيلة دوس خلال السنوات الماضية حتى ذلك القدوم التاريخي لهما على رأس ثمانين أو تسعين أُسرة من دوس في شهر محرم سنة ٧هـ.

* * *

أنباء أبي هريرة منذ هجرته إلى المدينة وحتى فتح مكة

إن قدوم أبي هريرة إلى رسول الله ﷺ في محرم ٧هـ لم يكن على سبيل الوفادة وإنما كان قدومه مهاجراً إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، فهو من الصحابة المهاجرين، وقد جاء في ترجمته بالإصابة أنه: «قَدَمَ المدينة مهاجراً، وسكن الصفة» فعبارة «قدم المدينة مهاجراً»[1] تنطق بصفة الهجرة، وكذلك عبارة ابن قتيبة بأن أبا هريرة «نشأ يتيماً، وهاجر مسكيناً» وحديث ابن مالك عن أبي هريرة قال: «قدمتُ المدينة مهاجراً فصليتُ الصبح وراء سباع»[2].

لقد وصل أبو هريرة والذين معه إلى المدينة فعلموا أن رسول الله ﷺ خرج لغزو اليهود في خيبر واستخلف بالمدينة سباع بن عرفطة، فالتقوا به، وصلى بهم وبغيرهم من المسلمين صلاة الفجر بالمسجد النبوي، حيث أخرج «الدراوردي، عن خيثم عن عراك بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدمت المدينة مهاجراً فصليتُ الصبح وراء سباع فقراء في السجدة الأولى من سورة مريم، وفي الثانية ويل للمطففين. قال أبو هريرة: فقلتُ في نفسي: ويل لأبي فلان ـ (لرجل كان بأرض الأزد في السّراة) ـ وكان له مكيالان مكيال يكيل به لنفسه ومكيال يبخس به الناس»[2].

ثم انطلق أبو هريرة ورجالات دوس للقتال مع رسول الله ﷺ في خيبر، وكذلك انطلق جعفر بن أبي طالب والذين عادوا معه من الحبشة وأبو موسى الأشعري ورجالات الأشاعر للقتال مع رسول الله ﷺ في خيبر، فوصل أبو هريرة والذين معه في يوم معركة فتح خيبر، فور انتهاء المعركة، قال ابن كثير: قال

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة الطفيل ـ جـ٢ ص٢٢٦ ـ ترجمة أبي هريرة ـ جـ٤ ص٢٠٦.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص١٠٣ ـ ١٠٥.

الزُهري عن سعيد ـ بن المسيب ـ عن أبي هريرة قال: (شهدت مع رسول الله ﷺ خيبر) وليس هنالك تعارض بين شهوده فتح خيبر وبين وصوله بعد الفراغ من القتال، لأن فتح خيبر يشمل المعركة ثم دخول رسول الله ﷺ والمسلمين مدينة خيبر بعد الفراغ من القتال[1]، فالتقى أبو هريرة برسول الله ﷺ في ذلك اليوم ودخل معه مدينة خيبر وكذلك الطفيل بن عمرو ومن معهما من رجالات دوس، وقد اعتبرهم رسول الله ﷺ مثل الذين قاتلوا في المعركة فأعطى الذين قاتلوا في المعركة والدوسيين والأشعريين وأصحاب جعفر بن أبي طالب من غنائم خيبر، وكان سهم الفرد الواحد من غنائم خيبر شيئاً يسيراً لأن عدد المسلمين كان يتجاوز خمسة آلاف رجل، فما ذكرته الروايات عن إعطائهم من غنائم خيبر لا يعني أهمية تلك الغنائم وإنما جاء ذكر ذلك في سياق ما حدث في فتح خيبر، وربما أيضاً كَسُنَّةٍ نبوية يتم الاقتداء بها في أي حالة مماثلة.

وكان مع أبي هريرة غلام (عبد) له يقوم بخدمته يوم وصل إلى المدينة وانطلق منها مع رجالات دوس إلى خيبر، فلما كانت الليلة السابقة لوصولهم إلى خيبر ضاع ذلك الغلام العبد، فبحث أبو هريرة عنه فلم يعثر عليه فتوقف عن البحث، أما الغلام العبد الذي ضلّ الطريق فقد سار حتى بلغ معسكر رسول الله ﷺ والمسلمين في خيبر، وأخبرهم أنه غلام أبي هريرة، قال الحافظ ابن كثير: «وقد ثبت في صحيح البخاري أن أبا هريرة ضلّ غلامُ له في الليلة التي اجتمع في صبيحتها برسول الله ﷺ وجعل ينشد:

يا ليلة مِنْ طولها وعنائها على أنها من دارة الكفرِ نَجَتِ

فلما قدم على رسول الله ﷺ قال له «هذا غلامك» فقال أبو هريرة «هو حُرٌّ لوجه الله»[1] ولا شك أن رجُلاً لديه غلام عبد يقوم بخدمته، ثم يعتق ذلك العبد لوجه الله، ليس فقيراً، فتلك الواقعة تدل على أن أبا هريرة كان متوسط الحال حين هاجر إلى رسول الله ﷺ والتقى به في خيبر وعاد معه إلى المدينة المنورة واستقر بها.

* * *

وكان أبو هريرة يومئذٍ ـ أي في محرم ٧هـ ـ ابن ثلاثين سنة، وقد رُوي عنه أنه قال: «قدمتُ ورسول الله ﷺ بخيبر، وأنا يومئذٍ قد زدت على الثلاثين سنة»[2].

وقد وصفه أحد الرواة فقال ـ فيما ذكر ابن كثير ـ «كان ـ أبو هريرة ـ آدم

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص١٠٣ ـ ١٠٥.

(٢) الإصابة ـ ترجمة أبي هريرة ـ جـ٤ ص٢٠٦.

اللون، بعيد ما بين المنكبين، ذا طفرتين، أقرن الثنيتين»[١] وقد نقل ابن حجر العسقلاني ذلك الوصف عن عبد الرحمن بن لبيبة قال: «رأيتُ أبا هريرة، وهو آدم، بعيد ما بين المنكبين، ذا ضفيرتين أفرث الثنيتين» وهو وصف غير دقيق فكلمة (آدم اللون) تعني (أسمر شديد السمرة) ولم يكن أبو هريرة كذلك وإنما كان أبيض اللون، وفي ذلك قال العسقلاني: «أخرج ابن سعد من طريق قرة بن خالد: قلتُ لمحمد بن سيرين: أكان أبو هريرة مخشوشناً؟ قال: لا، كان ليناً. قلتُ: فما كان لونه؟ قال: أبيض»[٢] ويمكن القول بأن الذي وصفه بأنه (آدم اللون) يعني أنه لم يكن شديد البياض، وأن ابن سيرين بقوله كان لونه (أبيض) يعني (بياض العرب) وليس (شدة البياض) ويتبين من ذلك الوصف الصحيح لأبي هريرة بأنه كان «أسمر أبيض، بعيد ما بين المنكبين، أقرن الثنيتين».

وكانت مع أبي هريرة بالمدينة زوجته وابنته، أما والدة أبي هريرة فقد تقدم ذكر إسلامها باليمن والقول بأن اسمها «ميمونة بنت صفيح بن الحارث» وجاء في الإصابة أن اسمها «أميمة بنت صُبيح بن الحارث. . وكان سعيد بن صبيح خال أبي هريرة من أشد الناس» ثم ذكر العسقلاني خبر إسلامها الذي ذكرناه فيما تقدم، وليس هناك أي خبر يشير إلى قدومها مع أبي هريرة إلى المدينة، وقد ذكر ابن كثير عن ابن سعد وابن الكلبي والطبراني أنها «أسلمت وماتت مسلمة» فيكون ذلك باليمن.

أما زوجة أبي هريرة وابنته فكانتا معه بالمدينة، قال الصحابي أبو عثمان النهدي: «كان أبو هريرة يقوم ثلث الليل، وامرأته ثلثه، وابنته ثلثه، يقوم هذا ثم يوقظ هذا، ثم يوقظ هذا هذا» وجاء في البداية والنهاية أن أبا هريرة «قالت له ابنته: يا أبة إن البنات يعيرنني يقلن: لِمَ لا يحليك أبوك بالذهب؟ فقال: قُولي لهن إن أبي يخشى عليّ حرّ اللهب» وأخرج الطبراني عن ابن سيرين أن أبا هريرة قال لابنته: (لا تلبسي الذهب فإني أخشى عليك حَرّ اللهب). وليس في الروايات ما يدل على زمن ذلك، وكان لأبي هريرة أيضاً ابن اسمه (المحرر ـ بمهملتين ـ) ولكن مولده كان بالمدينة بعد عهد رسول الله ﷺ غالباً.

وقد ذكرت الروايات أن أبا هريرة لما قدم المدينة واستقر بها «سكن الصُّفة»، ونرى أن ذلك يعود إلى أحد أمرين: إما ازدحام بيوت المدينة بسبب كثرة الذين قدموا إلى المدينة واستقروا بها آنذاك ومنهم الدوسيون والأشعريون وجعفر بن أبي

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص١٠٣ ـ ١٠٥.
(٢) الإصابة ـ ترجمة أبي هريرة ـ جـ٤ ص٢٠٦.

طالب والذين معه، وإما أن أبا هريرة لم يرغب في أن يسكن بمنزل أحد، فاختار أن يسكن بالصُّفة، فسكن بها فترة لا شك أنها قصيرة. «والصُّفة: مكان مظلل كبير في مؤخرة المسجد النبوي من الجهة الشمالية، وكان يسكن الصُّفة أُناس فقراء لا منازل لهم ولا عشائر» وكان يسكن الصُّفة نحو سبعين شخصاً وكانوا يكثرون فيها أو يقِلّون بسبب من يسافر منهم أو يعمل في الأرض وغيرها أو من يصبح له منزل، ويمكن التأكيد على عدم صحة إحدى الروايات التي تحاول تصوير أبي هريرة بأنه كان مسكيناً وظل يسكن الصُّفة لا يبرحها في عهد رسول الله ﷺ، فالواقع أن أبا هريرة سكن بالصُّفة فترة قصيرة، ولم يلبث أن أصبح له بالمدينة منزل خاص أو منزلان، أحدهما منزله الخاص مع زوجته وابنته، وقد «ذكر النووي في شرح مسلم: أن أبا هريرة كان ينزل بالمدينة بذي الحليفة وله بها داراً» وكان له أيضاً فيما بعد منزل وأرض بالعقيق. وقد كان أبو هريرة حينما سكن الصُّفة يعمل أجيراً عند (بنت غزوان) وهي ـ كما جاء في الإصابة ـ «بسرة بنت غزوان التي كان أبو هريرة أجيرها ثم تزوجها، وهي أخت عتبة بن غزوان المازني الصحابي المشهور أمير البصرة» ـ يعني أمير البصرة في خلافة عمر ـ قال العسقلاني: «وقصة أبي هريرة معها صحيحة»[١] والمقصود أنه كان يعمل أجيراً عندها ثم تزوجها، وليس في الروايات تبيين لزمن ذلك سوى أن أبا هريرة لما تولى المدينة ـ بعد سنة ٤٠ هجرية ـ «صلى بالناس يوماً، وخطب فقال في خطبته: الحمد لله الذي جعل الدين قواماً وجعل أبا هريرة إماماً بعدما كان أجيراً لبنت غزوان. والله لقد كنتُ أحدوا بهم إذا ركبوا، واحتطبُ إذا نزلوا. ثم زَوَجَنِيهَا اللَّهُ فكنتُ أركبُ إذا ركبوا، وأُخْدَمُ إذا خُدِموا، وانزلُ إذا نزلوا»[٢] ولقد زعم (محمود أبو ريّة) أن زواج أبي هريرة بابنة غزوان كان في زمن معاوية، بسبب خطأ وقع فيه أحد أصحاب التراجم حيث قال أنه «تزوجها لما كان مروان يستخلفه في إمْرة المدينة، وأصل ذلك أنه ذكرها في خطبته لما كان مروان يستخلفه في المدينة، وذلك في معرض حديثه عن نعمة الله، أما الزواج فكان قديماً بدليل قوله: «كنت أحدوا بهم إذا ركبوا» يعني ابنة غزوان وأخيها عتبة بن غزوان، وقوله: «ثم زَوَجنِيهَا اللَّهُ فكنتُ أركبُ إذا ركبوا.. الخ». فهو يذكر هنا واقعة قديمة لأن عتبة بن غزوان مات سنة ١٥ هجرية، ويمكن القول أن ذلك الزواج كان سنة ٧ هجرية وقبل رمضان ٨هـ بكل تأكيد لأنه أصبح بعد ذلك من عمال النبي ﷺ.

---

(١) الإصابة ـ ترجمة بسرة بنت غزوان ـ جـ٤ ص٢٥٢.

(٢) البداية والنهاية ـ جـ٨ ص١١٠.

ولقد كان أبو هريرة يتمتع بموهبة عظيمة في الحفظ، فمنذ هجرته واستقراره بالمدينة ـ في محرم ٧هـ ـ استفرغ أبو هريرة جهده في سماع واستيعاب وحفظ أحاديث النبي ﷺ وأعطى لذلك اهتماماً كبيراً، بل إنه لم يقتصر على سماع وحفظ أحاديث النبي ﷺ وإنما كان يسأل النبي ﷺ ويحرص على أن يسمع منه، فبلغ من العلم بالأحاديث النبوية ما لم يبلغه أحد غيره من الصحابة، قال العسقلاني: «وقد أخرج أحمد مِنْ حديث أُبَيّ بن كعب الأنصاري أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره. وأخرج البخاري في الصحيح من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قُلت يا رسول الله مَنْ أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: لقد ظَنَنت أن لا يسألني عن هذا أحدُ أولُ منك لِمَا رأيتُ مِنْ حرصك على الحديث.

وأخرج النَسَائي بسند جيد في العلم من كتاب السنن: أن رجلاً جاء إلى زيد بن ثابت فسأله، فقال له زيد: عليك بأبي هريرة فإني بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ندعوا الله ونذكره إذْ خرج علينا رسول الله ﷺ حتى جلس إلينا فقال: عودوا للذي كنتم فيه، قال زيد: فدعوت أنا وصاحبي فجعل رسول الله ﷺ يُؤمِّنُ على دعائنا، ودعا أبو هريرة فقال: إني أسألك ما سأل صاحباي وأسألك علماً لا يُنسى، فقال رسول الله ﷺ: آمين. فقلنا: يا رسول الله ونحن نسألك علماً لا يُنسى، فقال: سبقكم بها الغلام الدوسي».

وقد ذكر القرطبي أن أبا هريرة شهد خيبر مع رسول الله ﷺ ثم قال ما يلي نصه: «ثم لزمه وواظب عليه رغبة في العلم، فكانت يده مع يد رسول الله ﷺ وكان يدور معه حيث دار، وكان من أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ. . وقد شهد له رسول الله ﷺ بأنه حريص على العلم والحديث»(١).

قال ابن كثير: «وقد كان أبو هريرة من الصدق والحفظ والديانة والعبادة والزهد والعمل الصالح على جانب عظيم»(٢).

* * *

ولقد شهد أبو هريرة الغزوات مع رسول الله ﷺ منذ يوم خيبر ـ في محرم ٧هـ ـ وحتى فتح مكة والطائف ـ في رمضان وشوال ٨هـ ـ وما يتصل بذلك قوله: «قدمتُ ورسول الله ﷺ بخيبر» إلى أن قال وكنتُ «أَحُجُ وأغزو معه» ومصطلح (الحج) يشمل

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ جـ٤ ص٢٠٨.
(٢) البداية والنهاية ـ جـ٨ ص١١٠.

العمرة وهي الحج الأصغر، وكان أولها عمرة القضية في ذي القعدة ٧هـ وقد اعتمر رسول الله ﷺ والذين معه عمرة القضية بموجب صلح الحديبية، قال العسقلاني: «وافى الطفيل بن عمرو الدوسي النبي ﷺ في عمرة القضية، وشهد فتح مكة» وكذلك أبو هريرة. وذكر النيسابوري في كتاب المستدرك على الصحيحين: أن أبا هريرة شهد غزوة مؤتة(١). وكانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ٨هـ.

ثم شهد أبو هريرة فتح مكة مع رسول الله ﷺ وفي ذلك جاء في عيون الأثر لابن سيد الناس أنه «أقبل رسول الله ﷺ إلى مكة.. قال: وقد وبشت قريش أوباشها.. فقال رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة. قلت: لبيك يا رسول الله، قال: اهتف لي بالأنصار، ولا يأتني إلا أنصاري. فهتف بهم فجاءوا، فأطافوا برسول الله ﷺ فقال لهم: ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا. قال أبو هريرة: فانطلقنا فما يشاء أحدُ منّا أن يقتل منهم ما شاء وما أحد يوجه إلينا منهم شيئاً، فقال أبو سفيان: يا رسول الله أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم، فقال رسول الله ﷺ: من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فأغلق الناس أبوابهم» ص٢٢٦ جـ١.

وقد تم فتح مكة في رمضان، ثم غزوة حنين والطائف في شوال ٨هـ وكان أبو هريرة مع رسول الله ﷺ في ذلك الغزو والفتح، وكان معسكر رسول الله ﷺ في الجعرانة(٢) ثم انصرف إلى مكة وأدى العمرة «وبعث رسول الله ﷺ منصرفه من الجعرانة العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى وأهل البحرين، وبعث معه نفراً كان فيهم أبو هريرة، وقال للعلاء: استوص به خيراً»(٣).

* * *

البعث النبوي لأبي هريرة إلى أرض البحرين

إن واقعة بعث أبي هريرة إلى البحرين هي ذات دلالات هامة جعلت محمود أبو ريّة يقول: «إن الذي يهمنا ويعنينا ويجعلنا لا نحول وجهنا إلى غيره مهما كان، ومهما كان قائله هو إثبات وجود أبي هريرة في البحرين من يوم ذهب إليها مع العلاء بن الحضرمي في ذي القعدة سنة ٨ هجرية»(٣) ثم استدل من ذلك على أمر

---

(١) المستدرك النيسابوري ـ جـ٢ ص١٢.

(٢) الجعرانة: مكان فيه ماء بين الطائف ومكة وهو إلى مكة أقرب، وقد قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين في الجعرانة.

(٣) شيخ المضيرة ـ محمود أبو ريّة ـ ص٦٣ و٦٧.

صحيح قائلاً: «إن أبا هريرة قدم من بلاده على النبي ﷺ وهو بخيبر، وأن النبي ﷺ بعثه مع العلاء بن الحضرمي منصرفه من الجعرانة في ذي القعدة سنة ٨ هجرية، وبذلك تكون مدة إقامته بجوار النبي ﷺ لا تزيد عن سنة واحدة وتسعة أشهر فقط»[١] ويترتب على ذلك إدراك عدة أمور وحقائق من بينها:

أولاً ـ عدم صواب ما زعمته بعض الروايات عن إقامة أبي هريرة في (الصُفّه) وإنه لم يفارقها وكان مسكيناً وأقام بالصفة حتى وفاة رسول الله ﷺ وكذلك القول بأنه كان ملازماً للنبي ﷺ منذ قدومه في محرم سنة ٧هـ وحتى وفاة النبي ﷺ، فالصحيح إنه سكن في الصُّفة فترة قصيرة، ثم كان له منزله الخاص، وشهد عمرة القضية (في ذي القعدة ٨هـ) وغزوة مؤته بالأردن (في جماد أولى ٨هـ) وشهد فتح مكة (في رمضان ٨هـ) وغزوة حنين والطائف وكان مع رسول الله ﷺ مُنصرفه من الجعرانة حيث أدى عمرة الجعرانة ثم بعثه رسول الله ﷺ مع العلاء بن الحضرمي إلى البحرين مُنصرفه من الجعرانة، وبذلك انتهت الفترة الأولى من ملازمته لرسول الله ﷺ والتي كانت سنة واحدة وتسعة أشهر، وقد زعم (محمود أبو رية) في أرائه الخاطئة أن أبا هريرة «ظل بالبحرين ولم يعد إلى المدينة إلا بعد وفاة النبي ﷺ بسنين طويلة»[١]. والصحيح إنه مكث بالبحرين زهاء سنة ثم عاد إلى المدينة وسيأتي عن ذلك النبأ اليقين.

ثانياً ـ أن واقعة بعث أبي هريرة إلى البحرين تؤكد مكانته في العلم والمعرفة بالقرآن والسنة النبوية وتعاليم الإسلام لأن رسول الله ﷺ لم يكن يبعث الأمراء والعمال والرُسل إلا مِنْ خيرة الصحابة وأولي علمهم وفضلهم ودينهم، فقيام رسول الله ﷺ ببعثه إلى البحرين يؤكد ما ذكره الحافظ بن كثير قائلاً: «كان أبو هريرة من الصدق والحفظ والديانة والعبادة والعمل الصالح على جانب عظيم» وإنه «لزم أبو هريرة رسول الله ﷺ ولم يفارقه إلا حين بعثه مع العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، ووصاه به»[٢].

* * *

لقد انطلق العلاء بن الحضرمي وأبو هريرة وبقية المبعوثين مع العلاء ـ في ٣ ذي القعدة ٨هـ ـ متوجهين إلى أرض البحرين وعاصمتها مدينة هَجَرْ لدعوة المنذر بن ساوي وأهل البحرين إلى الإسلام فإذا استجابوا يقوم العلاء والمبعوثون معه بالأعمال التي بعثهم النبي ﷺ من أجلها بصفتهم عمال النبي ﷺ بالبحرين، وقد اكتفت الرواية سالفة الذكر عن بعث العلاء بأن النبي ﷺ «.. بعث معه نفراً

(١) شيخ المضيرة ـ محمود أبو ريّة ـ ص٦٣ و٦٧.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص١١٤.

كان فيهم أبو هريرة، وقال له: واستوص به خيراً» ولم تذكر الرواية بقية المبعوثين، وقد ذكرنا في المبحث الخاص بالعلاء بن الحضرمي إن منهم قدامة بن مظعون، وأبان بن سعيد بن العاص، والأقرع بن عبد الله الحميري، وجاء في رواية عن كتاب رسول الله ﷺ لما بعث العلاء بن الحضرمي أن من المبعوثين معه خالد بن الوليد[١] وقد استبعد جامع كتاب الوثائق أن خالد بن الوليد كان مبعوثاً مع العلاء إلى البحرين[١]، ولذلك نميل إلى أنه خالد بن سعيد بن العاص، بحيث يمكن القول أن المبعوثين مع العلاء إلى البحرين هم: أبو هريرة، وقدامة، وأبان بن سعيد، والأقرع، وخالد، وجماعة من الفرسان.

فلما وصلوا مشارف مدينة هَجَرْ البحرين، وقع ما رواه ابن سعد في الطبقات من طريق سالم مولى بني نصر قال: «سمعت أبا هريرة يقول: بعثني رسول الله ﷺ مع العلاء بن الحضرمي وأوصاه بي خيراً، فلما فَصَلْنَا قال لي: أن رسول الله قد أوصاني بك خيراً فانظر ماذا تحب؟ فقلت: تجعلني أؤذنُ لك ولا تسبقني بآمين، فأعطاني ذلك»[٢] وجاء في الإصابة نفس الخبر كما رواه ابن سعد من طريق سالم مولى بني نصر، بينما نقل (محمود أبو رية) ذلك بلفظ « . . فقال لي: ما تُحب؟ قلت: أؤذن لك ولا تسبقني بأذان» وجاء في البداية والنهاية أن أبا هريرة: (بعثه النبي ﷺ مع العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، ووصاه به، فجعله مؤذناً بين يديه، وقال له أبو هريرة لا تسبقني بأذان أيها الأمير»[٣].

فدخل موكب العلاء بن الحضرمي والذين معه مدينة هَجَرْ وتوجهوا إلى قصر المنذر بن ساوي، وأبو هريرة يؤذن «الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله. . الله أكبر الله أكبر». ولعل سكان هجر عاصمة البحرين أخذوا يلتفون وهُمْ يسمعون ذلك النداء ـ الأذان ـ لأول مرة في حياتهم وحياة مدينتهم، وربما دخل العلاء إلى بلاط المنذر بن ساوي، وأبو هريرة يؤذن بين يدي العلاء، ثم قراء العلاء كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوي وأهل البحرين يدعوهم إلى الإسلام، وقام العلاء والذين معه بتبيين ما أمرهم رسول الله ﷺ بتبيينه عن دين الإسلام، فأسلم المنذر بن ساوي، ثم قاموا بدعوة أهل هَجَرْ البحرين إلى كتاب الله وشريعة الإسلام، فأسلم العرب جميعاً، ورفض الفرس المجوس الدخول في دين الإسلام،

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٥٧٢.
(٢) طبقات الصحابة ـ ابن سعد ـ جـ٤ ص٧٧.
(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص١١٤.

فتم فرض الجزية عليهم. وسار العلاء وأبو هريرة وأصحابهم إلى أرجاء مناطق وقبائل أرض البحرين بمدلولها الواسع القديم الممتد من تخوم عمان جنوباً إلى كاظمة الكويت وتخوم العراق شمالاً ومن تخوم اليمامة غرباً إلى مياه الخليج شرقاً، فأسلم العرب ودخلوا في دين الله أفواجاً، وكان لأبي هريرة إسهامه في ذلك وفي تأسيس العصر الإسلامي بأرض البحرين.

* * *

ومكث أبو هريرة مع العلاء بن الحضرمي في البحرين، وكان أبو هريرة يؤذن للصلاة بمسجد مدينة هجر ـ الذي بناه العلاء وهو أول مسجد بالبحرين ـ فكان أبو هريرة أول مؤذن للصلاة في جامع وأرض البحرين. وقد حاول (محمود أبو ريّة) التقليل من مكانة أبي هريرة وزعم أنه كان لا يعرف من أمور الدين إلا (التأذين) وإنه لم يكن إلا (مؤذناً بالبحرين) واستند في ذلك إلى الرواية سالفة الذكر في طبقات ابن سعد والإصابة وإلى رواية تقول: «كان أبو هريرة مؤذناً بالبحرين واشترط على الإمام أن لا يسبقه بآمين والإمام هو العلاء بن الحضرمي»، وقد اندفع (محمود أبو ريّة) إلى استنتاجات خاطئة فلم يكن العلاء إمام مسجد ولا كان أبو هريرة يؤذن للصلاة فقط، وبقاء المنذر بن ساوي حاكماً في البحرين لا يعني أن العلاء لم يكن الأمير.

فقد أقرّ النبي ﷺ المنذر بن ساوي حاكماً على ما تحت يده من أرض البحرين وهي مدينة هجر وما كان إليها من مناطق، وكذلك أقرَّ بقية الحكام والزعماء الذين أسلموا في مناطق البحرين الأخرى، وولى النبي ﷺ عليهم وعلى كل البحرين العلاء بن الحضرمي، وقد قال النبي ﷺ في كتابه إلى أهل البحرين ما يلي نصه: ـ «..والعلاء الحضرمي أمين رسول الله على بَرّها، وبحرها، وحاضرها، وسراياها، وما خرج منها. وأهل البحرين خُفراؤه من الضيم، وأعوانُه على الظالم، وأنصاره في الملاحم»[1].

وقد بعث رسول الله ﷺ مع العلاء بن الحضرمي أبا هريرة، وقدامة بن مظعون، وأبان بن سعيد، وينطبق عليهم قول الإمام الغزالي: «وقد تواتر أن النبي ﷺ كان لا يُنفذ أمراءه وقضاته ورسله إلى الأطراف، إلا لقبض الصدقات وحل العهود وتبليغ أحكام الشرع»[2] وقال العجاج: «إن رسول الله ﷺ أرسل أبا هريرة إلى البحرين لينشر الإسلام ويُفقه المسلمين ويعلمهم أمور دينهم»[2] وقد كان الأمير

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص١٥٣.
(٢) المستصفى ـ للغزالي ـ جـ١ ص٩٦ ـ وأبو هريرة راوية الإسلام ـ للخطيب العجاج ـ ص١٠٧.

هو الذي يصلي بالناس في عهد النبي ﷺ والخلافة الإسلامية، لذلك كان أبو هريرة يؤذن للصلاة والعلاء يصلي بالناس، فإذا لم يكن العلاء بمدينة هَجَر يصلي أبو هريرة بالناس، وذلك لأن العلاء لم يكن يقيم في مدينة هجر بصفة دائمة وقد جاء في رواية للبلاذري «أن العلاء كان على ناحية من البحرين منها القطيف، وأن أبان بن سعيد كان على ناحية أخرى فيها مدينة الخط»(١) بينما كان أبو هريرة وقُدامة في هجر، حيث ذكر ابن سعد في الطبقات وعبد المنعم في الرسالات النبوية: أن النبي ﷺ بعث قُدامة وأبا هريرة إلى المنذر بن ساوي ـ أي في هَجَرْ ـ(٢) وكان العلاء يتنقل بين العمال والمدن الرئيسية وربما كان يقيم أكثر الوقت في مدينة القطيف والساحل بينما كان أبو هريرة في مدينة هَجَرْ.

***

وفي أواخر سنة ٩ هجرية بعث رسول الله ﷺ بكتابين أحدهما إلى المنذر والثاني إلى العلاء، وقام الذي أرسل النبي ﷺ الكتابين معه بإبلاغ أبي هريرة وقدامة بمضمون الكتابين للقيام بما جاء فيه والقدوم إلى النبي ﷺ بما هو مذكور في الكتابين، وفيما يلي نص الكتابين:

الكتاب الأول: «من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي. أما بعد: فإنّي قد بعثت إليك قُدامة وأبا هريرة، فادفع إليهما ما اجتمع عندك من جزية أرضك. والسلام. وكتب أُبَيّ»(١).

الكتاب الثاني: «من محمد رسول الله إلى العلاء بن الحضرمي. أما بعد: فإنّي قد بعثت إلى المنذر بن ساوي مَنْ يَقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية، فعجّلْه بها، وابعَثْ معها ـ (معهما) ـ ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور. والسلام. وكتب أُبَيّ»(١).

فقام العلاء بتعجيل المنذر بن ساوي بتسليم ما اجتمع عنده من الجزية المفروضة على الفرس المجوس والأسبَذيّين واليهود ـ وكانت الجزية دينار على كل حالم منهم على الذكر والأنثى ـ وجمع العلاء ما اجتمع عنده من فائض صدقات المسلمين ومن العشور التجارية، وقام بتسليم كل ذلك إلى أبي هريرة وقدامة بن مظعون فانطلقا بذلك المال إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة.

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٩٢.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص١٥٣ و١٥٩ ـ وكاتب الكتابين (أُبي) هو (أبي بن كعب الأنصاري الذي تزوج بنت الطفيل بن عمرو).

والظاهر أن ذلك هو المال الذي ذكره البلاذري قائلاً: «بعث العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ مالاً من البحرين يكون ثمانين ألفاً، ما أتاه أكثر منه قبله ولا بعده»[١].

وبوصول أبي هريرة بذلك المال إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة انتهت الفترة التي كان فيها من عمال رسول الله ﷺ على البحرين، ويمكن تحديد تلك الفترة بأنها ابتدأت يوم بَعَثَه رسول الله ﷺ إلى البحرين مع العلاء - في ٣ ذي القعدة سنة ٨هـ - وانتهت بعودته وقدومه من البحرين في أواخر ذي القعدة سنة ٩ هجرية وهي فترة سنة كاملة وشهر واحد تقريباً.

* * *

الفترة الثانية لأبي هريرة مع رسول الله ﷺ

لقد قال (محمود أبو ريّة) في أرائه الخاطئة ما يلي «أن أبا هريرة قد ظل بالبحرين من يوم أن بعثه النبي ﷺ مع العلاء - في ذي القعدة سنة ٨هـ - ولم يعد إلى المدينة إلا بعد وفاة النبي ﷺ بسنين طويلة. . فمدة إقامته بجوار النبي ﷺ كانت من صفر ٧هـ وانتهت في ذي القعدة ٨ وهي سنة واحدة وتسعة أشهر فقط، لا كما هو مشهور لدى الجمهور من أنه صاحب النبي ﷺ ثلاث سنوات. . وإنه أقام مع النبي ﷺ حتى مات». وقد استند (محمود أبو ريّة) في تكذيبه هذا للأحاديث النبوية ولعلماء الأمة إلى وجود أبي هريرة مع العلاء في البحرين في خلافة أبي بكر ثم في خلافة عمر إلى أن قام عمر بتوليته على البحرين، واندفع محمود أبو ريّة إلى الزعم بأن «ما روته كتب السنة من أنه لازم النبي ﷺ ثلاث سنوات، وإنه صَحَب النبي ﷺ حتى مات، إنما هو محض افتراء منه وممن رووه عنه بما فيهم البخاري» - انتهى -. والواقع أن عداء (محمود أبو ريّة) لأبي هريرة والسنة النبوية قد حجب عنه إدراك حقيقة بسيطة وهي أن أبا بكر الصديق بعد أن تولى الخلافة بعث أبي هريرة إلى البحرين - في رجب سنة ١١هـ - وذلك هو سبب وجوده بالبحرين في خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب.

فالفترة التي قضاها أبو هريرة ملازماً للنبي ﷺ - من شهر محرم وصفر ٧هـ حتى ذي القعدة ٨هـ - هي الفترة الأولى وكانت سنة كاملة وتسعة أشهر - ولما عاد من البحرين - في أواخر ذي القعدة ٩هـ - بدأت الفترة الثانية التي لَازَم وصاحب فيها أبو هريرة النبي ﷺ حتى وفاته - في ربيع أول ١١هـ - وهي فترة سنة كاملة وثلاثة أشهر، وبذلك يكون مجموع الفترتين ثلاث سنوات.

---

(١) فتوح البلدان - للبلاذري - ص٩٢.

وكان من معالم الفترة الثانية لأبي هريرة مع رسول الله ﷺ قدومه من البحرين مع قُدامة بن مظعون ومعهما المال الذي اجتمع من الجزية والصدقة والعشور في نهاية سنة من بَعْثهما مع العلاء إلى البحرين ـ أي ذي القعدة ٨هـ حتى ذي القعدة ٩هـ ـ وقد أسفلنا ذكر نص كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوي وإلى العلاء بن الحضرمي ببعث ذلك المال مع أبي هريرة وقُدامة، وكان ذلك المال الذي قدم به أبو هريرة وقدامة إلى النبي ﷺ زهاء ثمانين ألف دينار، ولم يأت النبي ﷺ مالاً أكثر منه قبله ولا بعده.

ثم بعثه النبي ﷺ في البعث الذين بعثهم مع علي بن أبي طالب بسورة براءة في الحج الذي حج فيه بالناس أبو بكر الصديق ـ ذي الحجة سنة ٩هـ ـ وكان النبي ﷺ قد بعث أبا بكر أميراً على الحج، وبعد أن فَصَل أبو بكر عن المدينة نزلت سورة براءة، فبعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب ليقرأ سورة براءة على الناس في الحج وبعث معه نفراً كان منهم أبو هريرة، فالتقوا بأبي بكر في الطريق إلى مكة ومضوا جميعاً إلى الحج. وقد أخرج الحاكم وأحمد والنسائي عن أبي هريرة قال: «كنا مع عليّ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ببراءة» ويُروى: «كنتُ في البعث الذين بعثهم رسول الله ﷺ مع عليّ ببراءة. وكنا نقول: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله إلى أربعة أشهر» وأخرج البخاري «أن أبا بكر الصديق قد بعث أبي هريرة في مؤذنين في تلك الحجة ليؤذن في الناس ببراءة، وكان عليٌّ يؤذن معنا ببراءة». فكان أبو هريرة يؤذنُ ـ أي يعلن وينادي ويُبلغ الناس ـ بحكم سورة براءة هو وعدد من الصحابة حتى يتحقق العلم بذلك عند الجميع وبصفة خاصة بما ذكره أبو هريرة إنه «. . لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله أربعة أشهر» يعني إذا لم تكن مدة العهد محددة وإلا فإن أجل العهد انتهاء مدته، والمقصود العهود مع المشركين وكانت مدتها غير محددة غالباً فانتهت في ربيع الثاني سنة ١٠هجرية، فعندما حج أبو هريرة مع رسول الله ﷺ حجة الوداع ـ في ذي الحجة ١٠هـ ـ لم يعد هنالك أحدُ مِنْ المشركين، وتَرَسَخَتْ تعاليم الإسلام الخالدة.

وكانت تلك الفترة الثانية من مُلازمة وصحبة أبي هريرة لرسول الله ﷺ امتداداً للفترة الأولى في اهتمام وحرص أبي هريرة على سماع وحفظ أحاديث رسول الله ﷺ وملازمته، وكان يسأل رسول الله ﷺ عن أمور كثيرة ويسمع منه علماً كثيراً، حيث كما قال أُبيّ بن كعب الأنصاري: (كان أبو هريرة جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن

أشياء لا يسأله عنها غيره) وذات مرة (قال له رسول الله ﷺ: ألا تسألني مِنْ هذه الغنائم؟ فقال أبو هريرة: أسألك أن تُعلمني مما علمك الله». وأخرج ابن عيينه من طريق قيس بن أبي حازم البجلي عن أبي هريرة قال: (صحبتُ رسول الله ﷺ ثلاث سنين لم أكن أحرص إلا على أن أعِي الحديث مِنْ فَيِّهْ). [ص٢٠٧ جـ ٤ ـ الإصابة].

ولما مرض رسول الله ﷺ مرض الموت ـ في ربيع الأول ١١هـ ـ توجه أبو هريرة لزيارته حيث وقع اللقاء الذي حضره ورواه الصحابي أبو سلمة وذكره ابن حجر العسقلاني قائلاً: «أخرج أبو يَعْلى من طريق أبي سلمة قال: ـ جاء أبو هريرة يُسلم على النبي ﷺ في شكواه، يَعُوده، فأذن له، فدخل فَسَلم وهو قائم، والنبي ﷺ مُتساند إلى صدر عليّ ويده على صدره ضامة إليه والنبي ﷺ باسطُ رجليه، فقال: أُدنُ يا أبا هريرة، فَدَنا، ثم قال: أُدن يا أبا هريرة، فدنا، ثم قال: أُدن يا أبا هريرة، فدنا حتى مست أطراف أصابع أبي هريرة أصابع النبي ﷺ ثم قال له: اجلس، فجلس، فقال له: أدْنِ مني طرف ثوبك، فَمَدَ أبو هريرة ثوبه فأمسك بيده ففتحه وأدناه من النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: أُوصيك يا أبا هريرة بخصالٍ لا تدعهن ما بَقَيت؟ قال: أوصني ما شئت، فقال له: عليك بالغسل يوم الجمعة والبكور إليها، ولا تَلْغُ، ولا تَلْهُ، وأوصيك بصيام ثلاثة أيام من كل شهر فإنه صيام الدهر، وأوصيك بركعتي الفجر لا تدعهما وإن صَلَيْتَ الليل كله فإن فيهما الرغائب، قالها ثلاثاً، ثم قال: ضُم إليك ثوبك، فضم ثوبه إلى صدره، فقال يا رسول الله بأبي وأُمي أُسِّرُ هذا أو أُعْلِنَه؟ قال: بل أعلنه يا أبا هريرة، قالها ثلاثاً» [ص٢٠٨ ـ الإصابة].

ثم ما لبث أن مات رسول الله ﷺ ـ في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ ـ فكان أبو هريرة هو حافظ أحاديث رسول الله ﷺ وهو الأكثر معرفة وعلماً بها، وهو الذي سمع من أقوال وأحاديث وخُطب رسول الله ﷺ ما سمعه غيره من الصحابة وما لم يسمعوه، فأما الذي سمعه مع غيره من الصحابة فقد حفظه أبو هريرة ونَسَاهُ الذين ليس لديهم موهبة الحفظ أو لم يكن عندهم نفس الاهتمام، وكذلك حفظ أبو هريرة الذي لم يسمعه غيره وسأل هو عنه رسول الله ﷺ من العلم والأحاديث، وقد ترتبت على ذلك كله مسؤولية عظيمة على أبي هريرة وهي مسؤولية تعريف الناس والأجيال بذلك العلم وبأحاديث وسنة رسول الله ﷺ، فقام أبو هريرة بتلك المسؤولية العظيمة فلم يزل يروى أحاديث وسُنة الرسول ﷺ ويقوم بتعريف الناس بذلك العلم طيلة السبعة وأربعين سنة التي عاشها بعد رسول الله ﷺ، وتَحَملَ أبو هريرة في سبيل ذلك مِن الأذى ما لم يتحمله كل بقية الصحابة. بل أن أحداً من

الصحابة لم يتعرض للأذى في سبيل الأحاديث النبوية والتعريف بها إلا أبو هريرة وسيأتي عن ذلك النبأ اليقين بعد أن نذكر معالم جهاده والأعمال التي تولاها في خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب.

* * *

إمارة أبي هريرة وجهاده في خلافة أبي بكر وعمر

لقد مكث أبو هريرة فترة بالمدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ، واشترك في محاربة وقمع محاولات الردة في جهات نجد واليمامة والبحرين، وبعثه الخليفة أبو بكر الصديق مع العلاء بن الحضرمي حين عاد العلاء أميراً على ولاية البحرين ـ في حوالي شهر رجب ١١هـ ـ فكان أبو هريرة من العمال المساعدين للعلاء بالبحرين، وشهد معه فتح (الزارة) و(السابون) في أول خلافة عمر بن الخطاب ثم انطلق أبو هريرة في جيش العلاء لفتح جزيرة دارين. وقد ذكرت المصادر التاريخية عن أبي هريرة إنه «كان مع العلاء بن الحضرمي لما سار في أربعة آلاف لغزو (دارين) فانطلقوا حتى أتوا على خليج من البحر ما خاضه قبلهم أحد ـ وهو المفازة البحرية بين الساحل وجزيرة دارين ـ فأخذ العلاء بعنان فرسه فسار على وجه الماء وسار الجيش وراءه ـ فوق المفازة البحرية ـ إلى دارين، قال أبو هريرة: فوالله ما ابْتَلّ لنا قَدمُ، ولا خُفٌ ولا حافر» ولعل الأصوب «ما ابْتَلْ لنا قدمُ، إلا خُفٌ، وإلا حافر» لأن مياه المفازة كانت تصل إلى إخفاف الإبل وحوافر الخيل دون الركبتين ولا تصل إلى أقدام المسلمين الراكبين عليها، فدخلوا جزيرة دارين وتم فتحها في حوالي شهر شوال سنة ١٣هـ ومكث أبو هريرة مع العلاء بن الحضرمي إلى أن أعفاه ـ أو عزله ـ عمر عن البحرين. قال ابن كثير: «عزله عمر عن البحرين وولى مكانه أبا هريرة، ثم أمَّرَه عمر على الكوفة ـ أي العلاء ـ فمات قبل أن يصل إليها منصرفه من الحج»[١].

بينما ذكر البلاذري إنه: «كتب عمر بن الخطاب إلى العلاء بن الحضرمي وهو عامله على البحرين يأمره بالقدوم عليه، وولى عثمان بن أبي العاصي الثقفي البحرين وعمان، فلما قدم العلاء المدينة ولاه البصرة مكان عتبة بن غزوان، فلم يصل إليها حتى مات وذلك في سنة أربعة عشر أو في أول سنة خمسة عشر، ثم أن عمر وَلّى قدامة بن مظعون الجمحي جباية البحرين، وولى أبا هريرة الأحداث والصلاة.. قال الهيثم: كان قُدامة على الجباية والأحداث، وأبو هريرة على

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١٢٠.

الصلاة والقضاء.. ثم عزل عمرُ قُدامة، وولى أبا هريرة على البحرين»[١]. ولكن البلاذري لم يهمل الرواية التي ذكرها ابن كثير فقد أشار إليها قائلاً: «ويُقال: أن العلاء لم يزل والياً حتى توفي.. فولى عمر مكانه أبا هريرة الدوسي. ويقال أيضاً: أن عمر رضي الله عنه وَلّى أبا هريرة قبل موت العلاء»[١].

ويبدو إمكانية ترتيب الأحداث على النحو التالي:

ـ أن أبا هريرة كان من العمال المساعدين للعلاء بن الحضرمي منذ عودة العلاء والياً على البحرين في خلافة أبي بكر الصديق ـ في حوالي شهر رجب ١١هـ ـ وحتى وفاة أبي بكر ـ في جماد الثاني ١٣هـ ـ ثم في خلافة عمر بن الخطاب إلى أن قام عمر بإعفاء العلاء من ولاية البحرين بأن كتب إليه بالقدوم إلى المدينة ـ في أواخر سنة ١٤هـ ـ وولى مكانه أبو هريرة، وكانت ولاية أبي هريرة آنذاك بصفته نائب العلاء في ولاية البحرين، وسار العلاء إلى عمر بالمدينة المنورة وانتهت ولايته للبحرين ولكنه اختار أن يعود إلى البحرين ويقيم فيها، وهو ما تشير إليه رواية تقول: «أن عمر بن الخطاب وَلّى أبا هريرة قبل موت العلاء، فأتى العلاء توج ـ أرض توج ـ وعزم على المقام بها»[١].

ـ ثم كتب عمر إلى العلاء بتوليته على البصرة مكان عتبة بن غزوان، حيث جاء في رواية البلاذري إنه «لما قدم العلاء المدينة ولاه عمر البصرة مكان عتبة بن غزوان». وأصلُ ذلك إنه كتب إليه بما ذكره أبو ريّة عن عدة مصادر إنه: «بعث عمر إلى العلاء: أن صرّ إلى عتبة ابن غزوان فقد وليتك عمله». قال أبو ريّة: «فخرج العلاء في رهط منهم أبو هريرة»[٢] وذكر ابن خلدون: أن عمر بن الخطاب: «أمر العلاء بالإنصراف عن البحرين إلى سعد بن أبي وقاص بِمَنْ معه»[٣] ولذلك قال ابن كثير أن العلاء «أمَرّه عمر على الكوفة»، ويمكن أن يزول التعارض بين تلك النصوص بإدراك أن كتاب عمر إلى العلاء كان يتضمن أمرين، **أحدهما**: أن يتوجه العلاء بِمَنْ معه في البحرين مِنْ الصحابة والفرسان مدداً لسعد بن أبي وقاص في القادسية. **والأمر الثاني**: أن يسير إلى البصرة والياً عليها مكان عتبة بن غزوان. وعندئذٍ انتهت فترة الولاية الأولى لأبي هريرة بالبحرين.

فانطلق العلاء بن الحضرمي ومعه أبو هريرة وفرسان البحرين قاصدين البصرة بحيث يتوجهون منها إلى سعد والجيش الإسلامي بالقادسية، ولكن العلاء مات

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٩٢.
(٢) أبو هريرة ـ محمود أبو ريّة ـ ص٧٠.
(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣١٣.

وَهُم في الطريق إلى البصرة. قال الهمداني: «كانت وفاة العلاء بموضع يُقال له تِياس، وهويريد البصرة من البحرين. فلما حضرته الوفاة قال لأصحابه: إذا فرغتُ فهيلوا عليّ هذا الكثيب وأمضوا»[١] قال أبو هريرة رضي الله عنه: «مات العلاء ونحن على غير ماء، فأبدى الله لنا سحابة فَمُطرنا، فغسلناه، وحفرنا له بسيوفنا ـ في كثيب الرمل ـ ودفناه»[٢] وكان ذلك في أول سنة ١٥ هجرية.

ـ وقد شهد أبو هريرة موقعة نهر اليرموك بالشام ـ في رجب ١٥هـ ـ فوجوده هناك يدل على أنه مضى بعد دفن العلاء بن الحضرمي إلى البصرة[٣] ثم إلى سعد والجيش الإسلامي بالقادسية حيث كتب عمر إلى سعد بأن يوجه جيشاً لمساندة أبي عبيدة بن الجراح وجيشه في محاربة الروم، فأبلغ سعدُ الناس بكتاب عمر وانتدبهم للتوجه إلى الشام، فانطلق كثير من الصحابة والقادة مع الآلاف من فرسانهم ورجالهم إلى دمشق ثم انطلقوا مع جيش أبي عبيدة من دمشق ـ في ربيع الثاني ١٥هـ ـ إلى منطقة نهر اليرموك وكان منهم أبو هريرة، فحينما اندلعت موقعة نهر اليرموك الكبرى وحينما تَواجَه المسلمون والروم للقتال، قام كبار الصحابة بوعظ المسلمين وكان منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وأبو هريرة والمقداد بن عمرو البهراني. قال ابن كثير: «كان المقداد يدور على الناس فيقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد.. فلما تراءى الجمعان وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال: عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم.. وخرج معاذ بن جبل على الناس فجعل يُذّكِرهم ويقول: يا أهل القرآن وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تُنال وجنته لا تُدخل بالأماني، ولا يؤتي اللّهُ المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقُ المصدقُ.. وقد وعظ الناس أبو هريرة أيضاً فجعل يقول: سارعوا إلى الحور العين وجوار ربكم عزّ وجلّ في جنات النعيم، ما أنتم إلى ربكم في موطن بأحب إليه منكم في مثل هذا الموطن، ألَا وإن للصابرين فضلهم»[٤] ثم اندلعت موقعة نهر اليرموك وجاهد الصحابة والقادة والفرسان فيها أعظم جهاد وصَبَروا أفضل صبر وكان لفرسان قبيلة دوس إسهامهم الوافر حيث كان من قادة الكراديس

---

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ جـ٢ ص٣١.

(٢) أبو هريرة ـ محمود أبو ريّة ـ ص٧٠.

(٣) كان أمير البصرة عتبة بن غزوان، وهو أخو بسرة بنت غزوان زوجة أبي هريرة. وتوفي عتبة بن غزوان منصرفة من الحج سنة ١٥هـ.

(٤) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٢٣١.

جندب بن عمرو بن حممة الدوسي وتحت قيادته ألف مقاتل غالبيتهم من دوس، وكان عمرو بن الطفيل بن عمرو الدوسي من الفرسان الأبطال الذين خاضوا غمار المعركة ببسالة، وتتوجت المعركة بانهزام مائة وعشرين ألف من الروم هزيمة ساحقة وانتصار المسلمين أعظم انتصار وربما سَالَتْ من عينيّ أبي هريرة دموع الحزن ودموع الفرح في ذلك اليوم؛ الحزن على استشهاد عمرو بن الطفيل وجندب بن عمرو بن حُممة رضي الله عنهما، والفرح بالنصر المبين.

ـ وعاد أبو هريرة من الشام إلى المدينة المنورة فمكث بها فترة. وهنا يأتي زمن ما ذكره البلاذري عن تولية أبي هريرة وقُدامة بن مظعون على البحرين قائلاً: «أن عمر بن الخطاب ولّى قُدامة بن مظعون الجُمحي على جباية البحرين، وولى أبا هريرة الأحداث والصلاة» وقال الهيثم: «كان قُدامة بن مظعون على الجباية والأحداث، وأبو هريرة على الصلاة والقضاء». وبما أن موقعة نهر اليرموك التي شهدها أبو هريرة كانت في رجب سنة ١٥هـ يمكن تقدير زمن هذه التولية على البحرين بأنها عند مُنصرفه من الحج ـ في ذي الحجة ١٥هـ ـ أو عند تولية أبي موسى الأشعري على البصرة ـ في شهر ربيع الأول ١٦هـ ـ فانطلق أبو هريرة إلى أرض البحرين وعاصمتها مدينة هَجَرْ مع قُدامة بن مظعون، وتوليّا معاً حكم ولاية البحرين، فكان أبو هريرة هو الأمير في كل ما يتعلق بالشؤون الدينية وأحكام الشرع وكذلك القضاء، بينما كان قُدامة بن مظعون هو الأمير في كل ما يتعلق بالجباية والشؤون المالية، وكان الإثنان ـ أبو هريرة وقدامة ـ يشتركان في الشؤون التي تتعلق بالأحداث الحربية والأمنية. فذلك التقسيم للاختصاصات هو المقصود بقول البلاذري: «أن عمر بن الخطاب وَلّى قدامة على جباية البحرين، وولّى أبا هريرة على الأحداث والصلاة» وقول الهيثم: «كان قدامة على الجباية والأحداث، وأبو هريرة على الصلاة والقضاء»، فالاختلاف بين الروايتين على المتولي للأحداث يدل على اشتراكهما في ذلك الاختصاص. وقد مكث أبو هريرة وقدامة واليَيْن أميرين لولاية البحرين إلى حوالي سنة ٢٠ هـ، وتلك هي الفترة الثانية من ولاية أبي هريرة للبحرين. وخلال تلك الفترة اشترى أبو هريرة خيولاً من ماله الخاص الذي تجمع له من العطايا وهي المُرتبات ومِنْ سهمه في غنائم الفتوحات التي شارك فيها خلال السنوات السابقة، فقد تجمع له من ذلك مبلغ ألف وستمائة دينار فاستثمرها بشراء خيول فتناتجت الخيول وكان يبيعها ويكسب منها. ولم يكن لأبي هريرة علاقة بالجباية وبيت مال المسلمين لأن قُدامة بن مظعون كان الوالي على الجباية وبيت المال خلال تلك الفترة التي استمرت إلى حوالي سنة ٢٠ هـ.

ـ ثم عزل عمرُ قُدامة بن مظعون بسبب إتهامه بشرب الخمر ـ سنة ٢٠هـ ـ وولى عمر أبا هريرة كل شؤون ولاية البحرين. وفي ذلك ذَكَر البلاذري «أن عمر بن الخطاب ولّى قُدامة جباية البحرين، وولّى أبو هريرة الأحداث والصلاة، ثم عزل قدامة وحَدّه على شرب الخمر، وولى أبو هريرة» وكذلك ذكر الهيثم بعد النص السابق عزل قدامة وقال: «ثم ولّى عمر أبا هريرة البحرين» وقال الطبري: «في سنة عشرين: عزل عمر قُدامةَ بن مظعون عن البحرين وحدّه في شرب الخمر، واستعمل عمر أبا هريرة على البحرين واليمامة»[(١)] وبذلك أصبح أبو هريرة والياً لمنطقة الخليج العربي وشرق الجزيرة العربية بأكملها لأن أرض ولاية البحرين واليمامة كانت تشمل تلك المنطقة جميعها. وقد مكث أبو هريرة والياً للبحرين واليمامة من سنة ٢٠هـ إلى سنة ٢٢هـ حيث قال الطبري في خاتمة أحداث سنة ٢١هـ «وحج بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب واستخلف على المدينة زيد بن ثابت، وكان عمال عمر على اليمن واليمامة والبحرين والشام ومصر والبصرة مَنْ كانوا عليها في سنة عشرين وعلى الكوفة عمار بن ياسر»[(٢)] والذين كانوا على تلك الأمصار هُمْ يعلى بن منيّة على اليمن، وأبو هريرة على البحرين واليمامة ومعاوية على الشام وعمرو بن العاص على مصر وأبو موسى الأشعري على البصرة وما يليها من بلاد فارس. وقال الطبري في نهاية أحداث ٢٢هـ «وكان عُمال عمر على الأمصار الذين كانوا عليها في سنة ٢١هـ غير الكوفة فإن عامله عليها كان المغيرة بن شعبة»[(٢)] ويتبين من ذلك استمرار ولاية أبي هريرة على البحرين واليمامة إلى أواخر سنة ٢٢ هجرية، وشهد أبو هريرة فتح (الباب والأبواب) ببلاد أذربيجان والقوقاز سنة ٢٢ هجرية[(٣)].

* * *

وقد انتهت ولاية أبي هريرة بعودته من البحرين إلى المدينة حيث كما قال البلاذري: «عزله عمر، وقاسَمه ماله، وأمره بالرجوع، فأبَىٰ»[(٤)] ويلزم هنا تبيين ما يلي:

ـ إن عزل وقدوم أبي هريرة من البحرين إلى المدينة يبدو أنه كان بناءً على رغبته وطلبه، فكتب أو بعث إليه عمر يأمره بالقدوم إليه بما تجمع عنده من موارد

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٢٣١.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٢٥٠ و٢٦٧.
(٣) قال الطبري في أحداث فتح الباب والأبواب «وخرج سلمان وأبو هريرة الدوسي على (جيلان) فقطعوها إلى (جرجان)» ـ جـ٤ ص٢٥٨.
(٤) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٩٢.

بيت المال للسنوات الثلاث التي تولى فيها البحرين واليمامة، ولم يقترن ذلك الأمر بتولية شخص آخر، وإنما عاد أبو هريرة إلى المدينة ومعه ما تجمع مِنْ مال بيت المال وكذلك أمواله وأشيائه الخاصة، فقد ذكر الإمام الذهبي أنه: «قدم أبو هريرة ومعه لبيت المال أربعمائة ألف، فقال له عمر: أظلمت أحداً، فقال: لا. قال عمر: فما جئت لنفسك؟ قال: عشرين ألفاً. قال: من أين أصبتها؟ فقال: كنتُ أتَّجِرْ»[١].

ـ وقد اتخذ (محمود أبو ريّة) وأمثاله من الناقمين على أبي هريرة من تلك الحادثة وسيلة للتشكيك في أبي هريرة وذمته المالية وزعموا أن عمر بن الخطاب قال له يا عدو الله، سرقت مال المسلمين، وضربه بالدرة، ومثل ذلك من الافتراء، بينما الصحيح كما ذكر الذهبي أن أبا هريرة قدم ومعه أربعمائة ألف درهم مال بيت المال، وهو مبلغ كبير يؤكد مدى أمانة وحرص أبي هريرة على المال العام (ثم قال عمر: فما جئت لنفسك؟ قال: عشرين ألفاً) فلم يقل عمر (يا عدو الله) وغير ذلك من الشتائم المزعومة والتي لا تليق بعمر، وإنما (قال عمر: من أين أصبتها؟) أو كما ذكر ابن كثير (قال عمر: فمِنْ أين هي لك؟ فقال أبو هريرة: خيلاً تناتجت، وغِلّةٌ ورقيقٌ لي، وأعطية تتابعت عليّ). وفي رواية أخرى أنه «كان ابتاع أفراساً بألف دينار وستمائة دينار» فقال لعمر: «كانت لنا أفراسُ تناتجتْ، وعطايا تلاحقت» وفي رواية البلاذري «خيلاً تناتجت، وسهاماً اجتمعت»، وبذلك أوضح أبو هريرة بأن العشرين ألفاً هي من عطاياه ـ أي مرتباته واستحقاقاته المالية ـ وكذلك من سهام غنائم ونوافل الفتوحات التي شهدها خلال السنوات الماضية، ومِنْ الخيول التي اشتراها بألف وستمائة دينار من ماله الخاص وما كسبه من نتاج الخيول.

قال الإمام الذهبي: «فقال له عمر: انظُر إلى رأس مالك ورزقك، فخُذْه، واجعل الآخر في بيت المال» فقبض منه عشرة آلاف، وفي رواية أخرى: اثنا عشر ألفاً[١] والمقصود أن عمر بن الخطاب حسب له ما جمعه من سهمه في غنائم الفتوحات ومن عطاياه واستحقاقاته المالية وحسب له رأس ماله الذي اشترى به الخيول أول مرة، فكان مجموع ذلك ثمانية آلاف دينار، وأخذ منه ما ربحه من نتاج وتجارة الخيول وهو اثنا عشر ألفاً، وكان ذلك في إطار اجتهاد عمر بأن الولاة لا يجوز لهم المتاجرة في فترة ولايتهم، بل إن عمر كان يقاسم الولاة نصف أموالهم التي يحصلون عليها في فترة ولايتهم، ولذلك قال البلاذري «قاسَمَه ماله»[٢] وقال ابن كثير «قاسمه مع جملة العمال» يعني كغيره من العمال، ومنهم

---

(١) التاريخ الكبير للذهبي ـ جـ٢ ص٣٣٨ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي ـ جـ٢ ص٤٤٤.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٩٢.

معاذ بن جبل الأنصاري، وخالد بن الوليد، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم من العمال الصحابة الذين قاسمهم عمر بن الخطاب، وكانوا من خيار الصحابة.

ـ ثم إن عمر بن الخطاب طلب مِنْ أبي هريرة أن يعود عاملاً أميراً على ولاية البحرين، فرفض أبو هريرة، وفي ذلك قال البلاذري: «وأمره ـ عمر ـ بالرجوع، فأبَى». وقال ابن كثير: «استعمله عمر بن الخطاب على البحرين أيام خلافته، وقاسمه مع جملة العمال. فلما كان بعد ذلك دعاه عمر ليستعمله، فأبَى أن يعمل له»[(١)].

وقد كان عمر شديداً على الأمراء العمال، فقد عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة حين اتهمه بعض الناس بأنه لا يُحسنُ الصلاة، وعزل المغيرة بن شعبة حين اتهمه البعض بالزنا، وعزل قُدامة بن مظعون الجُمحي من جباية البحرين حين اتهمه البعض بشرب الخمر وضربه حَدّ الخمر، وعزل خالد بن الوليد من قنسرين، وعزل عمار بن ياسر من الكوفة، وربما كان أبو هريرة يشير إلى أولئك وغيرهم حين «دعاه عمر ليستعمله على البحرين مرة ثانية، فأبَى أن يعمل له. فقال له عمر: تكره العمل وقد طلبه من كان خيراً منك؟ طلبه يوسف عليه السلام. فقال أبو هريرة: يوسف نبيّ ابن نبيّ، وأنا أبو هريرة بن أميمة، وأخاف منكم ثلاثاً أو اثنتين. فقال عمر: فهلا قلت خمساً»[(١)] وفي رواية البلاذري «قال عمر: ألا تعمل يا أبا هريرة؟ قال: لا. فقال عمر: ولِمَ قد عمل من هو خير منك يوسف «قال: اجعلني على خزائن الأرض». فقال: يوسف نبيّ بن نبيّ، وأنا أبو هريرة بن أميمة. وأخاف منكم ثلاثاً أو اثنتين، قال عمر: فهلا قلت خمساً»[(٢)] ثم تذكر الرواية الخمسة أمور بقولها أنه قال: «أخشى أن أقول بغير علم، وأقضي بغير حلم، وأخشى أن تضربوا ظهري، وتشتموا عرضي، وتأخذوا مالي». وقد أضاف ابن كثير قائلا: «وذكر غيره ـ أي غير صاحب تلك الرواية ـ أن عمر غَرّمَه في العمالة الأولى اثني عشر ألفاً فلهذا امتنع في الثانية»[(١)] ومؤدى ذلك أن الأمور الخمسة المنسوبة إلى أبي هريرة أنه قال أنه يخشاها قد لا تكون صحيحة، وإن امتناع أبي هريرة عن العمل ربما كان أحد أسبابه قيام عمر بأخذ اثني عشر ألفاً مِنْ ماله الذي كسبه في فترة عمله بالبحرين، وربما كان مِنْ أهم أسبابه أن أبا هريرة قد عمل بالبحرين فترة طويلة منذ مسيرة الثاني مع العلاء بن الحضرمي، في خلافة أبي بكر الصديق، ـ في رجب ١١هـ ـ إلى عودته في أواخر خلافة عمر بن الخطاب ـ في حوالي سنة ٢٢هـ ـ ولذلك عاد إلى المدينة بكل أمواله وأشيائه الخاصة، وحين دعاه ليستعمله مرة ثانية

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص١١٣.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٩٢.

على البحرين ـ في أوائل سنة ٢٣هـ ـ لم يرغب أبو هريرة في ذلك، فاعتذر لعمر بما اعتذر به، وأقام مع أسرته بالمدينة المنورة إلى أن توفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣هـ.

ـ وكان عمر بن الخطاب عظيم التقدير لأبي هريرة، فقد أقرّه كأحد العمال مع العلاء بن الحضرمي ـ سنة ١٣ ـ ١٤هـ ـ ثم عزل العلاء وولى أبا هريرة على البحرين ـ أواخر سنة ١٤هـ ـ ولما انصرف أبو هريرة من موقعة نهر اليرموك وفتح الشام ـ في أواخر سنة ١٤هـ ـ بعثه عمر أميراً على ولاية البحرين بالاشتراك مع قدامة بن مظعون ـ من سنة ١٦ ـ ٢٠هـ ـ ثم استعمله عمر على البحرين واليمامة ـ سنة ٢٠ ـ ٢٢هـ ـ ثم طلب منه أن يعود أميراً على البحرين مما يدل على الثقة الكبيرة من عمر وتقديره لعلم ومكانة أبي هريرة، وقد ثبت أن عمراً كان يسأل أبي هريرة عن أحاديث وسنة النبي ﷺ. قال ابن حجر العسقلاني: «وأخرج الترمذي عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبي هريرة: أنت كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه»(١) فلما توفي عمر تفرغ أبو هريرة لتعليم الناس أحاديث وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

* * *

رواية أبي هريرة لأحاديث وسنة رسول الله ﷺ

لقد كانت فترة خلافة أبي بكر فترة قصيرة انشغل فيها الصحابة بحروب الردة وبداية الفتوحات، ثم كانت فترة خلافة عمر ـ ١٣ ـ ٢٣هـ ـ فترة فتوحات تأسست وامتدت خلالها دولة الخلافة العربية الإسلامية في الشام ومصر والعراق وبلاد فارس وأذربيجان وأرمينية وغيرها إلى جانب الجزيرة العربية، فلما استتب الأمر في تلك الأرجاء الشاسعة ودخل الناس في دين الله أفواجاً، أخذ الاهتمام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ مكان الصدارة عند الصحابة، فقام الخليفة عثمان بن عفان بتكليف أحفظ الصحابة للقرآن الكريم بتدوين القرآن في المصاحف «ودخل أبو هريرة على عثمان لما نسخ المصاحف، فقال لعثمان: أصبت ووفقت، أشهدُ لَسَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «**أشدُ أمتي حبّاً لي، قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي، ولم يروني، يصدقون بما جاء في الورق المعلق. فقلت في نفسي: أي ورق، حتى رأيت المصاحف**» فأعجب ذلك عثمان، ومضى في جمع القرآن الكريم. وأما الأحاديث النبوية فإن احاديث لم تُكتَب في عهد النبي ﷺ وكان نطاق رواية الأحاديث النبوية ضئيلاً ومحدوداً في خلافة عمر، بل إنه ربما كان ينهى عن ذلك، قال ابن كثير: «كان

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٤ ص٢٠٨.

عمر يقول: اشتغلوا بالقرآن فإن القرآن كلام الله. ولهذا لما بعث أبا موسى الأشعري إلى العراق قال له: إنك تأتي قوماً لهم في مساجدهم دويّ بالقرآن كدويّ النحل، فَدعَهُم على ما هُمْ عليه، ولا تشغلهم بالأحاديث، وأنا شريكك في ذلك. هذا معروف عن عمر. وقال الذهلي عن معمر عن الزهري: قال عمر: أقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ إلا فيما يعمل به». ولذلك فإن من ذلك القبيل ما رواه ابن عجلان: أن أبا هريرة قال: إني لأحدث أحاديث لو تكلمت بها في زمان عمر أو عند عمر لشج رأسي وما يُروى عن أبي سلمة أن أبا هريرة قال: «ما كنا نستطيع أن نقول، قال رسول الله ﷺ حتى قُبض عمر». وحينما عاد أبو هريرة من ولايته للبحرين وأقام بالمدينة المنورة ـ سنة ٢٣هـ ـ كان أبو هريرة يُحدث عن النبي ﷺ، فقد روى أبو زرعة الدمشقي من طريق السائب بن يزيد أن عمر بن الخطاب قال لأبي هريرة: «لتتركن الحديث عن رسول الله ﷺ أو لألحقنك بأرض دوس». قال ابن كثير: «وقد جاء أن عمر أذن له بعد ذلك في التحديث. . قال أبو هريرة: بلغ عمر حديثي، فأرسل إليّ فقال: كنت معنا يوم كنا مع رسول الله ﷺ في بيت فلان؟ فقلتُ: نعم، وقد علمتُ لِمْ تسألني عن ذلك، قال: ولِمْ سألتك؟ قلتُ: أن رسول الله ﷺ قال يومئذٍ: **«مَنْ كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»** فقال عمر: أما إذاً فاذهبْ فحدث[1] فلم يأذن عمر لأحد من الصحابة بأن يذهب فيحدث عن النبي ﷺ بينما قال لأبي هريرة: «اذهبْ فَحَدِثْ» وقد أخرج الترمذي أنه قال لأبي هريرة: «أنتَ كُنتَ ألزمنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه». ولكن ذلك الأذن من عمر لأبي هريرة كان مُقيداً بما رواه الزُهري من قول عمر: «أقِلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ إلا فيما يُعمل به» فلما تولى عثمان الخلافة أخذ الاهتمام بالقرآن والسنة مكان الصدارة من اهتمام الصحابة والناس، فقام الخليفة عثمان بن عفان بتكليف أحفظ الصحابة للقرآن بتجميع وتدوين القرآن، فكان ذلك يُمثل جهد دولة الخلافة، بينما أخذ أبو هريرة في القيام بمسؤوليته العظيمة في رواية أحاديث النبي ﷺ وتعليم الناس الأحاديث والسنة النبوية وتفقيههم بها، بحيث لم يَقْبَل أي عمل آخر، وتفرغ لذلك تفرغاً تاماً زهاء خمسة وعشرين سنة.

ومما يتصل بروايته للأحاديث النبوية ودوره الجليل في حفظ السنة النبوية:

ـ إن أبا هريرة كان يتمتع بموهبة عظيمة في الحفظ، وكان أحرص الصحابة على حفظ وسماع أحاديث رسول الله ﷺ منذ إسلامه باليمن وقدومه مع الطفيل بن عمرو الدوسي على النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة بسنوات، ثم منذ هجرته إلى المدينة المنورة في محرم سنة ٧هـ وملازمته للنبي ﷺ طيلة ثلاث سنوات حتى وفاة النبي

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص١١٣.

ﷺ في ربيع الأول سنة ١١هـ، وقد أجمع الصحابة وعلماء الأمة على أنه كان أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ وأكثرهم علماً بأحاديثه.

قال ابن حجر العسقلاني: «كان أبو هريرة أحفظ الناس للأحاديث النبوية في عصره. وقال طلحة بن عبيد الله: لا أشك أن أبا هريرة سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع. وقال ابن عمر: أبو هريرة خير منّي وأعلمُ بما يُحدث.. وأخرج الترمذي عن عمر أنه قال لأبي هريرة: أنت كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه. وأخرج أحمد من حديث أُبيّ بن كعب الأنصاري: أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره»[١].

ـ وكان الكثير من الصحابة يسألون أبا هريرة عن أحاديث سمعها من رسول الله ﷺ ولم يسمعوها، وقد أخرج ابن سعد عن أبي هريرة قال: «كنت أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ وقد سبقني قوم بصحبته فكانوا يعرفون لزومي له فيسألونني عن حديثه منهم عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، ولا والله لا يخفى عليّ كل حديث كان بالمدينة وكل من كانت له من رسول الله ﷺ منزلة»[١].

ـ وكان بعض الناس يأتون إلى بعض كبار الصحابة ويسألونهم عن حديث وسنة رسول الله ﷺ في كذا وكذا، فيدلهم الصحابة على أبي هريرة فيأتون إليه في بيته أو في المسجد فيسألونه. قال العسقلاني: «وقد أخرج النسائي بسند جيد في العلم من كتاب السنن أن رجلاً جاء إلى زيد بن ثابت فسأله، فقال له زيد: عليك بأبي هريرة». وقد كان زيد من كبار الصحابة وكان عمر بن الخطاب يستخلفه على المدينة المنورة، وهو أحد الذين جمعوا القرآن.

ـ وقد شهر اللّهُ ذكر أبي هريرة. بروايته أحاديث رسول الله ﷺ حتى أصبح الناس في المدينة ومكة وغيرها من الأمصار يروون الأحاديث عن أبي هريرة، وفَاقَتْ شهرته سائر الصحابة في الفترة التي كان فيها الاهتمام بأحاديث وسنة رسول الله ﷺ كبيراً، وقد أثار ذلك حسد البعض أن يكون لأبي هريرة كل تلك المكانة.

فقد أخرج الترمذي وابن المديني عن أبي اليسر بن أبي عامر، قال: «كنتُ عند طلحة بن عبيد الله إذْ دخل رجل فقال: يا أبا محمد والله ما ندري هذا اليماني أعلم برسول الله ﷺ منكم؟ أم يقول على رسول الله ﷺ ما لم يسمع وما لم يقل؟ فقال طلحة رضي الله عنه: والله ما نشك أنه قد سمع من رسول الله ﷺ ما لم

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٤ ص٢٠٨.

نسمع، وعلم ما لم نعلم»[١] وتضيف الرواية أن طلحة قال: «إنّا كنا قوم أغنياء، لنا بيوتات وأهلون، وكنا نأتي رسول الله ﷺ طرفي النهار ثم نرجع، وكان هو مسكيناً لا مال له ولا أهل، وكانت يده مع رسول الله ﷺ يدور معه حيث دار، فما نشك أنه قد علم ما لم نعلم، وسمع ما لم نسمع»[١] وملازمة أبي هريرة للنبي ﷺ لا تستلزم أنه كان مسكيناً لا مال له ولا أهل، فهذه العبارة وأمثالها في العديد من الأقوال لا تتفق مع الحقيقة فإن أبا هريرة حين قدم إلى النبي ﷺ أعتق غلاماً عبداً له، وكانت مع أبي هريرة زوجته وابنته، وكان له مالُ مِنْ عمله ومِنْ سهمه في الفتوح التي شهدها مع رسول الله ﷺ ثم كان من عُمال النبي ﷺ على إقليم البحرين سنة ٨هـ وسنة ٩هـ فقد كان ذا مال وأهل، ولكنه كان أحرص الصحابة على ملازمة النبي ﷺ وسماع وحفظ أحاديثه، فلما قال ذلك الرجل لطلحة: «والله ما ندري هذا اليماني أعلم برسول الله ﷺ منكم؟ أم يقول على رسول الله ﷺ ما لم يسمع وما لم يقل؟ قال طلحة: والله أنه قد سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم».

وأتى ناسُ إلى الزبير بن العوام فقالوا له مثل ما قيل لطلحة، فأخرج ابن أبي خيثمة من طريق محمد بن إسحاق عن عثمان بن عروة بن الزبير، قال: «قال لي أبي، الزبير، أدنني من هذا اليماني ـ يعني أبا هريرة ـ فإنه يُكثِرُ الحديث عن رسول الله ﷺ، فأدنيتُه منه، فجعل أبو هريرة يُحدثُ، وجعل الزبيرُ يقول: صدق، كذب صدق. فقلتُ: يا أبة ما قولك صدق كذب؟ فقال الزبير: يا بني أما أن يكون سمع هذه الأحاديث من رسول الله ﷺ فلا أشك، ولكن منها ما يضعه على مواضعه، ومنها ما وضعه على غير مواضعه»[١] والمقصود أنه يروي بعض الأحاديث بلفظها، ويروي بعض الأحاديث بمعناها وذلك جائز.

وكان الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري يُحدّثُ بالشام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فأراد البعض أن يثنيه عن ذلك وأن يُحدث بتلك الأحاديث عن النبي ﷺ دون ذكر أبي هريرة! فقد ذكر ابن كثير أنه: «قال شعبة عن أشعث بن سليم عن أبيه قال: سمعتُ أبا أيوب يحدثُ عن أبي هريرة. فقيل له: أنت صاحب رسول الله ﷺ وتُحدِثُ عن أبي هريرة؟ فقال: إن أبا هريرة قد سمع ما لم نسمع، وإني أن أحدث عنه أحبُّ إليّ من أن أحدث عن رسول الله ﷺ ـ يعني ما لم أسمعه منه ـ»[١].

ـ وقد تجاوز البعض موقف (الحسد) إلى موقف (الأذية) فكانوا يؤذُون أبا

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص١٠٨ ـ ١٠٩.

هريرة، ويحاولون من خلال الأذية والتشكيك أن يدفعوه إلى التوقف عن رواية أحاديث النبي ﷺ والتعريف بالسنة النبوية، ومِنْ ذلك ما ذكره ابن كثير أنه «قال أبو يَعْلى: حدّثنا إبراهيم الشامي حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع أن رجلاً من قريش أتى أبا هريرة في حلة وهو يتبختر فيها، فقال يا أبا هريرة إنك تُكثر الحديث عن رسول الله ﷺ فهل سمعته يقول في حلتي هذه شيئاً؟ فقال أبو هريرة: والله إنكم لتؤذوننا، ولولا ما أخذ اللّهُ على أهل الكتاب (ليبيننه للناس ولا يكتمونه) ما حدثتكم بشيء. سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ رجلاً مِمَنْ كان قبلكم بينما هو يتبختر في حلة إذْ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها حتى تقوم الساعة»[١].

* * *

أبو هريرة في خلافة عثمان

ولقد كان أبو هريرة محل تقدير عظيم عند عثمان بن عفان، وكان عثمان يسأله عن أحاديث النبي ﷺ، وذات مرة أمر عثمان لأبي هريرة بعشرة آلاف، وكان عثمان يُجزل العطاء لكبار الصحابة، واقطع عمار بن ياسر وغيره من الصحابة أراضي بسواد العراق، وكان لأبي هريرة أرض وقصر بالعقيق في المدينة وفي ذي الحليفة، وحينما حاصر الناقمون عثمان بن عفان كان لأبي هريرة مواقف جليلة، فقد أخرج البيهقي أنه لما حوصر عثمان قال أبو هريرة: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنكم ستلقون بعدي فتنة واختلافاً، فقال له قائل من الناس: فَمَنْ لنا يا رسول الله؟ أو ما تأمرنا؟ فقال: عليكم بالأمير وأصحابه. وهو يشير إلى عثمان» وقال الحافظ ابن كثير أنه «أقبل جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، في المحاربة عن عثمان، فبعث إليهم يقسم عليهم لما كفوا أيديهم وسكنوا حتى يقضي الله ما يشاء»[٢] وقد ظل أبو هريرة وعدد من الصحابة يلازمون دار عثمان بن عفان أيام الحصار، قال ابن كثير: «كان الحصار مستمراً من أواخر ذي القعدة إلى يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة، فلما كان قبل ذلك بيوم، قال عثمان للذين عنده في الدار من المهاجرين والأنصار، وكانوا قريباً من سبعمائة، فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسن والحسين، ومروان، وأبو هريرة، ولو تركهم لمنعوه فقال لهم: أقسمُ على مَنْ لي عليه حقُ أن يكفّ يده وأن ينطلق إلى منزله. وعنده من أعيان الصحابة وأبنائهم جَمٌّ غفير». قال ابن كثير: «فوضع سعد وأبو هريرة السلاح وأقبلا حتى دخلا على عثمان»[١] فأقسم عثمان

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١٧٦ ـ ١٨٢ و٢٢٧ ـ ٢٢٨.

على سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة بالانصراف، وكذلك أقسم على عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد بن حارثة، والنعمان بن بشير الأنصاري، وغيرهم من الصحابة وأبناء الصحابة أن ينصرفوا إلى منازلهم، «ويروى أن آخر من خرج من عند عثمان من الدار، بعد أن عزم عليهم بالخروج، الحسن بن عليّ»[١].

ولم يكن خروج أبي هريرة وغيره من الصحابة الذين كانوا في دار عثمان وبالقرب من الدار، لأن عثمان بن عفان أقسم عليهم أن ينصرفوا فقط، وإنما لأنّ أحداً لم يكن يظن أن يبلغ الأمر إلى حد قتل عثمان، ولكن بعض الناقمين تسللوا إلى دار عثمان بن عفان رضي الله عنه وقتلوه يوم الجمعة ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥هـ. وبمقتل عثمان وقعت الفتنة الكبرى وانقسم الصحابة وانقسمت الأمة.

* * *

موقف أبي هريرة في الفتنة الكبرى

لقد زعم (محمود أبو ريّة) في كتابه ضد (أبي هريرة) أنه كان مع معاوية بن أبي سفيان ومع الذين عارضوا وحاربوا عليّ بن أبي طالب، وانساق في ذلك الزعم إلى تلفيقات بعض أدعياء التشيع في العصر العباسي الأخير، وذلك غير صحيح، فقد انقسم الصحابة بعد مقتل عثمان إلى عدة فرق، وأياً كانت المواقف التي اتخذوها والفرقة التي كانوا فيها، فإن ذلك لا يغير من حقيقة أنهم من الصحابة وأن ذلك جزء من تاريخهم ومن تاريخ الأمة، فإذا نظرنا إلى تلك الفرق يتبين التالي:

ـ أن أبا هريرة لم يكن مع الفرقة الأولى التي عارضت ثم حاربت علي بن أبي طالب، وقد كان على رأس تلك الفرقة عائشة أم المؤمنين، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وانضم إليهم يعلى بن منيّة الحنظلي عامل عمر وعثمان على اليمن، وعبد الله بن عامر أمير البصرة، وكثير من الناس فساروا إلى البصرة، وسار إليهم عليُّ بن أبي طالب وأصحابه، فتقاتلوا في موقعة الجمل بالبصرة، قال ابن كثير: «وكان مجموع من قُتل يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف، خمسة من هؤلاء، وخمسة من هؤلاء، رحمهم الله ورضي عن الصحابة منهم».

ـ ولم يكن أبو هريرة من الذين امتنعوا عن مبايعة عليّ بالمدينة بعد مقتل عثمان والذين لحقوا بالشام، وقد ذكر ابن كثير والطبري عن المدائني أنه: «لم يبايع عليّاً طائفة من الأنصار، منهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير،

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١٧٦ ـ ١٨٢ و٢٢٧ ـ ٢٢٨.

وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة» وذكر المدائني عن الزُهري أنه «هرب قومٌ من المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً، ولم يبايعه قدامة بن مظعون، وعبد الله بن سلام، والمغيرة بن شعبة. قال ابن كثير: وهرب مروان بن الحكمَ والوليد بن عقبة وآخرون إلى الشام». قال ابن كثير: «وخرج النعمان بن بشير الأنصاري ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه، وأصابع نائلة ـ زوجة عثمان ـ فورد بذلك إلى الشام. وقام في الناس معاوية وجماعة من الصحابة معه يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان، منهم: عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وغيرهم من الصحابة»[١] ولم يكن أبو هريرة من ذلك الفريق.

ـ وقد اعتزل الجميع فريق من الصحابة أشار إليهم ابن كثير قائلاً: «قال الواقدي: تربص سبعة نفر ولم يبايعوا علياً، منهم: عبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وصهيب، وزيد بن ثابت، ومحمد بن أبي مسلمة، وسلمة بن سلامة بن وقش، وأسامة بن زيد بن حارثة»[١] ولم يكن أبو هريرة من أولئك المعتزلين أيضاً.

ـ لقد كان أبو هريرة من الصحابة الذين بايعوا علياً بالخلافة في المدينة المنورة عن يقين بأنه أفضل من يتولى الخلافة بعد عثمان بن عفان، وتدل المصادر الموثوقة والأحاديث ذات الأسانيد الموثوقة على أن أبا هريرة لم يغادر المدينة منذ مقتل عثمان ومبايعة عليّ ـ في ذي الحجة ٣٥هـ ـ وحتى سنة ٤٠ هجرية.

ولقد اتخذ أبو هريرة موقفاً معارضاً للاقتتال بين الصحابة ولمسير المسلمين لقتال بعضهم بعضاً، سواء في موقعة الجمل بالبصرة ـ في جمادى الثاني ٣٦هـ ـ أو حين سار عليّ بن أبي طالب في أهل العراق وغيرهم قاصداً الشام ومعه زهاء مائة وخمسين ألفاً، وسار إليه معاوية في أهل الشام وغيرهم وكانوا زهاء مائة وثلاثين ألفاً، والتقوا بصفين ـ في ذي الحجة ٣٦هـ ـ وتقاتلوا حتى شهر صفر ٣٧هـ، فقد كان أبو هريرة آنذاك بالمدينة المنورة وكان موقفه أقرب إلى الاعتزال. فقد أخرج البخاري وأحمد أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يروي أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، من استشرف لها تستشرفه، ومَنْ وجد ملجأً أو معاذاً فَلْيَعُذْ به»[٢] وقد زعم (محمود أبو ريّة) أنه «لما قامت الحرب بين علي رضي الله عنه وبين معاوية أخذ أبو هريرة يثبط الناس، وذلك بأحاديث يرويها عن النبي ﷺ منها ما

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١٧٦ ـ ١٨٢ و٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢) فتح الباري ـ جـ١٣ ص٩٥.

رواه أحمد والبخاري عنه: ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم.. الخ. الحديث» ومضى محمود أبو ريّة قائلاً: «وقد ظل هذا الحديث سنداً قوياً يرتكن إليه كل الذين يريدون أن يثبطوا الناس عن الجهاد ضد الظالمين» والواقع أن (محمود أبو ريّة) بكلامه هذا يؤكد عدم صحة الأكاذيب التي تزعم بأن أبا هريرة كان مع معاوية في صفين وتلك التي تزعم بأن أبا هريرة كان في صفين يصلي خلف عليّ ويأكل مع معاوية، وقد توسع (محمود أبو ريّة) في ذكر تلك المقولة بألفاظ متعددة، ولكنه قال في الهامش: «كان هذا الخبر من (الهنات) التي أخذها الدكتور طه حسين علينا. فقد شك طه حسين في أن أبا هريرة كان يأكل مع معاوية ويصلي خلف عليّ. وقد عجبنا أن يجهل مثله وهو من كبار العلماء هذه الأمور ويفوته معرفتها»[١] ولكن محمود أبو ريّة اعترف بحقيقة أن أبا هريرة كان في المدينة وأنه كما قال: «أخذ يثبط الناس بأحاديث يرويها عن النبي ﷺ» فذلك يدل على أن أبا هريرة لم يكن بصفين وأن الذي كان يصلي خلف عليّ ويأكل مع معاوية وهو رجل آخر من أصحاب عليّ، وربما كان اسمه قريباً من اسم أو كنية أبي هريرة فالتبس الأمر على بعض ذوي الأهواء في العصر العباسي فنسبوا ذلك إلى أبي هريرة، بينما أبو هريرة إنما كان بالمدينة المنورة في فترة حرب صفين وكان يروي ما سمعه من النبي ﷺ من أحاديث صحيحة، ومنها الحديث السالف الذي أخرجه البخاري وأحمد، وهو منْ أصح الأحاديث وقد رواه غير واحد من الصحابة.

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيحين حديثاً كان أبو هريرة يرويه في المدينة ثم جاءت نتيجة موقعة صفين مما جعل البيهقي يحمل ذلك الحديث على موقعة صفين التي أسفرت عن مقتل زهاء ستين ألفاً من المسلمين، قال ابن كثير: «وحمل البيهقي وقعة صفين على الحديث الذي أخرجاه في الصحيحين من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة، ورواه البخاري من حديث شعيب عن الزُهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة. ومن حديث شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتلُ فئتان عظيمتان، يقتل بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة**»[٢] قال ابن كثير: «وقد قُتل من الفريقين فيما ذكره غير واحد: سبعون ألفاً» وقال النجاشي وهو مِنْ أصحاب عليّ كما جاء في مروج الذهب:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا ... عليها كتاب الله خيرُ قُرآنِ

---

(١) شيخ المضير ـ محمود أبو رية ـ ص٤٨ ـ والشيخان ـ لطه حسين ـ ص٢٥٤.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٢٧٥.

ونـادوا عـليّـاً يـا ابـنْ عـم مـحـمـد أمـا تـتـقـي أن يـهـلـك الـثـقـلان

فاتفق الفريقان على الصلح والتحكيم فانتهت بذلك موقعة صفين، وأبو هريرة بالمدينة لم يفارقها منذ مقتل عثمان بن عفان، وقد ذكر ابن سعد في الطبقات أنه: «كان ابن عمر، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله، . . مع أشباه لهم من الصحابة، يفتون بالمدينة ويحدثون عن رسول الله ﷺ من لدن توفى عثمان إلى أن توفوا»(١).

وقد أدرك محمود أبو ريّة في كتابه ضد أبي هريرة بقاء أبي هريرة على بيعة علي بن أبي طالب وموالياً له ومقيماً بالمدينة حتى سنة ٤٠ هجرية، ولكنه صاغ ذلك بأسلوبه قائلاً: «لقد كان أبو هريرة يظن عندما وقع الخلاف بين عليّ ومعاوية أن الدائرة ستدور على معاوية لأنه على الباطل، والحق في جانب علي رضي الله عنه، فقبع واستكان، فلما تغلب الظلم والبغيّ كشف عن وجهه، وظهر أمام معاوية بولائه، فكان أول من تلقى بسر بن أرطأة الذي أرسله معاوية إلى المدينة للفتك بأهلها وأخذ البيعة منهم له، فعاونه في أخذ البيعة وذلك سنة ٤٠ هجرية» [ص٢٣٢].

ويتبين من ذلك بجلاء ووضوح أن أبا هريرة ظل بالمدينة موالياً لعلي بن أبي طالب حتى أواسط سنة ٤٠هـ، وتلك حقيقة بالغة الأهمية

. وما حدث في سنة ٤٠هـ هو أن الأمر كان قد استتب لمعاوية في الشام ومصر والجزيرة الفراتية، فبعث معاوية بسر بن أبي أرطأة العامري بجيش من جند الشام إلى المدينة، قال القرطبي وابن كثير: «وكان عامل عليّ بن أبي طالب على المدينة يومئذٍ أبو أيوب، ففرّ منهم أبو أيوب فأتى علياً بالكوفة، ودخل بسر المدينة ولم يقاتله أحد، فبايعه أهل المدينة». ولقد كان من الحكمة يومئذٍ أن أبا هريرة وأهل المدينة بايعوا، ولم يكن لهم بدٌّ من ذلك بعد هروب عامل عليّ بالمدينة، وقد بايع يومئذٍ سائر مَنْ بالمدينة مِنْ الصحابة والناس، ويروى أن بسر بن أرطأة العامري نادى فيهم وقال: «قد استخلفت عليكم أبا هريرة فاءياكم وخلافه» ومضى بسر بجيش الشام إلى مكة فأخذ البيعة لمعاوية بمكة، ثم مضى بسر إلى اليمن وكان عاملها عبيد الله بن العباس فهرب إلى الكوفة، وأخذ بسر البيعة لمعاوية، ثم انطلق قاصداً الشام، ويبدو أن ذلك كله كان في حوالي شهر رجب وشعبان ٤٠هـ ذلك أنه «لما بلغ علياً خبر بسر، وجه جارية بن قدامة السعدي في ألفين ـ أو أربعة آلاف ـ فأقبل من الكوفة حتى بلغ نجران، وهرب بسر وأصحابه، فتوجه جارية إلى مكة،

(١) طبقات ابن سعد ـ ترجمة ابن عباس ـ وأبو هريرة راوية الإسلام ـ للعجاج ـ ص١٦٠.

فقال لأهل مكة: بايعوا، فقالوا: لِمَنْ نبايع وقد هلك أمير المؤمنين فَلِمَنْ نبايع؟ فقال: بايعوا لِمَنْ بايع له أصحاب عليّ». وبما أن وفاة عليّ رضي الله عنه في رمضان سنة ٤٠هـ، فيكون قدوم بسر إلى المدينة ومكة في حوالي شهر رجب ٤٠هـ وقدوم جارية إلى مكة في أواخر رمضان ٤٠هـ فقال لهم: «بايعوا لِمَنْ بايع له أصحاب عليّ» قال ابن كثير: «فتثاقلوا ثم بايعوا مِنْ خوف ثم سار جارية حتى أتى المدينة وأبو هريرة يصلي بالناس، فهرب منه، فقال جارية لأهل المدينة بايعوا للحسن بن عليّ، فبايعوا، وأقام عندهم، ثم خرج منصرفاً إلى الكوفة، وعاد أبو هريرة يصلي بهم». ثم ما لبث أن بايع الحسن بن عليّ وأصحابه معاوية بالخلافة ـ سنة ٤١هـ ـ فاجتمع أمر الخلافة لمعاوية، وسُميّ ذلك العام عام الجماعة.

* * *

ولاية أبي هريرة للمدينة المنورة

لقد كانت المدينة المنورة مقر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وبها بويع عليّ بالخلافة، ثم كان أبو هريرة أول الأمراء الولاة على المدينة المنورة في خلافة معاوية، وقد بدأت ولايته للمدينة منذ سنة ٤٠هـ وبصفة خاصة بعد وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قال محمود أبو ريّة: «لم يكد يتسق الأمر لمعاوية بعد مقتل الإمام عليّ حتى عاد أبو هريرة فتولى المدينة». ولكن المهم هو توليته بعد اجتماع أمر الخلافة لمعاوية سنة ٤١هـ حيث قدم معاوية من دمشق إلى الكوفة وبايعه الحسن بن علي وأصحابه، وكان أبو هريرة من الصحابة الذين وافوا معاوية بالكوفة في عام الجماعة (سنة ٤١هـ) حيث كما نقل محمود أبو ريّة عن عدة مصادر: «أجازه معاوية وأكرمه وولاه إمارة المدينة». وقال إن «تولية أبي هريرة للمدينة من قِبل معاوية.. أمر نص عليه جميع المؤرخين». وكان سائر الذين وَلَّاهُمْ معاوية على الأمصار والولايات من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام..

ومنذ أواخر سنة ٤٢هـ حتى سنة ٤٩هـ اشترك في ولاية المدينة أبو هريرة ومروان بن الحكم، وفي ذلك قال ابن كثير: «قال عبد الرزاق عن معمر عن محمد بن زياد: كان معاوية يبعث ـ أي يُولي ـ أبا هريرة على المدينة فإذا غضب عليه عزله وولّى مروان بن الحكم. فإذا جاء أبو هريرة إلى مروان حجبه عنه، فَعُزِل مروان ورجع أبو هريرة فقال لمولاه: مَنْ جاءك فلا ترده وأَحْجُب مروان، فلما جاء مروان دفعه الغلام في صدره فما دخل إلا بعد جهد جهيد، فلما دخل مروان قال: إن الغلام حَجَبَنا عنك. فقال له أبو هريرة: إنك أحق الناس أن لا تغضب من ذلك».

ثم أردف ابن كثير قائلاً: «والمعروف أن مروان هو الذي كان يستنيبُ أبا

هريرة في إمرة المدينة، ولكن كان يكون عن إذن معاوية في ذلك، والله أعلم»[1].
ولكن يتبين من أنباء الولاة أن مروان كان عاملاً بالمدينة منذ أواخر سنة ٤٢هـ حتى سنة ٤٩هـ وتلك الفترة هي التي ذكرها الحافظ عبد الرزاق، ثم تولى مروان المدينة سنة ٥٤ ـ ٥٧ هجرية وهي الفترة التي كان يستنيب فيها أبا هريرة والتي أشار إليها ابن كثير، وبذلك فإن التعارض يزول.

لقد تولى أبو هريرة المدينة من سنة ٤٠ ـ ٤٢هـ ثم استناب معاوية مروان بن الحكم ـ أواخر سنة ٤٢ ـ فكان يحجب الناس، بل إنه حجب أبا هريرة مع أنه استمر يصلي بالناس وإليه الفتوى، ثم عُزل مروان ورجع أبو هريرة والياً ـ سنة ٤٦هـ ـ لأن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه توفي سنة ٤٥هـ فصلى عليه مروان وقال أبو هريرة: مات حبر هذه الأمة. فصلاة مروان عليه تدل على أنه الأمير، وأن أبا هريرة رجع أميراً ـ سنة ٤٦هـ فصلى عليه مروان وقال أبو هريرة: مات حبر هذه الأمة. فصلاة مروان عليه تدل على أنه الأمير، وأن أبا هريرة رجع أميراً ـ سنة ٤٦هـ ـ فأمر مولاه بحجب مروان، فما دخل إلا بعد جهد جهيد، فلما دخل قال: إن الغلام حجبنا عنك، فقال أبو هريرة: إنك أحق الناس أن لا تغضب من ذلك)، وقد أراد أبو هريرة أن يعطيه درساً يمكن القول أن مروان استوعبه، ويتبين من استمرار وجودهما معاً أنهما كانا يشتركان في الولاية على نحو ما كان أبو هريرة وقدامة بن مظعون في فترة ولايتهما المشتركة بالبحرين. وقد وقع ـ في سنة ٤٩هـ ـ كلام ونزاع بين أبي هريرة ومروان، حيث توفي الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فأرادوا أن يدفنوه في حجرة رسول الله ﷺ فعارض ذلك مروان وبنوا أمية، ولم يكن مروان الوالي وإنما كان الوالي أبو هريرة، فذكر ابن سعد وابن كثير أنه «قال أبو هريرة لمروان: والله ما أنت بوالٍ، وإن الوالي لغَيْرك، فَدَعْهُ ـ يعني حين أرادوا يدفنون الحسن مع رسول الله ﷺ ولكنك تَدَخلُ فيما لا يعنيك، إنما تريد بهذا إرضاء من هو غائب عنك ـ يعني معاوية ـ»[1] فتسلح مروان وبنو أمية وقالوا: لا ندعه يدفن مع رسول الله ﷺ أيُدفن عثمان بالبقيع ويدفن الحسن بن علي بالحجرة، وتسلح الحسين بن علي، وكادت أن تقع فتنة، «قال الواقدي: فقال أبو هريرة للحسين بن عليّ: اتق الله ولا تثر فتنة، وادفن أخاك إلى جانب أمه، ففعل» وقال ابن كثير: «لما خاف الناس وقوع فتنة أشار سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة وجابر بن عبد الله وابن عمر على الحسين أن لا يُقاتل، فامتثل، ودفن أخاه قريباً من أمه بالبقيع. وقال محمد بن إسحاق: حدثني مساور مولى بني

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص٣٤ و٤٤ و١١٣.

سعد بن بكر قال: رأيت أبا هريرة قائماً على مسجد رسول الله ﷺ يوم مات الحسن بن علي وهو ينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس مات اليوم حبّ رسول الله فابكوا»(١).

«وأخرج أحمد عن سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي زيد عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال للحسن بن علي: اللهم إني أحبه وأحبُّ من يحبه». أخرجه مسلم عن أحمد وأخرجاه من حديث شعبة.

وأخرج أحمد من طريق نافع بن جبير عن أبي هريرة قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ في سوق من أسواق المدينة، فانصرف وانصرفتُ معه، فجاء إلى فناء فاطمة.. فقعد، فجاء الحسن بن علي، فلما دخل التزمه رسول الله والتزم هو رسول الله، ثم قال: (إني أُحبه وأحبُّ من يحبه) ثلاث مرات.. قال أبو هريرة: ما رأيتُ الحسن إلا فاضت عينيّ، أو قال: دمعت عيني أو بكيت.

.. وعن جعفر بن إياس عن عبد الرحمن بن مسعود عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه حسن وحسين، هذا على عاتقه وهذا على عاتقه، وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة حتى انتهى إلينا، فقال له رجل: يا رسول الله إنك لَتُحبهما، فقال: مَنْ أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني»(١).

وذكر ابن سعد في الطبقات من طريق الوليد بن رباح قال: «سمعت أبا هريرة يقول لمروان: والله ما أنت بوالٍ، وإن الوالي لغيرَك فدعه ـ يعني حين أرادوا دفن الحسن مع رسول الله ﷺ ـ ولكنك تَدَخَلُ فيما لا يعنيك، إنما تريد بهذا إرضاء الغائب ـ يعني معاوية ـ فأقبل عليه مروان مغضباً، فقال: يا أبا هريرة إن الناس قد قالوا أنك أكثرت على رسول الله ﷺ الحديث، وإنما قَدِمْتَ قبل وفاة النبي ﷺ بيسير» والظاهر من كلام مروان أنه قال: ذلك بعد الأحاديث التي رواها أبو هريرة غداة موت الحسن قال ابن رباح: «فقال له أبو هريرة: نعم، قَدِمتُ ورسول الله ﷺ بخيبر، وأقمتُ معه حتى توفي، أدور معه.. وأصلي خلفه وأحج وأغزو معه، فكنت والله أعلمُ الناسَ بحديثه، قد والله سبقني قوم بصحبته والهجرة إليه وكانوا يعرفون لزومي له فيسألوني عن حديثه منهم عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فلا والله ما يخفى عليّ كل حديث كان بالمدينة، وكل من أحبّ الله ورسوله، وكل من كانت له عند رسول الله ﷺ منزله، وكل صاحب له، ومَنْ أخرجه رسول الله ﷺ أن يُساكنه ـ يُعرّضُ بوالد مروان الحكم بن العاص ـ ثم قال أبو هريرة: ليسألني أبو عبد الملك عن هذا وأشباهه فإنه يجد عندي منه علماً جماً ومقالاً. قال ابن رباح:

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص٣٤ و٤٤ و١١٣.

فوالله ما زال معاوية يقصر عن أبي هريرة ويتقيه بعد ذلك ويخاف جوابه.

قال ابن كثير: وفي رواية أخرى إن أبا هريرة، قال لمروان: إني أسلمتُ، وهاجرتُ، اختياراً وطوعاً، وأحببت رسول الله ﷺ حباً شديداً، وأنتم أهل الدار وموضع الدعوة، أخرجتم النبيّ من أرضه وآذيتموه وأصحابه، وتأخر إسلامكم عن إسلامي إلى الوقت المكروه إليكم. فندم مروان على كلامه له واتقاه»[(١)].

وليس من باب المصادفة أن معاوية عزل مروان سنة ٤٩هـ فقد كان معاوية حليماً لا يرغب في مثل تلك الضجة التي أثارها موقف مروان من دفن الحسن وما وقع بين مروان وأبي هريرة من كلام فقام بعزل مروان واستعمل سعيد بن العاص بن أمية أميراً على المدينة، وكان سعيد اعتزل الفتنة فلم يشهد الجمل وصفين، وكانت زوجة سعيد هي آمنة بنت جرير بن عبد الله البجلي خير ذي يَمَنْ وكانت إحدى زوجاته أخت مروان، فتولى سعيد المدينة من سنة ٤٩ ـ ٥٣ هجرية[(٢)]. ثم عزله معاوية وولى مروان سنة ٥٤هـ، فكان مروان يستنيب أبا هريرة في إمرة المدينة فكان أبو هريرة بمثابة نائب الأمير وقد حج مروان بالناس سنة ٥٤هـ وسنة ٥٥هـ فاستناب أبا هريرة في إمرة المدينة، ثم عزل معاوية مروان سنة ٥٧ وولى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فكان يستنيب أبا هريرة، حيث كان من آخر أنباء أبي هريرة أن معاوية حج سنة ٥٦هـ وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد، وقد أخرج أبو بكر الحافظ عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبي بكر ليث بن خالد البجلي عن عبد المؤمن السدوسي عن أبي يزيد المديني قال: «قام أبو هريرة على منبر رسول الله ﷺ دون مقام رسول الله ﷺ بعتبة، فقال: ويلُ للعرب من شر قد اقترب، ويل لهم من إمارة الصبيان، يحكمون فيهم بالهوى ويقتلون بالغضب». ويبدو أن تلك الخطبة كانت سنة ٥٧ هجرية.

وفي شهر رمضان سنة ٥٧هـ ـ وقيل ٥٨هـ ـ توفت أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قال ابن كثير: «وصلى عليها أبو هريرة» وذلك لأنه كان نائب أمير المدينة، وكان أبو هريرة يومئذ ابن سبع وسبعين سنة.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص٣٤ و٤٤ و١١٣.

(٢) وفي سنة ٥٠ هجرية حج معاوية وزار المدينة، «فعزم معاوية على تحويل المنبر النبوي من المدينة إلى دمشق، وأن يأخذ العصا التي كان النبي ﷺ يمسكها في يده إذا خطب فيقف على المنبر وهو ممسكها. فقال له أبو هريرة وجابر بن عبد الله: يا أمير المؤمنين نذكرك الله أن تفعل هذا فإن هذا لا يصلح أن يخرج المنبر من موضع وضعه فيه رسول الله ﷺ وأن تخرج عصاه من المدينة. فترك معاوية ذلك» ـ [جـ٨ ص٤٥ ـ البداية والنهاية].

وفي شهر شوال أو في ذي القعدة سنة ٥٩هـ خرجت المدينة المنورة عن بكرة أبيها لتشييع جثمان الصحابي الجليل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه، قال ابن كثير: «وصلى على أبي هريرة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة، وفي القوم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو سعيد الخدري وخلق من الصحابة وغيرهم، وكان ذلك عند صلاة العصر، وكانت وفاته في داره بالعقيق، فَحُمِل إلى المدينة، فصلّى عليه، ثم دُفِن بالبقيع رحمه الله ورضي عنه، وكتب الوليد بن عتبة إلى معاوية بوفاة أبي هريرة، فكتب إليه معاوية: أن انظر إلى ورثته فأحْسِن إليهم، وأصْرِف إليهم عشرة آلاف درهم، وأحْسِنْ جوارهم». قال الواقدي: توفي أبو هريرة سنة ٥٩هـ عن ثمان وسبعين سنة. وتوفي معاوية سنة ٦٠هـ رضي الله عنهما.

* * *

خاتمة عن الأحاديث التي رواها أبو هريرة

لقد كان أبو هريرة أحفظ الصحابة لأحاديث النبي ﷺ وأعلمهم بها، ثم كان هو الذي حفظ وروى للأمة أغلب أحاديث النبي ﷺ، فقد ذكر العسقلاني ما ذكره أبو محمد بن حزم الأندلسي: «أن مسند بقيّ بن مخلد قد احتوى من حديث أبي هريرة على خمسة آلاف وثلثمائة وأربعة وسبعين حديثاً»[١] وأخرج البخاري في الصحيح ٤٤٦ حديثاً عن أبي هريرة وأخرج مسلم والترمذي والحاكم وأحمد عدداً كبيراً من الأحاديث النبوية الصحيحة والحسنة التي رواها أبو هريرة عن رسول الله ﷺ.

وقد ظهر منذ العصر العباسي أشخاص يقومون بالتشكيك في الأحاديث النبوية التي رواها أبو هريرة ويتهمونه ويطعنون فيه بما شاء لهم الهوى، وقد نقل الخطيب العجاج عن ابن خزيمة يصف الطاعنين فيه بأنهم أربعة: إما مُعطل جهمي، وإما خارجي، وإما قدري اعتزل الإسلام وأهله، أو جاهل.

ويمكن القول أن (الجهل) (والتجاهل) كان وما يزال العامل الرئيسي لتلك الشُبهات، وإن ما ذكرناه في هذا المبحث من حقائق عن أبي هريرة يجعل تلك الشبهات تزول، ويتيح إدراك الحقائق الرئيسية التالية:

ـ إن أبا هريرة من السابقين إلى الإسلام، فقد أسلم قبل الهجرة النبوية بعدة سنوات مع الطفيل بن عمرو الدوسي، وقدما إلى النبي ﷺ مكة مرتين، في حوالي

---

(١) بقي بن مخلد: هو أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد الأندلسي، من حفاظ الحديث وأئمة الدين ملئ الأندلس علماً جماً، وله في الحديث مسنده الكبير الذي رتب فيه حديث كل صحابي على الفقه وبيان الأحكام. ولد سنة ١٨١هـ وتوفي سنة ٢٧٦هـ.

السنة الخامسة والسنة السابعة للبعثة النبوية وعادا إلى اليمن حيث: بقي أبو هريرة في اليمن يتابع أخبار النبي ﷺ ويدعو إلى الإسلام في منطقة دوس بسراة اليمن مع الطفيل، ثم قَدِما على النبي ﷺ ومعهما ثمانين أو تسعين أسرة من دوس في شهر محرم سنة ٧هـ وذلك هو زمن هجرة أبي هريرة إلى المدينة فكان أكثر الصحابة ملازمة لرسول الله ﷺ حتى وفاته، فالفترة منذ إسلام أبي هريرة إلى وفاة رسول الله ﷺ هي زهاء خمسة عشر عاماً.

ـ وكان أبو هريرة يتمتع بموهبة عظيمة في الحفظ، وموهبة الحفظ لا يتمتع بها كل الناس، ولقد ذكرت كتب التراث رجالاً كانوا يحفظون مئات القصائد والآلاف من بيت الشعر، وكان خالد بن عبد الله القسري يسمع القصيدة مرة واحدة فيحفظها، بينما كثير من الناس يسمعون الشعر حتى أيامنا وقد لا يحفظون بيتاً، فموهبة الحفظ لم تكن عند غيره من الصحابة فَحَفظ أحاديث النبي ﷺ وكان شديد الاهتمام والحرص على سماع وحفظ الأحاديث، قال ابن كثير: «قال الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره. وقال حماد بن زيد: حدثنا عمرو بن عبيد الأنصاري عن أبي الزعيزعة كاتب مروان بن الحكم أن مروان دعا أبا هريرة وأقعدني خلف السرير، وجعل مروان يسأله وجعلتُ أكتُب عنه، حتى إذا كان عند رأس الحول دعاه وأقعدني من وراء الحجاب، فجعل يسأله عن ذلك ـ الذي في ـ الكتاب، فما زاد ولا نَقَصْ، ولا قَدَم ولا أَخَرْ».

ـ لقد تفرغ أبو هريرة لرواية الأحاديث النبوية والتعريف بالسنة منذ انتهاء ولايته للبحرين ـ سنة ٢٢هـ ـ في خلافة عمر بن الخطاب وقال له عمر: «اذهب فحدثْ» وكذلك طيلة خلافة عثمان (٢٤ ـ ٣٥هـ) وقد ذكر ابن سعد أن أبا هريرة كان يحدُث بالمدينة ويُفتي من لدن توفي عثمان إلى أن توفي. وقد أصبح أبو هريرة أميراً للمدينة أو نائباً للأمير في الفترة من (٤٠ ـ ٥٨هـ) ولكن الإمارة لم تكن محل اهتمامه، وكان مروان هو الأمير الفعلي غالباً، بينما كان أبو هريرة يصلي بالناس ويحدثهم عن أحاديث وسنة رسول الله ﷺ، قال أبو أيوب الأنصاري: «كان لأبي هريرة مسجد في بيته، ومسجد في حجرته، ومسجد على باب داره». ولقد كان للفترة التي أصبح فيها أميراً أو نائباً بالمدينة أهمية عظيمة حيث كان يصلي بالناس ويخطب فيهم بالمسجد النبوي ومِنْ على منبر رسول الله ﷺ فيسمع منه أحاديث النبي ﷺ كل من يأتي إلى المدينة والمسجد النبوي ثم تنتقل الأحاديث عن طريقهم إلى الآفاق. وقد امتدت فترة رواية أبي هريرة للأحاديث النبوية من سنة ٢٢هـ إلى ٥١هـ زهاء خمسة وثلاثين عاماً.

ـ ولقد كان أبو هريرة محل ثقة الصحابة والتابعين وعلماء الأمة في حياته وبعد مماته، قال البخاري: «روى عن أبي هريرة نحوٌ مِنْ ثمانمائة رجل أو أكثر مِنْ أهل العلم مِنْ الصحابة والتابعين وغيرهم». وقال ابن كثير: «حَدَث عن أبي هريرة خلائق من أهل العلم قد ذكرناهم مُرتبين على حروف المعجم في كتابنا التكميل».

ولا عبرة بموقف بعض رجال الشيعة ومذاهبهم من أبي هريرة وعدم قبولهم لأحاديثه أو تشكيكهم فيه، لأنهم يشككون أيضاً في أبي بكر وعمر وعثمان ومعظم الصحابة، ولا يقبلون إلا ما وَصَلهم من روايات الذين يسمونهم (أهل البيت)، وقد نسب بعض الرواة المتشيعين أمثال الأعمش وابن أبي الحديد روايات وأقاويل غير صحيحة إلى أبي هريرة وإلى بعض الصحابة والعلماء للتشكيك في أبي هريرة، وهي أقاويل.وروايات ملفقة افتراها المناوئون للسنة النبوية ثم يستندون إليها في اتهام أبي هريرة والتشكيك بالسنة النبوية، وقد فشلوا وأحبط الله عملهم، فالسنة النبوية أصبحت خالدة ومعها أصبح لاسم أبي هريرة الخلود عبر الأزمنة والعصور في مشارق الأرض ومغاربها، فرضي الله عنه وأرضاه.

١٦

سَوادْ بن قَاربْ.. الكاهنُ الأولُ إسْلاماً

مِنْ أوائل اليمانيين السابقين إلى الإسلام والذين قَدِموا على رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة هو الكاهن سواد بن قارب، وله قال الشاعر عارف الطائي في الجاهلية:

«فأُقْسِمُ بالعَتائِرِ حيثُ فَلْسٌ ومَنْ نَسكَ الأُقَيْصِرُ مِ العِبادِ[١]

لقد حُزْتُ الكَهانَةَ عن سَطِيحٍ، وشِقٍّ، والمُرَفَّلُ مِنْ أيادِ»[٢]

* * *

والكهانة التي حازها سواد بن قارب عن سطيح وشِق هي المعرفة التي تتجاوز القدرات البشرية الطبيعية، وقد عَرّفها بعض الباحثين قائلاً: «الكهَانةُ: ادعاءُ معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب.. وكان العرب يعتقدون أن لكل كاهن صاحباً مِنْ الجنّ يخبره بما يريد، ويُقال له الرئي. وكان الكاهن مستشار القبيلة وحَكمها، لا يُردُ له كلام، ولا يُرفَضُ له طلبْ. وكانت للكُهّانِ لغة خطابية تمتاز بالسجع»[٣]. والواقع أن معرفة الكاهن تعود إلى الفطنة واستقراء الأمور والذكاء وسِعة المعرفة، وربما أشاع بعض الكهان فكرة (الرئي) التي أعطت الكاهن مكانة ليست لغيره من الناس.

وقد كان الكاهن سَطيح بن ربيعة الأزدي والكاهن شِق بن صعب البجلي من كبار العلماء الكهنة في اليمن في عهد الملك ربيعة بن نصر وهو من ملوك اليمن في عصر الدولة الحميرية[٤] قال ابن هشام في السيرة النبوية[٥]: «كان ربيعةُ بن نصر مَلِكُ اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة ـ أي ضعفاء الملوك التبابعة ـ فرأى رؤيا هَالَتْهِ وفَظِعَ بها». فجمع الكهنة والعائفين والمنُجمين وطلب منهم معرفة الرؤيا ثم تأويلها دون أن يخبرهم بها وقال لهم: «لا يعرف تأويلها إلا مَنْ عرفها قبل أن أخبره بها،

---

(١) العتائر: جمع عتيرة، وهي ذبائح كانت تُذبح عند الصنم فلس، وفلس اسم صنم لقبيلة طيئ اليمانية في الجاهلية، والأقيصر: بيت عبادة.

(٢) كتاب الأمالي لأبي علي القالي ـ جـ٢ ص٢٩١.

(٣) الجامع في تاريخ الأدب العربي ـ حنا فاخوري ـ ص٨٤.

(٤)

(٥) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ١ ص١١.

فقال له رجل منهم: إن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطِيح وشقّ فإنه ليس أحدٌ أعلمُ منهما. فبعث إليهما، فقدم عليه سَطيح قبل شق». فسأله الملك عن الرُؤيا التي رآها وقال: إنْ عرفتها عَرَفْتُ تأويلها، «فقال سَطيح: رأيْتَ ـ أيها الملك ـ حُمَمَةً، خَرَجَتْ مِنْ ظُلُمَة، فَوَقَعَتْ بأرْضِ تَهمَة، فأكَلَتْ مِنْها كل ذات جُمْجُمة[1]. فقال له الملك: ما أخْطَأتْ منها شيئاً يا سطيح، فما تأويلها؟» فأخبره بتأويلها وجرى بينهما حديثُ كما سيأتي، ثم قدم عليه شق فسأله الملك عن الرؤيا وكتم عنه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان. «فقال شق للملك: رأيت حُمَمَة، خرجتْ من ظُلُمه، فوقعت بين روضة وأكمة، أكلت منها كُلُّ ذات نَسمَة، فقال الملك: ما أخطأت منها يا شق شيئاً، فما عندك مِنْ تأويلها». وقد قام سطيح ثم شق بتأويل الرؤيا بكلام مسجوع يتلخص في أن الأحباش سيغزون ويحتلون مناطق واسعة من اليمن بعد عهد الملك ربيعة بفترة من الزمن، وبذلك انتهى التأويل ثم أخبر كل منهما الملك بأمرين، أولهما: أن الحبشة سوف يُقْتَلون ويخرجون من اليمن على يد رجل عظيم من آل ذي يزن. والأمر الثاني: ـ وهو الذي يهمنا هنا ـ ظهور النبي محمد ﷺ بعد عهد ابن ذي يزن حيث قال الكاهن سطيح أنه سيجيء: «نَبِيٌّ زكيٌّ، يأتيه الوَحْيُ مِن قبل العَليِّ؛ فقال الملك: وممَّنْ هذا النبيّ؟ قال سَطيح: رجلٌ من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النَضْر، يكون الملكُ في قومه آخر الدهر» والأصوب: يبقى دينه إلى آخر الدهر ـ «فقال الملك: وهل للدهر مِن آخر؟ قال سطيح: نعم، يومٌ يُجمع فيه الأولون والآخرون، يَسْعَدُ فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون، فقال الملك: أحَقٌّ ما تخبرني؟ قال: نعم، والشَّفق والغَسَق، والفلق إذا اتسق، إنّ ما أنبأتك به لحق».

أما الكاهن شِقّ فإنه بعد أن أخبر الملك بأن الأحباش سيقضي عليهم رجل عظيم الشأن من بيت ذي يزن، «قال له الملك: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ فقال شِق: بل ينقطع برسول مُرْسَل يأتي بالحق والعدل بين أهل الدين والفضل، يكون ـ (دينه) ـ إلى يوم الفصل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يومُ تُجزى فيه الوُلاةَ، ويُدْعَى فيه من السماء بدَعوات يَسمع منها الأحياء والأموات، ويُجْمَعُ فيه بين الناس لمقيات يكون فيه لِمَنْ أتقى الفَوْزُ والخيرات، فقال الملك: أحقُ ما تقول؟ قال شِقّ: أي وَرَبِّ السماء

---

(١) جاء في هامش السيرة: (الحممة: هي القطعة من النار. وظلمه: يعني من جهة البحر. وأرض تهمة. واسعة متطامنة. والجمجمة: (الرأس).

والأرْض وما بينهما مِنْ رَفْع وخَفْض، إنَّ ما أنبأتك به لحقٌّ ما فيه أمضْ»[(١)].

ونرى أن معرفة سَطِيح وشِقّ بما سيقع من غزو الحبشة يعود إلى استقرار دقيق للواقع وللمقدمات التي تؤدي إلى ذلك، وبما أن آل يزن كانوا بيت الزعامة الأكبر باليمن فقد أدركا بأن القضاء على الأحباش سيكون على يد زعيم عظيم من آل ذي يزن، وإن معرفتهما بأن النبيّ سيأتي يعود إلى معرفة بالزبور القديم وفيه الخبر عن خاتم الأنبياء، فحينما أخبر سيف بن ذي يزن عبد المطلب بن هاشم بأمر النبيّ المنتظر قال بأنه مذكور «في العلم الذي احتجزناه دون غيرنا، وإن هذا وقت مولده، أو قد وُلد»[(٢)] فليس لمعرفة سطيح وشق ثم سواد بن قارب بأمر النبي ﷺ وغير ذلك من الأمور علاقة بالجن أو بعلم الغيب، والله أعلم.

* * *

سواد بن قارب . . في الجاهلية

هو ـ كما في ترجمته بكتاب الإصابة ـ (سواد بن قارب الدوسي، ويُقال الدوسي الأزدي)، قال الحافظ ابن كثير: «قال عثمان الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي: كان سواد بن قارب مِنْ أشراف أهل اليمن. ذكره أبو نعيم في دلائل النبوة»[(٣)] وكان سواد أشهر كاهن في اليمن وبقية جزيرة العرب بالجاهلية وكان الناس يأتون إليه من مناطق شتى إلى مقره حاضرة دوس بمنطقة السّراة في أعالي اليمن، وقد حفظت كتب التراث وذكر أبو علي القالي في كتاب الأمالي نبأ قدوم خمسة وجهاء من قبيلة طيئ إلى سواد بن قارب، وهُمْ بُرج بن مُسهر، وأُنيف بن حارثة، وعبد الله بن سعد بن الحشرج، وعارف الشاعر، ومرة بن عبد رضى، وكانوا من ذوي الحِجَا والرأي «فلما قربوا من السَّراة، قالوا: ليَخْبَأْ كُلُ مِنّا خبيئاً ولا يُخبر صاحبه، لنسأل سواد بن قارب عنه، فإن أصاب عرفنا علمه وإن أخطأ ارتحلنا عنه. فخبأ كُل رجل منهم خبيئاً، ثم صاروا إليه، فاهدوا له إبلاً وطُرّفاً من طُرَف الحيرة، فضرب عليهم قُبةً ونَحَرَ لهم، فلما مضتْ ثلاثة أيام دعا بهم فدخلوا عليه.

فتكلم بُرْجُ بن مُسهر الطائي وكان أَسَنَّهم فقال: جادَكَ السَّحابُ، وأمْرَعَ لك الجَنَاب، وضَفَتْ عليكَ النّعم الرِّغاب؛ نحن أُولو الآكال، والحدائق والأغيال،

---

(١) قال ابن هشام: أمضْ يعني شكا، هذا بلغةِ حِمْيَر، وقال أبو عمرو: أمض. أي باطل ـ جـ١ ص١٣ ـ السيرة النبوية.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٣١ و٣٣٣.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٣١ و٣٣٣.

والنَّعَم الجُفّال؛ أصهار الأمْلاك، وفُرسانُ العِرَاك[١] ـ يُوَرِّي عنهم أنهم من بكر بن وائل الساكنين بتخوم الحيرة ـ.

فقال سواد بن قارب: والسماء والأرض، والغَمْرِ والبَرْض، والقَرْض والفَرْض؛ إنكم لأهْلُ الهِضاب الشُّم، والنخيل العُمّ، والصُّخور الصُّمْ؛ مِنْ أجَاء العَيْطاء، وسَلْمَى ذات الرَّقَبة السَّطْعاء[٢].

قال بُرج: إنَّا كذلك، وقد خبأ لك كُل رجل مِنَّا خبيئاً لِتُخبرنا باسمه وخَبيئه، فما خَبيئي؟

فقال سواد: أُقْسِمُ بالضياء والحَلَكْ، والنُّجوم والفَلَك، والشُّرُوق والدَّلَك؛ لقد خَبَّأتَ بُرْثُنَ فَرْخ، في إعْلِيط مَرْخ، تحت آسرة الشَّرْخ[٣].

ـ (يعني: خبأت ظفر طير، في وعاء مصنوع من شجر المرخ، تحت شرخ ـ أيْ جَانِب ـ خشب رّحل ناقتك) ـ.

قال بُرج: ما أخطأتَ شيئاً، فَمَنْ أنا؟

فقال سواد: بُرْجُ بن مُسْهِرْ، عُصْرَةُ المُمْعِرْ، وثِمَال المُحَجَّر[٤].

* * *

ثم قام الثاني وقال: ما خَبِيئي؟

فقال سواد: والسحاب والتراب، والأصباب والأحْداب[٥] والنَّعَم

---

(١) قال أبو علي القالي: «أمرع: أخْصَب. والجَنَابُ: ما حول الدار. والضَّافي: السابغ الكثير، يُقالُ: خَيْرُ فلان ضافٍ على قومه أي سابغ عليهم. والرُّغابُ: الواسعة الكثيرة. ويقال فلان ذو أكلٍ، أي ذو حظ ورزق في الدنيا، والجمع آكال. والأغيال: جمع غيل، والغيل الماء الجاري على وجه الأرض. والجُفّال: الكثيرة».

(٢) وقول سواد: والغَمْرِ والبَرَضْ، الغمر: الماء الكثير. والبرض: الماء القليل. والشم: الطوال. والعُمُّ: النخل الباسق الطول. وأجا وسلمى: جبلا طيئ ومسكن قبيلة طيئ التي انتقلت من منطقة الجوف باليمن وسكنت منطقة جبلي أجا وسلمى في نجد. والعيطاء والسطعاء: الطويلة، والشديدة الطول.

(٣) الدلك: اصفرار الشمس عند المغيب. والبرثن: ظفر الطير. والإعليط: وعاء ثمر المرخ. والمرخ: شجر تُقدح منه النار. والآسرة: القِدُّ الذي يُشدُّ به خشب الرَّحل. وشرخ الرّحل: جانبه.

(٤) المُمْعِر: الذي ذهب ماله. والمُحَجَّر: المُلَجاء المُضَيَّقُ عليه. قال ثابت بن قطنة في المفضَّل بن المهلب:

كان المُفَضّلُ عِزّاً في ذوي يَمَنٍ وعصمة وثمالاً للمساكينا

(٥) الصبب: ما انخفض من الأرض. والحدبُ: ما علا.

الكُتّاب؛ لقد خَبَأتَ قُطامةَ فَسِيط، وقُذَّة مَرِيط، في مَدَرةٍ من مَدِى مَطِيط[١].

ـ (يعني: خبأت قُطعة من قُلَامة الظُّفر، وقُذَّةٍ ـ أيْ ريشٍ ـ مِن سهم قد تمرط، في وعاء من الفُخار ـ مدرة ـ فيها مطيط).

قال: ما أخطأتَ شيئاً، فَمَنْ أنا؟

فقال سواد: أنتَ أُنَيْف، قارِي الضَّيْف، ومُعْمِل السيف، وخالطُ الشتاء بالصيف.

ـ وهو: أُنيف بن حارثة بن لام الطائي ـ[٢].

* * *

ثم قام الثالث وقال: ما خبيئي؟

فقال سواد: أُقْسِم بالسَّوَام العازِب، والوَقير الكارِب، والمُشِيح الحارِب[٣] والمُجِدِّ الراكب؛ لقد خَبَأتَ نُفَاثة فَنَنْ، في قَطِيع قد مَرَنْ، مِنْ أديم قد جَرَنِ[٤].

ـ (يعني: خبأت ورقة من غُصن شجرة، في قطعة لينة، من أديمٍ، ـ أيْ جلدٍ ـ قَدْ لَان).

قال: ما أخطأتَ حرفاً، فَمَنْ أنا؟

فقال سواد: أنت ابن سعدِ النَّوال، عَطاؤك سِجَال، وشَرُّك عُضال، وعَمَدُك طِوَال، وبيتك لا يُنال.

ـ وهو عبد الله بن سعد بن الحشرج أبو حاتم الطائي[٥].

* * *

ثم قام الرابع ـ وهو عارف الطائي الشاعر ـ فقال: ما خبيئي؟

---

(١) قال أبو علي القالي: قال الأصمعي: (القطامة ما قَطَمْتَه بفمك، والقطم بأطراف الأسنان. والفسيطُ: قُلامة الظُّفر. والقذَّة: الريش. والمريط من السهام: الذي قد تمرط ريشه أيْ نُتِفَ. والمَدِيُّ: جُدول يجري منه ما سال مما هُرِق من الحوض).

(٢) هو أخو جد الصحابي (عروة بن مَضْرس بن أوس بن حارثة بن لام الطائي. قال العسقلاني: كان عروة من بيت الرياسة في قومه، وجده كان سيدهم، وكذا أبوه. وكان عروة بن مضرس يُباري عدي بن حاتم الطائي في الرياسة) ـ الإصابة ـ جـ٢ ص٤٧٨.

(٣) السوام: المال الراعي من الإبل. والعازب: البعيد. والوقير: الغنم. والكارب: القريب. والمشيح: الجاد والمحاذر.

(٤) النُّفاثة: ما تنفثه من فمك. والفنن: واحد أفنان الأشجار وهي أغصانها. وقطيع قد مرن: قطعة لينة. والأديم: الجلد. وجَرَن: لان.

(٥) حاتم الطائي هو أجود العرب في الجاهلية. وهو والد الصحابي عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي.

فقال سواد: أقسم بنَفْنَفِ اللُّوحِ، والماء المَسْفُوح، والفضاء المَنْدُوح[١]؛ لقد خَبَأتَ رُقْعة طَلاً أعْفَر، في زِعْنِفِهِ أديم أحمر، تحتَ حِلْسِ نِضْوٍ أدْبَر[٢].

قال: ما أخطأت شيئاً، فمن أنا؟

فقال سواد: أنت عارفُ ذو اللِّسان العَضْب، والقَلْبِ النَّدْب، والمَضَاءُ الغَرْب، مَتَّاع السَّرْب، ومُبيحُ النَّهْب[٣].

ثم قام الخامس ـ وهو مُرَّة بن عَبْد رُضَى الطائي ـ فقال: ما خَبِيئي؟

فقال سواد: أقسم بالأرض والسماء، والبُرُوج والأنْواء، والظُّلمةَ والضياء؛ لقد خَبَأتَ دِمَّةً في رِمَّة، تحت مُشَيْطِ لِمَّة.

[والدِّمَّة: القَمْلة. والرِّمَّة: العظام. واللمة: الشعر ـ شعر الرأس].

قال: ما أخطأت شيئاً، فمن أنا؟ قال: أنت مُرَّة، السريع الكَرَّة، البَطِيءُ الفَرَّة، الشديد المِرَّة.

* * *

قالوا: فأخبرنا بما رأينا في طريقنا إليك.

فقال: والناظِر من حيث لا يُرَى، والسامِع قبل أن يُناجَى، والعالم بما لا يُدْرَى؛ لقد عَنَّتَ لكم عُقابُ عَجْزاء، في شَفَا نيبِ دَوْحة جَرْداء؛ تحمل جَدْلاً، فتمَارَيْتم إما يداً وإما رِجْلاً.

(والعقاب العجزاء: التي ابيَضَّ ذَنَبُها. والشغانيب: ما تداخل من الأغصان. والدوحة: الشجرة العظيمة. والجَدْلُ. العِضْو، وجمعه جُدُول).

فقالوا: كذلك، ثُمَّ مَهْ؟ قال: سَنَح لكم قبل طُلُوع الشَّرْق، سِيدُ أمَقّ، على ماء طَرْق.

(أي سنح لكم قبل شروق الشمس ذئب طويل. فالسِيدُ: الذئب، والأمق: الطويل. والطرق: الماء الذي ترود الإبل) قالوا: ثم مَهْ؟ قال: ثم تيسُ أفْرق، سَنَدَ في أبْرَق، فرماه غُلام أزرق، فأصاب بين الوابلة والمِرْفَق.

---

(١) قوله: نفنف اللوح. قال أبو علي القالي: النفنف واللوح واحد وهما الهواء، وإنما أضاف لما اختلف اللفظان فكأنه أضاف الشيء إلى غيره. والمسفوح: المصبوب. والمندوح: الواسع.

(٢) زعانفُ الأديم: أطرافه، واحدتها زِعْنِفَه. والحلس للبعير بمنزلة القُرطاط للحافر، والقُرطاط: البرذعة، وإنما قيل له حِلس: للزومه الظهر، والعرب تقول: فلان حِلْسُ بيته إذا كان يلزم بيته.

(٣) القلب الندب: القلب الذكي. والغَرْبُ: الحَدُّ. والسَّرْبُ: بفتح السين، جماعة الإبل.

(أي تيس سَنَد في جبل أبرق، يقال جبل أبرق إذ كان فيه لونان. والوابلة: راسُ العَضُد الذي يلي المَنْكِب). فقالوا: صدقت، وأنت أعلمُ مَنْ تَحمِلُ الأرض.

وقال عارف الطائي الشاعر:

أَلَا لِلَّهِ عِلْمٌ لا يُجَاري ... إلى الغاياتِ في جَنْبَيْ سَوادِ
أَتَيْناه نُسائِلُه امْتِحانا ... ونَحْسِبُ أن سَيَعْمِدُ بالعِنَادِ
فأبْدَى عن خَفِيٍّ مُخَبَّاتٍ ... فأضْحَى سِرُّها للناسِ بادِي
حُسَامٌ لا يُلِيقُ ولا يُثَأْثِي ... عن القَصْد المُيَمَّم والسَّدادِ[1]
فأُقْسِمُ بالعَتائرِ حيثُ فَلْسُ ... ومَنْ نَسكَ الأُقَيْصِرَ م العِبادِ
لَقَدْ حُزْتَ الكَهَانَةَ عَنْ سَطِيح ... وشِقٍّ والمُرَقَّلِ من إيادِ[1]

* * *

وانتشر نبأ سواد بن قارب مع وجهاء طيئ وقولهم له: (أنت أعلمُ مَنْ تحملُ الأرض) والشعر الذي قاله عارف الطائي، فأصبح سواد بن قارب أشهر الكهنة العارفين الذين يثق بعلمهم الناس، وذلك منذ ما قبل البعثة النبوية بسنوات، ولم يكن عدد الكهنة المعروفين يزيد عن عشرة، وكان سواد أعلمهم وأشهرهم جميعاً.

* * *

معرفة سواد بن قارب بأمر النبي ﷺ

قال ابن هشام في السيرة النبوية (قال ابن إسحاق: كانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكُهَّان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه، لما تقارب من زمانه؛ أمَّا الأحبار والرهبان فَعَمَّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليه فيه، وأما الكُهَّان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع، إذ كانت وهي لا تحجب عن ذلك بالقذف من النجوم. وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكرُ بعض أموره، لا تُلْقي العربُ لذلك فيه بالاً، حتى بعثه الله تعالى، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون؛ فعرفوها؛ فلمَّا تَقَارَبَ أمر رسول الله ﷺ وحَضَر مَبْعَثُه حُجِبت الشياطين عن السمع.. فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد؛ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ حين بعثه، يقص عليه خبر الجن.. ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا...﴾ [الجن: ١، ٢] ـ إلى آخر الآيات ـ فآمنوا وصدقوا ثم

---

(١) يُليق: قال الأصمعي: ما ألاقتني أرض، أي ما أمسكتني. ويُثاثي: يحبس ـ كتاب الأمالي لأبي علي القالي ـ جـ٢ ص٢٨٩ ـ ٢٩٢.

ولـوا ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١) [الأحقاف: ٢٩، ٣٠] ثم تذكر الرواية أن الكهان من العرب أتتهم الجنُّ وأخبرتهم بمبعث النبي ﷺ وكان أشهرهم والذي رُويَ ذلك عنه هو «سواد بن قارب الذي أتاه رئيُّهُ بظهور رسول الله ﷺ»(٢).

وقد استهل ابن كثير نبأ سواد بن قارب قائلاً: «وقد تقدم كلام شِقٍّ وسَطِيح لربيعة بن نصر ملك اليمن في البشارة بمجيء رسول الله ﷺ: رسولٌ زكيّ يأتي إليه الوحيّ من قِبل العليّ. وقال سطيح لعبد المسيح: إذا كثرت التلاوة وغاضت بحيرة ساوة وجاء صاحب الهراوة يعني بذلك رسول الله ﷺ»(٢) وتتمثل أهمية ذلك في إدراك أن معرفة سواد بن قارب بأمر النبي ﷺ كانت سابقة لمبعثه وظهوره لأنه حاز علم ومعارف سطِيح وشِق، ومن بين ذلك تبشيريهما بمجيء النبي ﷺ وهو علم قديم كان يتوارثه بعض كبار ملوك وكهنة اليمن منذ زمن (تُبّع الأكبر) وزمن (ذي القرنين) وزمن (تُبّع أسعد)، فقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك إنه «قدم على تُبع ـ أسعد ـ شافع بن كليب الصدفي وكان كاهناً، فأقام عنده ـ بمدينة ظفار ـ فلما أراد توديعه قال تُبع: ما بقي من علمك؟ قال: بقى خبرُ ناطقٍ وعلمُ صادق» فأخبره الكاهن شافع بن كُليب بأمر خاتم الأنبياء قائلاً: «بارُ مبرور، أُيّد بالقهور، ووصف في الزّبور، وفُضلت أمتّه في السفور، يفرج الظُلم بالنور، أحمد النبيّ، طوبى لأمته حين يجيء، أحدُ بني لؤيْ، ثم أحد بني قصيّ. فبعث تُبّعُ إلى الزبور فنظر فيه، فوجد صفة النبي ﷺ»(٣) ويتبين من ذلك أن مصدر العلم والمعرفة بأمر النبي ﷺ هو كتاب زبور قديم منذ زمن تُبّع وزمن ذي القرنين المذكورين في القرآن الكريم، وانتقل ذلك العلم بين كبار الكُهّان مِنْ شافع بن كليب إلى شِقّ وسطيح إلى سواد بن قارب كما انتقل وتوارثه بعض الملوك منذ زمن أسعد تُبع إلى عهد سيف بن ذي يزن، فذلك هو المصدر والطريق الأول لمعرفة سواد بن قارب بأمر خاتم الأنبياء الذي سيجيء وإنه كما قال شافع سيكون «مِنْ بني لؤي» وكما قال شِقّ وسطيح سيكون «مِنْ ولد غالب بن فهر». ويَجْمعُ ذلك إنه من ولد (لؤي بن غالب).

* * *

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ١ ص٢٢١.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٣٢.
(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٢ ص٩٨.

فلما بعث اللّهُ تعالى النبيّ محمد ﷺ أتى النبأ إلى سواد بن قارب بأنه: قد بُعث نبيٌ مِن لؤي بن غالب في مكة يدعوا إلى الله وإلى عبادته، وإن الجنّ آمنوا بالله ورسوله، أما مصدر وطريق معرفة سواد بن قارب بذلك، فإن كتب التاريخ والسيرة النبوية وتراجم الصحابة تذكر إنه: بينما سواد بن قارب ذات ليلة بين النائم واليقظان أتاهُ رئِيُّهُ ـ وهو تابعه مِن الجن ـ فضربه برجله، وقال: قُمْ يا سواد بن قارب، واسمع مقالتي، وأعقل إن كُنت تعقل، فقد بُعث نبيٌّ مِنْ لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادة الله، وقال: ألم تر إلى الجن وأبلاسها، وإياسها مِنْ دينها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها. وفي رواية ثانية إنه انشاء يقول:

عـجـبـتُ لـلـجـن وإبـلاسـهـا وشـدِّهـا الـعـيـسَ بـأحـلاسـهـا
تـهـوى إلـى مـكـة تـبـغـي الـهُـدى مـا مـؤمـنـو الـجـنِّ كـأرجـاسـهـا

وفي رواية البخاري:

ألـم تـرَ لـلـجـنّ وإبـلاسـهـا ويـأسـهـا مـن بـعـد أنـكـاسـهـا
ولـحـوقـهـا بـالـقـلاص وأحـلاسـهـا[1]

وقد ذكر ابن كثير الروايات التي ذكرت ذلك الخبر بألفاظٍ وروايات عديدة ومِنْ طُرق متعددة[1] وكذلك ذكرها العسقلاني في الإصابة، وأبو نعيم في دلائل النبوّة، والبخاري، وابن سيد الناس في عيون الأثر، وابن هشام في السيرة النبوية.

* * *

ونرى وجود مصدر ثالث لمعرفة سواد بن قارب بأمر النبي ﷺ وهو الطفيل بن عمرو الدوسي حينما ذهب إلى مكة بعد البعثة النبوية بأمد يسير، فسمع النبي ﷺ، فآمن به وبدين التوحيد الحنيف، ثم رجع إلى أرض دوس بمنطقة السَراة حاملاً نبأ ظهور النبيّ محمد ﷺ بمكة داعياً إلى الله وإلى عبادة الله وحده.

* * *

إسلام سواد بن قارب، وصحبته لرسول الله ﷺ

وبينما رسول الله ﷺ بمكة في السنوات الأولى للبعثة النبوية، انطلق سواد بن قارب من منطقة السَّراة باليمن قاصداً رسول الله ﷺ. ويبدو أن الطفيل بن عمرو كان قد دعاه إلى ذلك، وعند مسير الطفيل إلى مكة، سمع سواد بن قارب هاتفاً يدعوه بأن يسير إلى رسول الله ﷺ فهو النبيُّ المنتظر الذي تَقَدم الخبر بأنه من بني

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٣٢ ـ ٣٣٦.

لؤي بن غالب وإنه في مكة سيظهر، وقد تكرر الهاتف الذي سمعه سواد بن قارب ثلاث ليال، فعقد سواد بن قارب عزمه على أن يلحق به ـ ربما يلحق بالطفيل الذي كان قد توجه إلى مكة مع أبي هريرة ـ فلما سمع سوادُ الهاتفَ في الليلة الثالثة يدعوه إلى أن يلحق به ويرحل إلى رسول الله ﷺ عقد العزم على المسير، وفي ذلك قال سواد بن قارب «فعلمتُ أن الله قد أراد بي خيراً، فقمتُ إلى بُرّدَة لي فلبستها، ووضعت رجلي في غرز ركاب الناقة، وأقبلتُ حتى انتهيتُ إلى النبي ﷺ، فأسلمتُ، وأخبرته الخبر»[١] وجاء في رواية محمد بن كعب القرظي من طريق أبي جعفر بن محمد بن عليّ أن سواد بن قارب قال: «. . فَرّحلتُ ناقتي، ثم أتيت المدينة» وهنا قال ابن كثير: «يعني مكة»[١] وكذلك جاء في هامش السيرة النبوية في رواية القرظي: «. . فَرّحلتُ ناقتي، ثم أتيت المدينة» وهنا جاء في هامش السيرة ما يلي «وفي رواية أخرى: أتيتُ مكة؛ وهي أقرب إلى الصحة»[٢] وقد وقع إلتباس في رواية القرظي لذلك قال ابن كثير: «يعني مكة» فيكون السياق «. . فَرّحلتُ ناقتي، حتى أتيتُ مكة، فانتهيت إلى النبي ﷺ وأصحابه حوله، فلما رآني قال: مرحباً يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك». فَسَلم سواد على النبي ﷺ ونطق بالشهادتين، ثم قال سواد: «يا رسول الله، قد قُلتُ شعراً، فأسمع مقالتي، فقال رسول الله: هات». وفي الرواية الأولى أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا اجتمع المسلمون فأخبرهم» أو «فأنشدهم» فلما اجتمع المسلمون ـ وكان عددهم يومئذٍ لا يتجاوز العشرات ـ استأذن رسول الله ﷺ في إلقاء الشعر الذي قاله، فقال رسول الله ﷺ: هات.

فقام سواد بن قارب بين يدي رسول الله ﷺ وأنشاء يقول:

أَتَـانـي نَـجِـيّـيٌ بَـعْـدَ هَـدْءٍ وَرَقْـدَةٍ ... وَلَـمْ يَـكُ فِـيـمَـا قـدْ بَـلَـوْتُ بِـكَـاذِبِ[٣]

ثَـلَاثَ لَـيَـالٍ قَـوْلُـهُ كُـلَّ لـيـلـةٍ ... أَتَـاكَ رَسُـولُ مِـنْ لُـؤَيِّ ابْـنِ غَـالِـبِ

فَشَمَّرتُ عَنْ سَاقي الإزَارَ وَوَسَّطَتْ ... بي الذعْلِبُ الوَجْناءِ بَيْنَ السَّبَاسِبِ[٤]

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٣٢ ـ ٣٣٦.

(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ١ ص٢٢٨.

(٣) في السيرة والإصابة: «أتاني رئيِّي» بينما في البداية والنهاية وعيون الأثر «أتاني نجييّ». والنجّي: الذي يناجيك من البشر.

(٤) ويروى «فشمّرت أذيال الإزار». والذعلب ـ بكسر الذال وسكون العين وكسر اللام ـ الناقة السريعة.

فـأشـهـد أَنَّ الـلَّـه لا رَبَّ غـيْـرُهُ — وَأنَّـكَ مَـأْمُـونٌ عَـلَـى كُـلِّ غَـائـب
وَأَنَّـكَ أَدْنَـى الْـمُـرسَـلِـيـنَ وَسِـيـلَـةً — إلَـى الـلَّـهِ يَـا ابْنَ الأكْـرَمِـينَ الأَطَايِـبِ
فَـمُرنَـا بـمـا يَـأتِـيكَ مِنْ وحـيّ ربّنـا — وإن كـان فـيـمـا جَـاءَ شَـيْبُ الذَّوَائِبِ[1]
وَكُنْ لِي شـفـيـعـاً يَـوْمَ لا ذُو شَـفَـاعَـةٍ — سِـوَاكَ بِـمُـغْـنٍ عَـنْ سَـوَادِ ابْـنِ قَـارِبِ

«ففرح النبي ﷺ وأصحابه بمقالته فرحاً شديداً حتى رؤى الفرح في وجوههم.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: أفلحت يا سواد».

* * *

ومكث سواد بن قارب فترة مع رسول الله ﷺ بمكة، وتَعَلَّم وحَفَظ ما كان قد نزل من القرآن وشرائع الإسلام، ويمكن تقدير زمن ذلك بحوالي السنة الثالثة من البعثة النبوية أو السنة الرابعة على الأقل، لأن سواد بن قارب لما قدم إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب ـ سنة ١٣هـ ـ قيل لعمر: ـ هذا سواد بن قارب الذي أتاه رئيه بظهور رسول الله ﷺ، فدعا عمر، وقال له: أنت سواد بن قارب الكاهن في الجاهلية؟ فقال سواد: سبحان الله، ما استقبلني بهذا أحدُ منذُ أسلمتُ يا أمير المؤمنين. فقال عمر: يا سبحان الله ما كُنّا عليه مِنْ الشرك أعظمُ مما كُنتَ عليه من كهانتك، والله يا سواد لقد بلغني عنك حديثُ أشْتَهي أن أسمعه منك، فأخبرني ما جاءك به رئيك ـ أو صاحبك ـ بظهور رسول الله ﷺ. فأخبره سواد بن قارب بذلك وبقدومه إلى النبي ﷺ بمكة وذلك الشعر الذي قاله سواد وألقاه بين يدي رسول الله ﷺ وأصحابه الذين كانوا قد أسلموا وسمعوا ذلك الخبر والشعر فذلك يدل على أن زمن قدوم سواد إلى النبي ﷺ بمكة كان قبل إسلام عمر بن الخطاب في السنة الرابعة من البعثة، ولذلك سأله عمر عن ذلك فأخبره سواد بالخبر إلى قول رسول الله ﷺ له: أفْلَحت يا سواد[2].

* * *

وبعد مكوث سواد فترة بمكة مع رسول الله ﷺ تهيأ للعودة إلى منطقته باليمن. «فقال له رسول الله ﷺ: سر في قومك وقُل هذا الشعر فيهم»[3].

---

(١) في السيرة وعيون الأثر والبداية والنهاية «فمُرنا بما يأتيك يا خير مرسل» وفي السهيلي» «فمرنا بما يأتيك من وحيّ ربنا».

(٢) نباء سواد بن قارب مع عمر بن الخطاب مذكور في عيون الأثر والإصابة والسيرة، ومذكور بالتفصيل من عدة طرق في البداية والنهاية.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٣٣ و٣٣٧.

فعاد سواد إلى منطقة السّراة، وساهم مع الطفيل وغيرهما من الصحابة في دعوة الناس إلى الإسلام، وقد ذكرت بعض الروايات إنه «وَفَد على النبي ﷺ بالمدينة» ولا يتعارض ذلك مع قدومه الأول إلى النبي ﷺ بمكة، ويمكن أن تكون وفادته مع الطفيل وجندب بن عمرو بن حممة ورجالات دوس الذين وفدوا إلى النبي ﷺ بالمدينة سنة ٧ هجرية، فصحب رسول الله ﷺ فترة بالمدينة وعاد إلى اليمن حيث ذكر ابن كثير عن محمد بن كعب القرظي إنه «كان من أشراف أهل اليمن». قال ابن كثير: «وله صحبة ووفادة. قال أبو حاتم وابن مندة: روى عنه سعيد بن جبير وأبو جعفر محمد بن علي. وقال البخاري: له صحبة. وكذا ذكره في الصحابة البرذعي الحافظ، والدارقطني، وغيرهما»(١).

* * *

إسلام بقية كهنة اليمن

لم يكن عدد الكهنة المعروفين عند ظهور الإسلام يزيد عن عشرة كُهَّان، غالبيتهم في اليمن، وكان أشهرهم سواد بن قارب وهو الكاهن الأول إسلاماً، ومنهم ابن وقشه. ومأزن بن العضوب، والعوام بن جُهيل، وكاهن جَنْبْ، وخنافر بن التوأم الحميري:

ـ **الكاهن ابن وقشة**: وكان كاهن منطقة وقبيلة سعد العشيرة المذحجية وسادن صنم لهم يقال له: (قراض)، وقد ذكره العسقلاني في كتاب الإصابة وابن مندة في دلائل النبوة من طريق ذباب بن الحارث المذحجي قال: كان لابن وقشة رئي من الجن يخبره بما يكون. فأتاه ذات يوم، فأخبره بشيء، فنظر إليّ فقال: يا ذباب يا ذباب، اسمع العجب العُجاب، بُعث محمد بالكتاب، يدعو بمكة فلا يُجاب. فقلتُ لابن وقشة: ما هذا؟ قال: لا أدري كذا قيل لي. ثم سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ. ثم أسلمنا، وثرت إلى الصنم فكسرته، ثم أتيت رسول الله ﷺ فأسلمت، وقال ذباب في ذلك:

تبعتُ رسول الله إذْ جاء بالهدى وخَلَّفْتُ قراضاً بدار هوان
ولما رأيتُ الله أظهر دينه أجبت رسول الله حين دعاني(٢)

ـ **مأزن بن العضوب**: كان كاهناً في قرية يقال لها (سمايا) في عُمان، وكان لهم صنم يقال له (باجرا) وكانت تعظمه بنو الصامت وبنو حطامه وقبيلة المهرة

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٣٣ و٣٣٧.

(٢) الإصابة في تمييز الإصابة ـ جـ٢ ص٤٨١.

باليمن، فسمع مازن بن العضوب هاتفاً يقول: «. . أتى نبيّ مرسل، جاء بحق منزل، بُعث بدين الله الأكبر. .» وبعد فترة «جاء رجلٌ من مكة، فقال له مأزن: ما الخبر وراءك؟ قال: ظهر رجل بمكة يقال له أحمد، يقول لمن أتاه: أجيبوا داعي الله. فقال مازن: هذا بناء ما سمعت» ثم سار مازن إلى رسل الله ﷺ فأسلم، فلما رجع إلى قومه أنّبوه وشتموه، فرحل عنهم، ثم أتوه فقالوا: يابنْ عم: عِبنا عليك أمراً، وكرهنا ذلك، فإنْ أَبَيْت ذلك فأرجع وقُم بأمورنا، وشأنك وما تدين به). فرجع معهم. ومكث مسلماً، ثم أسلم قومه جميعاً سنة ٩ هجرية، وله قصة طويلة في البداية والنهاية.

ـ **العوام بن جهيل الهمداني**: كان كاهن همدان (حاشد وبكيل) وكان سادناً للصنم (يعوق) في منطقة وقرية (خيوان) ـ بين صعدة وصنعاء ـ فأتاه (الرئي) بخبر ظهور النبي ﷺ، وقد ذكرنا نبأ العوام بن جهيل في المبحث الخاص بالصحابي مالك بن نمط الأرحبي الهمداني، فلما انتشر الإسلام في منطقة همدان، أسلم العوام وسار مع وفد همدان إلى النبي ﷺ بالمدينة المنورة، في رجب سنة ٩هـ.

ـ **كاهن جَنْبْ**: وهو كاهن قبيلة ومنطقة جَنْبْ المذحجية باليمن، وقد ذكر خبره ابن هشام في السيرة النبوية: «أن جَنْباً، بَطْناً من اليمن، كان لهم كاهن في الجاهلية، فلما ذُكر أمر رسول الله ﷺ وانتشر في العرب، قالت له جَنْبُ: انظر لنا في أمر هذا الرجل، واجتمعوا له في أسفل جَبَله، فنزل إليهم ـ حين طلعت الشمس ـ فوقف مُتكئاً على قوس له، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً، ثم قال: (أيها الناس، إنَّ الله أكرم محمداً واصطْفَاه، وطَهَّر قلبه وحَشَاه، ومُكثْه فيكم أيها الناس قليل). ثم ارتفع في جبله راجعاً من حيث جاء»[(١)].

ـ **خنافر بن التوأم الحميري**: قال العسقلاني في ترجمته بالإصابة: «كان كاهناً من حمير، ثم أسلم على يد معاذ بن جبل». وقد ذكر ابن دريد خبره من طريق ابن الكلبي قال: «كان خنافر بن التوأم الحميري كاهناً، وكان قد أوتي بسطة في الجسم وسعة في المال. . فلما وفدت وفود اليمن على النبي ﷺ وظهر الإسلام» ـ يعني لما أسلم أذواء مناطق حمير وهي مخاليف الجَنَد وبعث النبي ﷺ معاذ بن جبل سنة ٩هـ ـ «خرج خنافر بن التوأم بماله وأهله، فلحق بالشحرْ، وحالف جودان بن سمي القرضمي، وكان سيداً منيعاً، فنزل وادياً مخصباً ـ يعني خنافر ـ وكان له رئي في الجاهلية، ففقده في الإسلام» ـ وتدل عبارة (ففقده في الإسلام) على أنه لم يعد هناك (رئي) من الجن يأتي الكهنة بعد الإسلام، فكما مُنعت الجن عن إستراق السمع لم يعد هنالك (رئي) بعد الإسلام، وبالتالي لا يمكن أن يأتي (الرئي)

---

(١) السيرة النبوية ـ جـ١ ص٢٢٦.

لخنافر بن التوأم في وادي الشحر ـ سنة ١٠هـ ـ فما جاء في الرواية عن مجيئه لخنافر ذات ليلة وهو في وادي الشحر يمكن أن يكون الأصل في ذلك أن خنافر بن التؤام أخذ يتذكر في تلك الليلة ما حدث في وقت سابق، قبل أن يفقد (الرئي) حيث تذكر الرواية إنه قال لخنافر «. . اسمع أصدق الأخبار، وأسلك أوضح الآثار، تنج من النار. . قد ظهر أحمد خير البشر، المبعوث بالآي الكبر. . فآمنتُ به يا خنافر، وأقبلتُ إليك أبادر، فجَانِبْ كل نجس كافر، وشايع كل مؤمن طاهر» فأخذ الإيمان يغمر نفس خنافر بن التوأم، فشد الرّحال، وسار بأهله وماله عائداً من منطقة الشّحرْ ـ في أقصى حضرموت والمهرة (قال خنافر: ثم أقبلتُ على معاذ بن جبل بصنعاء، فبايعته على الإسلام، وعلمني سوراً من القرآن. وفي ذلك قال:

ألم تر أن الله عاد بفضله وأنقذ من لفح الجحيم خنافرا

دعاني شصار للتي لو رفضتها لأُصليتُ جمراً من لظى الهون حائرا)

فكان خنافر بن التوأم الحميري آخر الكهنة إسلاماً، وآخر كاهن عربي في التاريخ.

* * *

سواد بن قارب بعد وفاة رسول الله ﷺ

منذ وفادة سواد بن قارب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة ثم عودته إلى منطقة دوس، كان سواد من الصحابة المقيمين في مناطقهم، بالإضافة إلى أنه «من أشراف أهل اليمن».

قال السهيلي: «ولسواد بن قارب هذا مقام حميد في دوس حين بلغهم وفاة رسول الله ﷺ» وهو مقامُ الثبات على الإسلام وتثبيت وحث قبيلته ومنطقته على التمسك بالإسلام، وقد ساهمت قبيلة دوس في محاربة المرتدين في نجد واليمامة حيث استشهد الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه وهو يحارب المرتدين باليمامة في خلافة أبي بكر.

* * *

وكان سواد بن قارب قد بلغ من الكبر عتياً لما استنفر عمر بن الخطاب الناس لجهاد الفُرس بالعراق بعد موقعة الجسر ـ في شعبان ١٣هـ ـ فتولى جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه استنفار قبائل منطقة السراة باليمن وسار بهم إلى المدينة، وعند ذلك كان مسير سواد بن قارب إلى المدينة المنورة، فقيل لعمر: «هذا سواد بن قارب الذي أتاه رئيه بظهور رسول الله ﷺ» فدعاه عمر، وسمع منه خبر ذلك والشعر الذي قاله حين قدم إلى رسول الله ﷺ بمكة إلى أن قال: «ففرح

رسول الله ﷺ وأصحابه فرحاً شديداً، حتى رؤي الفرح في وجوههم. وقال رسول الله ﷺ: أفلحت يا سواد».

قال ابن كعب القرظي: «فوثب إليه عمر بن الخطاب فالتزمه وقال: **قد كنتُ** أشتهي أن أسمع هذا الحديث منك يا سواد، فهل يأتيك رئيّك اليوم؟ قال: أما منذ قرأتُ القرآن فلا، ونِعْمَ العوضُ كتاب الله عزّ وجلّ».

* * *

ومضى سواد بن قارب مع المجاهدين، واستقر في البصرة، حيث جاء في ترجمته بالكتاب الجامع إنه «عاش إلى خلافة عمر، ومات بالبصرة، نحو سنة ١٥ هجرية» فرضي الله عنه وأرضاه.

١٧

عسكلان بن عواكن الحميري

ـ أولُ خواص المؤمنين ـ

مِنْ أسبق السابقين إلى الإيمان هو عسكلان بن عواكن الحميري. قال عنه ابن حجر العسقلاني: «كان عسكلان مِمَنْ بَشَر برسالة النبي ﷺ، ثم أدرك البعثة، وأرسل إلى النبي ﷺ بشعر يمدحه ويذكُر فيه إسلامه»[١].

* * *

لقد كان عسكلان بن عواكن تاجراً كبيراً في مناطق حِمْيَر باليمن، وهي مناطق المعافر وذي رعين وسَرْوحِمْيَر التي كانت تسودها الديانة المسيحية التي بها كان يدينُ عسكلان. وقد انتشرت الديانة المسيحية في مناطق حمير وغيرها منذ زمن الملك عبد كلال بن ذي رعين الحميري معاصر الملك الروماني قسطنسيوس بن قسطنطين الذي حكم في الفترة (٣٣٧ ـ ٣٧٠م) من القرن الرابع الميلادي، وفيه قال نشوان بن سعيد الحميري:

أم أين عبد كلال الماضي على ... دين المسيح الطاهر المساح

وجاء في تاريخ الأمم والملوك أنه «كان الملك عبد كلال بن مثوب على دين النصرانية الأولى، وكان الذي دعاه إليه رجل مِنْ غسان قَدَم عليه من الشام»[٢] ومنذ ذلك الزمن انتشرت المسيحية في مناطق واسعة من اليمن هي مناطق حمير في غرب ووسط وجنوب وشرق اليمن، فاستمرت الديانة المسيحية هي السائدة بتلك المناطق إلى ما قبل الإسلام، وقد أشرنا إلى ذلك هنا لأن عسكلان بن عواكن الحميري كان مسيحياً وعارفاً بالإنجيل الصحيح وبزبور حِمْيَر القديم الذي فيه التبشير بالنبي محمد ﷺ وصِفَتِه وزمن ظهوره ومبعثه بمكة، فكان يتحدث عن ذلك في بعض الأحايين.

* * *

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ جـ٣ ص١٠٥.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ جـ٢ ص٨٦ ـ وسيأتي تبيين التفاصيل في المبحث الخاص بالحارث بن عبد كلال.

وكان عبد الرحمن بن عوف يأتي من مكة إلى اليمن للتجارة في الجاهلية فينزل عند عسكلان، وفي ذلك قال عبد الرحمن بن عوف: «كنتُ إذا قدمتُ اليمن نزلتُ على عسكلان بن عواكن الحميري، فلا يزال يسألني عن مكة وأحوالها، وهل ظهر فيها مَنْ يُخالفَ دينهم أم لا». فكان عبد الرحمن يجيبه بعدمِ ظهور أحد.

❊ ❊ ❊

وقبل البعثة النبوية بسنة كان عسكلان قد بلغ من الكبر عتياً، وكان أولاده يتولون تجارته، فأتى عبد الرحمن بن عوف فنزل عنده، وفي ذلك قال عبد الرحمن بن عوف: «سافرتُ إلى اليمن قبل المبعث بسنة، فنزلتُ على عسكلان بن عواكن، وكان شيخاً كبيراً، قد أُنسئ له في العمر» فسأله عبد الرحمن عن أحواله، فقال عسكلان:

إذا ما الشيخُ صُمَّ فلم يَكْلم ... وأودى سَمْعَهُ إلّا بَدَايا
فذاك الداءُ ليس له دواءُ ... سوى الموت المُنَطِّقِ بالرزايا
شهدتُ تَبابعَ الأملاك مِنّا ... وأدركتُ المُوَقف في القضايا[1]
فبادوا أجمعين، وصِرْتُ حلْساً ... صريعاً لا أبوح إلى الخلايا

ويستفاد من قوله: «شهدتُ تبابع الأملاك منّا» أنه عاصر وشهد عهود عدد من الملوك الحميريين التبابعة الذين يمكن القول أن عددهم ثلاثة. ولهم أهمية في التبشير بالنبي محمد ﷺ، ومِنْ المفيد الإشارة إليهم هنا، وهم:

ـ **سُميفع أشوع ملك حمير**: وقد ذكرته المصادر الرومانية باسم (اسميفوس ESIMIFAEOS ملك حمير)، وجاء ذكره في نقش مُسند بنجران قام بكتابته أخوه الأمير (شراحيل بن شرحبيل يكمل ذي يزن وجدن) وقال في خاتمته أنه «وضع هذا المسند في حماية السماء، ويستعيذ بالرحمن العليّ من كل مخادع يحاول طمسه. صِيغ وسُطِر وقُدِم باسم الرحمن. صاغه تميم ذو حذية الربهدي بمحمد»[2]. وجاء في نقش مُسند بمنطقة حمير قام بكتابته الملك (سميفع أشوع) عبارة «باسم الرحمن وابنه المسيح الناصري نفس قُدس»[3] ويتبين من ذلك النقش الإيمان بالديانة المسيحية، والإيمان بالله (الرحمن. العليّ) وتشير عبارة «بمحمد» إلى محمد النبيّ الذي سيجيء ويكون خاتم الأنبياء، فكأنّ المقصود من اختتام ذلك النقش (بمحمد) هو (بشفاعة محمد النبيّ الذي سيجيء). وقد حكم الملك سميفع إلى عام ٥٣٢ ميلادية، وكان يحكم كل أرجاء اليمن.

---

(١) المُوقف: اسم قاضي حميري كان يقضي بين الناس غالباً.
(٢) نقش شراحيل بن ذي يزن ـ نجران ـ ١٠٢٨ جام.
(٣) نقش سميفع أشوع ـ ٣٩٠٤ ـ ركمانز ـ في العربية السعيدة.

ـ **معدي كرب بن سميفع ذي يزن**: كان ملكاً في سَرْوحِمْيَر والقسم الشرقي من اليمن في فترة الاحتلال والحكم الأكسومي الحبشي الذي كان يشمل صنعاء ومنطقة واسعة من اليمن، وخاض معدي كرب بن سميفع حرباً ضد أبرهة والأحباش[١]، وكان مقر معدي كرب بن سميفع في القصر (يزن) بمناطق حمير الجنوبية، وحكم هناك حتى هلاك أبرهة ـ عام ٥٧٠م ـ.

ـ **سيف ابن ذي يزن**: الذي قضى على الأحباش ـ سنة ٥٧٢م ـ ووفد إليه عبد المطلب بن هاشم ووجوه قريش للتهنئة. فانفرد سيف بعبد المطلب وأخبره وبشره بالنبي محمد ﷺ وذلك لسنتين من مولد محمد ﷺ ـ سنة ٥٧٢م ـ وسيأتي نبأ ذلك في المبحث التالي عن زرعة بن سيف بن ذي يزن.

فأولئك هم الذين قال عسكلان مشيراً إليهم (شهدتُ تبابع الأملاك منّا) وقال أنهم (بادوا) وذلك لأنه لا يُقال (تُبع) و(تبابعة) إلا للملوك الذين يحكمون كل اليمن، وقد انقسم حكم اليمن بعد عهد ابن ذي يزن، حيث باتت صنعاء وبعض المناطق تحت حكم الفرس، وأصبحت مناطق حمير تحت حكم عدد من الملوك الأذواء الحميريين الذين كان أبرزهم الحارث بن عبد كلال بن ذي رعين وزُرعة بن سيف بن ذي يزن، ولكنهم ليسوا تبابعة.

ولما سمع عبد الرحمن بن عوف ذلك الشعر من عسكلان، سأله عسكلان عن مكة وأحوالها، وهل ظهر فيها من خالف دين عبادة الأصنام بمكة أم لا. فأجاب عبد الرحمن بعدم ظهور أحد، وكان ذلك قبل سنة واحدة من البعثة النبوية.

* * *

ثم بعث الله تعالى النبي ﷺ، وكان عسكلان يُتابع معرفة ذلك، سواءً من خلال سؤال من يأتي من مكة، أو من خلال الذين يذهبون بالتجارة إلى مكة ويعودون، وربما كان يتحرى بعضهم بأن يأتوه بالخبر في حالة ظهور مَنْ يخالف عبادة الأصنام ويدعو إلى عبادة الله، فلما بُعث النبي ﷺ عرف عسكلان بذلك خلال الشهر الأول من مبعث النبي ﷺ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً عن مكة، وأتى إلى اليمن في رحلته التجارية السنوية، ونزل ـ كما هي عادته ـ عند عسكلان.

قال عبد الرحمن بن عوف «قال لي عسكلان: حسبك، ألا أُبشرك ببشارة هي خير لك من التجارة؟ فقُلتُ: بَلى. فقال عسكلان: أتيتك بالمعجبة، وبشرتك بالمرغبة، إن الله قد بعث في الشهر الأول نبياً ارتضاه صفياً، وأنزل عليه كتاباً وفياً،

---

(١) نقش مأرب ـ رقم ٥٤١ .C. I. H.

ينهى عن الأصنام ويدعو إلى الإسلام، يأمر بالحق ويفعله، وينهى عن الباطل ويُبطله». «ثم قال عسكلان: يا عبد الرحمن وازِرْهُ وصَدِّقْهُ».

* * *

ولما قضى عبد الرحمن بن عوف عمله التجاري وتهيأ للعودة إلى مكة، أكّد عليه عسكلان كلامه المتقدم، وأشار عليه بموأزرة وتصديق النبي المبعوث، وأن يبلغه أبياتاً من الشعر قالها عسكلان وهي الأبيات التي ذكرها العسقلاني بأنه «أرسل إلى النبي ﷺ بشعر يمدحه ويذكر فيه إسلامه» وذلك الشعر هو قول عسكلان:

أشْهَدُ بِاللّهِ ذي المَعَالِيْ ... وفالِق اللَّيْلِ والصبَّاح
إنك في الشرف مِنْ قُريش ... وابنُ المُفدى مِنْ الذِبَاح
أُرْسِلْتَ تدعو إلى يقين ... تُرشِدُ للحقِ والفلاح
هَدَّ كرور السنين رُكني ... عن المسير أو الرواح
أشهدُ بالله رب موسى ... أنك أُرسلت بالبطاح
فكُنْ شفيعي إلى مَلِيك ... يدعو البرايا إلى الصلاح

* * *

قال عبد الرحمن بن عوف: فَقَدمتُ مكة، فلقيتُ أبا بكر، وكان لي خليطاً[١] فأخبرته بخبر عسكلان، فقال: هذا محمد بن عبد الله بعثه الله إلى خلقه رسولاً، فائته. فأتيته وهو في بيت خديجة، فأخبرته بما قال عسكلان، فقال النبي ﷺ:

«أما إن أخا حِمْيَر مِنْ خواص المؤمنين، وربّ مؤمِنٌ بي ولم يرني، ومُصدقٌ بي وما شهدني، أولئك إخواني حقاً»[٢].

* * *

وقد عاش عسكلان إلى سنوات الهجرة، وهو «أحدُ المُعمرين» ـ أي الذين عاشوا عمراً طويلاً ـ قال العسقلاني: «ولم يَبْلُغنا أنه هاجر»[٢] وهذه العبارة تحتمل أنه وَفَد إلى النبي ﷺ ولكن لم يَبْلُغنا خبر وفادته أو هجرته، وقد كان عسكلان من المبشرين والدعاة للإيمان برسول الله ﷺ في مناطق حِمْيَر، ثم أسلم زرعة بن سيف بن ذي يزن والحارث بن عبد كلال وأذواء حمير، فمات عسكلان بن عواكن راضياً مَرْضياً.

---

(١) خليطاً: أي شريكاً في التجارة.
(٢) الإصابة ـ جـ٣ ص١٠٦ ـ والتاريخ الكبير لابن عساكر.

١٨

زُرْعَة بن سَيْف بن ذي يَزَنْ

ـ أول أذواء حِمْيَر إسلاماً ـ

منْ ملوك حِمْيَر الأذواء عند ظهور الإسلام هو زُرْعَة ذو يزن نجل الملك سيف بن ذي يزن الذي بشر وأخبر عبد المطلب بن هاشم بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام.

قال عنه ابن حجر العسقلاني: «زُرعة بن سيف بن ذي يزن: مِنْ مشاهير الملوك، كاتب النبيّ ﷺ»(١) وقال رسول الله ﷺ في كتابه إلى زُرعة ذي يزن بن سيف بن ذي يزن:

«ثم أنّ مالكَ بن مُرّة قد حَدَّثني أنّكَ أسْلمتَ مِنْ أوّل حِمْيَر، وقَتَلْتَ المُشْركين، فأبْشِرْ بخير، وآمُركَ بِحمْيَر خَيْراً. وإنَّ مالكاً قد بَلَّغَ الخَبر وحَفِظَ الغَيْبَ، فآمُرُكم به خيراً»(٢).

* * *

ونستهل هذا المبحث بتبيين أن (يزن) هو اسم القصر (يزن) في مدينة (عبدان) بوادي عبدان في منطقة نِصَابْ الحميرية ـ بمحافظة شبوه حالياً ـ ويُسجل نقشُ مُسند في وادي عبدان قيام الزعيم (ملشان أريم ذو يزن) بتشييد وتفخيم القصر (يزن) والمدينة (عبدان) وهو نقشٌ مؤرخ بعام ٤٧٠ من التقويم الحميري ويوافق عام ٣٥٥ ميلادية(٣). ومنذ ذلك الزمن أصبح القصر (يزن) هو مقر الزعامة والحكم لمناطق واسعة من اليمن يحمل زعيمها لقب (ذو يزن) ويتوارث اللقب والمرتبة أُسرته وسلالته في إطار الدولة الحميرية وملوكها التبابعة فيكون في كل عهد (ذو يزن) وفي كل عهد (ابن ذي يزن) حتى ينقرض

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ١ ص٥٧١.

(٢) كتاب النبي ﷺ إلى زُرعة بن سيف بن ذي يزن وأذواء حمير ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٦٠.

(٣) نقش عبدان الكبير ـ د. محمد بافقيه ٨٣/ ٨٤م ـ وسُميت عبدان باسم عبدان بن مالك بن حُجر بن يريم بن ذي رعين الأكبر.

ذلك البيت فتَحمِلُ نفس اللقب والمرتبة أُسرة جديدة، قال علقمة بن ذي جَدَنْ عن مرتبة الأذواء:

كانوا بيوتات مُلْكٍ كلما فَنيتْ ... منها بيوتٌ أتوا منها بأبدال

وقد استمرت أسرة ملشان أريم زهاء مائة سنة، ثم تلتها أسرة (عامر ذي يزن) وهو الجد الثالث للملك سيف ذي يزن بن معدي كرب ذي يزن بن سُميفع أشوع بن شرحبيل يكمل بن عامر ذي يزن، وكان عامر ذو يزن معاصراً للملك أسعد تُبع ـ الثاني ـ الذي حكم في الفترة ما بين سنة (٤٥٠ ـ ٤٧٧م) وعرف بأمر النبي محمد ﷺ مِنْ كتاب الزبور الحميري القديم، وقد ذكرت كتبُ التاريخ التراثية إن أسعد تُبع ـ الأول أو الثاني ـ قال:

شهدتُ على أحمد أنه ... رسولُ مِنَ الله باري النَسم
نبيٌ وجدناه في كُتْبِنا ... به يُهتدى وبه يُعْتَصَمْ
فلو مُدّ عمري إلى عمره ... لكنتُ وزيراً له وابن عَمْ
وألزمتُ طاعته كل مَنْ ... على الأرض مِنْ عربٍ أو عجم

قال ابن كثير: «قال السهيلي: ولم يزل ذلك الشعر الذي قاله أسعد تتوارثه الأنصار، وكان عند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه»(١).

وقد وصف الهمداني في الإكليل عامراً ذا يزن قائلاً: «كان ذو يزن أحد أقيال حمير العُظَماء» وأنه «عامر ذو يزن بن أَسْلُم بن الحارث بن مالك بن زيد بن الغوث بن سعد بن عوف بن عَدِي بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر بن سبأ الأصغر بن سهل بن زيد الجمهور بن عمرو بن قيس بن جُشم بن عبد شمس» ثم ذكر: «إن عامراً ذا يزن تزوج ابنة أسعد تُبع، وكان عنده مكيناً، فمرت به يوماً في مجلسه من بعض قصوره بُنيَّة لذي يزن من بنته، فَقرَّبَهَا. ثم قال:

يا ابنة القيل ذي يزن ... جدك اليوم خير مَنْ
حلّ في ذروة اليمن ... بين صنعاء إلى عدنْ»(٢)

ويبدو أن (عامر) قبل أن يحمل لقب (ذو يزن) كان قَيْلاً صغيراً بمنطقة (جدن) ثم أصبح في عهد أسعد (أحد أقيال حمير العظماء) وحمل لقب (ذو يزن وجَدَن) وأصبح نَعْتَهُ ولقبه الشخصي (لحيعة يرخم) كما في نقش مسند كتبه أحد

---

(١) البداية والنهاية ـ جـ٢ ص١٦٦.
(٢) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ٢ ص٢٥٦.

قادة عامر لحيعة يرخم، واسمه (تميم)، حيث جاء في النقش ما يلي نصه: «تميم ذو حذية/ مقتوى/ لحيعة يرخم ذو جدن ويزن/ تف/ لقيب ذي يزن»[١] وعبارة (تف/ لقيب/ ذي يزن) قد تعني الذي أصبح لقبه (ذو يزن وقد جاء اسمه في ثلاثة نقوش بالمسند في وادي كوكب بشمال نجران، يقول تميم ذو حذية في النقش الأخير منها:

«ليَرْحَمَنّ الرحمنُ أبناء ملكنا ذي جدن ـ ذي يزن ـ آمين»[١].

ويدل اسم (الرحمن) وكلمة (آمين) على الديانة التوحيدية المسيحية التي ذكرتها الروايات باسم (دين النصرانية الأولى) والتي سادت في مناطق واسعة من اليمن وبها كان يدين أسعد تُبع الثاني وآل ذي يزن وآل عبد كلال ذي رعين وكانت تنتشر من مناطق حمير ومدينة عَبَدان حيث القصر (يزن) ـ جنوباً ـ إلى نجران ووادي كوكب في شمال نجران بأعالي اليمن ـ شمالاً ـ وفي الغرب والشرق خلال ذلك العصر الذي فيه بشر أسعد تبع بالنبي محمد الذي سيجيء.

وبعد أربعين سنة من عهد الملك أسعد تُبع الثاني قام (شراحيل/ بن شرحبيل يكمل/ بن ذي يزن) بتدوين نقش مسند يبدأ بعبارة «لِيَبارِكْن/ الله/ ذي له السماء والأرض/ . .» ويذكر النقش أسماء «سميفع اشوع/ وشراحيل ـ صاحب النقش ـ/ ولحيعة يرخم/ بنو شرحبيل يكمل بن لحيعة يرخم ـ ذو يزن ـ وشرحبيل أسعد بن لحيعة يرخم) ويصفهم جميعاً بلقب (ذوو يزن وجدن)، ويذكر النقش أحداثاً سياسية وحربية شاركوا في قيادتها بمناطق حمير وتهامة، وإن شراحيل ـ صاحب النقش ـ يرابط في نجران على رأس قوة من اليزنيين ومذحج وكندة، ويختتم شراحيل النقش قائلاً أنه:

«وضع هذا المسند في حماية السماء. ويستعيذ بالرحمن العليّ من كل مخادع يحاول طمسه صيغ وسُطر وقُدم باسم الرحمن، صاغه تميم ذو حذية الربهدي، بمحمد»[٢].

وسميفع أشوع ـ أخو شراحيل صاحب هذا النقش المسند الذي اختتمه (بمحمد) ـ هو جد سيف بن معدي كرب ذي يزن بن سميفع أشوع بن شرحبيل يكمل بن عامر لحيعة يرخم ذي يزن. واختتام النقش المسند بعبارة (بمحمد) تعني بشفاعة محمد النبيّ الذي سيجيء. وسميفع أشوع ـ جد سيف ـ المذكور في

---

(١) ملحمة أسعد الكامل ـ لبتروفسكي ـ النقوش أرقام ٥١٣ و٥١٤ ركمانز ـ و١٠٣٠ J A.

(٢) تاريخ اليمن القديم ـ محمد بافقيه ـ النقش رقم ١٠٢٨ جام.

النقش ـ هو الملك سميفع أشوع ذو يزن ملك حمير الذي جاءت في نقش مسند باسمه عبارة «الرحمن، وابنه المسيح الناصري. نفس قُدس»[1] ـ أي الروح القُدس ـ مما يدل على أن جد سيف بن ذي يزن كان مسيحياً، وكان يؤمن بمحمد النبي الذي سيجيء. وكذلك كان سيف بن ذي يزن.

* * *

تبشير سيف بن ذي يزن بمولد النبي محمد ﷺ

بعد عهد الملك سميفع أشوع الذي كان حكمه يشمل كل ربوع اليمن الطبيعية، تعرضت أرض اليمن للغزو الأكسومي الحبشي الذي تم بمشاركة (٢٣٠ سفينة رومانية) قام بتوجيهها الملك الروماني (جوستيان) إلى ميناء (جيز) بالحبشة، فحملت السفن الرومانية جحافل الأكسوم والحبشة إلى ساحل تهامة، واشترك في الغزو قادة وجنود من الرومان والبليميين والنوبيين الخاضعين لحكم الرومان، فتم ـ في عام ٥٣٣م ـ غزو واحتلال المناطق التي امتدت من تهامة إلى صنعاء وغيرها، فخضعت تلك المناطق للحكم الأكسومي الحبشي المرتبط بالامبراطورية الرومانية، بينما استمرت الدولة الحميرية في المناطق الوسطى والجنوبية والشرقية بزعامة الملك معدي كرب بن سميفع ذي يزن، وقد قام معدي كرب بن سميفع بقيادة حملة حربية لتحرير صنعاء والمناطق المحتلة التي يحكمها أبرهة، وذلك سنة ٥٤٢م، ولكن الحملة لم تنجح لأن أقيال وأذواء تلك المناطق قبلوا بمعاهدة عرضها عليهم أبرهة[2]، فاستمر معدي كرب بن سميفع ملكاً للقسم الذي تحت حكمه من اليمن وكان مقره القصر (يزن) في مدينة (عبدان) وقصر (احور)، واشترك معه في الحكم إخوته وأولاده، وكان أهمهم سيف بن معدي كرب بن سميفع وهو سيف بن ذي يزن، وفي عام ٥٧٠م قام أبرهة بغزو مكة لكي يهدم الكعبة، فجعل الله كيدهم في تضليل، وهلك أبرهة فور عودته إلى صنعاء، فتم تمليك مسروق بن أبرهة، بينما تولى العرش الحميري في قصر (يزن) الملك سيف بن ذي يزن، فحشد سيف زهاء مائة ألف من فرسان اليمن واستجاب له سائر الأذواء والأقيال، وأمَدّه كسرى بستمائة رجل كمشاركة رمزية، فانطلق سيف من مناطق دولته الحميرية في مائة ألف من الفرسان والرجال من شتى أرجاء اليمن، وقضى على الأحباش ومسروق بن

---

(١) نقش سميفع ـ ٣٩٠٤ ركمانز.

(٢) نقش أبرهة في مأرب عن الحرب مع معدي كرب بن سميفع ـ (ملكن بمشرقن) ـ رقم C. I. H. ٥٤٢

أبرهة في موقعة غيمان ـ عام ٥٧٢م ـ فتَسَنَم سيف بن ذي يزن سدّة عرش التبابعة في قصر غمدان بصنعاء، فشمل حكمه كافة أرجاء اليمن.

* * *

قال ابن خلدون: «لما استقل سيف بن ذي يزن بِمُلك اليمن، وفدت عليه وفود العرب يهنئونه بالمُلك، وبما أرجع من سلطان قومه، وأباد مِنْ عدوهم. وكان فيمن وَفَد عليه مشيخة قريش، فوفدوا في عشرة من رؤسائهم فيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف»[(١)] وقال المسعودي في مروج الذهب: «أتت الوفود من العرب تهنئ سيف بن ذي يزن بعودة المُلك إليه. وفيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وخويلد بن أسد بن عبد العُزى.. فدخلوا إليه وهو في قصره بمدينة صنعاء المعروف بغُمدان، وهو مُضمخ بالعنبر والمسك، وسيفه بين يديه، وعلى يمينه ويساره الملوك وأبناء المقاول»[(٢)].

والمقصود بالملوك وأبناء المقاول هُمْ الأذواء الأمراء وأبناء الأذواء والأقيال، ومن المهم هنا معرفة وذِكر وجود أبناء سيف بن ذي يزن، وخاصة زرعة بن سيف بن ذي يزن، لأنه الذي روى فيما بعد نبأ اللقاء الخاص بين سيف بن ذي يزن وعبد المطلب بن هاشم، فقد ذكر ابن كثير نبأ ذلك اللقاء والتبشير بالنبي محمد ﷺ ثم قال: «وهكذا رواه الحافظ أبو نعيم في الدلائل.. قال أبو نعيم: أُخبِرتُ عن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن عبد ربه بن محمد بن عبد العزيز بن عفير بن عبد العزيز بن عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن». وفي سند آخر «حدّثني أبو يزن إبراهيم حدّثني عمي أحمد بن محمد أبو رجاء به، حدّثنا محمد بن عبد العزيز، قال: حدّثني عبد العزيز بن عفير عن أبيه عن زرعة بن سيف بن ذي يزن»[(٣)] ويدل ذلك على وجود زرعة بن سيف بن ذي يزن وإخوته معدي كرب وشرحبيل وأذواء حِمْيَر عند قدوم وفد قريش ودخولهم إلى سيف بن ذي يزن في قاعة العرش بقصر غُمدان.

قال المسعودي «فتكلمت الخطباء، ونطقت الزعماء، وقد تقدمهم عبد المطلب بن هاشم»[(٢)].

وقال عبد المطلب في كلمته مخاطباً سيف بن ذي يزن: «فأنتَ ـ أبيت اللعن ـ مَلِك العرب[(٤)]، وربيعها الذي تخصب به البلاد، ورأس العرب الذي له تنقاد،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٦٤.

(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٨٢.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٢٠.

(٤) أبيت اللعن: تحية كان يُحيّا بها الملوك في العصر الحميري والجاهلية.

وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي تلجأ إليه العباد. ونحن أيها الملك، أهل حرم الله وسدنة بيته.. وفد التهنئة.. أشخصنا إليك الذي أبهجك من كشف الكرب الذي فدحنا.. فقال سيف: وأيهم أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فقال سيف: ابن أختنا؟ قال: نعم. قال: ادن مني.. فأجلسه بالقرب منه»[١] وكانت أم عبد مناف يمانية وهي (حُبّى بنت حُليل بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي) وكذلك كانت أم عبد المطلب يمانية وهي (سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن عامر بن غُنم بن عدي بن النجار الخزرجي الأزدي اليماني). لذلك قال سيف لعبد المطلب: أابنُ أختنا؟ فقال: نعم. فقال سيف: ادنُ مني.. وأجلسه بالقرب منه.

وكان في الوفد أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف ـ جد بني أمية ـ فألقى قصيدة بين يدي سيف قال فيها:

جلبنا المدح تحمله المطايا ... على أكوار أجمالٍ ونُوقِ
مغلغلة مرابِقُها تُعالِي ... إلى صنعاء مِنْ فجِ عميقِ
تؤمُ بنا ابن ذي يزن وتفري ... ذوات بطونها أم الطريقِ
وترعى في مخايلها بروقاً ... توافِقُه الوميضُ إلى البريق
فلما وافقت صنعاء صارت ... إلى ذي الملك والحسب الوثيق[٢]

وكان أشهر ما قيل بين يدي سيف بن ذي يزن قصيدة أمية بن أبي الصلت الثقفي:

لا يطلبُ الثأر إلا كابن ذي يزن ... في الحرب هَيّج للأعداء أهوالا
أرسَلْتَ أسداً على سود الكلاب فقد ... أمسى شريدهم في الأرض فُلالا
فاشربْ هنيئاً عليك التاجُ مُرتَفَقاً ... في رأس غُمدان داراً منك محلالا
مُنَطقاً بالرخام المستزادُ له ... ترى على كل ركنٍ منه تمثالا
قصراً بناه أبوك القَيْلُ ذو يزن ... فهل ترى أحداً نال الذي نالا[٣]

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٢٠.

(٢) أبيات أمية بن عبد شمس في مروج الذهب والبداية والنهاية. وقد تمثّل معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة قائلاً لعمرو بن العاص:

وأقبل يَمْشي مُستخيلاً كأنّه ... شراحيلُ ذو همدان، أو سيف ذو يزن

(٣) الذي بَنَى قصر غمدان هو (اليشرح يحضب ملك سبأ وذو ريدان) بناه سبعة أسْقُفْ، ثم علاه (شعرام أونز ملك سبأ وذو ريدان) عشرين سقفاً، ثم علاه واتخذه مقراً الملك تُبّع ملشان أريم ذو يزن، وهو المقصود في شعر أمية بن أبي الصلت.

واشربْ هنيئاً فقد شالتْ نعامتهم ... وأسبِل اليوم في بُرديك إسبالا[١]
تلك المكارمُ لا قِعبان من لَبَنٍ ... شيبا بماءٍ فصارا بعدُ أبوالا[٢]

فقال سيف لوفد قريش: «مرحباً وأهلاً.. ومستناخاً سهلاً.. فأنتم أهل الليل والنهار، لكم الكرامة ما أقمتُم، والحباء إذا ظعنتم». وأمر بنزولهم «في دار الضيافة والوفود، فأقاموا بها شهراً، وأجريت عليهم الأرزاق والجرايات».

وفي اليوم الثلاثين، تنبه سيف انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب بن هاشم بالقدوم عليه، فالتقى به لقاءً خاصاً لم يحضره معهما سوى زُرعة بن سيف بن ذي يزن غالباً، لأنه الذي روى فيما بعد نبأ ذلك اللقاء، وقد أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوءة عن أبي الحسن من طريق (عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن) وكذلك ذكره ابن كثير عن أبي يزن إبراهيم عن أحمد بن محمد أبي رجاء من طريق عُفير عن أبيه زرعة بن سيف بن ذي يزن)، وكان زُرعة يومئذٍ شاباً ابن خمسة عشر سنة أو عشرين، فأخبر سيف ـ في ذلك اللقاء ـ عبد المطلب بن هاشم بنبإ خاتم الأنبياء المذكور «في العلم الذي احتجزناه دون غيرنا» وأنه موصوف «في الكتاب المكنون، والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا» وقال سيف: «هذا حينه الذي يُولد، أو قد وُلد، اسمه محمد، بين كتفيه شامة علامة، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، يعبدُ الرحمن، ويزجر الشيطان، ويكسر الأوثان، ويُخمد النيران. الحقُ يقول، وبالصدق ينطق. فهل أحسست من أمره شيئاً أو رأيت أثراً يا عبد المطلب؟ فأخبره عبد المطلب بأمر حفيده محمد بن عبد الله وأنه وُلد منذ سنتين «مات أبوه وأمه وكفلتُه أنا وعمه، وفيه ما ذكرتَ ـ أيها الملك ـ من العلامة. فقال سيف: ارفع رأسك يا عبد المطلب، فقد ثلج صدرك، وعلا كعبك، فهو النبيّ، وإنّك جده. فاحتفظ به، واحذر عليه يهود فإنهم له عدو. واطْوِ ما ذكرتُ لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لستُ آمِنُ أن تدخلهم النفاسة فكن منهم على حذر».

وقال سيف: «.. إني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق: أن يثرب بها استحكام أمره، ومِنّا أهل نصرته» ثم قال لعبد المطلب: «ائتني بخبره وما يكون من أمره عند رأس الحول».

---

(١) ويروى: (أطلّ بالمسك إذْ شالت نعامتهم). والبُرد ـ بضم الباء ـ رداء الملوك باليمن، وكان إسبال البُرد نوعاً من التيه والعظمة.

(٢) شيبا بماء: خُلِطا بماء. ولا يصح من هذه القصيدة سوى هذه الأبيات. وقال ابن هشام: (الصحيح منها أربعة أبيات ـ جـ٢ ص١٤ ـ السيرة النبوية.

وقد أجمل المسعودي ذلك النبأ قائلاً: «ولابن ذي يزن كلام مع عبد المطلب وكوائن أخبره بها أمر النبي ﷺ وبدء ظهوره، وبشر به عبد المطلب وأخبره عن أحواله وما يكونُ من أمره».

قال ابن خلدون: «وأوصاه به، وحَظَّهُ على الإيلاء في القيام عليه، والتحفظ مِنْ يهود وغيرهم، وأسَرّ إليه البُشرى بنبؤته» واختتم زرعة بن سيف بن ذي يزن ـ الذي حضر اللقاء ـ روايته بقول سيف لعبد المطلب «فحافظ عليه، واطْوِ ما ذكرتُ لك دون هؤلاء الرهط الذين معك. ولْيَكُن ما أخبرتُك سراً مطوياً عندك حتى يأذن الله العليُ فيه». وأضاف سيف قائلاً: «ائتني بخبر محمد وما يكون من أمره عند رأس الحول» ـ أي رأس كل سنة ـ.

ثم استدعى سيف بقية وفد قريش، وأمر لهم بالعطاء الوافر، قال ابن خلدون:

«أسنَى سيفُ جوائز هذا الوفد بما يدل على شرف الدولة وعظمتها، لِبُعد غايتها في الهمّة، وعلو نظرها في كرامة الوفد، وبقاء آثار الترف في الصبابة شاهدُ لشرافة الحال في الأول. فقد ذكر صاحب الأعلام وغيره: أن سيف بن ذي يزن أجاز سائر الوفد بمائة من الإبل، وعشرة أعبُد، وعشر وصائف، وعشرة أرطال مِنْ الوِرْق والذهب، وكرش مليء من العنبر. وضاعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب»[١].

* * *

معالم مرحلة ما بعد تبشير سيف بمولد النبي محمد ﷺ

لقد انصرف عبد المطلب ووفد قريش من قصر غُمدان بصنعاء عائدين إلى مكة في آخر السنة الثانية لمولد النبي محمد ﷺ ـ وذلك نهاية عام ٥٧٢م ـ ومكث زُرعة وأخوه معدي كرب مع أبيهما الملك سيف بن ذي يزن بصنعاء، وكان من المفترض أن يأتي عبد المطلب بعد مرور سنة، ـ عند رأس الحول ـ وقد فسرت الروايات عدم مجيئه بقولها: «فمات سيف بن ذي يزن قبل أن يحول الحول» ـ أي قبل اكتمال السنة ـ ونرى أن عدم مجيء عبد المطلب قد يكون بسبب وفاة عبد المطلب لأن سيف بن ذي يزن عاش وحكم ١٧ سنة بعد ذلك العام، فقد ذكر لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني عن علماء اليمن الأوائل أنّ «سيف بن ذي يزن مَلَك عشرين سنة، ثم مَلَك أخوه شراحيل بن ذي يزن ثلاث سنين»[٢] وكان

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٦٤.
(٢) شرح الدامغة ـ الحين الهمداني ـ ص٥٤١.

حكم شراحيل بالاشتراك مع معدي كرب بن سيف بن ذي يزن، بحيث قال المسعودي في مروج الذهب: «مَلَك معدي كرب بن سيف بن ذي يزن أربع سنين وهو آخر ملوك اليمن من قحطان»(١) ويبدو أن أصحاب بعض الروايات سمعوا أن ابن ذي يزن مات مقتولاً لثلاث سنين أو أربع سنين من عهده وهو آخر ملوك اليمن التبابعة، فظنوا أنه سيف بن ذي يزن، بينما الصواب كما ذكر الهمداني إن عهد سيف استمر عشرين سنة.

وفي نحو السنة العاشرة من عهد سيف بن ذي يزن ـ حوالى عام ٥٨٠ ـ ٥٨٢م ـ كان زُرعة مع أبيه الملك سيف بصنعاء، حيث وقعت حرب قَبَلية بين قبائل هوازن وثقيف وتميم في الطائف ونجد ـ من جهة ـ وبين قبائل اليمن في صعدة ونجران والسراة ـ من جهة أخرى ـ وهم قبائل خولان وقضاعة، فأتى وفد منهم إلى سيف بن ذي يزن، وكان في الوفد عمرو بن يزيد العوفي الخولاني، وهو من أبطال موقعة يوم غيمان التي تم فيها القضاء على الأحباش قبل عشر سنين، فقال سيف بن ذي يزن لعمرو بن يزيد: «شِبتَ بعدنا يا أخا بني عوف؟» فقال عمرو بن يزيد:

وما كِبَرُ يُشيبُ لِداتَ مثلي ... ولكن شيَّبَتْ رأسي الحروبُ

وكان في الوفد علقمة بن يزيد السحاري الخولاني القضاعي، فألقى قصيدة من دُرر الشعر، وقال فيها مخاطباً سيف بن ذي يزن:

إليك ابن ذي التاجين سرّن ركائباً ... موقعةً، كأنهنّ جنودُ
إلى طلِقٍ لم يعقد اللؤم كفّه ... وما زنده في المكرمات صلودُ
نَمَاه إلى العلياء نفسُ أبيةُ ... وباسُ غداة البأس منه، وَجُودُ
ومَدّ إليه يوم غيمان إذْ دعا ... مِنْ أبناء عمرو أشبُلُ وأُسودُ

فأخبروا سيف بن ذي يزن شعراً ونثراً باعتداء قبائل هوازن وثقيف على منطقة نجران والسَرَاة بأعالي اليمن، وسألوه أن يمدهم بالخيول وبقوة رسمية ليردوا على المعتدين بالغارة على هوازن وثقيف في نجد وجهات الطائف، فأمدهم سيف بقوة رسمية بقيادة القيل (مُرّ بن ذي الكلاع الحميري) والقيل (حصين بن ميمون الخنفري الأَبْيَني الحميري) وبالخيول الجياد التي طلبوها، فانطلقوا وشنوا الغارات على ديار نجد وهوازن، وقال عمرو بن يزيد في تلك الحملة:

مِن أسفل غُمْدَانٍ جلبنا جيادنا ... ترامَى إليكم بالمثقفة السُحم

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٨٥.

فتم تلقين هوازن درساً جيداً، ثم تنادوا إلى الصُلح، فتصالحوا وعاد الوئام والاتفاق في أعالي اليمن بتخوم الطائف ونجد. وكان عامل سيف بصعدة ونجران والسَرَاة نوال بن عتيك. قال القاضي محمد بن علي الأكوع: «كان نوال بن عتيك، والٍ للملك سيف بن ذي يزن على مخاليف صعدة ونجران وما جاورها من نجد والحجاز، وكان يُلقب بنازع الأكتاف، وكان مقر إمارته حصن تَلْمُصْ بصعدة»[1] وفي حوالى السنة الخامسة عشر من عهد سيف بن ذي يزن قام نوال بن عتيك بتشييد سد الخانق في صعدة. قال الهمداني في الإكليل «سد الخانق بصعدة» بناه نوال بن عتيك في عهد سيف بن ذي يزن، ومظهره بالخنفرين من رُحبان صعدة. وخَرَّبَه الإمام إبراهيم بن موسى العلوي»[2].

وقد عاصر سيف بن ذي يزن الملك المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وأخيه عمرو بن المنذر ـ وهو عمرو بن هند الذي اغتاله عمرو بن كلثوم التغلبي عام ٥٧٨م ـ فقام كسرى أنوشروان بتمليك النعمان بن المنذر، وهو آخر ملوك الحيرة المناذرة، وحكم في الفترة (٥٧٨ ـ ٦١٢م) وقد جاء في السيرة الجامعة أن ابن ذي يزن لما سار يستنصر كسرى التقى بالنعمان بن المنذر، ويدل زمن النعمان على أن الذي سار إلى كسرى في أيامه هو معدي كرب بن سيف بن ذي يزن، وذلك بعد وفاة سيف بنحو سنتين، حيث يتبين مما ذكره الهمداني عن مدة حكم سيف بن ذي يزن وهي عشرون سنة، أنه توفي بصنعاء حوالى سنة ٥٩٠م، لأن عهده بدأ بتمليكه في القصر (يزن) ـ سنة ٥٧٠م ـ وقضى على الأحباش ودخل صنعاء لسنتين من مولد النبي محمد ﷺ ـ وذلك سنة ٥٧٢م ـ ومات لعشرين سنة من بداية عهده ومن مولد النبي محمد ﷺ ـ وذلك حوالى سنة ٥٩٠م ـ وفيه قال يَعْلَى بن سعد بن عمرو المالكي الخولاني:

ذهب الزمانُ بِمُلك آل مُحَرّق	ورَمَى صفاتهم بيوم قمطر
وثَنَى ابن ذي يزن فشلل عرشه	قَيْلُ المقاول، ذي اللُّباب الأنظر
وَرَثَ الملوكَ فطاب مغرس نبته	وعلا بتاج المُلْكِ فوق المنبر[3]

* * *

(١) الإكليل للهمداني ـ تحقيق محمد علي الأكوع ـ ص٣٧٥ ـ الجزء الأول.

(٢) الإكليل للهمداني ـ ص١١٥ ـ الجزء الثامن ـ وقد أخرب الإمام إبراهيم العلوي سد الخانق وصعده سنة ٢٠٠ هجرية.

(٣) تقول الروايات إن سيف بن ذي يزن مات مقتولاً على يد حرابة من الحبشة اتخذهم حرساً، وذلك إنما هو معدي كرب بن سيف بن ذي يزن.

وقد شهد زُرعة بن سيف بن ذي يزن تمليك أخيه معدي كرب وعمه شراحيل بن ذي يزن، بعد وفاة سيف ـ سنة ٥٩٠م ـ ويبدو أن الملك المقيم بصنعاء كان معدي كرب، وإن شراحيل كان ملكاً نائباً في القصر (يزن) بمدينة (عبدان)، وربما وقع بينهما صراعُ أدى إلى نهاية شراحيل في السنة الثالثة، فجمع معدي كرب كل السلطة بيده في تلك السنة ـ ٥٩٢م ـ فخرج عن طاعته العديد من أذواء وأقيال حمير، فوقعت فتنة وحرب بينه وبينهم، وبسبب ذلك سار معدي كرب بن سيف بن ذي يزن إلى كسرى ووجد عنده النعمان بن المنذر، وتقول الروايات أن النعمان بن المنذر ساند تلبية طلب ابن ذي يزن وقال لكسرى: «هذا ملك سمران. يعني ملك العرب، فقَرّبه كسرى وعَظَمَهُ» وتم الاتفاق بين كسرى ومعدي كرب على ما تُسميه الروايات «أن تكون اليمن في مُلك كسرى» وذلك مقابل قيام كسرى بتدعيم حكم معدي كرب وأن تكون معه قوة فارسية مسلحة بصنعاء، فبعث كسرى ـ وهو كسرى أبرويز بن هرمز ـ قوة فارسية بقيادة وهرز مع معدي كرب، فوصلوا إلى ساحل عدن ثم سار معهم إلى صنعاء.

وقد ذكر يعلى بن سعد الخولاني تلك الفتنة بين معدي كرب بن سيف بن ذي يزن وأقيال حمير ومجيء الفرس قائلاً:

كَسَفَتْ نجوم مِنْ مقاول حِمْيَرِ ... فينا، وأظلم شمسها وبدورها

ومَضَى ابن ذي يزن وخَلّف بينها ... حربُ عوانُ ما يبوخُ سعيرها

ورمَى الزمانُ ديارها بأُزيّلم ... جَذعٍ وهدّت دورها وقصورها

يعني بالأُزيلم أولئك الفرس الذين جاء بهم معدي كرب، ولذلك جاء في مروج الذهب أن الذي استنصر بكسرى وأمدّه كسرى إنما هو معدي كرب بن سيف بن ذي يزن، والصواب أن الواقعتين تختلفان، وبينهما ٢٢ سنة، فما طلبه سيف من كسرى أنوشروان كان دعماً فارسياً رمزياً يهدف إلى ردع الرومان عن التدخل فأمدّه ووهبه كسرى ستمائة من الفُرس السجناء، فسار سيف ومعه مائة ألف من فرسان اليمن وقضى على الأحباش وذلك لسنتين من مولد النبي ﷺ ـ أي سنة ٥٧٢م ـ وحكم عشرين سنة، بينما كان مسير معدي كرب بن سيف بن ذي يزن إلى كسرى بن هرمز ـ سنة ٥٩٢م ـ لتعزيز مركزه في مواجهة الأقيال المناوئين له، فعقد معه معاهدة وبعث معه قوة فارسية بقيادة هرمز، فلما وصلوا صنعاء «جمع وهرز أقيال اليمن فسألهم عن معدي كرب، فقالوا: ملكنا وابن ملكنا. فألبسه وهرز التاج

والمَنْطقة والخلعة الكسروية»[1] وعاد وهرز إلى كسرى، واستتب الأمر لمعدي كرب ومعه القوة الفارسية التي عسكرت في منطقة شُعوب بضواحي صنعاء. قال المسعودي في مروج الذهب: «أقام معدي كرب بن سيف بن ذي يزن ملكاً على اليمن، واصطنع عبيداً من الحبشة حَرَّابة يمشون بين يديه ـ بالحراب ـ فركب في بعض الأيام من قصره المعروف بغمدان في صنعاء، فلما صار إلى رحبة صنعاء عطفت عليه الحرابة من الحبشة فقتلوه بحرابهم، وكان مُلكه أربع سنين، وهو آخر ملوك اليمن من قحطان. ومَلَكوا ثلاثة آلاف ومائة وتسعين سنة»[1].

وبعد مقتل معدي كرب سيطرت القوة الفارسية على صنعاء، وكتبوا إلى كسرى ووهرز، فبعث كسرى أربعة آلاف من الفُرس الأساورة بعائلاتهم إلى اليمن براً مع (وهرز) فوصلوا صنعاء، وبدأ بذلك الحكم والاحتلال الفارسي لصنعاء وبعض مناطق اليمن، وذلك قبل البعثة النبوية بنحو خمس عشرة عاماً، وقبل الهجرة بنحو خمسة وعشرين سنة، وبات باذان بن ساسان ملكاً بصنعاء، وعندئذٍ استقل أذواء حمير بحكم مناطق وقبائل حمير، وأصبح كُلُ منهم ملكاً على المناطق والمخاليف التابعة له، وكان أبرز أولئك الملوك الأذواء المستقلين بحكم مناطق ومخاليف حِمْيَر، سبعة ملوك، وهم:

١ ـ زُرعة بن سيف بن ذي يزن، وكان مقره القصر (يزن) بمدينة عبدان، لذلك يقال له (زرعة ذو يزن)، وكان حكمه يشمل المناطق الحميرية في شبوه، ومناطق يافع ولحج وأبين والضالع. قال الهمداني: «وكان آل ذي يزن وآل خنفر وآل الصباح وآل ذي أصبح، إلباً ويداً واحدة في الجاهلية على حد القرابة والدعوة إلى صيفي»[2] وبذلك كانت زعامة ورئاسة زُرعة تمتد إلى مناطق رداع وصَبَاح ـ مقر الأذواء آل الصَبّاح ـ وبعض جهات لواء آب وتعز التي فيها آل ذي أصبح.

٢ ـ الملك الحارث بن عبد كلال بن ذي رُعين. وكان ملكاً في منطقة ذي رعين ـ بلواء إب ـ وكانت ملوكيته تمتد في أرجاء مخاليف سر وحمير ـ في لواء إب ووصاب وغيرها ـ ومعه أخوته النعمان، ونعيم، وشرحبيل، وكان الحارث يُوصف بأنه (ملك حِمْيَر/ ملك اليمن).

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٨٥.

(٢) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ جـ٢ ص١٤٤.

٣ ـ فهد بن عبد كلال بن ذي رعين، وكان ملك مخاليف المعافر ـ لواء تعز ـ إلى تهامة، وفيه قال أعشى قيس الجاهلي:

ونادمتُ فهداً بالمعافر حقبة وفَهدُ سَمَاحُ لَمْ تشبه المواعدُ

٤ ـ سلامة ذو وفائش الحميري. وكان مقره قصر إرياب في رأس نقيل وجبل سُمارة ـ بلواء إب ـ قال أعشى قيس الجاهلي:

وبالقصر من إرياب لو بتّ ليلة لجاءك مثلوجٌ من الماء جامدِ
وذو فائش من رأسه فوق مُشرفٍ تُقصرُ عنه الهاضبات الرواعدِ

٥ ـ سُميفع ذو الكلاع الحميري. وكان مقره مخلاف الكُلاع، وكان هو القائد الحربي العام لكافة قبائل ومناطق حمير.

٦ ـ حوشب ذو ظليم الحميري. وكان مقره ظليم في ناحية حُبيش من أرض الكُلاع ـ بلواء إب ـ.

٧ ـ أبرهة بن الصباح الحميري. وكان مقره قصر موكل في مخلاف صباح بمنطقة رداع في لواء البيضاء، وفيه قال حسان:

وعلى الذي كانت بموكل داره يَهبُ القيان وكل أجرد شاح

فكان أولئك أشهر وأبرز ملوك حمير الأذواء، وكانوا يحكمون مناطق ومخاليف حِمْيَر التي تشمل بالتسميات الحالية محافظات ومناطق إب، وتعز، والحديدة، ووصاب، وعتمة، ورداع، والضالع، وأبين، وعدن، ولحج، ومناطق نِصاب والصعيد وحبان بمحافظة شبوة حيث كان القصر (يزن) مقر زُرعة بن سيف بن ذي يزن.

* * *

إسلام زُرْعَة وأذواء حمير

إن خلفية إسلام زرعة بن سيف بن ذي يزن تعود إلى ذلك اليوم الذي فيه سمع أبوه الملك سيف بن ذي يزن يخبر عبد المطلب بن هاشم بأمر النبي محمد ﷺ فحفظ زُرعة ما سمع في ذلك اليوم، وكان من بين ذلك قول سيف لعبد المطلب «وليكنْ ما أخبرتك سراً مطوياً عندك حتى يأذن اللّهُ العليّ فيه». وقول سيف «وإني وجدتُ في الكتاب الناطق بالعلم السابق أن يثرب بها استحكام أمره، ومنها أهل نصرته». فكتم زُرعة ما سمعه وكان سراً مطوياً عنده حتى بعث الله نبيّه المُنتظر، وحتى هاجر النبي ﷺ إلى يثرب واستحكم بها أمره، وعندئذٍ أسلم زُرعة، ولكنه ـ فيما يبدو ـ لم يُعلن

ويجاهر بإسلامه إلّا مع كافة أذواء وأقيال وقبائل حمير في يوم واحد، وربما قام زُرعة بدور هام في تحقيق ذلك الإسلام الحميري الجماعي، وقد أحاط ذلك الدور بقدرٍ من السرية أو عدم العلنية، بحيث أصبح ما حدث مجهولاً.

وقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية وابن سيد الناس في عيون الأثر: أن رسول الله بعث رُسلاً من أصحابه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام سنة ٧ هجرية، وأنه «بعث المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث بن عبد كلال ملك اليمن»[١] وفي كتاب الأنباء «إلى الحارث بن عبد كلال ملك حمير» ولم تظهر نتيجة ذلك. ثم بعث رسول الله ﷺ منصرفه من الجعرانة ـ في ذي القعدة ٨هـ ـ جرير بن عبد الله البجلي إلى الحارث بن عبد كلال وإخوته، وإلى ذي الكلاع الحميري وحوشب ذي ظليم، وسائر أذواء حمير، فمكث فترة بمناطق حمير، فأسلم كُل واحد مِنْ الأذواء على حدة، وجرت ـ فيما يبدو ـ اتصالات غير علنية بين الأذواء، واتفقوا على اللقاء بمدينة الجَنَد لإعلان إسلام سائر أذواء وقبائل ومناطق حمير، فالتقوا في يوم أول جمعة من رجب سنة ٩ هجرية. وبما أن مناطق حمير آنذاك تشمل بالتسميات الحالية (محافظات: إب، وتعز، والحديدة، ولحج، وعدن، وأبين، والضالع، ومناطق وصاب، ورداع، وعدة مناطق بمحافظة شبوة)، وبما أن تلك المناطق تُمثل مركز الثِقل السكاني والحيوي في اليمن والجزيرة العربية، يمكن إدراك عظمة ما حدث في ذلك اليوم على يد زُرعة بن سيف بن ذي يزن وأذواء حمير الذين اجتمعوا في مدينة الجَنَد، وأعلنوا شروق فجر الإسلام في سائر مناطق حمير ـ من جهة ـ والارتباط السياسي برسول الله ﷺ والدولة الإسلامية ـ من جهة أخرى ـ وبعثوا بذلك إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة.

ونشير هنا إلى أن اليمنيين منذ فجر الإسلام يحتفلون بيوم أول جمعة من رجب، ويتوجه الآلاف إلى مدينة الجَنَد للاحتفال بذكرى ذلك اليوم. ويقول القاضي محمد بن علي الأكوع تعليقاً على ذلك: «يزعم أهل اليمن أن الإسلام بسط ظله على اليمن في أول جمعة من رجب. وتقديراً لذلك اليوم التاريخي اتخذوه يوم عيد وأفراح، وتناقلوه خلفاً عن سلف، مما يدل أن لذلك أصلاً»[٢] وقد يذهب البعض إلى أن يوم جمعة رجب هو يوم وصول معاذ بن جبل بكتاب رسول الله ﷺ إلى مدينة الجَنَد، ولكن كتاب رسول الله ﷺ ينص صراحة على وصول كتاب ملوك

---

(١) السيرة النبوية ـ جـ٢ ص٢٧٩ ـ عيون الأثر ـ جـ٢ ص٣٣٠.

(٢) هامش قرة العيون في أخبار اليمن الميمون ـ ص١٠.

وأذواء حمير بإسلامهم مُنصرفه من تبوك ـ وكانت تبوك في رجب، وانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة في مطلع رمضان فوجد كتاب ورسول ملوك حمير بانتظاره في المدينة، ثم بعث معاذ بن جبل بعد ذلك كما سيأتي في كتاب رسول الله ﷺ وهو دليل قاطع على ذلك، ويُتيحُ إدراك السياق التالي للأحداث:

ـ في يوم أول جمعة من رجب التقى بمدينة الجَنَدْ ملوك وأذواء وأقيال حمير، وفيهم زرعة بن سيف بن ذي يزن، والحارث بن عبد كلال، والنعمان بن عبد كلال، ونعيم، وشرحبيل، وذو الكلاع، وذو ظليم، وأعلنوا شروق فجر الإسلام في أرض حمير، وبعث زُرعة إلى رسول الله ﷺ مبعوثاً وكتاباً بإسلامهم، وبعث معه هدية إلى رسول الله ﷺ وكان الرسول المبعوث بذلك هو مالك بن مُرّة الرهاوي المذحجي، فانطلق مالك إلى المدينة، فالتقى برسول الله ﷺ منصرفه من تبوك ـ في مطلع شهر رمضان سنة ٩هـ ـ حيث كما جاء في السيرة النبوية وعيون الأثر وكافة كتب التاريخ والسنن أنه:

«قدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حِمْيَر، مقدمه من تبوك، ورسولهم إليه بإسلامهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم، والنعمان، قيل ذي رعين ومعافر. بعث إليه زُرْعَةُ ذو يزن مالكاً بن مرّة الرهاوي بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله»(١).

ـ وعندئذٍ اختار رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصاري عاملاً على مناطق حمير ومعه عبد الله بن قيس، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر، وأصحابهم، وكتب رسول الله ﷺ كتابه المتواتر إلى أذواء حمير، وقد أخرجه الدارقطني والبيهقي والنسائي وعمرو بن حزم وابن عساكر، وذكره ابن هشام في السيرة النبوية، وابن سعد في الطبقات، والسيوطي في جمع الجوامع، والمقريزي في إمتاع الأسماع، وابن سيد الناس في عيون الأثر، واليعقوبي، وابن الجوزي، وأبو عبيد بن سلام، وابن كثير، وغيرهم.

وفيما يلي نص كتاب رسول الله ﷺ إلى أذواء حمير، وهو قسمان، القسم الأول إلى الحارث بن عبد كلال، ونعيم، والنعمان، وعدد من أذواء حمير، والقسم الثاني إلى زرعة ذي يزن بن سيف بن ذي يزن، وفيما يلي نص الكتاب(١).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٦٠ ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٢٢٠ ـ ٢٢٣ ـ عن كنز العمال ـ جـ٢ ـ طبقات ابن سعد ـ جـ٢ ص٨٤ ـ جمع الجوامع للسيوطي في مسند عمرو بن حزم عن النسائي والبيهقي وابن عساكر. وإمتاع الأسماع للمقريزي، وتاريخ اليعقوبي ـ جـ٢ ص٨٧ ـ ٨٩ ـ سنن الدارقطني، والوفاء لابن الجوزي ص٧٤٢ ـ إعلام السائلين ص١٥ ـ الأموال لابن الجوزية ـ الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٧٠، وكذلك في عيون الأثر لابن سيد الناس، والبداية والنهاية لابن كثير.

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله النبيّ إلى الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، قيل ذي رعين ومعافر (وهمدان، وإلى شريح، وفهد، والبَسّي، والبحيري، وربيعة، وحجر)[1].

أما بعد: فإني أحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد ذلكم: فإنه قد وقع بنا رسولكم مُنقلبنا من أرض الروم، فلقينا بالمدينة، فَبَلّغ ما أرسلتم به، وخَبَّر ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين.

وإنّ الله قد هداكم بهُداه، إن أصلحتم، وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم خُمس الله وسهم الرسول وصِفيّه، وما كُتب على المؤمنين من الصدقة»[2].

«أما بعد، فإن رسول الله محمداً النبيّ أرسل إلى زرعة ذي يزن: أن إذا أتاكم رُسُلي فأوصيكم بهم خيراً، معاذ بن جبل، وعبد الله بن (قيس)، ومالك بن عبادة، وعُقبة بن نمر، وأصحابهم. وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم وأبلغوها رُسُلي. وإن أميرهم معاذ بن جبل، فلا ينقلبن إلا راضياً.

ثم أن مالك بن مُرة قد حَدَّثني أنك أسلمت من أول حِمْيَر، وقتلت المشركين، فأبْشِر بخير، وآمرك بحِمْيَر خيراً، وإنّ مالكاً قد بَلّغ الخبر وحَفِظَ الغيب، وآمركم به خيراً. وإني قد أرسلتُ إليكم من صالحي أهلي وأولي دينهم وعلمهم، وآمركم بهم خيراً، فإنهم منظورُ إليهم. والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته»[1].

ـ ويتبين من كتاب رسول الله ﷺ أن زُرعة ذا يزن بن سيف بن ذي يزن كان أول أذواء حمير إسلاماً ومقاتلة للمشركين، وكان له دور هام في إسلام كافة أذواء وأقيال حمير ـ في رجب ٩هـ ـ وقد بعث زرعة بخبر خاص إلى رسول الله ﷺ حيث قال رسول الله ﷺ في الكتاب «وإن مالكاً قد بلّغ الخبر وحَفِظَ الغيب». ولم تذكر الروايات ذلك الخبر، ويبدو أنه خبر تبشير سيف بن ذي يزن بمولد النبي ﷺ يوم لقائه بعبد المطلب، ثم خبر إسلام زُرعة منذ وقت مبكر حتى الإجماع الحميري على الإسلام ـ في جمعة رجب ـ ثم إن رسول الله ﷺ قال لزُرعة: **«وآمرك بحمير خيراً»** وهذا يعني أنه رئيس كافة أذواء وأقيال حمير، ثم أن رسول الله

---

(١) في طبقات ابن سعد (إلى زرعة، وفهد، والبسي، والبحيري، وعبد كلال، وربيعة، وحجر). وفي الأموال لأبي عبيد (إلى شريح بن عبد كلال وإلى الحارث). وذكر المدائني أيضاً (فهد الحميري). قال العسقلاني (والمشهور أنه كتب إلى زرعة بن سيف بن ذي يزن).

(٢) يذكر الكتاب هنا تفاصيل الصدقة، وهي معروفة.

ﷺ لم يذكر بعث معاذ بن جبل وبقية العمال إلّا في خطابه لزُرعة ذي يزن، وذلك يؤكد مكانة زُرْعَة وإن رسول الله ﷺ جعله بمثابة ملك أذواء وأقيال حمير جميعاً، وقال رسول الله ﷺ عن العُمال: «إن أميرهم معاذ بن جبل» وبذلك فإن معاذ بن جبل كان أمير عمال رسول الله ﷺ على اليمن جميعهم، وبوصول معاذ إلى مدينة الجَنَد ـ في مطلع شوال تقريباً ـ بدأت مرحلة جديدة في تاريخ اليمن كان لزُرعة بن سيف بن ذي يزن دور كبير في شروق فجرها، فقد أصبح معاذ أميراً لرسول الله ﷺ على مناطق حمير (الجَنَد ومخاليفها) من البحر الأحمر غرباً إلى شبوة شرقاً وبعث رسول الله ﷺ زياد بن لبيد الأنصاري عاملاً على حضرموت ومهرة، وأمره بطاعة معاذ بن جبل، وكذلك بعث رسول الله ﷺ عماله على مذحج وهمدان ونجران وأمرهم بطاعة معاذ بن جبل، وبذلك استعادت أرض اليمن وحدتها السياسية التي كانت قد انقطعت بوفاة سيف بن ذي يزن ومقتل معدي كرب بن سيف بن ذي يزن ـ سنة ٥٩٣م ـ فعادت بصيرورة معاذ بن جبل والياً لليمن وأميراً لجميع عمال اليمن ـ سنة ٩هـ الموافق ٦٢٩م ـ.

* * *

وقد مكث زُرعة بن ذي يزن أميراً في القصر (يزن) ومناطق أبين ولحج وعدن، وكان يشترك معه في زعامتها ابنه (عفير بن زُرعة) و(عفيف بن سعد بن ذي يزن) وكان زُرعة قد بلغ من الكِبر عتياً.

وفي سنة ١٠هـ بعث زُرعة بهدية سنيّه إلى رسول الله ﷺ فقد «أخرج الإمام أحمد وأبو داود عن أنس بن مالك: أن زرعة بن سيف بن ذي يزن أهدى إلى رسول الله ﷺ حُلّة قد أخذها بثلاثة وثلاثين بعيراً وثلاثة وثلاثين ناقة، فَقَبَلها رسول الله ﷺ»[1].

وَوَفَد إلى رسول الله ﷺ في السنة العاشرة للهجرة أذواء حمير، الحارث بن عبد كلال، وأبرهة بن الصباح، ومعاوية بن حُديج السكوني، وغيرهم، ولم تذكر الروايات وفادة زُرعة بن سيف بن ذي يزن، ولكنه بعث بهديته مع بعض آل ذي يزن، ولا شك أنه كان قد بات شيخاً عجوزاً، ثم مات بمنطقته في اليمن راضياً مرضياً، وانتقلت مرتبته من الأذوائية لعفير بن زُرعة بن سيف بن ذي يزن، وذلك حوالي سنة ١٢هـ ـ الموافق ٦٣٢م ـ.

* * *

(١) الإكليل ـ جـ٢ ص٢٥٩.

عُفير بن زُرعة . . آخر الأذواء مِنْ آل ذي يزن

قال الهمداني في الإكليل: «إن عفير بن زُرْعَة، كان من الدين والفضل بموضع، مع شرفه وحسبه». وقد نَسَبه الهمداني بأنه (عفير بن زُرعَة بن عامر بن سيف بن ذي يزن). بينما الذي جاء في تراجم الصحابة والأسانيد المعتمدة إنه «عفير بن زُرعة بن سيف بن ذي يزن»، فقد ذكر العسقلاني في ترجمة زُرعة أنه «زُرعة بن سيف بن ذي يزن» وكذلك «أخرج أحمد وأبو داوود عن أنس بن مالك أن زرعة بن سيف بن ذي يزن أهدى إلى رسول الله ﷺ حُلّة. . فَقَبَلها النبي ﷺ»[1] وعفير هو الذي روى عن أبيه زُرعة خبر اللقاء الذي بشر فيه سيف بن ذي يزن عبد المطلب بن هاشم بالنبي محمد ﷺ، وقد ذكره الحافظ ابن كثير وقال: «رواه أبو نعيم في الدلائل عن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن عبد ربه بن محمد بن عبد العزيز بن عفير بن عبد العزيز بن عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن» وفي سَنَدٍ آخر «حدّثني أبو يزن إبراهيم قال حدّثني عمي أحمد بن محمد أبو رجاء، عن محمد بن عبد العزيز قال: حدّثني عبد العزيز بن عفير عن أبيه عن زُرعة بن سيف بن ذي يزن». فتلك الأسانيد تُعطينا الثقة بأنه «عفير بن زُرعة بن سيف بن ذي يزن».

وكان عفير بن زُرعة بن سيف بن ذي يزن، وعمه عفيف بن سعد بن ذي يزن، من أذواء وأقيال حِمْيَر الذين انطلقوا مع سميفع ذي الكلاع ـ القائد العام لكتائب وقبائل حمير ـ لجهاد الروم وفتح الشام لما استنفر أبو بكر الصديق أهل اليمن لجهاد الروم وفتح الشام ـ في أواخر عام ١٢هـ ـ ثم انطلقوا حاملين رسالة الإسلام إلى ربوع الشام ـ في صفر ١٣هـ ـ وشهدوا فتح دمشق في خلافة عمر ـ في رجب ١٤هـ ـ فاستقر عفير بمدينة دمشق ثم في حمص عند افتتاحها ـ سنة ١٦هـ ـ وقد جاء في ترجمة عمه عفيف بكتاب الإصابة ما يلي: «عفيف بن سعد بن ذي يزن الحميري. مخضرم. أدرك الجاهلية والإسلام، لأنه مات أبوه قبل البعثة، وهاجر هو من اليمن في خلافة عمر»[2] فشهد فتح دمشق وسكن بها، قال العسقلاني «وله قصة مع معاوية»[1] وتوفي عفيف بدمشق إما في خلافة عمر وعثمان حيث كان معاوية والياً للشام، أو في أوائل خلافة معاوية.

* * *

أما عفير بن زُرعة فكان من الأمراء القادة بالشام، وفيه جرى المثل (جُبَار دَمْ

---

(١) الإكليل ـ جـ٢ ص٢٥٩.
(٢) ؟؟؟

مَنْ مَسّ بُرْنُس عُفير) وكان سبب ذلك كما في الإكليل «أن عفير بن زُرعة، وكان من الدين والفضل بموضع، مع شرفه وحسبه؛ خرج في جيش بعثه معاوية في الصائفة إلى أرض الروم، فوقع في الجيش اختلاطٌ وشرّ، فخرج عُفير ليُصلح بين الناس وعليهُ بُرْنُس له[١]. فجذب بُرنسه رجل من قيس، فأخْبِرَتْ اليمانية بذلك، فلم يمس في الجيش قيسيُّ إلا مكتوفاً، فجعل الرجل من اليمانية يقول لكتيفه: لعلك ممن مَسَّ بُرنس عُفير؟ فيقول: لا والله، فيقول اليماني: أما إنك لو كنت مِمَن مَسّ بُرنسه لضربت عنقك، ويقول بعضهم: لقَطَعْتُ يدك. ثم طلب فيهم عُفير فأُطْلِقُوا». وفي تلك الحادثة قيل: «جُبَارْ دَمْ مَنْ مَسّ بُرْنُس عُفير»[١].

* * *

قال الهمداني: «وكان عُفير سيد اليمانية بالشام، وهو صاحب المقام عند معاوية يوم ابن ذي فائش». وابنُ ذي فائش هو الضحاك بن المنذر بن سلامة ذي فائش، وكان سلامه ذو فائش من ملوك حمير الأذواء في الجاهلية ومدحه أعشى قيس الجاهلي بالعديد من القصائد، وكان مقرةُ قصر إرياب في نقيل سمارة ـ بلواء أب ـ ومات سلامه ذو فائش قبل الإسلام فانتقلت مرتبته إلى المنذر بن سلامه ذي فائش وهو من أذواء حمير الذين أسلموا مع زرعة بن سيف بن ذي يزن والحارث بن عبد كلال والسميفع ذي الكلاع، وبقية أذواء حمير. ثم أن الضحاك بن المنذر بن سلامة ذي فائش سار من اليمن إلى دمشق في خلافة معاوية، وكان بعض جلساء معاوية قد أخبروه بقدوم الضحاك وأن يوليه عملاً، فأراد معاوية أن يختبره، وكان بمجلس معاوية عدد من الأمراء والقادة بينهم عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن، فلما دخل الضحاك ـ وكان وسيماً جسيماً ـ «استشرفه معاوية حين نظر إليه، وقال له: مِمَنْ الرجل؟ فقال: مَنْ فُرسان الصباح الملاعبين للرماح المبارين للرياح[٢] وكان معاوية متكئاً فاستوى، وقال: أنت إذاً مِنْ قريش البطاح؟ قال: لستُ منهم، لولا الكتاب المُنزل والنبيّ المُرسل لكنتُ عنهم راغباً ولقديمهم عائباً.. قال: فأنت إذاً مِنْ جمرة معدً وركنها الأشد، أهل الغارات بني أسد؟ فقال: لستُ منهم، أولئك عبيد ولم يبق منهم إلا الشريد.. قال: فأنت إذاً من أهل الطلب بالأوتار وجماع الدار ثقيف بن منبه؟ فقال: كلا أولئك قصار الخدود لئام الجدود» فتظاهر معاوية بالغضب وقال: «فأنت إذاً من اليمانيين الذين لا يعقلون شيئاً؟ فقال: أنا ابن ذي فائش، مهلاً يا معاوية، فإن

---

(١) جُبار ـ بالضم ـ أي مهدور. والبُرنس: القلنسوة الطويلة.

(٢) المباراة: المسابقة في الشرف والجود والكرم وغير ذلك.

أولئك كانوا للعرب قادة، وللناس سادة؛ كانوا الأرباب وغيرهم الأذناب، وكانوا الملوك وغيرهم السُّوقة، حتى دعاهم خير البرية بالفضل والتحية محمد ﷺ، فعزرّوه أيما تعزير، وشمروا حوله أيما تشمير، وشهروا دونه السيوف، وجهزوا الألوف بعد الألوف، وجادوا بالأموال والنفوس، وقتلوا قريشاً يوم بدر، وضربوا معدّ حتى دخلوا في الإسلام كرهاً..» فأظهر معاوية الغيظ وقال: (اضربوا عنقه. فلم يبق في مجلسه يمانٍ إلا قام سالّاً سيفه ـ للدفاع عنه ـ. فقام عفير بن زُرعة فقال: أما والله يا معاوية، إنّا لنراك تكظم الغيظ من غيرنا على القول الفظيع الكثير، وتستفظع منا اليسير. وذاك والله إنا لم نطعن عليك في أمرك، فكأنّك بالحرب قد زففناها إليك، فستعلم بأن رجالنا ضراغم، وأن سيوفنا صوارم، وأن خيولنا ضوامر، وأن كماتنا مساعر».

وقام حيوة بن شرح ذي الكلاع فتكلم بما يشبه ذلك، ثم كريب بن شرحبيل بن الصباح، ثم ابن حوشب ذي ظليم، ثم يزيد بن حبيب المرادي، وناتل بن قيس الجذامي، وعروة بن المنذر الغساني. فقال معاوية: «عَزَمْتُ عليكم لما قعدتم، فجلسوا، ثم قال: يا بن ذي فائش، والله لولا مكان مَنْ حضر، والإقالة لمن عثر، لتخلّت منك أوطانك، وأسْلَمَكَ إخوانك، وطار عنك عُنقك.. فعاد عُفير بن زرعة إلى القيام وقال: أما والله يا معاوية، لو قذذت منه شعرةً لضاقت عليك أقطارها، وانقضّت عليك من أوصالها، ولَقُرع قرعُ ترتعدُ منه فرائصك حتى تستقيم، أو يُحدث الله بعد ذلك أمراً».

وقام بقية الأمراء والقادة اليمانيين فتكلموا، وكان عِظم جند أهل الشام من اليمانية، وأولئك هم الأمراء القادة، (فلما رأى معاوية أنهم قد تحزّبوا وأجمعوا، قال: إنما بلوناه واختبرناه. وقال لابن ذي فائش: قد بلوتك واختبرتك، فإذا قولك سديد، وقومك عديد، وقد اخترتُك ووليتُك على أرمينية. وعقد له الولاية على أرمينية[١].

* * *

ونقل القاضي محمد بن علي الأكوع في هامش الإكليل ما رواه ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة عن أبي عبد الله محمد بن موسى بن عمران المرزباني) قال: «كان الوليد بن ظالم الطائي ممن وفد على رسول الله ﷺ ثم صحب عليّاً عليه السلام وشهد معه (صفين) وكان من رجاله المشهورين، ثم وفد

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع ـ جـ٢ ص٢٦١ ـ ٢٦٣ و٢٠٠ ـ ٢٠٨.

على معاوية فدخل عليه في جملة الناس»، فوقع بين معاوية والوليد كلام عن صفين وعن علي بن أبي طالب «فغضب معاوية من كلام الوليد، فقال: أيها الشقيّ الخائن أني لأخال هذا آخر كلام تفوهت به. وكان عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن بباب معاوية حينئذٍ، فعرف موقف الطائي ومراد معاوية فخاف عليه، فاقتحم عليهم الدار ـ أي المجلس ـ وأقبل على اليمانية وقال: شاهت الوجوه ذلاً وقلاً وجدعاً وفلاً، كشم الله هذه الأنوف كشماً. ثم التفت على معاوية فقال: إي والله يا معاوية، ما أقولُ قولي هذا حباً لأهل العراق ولا جنوحاً إليهم، ولكن الحفيظة تُذهب الغضب، لقد رأيتك بالأمس خاطبت أخا ربيعة ـ يعني صعصعة بن صوحان ـ وهو أعظم جرماً عندك من هذا، وأحَدّ في عداوتك، وأشَدّ في حربك، ثم سرحته وأنت اليوم مُجمعُ على قتل هذا، زعمت استصغاراً لجماعته، ولَعَمْري لو وكلتك أبناء قحطان إلى قومك لكان جدك العاثر وذكرك الداثر، وحدّك المفلول وعرشك المثلول، فأرْبَعْ على ظلعك، وأطْوِنا على بلالتنا ليسهل لك حَزْنَنا وليطمئن لك شاردنا، فإنّا لا نرام بوقع الضيم، ولا نتلمظ جرع الخسف، ولا نغمز بغماز الفتن، ولا ندَارِ على الغضب. فقال معاوية: الغضب شيطان، فأربعْ على نفسك، فإنّا لم نأت إلى صاحبك مكروهاً، ولم نرتكب منه مغضباً، ولم ننتهك منه محرماً، فدونكه، فإنه لم يضق عنه حلمنا ويسع غيره.

فأخذ عفير بيد الوليد وخرج به إلى منزله، وقال: والله لتؤبن بأكثر مما آب به ـ رجلُ ـ من معاوية، وجمع عفير من بدمشق من اليمانية، وفرض على كل رجل دينارين في عطائه، فبلغت أربعين ألفاً، فدفعها إلى الوليد، ورده إلى العراق»[١].

* * *

ولم يزل عفير بن زُرعة بن سيف بن ذي يزن أميراً سيداً بالشام، إلى أن توفي بدمشق أو حمص، فرضي الله عنه وأرضاه. قال العسقلاني: «ومن ولده: عفير بن زرعة بن عفير، كان سيد حِمْيَر بالشام أيام عبد الملك بن مروان». وكذلك قال المرزباني في الاشتقاق «ومن ولد سيف بن ذي يزن: عفير بن زُرعة بن عُفير.. كان سيد حِمْيَر في أيام عبد الملك بن مروان». وإنما هو (عفير بن عبد العزيز بن عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن) كما في سند حديثه بدلائل النبوة لأبي نعيم والبداية والنهاية لابن كثير.

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع ـ جـ٢ ص٢٦١ ـ ٢٦٣ و٢٠٠ ـ ٢٠٨.

قال الهمداني: وآل ذي يزن باليمن، بين لحج ومرخه.. وكان سيد اليزنيين بلحج وأبين: محمد بن إسماعيل اليزني.. ومنهم الأيدوع وينزلون بحضرموت مدينة يقال لها (يشبم) ـ وهي في عداد مرخه، وعبدان، وجردان.. ومن أودية العوالق العليا وادي ضرا وعبدان ويشبم)[1] ووادي عبدان هو مركز اليزنيين التليد وتلك هي مناطقهم باليمن، قال الهمداني: «ومنهم عدد كثير بحمص» وهم سلالة عفير بن زُرعة والذين كانوا معه من اليزنيين في فتوح الشام، فاستقروا في حمص، وساهموا في ترسيخ عصرها العربي الإسلامي الخالد.

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع ـ جـ٢ ص٢٦١ ـ ٢٦٣ و٢٠٠ ـ ٢٠٨.

١٩

الحَارِثُ بن عَبْد كُلَالْ: ذو رُعَيْن

ـ مَلِكُ حِمْيَر الذي له فُرِش رداء النبيّ ـ

مِنْ عظماء ملوك اليمن الأذواء الحميريين في الجاهلية وعند ظهور الإسلام هو الحارث بن عبد كلال بن نصر (ذو رعين) ومما يدل على علو مكانته إنه سادس ستة ملوك بعث وكتب إليهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام سنة ٧ هجرية، وهم قيصر ملك الروم، وكسرى ملك فارس، والمقوقس ملك مصر، والحارث بن عبد كلال ملك اليمن، والمنذر بن ساوي أمير البحرين، والنجاشي ملك الحبشة. وفي ذلك قال ابن سيد الناس في عيون الأثر: «بعث رسول الله ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام: دحية الكلبي إلى قيصر ملك الروم، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى ملك فارس، وعمرو بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين، والمهاجر بن أبي أمية إلى الحارث بن عبد كلال ملك اليمن»(١).

وقال ابن هشام في السيرة النبوية: «بعث رسول الله ﷺ رُسُلاً من أصحابه إلى الملوك، وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلام». ثم ذكر أسماء الملوك إلى أن قال: «وبعث المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن»(٢) وقال ابن حجر العسقلاني: «.. فأسلم الحارث بن عبد كلال، وكتب إلى النبي ﷺ كتاباً قال فيه:

ودينك دين الحق فيه طهارة وأنتَ بما فيه مِن الحق آمِرُ»(٣)

* * *

إن الحديث عن الحارث بن عبد كلال بن نصر (ذو رعين) يفتح آفاقاً واسعة للمعرفة نستهلها بذكر قبائل ومناطق آل ذي رعين، فقد انحدرت قبائل وبطون ذي رعين من جدٍّ حميريٍ قديم يعود زمنه إلى نحو ألف ومائتي سنة قبل الميلاد وهو

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ ابن سيد الناس ـ ص٣٣٠.
(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٧٩.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ العسقلاني ـ جـ١ ص٢٨٣.

القيل «ذو رعين الأكبر بن سهل بن زيد الجَمَهْور بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بن قَطَنْ بن عَريب بن زهير بن الغوث بن أيمن بن الهُميسع بن حمير»[١] واسم ذي رعين الأكبر، قال الهمداني إنه (يريم ذو رعين الأكبر) وقال الشاميون (مرّة ذو رعين الأكبر) ويوجد (يريم ذو رعين) من سلالة ذي رعين الأكبر، وقد تفرعت من ذي رعين الأكبر بطون وقبائل كثيرة ونذكر هنا مناطقها الرئيسية وهي:

أ ـ **مخلاف ذي رعين**: وهو المنطقة الأصل لآل ذي رعين «سُميّ باسم القيل ذي رُعين الأكبر، وهو بلد واسع مترامي الأطراف. قال الهمداني: «مخلاف ذي رعين: منه مصانع رُعين، ومنه شَخَب[٢]، وكُهال[٣]، ومن الأودية: وادي سبّان[٤]، ووادي خُبّان[٥] وذو بلق، ووادي حرد، ووادي ذي يعزز[٥] وثَرَيد[٦] ومن المصانع ـ وهي الحصون ـ كحلان[٥] وحصن مثوه، وكُهال. ومنها الصَّوْلع، ولبو، والمواعلة، ومليان، وهيرة[٧] فإلى ما حادّ جيشان، فيحصب العلو من ناحية ظفار، فراجعاً إلى مخلاف ميتم.. وبلد بني حُبيش ـ (الحبيشية) ـ وحقل صالح.. وبَنَا، وشراد، والخبار، وشرعه.. والأملوك، والأحروث»[٨] وبَنَا الذي باسمه سمى وادي بنا هو (بَنَا بن حذيفة بن حجير بن

---

(١) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ أنساب آل ذي رعين ـ جـ٢ ص٣٣٥ ـ ٣٦٩.

(٢) المصانع: الحصون. وشَخَب: جبل شَخَب في مخلاف عمار، وفي قمته قلعة تشبه السنام لا يرتقي إليها إلا بصعوبة.

(٣) كُهالى: قلعة وقرية تقع جنوب شخب في مخلاف عمار بناحية النادرة. سُميت كهال باسم كُهال بن عدي بن مالك بن زيد بن سَدد، ومنهم آل الكهالي، أصحاب معرفة وعلم ونباهة.

(٤) وادي سبّان: وادي مشهور، تشرع عليه قرية (ذي أشرع) مقر آل صلاح مشائخ خبان، ويمتد سبان إلى وادي الأجلب مقر آل الفرح بعزلة أزال مخلاف عمار، وسمّى سبان باسم سبّان بن لهيعة بن الحارث بن شرحبيل بن الحارث بن زيد بن ذي رعين الأكبر.

(٥) وادي خبان ومنطقة خبان، سميت ـ غالباً ـ باسم (خبان بن هَعّان بن ينكف بن قاول بن زيد بن ناعتة بن شرحبيل بن الحارث بن زيد بن يريم ذي رعين. ومن وادي خبان: ذو بلق، وحرد، وذي يعزز، في عزلة كحلان: وسمي حصن كحلان باسم: كحلان بن نمران بن هعان.

(٦) ثَريد: وادي مشهور في ناحية دمت. وفيه الحمام الطبيعي المشهور بحمام دمت. وسُميّ ثريد باسم ثريد بن التَّوأم بن بجير بن الحارث بن زيد بن ذي رعين الأكبر.

(٧) هيرة: يبدو أن الأصوب (هيوة) وهي قرية في جبل هيوة من مخلاف صباح، ويطل جبل هيوة على وادي الأجلب من آل عمار بالرضمة.

(٨) صفة جزيرة العرب ـ للحسن الهمداني ـ ص٢١٦.

قاول بن زيد بن ناعته بن شرحبيل بن الحارث بن زيد بن ذي رعين). ووادي شراد سميّ باسم (شراد بن ثمامة بن حجير بن قاول)، والأملوك اسم عزلة في ناحية الشِعر، وسُميّ الشِعر باسم (شِعر بن عدي بن الحارث بن شرحبيل بن مثوب بن ذي رعين). والأحروث عزلة بني الحارث في ناحية السدة وبني الحارث في مخلاف بعدان، ومن مخلاف ذي رعين عزلة رعين بناحية يريم، وسميت يريم باسم (يريم بن سفيان ذو حرث بن شرحبيل بن الحارث بن زيد بن ذي رعين الأكبر).

ويتبين من ذلك أن مخلاف رعين يشمل نواحي ومديريات النادرة والرضمة والشعر والسدة ويريم بمحافظة إب كما يشمل عزلة الحرث وعزلة دلال وحصن حَبّ بناحية بعدان إلى عزلة ميتم جنوب مدينة إب[1] ويشمل (ثَرَيد) وبلد الحبيشية وحقل صالح بين دمت والمقرانة، وبالتالي ناحية دمت إلى جُبن بمحافظة الضالع.

ب ـ **مخلاف جيشان**: قال الهمداني (مخلاف جيشان: سُمي باسم جيشان بن غيدان بن حجر بن ذي رعين الأكبر. ويعد من مخلاف جيشان: حجر، وبدر، وثريد، وبني حبيش.. والعود)[2] وجيشان في مخلاف العود ـ بالنادرة ودمت ـ وثريد والحبيشية هي ناحية دمت. وحجر، وبدر، هي بلاد قعطبة بمحافظة الضالع. قال الهمداني «ويسكن جيشان بطون من ذي رعين».

جـ ـ بلاد يافع: ويافع بطن كبير من ذي رعين، وهو «يافع بن قاول بن زيد بن ناعته بن شرحبيل بن الحارث بن زيد بن ذي رعين الأكبر. فأولد يافع: بلدَه، وجحيملان، ابني يافع، ومنهما انتشرت بطون يافع، وهم الأريوم، وبنو أدان، والذراحن، وبنو قاسد، والأبقور، وبنو شُعَيْب، وبنو جبر، وكلا. وغيرهم» وكلا معروفه حتى اليوم بيافع السفلى، والشُعيب في الضالع، والذراحن بيافع العليا وجُبن[3] وتشمل يافع الضالع وردفان، يُقال ردفان ردف يافع، والضالع ضلع يافع. ويتبين من ذلك أن الضالع وردفان ويافع السفلى ويافع العليا من بطون ذي رعين، ومناطقهم في محافظة الضالع ومحافظة لحج وبعض محافظة أبين.

وبذلك فإن مناطق آل ذي رعين الرئيسية كانت تمتد من أبين ويافع إلى ميتم

---

(١) عزلة الحَرث في بعد أن سميت باسم سفيان ذي حرث بن شرحبيل بن الحارث بن زيد بن ذي رعين. وعزلة دلال في بعد أن سميت باسم دلال بن الحارث بن شرحبيل بن الحارث بن يزيد بن ذي رعين. وعزلة ميتم باسم ميتم بن مثوب بن ذي رعين.

(٢) صفة جزيرة العرب ـ للحسن الهمداني ـ ص٢١٦.

(٣) الإكليل ـ جـ٢ ص٣٤٣.

جنوب مدينة إب، وكان مخلاف ذي رعين هو مركز الأذوائية والزعامة للأذواء الأقيال من آل ذي رعين في العصر الحميري.

* * *

وكان أول كبار الأذواء آل ذي رعين القَيّل (شراحيل ذو رعين بن عمرو بن شمر ينعم بن شراحيل بن معدي كرب ذي عشم بن الغوث بن يعرب بن ينكف بن جيدان بن لهيعة بن مثوب بن ذي رُعين الأكبر)(١) وهو القائل:

ألا مَـنْ يَـشْـتَـري سَـهَـراً بِـنَـوْمٍ سَـعـيـدُ مـنْ يَـبـاتُ قَـريـرَ عَـيْـنِ
فـإنْ تَـكُ حِـمْـيَـرُ غَـدَرَتْ وخـانَـتْ فـمـغـفـرةُ الإلـهِ لـذي رُعَـيْـن

وكان شراحيل ذو رعين ـ هذا ـ في زمن الملك تُبّع ملشان الحميري والملك حسان بن تُبّع ملشان ـ بالنصف الأول من القرن الرابع الميلادي ـ وكان سلطان الدولة الحميرية وملوكها التبابعة يمتد إلى البحرين واليمامة، فسار الملك حسان بالجيش الحميري يريد غزو العراق، فلما وصل اليمامة لم يرغب أقيال حمير في ذلك الغزو، فطلبوا منه العودة إلى اليمن، فأبى أن يفعل، فكلم الأقيال أخاه عمرو، وكان في الجيش، فسألوه أن يرد أخاه، فقال لهم: أنه لا يفعل. فقالوا: إنْ أبى فأقتله ونحن نملكك علينا، ثم أن أقيال حمير حلفوا له جميعاً إلا شراحيل ذو رعين، وهو خاله، فنهاه عن قتل أخيه، فأبَى وكره مشورته وأكرهه على الدخول مع أقيال حمير فيما دخلوا فيه، فقال ذو رعين: على شريطة أن تحفظ لي هذه الرقعة وديعة، فقال: لك ذلك. فكتب ذو رعين في الرقعة البيتين (ألا مَنْ يشتري سهراً بنوم. . الخ). وختم على الرقعة، وناولها إياه، فدفعها إلى رجل من حاشيته وشَدَّدَ عليه في حفظها، ثم قتل عمرو بن تُبّع أخاه حسان وعاد بالجيش من اليمامة والبحرين إلى اليمن، فاستقر بقصر غُمدان في صنعاء. ثم إنه ندم ندامة عظيمة على قتل أخيه. قال ابن هشام في السيرة النبوية إن عمرو بن تُبع «مُنِع منه النوم، وسُلِط عليه السهر، فلما جَهَدَه ذلك سأل الأطباء والحُزاة من الكُهان والعرافين عَمّا به، فقال له قائلُ منهم: إنه والله ما قَتَلَ رجلُ قطُ أخاه أو ذا رحِمه بغياً على مثل ما قتلت أخاك عليه إلا ذَهَب نومه وسُلِّط عليه السهر، فلما قيل له ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه من أشراف اليمن حتى خَلَص إلى ذي رعين، فقال له ذو رعين: أن لي عندك براءةً، فقال: وما هي؟ قال: الكتاب الذي دفعته إليك، فأخرجه، فإذا فيه البيتان، فتركه ورأى أنه قد نصحه»(٢).

(١) السيرة الجامعة ـ شرح قصيدة نشوان الحميري عن تبابعة وملوك حمير ـ ص١٤٤.
(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ١ ص٢٧.

وجاء في شرح قصيدة نشوان الحميري إن الملك «شكا ما لقي من السهاد على خواصه، فقالوا: لا تقدر على النوم حتى تقتل الذين أشاروا عليك بقتل أخيك، فأمر بكل من أشار عليه بقتل أخيه وحالفه على ذلك أن يأتوا إليه في وقت معلوم، فأتوا إليه في ذلك اليوم فأمر بهم فدخلوا عليه جماعة بعد جماعة، فأمر بضرب أعناقهم حتى أفناهم، وكان ذو رعين ممن أمر به، فأُدخِل عليه، فَذَكَره بمشورته عليه، وسأله الوديعة، فأتى بها، فوجد البيتين، فأمر الملكُ بإكرامه، وخرج سالماً مشكوراً من عنده»[١] وفي ذلك قال نشوان الحميري:

أم أين عمرو وصنوه المُردي له ... فأصاب صفقة خاسرٍ كَدّاح

لم يستمع من ذي رُعينٍ رأيه ... والحَيْنُ لا يثنيه لَحْيُ اللّاحي

فَبَدَتْ ندامتُه وجانَبَهُ الكرا ... فرأى السلّو بغير شُربِ الرّاح

أفْنَى رجالاً شاركوه فأصبحوا ... ككباشِ عيدٍ في يد الذباح

قال ابن هشام «وهَلَك عمرو بن تُبّع، فمَرَج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا»[١] وقال نشوان: «ملك بعد عمرو ـ هذا ـ عبد كلال بن ذي رُعين»[٢] وهو أول ملك من أجداد الحارث بن عبد كلال، وأولُ ملك من آل ذي رعين.

* * *

أجداد الحارث بن عبد كلال. والديانة المسيحية

إن الحارث بن عبد كلال هو (الحارث بن عبد كلال بن نصر بن سهل بن عَريب بن عبد كُلال الأوسط بن عَرِيب بن فهد بن زيد بن مُثوّب) وقد سُميّ باسم (مثوب) غير واحد من آل ذي رعين، منهم (مثوب بن ذي رعين بن مُرّة بن شراحيل بن معدي كرب ذي عُشم بن الغوث بن يعرب ينكف بن جيدان بن لهيعة بن مثوب بن ذي رعين) ومنهم (مثوب بن ذي حُدث بن مالك بن عبدان بن مالك بن حجر بن ذي رعين)[٢]. ومثوب هو والد عبد كُلال الأكبر ـ أي الأول ـ قال الهمداني في الإكليل: «كان عبد كُلال الأكبر قائد حسان بن تُبّع، وكان على مقدّمته إلى اليمامة»[٢]. وكذلك كان منذ عهد أبيه، حيث قال ابن خلدون: «غَلَبَ

(١) السيرة الجامعة ـ شرح قصيدة نشوان ـ ص١٤٤.

(٢) الإكليل للهمداني ـ جـ٢ ص٣٥٧ ـ وقال إنه: (عبد كلال بن ذي حدث) وقال أبو نصر: (عبد كلال بن مقأل بن يغنم بن الحارث بن شرحبيل بن مثوب). وإما حجر بن ذي رعين فَمِن سلالته آل الحجري وهم من أهل العلم والنباهة منهم القاضي عبد الله الحجري رئيس الوزراء الأسبق باليمن والأستاذ أحمد عبد الله الحجري محافظ تعز حالياً.

تُبّع ملوك الطوائف، ودوخ جزيرة العرب.. وبعث على مقدمته عبد كلال بن مثوب بن ذي رُعين» وذكر ابن خلدون أنه «مَلَك بعد تُبّع أخوه لأُمه عبد كلال بن مثوب بن ذي رعين»[١] وجاء في تاريخ الأمم والملوك إنه «.. قتل عمرو بن تُبع أخاه ومَلَك مكانه.. ثم مَلَك بعد عمرو بن تُبّع عبد كلال بن مثوب.. وذلك أن ولد حسان بن تُبع كانوا صغاراً، فأخذ المُلك عبد كلال بن مثوب مخافة أن يطمع في المُلك غير أهل بيت المملكة، فوليّه بسنٍ وتجربة وسياسة حسنة، وكان فيما ذكروا على دين النصرانية الأولى، وكان الذي دعاه إليه رجل من غسان قدم عليه من الشام»[٢] ويتبين من البحث في المصادر التاريخية ما يلي:

ـ إن عبد كلال الأول بن ذي رعين كان من كبار الزعماء الأذواء القادة في عهد ثلاثة ملوك هُمْ: تُبّع (ملشان)، وحسان بن تُبع، وعمرو بن تُبع. لذلك فإن ما ذكره ابن خلدون عن الجرجاني بأنه «مَلَكَ عبد كلال أربعة وتسعين سنة»[١] يشمل تلك الفترة التي كان فيها عبد كلال زعيماً قائداً لمناطق ذي رعين الشاسعة ونائباً للملك بمدينة ظفار، الرعُينية الحميرية ـ ومخاليف ظفار إلى المعافر وتهامة وساحل البحر الأحمر، أي ما يقارب النصف الغربي من اليمن، بينما كان آل ذي يزن هم الزعماء الأذواء في مدينة عبدان والنصف الشرقي من اليمن، وهو ما يؤكده نقش عبدان الكبير الذي كتبه معدي كرب حفيد، ملشان سنة ٣٣٥م[٣]. وفي ذلك الوقت تقريباً تم تمليك عبد كلال الأول بن ذي رعين، فأصبح هو (ملك حمير)، وقد ذكرت نقوش تلك الفترة عبادة الإله «سين/ ذي ألم» والشمس، والعديد من الآلهة المتعددة التي كانت شائعة في ذلك الزمن.

وقد ذكر نقش عبدان الكبير المناطق التي امتد إليها سلطان ونفوذ الدولة الحميرية في عهد الملك ملشان في شرق وشمال الجزيرة (حتى آبار سجا بين أرض نزار وأرض غسان)[٣] أي بين الحجاز وتخوم الشام وهي أرض غسان، وكانت الشام تحت حكم الإمبراطورية الرومانية التي كانت تعتبر أن «الديانة المسيحية ديانة لا تتفق مع شروط الرعوية الرومانية، ثم صدر مرسوم ميلانو ـ سنة ٣١١م ـ بأن المسيحية ديانة قانونية، ثم اعتنق الملك قسطنطين الروماني (٣٠٦ ـ ٣٣٦م) الديانة المسيحية، وكان (ثعلبة بن جفنة الغساني) زعيم العرب بالشام، «فكتب ملك الروم إلى الغساسنة ورئيسهم ثعلبة بن جفنة، فاستدناهم، وكتبوا بينهم الكتاب» الذي

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٥٧ ـ ٥٨.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ لابن جرير الطبري ـ جـ٢ ص٨٦.
(٣) نقش عبدان الكبير ـ تحقيق د. محمد بافقيه ـ ٨٣/ ٨٤.

بموجبه أصبح بنو جفنة الغساسنة ملوكاً للعرب بالشام وحماة للكنيسة، وساهموا في نشر المسيحية[١].

ـ وأتى من الشام إلى اليمن راهبُ غساني يدعو الملك عبد كلال ابن ذي رعين إلى الديانة المسيحية بدلاً من عبادة الآلهة الوثنية المتعددة والنجوم والكواكب، فآمن الملك عبد كلال بالديانة المسيحية التي ذكرتها كتب التاريخ التراثية باسم «دين النصرانية الأولى» وأنه «كان الملك عبد كلال على دين النصرانية الأولى، وكان الذي دعاه إليه رجل من غسان وَفَدَ عليه من الشام» وذلك الرجل الغساني هو الراهب (فوفل أندوس) أو (ثيوفيلوس) في المصادر الرومانية، فقد ذكرت المصادر الرومانية «إن الملك قسطنسيوس بن قسطنطين الذي حكم في الفترة (٣٣٧ ـ ٣٧٠م) بعث الراهب ثيوفيلوس إلى ملك حمير، وحمل الراهب ثيوفيلوس هدايا من الملك قسطنسيوس إلى ملك حمير، ونجح في إقناعه باعتناق الديانة المسيحية، وقام ببناء ثلاث كنائس إحداها في مدينة ظفار مقر ملك حمير»[٢] فذلك الملك ـ ملك حمير ـ هو عبد كلال بن ذي رعين، والديانة المسيحية التي اعتنقها هي (دين النصرانية الأولى) والكنيسة التي بناها في مدينة ظفار هي «قليس ظفار» المذكور في نقوش المسند الحميرية، وكانت الكنيسة تُسمى (قليس)، وفي الرومانية (كليزيا) مأخوذ من اللفظ اليوناني (إكليزيا) بمعنى (المجمع العام) فسمى العرب القدماء الكنيسة بلفظ (قليس)، وكان (قليس ظفار) كنيسة عظيمة منذ اعتناق عبد كلال للدين المسيحي وبناء تلك الكنيسة ـ سنة ٣٥٧م ـ وحتى زمن النقش الحميري المسند للزعيم القيل (شراحيل بن ذي يزن) وهو مؤرخ بسنة ٥١٨م، وقد ذكر في النقش كنيسة ظفار بلفظ (قليس ظفار) وصاغ النقش (باسم الرحمن)[٣]. وتقع مدينة ظفار في ناحية السدة، وقد ذكر الهمداني أن ظفار من مخلاف ذي رعين، وكانت عاصمة الدولة الحميرية ومقر الملك عبد كلال الذي قام أيضاً ببناء كنيسة ثانية ذكرها (فيلوستروغ) بأنها في (عبدان) وقد ظن (بيوتروفسكي) أنها (عدن)، والصواب أنها مدينة عبدان التي فيها كان القصر (يزن) وكانت مقر الأذواء (آل ذي يزن) زعماء وحكام النصف الشرقي من اليمن بما في ذلك حضرموت والمهرة وسأكلن وهي ظُفَار عمان، وقد ذهب (بيوتروفسكي) إلى أن الكنيسة الثالثة كانت في سأكلن بعمان[٢] وقد انتشرت

(١) ذكرت المصادر الرومانية إن الملك الحارث بن أبي شمر الجفني الغساني كان «أميراً على جميع العرب بالشام وحامياً للكنيسة، ويحمل لقب فيلارك وباتريكوس Phylarch and Patricus وهو أعلى لقب بعد الأمبراطور الروماني» ص١٩ فجر الإسلام ـ أحمد أمين.

(٢) ملحمة أسعد الكامل ـ لبيتروفسكي ـ عن كتاب فيلوستروغ ـ تاريخ الكنائس.

(٣) نقش شراحيل بن ذي يزن ـ نجران ـ ١٠٢٨ جام.

المسيحية في النصف الشرقي من اليمن إلى حضرموت وسأكلن وفي النصف الغربي إلى تهامة غرباً ونجران شمالاً، ومات الملك عبد كلال بن ذي رعين ـ حوالي سنة ٣٧٠م ـ وفيه قال نشوان الحميري في قصيدته عن تبابعة وملوك حمير:

أم أين عبد كلال الماضي على ... دين المسيح الطاهر المساح

ـ قال الهمداني والمسعودي والجرجاني وابن خلدون: «. . ثم مَلك مرثد بن عبد كلال بن ذي رعين إحدى وأربعين سنة» وذلك إلى حوالي عام ٤٠٨م، قال الهمداني: «ثم مَلَك وليعة بن مرثد بن عبد كلال تسعاً وثلاثين سنة وكان منقطع النظير»[١] وكذلك ذكر ابن خلدون أنه «مَلَك وليعة بن مرثد ٣٩ سنة، وكثرت الخوارج عليه. .»، وذلك أن حكمه لم يشمل كل اليمن، حيث خرج عن حكمه آل ذي يزن بالنصف الشرقي من اليمن والقيل الصباح بن لهيعة في (موكل) والقيل حسان بن غمران ـ ذي غيمان ـ فكان حكم وليعة بن مرثد بن عبد كلال في ظفار ومناطق قبائل ذي رعين وجهات النصف الغربي من اليمن في الفترة (٤٠٨ ـ ٤٤٥م) ثم اجتمع حكم اليمن للملك تُبّع حسان ـ الثالث ـ بن عمرو ذي غيمان ثم الملك أسعد تُبع ـ الثاني ـ الذي حكم اليمن في الفترة من (٤٥٧ ـ ٤٧٧م) بالقرن الخامس الميلادي ـ وكان يدين بالديانة النصرانية الأولى وبشر بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي عهده كان من كبار أقيال اليمن عبد كُلال الأوسط بن ذي رعين، وهو عبد كلال الثاني، وكان زعيماً لظفار ومناطق ذي رعين وغيرها، ـ بعد وليعة بن مرثد ـ قال الهمداني: «فأولد عبد كلال الأوسط: عَرِيباً، وأفلح، وفهدَ الأوسط» وكذلك الحارث بن عبد كلال الأوسط، وقد حكم في ظفار إلى عام ٥١٥م، وكانت الديانة المسيحية هي السائدة والرئيسية باليمن، ومما يتصل بذلك «أن من الدلائل النقوشية على الديانة المسيحية: خدوش منقورة ورسوم صلبان ونقوش في ضواحي نجران وفي حضرموت وغيرها. . ونقش باسم برق بن مالك بن عبد المسيح في القرن الخامس الميلادي»[٢] وكذلك كنائس ظفار وعبدان ونجران، و(قليس صنعاء) وكان موجوداً منذ عهد أسعد تُبع الثاني، وفي ذلك قال الرداعي يذكر مدينة صنعاء:

أرضُ بها غُمدان والقليسُ ... بناهما ذو النجدة الرئيس[٣]

---

(١) شرح الدامغة ـ للهمداني ـ ص٥٤٠.

(٢) ملحمة أسعد الكامل ـ لبيتروفسكي ـ عن كتاب فيلوستروغ ـ تاريخ الكنائس.

(٣) صفة جزيرة العرب ـ ص٤٠٨ ـ ذو النجدة الرئيس هو الملك تُبع أسعد، وقد ذكر الهمداني «أن الباني لقليس صنعاء هو تُبّع، أو أحد ملوك حمير، وإن أبرهة صاحب الفيل إنما اتخذه كنيسه لا هو الذي عمرها». وكان القليس كنيسة من عهد تبع أسعد الثاني وقام أبرهة بتفخيمها.

ولما تولى حكم اليمن يوسف أسار (ذو نواس) قام بإحراق كنيسة ظفار، وقَتَل الحارث بن عبد كلال الثاني، وقد ذكر نقش شراحيل بن ذي يزن في نجران قيام الملك بإحراق أو (دهر) كنيسة ظفار (قليس ظفار)، وهو النقش المؤرخ بعام ٥١٨م ولكن فترة حكم ذي نواس القصيرة لم تغير من حقيقة الرسوخ والانتشار الواسع للمسيحية باليمن، فقد حكم بعده (سميفع أشوع بن ذي يزن ملك حمير) الذي ينطق نقشه المسند «باسم الرحمن وابنه المسيح الناصري، نفس قُدس»[١].

وقد حكم سميفع في الفترة (٥٢٥ ـ ٥٣٣م) ثم وقع الغزو والاحتلال الأكسومي، وتعرضت مدينة ظفار للتدمير، ووقعت صنعاء ومناطق واسعة من اليمن تحت الحكم الأكسومي وتولاها الملك أبرهة الذي يذكر نقش من عهده الحرب مع الملك معدي كرب بن سميفع ذي يزن، والتوصل إلى اتفاق معاهدة، مع الأقيال والأذواء ومنهم «عادل ذو فائش، ومرجز ذو ذرانح، وذو شعبان، وذو رعين»، وذلك سنة ٥٤٣م[٢]. وانتهى ذلك الحكم الأكسومي على يد سيف بن ذي يزن سنة ٥٧٢م.

ـ والقيل (ذو رعين) المذكور في نقش سنة ٥٤٣م قد يكون أحد أبناء عبد كلال الأوسط ـ الثاني ـ وقد يكون عبد كلال الأصغر ـ الثالث ـ والد الحارث بن عبد كلال الذي إليه كتب رسول الله ﷺ، فقد جاء في الإكليل أنه «أولد عبد كلال الأوسط: عَريباً وأفلح، وفهدَ الأوسط، وكعباً، وزيداً والنعمان، سبعة نفر» وفي فهد الأوسط قال سلمة بن جندل السعدي، أو أبوه جندل:

ألا أن خير الناس كلُّهم فهدُ ... وعبدُ كُلال خير سائرهم بعدُ
هما قمرا مُلكٍ، سليلا مكارم ... وفيّا عهود عندما يُنكَث العهدُ
وما ذأدَ عن مُلك المقاولِ تُبّعٌ ... ذيادهما لمّا وَهَى منه ما شدوا
وقد مال رأس المُلك واضطربت به ... بطون ظهور ما لأكثرها سَدُّ
فقاما بما أعيّا قبائل حمير ... وشدا فتوق الوَهي إذ بلغ الجهدُ
فعبدُ كلال خير حمير كلها ... على رغم مَنْ عادى، وربهم فهدُ

وقد يكون المقصود فهد بن النعمان بن عبد كلال ـ وهو فهد الأصغر ـ وكان فهد الأصغر والحارث بن عبد كلال الأصغر يحكمان مناطق قبائل ذي رعين الشاسعة ـ سالفة الذكر ـ وبلاد المعافر ـ وهي محافظة تعز ـ وحيس وتهامة إلى ساحل البحر

---

(١) نقش الملك سميفع ملك حمير ـ ٣٩٠٤ ركمانز ـ وقد ذكرت المصادر الرومانية قيام ذي نواس بإحراق كنيسة ظفار وقتل الحارث بن عبد كلال.

(٢) نقش أبرهة في مأرب ـ رقم ٥٤١ ـ سي. آي. اتش.

الأحمر بعد عهد سيف بن ذي يزن في فترة الجاهلية وحتى ظهور الإسلام.

وفهد الأصغر هو «فهد الأصغر بن النعمان بن فهد الأوسط بن عبد كلال الأوسط» والحارث هو «الحارث بن عبد كلال الأصغر بن نصر بن سهل بن عريب بن عبد كلال الأوسط» قال الهمداني: «وكان فهد الأصغر قيلاً بالمعافر، وكان يجبي من بلد الحبش: زيلع، وجزيرة بربرة». وذلك أن سلطان فهد كان يشمل بلاد المعافر وتهامة ويمتد بحراً إلى زيلع وجزيرة بربرة في ساحل الحبشة قبالة باب المندب، وكان بتهامة حيس بن ذي رعين، وهو كما في الإكليل: «حَيْس بن يريم ذي رعين، فأولد حيس: شيبان، وكُبْران، فأولد شيبان: زيداً، فأولد زيد: الأقطون، وعيدان، وغيدان، بطون كلها. وأولد كبران: حرساً، ووهباً، وعذرة، بطون كلها». وباسم حيس بن ذي رعين سميت مدينة حيس بتهامة. وكذلك كانت بالمعافر قبيلةُ ذبحان من ذي رعين، وهو (ذُبحان بن دوم بن بكثيل ـ مهموز ـ بن منبه بن حجير بن قاول بن زيد بن ناعتة بن شرحبيل بن الحارث بن ذي رعين الأكبر) وباسم ذُبحان سميت منطقة ذُبحان بالمعافر ـ بمحافظة تعز ـ وهم ناقلة من مخلاف ذي رعين، وقد أتاح ذلك الانتشار والانتقال إلى المعافر وتهامة أن ينبسط عليهما سلطان الملوك الأذواء من آل رعين، فكان فهد بن النعمان بن عبد كلال من كبار الأذواء، وفيه قال أعشى قيس الجاهلي:

ونادمتُ فهداً بالمعافر حقبة ... وفهدُ سَماحُ لم تَشِبْهُ المواعدُ

ووالده نعمان مِنْ حَفَداتِه: رُعَيْنُ ... وهُم قومُ ملوك أماجدُ

وأكؤسهم صَافي اللُّجين مكللُ ... بِدُرٍّ وياقوت عليه العساجد[1]

وإياه عَنَىٰ عمرو بن معدي كرب الزُبيدي بقوله:

ألا عتبت عليّ اليوم أروىٰ ... لآتيها كما زعمت بفهد

وحميرُ قومه، قوم عُتاةُ ... بكل مسيلة وبكل نجد

فما الأحلافُ تابعتي إليه ... ولا والله لا آتيه وحدي[2]

وكان الحارث بن عبد كلال هو الملك على كافة قبائل ومناطق آل ذي رعين، وعلى كافة الأقيال من أسرة عبد كلال أذواء رعين، وكان منهم (القَيْل ثات) ـ في رداع ـ (وجَوْب بن ظالم، وإليه يُنسب جوب غيمان ـ جنوب صنعاء ـ[1] وذلك بالإضافة إلى مناطق قبائل ذي رعين ـ سالفة الذكر بمحافظات أبين ولحج

---

(١) الإكليل ـ جـ٢ ص٣٣٨ و٣٦٠ و٣٦٣.

(٢) الأمالي لأبي علي القالي.

بلاد يافع، والضالع، ومحافظة أب، ومناطق المعافر ـ تعز ـ وتهامة، وهذا يفسرُ ما جاء في السيرة النبوية وعيون الأثر: أن «رسول الله ﷺ بعث إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام سنة ٧هـ» وأنه «بعث المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث بن عبد كلال ملك اليمن» فذلك الوصف للحارث بأنه (ملك اليمن) يعود إلى أنه هو الملك على كل تلك البلاد والآفاق الحميرية الممتدة.

وقد كانت مدينة ظفار ـ في ناحية السدة ـ هي مقر الملوك آل عبد كلال بن ذي رعين منذ عهد الملك عبد كلال الأول، ولَمّا تعرضت مدينة ظفار للتدمير والخراب قبل البعثة النبوية بنحو سبعين سنة، أصبح المقر حصن (حَبّ) المنيع في جبل بعدان من مخلاف ذي رعين ـ بمحافظة إب ـ فكان حصن (حب) هو مقر الملك الحارث بن عبد كلال، وغني عن البيان أن كل واحد من الملوك الأذواء أولئك يقال له: (ذو رُعَيْن) ويقال (ابن ذي رُعَيْن). قال عمرو بن معدي كرب لأحد الولاة بعد الإسلام:

أتوعِدُني كأنَّك ذو رُعين ... بأعظمِ مُلْكِه، أو ذو نواس

وقال يزيد بن عبد المدان بن الديان زعيم نجران ومخالفيها بالجاهلية

إنْ تَلْق حيّ بني الديان تَلْقَهُم ... شُم الأنوف إليهم غُرة اليمن

ما كان في الناس للديان من شَبَهٍ ... إلا رعينُ وإلا آل ذي يزن

وذلك لأن آل ذي يزن كانوا ملوك المناطق اليزنية في شبوة وأبين وغيرها، وكان آل عبد كلال بن ذي رعين ملوك مناطق حمير مِنْ تهامة غرباً إلى يافع وأبين جنوباً وشرقاً وإلى (جوب غيمان) شمالاً، وكان آل الديان ملوك نجران وأعالي اليمن.

وينطبق على آل ذي رعين ومناطق حمير قول حسان بن ثابت الأنصاري على بني جفنة ملوك الشام الغساسنة ومناطقهم بالجاهلية:

ذاك مغنى لآل جفنة في الدهر ... وحتى تقادم الأزمانِ

قد دنا الفصح فالولائد يَنْظُمْنَ ... سريعاً أكِلّةِ المُرجانِ

صلوات المسيح في ذلك الدّير ... دعاء القسيس والرُّهبان

فالحارث بن عبد كلال وآل ذي رعين ومناطق حمير جميعها لم يكونوا وثنين ولم يكونوا يهوداً وإنما كانوا يدينون بالديانة المسيحية منذ عهد الملك عبد كلال الأول بن ذي رعين والذي فيه قال نشوان الحميري:

أم أين عبد كلال الماضي على ... دين المسيح الطاهر المساح

* * *

إسلام الحارث بن عبد كلال

لقد كان الحارث بن عبد كلال سادس ستة ملوك كتب وبعث إليهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام في سنة ٧ هجرية وهُمْ قيصر هرقل ملك الروم، وكسرى أبرويز ملك الفُرس، والمقوقس ملك مصر، والحارث بن عبد كلال ملك اليمن، والمنذر بن ساوي أمير البحرين، والنجاشي ملك الحبشة، حيث جاء في السيرة النبوية وعيون الأثر ذكر ذلك وأنه «بعث رسول الله ﷺ المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث بن عبد كلال ملك اليمن»(١) قال القاضي محمد الأكوع في هامش الإكليل:

«كان الحارث بن عبد كلال من عظماء ملوك اليمن ومشاهير أقيالها، رَبُّ سيف وبيان ومكارم وجنان، وكان مكتوب على سيفه:

أنا الحارث ذو عشين صاف كاللُّجين»(٢)

ولعل الأصوب أن المكتوب على سيفه كان «... الحارث ذو رعين. صاف كاللُّجين»، وربما كان ذلك أصل قول الأعشى عن ذي رعين:

(وأكؤسهم) صَافي اللُّجين مُكلّلُ بِدُرٍّ وياقوتٍ عليه العساجِدُ

وقد ذكر الهمداني في أنساب آل ذي رعين بالإكليل أنه: «أولد عبد كلال بن نصر: الحارث وعريباً، ابني عبد كُلّال، وإليهما كتب رسول الله ﷺ...» وجاء في الهامش «..والذي كان رسول النبي ﷺ إلى ابني عبد كلال مختلف فيه.. قيل: المهاجر بن أبي أمية المخزومي، وقيل: جرير بن عبد الله البجلي»(٢). وقال القرطبي في الاستيعاب: «بعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع وذي رُعين باليمن»(٣) وذو رعين هو الحارث بن عبد كلال، ويزول الاختلاف في الذي كان مبعوث النبي ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال بإدراك أن النبي ﷺ بعث المهاجر بن أبي أمية في سنة ٧هـ عند منصرفه من الحديبية ـ كما في عيون الأثر والسيرة النبوية ـ وبعث آنذاك أيضاً العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي أمير أرض البحرين، ودحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم. ويمكن القول أن الحارث بن عبد كلال أجاب حينئذ بجواب طيب ولم يعلن إسلامه. ثم بعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي في سنة ٨هـ، وذلك عند منصرف

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٧٩ ـ عيون الأثر ـ ص٣٣٠.

(٢) الإكليل ـ جـ٢ ص٣٦٤.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ جـ١ ص٢٣٣.

النبي ﷺ من الجعرانة ـ في ذي القعدة سنة ٨هـ ـ وقد جاء في كتاب الأنباء أن النبي ﷺ إنما بعث إلى الحارث بن عبد كلال يدعوه إلى الإسلام في سنة ٨هـ، وذلك هو زمن بعث جرير بن عبد الله.

* * *

وكان لجرير بن عبد الله البجلي مزايا كثيرة جعلت رسول الله ﷺ يختاره مبعوثاً إلى الحارث بن عبد كلال وأذواء حمير، فقد كان جرير من أقيال اليمن السابقين إلى الإسلام ولما هاجر إلى النبي ﷺ بالمدينة المنورة قال النبي ﷺ: «**يطلع عليكم من هذا الفج خير ذي يمن، على وجهه مَسحة مَلَكْ**»قال ابن كثير: «وكان جرير ذا شكل عظيم، وكان من أحسن الناس وجهاً، وكان خطيباً..»[١]، وقال القرطبي: «كان جرير بديع الجمال مفرطاً في الطول.. وقال عمر بن الخطاب: جرير بن عبد الله يوسف هذه الأمة»[١] وقد شهد جرير فتح مكة ـ في رمضان ٨هـ ـ وجاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ بعث جريراً إلى ذي الخلصة بعد فتح مكة[١]. وحينئذ بعثه رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال وأذواء حمير، وذلك عند منصرف النبي ﷺ من الجعرانة ـ في ذي القعدة سنة ٨هـ ـ وكان جرير خطيباً بليغاً، وفيه قال ابن الأزور القسري:

لَعمْر أبيك. والأنباء تَنْمَىٰ لقد جَلَّىٰ بخطبته جريرُ

وقد سار جرير بن عبد الله إلى منطقة (ذي الخلصة) في ديار خثعم بسراة أعالي اليمن فقام بمهمته هناك، ثم جاء إلى منطقة تهامة والمعافر قاصداً الحارث بن عبد كلال في قلعة (حبّ) ببلاد ذي رعين، ولم يكن جرير مبعوثاً إلى الحارث بن عبد كلال فقط، وإنما كان مبعوثاً إلى سائر أذواء حمير، فقد ذكر الهمداني أنه كان مبعوثاً إلى (الحارث بن عبد كلال وأخيه عَرِيب بن عبد كلال) فأتى إليهما وأبلغهما كتاب رسول الله ﷺ ودعاهما إلى الإسلام، «وقرأ عليهما (سورة: لم يكن) فأسلم الحارث بن عبد كلال وعريب بن عبد كلال»[٢] قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة:

«..فأسلم الحارث بن عبد كلال، وكتب إلى النبي ﷺ كتاباً قال فيه:

ودينك دين الحق فيه طهارة وأنت بما فيه من الحق آمِرُ»[٢]

* * *

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٧٧ ـ والاستيعاب للقرطبي ـ جـ١ ص٢٣٣.
(٢) الإكليل ـ للهمداني ـ جـ٢ ص٣٦٤ ـ الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ١ ص٢٨٣.

ونعود إلى ما جاء في السيرة النبوية وعيون الأثر من وصف الحارث بن عبد كلال بأنه (ملك اليمن) وفي كتاب الأنباء بأنه (ملك حمير)، فالثابت أن مناطق حمير كان فيها عدد من الملوك الأذواء في الجاهلية وكان كل واحد منهم ملكاً على مخاليفه ومنطقته لا يتجاوز ذلك، فصفة الحارث بن عبد كلال ذي رعين بين أولئك الأذواء الملوك هو أنه كان بمثابة «الأول بين متساويين» فهو الأول بين الملوك الأذواء جميعاً والذين كان جرير مبعوثاً إليهم جميعاً، ومنهم (سميفع ذو الكلاع الحميري) و(حوشب ذو ظليم) و(أبرهة بن الصباح) و(المنذر بن سلامة ذي فائش) و(زرعة ذو يزن بن سيف بن ذي يزن) وكان هناك زهاء ستة أقيال من بني عبد كلال في مناطق مختلفة، الحارث بن عبد كلال، وعريب بن عبد كلال، والنعمان، ونعيم، وفهد، وشريح، وكان الحارث بن عبد كلال هو الأول بينهم جميعاً. فلما أسلم الحارث سار جرير إلى سميفع ذي الكلاع ثم إلى حوشب ذي ظليم، وغيرهما من أذواء حمير، فأسلموا جميعاً ثم أعلنوا إسلامهم وإسلام سائر مناطق وقبائل حمير، بشكل جماعي في أول جمعة من شهر رجب ٩ هجرية وكتبوا بذلك إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة.

* * *

كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال وإخوته

قال ابن هشام في السيرة النبوية: «وقدم على رسول الله ﷺ كتابُ ملوك حِمْيَر، مَقْدَمَه من تَبُوك، وَرَسُولُهُمْ إليه بإسلامهم[١]: الحارث بن عبد كلال، وَنُعَيم بن عبد كلال، والنعمان، قيل ذُو رُعَيْن، ومَعَافر، وهمدان، وبعث إليه زُرعة ذُو يَزَن مالك بن مُرَّة الرَّهاوي بإسلامهم، ومفارقتهم الشرك وأهله»[١].

وكذلك قال ابن سيد الناس في عيون الأثر: «قدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حمير، ورسولهم إليه بإسلامهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، قيل ذي رعين، ومعافر، وهمدان. وبعث إليه زرعة ذو يزن بإسلامهم»[٢]، وكذلك جاء في الوثائق السياسية للعهد النبوي عن تاريخ اليعقوبي، وجمع الجوامع للسيوطي ومسند عمرو بن حزم عن النسائي والحاكم والبيهقي وابن عساكر، وسنن الدارقطني، والوفاء لابن الجوزي، والأموال لابن زنجويه، ومسند عمرو بن حزم عن النسائي والحاكم والبيهقي وابن عساكر، وسنن الدارقطني،

---

(١) جاء في هامش السيرة؛ (في بعض النُسخ: رسل ملوك) بصيغة الجمع. و«رُسُلهم إليه» - السيرة النبوية - جـ٤ ص٢٥٨.

(٢) عيون الأثر - لابن سيد الناس - جـ٢ ص٣٠٩.

والوفاء لابن الجوزي، والأموال لابن زنجويه، والمصنف لعبد الرزاق، والسنن الكبرى للبيهقي، وأنه ـ كما جاء في جميع تلك المصادر ـ كتب إليهم رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله النبيّ. إلى الحارث بن عبد كُلَال، وإلى نُعَيم بن عبد كُلَال، وإلى النعمان، قيل ذي رُعَيْن، ومَعَافر، وهمدان[١].

أما بَعْدَ ذلكم: فإنّي أحْمَدُ إليْكُمُ اللَّهَ الذي لا إلَهَ إلَّا هُوَ، أما بَعْدُ؛ فإنَّهُ قَدْ وَقَعَ بِنَا رَسُولُكُمْ مُنْقَلَبَنَا مِنْ أرضِ الرُّوم، فَلَقِينا بالمدينَةِ، فَبَلَّغَ مَا أرسَلْتُمْ بِهِ، وخَبَّرَ مَا قِبلَكُمْ وأنْبأنا بإسلامِكُمْ وقَتْلِكُمُ المُشْرِكِين[٢]. وأنَّ الله قَدْ هَدَاكُمْ بِهُدَاه إن أصْلَحْتُمْ وأطَعْتُمْ اللَّهَ ورَسُولَهُ، وأقَمْتُمُ الصَّلاَةَ، وآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ، وأعطَيْتُمْ من المَغَانِمِ خُمُسَ اللَّهِ وسَهْمَ الرسولِ وصَفِيّه[٣].

وما كُتِبَ على المؤمنين من الصَّدَقَةِ: مِنَ العَقَارِ مَا سَقَتِ العَيْنُ وسَقَتْ السَّمَاءِ، وعلى ما سَقَى الغَرْبُ نِصْفَ العُشْرِ[٤].

وإنّ في الإِبلِ الأربعينَ، ابنةَ لَبُون، وفي الثلاثين: ابنُ لَبُونٍ ذكر. وفي كُلِّ خَمْسٍ من الإبل: شاة، وفي كلِّ عَشْرٍ من الإبل: شاتانِ، وفي كل أربعينَ من البقر: بَقَرَةٌ. وفي كل ثلاثين من البقر: تَبيعٌ جَذَعٌ أو جَذَعَةٌ. وفي كل أربعين مِنَ الغَنَمِ سَائِمَةٍ وحْدَهَا: شاةٌ.

وإنها فَرِيضةُ اللَّهِ التي فَرَض على المؤمنين في الصَّدَقة، فَمَن زاد خَيْراً فَهُوَ خَيْرُ له، وَمَنْ أدَّى ذَلِكَ وأشْهَدَ على إسلامِه وظاهرَ المؤمنين على المُشْركين فإنَّه من المؤمنين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وله ذِمَّةُ الله وذِمَّة رسوله.

---

(١) جاء في الوثائق السياسية عن نسخة خطية للكتاب «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله النبي إلى ملوك حمير: الحارث بن عبد كلال. والنعمان. وقَيْل ذو رعين ومعافر وهمدان» ص٢٢٤ ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي. وعن أبي عبيد «وإلى شريح بن عبد كلال» وإنه «ذكر المدايني فهداً الحميري فيمن كتب إليه النبي ﷺ من أقيال اليمن» وقوله: «قيل ذي رعين، ومعافر. . . الخ» لم يتم كتابة (واو) الجمع، إذ أنهم (قيول ذي رعين، ومعافر. . . الخ».

(٢) جاء في الوثائق السياسية عن النسخة الخطية «أما بعد، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو. فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم. فلقيناه بالمدينة. . .» [ص٢٢٤].

(٣) في اليعقوبي (من الغنائم) وفي الخطية (من الغنيمة) خمس الله، وسهم النبيّ وصفيّه.

(٤) العقار ـ بزنة سحاب ـ هو ههنا الأرض. والغرب ـ بفتح وسكون ـ هي الدلو العظيمة.

وإنه مَنْ أَسْلَمَ من يَهُودِيٍّ أو نَصْرَاني فإنه من المؤمنين، له ما لهم، وعليه ما عليهم.

ومَنْ كَانَ عَلَى يَهُودِيَّتِه أو نَصْرَانِيَّتِه فإنه لا يُرَدُّ عَنْهَا، وعليه الجِزْيَة: على كل حالم ـ ذكر أو أنثى، حُرٍّ أو عبدٍ ـ دينارٌ وافٍ من قيمة المعافر أو عوضه ثياباً[1]. فَمَنْ أَدَّى ذلك إلى رسول الله فإنّ له ذِمَّة الله وذِمّة رسوله، ومَنْ مَنَعَهُ فإنَّه عدُوٌّ لله ولرسوله».

ثم توجَّهَ رسول الله ﷺ بالخطاب في بقية الكتاب إلى زُرعة ذي يزن وكما يلي:

«أما بعد، فأنّ رسول الله مُحَمَّداً النبيَّ أرسل إلى زُرْعَةَ ذي يزن أنْ إذا أتاكُمْ رُسُلي فأُوصِيكُمْ بِهِمْ خَيْراً: مُعَاذُ بن جَبَل، وعبد الله بن (زيد)[2]، ومالِكُ بن عُبادة، وعُقْبَةُ بن نَمر، ومالكُ بن مُرَّة، وأصحابهم، وأن أجمعُوا ما عِنْدَكُمْ من الصَّدَقَة والجِزْيَةِ من مخاليفكم، وأبْلِغُوها رسلي، وإن أميرهم مُعاذُ بن جبل، فلا يَنْقَلِبَنَّ إلا راضياً» الخ[3].

وتتبين من كتاب رسول الله ﷺ حقائق كثيرة من بينها: إن الحارث بن عبد كلال وبقية أذواء حمير أسلموا وأعلنوا إسلامهم بشكل جماعي وأنهم «قتلوا المشركين» في مناطق حمير، ولم تذكر الروايات شيئاً عن ذلك القتال مع المشركين، ومما يتصل بذلك القتال وجود غنائم غنمها الحارث بن عبد كلال وأصحابه من المشركين، وقد جاء في كتاب النبي ﷺ أن يعطوا من الغنيمة خُمسَ الله وسهم رسول الله ﷺ.

ويؤكد كتاب رسول الله ﷺ وجود الديانة المسيحية «النصرانية» في مناطق حمير، حيث قال رسول الله ﷺ: «وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم. ومَنْ كان على يهوديته أو نصرانيته فإنّه لا يُرَدّ عنها وعليه الجزية» فلفظ (نصراني) ولفظ (نصرانيته) شاهد لا تخطئ دلالته على أن النصرانية كانت ديانة رئيسية في مناطق حمير، بل كانت هي الديانة الرئيسية والسائدة في مناطق حمير والتي كان يدين بها الحارث بن عبد كلال وأذواء حمير

---

(١) اليعقوبي (دينار من المعافري) أو عوضه من ثياب المعافر. وجاء في هامش السيرة: المعافر: ثياب من ثياب اليمن.

(٢) هكذا في الأصل (عبد الله بن زيد) وفي بعض المصادر عبد الله بن رواحة. (وقال ابن الأثير: في هذا نظر، فإن رسول الله ﷺ كاتب الناس باليمن سنة ٩، وعبد الله بن رواحة قتل بمؤته سنة ٨هـ) ـ أسد الغابة ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص٣٦٨.

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٢٢٠ ـ ٢٢٥ ـ والسيرة النبوية ـ جـ٤ ص٢٥٨ ـ عيون الأثر ـ جـ٢ ص٣٠٩.

وقبائلهم ومناطقهم، فلما أسلموا، بقي البعض على ديانته النصرانية، وكذلك لم يسلم الذين بمناطق حمير من اليهود، فكتب النبي ﷺ بفرض الجزية عليهم.

وينص الكتاب على بعث معاذ بن جبل وأصحابه عمالاً لرسول الله ﷺ على مناطق حمير وأن أميرهم معاذ بن جبل، وجاء في السيرة النبوية «أن رسول الله ﷺ حين بعث معاذاً أوصاه؛ وعهد إليه، ثم قال له: «**يَسِّر وَلَا تُعَسِّرْ، وَبَشِّرْ ولا تُنَفِّرْ، وإنَّكَ سَتَقْدمُ على قَوْم مِن أهْلِ الكِتَابِ يسئلُونَكَ: ما مِفْتَاحُ الجَنَّةِ؟ فَقُلْ: شَهَادَةُ أَنْ لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له**»[1] وقد وصفهم النبيّ ﷺ بأنهم من (أهل الكتاب) لأنهم كانوا يدينون بالنصرانية ولديهم كتاب الإنجيل، وقد جاء في نسب سلامة ذي فائش بالإكليل أنه: سلامة ذو فائش بن يهبر بن يزيد بن مُرّة بن عَريب بن مرثد بن يريم بن ودد بن يوسف بن بولس» فوجود اسم (بولس) يؤكد المسيحية، وبولس من حواري المسيح عليه السلام ومِنْ رواة الإنجيل، وباسمه سُميّ (بولس) المذكور في أجداد سلامة ذي فائش وكان مقر سلامه ذي فائش قصر إرياب في مخلاف يحصب بنقيل سُمارة في ناحية يريم من أرض رعين بمدلولها الواسع القديم.

وفي حوالي شهر شوال وصل معاذ بن جبل إلى مدينة (الجَنَد) فأصبحت العاصمة الإدارية لمناطق ومخاليف حمير جميعها، والتقى معاذ بالحارث بن عبد كلال وأذواء حمير، وتم إرساء دعائم عصر الإسلام في ربوع مناطق حمير.

* * *

الكتاب الثاني من رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال

وفي أوائل سنة ١٠ هجرية ـ تقريباً ـ كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى الحارث بن عبد كلال وأخوته شرحبيل، ونعيم، وقد جاء نص الكتاب النبوي في صحيح ابن حبان، وفي السنن الكبرى للبيهقي، وغيرهما من المصادر، ويبدأ الكتاب بالنص التالي:

«من محمد رسول الله إلى شرحبيل بن عبد كلال، والحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال. قيل ذي رُعين ومعافر وهمدان»[2] وفي سنن البيهقي «والحارث بن عبد كلال قيل ذي رعين».

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٦٠.

(٢) كان أحد أبناء عبد كلال قيلاً في منطقة من مناطق همدان (حاشد وبكيل) لذلك جاء في الكتب النبوية إن الحارث بن عبد كلال وإخوته (قيول ذي رعين، ومعافر، وهمدان)، وقد جاء في الإكليل «سفيان بن عبد كُلال، وكان عقبُه بوادي ضهر. وقد بقي من آل عبد كُلال الأصغر بنو أميّة بوادي القضب من مخلاف مُقرى، وهم الذي ورثوا بني سفيان بن عبد كلال الذين كانوا بوادي ضهر، يُدعون بني ذي التيجان، لأنه تتوج بسبعة تيجان» ـ جـ٢ =

ثم قال رسول الله ﷺ: «أما بعد: فقد رجع رسولكم، وأعطيتم من المغانم خُمس الله، وما كُتب على المؤمنين من العُشر في العقار» ويتبين من ذلك أن الحارث بن عبد كلال وإخوته أعطوا خمس الغنائم، والصدقة التي ذكرها النبي ﷺ في الكتاب الأول، وقد جاء في الكتاب الثاني تفصيلاً للزكاة وللديّات، وغير ذلك من الأحكام الشرعية(١).

ثم قال رسول الله ﷺ: **«وإن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الشرك، وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورمي المحصنات، وتعلّم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم وإن العمرة الحج الأصغر، ولا يمس القرآن إلا طاهر»**(١).

* * *

وفادة الحارث بن عبد كلال إلى رسول الله ﷺ

ووفد الحارث بن عبد كلال إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وقد نقل ابن جر العسقلاني نبأ وفادته ثم قال: «والذي تظافرت به الروايات أنه أرسل بإسلامه، وأقام باليمن»(٢) وليس هنالك تعارض، فقد أسلم الحارث بن عبد كلال باليمن وكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وذلك في سنة ٨هـ ثم مع أذواء حمير سنة ٩هـ وأقام باليمن، ثم وفد بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة سنة عشر للهجرة، حيث كما جاء في الإكليل وفي الإصابة:

«لما وفد الحارث بن عبد كلال إلى رسول الله ﷺ اعتنقه رسول الله ﷺ، وأفرشه رداءه.

وقال قبل أن يدخل عليه: يدخل عليكم رجل كريم الجدين صبيح الخدين»(٢).

والحارث بن عبد كلال سادس ستة فرش النبي ﷺ لكل منهم رداءه، وقد جمعهم الهمداني في أبيات مدح بها أحفاد أبيض بن حمال المأربي وهو أحدُ من فرش لهم النبي ﷺ رداءه، حيث قال الهمداني لأحفاده:

إن النبيّ محمداً خير الورى ... بسط الرداء لجدكم في المسجد

= ص٣٦٥ ـ الإكليل ـ ووادي ضهر من بلاد همدان في ضواحي صنعاء. ووادي القَضْب محتفظ باسمه، ويقع في الغرب الشمالي من مدينة ذمار بمسافة ساعة ونصف.

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص٢٢٧ ـ ٢٢٩.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ١ ص٢٨٣ ـ والإكليل للحسن الهمداني ـ جـ٢ ص٣٦٤.

مـا نـالـهـا إلا جـريـرُ بـجـيـلـة بـعـد ابـن حـمّـال الـرئـيـس الـسـيـد
والـقِـيـل أبـرهـة الـشـريـف، ووائـلُ رأس الـحـضـارم ذو الـفـعـال الأوحـدِ
أيـضـاً وعـبـد الـجـدّ نـال مـنـالـه أكـرم بـعـبـد الـجـدّ مـن مـتـعـجـنـد
والـحـارثُ ابـن كُـلال سَـيْـدُ حـمـيـرِ وإذا يـطـافُ لـسـابـعِ لـم يُـوجـد[1]

فالتقى الحارث بن عبد كلال برسول الله ﷺ وكان معه عدد من أذواء حمير ورجالات ذي رعين، فمكث فترة بالمدينة، ثم اعتمر، وعاد إلى اليمن، ولم يزل من أقيال وعظماء اليمن إلى أن انتقلت روحه إلى جوار ربه راضياً مرضياً.

(١) الإكليل ـ جـ٢ ص٢٤٢ ـ والستة الذين فرش النبي ﷺ لهم الرداء هم: أبيض بن حمال، وجرير بن عبد الله البجلي، وأبرهة بن الصباح الحميري، ووائل بن حجر الحضرمي، وعبد الجد بن ربيعة الحكمي المذحجي، والحارث بن عبد كلال ذي رعين الحميري.

٢٠

سُمَيْفع ذُو الكُلَاع الحِمْيَري

ـ قائدُ كتائب حِمْيَر ـ

مِنْ عظماء أذواء وأقيال حِمْيَر الذين بادروا بالاستجابة لرسول الله عليه الصلاة والسلام هو سُميفع ذو الكلاع الحميري. وكان يوم إسلام ذي الكلاع عيداً للحرية، قال العسقلاني:

«بعث النبي ﷺ جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع فأسلم وأعتق لذلك أربعة آلاف، ثم قدم المدينة ومعه أربعة آلاف أيضاً فسأله عمر في بيعهم. فقال: لا هُمْ أحرار، فأعتقهم كلهم في ساعة واحدة»[١].

وكان ذو الكلاع هو قائد جميع أذواء وأقيال وكتائب وقبائل حِمْيَر لما استنفر أبو بكر الصديق أهل اليمن لجهاد الروم بالشام، فأقبلوا بقيادة ذي الكلاع، قال المسعودي في مروج الذهب:

«قدم إلى أبي بكر ملوك اليمن، وعليهم الحُلل والحُبر وبرود الوشي المُثقل بالذهب، والتيجان، وكان ممن قدم عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع.. وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحُلل، فلما شاهد ما كان عليه أبو بكر تزيًّا بزيِّه. (ففزعت عشيرته لذلك وكلموه) فقال لهم) أفأردتم أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية والإسلام؟ لاها الله، لا تكون طاعة الرّب إلا بالتواضع والزهد في هذه الدنيا»[٢].

* * *

سُمَيْفع ذو الكلاع.. قبل الإسلام

قال القرطبي في الاستيعاب «ذو الكلاع اسمه أيفع بن ناكور.. وقيل اسم ذي الكلاع سميفع»[٣] وقال ابن حجر العسقلاني في الإصابة: «ذو الكلاع اسمه: اسميفع. ويقال: سميفع ـ بفتحتين ـ ويقال: أيفع بن باكورا.. وقال الهمداني: اسمه يزيد. وقال المرزباني في معجم الشعراء: اسميفع بن لاكور ذو الكلاع الأصغر»[١]

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ جـ١ ص٤٩٢.
(٢) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ جـ٢ ص٣٠٥.
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ جـ١ ص٤٨٥.

ويبدو من ذلك وجود التباس واضطراب يستلزم تبيين الصواب في اسم ونسب ذي الكلاع مع أبناء ذي الكلاع قبل الإسلام فيما يلي:

ـ إن اسم ذي الكلاع هو سُميفع ـ بضم السين ـ وهو اسم حميري ليس فيه تصحيف، وقد جاء في نقوش المسند الحميرية اسم القيل «سميفع بن لحيعة يرخم»[١] والملك (سُميفع أشوع ملك حمير بن شرحبيل يكمل)[٢] وقال المرزباني في الاشتقاق «السميفع: تصغير سمفع، والسمفعة: الجرأة والإقدام»[٣].

وذو الكلاع هو كما جاء في الإكليل «سُميفع ذو الكلاع الأصغر بن يعفر بن ناكور[٤] بن زيد بن شرحبيل بن الأسود بن عمرو بن مالك بن يزيد ذي الكلاع الأكبر بن يعفر بن زيد بن شُهال[٥] بن وحاظة بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن سَدد بن حمير الأصغر»[٦] وحمير الأصغر هو ذو ريدان في نقوش المسند واسمه حِمْيَر.

وذو الكلاع الذي قال الهمداني أن اسمه يزيد، هو ذو الكلاع الأكبر ـ أي الأول ـ ويكتسب أهمية كبيرة في إدراك أن لقب (ذي الكلاع) ليس مثل لقب (ذي يزن) و(ذي رعين) وغيرهما من الأذواء، وإنما هو لقب له مدلول حربي خاص. قال الهمداني في الإكليل «التكلع: التجمع» وأنه «تكلعت الكلاع من هذه القبائل لمّا قوّد أسعد تُبع يزيد بن يعفر على هذه القبائل سُمي ذا الكلاع، أي قائد الكلاع»[٦] والمقصود أن الملك أسعد تُبع جعل يزيد بن يعفر قائداً حربياً لجموع قبائل حمير، ولذلك سُمي ذا الكلاع، أي قائد الكلاع ـ أي الجمع الحميري ـ قال الهمداني: (ويزيد ذو الكلاع هو أحد قواد أسعد تُبع، وفيه يقول:

وجعلنا على المُجَنّبة اليُمنى أخا الحربِ ذا الكلاع يزيدا»[٦]

فكان يزيد بن يعفر هو ذو الكلاع الأكبر ـ أي الأول ـ بمعنى القائد الحربي العام لقبائل حمير في عهد الملك أسعد تُبع الثاني بأواسط القرن الخامس الميلادي.

---

(١) النقش المسند رقم ١٠٢٨ جام.
(٢) نقوش الملك سميفع أشوع ـ وقد ذكرته المصادر الرومانية باسم (سميفيوس ملك حمير).
(٣) الاشتقاق ـ للمرزباني ـ ص٢٤٥.
(٤) في الإكليل المطبوع (يعفر بن باكور) وفي الاشتقاق والقاموس (يعفر بن ناكور)، وناكور ـ بالنون ـ فاعول من النكر والدهاء.
(٥) شهال ـ بضم الشين ـ باسمه سُمّيت منطقة (الشهالي) بناحية إب والعدين ـ بمحافظة إب.
(٦) الإكليل ـ للحسن بن حمد الهمداني ـ جـ٢ ص٢٦٤ ـ ٢٦٥.

ـ وكان ثاني من تلقب بلقب ذي الكلاع هو (سميفع أشوع بن شرحبيل يكمل ذو يزن) حينما غزا واحتل الأحباش منطقة ساحل اليمن عند مقتل الملك يوسف أسار سنة ٥٢٥م، فأجمعت سائر قبائل حمير على (تكليع) سميفع أشوع، فتولى سميفع قيادة حمير وقام بمحاربة الأحباش وطردهم من منطقة الساحل، كما يسجل ذلك النقش المسند الحميري الذي كتبه سميفع أشوع في موقع ميناء قنا، ويهمنا من ذلك النقش هنا لقب سميفع أشوع حيث وصف نفسه في النقش بأنه «ذو الكلاع. ويزن، وجدن، ومثلن، وشرفن، ويثعن، ويسرم، ويرس، ومكربم، وعقهت، وبساين، ويلغب، وغيمان، ويصبر، وجبحم، وجدوين، والكسر (في وادي حضرموت) ورخية، وجردان، وقبائل: وحاظة، والهان، والسلف، وضيفتن، ورثحم، والركب (في ساحل تهامة) ومطلفتن، وسأكلن (ظُفار عمان)، وسكرد (جزيرة سقطري) وذلك في العام المؤرخ به النقش وهو مؤرخ بعام ٦٤٠ من التقويم الحميري ويوافق عام ٥٢٥ ميلادية[١]. ثم أصبح سميفع أشوع ملكاً للدولة الحميرية وحكم إلى عام ٥٣٣م وهو جد سيف بن ذي يزن.

ـ ثم كان ثالث من تلقب بلقب ذي الكلاع هو (ذو الكلاع الأصغر: سميفع بن يعفر بن ناكور بن زيد بن شرحبيل بن الأسود بن عمرو بن مالك بن يزيد ذي الكلاع الأكبر).

وكان سميفع ذو الكلاع بن يعفر بن ناكور ـ هذا ـ قيلاً لمنطقة مخلاف الكلاع وقلعة وحاظة، ثم أجمع أذواء وأقيال مناطق حمير على (تكليعه) بحيث أصبح القائد الحربي العام لكتائب وقبائل حمير ـ ربما بعد وفاة سيف بن ذي يزن ومقتل معدي كرب بن سيف بن ذي يزن وصيرورة صنعاء تحت حكم الفُرس حوالى عام ٥٩٤م ـ حيث استقل أذواء مناطق حمير بحكم مناطقهم وقاموا بتكليع سميفع ذي الكلاع قائداً حربياً عاماً، وهو ما يشير إليه الهمداني قائلاً أن سميفع هذا: «عليه تكلعت الكلاع من قبيلة الكلاع وغيرها من قبائل حمير مثل غرّبه، وعنّه، والأشروع، ونخلان، ويكالم، وشقحب، وزُنجع، وبهيل، والقُفاعة، وذي مناخ، وبعدان، وريمان، وعروان، ونعيمة، والخبائر، والسحول، ودمت، وحميم»[٢] فتلك القبائل والمناطق كان بعضها تحت حكم الحارث بن عبد كلال، وبعضها تحت حكم سلامه ذي فائش، وغيرهما من الملوك الأذواء، وكان ذو الكلاع قائداً لها جميعاً بصفته القائد الحربي العام لكتائب وقبائل حمير، ولذلك أيضاً كان ذو الكلاع هو الذي

---

(١) نقش سميفع أشوع ـ حصن الغراب ـ ميناء قنا ـ ٦١٠ سي. آي. اتش.

(٢) الإكليل ـ للحسن بن حمد الهمداني ـ جـ٢ ص٢٦٤ ـ ٢٦٥.

بقيادته انطلق أذواء وأقيال وفرسان وقبائل حمير جميعهم للجهاد حينما استنفر أبو بكر أهل اليمن لجهاد الروم ولفتح الشام كما سيأتي.

ـ وقد كان لسميفع ذي الكلاع صفتان، فهو القائد الحربي العام لقبائل ومناطق حمير، وهو في ذات الوقت رئيس وملك مخلاف ومنطقة الكلاع، وكان مقره قلعة وحاظة. قال الهمداني: «وهو الذي بَنَى مصنعة وحاظة»[1] وهي قلعة وحاظة حيث كان قصر سميفع ذي الكلاع، وتقع مصنعة وحاظة في أعلى جبل حُبيش في عزلة شُبع ـ في ناحية حبيشْ ـ شمالي غربي مدينة إب ـ وكانت مصنعة وحاظة قلعة كبيرة أشبه بالمدينة المحصنة، وكانت أطلال قصر ذي الكلاع ما تزال موجودة إلى أيام الهمداني في القرن الثالث الهجري حيث قال: «وفي مشرق موقع وحاظة في رأس جبل، قصر مُنهدم لا يزال يوجد فيه الجوهر والذهب، والناس يغزونه كما يغزون خرائب الجوف». وقد أصبحت وحاظة اليوم مزارع وخرائب، بينما كانت في زمن ذي الكلاع قلعة عظيمة ذات شأن، وكان قصر ذي الكلاع من القصور العظيمة، ويروى أن ذا الكلاع أشرف ذات مرة من قصره فسجد له مائة ألف، وكان له من العبيد ـ الرقيق ـ ثمانية آلاف، ويقال: اثنا عشر ألفاً، وكانوا من سبيّ الحروب في الجاهلية غالباً. وكان ذو الكلاع وقومه يدينون بالديانة المسيحية النصرانية التي كانت سائدة في مناطق حمير حتى شروق نور الإسلام.

* * *

إسلام وأنباء ذي الكلاع في عهد رسول الله ﷺ

في سنة ٨هـ بعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه إلى الحارث بن عبد كلال ذي رعين وإلى سميفع ذي الكلاع وأقيال وأذواء حمير يدعوهم إلى دين الإسلام الحنيف، وقد ذكر القرطبي في الاستيعاب أن جرير بن عبد الله «بعثه رسول الله ﷺ إلى ذي الكلاع وذي رُعين باليمن»[2] وجاء في الإصابة أنه «بعث رسول الله ﷺ جريراً إلى ذي الكلاع، وذي ظليم»[2] فكان ذو رعين، وذو الكلاع، وذو ظليم، أهم الأذواء الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ جريراً يدعوهم إلى الإسلام.

فأتى جرير إلى الحارث بن عبد كلال ذي رُعين، قال الأكوع في هامش الإكليل: «وكان مقر القيل ذي رُعَيْن في حصن خَبْ المشهور بمناعته وروعته»

---

(١) الإكليل ـ للحسن بن حمد الهمداني ـ جـ٢ ص٢٦٤ ـ ٢٦٥.
(٢) الاستيعاب ـ جـ١ ص٢٣٣ ـ الإصابة ـ جـ١ ص٣٨٢.

وكان مع الحارث أخوه عَريب، «فقراء عليهما جرير (سورة: لم يكن) فأسلما» كما سلف التبيين.

ثم توجه جرير إلى سميفع ذي الكلاع في قصره بقلعة وحاظة ـ في ناحية حبيش، شمال غرب مدينة إب ـ فلما أخبر جرير ذا الكلاع بدعوة رسول الله ﷺ وتعاليم الإسلام، أدرك ذو الكلاع بأنه دين الحق، فأسلم، ونطق بالشهادتين.

وكانت زوجة ذي الكلاع الأميرة ضُريبة بنت القيل أبرهة بن الصباح الحميري وهي أُم شرحبيل بن ذي الكلاع، فقال ذو الكلاع لجرير: «ادخل إلى أم شرحبيل، فوالله ما دخل عليها بعد أبي شرحبيل أحدُ قبلك»[1] فدخل إليها جرير وأخبرها عن رسول الله ﷺ ودين الإسلام، ونطقت بالشهادتين، وأسلمت كما أسلم ذي الكلاع، فأشرق نور الإسلام في قصر وحاظة، ثم في سائر مخلاف الكلاع.

وابتهاجاً بذلك أعتق ذو الكلاع أربعة آلاف من عبيده الذين كانوا من سبيّ الحروب، وفي ذلك قال العسقلاني: «بعث النبي ﷺ جرير بن عبد الله إلى ذي الكلاع، فأسلم، وأعتق لذلك أربعة آلاف»[1] فاقترن الإسلام بتحرير العبيد تقرباً إلى الله عزّ وجلّ لأن الإسلام دين الحرية.

ثم توجه جرير إلى حوشب ذي ظُليم، وكان قيلاً في (ظليم) وهي (ظلمة) ـ مركز ناحية حبيش حالياً ـ وكان قصر ومقر حوشب ذي ظليم قريباً من وحاظة ـ في قلعة خُدد ـ غالباً ـ وكان حوشب ذو ظليم قائداً لفرسان حمير مع ذي الكلاع، فأسلم حوشب ذو ظليم، ثم اكتمل إسلام كافة أذواء وأقيال حمير وأعلنوا الإسلام بشكل جماعي وقتلوا المشركين في أول جمعة من شهر رجب ٩هـ، وبعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصاري أميراً والياً لمناطق حمير ثم لسائر اليمن، وأشرق في ربوع اليمن جميعها نور الإسلام.

* * *

وفي السنة العاشرة للهجرة وَفَد ذي الكلاع إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، ولم تذكر الروايات نبأ وفادته ولكنها ذكرت الدلائل على وفادته إلى رسول الله ﷺ، ومنها ثلاثة أدلة رئيسية:

الدليل الأول: إن ذا الكلاع روى أحاديثاً سمعها من رسول الله ﷺ فقد جاء في الإصابة أنه:

---

(١) الإصابة ـ ترجمة ذي الكلاع ـ جـ١ ص٤٩٢ ـ وفي الإكليل أن اسم زوجة ذي الكلاع (كريبة بنت أبرهة بن الصباح) جـ٢ ص١٥١.

«روى ابن أبي عاصم وأبو نعيم من طريق حسان بن كريب عن ذي الكلاع الحميري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اتركوا التُرك ما تركوكم»[(١)] وقد ذكر العسقلاني أنّ ذا الكلاع الذي روى هذا الحديث من الصحابة، ثم افترض أنه قد يكون غير ذي الكلاع الذي أسلم باليمن، والواقع أن ذا الكلاع هو شخص واحد لا غير، وأن إسلامه باليمن، لا يتعارض مع وفادته إلى النبي ﷺ بعد ذلك ـ سنة ١٠هـ ـ كما تقدم في نبأ الحارث بن عبد كلال.

الدليل الثاني: جاء في الإصابة وفي تاريخ الطبري أنه «كان ذو الكلاع على كردوس في موقعة اليرموك»، وقد ذكر العسقلاني في مواضع عديدة أن قادة الكراديس الأمراء كانوا من الصحابة، ولم يكونوا يؤمِّرُون في خلافة عمر إلا الصحابة.

الدليل الثالث: جاء في الإصابة أنه «كان يدخل مكة رجالٌ مُتعممون من جمالهم مخافة أن يُفتتن بهم. منهم ذو الكلاع، والزبرقان بن بدر، وزيد الخيل الطائي»[(٢)].

ويدل ذلك على أن ذا الكلاع دخل مكة، ولم يذهب ذو الكلاع إلى مكة إلا حينما توجه إلى النبي ﷺ وفي طريق عودته، وربما اعتمر، ثم حج حجة الوداع في سنة ١٠هـ، وكان من أذواء حمير الذين وفدوا إلى رسول الله ﷺ الحارث بن عبد كلال، وأبرهة بن الصباح الحميري، وأبو شمر بن أبرهة بن الصباح، وكريب بن أبرهة بن الصباح ـ وهما إخوة ضريبة زوجة ذي الكلاع ـ وحوشب ذو ظليم، وغيرهم. وكان معاذ بن جبل الأنصاري، و جرير بن عبد الله البجلي ممن حجوا حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، ورجع ذو الكلاع وأذواء حمير إلى مناطقهم باليمن في نهاية السنة العاشرة للهجرة.

* * *

وفي شهر محرم سنة ١١هـ كتب وبعث رسول الله ﷺ إلى ذي الكلاع وذي ظُليم بالمسير لمصاولة الأسود العنسي في صنعاء، وذلك أنه تغلب على صنعاء وادعى النبؤة ـ في محرم ١١هـ ـ الأسود عبهلة بن كعب العنسي، وأتَى فروة بن مسيك المرادي عامل رسول الله ﷺ على مذحج بنبأ ذلك إلى رسول الله ﷺ،

---

(١) حسان بن كريب هو: حسان كريب بن المسرح ـ (الشرح) ـ بن عبد كلال بن عريب بن شرحبيل بن ذي رعين. يُكنى أبا كريب، أدرك النبي ﷺ، وهاجر في خلافة عمر، وشهد فتح مصر. وروى عن عمر وعلي وأبي ذر ومعاوية وذي الكلاع. وروى عنه أبو الخير اليزني. وراهب المعافري، وكعب بن علقمة، وعياش بن عباس وغيرهم ـ جـ١ ص٣٧٦ ـ الإصابة.

(٢) الإصابة ـ ترجمة ذي الكلاع ـ جـ١ ص٤٩٢ ـ وفي الإكليل أن اسم زوجة ذي الكلاع (كريبة بنت أبرهة بن الصباح) جـ٢ ص١٥١.

فبعث رسول الله ﷺ الرُسل والكتب بمصاولة الأسود العنسي، حيث «بعث رسول الله ﷺ وبر بن يحنس الخزاعي إلى قيس بن مكشوح المرادي والذين معه داخل صنعاء، وبعث جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع وذي ظليم، وبعث الأقرع بن عبد الله الحميري إلى ذي زود وإلى ذي مران الهمداني»(١).

وقال القرطبي في الاستيعاب «كان ذو الكلاع رئيساً في قومه مطاعاً متبوعاً، فكتب إليه النبي عليه الصلاة والسلام في التعاون على الأسود العنسي، وكان الرسول إليه جرير بن عبد الله البجلي»(٢) وقال القرطبي في ترجمة حوشب ذي ظليم «بعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي في التعاون على الأسود العنسي وإلى ذي الكلاع معه، وكانا رئيسي قومهما»(٢).

وقد بعث رسول الله ﷺ جريراً إلى ذي الكلاع وذي ظليم - دون سائر أذواء حمير - لأن ذا الكلاع هو القائد الحربي العام لقبائل حمير وذي ظليم هو نائبه ومساعده في قيادة حمير، وكذلك بعث رسول الله ﷺ الأقرع إلى ذي زود وإلى ذي مران - دون سائر زعماء همدان وأقيال حاشد وبكيل - لأنهما القائدان الحربيان لهمدان، وبعث إلى معاذ بن جبل لأنه أمير اليمن.

ولم تمض سوى عدة أسابيع حتى وصلت إلى مشارف صنعاء كتائب فرسان حمير بقيادة ذي الكلاع ومعه حوشب ذي ظليم، كما وصل فرسان ورجال همدان (حاشد وبكيل) بقيادة عمير ذي مران ومعه سعيد ذي زود، وكان قيس بن مكشوح المرادي والذين معه بصنعاء يخططون لقتل الأسود العنسي وهو في ارتياب من أمرهم، وهُم على خطر، قال ابن كثير: «فبينما هُمْ كذلك، إذْ جاءتهم كُتب ذي الكلاع وذي ظليم وذي مران، يبذلون لهم النصر. فكتبوا إليهم: أن لا تُحدثوا شيئاً حتى نبرم أمرنا»(٣) والمقصود أن لا يهاجموا صنعاء، فمكثوا مرابطين حول مشارف صنعاء وكذلك معاذ بن جبل وجرير بن عبد الله البجلي وعمال مناطق اليمن الذين وصلوا مع معاذ ورابطوا في مشارف صنعاء مع ذي الكلاع وفرسان كتائب حمير وذلك في شهر صفر سنة ١١هـ.

ثم قام قيس بن مكشوح المرادي والذي معه بصنعاء بالقضاء على الأسود

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي - ص٣٣٥ - تاريخ الطبري - جـ٢ ص٢١٣ - البداية والنهاية - لابن كثير - جـ٥ ص٣٠٨.
(٢) الاستيعاب - ترجمة ذي الكلاع - جـ١ ص٤٨٥ - الاستيعاب - ترجمة حوشب ذي ظليم - جـ١ ص٤٨٨.
(٣) البداية والنهاية - ابن كثير - جـ٥ ص٣٠٨.

العنسي، كما ذكرنا ذلك بالتفصيل في المبحث الخاص بقيس بن مكشوح المرادي بطل اليمن في فجر الإسلام. قال البلاذري: «وعلا قيس بن مكشوح سور المدينة، فقال: الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن عبهلة كذاب. وألقى قيس برأس الأسود العنسي على أصحابه فانهزموا، وخرج أصحاب قيس ففتحوا الأبواب، وظهر الإسلام وأهله»(١).

وإنما خرج أصحاب قيس ففتحوا الأبواب ليدخل معاذ بن جبل وذي الكلاع وجرير والزعماء والعمال والفرسان المحيطين بصنعاء، فدخلوا صنعاء، وبذلك انتهت فتنة الأسود العنسي وانتهى أمره في حياة رسول الله ﷺ وصلى معاذ بن جبل بالناس لأنه أمير اليمن، ورجع العمال والقادة والفرسان إلى أعمالهم ومناطقهم، فرجع حوشب ذو ظليم بفرسان وكتائب حمير إلى مناطق حمير، بينما توجه ذو الكلاع مع جرير بن عبد الله البجلي وذي عمرو قاصدين رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وأقام معاذ بصنعاء لأنه أمير رسول الله ﷺ على اليمن.

* * *

إن واقعة مسير ذي الكلاع مع جرير بن عبد الله ـ ومعهما شخص ثالث يقال له ذو عمرو ـ قد ذكرتها تراجم الصحابة بمناسبة حديث ذي عمرو عن وفاة رسول الله ﷺ وَهُمْ بالطريق، وذكر ذلك العسقلاني في ترجمة ذي عمرو عن صحيح البخاري، ولكن تلك الروايات ذكرت الواقعة بمعزل عن ما سبقها، باستثناء ما أشار إليه القرطبي قائلاً: «ذو عمرو: رجلُ أقبل من اليمن مع ذي الكلاع إلى رسول الله ﷺ مُسَلِمين، ومعهما جرير بن عبد الله البجلي. وقيل: كان الرسول إليهما من قبل النبي ﷺ في قتل الأسود العنسي المتنبي الكذاب. فقدموا وافدين على رسول الله ﷺ».

فقد أسلم ذو الكلاع منذ سنة ٨هـ، ووفد إلى النبي ﷺ سنة ١٠هـ ثم بعث إليه النبي ﷺ جريراً لمصاولة الأسود العنسي فسار ذو الكلاع وأقيال وفرسان حمير إلى صنعاء وشهدوا القضاء على الأسود العنسي في أوائل شهر ربيع الأول سنة ١١هـ ومعهم جرير بن عبد الله البجلي، وبالتالي فإن مسير ذي الكلاع وذي عمرو مع جرير كان من صنعاء بعد مقتل الأسود العنسي، فذلكَ هو السياق الصحيح للرواية.

وبينما هم في الطريق جعل جرير يُحدثُ ذا عمرو عن النبي ﷺ، وجاء في رواية البخاري أن جريراً جعل يحدثُ ذا الكلاع وذا عمرو عن النبي ﷺ، قال

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١١٤.

جرير: «فقال ذو عمرو: لئن كان الذي تذكر لقد مر على أجله منذ ثلاث. فرفع لنا في الطريق ركبٌ فقالوا: قُبِض رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر».

وجاء في الاستيعاب «فلما كانوا في بعض الطريق رأى ذو عمرو رؤيا أو رأى شيئاً، فقال: إن الذي نمضي إليه قد قضى وأتى على أجله. قال جرير: فرفع لنا ركبٌ، فسألتهم، فقالوا: قُبِض رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر. فقال لي ذو عمرو: يا جرير، إنكم قوم صالحون وإنكم على كرامة لن تزالوا بخير ما إذا هلك لكم أمير أمرتم آخر، فأما إذا كانت بالسيف كنتم ملوكاً ترضون كما يرضى الملوك وتغضبون كما يغضب الملوك.

ثم قالا لي جميعاً يعني ذا الكلاع وذا عمرو: اقرئ صاحبك السلام ولعلنا سنعود، ثم سلما عليّ، ورجعا»[1].

وجاء في الطبقات عن رواية البخاري «قال جرير فقالا: أخبر صاحبك أنّا قد جئنا، ولعلنا سنعود إن شاء الله. فرجعا إلى اليمن، فأخبرتُ أبا بكر بحديثهما، فقال: أفلا جئت بهما»[1].

***

وكانت عودة ذي الكلاع حين علم بوفاة رسول الله ﷺ وهو في الطريق بين اليمن والمدينة، لكي يخبر أذواء مناطق حمير بوفاة رسول الله ﷺ والقيام بما يستوجبه ذلك من ضبط الأمور وإظهار الحزن، فعاد ذو الكلاع مع الفرسان المرافقين له إلى مناطق حمير، وهي الجَنَدَ ومخاليفها لأن الجَنَد أصبحت العاصمة الإدارية لمناطق حمير جميعها منذ سنة ٩هـ.

وكان «أول من قدم بنعيّ النبي محمد ﷺ إلى منطقة حمير: أهود بن عياض الأزدي، فلما نَعَى إليهم النبي ﷺ سار إليه ابن ذي أصبح الحميري وقال له: جدّعك الله من وافد قوم، كَذَبْتَ، ما مات رسول الله. فقال أهود بن عياض: بَلَى، والذي بعثه بالحق، فما جزعكم، فوالله لأنا أجزع منكم». فقاموا بعزله وتوقيفه في مكان خارج المدينة حتى تتضح الحقيقة، فكان يقول: «اللهم إني إنما نعيتُ إليهم رسولك لئلا يفتنوا من بعده، وليَواسُوني في جزعي عليه. وقال ابن ذي أصبح الحميري:

جَزَعَ القَلْبَ أهودا إذْ نَعَى لي محمدا
ليتني لم أكن رأيتُ أخا الأزد أهودا»

(١) طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة الجعدي ـ ص٢٠ ـ والاستيعاب ـ ترجمة ذي عمرو ـ جـ١ ص٤٩٠.

فلما وصل ذو الكلاع تم إطلاق أهود بن عياض وسمحوا له بدخول المدينة، وعَمَّ الحزن سائر مناطق حمير وجميع ربوع اليمن، وكان لسان حال اليمانيين قول عبد الله بن سلمة الأرحبي:

لـعَمْـرَكَ إنْ مـات الـنـبـيُّ مـحـمـد   لَـمَـا مَـاتَ يـا بْـنَ الـقَـيْـلِ ربُّ مـحـمـدِ
دَعَـــاهُ إلَـــيْـــهِ ربُّـــه فـــأجَـــابَـــهُ   فـيـا خـيـرُ غـوريٍ، ويـا خـيـر مُـنـجـدِ

* * *

موقف ذي الكلاع في ثورة قيس بن مكشوح

بعد وفاة رسول الله ﷺ واستخلاف أبي بكر الصديق بنحو ثلاثة أشهر ـ في حوالي شهر جمادي سنة ١١هـ ـ تَلَقى سميفع ذو الكلاع رسالتين بددتا الهدوء الذي كان سائداً في أرجاء اليمن، الرسالة الأولى من الخليفة أبي بكر الصديق والرسالة الثانية من قيس بن مكشوح المرادي. ونشير أولاً إلى ما قبل الرسالتين.

ما قبل الرسالتين: كان معاذ بن جبل الخزرجي الأنصاري أمير رسول الله ﷺ على اليمن، منذ بعثه رسول الله ﷺ مع بقية العمال سنة ٩هـ وكتب إلى أذواء حمير بأنه بعث إليهم العمال «وأن أميرهم معاذ بن جبل» وكذلك بعث رسول الله ﷺ العمال إلى بقية مناطق اليمن وأمرهم بطاعة معاذ بن جبل، فكان معاذ هو الوالي لليمن بما في ذلك حضرموت. قال ابن سمرة: «كان معاذ عامل لأهل اليمن وحضرموت، أَمَّرَه النبي ﷺ، فكان معاذ يتنقل في عماله من عامل إلى عامل في اليمن وحضرموت»(١) وقد توفي رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل في صنعاء بصفته أميراً والياً لليمن. وكان من عمال مناطق اليمن أبو موسى الأشعري على زبيد والأشاعر ـ تهامة ـ وعمرو بن حزم الأنصاري على نجران، وفروة بن مسيك المرادي على مذحج ومعه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، والطاهر بن أبي هالة على مأرب ـ ويقال على علك ـ وعبد الله بن أبي ربيعة على الجَنَد، وزياد بن لبيد على حضرموت. قال ابن سمرة: «وأقرَّ أبو بكر الصديق.. بقاء معاذ وعمال النبي ﷺ»(١) وكان مع معاذ بصنعاء الصحابيان وبر بن يحنس الخزاعي وقيس بن مكشوح المرادي، كما كان بصنعاء رؤوساء الأبناء الفرس: فيروز الديلمي، وداذويه، وغيرهما.

ثم وقع أمر غير معروف أدى إلى أنه «كتب معاذ إلى أبي بكر يستأذنه بالقفول، وكذلك بعض العمال، فكتب إليهم أبو بكر: من شاء أن يرجع فليرجع وليستخلف على عمله، ومَنْ شاء أن يُقم فَلْيُقِم. فرجعوا»(١) والذين رجعوا هُمْ:

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة الجعدي ـ ص١٨ و٣٥.

عمرو بن حزم الأنصاري عامل نجران ـ وقد استعمل أبو بكر مكانه جرير بن عبد الله البجلي ـ وخالد بن سعيد بن العاص عامل صدقات مذحج، ووبر بن يخنس الخزاعي الذي كان بصنعاء، ومعاذ بن جبل الأنصاري أمير اليمن، وبذلك انتهت ولاية معاذ لليمن.

تولية فيروز ورسالة أبي بكر:

وقام أبو بكر الصديق بتولية فيروز الديلمي الفارسي على اليمن، وكان فيروز بصنعاء، وكتب أبو بكر الرسالة التالي نصها: «من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى سميفع ذي الكلاع، وحوشب ذي ظُليم، وإلى عُمير بن أفلح ذي مران، وسعيد بن العاقب ذي زود، وشهرْ ذي يناف.

أما بعد، فأعينوا الأبناء على من ناوأهم، وحوطوهم، واسمعوا من فيروز فإني قد وليته»(١).

رسالة قيس بن مكشوح . . والثورة

بينما في صنعاء عقد قيس بن مكشوح المرادي العزم على الثورة ونَفْيِ الأبناء الفُرس من اليمن، وكان قيس قد تظاهر بالابتهاج لتولية فيروز والتعاون مع الأبناء، واستمر مقيماً ـ كقائد ـ في صنعاء، وأخذ يخطط للثورة، فكتب في السر رسالته إلى ذي الكلاع والأذواء القادة، وقد جاء نصها في تاريخ الأمم والملوك كما يلي: «أرسل قيس بن مكشوح إلى ذي الكلاع وأصحابه: أنّ الأبناء نُزَّاعُ في بلادكم ونقلاء فيكم، وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم. وقد أرى من الرأي: أن أقتل رؤوسهم، وأن نخرجهم من بلادنا»(١).

ونشير بعد الرسالتين إلى التالي:

أن رسالة أبي بكر تؤكد المكانة والمرتبة القيادية التي ذكرناها بأن ذا الكلاع كان القائد الحربي العام لقبائل ومناطق حمير وكان نائبه في ذلك حوشب ذي ظليم، ولذلك فإن رسول الله ﷺ عندما كتب وبعث الرسل والكتب لمصاولة الأسود العنسي لم يكتب إلي العمال وإلى الأذواء الملوك وإنما كتب إلى ذي الكلاع وذي ظليم ـ في مناطق حمير (مخاليف الجند) ـ وإلى عمير ذي مران وسعيد ذي زود ـ القائدان الحربيان لمناطق همدان (مخاليف صنعاء) ـ وكذلك لم يكتب أبو بكر لعامل الجند ومخاليفها وهو عبد الله بن أبي ربيعة ولم يكتب إلى

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٧٨ ـ الوثائق السياسية ـ محمد حميد الله ـ ص٣٤٢ ـ اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٦٣.

الحارث بن عبد كلال وغيره من الملوك الأذواء وإنما كتب إلى سميفع ذي الكلاع وحوشب ذو ظليم ـ في مناطق حمير (مخاليف الجند) وإلى عمير ذي مران وسعيد بن العاقب ذي زود ـ قائدا همدان (حاشد وبكيل) وشهر ذي يناف البكيلي في مناطق همدان (مخاليف صنعاء) أما مذحج فكان قائدها الحربي قيس بن مكشوح المرادي، وقد كتب هو أيضاً إلى ذي الكلاع وأولئك القادة، ويُعزز ذلك كله ما ذكرناه أن ذا الكلاع كان القائد الحربي العام لكتائب وقبائل حمير.

ـ وقد تشاور ذو الكلاع مع الأذواء والقادة بشأن الرسالتين اللتين وضعتا الأذواء والقادة بين خيارين: الاستجابة لنداء الخليفة أو الاستجابة للنداء الوطني الذي تمثله رسالة قيس، فاتخذوا موقفاً أقرب إلى الصواب، وهو موقف الاعتزال، حيث جاء في تاريخ الطبري وابن الأثير وابن كثير ـ بعد نبأ رسالة قيس إلى ذي الكلاع وأصحابه ـ إنهم «لم يمالؤوا قيساً، ولم ينصروا الأبناء، وقالوا: لسنا مما هنا في شيء، أنت صاحبهم وهُمْ أصحابك. واستجاب لقيس عامة قبائل من كتب أبو بكر إلى رؤوسائهم، وبقي الرؤساء معتزلين». وكذلك قال ابن خلدون أن ذا الكلاع وأصحابه «اعتزلوا الفريقين، واتبعت عوامهم قيس بن مكشوح في شأنه» وإنه «ثار قيس بصنعاء.. وعمد إلى الأبناء، فغربهم، وأخرجهم من اليمن في البر والبحر»[١] وكانت ثورة قيس ـ في حوالي شهر رجب ١١هـ ـ وتم إجلاء معظم الأبناء الفرس من اليمن، ثم بعث أبو بكر الصديق أبان بن سعيد بن العاص والياً لليمن، فاستقبله قيس واليمانيون بالترحيب، واستتب الأمر في أرجاء اليمن[٢].

* * *

مسير ذي الكلاع بكتائب وقبائل حمير إلى أبي بكر الصديق للجهاد وتحرير الشام

وكان للصحابي الزعيم سميفع ذي الكلاع دوراً كبيراً في الحدث التاريخي الهام الذي شهدته أرض اليمن في أواخر سنة ١٢هـ حيث وصل الصحابي الجليل أنس بن مالك الأنصاري بكتاب الخليفة أبي بكر الصديق يستنفر أهل اليمن لجهاد الروم وفتح الشام، وكان أنس بن مالك كلما وصل إلى منطقة من مناطق اليمن يقرأ على الناس كتاب أبي بكر ويحثهم على الجهاد، وقد بدأ بمنطقة سَرَاة أعالي اليمن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٧٨ ـ الوثائق السياسية ـ محمد حميد الله ـ ص٣٤٢ ـ اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٦٣.

(٢) تقدم النباء اليقين عن ذلك في المبحث الخاص بقيس بن مكشوح المرادي بطل اليمن في فجر الإسلام.

حيث قبائل دوس وبجيله وخثعم وقضاعة ثم أقبل ـ عن طريق تهامة ـ إلى منطقة حمير (الجَنَد ومخاليفها) وقرأ على أذواء وأقيال ورجالات حمير كتاب أبي بكر الصديق، وكان نَصُ الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، سلام عليكم. أما بعد، فإني أحمد الله الذي لا آله إلا هو، وأُصلي على نبيه محمد رسول الله ﷺ. وقد عزمت أن أوجهكم إلى بلاد الشام لتأخذوها من أيدي الكفار والطغاة، فَمَنْ عَوَل منكم على الجهاد والصدام، فَلْيُبَادر إلى طاعة الملك العلام ـ (القائل) ـ انفروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ـ صدق الله العظيم»[١].

ولم يتوجه أنس بن مالك من منطقة حمير إلى صنعاء وغيرها من مناطق اليمن إلا وقد شاهد قبائل حمير يتهيأون للمسير، وقام ذو الكلاع ـ بصفته القائد الحربي لقبائل حمير ـ بمتابعة استنفار وتجهيز قبائل حمير، حيث اتخذ التجهيز طابعاً متميزاً تعود جذوره إلى زمن غزوات وفتوحات ملوك اليمن الحميريين التبابعة القدماء العظماء أمثال الحارث الرائش والصعب ذي القرنين وشمر يرعش وأبو كرب أسعد تُبّع الأول، فقد أخذ أذواء وأقيال حمير يتوافدون من شتى أرجاء مناطق وقبائل حمير ـ إلى منطقة التجمع ـ وعليهم التيجان والحُلل والبرود والدروع ومعهم فرسان ورجال قبائلهم بالسلاح والعتاد الكامل ومعهم النساء والأطفال والعبيد وقوافل المؤن الغذائية، ثم انطلقوا بقيادة سميفع ذي الكلاع ـ عَبْرَ لواء إب وتعز وتهامه ـ إلى المدينة المنورة.

وكان أنس بن مالك الأنصاري قد توجه من منطقة حمير إلى صنعاء ومناطق همدان ومذحج وكنده ونجران، ثم عاد إلى أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة «يبشره بقدوم أهل اليمن، وقال: يا خليفة رسول الله، والله ما قرأت كتابك على أحد إلا وبادر إلى طاعة الله ورسوله، وأجاب دعوتك، وقد أقبلتُ إليك مبشراً بقدوم أبطال اليمن وشجعانها، وقد تجهزوا في العدد العديد والزرد النضيد وساروا إليك بالذراري والأموال والنساء والأطفال، وكأنك بهم وقد أشرفوا عليك ووصلوا إليك، فتأهبْ إلى لقائهم. فسرّ أبو بكر بقوله سروراً عظيماً، وأقام يومه ذلك، حتى إذا كان من الغد لاحت غبرة القوم لأهل المدينة فأقبلوا إلى أبي بكر فأخبروه، فركب مع أهل المدينة وأظهروا زينتهم ونشروا الإعلام الإسلامية، فما كان إلا القليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضاً، فكان أول قبيلة وصلت من اليمن قبيلة حمير وهم بالدروع، والبِيض (الخوذات)، والسيوف، وأمامهم ذو

---

(١) فتوح الشام ـ للإمام محمد الواقدي ـ ص٣.

الكلاع الحميري رضي الله عنه، فلما قرب من أبي بكر الصديق رضي الله عنه أشار بالسلام وأنشد يقول:

أَتَتَكْ حِمْيَرُ بالأهلِينِ والولدِ — أهلُ السَوَابِقِ والعَالُون بالرُتَبِ
أَسْدُ غطارفةٌ، شُوسٌ عمالقةٌ، — يُردوا الكُماة غداة الحرب بالقُضبِ
الحربُ عادتُنا، والضَربُ هِمْتُنَا — وذو الكلاع دَعَا في الأهل والنَسَبِ
دمشقُ لي دون كل الناس أجْمَعهم، — وساكنيها سأهويهم إلى العَطَبِ

فتبسم أبو بكر الصديق من قوله: ثم قال لعلي بن أبي طالب: يا أبا الحسن، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا أقْبَلَتْ حِمْيَر ومعها نساؤها تحمل أولادها فابْشِروا بنصر الله على أهل الشرك أجمعين. فقال عليّ: «صَدَقْتَ، وأنا سمعته من رسول الله ﷺ»[(١)].

قال العسقلاني: «وقد روى أبو حذيفة في الفتوح من طريق أنس بن مالك أن أبا بكر بعثه إلى أهل اليمن يستنفرهم إلى الجهاد، فرحل ذو الكلاع ومَنْ أطاعه من حِمْير»[(٢)] وروى الواقدي من طريق أنس بن مالك (أقبلت حمير بكتائبها ومواكبها ـ مع ذي الكلاع الحميري» وكان معه العديد من أذواء وأقيال حمير الذين يذكرهم المسعودي بلقب (ملوك اليمن) قائلاً: «قدم إلى أبي بكر ملوك اليمن، وعليهم الحُلل والحُبر، وبرود الوشي المُثقل بالذهب، والتيجان.. وكان منهم ذو الكلاع.. وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحُلل»[(٢)].

وتتيح التراجم وأنباء فتوح الشام ومصر معرفة أن من الأذواء والبيوت الرئاسية الحميرية الذين كانوا مع ذي الكلاع الحميري لما قدم بكتائب ومواكب حمير إلى المدينة المنورة الذين نشير إليهم فيما يلي:

من آل الصباح: القيل الصحابي أبرهة بن الصباح الحميري، وفيه قال أبو موسى الأشعري «لو كانت الخلافة تستحق بالشرف لكان أحقّ الناس بها أبرهة بن الصباح فإنه من أبناء ملوك اليمن التبابعة الذين ملكوا مشارق الأرض ومغاربها»[(٣)] وكان معه: كريب بن أبرهة بن الصباح، له صحبة، وأبو شمر بن أبرهة بن الصباح، له صحبة أيضاً، وسبعة من أبناء أبرهة بن الصباح: شرحبيل، ويعفر، وبحير، ومحمد، وحجاج، والصباح، ومعدي كرب. وكانت زوجة ذي الكلاع: كريبه

---

(١) فتوح الشام ـ للإمام محمد الواقدي ـ ص٣.
(٢) الإصابة ـ ترجمة ذي الكلاع ـ جـ١ ص٤٩٣ ـ مروج الذهب ـ للمسعودي ـ جـ٢ ص٣٠٥.
(٣) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٥٣ ـ الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ٢ ص١٤٨.

بنت أبرهة بن الصباح، قال الهمداني: «فأولدها ـ ذو الكلاع ـ ابنه شرحبيل، وهاجر بها إلى الشام، فبها نسلهما إلى اليوم»[(١)] وكان آل الصباح زعماء وأقيال موكل ومخلاف صباح ـ بناحية رداع حالياً ـ.

ـ **من آل ذي رعين**: الصحابي الحرث بن تبيع الرعيني[(٢)] وحسان بن كريب بن مشرح بن عبد كلال بن ذي رعين[(٢)] وأبو دخر بن عامر الرعيني، وكان آل ذي رعين يتزعمون أيضاً قبيلة المعافر، ومن أبرز رجال المعافر عُبيد بن مخمر المعافري.

ـ **من قبيلة يافع الرعينية**: الصحابي سرح بن شهاب اليافعي الرعيني، وحسان بن زياد اليافعي[(٣)]. والصحابي عمرو بن مسعود اليافعي، ودِرْع بن يشكر اليافعي[(٣)].

ـ **من ذي ظليم والكلاع**: الصحابي القائد حوشب ذو ظليم. وحبيب الكلاعي أبو ضمرة: له صحبة، والزبير بن عبد الله الكلاعي، له صحبة[(٢)] والمقصود هنا مخلاف الكلاع ـ من ناحية حبيش إلى ذي سفال حالياً ـ وليس أسرة سميفع ذي الكلاع.

ـ **من آل ذي يزن**: عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن، وعفيف بن سعد بن ذي يزن، وقد تقدم ذكرهما في المبحث الخاص بزرعة بن سيف بن ذي يزن.

فأولئك هم أبرز أذواء وأقيال حمير الذين كانوا في كتائب ومواكب حمير مع سميفع ذي الكلاع، فنزلوا بالمدينة ونزل الفرسان والأولاد بقوافلهم في موضع معسكر الجراف بضواحي المدينة، قال الواقدي: «ثم أقبلت كتائب مذحج أهل الخيل العتاق والرماح الدقاق، يتقدمهم قيس بن مكشوح المرادي رضي الله عنه فلما وصل إلى الصديق رضي الله عنه قال:

أتتك كتائبُ مِنّا سراعاً ... ذوي التيجان أعني من مُراد

فقدمنا أمامك كيّ ترانا ... نبيد الروم بالأسل النجاد

فجزاه أبو بكر الصديق خيراً، وتقدم بكتائبه ـ ونزل بالمدينة وما حولها ـ وأقبلت من بعده قبيلة طيئ يتقدمها حارث بن مسعدة الطائي.. ثم أقبلت الأزد ـ أزد السراة ـ يقَدّمُها جندب بن عمرو بن حممة الدوسي رضي الله عنه.. وتتابعت

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٥٣ ـ الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ٢ ص١٤٨.

(٢) الاستيعاب ـ ترجمة الحرث بن تبيع الرعيني ـ جـ١ ص٢٨٨ ـ الإصابة ـ ترجمة حسان بن كريب ـ جـ١ ص٣٧٦ ـ حسيب الكلاعي ـ جـ١ ص٣١٠ ـ الزبير ـ جـ١ ص٥٤٤.

(٣) الإكليل ـ جـ٢ ص٣٣٩ ـ الجامع لبامطرف ـ ص٦٤٢.

قبائل اليمن يتلو بعضها بعضاً» وقال ابن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «قدم على أبي بكر الصديق أوائل مستنفري اليمن وفيهم ذو الكلاع الحميري، وجرير بن عبد الله البجلي، وقيس بن مكشوح، وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام، وعناه أمره».

وقال ابن خلدون: «.. وافق وصول المُسْتَنْفَرين وفيهم ذو الكلاع ومعه حمير.. وحينئذٍ اهتم أبو بكر بالشام»[١].

* * *

وكان من أنباء فترة إقامتهم بالمدينة المنورة ما ذكره المسعودي في مروج الذهب، إنه: «قدم إلى أبي بكر ملوك اليمن، وعليهم الحُلل، والحُبر، وبرود الوشي المُثَقّل بالذهب، والتيجان[٢]، فلما شاهدوا ما على ـ أبي بكر وأصحابه ـ من اللباس.. ذهبوا مذهبهم، ونزعوا ما كان عليهم.

وكان ممن قدم عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع، ومعه ألف عبد دون من كان مع عشيرته، وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحُلل، فلما شاهد ما كان عليه أبو بكر تزيّا بزيّه».

ـ ففزعت عشيرته لذلك وكلموه ـ «فقال لهم: أفاردتُم أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية والإسلام؟ لاها الله، لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد في هذه الدنيا»[٣].

* * *

وربما كان مع ذي الكلاع ألف عبد، ومع عشيرته ثلاثة آلاف عبد، ومع بقية أذواء حمير الملوك ثمانية آلاف من العبيد، فقام ذو الكلاع بتحريرهم جميعاً، حيث أنه جاء في ترجمته بالإصابة إنه لما أسلم باليمن أعتق أربعة آلاف عبد: «ثم قدم ذو الكلاع المدينة ومعه أربعة آلاف أيضاً، فسأله عمر في بيعهم، فأصبح وقد أعتقهم، فسأله عمر عن ذلك، فقال: إني أذنبت ذنباً عظيماً فعسى أن يكون ذلك كفارةً؛ تواريتُ مرة ثم أشرفتُ فسجد لي مائة ألف.

وروى يعقوب ابن شيبة بإسناد له عن الجراح بن منهال، قال: كان عند ذي

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٨٥.

(٢) الحُبر والبرود من ثياب ملوك وأذواء اليمن، وكانت البرود موشاة ـ أي مطرزة ـ بالذهب، والحُبرات: مثل العباءة، قال الأعشى:

إذا الحبرات تلوت بهم ... وجروا أسافل هُدابها

(٣) مروج الذهب ـ جـ٢ ص٣٠٥.

الكلاع اثنا عشر ألف، فبعث إليه عمر فقال: بعنا هؤلاء نستعين بهم على عدو المسلمين، فقال ذو الكلاع: لا، هُمْ أحرار، فأعتقهم كلهم في ساعة واحدة»[1].

والظاهر أن ذا الكلاع لما سأله عمر في بيعهم، لم يعتقهم في ذات الوقت وإنما تشاور مع بقية الأذواء، وإنه قرر أن يعتق عبيده ـ الألف ـ وقررت عشيرته إعتاق الثلاثة آلاف ـ وبذلك كان عددهم أربعة آلاف ـ فقرر بقية الأذواء اعتاق عبيدهم الثمانية آلاف، وبذلك بلغوا اثني عشر ألفاً، فأعتقهم ذو الكلاع صباح اليوم التالي في ساعة واحدة وقال: هُمْ أحرار، وقد كانوا أحراراً في الأصل، ولدتهم أمهاتهم أحراراً، فاعتقهم ذو الكلاع تجسيداً لقيمة الحرية في الإسلام.

* * *

وكانت كتائب ومواكب قبائل حمير، ومذحج، وطيىء، ودوس، وازد السراة، وبجيله، وغيرهم، لما وصلوا إلى المدينة، أنزلهم أبو بكر حول المدينة كل قبيلة متفرقة عن صاحبتها وفي معسكر الجرف بضواحي المدينة، وكانوا متشوقين للجهاد، وربما كانوا يظنون أن أبا بكر سيقودهم في الجهاد لفتح الشام كما كان التبابعة يقودون الغزوات وكما كان رسول الله ﷺ يفعل في الغزوات، لذلك قال قيس بن مكشوح لما وصل بكتائب مراد مخاطباً أبا بكر الصديق:

فَقَدِمْنَا أمَامَك كي ترانا نُبيدُ الرومَ بالأسل النجاد

وطال بهم المقام حول المدينة، قال الواقدي: «فأضرّ بهم المقام من قلة الزاد وعلف الخيل وجدوبة الأرض، فاجتمع أكابرهم عند أبي بكر الصديق وقالوا: يا خليفة رسول الله أنك أمرتنا بأمر فأسرعنا لله ولك رغبة في الجهاد، والمقام قد أضرّ بنا لأن بلدك ليست بلد جيش ولا حافر ولا عيش.. فإن كنت قد بدلت فيما عزمت عليه فَمُرّنا بالرجوع إلى بلدنا، فقال أبو بكر: يا أهل اليمن ومَنْ حضر مِنْ غيرهم. أما والله ما أريد لكم الإضرار وإنما أردنا تكاملكم. فقالوا: لم يبق من ورائنا أحد، ـ أو قالوا: قد تكامل جيشنا، وفرغنا من أهبتنا ـ فاعزم على بركة الله».

* * *

ذو الكلاع في فتوح تحرير الشام

وفي مطلع سنة ١٣هـ تم عقد الألوية وتوجيه جيشين إلى الشام، الجيش الأول بقيادة خالد بن سعيد بن العاص ـ الذي كان من عمال رسول الله ﷺ باليمن ـ والجيش الثاني بقيادة شرحبيل بن حسنة الكندي، فانطلق الجيش الأول بقيادة

---

(١) الإصابة ـ جـ١ ص٤٩٢.

خالد بن سعيد ومعه ذو الكلاع الحميري باتجاه البلقاء، وانطلق جيش شرحبيل الكندي إلى الأردن.

قال الطبري: «سار خالد بن سعيد ومعه ذو الكلاع صوب الشام» وقال: «اقتحم خالد بن سعيد في الجيش ومعه ذو الكلاع وعكرمة حتى نزلوا مرج الصُفّر ما بين الواقوصة ودمشق، فانطوت مسالح الروم عليه وأخذوا عليه الطريق وهو لا يشعر»(١) والمقصود أن خالد بن سعيد توغل بالجيش في منطقة البلقاء، فتجمع عليهم جيش روماني كبير، فوقعت مواجهة حربية بالبلقاء، وأثناء المعركة وصل شرحبيل الكندي بالجيش الثاني الذي كانت غالبيته أيضاً من كتائب حمير، فتم دحر الروم، ورجع خالد بن سعيد بالجيش الأول إلى منطقة ذي المروة، وتم إبلاغ أبي بكر بالموقف وانتظار توجيه بقية المستنفرين.

وفي صفر ١٣هـ عقد أبو بكر إمرة الجيش الأول ليزيد بن أبي سفيان بدلاً عن خالد بن سعيد، فتسلم يزيد اللواء من خالد في ذي المروة، وسار خالد محتسباً في جيش شرحبيل، وعقد أبو بكر لواء الجيش الثالث لأبي عبيدة بن الجراح والجيش الرابع لعمرو بن العاص، فتقدمت الجيوش الأربعة داخل الشام، وكان ذو الكلاع من قادة الجيش الأول الذي كان أميره يزيد بن أبي سفيان، وكانت الجيوش تتساند ويُعينُ بعضها بعضاً.

وشهد ذو الكلاع أول معركة كبيرة ضد الجيش الروماني بفلسطين وكان ذو الكلاع في الجيش الذي بقيادة عمرو بن العاص في تلك المعركة وكان قائد الروم البطريق روبيس، فأثناء المعركة (قال عمرو بن العاص: من يحمل معي هذه الحملة، فأسرع بالإجابة ذو الكلاع الحميري، وعكرمة بن أبي جهل، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وعبد الله بن عمر»(٢) وتتوجت المعركة بالنصر في تلك المنطقة من فلسطين، واستشهد فيها مائة وثلاثون من المسلمين بينهم سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص، وكان أبوه بالشام مع أبي عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة فلما علم باستشهاد ابنه «أسرع إلى فرسه فركبها وعزم إلى أرض فلسطين لينظر إلى قبر ولده» فلما وصل إلى حيث جيش عمرو بن العاص عَزّاهُ المسلمون وأثنوا على جهاد ابنه الشهيد، ثم عقد العزم خالد بن سعيد أن يسير في طلب الروم وحده عسى أن يجد فيهم فرصه ويأخذ بثار ولده، فأقسم ذو الكلاع أن يسير معه

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٣٠.

(٢) فتوح الشام ـ الواقدي ـ جـ١ ص١٢ و٣٢.

فسار مع خالد بن سعيد «وركب معه ثلثمائة فارس من فتيان حمير» فساروا حتى لقوا قوة من الروم زهاء ستمائة راكب يتوجهون بالميرة إلى جيش الروم في أجنادين، فهجم عليهم خالد بن سعيد وذو الكلاع «وقال ذو الكلاع يشجع أصحابه: يا فتيان حمير، أبواب الجنة قد فُتحت، والحور العين قد تزخرفت» وأسفرت المعركة عن مقتل ثلثمائة وعشرين من الروم وهرب الباقون وتركوا الأثقال والبغال والميرة فأخذها المسلمون وعادوا بالظفر والغنائم(١).

* * *

وفي جمادى الأول ١٣هـ اجتمعت كافة الجيوش العربيه الإسلامية التي بالشام لمواجهة الجيش الروماني الذي احتشد في أجنادين بفلسطين، وكان خالد بن الوليد قد تولى القيادة العامة للجيش بالشام، وتم تنظيم الجيش في أجنادين فكان «في القلب معاذ بن جبل، وفي الجناح الأيسر شرحبيل بن حسنة الكندي، وفي الميمنة والساقة عبد الرحمن بن أبي بكر ويزيد بن أبي سفيان، ووقف خالد بن الوليد في القلب مع عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر، وقيس بن مكشوح المرادي، وذو الكلاع الحميري، ورافع بن عميرة الطائي، وربيعة بن عامر، ونظائرهم»(١) فكان ذو الكلاع من قادة وأبطال موقعة أجنادين. بل أن نساء حمير كان لهن دور مذكور بقيادة خولة بنت الأزور، وعفرة بنت غفار الحميرية، ويروى أنهن كنّ يَقُلْنَ:

نحنُ بناتُ تُبع وحِمْيَر ... وضَربُنا في القوم ليس يُنكَرْ

لأننا في الحرب نارُ تُسْعَرْ ... اليوم تَلْقون العذاب الأكبرْ

وقتلت خولة خمسة، وعفراء بنت عفار الحميرية أربعة من الروم، قال البلاذري: وكانت أجنادين في ١٢ جمادى الأول سنة ١٣هـ وقال الواقدي: «كانت موقعة أجنادين ليلة ست خلت من جمادى الأول سنة ١٣هـ. فما تمت أيام قلائل حتى جاء جمع من اليمن وعليهم عمرو بن معدي كرب الزُبيدي رضي الله عنه ومالك بن الأشتر النخعي. واجتمع بالمدينة نحو من تسعة آلاف» فوجههم أبو بكر إلى الشام.

* * *

وفي أعقاب موقعة أجنادين دارت موقعة اليرموك التي تؤكد طائفة من المصادر التاريخية أنها في أواخر جمادى الثاني ١٣هـ بينما يذكر البلاذري والواقدي أنها في رجب ١٥هـ، ولكن البحث في سير الوقائع وتسلسل الأحداث

(١) فتوح الشام ـ الواقدي ـ جـ١ ص١٢ و٣٢.

يتيح إدراك وقوع موقعتين في مناطق نهر اليرموك إحداها بعد موقعة أجنادين وقبل فتح دمشق ـ وهي موقعة اليرموك في جمادى الثاني ١٣هـ ـ والثانية موقعة نهر اليرموك في رجب ١٥هـ.

وقد تم تقسيم الجيش العربي الإسلامي في موقعة اليرموك إلى ٣٦ كردوساً يضم كل كردوس ألف مُقاتل، ويقود كل كردوس أمير قائد من الصحابة، فكان منهم ذو الكلاع الحميري، وفي ذلك قال العسقلاني في الإصابة: «كان ذو الكلاع في يوم اليرموك على كردوس».

وذكر الطبري أنه تم تقسيم الكراديس إلى ميمنة وقلب وميسرة، فكان من قادة الكراديس اليمانيين:

«في الميمنة: شرحبيل بن حسنة على كردوس، والسمط بن الأسود الكندي على كردوس، وذو الكلاع على كردوس، ومعاوية بن حُديج السكوني على كردوس، وجُندب بن عمرو بن حُممة على كردوس، وعمرو بن (معدي كرب) على كردوس، وفي الميسرة: حوشب ذو ظليم على كردوس، ومسروق العكي على كردوس، وفي القلب أو الميسرة: دحية بن خليفة الكلبي على كردوس، وعياض بن غَنْم على كردوس، وامرؤ القيس بن عابس على كردوس، ويزيد بن يحنس على كردوس»(١) وكان قيس بن مكشوح المرادي على رأس فرقة من الخيل وراء الميسرة، وخالد بن الوليد على رأس فرقة من الخيل وراء الميمنة، وكان خالد هو القائد العام.

وأثناء موقعة اليرموك توفي الخليفة أبو بكر الصديق ـ في ٢٢ جمادى الثاني ١٣هـ ـ وتولى الخلافة عمر بن الخطاب، وتتوجت موقعة اليرموك بالنصر في أواخر جمادى الثاني ١٣هـ، «وكان الذي جاء بالخبر عن نصر اليرموك إلى عمر بن الخطاب جرير بن عبد الله البجلي، وكانت اليرموك في أيام بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية»(١) وتم إبقاء قوة في اليرموك بقيادة بشير بن كعب الحميري، وتلى ذلك فَتْح (فحل) وغيرها، وفَتْح (مرج الصُّفر) في مطلع محرم ١٤هـ والتوجه منها إلى دمشق.

* * *

ذو الكلاع في فتح دمشق وما بعدها من فتوح الشام

في ١٤ محرم سنة ١٤ هـ انطلق الجيش العربي الإسلامي إلى مدينة دمشق

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٣٤ و٦٧.

التي قال ذو الكلاع عند وصوله بكتائب وقبائل حمير من اليمن إلى أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة:

دمشق لي دون كل الناس أجمعهم وساكنيها سأهويهم إلى العطب

يعني ساكنيها من المحتلين الروم، وليس من أهلها العرب الغساسنة وغيرهم من العرب الأوائل، وكانت لغسان الغوطة في دمشق وهي (جِلّق) مقر بني جفنة الغساسنة اليمانيين الذين فيهم قال حسان بن ثابت الأنصاري:

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

فلما وصل الجيش العربي الإسلامي إلى الغوطة انضوت تحت يدهم، وتحصن الروم والذين معهم داخل مدينة دمشق وكان عليها البطريق الأمير الروماني نسطاس بن نسطوس، فحاصر المسلمون دمشق زهاء ستة أشهر، وكان لذي الكلاع دوراً بالغ الأهمية في تحقيق الفتح، إذْ إنه كان الروم في دمشق ينتظرون وصول الإمدادات من القيصر هرقل في حمص، قال الطبري: «بعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص.. فحاصر المسلمون أهل دمشق حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق، وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث من هرقل وقد استمدوه، وذو الكلاع بين المسلمين وبين حمص على رأس ليلة من دمشق، وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق، فأشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع وشغلتها عن الناس فأرزوا ونزلوا بإزائه، فلما أيقن أهل دمشق أن الإمداد لا تصل إليهم فشلوا ووهنوا»[١] وقال ابن خلدون «حاصر ـ أي المسلمون ـ دمشق. وبينهم وبين هرقل مدينة حمص، ومِنْ دونها ذو الكلاع في جيش من المسلمين، وبعث هرقل المدد إلى دمشق، وكانفهم ذو الكلاع»[٢] فلما أشج وهزم ذو الكلاع إمدادات هرقل فَشل ووهن الذين بدمشق وانقطع رجاؤهم، ومالوا إلى الاستسلام، وبذلك كان ذو الكلاع ثامن ثمانية من الصحابة القادة الذين قادوا عمليات فتح دمشق، وهُم: أبو عبيدة بن الجراح وكان على رأس قوة في مواجهة باب الجابية، وخالد بن الوليد عند الباب الشرقي، وشرحبيل بن حسنة الكندي في مواجهة باب توما ـ شمال دمشق ـ ويزيد بن أبي سفيان في مواجهة باب كيسان، وقيس بن مكشوح المرادي في مواجهة باب الفرج ـ جنوب شرق دمشق ـ وعمرو بن العاص في مواجهة باب الفراديس ـ ورافع بن عميرة الطائي عند الباب الشرقي على عسكر

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٥٧.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٨٦.

الزحف، وأبو الدرداء عمرو بن عامر الأنصاري على مسلحة برزة، وذو الكلاع الذي كان له ولجيشه ذلك الدور الهام في تحقيق الفتح باستسلام الذين في دمشق وطلبهم الصلح من أبي عبيدة، قال الواقدي: «وقالوا لأبي عبيدة: قُم معنا إلى المدينة ـ أي لاستلامها ـ فقام أبو عبيدة، وركب معه أبو هريرة، ومعاذ بن جبل، ونعيم بن عمرو، وعبد الله بن عمرو الدوسي، وذو الكلاع الحميري، وحسان بن النعمان، وجرير بن نوفل الحميري، وجملتهم خمسة وثلاثون صحابياً من أعيان الصحابة رضي الله عنهم»[١] وكان فتح دمشق في رجب سنة ١٤ هجرية.

* * *

ولما تم فتح دمشق جلا عنها أغلب الذين كانوا بها من الروم ورعاياهم ـ غير العرب ـ وبقي بها العرب المسيحيون من غسان وغيرهم، وقد أسلم كثير منهم، واستقر بدمشق عدد كبير من أذواء وقبائل حمير، ومنهم ذو الكلاع وآل الصباح وذي رعين واليزنيون وغيرهم، وكذلك من سائر القبائل اليمانية الأخرى، إلا أنه كانت حمير تمثل الغالبية ثم انتشروا في حمص وغيرها من أرجاء الشام التي استمر الإسهام الوافر لذي الكلاع وكتائب حمير في الجهاد لتخريرها.

* * *

وكان ذو الكلاع من القادة الأبطال في موقعة نهر اليرموك التي انطلق المسلمون من دمشق لخوضها في شهر ربيع ١٥هـ، قال البلاذري: «كان فتح مدينة دمشق في رجب سنة ١٤هـ وتاريخ كتاب خالد بصلحها في شهر ربيع الآخر سنة ١٥هـ، وذلك لما اجتمع المسلمون للنهوض إلى من تجمع لهم باليرموك، أتى الأسقف خالداً فسأله أن يجدد له الكتاب ويُشْهِدُ عليه أبا عبيدة والمسلمين، ففعل، وأثبت في الكتاب شهادة أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وغيرهم فأرخه بالوقت الذي جدده»[٢] ويتبين من ذلك أن زمن المسير من دمشق إلى اليرموك كان في ربيع الثاني سنة ١٥هـ، وكان هرقل قد استنفر وحشد حشوداً كثيفة من الروم وأرمينية والجزيرة الفراتية وغيرها، وقام بتوجيه أكثر من مائة وخمسين ألفاً إلى منطقة من مناطق (نهر اليرموك) بقيادة ماهان ملك أرمينية، فتجمعوا إلى منطقة نهر اليرموك، بينما تجمع المسلمون إلى دمشق ورجع إليها الذين كانوا قد شهدوا القادسية، فانطلقوا من دمشق في ربيع الثاني ١٥هـ بقيادة

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ١ ص٤٥.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٠.

الأمير أبي عبيدة بن الجراح ونزلوا بإزاء الروم في الواقوصة والوادي خندق بينهم. قال ابن خلدون «فأقاموا بإزائه ثلاثة أشهر» وأثناء تلك الفترة بعث أبو عبيدة جماعة من الصحابة إلى ماهان يعرضون عليه الإسلام أو الصلح على أداء الجزية وعسى أن يتوصلوا إلى حقن الدماء، حيث ذكر الواقدي أن أبا عبيدة بعث خالد بن الوليد ومعه جماعة من الصحابة بينهم (معاذ بن جبل، والمقداد بن عمرو، وشرحبيل بن حسنة، والمرقال بن عتبة، وعبادة بن الصامت، وقيس بن مكشوح، وجابر بن عبد الله، وذو الكلاع الحميري، وعمرو بن معدي كرب، وغيرهم)، ولم يسفر ذلك اللقاء عن أي اتفاق، وإنما أشرنا إليه هنا لأن ذا الكلاع كان من بينهم.

وفي رجب سنة ١٥هـ اندلعت وقعة نهر اليرموك وكان من أنباء ذي الكلاع ما ذكره الواقدي من أنه: «برز علج قائد من أعلاج الروم كأنّه نخلة باسقة وعليه درع مُذْهَب وعلى رأسه بيضة مذهبة وعليها صليب من ذهب مرصع بالجوهر، فجال ورمحه بيده، وسأل البراز، فنظر المسلمون إلى عظم خلقته وهول جثته، فجعلوا ينظرون إليه، فقال أبو عبيدة: لا يهولنكم ما ترون من خلقته، فقد رأيتم من هو عظيم خلقة ولا قلب له، فمن له منكم يخرج إليه واستعينوا بالله عليه. فخرج إليه عبد من عبيد العرب وبيده سيفه وجحفته وهو راجل ـ أي ليس له حصان ـ فلما أراد أن يدنو من العلج صاح به مولاه ذو الكلاع الحميري فلما رجع، خرج ذو الكلاع وجال على العلج، وكان ذو الكلاع من أهل الشدة والبأس، فتواقعا وكل منهما رامح، فتطاعنا طعناً شديداً أشد من الجمر، ثم أنهما تجاذبا سيوفهما والتقيا فضرب ذو الكلاع العلج ضربة، وضرب العلج ضربة، وكان سيف العلج قاطعاً وساعده قوياً فقطع سيفه درقة ذي الكلاع وسيفه ودرعه وما تحته من الثياب ووصلت الضربة إلى عضده الأيسر فجرحته جرحاً بليغاً وثقلت يده، فلما نظر ذو الكلاع إلى ما لحقه من العلج عطف بجواده يريد المسلمين، ونظر العلج إلى ذي الكلاع قد انعطف راجعاً فصاح بجواده ليلحقه، وكان فرس ذي الكلاع سابقاً فلم يلحقه حتى لحق بالمسلمين فأتى قومه والدم يفور من جرحه، فقال لهم: يا فرسان حمير إياكم أن تتكِلُوا في قتالكم على السلاح ومنعته ولكن اتكلوا في قتالكم على الله عزّ وجلّ. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأني رددت عبدي عن القتال شفقة عليه إذْ ليس معه لامة حرب، وقُلتُ إني أفرس منه وأجود عدة ولامة فصنع بي هذا الأقلف ما ترون، والله ما لحقني قبلها في حرب مثلها قط. فشدوا جرحه وهو واقف مكانه، ثم أنه صاح بقومه: يا رجال حمير إن كان سميفعكم قد رجع كلالاً فما منكم من يأخذ بثأره؟ فانتدب فارس من فرسان حمير، وعليه صبائغ اليمن من

الأبراد والحبر، كأنّه جمرة نار، وحمل نحو العلج مصمصماً وجال جولة عظيمة وطعنه طعنةً أثبتها في صدره، فأرداه قتيلاً. فَهَمَّ الحميري أن ينزل عن جواده ويأخذ سلبه، فحمل عليه كردوسٌ من الروم ليكشفوه عنه، فَرَدهم الحميريُ صاغرين، ثم نزل إليه وأخذ سلبه وأقبل به إلى أبي عبيدة، فأعطاه إياه، فدفع السلب إلى قومه، ورجع إلى مقامه في القتال، فخرج إليه آخر فقتله، وآخر فقتله، فخرج إليه علج رابع فقَتَلَ الحميري ونزل ليأخذ سلب الحميري فرماه رجل من رماة الأنصار بنبلة فوضعها في لبته فجندله صريعاً، فانقلبت الروم على وجوهها وهابوا جميع المسلمين، وكان ذلك البطريق الذي قتل بالنبلة من عظمائهم»(١).

وتواصلت المبارزات ثم وقعت المعركة الشاملة وكان لكتائب حمير بقيادة ذي الكلاع إسهامهم الوافر في تحقيق النصر المبين، وكان انتصار اليرموك في رجب ١٥ هجرية، وتتبع المسلمون فلول الروم إلى (أجنادين) وإلى (فحل) فتم هزيمة الروم. قال الطبري: (وانصرف أبو عبيدة وخالد من فحل إلى حمص، ومضوا بذي الكلاع ومن معه، وخلفوا شرحبيل بن حسنه ومن معه»(٢).

* * *

وقد شهد ذو الكلاع الحميري فتح حمص، إما مع السمط بن الأسود الكندي وإما مع أبي عبيدة بن الجراح، وذلك لأن أبا عبيدة بن الجراح رجع من موقعة نهر اليرموك إلى دمشق ـ غالباً ـ وكان هرقل بمدينة حمص فلما أتاه خبر هزيمة جيشه في نهر اليرموك وفلول جيشه بأجنادين وغيرها، هرب من حمص إلى أنطاكية. ولما رجع أبو عبيدة والمسلمون إلى دمشق وجدوا عند أبواب دمشق قوة من الروم. قال البلاذري «بينا المسلمون على أبواب دمشق إذْ أقبلت خيل للعدو كثيفة فخرجت إليهم جماعة من المسلمين فلقوهم بين بيت لهيا والثنية، فولوا منهزمين نحو حمص على طريق قارا، فاتبعوهم حتى وافوا حمص، فألقوهم قد عدلوا عنها، ورآهم الحمصيون وكانوا منخوبين لهرب هرقل عنهم، فأعطوا بأيديهم وهتفوا بطلب الأمان، فأمَّنَهم المسلمون، وكان على المسلمين السمط بن الأسود الكندي»(٣) وكان مع السمط ذو الكلاع الحميري ومن معه من كتائب حمير، «فصالح السمط أهل حمص، وقسم حمص خططاً بين المسلمين وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة، فلما قدم أبو عبيدة إلى حمص أمضى صلح السمط»(٣) وكان ذو الكلاع من الصحابة

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ١ ص١٣٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ جـ٤ ص٦٠.

(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٦ و١٥٠.

القادة الذين اختطوا في حمص، فكان له منزل بحمص، وكذلك عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن، وكثير من الحميريين، ثم قدم أبو عبيدة إلى حمص وذلك بعد فتح القدس سنة ١٦هـ حيث سار أبو عبيدة من فلسطين إلى حمص، وكان بها السمط بن الأسود الكندي أميراً ومعه ذو الكلاع الحميري وغيره من الصحابة والقادة، فأقرّ أبو عبيدة صلح السمط لأهل حمص، واستعمل عليها عبادة بن الصامت الأنصاري.

* * *

وسار ذو الكلاع مع أبي عبيدة بن الجراح من حمص إلى قلعة (الرستن) وكانت حصناً منيعاً ما بين حمص وبين حماة، فلم يجد المسلمون سبيلاً لفتح قلعة الرستن، فاستعملوا الحيلة والخديعة الجائزة في الحروب، وذلك أن قلعة الرستن كان يأتي إليها الطعام من الريف في صناديق كبيرة، فأخذ أبو عبيدة عشرين صندوقاً «من صناديق الطعام المنتخبة عند الروم، ففض أسافلها، وجعلها ذكراً في أنثى، فتكون الأقفال من باطنها، وانتخب عشرين رجلاً من القادة الأبطال وأدخلهم في الصناديق، وهم: ضرار بن الأزور، والمسيب بن نجبة، وذو الكلاع الحميري، وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، والمرقال، وهاشم بن نجعة، وقيس بن مكشوح المرادي، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ومالك بن الأشتر النخعي.. وعبد الله بن جعفر الطيار»[(١)]. وعشرة آخرين من الفرسان، فلما دخلت الصناديق إلى (الرستن) وتم وضعها في قصر الإمارة، خرج منها أولئك الأبطال العشرون وسيطروا على قصر الإمارة، ثم فتحوا أبواب القلعة فدخلها الجيش الإسلامي وتم فتحها. «فجعل أبو عبيدة فيها ألف رجل من اليمن وأوصاهم بحفظ الرستن، وأمّرَ عليهم هلال بن مرة اليشكري، فاستقروا بالرستن»[(١)].

ومضى ذو الكلاع وبقية القادة الصحابة مع أبي عبيدة بن الجراح والجيش وذلك «نحو حماة، فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم على الجزية والخراج، فمضوا نحو شيزر فرضوا بمثل ما رضي به أهل حماة، وكذلك أهل معرة حمص ـ وهي التي تُنسب إلى النعمان بن بشير الأنصاري ـ ثم أتى فامية ففعل أهلها مثل ذلك واذعنوا بالجزية والخراج، واستتم فتح حمص وأعمالها، فكانت حمص وقنسرين شيئاً واحداً»[(٢)] وامتد الفتح إلى (حلب) ونواحيها، ثم رجع أبو عبيدة ومعه ذو الكلاع وبقية القادة الصحابة من حلب وأعمال حمص وقنسرين ـ سنة ١٧هـ ـ

---

(١) فتوح الشام ـ الواقدي ـ جـ١ ص٨٩.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٦ و١٥٠.

وتولى حمص وتلك الجهات عبادة بن الصامت، واستقر ذو الكلاع في حمص أو دمشق، وربما كان له منزل في حمص ومنزل في دمشق، وكان من كبار القادة الزعماء بالشام، وقد مات أبو عبيدة ـ سنة ١٨هـ ـ فاستعمل عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان، فمات يزيد واستعمل عمر معاوية سنة ١٩هـ، فقام معاوية بتوطيد علاقته بالحميريين، وتزوج بميسون بنت بحدل الكلبي الحميري، وكان غالبية القادة والزعماء بالشام من اليمانية وذلك لأنه ـ كما ذكر الطبري ـ «كان عظم جند الشام من اليمانية»[١].

* * *

وكان من أنباء ذي الكلاع بدمشق والشام أنه انتشر بين الناس شرب نوع من النبيذ والعصير الذي لم يطبخ حتى يذهب ثلثاه فهو خمر ـ أو مثل الخمر ـ فكان ذو الكلاع ينتقد ذلك، ولما بلغ عمر بن الخطاب شُرب الناس لذلك النبيذ ـ الخمر ـ وقع ما ذكره العسقلاني عن المرزباني في ترجمة ذي الكلاع أنه: «لما كثر شُرب الناس الخمر في خلافة عمر، كتب إلى عامله أن يأمر بطبخ كل عصير بالشام حتى يذهب ثلثاه، فقال ذو الكلاع الحميري:

رماها أمير المؤمنين بحتفها فخِلانها يبكونها في المعاصر
فلا تجلدوهم واجلدوها فإنّها هي العيش للباقي ومَنْ في المقابر»

* * *

وكان مع ذي الكلاع بالشام زوجته كريبة بنت أبرهة بن الصباح الحميري، وابنه شرحبيل بن ذي الكلاع، قال الهمداني في الأنساب «وأولد السميفع ذو الكلاع: يعفر بن السميفع» وهو الابن الثاني لذي الكلاع، وكان له أيضاً ابن اسمه (شرح) ما لم يكن (شرح) هو نفسه (شرحبيل بن ذي الكلاع) وهو والد (حيوة بن شرح بن ذي الكلاع صاحب المقام عند معاوية في يوم ابن ذي فائش)[٢] وكان بالشام مع ذي الكلاع العشرات من أذواء حمير الذين شاركوا في فتوح الشام واستقروا بها مع عشائرهم وقبائلهم وساهموا في تأسيس العصر العربي الإسلامي بالشام، ثم مضى كثير منهم إلى مصر حاملين رسالة الإسلام الخالدة.

ذو الكلاع وأذواء حِمْيَر في فتوح مصر

في أواخر سنة ١٩ هجرية انطلق ذو الكلاع وأذواء وكتائب حمير من الشام

---

(١) تاريخ الطبري ـ جـ٩ ص٣.

(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ٢ ص٢٠٦ و٢٧٩.

إلى مصر في الجيش العربي الإسلامي الذي كان أميره عمرو بن العاص، وكان من القادة والأذواء الحميريين الذين شهدوا فتح مصر مع ذي الكلاع الذين نذكرهم فيما يلي مع الإشارة إلى معالم أنبائهم وأنباء عشائرهم وقبائلهم بما يتيح إدراك معالم دور أذواء وكتائب حمير في فتوح مصر:

ـ فقد كان من أذواء حمير (أبرهة بن الصباح الحميري) وهو والد كريبة بنت الصباح زوجة ذي الكلاع، وعميد آل الصباح الذي جاء في ترجمتهم بكتاب الجامع أنه «كان عميد هذه الأسرة الصحابي أبرهة بن الصباح، وقد دخل مصر في جيش عمرو بن العاص، وله أربعة أبناء دخلوا مصر كذلك»[١] وجاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير: «أن عمرو بن العاص بعث أبرهة بن الصباح لفتح الفرما»[٢] وكان مع أبرهة بن الصباح المقداد بن عمرو البهراني الحميري وخمسمائة من الفرسان، والقائد (سُمَيْفَع بن وعْلة السبائي، وهو الذي اقتحم حصن الفَرْمَا في سيناء وكان قائداً على علك وغافق ولخْم وراشدة والقَرَافة في فتح مصر»[١] فتمّ فتح الفرما بقيادة أبرهة بن الصباح ـ سنة ٢٠هـ ـ واختط آل الصباح في الجيزة منذ اختطاطها وسكنوا الجيزة.

ـ وكان من القادة (سرج بن شهاب اليافعي الرعيني) عميد عشائر قبيلة يافع الرعينية الحميرية في فتح مصر، قال الأكوع في هامش الإكليل «كانت يافع في طليعة جيش المسلمين الفاتح لمصر، وكان على ميسرة الجيش سرح بن شهاب اليافعي الرعيني الصحابي، وحسان بن زياد اليافعي، واجتازوا نهر النيل إلى الضفة الغربية، فركزوا العلم فيها، ومن ذلك اليوم سميت تلك المنطقة الجيزة»[٣] وجاء في كتاب الجامع أنه «كان أبرز شخصيات يافع وقت الفتح: مبرح (مسرح) بن شهاب، أحد رجال الوفود اليمنية إلى النبي ﷺ، وقائد ميسرة عمرو بن العاص عند الفتح، ومنهم الصحابي عمرو بن مسعود من رجال الفتح أيضاً، ودزْع بن يشكر.. واختطت يافع بالفسطاط بين خطط بكيل وحُجْر رُعين، كما كانت لهم خطة بالجيزة»[٣].

ـ وكان من القادة الصحابة (الحرث بن تُبيع الرعيني) من أقيال قبيلة (ذي رُعين). قال القرطبي: (الحرث بن تُبيع الرعيني، له صحبة وشهد فتح مصر)[٤] وكان لقبيلة ذي رعين ـ أهل مخلاف ذي رعين باليمن ـ «مساهمة فعالة في توطيد

---

(١) الجامع لشمل أعلام المهاجرين اليمنيين ـ لمحمد بامطرف ـ ص٩٣.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٩٩.
(٣) الإكليل ـ جـ٢ ص٣٣٩ ـ الجامع لبامطرف ـ ص٦٤٢.
(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ جـ١ ص٢٨٨ ـ الإكليل ـ جـ٢ ص٣٣٥.

دعائم الإسلام في البلاد القاصية، وضربت بسهم وافر في الفتوحات، وكان منهم القادة والفرسان وحملة الأقلام»[١] وجاء في كتاب الجامع أن «ذارعين: بطنٌ من حمير، كانوا في جيش عمرو بن العاص عند فتح مصر، واختطوا بالفسطاط مع إخوانهم القَبْض من ذي رعين، وكانت خطتهم شرقي خطة خولان وقِبْلِي مذحج»[٢] ويطلق على فروع قبيلة ذي رعين التي نزلت مصر «حُجْرُ ذي رعين ـ نسبة إلى حجر بن يريم ذي رعين ـ منهم التابعي المشهور: دخر بن عامر الرُّعيني، كان من علماء التابعين بمصر، وزبيد بن الحرث العتقي من مشاهير تابعي مصر، وشُرحبيل بن قُليب الرعيني من القادة»[٢].

ـ وكان من قادة قبيلة المعافر الحميرية في الفتح (عُبيد بن عمرو المعافري)[٢] حيث (كان لقبيلة المعافر دور بارز في فتح مصر، وكانت لهم خطة بالفسطاط، وأقام جانب منهم في الإسكندرية، وفي اتريب وسَخَا (كورة عاصمتها مدينة سخا الحالية بكفر الشيخ ومنوف) وكان عُبيد بن مخمَّر المعافري: أولُ من أقرأ أهل مصر القرآن الكريم. وكانت المعافر من أكثر القبائل اليمنية عدداً في مصر، وقد بلغ عددهم ـ فيما بعد ـ وكما ذكر المقريزي: عشرين ألفاً، وقال عنهم الشاعر عبد الرحمن بن الحكم:

وسَدَّت مَعَافِرُ أُفق البلادِ ... بِمُرْعِدِ جَيْشٍ لها مُبْرِقِ[٢]

ـ وأما قبيلة الكلاع وهُمْ عشيرة (سميفع ذي الكلاع قائد كتاب حمير)، فقد جاء عنهم في كتاب الجامع أن «الكُلَاع: بطن من ذي رعين الحميرية. منازلهم حمص الشام ومصر. شهدوا فتح مصر ولهم بها خطّة كانت متصلة بخطة رعين بالفساط، وكان من أسرة ذي الكلاع: بحير بن ريسان الكلاعي من رجال الفتح»[٢]

* * *

وفي شهر ربيع الأول سنة ٢١هـ كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بتوجيه الجيوش لفتح (أهناس) و(البهنساء) وصعيد مصر، فاجتمع عمرو بكبار الصحابة والقادة في مصر، ثم عقد لهم الألوية ـ في ربيع الثاني ـ لفتح إقليم البهنساء وصعيد مصر، وكان ذو الكلاع من الصحابة القادة الذين عقد لهم عمرو الألوية القيادية على الجيوش لفتح البهنساء والصعيد، وهم عشرون من الصحابة منهم: (المقداد بن عمرو، والزبير بن العوام، والفضل بن العباس، وعمار بن

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ جـ١ ص٢٨٨ ـ الإكليل ـ جـ٢ ص٣٣٥.
(٢) الجامع لبامطرف ـ ص٢١٢ و١٥٦ و٢٦١ و٥٨٠ و٤٦٠ ـ وبحير بن ريسان عاد إلى اليمن وأصبح والياً لليمن عام ٦٠ ـ ٦٤هـ.

ياسر، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعياض بن غنم الأشعري، وأبو ذر الغفاري، وأبو دجانة الأنصاري، وذو الكلاع الحميري، وعقبة بن عامر الجهني، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعدي بن حاتم الطائي، ومالك الأشتر النخعي، وأصحابهم»[١] فانطلقوا إلى مرج دهشور.

وكان ذو الكلاع من قادة موقعة (مرج دهشور) حيث جاء في أنباء المعركة أنه «وقف في القلب مع عمرو بن العاص عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وقيس بن مكشوح، ورافع بن عميرة الطائي، والمسيب بن نجبة الفزاري، وذو الكلاع الحميري، وربيعة بن العباس، ومالك الأشتر، والعباس بن مرداس السلمي ونظائرهم من بقية الأمراء»[١] وزحفوا بالجيش فتم هزيمة الروم والذين معهم في (مرج دهشور) ثم رجع عمرو بن العاص إلى مصر (الفسطاط).

«ولما فارق عمرو بن العاص الأمراء، استشار بعضهم بعضاً أي مكان يقصدون، فاتفق رأيهم أن يُسيروا ألف فارس طليعة، وعليهم قيس بن الحرث، و معه رفاعة بن زهير، والقعقاع، وعقبة بن عامر الجهني، وذو الكلاع الحميري رضي الله عنهم، فساروا في وسط البلاد وبقية العساكر قريبة منهم، فمن أطاعهم وطلب الأمان أمّنُوه وصالحوه على الجزية، ومَنْ أبَى قاتلوه، ومن أسلم تركوه»[١] وسار بقية الجيش إلى (أهناس) فتمّ فتحها، وكان من الصحابة القادة في فتح (أهناس) عدي بن حاتم الطائي.

ثم «سار عدي بن حاتم وميمون في ألف فارس حتى وصلا (ميدوم) وما حولها، فوجدوا قيس بن الحرث ـ الذي كان معه عقبة بن عامر وذو الكلاع ـ قد صالح أهل تلك الأرض وعقد لهم صلحاً وأقرهم على الجزية، وكذلك أهل (برنشت) بعد قتل بطريقهم، وكذلك أهل تلك البلاد إلى دهشور، ونادى في ذلك الإقليم بالأمان. وَعَبَر جماعة من الصحابة والمسلمين إلى البر الشرقي وهم رفاعة بن زهير المحاربي، وعقبة بن عامر الجهني، وذو الكلاع الحميري، وألف من المسلمين، فشنوا الغارات من العقبة التي هي قريب من قِبلى حلوان حتى وصلوا إلى (أطفيح) ثم إلى (البرنيل) ـ ففتحوا تلك القرى والبلاد وما جاورها عنوة وصلحاً»[١] ـ.

وفي سنة ٢٢هـ تقدم الجيش العربي الإسلامي إلى (البهنساء) وانقسموا إلى قسمين، وكان أحد القسمين بقيادة الأمير عياض بن غنم الأشعري، «ولما قرب عياض من البهنسا استشار أصحابه ومنهم أبو ذر الغفاري، وأبو هريرة الدوسي،

---

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله الواقدي ـ جـ٢ ص١٤١ و١٥١ و١٥٦ و١٦١.

وسلمه بن هاشم المخزومي، .ومالك الأشتر النخعي، وذو الكلاع الحميري رضي الله عنهم، ومعهم ألفان من أصحابهم، وأمرهم بالنزول في الجهة الشرقية، وأن يُنازلوا القلعة. وعبر الأمير عياض من الجهة البحرية ومعه أصحاب الرايات والأمراء والطليعة، ومنهم الفضل بن العباس، وعبد الله بن عمرو الدوسي، وسعيد بن زبير الدوسي، وحسان بن النظر الطائي، وجرير بن نعيم الحميري، وسنان بن أوس الأنصاري، ومخلد بن عون الكندي، وابن زيد الخيل الطائي.. فاقبلوا على مدينة البهنساء، ونزلوا بجانب الجبل عند الكثيب الأصفر، وأما أبو ذر الغفاري وأبو هريرة وذو الكلاع الحميري ومالك الأشتر فساروا حتى نزلوا قرب القوم وأخذوا جسر البهنسا»[١]. وكان البطليوس بطريق البهنساء من عظماء الروم ومعه جيش كثيف من الروم وأهل النوبة والصعيد والسودان، فحارب البطليوس المسلمين حرباً شديدة وطويلة، فلم تنقطع المعارك طيلة فترة الحصار لمدينة وقلعة البهنسا التي استمرت تسعة أشهر، ثم تسلق سور المدينة أربعون رجلاً من المسلمين في الليل، وفتحوا الباب بعد أن استشهد عدد منهم، فاندفع قادة المسلمين إلى الباب فدخلوها، وكان «ثالث من دخل مدينة البهنسا» ذو الكلاع الحميري، وقال ذو الكلاع يوم دخوله البهنساء:

إنِّي لَمِنْ حِمْيَرِ العالين في النسب ... أهل الثنا ورجال الجود والحسبِ
.. الحرب عادتنا، والطعنُ همّتنا، ... وذو الكلاع أنا عالٍ على الرُّتبِ
تَبَّتْ يد الروم ما يدرون أنّ لنا ... صوارما تترك الأعداء كالقصب»[١]

وشهدت مدينة البهنسا قتالاً شديداً من جانب الروم وجهاداً عظيماً من جانب المسلمين إلى أن تتوجت المعركة بالنصر والفتح المبين، وتلاها فتح صعيد مصر، ومصالحة أهلها، واستتب الأمر في أرجاء صعيد مصر.

* * *

وفاة ذي الكلاع في مريوط بمصر

وفي سنة ٢٣هـ كان ذو الكلاع قد رجع من البهنسا إلى الفسطاط مع كثير من الصحابة والجيش، ثم ساروا مع عمرو بن العاص لفتح (مريوط) و(الإسكندرية) حيث ذكر الواقدي واقعة فتح مريوط والإسكندرية سنة ٢١هـ وأن ذا الكلاع مات في مريوط، بينما يتبين مما جاء في فتوح البلدان للبلاذري أن الإسكندرية انتقضت بعد فتحها الأول ومصالحة أهلها سنة ٢١هـ حيث «بعث هرقل ـ من القسطنطينية ـ رجلاً من الروم يقال له (منويل) في ثلثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة فدخل

(١) فتوح الشام ـ جـ٢ ص١٦٩ و١٨٩.

الإسكندرية وقتل من بها من رابطة المسلمين إلا مَنْ هرب فنجا، ثم سار الروم يعوثون فيما يلي الإسكندرية من قرى مصر»(١) وكان ذلك سنة ٢٣هـ، فسار عمرو بن العاص بالمسلمين من فسطاط مصر إلى الإسكندرية فافتتحوا ـ أو أعادوا فتح ـ مدينة مريوط وتهيأوا لدخول الإسكندرية.

قال الواقدي، قال ابن إسحاق: وأقام ـ أمير المسلمين ـ بمريوط لأجل ذي الكلاع الحميري لأنه مرض مرضاً شديداً فجلسوا عنده شهراً، فقدر الله له بالوفاة، فحزنوا عليه حزناً شديداً عظيماً، فقد كان ذو الكلاع ملك حمير، وكان قبل دخوله في الإسلام يركب له اثنا عشر ألف مملوك سود سوى غيرهم، قال أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه: ولقد رأيته بعد تلك الحشمة يمشي في سوق المدينة وعلى كتفه جلد شاة لما قدم من اليمن إلى الجهاد في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه. فلما مات ذو الكلاع في مريوط رثاهُ ولده (شرح) بما رثي به حِمْيَرُ أبَاه سبأ في الزمن المتقدم، وهو:

عَجِبْتُ ليومك ماذا فَعَلْ	وسلطانُ عزّكَ كيف انْتَقَلْ
فأسلمتْ مُلْكَك لا طائعاً	وسَلَّمْتَ للأمر لمَّا نَزَلْ
فلا تبعدنَّ فكل امرئٍ	سيدركه بالمنون الأجَلْ
لقد كُنْتَ ـ بالأمس ـ ذا قوةٍ	لك الدهر بالعز عانٍ وَجَلْ
بَلَغْتَ من المُلْكِ أعلَى المُنَىٰ	نُقِلْتَ، وعزك ما انتقلْ
فطحطحت بالشرق آفاقه	وجُزْتَ من الغرب حرب الدولْ
جريت مع الدهر إطلاقه	فَنِلْتَ من المُلك ما لم يُنَلْ
وَحَمَلْتَ عزمك ثقل الأمور	فقام بها حازماً واستقَلْ
بَنَيتَ قصوراً كمثل الجبال	. . وشيّدت مجداً فلم يُمْتَثَلْ
وشيّدت ذُخراً لدار البقاء	. . وذاك ـ لَعُمْري ـ أبْقَىٰ العملْ
نَعِمْنَا بأيامك الصالحات	شربنا بسِجْلِكَ وبلاً وطلْ
نؤمل بالدهر أقصى المُنى	ولم ندر بالأمر حتى نزلْ
فزالت لفقدك شُمُّ الجبال	ولم يك حزنك فيها هبلْ
ـ فلا تبعدنّ فكل امرئٍ	سيدركه بالمنون الأجل . . »(٢)

(١) فتوح البلدان ـ ص٢٢٣.

(٢) فتوح الشام ـ الواقدي ـ جـ٢ ص٤٥ ـ الإكليل للهمداني ـ جـ٨ ص١٧٨ ـ السيرة الجامعة لنشوان الحميري ـ ص١٥.

وكانت وفاة ذي الكلاع رضي الله عنه سنة ٢٣هـ أو في المسير الثالث لإعادة فتح الإسكندرية سنة ٢٥هـ في أوائل خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك قبل الفتنة الكبرى وموقعة صفين بعشر سنوات.

* * *

ذو الكلاع الذي مات في صفين سنة ٣٧هـ

وقد ذكرت الروايات التاريخية وتراجم الصحابة إن ذا الكلاع الحميري كان من كبار زعماء الشام في ولاية معاوية بن أبي سفيان للشام في خلافة عثمان بن عفان حتى مقتل عثمان واندلاع الفتنة الكبرى في نهاية سنة ٣٥هـ ثم في سنة ٣٦هـ وأنه ـ كما جاء في كتاب الإصابة «خطب معاوية بالشام فقال: إن علياً نَهَدَ إليكم في أهل العراق. فقال ذو الكلاع: عليك إمْ رأى وعلينا إمْ فِعال. وهي لهجة يجعلون لام التعريف ميماً»[1]. ولما سار معاوية بجيش الشام إلى صفين (كان على أهل حمص ذو الكلاع الحميري) ـ وذلك في أواخر سنة ٣٦هـ وشهد ذو الكلاع موقعة صفين مع معاوية وأهل الشام ـ في صفر ٣٧هـ ـ حيث (كان على ميمنة جيش الشام في صفين ذو الكلاع الحميري) قال ابن كثير: «وفي اليوم السادس ـ وهو يوم ٦ صفر ٣٧هـ ـ كان على الناس من جهة أهل العراق قيس بن سعد بن عبادة، ومن جهة أهل الشام ذو الكلاع الحميري، فاقتتلوا قتالاً شديداً وتصابروا ثم تراجعوا» وكذلك في اليوم السابع «ولم يغلبُ أحدُ أحداً»[2] وفي اليومين الثامن والتاسع دارت معركة شديدة سقط فيها الآلاف من الفريقين، وكان أعظمهم ذو الكلاع من أهل الشام وعمار بن ياسر من أصحاب علي بن أبي طالب، قال ابن كثير: «وكان ذو الكلاع قد سمع قول عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال لعمار: تقتلك الفئة الباغية. فكان ذو الكلاع يقول لعمرو بن العاص: ويحك ما هذا يا عمرو فيقول عمرو أنه سيرجع إلينا. فلما أُصيب عمار بعد ذي الكلاع ـ[أي لما قُتل عمار بعد مقتل ذي الكلاع] قال عمرو لمعاوية: ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحاً، بقتل عمار أو ذي الكلاع، والله لو بَقَي ذو الكلاع بعد قتل عمار لَمَال بعامة أهل الشام وأفسد علينا جندنا»[2] بينما قال القرطبي في الاستيعاب: «. . كان ذو الكلاع القائم بأمر معاوية في حرب صفين، وقُتِل قبل انقضاء الحرب، ففرح معاوية بموته، وذلك أنه بلغه أن ذا الكلاع ثَبَت عنده أن

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ١ ص٤٩٣ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب للقرطبي ـ جـ١ ص٤٩٨.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٢٦٣ و٢٦٨.

علياً بريئ من دم عثمان وأن معاوية لَبَّس عليهم ذلك، فأراد التشتيت على معاوية، فعاجلته منّيته»[1]. وقد انتهت حرب صفين بالتحكيم في ١٠ صفر ٣٧هـ.

قال ابن حجر العسقلاني: «..روى يعقوب بن شيبة بإسناد صحيح عن أبي وائل عن أبي ميسرة أنه رأى ـ في المنام ـ ذا الكلاع وعماراً في قِبابٍ بِيضٍ بفناء الجنة. فقال: ألم يُقاتل بعضكم بعضاً؟ قالوا: بَلَىٰ ولكن وجدنا الله واسع المغفرة»[1]. وجاء في الاستيعاب للقرطبي عن عدد من علماء التابعين «أن أبا ميسرة وكان من كبار أصحاب عبد الله بن مسعود قال: رأيتُ في المنام كأنّي دخلت الجنة فإذا قباب مضروبة. فقلتُ: لمن هذه؟ قالوا: لذي الكلاع وحوشب ذي ظليم، فقلتُ: فأين عمار وأصحابه؟ قالوا: أمامك. قُلتُ: وقد قتل بعضهم بعضاً؟ فقيل: إنهم لقوا الله فوجدوه واسع المغفرة»[1]. ويمكن القول أن ذا الكلاع الذي مات بصفين هو شرحبيل بن سميفع ذي الكلاع، لأن سميفع ذا الكلاع مات بمصر قبل موقعة صفين بعشر سنوات، فانتقلت مرتبته من الزعامة بالشام وحمص إلى ابنه شرحبيل بن سميفع ذي الكلاع، وهو ـ فيما نرى ـ الذي مات في صفين، ثم كان ابنه (حيوة بن شرح بن ذي الكلاع من كبار زعماء الشام في خلافة معاوية ثم في عهد يزيد بن معاوية، ومات بعد سنة ٦٤هـ، فعليهم جميعاً رحمة الله تعالى.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ١ ص٤٩٣ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب للقرطبي ـ جـ١ ص٤٩٨.

٢١

أَبْرَهَة بن الصبَّاح الحميري

ـ أحقُّ الناس بالخلافة لو كانت بالشرف ـ

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «لو كانت الخلافة تُستحقُ بالشرف لكان أحقّ الناس بها أبرهة بن الصبَّاح، فإنه من أبناء ملوك اليمن التبابعة الذين ملكوا مشارق الأرض ومغاربها»[١].

وهذه المقولة التي خلدها التاريخ لأبي موسى الأشعري تجعل النفس أكثر اشتياقاً لمعرفة ذلك الزعيم الصحابي الذي له فرش رسول الله ﷺ رداءه، والذي لو كانت الخلافة تُستحق بالشرف لكان أحق الناس بها.

* * *

فأبرهة بن الصباح المذكور في حديث أبي موسى هو القيل أبرهه بن شرحبيل ـ الصباح ـ بن أبرهة بن الصبّاح بن شرحبيل بن لهيعة بن مَرثَد الخير بن ينكف ينوف بن شرحبيل شيبة الحمد بن معدي كرب بن مصبح بن عمرو بن الحارث ذي أصبح بن مالك بن زيد بن قيس بن صيفي بن حمير الأصغر بن سبأ الأصغر[٢].

وفي جده أبرهة الأول بن الصباح بن شرحبيل بن لهيعة، قال الشاعر لبيد الجاهلي عن سهام المنايا:

وغَلَبِن أبرهة الذي ألفَيْنَه قد كان يخلُد فوق غُرفة مَوكل

وكانت مَوْكَل عاصمة أذوائية القيل أبرهة بن الصباح ومقر ملوكيته، وتقع في ناحية صباح بمنطقة رداع، ولم تزل مُوكل من مدن الحضارة ومن ديار التبابعة ثم الملوك ثم الأقيال العظماء حتى الجاهلية وكانت الوفود تقصد أبرهة بن الصباح من أرجاء الجزيرة العربية، قال الشاعر:

وعلى الذي كانت بموكل داره يَهَبُ القيان وكل أجدد شاح

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٥٣ ـ وكتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ـ وكتاب الإمام عليّ لمحمد رضا ـ.

(٢) يبلغ عدد ملوك اليمن التبابعة سبعون ملكاً، وأغلبهم من بني حمير الأصغر ذي ريدان بن سبأ الأصغر كما في تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٥٠.

وينطبق ذلك على أبرهة بن الصباح الأول كما ينطبق على حفيده الصحابي أبرهة بن الصباح الثاني ونشير هنا إلى أمرين:

الأول: أن أبرهة لفظ ونطق سرياني وحميري قديم لاسم إبراهيم، فمعنى أبرهة هو إبراهيم(١).

والأمر الثاني: جاء في كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني والإكليل للهمداني في ترجمة ونسب أبرهة بن الصباح الوافد على النبي ﷺ بأنه (أبرهة بن شرحبيل بن أبرهة بن الصباح)، ولكن الهمداني نقل أيضاً عن ابن كُليب قاضي صنعاء أنه (أبرهة بن الصباح بن أبرهة بن الصباح)، وقال في موضع آخر: «إن أبرهة بن الصباح وفد على النبي ﷺ..» وكذلك يأتي اسمه في العديد من المصادر بلفظ أبرهة بن الصباح مما قد يشير إلى أن اسم أبيه كان شرحبيل الصباح ـ اسم ونعت ـ وذلك معهود في أسماء أقيال اليمن.

* * *

وقد أسلم أبرهة بن شرحبيل الصباح في اليمن عندما بعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي إلى الحارث بن عبد كلال وسميفع ذي الكلاع الحميري وغيرهما من أقيال حمير في أواخر سنة ٨ هجرية، وكانت زوجة ذي الكلاع هي بنت القيل أبرهة بن شُرحبيل الصباح، فلما أسلم ذو الكلاع قال لجرير: ـ كما جاء في الاستيعاب: «ادخل إلى أم شرحبيل، فوالله ما دخل عليها بعد أبي شرحبيل أحد قبلك، فدخل اليها جرير ودعاها إلى الإسلام فأسلمت. قال القرطبي: وهي ضريبة بنت أبرهة بن الصباح»(٢) بينما جاء في الإكليل أن اسمها (كُريبة)، هو الأصوب.

والمقصود هنا أن أبرهة بن شرحبيل الصباح أسلم باليمن في تلك الفترة، ثم انطلق من مدينة موكل إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة في السنة العاشرة للهجرة مع الذين وفدوا إلى رسول الله ﷺ من أقيال وفرسان حمير، فلما دخلوا إلى رسول الله ﷺ بالمسجد النبوي، فرش رسول الله ﷺ رداءه لأبرهة بن الصباح فجلس عليه، وكان ذلك تكريماً نبوياً نادر المثيل.

وفي ذلك جاء في ترجمته بكتاب الإصابة أنه: «وفد على النبي ﷺ ففرش له رداءه»(٣) وجاء في الإكليل عن بعض علماء العراق: «أن أبرهة بن الصباح وفد على

---

(١) الإكليل للهمداني ـ جـ٨ ـ نباء الملك أبرهة ذي المنار بن الحارث الرائش.

(٢) الاستيعاب ـ ص٢٣٠.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ١ ص٢١.

النبي ﷺ ففرش له ثوبه، وقال: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، وهذا كريم قومه» وذكر الهمداني عن القاضي يحيى بن كليب أن أبرهة بن الصباح: «الوافد على رسول الله ﷺ، وحسن إسلامه، وهو ممن فرش له النبي ﷺ رداءه، وقال: إذا أتاكم سيد قوم فأكرموه»(١).

وقد مكث أبرهة بن الصباح فترة في موكب رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وكان معه اثنين من أبنائه هما أبو شمر بن أبرهة بن الصباح وكريب بن أبرهة بن الصباح، وهما من الصحابة، ثم عادوا إلى اليمن، وقد ذكر الهمداني عن القاضي يحيى بن كليب قاضي صنعاء أن أبرهة بن الصباح: «روى عن النبي ﷺ أحاديث». أو كما جاء في الإصابة: «كان يروى عن النبي ﷺ أحاديث». وقد يكون ذلك في اليمن أو الشام أو مصر.

* * *

أبرهة بن الصباح في الشام

وقد انتقل أبرهة بن الصباح إلى الشام في الفتوحات واستقر بها مع أولاده وعشيرته، وفي ذلك ذكر العسقلاني في ترجمته بالإصابة عن الرشاطي أنه «كان بالشام وكان يُعد من الحكماء»(٢).

وقال الهمداني في الأنساب: «فأولد أبرهة: أبا شَمِر بن أبرهة، وكُرَيْباً، وشرحبيل، ويُعْفِر، وبَجِير، ومحمداً، والحجاج، والصباح، وكُريبه. فهاجر كريب، وشرحبيل، ويُعفر، وبَحير ومحمد، والحجاج، والصباح، إلى الشام في خلافة عمر بن الخطاب»(٣).

وجاء في ترجمة أبي شمر بن أبرهة بن الصباح في كتاب الإصابة عن الرشاطي أنه «وفد على النبي ﷺ..

وقال ابن مندة: أبو شمر بن أبرهة بن الصباح يقال له صحبه ويوجد ذكره في الأخبار. قال العسقلاني.. ويحتمل أن يكون وَفَد أولاً ثم رجع إلى بلاده ثم وفد لما استنفرهم عمر بن الخذاب إلى الجهاد. ثم وجدته في تاريخ دمشق ـ لابن عساكر ـ قال: أبو شمر بن أبرهة بن الصباح أخو كريب بن أبرهة ثم قال: هو مصري، ثم قال: وقيل أنه وفد على رسول الله ﷺ.. ثم وجدت له ذكراً في مقدمة

---

(١) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ٢ ص١٤٨ ـ ١٥٠.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ١ ص٢١.
(٣) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ٢ ص١٤٨ ـ ١٥٠.

كتاب الأنساب للسمعاني من طريق ابن لهيعة عن عبد الله بن راشد عن ربيعة بن قيس سمع علياً يقول: ثلاث قبائل يقولون أنهم من العرب، وهُمْ أقدم العرب[١] جرهم: وهم بقية عاد، وثقيف: وهم بقية ثمود، وأقبل أبو شمر بن أبرهة، فقال علي: وقوم هذا وهُم بقية تُبّع»[٢].

ويتبين من مجمل ما تقدم أن أبرهة بن الصباح وأولاده المذكورين انطلقوا من اليمن إلى الشام في الفتوحات في خلافة عمر بن الخطاب، وذلك سنة ١٣ للهجرة أو سنة ١٤ للهجرة لأنهم شهدوا فتح دمشق مع ذي الكلاع الحميري ويزيد بن أبي سفيان بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ـ في رجب ١٤هـ ـ كما شهدوا فتح الرملة بفلسطين مع عمرو بن العاص ـ سنة ١٦هـ ـ ومما يدل على ذلك استقرار بعض أبناء أبرهة بن الصباح في دمشق والرملة. قال الهمداني بعد ذكر أبناء أبرهة بن الصباح الذين هاجروا إلى الشام في خلافة عمر ما يلي: فولد كُريب بن أبرهة: رِشدين وبه كان يُكنى، ومنه انتشر بنو كريب، فمن كان منهم في الكوفة فهم في النخع، ومنهم طائفة بشهر زور وآخرون بدمشق والرّمْلَة، وفيهم أخلاط من الأبرهيين من غير ولد كُريب»[٣].

وقد تقدم أن زوجة سميفع ذي الكلاع الحميري هي كريبة بنت أبرهة بن الصباح، قال الهمداني: «فأولدها ـ ذو الكلاع ـ ابنه شرحبيل وهَاجر بها إلى الشام أيام عمر، فبِهَا نَسْلُهما إلى اليوم»[٣]. وكان ممن هاجر إلى الشام في الفتوحات واستقر بها معدي كرب بن أبرهة بن الصباح. قال الهمداني في الأنساب: «فأولد معدي كرب بن أبرهة: يريم وقد رأس. فأولد يريم: النضر سيد أهل الشام، وأمه صفية بنت مَعْبد بن العباس بن عبد المطلب.. فالنضر ابن بنت ابن عم النبي ﷺ» وجاء في كتاب الاشتقاق للمرزباني: «ومن رجالهم: النضر بن يريم بن معدي كرب ـ بن أبرهة بن الصباح ـ كان سيد حمير بالشام، أمه بنت معبد بن العباس بن عبد المطلب»[٤] وفي جمهرة الإنساب لابن الكلبي: أن النضر كان سيد أهل الشام في زمانه، أمه بنت معبد بن العباس، وكانت عنده، أي عند النضر، بنت عبيد الله بن العباس، فولدت له محمداً وسليمان ابني النضر»[٤].

والمقصود أن أبرهة بن الصباح وأولاده وعشيرته شهدوا فتوح الشام وسكنوا

---

(١) في الأصل «وهُمْ أقدم من العرب» والأصوب «وهُمْ أقدم العرب».
(٢) الإصابة ـ ترجمة أبي شعر ـ جـ٤ ص١٠٢.
(٣) الإكليل للهمداني ـ جـ٢ ص١٥١ و١٥٤ و١٥٧.
(٤) الاشتقاق للمرزباني ـ ص٥٢٨ ـ هامش الإكليل ـ جـ٢ ص١٤٩.

بها، وشهد بعضهم فتح القادسية وغيرها بالعراق فاستقروا بالكوفة، وقد أجاز أبرهة بن الصباح من الشام إلى مصر مع عدد من أبنائه وعشيرته في الفتح العربي الإسلامي لمصر.

* * *

أبرهة بن الصباح في مصر

كان أبرهة بن الصباح من الصحابة والزعماء الذين شهدوا وقادوا الفتح العربي الإسلامي لمصر في خلافة عمر بن الخطاب ـ عام ١٩ ـ ٢٠ هجرية ـ فاستقر أبرهة بن الصباح وعدد من أبنائه وأسرته في مصر، وفي ذلك جاء في كتاب الجامع لبا مطرف أنهم «نزلوا بالجيزة مع همدان وقبائل يمنية أخرى ثم كانت لهم خطة خاصة بهم بالجيزة» وقال: «كان عميد هذه الأسرة الصحابي أبرهة بن الصباح، وقد دخل مصر في جيش عمرو بن العاص، وله أربعة أبناء هم كُريب، وأبو شمر، ومعدي كرب، ويكسوم، يبدو إنهم دخلوا مصر كذلك، وإن كان الثابت أن الأول والثاني منهم قد هاجرا في خلافة عمر بن الخطاب ودخلا مصر وأقاما بها إقامة دائمة»[١] ونشير هنا إلى أن يكسوم هو نفسه شرحبيل بن أبرهة بن الصباح، فليس من أبناء أبرهة بن الصباح من كان اسمه (يكسوم) وإنما اسمه كما في الإكليل شرحبيل ـ وربما كان يُقال له (شرحبيل يكسوم) ـ قال الهمداني في الأكليل: «وكان أبرهة القيل بن الصباح سُمي أبا يكسوم»[٢]، وقد كان أبو شمر وكريب وشرحبيل يكسوم مع أبيهم الصحابي القيل أبرهة بن الصباح في فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب، وأسند عمرو بن العاص إلى أبرهة بن الصباح قيادة فتح مدينة الفرما ومعه الصحابي اليماني المقداد بن الأسود البهراني ـ وهو المقداد بن عمرو ـ وذلك عند «فتح دمياط وجزيرة تنيس في العشر الأول من شعبان سنة عشرين من الهجرة.. وكان عمرو بن العاص قد بعث قوة لفتح القلعة المسماة الفرما ومدينتها ـ وكانت على جانب بحيرة تنيس مما يلي شرقها، وكانت القوة بقيادة هلال بن أوس، فتصدى لهم أهل قلعة الفرما بإطلاق النبال والسهام، فكانوا يطلقون ألف سهم دفعة واحدة، فأقام عليها هلال بن أوس عشرين يوماً فلم يقدر عليها، فبعث إلى عمرو يُعلمه بما وقع ويستنجده، فأرسل عمرو المقداد بن الأسود في خمسمائة من عسكر الإسلام وثلاثة آلاف ممن أسلم من القبط»[٣] وكان

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين من اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص٩٣.

(٢) الإكليل للهمداني ـ جـ٢ ص١٥١ و١٥٤ و١٥٧.

(٣) فتوح الشام ومصر ـ للواقدي ـ جـ٢ ص٥٩ و١٣٩.

أميرهم جميعاً أبرهة بن الصباح، وفي ذلك جاء في كتاب البداية والنهاية: «أن عمرو بن العاص بعث أبرهة بن الصباح إلى ـ فتح ـ الفرما، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية، فقال كل منهما لأهل بلدته: إن نزلتم فلكم الأمان. فتربصوا ماذا يكون من أهل عين شمس، فلما صالحوا ـ أي أهل عين شمس ـ صالح الباقون ـ أي أهل الفرما والإسكندرية ـ وقد قال عوف بن مالك لأهل إسكندرية: ما أحسن بلدكم؟ فقالوا: إن الإسكندر لما بناها قال: لأبنين مدينة فقيرة إلى الله غنية عن الناس، فبقيت بهجتها. وقال أبرهة بن الصباح لأهل الفرما: ما أقبح مدينتكم؟ فقالوا: إن الفرما ـ وهو أخو الإسكندر ـ لما بناها قال: لأبنين مدينة غنية عن الله فقيرة إلى الناس. فهي لا يزال ساقطاً بناؤها، فشُوهت بذلك»[١] وصالح المقداد وأبرهة بن الصباح أهل الفرما وأميرها على أن يؤدي لهم ـ الجزية ـ أربعة آلاف مثقال من الذهب وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم، وأن يُمهلوه إلى تمام السنة، فإن شاء دان إلى الإسلام وإلا ارتحل بأمانه، ثم ترك المقداد وأبرهة بن الصباح قوة من المسلمين في الفرما، وسار المقداد وأبرهة وهلال بن أوس إلى البقارة فأسلم صاحبها ومن معه، ومضوا إلى القصر المشيد ففتحوه صلحاً، ثم ارتحلوا ونزلوا على الواردة وكان اسمها الورادة فسلمها أهلها[٢]. ثم عادوا إلى عمرو بن العاص وذلك في أواخر عام ٢٠هـ أو أوائل عام ٢١هـ.

* * *

وقد شهد أبرهة بن الصباح اختطاط وتأسيس الجيزة ـ كمدينة عربية إسلامية ـ منذ اختطاطها، وجاء في فتوح الشام للواقدي أن عمر بن الخطاب بعث مبعوثاً إلى مصر فلما قدم مصر: «وجد عَمْراً والصحابة نازلين بأرض الجيزة. . وكان ذلك في ربيع الأول سنة ٢١هـ وقيل سنة ٢٢ هجرية»[١] ويتيح ذلك القول بأن اختطاط الجيزة كان في تلك الفترة حيث اختطت ونزلت بالجيزة ـ من الذين شاركوا في الفتح ـ قبيلة ذي أصبح الحميرية مع همدان وقبائل يمنية أخرى، وكانت للإصابح ـ قبيلة ذي أصبح ـ خطة خاصة بهم بالجيزة ـ أي قسماً خاصاً بهم من الجيزة، وكانت عشائر ذي أصبح وعشيرة الصباح يداً واحدة منذ الجاهلية لانتمائهم المشترك إلى بني (قيس بن صيفي بن حمير)، ولذلك كان أبرهة بن الصباح عميدهم جميعاً عند اختطاط الجيزة وكذلك أبناؤه الذين كانوا معه ـ أبو شمر، وكريب، وشرحبيل يكسوم، ومعدي كرب ـ وقال بامطرف: «كان أبو شمر ـ وهو أكبر

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٧ ص٩٩.

(٢) فتوح الشام ومصر ـ للواقدي ـ جـ٢ ص٥٩ و١٣٩.

أخوته الأربعة ـ عميد قبيلة أصبح وسيدها عندما اختطت الجيزة»، ونرى أن العميد إنما هو أبرهة بن الصباح، ولكن أبا شمر كان بمثابة القائد بصفته أكبر أبناء أبرهة بن الصباح، وكان أبو شمر ـ وكذلك شرحبيل ـ ممن شاركوا في بعض فتوح العراق وما يليها في فترة ولاية أبي موسى الأشعري للبصرة في خلافة عمر بن الخطاب، وقد تكون تلك هي فترة زواج أبي شمر بابنة أبي موسى الأشعري، فقد جاء في ترجمة أبي شمر بكتاب الإصابة إنه «وفد على عمر، فتزوج بنت أبي موسى الأشعري» وجاء في كتاب الاشتقاق أنه «كان متزوجاً بابنة أبي موسى الأشعري، وله بقية في الشام. وكذلك جاء في مختصر الجمهرة لابن الكلبي، إلا أنه قال: وله بقية بمصر»[١] ويجمع ذلك أنه كان له ذرية في كل من الشام ومصر.

* * *

ولقد كان الصحابي أبو شمر بن أبرهة بن الصباح من قادة الجيش العربي الإسلامي في غزوة الأوساد ببلاد النوبة ـ بجنوب مصر وجهات السودان ـ في خلافة عثمان وولاية عبد الله بن أبي سرح لمصر ـ وفي ذلك قال بامطرف: «وأغلب الظن أن أبا شمر هو المذكور في كتاب الولاة باسم أبي سهم بن أبرهة الذي أصيبت عينه في غزوة الأساود سنة ٣١ هجرية»[٢] وأقول إنه هو بكل تأكيد، فقد جاء في الإصابة عن تاريخ دمشق لابن عساكر: «أن عبد الله بن سعد ـ ابن أبي سرح ـ غزا الأساود سنة إحدى وثلاثين، فأصيبت عين معاوية بن حُديج، وأبي شمر بن أبرهة، وجندل بن شريح، فسموا رماة الخندق». [جـ١ ص١٠٣].

* * *

وفي عام ٣٤ ـ ٣٥هـ انقسم الناس بسبب بعض سياسات عثمان بن عفان في العراق ومصر وغيرها، ويبدو أن أبرهة بن الصباح كان قد بلغ من الكِبَر عتياً، وأصبحت زعامة الأسرة والعشيرة في أبي شمر بن أبرهة وكريب بن أبرهة، وبلغ الانقسام آنذاك ثم في فترة الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان واستخلاف عليّ؛ بلغ الانقسام إلى حد انقسام الأسرة والبيت الواحد، فيقول بامطرف أنه «بينما كان أبو شمر بن أبرهة من الثائرين ضد عثمان، كان أخوه كُريب من شيعة بني أمية» وقال بامطرف أن أبا شمر «ربما ذُكر في كتاب الولاة باسم أبي شمس بن أبرهة الذي قتله معاوية سنة ٣٦هـ فيمن قَتَل من زعماء الثورة ضد عثمان من أهل مصر»، ولكن افتراض بامطرف هذا غير سليم، فقد جاء في الإصابة من طريق يحيى بن بكير عن

(١) الاشتقاق للمرزباني ـ ص٥٢٨ ـ هامش الإكليل ـ جـ٢ ص١٤٩.
(٢) الجامع لأعلام المهاجرين من اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص٩٣.

الليث: أن أبا شمر بن أبرهة كان من جملة الذين خرجوا مع ابن أبي حذيفة إلى معاوية في الرهن، ثم كسروا السجن وخرجوا، وامتنع أبو شمر فقال: لا أدخله أسيراً وأخرج منه آبقاً، فأقام». وتتصل تلك الواقعة بقول بامطرف عن أسرة الصباح أنه «ومنهم، من غير أسرة أبرهة بن الصباح، سَوْدان بن أبي رومان، وكان من قادة جيش ابن أبي حذيفة الستة إلى عثمان»، ويبدو من مجمل ذلك أن أبا شمر تعرض للاعتقال في تلك الفترة ثم خرج من السجن، ولما بويع عليّ بن أبي طالب بالخلافة واستقر بالكوفة سار إليه أبو شمر فكان من أصحابه، وقد تقدم حديث علي بن أبي طالب عن أقدم العرب وأنه «أقبل أبو شمر بن أبرهة، فقال عليّ: وقوم هذا وهُمْ بقية قوم تُبع».

ثم كان أبو شمر بن أبرهة من الصحابة والقادة الذين ساروا من الكوفة إلى صفين مع الخليفة علي بن أبي طالب لقتال أهل الشام ومصر الذين ساروا مع أمير الشام معاوية بن أبي سفيان وكان منهم كريب بن أبرهة بن الصباح، فلما اندلعت موقعة صفين كان كُريب في جيش الشام وكان أبو شمر في جيش العراق، بحيث كما جاء في كتاب الإكليل «إن أبا شمر بن أبرهة، قُتِل مع عليّ رحمه الله بصفين». وذلك في صفر ٣٧ هجرية، وكان أخوه كُريب بن أبرهة من قادة جيش الشام الذين دعوا إلى إيقاف الحرب وتحكيم كتاب الله في صفين، فتوقفت الحرب، وتم الاتفاق على التحكيم واختيار عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري كحكمين، ولما التقى الحكمان في رمضان ٣٨ هجرية بدومة الجندل قال أبو موسى مقولته التي بها استهلينا هذا المبحث: «لو كانت الخلافة تُستحقُ بالشرف لكان أحق الناس بها أبرهة بن الصبّاح، فإنه من أبناء ملوك اليمن التبابعة الذين ملكوا مشارق الأرض ومغاربها».

وكان الصحابي القيل أبرهة بن الصباح قد بلغ ـ آنذاك ـ من الكبر عتياً، وبات شيخاً عجوزاً، وبما أنه كان له أبناء وأسرة في كل من مصر والشام، فقد قضى أيامه الأخيرة بين أبنائه وأسرته بالشام، حيث جاء في الإكليل إنه «مات بالشام» وقد كانت وفاته ـ غالباً ـ عند نهاية عصر الخلفاء الراشدين وبداية عصر الخلفاء الأمويين للدولة العربية الإسلامية.

٢٢

كُريب بن أبرهة بن الصباح

ـ سَيدُ فسطاط مصر ـ

مِنْ أعلام الأذواء والقادة اليمانيين في موكب الصحابة والفاتحين والزعماء هو أبو رِشدين كِريب بن أبرهة بن الصباح الحميري، وكان يسير في موكبه بمصر «خمسمائة فارس من حمير»[١] وقال عنه أبو الحسن المسعودي في مروج الذهب: ـ كان ـ سيد الفسطاط وزعيمها: أبو رشدين (بن) كُريب بن أبرهة بن الصباح»[٢].

* * *

لقد بدأ تاريخ كُريب في موكب الصحابة والفاتحين منذ وفادته إلى رسول الله ﷺ مع أبيه القيل أبرهة بن الصباح في السنة العاشرة للهجرة، وقد أثبت غير واحد من العلماء ورجال الأحاديث النبوية وتراجم الصحابة بأن كريب بن أبرهة بن الصباح كان من الصحابة، فجاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة عن ابن عساكر أنه «يكنى أبا رِشدين، . يُقال له صحبة» ثم أردف ابن حجر العسقلاني قائلاً: «ـ وقد ذكره البغوي في الصحابة من طريق علي الجهضمي عن جرير بن عثمان عن سعيد بن مرة عن حوشب عن كريب بن أبرهة من أصحاب النبي ﷺ عن أبي ريحانة من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: الكبر مَنْ سفه الحق وغمص الناس بعينه»[٣] وقد أخرج يعقوب بن سفيان من طريق آخر عن كريب بن أبرهة عن أبي ريحانة أنه قال قائل: يا رسول الله إني أحب أن أتجمل بعلاق سوطي وشسع نعلي، فقال له النبي ﷺ: إن ذلك ليس بالكبر، إن الله جميل يحب الجمال إنما الكبر من سفه الحق وغمص الناس بعينه». ثم قال ابن حجر: «وقد ذكره في التابعين البخاري والعجلي وابن حبان وغيرهم، ونقل أبو موسى عن جعفر المستغفري قال: لم يثبت صحبته غير أبي حاتم»[٣] بينما يتبين مما تقدم أن

---

(١) الإصابة ـ جـ٣ ص٣١٣ ـ الإكليل ـ جـ٢ ص١٥٠ ـ الجامع ص٤٥٧.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ـ جـ٣ ص٩٧.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص٣١٣ ـ ٣١٤.

البغوي ذكره في الصحابة وقال: (..كريب بن أبرهة صاحب النبي ﷺ وكذلك ذكره في الصحابة يعقوب بن سفيان وكذلك فقد أثبت صحبته أبو حاتم، وبذلك كله يتحقق اليقين والعلم بأنه من الصحابة، بينما قال البخاري والعجلي وابن حبان وابن عساكر أنه من التابعين، وبذلك أيضاً يتحقق العلم بأنه من التابعين، فيكون قد جَمَعَ الشرفين؛ شرف الصحابة وشرف التابعين.

* * *

وكان كريب بن أبرهة بن الصباح من قادة وفرسان فتح الشام، وقد تقدم نبأ هجرته مع أبيه وإخوته إلى الشام في الفتوحات في خلافة عمر بن الخطاب ـ سنة ١٤ هجرية ـ قال ابن حجر: «ووجدت في تاريخ ابن عساكر بسند له إلى يزيد بن أبي حبيب أن عبد العزيز بن مروان قال لكريب: أشهدت خطبة عمر في الجابية؟ قال: نعم»[١]، وكانت خطبة عمر بن الخطاب في الجابية ـ جابية الشام ـ لما سار لاستلام بيت المقدس سنة ١٦ هجرية ثم في زيارته للجابية سنة ١٧ هجرية، فكان كريب من الصحابة الذين شهدوا تلك الأحداث التي سبقها فتح دمشق ـ في رجب ١٤هـ.

وشارك في فتح الرملة بفلسطين، ثم فتح بيت المقدس ـ سنة ١٦هـ ـ وشهد خطبة عمر في الجابية ـ سنة ١٧هـ ـ وقد كان مسيره إلى الشام واستقراره هناك مع أبيه وإخوته الذين كان كما جاء في الإكليل «هاجروا إلى الشام في خلافة عمر بن الخطاب» وكان كريب شاباً يافعاً، فتزوج في دمشق أو في الرملة بالشام، قال الهمداني: «فولد كريب بن أبرهة (رشيد) وبه كان يكنى» وقد قام القاضي الأكوع بما سماه (تصحيح) اسم ابن كريب حيث قال في هامش الإكليل: «كان في الأصل (رشيد بن كريب) والتصحيح ـ إلى (رشدين) ـ من الإصابة ومختصر الجمهرة»[٢] ونرى عدم ضرورة ذلك التصحيح فقد جاء في الإصابة عن تاريخ دمشق لابن عساكر أنه «يكنى أبا رشدين، وأبا راشد»، ومؤدى ذلك أنه كان له ابن اسمه (رشدين) وابن اسمه (راشد) أو (رشيد)، أو ثلاثة أبناء (رشدين، وراشد، ورشيد)، ويبدو أنه كان له زوجة وابن في دمشق وزوجة وابن في الرملة بفلسطين، وكذلك في اليمن، ثم في مصر، قال الهمداني: «...انتشر بنو كريب، فمن كان منهم

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص٣١٣ ـ ٣١٤.

(٢) الإكليل للهمداني ـ تحقيق محمد علي الأكوع ـ جـ٢ ص١٥٠.

في الكوفة فهم في النخع، ومنهم طائفة بشهرزور وآخرون بدمشق والرملة. . ومن ولد كُريب بن أبرهة: آل أبي العياش إبراهيم بن عبد الله بن مسعود بوادي ضَهر ـ بصنعاء ـ وآل يوسف بن الحكم وآل المعلى وغيرهم»(١).

وقد كان لكريب بن أبرهة أبناء وأسرة في دمشق والرملة بالشام، وكذلك في الجيزة، والفسطاط بمصر، ومما يتصل بالشام ما جاء في الإصابة عن الذين رووا أحاديثاً نبوية عن كريب بن أبرهة حيث قال ابن حجر: «روى عنه كبار التابعين من الشاميين منهم كعب الأحبار وسليم بن عامر ومرة بن كعب وغيرهم»(٢) وكذا ما ذكره ابن حجر عن ابن الكلبي قال: «كريب بن أبرهة والد رشدين: كان سيد حمير بالشام زمن معاوية. .»(٢).

وقد شهد كريب فتح مصر مع أبيه وإخوته منذ دخول الجيش العربي الإسلامي إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص ـ عام ١٩هـ ـ إلى غزوة الأساود ـ عام ٣١هـ ـ وكان له قصر في الجيزة منذ اختطاطها، وفي ذلك جاء في ترجمته بالإصابة أنه: «شهد كريب فتح مصر، واختط بالجيزة، ولم يزل قصره بها إلى بعد الثلمائة ـ أي إلى بعد سنة ٣٠٠ للهجرة ـ»(٢) وجاء في ترجمته بكتاب الجامع: «كريب بن أبرهة بن الصباح: أمير يماني. . شهد فتح مصر، وسكن الجيزة»(٣).

ولما وقعت حركات المعارضة للخليفة عثمان بن عفان في أواخر عهده ـ عام ٣٤ ـ ٣٥هـ وقف كريب بن أبرهة إلى جانب عثمان بن عفان والذين معه، وضد المناوئين لعثمان، بحيث قال بامطرف: «كان كريب من شيعة بني أمية، وممن عمل على إذكاء حركة عبد الرحمن بن جحدم»، كما شهد صفين مع أهل الشام، وقال بامطرف: «تحولت قبيلة أصبح إلى المعسكر الأموي في عهد زعيمها القوي كريب بن أبرهة بن الصباح»(٣) وكان ذلك عند وفاة أبرهة بن الصباح وانتهاء عصر الخلفاء الراشدين، وبداية عصر الخلفاء الأمويين للدولة العربية الإسلامية.

* * *

(١) الإكليل للهمداني ـ تحقيق محمد علي الأكوع ـ جـ٢ ص١٥٠.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص٣١٣ ـ ٣١٤.
(٣) الجامع ـ محمد عبد القادر بامطرف ـ ص٩٣ و٤٥٧.

وقد تواصلت المكانة العالية لكريب بن أبرهة بن الصباح في العصر الأموي، وفي ذلك قال القاضي محمد بن على الأكوع فيما نقله عن كتاب الجمهرة لابن الكلبي والاشتقاق والإصابة في هامش الإكليل: «كان كريب بن أبرهة من أعلام قحطان وزعماء حمير وسيد حمير بالشام ومصر في زمن معاوية.. وكان إذا ركب حَفّ به خمسمائة من حمير في السلاح»[١]، فكان كريب من أعيان رجال الدولة بمصر في عهد معاوية (٤١ ـ ٦٠هـ) ويزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٤هـ) وكان من ولاة مصر في تلك الفترة ثلاثة صحابة يمانيين هم عقبة بن عامر الجهني ومعاوية بن حُديج السكوني ومسلمة بن مخلد الأنصاري[٢].

* * *

وكان كُريب سيد وزعيم الفسطاط ـ عاصمة مصر ـ لما اضطرب أمر الخلافة بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية، وظهر عبد الله بن الزبير بمكة والجزيرة العربية وحركة التوابين في العراق ومروان بن الحكم في الشام، ونال مروان تأييد يمانية الشام بزعامة حسان بن مالك بن بحدل الكلبي الحميري أمير الأردن وفلسطين حيث أتى إليه مروان وبعض بني أمية وهو بالأردن، قال المسعودي: «واشترط حسان بن مالك، وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام؛ اشترط حسان على مروان ما كان لهم ـ أي لليمانية ـ من شروط على معاوية، وابنه يزيد، وابنه معاوية بن يزيد: منها أن يفرض لهم لألفيّ رجل الفين الفين ـ في العطاء ـ وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي، وَصَدْر المجلس، وكل ما كان من حلّ وعقد فعن رأى منهم ومشورة، فرضي مروان بذلك»[٣]. فدانت الشام لمروان، قال المسعودي: «وسار مروان في جنوده من الشام إلى مصر، فحاصرها وخَنْدَقَ عليها خندقاً مما يلي المقبرة، وكانوا زُبيرية عليهم ـ عامل ـ لابن الزبير، وهو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم، وسيد الفسطاط يومئذ وزعيمها أبو رِشدين كريب بن أبرهة بن الصباح. فكان بينهم ـ أي أهل مصر الموالين لابن الزبير، وبين مروان قتال يسير، وتوافقوا على الصلح، [وذلك بسبب استجابة كريب لرأي حسان بن مالك بأن يكون أمر اليمانية بالشام ومصر واحداً] ثم قتل مروان أكيدر بن الحمام صبراً ـ أي إعداماً ـ وكان فارس مصر ـ فقال أبو رشدين

---

(١) الإكليل للهمداني ـ تحقيق محمد علي الأكوع ـ جـ٢ ص١٥٠.

(٢) كان عقبة بن عامر والياً لمصر من ٤٤ ـ ٤٧هـ ومعاوية بن حديج من٤٧ ـ ٥٠هـ ومسلمة بن مخلد من ٥٠ ـ ٦٢هجرية.

(٣) مروج الذهب ـ جـ٢ ص٩٥ ـ ٩٧.

كريب بن أبرهة لمروان: إن شئت والله أعَدْنَاها جَذَعَة، يعني يوم الدار بالمدينة، فقال مروان: ما أشاء من ذلك شيئاً، وانصرف عن مصر وقد استعمل عليها ابنه عبد العزيز. وقدم مروان الشام فنزل الصميرة على ميلين من طبرية من بلاد الأردن، فأحضر حسان بن مالك.. فقام حسان في الناس خطيباً، ودعاهم إلى بيعة عبد الملك بن مروان ـ بعد مروان ـ وبيعة عبد العزيز بن مروان بعد عبد الملك، فلم يخالفه في ذلك أحد، وهلك مروان بدمشق في هذه السنة، وهي سنة خمس وستين.. وبُويع عبد الملك بن مروان في رمضان من سنة ٦٥ للهجرة»[١].

* * *

ولقد كان من معالم أنباء كريب بن أبرهة بن الصباح في ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر (٦٥ ـ ٨٥هـ) وخلافة عبد الملك بن مروان:

ـ استمرار مكانة كريب بصفته سيد وزعيم الفسطاط ـ عاصمة ولاية مصر ـ وقد وصف عبد الله بن الأشج موكب كريب بن أبرهة بن الصباح بالفسطاط أيام عبد العزيز بن مروان، حيث جاء في الإصابة من طريق يعقوب بن عبد الله بن الأشج ـ قال ـ: قدمت مصر في أيام عبد العزيز بن مروان فرأيتُ كريب بن أبرهة قد خرج من عنده وتحت رِكَابه خمسمائة نفس من حمير يسعون»[٢].

وقال بامطرف في كتاب الجامع: «كان كريب بن أبرهة بن الصباح من أشراف أهل مصر، ويبدو أنه صار سيد حمير جميعها، فقد رآه أحدهم يخرج من عند عبد العزيز بن مروان وكان تحت ركابه خمسمائة رجل من حمير»[٢].

ومؤدى ذلك أن كريب بن أبرهة كانت تحيط به في مصر نفس مظاهر الأبهة والزعامة التي كانت لملوك وأقيال حمير باليمن، وذلك لأنه سليل أولئك الملوك ومن أولئك الأقيال، وقد كان له قصر شامخ في الجيزة ربما كان يضاهي قصر آبائه وأجداده في مدينة موكل الحميرية باليمن التي منها نقل كريب مظاهر زعامته إلى مصر.

ـ ويبدو أن مظاهر الأبهة والزعامة لكريب بن أبرهة بن الصباح لم تكن محل ارتياح الخليفة عبد الملك بن مروان، وربما كان ذلك سبب حديثهما عن الكبر ـ أي التكبر ـ فجاء في هامش الإكليل وفي الإصابة عن طريق ثوبان بن شهر قال: «سمعت كريب بن أبرهة وكان جالساً مع عبد الملك في سطح بدير مران، فذكر الكبر ـ أي ذَكَر عبد الملك بن مروان الكبر ـ فقال كريب: سمعت أبا ريحانة يقول

(١) مروج الذهب ـ جـ٢ ص٩٥ ـ ٩٧.
(٢) الإصابة ـ جـ٣ ص٣١٣ ـ الجامع ـ ص٩٣.

لا يدخل الجنة شيء من الكبر، فقال قائل: يا رسول الله إني أحب أن أتجمل بعلاق سوطي وشسع نعلي، فقال له النبي ﷺ: إن ذلك ليس من الكبر إن الله جميل يحب الجمال، إنما الكبر (مَنْ) سفه الحق وغمص الناس بعينه».

ـ وقد تولى كريب رابطة الإسكندرية ـ أي ولاية وقيادة الإسكندرية والقوات المرابطة فيها ـ فجاء في هامش الإكليل أنه «وُلي كريب بن أبرهة رابطة الإسكندرية» وجاء في كتاب الإصابة أنه: «وُلي كريب لعبد العزيز رابطة الإسكندرية، وكان شريفاً في أيامه بمصر».

ولقد كان اليمانيون في مصر هم عماد الدولة والمتولين لمسؤوليات الدولة في ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر حيث كانت مراكز السلطة هي الشرطة والقضاء وبيت المال والنيابة وإمارة الإسكندرية، فكان صاحب الشرطة وقاضي مصر هو عابس بن سعيد المرادي (٦٤ ـ ٦٨هـ) ثم تولى منصب صاحب الشرطة زياد بن حناطة التجيبي اليماني ولما سار عبد العزيز إلى دمشق استخلف زياد بن حناطة فتولى حكم مصر بالنيابة وتوفي عام ٧٥هـ ثم أصبح عبد الرحمن بن حسان التجيبي صاحب الشرطة (٧٦ ـ ٨٤هـ) بينما تولى القضاء وبيت المال بمصر عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني (٦٩ ـ ٨٣هـ) وكان مالك بن شراحيل الهمداني قاضي مصر (٦٩ ـ ٨٤هـ) ثم تولى قضاء مصر يونس بن عطية الحضرمي (٨٤ ـ ٨٦هـ) وكان جناب بن مرثد الرعيني الحميري من الأمراء القادة واستنابه عبد العزيز بن مروان على مصر وقد توفي جناب الرعيني عام ٨٣هـ. وأما الإسكندية فقد تولى رابطتها كريب بن أبرهة وكان قد بلغ من الكبر عتياً، فمكث أميراً قائداً لرابطة الإسكندرية فترة من الزمن ثم عاد إلى الجيزة، وتولى الإسكندرية عياض بن غُنم التجيبي.

ـ وفي عام ٧٥ هجرية (٦٩٤م) توفي كريب بن أبرهة بن الصباح ـ رضي الله عنه ـ في الجيزة بمصر.

* * *

ولاية أيوب بن شرحبيل لمصر

وبوفاة كريب بن أبرهة بن الصباح انتقلت مرتبته ومكانته في الزعامة بمصر إلى ابن أخيه أيوب بن شرحبيل يكسوم بن أبرهة بن الصباح الحميري، وكان أيوب بن شرحبيل من الفضلاء الصلحاء ومن ذوي الدراية في شؤون إدارة الدولة وسياستها.

وفي عام ٩٩ هجرية أصبح أيوب بن شرحبيل والياً لمصر كلها، وذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز، وكان أيوب بن شرحبيل ـ كما جاء في ترجمته ـ

«. . من النبلاء الصلحاء، وُلي مصر لعمر بن عبد العزيز (أول سنة ٩٩هـ) وحسنت أحوال مصر في أيامه، واستمر والياً لمصر إلى أن توفي فيها. مدة إمارته سنتان ونصف سنة. ومما هو جدير بالذكر، أنه خلال إمارته بلغت هجرة اليمنيين من اليمن إلى مصر خمسة آلاف، وذلك في سنة ١٠٠ هجرية»[١] وكانت ولايته لمصر إلى أن توفي بها سنة ١٠١هجرية (٧٢٠م) كما في تحفة الناظرين[١].

وقد كان أيوب بن شرحبيل بن أبرهة بن الصباح الحميري من أهم الولاة اليمانيين لمصر والذين كان لهم إسهاماً وافراً في تأسيس وترسيخ العصر الإسلامي في مصر.

* * *

(١) الجامع لبامطرف ـ ص١٠١ ـ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين للشرقاوي ـ ص١٢.

٢٣

عُقبَة بن عامر الجُهَني

ـ ثاني الولاة اليمانيين لمصر ـ

هو الصحابي الجليل عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو بن عدي بن عمرو بن رفاعة بن مودعة بن عدي بن غُنم بن الربعة بن رشدان بن قيس بن جُهينة الجهني[(١)] من قبيلة: جُهَيْنة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلُم بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير بن عمرو بن مرّة بن زيد بن مالك بن حمير[(٢)] وكانت جهينة قبيلة كبيرة والنسبة إليها (جُهَنِي). قال ابن خلدون: «. . وقال عمرو بن مرة الجهني وهو من الصحابة:

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قضاعة ابن مالك ابن حمير
النسب المعروف غير المُنكر»[(٢)]

وكانت (جُهينة) و(بَلِيْ) من القبائل القضاعية الحميرية التي تساهم بدور وافر في النشاط التجاري للدولة الحميرية ـ في العصر الحميري ـ من خلال السيطرة والحماية للطرق التجارية البرية الساحلية والبحرية إلى الشام وإلى الساحل الغربي للبحر الأحمر، ولذلك امتدت وانتشرت مواطن جهينة وبَلِيْ من مناطقها في صعدة وأعالي تهامة والسروات باليمن إلى ينبع وساحل يثرب وخليج العقبة، وقد ذكر ابن خلدون ذلك الانتشار لجهينة وبلى قائلاً: «فجهينة ـ (انتشرت) ـ ما بين الينبع ويثرب في متسع من برية (ساحل) الحجاز، وشمالهم إلى عقبة أيلة مواطن بَلِيْ، وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القلزم، وأجاز منهم أممُ إلى العدوة الغربية، وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة، وكاثروا هنالك سائر الأمم»[(٢)]. وكان ذلك في إطار النشاط التجاري الحميري والسيطرة على الطرق التجارية وتأمينها، وقد دلت الدراسات على أن قبيلة جهينة كانت تسيطر على «ينبع وما حولها من الساحل الحجازي الغربي، وكانوا يمارسون الملاحة البحرية بين غرب ـ الجزيرة العربية ـ والسواحل المصرية السودانية على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر»[(٣)]. وقد

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٢ ص٤٨٩.
(٢) كتاب العرب وديوان المبتدأ والخبر ـ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٢٤٤.
(٣) الجامع لأعلام المهاجرين اليمنيين ـ محمد بامطرف ـ ص١٤٥.

استمر ذلك الواقع إلى نهاية العصر الحميري وفترة الجاهلية، فجاء الإسلام وعشائر قبيلة جهينة بعضها في أعالي وسروات اليمن وبعضها بجهات ينبع إلى ساحل يثرب كما استقر في يثرب أفراد من قبيلة جهينة وبَلّي تذكرهم المصادر بلفظ (من أهل اليمن) لحداثة قدومهم إلى يثرب ومنهم كانت أسرة عقبة بن عامر الجُهَني.

* * *

ولقد كان عقبة بن عامر من أول من ـ بايع رسول الله ﷺ عند هجرته إلى المدينة في مطلع السنة الأولى للهجرة؛ وكان عقبة آنذاك شاباً صغير السن يرعى غنماً لأسرته، فلما سمع بقدوم رسول الله ﷺ انطلق إليه ليبايعه، وقد سجلت كتب الأحاديث النبوية وتراجم الصحابة نبأ ذلك، قال ابن حجر العسقلاني: «. . وفي صحيح مسلم من طريق قيس ابن أبي حازم عن عقبة بن عامر قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا في غنم لي أرعاها، فتركتها، ثم ذهبت إليه، فقلت: بايعني، فبايعني على الهجرة. الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي»(١).

وجاء في الإكليل للحسن بن أحمد الهمداني: «عن عقبة بن عامر الجهني قال: بلغني قدوم النبي ﷺ المدينة، فقدمت عليه فقلت: يا رسول الله بايعني. فقال: أبيعة أعرابية أم بيعة هَجَرية؟ فقلت: بل بيعة هَجَرية، فبَايَعَني»(٢).

* * *

ومنذ ذلك اليوم في مطلع السنة الأولى للهجرة أخذ عقبة بن عامر مكانه بين أصحاب رسول الله ﷺ، وقد أتاح له كونه شاباً يافعاً أن يتقن الكتابة وأن يحفظ ما نزل وينزل من القرآن ويستوعب الأحاديث النبوية ويتفقه في الفرائض والفقه والعلوم، وأن يبلغ في ذلك كله ما لم يبلغه أكثر الصحابة، فأصبح عقبة بن عامر من أشهر وأعلم أصحاب رسول الله ﷺ.

فجاء في ترجمته بكتاب الإصابة أنه «الصحابي المشهور» وأنه «كان قارئاً عالماً بالفرائض والفقه، فصيح اللسان، شاعراً، كاتباً، وهو أحد من جمع القرآن»(٣).

وجاء في ترجمته بهامش الإكليل: هو أبو حماد عقبة بن عامر الجهني، صحابي مشهور، له رواية وفضل وله معرفة بالقرآن، وكان فصيحاً شاعراً، كاتباً، قارئاً، له هجرة وسابقه، وكتب مصحفاً بيده». . وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن ـ ذات مرة

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٢ ص٤٨٩.
(٢) الإكليل ـ لأبي الحسن الهمداني ـ جـ٢ ص٢٤٠.
(٣) الإصابة ـ جـ٢ ص٤٨٩ ـ الإكليل ـ جـ٢ ص٢٤٠ ـ الجامع لبامطرف ص٣٧٧.

ـ قال له عمر: اعرض علي فعرض عليه سورة براءة، فبكى عمر وقال: ما كنت أظن أنها نزلت ـ أي ما كأني كنت أسمعها لحسن ما حبَّره عقبة بتلاوته»[١].

وجاء في كتاب الجامع أن عقبة بن عامر الجهني: «**كان رديف النبي ﷺ**.. وكان شجاعاً فقيهاً، شاعراً قارئاً، من الرّماة، وهو أحد من جمع القرآن، له خمسة وخمسون حديثاً»[١].

وكان عقبة بن عامر حافظاً عالماً بالأحاديث والسنة النبوية، قال ابن حجر العسقلاني: «روى ـ عقبة بن عامر ـ عن النبي ﷺ كثيراً ـ من الأحاديث وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس، وأبو أمامة، وجبير بن نفير، وبعجة بن عبد الله الجهني، وأبو إدريس الخولاني، وخلق من أهل مصر»[١].

وقال القرطبي في ترجمته بكتاب الاستيعاب: «روى عن عقبة بن عامر من الصحابة: جابر، وابن عباس، وأبو أمامة، ومسلمة بن مخلد، أما رواته من التابعين فكثير»[٢].

* * *

ولقد كان عقبة بن عامر وقبيلةُ جهينة في طلائع الجيش العربي الإسلامي الذي انطلق لفتح الشام في صفر ١٣ هجرية وكانوا في الجيش الرابع الذي تولى قيادته عمرو بن العاص في فتح غزة ومناطق من فلسطين ثم اجتمعت الجيوش الأربعة في موقعة اليرموك وغيرها وفي فتح دمشق (في رجب ١٤هـ)، فكان عقبة بن عامر أحد الصحابة الذين تسلموا ودخلوا مدينة دمشق يوم افتتاحها.

قال ابن حجر العسقلاني: «وشهد عقبة بن عامر الفتوح، وكان هو البريد إلى عمر بن الخطاب بفتح دمشق»[١].

ثم شهد عقبة بن عامر فتح القدس (سنة ١٦هـ) وبقية فتوح الشام التي شهدها عمرو بن العاص لأن جهينة كانت في الجيش الذي تولى قيادته عمرو بن العاص، وقد استقرت فرقة من قبيلة جهينة في الأردن وهم «فرع يسمى آل جهينة من عشائر شرقي الأردن»[١].

* * *

وكان لعقبة بن عامر وقبيلة جهينة إسهاماً وافراً في الفتح العربي الإسلامي لمصر بمعية عمرو بن العاص في كتيبة (أهل الراية) وكان لمصطلح (أهل الراية)

---

(١) الإصابة ـ جـ٢ ص٤٨٩ ـ الإكليل ـ جـ٢ ص٢٤٠ ـ الجامع لبامطرف ص٣٧٧.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ جـ٣ ص١٠٦.

مدلول خاص في فتح مصر، وذلك لأن الجيش العربي الذي فتح مصر كان مؤلفاً ومنظماً على أساس قبلي، فكان أفراد كل قبيلة يُكونون كتيبة مستقلة ذات راية تميزها عن غيرها من الكتائب ـ مثل كتيبة همدان ـ كتيبة مراد ـ كتيبة كندة ـ كتيبة حمير ـ وغيرها ـ ولكن كانت هناك قبائل لم يحضر الفتح منها سوى بعض عشائرها أو كانت قليلة العدد، ولم يكن عددها كافياً لتكوين كتيبة ـ أي لواء عسكري بمصطلح أيامنا ـ ولم تقبل تلك العشائر أن تقف تحت راية غيرها، فقام عمرو بن العاص بجمعهم معاً وجعل لهم راية خاصة بهم ـ قيل إنها كانت رايته هو بصفته القائد العام للجيش ـ وقد تكونت كتيبة أهل الراية من كل من (الأنصار، وخُزاعة، وجُهينة، وقضاعة، ودوس، وعبس، وجرش ـ هؤلاء يمانيون قحطانيون ـ ومن قريش، وأسلم، وغِفار، ومُزينة، وثقيف، وأشجع، وليث بكر ـ هؤلاء عدنانيون ـ) وأصبحوا يُسمون (أهل الراية).

وجاء في كتاب الجامع إن عقبة بن عامر الجهني «حضر فتح مصر مع عمرو بن العاص» وإنه كان «شجاعاً، ومن الرّماة» وإنه «في مصر شهدت جهينة الفتح بالجمهور الأكبر منها، وكانت وثيقة الصلة بأقسام قضاعة الأخرى رغم أن جهينة كانت من أهل الراية، وقد اختطت معهم حول عمرو والمسجد (؟) ـ [أي: حول مسجد عمرو بالفسطاط لما تم اختطاط الفسطاط] ـ وكانت جهينة مع أهل الراية في الديوان ـ [أي ديوان العطاء] ـ إلى أن استُخرجت منه في التدوين الرابع سنة ١٠٢هـ وضُمّت إلى فرقة قضاعة».

وقد كان لعقبة بن عامر دور بارز في فتوح البهنسا في صعيد مصر وجنوبها، وكانت فتوح البهنسا أصعب فتوح مصر، قال الواقدي في فتوح البهنسا «كان في القلب ـ قلب الجيش ـ عمرو بن العاص وخالد وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن عامر الجهني وبقية الأمراء أصحاب الرايات ممن شهدوا الوقائع مع رسول الله ﷺ[١] وأنه «جهز عمرو العساكر إلى الصعيد وبعث طليعة ـ جيشاً ـ عليهم قيس بن الحرث ومعه جماعة من أمرائهم منهم رفاعة بن زيد المحاربي والقعقاع وعقبة بن عامر الجهني وذو الكلاع الحميري رضي الله عنهم، وساروا يسيرون في وسط البلاد وبقية العساكر قريبة منهم، فمن أطاعهم وطلب الأمان أمّنوه وصالحوه ووضعوا عليه الجزية، ومن أبى قاتلوه، ومن أسلم تركوه»[١].

وكان عقبة من أمراء وقادة الجيش العربي الإسلامي في محاربة البطريك

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ٢ ص١٤٦ و١٥٦ و١٨٦.

بطليموس ومن معه من الروم والنصارى في دهشور ومدينة البهنسا، قال الواقدي: (حدثنا عبد الله بن عون حدثنا جابر بن سنان عن عقبة بن عامر قال: كان الروم والنصارى يرمون بالحجارة والسهام، ولقيَ المسلمون من البطليموس أمراً عظيماً لم يروا قبله مثله، فصبر المسلمون صبر الكرام[١] وكان عقبة بن عامر على رأس القوة الإسلامية في (باب قندس) بمدينة البهنسا، ومن اقتحام (باب القندس) بدء الفتح الذي تتوج بفتح تلك المدينة وسقوط آخر معقل روماني، ورفرفت راية الإسلام في صعيد مصر، وكان ذلك في آخر خلافة عمر بن الخطاب.

ثم كان لعقبة بن عامر وقبيلة جهينة ومعها قبيلة بَلي القضاعية الحميرية دوراً أكبر في فتح بلاد النوبة ـ بجنوب مصر وشمال السودان ـ في خلافة عثمان بن عفان، بحيث قال ابن خلدون في حديثه عن قبائل قضاعة وعن جهينة وبلي ـ بالذات ـ أنهم «غَلَبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم، وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد»[٢] وجاء في كتاب الجامع عن قبيلة جهينة أنهم «حطموا مملكة النوبة المسيحية التي كانت تمثل أقوى دفاع كان يقوم على أراضي أعالي النيل في وجه فتوح العرب والإسلام».

إن ذلك الدور الكبير لقبيلة جهينة لا يتناسب مع عدد الذين دخلوا مصر منهم مع عقبة بن عامر في بداية الفتح حيث كانوا ضمن كتيبة (أهل الراية)، مما يدل على أمرين، **أحدهما**: وجود عدد كبير من عشائر جهينة وبَليْ في صعيد مصر ومشارقها الساحلية منذ ما قبل الإسلام ـ كما تقدم في نص ابن خلدون ـ فأسلموا وانضموا إلى عشيرة جهينة الذين دخلوا مع عقبة بن عامر. **والأمر الثاني**: إن بقية عشائر قبيلة جهينة الذين كانوا في اليمن وينبع ما لبث أن انطلقوا إلى مصر وانضموا إلى الذين دخلوا مع عقبة بن عامر. ولذلك كانت قبيلة جهينة قبيلة كبيرة في فتح بلاد النوبة بحيث تمكنت من تحطيم مملكة النوبة القوية، والتقدم إلى ما يليها من السودان والحبشة، وافتتاحها والاستقرار بمناطق منها ونشر الإسلام في تلك الأرجاء الممتدة من صعيد مصر والنوبة إلى السودان واريتريا والحبشة، وقد نقل بامطرف في كتاب الجامع أن من قبيلة جهينة «بطون كثيرة انتشرت بين صعيد مصر والسودان وارتيريا والحبشة وبلاد النوبة.. وأهم ذكر لجهينة في نسب السودانيين أنهم وصلوا إلى نيف وخمسين قبيلة على النيل الأزرق وكُردُفان ودارفور.. ومن فروع جهينة الحلاويون بالسودان».

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ٢ ص١٤٦ و١٥٦ و١٨٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٢٤٥.

أما في مصر فقد انتشر واستقر كثيرون من جهينة في صعيد مصر العليا (الوجه القبلي) في بلاد أخميم أعلاها وأسفلها، وهناك فرع من جهينة منازلهم بمنطقة الشرقية والقليوبيه وقِنا من الديار المصرية.. كما سكنت فرقة من جهينة بمنطقة الأشمونين.. أما في مدينة الفسطاط فكانت خطة جهينة ـ أي مساكنها ـ حول مسجد عمرو منذ اختطاطها، وبها كان دار عقبة، وفي ذلك قال القرطبي: «سكن عقبة بن عامر مصر وكان والياً عليها، وابتنى بها داراً». [جـ٣ ص١٠٦ ـ الاستيعاب].

***

ولاية عقبة بن عامر لمصر

لقد كان عقبة بن عامر أحد كبار الصحابة والقادة في مصر منذ بداية فتحها ـ عام ٢٠هـ ـ إلى أن أصبح والياً عليها سنة ٤٤ هجرية.

وإذا نظرنا إلى تلك الفترة (٢٠ ـ ٤٤هـ) يمكن القول إن المدة من (٢٠ ـ ٣٥هـ) كانت فترة فتوحات واستيطان للفاتحين وبداية العصر العربي الإسلامي بمصر، وقد كان لعقبة بن عامر في ذلك إسهامه الوافر، ثم تلت ذلك الفترة من (٣٦ ـ ٤٠هـ) وهي فترة الفتنة الكبرى التي بدأت بمقتل عثمان واستخلاف علي بن أبي طالب، وقد تولى مصر في بداية تلك الفترة أول الولاة اليمنيين لمصر وهو قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي، قال الشرقاوي: «وكان الوالي على مصر في مدة خلافة عليّ: قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، تولى عليها سنة ست وثلاثين من الهجرة وأقام على ولايته حتى أرسل له معاوية يدعوه إلى القيام بطلب دم عثمان، ووعده أن يكون نائبه على العراقين إذا تم له الأمر، فأشيع عنه أنه بايع معاوية، فعزله عليّ»(١) ولم يصح ما أشيع عن قيس بن سعد بن عبادة، كما أن مصر لم تستقر بعد عزله، فقد ولّى عليّ بعده محمد بن أبي بكر الصديق فاضطربت مصر لأنه كان من المتهمين في قضية قتل عثمان، وانتهى أمر محمد بن أبي بكر بمقتله في مصر بتهمة الاشتراك في قتل عثمان، وكان لليمانية برئاسة معاوية بن حُديج السكوني دوراً رئيسياً في ذلك، وكان أغلب الصحابة والقادة في مصر ـ ومنهم عقبة بن عامر ـ مع أهل الشام ومعاوية بسبب قضية عثمان، فلما استتب الأمر لمعاوية أعاد تولية عمرو بن العاص على مصر وكانت الفتنة وذيولها ما زالت مستمرة، ومكث عمرو والياً على مصر إلى أن مات عمرو في مصر في شوال سنة ٤٣ هجرية فقام مكانه عبد الله بن عمرو بن العاص وما لبث أن عزله معاوية ثم

---

(١) تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ـ للإمام عبد الله الشرقاوي ـ ص١٧.

تولى مصر الصحابي الجليل عقبة بن عامر الجهني وذلك سنة ٤٤ هجرية.

وفي تولية عقبة بن عامر قال الشرقاوي «عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص وولي أخاه عتبة بن أبي سفيان ثم عزله وولي عقبة بن عامر»[١] وجاء في هامش الإكليل أن عقبة بن عامر «ولاه معاوية على مصر بعد أخيه عتبة بن أبي سفيان ثم عزله وأغزاه البحر سنة سبع وأربعين للهجرة» وجاء في ترجمة عقبة بن عامر بكتاب الإصابة «.. وأمّره معاوية على مصر، وجمع له في إمرة مصر بين الخراج والصلاة، فلما أراد عزله كتب إليه أن تغزو رودس، فلما توجه سائراً استولى مسلمة فبلغ عقبة فقال: أغربة وعزلاً، وذلك سنة سبع وأربعين». وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «ولّي مصر سنة ٤٤هـ، وعُزل عنها سنة ٤٧هـ، وولّي غزو البحر».

وننتقل من تلك النصوص إلى تبيين المعالم التالية عن عهد ولايته لمصر:

أولاً: إن عقبة بن عامر الجهني تولى مصر بعد عبد الله بن عمرو بن العاص وعتبة بن أبي سفيان، وربما كان وصول عتبة بن أبي سفيان بقرار عزل عبد الله بن عمرو وتولية عقبة ثم عاد إلى دمشق، لأن عقبة بن عامر تولى مصر سنة ٤٤ هجرية وفيها كان عزل عبد الله بن عمرو بن العاص كما في كتاب البداية والنهاية لابن كثير، وقد ذكر ابن كثير أن معاوية عزل عبد الله بن عمرو وولى معاوية بن حُديج السكوني سنة ٤٤ هجرية[٢] بينما الثابت أنه ولى عقبة بن عامر (٤٤ ـ ٤٧هـ) ثم معاوية بن حُديج السكوني (٤٧ ـ ٥٠ هجرية) فيكون أصل ما ذكره ابن كثير يتصل بما ذكره ابن حجر العسقلاني من أنه «جمع معاوية لعقبة بن عامر في إمرة مصر بين الخراج والصلاة» ـ ولم يذكر الحرب ـ مما يشير إلى أنه كان عقبة بن عامر على الخراج والصلاة ومعاوية بن حديج السكوني على الحرب، وهو وضع شبيه بوضع عمرو بن العاص في خلافة عثمان فقد كان عمرو على الصلاة والخراج وعبد الله بن أبي السرح على الحرب ثم جمع عثمان كل ذلك (الصلاة والخراج والحرب) لعبد الله بن أبي السرح، وبالتالي يمكن تكييف الوضع بأن معاوية بن حديج السكوني كان القائد الحربي لمصر في ولاية عقبة بن عامر، فكان عقبة هو الوالي وكان معاوية بن حُديج هو القائد الحربي في إطار ولاية عقبة بن عامر لمصر.

ثانياً: إن عهد ولاية عقبة بن عامر لمصر (٤٤ ـ ٤٧هـ) كان يُمثل بداية تأسيس وترسيخ بنيان الدولة ومقوماتها في مصر بعد فترة الفتوحات وفترة الفتنة،

---

(١) تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ـ للإمام عبد الله الشرقاوي ـ ص١٧.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ.

فاستتب الأمن والاستقرار منذ ولاية عقبة بن عامر لمصر. وتم تنظيم الخراج والقضاء والسجلات، حيث أسند عقبة بن عامر ذلك إلى (سليمان بن عَتُر التجيبي السكوني اليماني) وهو ـ كما جاء في كتاب الجامع ـ «فقيه، مؤرخ، وليّ القضاء في مصر عام ٤٠هـ زمن معاوية بن أبي سفيان، وهو أول من قَصّ بمصر ـ أي روى سيرة الرسول وأصحابه، والقاص يعني أيضاً المتحدث عما جاء في القرآن من ذكر الفتن والملاحم، وكان يقصُّ على الناس وهو قائم»[١] ونقل الأستاذ أحمد أمين عن كتاب القضاة للكندي «إن أول من قَصّ بمصر سليمان بن عتر التجيبي[٢]، وجُمع له القضاء والقصص» قال أحمد أمين «وهو ـ أي سليمان التجيبي ـ أول من سجل بمصر سجلاً للمواريث، وأول من قَصّ بمصر، وكانت فيه كفايتان؛ كفاية علمية في قصصه وأحكامه، وكفاية إدارية في تنظيم القضاء والخراج»[٣]. وذلك في ولاية عقبة بن عامر (٤٤ ـ ٤٧هـ) وولاية معاوية بن حُديج السكوني (٤٧ ـ ٥٠هـ) لمصر لأن سليمان التجيبي (توفي حوالي عام ٥٠ هجرية (وقبره يزار ويتبرك به المصريون) كما في كتاب الجامع، وقال أحمد أمين أنه عاش إلى حوالي عام ٦٠ هجرية.

ثالثاً: أعطى عقبة بن عامر اهتماماً لاستكمال فتح بلاد النوبة ونشر الإسلام فيها، وكان لقبيلة جُهينة دوراً رئيسياً في ذلك، فتم القضاء على مملكة النوبة المسيحية، وامتدت عمليات الفتح والتوطن العربي الإسلامي إلى السودان واريتريا والحبشة، وقد تولى معاوية بن حديج السكوني قيادة غزوات إلى النوبة والحبشة بصفته القائد الحربي، وكان من نتائج ذلك الفتح انتشار وتوطن مجموعات كثيرة من قبائل جهينة وبَليْ القضاعية الحميرية في بلاد النوبة والسودان واريتريا والحبشة ـ كما سلف التبيين ـ وانتشار الإسلام إلى تلك الأفاق.

رابعاً: انطلقت في ولاية عقبة بن عامر فتوحات شمال أفريقية بقيادة معاوية بن حديج السكوني وكان قائداً حربياً لولاية مصر، وفي ذلك قال ابن خلدون «أغزى معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج السكوني أفريقية سنة أربع وأربعين»، وقال ابن الأثير: «سار معاوية بن حديج إلى أفريقية في عسكر عظيم»[٤] ومن المفترض أن عقبة بن عامر شارك في ذلك الغزو، ثم وجدنا دليلاً على ذلك في تاريخ ابن خلدون حيث قال: «وكان عمرو بن العاص قبل وفاته استعمل

(١) الجامع لبامطرف ـ ص٢٤٩.
(٢) ولاة مصر وقضاتها للكندي، ونقل أحمد أمين الاسم بأنه «سليمان بن عِتر التُجيبي».
(٣) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص١٦٠.
(٤) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ جـ٣ ص٤٧.

عقبة بن عامر على أفريقية، فانتهى في غزوه إلى لواته ومراته فأطاعوا ثم كفروا، فغزاهم وقتل وسبى، ثم افتتح غذامس، وفي السنة التي بعدها ودّان ـ وهي من أعمال برقة ـ وكوراً من كور السودان، وأثخن في تلك النواحي وكان له فيها جهاد وفتوحات»[١] وتدل القرائن على أن ذلك كان في إطار غزو معاوية بن حديج لأفريقية سنة ٤٤ ـ ٤٥ هجرية، وسيأتي تبيين ذلك في المبحث التالي عن معاوية بن حديج.

خامساً: أعاد عقبة بن عامر تكوين أسطول بحري حربي لولاية مصر، وكانت الغزوات البحرية العربية قد توقفت منذ عشر سنوات وتلاشى الاهتمام بالبحر في فترة الفتنة الكبرى، فأعاد عقبة بن عامر تكوين أسطول بحري لفتح جزر البحر الأبيض المتوسط الأوروبية ـ من مصر ـ ولما استكمل الاستعداد لذلك، كتب إليه معاوية بن أبي سفيان بأن يغزو جزيرة رودس (اليونانية)، وربما كتب عقبة بن عامر إلى معاوية يستأذنه في الغزو، فأتى جواب وكتاب معاوية بأن يغزو جزيرة رودس، فانطلق عقبة بالسفن غازياً جزيرة رودس ـ سنة ٤٧ هجرية ـ واستناب مسلمة بن مخلد الأنصاري، وأثناء ذلك أتى كتاب معاوية بتولية معاوية بن حديج السكوني على مصر، فلما علم عقبة بن عامر قال: (أغربة وعزلاً)، ولكنه مضى إلى الجهاد كقائد للسفن والغزوات البحرية من مصر في إطار ولاية معاوية بن حُديج السكوني لمصر، فغزا جزيرة رودس وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط عام ٤٧ وعام ٤٨ هجرية.

* * *

وفي عام ٥٨ هجرية (٦٧٨م) توفي الصحابي الجليل عقبة بن عامر الجهني في الفسطاط بالقاهرة حيث ما يزال ـ (في القاهرة مسجد عقبة بن عامر، بجوار قبره)، وكان عقبة بن عامر ممن جمع القرآن الكريم وكتبه كاملاً بخط يده، وذكر ابن حجر السعقلاني عن ابن يونس قال: «رأيت مصحفه بمصر، على غير تأليف مصحف عثمان، وفي آخره: كتبه عقبة بن عامر بيده»، فرضي الله عنه وأرضاه.

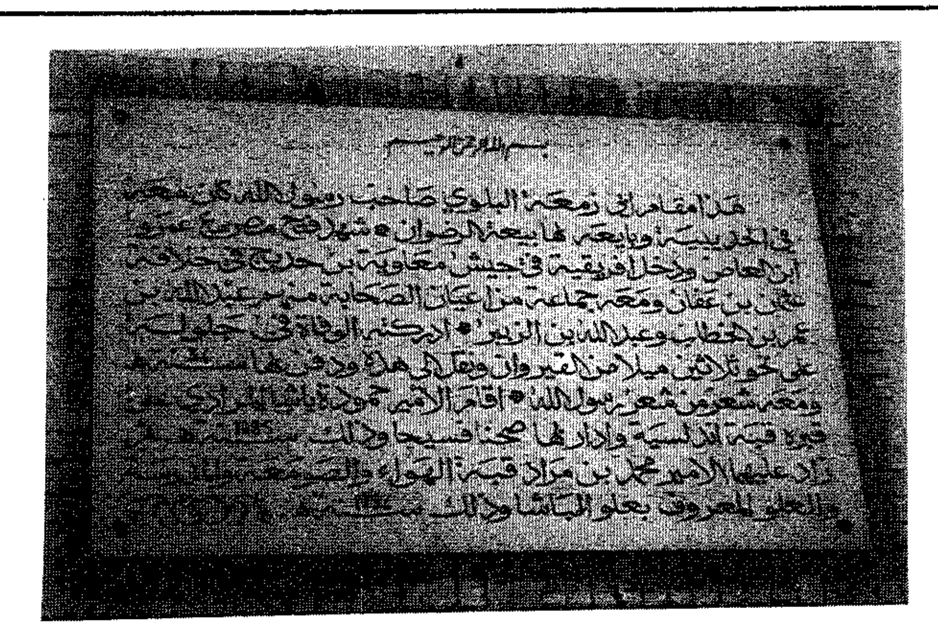
---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٠.

٢٤

معاوية بن حُدَيْج السكوني

ـ فاتح أفريقية وثالث الولاة اليمنيين لمصر ـ



صورة شاهد قبر الصحابي أبي زمعة البلوي، يذكر دخوله إفريقية في جيش معاوية بن حديج في خلافة عثمان بن عفان، ووفاته سنة ٣٤ هجرية

من كبار الأمراء والفاتحين هو الزعيم اليماني الصحابي أبو نعيم معاوية بن حُدَيْج السكوني الذي قاد جيشاً من أعيان الصحابة وفرسان الإسلام من مصر إلى أفريقية (تونس) في خلافة عثمان بن عفان، كان من بينهم الصحابي أبو زمعة البلوي القضاعي الحميري الذي يسجل شاهد قبره في تونس أنه «دخل أفريقية في جيش معاوية بن حُديج في خلافة عثمان بن عفان ومعه جماعة من أعيان الصحابة منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير. وأدركته الوفاة في جلوله على نحو ثلاثين ميلاً من القيروان، ونُقل إلى هذه ودُفن بها سنة ٣٤هـ ومعه شعر من شعر رسول الله ﷺ».

* * *

ومعاوية بن حديج هو ـ كما جاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة ـ (معاوية بن حُديج بن جَفنة بن تُجيب، أبو نعيم السكوني)[١] وفي الإكليل (معاوية بن حُديج بن جفنة بن قُتير، سيد تُجيب ورأس اليمانية بمصر)[٢] وكان معاوية بن حُديج زعيم قبيلة السكون وهم (السكون بن أشرس بن كندي)، ويلتقي نسب (السكون) و(كندة) عند (كندي) لأن كندة هو (كندة بن مرتع بن معاوية بن كندي) والسكون هو (سكون بن أشرس بن كندي)، وكندي هو: «كندي بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ»[٢].

وكانت قبيلة السكون تسكن في حضرموت وتنتشر بعض عشائر السكون إلى مدينة الجَنَد، وقد جاء في حديث معاذ بن جبل قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: يا معاذ. . قد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم، يقاتلون على الحق مرتين» إلى أن قال له رسول الله ﷺ: «فأنزل بين الحيين السكون والسكاسك»[٣] وقال عبيد بن صخر الأنصاري وكان من عمال اليمن مع معاذ «تزوج معاذ إلى بني بكرة حيّ من السكون امرأة يقال لها رملة وكان معاذ بهم معجباً، وكان معاذ يقول فيما يدعو الله به: اللهم ابعثني يوم القيامة مع السكون. ويقول أحياناً: اللهم اغفر للسكون»[٤] وكان معاوية بن حديج سيد عشيرة تُجيب السكونية وزعيم قبيلة السكون ـ بحضرموت ـ ومما يدل على علو مكانته ما جاء في الإصابة بأن «كبشة بنت معدي كرب عمة الأشعث بن قيس، هي والدة معاوية بن حُديج الصحابي المعروف»[٥].

* * *

صحبة معاوية بن حُديج لرسول الله ﷺ

وقد أسلم معاوية بن حديج باليمن مع قبيلة السكون لما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصاري إلى اليمن، ثم وفد إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة فصحب رسول الله ﷺ فترة من الزمن وعاد إلى اليمن مع والدته كبشة بنت معدي كرب عمة الأشعث بن قيس الكندي.

وثمة رواية ثار بسببها جدل حول صحبة معاوية بن حديج السكوني، وقد

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ جـ٣ ص٤٣٠.
(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ٢ ص١٥ و٢٣١.
(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٣ ص٩٩.
(٤) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٢ ص٢١٥.
(٥) الإصابة ـ ترجمة كبشة بنت معدي كرب ـ جـ٤ ص٣٩٥.

ذكرها ابن حجر العسقلاني (من طريق ابن لهيعة عن الحرث بن يزيد عن علي بن رباح عن معاوية بن حديج قال: هاجرنا على عهد أبي بكر، فبينا نحن عنده، فذكر قصة زمزم). وعلى ضؤ ذلك قال الأثرم: ليست له صحبة، وذهب البعض إلى أنه من التابعين. والواقع إنه من الصحابة وقد تواترت الدلائل على ذلك ـ كما سيأتي ـ ولا يتعارض ذلك مع هجرته من اليمن في عهد أبي بكر وذلك في الفتوحات لما استنفر أبو بكر أهل اليمن للجهاد وفتح الشام.

أما وفادته إلى رسول الله ﷺ وصحبته إياه، فكانت في السنة التاسعة أو العاشرة للهجرة، ومن الدلائل والشواهد على صحبة معاوية بن حديج لرسول الله ﷺ في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة وكتاب الاستيعاب ما يلي:[١].

١ ـ «ذكره ابن سعد فيمن ولي مصر من الصحابة».

٢ ـ «وقال ابن يونس: يكنى أبا نعيم، وفد على رسول الله ﷺ وشهد فتح مصر».

٣ ـ «أخرج له أبو داود والنسائي حديثاً عن النبي ﷺ في السهو في الصلاة».

٤ ـ «أخرج له النسائي حديثاً عن النبي ﷺ في التداوي بالحجامة والغسل».

٥ ـ «أخرج له البغوي حديثاً قال فيه: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها)».

٦ ـ «وأخرج الإمام أحمد في مسنده الأحاديث الثلاثة، من طريق يزيد بن أبي حبيب عن سويد بن قيس عن معاوية بن حديج عن النبي ﷺ، وقد أخرج أيضاً من طريق ثابت البناني عن صالح بن حجير عن معاوية بن حديج حديثاً مرفوعاً في دفن الميت».

٧ ـ «وذكره ابن حبان في الصحابة».

٨ ـ جاء في ترجمة النساء الصحابيات بكتاب الإصابة: «كبشه بنت معدي كرب عمة الأشعث بن قيس وهي والدة معاوية بن حُديج الصحابي المعروف.. استدركها ابن الدباغ وغيره على الاستيعاب».

٩ ـ «وأخرج الدارقطني من طريق ولدها معاوية بن حديج قال: قدمت على رسول الله ﷺ ومعي أمي كبشة بنت معدي كرب عمة الأشعث، فقالت (يا رسول

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ جـ٣ ص٢٠٤ ـ الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٤٣٠.

الله: آني آليت أن أطوف بالبيت حبواً، فقال رسول الله: طوفي (سَبْعين) سبعاً عن يديك وسبعاً عن رجليك».

١٠ ـ وذكره ابن عبد البر القرطبي في الاستيعاب في معرفة الأصحاب وقال: (روى عنه سويد بن قيس وعرفطة بن عمرو)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية وقال: (المشهور إنه من الصحابة) وذكره ابن حجر العسقلاني في القسم الأول من الصحابة، ووصفه بأنه (الصحابي المعروف) وكذلك ذكره ابن سعد في طبقات الصحابة وإنه (أحد من وُلى مصر من الصحابة».

ويستفاد من حديث والدة معاوية بن حديج مع رسول الله ﷺ عن الطواف بالبيت، أن معاوية بن حديج ووالدته حَجًا وطافا بالبيت الحرام بمكة في طريق عودتهما من المدينة المنورة إلى اليمن، وربما شهدا حجة الوداع مع رسول الله ﷺ في ذي الحجة ١٠ هجرية، ثم مكث معاوية بن حديج في اليمن إلى أن استنفر أبا بكر الصديق أهل اليمن للجهاد وفتح الشام في أواخر عام ١٢ هجرية.

* * *

ابن حُديج . . في فتوح الشام والعراق

انطلق معاوية بن حُديج السكوني إلى ميادين الجهاد والفتوحات ـ في مطلع عام ١٣هـ ـ على رأس فرسان تُجيب والسكون الذين اجتمعوا تحت لِوائه من منطقة الجَنَد وحضرموت، لأن أغلب عشائر تُجيب كانوا يسكنون في حضرموت ـ بمنطقة كسر قشاقِش ـ وقد وصف الهمداني معاوية بن حُديج بأنه (سيد تُجيب)، وتُجيب بَطنٌ من السكون الذين انطلقوا بقيادة معاوية بن حُديج ولسان حالهم قوله: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**غدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها**».

ووصل معاوية بن حُديج على رأس فرسان السكون إلى أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة، ومما يتصل بذلك قوله: «هاجرنا على عهد أبي بكر، فبينا نحن عنده، ذكر قصة زمزم». والمقصود هاجرنا من اليمن إلى الشام ثم مصر لأنهم لم يعودوا إلى اليمن بعد ذلك المسير الجهادي، فمكثوا فترة في المدينة المنورة ـ وهي فترة التعبئة والتجهيز للجيوش ـ وكان معه أربعمائة فارس من السكون سوى الرجال والنساء والأولاد، كما يشير إلى ذلك ما جاء في تاريخ الطبري من أنه «وصلت السكون مع معاوية بن حديج والحصين بن نمير السكوني في أربعمائة، وأن فيهم فِتْية دُلْم سباط مع معاوية بن حُديج»[١] وقد نقل الطبري ذلك الخبر في

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ـ أنباء القادسية ـ جـ٤ ص٨٦ ـ موقعة اليرموك ـ جـ٤ ص٥٨.

قدومهم إلى عمر بن الخطاب للمسير إلى القادسية، فيكون ذلك بعد مشاركتهم في فتح الشام التي انطلق إليها معاوية بن حديج وفرسان السكون مع الجيش العربي الإسلامي في صفر سنة ١٣ هجرية.

وكان معاوية بن حديج من الصحابة القادة في موقعة اليرموك وفتح دمشق، حيث تم تقسيم الجيش إلى ٣٦ كردوساً، كل كردوس ألف مقاتل، ويقود كل كردوس أمير من الصحابة، فكان معاوية بن حديج واحداً من قادة الكراديس، وفي ذلك جاء في تاريخ الطبري عن موقعة اليرموك إنه كان في ميمنة الجيش «شرحبيل بن حسنة الكندي على كردوس، وعبد الله بن قيس على كردوس، والسمط بن الأسود على كردوس، وذو الكلاع الحميري على كردوس، ومعاوية بن حُدَيْج على كردوس، وجُنْدب بن عمرو بن حممة الدوسي على كردوس، وعمرو بن (معدي كرب) على كردوس..»[١] وتم انتصار اليرموك ـ في جمادى الثاني ١٣هـ ـ وفتح دمشق ـ في رجب ١٤ هجرية.

* * *

ثم كان معاوية بن حديج من قادة اليمانية الذين انطلقوا من دمشق والشام إلى القادسية والعراق لما استنفر عمر بن الخطاب الناس للمسير إلى القادسية مدداً للجيش العربي الإسلامي بالقادسية في مواجهة الجيوش الفارسية، فوصل معاوية بن حديج من الشام إلى عمر بن الخطاب في المدينة المنورة على رأس فرسان السكون، بينما وصل آنذاك من اليمن نحو أربعمائة من قبيلة السكون ـ التي كانت بحضرموت ـ وكان وصولها مع الحصين بن نُمير السكوني ومما يشير إلى ذلك أن رواية الطبري تذكر وصولهم مع كندة (في أول كندة) الذين وصلوا مع الأشعث بن قيس من اليمن بينما كان وصول معاوية بن حديج من الشام، فاندمج خبر السكون في الرواية التي نقلها الطبري عن قدومهم إلى عمر للمسير إلى القادسية[٢] وقد كان عددهم جميعاً أكبر، ثم انطلقوا إلى القادسية حيث كان لمعاوية بن حديج وقبيلة السكون إسهاماً جيداً في انتصار القادسية وفتوح العراق وهزيمة جيوش الأمبراطورية الفارسية.

ومما يتصل بذلك ما جاء في كتاب الجامع بأن «السكون اشتركوا في فتح فارس بفرقة كبيرة انضم جزء منها بعد ذلك إلى جيش عمرو بن العاص الذي صار لفتح مصر[١] وأن «تُجيب كانت جزءاً من الفرقة الحربية المكونة من السكون التي شاركت في فتح فارس»[١] وقد استقر بعضهم بالكوفة، بينما سارت غالبيتهم لفتح مصر.

---

(١) الجامع لبامطرف ـ السكون ص٢٤٠ وتجيب ص١١٩.

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري ـ أنباء القادسية ـ جـ٤ ص٨٦ ـ موقعة اليرموك ـ جـ٤ ص٥٨.

السَكُون بزعامة ابن حديج . . في مصر

وكان معاوية بن حُديج السكوني من كبار الصحابة القادة في جيش الفتح العربي الإسلامي الذي وجهه الخليفة عمر بن الخطاب إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني أن معاوية بن حُديج: «شهد فتح مصر، ثم كان الوافد على عمر بفتح الإسكندرية»[١].

وقد كان للسكون ـ ومنهم تُجيب ـ بقيادة معاوية بن حُديج إسهاماً وافراً في الفتح، وقد دلت المصادر التاريخية على أن كتيبة تجيب والسكون «كانت إحدى الوحدات الكبرى في الجيش الإسلامي الذي فتح مصر، وقد شاركت تُجيب في الاستيلاء على حصن بابليون مما دعا شاعرها إلى الفخر بقوله:

وبابليون قد سعدنا بفتحها وحُزْناً ـ لعَمْرُ اللَّهِ ـ فيْئاً ومغنما»[٢]

وكان لليمانيين بصفة عامة الدور الرئيسي في ذلك الفتح، فقد كانت كتبية (بَلِيْ القضاعية الحميرية في طليعة المجاهدين في جيش الفتح بضربهم حصن بابليون بالمنجنيق، وفي ذلك قال الراجز:

يوم لِهَمْدانَ ويوم للصَّدِفْ والمنجنيق في بَلِيْ تختلفْ)[٢]

وكان: شراحيل بن حجيَّة المرادي المذحجي من القادة الأبطال الفاتحين وهو الذي اقتحم حصن بابليون على سلم ـ صعد عليه ـ يوم فتح حصن بابليون[٢]، وكان فتح حصن بابليون هو الفتح الرئيسي الأول لمصر.

* * *

ثم كان الفتح الرئيسي الثاني في مصر هو فتح الإسكندرية، وكان معاوية بن حُديج من قادة ذلك الفتح، وقد كانت من الكتائب الرئيسية في فتح الإسكندرية: ـ الفرقة المهرية بقيادة تميم بن فَرْع المهري القضاعي الحميري، وكان عدد الفرقة المهرية فيما رواه المؤرخون ألفان وتسعمائة مجاهد، وامتازت تلك الفرقة في القتال، فكان تميم بن فرع المهري هو أول من اقتحم سور الإسكندرية الحصين بفرقته[٢] كما كان لعبادة بن الصامت الأنصاري وقيس بن سعد بن عبادة دوراً رئيسياً في فتح الإسكندرية، وقد اختار عمرو بن العاص أبرز قادة الفتح للسير إلى الخليفة عمر بن الخطاب بنبأ وغنائم ذلك الفتح والنصر وكان ذلك القائد هو معاوية بن

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص٤٣١.

(٢) الجامع لبامطرف ـ تجيب ص١١٩ ـ بليّ ـ ص١١٢ ـ شراحيل بن حجية ص٢٦٠ ـ بني سوم وقيسة ص٢٥٥.

حديج، قال البلاذري: «كتب عمرو بن العاص إلى عمر بفتح الإسكندرية مع معاوية بن حديج السكوني وبعث إليه معه بالخُمس ـ خمس الغنائم»(١)، فوصل معاوية بن حديج ومعه كوكبه من الفرسان إلى المدينة وهم يكبرون، وأخبر معاوية بن حديج عمراً بفتح الإسكندرية وأعطاه الغنائم، وغمر الابتهاج بقدوم ابن حديج وفتح الإسكندرية سائر أرجاء وأهل المدينة المنورة.

* * *

وعاد معاوية بن حُديج إلى مصر، وشارك في اختطاط مدينة الفسطاط (عام ٢١هـ) حيث استقرت بالفسطاط فرقة كبيرة من عشائر تُجيب والسكون، وكان منهم قيسبة بن كُلثُوم التُجيبي السكوني الذي شارك في الفتح مع عدد كبير من أهله وخيله، واختط بجوار الحصن، ثم تنازل عن مكان خطته ليبنى المسلمون فيه المسجد الجامع الذي عرف بمسجد عمرو بن العاص في الفسطاط، فاستحق قيسبة الثناء لذلك الصنيع، وقال الشاعر أبو قبان السكوني يذكر ذلك:

وقيسبة الخير ابن كُلثوم داره ... أباح حِماه للصلاة وسَلَّما
فكل مُصلٍّ في فنانا صلاتُه ... تعارف أهل المصر ما قلتُ فاعلما

وقال أبو مصعب بن سلمة الشاعر في قصيدة مدح بها عبد الرحمن بن قيسبة السكوني:

وأبوك سلَّم داره وأباحها ... لجبَاه قومٍ رُكَّع وسجود(٢)

* * *

وكان معاوية بن حديج من قادة فتح مناطق البحيرة والدقهلية والصعيد، وبسبب الدور الذي كان لقبيلة السكون بقيادته في فتح تلك المناطق وفي نشر التعريب والإسلام فيها استوطنت واستقرت عشائر كبيرة من السكون ـ خاصة من تُجيب السكونية ـ في منطقتين رئيسيتين؛ الأولى منطقة (تمي، وبسطة ووسيم ـ وتمي هي تمي الأمديد، مركز السنبلاوين محافظة الدقهلية حالياً ـ والمنطقة الثانية مع مراد في كورة (البدقون: وتقع في محافظة البحيرة حالياً. وتشمل جعيف ومركز إيتاي البارود ومركز شبراخيت)، وربما يعود اختلاط تجيب السكونية مع مراد المذحجية إلى كون مذحج أخوال السكون وبالذات تجيب لأنهم ينسبون إلى (تُجيب بنت ثوبان بن سليم، من مذحج، وكانت تُجيب زوجة أشرس بن شبيب بن السكون، ولدت له عدياً وسعداً، وإليهما يُنسب التُجيبيون)(٢).

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٢٢.

(٢) الجامع لبامطرف ـ تجيب ص١١٩ ـ بليّ ـ ص١١٢ ـ شراحيل بن حجية ص٢٦٠ ـ بني سوم وقيسة ص٢٥٥.

وفي خلافة عثمان وولاية عبد الله بن أبي السرح لمصر، كان معاوية بن حُديج من قادة الفتح العربي الإسلامي لبلاد النوبة، فشهد مع ابن أبي السرح غزوة الأساود ـ سنة ٣١ هجرية ـ وجاء في ترجمته بالإصابة إنه «ذهب عينه في غزوة النوبة مع ابن أبي السرح» وقد تقدم أن الذي أصيبت وذهبت عينه هو أبو شمر بن أبرهة بن الصباح، كما أصيب معاوية بن حديج بسهم بالقرب من عينه ـ غالباً ـ وسلمت عينه، وكان الصحابة يتباهون بأي أصابة في سبيل الله، وقد تم بقيادة عقبه بن عامر الجهني ومعاوية بن حديج السكوني فتح أغلب بلاد النوبة الممتدة إلى النيل الأزرق في السودان، وكذلك إلى بعض مناطق أريتريا والحبشة، وذلك منذ ولاية ابن أبي السرح وخلافة عثمان ثم في ولاية عقبه بن عامر لمصر كما سلف التبيين.

* * *

إن الدور القيادي لمعاوية بن حديج السكوني منذ بداية فتح مصر قد اقترن بارتفاع مكانته في الرئاسة والزعامة إلى أعلى المراتب بحيث أصبح زعيماً ألفه اليمانيين بمصر والذين يمثلون الغالبية العظمى في الجيش العربي الإسلامي الذي فتح مصر وفي القبائل العربية التي استقرت بمصر، فكان معاوية بن حديج ـ كما ذكر الهمداني في الإكليل ـ «رأس اليمانية بمصر»[١].

وقال الأكوع في هامش الإكليل عن سيرة الحفاظ للذهبي: (كان معاوية بن حُديج: مطاع الكلمة، ذا رياسة كبيرة)[٢].

وقد كان من أبرز مظاهر علو مكانته إنه «كان إذا وفد إلى الشام قُلِست له الطُرق، والتقليس أن يُضرب عليها قباب الرياحين»[١].

وقال ابن الأثير: «ثم إن معاوية بن حديج وفد إلى معاوية ـ بن أبي سفيان ـ وكان إذا قدم إلى معاوية ـ بالشام ـ زُينت له الطرقُ بقباب الرياحين تعظيماً لشأنه»[٣].

ويبدو أن ذلك التكريم والتعظيم بدأ بعد قيامه بفتح إفريقية.

* * *

فتح معاوية بن حُديج لبلاد إفريقية

قال ابن خلدون: «فَتَحَ مُعاوية بن حُديج كل إفريقية»[٤].

---

(١) الإكليل للهمداني ـ جـ٢ ص٢٣٠ ـ سيرة الحفاظ للذهبي ـ جـ٢ ص٣١٧.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٢٢.
(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ جـ٣ ص٢٥٤.
(٤) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص١٢٩.

والمقصود بإفريقية ـ في المصادر الرومانية والعربية القديمة ـ هو تونس وما جاورها من بلاد المغرب العربي مثل طرابلس (ليبيا) وبعض جهات الجزائر والمغرب، وبصفة خاصة تونس وما جاورها، ويعود اسم (إفريقية) إلى الملك الحميري إفريقيس بن ذي المنار بن الرائش لأنه سار من اليمن في الزمن القديم بقبائل كثيفة من حمير ومن أمازيغ بن كنعان الذين كانوا باليمن والشام فأوطنهم في بلاد المغرب (شمال إفريقية) ـ كمستوطنات تجاريه ـ وبنى لهم مدينة عاصمة سميت باسمه (إفريقية)، قال نشوان بن سعيد الحميري في قصيدته عن ملوك حمير التابعة القدماء ـ بعد أن ذكر الملك ذي المنار بن الرائش ـ:

وأخوه إفريقيس، وارثُ عرشه ... حتف العدو، وجابر المُمتاح

مَلِكٌ بَنَى في الغرب إفريقية، ... نُسبت إليه بأوضح الإيضاح

وأحَلّ فيها قومه، فتملكوا ... ما حولها من بلدة ونواحي

والذين أحَلّهم إفريقيس ببلاد المغرب هم أمازيغ بن كنعان وقبائل من حيمر فامتلكوها وأسسوا حضارة قرطاجة وغيرها، واشتهروا باسم (البربر)[1] ثم غزا الرومان قرطاجة ودمروها ـ عام ٣١٦م ـ وفرضوا حكمهم ونفوذهم على البلاد وعلى أهلها البربر العرب القدامى في شمال إفريقية إلى أن جاء الفتح العربي الإسلامي لإفريقية بقيادة معاوية بن حُديج السكوني ـ (عام ٤٤هـ/ ٦٥٤م تقريباً) ـ وذلك بعد (١٥) عاماً من الغزوة الأولى.

نبأ الغزوة الأولى ونتائجها

كان الغزو العربي الإسلامي الأول إلى شمال إفريقية في خلافة عثمان وولاية عبد الله بن أبي السرح لمصر، قال البلاذري ـ وذلك (في سنة ٢٧هـ ويقال في سنة ٢٨هـ ويقال في سنة ٢٩هـ)، وذكر البلاذري عن عبد الله بن الزبير قال: (أغزانا عثمان بن عفان إفريقية وكان بها بطريق سلطانه من طرابلس إلى طنجة. .)[2] ـ أي من طرابلس في ليبيا إلى طنجة في المغرب ـ وتذكر رواية الطبري وابن الأثير ذلك السلطان باسم (الملك جرجير)، والصواب إنه بطريق ـ كما في نص البلاذري عن عبد الله بن الزبير ـ ولقب بطريق يعني نائب الأمبراطور الروماني وأصل اللقب بالرومانية (PATRICUS) ـ باتريكوس، فسار الجيش العربي الإسلامي من مصر لغزو إفريقية بقيادة عبد الله بن أبي السرح، وكان معاوية بن حديج السكوني من قادة

---

(١) شرح قصيدة نشوان + الإكليل للهمداني + تاريخ ابن خلدون + البربر عرب قُدامى.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ـ ص٢٢٨.

الجيش في ذلك الغزو الأول حيث كان عدد الجيش الإسلامي عشرة آلاف مقاتل كما ذكر ابن الأثير، وكان أبو زمعة البلوي في جيش معاوية بن حديج.

وقد أورد الطبري وابن الأثير رواية تتلخص في أن الملك جرجير تجهز وجمع عسكر الروم وأهل البلاد، «وبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف»[١] وأن جيش ابن أبي السرح الذي كان عدده (عشرة آلاف) هزم الملك جرجير وجيشه هزيمة قاضية بل وقتلوا الملك جرجير ـ بطريق إفريقية ـ وسبوا ابنته، وفتحوا البلاد، بينما ذكر البلاذري عن أسامة بن زيد الليثي عن ابن كعب (أن عبد الله بن أبي سرح، صالح بطريق إفريقية على ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف)[٢] ويتبين من ذلك أن بطريق إفريقية ـ الملك جرجير ـ لم يُقتل في تلك المعركة التي لم تحدث، وربما حدثت معركة صغيرة مع طليعة من جيش البطريق ـ قبل وصوله بالجيش من طرابلس ـ ثم عَرَض البطريق وأصحابه المصالحة على أداء مبلغ من المال، فاستجاب عبد الله بن أبي السرح وعاد بالمسلمين إلى مصر.

ومما يؤكد ذلك ما ذكرته سائر المصادر بما في ذلك كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير من أنه: «صالح أهل إفريقية عبد الله بن أبي سرح على مال يؤدونه، ولم يُقدم المسلمون على دخول إفريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها»[١].

وذكر البلاذري عن عبد الله بن الزبير أن «عظماء إفريقية اجتمعوا فطلبوا إلى عبد الله بن سعد ـ ابن أبي السرح ـ أن يأخذ منهم ثلثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك»[٢] وعن أسامة بن زيد الليثي عن ابن كعب «أن عبد الله بن سعد ابن أبي السرح صالح بطريق إفريقية على ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف» وذكر البلاذري من طريق موسى بن ضمرة المأزني عن أبيه، قال: «لما صالح عبد الله بن سعد بطريق إفريقية، رجع إلى مصر، ولم يول على إفريقية أحداً»[٢] وقد رجع جميع جيش المسلمين الذين كانوا معه إلى مصر حيث ـ كما ذكر ابن الأثير ـ «لم يفقد المسلمون إلا ثلاثة نفر، منهم أبو ذؤيب الشاعر الذي مرض ومات، فدفن هناك»[١] وإنه «عاد المسلمون إلى مصر (الفسطاط) بعد ثلاثة أشهر» من مسيرهم في ذلك الغزو الأول إلى إفريقية، ويتبين من مجمل ذلك أنه لم يترتب على ذلك الغزو أي فتح ولا توطن عربي إسلامي وإنما مصالحة بطريق إفريقية على أداء مبلغ من المال ـ اختلفت الروايات في مقداره ـ وربما التزم البطريق بأداء المبلغ سنوياً. وكان ممن مات بإفريقية أبو زمعة البلوي رضي الله عنه.

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٢ ص٤٥ ـ ٤٦.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ـ ص٢٢٨.

غَضَبُ هرقل على بطريق إفريقية

وكان بطريق إفريقية الذي صالح المسلمين ملكاً نائباً للأمبراطور الروماني هرقل (هركيلوس) ـ المقيم في القسطنطينة البيزنطية ـ فلما علم هرقل بما قام به البطريق غضب لذلك وقرر عزله وتولية بطريق جديد إذا لم يمتنع عن أداء ذلك المبلغ من المال للمسلمين في مصر ـ وربما تزامن موقف هرقل مع انشغال المسلمين في مصر وغيرها بمشاكل المعارضة لبعض سياسات الخليفة عثمان بن عفان في السنوات الأخيرة من عهده ـ بحيث كما ذكر ابن خلدون: ـ «. . لما بلغ هرقل أن أهل إفريقية صالحوا المسلمين بالمال غضب عليهم وبعث بطريقاً. . فأخبرهم بما جاء له، فأبوا، وقالوا: قد كان ينبغي أن يساعدنا هرقل، فقاتلهم البطريق وهزمهم وطرد ملكهم ـ أي البطريق السابق ـ فلحق بالشام»[1] وتولى البطريق الذي بعثه هرقل حكم أفريقية، وبذلك عاد الوضع إلى ما كان عليه قبل الغزوة الأولى وتلاشى أي أثر لها.

* * *

فتح إفريقية بقيادة ابن حُديج

قال ابن خلدون في نبأ بطريق إفريقية السابق أنه «لحق بالشام وقد اجتمع الناس على معاوية بعد عليّ رضي الله عنه فاستجاشه على إفريقية فبعث معه معاوية بن حُديج السكوني في عسكر فلما وصل الإسكندرية هلك الرومي ـ [أي بطريق إفريقية السابق] ـ ومضى ابن حُديج في العساكر فنزل قونيه»[1] ويتبين من التحقيق أن البطريق السابق مكث في الشام لاجئاً إلى أن استتب أمر الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ـ سنة ٤١ هجرية ـ ثم إلى أن استقرت الأحوال الداخلية للدولة العربية الإسلامية وأصبح من الممكن التفكير في عمل كبير هو غزو إفريقية بل وفتحها، ويتيح لنا ابن خلدون نفسه معرفة الزمن الصحيح لذلك في نبأ ولاة إفريقية وأولية أمرهم حيث ذكر خبر الغزوة الأولى سالفة الذكر وقال: «ثم أغزى معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج السكوني إفريقية سنة أربع وأربعين وكان عاملاً على مصر فغزاها. .»[2] وقد أسلفنا تبيين أن عامل مصر وواليها عام ٤٤ ـ ٤٧هـ كان عقبة بن عامر الجهني وجاء في ترجمته بالإصابة (أن معاوية جمع له في إمرة مصر بين الصلاة والخراج»[3] فكان عقبة أميراً على الخراج والصلاة ـ وهو

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص١٢٩.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص١٨٥.
(٣) الإصابة ـ جـ٢ ص٤٩٠.

الوالي ـ وكان معاوية بن حديج أميراً على الحرب، أي قائداً حربياً عاماً لولاية مصر.

وقد تباحث ابن حديج مع الخليفة معاوية بن أبي سفيان في دمشق حول فتح إفريقية وأن تشارك فرقة من عساكر الشام إلى جانب الجيش والقبائل الذين في مصر لفتح إفريقية ويسير معه بطريق إفريقية السابق، ثم انطلق ابن حديج في عساكر ـ من الشام ـ فلما وصل الإسكندرية مات البطريق السابق، بينما انضم إلى ابن حديج عقبة بن عامر الجهني والجيش والقبائل الذين في مصر ومضيا سوياً لفتح إفريقية.

وقد ذكر ابن خلدون مسير عقبة بن عامر لفتح إفريقية في سياق أنباء عهد معاوية بن أبي سفيان وعماله حيث قال: «وفي سنة ٤٣ توفي عمرو بن العاص بمصر فاستعمل معاوية مكانه عبد الله ابنه» ثم قال: «وكان عمرو بن العاص قبل وفاته استعمل عقبة بن عامر على إفريقية فانتهى ـ في غزوه ـ إلى لواته ومراته فأطاعوا ثم كفروا، فغزاهم وقتل وسبى، ثم افتتح سنة ٤٢ ـ [والصواب سنة ٤٤] ـ غذامس وفي السنة التي بعدها ودّان وكوراً من كور السودان وأثخن في تلك النواحي وكان له فيها جهاد وفتوح»[١] ويدل ربط الوقائع على أن غزو عقبة بن عامر إلى لواته ومراته كان في نفس إطار مسير معاوية بن حديج السكوني لفتح إفريقية سنة ٤٤ هجرية وإن صفة عقبة بن عامر آنذاك هي (عامل مصر على الخراج والصلاة) بينما كان ابن حديج (عامل مصر على الحرب) ولذلك كان ابن حديج هو القائد العام في ذلك المسير من مصر لفتح إفريقية.

* * *

قال ابن الأثير: «سار معاوية بن حديج السكوني إلى إفريقية وكان معه عسكر عظيم فنزل عند قونية»[٢] قد أورد ابن خلدون نفس النبأ بلفظ «ومضى ابن حديج في العساكر فنزل قونية» ويستلزم ذلك ـ أي الوصول والمرابطة في قونية ـ فتح وامتلاك ما قبلها من مناطق وخاصة (برقة) و(طرابلس) ومناطق قبيلة (لواته) و(مراته)، وهو ما يتبين من ربط ذلك بما جاء عن عقبة بن عامر في خبر مسير المسلمين لفتح إفريقية بإنه «لقيهم عقبة[٣] فيمن معه من المسلمين ببرقه، ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا الروم عندها ثم ساروا إلى إفريقية وبثوا السريا في كل ناحية»، فلم يكن ذلك في الغزوة الأولى مع ابن أبي السرح عام ٢٧ هجرية وإنما في هذا

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٠.

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص٤٧.

(٣) جاء في الرواية هنا (عقبة بن نافع) وهو التباس وقع فيه الراوي والصواب (عقبة بن عامر) لأن عقبة بن نافع في زمن متأخر بعد عام ٥٠هـ.

المسير مع ابن حديج عام ٤٤هـ ويؤكد ذلك النص السابق لابن خلدون عن عقبة بن عامر وغزوة للواته ومراته وغذامس في تلك السنة، كما يرتبط كل ذلك أيضاً بتولية رويفع بن ثابت الأنصاري أميراً على برقة وطرابلس سنة ٤٤ هجرية، بحيث يمكن إدراك الترتيب التالي للوقائع:

ـ أن الجيش العربي الإسلامي بقيادة معاوية بن حديج وصل أولاً إلى برقة فامتلكها وانضم إليهم عقبة بن عامر في برقة، قال ابن خلدون: «كان أكثر أهل برقة وانطابلس قبيلة لواته البربرية» وهم في الأصل القديم من اليمن.

ـ ثم ساروا إلى طرابلس فهزموا الذين كانوا بها من الروم وغنموا ما كان معهم من سلاح ومال، وتم توجيه عقبة بن عامر إلى بقية عشائر (لواته) و(مراته) ـ أو (مكلاته) ـ البربرية في تلك الجهات إلى جهات تونس، فأطاع واستجاب فريق منهم إلى الإسلام، وغزا عقبة بن عامر الفريق الذي كفر منهم، فاستتب الأمر.

ـ وتم تولية رويفع بن ثابت الأنصاري أميراً على برقة وطرابلس ونواحيهما ـ أي ليبيا حالياً ـ وتمركزت وتوطنت فيها قبائل من الجيش العربي الإسلامي وخاصة من قبيلة (بلى) وقبيلة (جهينة) اليمانية.

ـ ثم سار معاوية بن حديج بالجيش فنزل بمنطقة قونية، (في تونس).

* * *

ولما نزل ابن حديج في قونيه، وكما ذكر ابن خلدون «سَرَّح إليه البطريق ـ بطريق إفريقية ـ ثلاثين ألف مقاتل، فقاتلهم معاوية بن حديج فهزمهم».

وقال ابن الأثير: «. . نزل ـ ابن حديج ـ عند قونية، وأرسل البطريق إليه ثلاثين ألف مقاتل، فلما سمع بهم معاوية بن حُديج سَيّر إليهم جيشاً من المسلمين فقاتلوهم فانهزمت الروم»[١].

وكان معاوية بن حديج قد سَيّر فرقة من الجيش لقتالهم، فالتقوا بالجيش الروماني، وبدأ القتال بينهم، ثم وصل ابن حديج ببقية الجيش، فاجتاح المسلمون ـ بقيادته ـ معسكر وجيش الروم وهم يكبرون (حتى غشوا الروم في خيامهم، فانهزموا، وقُتل كثير منهم)، وهو ما أوجزه ابن خلدون بقوله: (. . وقاتلهم معاوية بن حديج فهزمهم).

وقد دارت تلك الموقعة التي انهزم فيها الجيش الروماني في مكان يقع بين (قونية) وبين (سبيطلة وحصن جلولاء)، وذلك على مسافة يوم وليلة من سبيطله

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص٤٧.

وحصن جلولاء دار مُلك البطريق الروماني الذي إليه عادت فلول الجيش الروماني الذين تمكنوا من الهروب، ولا شك أن النصر الذي حققه الجيش العربي الإسلامي بقيادة ابن حديج السكوني في تلك الموقعة كان أعظم انتصار وأعظم فتح عربي إسلامي في شمال إفريقية، بينما كانت هزيمة الجيش الروماني هزيمة كبرى اهتزت بسببها معاقل الروم المتبقية في إفريقية كما اهتزت قصور القسطنطينية حيث كان هرقل أمبراطور الروم.

* * *

وأرسل هرقل إمدادات رومانية بالسفن لبطريق أفريقية الروماني الذي يبدو إنه انسحب من (سبيطله) إلى (جلولاء)، فقد حاصر الجيش الإسلامي سبيطله وفتحها دون قتال، وبث معاوية بن حديج سرايا الجيش في البلاد إلى قفصه وغيرها. وذلك بعد ـ وربما قبل ـ المسير إلى جلولاء، وقد أوجز ابن الأثير نبأ ذلك بعد ذكره السالف لانهزام جيش الثلاثين ألف روماني، قائلاً: «وحاصر ابن حديج حصن جلولاء فلم يقدر عليه، فانهدم سور الحصن فملكه المسلمون وغنموا ما فيه». وكذلك قال ابن خلدون في نفس السياق «وحاصر معاوية بن حُديج حصن جلولاء فامتنع معه حتى سقط ذات سورة فملكه المسلمون وغنموا ما فيه:» [جـ٢ ص١٣٠] ولكن ابن خلدون حفظ للتاريخ حقيقة هامة عن ذلك الفتح في ذكره لنبأ (ولاة إفريقية وأولية أمرهم) حيث قال ابن خلدون: «أغزى معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حُديج السكوني أفريقية سنة أربع وأربعين وكان عاملاً على مصر، فغزاها، ونَازلَ جلولاء، وقاتل مدد الروم الذي جاءها من قسطنطينية، لقيهم بقصر الأحمر، فغلبهم، وأقلعوا إلى بلادهم، وافتتح جلولاء» [جـ٤ ص١٨٥].

وتتبين من ذلك حقيقة هامة وهي أن فلول الروم أقلعوا إلى بلادهم بالسفن راحلين عن إفريقية ـ تونس ـ فتحررت البلاد من الوجود الاستعماري الروماني القديم الذي بدأ منذ الغزو الروماني لقرطاجة عام ٣١٦ ميلادية ثم انتهى ذلك بالفتح العربي الإسلامي التحريري ورحيل فلول الروم بالسفن عام ٤٤هـ (٦٦٤ميلادية) وكان الصحابي اليماني القائد معاوية بن حديج السكوني هو بطل وقائد ذلك التحرير والفتح المجيد.

* * *

وقد شهدت الفترة التي تلت فتح جلولاء وقصر الأحمر تأسيس العصر العربي الإسلامي في أفريقية على يد معاوية بن حديج والذين معه من الفاتحين، وكان من معالم ذلك بعد فتح جلولاء ما يوجزه ابن خلدون قائلاً: «ثم بث ـ ابن حديج ـ السرايا، ودوخ البلاد، فأطاعوا، وعاد إلى مصر».

وقال ابن الأثير ـ في نفس السياق ـ: «وبث معاوية بن حديج السرايا، فسكن الناس، وأطاعوا، وعاد إلى مصر، ثم لم يزل أهل إفريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك» (انتهى).

إن تلك الفترة التي بث فيها ابن حديج السرايا ودوخ البلاد فسكن أهل أفريقية وأطاعوا، هي عام ٤٥هـ ـ ٤٦هجرية، ويبدو أن تلك السرايا هي نفس السرايا التي تم نقل خبرها في الرواية الشائعة عن الغزوة الأولى إلى أفريقية مع ابن أبي السرح وأن المسلمين قتلوا ملك أفريقية ـ البطريق ـ وهزموا جيشه، بينما الصحيح أن عبد الله بن أبي السرح والمسلمين صالحوا ملك أفريقية البطريق على أداء مبلغ من المال وعادوا إلى مصر آنذاك ـ كما سلف التبيين ـ فقتال وهزيمة جيش الروم والبطريق إنما كان في الغزو والفتح بقيادة ابن حديج ثم بث ابن حديج سرايا الجيش الإسلامي إلى بقية الأرجاء، ويطابق ذلك ما جاء في رواية الغزوة الأولى بأنه بعد النصر على الروم ومقتل ملك أفريقية البطريق «فتح المسلمون سبيطلة»، وبثوا سرايا الجيش في البلاد إلى قفصه، وبعث أمير الجيش عسكراً إلى حصن الأجم وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتحه على الأمان». وهو نفس ما حدث بعد انتصار الجيش العربي على جيش الروم وفتح جلولاء وقصر الأحمر بقيادة ابن حديج، ونرى أن ذلك لم يحدث مرتين وإنما التبس الأمر على بعض الرواة، وإذا كان حدوثه في الغزوة الأولى محل شك فإن حدوثه بعد فتح جلولاء وقصر الأحمر واندحار الروم حقيقة يؤكدها الواقع الذي ترتب عليها وهو أن أهل أفريقية ـ البربر ـ سكنوا وأطاعوا وانضووا تحت راية الدولة العربية الإسلامية وأميرها معاوية بن حديج السكوني واعتنق عدد غير قليل من البربر دين الإسلام، كما استقر واستوطن في أفريقية قبائل من الجيش العربي الإسلامي وخاصة من قبائل (بَلِيْ) و(خولان) و(المعافر) و(لخم) و(كلب) وبعض الأنصار.

* * *

وجاء في كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) لابن عبد البر القرطبي «قال أبو عمر رضي الله عنه: إن معاوية بن حديج قد غزا أفريقية ثلاث مرات مفترقات.. وروى ابن وهب عن عمرو بن الحارث بإسناده وعن عمرو بن حرملة بن عمران بإسناده، أن عبد الرحمن بن شماسة قال: دخلنا على عائشة، فسألتنا: كيف كان أميركم هذا وصاحبكم في غزاتكم تعني معاوية بن حديج، فقالوا: ما نقمنا عليه شيئاً وأثنوا عليه خيراً، وقالوا: إن هلك بعيراً خَلَف بعيراً وإن هلك فرس أخلف فرساً وإن أبق خادم أخلف خادماً. فقالت عائشة حينئذ: استغفر

الله، اللهم اغفر لي، إن كنت لأبغضه من أجل أنه قتل أخي[١] وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم من رفق بأمتي فارفق به ومن شَق عليهم فاشقق عليه»[٢].

«قال القرطبي قال أهل السير: غزا معاوية بن حديج في ذلك العام ـ أي عام ٤٥هـ ـ فنزل جبلاً فأصابته أمطار فسمى الجبل الممطور، ثم غزا في ذلك العام فقتل وسبى ـ الكفار ـ. وقال ابن لهيعة: حدثني بكير بن الأشج عن سليمان بن يسار قال: غزونا مع معاوية بن حديج أفريقية»[٢] ويدل كل ذلك على مدى اعتزاز الصحابة والتابعين بأنهم غزوا وفتحوا أفريقية بقيادة معاوية بن حديج لأنهم كانوا يعلمون علم اليقين بأنه الفاتح الحقيقي لأفريقية والمؤسس الأول للقيروان.

* * *

ومن الوقائع الهامة المتصلة بفتح معاوية بن حديج لأفريقية اختطاطه لمدينة القيروان، وقد نسبت الروايات الشائعة ذلك إلى عقبة بن نافع الفهري، والصحيح أن أول من اختط القيروان هو معاوية بن حُديج السكوني.

قال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب «فالقيروان اليوم حيث اختطها عقبة بن نافع. وكان معاوية بن حديج قد اختط

---

(١) المقصود محمد بن أبي بكر الصديق الذي تقول كتب التاريخ أنه لما حوصر الخليفة عثمان بن عفان في داره بالمدينة المنورة اقتحم ودخل الدار محمد بن أبي بكر ومعه شخصان وقد عزم الثلاثة على قتل عثمان بن عفان فدخلوا عليه وهو يقرأ القرآن، قال المسعودي: «فأخذ محمد بن أبي بكر بلحية عثمان، فقال عثمان: يا محمد، والله لو رآك أبوك لساءه مكانك. فتراخت يده وخرج عنه ودخل رجلان فقتلاه» وذكر المسعودي أنه «قال علي بن أبي طالب لزوجة عثمان نائله بنت الفرافصة: مَنْ قتله؟ قالت: دخل إليه رجلان وقصت خبر محمد بن أبي بكر فلم ينكر ما قالت، وقال: والله لقد دخلتُ عليه وأنا أريد قتله فلما خاطبني بما قال خرجتُ ولا أعلم بتخلف الرجلين عني، والله ما كان لي في قتله سبب، ولقد قُتل وأنا لا أعلم بقتله». [جـ٢ ص ٣٥٦ ـ مروج الذهب] ـ أما أهل الشام ومصر والمدينة الذين طالبوا بالثأر من قتلة عثمان فكانوا يقولون بأن محمد بن أبي بكر دخل مع الرجلين لقتل عثمان فلما خاطبه بما قال لم يخرج وإنما شارك في قتل عثمان، وقد أورد المسعودي قول الصحابي حسان بن ثابت الأنصاري في ذكر الذين تولوا عملية قتل عثمان أبياتاً منها:

«فتولى محمد بن أبي بكر عياناً، وخلفه عمار»

ثم بعث عليّ بن أبي طالب محمد بن أبي بكر والياً على مصر، قال القرطبي «ويقولون إن معاوية بن حديج هو الذي قتل محمد بن أبي بكر بأمر عمرو بن العاص له». أنتهى.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ القرطبي ـ جـ٣ ص٢٤.

القيروان بموضع يدعى اليوم بالقرن. فنهض إليه عقبة ـ (حين تولى أفريقية) ـ فلم يعجبه فركب بالناس إلى موضع القيروان اليوم وكان وادياً كثير الأشجار غيظة مأوى الوحوش والحيات، واختط القيروان في ذلك الموضع وأمر الناس بالبنيان، قال خليفة بن خياط: وفي سنة خمسين وجه معاوية عقبة بن نافع إلى أفريقية فاختط القيروان وأقام بها ثلاث سنين»(١).

وجاء في فتوح البلدان للبلاذري أنه «كان الوالي على مصر عمرو بن العاص من قبل معاوية بن أبي سفيان فمات عمرو بمصر يوم الفطر سنة اثنتين وأربعين، ويقال سنة ٤٣ وولى عبد الله بن عمرو وابنه بعده ثم عزله بمعاوية بن حديج فأقام بها أربع سنين ثم غزا ـ أفريقية ـ فغنم، ثم قدم مصر، فوجه عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري فافتتح أفريقية واختط قيروانها..»(٢).

وجاء في إحدى روايات ابن خلدون أن معاوية بن حديج السكوني كان عاملاً لمصر لما غزا أفريقية وافتتح جلولاء وقصر الأحمر سنة ٤٤ هجرية وقفل ـ أي رجع إلى مصر ـ «ثم ولى معاوية سنة خمس وأربعين عقبة بن نافع على أفريقية واقتطعها عن معاوية بن حديج فبنى القيروان»(٣).

وقد وقع في تلك الروايات بعض الالتباس، فالصواب الذي يتبين من مجمل الوقائع والروايات التاريخية سالفة الذكر عن عقبة بن عامر ومعاوية بن حديج السكوني يتمثل في التالي:

١ ـ إن الذي تولى مصر بعد عزل عبد الله بن عمرو بن العاص ـ سنة ٤٤ هجرية ـ ليس معاوية بن حديج وإنما هو عقبة بن عامر الجهني من ٤٤ ـ ٤٧هجرية وكان ابن حديج قائداً حربياً عاماً وأميراً لأفريقية.

٢ ـ إن معاوية بن حديج غزا وافتتح أفريقية سنة ٤٤ ـ ٤٥هـ وكان معه في ذلك الغزو عقبة بن عامر الجهني أمير مصر ولما فتح ابن حديج جلولاء وقصر الأحمر غزا وفتح عقبة بن عامر (غدامس) و(ودان) ـ من بلاد لواته ـ وعاد إلى مصر، فهو عامل مصر الذي عاد إلى مصر ـ عام ٤٥هـ ـ وليس معاوية بن حُديج، فقد مكث معاوية بن حديج بأفريقية وأصبح

(١) الاستيعاب ـ للقرطبي ـ ترجمة عقبة بن نافع ـ جـ٣ ص١٠٩.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٣٠.
(٣) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٤ ص١٨٥.

أميرها «وبث السرايا، ودوخ البلاد، فسكن أهل أفريقية ـ البربر ـ وأطاعوا» كما تقدمت نصوص بذلك.

٣ ـ إن الذي اختط القيروان وأسكن بها المسلمين سنة ٤٥هجرية هو معاوية بن حُديج السكوني، وهو ما يدل عليه الزمن وكذلك نص القرطبي بأنه «كان معاوية بن حُديج قد اختلط القيروان بموضع يدعى اليوم بالقرن» فهذا النص صريح بأنه أول من اختط القيروان وأسكن بها المسلمين، فكانت القيروان التي اختطها معاوية بن حديج هي عاصمة ومدينة المسلمين وقاعدة انطلاق عملياتهم الحربية أثناء ولاية ابن حديج لأفريقية إلى عام ٤٧ هجرية ثم إلى عام ٥٠ هجرية. فلما أصبح ابن حديج والياً لمصر وتولى عقبة بن نافع الفهري أفريقية قام بتعديل موضع القيروان تعديلاً طفيفاً، وركب بالناس ـ أي المسلمين الذين أوطنهم ابن حديج ـ إلى المكان الجديد في نفس القيروان وذلك سنة خمسين للهجرة، وهذا يؤكد أن معاوية بن حديج هو المؤسس الأول للقيروان، وأن مدينة القيروان كانت في الموضع الذي اختطه ابن حديج من عام ٤٥ ـ ٥٠ هجرية فلما قام عقبة بن نافع بتغيير الموضع إلى الوادي كان تغييراً طفيفاً. فقد امتد نطاق القيروان ـ فيما بعد ـ وشمل الموضع الذي أسس فيه معاوية بن حديج مدينة القيروان.

ومن مآثر معاوية بن حديج في تونس، والتي تعود إلى فترة افتتاحه لأفريقية وولايته عليها (٤٤ ـ ٥٠هـ) ما جاء في ترجمته بكتاب الجامع من أنه «ولّى غزو المغرب مراراً، آخرها سنة ٥٠هـ، واستولى على صقلية، وفتح بِنْزَرْت.. وله في أفريقية آثار، منها آبار في القيروان تُعرف بآبار حديج، وهي خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق»[١].

* * *

ولاية معاوية بن حُديج لمصر

لقد كان معاوية بن حديج من الصحابة الذين شهدوا وقادوا الفتح العربي الإسلامي لمصر واستقروا بمصر، ثم كان ـ كما وصفه الذهبي في سيرة الحفاظ ـ «مُطاع الكلمة ذا رياسة كبيرة بمصر» وكان ـ كما وصفه الهمداني في الإكليل «رأس اليمانية بمصر».

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص٥٨١.

قال ابن حجر العسقلاني «ثم وُلّي معاوية بن حديج إمرة مصر، وذكره ابن سعد فيمن وُلّي مصر من الصحابة» [جـ٣ ص٤٣١/ الإصابة].

وقد ذكر البلاذري وابن خلدون أن معاوية بن حديج تولى مصر سنة ٤٤ هجرية بينما جاء في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير وتاريخ الأمم والملوك للطبري أن معاوية بن حديج تولى مصر سنة ٤٧هجرية، والصواب هو:

أ ـ أن الذي تولى مصر عام ٤٤هـ هو عقبة بن عامر الجهني، وقد جاء في الإصابة أن معاوية بن أبي سفيان «جمع لعقبة بن عامر في إمرة مصر بين الصلاة والخراج». وكان منصب الوالي يشمل إمرة الخراج وإمرة الصلاة وإمرة الحرب، فكان عقبة بن عامر أميراً على صلاة وخراج مصر ـ وهو الوالي ـ وكان معاوية بن حُديج أميراً على الحرب، وهو بمثابة القائد الحربي العام لولاية مصر، ومن هنا ذهب البعض إلى أنه كان والي مصر ـ من عام ٤٤ هجرية ـ بسبب عدم إدراك ذلك الفصل بين إمرة الخراج والصلاة وإمرة الحرب، وقد تولى معاوية بن حديج في تلك الفترة (٤٤ ـ ٤٧هـ) فتح أفريقية فكان أميراً على الحرب في ولاية مصر وأميراً لأفريقية بينما كان عقبة بن عامر هو والي مصر إلى مطلع سنة ٤٧هـ كما جاء في ترجمته بالإصابة «لما أراد معاوية بن أبي سفيان عزله عن مصر، كتب إليه أن تغزو رودس، فلما توجه سائراً استولى مسلمة، فبلغ عقبة فقال: اغربه وعزلاً، وذلك سنة سبع وأربعين» [جـ ٢ ص٤٨٩].

ب ـ إن معاوية بن حُديج تولى مصر بعد عقبة بن عامر وذلك سنة ٤٧ هجرية، وكانت مكانة معاوية بن حديج قد عَلَت بين المسلمين علواً كبيراً لافتتاحه أفريقية وإجلاء الرومان منها سنة ٤٤هـ وتأسيسه للعصر العربي الإسلامي في شمال أفريقية (٤٥ ـ ٤٦هـ) أو كما قال ابن الأثير: «كان ـ ابن حديج ـ إذا قدم إلى معاوية ـ بالشام ـ زُينت له الطرق بقباب الرياحين تعظيماً لشأنه». وكان ذلك منذ افتتاحه أفريقية ـ عام ٤٤هـ ـ ثم حين قدم من أفريقية ومصر إلى الخليفة في دمشق ـ في أواخر عام ٤٦هـ أو مطلع عام ٤٧هـ ـ وصادف ذلك إعفاء عقبة بن عامر من ولاية مصر وإمساك مسلمة بن مخلد بمقاليد الأمر بمصر، فقام الخليفة (معاوية بن أبي سفيان) بترسيم معاوية بن حُديج والياً لمصر، فعاد من

دمشق إلى الفسطاط حيث بدأ في أوائل عام ٤٧ هجرية ـ عهد ولايته لمصر وأفريقية التي دامت أربع سنوات (٤٧ و٤٨ و٤٩ و٥٠ هجرية).

وقد استهل ابن الأثير حوادث سنة ٤٧ هجرية بنبإ ولاية معاوية بن حديج لمصر[١] قائلاً: (وفيها ـ سنة ٤٧هـ ـ تولى مصر معاوية بن حُديج وكان عثمانياً، فَمَرّ به عبد الرحمن بن أبي بكر ـ وقد جاء إلى الإسكندرية ـ فقال له: يا معاوية قد أخذت جزاءك من معاوية قد قتلت أخي محمد بن أبي بكر لتلي مصر فقد وُليتها، فقال: ما قتلت محمداً إلا بما صنع بعثمان. فقال عبد الرحمن: فلو كنت إنما تطلب بدم عثمان ما شاركت معاوية فيما صنع حيث عمل عمرو بالأشعري ما عمل فوثبت أول الناس فبايعته»[٢]. وهذا الحوار بين معاوية بن حديج وعبد الرحمن بن أبي بكر مشكوك في صحته، ويتضمن أمرين مضى عليهما عشر سنوات، فقد كان موقف معاوية بن حديج هو نفس موقف الصحابة والقادة في الشام ومصر في المطالبة بثأر عثمان وفي المطالبة بقتل قتلة عثمان، فلما انتهى أمر تحكيم أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص إلى ما انتهى إليه (وهو عدم الاتفاق وبقاء ما تحت حكم عليّ بيده وما تحت حكم معاوية بيده) بويع معاوية في الشام، فتقول الرواية أن معاوية بن حديج هو أول من بايعه «وثَبْتَ أول الناس فبايعته» بينما الصحيح في كافة المصادر أن عمرو بن العاص هو الذي بايعه، فيكون ابن حديج إنما بايع بعد عمرو بن العاص كما بايع سائر من بايع معاوية من أهل الشام ومصر وغيرهما. أما مسألة قتل محمد بن أبي بكر، فقد سلف تبيين أن عليّ بن أبي طالب عزل قيس بن سعد بن عبادة عن ولاية مصر وولى عليها محمد بن أبي بكر وكان محمد من أبرز المتهمين بقتل عثمان، وقد جاء في كتاب الجامع لبامطرف أن معاوية بن حديج «ولاه معاوية بن أبي سفيان إمرة جيش جهزه، إلى مصر، وكان الوالي عليها محمد بن أبي بكر من قِبل علي بن أبي طالب، فقتل محمداً، وأخذ بيعة أهل مصر لمعاوية»[٣]. بينما الثابت في سائر المصادر أن معاوية ولى عمرو بن العاص على مصر وبعثه بجيش إلى مصر وكان معه معاوية بن حديج، وكان محمد بن أبي بكر شبه محصور في مصر، فجاء في الاستيعاب أن «معاوية بن حديج قتل محمد بن أبي بكر بأمر عمرو بن العاص له». وجاء في الإصابة أن الذي

---

(١) قال ابن الأثير: «عزل عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ووليها معاوية بن خديج» وهو خطأ والصواب أنه (عُزل عقبة بن عامر..) كما تقدم.

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص٢٦٦.

(٣) الجامع لبامطرف ـ ص٥٨١.

قتل محمد بن أبي بكر شخص آخر من الجيش بأمر معاوية بن حديج، وأياً كان الأمر فقد كان مقتل محمد بن أبي بكر بسبب ما صنع بعثمان كما في قول معاوية بن حديج لعبد الرحمن بن أبي بكر «ما قتلت محمداً إلا بما صنع عثمان». فلم ينكر عبد الرحمن في الرواية ما صنعه محمد بعثمان بن عفان وأنه كان من المطلوبين بدم عثمان، فقد كان محمد بن أبي بكر ثالث ثلاثة دخلوا بالسيوف لقتل عثمان «فأخذ محمد بن أبي بكر بلحية عثمان ـ يهزها ـ فقال له عثمان: والله لو رآك أبوك لساءه مكانك..» ولم ينكر محمد بن أبي بكر ذلك فقد قال: «والله لقد دخلت على عثمان وأنا أريد قتله، فلما خاطبني بما قال خرجت، ولا أعلم بتخلف الرجلين عني، والله ما كان لي في قتله سبب». أي أن قيام الرجلين بقتل عثمان لم يكن باتفاقه معهما على ذلك، ولكن أهل الشام ومصر وبعض أهل المدينة كانوا يعتبرونه متمالئاً على قتل عثمان على الأقل، وكان اعترافه بأنه دخل على عثمان ناوياً قتله، وقبض بلحية عثمان يهزه بلحيته ويتوعده؛ كان ذلك الاعتراف كافياً لتأكيد الاتهام، واعتباره من المطلوبين بدم عثمان إلى أن سقط قتيلاً بمصر، وقد كان ذلك في الفتنة الكبرى التي سقط فيها عشرات الآلاف من المسلمين الذين ليس لهم علاقة بمقتل عثمان ناهيك عن محمد بن أبي بكر الذي كانت علاقته بذلك معروفة بل واعترف هو بقسم منها مما أدى إلى مقتله في مصر وهو أمر كان لا بد أن يقع سواء كان بأمر عمرو بن العاص أو بيد معاوية بن حديج أو بيد أحد أفراد الجيش في زمن تلك الفتنة الكبرى.

وقد تَشَفَّعَ معاوية بن حديج للمسجونين أو المطلوبين من شيعة عليّ في مصر بعد أن اجتمع الأمر لمعاوية بن أبي سفيان فقبل معاوية شفاعته وأطلق سراحهم وعفا عنهم، ومنهم (عليم بن سلمة الفهمي) الذي جاء في الإصابة أنه «كان ـ عليم بن سلمة ـ ممن خرج من أهل مصر إلى علي بن أبي طالب وشهد معه حروبه ودخل مصر مع محمد بن أبي بكر. ثم شفع له ابن حديج فعفا عنه معاوية».

ولما غزا وافتتح معاوية بن حديج أفريقية كان في جيشه عدد غير قليل من أهل المدينة وغيرها الذين كانوا من أصحاب عليّ، وقد عاملهم كسائر إخوانهم من المسلمين وكان يرفق بهم، وقد سألت عائشة جماعة منهم حين عادوا إلى المدينة: «كيف كان أميركم هذا وصاحبكم في غزاتكم، تعني معاوية بن حديج، فقالوا: ما نقمنا عليه شيئاً، واثنوا عليه خيراً.. فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم من رفق بأمتي فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه**»». وقد أثنت عائشة في ذلك بمعاوية بن حديج لأنه كان يرفق بالمسلمين الذي تحت إمرته في فتوحاته وإمرته لأفريقية فكان نهجه هو النهج الذي يرضاه الله ورسوله.

وفي أوائل عام ٤٧هجرية أصبح معاوية بن حديج والياً لمصر، فكان ثالث الولاة اليمانيين لمصر من الصحابة، وهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في خلافة عليّ، ثم عقبة بن عامر الجهني (٤٤ ـ ٤٧هـ) ثم معاوية بن حديج السكوني (٤٧ ـ ٥٠هـ) ثم تولى مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري (٥٠ ـ ٦٢هـ) وهو رابع الولاة اليمانيين لمصر.

ومن معالم أنباء عهد ولاية معاوية بن حُديج لمصر

أولاً: إن ولاية معاوية بن حديج لمصر كانت **ولاية عامة تشمل إمرة الخراج** وإمرة الصلاة وإمرة الحرب وإمرة البحر ـ **بحر مصر ـ وإمرة أفريقية، وكان معاوية** بن حديج ـ كما جاء في ترجمته بكتاب الجامع ـ «كان عاقلاً، حازماً، واسع العلم، مقداماً».

وفي ولاية عقبة بن عامر ثم ولاية معاوية بن حديج لمصر كان (سليمان بن عثر التجيبي اليماني) مسؤولاً عن تنظيم الخارج وقاضياً بمصر وهو ـ كما قال الأستاذ أحمد أمين ـ «أول من سجل بمصر سجلاً للمواريث، وأول من قصّ بمصر، وكانت فيه كفايتان؛ كفاية علمية في قصصه وأحكامه، وكفاية إدارية في تنظيم القضاء والخراج».

ثانياً: إن ولاية معاوية بن حديج لمصر كانت تشمل أفريقية (أي ليبيا وتونس وما يليها من شمال أفريقية)، وفي إطار ولايته:

أ ـ كان رويفع بن ثابت الأنصاري أميراً نائباً على برقة وطرابلس ـ من عام ٤٦ ـ ٥٦هجرية ـ وذلك في ولاية معاوية بن حديج ثم في ولاية مسلمة بن مخلد لمصر وأفريقية إلى أن مات رويفع بن ثابت عام ٥٦هـ وقبره مشهور في الجبل الأخضر ببرقة.

ب ـ إن تونس والقيروان وما إليها من أفريقية استمرت تحت ولاية معاوية بن حديج إلى سنة خمسين للهجرة وقد غزا معاوية بن حديج إلى شمال أفريقية والمغرب عدة مرات «كان آخرها سنة خمسين للهجرة» ـ كما في نص كتاب الجامع ـ وفي ذلك قال البلاذري إن «معاوية بن حديج تولى مصر فأقام بها أربع سنين ثم غزا ـ أفريقية ـ فغنم، ثم قدم مصر، فوجه عقبة بن نافع سنة خمسين ويقال: بل ولاه معاوية بن أبي سفيان المغرب فغزا أفريقية واختط قيروانها». قال ابن الأثير: «والذي ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة بن نافع أفريقية كانت سنة خمسين وبنى القيروان، فأثبتوا في كتبهم أن

معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج عن أفريقية فحسب واستعمل عليها عقبة بن نافع»[١].

ويتبين من مجمل ذلك أن عقبة بن نافع كان من قواد معاوية بن حديج في أفريقيا إلى عام ٥٠ هجرية «ثم ولى معاوية سنة خمسين عقبة بن نافع على أفريقية واقتطعها من ولاية معاوية بن حديج، فاختط عقبه موضعاً جديداً للقيروان».

وقد انتهت ولاية معاوية بن حديج لمصر في أواخر نفس سنة خمسين للهجرة، حيث كما ذكر ابن خلدون وابن الأثير والطبري «استعمل معاوية بن أبي سفيان مسلمة بن مخلد على مصر وأفريقية، وجمع له أفريقية مع مصر» فكان عقبة بن نافع أميراً نائباً لمسلمة بن مخلد الأنصاري عام ٥٠ ـ ٥٤هـ ثم عزله مسلمة بن مخلد وولى على أفريقية أبا المهاجر الأنصاري (٥٠ ـ ٦٢هـ)، فكان أمير أفريقية نائباً لوالي مصر وأفريقية، في ولاية مسلمة وكذلك كان الأمر في ولاية معاوية بن حديج السكوني عام ٤٧ ـ ٥٠ هجرية أو حتى أواسط عام ٥٠ هجرية.

ثالثاً: وقد كان من أهم معالم عهد ولاية معاوية بن حديج لمصر استكمال إعادة بناء أسطول بحري قوي لولاية مصر، وكانت الغزوات البحرية العربية الإسلامية من الشام ومصر قد بدأت في خلافة عثمان بن عفان بغزو وفتح جزيرة قبرص عام ٢٨هـ (٦٤٩م) وعام ٣٣هـ (٦٥٤م) وكان عبد الله بن قيس الحارثي اليماني هو قائد الأسطول وأمير البحر وكانت غزواته من ساحل الشام، كما غزا ابن أبي سرح من ساحل مصر عام ٣٣هـ، ثم توقفت وتلاشت الغزوات البحرية في فترة الفتنة الكبرى إلى أن تولى مصر عقبة بن عامر فبدأ بإعادة بناء أسطول بحري ـ عام ٤٦هـ ـ واستمر بناء الأسطول في ولاية معاوية بن حديج لمصر وانطلقت الغزوات البحرية بتوجيهه إلى جزر اليونان وجزر إيطالية التالية.

١ ـ **جزيرة رودس ـ اليونان ـ** وكان أول من غزاها عقبة بن عامر الجهني في السنة الأولى من ولاية معاوية بن حديج لمصر ـ سنة ٤٧هـ الموافق ٦٦٨م ـ حيث انطلق عقبة بن عامر الجهني بالسفن من ساحل مصر (الإسكندرية) إلى جزيرة رودس باليونان، وكانت بيد الروم ومن معاقلهم، فغنم عقبة بن عامر وعاد إلى مصر.

وجاء في تاريخ ابن الأثير أنه «في سنة ثمان وأربعين غزا عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر البحر وبأهل المدينة» وكانت تلك الغزوة بتوجيه معاوية بن

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص٢٣٠.

حديج وقام بنفسه بوداع عقبة بن عامر والأسطول البحري في الإسكندرية فغزا عقبة جزيرة رودس للمرة الثانية ـ سنة ٤٨هـ ـ كما غزا عبد الله بن قيس الحارثي البحر من الشام في تلك السنة إلى سواحل بلاد الروم(١).

وفي عام ٥٣هـ (٦٧٤م) تمَّ فتح جزيرة رودس بقيادة الأمير جنادة بن أبي أمية الأزدي أمير البحرية العربية الإسلامية(٢) وهو من الصحابة وأعلام الأمراء اليمانيين بالشام.

٢ ـ **جزيرة صقلية (إيطاليا)**: في عام ٤٩هـ (٦٧٠م) غزا معاوية بن حديج السكوني جزيرة صقلية التي كانت وما تزال أكبر الجزر الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط. وكانت آنذاك من أهم موانئ ومعاقل الإمبراطورية الرومانية، وكان معاوية بن حديج والياً لمصر فانطلق بالسفن من مصر غازياً صقلية ـ عام ٤٩هـ ـ وفي ذلك قال بامطرف في كتاب الجامع أن معاوية بن حديج: «استولى على صقلية»(٣).

وقال البلاذري في فتوح البلدان:

«غزا معاوية بن حديج أيام معاوية بن أبي سفيان جزيرة صقلية، وكان أول من غزاها، ولم تزل تُغزى بعد ذلك»(٢).

وكان غزو معاوية بن حديج لصقلية هو فاتحة غزواتها، وقد «استولى على صقلية»(٣) أو سيطر على أجزاء منها، وكان يرغب في فتحها بتوطين المسلمين فيها، ولكن معاوية بن أبي سفيان ـ الخليفة ـ لم يستصوب ذلك، فانسحب معاوية بن حديج من مناطق صقلية التي كان قد استولى عليها، وعاد بالغنائم الجزيلة إلى مصر، ولم تزل السفن البحرية العربية الإسلامية تغزو صقلية بعد ذلك من مصر وتونس، وتأجلت فكرة فتح صقلية في العصر الأموي ثم العباسي إلى أن استقل بحكم أفريقية (زيادة الله بن الأغلب) في إطار خلافة المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) وكان (أسد بن الفرات بن سنان اليماني) قاضياً للقيروان من عام ٢٠٤هـ فبعثه زيادة الله بن الأغلب على رأس عشرة آلاف مقاتل بالسفن لفتح صقلية عام ٢١٢هـ (٨٢٧م) فافتتح أجزاء من صقلية وتوفي بها عام ٢١٣ ثم قام (الفضل بن جعفر الهمداني) بفتح ميناء (مسيناء) في صقلية وبقية أرجاء صقلية

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ جـ٦ ص١٦١.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٣٧.

(٣) الجامع لبامطرف ـ ص٥٨١.

وغزا بحراً إلى نابولي عام ٢٢٨ ـ ٢٣٢هـ فاكتمل بذلك فتح صقلية، واستوطن العرب في (نيف وعشرين مدينة من صقلية) فتحققت بذلك فكرة معاوية بن حديج السكوني وأصبحت صقلية إمارة عربية إسلامية، بلغت ذروة قوتها وازدهارها في عصر أمراء صقلية الكلبيين الحميريين الذين تعاقبوا على حكمها من عام ٣٣٦هـ إلى عام ٤٣١هجرية وكان أولهم الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي الحميري أمير صقلية (٣٣٦ ـ ٣٥٢هـ) وكان عاشرهم الصمصام بن يوسف الكلبي الحميري أمير صقلية (٤١٧ ـ ٤٣١هـ)، وقد جاء في كتاب (تاريخ الحضارات/ تراد كسيم) عن العصر العربي الإسلامي في جزيرة صقلية في إيطاليا أنه: «في عام ٨٢٧م فتح العرب جزيرة صقلية، وأقاموا فيها أكثر من ٢٥٠ سنة، أسبغوا خلالها على الجزيرة فترة عظيمة من الرخاء، فأصبحت باليرمو ـ (عاصمة صقلية) ـ مدينة كبيرة جميلة، وكان للأمير العربي الحاكم لصقلية قصراً فخماً في باليرمو، وأقيمت في ضواحي المدينة الفيلات الفاخرة.. وأصبحت باليرمو مركزاً تجارياً هاماً، وكان العرب يبيعون فيها السلع التي يجلبونها من أفريقيا والهند وسومطرة وغيرها.. وقد استمر الحكم العربي لصقلية إلى عام ١٠٩١م (٤٨٣هـ) ـ»[١].

* * *

انتهاء ولاية ابن حُديج لمصر

وقد مكث معاوية بن حديج السكوني والياً لمصر وشمال أفريقية إلى سنة خمسين للهجرة وهي السنة التي غزا فيها إلى جهات المغرب ثم عاد إلى القيروان ـ المركز الإداري لأفريقية ـ فأتى إليه نبأ قيام معاوية بن أبي سفيان بقتل حجر بن عديّ الكندي في العراق وكان حجر من أصحاب علي بن أبي طالب ومن أعلام الصحابة والشخصيات اليمانية، وقد أدى قتله إلى سخط واستياء شديد امتد من خراسان شرقاً حيث كان الربيع بن زياد الحارثي أميراً لخراسان إلى شمال أفريقية حيث كان معاوية بن حديج السكوني، ويهمنا هنا معاوية بن حديج، فقد جاء في هامش الإكليل للقاضي الأكوع عن سيرة الحفاظ للذهبي أنه: لما قتل معاوية بن أبي سفيان حجر بن عدي الكندي وقصته مشهورة: «كان معاوية بن حديج غازياً بأفريقية، فقال لأصحابه: يا أشقائي في الرحم وأصحابي وخيرتي، أنقاتل لقريش في الملك حتى إذا استقام لهم دفعوا يقتلوننا. أما والله لئن أدركتها ثانياً لأقولن لمن أطاعني من أهل اليمن اعتزلوا بنا ودعوا قريشاً يقتل بعضهم بعضاً، فأيهم غلب

---

(١) تاريخ الحضارات ـ تراد كسيم ـ سويسرا.

اتبعناه، أو لَنِثَبَنْ على المُلك»[1]، وإذا لم يكن معاوية بن حديج قال ذلك حرفياً فقد قال شيئاً من ذلك لأن جميع الصحابة استاؤوا لقتل حجر بن عدي الكندي وقالت عائشة أم المؤمنين: «لولا أن يغلبنا سفهاؤنا لكان لي ولمعاوية في قتل حجر بن عدي شأن».

ولما عاد معاوية بن حديج من أفريقية إلى مصر في تلك السنة ـ وهي سنة ٥٠هجرية ـ بدأ معاوية بن أبي سفيان بفصل ولاية أفريقية عنه، فبعث عقبة بن نافع أميراً لأفريقية في أواسط سنة ٥٠هـ فاقتصرت ولاية معاوية بن حديج على مصر، وبعد ذلك بعدة أشهر تم عزل وإعفاء معاوية بن حديج عن ولاية مصر وتولية نائبه مسلمة بن مخلد الأنصاري والياً لمصر وأفريقية، وربما كان معاوية بن حديج قد قرر الاعتزال فتم تولية مسلمة بن مخلد، وبذلك انتهت ولاية معاوية بن حديج لمصر، ولكنه لم يزل مجاهداً في سبيل الله فقد جاء في ترجمة مسلمة بن مخلد في الاستيعاب أنه «كان يغزى معاوية بن حديج إلى المغرب والثغور» وبذلك لم يزل معاوية بن حديج عاملاً بالحديث الذي كان يرويه بأنه سمع النبي ﷺ، يقول: «غدوة وروحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها».

الموقف التاريخي لمعاوية بن حُديج

وقد مكث معاوية بن حديج زعيماً شعبياً ورأساً لليمانية وسيداً مطاع الكلمة في مصر وله مكانته الكبير في الشام ـ مقر الخلافة ـ وفي مصر وأفريقية ـ التي تولاها مسلمة بن مخلد الأنصاري، وكان مسلمة ربما يستشيره في كثير من الأمور وبرأيه ومشورته يأخذ.

وفي عام ٥٧ هجرية ولى معاوية بن أبي سفيان على الكوفة ابن أخته (عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي) وهو عبد الرحمن ابن أم الحكم نسبة إلى أمه وهي (أم الحكم بنت أبي سفيان، أخت معاوية) فلما ولاه معاوية على الكوفة ـ وكما جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير ـ «ولى عبد الرحمن ابن أم الحكم على شرطته بالكوفة زائدة بن قدامة، وخرجت الخوارج في أيام ابن أم الحكم وكان رئيسهم حيان بن ضبيان السلمي فبعث إليهم جيشاً فقتلوا الخوارج، ثم إن ابن أم الحكم أساء السيرة في أهل الكوفة فأخرجوه من بين أظهرهم طريداً، فرجع إلى خاله معاوية، فقال: لأولينك مِصراً هو خيرُ

---

(١) الإكليل للهمداني ـ تحقيق الأكوع ـ ص٢٣٠.

لك، فولاه مصر»[١]، وجاء نبأ ذلك في كتاب الكامل في التاريخ بلفظ «ثم إن عبد الرحمن ابن أم الحكم طرده أهل الكوفة لسوء سيرته فلحق بخاله معاوية فولاه مصر»[٢] وجاء في كتاب الإكليل للهمداني «إن عبد الرحمن بن أم الحكم شكاه أشراف الكوفة وقالوا: شرب الخمر، فنزعه معاوية واستعمله على مصر»[٣]، وقال له: «لأولينك مصراً هو خير لك، فولاه مصر»، فسار عبد الرحمن بن أم الحكم إلى مصر ليتولاها بدلاً عن مسلمة بن مخلد الأنصاري في أوائل عام ٥٨ هجرية.

قال الحافظ ابن كثير: «فلما سار عبد الرحمن بن أم الحكم إلى مصر، تلقاه معاوية بن حُديج على مرحلتين من مصر، فقال له: ارجع إلى خالك معاوية، فلعمري لا ندعك تدخلها فتسير فيها وفينا سيرتك في إخواننا أهل الكوفة، فرجع ابن أم الحكم إلى معاوية»[١] وجاء نبأ ذلك في كتاب الكامل في التاريخ بلفظ «فاستقبله معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر فقال له: ارجع إلى خالك فلعمري لا تسير فينا سيرتك في إخواننا من أهل الكوفة، فرجع إلى معاوية»[٢]. وجاء في الإكليل بعد قوله: (فنزعه من الكوفة واستعمله على مصر) قال الهمداني: «فبلغ ذلك معاوية بن حديج رأس اليمانية بمصر، فأمهل حتى إذا دنا ـ عبد الرحمن بن أم الحكم ـ من مصر خرج إليه، فقال له: انصرف، فقد بلغنا سيرتك في إخواننا من أهل الكوفة، فانْصَرَف»[٣]. وهكذا وبكلمة واحدة من الصحابي الزعيم معاوية بن حديج السكوني انصرف ابن أخت الخليفة عائداً إلى دمشق، فتجسدت في ذلك الموقف التاريخي لمعاوية بن حديج عظمة صاحب رسول الله ﷺ بل عظمة كل أصحاب رسول الله ﷺ.

* * *

قال الحافظ ابن كثير: «. . فرجع ابن أم الحكم إلى معاوية، ولحقه معاوية بن حُديج وافداً على معاوية»[١] مما يعني أن مسير ابن حديج إلى معاوية بدمشق كان في أعقاب ذلك الموقف، وقال الحسن الهمداني في الإكليل: «ثم أقبل معاوية بن حديج زائراً إلى معاوية بن أبي سفيان، وكان إذا وفد عليه قُلِّسَت له الطريق، والتقليس أن يضربَ عليها قِباب الرياحين»[٢]، وقال ابن الأثير في الكامل: «ثم إن معاوية بن حُديج وفد على معاوية وكان إذا قدم إلى معاوية زُينت له الطرق بقباب الريحان تعظيماً لشأنه»[٣].

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص٨٢.
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص٢٥٤.
(٣) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ٢ ص٢٣١.

ونشير هنا إلى أن تقليس الطرق بقباب الريحان ـ أقواس النصر ـ كان من عادات الرومان في استقبال القياصرة وعظماء الفاتحين، ولم تنقل لنا الروايات التاريخية عدم تقليد المسلمين لذلك في فتوحات الشام ومصر وعصر الخلفاء الراشدين، ولقد كان معاوية بن حديج من الصحابة القادة في موقعة اليرموك وغيرها بالشام وفي فتح مصر والإسكندرية وجنوب مصر وبلاد النوبة آنذاك، فلما افتتح معاوية بن حديج أفريقية (ليبيا ـ تونس) وأرغم فلول الرومان على الانسحاب بالسفن من ساحل تونس عام ٤٤ هجرية قُلست له الطرق بقباب الرياحين، فاستمر ذلك التكريم والتشريف في ولايته لمصر وأفريقية وبلوغ فتوحاته إلى صقلية في إيطاليا، ولم يزل ذلك إلى أن وفد إلى معاوية بدمشق سنة ٥٨ هجرية، ولم ينل مثل ذلك التشريف سواه.

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى نبأ وفادته على معاوية بعد قيامه بطَرد عبد الرحمن ابن أم الحكم من مصر، وقد حرصنا على توثيق ذلك من كافة المصادر الموثوقة، قال الحافظ ابن كثير: «فلما دخل معاوية بن حديج على معاوية وجد عنده أخته أم الحكم وهي أم عبد الرحمن». وقال ابن الأثير: «فدخل على معاوية وعنده أخته أم الحكم، فقالت: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: بَخٍ بَخٍ هذا معاوية بن حُديج». وقال الهمداني في الإكليل: «فأقبل معاوية بن حديج حتى دخل على معاوية وبين يديه بُنَيَّةٌ له. فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: بُنَيّة لي، فقال ابن حديج: نحّها عنك، فوالله إنهنَّ يلدن الأعداء ويقربن البُعداء، فقال معاوية: أما على ذلك مَا مرّض المرضى ولا بكى الموتى مثلهن أحداً. وأُم الحكم في ناحية تسمع الكلام، فقالت: يا أمير المؤمنين من هذا المتكلم؟ قال: بَخٍ. هذا معاوية بن حُدَيج. فقالت: لا حَيَّا الله ولا قَرَّب. أنت الفاعل في ابني ما فعلت؟»[1]. وجاء في البداية والنهاية لابن كثير والكامل لابن الأثير بعد قولها من هذا يا أمير المؤمنين: «فقال: بَخٍ بَخٍ هذا معاوية بن حديج[2]، فقالت أم الحكم: لا مرحباً به، تسمع بالمعيدي خير من أن تراه[3]. فسمعها معاوية بن حديج فقال: على رِسْلِك يا أمّ الحكم، أما والله لقد تزوجت فما استكرمتِ، وولدتِ فما أنْجَبتِ، أردت أن يلي ابنك الفاسق علينا فيسير كما سار في إخواننا أهل الكوفة، فما كان الله ليريه ذلك، ولو فعل ذلك لضربناه ضرباً يُطأطئ منه رأسه ـ قال ابن

(١) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ٢ ص٢٣١.

(٢) بَخٍ بَخٍ، تعبير بمعنى هنيئاً له ونحو ذلك، قال أعشى همدان في عبد الرحمن بن الأشعث الكنديّ «بَخٍ بَخٍ لوالده وللمولود».

(٣) في هامش الكامل «هذا مثل يضرب لمن كانت شهرته عظيمة وشكله ليس كذلك».

كثير: أو قال لضربنا ما صاصا منه ـ وإن كره ذلك هذا القاعد ـ يعني خاله معاوية ـ فالتفت إليها معاوية وقال: كُفّي. فَكَفَّت». وقد جاء النبأ في الإكليل بنفس اللفظ إلى قوله: «. . أردتِ أن يلينا ابنك هذا الفاسق، فيسير بنا كسيرته في إخواننا أهل الكوفة، ما كان الله ليرى ذلك، ولا يرى أمير المؤمنين ذلك مِنّا، ولو أراد لضربناه ضرباً يُصَأصيء منه[1]، وإن كره ذلك أمير المؤمنين، فقال معاوية: عزمت عليك لما سكت». ـ انتهى ـ.

ولقد تباحث معاوية بن حديج مع معاوية بن أبي سفيان حول ولاية مصر، فاطمأن ابن حديج إلى استمرار مسلمة بن مخلد الأنصاري والياً لمصر وأفريقية، وعاد إلى مصر، وقد استمر مسلمة بن مخلد والياً لمصر إلى أن مات معاوية بن أبي سفيان عام ٦٠هـ ثم في عهد يزيد بن معاوية إلى أن مات مسلمة بن مخلد عام ٦٢هجرية.

* * *

وقد توفي معاوية بن حديج السكوني في مصر بعد عمر حافل بالأمجاد والفتوحات، وقد وقع توهم في إحدى الروايات بأنه توفي عام ٥٢ هجرية فنقل بامطرف ذلك في الجامع والأكوع في هامش الإكليل وغيرهما، والصحيح أنه كان على قيد الحياة سنة ٥٩ هجرية فتكون وفاته عام ٦٢ هجرية ودُفن بجبل المقطم، قال الذهبي: «وعقبه في مصر» ومنهم في كتاب قضاة وولاة مصر للكندي «عبد الرحمن بن معاوية بن حديج» كان من الأمراء القادة وتولى منصب قاضي مصر وهو «أحد كبار علمائها، جُمع له قضاء مصر وخلافة السلطان فيها، وكان ثقة في الحديث. توفي عام ٩٥ هجرية» ومنهم «عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، تولى قضاء مصر عام ٨٩ ـ ٩٠هـ وعمره ٢٥ سنة». ومنهم «عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج» كان من قادة مصر في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، وأصبح والياً لمصر في خلافة أبي جعفر المنصور العباسي عام ١٥٢هـ واستمر والياً إلى أن توفي عام ١٥٥ هجريه، تغمدهم الله جميعاً برضوانه ورحمته.

* * *

---

(١) صاصأ: ذل وخاف.

٢٥

مَسْلَمَةُ بن مُخَلَّد الخزرجي الأنصاري

ـ أول أمير لمصر والمغرب العربي في فجر الإسلام ـ

كان مَسْلَمَة بن مُخلَّد ثالث ثلاثة صحابة يمانيين تعاقبوا على حكم مصر وترسيخ عصرها العربي الإسلامي في فجر الإسلام وهم عقبة بن عامر (٤٤ ـ ٤٧هـ) ومعاوية بن حديج (٤٧ ـ ٥٠هـ) ومسلمة بن مخلد (٥٠ ـ ٦٢هـ) وهذا الترابط والتتابع يجعلنا ننتقل من عقبة بن عامر ومعاوية بن حُديج إلى مسلمة بن مخلد الذي كان يجب ـ لو انتقلنا إلى دائرة الأنصار ـ أن نذكر قبله العشرات من كبار الصحابة الأنصار، ولكن الترابط في النبأ عن مصر وبلاد المغرب والدور التاريخي الكبير لمسلمة بن مخلد قد حسم الاختيار فهو الأول بين الأوائل، والأوائل قليل.

قال الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «أول من جُمع له المغرب كله ومصر وبرقة وطرابلس مسلمة بن مخلد»[١] وقال ابن عبد البر القرطبي في الاستيعاب: «أول من جعل بمصر بنيان المنار في المساجد مسلمة بن مخلد»[٢] وكان هو أول من رفع قواعد جامع الفسطاط وزخرف جدرانه وسقوفه وجعل له منارة وصوامع، وكان له مآثر في البر والبحر، وفي العمران والفتوحات، استحق فيها شرف الأول.

* * *

إنه الصحابي مَسْلَمَة بن مُخلّد بن الصَّامِت بن نيار بن لوذان بن عبد ودّ[٣] بن زيد بن ثعلبة الخزرجي[٤] ويتصل نسب الخزرج إلى الأزد ثم إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وفي ذلك قال النعمان بن بشير الخزرجي الأنصاري:

ومِنْ سبأٍ أصلي وفرعي ومَحْتَدي ... تَنَازَعَني منها الجدودُ الأكارمُ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٣ ص١٣٤.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ القرطبي ـ جـ٣ ص٤٦٣.

(٣) عبد ودّ: أي عبد الإله ودّ، وكان (ودّ) من أسماء الإلهة في عصور سبأ ومعين كما في نقوش المسند المعثور عليها باليمن.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ـ العسقلاني ـ جـ٣ ص٤١٨.

لنا من بني قحطان سبعون تُبَّعاً أطاعتْ لهم بالخرجِ منها الأعاجمُ
وحسانُ ذو الشعبين مِنّا، ويُرعشُ، وذو يزن، تلك البحورُ الخضارمُ

* * *

وقد نشأ مسلمة بن مخلد وترعرع في موكب رسول الله ﷺ منذ قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة المنورة، قال مسلمة بن مخلد: «قدم النبي ﷺ وأنا ابن أربع سنين، ومات وأنا ابن أربع عشرة سنة»(١) وجاء في رواية أخرى أنه وُلِد عند قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، ويبدو أن مسلمة الذي وُلد عند قدوم النبي ﷺ إلى المدينة هو غير مسلمة بن مخلد ـ هذا ـ فقد كان ابن أربع سنين لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فنشأ وترعرع في موكب الرسول وحفظ القرآن وسمع وحفظ أحاديثاً نبوية، وكان نبيهاً حافظاً وتعلم الكتابة، وشَبَّ بين تعاليم كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة مسلمة بن مخلد بالإصابة: «ذكره ابن السكن وأبو نعيم وغيرهما في الصحابة.. وأخرج أبو نعيم من طريق ابن عون عن مكحول قال: ركب عقبة بن عامر إلى مسلمة وهو أمير على مصر فقال له: تذكر يوم قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ علم مِنْ أخيه سبه فسترها سترهُ الله بها من النار يوم القيامة. قال: نعم. قال: فلهذا آخيتك**»(١).

وقد روى مسلمة بن مخلد أحاديثاً عن النبي ﷺ، وقال القرطبي في الاستيعاب: «روى ابن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة عن مجاهد قال: كنتُ أرى أني أحفظُ الناس للقرآن حتى صليتُ خلف مسلمة بن مخلد الصبح فقرأ سورة البقرة فما أخطأ واواً ولا ألِفاً»(٢).

* * *

وكان مسلمة بن مخلد من الصحابة والفرسان الذين انطلقوا حاملين رسالة الإسلام ودخلوا الشام ثم مصر فاتحين، وفي ذلك قال القرطبي في الاستيعاب: «شهد ـ مسلمة بن مخلد ـ فتح مصر. وسَكَنَها، ثم تحول إلى المدينة»(٢).

وقد كان عبادة بن الصامت الخزرجي الأنصاري من كبار الصحابة والقادة في فتح الشام ومصر ومعه كان مسلمة بن مخلد، قال العسقلاني: «شهد عبادة فتح

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ العسقلاني ـ جـ٣ ص٤١٨.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ القرطبي ـ جـ٣ ص٤٦٣.

مصر وكان أميرُ ربع المدد»[١] وجاء في كتاب الجامع أن عبادة بن الصامت «شهد فتح مصر، وهو القائد الذي فتح الإسكندرية»[٢].

وكان فتح مصر سنة ٢٠هـ وتم اختطاط مدينة الفسطاط ـ بالقاهرة ـ كعاصمة في مصر سنة ٢١ هجرية فسكن مسلمة بن مخلد بالفسطاط مع زوجته أروى بنت راشد الخولانية، وقد كان لقبيلة خولان اليمانية إسهاماً وافراً في الفتح، «وكانت لخولان خطة بالفسطاط وكانوا يرتبعون في قرى أهناس والبهنساء والمنيا، وهم أصحاب مصلى خولان الشهير، وكان عمرو بن قَزْحم الخولاني أحد القادة العظام في جيش عمرو بن العاص وأحد الذين اشتركوا في تخطيط الفسطاط.. ومن نساء خولان الشهيرات بمصر أروى بنت راشد إحدى زوجات مسلمة بن مخلد»[٢] وكان لمسلمة بن مخلد منزل بالمدينة المنورة أيضاً فيمكث فترة بالمدينة ويعود إلى مصر وقد تواصلت مشاركته في فتوح مصر إلى أواخر خلافة عثمان بن عفان.

* * *

ولما تولى مصر عقبة بن عامر الجهني (٤٤ ـ ٤٧هـ) وتولى معاوية بن حُديج القيادة الحربية وافتتاح أفريقية في ذات الفترة، كان مسلمة بن مخلد من كبار الدولة والقادة في مصر وبمثابة الرجل الثالث في المرتبة بعد عقبة ومعاوية بن حديج، ومما يشير إلى ذلك ما جاء في الإصابة بأنه «لما أراد معاوية عزل عقبة كتب إليه أن تغزو رودس، فلما توجه سائراً استولى مسلمة، فبلغ ـ الخبر ـ عقبة فقال: أغربة وعزلاً، وذلك في سنة سبع وأربعين»[٣] فذلك الإجراء الذي قام به مسلمة بن مخلد تنفيذاً لقرار وكتاب الخليفة بعزل عقبة وتولية معاوية بن حديج يدل على مسؤوليته القيادية والتي ارتفعت في عهد ولاية معاوية بن حُديج (٤٧ ـ ٥٠هـ) حيث كان مسلمة بن مخلد هو الرجل الثاني في ولاية مصر.

وقال بامطرف أن مسلمة «ولاه معاوية إمرة مصر سنة ٤٧ هجرية»[٢] والصواب أن الذي تولى مصر بعد عقبة ـ سنة ٤٧هـ ـ هو معاوية بن حُديج، وكان مسلمة نائبه ويستخلفه على ولاية مصر، إذا سار إلى دمشق أو حينما غزا معاوية بن حديج جزيرة صقلية في شتاء عام ٤٩هـ وحينما غزا إلى المغرب عام ٥٠ هجرية وهي الغزوة التي بعد عودته منها تم إعفائه وعزله عن ولاية مصر وتولية مسلمة بن مخلد.

---

(١) الإصابة ـ ترجمة عبادة بن الصامت ـ جـ٢ ص٢٦٨ ـ وكان عبادة من كبار الأمراء القادة تولى امرة حمص وغيرها بالشام وتوفي عام ٣٤هـ.

(٢) الجامع لبامطرف ـ ص١٩٩ و٢٩٥ و٥٧٣.

(٣) الإصابة ـ ترجمة عقبه بن عامر ـ ج٢ ص ٤٨٩.

ولاية مسلمة بن مخلد لمصر وبلاد المغرب

في عام ٥٠ هجرية ـ الموافق ٦٧١ ميلادية ـ تسلم مسلمة بن مخلد سدة ولاية مصر وأفريقية وبلاد المغرب العربي ودامت ولايته عليها إلى أن توفي عام ٦٢ هجرية (٦٨٣م). وكانت توليته حدثاً تاريخياً هاماً سجلته كتب التاريخ وتراجم الصحابة، فجاء في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب للقرطبي أنه: «قدم مسلمة بن مخلد والياً على مصر وأفريقية سنة خمسين، وهو أول من جُمع له مصر والمغرب، ولم يزل على ذلك حتى توفي معاوية..» وقال ابن حجر العسقلاني في ترجمته بالإصابة: «..وهو أول من جُمعت له مصر والمغرب، وذلك في خلافة معاوية وصدر من خلافة يزيد بن معاوية»(١).

وقال ابن الأثير في كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة وكتاب الكامل في التاريخ: «وفي سنة خمسين عُزل معاوية بن حديج السكوني عن مصر، ووليها مسلمة بن مخلد مع أفريقية.. وهو أول من جُمع له المغرب مع مصر»(٢).

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: «وفي هذه السنة ـ ٥٠هـ ـ عزل معاوية عن مصر معاوية بن حُديج وولى عليها مع أفريقية مسلمة بن مخلد»(٣) وقال ابن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «عزل معاوية في هذه السنة أعني سنة خمسين معاوية بن حديج عن مصر وولى مسلمة بن مخلد مصر والمغرب كله، فكان أول من جُمع له المغرب كله ومصر وبرقة وطرابلس»(٤).

* * *

وكان مسلمة بن مخلد أول من قام ببناء المنارات والمآذن لمساجد مصر وأمر ببناء المنائر والصوامع، فبدأ ببناء عدد من المنائر وأمر القبائل والعشائر التي خططها ـ أي مساكنها ـ في الفسطاط عاصمة مصر وفي غيرها ببناء المنارات للمساجد التي في خططهم وهي بيوت الله التي أذن أن تُرفع، فارتفعت المنارات في أرجاء مصر ثم في المغرب، وفي ذلك قال العسقلاني في ترجمته بالإصابة: «وهو أول من جعل على أهل مصر بنيان المنار» وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «أول من جعل بنيان المنائر، التي هي محل التأذين، في المساجد، وقد أمر أصحاب خطط الفسطاط ببناء المنائر على مساجدهم، مستثنياً خولان من ذلك لشفاعة زوجته أروى

(١) مسلمة بن مخلد ـ الإصابة ـ جـ٣ ص٤١٨ ـ الاستيعاب ـ ص٤٦٣.
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص٢٣٠.
(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص٤٥.
(٤) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٣ ص١٣٤.

بنت راشد الخولانية»[١]، ويدل ذلك الاستثناء على إلزامية بناء المنارات، وقد استثنى خولان من تنفيذ الأمر في نفس تلك السنة ـ وهي سنة ٥٣ هجرية ـ وقاموا بذلك في وقت لاحق فهو استثناء مؤقت ليس إلا، وقال القرطبي في ترجمته بالاستيعاب: «وهو أول من جعل بمصر بنيان المنار في المساجد سنة ثلاثة وخمسين»[٢].

* * *

وكان جامع الفسطاط الذي بناه عمرو بن العاص والمسلمون عند اختطاط الفسطاط ـ عام ٢١هـ ـ هو المسجد الجامع وفيه يؤدي أهل الفسطاط والجيزة صلاة الجمعة، ومما يتصل بذلك أن قبيلة همدان اليمانية التي شاركت في الفتح سكنت في الجيزة وبنت لها مسجدها الذي بناه مزاحف بن عامر الهمداني، وكانت همدان تعبر النيل لتؤدي صلاة الجمعة، في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط حتى تولى عقبة بن عامر الجهني مصر فأمرهم بأن يُجمِّعُوا في مسجد مزاحف بالجيزة.

والمهم هنا أن جامع الفسطاط المشهور باسم جامع عمرو بن العاص «كان مبنياً بجذوع النخل وكان سقفه من جرائد النخل ومنخفضاً جداً ولم يكن له صحن ولا منبر ولا منارة، كما أن مساحته لم تعد كافية، فقام مسلمة بن مخلد سنة ٥٣ هجرية بالزيادة في الجامع من شرقية مما يلي دار عمرو بن العاص (دار الأمير) وزاد فيه من الجهة البحرية، وجعل له رحبة كان الناس يصيفون فيها ـ وبنىٰ جدرانه وسقوفه ولم يكن المسجد الذي لعمرو فيه نوره أو زخرف» كما قام أيضاً «بإنشاء منار للمسجد، وجعل مسلمة للمسجد أربع صوامع في أركانه الأربعة كما فرش الجامع بالحصر وكان قبل ذلك مفروشاً بالحصاء»[٣] ويتبين من ذلك أن ما قام به مسلمة بن مخلد والذين معه من اليمانيين كان إعادة بناء شاملة[٤] وقد احتفظ الجامع حتى اليوم باسم جامع عمرو بن العاص نسبة إلى المكان وإلا فهو الجامع الذي قام بتشييده مسلمة بن مخلد وكان اسمه (جامع الفتح) وما يزال من مآثر القاهرة الشامخة في موقع الفسطاط.

* * *

(١) الجامع لبامطرف ـ ص٥٧٣.

(٢) مسلمة بن مخلد ـ الإصابة ـ جـ٣ ص٤١٨ ـ الاستيعاب ـ ص٤٦٣.

(٣) مسجد عمرو بن العاص ـ دراسة لباحث مصري بمجلة معين ـ وكتاب خطط مصر للمقريزي.

(٤) قال بامطرف إن مسلمة «هَدَّمَ ما كان بناه عمرو بن العاص من مسجد الفسطاط، وشاد بناء آخر اتخذ له مناراً سنة ٥٣هـ».

وفي عام ٥٤هـ قام مسلمة بن مخلد بإنجاز هام أشرف على تنفيذه عابس بن سعيد المرادي وقد أشار إليه د. عصام عزو في مقال عن الفسطاط بمجلة العربي قائلاً: «في عام ٥٤هـ (٦٧٣م) أنشئ في جزيرة الروضة المواجهة للفسطاط مصانع للعمائر والسفن، وأقيم بينها وبين المدينة جسر ممتد من المراكب. وبعد ذلك بخمسة عشر عاماً أقيمت على الخليج قنطرة كانت تفتح عند وفاء النيل، وكان مكانها بين قناطر السباع عند مشهد ومسجد السيدة زينب وبين قنطرة السد»[1].

وقد أشرف عابس بن سعيد المرادي على شؤون البحر وتصنيع السفن والمراكب والغزو البحري وكان من أبرز رجال الدولة وبمثابة الرجل الثاني في عهد مسلمة بن مخلد، فكان عابس بن سعيد المرادي صاحب شرطة مصر منذ عام ٤٩هـ وهو منصب يضاهي وزير الداخلية وقائد الأمن في عصرنا، وقد (ولاه مسلمة شرطة مصر عام ٥٠هـ ثم صرفه عن الشرطة وولّاه البحر، فغزا الثغور، ثم ردّه إلى الشرطة سنة ٥٧هـ واستخلفه على الفسطاط سنة ٦٠هـ ثم تولى القضاء والشرطة معاً إلى أن توفي عام ٦٨هجرية).

* * *

وكان نائب مسلمة بن مخلد على برقة وطرابلس (ليبيا) هو الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري الذي تولى إمرة برقة وطرابلس سنة ٤٦هـ، قال العسقلاني في الإصابة: «رويفع بن ثابت. . نزل مصر وولاه معاوية على طرابلس سنة ٤٦ فغزا أفريقية، روى عن النبي ﷺ وروى عنه بشر بن عبيد الله الحضرمي وحنش الصنعاني وأبو الخير»[2]، ولما أصبح مسلمة بن مخلد والياً لمصر وكل بلاد المغرب أقرّ رويفع بن ثابت نائباً له على برقة وطرابلس ـ قال ابن يونس «وتوفي رويفع ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ست وخمسين»[3]، وقال ابن كثير: «رويفع بن ثابت، صحابي جليل، شهد فتح مصر، وله آثار جيدة في فتح بلاد المغرب، ومات ببرقة والياً من جهة مسلمة بن مخلد»[3]، وكذلك جاء في كتاب الجامع أنه «توفي ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد، وقبره مشهور في الجبل الأخضر ببرقة» وقد تولى برقة وطرابلس ـ فيما بعد ـ الصحابي زهير بن قيس البلوي الحميري.

* * *

---

(١) الفسطاط أول عاصمة لمصر الإسلامية ـ د. عصام عزو ـ مجلة العربي ـ العدد ٢٨ ـ مايو ١٩٨٨م ـ العربي الصغير.

(٢) رويفع بن ثابت ـ الإصابة ـ جـ١ ص٥٢٢.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص٤٥.

وقد شهد عهد مسلمة بن مخلد تطوراً هاماً في أفريقية (تونس والقيروان وما يليها من المغرب) يستلزم الإشارة إلى ما قبل عهده ويتمثل ذلك في التالي:

ـ إن معاوية بن حديج السكوني افتتح أفريقية (تونس) وهزم الروم فانسحبوا منها سنة ٤٤ هجرية ثم «بث السرايا ودوخ البلاد فسكن أهل أفريقية (البربر) وأطاعوا» واختط القيروان في موضعها الأول، وأوطن زهاء عشرة آلاف من العرب المسلمين في القيروان وغيرها وأسلم كثير من البربر، في تلك الأرجاء، ثم أصبح معاوية بن حديج والياً لمصر عام ٤٧ ـ ٥٠هـ.

ـ إن عقبة بن نافع الفهري القريشي تولى أفريقية، ولاه إياها معاوية بن أبي سفيان، وقد اختلفت الروايات في زمن ذلك فقيل سنة ٤٦ ـ ٥٠هـ وقيل سنة ٥٠ هجرية، قال ابن الأثير: «والذي ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة بن نافع أفريقية كانت سنة خمسين وبنى القيروان، ثم بقي إلى سنة ٥٥ وهُم أخبر ببلادهم» وقد نقل عقبه الناس من موضع القيروان الذي اختطه معاوية بن حديج إلى موضع اختطه عقبه، ويبدو أنه أفرط في استعمال العنف ضد البربر، فقد ذكر ابن الأثير أنه «وضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم.. وكان يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب». ويبدو أن تلك السياسة لم تكن محل رضا تام في الفسطاط ودمشق.

ـ قال الطبري: فلما عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج عن مصر عزل عقبة بن نافع عن أفريقية وجمعهما لمسلمة بن مخلد، فولى مسلمة أفريقية (نائباً) له يقال أبو المهاجر، وذلك سنة خمسين للهجرة. وقال ابن خلدون: «استعمل معاوية على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد فعزل عقبة عن أفريقية وولى مولاه أبا المهاجر دينار سنة خمس وخمسين»[1] ويزول التعارض إذا أدركنا أن عقبة كان نائباً لمسلمة بن مخلد منذ أصبح والياً لمصر وأفريقية. ولا يتعارض ذلك مع كون تولية عقبة من معاوية فهو الذي ولى رويفع بن ثابت على برقة وطرابلس ثم أصبح نائباً لمسلمة وكذلك فيما يبدو كان عقبة إلى أن عزله مسلمة بن مخلد وقام بتولية مولاه أبا المهاجر بن دينار وهو في الأصل من قضاعة وأنصاري بالولاء، وقد بعثه مسلمة أميراً نائباً لأفريقية في إطار خطة تستهدف أمرين أساسيين أحدهما: استمالة البربر ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة وترغيبهم في الإسلام، وثانيهما: غزو وفتح مناطق المغرب الشاسعة التي لما يدخلها المسلمون براً وبحراً وانتشار سلطة ودين الإسلام في تلك الآفاق الممتدة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٨٦.

فانطلق أبو المهاجر دينار الأنصاري من مصر إلى أفريقية (تونس) والمغرب سنة ٥٥ هجرية في جيش كبير غالبيتهم من اليمانيين، وفيهم أمراء وقادة وعلماء منهم زهير بن قيس البلوي الحميري والفقيه حنش الصنعاني وسفيان بن وهب الخولاني، وزياد بن أنعم المعافري، وكانت تواكبهم السفن والمراكب في البحر.

وتقول الروايات أن أبا المهاجر لما وصل أفريقية (القيروان) أساء عزل عقبة بن نافع فغادرها عقبة إلى دمشق وشكا إلى معاوية فوعده خيراً وأقام بدمشق، بيد أن الأهم من ذلك هو أن سياسة مسلمة بن مخلد في أفريقية حققت هدفيها، فعلى صعيد الفتح والغزو ـ وكما جاء في كتاب الجامع ـ «سيّر مسلمة الغزاة إلى المغرب في البر والبحر وعلى رأسهم أبو المهاجر دينار ـ الأنصاري ـ أحد القادة الفاتحين»، وقال ابن خلدون: «فغزا أبو المهاجر المغرب وبلغ تلمسان». وعلى صعيد استمالة وإسلام البربر فقد أطاع كثيرون وأسلم كثيرون كان أهمهم الملك كسيلة، قال ابن خلدون: «وأسلم على يدي أبي المهاجر الملك كسيلة ملك أروبة والبرانس من البربر»(١)، وهو أعظم ملوك وزعماء البربر لأن غالبية قبائل البربر ينتمون إلى برانس وهم الأمازيغ. وقد استمر أبو المهاجر نائباً لمسلمة على أفريقية وبلاد المغرب إلى أن مات مسلمة عام ٦٢ للهجرة(٢).

* * *

وكان مسلمة بن مخلد قد استخلف على الفسطاط ـ عاصمة مصر ـ عابس بن سعيد المرادي في سنة ٦٠ هجرية وهي السنة التي توفى بها معاوية بن أبي سفيان (توفي معاوية في رجب ٦٠هـ)، فمسير مسلمة إلى دمشق واستخلافه عابس بن سعيد المرادي، ربما كان لتقديم العزاء في وفاة معاوية والتباحث مع يزيد الذي أصبح خليفة، وقد «أقرّه يزيد على ولايته لمصر والمغرب» بحيث كما جاء في الإصابة أن مسلمة «جُمعت له مصر والمغرب في خلافة معاوية، وصدر من خلافة يزيد بن معاوية» وذلك إلى أن توفي مسلمة بن مخلد سنة ٦٢هـ.

وبعد وفاته بنحو خمسين سنة جرت الواقعة التي ذكرها ابن حجر العسقلاني

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٨٦.

(٢) بعد وفاة مسلمة قام يزيد بن معاوية بإعادة عقبة بن نافع أميراً على أفريقيا والمغرب فقام بحبس أبي المهاجر واندلع صراع عنيف مع البربر فارتد الملك كسيلة واحتشدت البربر تحت رايته في معركة ضد عقبة والمسلمين فسقط عقبة قتيلاً ومعه أبو المهاجر وكثير من المسلمين عام ٦٣هـ ثم تولى الأمر زهير بن قيس البلوي الذي تلقى الأضواء عليه في المبحث التالي.

في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة قائلاً: وأخرج محمد بن الربيع من طريق ضمام بن إسماعيل عن أبي قبيل[1] قال:

«بَعَثَ إليّ حنظلة يعني أمير مصر[2]،

فقال (حنظلة): شيخ، لو كان في جسدك للسوط موضع لضربتك.

فقال أبو قبيل: ولِم ذاك؟

قال حنظلة: صرت كاهناً لقولك: الآخر فالآخر شر.

فقال له أبو قبيل: ليس أنا الذي قال هذا إنما سمعت مسلمة بن مخلد ـ وقال كان زاد في بعث البحر فكرة الجُند ذلك (سمعت مسلمة بن مخلد) وهو على أعوادك هذه يقول: يا أهل مصر ما نقمتم مني، والله لقد زدتُ في مددكم وعددكم وقويتكم على عدوكم، أعلموا أني خير ممن بعدي والآخر فالآخر شر.

وفي لفظ: والذي نفسي بيده لا يأتيكم زمان إلا الآخر فالآخر شر، فمن استطاع منكم أن يتخذ نفقاً في الأرض فليفعل».

وكانت وفاة مسلمة بن مخلد رضي الله عنه في ذي القعدة ٦٢ هجرية الموافق ٦٨٢ ميلادية.

---

(١) هو أبو قبيل المعافري من أئمة المجتهدين بمصر، توفي عام ١٢٨هـ.

(٢) هو الأمير حنظلة بن صفوان الكلبي الحميري تولى مصر عام ١٠٢ ـ ١٠٦هـ ثم تولاها مرة ثانية عام ١١٩ ـ ١٢٤هـ ثم تولى المغرب (١٢٤ ـ ١٢٩هـ) ونشير هنا إلى الولاة اليمانيين الذين تعاقبوا على ولاية مصر بعد مسلمة بن مخلد في عهود الخلفاء الأمويين وهم:

١ ـ قرة بن شريك العبسي المرادي ٩٠ ـ ٩٦هـ.

٢ ـ عبد الملك بن رفاعة اللخمي ٩٦ ـ ٩٩هـ.

٣ ـ أيوب بن شرحبيل بن الصباح ٩٩ ـ ١٠١هـ.

٤ ـ بشر بن صفوان الكلبي الحميري ١٠١ ـ ١٠٢هـ.

٥ ـ حنظلة بن صفوان الكلبي ١٠٢ ـ ١٠٦هـ.

٦ ـ حفص بن الوليد الحضرمي ١٠٨هـ.

٧ ـ الوليد بن رفاعة اللخمي ١٠٩ ـ ١١٧هـ.

٨ ـ عبد الرحمن بن خالد اللخمي ١١٧ ـ ١١٨هـ.

٩ ـ حنظلة بن صفوان الكلبي (مرة ثانية) ١١٩ ـ ١٢٤هـ.

١٠ ـ حفص بن الوليد الحضرمي (مرة ثانية) ١٢٤ ـ ١٢٧هـ.

١١ ـ حسان بن العتاهية التجيبي ١٢٧ ـ ١٢٨هـ.

١٢ ـ عبد اللك بن مروان بن موسى اللخمي ١٣١هـ.

٢٦

زُهير بن قيس البلوي
ـ أمير أفريقية وقاهر كسيلة ـ

من أعلام القادة الفاتحين المجاهدين هو الصحابي اليماني زهير بن قيس البلوي الذي جَمَعَ ما أنزل الله من القرآن على رسول الله ﷺ قبل أن يُصلي مروان بن الحكم صلاة الجمعة!

قال عنه ابن حجر العسقلاني في ترجمته بالإصابة: «. .يكنى أبا شداد، شهد فتح مصر. . وذكر له ابن يونس قصة مع عبد العزيز بن مروان قال فيها أنه قال لعبد العزيز وهو أمير على مصر وقد ندبه إلى برقة فخاطبه بشيء، فأجابه زهير: أتقول لرجل جَمَعَ ما أنزل الله على نبيه قبل أن يُجَمِّعْ أبواك هذا. ومضى إلى برقة»[(١)]. والمقصود بقوله: (قبل أن يُجمّع أبواك) أو (قبل أن يُجمّع أبوك) ـ أي قبل أن يصلي مروان بن الحكم صلاة الجمعة، وبما أن مروان لم يصلي الجمعة إلا بعد إسلامه غداة فتح مكة في رمضان ٨ هجرية يتبين أن زهير بن قيس كان صحابياً منذ وقت مبكر وأنه منذ ما قبل فتح مكة كان يجمع ما أنزل الله من القرآن على رسوله عليه الصلاة والسلام.

* * *

ينتمي زهير بن قيس إلى قبيلة بَلِيْ التي كانت منطقتها الأصلية باليمن في محافظة مأرب وصعدة مع خولان وبهراء أبناء عمرو بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير. قال نشوان في شمس العلوم: «بَلِيّ قبيلة من اليمن من قضاعة، والنسبة إليهم بلوي، وهم ولد بليّ بن عمرو بن الحاف. . قال المثلم بن قُرط البلوي:

ألم تر أنّ الحيّ كانوا بغبطة ... بمأرب إذْ كانوا يَحُلّوْنها معا
بَلِيُّ، وبَهْراءُ، وخولانُ، إخوةُ ... لعمرو بن حاف فرعُ من قد تفرعا»[(٢)]

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ١ ص٥٥٥.
(٢) شمس العلوم في دواء كلام العرب من الكلوم ـ نشوان بن سعيد الحميري ـ ص٩ جـ١.

وقال نشوان: «خولان قبيلة من اليمن وهم ولد خولان بن عمرو بن الحاف.. قال فيهم جميل بن معمر ـ (وفي بليّ) ـ:

وخَولانُ تَردِي بِالقنا وبَلِيُّها   إليّ فَمَنْ مثلي إذا الناس أُلِفُوا»[1]

وكانت بلي قبيلة حميرية كبيرة انتشرت عشائرها ما بين منطقتها في اليمن إلى شمال ساحل المدينة وخليج العقبة في إطار النشاط التجاري والسيطرة على الطرق التجارية وحمايتها في العصر الحميري والجاهلية، وقد ذكر ابن خلدون انتشار «مواطن بليّ إلى عقبة أيلة»[2] وقال بامطرف: «بَلِيُّ: قبيلة يمنية عظيمة من قضاعة القحطانية.. وعلى هذه القبيلة كان جلّ اعتماد اليمن وغيرهم في نقل التجارة عبر بلاد العرب قبل ظهور الإسلام»[3].

* * *

وقد بادر العشرات ثم المئات من أفراد وعشائر قبيلة بليّ إلى الانضواء في موكب رسول الله ﷺ واعتناق الإسلام، قال ابن خلدون: «ومن بَلِيّ جماعة من مشاهير الصحابة، منهم كعب بن عجرة، وخُديج بن سلامة، وسهل بن رافع، وأبو بردة بن نيار»[2].

وجاء في عيون الأثر عن الصحابة الذين شهدوا موقعة بدر مع رسول الله ﷺ أن منهم: أبو بردة هانئ بن نيار البلوي وعبد الله بن طارق البلوي، والمجذر بن زياد البلوي، والنعمان بن عَصِر البلوي وأبو عقيل بن عبد الله بن ثعلبة البلوي، وعبد الله بن عامر البلوي، وسواد بن غزية بن وهب البلوي، وهو الذي أسر خالداً والعاصي والحارث إخوة أبي جهل بن هشام في موقعة بدر[4].

ويوم سار رسول الله ﷺ لفتح مكة في رمضان كان في موكبه عشرات الصحابة من قبيلة بليّ الحميرية وكان زهير بن قيس البلوي قد جمع ما أنزل الله على نبيه من الذكر الحكيم.

وفي أوائل عام ٩ هجرية انطلق من منطقة صعدة والسروات باليمن وفد من عشائر بليّ إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، قال ابن سيد الناس الأندلسي: «قدم على رسول الله ﷺ وفد بليّ في ربيع الأول سنة تسع، فأنزلهم رويفع بن ثابت

---

(١) شمس العلوم في دواء كلام العرب من الكلوم ـ نشوان بن سعيد الحميري ـ ص٣٥ جـ١.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٢٤٤.
(٣) الجامع لبامطرف ـ بليّ ـ ص١١٢.
(٤) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس الأندلسي ـ جـ٢ ص٣٢١.

البلوي عنده، وقدم بهم على رسول الله ﷺ فقال له: هؤلاء قومي. فقال له رسول الله ﷺ: مرحباً بك وبقومك»[١] فمكثوا في ضيافة رويفع بن ثابت وصحبوا النبي ﷺ أياماً «ثم رجعوا إلى بلادهم»[١] وتدل هذه الواقعة على استمرار الارتباط بين عشائر قبيلة بليّ في مناطق انتشارهم باليمن وشمال يثرب إلى عقبة أيلة، فهم قوم رويفع بن ثابت كما أنهم قوم زهير بن قيس وكذلك كانوا في فتح مصر.

* * *

قال ابن حجر في الإصابة وابن يونس في تاريخ مصر أن قيس بن زهير: (شهد فتح مصر)، ولم تحفظ لنا المصادر أنباء تفصيلية عن زهير بن قيس في عملية الفتح والاستقرار في مصر، ويمكن إدراك ذلك من خلال الدور العام لقبيلة بليّ فقد كانوا في طليعة المجاهدين في جيش الفتح بضربهم بالمنجنيق حصن بابليون، وفي ذلك قال الراجز:

يوم لِهَمْدانَ ويوم للصَّدفْ والمنجنيق في بَلِيّ تختلف

وممن شهد الفتح من بلي الصحابيان مسعود بن أوس البلوي وجُبارة بن زاررة البلوي، فقد شهدا فتح مصر واختطّا بالفسطاط مع زهير بن قيس وعشائر قبيلة بليّ، ولم تكن بليّ كثيرة العدد في بداية الفتح ـ عام ٢٠هـ ـ ثم لحقت بهم سائر عشائر قبيلة بليّ الكبيرة وانتقلت القبيلة بأكملها إلى مصر ـ ربما في خلافة عثمان ـ لأن فتح مصر لم يتم في عام واحد بل على مراحل امتدت إلى أواخر خلافة عثمان، وكان الاستقرار في أرجاء مصر وتأسيس عصرها العربي الإسلامي سكانياً وثقافياً ودينياً هو المجال الذي كان لقبيلة بليّ إسهامها الوافر فيه، فقد «كانت لبِليّ خطة بالفسطاط كبيرة في الحمراوات الثلاث، ونزلت طوائف من بليّ المنطقة الواقعة بين الفسطاط وميناء عيذاب شرقي أسوان وكانوا يرتبعون في منف وطرابية، وذكر المقريزي منازل بليّ في سوهاج شمالاً إلى غرب قمولة جنوباً، كما انتشرت بليّ في قِناء وجرْجا القليوبية والشرقية من الديار المصرية».

وأجازت فرقة من بليّ إلى برقة ـ في ليبيا ـ واستقرت بها في فتح أفريقية بقيادة معاوية بن خديج السكوني وفترة ولاية عقبة بن عامر الجهني لمصر (٤٤ ـ ٤٧هـ) وإمارة رويفع بن ثابت الأنصاري لبرقة وطرابلس[٢] ولما توفي رويفع بن

(١) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس الأندلسي ـ جـ٢ ص٣٢١.

(٢) رويفع بن ثابت الأنصاري هو غير رويفع بن ثابت البلوي كما قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة والقرطبي في الاستيعاب. والله أعلم.

ثابت في برقة وهو أمير عليها لمسلمة بن مخلد عام ٥٦ هجرية أصبح زهير بن قيس البلوي بمثابة الأمير النائب لمسلمة بن مخلد في برقة بينما كان المهاجر بن دينار أميراً لأفريقية في إطار ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري لمصر وبلاد المغرب إلى أن توفي مسلمة بن مخلد عام ٦٢ هجرية.

* * *

تمرد كسيلة ومقتل عقبة في موقعة تهودا (ذي الحجة ٦٢هـ)

في عام ٦٢هـ بعد وفاة مسلمة بن مخلد[١] قام يزيد بن معاوية بتولية وإعادة عقبة بن نافع أميراً على أفريقية بدلاً عن أبي المهاجر نائب مسلمة بن مخلد على أفريقية، وفي ذلك قال ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ «استعمل يزيد عقبة بن نافع على أفريقية سنة ٦٢هـ وأرسله إليها، فوصل إلى القيروان مجداً، وقبض أبا المهاجر أميرها وأوثقه في الحديد، وترك في القيروان جنداً مع الذراري والأموال واستخلف بها زهير بن قيس البلوي»[٢] وقال ابن خلدون: «أرجع يزيد بن معاوية عقبة بن نافع على أفريقيه سنة ثنتين وستين، فدخل أفريفيه، وقد نشأت الردّة في البربر، فزحف إليهم وجعل على مقدمته زهير بن قيس البلوي.. وحبس عقبة أبا المهاجر فلم يزل في اعتقاله.. فسار عقبة وفتح وغنم وسبي وأثخن في البربر وانتهى إلى السوس، وقفل راجعاً..»[٣].

وأثناء ذلك كان موقف كسيلة ملك البربر قد تغير منذ عودة عقبة أميراً على أفريقية بسبب موقف عقبة من البربر واحتقاره إياهم وقيامه بغزوهم بتهمة الردة، وفي ذلك قال ابن خلدون: «كان كسيلة ملك أروبة والبرانس من البربر قد اضطغن على عقبة بما كان يعامله به من الاحتقار، يقال إنه كان يحاصره في كل يوم ويأمره بسلخ الغنم إذا ذُبحت لمطبخه»[٢] وقال ابن الأثير: «هذا كسيلة بن كمرم البربري، كان قد أسلم لما ولي أبو المهاجر أفريقية وحسن إسلامه، وهو من أكابر البربر وأبعدهم صوتاً، وصحب أبا المهاجر، فلما وُلّي عقبة، عَرّفه أبو المهاجر كسيلة وأمره بحفظه، فلم يقبل عقبه واستخف به، وأتى عقبه بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين، فقال كسيلة: هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤنة، فشتمه عقبه وأمره بسلخها، ففعل. فقَبّح أبو المهاجر هذا (العمل) عند عقبه، فلم

---

(١) قال ابن كثير: «مات مسلمة بن مخلد الأنصاري في ذي القعدة من هذه السنة ـ ٦٢ هجرية ـ» [جـ٨ ص٢١٧ ـ البداية والنهاية]. وبالتالي تكون تولية عقبة في ذي القعدة ٦٢ هجرية غالباً.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ أحداث سنة ٦٢ هجرية ـ جـ٣ ص٣٠٨.

(٣) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٨٥.

يرجع عنه، فقال له أبو المهاجر: أوثق الرجل فإني أخاف عليك منه، فتهاون عقبة، فأضمر كسيلة الغدر»[١].

وكان كسيلة أعظم ملوك قبائل البربر لأن البربر ترجع قبائلهم إلى فرعين؛ فرع البرانس وفرع البتر، وتندرج أغلب قبائل البربر في فرع البرانس، نسبة إلى (برنس/ بن سفجو/ بن أيزج/ بن جناح/ بن واليل/ بن شراط/ بن تام/ بن دويم/ بن دام/ بن أمازيغ بن كنعان)[٢] وهم قبائل الأمازيغ بن كنعان، ويذهب نسابة البربر إلى أن قبيلتي كتامة وصنهاجة من فرع البرانس، بينما الصحيح أنهم من حمير أوطنهم الملك أفريقيس بن ذي المنار ملك سبأ مع قبائل أمازيغ بن كنعان في بلاد المغرب في الزمن القديم، قال ابن خلدون: «قال ابن الكلبي: أن كتامه وصنهاجة ليستا من قبائل البربر وإنما هم من اليمانية، تركهما الملك أفريقيش بأفريقية مع من نزل بها من اليمانية. . وهذا إجماع أهل التحقيق في شأنهم: إن صنهاجة وكتامة من اليمانية»[٢]، فدخلوا في نسب البربر الأمازيغيين في فرع برانس عند نسابة البربر، وكان كسيلة ملك كل تلك القبائل البربرية الأمازيغية والحميرية بتونس والجزائر والمغرب الأقصى، فلما استخف به عقبة بن نافع وعامله بالاحتقار وأخذ في غزو وسبي البربر ومعاملتهم بالعنف والاحتقار، أضمر كسيلة الغدر والتمرد، فبينما سار عقبه وغزا إلى السوس وأثخن في البربر وعاد بالجيش قاصداً القيروان، قام كسيلة بمكاتبة البربر بالتجمع إلى (تهودا)، فيقول ابن خلدون أن كسيلة «اغتنم الفرصة وأرسل البربر ـ وربما راسل البربر ـ فاعترضوا لعقبه في تهودا» ويقول ابن الأثير أن كسيلة «أضمر الغدر، وأعلم الروم [الذين كانوا في طنجة وغيرها بالمغرب] بذلك، فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره، وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبه، فقال أبو المهاجر لعقبه عاجله: قبل أن يقوى جمعه ـ وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبه ـ فزحف عقبة إلى كسيله، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه، (فاجتمع البربر في تهودا)، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليَّ وثاقيا

إذا قمت عَناني الحديد وأغلقت مصارع من دوني تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك فأطلقه. . فكسر عقبه والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٨٥.

(٢) البربر عرب قدامى ـ محمد المختار العرباوي ـ ص٢٨٤ ـ ٢٨٩ ـ تونس ـ الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

البربر فقاتلوهم، فَقُتل المسلمون الذين مع عقبة ـ جميعهم لم يفلت منهم أحد». وقال ابن خلدون أن البربر الذين أرسل إليهم كسيلة اجتمعوا إلى تهودا «فاعترضوا عقبه في تهودا. وقتلوه في ثلثمائة من الصحابة والتابعين استشهدوا كلهم، وأسِر في تلك الوقعة محمد بن أوس الأنصاري في نفر، فخلصهم صاحب قفصة ـ وهو من البربر ـ وبعث بهم إلى القيروان»، وكان زهير بن قيس البلوي قد تمكن من الانسحاب ببقية الجيش إلى القيروان، وقيل كان عقبة قد استخلفه على القيروان فرابط زهير بالقيروان بعد موقعة تهودا (في ذي الحجة ٦٢هـ) حيث أدت سياسة الاستخفاف بالبربر واحتقار ملكهم كسيلة إلى تمردهم وردتهم وإلى مقتل عقبة وكثير من المسلمين في موقعة تهودا وإلى خسارة المسلمين لكل المكاسب التي تحققت منذ فتح معاوية بن حديج السكوني لأفريقية ـ عام ٤٤هـ ـ إلى وفاة مسلمة بن مخلد ـ عام ٦٢هـ ـ وذلك أن كسيلة لم يكتف بما فعل في موقعة تهودا وإنما تقدم إلى القيروان عام ٦٣ هجرية.

قال ابن خلدون بعد ذكر مقتل عقبة في موقعة تهودا، «ورجع زهير ابن قيس البلوي إلى القيروان، وعزم على القتال، وخالفه حنش بن عبد الله الصنعاني وارتحل إلى مصر واتبعه الناس، فاضطر زهير إلى الخروج معهم، وانتهى إلى برقة فأقام بها مرابطاً». وقال ابن الأثير: «عزم زهير بن قيس البلوي على القتال، فخالفه جيش الصنعاني [أو: حنش الصنعاني] ـ وعاد إلى مصر، فتبعه أكثر الناس، فاضطر زهير إلى العود معهم، فسار إلى برقة وأقام بها. وأما كسيلة فاجتمع إليه جمع أهل أفريقية (البربر) وقصد أفريقية (تونس والقيروان) وبها أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة، فأمّنهم، ودخل القيروان، واستولى على أفريقية». وقال ابن خلدون: «واستأمن من كان بالقيروان إلى كسيلة فأمّنهم ودخل القيروان، وأقاموا في عهده». أو كما قال ابن الأثير: «استولى كسيلة على أفريقية، وأقام بها إلى أن قويّ عبد الملك بن مروان فاستعمل على أفريقية زهير بن قيس البلوي وكان مقيماً ببرقه مرابطاً».

* * *

ولاية زهير بن قيس على برقة (ليبيا)

لقد كان زهير بن قيس البلوي أميراً على برقة وطرابلس (ليبيا) منذ عهد مسلمة بن مخلد أمير مصر وبلاد المغرب، وهو ما يمكن إدراكه من خلال أمرين؛ أحدهما: أن رويفع بن ثابت الأنصاري كان أميراً على برقة وطرابلس منذ عام ٤٦هـ إلى أن مات ببرقة وهو أمير عليها لمسلمة بن مخلد عام ٥٦ هجرية، ومن

الطبيعي أن يكون هناك أمير لبرقة وطرابلس بعد موت رويفع بن ثابت، ولم تذكر المصادر سوى مرابطة زهير بن قيس في برقة. الأمر الثاني: أن وجود زهير في برقة يدل على أنه كان أميرها منذ عام ٥٧ هجرية ـ في عهد مسلمة بن مخلد ـ إلى أن سار مع عقبة بن نافع إلى القيروان ـ عام ٦٢ هجرية ـ فلما أسفرت موقعة (تهودا) عن مقتل عقبة وكثير من المسلمين، رابط زهير في القيروان ومعه الفقيه حنش الصنعاني، ثم عاد زهير إلى برقة (عام ٦٣ ـ ٦٤هـ) في ظل الظروف والأسباب التالية:

ـ إن أهل أفريقية (البربر) انضووا تحت راية الملك كسيلة وقصدوا أفريقية (القيروان).

ـ إن الفقيه حنش الصنعاني لم يوافق على القتال في معركة ستكون خاسرة ـ لضخامة جيش كسيلة ـ وأيده غالبية الجيش وعادوا معه إلى مصر.

ـ إن زهير بن قيس هو أمير برقة ـ وليس أمير أفريقية ـ فلما عاد غالبية الجيش مع حنش الصنعاني، اضطر زهير إلى العودة مع جيش برقة وطرابلس إلى برقة والمرابطة فيها ـ لأنه أميرها ـ وإلى أن تقرر دولة الخلافة الموقف الذي يتم اتخاذه إزاء تلك التطورات واستيلاء كسيلة والبربر على القيروان وأفريقية.

ـ إن أمر الخلافة قد اضطرب بعدموت يزيد بن معاوية (في ربيع ٦٤هـ) وموت معاوية بن يزيد بن معاوية (في جمادى ٦٤هـ) فتم مبايعه عبد الله بن الزبير بمكة وانضووت تحت خلافته الجزيرة العربية، بينما بويع وقاد حركة التوابين في العراق سليمان بن صرد الخزاعي، وانقسم الأمر في الشام بين فريق مؤيد لعبد الله بن الزبير وفريق مؤيد لبني أمية وكذلك في مصر، ثم أيد يمانية الشام بزعامة حسان بن بحدل الكلبي الحميري مروان بن الحكم فبايعوه بالخلافة ـ في نفس عام ٦٤هـ ـ ثم سار إلى مصر، فأيد يمانية مصر بزعامة كريب بن أبرهة بن الصباح الحميري مروان بن الحكم وبايعوه، فاستخلف مروان على مصر عبد العزيز بن مروان وعاد إلى الشام، فلما مات مروان قام حسان الكلبي الحميري بمبايعة عبد الملك بن مروان فاستتب له الشام ومصر ومكث عبد العزيز بن مروان أميراً لمصر وكان زهير بن قيس البلوي في برقة مرابطاً فيها وأميراً عليها.

* * *

وقد استمر ـ أو أصبح ـ زهير بن قيس أميراً لبرقة وأعمالها (ليبيا) في إطار ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر وخلافة عبد الملك بن مروان على الشام ومصر، وفي ذلك قال بامطرف في ترجمته بكتاب الجامع: «زهير بن قيس البلوي: أمير، من القادة الشجعان الفاتحين. . شهد فتح مصر، وولاه أميرها

عبد العزيز بن مروان على برقة سنة ٦٩هـ، فكانت له مع البربر والروم وقائع»[١].

والصواب أن عبد العزيز بن مروان ولاه على برقة منذ صيرورته أميراً لمصر في أواخر عام ٦٤هـ أو عام ٦٥هجرية وقد جاء في ترجمة زهير بن قيس بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة أن ابن يونس صاحب كتاب تاريخ مصر: «ذكر له قصة مع عبد العزيز بن مروان وهو أمير على مصر، وقد ندبه إلى برقة، فخاطبه بشيء، فأجابه زهير: أتقول لرجل جَمَعَ ما أنزل الله على نبيه قبل أن يُجَمِّع أبواك هذا، ومضىٰ إلى برقة»[٢].

وقال ابن خلدون: «لما وُلّي عبد الملك بن مروان بعث إلى زهير بن قيس بمكانه من برقة بالمدد، وولاه حرب البرابرة»[٢]. وقد وُلّي عبد الملك بن مروان عام ٦٥ فيدلُ ذلك على ولاية زهير بن قيس لبرقة وأعمالها (ليبيا) منذ بداية ولاية عبد الملك بن مروان للشام ومصر وولاية عبد العزيز بن مروان لمصر سنة ٦٥ هجرية كامتداد للواقع السابق المتمثل في ولاية زهير لبرقة وطرابلس كنائب لمسلمة بن مخلد ـ منذ عام ٥٧هـ ـ ومرابطته في برقة منذ مقتل عقبة بن نافع واستيلاء كسيلة على القيروان وأفريقية عام ٦٣هـ، ويتبين من مجمل ذلك استمرار زهير أميراً على برقة وطرابلس من عام ٥٧ ـ ٦٨ هجرية ثم أضيفت إليه ولاية أفريقية.

ولاية زهير على أفريقية وهزيمة ومقتل كسيلة

قال ابن الأثير: «لما قوي أمر عبد الملك بن مروان استعمل على أفريقية زهير بن قيس البلوي وكان مقيماً ببرقة مرابطاً» وقال ابن خلدون: «بعث ـ عبد الملك ـ إلى زهير بن قيس بمكانه من برقة بالمدد وولاه حرب البرابرة فزحف سنة سبع وستين ودخل أفريقية».

وبعنوان (ولاية زهير بن قيس أفريقية، وقتل كسيلة) قال ابن الأثير: «لما قوي عبد الملك بن مروان ذُكر عنده من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى أفريقية لاستنقاذهم. فكتب إلى زهير بن قيس البلوي بولاية أفريقية وجهز له جيشاً كبيراً فسار سنة تسع وستين إلى أفريقية»[٣].

وكان من قادة الجيش والمدد المبعوث من الشام ومصر حسان بن النعمان وسفيان بن رهب الخولاني.

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص٢٢٣.
(٢) الإصابة ـ جـ١ ص٥٥٥ ـ تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٨٦.
(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص٣٠٩ ـ ٣١٠.

فانطلق زهير بن قيس بالجيش من برقة وطرابلس إلى تونس والقيروان ـ أفريقية ـ سنة ٦٩هجرية «فبلغ خبره إلى كسيلة، فاحتفل وجمع وحشد البربر والروم وأحضر أشراف أصحابه، وقال: قد رأيت أن أرحل إلى ممش فانزلها، فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم، ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء من ورائنا، فإذا نزلنا ممش أمناهم وقاتلنا زهيراً، فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم من أفريقية، وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا، فأجابوه إلى ذلك، ورحل إلى ممش.

وبلغ ذلك زهيراً، فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى راح واستراح ـ [وربما كان ذلك خشية أن يدخل القيروان فيحاصره كسيلة، فبعث فرقة دخلت القيروان وأقام بظاهرها ثلاثة أيام واستقصى خبر العدو] ـ ثم سار زهير من ظاهر القيروان في طلب كسيلة، فلما قاربه، نزل وعبّى أصحابه ـ (في ممش) ـ وركب إليه، فالتقى العسكران، واشتد القتال، وكثر القتل في الفريقين حتى أيس الناس من الحياة، فلم يزالوا كذلك ـ أكثر النهار ـ ثم نصر الله المسلمين وانهزم كسيلة وأصحابه، وقُتل هو وجماعة من أعيان أصحابه بممش»[١].

وقال ابن خلدون: «دخل زهير أفريقية، ولقيه كسيلة على ميش [ممش] من نواحي القيروان، فهزمه زهير بعد حروب صعبة، وقتله، واستلحم في الوقعة كثير من أشراف البربر ورجالاتهم»[٢].

قال ابن الأثير: «وتبع المسلمون البربر والروم، فقتلوا من أدركوا منهم فأكثروا، وفي هذه الوقعة ذهب رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم. وعاد زهير إلى القيروان»[٢] وبذلك النصر العظيم الذي حققه زهير في موقعة ممش، رفرفت رايات العروبة والإسلام من جديد في القيروان وأفريقية.

* * *

عودة زهير من القيروان إلى برقة

وقد مكث زهير بن قيس في القيروان أميراً على أفريقية فترة من الزمن ـ منذ عام ٦٧هـ واستتب الأمر في أفريقية (تونس) إلى تخوم منطقة جبال الأوراس (بالجزائر).

قال ابن الأثير: «ثم إن زهيراً رأى بأفريقية مُلكاً عظيماً، فأبىٰ أن يُقيم، وقال: إنما قدمتُ للجهاد فأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك، وكان عابداً زاهداً،

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٨٧.

فترك بالقيروان عسكراً، وهم آمنون لخلو البلاد من عدو أو ذي شوكة، ورحل في جمع كثير. . »[١] وقال ابن خلدون: «ثم قفل زهير إلى المشرق زاهداً في الملك، وقال: إنما جئت للجهاد وأخاف نفسي أن تميل إلى الدنيا»[٢].

ولم تذكر المصادر اسم الأمير الذي استخلفه زهير بالقيروان، ويبدو أنه سفيان بن وهب الخولاني، فقد جاء في ترجمته بالإصابة أنه «تولى إمرة أفريقية لعبد العزيز بن مروان».

* * *

استشهاد زهير في ساحل برقة

ولما عاد زهير بن قيس البلوي من قيروان إلى برقة، توجه زهير من برقة ـ وربما من طرابلس ـ قاصداً مصر، وقد دمجت الروايات ذلك بخبر عودته من القيروان، وأنه «كان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى أفريقية، فاغتنموا خلوها، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبياً وقتلوا ونهبوا، ووافق ذلك قدوم زهير من أفريقية [أو من طرابلس] إلى برقة قاصداً مصر، فأخبر الخبر، فأمر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم، ورحل هو ومن تبعه، وكان الروم خلقاً كثيراً، فلما رآه المسلمون استغاثوا به، فلم يمكنه الرجوع ـ أي التراجع ـ وباشر القتال، واشتد الأمر وعظم الخطب، وتكاثر الروم عليهم، فاستشهد زهير وأصابه، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية»[١]. وقال ابن خلدون: لما سار زهير إلى مصر «اعترضه بسواحل برقة أسطول صاحب قسطنطينية، جاءوا لقتاله، فقاتلهم واستشهد رحمه الله تعالى»[٢] وقال ابن حجر العسقلاني: «نهض زهير إلى برقة في عدد قليل، فلقي الروم، فقاتل حتى قُتل شهيدا ببرقة سنة ست وسبعين للهجرة» [ص٥٥٥/ ١ـ الإصابة].

وقال البلاذري في فتوح البلدان: « . . انصرف زهير بن البلوي إلى برقة، فبلغه أن جماعة من الروم خرجوا في مراكب لهم فعاثوا، فتوجه إليهم في جريدة خيل، فلقيهم، فاستشهد ومَنْ معه، فقبره هناك وقبورهم تدعى قبور الشهداء»[٣].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص٣٠٩ ـ ٣١٠.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٨٧.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ٢٣١.

وقد جاء في الإصابة وكذلك في كتاب الجامع أن استشهاد زهير سنة ٧٦هجرية، بينما جاء في الكامل في التاريخ لابن الأثير أن استشهاده سنة ٦٩ هجرية، ثم نقل ابن الأثير عن الواقدي أن استشهاد زهير بن قيس «سنة سبع وستين ـ وليس ست وسبعين ـ فاستعمل عبد الملك على أفريقية حسان بن النعمان الغساني»[١].

فاستهلّ حسان عهده بزيارة قبر الشهيد الصحابي زهير بن قيس البلوي رضي الله عنه وأرضاه.

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٤ ص٣٣.

٢٧

حسان بن النعمان الغساني

ـ فاتح الجزائر والمغرب وأمير أفريقية ـ

من عظماء الأمراء الفاتحين الذين أرسوا دعائم الإسلام في شمال أفريقية هو حسان بن النعمان الغساني الذي اشتهر بلقب (الشيخ الأمين) وافتتح الأوراس والجزائر والمغرب وكان له في التاريخ دور عظيم.

قال عنه ابن خلدون: «افتتح حسان بن النعمان قرطاجنة عنوة، وفرّ من كان بها من الروم والفرنجة إلى صقلية والأندلس.. ومَلَك جبل الأوراس وما إليه ودوخ نواحيه، وأمّنَ البربر، وكتب الخراج عليهم وعلى من معهم من الروم والفرنج على أن يكون معه اثنا عشر ألف من البربر لا يفارقونه في مواطن جهاده»[١].

* * *

نبأ ملوك غسان

إن أول ما تطالعنا به المصادر التاريخية والتراجم عن ذلك الفاتح العظيم حسان بن النعمان هو أنه: «من أبناء ملوك غسان»[٢]. ومن المفيد هنا أن نذكر معالم النبأ اليقين عن غسان وملوك غسان أسلاف حسان بن النعمان:

ـ إن قبيلة غسان من القبائل اليمانية السبائية العريقة، وقد جاء ذكرها في نقوش المسند اليمنية المعثور عليها في اليمن، ومنها نقش وادي عبدان الكبير باسم الملك ملشان أريم الحميري يذكر فيه «أرض غسان»[٣] وكانت غسان تسكن مع إخوتها من قبائل الأزد في أرض مأرب، ويجمع اسم غسان خمسة عشائر وبطون من الأزد، وفي ذلك قال ابن خلدون: «وغسان هم بنو مالك وبنو الحارث وبنو جفنة وبنو كعب فكلهم يسمون غسان» وذكر المسعودي أن

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٨٧.
(٢) الجامع لبامطرف ـ ص١٦٤.
(٣) في العربية السعيدة ـ محمد بافقيه ـ نقش وادي عبدان الكبير ـ ٤٧٠ح/ ٣٥٥م.

منهم أيضاً (بنو مازن) وقال: «غسان اسم ماء باليمن أقاموا عليه وشربوا منه فسموا غسان، وقال شاعرهم:

إما سألتَ فإنّا معشر نُجُبٌ   الأزد نسبتنا، والماء غسان»[١]

وبما أنهم كانوا يسكنون في وادي ماء غسان أصبح غسان اسماً جامعاً لهم منذ عصور سبأ وحمير.

ـ ثم انتقلت غسان من أرض مأرب باليمن إلى أداني الشام في أعقاب سيل العرم ـ الثاني ـ بالقرن الثالث الميلادي، فسكنوا ـ كما ذكر ابن خلدون «على تخوم وأداني الشام ما بينه وبين جبال الشراة مما يلي أعمال دمشق والأردن». وسُميت تلك المنطقة باسمهم (أرض غسان)، قال حسان بن جيشان الحميري:

وغسان الذين هُمُ استتبوا   قبائلهم بأطراف البلاد

وجاء في نقش مسند الملك الحميري معدي كرب حفيد ملشان أريم أن غزواته بلغت «إلى آبار سجابين أرض نزار وأرض غسان»[٢] أي بين الحجاز وأداني الشام، والنقش مؤرخ بعام ٤٧٠ حميري ويوافق عام ٣٥٥ ميلادية.

ـ **نشوء مملكة الغساسنة بالشام:** وقد أثار كيفية نشؤ مملكة الغساسنة بالشام اهتمام المؤرخين والباحثين، فذهب الأستاذ أحمد أمين ود. عمر شرف الدين إلى أنه: «حاول الروم أن يُخضعوا العرب لحكمهم إتقاء لغزوهم وسلبهم، ولكنهم كانوا يعدلون عن ذلك لما يستلزمه فتح جزيرة صحراوية من ضحايا في الأنفس والأموال، فرأى الروم إن خير وسيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل على أن يقرّوا على التخوم يزرعون ويتحضرون، ثم يكونوا رِداءً لهم يصدون غارات البدو الذين يغزون وينهبون، فتكونت إمارة الغساسنة بالشام»[٣].

وقد اعتمدت هذه الفكرة على آراء بعض المستشرقين وهي فكرة خاطئة بكل تأكيد، فقد كانت القبائل العربية تسكن في أرجاء الشام قبل مجيء الرومان واحتلالهم للبلاد، وكانت منهم قبائل عاملة وجُذام وتنوخ وسُليح وغيرهم من القبائل العربية التي انتقلت من اليمن إلى الشام في عصور سابقة، وبما أن العرب كانوا يُمثلون الغالبية العظمى في الشام، فقد اعترف الرومان بممالك عربية في

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص١٩٠.
(٢) الجامع لبامطرف ـ ص١٦٤.
(٣) الشعر في ظلال المناذرة والغساسنة ـ د. عمر شرف الدين ـ فجر الإسلام لأحمد أمين ـ ص١٧.

الشام منها مملكة البتراء ومملكة تدمر في إطار الولاء للإمبراطورية الرومانية، وكان ملوك تدمر من بني الضجاعم وهم ملوك العرب بالشام قبل غسان، وفيهم قال ابن خلدون: «كانت الضجاعم هؤلاء ملوكاً على العرب عمالاً للروم.. وكانت غسان لأول نزولها بالشام طالبها ملوك الضجاعم بالأتاوة، فمانعتهم غسان فاقتتلوا، فكانت الدائرة على غسان وأدت الأتاوة.. ثم التقوا فغلبتهم غسان على ما بأيديهم من رياسة العرب، لما كانت صبغة رياستهم الحميرية ـ أي الضجاعم ـ قد استحالت وعادت إلى كهلان وبطونها، وعُرفت الرياسة منها باليمن، قبل فصولهم، وربما كانوا ـ أي غسان ـ أُولي عدة وقوة وإنما العزة للكاثر»(١).

ولقد كانت غسان ذات قوة وعدة بالفعل، وفي ذلك قال جماعة البارقي في قصيدة عن انتقال الأزد من اليمن(٢):

وَسَمَتْ مِنهُم ملوكٌ إلى الشام ... على التُّبينية المُضمرات

فاحتووها وشيدوا المُلك فيها ... فلهم مُلك باحة الشامات

تلكم الأكرمون من ولد الأزد، ... غسان، سادة السادات

أن انعقاد رياسة العرب بالشام وصيرورتهم ملوكاً للعرب هو المرحلة الأولى لنشوء مملكة الغساسنة، واستمر ذلك فترة من الزمن في القرن الثالث الميلادي ثم اعترف الرومان بملوكيتهم في عهد الملك الروماني قسطنطين الأول (٣٠٦ ـ ٣٣٦م) وقد نقل ابن خلدون عن أصحاب التاريخ القديم كيفية ذلك قائلاً: «وتفردوا [أي غسان] بِمُلك الشام، وذلك عند فساد كان بين الروم وفارس، فخاف ملك الروم أن يعينوا عليه فارساً، فكتب إليهم، واستدناهم، ورئيسهم يومئذ ثعلبة بن عمرو، فكتبوا بينهم الكتاب أنه: إن دهمهم أمر من [الفُرس] أمدهم بأربعين ألف من الروم، وإن دهمه أمر أمدته غسان بعشرين ألفاً، وثبت مُلكهم على ذلك وتوارثوه»(١). وبذلك نشأت مملكة الغساسنة بالشام ـ رسمياً ـ في أوائل القرن الرابع الميلادي ـ وفي إطار الإمبراطورية الرومانية، وكان القيصر الروماني يصدر مرسوماً بمن يتولى الملوكية من غسان، كما في المرسوم الذي أصدره القيصر جوستنيان عام ٥٢٩م بترسيم الحارث بن جبلة الغساني: «ملكاً أميراً على جميع العرب في الشام، مع منحه لقب فيلارك وباتريك، وهو أعلى لقب بعد الإمبراطور»(٣).

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص .
(٢) صفة جزيرة العرب للهمداني ـ قصيدة جماعة البارقي.
(٣) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص١٨.

وقد أثار (نطاق مملكة الغساسنة وعاصمتهم) جدلاً واضطراباً بين الباحثين والدارسين المستشرقين والعرب، بحيث قال أحمد أمين: «أن تاريخ الغسانيين بالشام من الأمور الغامضة في تاريخ العرب.. ويظهر إنه لم يكن لهم مقر مُلك ثابت، فأحياناً يُفهم من قول الشعراء: أن الجولان والجابية عاصمتهم، وأحياناً يذكرون جِلَقْ على أنها العاصمة»[١] وقال حنا الفاخوري: «مملكة الغساسنة، وهم أولاد جفنة.. وكانوا في بلاد حوران، أي في بُصرى وما حولها»[٢] وقال المستشرق ثيودور نولدكه: «نستدل من اتخاذ الجولان قاعدة لمُلك بني جفنة، ومن الأهمية التي أصبحت للجابية، أن مركز الجفنيين الخاص كان في سهول الجولان»[٣] بينما قال المستشرق هنري لامنس «كانت عاصمة الغسانيين وكرسي دولتهم في الجابية في الجولان» وقال أحمد أمين: «امتد حكم الغساسنة على مقاطعتي حوران والبلقاء»[١] ويمتد نطاق مملكة الغساسنة وعاصمتهم في المصادر التاريخية والأشعار ليشمل أيضاً (السويداء) و(معان) و(حارب في صيدا بلبنان) وغيرها، ولكن ذلك كله لا يعني إنه (لم يكن لهم مقر مُلك ثابت) ولا يعني أن تاريخهم (من الأمور الغامضة)، وإنما يعني أن نطاق مملكة الغساسنة كان يشمل كل مناطق انتشار العرب بالشام، وهو ما يؤكده أيضاً لقب الحارث بن جبلة بأنه (ملك وأمير جميع العرب) كما في مرسوم جوستنيان، وبالتالي فإن حكم الغساسنة كان يشمل سائر المناطق والمقاطعات المذكورة، وقد كانت مدينة جِلَقْ بدمشق هي عاصمة ومقر الملك الغساني الأعلى، وكان هناك ملوك من أقاربه في نفس العهد في الجابية بالجولان وفي بُصرى حوران وفي حارب بصيدا وفي معان والبلقاء وغيرها.

قال حسان بن ثابت الأنصاري لما وفد إلى الملك جبلة بن الأيهم في جِلق ـ دمشق ـ قبل الإسلام ـ قصيدة ذكر فيها عواصم ومناطق مُلك بني جفنة الغساسنة بالشام قائلاً:

لِمَن الدار أسفرت بِمعَانِ ... بين أعلى اليرموك فالصمّان
فحمى جاسم إلى بيت رأس ... ، فالحواني، فجابةِ الجولان[٤]
فالقريّات من بلاس[٥] فداريا، ... فسكاء، فالقصور الدواني[٥]

---

(١) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص١٨.

(٢) الجامع في تاريخ الأدب العربي ـ حنا فاخوري ـ ص٧٧.

(٣) أمراء غسان ـ ثيودرو لوندكه ـ ترجمة د. جرزي ورزيق ـ ص٥٢.

(٤) معان، وجاسم، وبيت رأس في الأردن ـ البلقاء ـ وجابة الجولان: جابية الجولان.

(٥) بلاس: هي بالس ـ قال الهمداني ـ (بالس في الدهناء ومنها تخرج إلى تدمر). والقصور الدواني: قصور جِلق دمشق.

ذاك مغنى لآل جفنة في الدهـر، ـ وحقاً ـ تقادم الأزمان

وقال حسان بن ثابت في القصيدة مخاطباً جبلة بن الأيهم الجفني الغساني:

أشْهِرَنْها فإنّ مُلكَكَ بالشام إلى الروم فخر كل يماني

وأما (ترتيب ملوك الشام الغساسنة) فيتبين من المصادر التاريخية الترتيب الرئيسي التالي:

ـ أن «أول من ملك من غسان بالشام جفنة بن عمرو، ولما ملك جفنة بَنَىٰ جِلق دمشق، وملك خمساً وأربعين سنة» ومَلَك معه وبعده (ثعلبة بن عمرو) أو (ثعلبة بن جفنة) ثم الحارث الأكبر بن ثعلبة بن جفنة، قال المسعودي: (وهو ابن مارية ذات القرطين) ـ وقد حكم أولئك الملوك الثلاثة في الفترة (٢٨٠ ـ ٣٨٤م).

ـ ثم مَلَك (المنذر بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة) قال ابن خلدون: (ثم أخوه جبلة بن الحارث) وقال المسعودي (مَلَك بعد الحارث بن ثعلبة: النعمان بن الحارث بن جفنة، ثم (أبو شمر بن الحارث بن ثعلبة) وهو (جبلة بن الحارث) ـ عن الجرجاني ـ وقد حكم أولئك الملوك الثلاثة أو الأربعة في الفترة (٣٨٥ ـ ٥٢٨م).

ـ ثم مَلَك (الحارث بن جبلة) الذي أصدر القيصر جوستنيان مرسوماً بترسيمه «ملكاً أميراً للعرب في الشام، ومنحه لقب فيلارك وباتريك Phylarch and patricius وهو أعلى لقب بعد الأمبراطور» وذلك عام ٥٢٨م، وقد تم العثور في جبل أسيس ـ جنوب شرق دمشق ـ على نقش غساني باسم إبراهيم بن مغيرة الأوسي بأن الملك الحارث أرسله على رأس مسلحة ـ حامية عسكرية ـ عام ٥٢٨م. وكذلك جاء اسم الملكين (الحارث بن جبلة وأبو كرب بن جبلة) في نقش يمني بالمسند يذكر وصول هدايا منهما بمناسبة مشروع إعادة بناء سد مأرب عام ٥٤٣م. وجاء في تاريخ ابن خلدون أن (الحارث بن جبلة) هو «الحارث الأعرج بن أبي شمر، وأمه مارية ذات القرطين من بني جفنة بنت الهانئ المذكورة في شعر حسان، وكان مُلكه بأرض البلقاء ومعان» بينما كان أخوه (أبو كرب بن جبلة) ملكاً بالجولان وغيرها، وكذلك أخوه (عمرو). ولكن الحارث بن جبلة كان الملك الأعلى: «قال ابن قتيبة: وهو الذي سار إليه المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة في مائة ألف ـ فحاربه الحارث ـ وحملت غسان على عسكر المنذر، وقد اختبطوه فهزموهم، وكانت حليمة بنت الحارث تحرض الناس وهم منهزمون على القتال، فسمّى ـ يوم تلك المعركة ـ يوم حليمة». وضرب الناس المثل بذلك اليوم فقيل (ما يوم حليمة بسر) وقد انجلت المعركة عن مقتل المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ـ المرتبط بالفرس ـ ووقوع كثير من القتلى والأسرى، وكان من الأسرى شاس بن عبدة وجماعة من تميم، فوفد

الشاعر علقمة بن عبدة إلى الحارث بن جبلة، وقال قصيدته التي منها:

إلى الحارث الوهاب أعملتُ ناقتي ... لكلكلها والعصريين وجيبُ

فوهبه الحارث أولئك الأسرى، وكانت موقعة يوم حليمة في يونيه ٥٥٤م، وقد «سافر الحارث هذا سنة ٥٦٣م إلى القسطنطينية ليفاوض الأمبراطور جوستنيان في شؤون الحرب التي بينه وبين الحيرة، وفي من يخلفه على كرسيه، ومات الحارث سنة ٥٦٩م أو ٥٧٠م».

ـ قال ابن خلدون: «ثم ملك بعد الحارث بن أبي شمر، ابنه النعمان، ثم ملك بعده جَبَلة بن الأيهم بن جَبَلة، وجبلة جده هو الذي ملك بعد أخويه شمر والمنذر» وقال المسعودي: «أن النعمان والمنذر أخوة جبلة، وكلهم بنو الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة، وقد ملكوا كلهم». ويتبين من ذلك أن أولئك الأربعة اشتركوا في الحكم (المنذر، والنعمان، وشمر، وجبلة، بنو الحارث بن جبلة)، وتدل الدراسات بأن الملك الأعلى منهم كان (المنذر بن الحارث، الذي انتصر على ملك الحيرة في وقعة عين أباغ، ولم يكن الأمبراطور جوستين الثاني يميل إليه، فحاول اغتياله فلم يفلح، وعلم المنذر بن الحارث بمكيدته فثار وأبى محالفته، ثم هدد الفرس وعرب الحيرة تخوم الرومان، فاضطروا لمصالحة المنذر والتعاقد معه في سنة ٥٨٠م، وبعد موت الأمبراطور جوستين سافر المنذر بولديه إلى القسطنطينية، فاستقبلوه استقبالاً حافلاً وألبسوه التاج وتشير إحدى الروايات إلى أنه حكم ثلاثين سنة (٥٧٠ ـ ٥٩٩م) وقد كان أخوته الثلاثة (النعمان، وجبلة، وشمر (أبو شمر) يحكم كل منهم منطقة من الشام في ذات العهد.

ـ ثم تولى الحكم (عمرو بن المنذر) و(الأيهم بن جَبَلة) و(الحارث الأصغر بن أبي شمر) و(النعمان بن المنذر بن الحارث)، قال ابن خلدون «وكان النعمان بن المنذر على عهد الحارث بن أبي شمر هذا، وكانا يتنازعان في الرياسة ومذاهب المدح، وكانت شعراء العرب تفد عليهما مثل الأعشى وحسان بن ثابت وغيرهما. ومن شعر حسان رضي الله عنه في مدح أبناء جفنة:

لله درّ عصابة نادمتُهم ... يوماً بجِلّق في الزمان الأولِ

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المُفضل..

الخ الأبيات».

ويبدو أن النعمان بن المنذر بن الحارث هو نفسه الذي ينقل ابن خلدون عن ابن سعيد إنه «أبو كرب النعمان بن الحارث الذي رثاه النابغة، وكان منزله بالجولان من جهة دمشق» بينما «الأيهم بن جبلة كان منزلة بتدمر ـ وجلق ـ» وكان عمرو بن

المنذر بن الحارث هو الملك الغساني الأعلى، وله يقول النابغة الذبياني:

عَلَيَّ لعمرو نِعمةٌ بعد نعمةٍ	لوالدة ليست بذات عقاربِ
وثِقتُ له بالنصر إذْ قيل قد غزت	كتائب من غسان غيرُ أشائب
لئن كان للقبرين: قبرُ بِجِلَّقٍ	وقبر بصيدا التي عند حارب
وللحارث الجفني سيد قومه	ليفترعن بالجمع أرض المحارب

ويبدو أن عمرو بن المنذر دخل في صراع مع الروم، وانتهى عهده بذلك الصراع، فالدراسات تقرر أنه «ساءت العلاقة بين الغساسنة والروم.. ولما غزا الفرس الروم ودخلوا القدس ودمشق ـ عام ٦١٤م ـ تدهور شأن الغساسنة وضعف أمرهم».

ـ وقد تلى ذلك العهد الأخير للملوك الغساسنة بالشام (٦١٤ ـ ٦٣٣م) ـ فبالرغم من السيطرة الرومانية وضعف سلطان الغساسنة ـ فقد كان في ذلك العهد الذي فيه أشرق فجر الإسلام وانتهى بالفتح الإسلامي ثلاثة ملوك غسانيين بالشام، وهم النعمان بن عدي بن المنذر، والحرث بن أبي شمر الثاني، وجَبَلة بن الأيهم بن جبلة الغساني الذي كان حسان بن ثابت يفد إليه، وكان مقر جبلة بن الأيهم في جِلق بدمشق، ومقر الحرث بن أبي شمر في بُصرى بمقاطعة حوران، وأما النعمان بن عدي بن المنذر، فقد نقل ابن خلدون عن صاحب تواريخ الأمم إنه «الملك النعمان بن عمرو بن المنذر، الذي بنى قصر السويداء وقصر حارب عند صيدا، ولم يكن أبوه ملكاً وإنما كان يغزو بالجيوش» ـ وذلك هو والد حسان بن النعمان ـ وقد أعاد بناء قصر حارب لأنه كان موجوداً من قبل، ويبدو أنه مات قبيل الإسلام أو قبيل الهجرة النبوية بأمد يسير، وقد كتب رسول الله ﷺ إلى كل من الحارث بن أبي شمر وجبلة بن الأيهم يدعوهما إلى الإسلام حينما بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم في السنة السابعة للهجرة (٦٢٧م) أو في السنة التاسعة (٦٢٩م) فلم يستجب الحرث بن أبي شمر وكان في بُصرى، ومات بها[(١)] وأما جبلة بن الأيهم الغساني، فجاء في طبقات ابن سعد وتاريخ اليعقوبي والإمتاع للمقريزي والوفاء لابن الجوزي إنه: «كتب رسول الله ﷺ إلى جبلة بن الأيهم ملك غسان، يدعوه إلى الإسلام، فاسلم، وكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، فلم يزل مسلماً إلى أيام عمر بن الخطاب»[(٢)] ثم أتى إلى المدينة المنورة أيام

---

(١) نص كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر مذكور في طبقات ابن سعد ـ جـ٢ ص١٧ ـ تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ عن طبقات ابن سعد ـ جـ١ و٢ ص٢٠ ـ تاريخ اليعقوبي ـ ص٨٤ ـ إمتاع الأسماع للمقريزي ـ ص١٠٢٤ ـ الوفاء لابن الجوزي ـ ص٧٣٩.

عمر، فوقع ما هو مشهور ومذكور في كتب التاريخ بين عمر وجبلة بن الأيهم، ففارق جبلة المسلمين ولحق بالقسطنطينية وعاد إلى النصرانية، قال ابن خلدون: «ولم يزل جبلة بن الأيهم بالقسطنطينية حتى مات سنة ٤٠هـ، وفيما تذكره الثقات أنه ندم ولم يزل باكياً على فعلته تلك» ـ وكان يبعث بالجوائز إلى حسان بن ثابت لما كان منه في مدح قومه ومدحه في الجاهلية[١] بينما أسلم وثبت على الإسلام والإيمان منذ عهد رسول الله ﷺ بنو ثعلبة من غسان وغيرهم من عشائر غسان بالشام مع حسان بن النعمان بن عدي بن المنذر الغساني نجل ملوك غسان.

* * *

حسان بن النعمان.. بين دمشق وإفريقية

لقد شهد حسان بن النعمان الغساني فتوح الشام، وكان من الصحابة الأمراء الذين شهدوا فتح دمشق واستلموها ودخلوها غداة الفتح ـ في رجب ١٤ هجرية ـ فقد جاء في كتاب فتوح الشام للإمام الواقدي عن واقعة استسلام واستلام دمشق إنه «كتب لهم أبو عبيدة بن الجراح كتاب الصلح والأمان.. فلما كتب لهم الكتاب تسلموه منه، وقالوا له قم معنا إلى البلدة ـ أي دمشق ـ فقام أبو عبيدة وركب معه أبو هريرة، ومعاذ بن جبل، ونعيم بن عمرو، وعبد الله بن عمرو الدوسي، وذو الكلاع الحميري، **وحسان بن النعمان**، وجرير بن نوفل الحميري، وسيف بن سلمة، ومعمر بن خليفة، وربيعة بن مالك، والمغيرة بن شعبة، وأبو لبابة بن المنذر، وعوف بن ساعدة، وعامر بن قيس، وعتبة، وبشير بن عامر، وعبد الله بن فرط الأسدي، وجملتهم خمسة وثلاثون صحابياً من أعيان الصحابة رضي الله عنهم[٢] فدخلوا دمشق راكبين وتسلموها في ذلك اليوم الخالد الذي زال فيه الحكم والاحتلال الروماني ورفرفت رايات العروبة والإسلام في دمشق.

* * *

وقد شهد حسان بن النعمان ما بعد دمشق من فتوح الشام ومصر في خلافة عمر وعثمان، ثم شهد فتح إفريقية مع معاوية بن حديج السكوني في عهد معاوية بن أبي سفيان ـ عام ٤٤ هجرية ـ وكان من رجال السياسة والحرب في الشام ومصر وإفريقية خلال الفترة التي امتدت إلى عهد ولاية زهير بن قيس البلوي.

وقد أجمل كتاب الجامع ما ذكرته المصادر عن تلك المراحل من حياته،

---

(١) الأغاني ـ لأبي فرج الأصفهاني ـ جـ١٤ ص٨ ـ البداية والنهاية لابن كثير ـ جـ٨ ص٦٦ وقال ابن كثير أنه توفي عام ٥٣هجرية.

(٢) فتوح الشام ـ للإمام الواقدي ـ جـ١ ص٤٥.

فجاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي: «حسان بن النعمان بن عدي الأزدي الغساني، من أولاد ملوك غسان: قائد، من رجال السياسة والحرب. من المشهورين في الفتوحات الإسلامية. كان يُلقب بالشيخ الأمين. وُليّ أفريقية في زمن معاوية بن أبي سفيان. ثم كان عاملاً على مصر في أيام عبد الملك بن مروان»[1].

* * *

ولم تحدد المصادر فترة ولايته إفريقية في زمن معاوية بن أبي سفيان، سوى أنه «أول من دخل إفريقية من أمراء الشام في زمن بني أمية»[1] وهذا يشير إلى دخوله إفريقية مع معاوية بن حُديج السكوني فقد كان ابن حديج القائد الحربي لولاية مصر وبعث معه معاوية عسكراً من الشام ـ لم تذكر المصادر اسم قائدهم ـ فلما وصل ابن حديج مع عسكر الشام إلى الإسكندرية انضم إليه عسكر ولاية مصر، وتوجه لفتح إفريقية عام ٤٤ هجرية، ويمكن القول على ضوء تلك القرائن أن حسان بن النعمان كان قائد عسكر الشام في ذلك الجيش الذي افتتح إفريقية بقيادة معاوية بن حديج السكوني عام ٤٤ ـ ٤٥ هجرية، وقد عاد معاوية بن حديج من إفريقية (تونس) إلى مصر ثم أصبح والياً لمصر عام ٤٧ ـ ٥٠ هجرية وتلك هي الفترة الوحيدة التي يمكن إدراك أنها فترة ولاية حسان بن النعمان لإفريقية في عهد معاوية بن أبي سفيان، لأن معاوية ولي عقبة بن نافع على إفريقية عام ٥٠ هجرية ثم أصبح مسلمة بن مخلد الأنصاري والياً لمصر وإفريقية (٥٠ ـ ٦٢هـ) وتتابعت الوقائع إلى استشهاد زهير بن قيس البلوى وتولية حسان بن النعمان على إفريقية.

* * *

ولاية حسان بن النعمان لإفريقية وفتوحاته

لم تكن تولية حسان بن النعمان على إفريقية عام ٧٤ هجرية هي الولاية الأولى، فقد تواصلت أنباء حسان في إفريقية منذ افتتاحها بقيادة معاوية بن حديج السكوني عام ٤٤ هجرية إلى عام ٧٩ هجرية، وبالرغم من أن الروايات دمجت أنباء حسان في موضع واحد عند دخوله إفريقية عام ٧٤ هجرية، فإن من الممكن إعادة ترتيبها وفقاً للمراحل التالية لتاريخ الفتح العربي الإسلامي والولاة في إفريقية:

المرحلة الأولى (٤٤ ـ ٥٠هـ): كان حسان بن النعمان الغساني أمير عسكر الشام في جيش معاوية بن حديج السكوني الذي افتتح إفريقية وهزم الرومان عام ٤٤ هجرية، وقد تقدم نبأ ذلك الفتح، وقول ابن خلدون «نازل معاوية بن حديج

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ بامطرف ـ ص١٦٤.

جلولاء، وقاتل مدد الروم الذي جاءها من قسطنطينية، لقيهم بقصر الأحمر، فغلبهم، واقلعوا إلى بلادهم وافتتح جلولاء»[١] وجاء في كتاب البربر عرب قدماء عن ذلك إنه «غزا معاوية بن حديج إفريقية سنة ٤٥هـ ـ ٦٦٥م بأمر من الخليفة معاوية، ففتح حضرموت (سوسة) وحصن جلولاء على مقربة من القيروان من الناحية الغربية»[٢] وجاء في تاريخ ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير أن معاوية بن حديج «بث السرايا، ودوخ البلاد، فسكن أهل إفريقية، وأطاعوا». ويستوجب كل ذلك إنه تم فتح قرطاجنة لأنها عاصمة ومقر السلطة الرومانية في إفريقية (تونس) ـ آنذاك ـ وهو ما حدث بقيادة حسان بن النعمان. فبعنوان «ولاية حسان بن النعمان لإفريقية» قال ابن الأثير إنه «لما دخل حسان بن النعمان إفريقية، وورد القيروان، تجهز منها وسار إلى قرطاجنة، وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية، ولم يكن المسلمون قط حاربوها، فلما وصل إليها، رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة، فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب، فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس، ودخلها حسان بالسيف، فسبى ونهب وقتلهم ـ أي الروم ـ قتلاً ذريعاً، وأرسل الجيوش فيما حولها، فاسرعوا إليه خوفاً ـ أي طائعين ـ فأمرهم، فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه»[٣] وذلك حتى لا يعود إليها الروم، وبذلك الفتح العربي الإسلامي لحصن جلولاء وقرطاجنة بقيادة معاوية بن حديج وحسان بن النعمان انتهى الحكم والاحتلال الروماني ورفرفت رايات العروبة والإسلام في قرطاجنة وإفريقية. وقد ذكر ابن الأثير فتح حسان لقرطاجنة بأنه لما تولى افريقيه عام ٧٤هـ ولا يمكن أن تكون قرطاجنة بيد الروم ولم يفتحها العرب إلا عام ٧٤هـ، فالصواب أن افتتاحها كان عام ٤٤ ـ ٤٥ هجرية وفي ولاية حسان الأولى لإفريقية لأنه تولاها في زمن معاوية بن أبي سفيان وزمن ولاية معاوية بن حديج لمصر (٤٧ ـ ٥٠هـ). ولما تولى ودخل حسان إفريقية عام ٧٤هـ كانت قرطاجنة بيد كاهنة البربر فاستعاد حسان قرطاجنة، ولذلك وقع الإلتباس. والصواب أن فتح حسان لقرطاجنة وتحريرها من الروم كان في المرحلة الأولى بعد فتح حصن جلولاء عام ٤٥هـ/ ٦٦٥م. وأقام حسان آنذاك في القيروان الأولى التي اختطها معاوية بن حديج السكوني كما سلف التبيين في المبحث الأسبق عنه.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٨٥.

(٢) البربر عرب قدامى ـ محمد مختار العرباوي ـ ص٤٠.

(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٤ ص٣١.

وفي تلك المرحلة (عام ٤٧ ـ ٤٩هـ) أعاد الرومان وحلفائهم من البربر تجميع صفوفهم في صطفورة وبنزرت، فحاربهم حسان بن النعمان، وفي ذلك قال ابن الأثير: «بَلَغ حسان أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في صطفورة وبنزرت وهما مدينتان، فسار إليهم، وقاتلهم، ولقى منهم شدة وقوة، فصبر لهم حسان والمسلمون فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم واستولى المسلمون على بلادهم (صطفورة وبنزرت)، ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم ـ إفريقية ـ إلا وطئه، وخافه أهل إفريقية خوفاً شديداً، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة باجة فتحصنوا بها، وتحصن البربر بمدينة بونة، فعاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه، فأقام بها حتى صحوا»[١] ثم بث السرايا فأطاع أهل إفريقية وسكنوا. وأسلم كثير من البربر.

ـ ومكث حسان بإفريقية أميراً عليها ومعاوية بن حديج أميراً والياً لمصر إلى عام ٥٠ هجرية، ثم بعث معاوية بن أبي سفيان عقبة بن نافع الفهري أميراً لإفريقية وذلك «سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م، فاختط عقبة مدينة القيروان» ـ في موضعها الثاني ونقل الناس من موضع مدينة القيروان الذي اختطه معاوية بن حديج وأوطن العرب المسلمين فيه منذ عام ٤٥ هجرية حيث كان ذلك البداية الحقيقية للاستقرار العربي الإسلامي بإفريقية، فلما تولى عقبة بن نافع إفريقية ـ عام ٥٠هـ ـ عاد حسان بن النعمان إلى مصر التي أصبح مسلمة بن مخلد الأنصاري والياً عليها وعلى إفريقية في أواخر سنة ٥٠ هجرية، وكان حسان من مستشاري مسلمة بن مخلد في مصر.

إفريقية بين مرحلتين (٥٠ ـ ٦٧هـ)

فيما بين انتهاء ولاية حسان الأولى لإفريقية عام ٥٠هـ وعودته إليها مع زهير بن قيس عام ٦٧هـ شهدت إفريقية أحداثاً نعيد الإشارة إليها فيما يلي.

ـ في عام ٥٠هـ/ ٦٧٠م تولى إفريقية عقبة بن نافع، فأعاد اختطاط موضع القيروان، وشن غزوات على البربر اتسمت بالمبالغة في العنف والسبيّ، مما أثار الاستياء حتى في القاهرة ودمشق.

ـ وفي عام ٥٥هـ/ ٦٧٥م تم عزل عقبة وقام مسلمة بن مخلد أمير مصر وإفريقية بتولية أبي المهاجر على إفريقية، فحرص أبو المهاجر على نشر الإسلام واستمالة البربر، «وفتح أبو المهاجر جزيرة شريك (الوطن القبلي) ثم توغل في الداخل، وهو أول من أقدم على ذلك حتى بلغ تلمسان المنطقة التي يتركز فيها

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٤ ص٣١.

نفوذ البيزنطيين ـ الروم ـ وهناك كما تقول بعض الروايات انهزم «كسيله» ـ قائد قبائل أَوْرَبة والبرانس ـ وأسر.

ولكن أبا المهاجر لم يتركه أسيراً بل كرمّه وأحسن إليه، ـ [وقد تقدم أنه أسلم] ـ وظل ملازماً لأبي المهاجر يحظى بما يحظى به القادة من الاحترام والتبجيل». وقال محمد العرباوي أن «أبا المهاجر ـ نائب مسلمة بن مخلد ـ توخّى سياسة اللين والمودّة والتحالف مع البربر، وما معاملته لكسيله وصداقته له إلا دليل على ذلك. ويذكر المالكي أن أبا المهاجر «انصرف فنزل بدكرور مدينة البربر بالقرب من موضع القيروان» ويعلق د. عبد العزيز سالم على هذا التصرف بأنه قد يكون «نابعاً من رغبة أبي المهاجر في التقرب إلى البربر ـ» ويقول جوليان: «أن أبا المهاجر خلافاً لسلفه، فتح مع قواد البربر مفاوضات لكسب مساندتهم ضد البيزنطيين» ولكن للأسف فإن ما حققه أبو المهاجر في مستوى تنظيم العلاقة مع البربر لم يلبث أن بدّده عقبة بن نافع عندما عاد مرة ثانية إلى إفريقية ـ عام ٦٢هـ ـ بأسلوبه الذاتي وبدافع النقمة على أبي المهاجر، فتغير الحال وكانت البداية المؤلمة لأحداث جسيمة»(١).

ـ بقدوم عقبة ثانية سنة ٦٢هـ/ ٦٨١م انتهت مرحلة دامت حوالي ٢٠ سنة ظلت فيها الجموع البربريه في بلاد المغرب من أقصاها إلى أدناها تقف موقف المتفرج من عمليات الفتح حيث تركوا الروم البيزنطيين يواجهون مصيرهم بأنفسهم وبدون آية مساعدة من البربر إلا من بعض العناصر المتحالفة معهم والتي لا قيمة لها عددياً. وموقف البربر إن لم يكن فيه انحياز نحو العرب ففيه بكل تأكيد تخل عن البيزنطيين. . ويقول العرباوي «لو كتب لسياسة أبي المهاجر الاستمرار لكان الأمر مختلفاً تماماً وفي الاتجاه الإيجابي بكل تأكيد، بدليل أن حسان بن النعمان الغساني ما إن توخى سياسة مشابهة لسياسة أبي المهاجر حتى ظهر التجاوب من جديد» ـ أي في سنة ٧٥ هجرية ـ ولكن «عقبة بن نافع ما أن وصل إلى القيروان ـ عام ٦٢هـ ـ حتى بادر بوضع أبي المهاجر في القيد انتقاماً منه، وتعمّد إذلال كسيله وإهانته بالرغم من أن أبا المهاجر عرّفه بمكانته. «وأنه من ملوك البربر ولم يستحكم الإسلام من قلبه»، فاستخف عقبة بذلك وأمعن في الإساءة إليه إذْ أمر بإحضار ذود غنم وذَبَحَها للعساكر وطلب من «كسيلة أن يسلخ مع السالخين، فقال له: أصلح الله الأمير، هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني»، فنهره عقبة وقال له: «قم»، فقام كسيله مغضباً، فكان كلما دحس في الشاة مسح يده بلحيته مما علق

---

(١) البربر عرب قدامى ـ ص٤١ ـ المغرب الكبير ـ د. عبد العزيز سالم ـ ص٢١٥ ـ تاريخ أفريقية الشمالية ـ جوليان شارل أندري ـ جـ٢ ص٢٠.

بيده من بلل ذلك. وجعل العرب يمرّون عليه وهو يسلخ يقولون له: يا بربري ما هذا الذي تصنع؟ فيقول هذا جيّد للشعر، فمر به شيخ من العرب فقال: كلا إن البربري ليتوعدكم. فقال أبو المهاجر لعقبة أصلح الله الأمير. ما هذا الذي صنعت؟ كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزّة، قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه؟ توثّق من الرجل فإني أخاف فتكه». فتمادى عقبه في استخفافه واستهانته. ومن الطبيعي أن يثير هذا التصرف السخط في كسيله ويجعله يضمر الانتقام ممن امتهنوه، وفعلاً فقد انتهز الفرصة وانفلت من المعسكر وتراجع في التزاماته، «فنكث وقام في أهل بيته وقبائله من البربر»[(١)].

ويمضي العرباوي قائلاً: «وأخذ كسيله يعدّ العدة للرد على عقبة والانتقام منه، والتقت رغبته برغبة الروم الموتورين، وبرغبة الجماعات البربرية الغاضبة من تصرف عقبة معها، وخاصة تلك التي كان يهاجمها على حين غرّة وبدون سابق إنذار، يستبيح نساءها وأموالها، فاجتمع لكسيله جيش كبير من البربر والروم وأخذ يتحين الفرصة لعقبة، فباغته بجهة (تاهودة) في قسم من جنوده عند عودته من غزو السوس.. وقُتل عقبة وكذلك أبو المهاجر الذي ظل في قيده طوال تنقلات الجيش في الذهاب والإياب، ولم ينج ممن كان مع عقبة من القتل إلا بعض الوجوه التي وقعت في الأسر. وهنا نلاحظ أن رد فعل كسيله لم يكن بدافع النعرة القومية كما يزعمون ـ أي كما يزعم بعض المستشرقين ودعاة البربرية ـ وإنما بسبب تصرف عقبة معه، وهو تصرف ليس بعيداً عن الحكمة فحسب وإنما هو أيضاً تصرف تطغى عليه روح الغطرسة والتنكيل»[(٢)].

ـ وبعد موقعة تهودة ـ وكانت في أواخر عام ٦٢هـ ـ «سار كسيله بجيشه الكثيف إلى القيروان التي تولى أمرها، في غياب عقبة، زهير بن قيس البلوي الذي اضطر هو ومعظم المسلمين إلى مغادرتها ـ إلى برقة ومصر ـ خوفاً من الفتك بهم، لكن كسيله

---

(١) البربر عرب قدامى ـ عن: البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ ابن عذارى المراكشي ـ جـ١ ص٢٩.

(٢) ويقول العرباوي: «أن الوقائع تنفي الادعاء القائل بأن كسيلة كان بطلاً وطنياً وإن تصديه لعقبة وزحفه على القيروان كان بدافع الوطنية البربرية ضد غزو عربي كما يزعمون. فعقبه بن نافع هو المسؤول عن تمرد كسيلة وقد عمد إذلاله بدافع من الحنق على أبي المهاجر ورغبة في القضاء على ما حققه من مكاسب.. فأي شيء يكون فيه فضل لأبي المهاجر عمل عقبه على إزالته ومحو أثره» [ص٤٥]. وينقل العرباوي عن جوليان «أن كسيلة وحدّ القبائل البربرية مع جيش الروم، وحاصر عقبه في حدود الصحراء قرب تاهودة على مصب الوادي الأبيض وقتله مع ثلاثمائة من فرسانه» [ص٤٦].

زحف على المدينة ولم يقم بأي أعمال انتقامية بل أمّن من فيها وظل بها مدة خمس سنوات (٦٢ ـ ٦٧هـ) لم يمس خلالها بسوء من بقي من المسلمين عرباً وبربراً. . يضاف إلى هذا أن كسيله عندما أسر في (تهودة) بعض الوجوه مثل محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف العبسي لم يصبهم بأي أذى بل قَبِلَ تدخل (ابن معاذ) صاحب قفصة الذي افتدى هؤلاء الأسرى وبعث بهم إلى زهير في برقة»[1].

ونتهي من ذلك إلى أن ما حققه الفتح العربي الإسلامي لإفريقية من مكاسب منذ عام ٤٤ هجرية إلى انتهاء ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري لمصر وإفريقية ونائبه أبي المهاجر أمير إفريقية ـ عام ٦٢هـ ـ كل ذلك قد تبدد بانتصار كسيله في موقعة تهوده ودخوله القيروان وصيرورة القيروان وإفريقية تحت حكمه إلى أن زحف إليها زهير بن قيس البلوي عام ٦٧ هجرية.

الفترة الثانية لولاية حسان بن النعمان

ـ كان زهير بن قيس البلوي الحميري في الفترة من ٦٢ ـ ٦٧هـ أميراً لبرقة وطرابلس (ليبيا) منذ انسحابه من القيروان إلى برقة عام ٦٢هـ، ومما يتصل بتأكيد ذلك قول ابن الأثير «ولاية زهير بن قيس لأفريقية سنة اثنتين وستين إلى سنة تسع وستين» [ص٣١ جـ٤] وكانت ولاية زهير في إطار ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر وخلافة عبد الملك بن مروان بالشام ومصر لأن الجزيرة العربية كانت تحت خلافة عبد الله بن الزبير وكان الوضع في العراق مضطرباً.

ـ وفي عام ٦٧هـ/ ٦٨٦م كتب عبد الملك بن مروان إلى زهير بن قيس بولايته لأفريقية ـ إلى جانب برقة ـ وبعث إليه بالمدد من عسكر الشام والمصر، فغزى زهير بن قيس أفريقية (تونس) ـ ومعه حسان بن النعمان الغساني ـ وكان كسيلة في القيروان فلما «علم كسيلة بقدوم زهير واستعداداته الحربية تخلى عن القيروان» وهنا يذكر ابن عذارى أن كسيلة قال لمن معه من «أشراف البربر: . . إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة فإن بها قوماً من المسلمين لهم علينا عهود ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا، ولكن ننزل على موضع «ممس» وهي على الماء، فإنّ عسكرنا خلق عظيم، فإن هزمناهم ـ أي المسلمين لحقناهم ـ إلى طرابلس وقطعنا آثارهم فيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر، وإن هزمونا كان الجبل منّا قريباً والشَّعْراء فنتحصّن بهما»، فسار كسيلة إلى (ممس) وتمركز بها واجتمعت إليه قبائل البربر وبعض الروم.

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

وانطلق الجيش العربي الإسلامي بقيادة زهير بن قيس البلوي من ضواحي القيروان إلى (ممس)، فدارت معركة كبيرة انتصر فيها زهير بن قيس والمسلمون انتصاراً كبيراً، وفي ذلك قال جوليان عن موقعة ممس: «فانهزمت الجيوش البربرية والبيزنطية بعد قتال عنيف، قُتل فيه كسيلة سنة ٦٨٦م»[١].

وقال ابن خلدون: «زحف زهير بن قيس سنة سبع وستين ودخل أفريقية ولقيه كسيلة على (ميس) من نواحي القيروان، فهزمه زهير بعد حروب صعبة، وقَتَله، واستلحم في الوقعة كثير من أشراف البربر ورجالاتهم»[٢]. وبذلك انتهت حركة كسيلة ملك قبائل البرانس البربرية الأمازيغية عام ٦٧هـ/ ٦٨٦م.

ـ لقد كان حسان بن النعمان الغساني مع زهير بن قيس البلوي في ذلك المسير إلى أفريقية وفي ذلك الانتصار على كسيلة، والذي في أعقابه سار زهير إلى القيروان، فلم يلبث إلا يسيراً، حيث ـ كما جاء في تاريخ ابن خلدون ـ «ثم قفل زهير إلى المشرق زاهداً في الملك، وقال: إنما جئت للجهاد وأخاف أن نفسي تميل إلى الدنيا، وسار إلى مصر، واعترضه بسواحل برقة أسطول صاحب قسطنطينية، جاءوا لقتاله، فقاتلهم، واستشهد رحمه الله تعالى»[٢].

كان زهير ـ كما جاء في تاريخ ابن الأثير ـ قد «ترك بالقيروان عسكراً، وهم آمنون لخلو البلاد من عدو أوذي شوكه، ورحل في جمع كثير إلى برقة قاصداً مصر» ولم تذكر المصادر هنا اسم الأمير الذي استخلفه زهير بالقيروان، ولكنها تذكر أن «سفيان بن وهب الخولاني تولى إمرة أفريقية» وقال ابن الأثير: «وقد ذكر الواقدي أن الكاهنة خرجت غضباً لقتل كسيلة وملكت أفريقية جميعها، ونال من بالقيروان من المسلمين أذى شديد بعد قتل زهير بن قيس سنة سبع وستين، فاستعمل عبد الملك على أفريقية حسان بن النعمان..»[٢].

إن وجود حسان بن النعمان في القيروان ـ مع سفيان بن وهب ـ يتيح إدراك أنه كان بها منذ عودة زهير بن قيس إلى برقة، خاصة وأن ابن الأثير يؤكد في عدة مواضع أن مقتل زهير بن قيس في برقه إنما كان عام ٦٩هـ، فتولية حسان بن النعمان على أفريقية من قبل عبد الملك بن مروان لا تستوجب مقتل زهير لأن عودة زهير إلى برقة ورفضه البقاء أميراً لأفريقية تبرر تولية حسان بعد سفيان بن وهب الخولاني حيث «لم يترك حسان موضعاً من بلاد أفريقية (تونس) إلا وطئه، ثم عاد إلى القيروان فأقام بها».

---

(١) تاريخ أفريقية الشمالية ـ جوليان شارل أندري ـ ص٢٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٨٦ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ جـ٤ ص٣٣.

المواجهة الأولى بين حسان والكاهنة

لقد أسبغت بعض الروايات والدراسات هالة أسطورية على الكاهنة (دهينا) البربرية التي ذكر ابن خلدون أنها كانت رئيسة على قبيلة جراوة بجبال الأوراس ـ بالجزائر ـ وقال أيضاً: (كان قتل عقبة بن نافع بإغرائها برابرة (تهودة) علية)، لكن ـ وكما قال العرباوي ـ «فالكاهنة كانت مغمورة وإن الصورة التي أعطيت لها من كونها ملكة عظيمة واسعة النفوذ يهابها البربر والروم إنما كانت لها بعد أفول نجم كسيلة وكان الروم من غير شك وراء ذلك حيث أصبحوا عاجزين عن صدّ العرب وليس أمامهم إلا تأليب البربر وقادتهم، ومن هنا نجد عساكر الروم ومجنديهم ضمن جيش كسيلة ثم الكاهنة، إذْ يذكر ابن أبي دينار أن الكاهنة لما علمت بأمر حسان بن النعمان الغساني: «قدمت إليه في عسكر عظيم من البربر والروم»، وكان الذي حرك الكاهنة لقتال العرب في البداية أمران، أحدهما: عقيدتها إذ كانت هي وقبيلتها (جراوة) على دين اليهودية ـ فيما تقول الروايات ـ ومن الطبيعي أن تدفعها عقيدتها إلى مقاومة الدين الجديد. وثانيهما: تحالفهما مع الروم حيث أن لكل منهما مصلحة في صد العرب والوقوف في وجوههم).

أما الذي حرك حسان بن النعمان للمسير إلى قتالها فكان علمه بتحالفها مع الروم ـ من جهة ـ وحرصه على جهاد من يقف ضد انتشار الإسلام بين البربر وفي بلاد المغرب ـ من جهة أخرى ـ وذكر ابن الأثير أن حسان بن النعمان قال وهو بالقيروان: «دلوني على أعظم من بقي من ملوك أفريقية، فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة، وكانت تخبرهم بأشياء من الغيب ولهذا سميت الكاهنة ـ وكانت بربرية وهي بجبل أوراس وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل كسيلة، فسأل حسان أهل أفريقية عنها، فعظموا محلها وقالوا له: إن قتلتها لم تختلف البربر بعدها عليك ـ أو على الإسلام ـ».

فسار حسان من القيروان بالعسكر الذين تركهم زهير معه بالقيروان، ولم يكن عددهم كبيراً (لأن زهير بن قيس عاد إلى برقة ومصر بأغلب الجيش) فلما سار حسان من القيروان قاصداً الكاهنة في جبال الأوراس واقترب منها، «هدمت الكاهنة حصن باغاية ظناً منها أنه يريد الحصون» وقال العرباوي أن الكاهنة «هدّمت (باغاية) بعد أن أخرجت منها الروم، ظناً منها أن حسان يريد أن يتحصن بها».

ومضى حسان ـ بجيشه المحدود ـ لقتال الكاهنة ونزل عند (نهر نيني) بينما «قدمت إليه الكاهنة في عسكر عظيم من البربر والروم» والتقت به على «وادي مسكياته» بشرق الجزائر حيث «اقتتلوا أشد قتال رآه الناس»، فلما رأى حسان

ضخامة جيش الكاهنة من البربر والروم، قرر الانسحاب إلى قابس ثم القيروان، فكان ذلك الانسحاب انتصاراً للكاهنة ووقع في الأسر ثمانون رجلاً من أصحاب حسان منهم خالد بن يزيد القيسي.

إن انسحاب حسان بعد ذلك ـ عام ٦٩هـ ـ من القيروان وأفريقية إلى برقة، لم يكن بسبب زحف الكاهنة بالجيوش إلى القيروان فقط وإنما أيضاً بسبب هجوم السفن الرومانية ـ التي جاءت من القسطنطينية وصقلية ـ على برقة، واستشهاد زهير بن قيس والذين معه في برقة، فأدرك حسان أن ما يحدث عمل كبير تقف وراءه الإمبراطورية الرومانية للسيطرة على الإقليمين: برقة (ليبيا) والقيروان (أفريقية)، فانسحب إلى برقة.

سنوات حسان في برقة (٦٩ ـ ٧٣هـ)

لما انسحب حسان من القيروان وتمركز في برقة ـ وكما ذكر ابن الأثير «كتب حسان إلى عبد الملك بن مروان يعلمه الحال، فأمره عبد الملك بالمقام إلى أن يأتيه أمره، فأقام حسان بعمل برقة خمس سنين، فسمي ذلك المكان قصور حسان إلى الآن». وقال الواقدي: «عاد حسان من أفريقية ـ إلى نواحي برقة فأقام بها إلى سنة أربع وسبعين»، ويتبين من ربط تلك النصوص زمن السنوات الخمس التي أقام فيها حسان بن النعمان في برقة أميراً على ولاية برقة وطرابلس، وأن ذلك الزمن هو عام ٦٩ ـ ٧٣هـ، أو ٦٩ ـ ٧٤ هجرية.

وقد انشغل المسلمون في تلك الفترة بالفتنة والحروب على الخلافة بين عبد الملك بن مروان ـ الخليفة في الشام ومصر ـ وبين عبد الله بن الزبير ـ الخليفة في الجزيرة العربية والعراق ـ وكذلك حركات الخوارج العنيفة في العراق.

وقد سيطرت الكاهنة في تلك الفتره على أفريقية، وشمل حكمها الأوراس وقابس وأفريقية (تونس) بأكملها وعاصمتها القيروان، (وأذلّت أهل أفريقية، ونال من بالقيروان من المسلمين أذى شديد).

بينما حافظ حسان بن النعمان على استمرار الحكم والوجود العربي الإسلامي في ولاية برقة وطرابلس (ليبيا)، وكان مقر حسان في برقة «قصوراً في حيز برقة نزلها، وهي قصور يضمها قصر سقوفه أزاج، فسميت قصور حسان»(١).

وكان لوجود حسان في برقة تأثيراً على أفريقية وعلى الكاهنة التي استشعرت من ذلك احتمال أن يزحف حسان إلى أفريقية حين يلتئم أمر العرب، فانتهجت،

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٣١.

الكاهنة سياسة أقل عداء للعرب والمسلمين، وأطلقت سراح الأسرى الثمانين الذين كانوا في يدها، فيقول ابن عذاري: «كانت الكاهنة لما أسرّت ثمانين رجلاً من أصحاب حسان، أحسنت إليهم، وأرسلت بهم إلى حسان، وحبست خالد بن يزيد». ويقول العرباوي أن «هذا التصرف ينبئ بتغيير نظرتها للعرب، ويؤكد على أنها تتوقع عودتهم ويتعين عليها أن تقرأ لذلك الحساب، إذ إن تورطها في قتالهم لم يكن في صالحها وصالح البربر وإنما كان في صالح الروم المدحورين وهذا أمر لا طائل ولا جدوى سياسية منه»، وقد تبنت الكاهنة خالد بن يزيد القيسي وآخت بينه وبين ولديها وفقاً لتقاليد بربرية قديمة وقالت لهم: قد صرتم أخوه، قال المالكي: «وذلك عند البربر من أعظم العهد في جاهليتهم إذا فعلوه». ويقول العرباوي: «إن إقدام الكاهنة على هذا التبني، وإن كان يظهر ميلها إلى العرب، إلا أنه أيضاً كان لدواع سياسية، فالكاهنة، عندما أحسنت للأسرى وأرسلتهم مكرمين إلى حسان أرادت من وراء ذلك أن تكون لها يد على العرب إذْ تعلم أن مثل هذا العمل سيقابل بالرضا والاستحسان وتقدير صانعه، وعندما احتفظت بخالد وأنزلته منزلة ابنها أرادت أيضاً أن تضمن لولديها سنداً قد يحتاجانه في المستقبل.. وبالفعل فعندما عاد حسان لقتالها ثانية قالت لولديها «إني مقتولة» وقالت لخالد: «إنما تبنيتك لمثل هذا اليوم أما أنا فمقتولة، ولكن أوصيك بأخويك هذين خيراً ـ تعني ولديها ـ فانطلق بهما إلى العرب فأُخذ لهما أماناً»، واستقبلهما القائد العربي حسان بن النعمان استقبالاً حسناً ولم يكتف بذلك بل جعلهما من قواد جيشه وعقد لهما على لوائين من البربر»[1].

المرحلة الثالثة من ولاية حسان لأفريقية (٧٤ ـ ٨٦هـ)

قال ابن خلدون: «إن عبد الملك بن مروان بعد أن قُتل عبد الله بن الزبير وصفى له الأمر، أمر حسان بن النعمان الغساني بغزو أفريقية وأمدّه بالعساكر» وقال في موضع آخر أنه كانت الكاهنة «أخرجت العرب من أفريقية وانتهى حسان إلي برقة وجاءه كتاب عبد الملك بالمقام حتى يأتيه المدد، ثم بعث إليه المدد سنة أربع وسبعين فسار إلى أفريقية».

ويدل الزمن على واحدية ذلك الحدث التاريخي لأن مقتل عبد الله بن الزبير كان «يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ» وتولى قتله رجل من مراد.. ووفد السكوني والمرادي إلى عبد الملك بالخبر فأعطى كل واحد منهما خمسمائة دينار» ولم

(١) البربر عرب قدامى ـ محمد العرباوي ـ ص٤٩.

يستتب الأمر لعبد الملك في المدينة وغيرها إلا «في صفر سنة أربع وسبعين»[١] وبذلك صفى أمر الخلافة لعبد الملك بن مروان فبعث بالمدد إلى حسان في برقة للمسير إلى أفريقية سنة ٧٤هـ» وكذلك جاء في كتاب الكامل لابن الأثير بعنوان (ولاية حسان بن النعمان على أفريقية) أن عبد الملك بن مروان: شغله عن أفريقية ما كان بينه وبين ابن الزبير، فلما قُتل ابن الزبير، واجتمع المسلمون عليه، جهز جيشاً كبيراً واستعمل عليهم وعلى أفريقية حسان بن النعمان الغساني، وسيرهم إليها سنة ٧٤هـ». ثم ذكر ابن الأثير المواجهة الأولى بين حسان والكاهنة وانسحابه إلى برقة وعاد إلى القول «ثم سير إليه عبد الملك الجنود والأموال وأمره بالمسير إلى أفريقية وقتال الكاهنة». ونقل ابن الأثير عن الواقدي أنه «أقام حسان بنواحي برقة إلى سنة ٧٤هـ فسير إليه عبد الملك جيشاً كثيفاً وأمره بقصد الكاهنة فسار إليها». ويتبين من ربط مجمل تلك النصوص واحدية ذلك الحدث وأن إرسال المدد إلى حسان وتوجيهه إلى أفريقية كان عام ٧٤ هجرية، وبذلك بدأت المرحلة الثالثة من ولاية حسان بن النعمان وفتوحاته في أفريقية.

مسير حسان إلى أفريقية (٧٤هـ)

أجاز الشيخ الأمين حسان بن النعمان الغساني اليماني من برقة إلى أفريقية ـ تونس ـ في جيش كثيف كان من قادته الفقيه حنش الصنعاني وسفيان بن وهب الخولاني والمنذر المذحجي وعبد الرحمن بن رافع التنوخي اليماني وزياد بن أنعم المعافري الحميري، وغيرهم من القادة اليمانيين لأن الغالبية العظمى من جيشه كانوا من اليمانية، قال ابن الأثير: ـ.

ـ «فلما علمت الكاهنة بمسير حسان إليها، قالت: إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي، ولا أرى إلا أن أخرب أفريقية حتى ييأسوا منها، وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد، فخربوها، وهدموا الحصون، ونهبوا الأموال»[١].

وجاء في البيان المُغرب أنها قالت: «إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة.. فلا أرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها حتى ييأس منها العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر»[٢]. وقال القيرواني: «أنها وجهت أتباعها إلى كل ناحية يقطعون الشّجر ويهدّمون الحصون»[٣] وتراجعت ـ

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٤ ص٢٧ و٣٢.
(٢) البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ ابن عذارى ـ ص٣٦.
(٣) تاريخ أفريقية والمغرب ـ ابن الرقيق القيرواني ـ ص٦١ ـ ٦٢.

فيما يبدو ـ إلى معقلها في الأوراس، بينما أثار ذلك التصرف أصحاب تلك المدائن والمناطق من البربر وبعض الروم، فلما دخل حسان أفريقية ـ وكما ذكر ابن الأثير ـ «لقيه جمع من أهلها ومن الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون إليه منها، فسرّه ذلك». وقال ابن الرقيق: لما قدم حسان «لقيه من النصارى في طريقه ثلثمائة رجل يستغيثون إليه من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب. ومضىٰ حتى وصل إلى قابس، فخرج إليها أهلها، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من كل أمير مرّ بهم، فاستأمنوا إليه، وأدخلوا عامله، فأمّنهم على مال معلوم، فاستطال طريق القيروان فمال إلى طريق قفصه وقصطيليه ونفزاوه وبعثوا إليه يستغيثون من أمر الكاهنة، فسرّه ذلك»[١]. وذكر ابن الأثير أن حسان «سار إلى قابس فلقيه أهلها بالأموال والطاعة ـ وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء ـ وجعل حسان فيها عاملاً، وسار إلى قفصه، فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى قسطيله ونفزاوة»[٢] وكذلك أعاد حسان افتتاح (قرطاجنة) و(صطفورة) و(بنزرت) ثم ورد (القيروان) فضبط أمورها وأقام بها، واستكملت أفريقية إلى (عنابه) و(باجة) طاعة لحسان واستجابة.

* * *

المواجهة الحاسمة بين حسان والكاهنة

ثم تقدم حسان من أفريقية (تونس) إلى (تهودة) وجبال الأوراس ـ بالجزائر ـ، «فأرسل حسان رسولاً سراً إلى خالد بن يزيد ـ وهو عند الكاهنة ـ بكتاب يستعلم منه الأمور. فكتب إليه جواب في رقعة، يُعرفه تفرق البربر، ويستحثه بالسرعة، وجعل الرقعة في خبزة، وعاد الرسول، فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها، تقول: ذهب مُلكهم(!) فَطُلِبَ الرسولُ فلم يوجد، فوصل إلى حسان وقد احترق الكتاب بالنار، فعاد الرسول إلى خالد، وكتب إليه بما كتب أولاً، وأودعه قربوس السرج، وسار حسان»[٣].

«وبلغ الكاهنة قدومه، فأحضرت ولدين لها، وخالد بن يزيد، وقالت لهم: إنني مقتولة فامضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أماناً، فساروا إليه وبقوا معه»[٣].

ويقول العرباوي: «مما يدل على أن الكاهنة لم تتصرف مطلقاً من منطلق وطني بربري ما فعلته مع ابنيها اللذين وجهتهما إلى حسان ليكونا في رعايته. وهذا ما جعل مؤرخاً استعمارياً مثل (قوتية) يقول: «إن هذا الصنيع طبيعي بالنسبة لقائد

(١) تاريخ أفريقية والمغرب ـ ابن الرقيق القيرواني ـ ص٦١ ـ ٦٢.
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٤ ص٢٧ و٣٢.
(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٤ ص٣٣.

بربري يضع سلطان عائلته فوق كل اعتبار». وبقطع النظر على أن هذا التصرف ليس غريباً إلا أن (قوتية) عندما خصصه بالقائد البربري يكون قد شوّه الحقيقة وتعمّد الطعن. وقد ـ ذكر ابن الرقيق أن الكاهنة قبل المعركة قال لها أولادها: «فما الذي تخافين على قومك؟ قالت: إذا أنا مت فلا أبقى الله منهم أحداً على الدنيا». وقال جوليان في معرض الحديث عنها وعن قومها: «ليس لهم جذور تصلهم بماضي البلاد ولا مصلحة تشدهم إلى أفريقية القديمة». وهذا اعتراف منه بانعدام الروابط الوطنية البربريه المزعومة لدى الكاهنة وقومها. ومع هذا فلا بد من السؤال عن سبب دخولها المعركة الثانية مع حسان والحال أنها متيقنة من هزيمتها وأن البربر وكذلك الروم قد انفضوا من حولها في كثير من الجهات. والسبب يكمن في كبريائها الشخصي إذ إن تخليها عن القتال تراه عاراً مشيناً لا تقبل به.. فيذكر المالكي أن خالد بن يزيد أشار عليها بالرحيل فقالت: «وكيف وأنا ملكة من الملوك. والملوك لا تفرّ من الموت فأقلد قومي عاراً إلى آخر الدهر»(١).

«وسار حسان نحوها، فالتقوا، واقتتلوا، واشتد القتال وكثر القتل حتى ظُن أنه الفناء ثم نصر الله المسلمين.. فانهزمت الكاهنة، ثم أدركت فقُتِلت»(٢).

وقال ابن خلدون: «فلقي حسان الكاهنة وقتلها ـ أي في المعركة ـ ومَلَكَ جبل أوراس وما إليه، ودوّخ نواحيه، وانصرف إلى القيروان، وأمّن البربر، وكتب الخراج عليهم وعلى من معهم من الروم والفرنج على أن يكون معه اثنا عشر ألفاً من البربر لا يفارقونه في مواطن جهاده»(٣).

وقال ابن الأثير ـ بعد نبأ انهزام ومقتل الكاهنة ـ: «ثم إن البربر استأمنوا إلى حسان، فأمّنهم، وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفاً يجاهدون العدو، فأجابوه إلى ذلك، فجعل على هذا العسكر ابنيّ الكاهنة، ثم فشا الإسلام في البربر، وعاد حسان إلى القيروان في رمضان من تلك السنة، وأقام لا ينازعه أحد»(٢).

* * *

الدور العظيم لحسان بن النعمان

إن حسان بن النعمان الغساني هو أعظم الولاة الفاتحين لشمال أفريقية والمؤسس الحقيقي لعصرها العربي الإسلامي لأن نتائج الفتوحات السابقة كانت قد

---

(١) البربر عرب قدامى ـ محمد العرباوي ـ ص٥١.
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٤ ص٣٣.
(٣) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٣ ص١٨٧.

تبددت منذ انتصار كسيلة في موقعة تهودة ـ عام ٦٢هـ ـ ثم منذ سيطرة الكاهنة وحكمها لأفريقية (تونس) بما في ذلك القيروان (٦٩ ـ ٧٣هـ)، وتتمثل معالم الدور التاريخي العظيم لحسان بن النعمان في التالي:

ـ أعاد حسان بن النعمان افتتاح أفريقية (تونس) بأكملها، وأوطن بها من العرب المسلمين الذين معه، وأعاد بناء ما تخرب من القيروان، كما «جدّد حسان بناء مسجد القيروان، ودوَّن الدواوين»[(١)].

ـ وافتتح حسان «ومَلَك جبال الأوراس وما إليها، ودوخ نواحي الأوراس»، فانضوت الأوراس ونواحي الجزائر في السلطة العربية الإسلامية، ورفرفت رايات الإسلام في جبالها وحصونها.

ـ وانتهج حسان سياسة التسامح والإخاء مع البربر في أفريقية (تونس) فانضووا في إطار السلطة العربية الإسلامية، ولما هزم الكاهنة وافتتح جبال الأوراس ونواحيها قام بتأمين البربر الذين فيها، فمالوا إلى سلطة الإسلام.

ـ وقام حسان بتجنيد اثني عشر ألف من بربر الأوراس والجزائر، واجتث حساسيات الحرب السابقة بأن جعل ابنيّ الكاهنة من قادة جيشه، وأسند إليهما قيادة أولئك العسكر البربر الذين تم تجنيدهم، وكان لذلك تأثيره السريع في تحقيق النتيجة التي أشار إليها ابن الأثير قائلاً: «ثم فشا الإسلام في البربر». وقد كانت الكاهنة وقومها من قبائل زناته البربرية، وهي من القبائل ذات الجذور اليمانية الحميرية العريقة القديمة، وما لبث أن أسلمت قبائل زناته بأكملها، «وقد علّل قواتيه Gautier إقبال زناتة ـ وهي من أكبر القبائل البربرية ـ على الإسلام بما بينها وبين العرب من تشابه في نمط الحياة، دون أن يرد هذا التشابه إلى [حقيقة] الأرومة المشتركة في أصول النظام الاجتماعي والثقافي لكل منهما»[(٢)].

ـ وكان من عوامل استمالة حسان للبربر في أفريقية (تونس) وجبال الأوراس ونواحيها (الجزائر) ما ذكره ابن خلدون من أن حسان «كَتَبَ الخراج عليهم»، وتتمثل أهمية ذلك في أن حسان لم يستبح أموالهم ويسبيهم نتيجة الفتح ولم يفرض عليهم الجزية لأنهم غير مسلمين، بل فرض عليهم الخراج مثلهم في ذلك مثل سائر بلاد العرب المسلمين، ولا شك أن الشعور بالمساواة كان له تأثير فعال في نفوسهم، وساهم في دخولهم في دين الله أفواجاً بعد أمد يسير.

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص١٦٥.

(٢) البربر عرب قدامى ـ محمد العرباوي ـ ص٦٤.

ـ «ودوّن حسان الدواوين، وولّى الولاة»[1] وكان من أبرز الذين دخلوا معه وتولوا ذلك:

١ ـ زياد بن أنعم بن ذري بن يحمد بن معدي كرب المعافري الحميري، وهو: تابعي، من الثقات، هاجر من اليمن وسكن مصر إلى أن جهز عبد الملك بن مروان جيشاً لإمداد حسان بن النعمان لمحاربة من كان مع الكاهنة البربرية من الروم والبربر بأفريقية، فخرج زياد بعياله مع الجند سنة ٧٤هـ، وشهد فتح قرطاجنة وغيرها، واستقر في القيروان، وتُنسب إليه رسالة في الأحاديث النبوية التي رواها بالقيروان، وحضر زياد بن أنعم حروب موسى بن نصير في المغرب، وعاش بالقيروان إلى أن مات ودفن بها سنة ١٠٠ هجرية.

وكان ابنه عبد الرحمن بن زياد المعافري أول مولود في الإسلام بأفريقية، ولد ببرقة عام ٧٥هـ، ثم عاش بالقيروان، وتولى فيما بعد قضاء القيروان، وله كتاب مسند في الحديث جزئين، وتوفي بالقيروان عام ١٦١هـ.

٢ ـ عبد الرحمن بن رافع التنوخي الحميري، من يمانية الشام، وأصبح قاضياً للقيروان، وهو أول قاضٍ للقيروان منذ بنائها، حيث «ولاه موسى بن نصير قضاء القيروان سنة ٨٠هـ». وربما كان ذلك امتداداً لولايته القضاء منذ قيام حسان بإعادة بناء مسجد القيروان وتنظيم الدواوين عام ٧٤هـ، وقد مكث عبد الرحمن بن رافع قاضياً للقيروان وأفريقية في ولاية موسى بن نصير، وتوفي بالقيروان عام ١١٣ هجرية.

٣ ـ سفيان بن وهب الخولاني، أبو اليُمْن: صحابي، من الأمراء، حجّ مع النبي ﷺ حجة الوداع، وشهد فتح مصر، واستقر بها، وغزا شمال أفريقية (سنة ٦٧هـ) أميراً لعبد العزيز بن مروان، ثم دخلها مع حسان بن النعمان الغساني، واستقر بالقيروان إلى أن توفي عام ٨٢هـ.

٤ ـ الفقيه حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة السبائي الصنعاني: تابعي، من القادة الشجعان، دخل مصر، وغزا أفريقية مع رويفع بن ثابت ثم مع زهير بن قيس البلوي (عام ٦٧هـ) وعاد إلى مصر، ثم عاد إلى اليمن، وله أنباء في فترة عبد الله بن الزبير باليمن، فلما انتهى أمر عبد الله بن الزبير (عام ٧٣هـ) واستنفر عبد الملك بن مروان الناس للجهاد والمسير إلى أفريقية مدداً لحسان بن

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص١٦٥.

النعمان، سار الفقيه حنش الصنعاني مع الذين ساروا من اليمن، ودخل أفريقية مع حسان بن النعمان (عام ٧٤هـ)، فاستقر بها، «وهو أول من وُليّ عشور أفريقية» ـ أي مسؤولية ديوان الخراج والعشور بالقيروان وأفريقية ـ وكان كذلك في ولاية موسى بن نصير، ثم شهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير عام ٩٣ هجرية.

٥ ـ الأمير الفاتح موسى بن نُصير اللخمي اليماني، قال ابن كثير أنه دخل أفريقية وغزا إلى المغرب سنة ٧٩هـ، فيكون ذلك في ولاية حسان بن النعمان، مما يشير إلى أن موسى بن نصير كان من الأمراء القادة في إطار ولاية حسان.

٦ ـ صالح بن منصور الحميري، المعروف بالعبد الصالح: أمير من الداخلين على المغرب في أيام حسان، افتتح أرض نكور بالمغرب في زمن الوليد، أسلم على يده بربر نكور. ويبدو أنه صالح الذي استخلفه حسان على أفريقية.

ـ وكان من أهم معالم دور وإنجازات حسان بن النعمان أنه «هو الذي أسس (دار الصناعة) بتونس التي أنتجت عدداً ضخماً من السفن الحربية التي حملت الفاتحين العرب إلى الأندلس وإلى جزر البحر الأبيض المتوسط وإلى جنوب إيطاليا»[١].

* * *

سنوات حسان الأخيرة

بينما تذكر رواية لابن الأثير أن حسان بن النعمان «أقام بالقيروان وأفريقية لا ينازعه أحد إلى أن توفي عبد الملك بن مروان» ـ أي في شوال ٨٦هـ ـ يذكر ابن الأثير رواية ثانية بأنه «عاد حسان إلى عبد الملك واستخلف على أفريقية رجلاً اسمه أبو صالح إليه يُنسب فحص صالح»[٢] ويؤكد ذلك قول ابن خلدون: «ورجع حسان إلى عبد الملك واستخلف على أفريقية رجلاً اسمه صالح من جنده» ثم يذكر ابن خلدون مسير موسى بن نصير إلى أفريقية وأنه «قدم القيروان وبها صالح خليفة حسان». وكان ذلك فيما ذكر ابن كثير سنة ٧٩هـ.

وبالتالي يمكن إدراك أنه بالرغم من عودة حسان بن النعمان إلى مصر وإلى عبد الملك بن مروان فقد استمر والياً لشمال أفريقيا من خلال وجود نائبه وخليفته

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص١٦٥.

(٢) الفحص ـ بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره صاد مهملة ـ اسم عدة مواضع في المغرب» ـ [جـ٤ ص٣٣ ـ الكامل].

صالح بأفريقية، وبذلك يزول التعارض مع الروايات التي ذكرت استمرار ولاية حسان لأفريقية إلى أن توفي عبد الملك بن مروان.

وقد شهدت تلك الفترة أيضاً ما ذكرته التراجم من أن حسان «كان عاملاً على مصر في أيام عبد الملك بن مروان»، وبما أن عبد العزيز بن مروان كان أميراً لمصر إلى أن توفي عام ٨٥هـ، فإن ولاية حسان لمصر تكون في الفترة ٨٥ ـ ٨٦هجرية غالباً.

ولما توفي عبد الملك وتولى الخلافة الوليد بن عبد الملك ـ في شوال ٨٦هـ ـ اعتزل حسان الأعمال وعاد إلى دمشق في أول عهد الوليد، لأن حسان كان قد أصبح شيخاً كبيراً. وفي عام ٨٧هـ تم تجهيز جيش من الشام لغزو بلاد الروم (تركيا) فسار حسان في ذلك الجيش غازياً الروم، فتوفي بين ثغور الشام وبلاد الروم عام ٨٧هـ/ ٧٠٦م بعد عمر حافل بالفتوح والأمجاد الخالدة.

٢٨

سفيان بن عوف.. صاحب الصوائف

ـ قائد الغزو العربي الإسلامي للقسطنطينية ـ

هو الصحابي سفيان بن عوف بن المغفل ابن عوف بن عمير بن كلب بن ذهل بن يسار بن والبة بن الدئل بن سعد بن زيد بن غامد الغامدي الأزدي صاحب الصوائف[(١)].

وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق هو سفيان بن عوف بن المغفل بن عوف بن عمرو بن كلب بن ذهل بن يسار بن والبة بن الدئل بن سعد بن مناة بن غامد الأزدي الغامدي.

قال ابن حجر العسقلاني: «وروى الحاكم عن مصعب الزبيري قال: وسفيان بن عوف الغامدي صحب النبي ﷺ، وكان له بأس ونجدة وسخاء»[(١)] وفيه قال الشاعر يخاطب ابن مسعود:

أقِمْ يا بن مسعود قناة صليبة كما كان سفيان ابن عوف يُقيمها

* * *

ينتمي سفيان بن عوف إلى قبيلة غامد الأزدية ـ من أزد السراة ـ، واسم غامد عمرو بن كعب بن الحارث بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد ويتصل نسبه إلى النبت بن مالك بن كهلان بن سبأ، وقيل له غامد لأنه كان بين قومه شر فأصلح بينهم وتغمد ما كان. وديار غامد بأعالي اليمن في سراة زهران من الأزد وهم دوس وغامد والحجر[(٢)] وما تزال منطقتهم تُسمى (سراة غامد) أو (بلاد غامد) حتى اليوم.

* * *

وترتبط صحبة سفيان بن عوف لرسول الله ﷺ بمسير وفد غامد من اليمن إلى رسول الله ﷺ لكونه واحداً من رجال ذلك الوفد العشرة، وقد جاء عن الوفد في عيون الأثر إنه: «قدم على رسول الله ﷺ وفد غامد سنة عشر للهجرة، وهم

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٢ ص٥٧.

(٢) صفة جزيرة العرب ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص١١٩.

عشرة، فنزلوا في بقيع الغرقد، وهو يومئذٍ أثل وطرفاء ـ والأثل والطرفاء نوعان من الشجر متشابهان ـ ثم انطلقوا إلى رسول الله ﷺ وخلفوا عند رحلهم أحدثهم سناً فنام عنه، وأتى سارق وسرق عيبة ـ أي وعاءً ـ لأحدهم فيها أثواب له.

وانتهى القوم إلى رسول الله ﷺ، فسلموا عليه وأقروا له بالإسلام، وكتب لهم كتاباً فيه شرائع من شرائع الإسلام.

وقال لهم: من خلفتم في رحالكم؟ فقالوا: أحدثنا يا رسول الله. قال: فإنه قد نام عن متاعكم حتى أتى آت فأخذ عيبة أحدكم. فقال أحد القوم: يا رسول الله، ما لأحد من القوم عيبة غيري. فقال رسول الله ﷺ: قد أخذت وردت إلى موضعها. فخرج القوم سراعاً حتى أتوا رحلهم، فوجدوا صاحبهم، فسألوه عما خبرهم به رسول الله ﷺ. فقال: فزعت من نومي ففقدت العيبة، فقمت في طلبها، فإذا رجل قد كان قاعداً، فلما رآني ثار يعدو مني، فانتهيت إلى حيث انتهى، فإذا أثر حَفْر، وإذا هو قد غَيَّب العيبة، فاستخرجتها. فقالوا: نشهد إنه رسول الله، فإنه قد أخبرنا بأخذها، وإنها قد رُدّت.

فرجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه، وجاء الغلام الذي خلفوه فأسلم.

وأمر النبي ﷺ أُبي بن كعب ـ الأنصاري ـ فعلمهم قرآناً. [1].

فمكثوا فترة في المدينة المنورة وصحبوا رسول الله ﷺ وكان رئيسهم أبو ظبيان بين الحارث الغامدي وفيهم سفيان بن عوف الغامدي، ولما استأذنوا رسول الله ﷺ للعودة إلى اليمن، كتب لهم رسول الله ﷺ الكتاب الذي جاء في عيون الأثر إنه «كتب لهم كتاباً فيه شرائع من شرائع الإسلام»[1] وجاء في الوثائق السياسية للعهد النبوي عن طبقات ابن سعد وزاد المعاد لابن القيم إنه «كتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فيه شرائع الإسلام. وهو في شهر رمضان سنة عشر»[2] وعن جمع الجوامع للسيوطي «كتب النبي ﷺ كتاباً لأبي ظبيان عمير بن الحارث الأزدي: أما بعد: فمَن أسلم من غامد فله ما للمسلم، حَرُم مالُه ودَمُه ولا يُعشر ولا يُحشَر، وله ما أسلم عليه من أرضه»[3] وفي رواية أخرى أن الكتاب لأبي ظبيان عبد الله بن الحارث الغامدي، قال محمد حميد الله (ولعلهما رجل واحد)[3] وهو الصواب بل

(١) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس الأندلسي ـ ص٣٢٨.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ عن زاد المعاد لابن القيم، وطبقات الصحابة لابن سعد ـ جـ١ و٢ ص٧٦.

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٢٤٠ ـ ٢٤١.

أن اسم أبي ظبيان هو عبد شمس بن الحارث[١] وكذلك جاء في الوثائق عن كتاب الجرح والتعديل لأبي حاتم الرازي «قال سفيان بن يزيد الأزدي: كان في كتاب وفد غامد: في كل مالٍ فرُع قد استغنى لسانه عن اللبن»[٢] وسفيان الأزدي هذا هو سفيان بن عوف الأزدي فليس في تراجم الصحابة من اسمه سفيان من غامد سوى سفيان بن عوف.

* * *

وقد شهد سفيان بن عوف فتح الشام، وفي ذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع: «سفيان بن عوف الغامدي الأزدي: قائد، صحابي، من الشجعان الأبطال، كان مع أبي عبيدة بن الجراح بالشام حين افتتحت»[١] وجاء في ترجمته بالإصابة «سفيان بن عوف الغامدي: صحب النبي ﷺ وكان له بأس ونجدة وسخاء.. قال ابن عساكر: سفيان بن عوف.. شهد فتح الشام، ثم روى من طريق سفيان بن مسلم عن سفيان بن عوف الأزدي قال: بعثنا أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب بكتاب»[٣]، وكان ذلك عندما أتى هرقل ملك الروم بجيش كبير قاصداً حمص. في أوائل سنة ١٥هـ فاستشار أبو عبيدة أمراء الجند فأجمعوا على الخروج من حمص إلى دمشق، فكتب أبو عبيدة كتاباً إلى عمر بذلك وقال فيه: «وقد بعثتُ إليك سفيان بن عوف عنده علم ما قلناه فسله عما بدا لك، فإنه بذلك عليم، وهو عندنا أمين».

وجاء في كتاب الوثائق: «أن أبا عبيدة بعث سفيان بن عوف الأزدي من حمص إلى عمر، حين جاءه أنّ الروم قد جاشت عليه بما لا قوام لهم به ليخبره بذلك الخبر ويستمده... فقال سفيان لعمر: يا أمير المؤمنين: اشدد أعضاد المسلمين بمدد يأتهم قبل الوقعة، فإن هذه الوقعة هي الفيصل بيننا وبينهم، فقال عمر: أبشر وبشر المسلمين وأعلمهم أن المدد قادم إليهم إن شاء اللّه تعالى»[٢] وما لبث أن وصل المدد وتم هزيمة جيش الروم في رجب ١٥هـ وامتدت الفتوح إلى حلب وأنطاكية وكان سفيان من أبرز قادة تلك الفتوح في خلافة عمر.

ولاية سفيان بن عوف للصوائف

تولى سفيان بن عوف قيادة الصوائف والغزو إلى بلاد الروم منذ ولاية معاوية للشام في خلافة عمر وعثمان بن عفان. ويؤكد ذلك قول البلاذري: «كان سفيان بن عوف الغامدي لما غزى الروم سنة ثلاثين رحل من قِبل (موقع) مرعش، فساح في بلاد الروم، وبنى معاوية مدينة مرعش وأسكنها جنداً»[٣]. قال ابن حجر

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص٢٤٠ و٤٣١.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٢٤٠ ـ ٢٤١ وص٤٧١.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٥٧ ـ فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٩٢.

العسقلاني: «استعمل معاوية سفيان بن عوف على الصوائف وكان يُعظمه، ثم استعمل بعده ـ أي بعد وفاته ـ ابن مسعود الفزاري فقال له الشاعر:

أقِمْ يا ابن مسعود قناة صليبة كما كان سفيان ابن عوف يُقيمها»[1]

وكانت ولاية وقيادة الصوائف من المهام الجسيمة والخطيرة التي لا ينهض به إلا القادة العظماء، وكان سفيان بن عوف من القادة العظماء، ولذلك كان معاوية بن أبي سفيان وهو أمير للشام ثم وهو خليفة يُعظم سفيان بن عوف.

والصوائف جمع صائفة، والصائفة هي غزوات حربية في الصيف إلى داخل بلاد الروم أرض الأمبراطورية البيزنطية وهي تركيا وما جاورها حالياً والعودة إلى الشام، فكان ولاة الصوائف يغزون بلاد الروم بجند وأهل الشام والجزيرة الفراتية صائفة وشاتية مما يلي ثغور الشام والجزيرة ويهيؤن ويقودون الغزو ويرتبون الحفظة في الثغور والسواحل.

قال البلاذري: «ثغور المسلمين الشامية أيام عمر وعثمان رضي الله عنهما وما بعد ذلك: أنطاكية وغيرها من المدن التي سمّاها الرشيد عواصم، فكان المسلمون يغزون ما وراءها.. وكان فيما بين الإسكندرونه وطرسوس حصون ومسالح للروم، فربما أخلاها أهلها وهربوا إلى بلاد الروم خوفاً وربما نُقل إليها من مقاتلة الروم من تشحن به. وقد قيل أن هرقل نقل أهل هذه الحصون والمدن معه وشعثها عند انتقاله من أنطاكية لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم.. فكان المسلمون إذا غزوا لم يجدوا بها أحداً وربما كمن عندها القوم من الروم فأصابوا غرة المتخلفين عن العسكر والمنقطعين عنها، فكان ولاة الصوائف إذا دخلوا بلاد الروم خلفوا بها جنداً كثيفاً إلى خروجهم»[2].

* * *

وقد تولى سفيان بن عوف الصوائف في ولاية معاوية الشام لعمر بن الخطاب حيث ذكر ابن الأثير (أن معاوية غزا بلاد الروم ودخلها في عشرة آلاف من المسلمين سنة ٢٢ هجرية)[3] فيكون ذلك في خلافة عمر وكان سفيان بن عوف قائد تلك الصافية مع معاوية، وكذلك سنة ٢٥هـ في خلافة عثمان حيث «غزا معاوية الصائفة حتى بلغ عمورية، فوجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزاته»[3] وكانت تلك الصائفة بقيادة سفيان بن عوف وشهدها من الصحابة عبادة بن الصامت الأنصاري وأبو أيوب الأنصاري وأبو ذر

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٥٧ ـ فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٩٢.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٦٨.
(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص١٩ و٤٤.

الغفاري وشداد بن أوس. ثم «غزا سنة إحدى وثلاثين من ناحية المصيصة فبلغ درولية فلما خرج جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدّمه»[1] وذلك لأن كمائن الروم كانت تكمن عندها، وقد كانت تلك آخر الصوائف في خلافة عثمان بن عفان وبقيادة سفيان بن عوف.

* * *

ولما اندلعت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان بن عفان، كان سفيان بن عوف من قادة أهل الشام المطالبين بالثأر لعثمان وهو موقف شمل كل الصحابة والقادة في الشام، وأدّت الفتنة وحروبها إلى ضعف وانقسام المسلمين، وعودة سيطرة الروم على إفريقية كما تعرضت ثغور الشام لغارات الروم.

* * *

وفي عام ٤١هـ اجتمع أمر الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وما لبث أن استعادت الأمة قوتها، واستعمل معاوية على الصوائف سفيان بن عوف. وجاء في ترجمته بكتاب الجامع إنه «ولّاه معاوية الصائفتين: صائفة الغزو في الصيف، وصائفة القوم ومعناه مَيْر القوم في الصيف. فظفر واشتهر».

وقاد سفيان بن عوف الصوائف من عام ٤٢هـ حيث «غزا المسلمون الروم فهزموهم هزيمة منكرة، وقتلوا جماعة من بطارقتهم سنة ٤٢هـ، كما غزا المسلمون وشتوا بأرض الروم وبلغت غاراتهم إلى مشارف القسطنطينية عام ٤٣هـ وعادوا ظافرين.

ثم انصب الاهتمام العربي الإسلامي عام ٤٤ ـ ٤٥ هجرية على المواجهة مع الروم في شمال إفريقية حيث حقق الجيش العربي الإسلامي بقيادة معاوية بن حديج السكوني انتصارات حاسمة على الجيش الروماني في تونس وافتتح حسان بن النعمان الغساني قرطاجنة، وهرب وانسحب فلول الروم بالسفن من قرطاجنة وجلولاء وتحررت إفريقية.

وفي عام ٤٦هـ «شتى مالك بن عبد الله الخثعمي بأرض الروم، وقيل: بل كان مالك بن هبيرة السكوني، وقيل: بل كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد» ويجمع ذلك اشتراكهم في الغزوة وكذلك سفيان بن عوف بصفته أمير الصوائف، كما شتى القائد اليماني مالك بن هبيرة السكوني بأرض الروم سنة ٤٧هـ وعاد بالظفر.

وشهد عام ٤٨ ـ ٤٩هـ عمليات أوسع ضد أمبراطورية الروم البيزنطية في البر والبحر، حيث غزا الأمير اليماني عقبة بن عامر الجهني بالسفن من مصر جزيرة

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٣ ص١٩ و٤٤.

رودس (٤٨هـ) وغزا أمير البحرية عبد الله بن قيس الحارثي والقائد مالك بن هبيرة السكوني سواحل الروم بالسفن من الشام كما غزوا الصائفة مع سفيان بن عوف (٤٨هـ) واتسعت ساحة المواجهة عام ٤٩هـ حيث غزا أمير مصر معاوية بن حديج السكوني جزيرة صقلية، بينما «غزا فضاله بن عبيد الأنصاري حزه[١] وشتى بها وفُتحت على يده وأصاب فيها شيئاً كثيراً، وشتى مالك بن هبيرة بأرض الروم، وغزا يزيد بن شجرة الرهاوي المذحجي في البحر، وهاجم عبد الله بن قيس الحارثي سواحل الروم، وغزا الصائفة عبد الله بن كرز البجلي» كل ذلك في الوقت الذي كان فيه سفيان بن عوف يقود الزحف الأكبر إلى القسطنطينية.

* * *

الغزو العربي الإسلامي للقسطنطينية (٤٩ ـ ٥٠هـ)

بعنوان «ذكر غزوة القسطنطينية» قال ابن الأثير: «في هذه السنة ٤٩هـ، وقيل: سنة خمسين، سير معاوية جيشاً كثيفاً إلى بلاد الروم للغزاة وجعل عليهم سفيان بن عوف. وأمر معاوية ابنه يزيد بالغزاة معهم، فتثاقل وإعتل، فأمسك عنه أبوه»[٢].

ومضى الجيش العربي الإسلامي بقيادة سفيان بن عوف إلى بلاد الروم (تركيا) حيث «أوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا القسطنطينية»[٢] فحاصروها ودارت المعارك بينهم وبين الروم، وطال الحصار بسبب تحصينات القسطنطينية.

قال ابن كثير في كتاب البداية والنهاية: «وقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم». فكان هذا الجيش أول من غزاها، وما وصلوا إليها حتى بلغوا الجهد»[٣].

وأصاب المسلمين في ذلك الغزو والحصار حُمى ومشقة شديدة، وكان يزيد بن معاوية مع زوجته أم كلثوم في دير مران، فذكر ابن الأثير إنه «انشاء يزيد يقول:

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم ... بالفرقدونة من حُمى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير مران عندي أم كلثوم

فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقن بسفيان بن عوف في أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس، فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه»[٢] فلحق يزيد بسفيان بن عوف وجيشه، واشترك في ذلك الغزو، ولم يكن يزيد أمير الجيش وإنما

---

(١) جاء في الكامل ابن الأثير هكذا (حزة) وفي تاريخ الطبري (جربة) وفي النجوم الزاهرة (حربة).
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ جـ٤ ص٢٢٧.
(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص٣٢.

أمير وقائد الجيش سفيان بن عوف، «وكان في الجيش من الصحابة والإعلام، عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن الزبير، وفضاله الأنصاري، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن كرز البجلي، ومالك بن عبد الله الخثعمي، وعبد العزيز بن زرارة الكلابي، ومالك بن هبيرة السكوني، وغيرهم. كما أن الغزوات البحرية لسواحل الروم في ذات الفترة بقيادة عبد الله بن قيس الحارثي ويزيد بن شجرة الرهاوي يمكن القول إنها كانت في إطار نفس ذلك الغزو للقسطنطينية، وينطبق ذلك على غزو معاوية بن حديج السكوني أمير مصر لجزيرة صقلية التي كانت أهم قاعدة بحرية للروم آنذاك.

لقد كان ذلك الغزو العربي الإسلامي للقسطنطينية عملاً كبيراً، تم حشد إمكانيات ضخمة لتنفيذه، ولكن التحصينات المنيعة للقسطنطينية عاصمة الأمبراطورية الرومانية البيزنطية أدت إلى استحالة فتحها آنذاك، فبعد معارك وحصار شديد استمر من عام ٤٩هـ إلى أوائل عام ٥٠ هجرية قررت القيادة الإسلامية عودة قواتها من القسطنطينية.

قال ابن الأثير: «ثم رجع يزيد بن معاوية والجيش إلى الشام، وقد توفي أبو أيوب الأنصاري عند القسطنطينية، فدفن عند سورها. فأهلها يستسقون به» وقال ابن كثير: «وقيل إن أبا أيوب لم يمت في هذه الغزوة بل بعدها سنة إحدى أو اثنتين وخمسين.. قال الواقدي: مات أبو أيوب الأنصاري بأرض الروم سنة ثنتين وخمسين ودفن عند سور القسطنطينية وقبره هناك يستسقى به الروم إذا قحطوا. وقيل: إنه مدفون في حائط القسطنطينية وعلى قبره مزار وهُمْ يعظمونه».

***

غزوات سفيان بن عوف الأخيرة (٥٠ ـ ٥٣هـ)

بعد عودة ذلك الجيش من القسطنطينية بأمد يسير، وفي نفس عام ٥٠ هجرية. انطلق سفيان بن عوف غازياً بلاد الروم والقسطنطينية. وفي ذلك جاء في تاريخ الطبري وابن الأثير إنه «في سنة خمسين كانت غزوة.. سفيان بن عوف الأزدي أرض الروم، وغزوة فضالة بن عبيد الأنصاري البحر» وربما تكرر ذلك سنة ٥١ هجرية.

***

ثم «في سنة ٥٢ غزا سفيان بن عوف الأزدي بلاد الروم وشتى بها»[1] وجاء

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ـ جـ٦ ص١٣١ ـ البداية والنهاية ـ جـ٨ ص٥٨ ـ الكامل في التاريخ ـ جـ٣ ص٢٤٤.

في كتاب الجامع إنه «سار إلى بلاد الروم فأوغل فيها إلى أن بلغ أبواب القسطنطينية»[1] وقال ابن حجر العسقلاني: روى ابن عائذ من طريق صفوان بن عمرو عن الفرج بن محمد عن بعض أشياخه قال: كنا مع سفيان بن عوف سارين بأرض الروم، فأغار على باب الذهب، حتى خرج (بعض) أهل القسطنطينية فقالوا: والله ما ندري أخطأتم الحساب أم كذب الكتاب أم استعجلتم المقدر، فإنّا وأنتم نعلم إنها ستفتح ولكن ليس هذا زمانها».

وقد تقدم قول الواقدي وتصويب ابن كثير بأن وفاة أبي أيوب الأنصاري بالقسطنطينية عام ٥٢ هجرية فيكون ذلك في هذه الغزوة لا في الغزوة الأسبق، أما سفيان بن عوف فقيل إنه مات في غزوته عام ٥٢هـ وقال الواقدي ٥٤هـ وقال ابن خليفة سنة ٥٣هـ وقد اختار العسقلاني تقديم ما ذكره ابن خليفة. فالصواب إنه عاد من غزوته عام ٥٢هـ إلى الشام.

وفي سنة ٥٣هـ قاد سفيان بن عوف غزوته الأخيرة إلى بلاد الروم وبلغ مشارف القسطنطينية، «فتوفي في مكان يُسمى (الرّنداق)، ولما بلغ الخليفة معاوية وفاته كتب إلى أمصار المسلمين وأجناد العرب ينعاه، فبكى عليه الناس في كل مسجد»[2] فرضي الله عن سفيان بن عوف وأرضاه، وكانت وفاته عام ٥٣هـ/ ٦٧٣م[2].

---

(١) الجامع ـ ص٢٤٠.

(٢) الجامع ـ ص٢٤٠ ـ ولم يتم فتح القسطنطينية إلا في عصر الدولة العثمانية على يد محمد الفاتح عام ١٤٥٣م بعد سفيان بن عوف بـ (٧٨٠سنة).

٢٩

مالك بن عبد الله الخثعمي

ـ قائد كَسَرَ المسلمون على قَبْرِه أربَعينَ لواءً ـ

هو الصحابي مالك بن عبد الله بن سنان بن سرح بن وهب بن الأقيصر بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن سعد بن مالك الخثعمي[(١)] .

وخثعم قبيلة يمنية كبيرة كانت تضاهي قبيلة مذحج حيث قال شاعر جاهلي:

وخثعم حيٌ يعدلون بمذحج وهل نحنُ إلا مثل أحدى القبائل

قال الهمداني في الإكليل: (وخثعم نبز ـ أي لقب ـ واسمه أفتل)[(٢)] وهو: خثعم بن أنمار بن أراشه بن عمرو بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. . فأنجب خثعم: خلف بن خثعم. فأنجب خلف عفرساً. فأنجب عفرس: شهران، وناهباً، ونهساً، وكوداً، وربيعة أبا أكلب. بطون كلها[(٢)] وهي بطون قبيلة خثعم، وكانت خثعم تسكن مع قبيلة بَجِيلَةْ بن أنمار في منطقة سراة أعالي اليمن[(٣)] ، وبجيلة وخثعم ابنا أنمار بن أراشة، ولذلك كانت تربط بجيلة وخثعم روابط وثيقة، وانتشر الإسلام في القبيلتين على يد الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي الذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه (خير ذي يمن) ثم سار العديد من رجالات خثعم إلى رسول الله ﷺ ومنهم مالك بن عبد الله الخثعمي فأصبحوا من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام.

* * *

قال ابن حجر العسقلاني في ترجمته لمالك بن عبد الله الخثعمي:

«قال البخاري وابن حبان: له صحبة.

. . وذكره خليفة في الصحابة، فقال روى أنه سمع النبي ﷺ، فذكر الحديث الذي أخرجه أحمد من طريق محمد بن عبد الله الشعيثي عن أبيه عن ليث بن

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص٣٤٧.

(٢) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ١٠ ص٣٣.

(٣) صفة جزيرة العرب ـ الهمداني ـ ص١١٨ ـ ١١٩.

المتوكل عن مالك بن عبد الله الخثعمي قال، قال رسول الله ﷺ: من أغبرت قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار.

قال ابن منده: ورُوى ـ أي الحديث المذكور ـ عن وكيع عن الشعبي به، وزاد ابن مندة: (وكانت له صحبة).

وأخرجه أحمد أيضاً والطبراني مَن طريق أبي المصبح وفي سياقه قصة.. كما أخرجه البغوي من هذا الوجه»[١].

ويتحقق من ذلك كله أن مالك بن عبد الله الخثعمي من أصحاب رسول الله ﷺ، بينما ذهب العجلي وغيره إلى أنه (تابعي ثقة) استناداً إلى أنه روى أحاديثاً مرسله وحديثاً عن جابر بن عبد الله، والواقع أن ليس هناك تعارض حقيقي، لأنه روى أحاديثاً لم يسمعها من النبي ﷺ مباشرة وروى أحاديثاً سمعها من رسول الله ﷺ مباشرة فهو من الصحابة كما ذكر وأجمع على ذلك البخاري وابن حبان وابن مندة وأحمد والطبراني.

وقال القرطبي في ترجمته بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

«مالك بن عبد الله الخثعمي.. روى عنه القاسم بن محمد وعبد الله بن سليمان المصري.

قال القاسم بن محمد: وكان مالك بن عبد الله الخثعمي رجلاً صالحاً.

قال علي بن أبي جميلة: ما ضُرب الناقوس قط بليل ـ وكانوا يضربونه نصف الليل ـ إلا ومالك بن عبد الله الخثعمي قد جمع عليه ثيابه في مسجد بيته يصلي.

ولمالك بن عبد الله الخثعمي فضائل جمّة عند أهل الشام يروونها، يطول ذكرها»[٢].

وقال العسقلاني في ترجمته بالإصابة «.. عن علي بن أبي جميلة قال: ما ضُرب ناقوس قط بليل إلا ومالك قد جمع عليه ثيابه يصلي في مسجد بيته. ـ قال العسقلاني ـ: وفضائله كثيرة».

* * *

لقد مكث مالك بن عبد الله الخثعمي في موكب رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة فترة من الزمن ثم عاد إلى منطقته باليمن، ولما استنفر الخليفة أبو بكر الصديق أهل اليمن للجهاد وفتح الشام ـ في أواخر عام ١٢هـ ـ انطلق مالك بن

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص٣٤٧.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ص٣٧٥.

عبد الله مع الكثيرين من أبناء قبيلة خثعم في مواكب قادة وفرسان وقبائل أرجاء اليمن حاملين رسالة الإسلام والحرية إلى الشام وإلى الآفاق الممتدة.

وقد شهد مالك بن عبد الله موقعة اليرموك ـ في جمادى الثاني ١٣هـ ـ وجاء في ترجمة عمرو بن معدي كرب الزُبيدي بكتاب الإصابة عن كتاب المغازي لابن عائذ: «. . قال مالك بن عبد الله الخثعمي: ما رأيت أشرف من رجل برز يوم اليرموك فخرج إليه علج ـ أي فارس روماني ـ فقتله ثم آخر فقتله ثم انهزموا، وتبعهم، ثم انصرف إلى خباء له عظيم، فنزل، ودعا بالجفان، ودعا من حوله. فقلت: من هذا؟ قالوا: عمرو بن معدي كرب»[١].

وشهد مالك بن عبد الله فتح دمشق ـ ١٤هـ ـ وفتح فلسطين والقدس ـ ١٦هـ ـ وفتح مصر ـ ٢٠هـ ـ وغيرها من فتوحات الشام ومصر في خلافة عمر وخلافة عثمان بن عفان، وهو من الصحابة الذين استقروا بمصر حيث قال القرطبي إنه «يُعد في المصريين»[٢] كما أنه من الصحابة الذين استقروا بفلسطين حيث جاء في ترجمته بكتاب الجامع إنه «من كبار القادة. من أهل فلسطين»[٣] ومؤدى ذلك إنه استقر فترة بمصر ثم استقر بفلسطين كما كان له أيضاً منزل بدمشق الشام حيث قال ابن أبي جميلة: ما ضُرب ناقوس قط بليل إلا ومالك قد جمع عليه ثيابه في مسجد بيته يُصلي. وقال القرطبي: ولمالك بن عبد الله فضائلُ جمّة عند أهل الشام.

* * *

قيادة مالك للسرايا والصوائف

وقد كان مالك بن عبد الله من كبار القادة بالشام منذ خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان، وهو مقتضى قول القرطبي: «كان مالك بن عبد الله الخثعمي أميراً على الجيوش في خلافة معاوية وقبل ذلك»[٢].

واشتهر مالك بلقبين هما (مالك السرايا) و(مالك الصوائف) وهو باللقب الأول أشهر بحيث قال العسقلاني في ترجمته بالإصابة: «كان يُعرف بمالك السرايا». ونقل بامطرف في كتاب الجامع إنه «المعروف بمالك السرايا ومالك الصوائف»[٣] ويبدو أن اللقبين ليسا بنفس المعنى، وأن لقب مالك السرايا يرتبط بسرايا الجيش العربي الإسلامي التي كان مالك يقودها من الشام والجزيرة الفراتية

---

(١) الإصابة ـ جـ٣ ص١٩.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ص٣٧٥.
(٣) الجامع ـ ص٤٧٣ وقال البلاذري في فتوح البلدان «وهو من أهل فلسطين» [١٩٥].

إلى أرمينية وبلاد القوقاز حيث كان هو أمير تلك السرايا، أما لقب (مالك الصوائف) فيرتبط بولايته للصوائف وهي قيادة الغزوات الصيفية إلى بلاد الروم وهي تركيا حالياً.

* * *

وذات يوم بينما كان مالك بن عبد الله يجتاز بسرايا المسلمين الدروب لفتح إحدى الجهات حدث ما تناقلته كتب الأحاديث النبوية عن أحد مَنْ شهدوا ذلك اليوم ـ وهو خالد بن عبد الله قال: «بينا نحن نسير في درب إذْ نادى **مالك بن** عبد الله الخثعمي رجلاً يقود فرسه في عراض الخيل ـ قائلاً: **يا أبا عبد الله ألا** تركب؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار**»، فنزل مالك ونزل الناس، فمشوا ـ أي راجلين ـ فما رأينا يوماً أكثر ماشياً منه»(١). وتتوج مسيرهم بالفتح والنصر.

* * *

رهوة مالك في تركيا

وباسم مالك بن عبد الله الخثعمي سميت (رهوة مالك) في تركيا، وكانت رهوة مالك تقع على بعد خمسة عشر ميلاً من درب الحدث فيما يلي ثغور الشام حيث كان درب الحدث هو طريق الصوائف إلى عمق بلاد الروم (تركيا).

وقد ذكر البلاذري سبب تسمية رهوة مالك بهذا الاسم الذي دام مئات السنين قائلاً:

«كان مالك بن عبدالله الخثعمي الذي يقال له مالك الصوائف غزا بلاد الروم سنة ست وأربعين وغنم غنائم كثيرة، ثم قفل؛ فلما كان من درب الحدث على خمسة عشر ميلاً بموضع يدعى الرهوة أقام فيها ثلاثاً فباع الغنائم وقسم سهام الغنيمة فسميت تلك الرهوة رهوة مالك»(٢).

* * *

وقد تولى مالك بن عبد الله قيادة غزوات صائفة وشاتيه إلى بلاد الروم منذ ولاية سفيان بن عوف للصوائف وشهد معه غزوة القسطنطينية عام ٤٩ ـ ٥٠هجرية وعام ٥٢ هجرية ومات سفيان بن عوف عام ٥٣هـ حيث ـ كما تقدم ـ «لما مات

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٣٤٨.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ـ ص١٩٥.

سفيان بن عوف كتب معاوية إلى أمصار المسلمين وأجناد العرب ينعاه، فبكى الناس عليه في كل مسجد».

وكان معاوية استعمل على الصوائف بعد موت سفيان بن عوف بن عبد الله بن مسعود الفزاري في نفس العام، ثم أصبح مالك بن عبد الله هو قائد ووالي الصوائف وغزا بلاد الروم سنة ٥٥ هجرية ولم يزل قائداً والياً للصوائف وغازياً بلاد الروم حتى وفاته. قال العسقلاني: «..كان مالك يلي الصوائف حتى عرفته الروم. قال عطية بن قيس: وُلّي مالك الصوائف زمن معاوية ثم يزيد (٦٠ ـ ٦٤هـ) ثم عبد الملك، ولما مات كسروا على قبره أربعين لواء»[١] وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «مات غازياً في أرض الروم، فكسَرَ المسلمون على قبره أربعين لواءً، حِداداً عليه»[٢]. وبما أن كل لواء يرمز إلى جيش من الجيوش العربية الإسلامية في أمصار المسلمين، فقد أوفد أجناد العرب في سائر الأمصار من يمثلهم حاملاً لواء كل جيش إلى قبر مالك فكسروا الألوية الأربعين فوق قبره تعبيراً عن حزن جيوش الإسلام على ذلك الصحابي القائد العظيم، وهو تقدير وتعظيم لم ينله من الأمراء والقادة عبر التاريخ سوى مالك بن عبد الله الخثعمي رضوان الله عليه.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٣٤٨

(٢) الجامع ـ ص٤٧٣.

٣٠

سفيان بن مُجيب الثُمَالي

ـ فاتح طرابلس وأمير بعلبك ـ

هو الصحابي الأمير الفاتح سفيان بن مُجيب الثُمالي الأزدي[(١)].

وثُمَالَة بطن من الأزد، ازد السراة، بمنطقة السروات بأعالي اليمن، ومنها انطلق سفيان بن مجيب الثُمالي وعبد الله بن قُرط الثمالي وغيرهما من رجالات ثُماله إلى رسول الله ﷺ مؤمنين برسالته ومبايعين، وأخذ كل منهم مكانه في موكب رسول الله عليه الصلاة والسلام.

* * *

قال العسقلاني: (روى ابن قانع وغيره من طريق يحيى بن أبي كثير عن أبي سلام عن حجاج بن عبيد الثمالي، وكان قد رأى النبي ﷺ وشهد معه حجة الوداع أن سفيان بن مجيب حَدَّثه وكان من أصحاب النبي ﷺ قال: «**إن في جهنم سبعة آلاف واد**». الحديث)[(١)].

وجاء في كتاب الجامع: «سفيان بن مجيب الأزدي: صحابي، شهد مع النبي ﷺ حجة الوداع»[(٢)] وليس سفيان بن مجيب هو المقصود في سياق رواية الإصابة ـ سالفة الذكر ـ بعبارة «وكان قد رأى النبي ﷺ وشهد معه حجة الوداع» فالمقصود بذلك حجاج بن عبيد الثمالي، أما سفيان بن مجيب فهو المقصود بعبارة «وكان من أصحاب النبي ﷺ».

وتزوج سفيان بن مجيب حفصة بنت أمية بن حرب، وهي عمة معاوية بن أبي سفيان، وفي ذلك جاء في ترجمة سفيان بكتاب الإصابة أنه «زَوَجه معاوية حفصة بنت أمية بن حرب»[(١)] وكان زواجه بها في الشام.

* * *

ونشير هنا إلى الصحابي عبد الله بن قرط الثمالي الذي يمكن القول بأن

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٥٧.

(٢) الجامع لبامطرف ـ ص٢٤٠.

سفيان بن مجيب كان معه ـ أو أنهما كانا معا ـ في موكب رسول الله ﷺ ثم في فتوح الشام. وقد جاء في ترجمة عبد الله بن قرط: «قال البخاري وأبو حاتم وابن حبان: له صحبة. وروى حديثه أبو داوود والنسائي وابن حبان والحاكم من طريق عبد الله بن لحيّ عن عبد الله بن قرط الثمالي قال، قال رسول الله ﷺ: أفضل الأيام عند الله يوم النحر. وقرب إلى رسول الله ﷺ بُدنات، فطفقن يزدلفن فلما وجبت جنوبها، قال كلمة خفيفة لم أفهمها، فسألت بعض من يليه فقال، قال: من شاء فليقتطع.. وروى أحمد بن حنبل بإسناد حسن أنه كان اسمه شيطاناً فغيره النبي ﷺ ـ وسماه عبد الله ـ وفي الفتوح أنه شهد اليرموك. وأرسله يزيد بن أبي سفيان بكتابه إلى أبي بكر. واستعمله أبو عبيدة بن الجراح على حمص في عهد عمر بن الخطاب»(١).

* * *

وقد شهد سفيان بن مجيب موقعة اليرموك وافتتاح دمشق وحمص والسواحل في ولاية أبي عبيدة بن الجراح، ثم يزيد بن أبي سفيان لدمشق، قال البلاذري: «وحدثني أبو حفص الشامي عن سعيد عن الوضين، قال: كان يزيد بن أبي سفيان وجه معاوية إلى سواحل دمشق سوى طرابلس فإنه لم يكن يطمع فيها»(٢). وذلك لقوة الروم المتمركزين في طرابلس، أما بقية حصون السواحل ومنها صيدا وبيروت فتم فتحها، قال البلاذري: «ثم إن الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان»(٢) ويعود ذلك إلى وجودهم القوي في طرابلس ثم كما ذكر المدائني «فتح طرابلس سفيان بن مجيب».

* * *

وقد كان فتح طرابلس حدثاً تاريخياً هاماً حيث كما جاء في فتوح البلدان: «لما استخلف عثمان وولى معاوية بلاد الشام، وجه معاوية سفيان بن مجيب الأزدي إلى طرابلس وهي ثلاثة مدن مجتمعة.

فبنى سفيان في مرج على أميال منها حصناً، سُمي حصن سفيان، وقطع المادة على أهلها من البحر وغيره، وحاصرهم، وكان يبيت كل ليلة في حصنه ويحصن المسلمين فيه ثم يغدو على العدو، فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون ـ المدن ـ الثلاثة، وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدهم أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى ما قبله، فوجه إليهم ملك الروم بمراكب كثيرة،

---

(١) الإصابة ـ جـ٢ ص٣٥٨.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١٣٣ ـ ١٣٤.

فركبوها ليلاً وهربوا، فلما أصبح سفيان ـ وكان يبيت كل ليلة في حصنه ثم يغدو على العدو ـ وجد الحصن الذي كانوا فيه خالياً، فدخله.. وهو الذي فيه الميناء اليوم»(١) وبذلك تم فتح طرابلس عام ٢٤ هجرية.

* * *

وجاء في كتاب الإصابة عن كتاب المغازي لابن عائذ عن أبي مطيع «أن معاوية وجه سفيان بن مجيب الثمالي الأزدي إلى طرابلس في جماعة ـ جيش ـ فذكر قصة فتحها».

وجاء في كتاب الجامع أن: «سفيان بن مجيب فتح مدينة طرابلس على عهد عثمان بن عفان وأخرج منها الروم واليهود وجعلها معقلاً من معاقل العروبة والإسلام. وهو أول قائد عربي مسلم أنشأ حصناً يلجأ إليه المسلمون ليلاً فيأمنون فيه غائلة التقلبات الجوية ومباغتة العدو لهم»(٢).

وقد أدى فتح سفيان بن مجيب لطرابلس إلى تأمين سائر حصون ومدن السواحل وتم ترتيبها بالحاميات والمقاتلين وإقطاعهم القطائع، وتوطدت دعائم فجر العصر العربي الإسلامي في تلك الربوع، وتم اتخاذ مدينة بعلبك عاصمة إدارية وتولاها وأقام بها سفيان بن مجيب، فكان هو أول أمير لبعلبك وأعمالها في الإسلام ومكث أميراً عليها منذ ما بعد فتح طرابلس ـ عام ٢٤هـ ـ إلى انتهاء خلافة عثمان بن عفان في أواخر ٣٥هـ ثم بعد ذلك حيث جاء في الإصابة أنه: «قال عمرو بن العاص لمعاوية: ابعث إلى سفيان الأزدي صاحب بعلبك ليبعث بمن خرج منهم يعني أهل مصر، فبعث إلى سفيان بن مجيب، فخرج سفيان في أثر عبد الرحمن بن عديس ـ وأصحابه ـ فأدركوهم». وأرسلهم سفيان إلى معاوية وتم حبس ابن عديس في اللد بفلسطين وكان ذلك أواخر عام ٣٦هـ ولم يزل سفيان بن مجيب أميراً لبعلبك ومن أمراء وأعلام الشام إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة ٥٣ هجرية.

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) الجامع لبامطرف ـ ص٢٤٠.

٣١

جُنادة بن أبي أُمَيّة الأزْدي

ـ أمير البحر وفاتح جزيرة رودس ـ

هو جنادة بن أبي أمية الزهراني الأزدي، من قبيلة زهران الأزدية، أزد السراة، بمنطقة سراة زهران وغامد بأعالي اليمن[١]. وهم بنو زهران بن كعب بن الحارث بن مالك بن نصر بن الأزد سليل كهلان بن سبأ.

قال البخاري: اسم أبي أمية كبير. وقال ابن أبي حاتم: اسم أبي أمية كبير وله صحبة، بينما قال خليفة: اسم أبي أمية مالك. وقال القرطبي: قال محمد بن سعد كاتب الواقدي: جنادة بن أبي أمية غير جنادة بن مالك، وهو كما قال محمد بن سعد هُمَا اثنان عند أهل العلم بهذا الشأن[٢]. وقد ناقش ابن حجر العسقلاني اسم والد جنادة بن أبي أمية الأزدي وانتهى إلى القول «لم يصح عندي اسم أبيه»[٣] ونميل إلى أن اسم أبيه (كبير) كما قال البخاري وابن أبي حاتم، والمقصود أنه اشتهر باسم (جنادة بن أبي أمية الأزدي)، قال العسقلاني: (ومنهم من قال جنادة الأزدي ولم يقل ابن أبي أمية)[٣]، ويعود ذلك إلى أن جنادة بن أبي أمية الأزدي كان شخصاً مشهوراً فإذا قيل جنادة الأزدي فهو المقصود.

* * *

جنادة.. في موكب رسول الله ﷺ

كان جنادة بن أبي أمية الأزدي ثامن ثمانية رجال من بني زهران شدوا رحالهم من منطقتهم بسروات اليمن إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، فبايعوا رسول الله ﷺ وصحبوه، وصدقوا فيما عاهدوا الله عليه.

---

(١) صفة جزيرة العرب ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص١١٨ ـ وقال القرطبي (جنادة بن أبي أمية الأزدي ثم الزهراني من بني زهران).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر القرطبي ـ ص٢٤٢.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ١ ص٢٤٥.

قال العسقلاني: «روى أحمد والنسائي والبغوي من طريق يزيد بن أبي الخير عن حذيفة البارقي عن جنادة بن أبي أمية الأزدي، أنهم دخلوا على رسول الله ﷺ ثمانية نفر هو ثامنهم، فقرب إليهم طعاماً يوم الجمعة، ـ وروى ـ الحديث في النهي عن صيام يوم الجمعة»(١).

ومكث جنادة في موكب رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة فترة من الزمن، أقام خلالها بمنزل عبادة بن الصامت الأنصاري واستزاد علماً بالقرآن والسنة وأحكام الإسلام، وصحب رسول الله ﷺ وسمع منه أحاديثاً، ومنها ما أخرجه «الطبراني عن شهر بن حوشب عن أبي عبد الرحمن الصنعاني أن جنادة الأزدي أمّ قوماً. الحديث وفيه قال جنادة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ أمّ قوماً وهم له كارهون فإن صلاته لا تجاوز ترقوته».

وأخرج (أحمد ـ في مسنده ـ من طريق يزيد بن أبي الخير أن جنادة بن أبي أمية الأزدي حدثه أن رجالاً من الصحابة قال بعضهم أن الهجرة قد انقطعت، فاختلفوا في ذلك، فانطَلَقْتُ إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «**إن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد**»)(١) قال القرطبي: «وذكر ابن يونس عن عبد الله بن عيسى بن حماد التجيبي عن أبيه عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير: إن جنادة بن أبي أمية حَدَّثه أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا فقال بعضهم إن الهجرة قد انقطعت، قال جنادة: فانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله إن ناساً يقولون أن الهجرة قد انقطعت؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة ما كان الجهاد**»(٢).

وأصل القول بأن الهجرة قد انقطعت هو الحديث النبوي: «**لا هجرة بعد الفتح**»، أي بعد فتح مكة في رمضان ٨ هجرية فالذين يهاجرون ويأتون إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة بعد فتح مكة لا يقال لهم (مهاجرون)، ولكن الهجرة إلى الله ورسوله وفي سبيل الله لا تنقطع وهو ما بيّنه رسول الله ﷺ لجنادة بقوله: «**لا تنقطع الهجرة ما كان الجهاد**» فروى جنادة ذلك للأمة.

* * *

وقبل أن ينطلق جنادة إلى ساحات الجهاد والفتوحات في الشام ومصر، كان قد عاد إلى اليمن حيث كتب رسول الله ﷺ لجنادة ـ ومع جنادة ـ الكتاب المذكور

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ جـ١ ص٢٤٥.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر القرطبي ـ ص٢٤٢.

في الطبقات وكنز العمال وجمع الجوامع للسيوطي ووثائق العهد النبوي وهو الكتاب التالي(١):

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لجُنادة الأزدي وقومه ومَن تَبِعه، ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله ورسوله، وأعطوا من المغانم خُمس الله، فإن لهم ذمة الله وذمة محمد بن عبد الله، وكتب أُبَي»(٢).

وروى ابن مندة بإسناده: «إن رسول الله ﷺ كتب لجنادة: هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لجنادة وقومه ومن تبعه. بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة. ومَنْ أطاع الله ورسوله فإن له ذمة الله وذمة محمد»(٣).

* * *

وقد مكث جنادة في منطقة أزد السراة باليمن وكان زعيماً في قبيلته وساهم في ترسيخ الإسلام بينهم وكان معاذ بن جبل الأنصاري هو والي اليمن لرسول الله ﷺ وقد التقى به جنادة في صنعاء أو غيرها. وقد روى العالم التابعي عبد الرحمن الصنعاني حديثاً سمعه من جنادة ـ كما تقدم ـ وكذلك روى جنادة أحاديثاً سمعها من معاذ بن جبل، وكان أهمّ حديث رواه جنادة هو قول رسول الله ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة ما كان الجهاد»**.

* * *

جنادة.. في ساحات الجهاد والفتوحات

لقد انطلق جنادة من اليمن مع الذين انطلقوا للجهاد في سبيل الله وحملوا رسالة الإسلام والحرية إلى ربوع الشام ثم من الشام إلى مصر.

قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة جنادة بن أبي أمية الأزدي: «ذكره ابن يونس في تاريخ مصر وأنه شهد فتح مصر وروى عنه أهلها». وقال القرطبي: «قال ابن يونس: وجنادة بن أبي أمية ممن شهد فتح مصر قدم مع عبادة بن الصامت الأنصاري، وكان عبادة يومئذ أميراً على ربع المدد».

ويدل ذلك على أن جنادة كان مع عبادة بن الصامت في فتوح الشام قبل

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص١٢٠ ـ عن طبقات ابن سعد ـ جـ١ ص٢٣ ـ كنز العمال عن أبي نعيم ـ وجمع الجوامع للسيوطي في مسند عمرو بن حزم ـ وكنز وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ـ جـ١ ص٣٠٠.

(٢) أبيّ بن كعب الأنصاري.

(٣) قال العسقلاني أن جنادة المكتوب إليه هذا الكتاب «جنادة غير منسوب» بينما في كافة المصادر السابقة أنه «جنادة الأزدي» فالكتاب هو نفس الكتاب.

قدومهما معاً في فتح مصر، وبالذات في الفترة (١٥ ـ ٢١هـ) حيث كان من الوقائع والمعالم الرئيسية لتلك الفترة ومسار الفتوح التي شهدها جنادة ما يلي:

ـ في رجب ١٤هـ تم فتح دمشق، ودخلها الصحابة والمسلمون بقيادة الأمير أبي عبيدة بن الجراح وكان منهم عبادة بن الصامت وجنادة بن أبي أمية الأزدي، وتم (عام ١٥هـ) فتح حمص بقيادة السمط بن الأسود الكندي وأسكن السمط بها المسلمين وصالح أهلها، وكان أبو عبيدة بدمشق ثم «استخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان، وتوجه إلى حمص، وكان السمط صالح أهل حمص، فلما قدم أبو عبيدة أمضى صلحه واستخلف بحمص عبادة بن الصامت»[١] فأصبح عباده أميراً لحمص وكان جنادة معه بحمص.

ـ وفي عام ١٦ ـ ١٧هـ انطلق عبادة بن الصامت ومعه جنادة لفتح اللاذقية والسواحل «فافتتح عبادة بن الصامت اللاذقية، وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً بأمر عباده.. ثم افتتح عباده انطرسوس وجبله وغيرها من سواحل وأعمال حمص».

ـ وفي أواسط عام ١٨هـ مات أبو عبيدة بن الجراح في طاعون عمواس «فكتب عمر بن الخطاب إلى يزيد بن أبي سفيان بولاية الشام، وأمره أن يغزو قيسارية. وقال قوم: إن عمر إنما ولى يزيد الأردن وفلسطين، وولى دمشق أبا الدرداء، وولى حمص عبادة بن الصامت»[١]. وكان يزيد بمثابة القائد العام للشام فسار بجيش الشام لفتح قيسارية وانضم إليه جند حمص وأعمالها ـ وفيهم أميرها عبادة بن الصامت وجنادة الأزدي ـ وأثناء حصار قيسارية مرض يزيد فاستخلف على حصار قيسارية أخاه معاوية بن أبي سفيان وتوجه إلى دمشق ـ في أواخر ١٨هـ ـ فمات بها، وتم فتح قيسارية بقيادة معاوية عام ١٩هـ، قال البلاذري: «وولى عمر معاوية الشام بعد يزيد، وولى معه رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ الصلاة والقضاء: فولى أبا الدرداء قضاء دمشق والأردن، وولى عبادة قضاء حمص وقنسرين وصلاتهما»[١]، فاستمر عبادة في حمص ومعه جنادة.

ـ وفي عام ١٩ ـ ٢٠هـ أشار جناده على معاوية بالغزو البحري فكتب معاوية إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك وبعث الكتاب مع جنادة.. وذكر الطبري: «.. عن عبادة بن نسيّ عن جُنادة بن أبي أمَيَّة الأزدي قال: كان معاوية كتب إلى عمر كتاباً في غزو البحر، يرغّبه فيه، ويقول: يا أمير المؤمنين أن بالشام قرية ـ من قُرى حمص ـ يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٤٥ ـ ١٤٦.

سواحل حمص. فاتّهمه عمر ـ أي اتهم جنادة ـ لأنه المشير. وكتب عمر إلى عمرو بن العاص: أن صف لي البحر ـ بحر الشام ـ واكتب إليَّ بخبره، فكتب إليه: يا أمير المؤمنين، إني رأيت خلقاً عظيماً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، وإنما هُمْ كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق»[1]. فكتب عمر إلى معاوية: لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ـ وذكر الطبري (.. عن أبي حارثة عن عبادة عن جنادة بن أبي أمية الأزدي والربيع وأبي المجالد قالوا: كتب عمر بن الخطاب إلى معاوية: إنّا سمعنا أن بحر الشام يُشرف على أطول شيء على الأرض.. فكيف أحمل الجنود في هذا الكافر المستصعب، وتالله لمُسلمُ أحبُّ إليَّ مما حَوَتِ الروم، فإياك أن تعرض له ـ أي للبحر ـ وقد تقدمتُ إليك ـ أي منعتك ـ وقد علمتَ ما لقي العلاء مني ولم أتقدم إليه في مثل ذلك»[1]. وبذلك الرفض والمنع الحاسم من الخليفة عمر بن الخطاب تم صرف النظر عن فكرة الغزو البحري التي أشار بها جنادة ثم تنفذت الفكرة ـ كما سيأتي ـ في خلافة عثمان.

ـ وكان جنادة من قادة الجيش الذي وجهه عمر بن الخطاب بقيادة عبادة بن الصامت الأنصاري مدداً في فتح مصر (عام ٢٠ ـ ٢١هـ) حيث كما جاء في الاستيعاب وتاريخ مصر لابن يونس: (شهد جنادة فتح مصر، قدم مع عبادة بن الصامت وكان عبادة يومئذ أميراً على ربع المدد).

واستقر جنادة في مصر، وشهد فتح الإسكندرية بقيادة عبادة بن الصامت، وكان قد تم فتح الإسكندرية عام ٢١هـ، ثم انتقضت عام ٢٣هـ فقام عبادة بن الصامت بإعادة فتحها وهو الفتح الذي كان جنادة من قادته، وكان عبادة بن الصامت أمر الجيش بعدم بدء القتال إلى أن يأمرهم بذلك وفقاً للخطة التي يضعها للهجوم والفتح، ولكن بعض الجيش اندفعوا إلى القتال قبل الوقت المحدد، وفي ذلك قال القرطبي: «ذكر ابن عفير عن الليث بن سعد عن عبيد الله بن أبي جعفر عن بكير بن الأشج عن بسر بن سعيد عن جنادة بن أبي أمية الأزدي: أن عبادة بن الصامت كان على قتال الإسكندرية، وكان منعهم من القتال، فقاتلوا، فقال: أدرك الناس يا جنادة، فذهبت، ثم رجعت إليه، فقال: أقُتِل أحد؟ قلت: لا. فقال: الحمد لله الذي لم يُقتل أحد منهم عاصياً»[2]. ثم أمر عبادة بالقتال وفقاً للخطة وتوقيتها فتم فتح الإسكندرية. وكان ذلك في أواخر خلافة عمر سنة ٢٣هـ حيث توفي عمر في تلك السنة وتولى الخلافة عثمان بن عفان.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٥ ص٥٣.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ القرطبي ـ ص٢٤٣.

وكان لجنادة في مصر، كما في الشام، دوران: دور في الفتح والجهاد، ودور في تعريف الناس بالسنة النبوية وتعاليم الإسلام، فروى جنادة أحاديثاً نبوية سمعها من رسول الله ﷺ وأحاديثاً نبوية سمعها من معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وابن عمر. وروى عن جنادة العديد من علماء التابعين في مصر والشام لأنه مكث فترة في مصر ثم عاد إلى الشام وتولى قيادة الغزوات البحرية وسكن الشام، ولهذا روى عنه علماء التابعين في مصر والشام، وفي ذلك جاء في ترجمته بكتاب الاستيعاب بأنه «سمع جنادة بن أبي أمية الأزدي من النبي ﷺ وروى عنه، وروى أيضاً عن أصحابه عنه. قال ابن أبي حاتم: وروى جنادة بن أبي أمية عن معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وابن عمر. وروى عن جنادة ـ من التابعين بالشام ـ مجاهد، وعلي بن رباح، وعمير بن هانئ، وبسر بن سعيد، وعمرو بن الأسود، وأبو الخير، وعبادة بن نسي، وابنه سليمان بن جنادة».

قال القرطبي: «وروى عن جنادة من ـ التابعين ـ المصريين: أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزني، وأبو قبيل المعافري، وشبيم بن بيتان، ويزيد بن صبح الأصبحي، والحرث ابن يزيد الحضرمي»[١].

* * *

الغزوات البحرية.. وإمارة البحر

إن الدور العظيم والمتميز لجنادة بن أبي أمية الأزدي هو الغزوات البحرية وإمارة البحر، وفي هذا المجال جاء في ترجمته بكتاب الاستيعاب أنه «كان جنادة بن أبي أمية على غزو الروم في البحر لمعاوية من زمان عثمان إلى أيام يزيد إلا ما كان من زمن الفتنة، وشتى في البحر سنة تسع وخمسين»[١].

وجاء في كتاب الجامع: «جُنادة بن كبير أبي أمية بن مالك الأزدي الزهراني: قائد بحري، صحابي من كبار الغزاة، كان قائد غزوات البحر أيام معاوية كلها، ودخل جزيرة رودس فاتحاً سنة ٥٣هـ»[٢].

ويتبين من استقصاء المصادر والوقائع التاريخية عن الغزوات البحرية المسار التالي لها:

ـ في عام ١٩ ـ ٢٠هـ أشار جنادة على معاوية بن أبي سفيان أمير الشام بالغزو البحري، فكتب معاوية بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه بذلك، فاتهم عمر

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ القرطبي ـ ص٢٤٣.
(٢) الجامع لشمل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص١٤٣.

جنادة لأنه المشير بذلك، وكتب عمر إلى معاوية يمنعه من التعرض للبحر وينهاه عن ذلك. فتم صرف النظر عن الفكرة أو تأجيلها إلى خلافة عثمان بن عفان.

ـ قال الطبري: «فلما ولّى عثمان لم يزل به معاوية ـ يستأذنه في غزو البحر، ويلح عليه ـ حتى عزم عثمان على ذلك بآخره، وقال: لا تنتخب الناس ولا تُقْرِع بينهم خَيّرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعِنْه، ففعل، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحارثي»(١).

وكان ذلك سنة ٢٧ هجرية حيث كان القائد اليمني عبد الله بن قيس الحارثي أول أمير للبحرية في الإسلام. ومؤسس الأسطول العربي الإسلامي، وكان يكنى (أبو بحرية) لأنه أبو البحرية العربية الإسلامية ومؤسسها وقائد غزواتها البحرية الأولى، قال العسقلاني في ترجمة عبد الله بن قيس الحارثي: «كان معاوية يرسله في غزو البحر، فغزا خمسين غزوة بحرية ما بين صائفة وشاتيه لم ينكب فيها ولم يغرق معه أحد، إلى أن قُتل سنة ثلاث وخمسين، . . وكان أول ما غزا سنة سبع وعشرين»(٢).

ويستفاد من ذلك أمور ثلاثة:

ـ إن تأسيس الأسطول الحربي وبداية الغزوات البحرية كان سنة ٢٧هـ بقيادة عبد الله بن قيس الحارثي.

ـ إن عبد الله بن قيس كان أمير البحرية وقائد الغزوات البحرية منذ عام ٢٧هـ إلى عام ٥٣هـ وهي نفس الفترة التي ذكرت المصادر أن جنادة بن أبي أمية الأزدي كان «قائد الغزوات البحرية أيام معاوية كلها» وأنه «كان على غزو الروم في البحر لمعاوية من زمن عثمان» ـ أي من عام، ٢٧ و٢٨هـ.

ـ ومؤدى ذلك أن جنادة اشترك في قيادة الغزوات البحرية مع عبد الله بن قيس الحارثي منذ تأسيس الأسطول البحري وبداية الغزوات البحرية عام ٢٧ هجرية إلى أن استشهد عبد الله بن قيس ـ عام ٥٣هـ ـ مما يعني أن جنادة كان نائب عبد الله بن قيس أمير البحرية في تلك الفترة فلما استشهد عبد الله بن قيس أصبح جنادة أميراً للبحرية.

ـ وكانت أهم الغزوات والفتوح البحرية التي شهدها جنادة مع عبد الله بن قيس الحارثي قبل فتح جزيرة رودس بقيادة جنادة الذي أصبح أميراً للبحرية، ما يلي:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٥ ص٥٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ العسقلاني ـ جـ٤ ص٩٣.

الغزو الأول لجزيرة قبرص ٢٨هـ/ ٦٤٨م

كان عبد الله بن قيس الحارثي هو أمير الأسطول البحري وقائد الغزو الأول لجزيرة قبرص والذي فيه سار معاوية بن أبي سفيان وعدد من الصحابة. وفي ذلك قال البلاذري: «غزا معاوية بن أبي سفيان في البحر غزوة قبرص الأولى، ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها ـ أي البحر الأبيض المتوسط ـ وكان معاوية استأذن عمر في غزو البحر فلم يأذن له، فلما ولى عثمان بن عفان كتب إليه يستأذنه في غزو قبرص ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها، فكتب إليه ـ عثمان ـ أن قد شهدتُ ما رد عليك عمر حين استأمرته في غزو البحر. فلما دخلت سنة سبع وعشرين كتب إليه يهون عليه ركوب البحر إلى قبرص، فكتب إليه عثمان: فإن ركبت البحر معك امرأتك مأذوناً لك وإلا فلا»[١] فلما وافق عثمان ـ وكما ذكر الطبري ـ «استعمل ـ معاوية ـ على البحر عبد الله بن قيس الحارثي»[٢] فقام عبد الله بن قيس الحارثي ـ ومعه جنادة ـ بتأسيس الأسطول وتجهيز السفن والمراكب ثم قيادة الغزو إلى جزيرة قبرص، ويؤكد ذلك ما جاء في ترجمة عبد الله بن قيس الحارثي بكتاب الجامع أنه لما «أراد معاوية غزو جزيرة قبرص، ولاه قيادة الغزاة سنة ٢٧هـ ـ فتقدم بريدها ـ أي جزيرة قبرص»[٣].

وكان عبد الله بن قيس لما تهيأ لغزو جزيرة قبرص بالسفن والمراكب ـ في ميناء عكا ـ وصل معاوية بن أبي سفيان وزوجته فاختة بنت قرظة والصحابي عبادة بن الصامت الأنصاري ـ صاحب جنادة ـ وامرأة عبادة بن الصامت وهي أم ملحان، وعدد من الصحابة، للمشاركة في ذلك الغزو الأول لجزيرة قبرص بقيادة عبد الله بن قيس الحارثي ونائبه جنادة بن أبي أمية الأزدي، قال البلاذري: «فركب معاوية البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة، وحمل امرأته فاختة بنت قرظة.. وحمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية، وذلك في سنة ثمان وعشرين بعد انحسار الشتاء.. وغزا مع معاوية في تلك الغزوة: أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب الأنصاري، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وفضالة بن عبيد الأنصاري، وعمير بن سعد بن عبيد الأنصاري، وواثلة بن الأسقع الكناني، وعبد الله بن بشر المازني، وشداد بن أوس بن ثابت، وهو ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري، والمقداد بن عمرو البهراني الحميري، وكعب الحبر بن ماتع، وجبير بن نفير الحضرمي..»[١].

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١٥٧.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٥ ص٥٣.
(٣) عبد الله بن قيس الحارثي ـ الجامع ـ ص٣٤٢.

فلما وصل عبد الله بن قيس الحارثي ونائبه جنادة بن أبي أمية الأزدي بالسفن والمراكب إلى ساحل جزيرة قبرص، نزل المسلمون من المراكب إلى قبرص، وكان فيهم معاوية وعبادة بن الصامت وغيرهم، فلما نزل المسلمون في ساحل قبرص: «بعث إليهم أركونها ـ أركون قبرص ـ يطلب الصلح، وقد أذعن أهلها به، فصالحهم على سبعة آلاف ومائتي دينار يؤدونها كل عام، وكانوا يؤدون مثل ذلك المبلغ للروم أيضاً فهم يؤدون خراجين ـ واشترطوا أن لا يمنعهم المسلمون أداء الصلح إلى الروم، واشترط عليهم المسلمون أن لا يقاتلوا عنهم من أرادهم من ورائهم، وأن يؤذنوا ـ أي ينذروا ـ المسلمين بسير عدوهم من الروم»(١).

وبموجب ذلك الصلح عاد المسلمون من جزيرة قبرص بعد دفن أم ملحان الأنصارية التي «لما انتهى المسلمون إلى قبرص في تلك الغزوة الأولى، خرجت أم ملحان ـ زوجة عبادة بن الصامت ـ من المركب، وقدمت إليها دابة لتركبها، فعثرت بها، فماتت، فقبرها بقبرص يُدعى قبر المرأة الصالحة»(١) وما يزال قبر أم ملحان قائماً حتى اليوم في مسجد مشهور بقبرص، ربما يعود تأسيسه إلى زمن الغزو الثاني لقبرص وفتحها عام ٣٣ هجرية.

الغزو الثاني لقبرص وفتحها ٣٣هـ/ ٦٥٣م

كان الصلح الإسلامي مع أركون قبرص عام ٢٨هـ يتضمن أن لا يعين أهل قبرص الروم على الغزو إذا أرادوا غزو المسلمين وأن ينذروا المسلمين في حالة مسير أو مرور الروم بقبرص لغزو المسلمين «فلما كان عام ٣٢هـ أعان أهل قبرص الروم على الغزو في البحر بمراكب أعطوهم إياها»، وذلك في غزو الروم للإسكندرية عام ٣٢هـ غالباً حيث قام المسلمون في مصر بإعادة فتح الإسكندرية وإجلاء الروم منها وهو الفتح الثالث والأخير للإسكندرية في خلافة عثمان.

وفي أعقاب ذلك قام معاوية بتوجيه عبد الله بن قيس الحارثي ونائبه جنادة بن أبي أمية الأزدي لغزو وفتح قبرص، وفي ذلك قال البلاذري: «غزا معاوية قبرص سنة ثلاث وثلاثين في خمسمائة مركب ففتح قبرص عنوة، فقتل وسبى، ثم أقرهم على صلحهم ـ صلحاً دائماً على سبعة آلاف دينار ـ وبعث إليها باثني عشر ألفاً ـ من المسلمين كلهم أهل ديوان، فبنوا بها المساجد»(١) ولم يغز معاوية بنفسه في ذلك الغزو والفتح ـ سنة ٣٣هـ ـ وإنما هو الذي أمر بالغزو، فتم الغزو والفتح بقيادة عبد الله بن قيس وهو الذي «صالحه أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدونها كل

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١٥٧.

سنة»[1] وكان ذلك الغزو الثاني لقبرص ـ عام ٣٣هـ ـ فتحاً فعلياً لأنه تم (عنوة) وتم فيه توطين اثني عشر ألف من العرب المسلمين في قبرص فبنوا بها المساجد، وبنى معاوية ـ على يد عبد الله بن قيس ـ مدينة وحصناً للمسلمين في قبرص، ونقل إليها جماعة من بعلبك التي كان أميرها سفيان بن مجيب الأزدي. وفي ذلك قال البلاذري: «وبعث إليها ـ معاوية ـ باثني عشر ألفاً كلهم أهل ديوان فبنوا بها المساجد، ونقل إليها جماعة من بعلبك، وبنى بها مدينة، وأقاموا يُعطَّون العطايا»، وكان كل ذلك على يد عبد الله بن قيس الحارثي لأنه أمير البحر وتتبعه جزيرة قبرص والشؤون البحرية وقيادة الغزوات البحرية هو ونائبه جنادة بن أبي أمية الأزدي.

وكان النائب المقيم بجزيرة قبرص بعد فتحها هو القائد اليماني الأمير موسى بن نُصير اللخمي، قال ابن كثير: «وُلّي موسى بن نصير غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص ـ يعني مع عبد الله بن قيس ـ وبنى هنالك حصوناً كالماغوصة وحصن بانس وغير ذلك من الحصون التي بناها بقبرص، وكان نائب معاوية عليها بعد أن فتحها معاوية سنة ٢٧هـ»[2] والأصوب بعد أن فتحها عبد الله بن قيس سنة ٣٣هـ وذلك في خلافة عثمان وولاية معاوية للشام وإمرة عبد الله بن قيس للبحر والغزوات البحرية هو ونائبه جنادة حيث كان جنادة (قائداً على غزو الروم في البحر لمعاوية من زمن عثمان إلى أيام يزيد، إلا ما كان من زمن الفتنة) كما قال القرطبي، وذلك لأن الغزوات البحرية توقفت في زمن الفتنة الكبرى التي تلت مقتل عثمان واستخلاف علي بن أبي طالب (٣٦ ـ ٤٠هـ) فلما اجتمع أمر الخلافة لمعاوية ـ عام ٤١هـ ـ تواصلت الغزوات البحرية إلى جزر سواحل البحر الأبيض المتوسط الأوروبية بقيادة عبد الله بن قيس وجنادة بن أبي أمية الأزدي، وخاصة منذ عام ٤٧ و٤٨ هجرية.

غزو وسواحل الروم وصقلية (٤٨ ـ ٥٢هـ)

ـ في عام ٤٨هـ شن المسلمون غزوات برية وبحرية واسعة ضد الروم، فبينما غزا سفيان بن عوف بلاد الروم ـ تركيا ـ براً في الصائفة «غزا عبد الله بن قيس الصائفة ـ بحراً ـ وغزا بن هبيرة السكوني البحر ـ مع عبد الله بن قيس ـ وغزا عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر البحر»، وكانت غزوة عقبة إلى جزيرة رودس، وقال الطبري أنه «في سنة ست وخمسين، وكذلك سبع وخمسين، كان مشتى

(١) عبد الله بن قيس الحارثي ـ الجامع ـ ص٣٤٢.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ـ جـ٩ ص١٧١.

عبد الله بن قيس بأرض الروم»[1] والصواب سنة ٤٦ و٤٧ هجرية لأنه مات سنة ٥٣ هجرية ـ كما سيأتي ـ وكان جنادة بن أبي أمية مع عبد الله بن قيس في غزواته البحرية الصيفية والشتائية إلى جزر وسواحل بلاد الروم عام ٤٦ و٤٧ و٤٨ هجرية.

ـ وفي عام ٤٩ ـ ٥٠هـ غزا الجيش العربي الإسلامي بقيادة سفيان بن عوف الأزدي القسطنطينية، بينما غزا عبد الله بن قيس وجنادة ويزيد بن شجرة الرهاوي وفضالة بن عبيد الأنصاري سواحل الروم بحراً، وغزا معاوية بن حديج السكوني جزيرة صقلية وكان أول من غزاها، وذلك سنة ٤٩ هجرية غالباً.

ـ وفي عام ٥١ ـ ٥٢هـ غزا عبد الله بن قيس جزيرة صقلية، وفي ذلك قال البلاذري: «غزى عبد الله بن قيس بن مخلد صقلية، فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجواهر، فبعث بها إلى معاوية، فوجه بها معاوية إلى البصرة لتُحمل إلى الهند فتُباع هناك ليُثمن بها» [ص٣٣٧ ـ فتوح البلدان].

قال الطبري: «وفي سنة ٥٢هـ كانت غزوة سفيان بن عوف الأزدي ومشتاه بأرض الروم وأنه توفي بها واستخلف عبد الله بن مسعود الفزاري»[1] وهو الذي له قال الشاعر لما توفي سفيان بن عوف ـ عام ٥٣هـ كما في الإصابة:

أَقِمْ يا ابن مسعود قناةً صليبةً كما كان سفيان بن عوف يُقيمها

استشهاد عبد الله بن قيس وتأمير جنادة (٥٣هـ/ ٦٧٣م)

لقد كان القائد اليماني عبد الله بن قيس الحارثي هو أمير البحر وقائد الغزوات البحرية منذ عام ٢٧ هجرية حيث «غزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيها أحد ولم يُنكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جُنده وأن لا يبتليه بمُصاب أحد منهم، ففعل، حتى إذا أراد الله أن يصيبه وَحْدَه، خرج في قارب طليعةً فانتهى إلى المَرْقَى من أرض الروم»[2] وكان ذلك سنة ٥٣ هجرية حيث ترك عبد الله بن قيس جنوده وسفنه في وسط البحر، وسار بنفسه في قارب ليستطلع ذلك الميناء الروماني قبل الهجوم، وأثناء استطلاعه للميناء وجد فقراء من الرومان يشحتون، وهم «سُؤال يعتّرون بذلك المكان فَتَصَدَّق عليهم، فرجعت امرأة من السؤال إلى قومها ـ الروم ـ فقالت للرجال ـ وهم جُند الروم ـ: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى. قالوا: ومن أين تعرفين

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ـ جـ٥ ص١٣١ و١٦١ و١٧٢.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ تاريخ الأمم والملوك للطبري ـ جـ٥ ص٥٣ ـ فتح رودس ـ جـ٦ ص١٦١.

عبد الله بن قيس؟ فوبختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله بن قيس على أحد، فثاروا إليه وهجموا عليه، فقاتلوه وقاتلهم حتى استشهد، وأفلت الملاح ـ الذي كان معه ـ حتى أتى أصحابه ـ في وسط البحر فأخبرهم ـ فجاءوا حتى أرقوا ـ أي نزلوا في المرقَى الروماني ـ والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدي ـ والأصوب سفيان بن مجيب الأزدي أمير بعلبك ـ فقاتل الروم، فضجر وجعل يشتم أصحابه، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله ما هكذا كان يقول حين يقاتل. فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمرات ثم يَنْجلينا. فترك سفيان ما كان يقول، ولزم الغمرات ثم ينجلينا. وأصيب في المسلمين يومئذ. وكان ذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الحارثي. وقيل لتلك المرأة التي استثارت الروم على عبد الله بن قيس ـ فيما بعد ـ: كيف عرفتيه؟ قالت: كان كالتاجر، فلما سألتُه أعطاني كالملك فعرفتُ أنه عبد الله بن قيس، وقيل إنها قالت: عرفته بصدقته، أعطى كما يُعطى الملوك ولم يقبض قَبْضُ التُّجّار»[١].

وقد جاء في الرواية أن الذي قاد أصحاب عبد الله بن قيس في الهجوم على المرقى بعد استشهاده سفيان بن عوف الأزدي، والأصوب سفيان بن مجيب الأزدي فاتح طرابلس وأمير بعلبك، لأن سفيان بن عوف مات في غزوه البري لبلاد الروم ـ تركيا ـ كما سلف التبيين، فيكون سفيان الأزدي الذي هجم على المرقى الروماني هو سفيان بن مجيب، فلزم سفيان بن مجيب (الغمرات ثم ينجلينا) إلى أن استشهد في قتال الروم يومئذ ـ سنة ٥٣هـ ـ فتولى القيادة جنادة بن أبي أمية الأزدي فتم النصر بقيادته وعاد بالسفن إلى ساحل الشام، وقام معاوية بتوليته إمارة البحر وقيادة الأسطول البحري العربي الإسلامي.

فتح جنادة لجزيرة رودس باليونان (٥٣هـ/ ٦٧٣م)

وفي عام ٥٣ هجرية قاد أمير البحر جنادة بن أبي أمية الأزدي الأسطول البحري العربي الإسلامي من ساحل الشام إلى جزيرة رودس المشهورة باليونان، وكانت تابعة للروم، فافتتحها فتحاً مبيناً.

وفي ذلك قال الطبري: «وفي سنة ثلاث وخمسين، فُتِحت رُودُس، جزيرة في البحر، فتحها جُنادة بن أبي أمية الأزدي»[١]، وقال البلاذري: «بعث معاوية جنادة بن أبي أمية الأزدي إلى رودس ـ وجنادة أحد من رُوي عنه الحديث النبوي

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ تاريخ الأمم والملوك للطبري ـ جـ٥ ص٥٣ ـ فتح رودس ـ جـ٦ ص١٦١.

ولقي أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ـ ففتحها عنوة، وورودس من أخصب الجزائر وهي نحو ستين ميلاً فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة. وأمر معاوية جنادة فأنزلها قوماً من المسلمين» ـ أي أوطنهم جنادة بجزيرة رودس في حصن اتخذه لهم[١] ـ قال الطبري: «فتح جنادة رودس، فنزلها المسلمون، وزرعوا واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها فإذا أمسوا أدخلوها الحصن، ولهم ناطورٌ يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد، فكانوا على حذر منهم، وكانوا أشد شيء على الروم، فيعترضونهم في البحر فيقطعون سُفُنهم ـ أي سفن الروم ـ فخافهم العدو، وكان معاوية ـ الخليفة ـ يُدِرُّ لهم الأرزاق والعطايا». قال البلاذري: «وكان مجاهد بن جبر مقيماً برودس يقرأ الناس القرآن»[١] ومجاهد من علماء التابعين بالشام ومن الذين رووا أحاديثاً نبوية عن جنادة، وكان جنادة «يُعاقب بين الناس فيها» فينقل فرقة من الجيش الإسلامي من قبرص ومن سواحل الشام إلى جزيرة رودس، وينقل فرقة رودس إلى قبرص أو ساحل الشام كلما لزم ذلك، فكان جنادة هو أمير رودس وقبرص بصفته أمير البحر والأسطول البحري العربي الإسلامي.

فتح جزيرة أرواد (٥٤هـ/ ٦٧٤م)

وفي عام ٥٤هـ افتتح جنادة جزيرة أرواد بالقرب من القسطنطينية ـ استانبول عاصمة الإمبراطورية الرومانية البيزنطية ـ وفي ذلك قال البلاذري: «وفتح جنادة بن أبي أمية في سنة أربع وخمسين أرواد، وأسكنها ـ معاوية ـ المسلمين، وكان ممن فتحها مجاهد وتُبيع بن امرأة كعب الأحبار، وبها أقراء مجاهد تُبيعاً القرآن، ويقال: أنه أقرأه القرآن برودس، وأرواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية»[١]. وجاء في تاريخ الأمم والملوك أنه ـ في سنة أربع وخمسين ـ «فتح جنادة بن أبي أمية جزيرة في البحر قريبة من قسطنطينية يُقال لها أرواد. وذكر محمد بن عمر: أن المسلمين أقاموا بها دهراً ـ فيما يقال سبع سنين ـ وكان فيها مجاهد بن جبر. قال محمد بن عمر: وقال تُبيع ابن امرأة كعب: تَرَون هذه الدرجة إذا انقلعت جاءت قفلتنا. قال: فهاجت ريحٌ شديدةٌ، فقلعت الدرجة، وجاء نَعِيُّ معاوية ـ سنة ٦٠هـ ـ وكتاب يزيد بن معاوية بالقفل، فقفلنا، فلم تَعْمُر ـ أرواد بعد ذلك، وخَرِبَتْ، وأمِنَ الروم» [جـ٦ ص١٦٤].

غزو كريت وسواحل الروم (٥٦ ـ ٦٤هـ)

ودوخت السفن البحرية العربية الإسلامية بقيادة أمير البحر جنادة بن أبي أمية

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ـ فتح جزائر البحر ـ ص٢٣٧.

الأزدي جزر وسواحل البحر الأبيض المتوسط الأوروبية من سواحل قسطنطينية وتركيا ـ شرقاً ـ إلى سواحل صقلية وإيطاليا ـ غرباً ـ وهو ما تسميه الروايات بلاد الروم، وفي ذلك جاء في تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير أنه:

ـ «في سنة ٥٦هـ كان مشتى جنادة بن أبي أمية بأرض الروم، وغزا في البحر ـ معه ـ يزيد بن شجرة الرهاوي المذحجي».

ـ «وفي سنة ٥٧هـ شتى ـ أي غزا في الشتاء ـ أرض الروم».

ـ «وفي سنة ٥٨هـ غزا مالك بن عبد الله الخثعمي أرض الروم ـ براً في الصائفة ـ وغزا البحر جنادة بن أبي أمية، وفيها استشهد يزيد بن شجرة الرهاوي في غزو البحر بالسفن».

ـ «وفي سنة ٥٩هـ غزا في البحر جنادة بن أبي أمية». وكذلك جاء في الاستيعاب للقرطبي «أن جنادة شتى في البحر سنة تسع وخمسين».

ـ قال البلاذري: «وغزا جنادة جزيرة اقريطش» وهي جزيرة كريت، وكان جنادة أول من غزاها، قال البلاذري: «ثم غزا اقريطش حميد بن معيوق الهمداني ففتح بعضها في خلافة الرشيد، ثم غزاها وأكمل فتحها أبو حفص عمر بن عيسى في خلافة المأمون فلم يبق فيها من الروم أحد».

ـ وقد تواصلت غزوات جنادة البحرية لسواحل الروم وإمارته للبحر، إلى سنة ٦٤ هجرية.

وفاة جنادة رضي الله عنه

وقد توفي جنادة بن أبي أمية الأزدي بالشام بعد عمر حافل بالجهاد في سبيل الله، قال القرطبي والبلاذري: (توفي جنادة سنة ٨٠ هجرية)، ونقل بامطرف في كتاب الجامع أنه «توفي جنادة بالشام سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م، وقيل أنه توفي سنة ٧٨هـ» وجاء في الإصابة «أن جنادة بن كبير سكن الشام وتوفي سنة ٦٧هجرية»، وبما أن البخاري وغيره من العلماء قرروا أن جنادة بن أبي أمية هو ابن كبير، نميل إلى أنه توفي سنة ٦٧هـ (٦٨٩م) رضوان الله عليه.

٣٢

جرير بن عبد الله البجلي . . خَيْرُ ذي يَمَنْ

ـ فاتح أغلب العراق وأمير إقليم هَمَذَانْ ـ

كان رسول الله ﷺ يخطب في جَمْع من الصحابة بالمدينة المنورة، فصمت برهة يسيرة ثم قال: «**يطلعُ عليكم من هذا الفج خيرُ ذي يَمَنْ، على وجهه مَسْحَة مَلَكْ**».

فأشرأبت الأعناق إلى من سيطلع، قال أحد الصحابة: «**فإذا بجرير قد طَلَع من الثنيه**».

وقال القرطبي في ترجمة جرير بن عبد الله البجلي: «**قال فيه رسول الله ﷺ حين أقبل وافداً عليه: يطلع عليكم خير ذي يَمَنْ، على وجهه مَسْحَة مَلَكْ. فطلع جرير**»[1].

* * *

جرير وبَجيلة . . قبل الإسلام

قال القرطبي: (قال ابن إسحاق: جرير بن عبد الله البجلي سيد قبيلته، يعني بَجِيلَةْ)[1].

وبَجِيلة قبيلة يمانية عريقة هي وقبيلة خثعم ابني أنمار بن إراش. قال ابن خلدون: خَثْعم وبَجِيلة ابنا أنمار بن إراش بن الغوث بن نَبْتُ بن زيد بن كهلان بن سباء[2]. وفي هذا النسب اختصار. قال ابن هشام: «**أنمار أبو بَجِيلة وخثعم. .**» قالت اليمن: وبَجِيلة: بنو أنمار بن إراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سباء. ويقال: إراش بن عمرو بن لحيان بن الغوث. . ودار بَجِيلة وخثعم يمانية[3].

وتميز بنو بَجِيلة ـ بهذا الاسم ـ عن خثعم، نسبة إلى أمهم المذحجية وهي (بَجِيلة بنت صعب بن علي بن سعد العشيرة بن مذحج، فنسبوا إليها)[1].

قال ابن خلدون: (فمن بطون بَجِيلة: قسر، وهو مالك بن عبقر بن أنمار.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ جـ١ ص٢٣٣.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد حسين الفرج ـ ص١٢٨.

(٣) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ١ ص١٢.

وأحمس بن الغوث بن أنمار)[1] وكانت رئاسة بَجِيلة في قسر، واشتهر منهم:

الكاهن المشهور يشقّ بن صعب بن يشكر بن رُهمْ بن أفْرَك وهو سعد الصبح بن زيد بن قسر البجلي، وكان شق بن صعب من أشهر العلماء الكهنة، وهو الذي أخبر الملك ربيعة بن نصر الحميري بأنه «سيجيء رسولُ مُرسَلْ، يأتي بالحق والعدل، يكون دينه إلى يوم الفصل. فقاتل الملك: وما يوم الفصل؟ قال: يوم تُجزى فيه الوُلَاة، ويُدعى فيه من السماء بَدَعَوَات يسمع منها الأحياء والأموات، ويُجمع فيه بين الناس لميقات يكون فيه لِمَنْ اتقى الفوز والخيرات. فقال الملك ربيعة: أحقّ ما تقول؟ قال شِق: إي وَرَبِّ السماء والأرضْ، وما بينهما من رَفْع وخَفْض، إنّ ما أنبأتك به لحقُ، ما فيه أمْضْ»[2]. وكان زمن شق بن صعب قَبل الإسلام بسبعة أجيال.

كُرزْ بن عامر بن عبد اللَّه بن عبد شمس بن عقبة بن جرير بن الكاهن شق بن صعب البجلي، كان له سؤددُ وشرفُ في الجاهلية، وكان يُقال له: كرز الأعنّة. وفيه قال قيس بن الخطيم الجاهلي:

فإن تنزل بذي النجداتِ كُرْزٍ ... تلاق لديه شَرْباً غير نـزرِ
ويمنعُ من أراد ولا يعايا ... مقاماً في المحلة وسط قَسْرِ[3]

ومات كرز بن عامر في الجاهلية، وانتقلت مرتبته من الزعامة إلى ابنه أسد بن كرز بن عامر الذي أدرك الإسلام.

عبد اللَّه بن جابر الشليل بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم بن عويف بن خزيمة بن حرب بن عليّ بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر البجلي.

وذكر الهمداني في الإكليل حرباً في الجاهلية قَتَلَ فيها عبد اللَّه بن جابر البجلي القيل خُمير بن مالك بن الصباح الحميري، وذلك في (يوم ذي الخَلَصَة من تَبَالة، وكان عبد اللَّه بن جابر رئيس جمعة)[4] أي رئيس بجيلة في يوم ذي الخلصة، ومات عبد اللَّه بن جابر في الجاهلية، فانتقلت مرتبته من الزعامة إلى ابنه جرير بن عبد اللَّه البجلي[5].

* * *

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد حسين الفرج ـ ص١٢٨.

(٢) امضْ: قال ابن هشام: امضْ يعني شك. وهذا بلهجة حمير. وقال أبو عمرو: امض: باطل.

(٣) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصبهاني ـ جـ١٩ ص٥٣.

(٤) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ٢ ص١٥٥.

(٥) جاء نسب جرير في الإكليل بأنه (جرير بن عبد الله بن جابر بن جاهل بن نصر بن =

ومنطقة بجيلة وخثعم في سَرَاة أعالي اليمن، قال ابن هشام: «ودار بَجِيلة وخثعم يمانية» أي في اليمن، وقد ذكرها ابن خلدون في (الخبر عن بلاد اليمن) قائلاً: «**وبلد بني نَهدْ من قضاعة في أجواب السروات وتَبَالة، جوار خثعم. والعامة تسميهم السّرْو، وأكثرهم أخلاط من بجيلة وخثعم. ومن بلادهم تَبَالة**»[١].

والسروات، والسّرو، والسَرَاة، المناطق المرتفعة في ما يلي تهامة من جبال عسير وبيشه ونجران، والسرو: (ما ارتفع من الوادي وانحدر عن غلظ الجبل) قال ابن المجاور الدمشقي «.. **بَجِيلة: هُمْ الذين يُسمون السرو**»[٢] وقد ذكر الهمداني أرض سراة أعالي اليمن وقبائلها قائلاً: «**أرض السراة: ... سراة بني علي وفهم. ثم سراة بَجِيلة، والأزد بن سلامان بن مفرج، وألمع، وبارق، ودوس، وغامد والحُجر إلى جُرش.. ومدينة السراة اسمها الجهوة وهي أكبر من جُرش.. وبلد خثعم: أعراض بيشه، وترج وتَبَالة، والمراغة**»[٣]. وبذلك تتبين منطقة بجيلة وخثعم في سَرَاة أعالي اليمن.

* * *

وكان جرير بن عبد الله البجلي يتزعم عدة عشائرٍ وبطونٍ من بَجِيلة كلها، فلم يكن لقبيلة بجيلة زعيم قَبَلي واحد في الجاهلية، وإنما كان جرير بن عبد الله وأسد بن كرز بن عامر يتزعم كل منهما عدة عشائر وبطون من بجيلة، وكان بين جرير وأسد بن كرز بعض التباعد والتخاصم في الجاهلية، فوقع نزاعُ قَبَلي بين جرير وبين قبيلة قضاعة الذين بمنطقة السراة، فحشدت قضاعة لقتال جرير، وحشد جرير الذين معه من بجيلة لقتال قضاعة، فبلغ ذلك أسد بن كرز فسار في أصحابه من بَجِيلة لمناصرة ومعاونة جرير، فلما أقبل أسد وأصحابه، رآهم جرير في السلاح، فارتاع وظن أنهم جاؤوا لمحاربته من الخلف بينما هو يواجه قضاعة، فوصل طلائع أسد وقالوا له: هذا أسد جاءك مناصراً لك. فاستقبله جرير مسروراً،

= ثعلبة بن جُشم بن عويف بن خزيمة بن حرب بن عليّ بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر بن عبقر بن أنمار) [جـ٢ ص١٥٥ ـ الإكليل].
وجاء في الاستيعاب للقرطبي (جرير بن عبد الله بن جابر وهو الشليل بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم بن عريف بن جذيمة بن عدي بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر وهو مالك بن عبقر بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث البجلي) [ص٢٣١] وجاء في الإصابة للعسقلاني (جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نضرة بن ثعلبة بن جُشم بن عوف بن خزيمة بن علي البجلي. الصحابي الشهير) ـ جـ١ ص٢٣٢ ـ الإصابة في تمييز الصحابة.

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٦٦٢.
(٢) المستبصر في صفة بلاد اليمن والحجاز ـ لابن المجاور الدمشقي ـ ص٧٦.
(٣) صفة جزيرة العرب ـ الهمداني ـ ص٢٥٨ و٢٦٠ ـ ٢٦١.

فلما رأت قضاعة ذلك تراجعوا عن محاربة جرير واختاروا الصلح والاتفاق. فقال جعدة بن عبد الله الخزاعي يذكر ذلك من فعل أسد بن كرز بن عامر أبياتاً منها:

تَدَارك فعل المرء من آل عامرٍ ... جريراً وقد رانت عليه حلائبُه
فَنَفَسَ واسترخى به العقد بعدما ... تغشاهُ يومٌ لا تَوارَى كواكبُه
وَقاكَ ابن كُرز ذو الفعال بنفسهِ ... وما كُنْتَ وصالاً له لو تُحاربه

أما جرير فقال: ليت لي بكل بلد ابن عم مثل أسد[1].

* * *

وكانت بجيلة وخثعم تَعْبُدُ وتُقَدِسُ في الجاهلية صنماً يقال له (ذو الخلصة)، وكان لذي الخلصة بيت عبادة مشهور في تَبَاله في أعلى وادي بيشة بديار خثعم في أعالي اليمن، قال ابن كثير: «**وكان يقال لبيت ذي الخلصة الكعبة اليمانية يضاهون به الكعبة التي بمكة، فيقال للتي بمكة الكعبة الشامية ولبيتهم الكعبة اليمانية.. وقال البخاري: كان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخثعم وبَجيلة فيه نصبُ يُعبد، يقال له الكعبة اليمانية**»[2].

وكان جرير بن عبد الله وأسد بن كرز من شخصيات بجيله واليمن المعروفين على نطاق واسع، قال الأصفهاني (وكان أسد بن كرز ممن حرم الخمر في الجاهلية تنزهاً عنها)[1]. وكان جرير معروفاً بالخير والعمل الصالح ومكارم الأخلاق، وجاء في البداية والنهاية إنه (قال عمر بن الخطاب لجرير: نِعْمَ السيد كنت في الجاهلية، ونِعْمَ السيد أنت في الإسلام)[2].

* * *

إسلام وهجرة جرير بن عبد الله

قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة جرير إنه «**أُختُلِفَ في وقت إسلامه. ففي الطبراني من طريق حصين بن عمر الأحمسي عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير قال: لما بُعث النبي ﷺ أتيته، فقال: ما جاء بك؟ قلت: جئت لأُسلم، فألقى إليّ كساة، وقال: إذا أتاكم كريم قوم فاكرموه**»[3]. ومؤدي ذلك إنه أسلم لما بُعث النبي ﷺ بمكة، وقد استبعد العسقلاني ذلك وقال أن حصين بن عمر ضعيف، ثم استدرك فقال: (ولو صح يحمل على المجاز.. أو على الحذف..) ونبدأ بالمجاز حيث قال العسقلاني: (ولو صح يحمل على المجاز أي لما بلغنا

(١) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج١٩ ص٥٣.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٤ ص٣٧٥ ـ ٨/ وص٥٦.
(٣) الإصابة ـ جـ١ ص٢٣٢.

خبر بعث النبي ﷺ). ونرى صواب الحمل على المجاز. ومؤدي ذلك إنه أسلم بعد البعثة النبوية بمكة بعدة سنوات وقدم على النبي ﷺ بمكة لأن منطقة السراة بلغها خبر بعث النبي ﷺ وبدأت فيها الدعوة إلى الإسلام والنبي ﷺ بمكة على يد الطفيل بن عمرو الدوسي وضماد بن ثعلبة وغيرهما. فيكون جرير أتى النبي ﷺ وهو بمكة، فقال له: ما جاء بك؟ قال: جئت لأسلم. وفي رواية متكاملة «**قال النبي ﷺ لأي شيء جئت؟ فقال جرير: جئتُ أسلم على يديك وأبايعك. قال النبي ﷺ: تُبايعُ على أن تَعْبُد الله وحده لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتنصح لكل مسلم. فقال: نعم يا رسول الله، وبايعه على ذلك**». وبالتالي يكون جرير عاد إلى اليمن، فأقام بمنطقته إلى أن وفد وهاجر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة.

أما قول العسقلاني: «**أو يحمل على الحذف**» فقد أوضحه قائلاً: «**لما بُعث النبي ﷺ ثم دعا إلى الله ثم قدم المدينة ثم حارب قريشاً ثم فتح مكة ثم وفدت عليه الوفود**»[١] وهذا الحمل على الحذف يتصل بزمن وفادة جرير إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وقد استخدمت الروايات ذات الصلة بذلك كلمة (أسلم) بمعنى (وفد)، قال العسقلاني: (وقد جزم ابن عبد البر بأنه أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بأربعين يوماً، وهو غلط، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال له: استنصت الناس في حجة الوداع. وأخرج الطبراني عن جرير قال: قال لنا رسول الله ﷺ: أن أخاكم النجاشي مات. الحديث. فهذا يدل على أن إسلام جرير كان قبل سنة عشر لأن النجاشي مات قبل ذلك)[١] وجاء في صحيح البخاري: أن النبي ﷺ بعث جريراً إلى ذي الخلصة بعد فتح مكة[٢]. فذلك يدل على إنه وفد إلى النبي ﷺ قبل فتح مكة، ويعود الاختلاف في زمن وفادته إلى إنه وفد إلى النبي ﷺ عدة مرات، كان أولها ـ سنة ٧هـ ـ قبل فتح مكة، وكان أخرها قبل وفاة النبي ﷺ بأربعين يوماً، وسوف نستوفي فيما يلي تبيين وقائع ومعالم تلك المرحلة.

* * *

لقد وفد جرير من اليمن مهاجراً إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة ـ سنة ٧هـ ـ قبل فتح مكة بنحو سنة، حيث قال رسول الله ﷺ: «**يطلع عليكم من هذا الفج خير ذي يمن على وجهه مسحة مَلَكْ. فإذا بجرير بن عبد الله قد طلع من الثنيه**». وقال ابن كثير: «**كان قدومه ورسول الله ﷺ يخطب، وكان قد قال في خطبته: يقدم عليكم من هذا الفج خير ذي يمن، وإنّ على وجهه مسحة ملك**» فلما دخل نظر الناس

---

(١) الإصابة ـ جـ١ ص٢٣٢.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٤ ص٣٧٥ ـ وجـ٨ ص٥٦.

إليه فكان كما وصف رسول الله ﷺ، وأخبروه بذلك فحمد الله تعالى[١].

وقد وصف جرير وقت قدومه فقال: «**لما دنوتُ من المدينة أنَخْتُ راحلتي، ثم حَلَلْتُ عيبتي، ثم لبَسْتُ حلّتي، ثم دخلت. فرماني الناس بالحدق، فقلت لجليسي: يا عبد الله ما الأمر؟ فقال: ذكرك رسول الله بأحسن الذكر، بينما هو يخطب، إذْ عرض له في خطبته، وقال: يدخل عليكم من هذا الباب أو هذا الفج خيرُ ذي يَمَنْ على وجهه مسحة مَلَكْ. ــ قال جرير ــ فحمدتُ الله عزّ وجلّ على ما أولاني**».

وذكر أبو العباس بن المبرد أن علي بن أبي طالب قال لجرير بن عبد الله البَجَليّ «. . **اخْتَرْتكَ لقول رسول الله ﷺ فيكَ: خيرُ ذي يَمَنْ**»[٢].

وقد تقدم قول القرطبي في ترجمة جرير أنه: «**قال فيه رسول الله ﷺ حين أقبل وافداً عليه: يطلع عليكم خير ذي يمن على وجهه مسحة مَلَكْ، فطلع جرير**».

* * *

وكان جرير كما وصفه رسول الله ﷺ: «**على وجهه مَسْحةُ مَلَكْ**» قال القرطبي: «**وكان عمر بن الخطاب يقول: جرير بن عبد الله يوسف هذه الأمة. يعني في حسنه**». وقال العسقلاني: «**كان جرير جميلاً. قال عمر: هو يوسف هذه الأمة. وقال عمر: ما أرى أحداً صُور صورة هذا ــ يعني جرير ــ إلا ما ذُكر من يوسف**» وجاء في هامش الإكليل: (كان جرير أحد الخطاطين الذين فرعوا الناس طولاً. . ويقال لجرير: يوسف هذه الأمة لجماله ووضأة وجهه). وقال ابن كثير: (كان عمر بن الخطاب يقول: جرير يوسف هذه الأمة. وقال عبد الملك بن عمير: رأيتُ جريراً كأنَّ وجهه شقة قمر). وجاء في التراجم إنه (كان جرير بديع الجمال مفرطاً في الطول). وذكره أبو العباس المبرد في باب «تسمية من كان بينه وبين الملائكة سبب من اليمانية» فقال: «**ومنهم جرير بن عبد الله البجلي، قال رسول الله ﷺ: يَطْلُع عليكم من هذا الفَجّ خَيْرُ ذي يَمَن، عليه مَسْحةُ ملك**»[٢].

* * *

وكان جرير لما دخل المسجد النبوي قد جلس على الأرض كغيره من الصحابة ينصت مثلهم إلى رسول الله ﷺ فألْقَى إليه رسول الله ﷺ رداءه ليلجس عليه وقال له: (على هذا فاقعد)، وأخرج الطبراني من طريق قيس بن أبي حازم عن جرير اقل: «**ألْقى إليّ النبي ﷺ كساءه. وقال: إذا أتاكم كريم قوم فاكرموه**» وقال

---

(١) البداية والنهاية ــ ابن كثير ــ جـ٤ ص٣٧٥ ــ وجـ٨ ص٥٦.

(٢) الكامل في اللغة والأدب ــ ابن المبرد ــ جـ١ ص١٩٠ وجـ٢ ص٣٧٤.

ابن كثير: «ويروى أن رسول الله ﷺ لما جالسه بسط له رداءه. وقال: إذا جاءكم كريم قوم فاكرموه».

وكانت جرير سادس ستة بسط لهم النبي ﷺ رداءه ليجلسوا عليه تشريفاً لهم، وهُمْ جرير، ووائل بن حجر الحضرمي، والحارث بن عبد كلال، وأبرهة بن الصباح، والجَد بن ربيعة الحكمي، وابيض بن حَمّال المأربي ولأحفاده قال الهمداني:

أنّ النبيّ محمداً خير الورى بَسَط الرداء لجدكم في المسجد
.. ما نالها إلا جريرُ بَجيلة بعد ابن حَمّال الرئيس السيد

ثم ذكر بقية الستة وقال: (وإذا يُطافُ لسابع لم يُوجد).

وتذكر الروايات في سياق نبأ قدوم جرير إلى رسول الله ﷺ بالمدينة ـ أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ قال له: لأي شيءٍ جئت يا جرير؟ فقال: جئتُ أسلم على يديك وأبايعك. قال: تُبايعُ على أن تعبد الله وحده لا تشرك به شيئاً وتقيم اصلاة وتؤتي الزكاة وتنصح لكل مسلم؟ فقال: نعم يا رسول الله، وبايعه على ذلك.

* * *

ولم تكن وفادة جرير تلك إلى الرسول ﷺ بالمدينة المنورة لأجل أن يُسلم أو يبايع رسول الله ﷺ ويعود، وإنما كانت وفادته هجرة إلى رسول الله ﷺ والمدينة المنورة، فهو من الصحابة المهاجرين. وقد كتب علي بن أبي طالب إلى معاوية وأهل الشام سنة ٣٧هـ قائلاً: «**وقد بعثتُ إليكم جرير بن عبد الله وهو مِنْ أهل الإيمان والهجرة**»[١] ويدل ذلك على أمرين: أحدهما: أن قدوم جرير إلى النبي ﷺ بالمدينة كان سنة ٧ هجرية ـ قبل فتح مكة ـ لأن النبي ﷺ قال: «**لا هجرة بعد الفتح**» وقد ذكر علي بن أبي طالب بأن جرير من أهل الهجرة لأنه وفد مهاجراً قبل فتح مكة. **والأمر الثاني**: أن جرير بن عبد الله من الصحابة المهاجرين، ومنذ يوم قدومه وهجرته إلى النبي ﷺ بالمدينة المنورة أخذ جرير مكانه في الصفوف الطاهرة خلف الرسول الأمين، ومكث بالمدينة زهاء سنة حتى فتح مكة، ثم بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، ثم عاد إلى المدينة، وكان من أنباء ومعالم تلك الفترة:

ـ أن جرير بن عبد الله تَفَقه في تعاليم الإسلام وسمع وحفظ أحاديثاً من النبي ﷺ وحفظ ما حفظ من القرآن الكريم، وقد روى جرير العديد من الأحاديث التي سمعها من النبي ﷺ قال القرطبي: «**وروى عن جرير أنَسُ بن مالك، وقيس بن أبي**

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب ـ محمد رضا ـ ص١٥١.

حازم، وهمام بن الحرث، والشعبي، وبنوه عبيد الله والمنذر وإبراهيم» وقد وصف العسقلاني جريراً بأنه (الصحابي الشهير) وجاء في هامش الإكليل: «جرير: صحابي جليل مشهور، وهو صاحب حديث المسح على الكفين».

ـ قال ابن كثير: «**وكان جرير ذا شكل عظيم، وكان من أحسن الناس وجهاً، وكان مع هذا مِنْ أَغَضّ الناس طرفاً، ولهذا رُويّ في الحديث الصحيح عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، فقال: أطْرِق بصرك**».

ـ وكان رسول الله ﷺ يُميزُ ويُقَدِّرُ جريراً. قال ابن سمرة: «**قال البخاري: قال جرير: ما حَجَبَني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ضحك**»[1] قال ابن كثير: «**وفي الصحيحين إنه قال: ما حجبني رسول الله منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم**». وكذلك ذكر العسقلاني عن صحيح البخاري.

ـ وفي شهر رمضان سنة ٨هـ انطلق جيش رسول الله ﷺ لفتح مكة، وكان في الجيش الطُفيل بن عمرو وفرسان دوس الذين هاجروا من اليمن وأبو عامر الأشعري وأبو موسى الأشعري وفرسان الأشاعر الذين هاجروا من اليمن ـ سنة ٧هـ ـ وكذلك دحيه بن خليفة الكلبي ومن معه من الكلبيين وشرحبيل بن حسنة الكندي وغيرهم من الصحابة اليمانيين المهاجرين وعشائرهم، وربما كان مع جرير العشرات من فرسان قبيلة بجيلة من بني أحمس، وقد تم فتح مكة في رمضان ٨هـ وقام النبي ﷺ بهدم الأصنام التي بالكعبة.

بعث جرير لهدم ذي الخَلَصَة (الكعبة اليمانية)

قال ابن كثير: «**وقد ذكر البخاري بعد فتح مكة، نبأ تخريب بيت الصنم الذي كانت تعبده خثعمُ وبجيلة، ويسمونه الكعبة اليمانية مضاهاة للكعبة التي بمكة.. قال البخاري: وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب يُعبد، يُقال له الكعبة اليمانية. فقال البخاري: حدّثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو أسامة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير قال: قال لي رسول الله ﷺ: ألا تُريحني من ذي الخلصة؟ فقلت: بَلَى يا رسول الله. فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أَحْمَسْ، وكانوا أصحاب خيل ـ وكنتُ لا أثبتُ على الخيل ـ فضرب رسول الله ﷺ يده في صدري وقال: اللّهم ثَبّتْهُ واجعله هادياً مهدياً**». قال ابن كثير: «**ورواه مسلم مِنْ طرق مُتعددة.. بنحوه**»[2].

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة الجعدي ـ ص١٩.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٤ ص٣٧٥ ـ عن صحيح البخاري وصحيح مسلم.

ويبدو أن ذلك قد تزامن مع بعث الطفيل بن عمرو الدوسي لهدم الصنم (ذي الكَفَّيْن) الذي كانت تعبده دوس في نفس منطقة السراة بأعالي اليمن، حيث كان (ذو الكفين) معبود دوس وأزد السراة، وكان (ذو الخلصة) معبود خثعم وبجيلة، قال ابن سيد الناس في عيون الأثر: «**سَرِيّة الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين في شوال سنة ٨ هجرية. قال ابن سعد: لما أراد رسول الله ﷺ المسير من مكة إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين صنم دوس ليهدمه، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف. فخرج سريعاً إلى قومه، فهدم ذا الكفين. ثم انحدر معه من قومه أربعمائة سراعاً، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمة بأربعة أيام**»(١).

أما جرير بن عبد الله البجلي فسار في مائة وخمسين فارس من بني أحمس البجليين إلى بيت الصنم ذي الخلصة في تَبَالة ـ وتَبَالة قرية وواد في أعلى بيشة بَسَراة أعالي اليمن. «**قال البخاري: ولما قَدْم جرير اليمن كان ببيت ذي الخلصة رجل يستقسم بالأزلام، فقيل له: إنّ رسولَ رسول الله هاهنا، فإن قدر عليك ضرب عنقك. فبينما هو يضرب بالأزلام إذْ وَقَفَ عليه جرير فقال: لتكسِرنّها وتشهد أن لا إله إلا الله أو لأضربنّ عنقك؟ فكسرها وشهد. ثم بعث جرير رجلاً من أحمس يكنى أبا أرطأة إلى النبي ﷺ يبشره بذلك ـ أي بهدم ذي الخلصة ـ فلما أتى جرير رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركته كأنه جملٌ أجرب. فبارك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات**»(٢) وجاء في هامش الإكليل: «**ذو الخلصة: صَنَمٌ كان لخثعم.. فبعث رسول الله ﷺ جريراً لهدمه، ولم تطل غيبته حتى رجع إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: هدمته؟ قال: نعم والذي بعثك بالحق وأحرقته بالنار فتركته يسوء أهله. فدعا لبجيلة**»(٣) وجاء في طبقات ابن سمرة: (كان في الجاهلية بيت يقال له ذو الخَلَصَة، وكان يقال له الكعبة اليمانية.. قال جرير: فقال لي رسول الله ﷺ: هل أنت مريحي من ذي الخلصة؟ قال: فنفرتُ إليه في خمسين ومائة فارس مِنْ أحمس، فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده. فأتيناه وأخبرناه، فدعا لنا ولأحمس)(٤) وقد تحول مكان بيت ذي الخلصة فيما بعد إلى مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم بوادي تَبَالة.

---

(١) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس ـ جـ٢ ص٢٥٨ ـ وحاصر النبي ﷺ الطائف ثمانية عشر يوماً. ويقال: بضعاً وعشرين ليلة.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٤ ص٣٧٥ ـ عن صحيح البخاري وصحيح مسلم.

(٣) الإكليل للهمداني ـ تحقيق الأكوع ـ جـ٢ ص١٥٦ ـ وقال الأكوع في الهامش: ولا يزال وادي تبالة لخثعم إلى اليوم.

(٤) طبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة الجعدي ـ ص١٩.

ويمكن القول أن عودة جرير من هدم ذي الخَلَصَة إلى رسول الله ﷺ كانت بعد عودة الطفيل بن عمرو من هدم ذي الكفين إلى رسول الله ﷺ أثناء حصار الطائف وكان معسكر رسول الله ﷺ في الجعرانة، فتم فتح الطائف، وانصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة إلى مكة، وادي عمرة الجعرانة ـ في مطلع ذي القعدة ٨هـ ـ، فبعث رسول الله ﷺ منصرفه من الجعرانة الكتب والرُسل إلى المنذر بن ساوي الملك في البحرين وإلى جيفر وعبيد ابنيّ الجُلَنْدَي الأزدي ملكي عُمان وإلى الحارث بن عبد كلال ذي رُعين مِلك حِمْيَر باليمن وأذواء حمير، وكان المبعوث إلى المنذر بن ساوي وأهل البحرين العلاء بن الحضرمي، والمبعوث إلى الحارث بن عبد كلال ملك حِمْيَر وإلى أذواء حمير باليمن جرير بن عبد الله البجلي.

* * *

إسلام ملوك وأذواء حِمْيَر على يد جرير

كان رسول الله ﷺ قد بعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال ذي رُعين ملك حِمْيَر ـ سنة ٧هـ ـ حيث جاء في السيرة النبوية لابن هشام وعيون الأثر لابن سيد الناس أن النبي ﷺ: «**بعث المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث بن عبد كلال ملك اليمن**» وإن ذلك كان في أوائل سنة ٧ هجرية[١] بينما جاء في الاستيعاب للقرطبي أن النبي ﷺ: «**بعث جرير بن عبد الله إلى ذي رعين وذي الكلاع**». وذو رعين هو الحارث بن عبد كلال. وقال الأكوع في هامش الإكليل أن رسول النبي ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال مُختلف فيه، قيل: جرير بن عبد الله البجلي، وقيل: المهاجر بن أبي أمية المخزومي[٢]. والواقع أن الاختلاف والتعارض يزول بإدراك أن بَعْثَ المهاجر بن أبي أمية كان سنة ٧هـ ولم يُسلم الحارث آنذاك، بينما بَعْثَ جرير كان مُنصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة في ذي القعدة سنة ٨هـ.

وقد كان من مزايا وصفات جرير إنه كان خطيباً بليغاً فصيحاً، وفي ذلك قال ابن كثير: (كان جرير خطيباً). وقال القرطبي: (وجرير هو القائل: الخرس خير من الخلابه، وإلبكم خير من البداء). وفيه قال ابن الأزور القسري:

لعَمْرَ أبيك، والأنباءُ تَنْمَى ... لقد جَلَّى بخطبته جريرُ

وكانت شخصية جرير شخصية جذابة ذات مهابة وبهاء، إذْ إنه: كان ذا شكل

(١) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس ـ جـ٢ ص٣٣٠.
(٢) الإكليل ـ جـ٢ ص٣٦٤.

عظيم، وكان من أحسن الناس وجهاً، مفرطاً في الطول، بديع الجمال، على وجهه مَسْحَة مَلَكْ، وكان كما وصفه عمر بن الخطاب: (يوسف هذه الأمة)، كما إنه كان من أقيال اليمن الرؤساء ومن أهل الإيمان والهجرة، ولذلك كله إختاره وبعثه النبي ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال ذي رُعين ملك حمير وإلى سميفع ذي الكلاع وحوشب ذي ظليم، وغيرهما من أذواء وأقيال حمير يدعوهم إلى الإسلام، فانطلق جرير مصحوباً بدعوة وقول رسول الله ﷺ داعياً له:

«اللّهم ثبّتْهُ واجعله هادياً مهديا»(١)

* * *

لقد انطلق جرير من عند رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة ٨هـ فسار في كوكبة من فرسان بني أحمس البجليين عبر منطقة تهامة إلى المعافر ـ وهي مقر القيل فهد بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال ـ ثم مضى إلى مخلاف رعين ـ بلواء إب ـ حيث كان قصر الحارث بن عبد كلال ذي رُعين مَلِكُ حمير، فأبلغه رسالة النبي ﷺ وقرأ عليه (سورة لم يكن)(٢) وأوضح له ما يلزم عن دين الإسلام، وكان الحارث بن عبد كلال يدين بالنصراينة، فأسلم وآمن بدين الحق على يد جرير، وقد جاء في كتاب الأنباء أن (الحارث بن عبد كلال أسلم سنة ٨هـ)، فيكون ذلك في حوالي شهر ذي الحجة ٨هـ لأن مسير جرير من عند النبي ﷺ كان في ذي القعدة ٨هـ، وقد كان مقر الحارث بن عبد كلال في حصن حبّ بجبل بعدان ـ الذي يطلُّ حالياً على مدينة إب ـ وكان مقر أخوه عَرِيب بن عبد كلال في بعض مناطق ذي رعين بمخلاف ذي رعين ـ الذي مِنه النادرة والشِعر والرضمة حالياً ـ وأسلم عَرِيب أيضاً على يد جرير، وقد كتب الحارث بن عبد كلال إلى النبي ﷺ بإسلامه، وقال في كتابه:

ودينك دين الحق فيه طهارة وأنت بما فيه مِن الحق آمِرُ(٣)

* * *

ومضى جرير إلى السُمَيّفع ذي الكلاع الحميري ـ الذي كان قيلاً ملكاً لمخلاف الكلاع وقائداً حربياً لقبائل ومناطق حمير ـ وكان مقر ذي الكلاع في قصره الشامخ بالقرب من قلعة وحاظه ـ بمنطقة حُبيش في لواء إب حالياً ـ فأبلغه

(١) دعاء رسول الله ﷺ لجرير ذكره البخاري ومسلم في الصحيحين عندما بعثه النبي ﷺ إلى ذي الخلصة. والعبرة بعموم اللفظ.

(٢) الإكليل ـ جـ٢ ص٣٦٤.

(٣) انظر المبحث الخاص بالحارث بن عبد كلال ذي رعين ملك حمير.

جرير رسالة النبي ﷺ وأخبره عن دين الإسلام، وأوضح له ما قد يستلزم التوضيح، فأيقن ذو الكلاع بأنه دين الحق وأسلم على يد جرير، ثم قال له ذو الكلاع: **«أدخل إلى أم شرحبيل، فوالله ما دخل عليها بعد أبي شرحبيل أحد قبلك»** ـ وهي الأميرة كريبة بنت أبرهة بن الصباح الحميري زوجة ذي الكلاع ـ «فدخل إليها جرير ودعاها إلى الإسلام فأسلمت» وأشرق نور الإسلام في قصر ذي الكلاع، وإبتهاجاً بذلك أعتق ذو الكلاع أربعة آلاف من عبيدة. قال العسقلاني: **«بعث النبي ﷺ جريراً إلى ذي الكلاع، فأسلم، واعتق لذلك أربعة آلاف»**.

وكان ذلك في حوالي شهر محرم ٩هـ، ولا بدّ أن جرير بن عبد الله كان يمكث في كل منطقة أسبوعاً أو أسبوعين، ابتداءً بمناطق ومخاليف الكلاع ـ [وتمتد من حُبيش إلى ذي سُفال ووصاب وغيرها] ـ وهي التي أعتق فيها ذو الكلاع أربعة آلاف عبد يوم إسلامه على يد جرير.

* * *

ومضى جرير إلى حوشب ذي ظُليم، إذْ إنه ـ كما جاء في كتاب الإصابة ـ «بعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله إلى ذي الكلاع وحوشب ذي ظليم»[(١)] وهو: «ذو ظليم حوشب بن يزيد بن التباعي بن غسان بن ذي ظليم: قَيْلٌ كبير من فرسان اليمن وقادتها»[(١)] وكان رئيساً قيلاً في مخلاف كان اسمه (ظُليم) بناحية حُبيش وما جاورها، وقد تصحف اسم (ظليم) إلى (ظلمة) وهي مركز ناحية حبيش حالياً. وكان مقر حوشب ذي ظليم قريباً من قصر ومقر ذي الكلاع في وحاظه، حيث توجد (طلعة خَدَدْ معاندةً لقلعة وحاظه بينهما ساعة من نهار)، قال الهمداني: **«وقلعة خدد هذه كان فيها قصر عظيمُ يقصر عن الوصف. والقلعة بطريقين على باب كل طريق ماؤه، فطريق القلعة من جنوبها عليه كريف منقور في الصفا الأسود، وعمقه في الأرض خمسون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً والطول خمسون ذراعاً، محجوز على جوانبه بجدار. والماء الثاني من شمال الحصن على مسيرة ساعة»**[(٢)].

فأتى جرير إلى قلعة وقصر حوشب ذي ظليم، فدعاه إلى الإسلام، فأسلم هو وقومه، ثم أرسل حوشب ذو ظليم إلى النبي ﷺ أربعين حصاناً هدية مع كتاب إلى النبي ﷺ. وقد روى ابن السكن عن حوشب ذي ظليم قال: أرسلت إلى رسول الله ﷺ أربعين فرساً مع عبد شر، فقدم عليه بكتابي، فقال له رسول الله: ما

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ جـ١ ص٣٨٢ ـ والإكليل ـ جـ٢ ص٢٠٧.
(٢) صفة جزيرة العرب ـ الهمداني ـ ص١٤٣.

اسمك؟ قال: عبد شر. فقال: بل أنت عبد خير، فبايعه على الإسلام[٢٦] وكان كتاب وهديه ذي ظليم وغيره من الأذواء إلى النبي ﷺ في شهر رجب ٩هـ، وقد سبق ذلك مسير جرير إلى بقية أذواء حمير، ومنهم ابن الصَبّاح الحميري في مدينة وقصر موكل بمخلاف صباح ـ في منطقة رداع بالبيضاء حالياً ـ وزُرعه بن سيف بن ذي يزن في قصر (يزن) بوادي عبدان في شبوة وقصر أحور في أبين. ثم أعلن أذواء وملوك مناطق حمير إسلامهم بشكل جماعي في أول جمعة من رجب ٩هـ، وكتبوا بذلك إلى رسول الله ﷺ. وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابه المتواتر إلى ملوك وأذواء حمير عند عودته من تبوك، وبَعَث معاذ بن جبل الأنصاري أميراً على مناطق حمير في رمضان ٩هـ، فشمل الإسلام مناطق حمير الشاسعة التي على يد جرير أسلم ملوكها وأذواؤها وأعلنوا شروق العصر الإسلامي في رجب ٩هـ.

* * *

عودة جرير إلى المدينة ثم إلى اليمن

وقد عاد جرير من اليمن إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة بعد إسلام ملوك وأذواء حمير في تلك السنة التاسعة للهجرة، وهنا تأتي أهمية الحديث الذي أخرجه الطبراني بسند صحيح وذكره العسقلاني قائلاً: «إن شريكاً حَدّث عن الشيباني عن الشعبي عن جرير قال: قال لنا رسول الله ﷺ إن أخاكم النجاشي قد مات. الحديث».

وجاء في عيون الأثر أنه: «توفي النجاشي سنة تسع بالحبشة، وأخبر رسول الله ﷺ بموته يومه»[١] وفي ذلك قال جرير: (قال لنا رسول الله ﷺ: إن أخاكم النجاشي قد مات. الحديث). ويدل ذلك على أن جرير أكان مع رسول الله ﷺ بالمدينة في تلك الفترة ما بين شهر رجب أو شهر رمضان وبين شهر ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ٩ هجرية.

* * *

ثم عاد جرير إلى منطقة السراة بأعالي اليمن وهي منطقة قبائل بجيلة وخثعم ونَهَد وأزد السراة وغيرهم من القبائل اليمنية التي كانت تسكن في منطقة السراة الشاسعة، وكان كثيرون ما يزالون على ديانتهم الوثنية، فمكث جرير داعياً مَنْ لم يُسلم فيها إلى الإسلام ـ زهاء تسعة أشهر ـ وكان هو مثل النبي ﷺ فأسلمت بقية

(١) عيون الأثر ـ جـ٢ ص٣٣٦ ـ وجاء في بقية الخبر «وخرج النبي ﷺ بالناس إلى المصلى، فصلى عليه، والناس خلفه صفوف، وكبر عليه أربعاً».

بجيلة وخثعم وغيرهم وتطهرت منطقة السراة من بقايا الوثنية والأصنام على يد جرير، ثم انطلق جرير عائداً إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة.

وفادة جرير إلى النبي ﷺ في رمضان ١٠هـ

قال العسقلاني: «جَزَم الواقدي بأن جرير بن عبد الله وَفَدَ على النبي ﷺ في شهر رمضان سنة عشر للهجرة». وذلك صحيح، ولكنه ليس زمن **وفادته الأولى** كما توهم البعض، وإنما هو زمن عودته بعد أن أسلمت على يده بقية قبائل منطقة السراة، ومما يتيح إدراك ذلك أنه لما وفد على النبي ﷺ في رمضان ١٠هـ. «قال له رسول الله ﷺ: ما وراءك يا جرير؟ فقال: **يا رسول الله، أظهر الله الإسلام** والأذان، وهدمت القبائل الأصنام».

وكان وصول جرير إلى رسول الله ﷺ ـ في رمضان ١٠هـ. ـ على رأس موكب من بجيلة، وفي ذلك جاء في كتاب الأنباء «وَفَد مع جرير مائة وخمسين رجلاً من بَجيلة».

ثم تتابعت المواكب، فوصل أسد بن كرز القسري في كوكبة من رجال عشيرته، ووصل قيس بن عزرة الأحمسي البجلي في مائتين وخمسين من بني أحمس من بجيلة، فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ ومكثوا فترة بالمدينة المنورة وسمعوا من رسول الله ﷺ، وكذلك قَدَمَتْ وفود من خثعم وغيرهم من قبائل السراة ثم عادوا إلى مناطقهم التي فيها ـ وعلى يد جرير (أظهر الله الإسلام والأذان، وهدمت القبائل الأصنام).

ويتبين من مجمل ما تقدم أن وفادة جرير إلى النبيّ ﷺ في رمضان سنة ١٠هـ. كانت امتداداً لوفادته وهجرته في سنة ٧هـ حين وصفه رسول الله ﷺ بأنه (خير ذي يمن) فهو من الصحابة اليمانيين المهاجرين، وبعثه رسول الله ﷺ في مهمات ثلاث، الأولى بعد فتح مكة لهدم كعبة الصنم ذي الخلصة، والمهمة الثانية إلى ملوك وأذواء مناطق حِمْير فأسلموا على يده، والمهمة الثالثة إلى منطقته في السراة حيثُ ـ على يده ـ أظهر الله الإسلام والأذان، وهدمت القبائل الأصنام، ثم عاد إلى رسول الله ﷺ الذي لم يحجبه قط ولم يكن يراه إلا تَبَسَّمْ.

وكان من معالم أنباء وسيرة جرير في الفترة التالية:

إن جريراً كان مع رسول ﷺ بالمدينة المنورة ـ منذ عودته في رمضان ١٠هـ. ـ وحتى سار معه لأداء فريضة الحج، فشهد جرير حجة الوداع وكان له فيها مكانة متميزة، قال العسقلاني: «ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال له:

استنصت الناس في حجة الوداع». وقال ابن كثير: «قال رسول الله ﷺ لجرير في حجة الوداع: استَنْصِتْ الناس. وإنما أمره بذلك لأنه كان خطيباً». فكان رسول الله ﷺ يقول في خطبة حجة الوداع كذا وكذا، فيعيد جرير كلام رسول الله ﷺ ليُنصِتَ من كان غير قريب من مكان رسول الله ﷺ وذلك لأن جريراً كان خطيباً بليغاً وكان فارع الطول، لم يكن بين الصحابة أطول منه، وكان ذا مهابة وبهاء، على وجهه مَسْحَة مَلَكْ.

وقد شهد حجة الوداع عدد كبير من الناس، وكان من وصل من اليمن وشهد حجة الوداع معاذ بن جبل الأنصاري أمير عمال اليمن مع عدد من عمال مناطق اليمن بينهم أبو موسى الأشعري، وزياد بن لبيد، وعمرو بن حزم الأنصاري، والعديد من الصحابة والزعماء والناس، وغنيٌ عن البيان أن النبي ﷺ لم يحج بالناس قبل ذلك، وإنما اعتمر بعد صلح الحديبية، واعتمر بعد فتح مكة مُنصرفه من الجعرانة ـ في مطلع ذي القعدة ٨هـ ـ وحج بالناس أبو بكر الصديق سنة ٩هـ، فلم يحج رسول الله ﷺ بالناس إلا في حجة الوداع، لذلك كان عدد الناس كبيراً، جاءوا من كل فج عميق ليشهدوا الحج مع رسول الله ﷺ فأعطى رسول الله ﷺ جريراً شَرَف أن يستنصت الناس في حجة الوداع.

وبعد أداء فريضة الحج (في ذي الحجة ١٠هـ). عاد جرير إلى منطقته باليمن لزيارة أهله وقومه ـ لأنه رئيس في قبيلة بجيلة ـ ثم عاد إلى رسول الله ﷺ بالمدينة في آخر شهر محرم ١١هـ ومما يتصل بذلك قوله: (وفدتُ قبل موت رسول الله بأربعين يوماً)، وقد وقع أحد أصحاب التراجم في خطأ وَوَهْم كبير فقال إنه: (أسلم ووفد إلى النبي ﷺ قبل وفاته بأربعين يوماً) وقد عَقَب العسقلاني على ذلك قائلاً: «وهذا غلط»، وهو بالفعل غلط وَوَهُم كبير، ولكن التعارض يزول بإدراك أنّ وفادته تلك هي وفادته الأخيرة، والمقصود أنه وَفَدَ إلى النبي ﷺ أو التقى به للمرة الأخيرة قبل موته بأربعين يوماً حيث بعثه النبي ﷺ في مهمة بالغة الأهمية إلى صنعاء وإلى أذواء وقادة حِمْير.

* * *

وتتصل تلك المهمة بما شهدته مدينة صنعاء في شهر محرم سنة ١١هـ حيث كان الأسود عبهلة بن كعب العنسي بمدينة صنعاء وكان بها قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معدي كرب وخالد بن سعيد بن العاص والمهاجر بن أبي أمية، فادعى الأسود العنسي النبوّة وأخرج المهاجر وخالد بن سعيد وعمرو بن معدي كرب من صنعاء وسيطر عليها، وسار فروة بن مسيك المرادي، عامل

مذحج إلى النبي ﷺ وأخبره بما قام به الأسود العنسي في صنعاء، وعند ذلك بعث النبي ﷺ جريراً إلى اليمن وأسند إليه دوراً هاماً في مواجهة فتنة الأسود العنسي، وقد شمل ذلك الدور ثلاثة أمور:

الأمر الأول: وقد ذكره البلاذري قائلاً: «لما ادعى الأسود العنسي النبوة، بعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي يدعوه إلى الإسلام، فأبى»(١) فلما أبى ورفض الأسود العنسي ما دعاه إليه جرير من العودة إلى الحق والإسلام غادر جرير والذين معه من الفرسان المرافقين مدينة صنعاء، وتوجه إلى مناطق حمير للقيام بالأمر الثاني، بينما في ذات الوقت قام وبر بن يحنس الخزاعي بمهمته السرية في صنعاء، ويبدو أن وبر بن يحنس كان بين المرافقين لجرير فتمكن من البقاء بشكل سري، وكان وبر بن يحنس هو رسول النبي ﷺ إلى قيس بن مكشوح المرادي الذي كان قد تظاهر بالولاء للأسود العنسي. قال البلاذري: «وَجَه رسول الله ﷺ ـ إلى ـ قيس بن مكشوح لقتل الأسود العنسي، وأمره باستمالة الأبناء..» قال ابن كثير: «فلما أعلم وبر بن يحنس قيساً، وانبأه الشأن، وأبلغه عن النبي ﷺ كان كأنّما وقع عليه من السماء لأنه كان في غمّ وضيق بأمره»(٢) وقد أبلغه بأن «يعملوا في قتل الأسود العنسي بالغيلة أو المصادمة» كما أبلغه بالأمر الذي سار جرير للقيام به.

الأمر الثاني: وهو الذي سار جرير للقيام به فور مغادرته صنعاء، وفي ذلك قال ابن خلدون «بعث النبي ﷺ جرير بن عبد الله إلى ذي الكلاع وذي ظليم وذي مران» وكان هو المبعوث أيضاً «إلى معاذ بن جبل وأبي موسى والطاهر بكتاب النبي ﷺ أن يعملوا في أمر الأسود العنسي»(٣) وفي ذلك: «قال عبيد بن صخر ـ وهو أحد أصحاب معاذ ـ: جاءنا كتاب رسول الله يأمرنا فيه أن نبعث الرجال لمصاولة الأسود العنسي، ونُبَلِّغ ذلك عن النبي ﷺ فقام معاذ بن جبل في ذلك بالذي أُمِر به»(٤) وذكر القرطبي أن جرير بن عبد الله البجلي بعثه النبي ﷺ بذلك «إلى ذي الكلاع، وحوشب ذي ظليم، وذي عمرو». فأبلغهم جرير بكتاب النبي ﷺ فاستنفروا كتائب وفرسان حمير، كما أبلغ معاذ بن جبل، قال ابن كثير: «قام معاذ بكتاب النبي ﷺ أتم القيام، وقام معه السكون في ذلك، وبَلَغوا هذا الكتاب

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١١٤.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٦ ص٣٠٧.
(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٥٥.
(٤) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٢ ص٢١٣.

إلى عمال النبي ﷺ ومَنْ قدروا عليه من الناس»[٣٠] فلم يمض إلا أسبوعان أو ثلاثة حتى أحاطت بمشارف صنعاء فرسان قبائل ومناطق حِمْيَر بقيادة ذي الكلاع وذي ظليم وذي عمرو، ومعهم جرير بن عبد الله، وفرسان قبائل ومناطق همدان ـ حاشد وبكيل ـ بقيادة عمير بن ذي مران وسعيد ذي زود، وكذلك معاذ بن جبل أمير عمال اليمن.

وكان قيس بن مكشوح والذين معه في صنعاء يخططون ويُدبرون للقضاء على الأسود العنسي، قال ابن كثير: «فبينما هُمْ كذلك، إذْ جاءتهم كُتب ذي الكلاع وذي ظليم وذي مران.. فكتبوا إليهم أن لا تحدثوا شيئاً حتى نُبرم أمرنا». والمقصود أن لا يهاجموا صنعاء.

الأمر الثالث: أثناء مرابطة الصحابة والزعماء والفرسان حول صنعاء، قام قيس والذين معه بقتل الأسود العنسي قال البلاذري: «ثم علا قيس بن مكشوح سور المدينة، فقال: الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن عبهلة كذاب، وخرج أصحاب قيس ففتحوا الأبواب، فدخل المسلمون، وظهر الإسلام وأهله».

وبذلك انتهت فتنة الأسود العنسي في صنعاء، وكان لجرير بن عبد الله البجلي إسهامه الوافر في تحقيق ذلك، وتولى معاذ بن جبل مقاليد الأمور في صنعاء لأنه أمير عمال اليمن، وكان ذلك قبل نحو أسبوع من وفاة رسول الله ﷺ.

ثم انطلق جرير من صنعاء عائداً إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وكان معه ذو الكلاع الحميري وذو عمرو، وقد أخرج البخاري عن جرير قال: «فجعلتُ أحدثهم عن رسول الله ﷺ فقال ذو عمر: إن كان الذي تذكر من أمر صاحبك حقاً، لقد مرَّ على أجله منذ ثلاث. واقبلا معي، حتى إذا كنا في بعض الطريق، رُفع لنا رَكبُ مِن قِبَلِ المدينة، فسألناهم، فقالوا: قُبض رسول الله ﷺ واستُخْلِف أبو بكر والناس صالحون» وجاء في كتاب الاستيعاب للقرطبي: «ذو عمرو: رجُل أقبل من اليمن مع ذي الكلاع إلى رسول الله ﷺ ومعهما جرير بن عبد الله البجلي. قيل: إنه كان الرسول إليهما من قِبَل النبي ﷺ في قتل الأسود العنسي المتنبي الكذاب.. فلما كانوا في بعض الطريق رأى ذو عمرو رؤيا أو رأى شيئاً، فقال: أن الذي نمضي إليه قد قضى وأتى على أجله. قال جرير: فرُفع لنا ركبٌ، فسألتهم، فقالوا: قُبض رسول الله ﷺ واستُخلِف أبو بكر».

فقال لي ذو عمرو: يا جرير، إنكم قوم صالحون، وإنكم على كرامة لن تزالوا

بخير، ما كنتم إذا هلك أمير أمّرتُم آخر ـ يعني بالشورى والاتفاق ـ فأما إذا كانت بالسيوف كنتم ملوكاً ترضون كما يرضى الملوك وتغضبون كما **يغضب الملوك**.

ثم قالا لي جميعاً ـ يعني ذا الكلاع وذا عمرو ـ اقرئ **صاحبك السلام**، ولعلنا سنعود، ثم سَلّمنا عليّ، ورجعا.

وفي رواية البخاري: فقالا لي: أُخْبِر صاحب أنّا قد جئنا، ولعلنا سنعود إن شاء الله تعالى، فرجعا إلى اليمن، فأخبرتُ أبا بكر بحديثهما، فقال: ألا جئت بهما[١].

ولاية جرير على مخلاف نجران في خلافة أبي بكر

لقد عاد جرير من صنعاء إلى المدينة المنورة بعد أيام من وفاة رسول الله واستخلاف أبي بكر الصديق، وكان الناس في أرجاء اليمن ثابتين على الإسلام، «وأقرّ أبو بكر بقاء مُعاذ بن جبل وسائر عمال النبي ﷺ باليمن»[١] وكان مُعاذ بن جبل أمير جميع عمال اليمن حيث كان من عمال رسول الله ﷺ على مخاليف اليمن: عمرو بن حزم الأنصاري عامل مخلاف نجران، وأبو موسى الأشعري عامل مخلاف الأشاعر وتهامه، وزياد بن لبيد الأنصاري عامل حضرموت، وفروة بن مسيك المرادي عامل مناطق مذحج ومعه خالد بن سعيد بن العاص عاملاً على الصدقة، والطاهر بن أبي هاله وعامل مأرب، قال ابن سمرة: (واستخلف معاذ على الجَنَد: عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي.. وكان مُعاذ بن جبل عاملاً على اليمن وحضرموت، أمَّرَه النبي ﷺ، فكان معاذ ينتقل في عماله من عامل إلى عامل في اليمن وحضرموت)[١] وقد توفي رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل في صنعاء لأنه الوالي على اليمن وأمير عمال جميع مخاليف اليمن في عهد رسول الله ﷺ وفي أوائل خلافة أبي بكر الصديق، ثم (كتب معاذ إلى أبي بكر يستأذنه في القفول، وكذلك بقية العمال، فكتب إليهم أبو بكر: من شاء أن يرجع فَلْيَرجع ويَسْتَخلِفْ على عمله، ومن شاء أن يُقِيم فَلْيُقِمْ، فرجعوا ـ إلى المدينة ـ)[١] والذين رجعوا هُمْ: عمرو بن حزم الأنصاري عامل نجران، وخالد بن سعيد بن العاص عامل صدقات مذحج، ومعاذ بن جبل الأنصاري أمير عمال اليمن، وعندئذٍ استعمل وولى أبو بكر على مخلاف نجران جرير بن عبد الله البجلي خير ذي يَمَنْ، وفي ذلك جاء في هامش الإكليل إن جرير بن عبد الله البجلي «ولاه أبو بكر على نجران»[٢].

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة الجعدي ـ ص١٩ و٢٠ و٣٦.

(٢) الإكليل للهمداني ـ تحقيق الأكوع ـ جـ٢ ص١٥٥.

وكان من أنباء فترة ولاية جرير على مخلاف نجران ما يلي:

كان مخلاف نجران ـ بمدلوله الواسع القديم ـ يشمل منطقة نجران وتثليث ووادي بيشه وتباله وبلاد السراة جميعها وهي بلاد بجيلة وخثعهم ونَهْد وأزد السراة وهي منطقة عسير حالياً، ولذلك قال ابن خلدون: «قال البيهقي: مسافة نجران عشرون مرحلة، وفيها مدينتان: نجران وجُرش متقاربتان في القدر»(١) وقال ابن المجاور الدمشقي: «نجران إقليمُ طويل عريضُ من اليمن»(٢) قال الفرزدق:

سَمَونا لنجران اليمانيّ أهله ... ونجرانُ أرضُ لا تدينُ مقاوله

وكان مقاول نجران ـ أي أقيالها الرؤساء ـ في الجاهلية وفجر الإسلام بنو عبد المدان بن الديان الحارثي المذحجي، منهم يزيد بن عبد المدان بن الديان الذي وَفَدَ إلى رسول الله ﷺ في وفد نجران وبني الحرث بن كعب، وهو القائل:

إنْ تَلْقَ حيّ بني الديان تَلْقَهم ... شُمّ الأنوف إليهم غُرة اليمن

ما كان في الناس للديان من شَبّهٍ ... إلا رُعَيْنٍ وإلا آل ذي يزنِ

وكان أول عامل على مخلاف نجران في الإسلام عمرو بن حزم الأنصاري ثم جرير بن عبد الله البجلي الذي عاد من صنعاء إلى المدينة المنورة في أول خلافة أبي بكر الصديق فولاه أبو بكر على نجران.

قال الطبري: «رد أبو بكر جرير بن عبد الله، وأمَرَهُ أن يدعو مِنْ قومه مَنْ ثَبَتَ على أمر الله ثم يستقر مقويهم فيقاتل بهم من ولّى عن أمر الله، وأمَرَه أن يأتي خثعم فَيُقاتل من خرج منهم غضباً لذي الخَلَصة أو من أراد إعادته، ثم يكون وجهه إلى نجران فَيُقيم بها حتى يأتيه أمره»(٣).

فلما وصل جرير إلى مناطق مخلاف نجران وجد قبائل بجيلة وخثعم ونهد وأزد السّراة ثابتين على الإسلام، قال الطبري: «إلّا رجالُ في عدة قليلة ـ من خثعم ـ فقتلهم وتتبعهم، ثم كان وجهه إلى نجران، فأقام بها»(٣).

وقد وجد جرير أن المسلمين في نجران ثابتين على الإسلام ـ وهو بنو الحرث بن كعب، وبنو زُبيد، وغيرهم من قبائل مذحج ويام وقضاعة، وأن المسيحيين ثابتين على العهد الذي كتبه لهم رسول الله ﷺ فبعثوا وفداً إلى أبي بكر

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد حسين الفرح ـ ص٦٧٠.
(٢) المستبصر في صفة بلاد اليمن والحجاز ـ لابن المجاور ـ ص٤٠.
(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ جـ٣ ص٢٦٤.

فجدد لهم ذلك العهد، وأقام جرير في مدينة نجران عاملاً على مخلاف نجران بمدلوله الواسع القديم.

وفي حوالي شهر رجب سنة ١١هـ قام الصحابي الزعيم قيس بن مكشوح المرادي بالثورة على الأبناء (الفُرس) في صنعاء، وكان قيس بن مكشوح مقيماً بصنعاء مع فيروز الديلمي وداذويه وغيرهما من رؤساء الأبناء (الفُرس) عندما غادر معاذ بن جبل صنعاء واليمن عائداً إلى المدينة المنورة، ثم قام أبو بكر بتولية فيروز الديلمي الفارسي على اليمن ـ بدلاً عن معاذ ـ وكتب أبو بكر «إلى ذي الكلاع، وحوشب ذي ظليم، وعمير ذي مران، وسعيد العاقب ذي زود، وشَهْر ذي يناف. أن: أعينوا الأبناء على من يناوئهم، واسمعوا الفيروز فإني قد وليته»[١].

وكان قيس قد تظاهر بالتعاون مع فيروز وداذويه والأبناء في صنعاء، وكان الأبناء يفتخرون بداذويه ـ ويبدو أنه الذي أتى بأمر تولية فيروز وسعى في ذلك ـ وكان عمرو بن معدي كرب الزُبيدي في منطقة زُبيد في تثليث نجران، فغضب من بقاء قيس بن مكشوح بصنعاء وتعاونه مع الأبناء، وبعث إليه بيتين من الشعر قال فيهما:

(قَدَرَت) وَلَمْ تُحسِن وفاءً، ولم يكن ... ليحتمِل الأسباب إلا المُعَود
وكيف لقيسٍ أن يُنَوِّط نفسه ... إذا ما جَرَى، والمِصْرُحيُّ المُسَوَدِ

يعني: كيف يمكن أن يقوم قيس بأي عمل إذا ما نوى ذلك بينما المِصر ـ أي صنعاء ـ مليئة بقوم المُسوَد ـ أي فيروز الذي أصبح سيداً والياً ـ وقومه الأبناء الفُرس، كما بعث عمرو بن معدي كرب من نجران بيتين إلى الأبناء الفُرس قال فيهما:

وما أن داذويه لكم بفخرِ ... ولكن داذويه فضح الذمارا
وفيروزاً غداً سيُصاب فيكم ... ويضربُ في جموعكم القِفارا[١]

وكان قيس يعمل سراً للثورة ضد الأبناء ونفيهم من اليمن، حيث «أرسل قيس إلى ذي الكلاع وأذواء اليمن قائلاً: إن الأبناء نُزّاعُ في بلادكم، وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم. وقد أرى من الرأي أن نقتل رؤوسهم ونخرجهم من بلادنا» فكان موقف ذي الكلاع والأذواء الرؤساء أنهم «لم يُمالؤا قيساً، ولم ينصروا الأبناء، واعتزلوا، وقالوا: لسنا مما ههنا في شيء، أنت صاحبهم وَهُمْ أصحابك. واستجاب لقيس عامة قبائلهم.. فكاتبهم قيس في السر وأمرهم أن يتعجلوا إليه، ليجتمعوا على نفي الأبناء من اليمن، فلم يُفجأ أهل صنعاء إلا الخبر بدنوهم منها»،

---

(١) انظر المبحث الخاص بقيس بن مكشوح بطل اليمن في فجر الإسلام.

فلما أشرف فرسان قبائل اليمن على صنعاء، قام قيس بتدبير قتل قادة الأبناء الفُرس بصنعاء، حيث: «أتى قيس إلى فيروز كالفَرِق من هذا الخبر وأتى داذويه واستشارهما ليُلبِس عليهما ولئلا يتهماه، ثم دعاهم من الغد إلى طعام، فلما دخل إليه داذويه عاجله قيس فقتله. وسمع فيروز ـ وهو قادم ـ امرأتين على سطحين تتحدثان فقالت إحداهما: هذا مقتول كما قُتل داذويه. فركض فيروز هارباً ولقى جشيش فهربا سويا، ولحقا ببلاد خولان ـ وَهُمْ أخوال فيروز ـ» بينما فتح أصحاب قيس أبواب صنعاء فدخلها فرسان قبائل اليمن، وتم اعتقال وتجميع الأبناء ـ الفرس ـ وأصبحت صنعاء بيد قيس بن مكشوح، وكان ذلك في رجب ١١هـ، وتم تجميع الأبناء من سائر مناطق اليمن إلى صنعاء.

وقد شاع في بعض الروايات تسمية ثورة قيس باسم (ردة أهل اليمن) بينما لم يكن فيما حدث شيء من الردة، ولذلك قال ابن خلدون: «ثار قيسُ بصنعاء، وجَبَى ما حولها.. وعمد قيس إلى الأبناء فَغَرَبهم وأخرجهم من اليمن في البر والبحر»[١] وقال الطبري: «ثار قيسُ بصنعاء فأخذها، وجَبَى ما حولها مُقَدِّماً رجلاً ومؤخراً أُخرى.. وطابق مع قيس عوامُّ قبائل من كتب أبو بكر إلى رؤسائهم وبقي الرؤساء مُعتزلين. ثم عَمَدَ قيسُ إلى الأبناء ففرّقهم ثلاث فرق؛ أقرّ فرقة منهم وأقرّ عيالهم، وأمر بالفرقة الثانية أن يُحملوا في البحر، وأمر بالثالثة أن يُحملوا في البر، وقال لهم جميعاً: الحقوا بأرضكم»[١]. وقد نقل الطبري أنه «كان عيال داذويه مِمن سُيِّر في البحر، وعيال الديلمي من سُيِّر في البر»، وقد قام فرسان اليمن بمرافقتهم، فالذين تم ترحيلهم بحراً رافقتهم «السيارة اللحجية» وكانوا نحو ثمانمائة من الفرس بينهم (بهمن بن داذويه) أما الذين تم تسييرهم براً فكانوا أربعة آلاف من الفرس مع عائلاتهم، وقد رافقهم فرسان مذحج وهمدان إلى مأرب وطريق حضرموت ثم أوصلهم فرسان حضرموت إلى البحرين ومنها لحقوا بالعراق التابعة للفرس وكان كبيرهم (مهران بن باذان) الذي قتله جرير بن عبد الله البجلي في موقعة البويب بالعراق كما سيأتي حيث طلب مهران المبارزة قائلاً:

إنْ تسألوا عني فإني مهران أَنَا لِمَنْ أنكرني ابن باذان

أما ما حدث بعد نجاح ثورة قيس وإجلاء أغلب الأبناء الفرس من اليمن فيتمثل في أنه ـ في حوالي ما بين شهر رمضان وشهر ذي القعدة سنة ١١هـ ـ وكما ذكر ابن خلدون: «أمر أبو بكر المهاجر بن أبي أُمية بأن يسير إلى اليمن ليُصلح من

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٦٥ ـ وتاريخ الأمم والملوك للطبري ـ ٤/ ص٧٨.

أمره. . فَفَصل المهاجر لذلك ومَرّ بمكة والطائف فسار معه خالد بن أسيد وعبد الرحمن بن أبي العاص بِمَنْ معهما، ومَرّ بجرير بن عبد الله البجلي (عامل نجران) وعكاشة بن ثور فضمهما إليه، ثم مَرّ بنجران فانضم إليه فروة بن مسيك المرادي (عامل مذحج) وجاءه عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح»[١] وكذلك جاء في رواية صحيحة للطبري أنه «بعث أبو بكر المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء وحضرموت، فاتخذ المهاجر مكة طريقاً، ومَرّ بالطائف، ثم مضى حتى حاذَى جرير بن عبد الله البجلي فَضَمّه إليه، ثم قدم على أهل نجران، فانضم إليه فروة بن مسيك. وفارق عمرو بن معدي كرب قيساً، وأقبل مستجيباً حتى دخل على المهاجر»[١] وقال ابن سمرة «سار مع المهاجر بن أبي أمية، عبد الرحمن بن العاص، وجرير بن عبد الله البجلي، فبدأ المهاجر بنجران، فانضم إليه فروة بن مُسيك المرادي. . وجاءه عمرو بن معدي كرب» إلى أن قال: «فدخل المهاجر بن أبي أمية صنعاء»[٢] ويتبين من مجمل ذلك عدم صحة مزاعم رواية سيف التميمي بأن أبا بكر بعث الجيوش لمساندة الأبناء وفيروز فاستنقذوا الأبناء الذين نقاهم قيس وإن فيروز والأبناء هزموا قيساً وأصحابه واستمر فيروز والياً لليمن، بينما الصحيح أن أبا بكر الصديق بَعَثَ المهاجر بن أبي أُمية المخزومي ومعه أبان بن سعيد بن العاص وهو صهر قيس بن مكشوح، وعبد الرحمن بن أبي العاص، وأمرهم بالمسير إلى جرير بن عبد الله البجلي عامل مخلاف نجران والتوجه لإصلاح الأمر في صنعاء ثم يتوجه المهاجر إلى حضرموت. فلما وصل المهاجر إلى مخلاف نجران التقى بجرير بن عبد الله البجلي، وتباحثا في الأمر، ثم انضم إليهم في نجران فروة بن مُسيك المرادي عامل مناطق قبيلة مذحج التي هي قبيلة قيس بن مكشوح، كما وصل إلى نجران عمرو بن معدي كرب الزُبيدي وهو خال قيس بن مكشوح ومِنْ قادة تلك الثورة. وهنا تقول رواية الطبري أنه «فارق عمرو بن معدي كرب قيساً، وأقبل مستجيباً حتى دخل على المهاجر». وقال ابن خلدون «جاءه عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح» والراجح أن قيس بن مكشوح كان بصنعاء، وأن جرير بن عبد الله وفروة بن مسيك وعمرو بن معدي كرب تباحثا في نجران مع المهاجر بن أبي أمية والذين معه في إصلاح الأمر باليمن، وتَمّ تَفَهُم وجهة نظر قيس بن مكشوح واليمنيين حول طبيعة ما حدث، وإن أبا بكر وافق على طريقة إصلاح الأمر، ثم توجهوا إلى صنعاء، فدخلوها والتقوا بقيس،

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٦٥ ـ وتاريخ الأمم والملوك للطبري ـ ٤/ ص٧٨.

(٢) طبقات فقهاء اليمن ـ ص٣٥.

وقام قيس بتسليم مقاليد الأمور في صنعاء للمهاجر أو للوالي الجديد أبان بن سعيد بن العاص[١].

ويذكر ابن خلدون أن المهاجر (بعث عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح إلى أبي بكر) وأنه (كتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء)، وقيل: إن المهاجر أوثقهما وسار بهما إلى أبي بكر، والصواب أن المهاجر بقي بصنعاء، إلى أبي بكر، قال ابن خلدون: «وحضر قيس عند أبي بكر، فخطر قتل داذويه ولم يجد أمراً جلياً فيه»، وقيل إن أبا بكر قال: «يا قيس، أعدوت على عباد الله تقتلهم وتنفيهم، وتتخذ المرتدين وليجة من دون المؤمنين؟» فَنَفَى قيس أن يكون أصحابه غير مؤمنين، أو أن يكون داذويه والأبناء الذين نفاهم من المؤمنين، ولكن قيس وعمرو بن معدي كرب اعتذر لأبي بكر (فأقالهما وردهما، وكتب أبو بكر إلى المهاجر بأن يسير إلى حضرموت)، بينما تولى الأمر في صنعاء أبان بن سعيد بن العاص، وربما أن قيس بن مكشوح لم يذهب مع عمرو وجرير إلى أبي بكر وإنما بقي بصنعاء، فقام جرير وعمرو بتوضيح وجهة نظر قيس واليمانيين فيما حدث، فعفا وتسامح أبو بكر عما حدث، وقام بتولية أبان بن سعيد بن العاص على اليمن، فأتى مع جرير وعمرو، وتوجه المهاجر من صنعاء إلى حضرموت، بينما تولى أبان بن سعيد الحكم في صنعاء وأقام قيس بن مكشوح معه بصنعاء[١]، ورجع جرير بن عبد الله إلى نجران حيث استمر جرير عاملاً على مخلاف نجران وعسير وسراة أعالي اليمن حتى استنفر أبو بكر أهل اليمن للجهاد والفتوحات.

❊ ❊ ❊

جرير في الفتوح الأولى بالعراق والشام (صفر ١٢هـ ـ رجب ١٣هـ)

كان جرير بن عبد الله البجلي من أوائل الصحابة والزعماء اليمانيين الذين انطلقوا إلى ميادين الجهاد والفتوحات حاملين رسالة الإسلام والحرية.

قال الطبري: «قَدِم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن، وفيهم ذو الكلاع الحميري، وجرير بن عبد الله، وقيس بن مكشوح المرادي، وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعَنَاه أمره».

---

(١) كان فيروز الديلمي ملتجئاً عند أخواله في خولان فلما تولى أبان بن سعيد أتى إليه فيروز وكلمه في دم داذويه، قال العسقلاني: (فقال أبان لقيس بن مكشوح: أقتلت رجلاً مسلماً؟ فأنكر قيس أن يكون داذويه مسلماً). فأمَرَ أبان بن سعيد فيروزاً بالتوجه إلى أبي بكر بالمدينة، فأقام بها حتى وفاته. أما قيس بن مكشوح فأقام بصنعاء وكانت زوجة أبان بن سعيد هي كبشة بنت مكشوح أخت قيس، ومكث قيس بصنعاء حتى انطلق إلى الفتوحات.

وكان قدوم جرير من مخلاف نجران إلى أبي بكر بالمدينة قبل ذي الكلاع وقيس بن مكشوح، وذلك في أوائل سنة ١٢هـ، وكان أبو بكر قد كتب إلى خالد بن الوليد وهو في اليمامة يأمره بالمسير لفتح أرض الحيرة بالعراق، فوصل آنذاك إلى المدينة جرير بن عبد الله البجلي في فُرسان من بَجِيلة ومن نَهَد وغيرها من قبائل قضاعة بمنطقة السَرَاة ومخلاف نجران، قال البلاذري: «وكتب خالد بن الوليد من اليمامة إلى أبي بكر يستمده، فأمَدّه بجرير بن عبد الله البجلي، فلقيه جرير منصرفاً من اليمامة فسار معه»[١].

وجاء في رواية للطبري أنه «كان جرير بن عبد الله ممن خرج مع خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام، فاستأذن خالداً ـ ليسير ـ إلى أبي بكر، ليكلمه في قومه ـ أي قبيلة بَجِيلة ـ ليجمعهم له، وكانوا أوزاعاً في قبائل العرب، فأذن له، فقدم على أبي بكر فذكر له وعداً من النبيّ ﷺ وأتاه على ذلك بشهود وسأله إنجاز ذلك». وأصل ذلك أن قبيلة بجيلة كان منهم عدة عشائر وبطون دخلوا في تحالفات ومواخاة مع مَنْ كان يجاورهم مِن القبائل في الجاهلية، فأراد جرير إعادة جمع سائر قبيلة بَجيلة برئاسته ليسير بهم جميعاً إلى ساحات الجهاد والفتوحات، وكان النبيّ قد وعد جريراً بأن يجمع له بَجِيلة كلها، فلما قدم جرير إلى أبي بكر من منطقة السراة ومخلاف نجران ـ وليس من الشام كما في رواية الطبري وإنما من اليمن ـ كلم جرير أبا بكر بأن يجمع له قبيلة بجيلة، فاعتذر أبو بكر بالانشغال بغوث المسلمين ممن بإزائهم من الفرس والروم، (وقال له: سر نحو خالد بن الوليد لفتح الحيرة، حتى انظر ما يحكم الله في هذين الوجهين، فسار حتى قدم على خالد وهو بالحيرة). والأصوب ـ كما ذكر البلاذري ـ أن أبا بكر أمَدّ خالداً بجرير بن عبد الله البجلي (فلقيه جرير منصرفاً من اليمامة)، يعني وهو مُتَوَجِهُ من اليمامة إلى الحيرة، وجاء في الإصابة عن ابن عساكر أنه: «لما عزم خالد على المسير جَدَد التعبية وتَوَخى الصحابة ثم توخى منهم الكُماة فقال: على قُضاعة جرير بن عبد الله رسول رسول الله ﷺ إلى اليمن»[٢] فانطلقوا إلى الحيرة.

* * *

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٤٣.

(٢) الإصابة جـ١ ص٢٣٢ ـ وقد جاء في الإصابة هنا (جرير بن عبد الله الحميري) والصواب أنه هو نفسه (جرير بن عبد الله البجلي).

الفتح الأول لإقليم الحيرة.. ودور جرير

لقد كانت الحيرة مدينةً وإقليماً عَرَبية السكان والسلطة بالعراق منذ زمن بعيد في الماضي، وكان إقليم الحيرة يمتد إلى نهر دجلة حيث «كان دجلة الفاصل بين العرب والفرس بالعراق»(١) وكان يحكم الحيرة الملوك المناذرة اللخميون اليمانيون في إطار الولاء للإمبراطورية الكسروية الفارسية، وكان آخرهم الملك النعمان بن المنذر، وفي أيامه قال الشاعر الجاهلي أعشى قيس:

وبنو المنذر الأشاهب في الحيرة ... يمشون غدوة كالسيوف

ثم اختلف النعمان بن المنذر مع كسرى ـ أبرويز بن هرمز ـ ثم رأى التصالح معه، فسار النعمان إلى كسرى أبرويز بالمدائن، فغدر به كسرى وحبسه فمات محبوساً أو مقتولاً سنة ٦١٢م ـ وذلك بعد البعثة النبوية ـ وبسبب مضاعفات ذلك اندلعت موقعة ذي قار بين العرب والفُرس، وكان الفُرس يريدون إخضاع إقليم الحيرة لسلطتهم المباشرة، فانتصر العرب على قوة فارسية في موقعة ذي قار، (وقد أخرج البخاري والبغوي عن عبد الله بن الأخرم عن أبيه وكانت له صحبة، قال: قال رسول الله ﷺ يوم ذي قار: هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم)(٢) وقال أعشى قيس في يوم ذي قار:

لو أن كل مَعَدٍّ كان شاركنا ... في يوم ذي قار ما أخطأهُمُ الشرفُ

وقد ذكر أحمد أمين أنه «بموت النعمان بن المنذر ألغت الحكومة الفارسية نظام إمارة اللخميين ـ المناذرة ـ وولَّت مِن قِبَلِها حاكماً فارسياً يخضع له أمراء العرب»(٣) والمعروف في كتب التاريخ العربية أن كسرى قام بتمليك إياس بن قبيصة الطائي اليماني ملكاً على إقليم الحيرة، ولكن النفوذ الفارسي كان أكثر من ذي قبل، وكان هناك حاكم فارسي في (المذار) من إقليم الحيرة، ومكث إياس بن قبيصة ملكاً إلى ما قبل الفتح الإسلامي بأمد يسير.

وكان النبيّ ﷺ قد بَشَّر الصحابي اليماني عدي بن حاتم الطائي قائلاً: «يا عدي بن حاتم هل أتيت الحيرة؟ قال: لم آتها وقد نُبئتُ عنها. فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده ليُتمَّنَ الله هذا الأمر حتى ترتحل الظعينة من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف أحداً إلا الله عزّ وجلّ، ولَتُفْتَحَنّ كنوز كسرى بن هرمز. قال

(١) تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص١٦ و٢٤.
(٢) الإصابة ـ ترجمة الأخرم ـ جـ١ ص٢٥.
(٣) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص١٥.

عدي بن حاتم: كسرى بن هرمز؟ فقال النبي ﷺ: نعم»[١] كما أخبره النبي ﷺ بأن القصور البيض من أرض الحيرة سَتُفْتَح، وكان من رجال طيء الذين سمعوا النبي ﷺ يقول ذلك خريم بن أوس بن حارثة فقال للنبي ﷺ: إنْ فتح الله عليك الحيرة فأعطني ابنة بقيلة[٢]. فقال له النبي ﷺ ما معناه: ستكون ذلك. وكان ذلك في السنة الثامنة أو السنة التاسعة للهجرة، وكان جرير بن عبد الله آنذاك مع النبي ﷺ والصحابة الذين بالمدينة.

وفي أوائل سنة ١٢هـ كان جرير وعدي بن حاتم وخريم بن أوس بن حارثة من الصحابة الذين انطلقوا في الجيش العربي الإسلامي مع خالد بن الوليد إلى الحيرة، حيث: سار المسلمون من مسلحة العذيب، فأتوا الحيرة وقد تحصن أهلها في القصر الأبيض وقصر ابن بُقيلة ـ وقصر ابن بقيلة هو قصر العدسيين، قال ابن الكلبي: العدسيون من كَلْب نُسِبوا إلى أمهم وهي كلبية أيضاً ـ فأجال المسلمون الخيل على تخوم مدينة الحيرة، فخرج إليهم رؤساء الحيرة وقد استجابوا للمصالحة، وهُمْ فروة بن أياس بن قبيصة الطائي، وعبد المسيح بن عمر بن قيس بن حيان بن بقيلة، واسم بقيلة الحارث وهو من الأزد، وهانئ بن قبيصة بن مسعود الشيباني. فصالحهم خالد على أداء ثمانين ألف درهم في كل عام، وعلى أن يكونوا عيوناً للمسلمين على أهل فارس، وأن لا يُهدم لهم بيعة ولا قصراً.. فقال خريم بن أوس بن حارثة لخالد: إن النبي ﷺ جعل لي بنت بقيلة فلا تدخلها في صلحك، وشهد له بشير بن سعد الأنصاري ومحمد بن مَسْلَمة الأنصاري، فاستثناها في الصلح، فسلمها أهلها إلى خريم، وكانت عجوزاً قد حالت عن عهده، ثم اشتروها منه بألف درهم[٢].

وأتى إلى خالد والمسلمين بالحيرة (صلوبا بن نسطونا صاحب ـ منطقة ـ قس الناطف) وهي من أرض بانقيا وبسما في إقليم الحيرة، فتم مصالحة صلوبا بن نسطونا «على بانقيا وبسما وعلى أرضيهما من شاطئ الفرات جميعاً، مقابل عشرة آلاف دينار، سوى الخرزة: خرزة كسرى وكانت على كل رأس أربعة دراهم، وإن لصلوبا وقومه الذمة والمنعة على المسلمين فإن منعوهم فلهم الجزيّه، وإلا فلا» وكتب خالد كتاباً لصلوبا بن نسطونا بذلك، جاء في خاتمته ما لفظه: (شهد هشام بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله البجلي، وحنظلة بن

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٦٧ ـ والإصابة جـ٢ ص٤٦٨.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١١٨.

الربيع. وكُتب سنة اثنتي عشر في صفر)[١]. وبذلك تم فتح الحيرة وقس الناطف وبانقيا وبسما صلحاً في صفر سنة ١٢هـ، ثم فرض الفرس عليهم التخلي عن ذلك الصلح بعد موقة الجسر ـ في شعبان ١٣هـ ـ فبعث عمر بن الخطاب جريراً فأعاد افتتاحها ـ كما سيأتي ـ في صفر ١٤هـ.

وجاء في أنباء فتح الحيرة سنة ١٢هـ في تاريخ الطبري أنه: «بعث خالد بن الوليد عماله ومسالحه.. فبعث جرير بن عبد الله على بانقيا وبمسا. وبشير بن الخصاصية على النهرين». وجاء في الوثائق أنه: «بعث خالد جرير بن عبد الله إلى أهل باقيا.. فصالحوه، وكتب لهم جرير كتاباً»[١].

* * *

وشملت فتوح سنة ١٢هـ التي كان فيها خالد بن الوليد أمير الجيش افتتاح أغلب إقليم الحيرة وكان لجرير دوراً قيادياً في فتحها، وهي:

المذار: قال البلاذري (واقَعَ جرير بن عبد الله صاحب المذار بأمر خالد) ـ فتم مصالحة أهل المذار ـ. [ص٢٤٣/ فتوح البلدان].

البهقباذ والأنبار: قام خالد مصالحة أهل البهقباذ، وقد ذكر الطبري كتاب خالد بمصالحتهم وفيه أنه «شهد هشام، والقعقاع، وجرير بن عبد الله، وبشير بن الخصاصية»[١].

عين التمر: وجاء في نبأ يوم المضيح من عين التمر أنه: «أصاب جرير بن عبد الله يوم المضيح ابن قرواش من بني النمر».

سواد الحيرة: قال الطبري: «فَرّق خالد سواد الحيرة على جرير بن عبد الله وبشير بن الخصاصية ـ (وعدد من القادة)... فكانوا يغاورون وينتهون إلى شاطئ دجلة»[١].

وبذلك بسط المسلمون سيادتهم ونفوذهم على إقليم الحيرة، وكان أغلب ذلك الفتح بالمصالحة على أداء الجزية لأن عرب إقليم الحيرة كانوا أميل إلى السلطة العربية الإسلامية، فاستتب الأمر للمسلمين في إقليم الحيرة حتى موقعة الجسر في شعبان ١٣هـ والتي أدت إلى عودة السيطرة الفارسية إلى أن أعاد جرير فتح إقليم الحيرة كما سيأتي بعد ذكر ما حدث في الفترة من شهر ربيع ١٣هـ حتى موقعة الجسر.

* * *

(١) الوثائق السياسية ـ محمد حميد الله ـ ص٣٨٠ ـ ٣٨٢ ـ وتاريخ الطبري ـ جـ٤ ص١٦ ـ ٢٤.

المسير إلى الشام وموقعة اليرموك:

في شهر ربيع ١٣هـ كتب الخليفة أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد بالمسير من العراق لمساندة الجيوش العربية الإسلامية التي كانت تخوض معارك كبيرة ضد الروم بالشام، وأسند أبو بكر إلى خالد القيادة العامة بالشام، ووصل كتاب أبي بكر إلى خالد وهو في عين التمر، فاستخلف خالد على المسلمين في ناحية الحيرة المثنى بن حارثة الشيباني ومعه القائد عروة بن زيد الخيل الطائي، كما استخلف على عين التمر سعد بن عمرو بن حرام الأنصاري، وسار خالد من عين التمر ـ في شهر ربيع ـ ومعه زهاء ألف وخمسمائة من الفرسان وكبار القادة ومنهم جرير بن عبد الله البجلي وعدي بن حاتم الطائي والقعقاع بن عمرو التميمي ورافع بن عميرة الطائي الذي دَلّ خالد بن الوليد والجليس وسار بهم على طريق الدَّهناء وبادية السماوة إلى الشام في خمسة أيام، فوصلوا إلى أبي عبيدة بن الجراح في البلقاء، فأخبرهم بأن شرحبيل في فتح بُصْرَىٰ الشام في ربيع الثاني ١٣هـ، وكذلك شهد جرير مع خالد وجيوش الشام موقعة أجنادين ـ بفلسطين ـ في ٦ ـ ١٢ جمادى الأول سنة ١٣هـ.

ثم كان جرير من الصحابة القادة في موقعة اليرموك حيث تم تقسيم الجيش العربي الإسلامي إلى ٣٦ كردوساً يضم كل كردوس ألف مقاتل، ويقود كل كردوس أمير قائد من الصحابة، فكان من قادة الكراديس اليمانيين باليرموك، شرحبيل بن حسنة الكندي، ودِحْية بن خليفة الكلبي، وذو الكلاع الحميري، وحوشب ذو ظليم، والسمط بن الأسود الكندي، ومعاوية بن حديج السكوني، وجندب بن عمرو بن حُممه الدوسي، وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وامرؤ القيس بن عابس الكندي، ومسروق العكي. وكان قيس بن مكشوح المرادي على رأس فرقة من الخيل وراء الميسرة، وخالد بن الوليد على رأس فرقة من الخيل وراء الميمنة، وكان خالد هو القائد العام للجيش، وكان من الصحابة القادة أيضاً جرير بن عبد الله، ومعاذ بن جبل، والمقداد بن عمرو البهراني. وفي أيام موقعة اليرموك توفي أبو بكر الصديق ـ في ٢٣ جمادى الثاني ١٣هـ ـ وتولى الخلافة عمر بن الخطاب، وتتوجت موقعة اليرموك بالنصر لأيام بقين من جمادى الثاني ١٣هـ، فبعث خالد وأبو عبيدة جريراً بنبأ وبشرى النصر إلى عمر بن الخطاب، فانطلق جرير في كوكبة من الفرسان إلى المدينة المنورة، فدخلها جرير والذين معه وهُمْ يُكبرون، وتوجه جرير إلى الخليفة عمر بن الخطاب وأخبره بالنصر المبين على الروم باليرموك، فكبّر عُمر وأهل المدينة، وحمدو الله تعالى. قال الطبري:

«وكان الذي جاء بالخبر عن اليرموك جرير بن عبد الله»[١]. وكان قدوم جرير إلى عمر في أوائل رجب ١٣هـ.

* * *

نبأ موقعة الجسر بالعراق . . . وتجميع بَجِيلة بقيادة جرير

قبل قدوم جرير من اليرموك إلى عمر بالمدينة المنورة بنحو أسبوع، وبالتحديد في اليوم الرابع من خلافة عمر بن الخطاب، ـ ٢٧ جمادى الثاني ١٣هـ ـ كان بالمدينة زهاء خمسة آلاف من المستنفرين الذين وصلوا من اليمن والطائف وغيرها ومن أهل المدينة، وكانوا يريدون المسير إلى الشام، فندبهم عمر للمسير إلى العراق، (وكان الناس يكرهون قتال الفُرس لقوة سطوتهم وشدّة قتالهم، فلم يرغبوا في ذلك)، ثم استجابوا، واستعمل عليهم عمر أبا عبيد ابن مسعود الثقفي، «فسار المسلمون إلى العراق وهم سبعة آلاف رجل، وأميرهم أبو عبيد بن مسعود الثقفي ومعه المثنى بن حارثة، فوصلوا إلى العراق وكان الفُرس مُضطربين في مُلكهم»[٢] ولعل الأصوب أن المثنى بن حارثة كان خالد بن الوليد قد استخلفه بالحيرة ومعه عروة بن زيد الخيل الطائي لما سار إلى الشام ـ في ربيع ١٣هـ ـ فكان بنواحي الحيرة وعين التمر زهاء ألفين من المسلمين، فلما بعث عمر أبا عبيد الثقفي بذلك الجيش بلغ عدد المسلمين سبعة آلاف، والمقصود بأنه (كان الفُرس مضطربين في مُلكهم) أنهم كانوا مختلفين غير طائعين لملك واحد، منذ وقت يعود إلى سنة ١٠هـ، فقد كان ينازع ملكهم شيرويه بن كسرى زعماء آخرون منهم بوران بنت كسرى، وبعض الأمراء، ولذلك ـ فيما يبدو ـ تم فتح إقليم الحيرة سنة ١٢هـ دون مواجهة مع الفُرس، وبالمصالحة مع زعماء وعرب الحيرة، ومات شيرويه وتولى الحكم بالمدائن (يزدجرد)، وكان أمر الفرس ما يزال مضطرباً عند وصول أبي عبيد الثقفي والذين معه إلى إقليم الحيرة، فأغار المسلمون على منطقة (كسكر) ودهقانها (نرسي) ومنطقة (النمارق) ودهقانها (جالينوس) فلحق نرسي وجالينوس بالمدائن، وقال البلاذري: «وجّه أبو عبيد الثقفي عروة بن زيد الخيل الطائي إلى (الزوابي) فصالح دهقانها على مثل صلح باروسما، ووجه المثنى بن حارثة إلى (زندورد) فظفر وسَبَى»[١]. وقد تزامن ذلك مع قيام العلاء بن الحضرمي أمير ولاية البحرين بتحرير منطقة الزارة وسابون وجزيرة دارين بالخليج العربي من الفُرس،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٦٨.

(٢) البداية والنهاية ـ جـ٧ ص٢٦ ـ تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص٦٨ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص٢٥٣.

فكان ذلك كله باعثاً لتحرك فارسي واسع، فقد كتبت بوران بنت كسرى إلى رستم في خراسان وإلى الفيرزان وغيرهما، فجاءوا إلى المدائن، وذلك (بعد قدوم أبي عبيد والمثنى إلى الحيرة بخمس عشرة ليلة، ولحاق جالينوس ونرسي بيزدجرد في المدائن»[١]. وأسفر اجتماع أمراء الفرس عن اتفاقهم على أن يزدجرد هو ملكهم جميعاً، وكان يزجرد (من ولد شهريار بن كسرى، فَمَلَّكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وأجمعوا عليه) واتفقوا على تمليك رستم على الحرب ـ أي قائداً حربياً عاماً ـ فقال رستم (أيّ الفرس أشد على العرب؟ فقالوا: بهمن بن جاذويه، فولاه على حرب أبي عبيد)، وكذلك (اتفق رستم والمرزبان على بعث مهران بن باذان إلى الحيرة) بحيث «سار مهران في الجيش من المدائن إلى الحيرة.. وتوجه بهمن ومعه فيلة إلى أبي عُبيد» وكان مسير بهمن ومهران من المدائن في حوالي ٢٠ رجب وموقعة الجسر في حوالي ٧ شعبان ١٣هـ.

* * *

قال الطبري: «كان بين موقعة اليرموك وموقعة الجسر أربعون ليلة، وكان الذي جاء بالخبر عن اليرموك جرير بن عبد الله، والذي جاء بالخبر عن الجسر عبد الله بن زيد الأنصاري.. وكانت اليرموك لأيام ـ بقين ـ من جمادى الآخرة، والجسر في شعبان». وكان نبأ موقعة الجسر كما سيأتي بعد ذكر نبأ جرير في تلك الفترة.

ففيما بين قدوم جرير إلى عمر بنبأ انتصار اليرموك ـ في أوائل رجب ـ وقدوم صاحب الخبر عن موقعة الجسر ـ في شعبان ـ كان جرير قد توجه إلى منطقة السراة بأعالي اليمن، وذلك أنه لما قدم من اليرموك إلى عمر «ذكر جرير لعمر حاجته بتجميع عشر بَجِيلة ـ الذين كانوا مُحالفين ومواخين في بعض القبائل ـ فكتب له عمر إلى عُماله في قبائل العرب من كان فيهم أحدُ يُنسب إلى بَجيلة فأَخْرِجُوه إلى جرير، فلما أعطى جرير حاجته في استخراج بَجِيلة من الناس، وعدهم مكاناً ما بين المدينة ومكة فتتاموا إليه، وأتى إلى سراة بجيلة باليمن فاجتمعت له سائر قبيلة بجيلة». فأعاد جرير بذلك وحدة قبيلة بجيلة، وقد كانت رئاسة جرير في الجاهلية وحين أسلم وهاجر النبي ﷺ لا تشمل سوى بعض عشائر قسر بن عبقر وبعض عشائر بني أحمس بن عبقر من قبيلة بجيلة، وكانت أغلب بَجيلة قد تفرقت بالتحلف والمواخاة بين القبائل الأخرى في منطقة سروان اليمن وخارجها، فسعى جرير لإعادة تجميع وتوحيد قبيلة بجيلة ووعده النبي ﷺ ثم أبو بكر بذلك ثم كتب

(١) البداية والنهاية ـ جـ٧ ص٢٦ ـ تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص٦٨ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص٢٥٣.

له عمر بذلك، فتجمعت قبيلة بجيلة برئاسة جرير، وأصبح تعداد فرسانهم عدة آلاف، فانطلق بهم جرير من منطقة السّرَاة بمخلاف نجران وعسير إلى المدينة المنورة في أوائل شعبان ١٣هـ قاصداً المسير بهم للمشاركة في فتوح الشام والمساهمة في تأسيس العصر العربي الإسلامي في ربوع الشام بعد استكمال تحريرها من الروم.

* * *

بينما شهد إقليم الحيرة بالعراق ـ في أوائل شعبان ـ موقعة الجسر التي بدأت بتوجه جيش فارسي من المدائن إلى الحيرة بقيادة الأمير مهران، وتوجيه بهمن بن جاذويه ومعه عدد من الأفيال إلى أبي عبيد الثقفي بينما (سار مهران إلى المثنى وراء الفرات.. فاجتمع المسلمون بقيادة أبي عبيد الثقفي والمثنى بن حارثة الشيباني عند موضع بداية الجسر ـ جسر بانقيا بإقليم الحيرة ـ «وعبر أبو عبيد الثقفي بالمسلمين من المروحة على الجسر، فلقوا الفرس، واقتتلوا قتالاً شديداً، وكثرت الجرحات وفَشَتْ في المسلمين. فقال سليط الأنصاري: يا أبا عبيد قد كُنْتُ نهيتك عن قطع هذا الجسر إليهم وأشَرْتُ عليك بالانحياز إلى بعض النواحي والكتابة إلى أمير المؤمنين بالاستمداد فَأَبَيْتَ. وقاتلُ سليط حتى استشهد.. وحمل المشركون فقتلوا أبا عبيد الثقفي أمير المسلمين.. وقاتل عروة بن زيد الخيل الطائي يومئذ قتالاً شديداً عَدَل بقتال جماعه. وقاتل أبو زبيد الطائي الشاعر حمية للمسلمين العرب بالغربية وكان أتى الحيرة في بعض أموره وكان نصرانياً». فاستشهد من المسلمين فيما ذكر الطبري «أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق، وهرب منهم بشر كثير على وجوههم». وذكر البلاذري «أن المثنى بن حارثة انصرف بالمسلمين ـ يعني بِمَن بَقِيَ منهم ـ وبعضهم على حامية بعض، وأتى المثنى (أليس) فنزلها، وبعث إلى عمر بن الخطاب بالخبر مع عروة بن زيد الخيل».

وقد كان عدد المسلمين سبعة آلاف فاستشهد منهم أربعة آلاف بينهم أميرهم أبو عبيد الثقفي، ونجا زهاء ثلاثة آلاف، قال الطبري: «هرب منهم بشر كثير على وجوههم.. وهرب فُلّهم إلى المدينة»، فكان الذين نجوا من بينهم الذين انسحبوا من إقليم الحيرة إلى منطقة (أليس) مع المثنى بن حارثة وكان المثنى قد أُصيب بجراح بالغة فأقام في (أليس)، بينما لحق نحو ألفين من الذين نجوا ـ أو هربوا في تعبير الطبري ـ لحقوا بمنطقة نجد وتخوم الحيرة، ورجع بعضهم إلى المدينة، وكان الذي أتى بخبر هزيمة موقعة الجسر إلى عمر بالمدينة عبد الله بن زيد الأنصاري وعروة بن زيد الخيل، «فانتهى إلى عمر وهو على المنبر ـ بالمسجد

النبوي ـ فناداه عمر: الخبر يا عبد الله، فقال: أتاك الخبر، ثم صعد إلى المنبر فأسَرَّ ذلك إليه». وما لبث أن وصل الفلول إلى المدينة، فقال: عباد الله، أنا فئة كل مسلم، يرحم الله أبا عبيد لو كان عَبَر فاعتصم بالحيف، أو تحيّز إلينا، ولم يستقتل لَكُنّا له فئة»[١]. وقد ترتب على موقعة الجسر أن مناطق إقليم الحيرة التي كان قد تم فتحها ومصالحة أهلها على يد خالد بن الوليد ومعه جرير في خلافة أبي بكر سنة ١٢هـ عادت إلى الخضوع لسلطة الفُرس بعد موقعة الجسر في أوائل شعبان سنة ١٣هـ.

قال البلاذري: «ثم إن عمر ندب الناس إلى العراق فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه.. وقَدِم عليه خَلْق من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم إلى العراق ورَغَّبَهُمْ، فَرَدُّوا الاختيار إليه. وقَدّم جرير بن عبد الله من السراة في قبيلة بَجِيلة. فقال له عمر: هل لك في العراق، وأنْفِلكم الثلث بعد الخُمُس؟ فقال جرير: نعم». [٢٤٣/ فتوح البلدان].

* * *

الفتح التحريري لإقليم الحيرة بقيادة جرير

لقد كان جرير بن عبد الله البجلي من أعيان أصحاب رسول الله ﷺ منذ اليوم الذي قَدِمَ فيه مهاجراً من اليمن وقال فيه رسول الله ﷺ: «**يطلع عليكم مِنْ هذا الفخ خيرُ ذي يَمَنْ، على وجهه مَسْحَة مَلَكْ**»، وكان لجرير دوراً مرموقاً في الجهاد ونشر الإسلام في عهد رسول الله ﷺ وفي خلافة أبي بكر الصديق إلى أن قَدّم إلى عمر بنبأ النصر في موقعة اليرموك بالشام، وقد ثبت في تراجم الصحابة أن عمر بن الخطاب كان يقول: (جرير بن عبد الله يوسف هذه الأمة).

قال ابن خلدون: «.. لَمَّا بلغ عمر رضي الله عنه وقعة أبي عبيد بالجسر، نَدَبَ بالناس.. وكان فيمن نَدَبَ بَجِيلة، وأمرهم إلى جرير بن عبد الله لأنه الذي معهم من القبائل بعد أن كانوا متفرقين، ووعده النبي ﷺ بذلك، وشُغِلَ عن ذلك أبو بكر، ووَفّى له عمر به».

وجاء في تاريخ الأمم والملوك للطبري أنه: «لمَّا انتهت إلى عمر بن الخطاب مصيبة أهل الجسر، قَدِمَ عليه جرير بن عبد الله من اليمن في (قبيلة) بجيلة، وعرفجة بن هرثمة البارقي.. فكلمهم عمر فقال: إنكم قد علمتم ما كان من

---

(١) البداية والنهاية ـ جـ٧ ص٢٦ ـ تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص٦٨ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص٢٥٣.

المصيبة في إخوانكم بالعراق فسيروا إليهم». وبما أن عرفجة من قبيلة بارق الأزدية في سراة اليمن فقد أشار البلاذري إليه وإلى الذين معه حيث قال: «نَدَب عمر الناس إلى العراق فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه.. وقدم عليه خلق من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم إلى العراق ورَغَّبَهُم فيه، فردوا الاختيار إليه، وقَدَم جرير بن عبد الله من السّرَاة في بَجِيلة.. فقال له عمر: هل لك في العراق، وأنفِلكم الثلث بعد الخُمس؟ قال: نعم». وذلك لأن بجيلة كانوا يرغبون في المسير إلى الشام، فقال عمر: «بل العراق، فإن جند الشام قد قووا على عدوهم». وقام عمر بترغيبهم في العراق. قال الطبري: «جعل عمر لهم رُبع خُمس ما أفاء الله عليهم من الغنائم في غزاتهم هذه لجرير ولِمَنْ اجتمع إليه، ولِمَنْ أخرج إليه من القبائل». فأقنعهم جرير بذلك، وحَثّهم على الجهاد وثواب الدنيا والآخرة.

وعَقَدَ عمر لواء الإمارة والقيادة لجرير بن عبد الله على الجميع من بَجِيلة وغيرهم، وفي ذات الوقت (عقد عمر لعرفجة على قيس كُبّه وسُحْمَة وعُرَينة ـ وهُمْ من بطون بجيلة ـ وعقد لجرير على بقية بَجِيلة، فأتى الذين استعمل عليهم عرفجة إلى عمر فقالوا: استعملت علينا رجلاً ليس مِنّا، فاعْفِنَا من عرفجة). وكان الشائع أن عرفجة من بَجِيلة «فقال لهم عمر: انظروا ما تقولون؟ قالوا: نقول ما تسمع. فأرسل إلى عرفجة، فأتاه، فقال له عمر: إنّ هؤلاء استعفوني منك وزعموا أنك لست منهم فما عندك؟ قال: صَدَقوا ـ يا أمير المؤمنين ـ أنا امرؤ من الأزد ثم مِنْ بارق.. فقال عمر: نِعْمَ الحيُّ الأزد يأخذون نصيبهم من الخير والشر.. فَأَمَّرَ عمر على بَجِيلة ـ جميعها ـ جرير بن عبد الله البجلي.

.. وكان قد قدم على عمر غزاة من بني كنانة ـ الكلبيين ـ والأزد في سبعمائة جميعاً، فأمَّرَ عمر على بني كنانة غالب بن عبد الله الكلبي، وعلى الأزد عرفجة بن هرثمة، وعامتهم من بارق، فخرج جرير في قومه إلى العراق، وخرج غالب في قومه وعرفجة في قومه حتى قدما العراق». وقد كان من المعتاد في الفتوحات أن يكون لكل قبيلة رايتها، مع وجود أمير قائد عام للجيش، ولذلك يمكن إدراك ما يلي عن ذلك الجيش الذي انطلق إلى العراق بقيادة جرير في أواسط شعبان سنة ١٣هـ.

كان جرير قائد وأمير قبيلة بَجِيلة بصفة خاصة، وكانوا أربعة آلاف، وفي ذلك قال ابن كثير: «أرسل عُمر جرير بن عبد الله في أربعة آلاف إلى العراق». [ص٢٦ جـ٧ ـ البداية والنهاية].

وكان عرفجة بن هرثمة قائد فرسان قبيلة بارق من أزد السَّرَاة باليمن، وكانوا

زهاء سبعمائة، وكان غالب بن عبد الله الكلبي الحميري قائد فرسان قبيلة كلب. كما وصل فرسان ورجال قبيلة خثعم بقيادة عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي فلحقوا بجيش جرير، ومضوا إلى العراق، وكان جرير هو الأمير القائد العام منذ الانطلاق من المدينة.

قال المسعودي في مروج الذهب: «كان جرير بن عبد الله البجلي قدم على عمر ـ في قبيلة بجيلة ـ فسَرَّحهم نحو العراق، وجعل لهم ربع ما ظهروا عليه من السواد، وخرج عمر بن الخطاب فَشَيّعهم، فلحق جرير بناحية الأُبلَّة، ثم صَاعَدَ إلى ناحية المزار»[1].

وقد ذكر البلاذري أنه «سَلَك جرير الطريق على فَيْد وثعلبه إلى العذيب». ومنطقة فَيْد وثعلبة من مناطق قبيلة طيء في الطريق بين نجد والعراق. مما يشير إلى اجتماع فرسان قبيلة طيئ في تلك المنطقة بقيادة عروة بن زيد الخيل الطائي، فساروا مع جرير إلى العراق تحت القيادة العامة لجرير، ولذلك كان الجيش الذي دخل العراق بقيادة جرير زهاء عشرة آلاف، بينما كانت بجيلة أربعة آلاف مما يدل على أن الجيش كان قد ضَمّ فرسان قبائل طيء وأزد السراة وكلب وخثعم، وكذلك الذين كانوا انسحبوا بعد موقعة الجسر إلى مناطق نجد والمدينة، فانطلقوا جميعاً إلى العراق بقيادة أميرهم جرير بن عبد الله البجلي، وتذكر الروايات جميعهم بأنهم بَجِيلة، وهم من بجيلة وغيرها وإنما كان أميرهم جميعاً جرير.

وقد كان في منطقة (أليس) من أطراف العراق المثنى بن حارثة الشيباني مع الذين انسحبوا معه من موقعة الجسر إلى (أليس)، وقد شاع في بعض الروايات الزعم بأن جرير بن عبد الله وجيشه كان مدداً للمثنى بن حارثة وإن المثنى كان الأمير، ومما يساهم في إدراك الحقيقة ما حدث بعد انتصار جرير في موقعة المذار ـ الآتي ذكرها ـ فقد ذكر الطبري أنه:

«أقبل جرير حتى إذا مَرّ قريباً من المثنى بن حارثة كتب إليه المثنى أنْ أقْبِل إليّ فإنما أنت مَدَدٌ لي. فكتب إليه جرير أني لست فاعلاً إلّا أن يأمرني بذلك أمير المؤمنين، فأنت أمير وأنا أمير. ثم سار جرير نحو الجسر، فكتب المثنى إلى عمر يمحل بجرير، فكتب عمر إلى المثنى: إني لم أكن لأستعملك على رجل من أصحاب محمد ﷺ يعني جريراً ـ رضي الله عنه ـ»[2] وبذلك

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ جـ٢ ص٣١٩.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٧٨.

تتبين الحقيقة التي يشير إليها أيضاً قول بشر بن ربيعة الخثعمي فيما بعد:

«وخيرُ أميـر بالعـراق جريـر»

وتؤكد النبأ اليقين المواقع والفتوحات العظيمة التي قادها الأمير جرير بن عبد الله البجلي في العراق.

موقعة فتح المذار:

كانت منطقة المذار أول منطقة من العراق تقدم إليها جرير، وفي ذلك ذكر المسعودي في مروج الذهب مسير جرير إلى العراق وأنه «لحق جرير بناحية الأُبُلَّة ـ أي دخل ناحية الأُبلَّة ـ ثم صَاعَدَ إلى ناحية المزار» ـ وهي المذار ـ «ونَمَىٰ قدوم جرير إلى المَرْزُبان ـ وهو مَرْزُبان المذار ـ وكان في عشرة آلاف من الفرس الأساورة، فقالت بَجِيلة لجرير: اعْبُر إليهم، فقال: ليس ذلك بالرأي، ولكن أمهِلُوا القوم فإن جمعهم كثير حتى يعبروا إليكم، فإنْ فعلوا فهو الظفر إن شاء الله تعالى. فأقامت الفُرس أياماً، ثم أخِذوا في العبور، فلما عبر منهم النصف أو نحوه، حمل عليم جرير فيمن تَسَرَّعَ معه من بَجِيلة، فثبتوا ساعة، فَقُتِلَ المَرْزُبان، وأخذهم السيف، وغرق أكثرهم، وأخذ المسلمون ما كان في عسكرهم»[1]. وبذلك تم لجرير فتح منطقة المذار، ومَرّ بالمناطق الواقعة بين المذار وبين منطقة بانقيا من أعمال الحيرة فدخلت في طاعته.

موقعة النخيلة والبويب (رمضان ١٣هـ):

قال المسعودي في مروج الذهب: «ثم سار جرير ـ من المذار ـ فاجتمع معه المثنى بن حارث الشيباني في النخيلة، فأقبل إليهما مهران في جيوشه»[1]. وقد وقع احتشاد كبير من الجانبين في النخيلة والبويب بمنطقة الحيرة، وكان جرير قد أقبل نحو الجسر ـ الممتد بين النخيلة والبويب ـ قال ابن إسحاق: «أقبل جرير ثم سار نحو الجسر، فلقيه مهران وجيشه عند النخيلة» بينما ذكر البلاذري أنه كان مهران وجيش الفرس بالبويب، (وعكسر المسلمين بالنخيلة). ويتبين من ذلك أن البويب والنخيلة في نفس الموضع وبينهما جسر فوق النهر، وقد تجمع جيش الفرس في منطقة البويب بينما تمركز جرير بن عبد الله بجيشه في منطقة النخيلة، وأخذت الإمدادات تتدفق إلى الفُرس وقائدهم مهران في البويب، وتقول الروايات أنهم بلغوا أكثر من مائة ألف، وكان جيش جرير نحو عشرة آلاف، فانضم إليه

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ جـ٢ ص٣١٩.

المثنى بن حارثة والذين معه وكانوا قد بلغوا نحو ثلاثة آلاف، قال الطبري: «وأتى فتية من نصارى بني تغلب العرب بالعراق. فقالوا: نقاتل العجم مع العرب، وانضموا إلى المسلمين»، ويبدو أن عدداً غير قليل من عرب الحيرة انضموا إلى الجيش العربي الإسلامي في النخيلة بقيادة الأمير جرير بن عبد الله البجلي. ثم التقى الجيشان وتقاتلا في أواخر شهر رمضان سنة ١٣هـ، وكان من أصح أنباء الموقعة في المصادر التاريخية أنه:

ـ (سار جرير فاجتمع معه المثنى في النخيلة، فأقبل إليهما مهران في جيوشه، فامتنع المسلمون من العبور إليهم، فعبر مهران، فالتقوا وصبر الفريقان جميعاً..)[١].

وعزم جرير على المسلمين في الفطر، فأفطروا عن آخرهم ليكون أقوى لهم، وعبر الجيش، وجعل يمر على كل راية من رايات الأمراء على القبائل، ويعظهم، ويحثهم على الجهاد والصبر، وقال: إني مُكبر ثلاث تكبيرات فتهيأوا، فإذا كبرتُ الرابعة فاحْمِلُوا. فَقَابَلوا قوله بالسمع والطاعة والقبول. فلما كبَّر أول تكبيرة عاجلتهم الفرس ـ بالهجوم ـ فحملوا حتى غالقوهم، واقتتلوا قتالاً شديداً.

ورأى المثنى خللاً في بعض الصفوف، فبعث إلى جرير، فبعث جرير إليهم يقول: لا تفضحوا العرب اليوم، فاعْتَدَلُوا. وفي رواية أخرى أنه بعث إليهم يقول: يا معشر المسلمين عاداتكم، انصروا الله ينصركم.

(ولما التقى الزحفان، أتى فتية من نصارى بني تغلب العرب بالعراق، فقالوا: نقاتل العجم مع العرب، وانضموا إلى المسلمين، فقاتلوا قتالاً شديداً).

قال الطبري: قال ابن إسحاق: وَحُدِّثْتُ أن مهران لقي جريراً قال:

إنْ تسألوا عني فإني مهرانْ ... أنا لِمَنْ أنكرني ابن باذانْ

قال ابن إسحاق: فأنكرتُ ذلك، حتى حدثني مَنْ لا أتَهِمُ مِنْ أهل العلم إنه كان عربياً نشأ مع أبيه باليمن، إذْ كان عاملاً لكسرى ـ يعني أنه عربيّ اللسان أو يتكلم العربية[٢].

وكان مهران على فرس له ورد مجفّف بتجفاف أصفر بين عينيه هلال وعلى ذنبه أهله. وكان على مجنبتي مهران: ابن الأزاذب مرزبان الحيرة، ومَرْدا شاه ـ بهمن بن جاذويه ـ.

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ جـ٢ ص٣١٩.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٧٨.

(وجعل جرير جماعة من الأبطال يحمون ظهره، وحمل على مهران فأزاله من موضعه.. وحمل المسلمون حملة رجل واحد محققين صابرين حتى قتل الله مهران وهَزَمَ الكفرة، فاتبعهم المسلمون يقتلونهم بقية ذلك اليوم وتلك الليلة ومِنْ أبعد إلى الليل)(١).

قال المسعودي في مروج الذهب ـ بعد قوله في الفقرة السابقة ـ (فعبر مهران): ـ

«.. فالتقوا، وصبر الفريقان جميعاً. حتى قُتِل مهران، قتله جرير بن عبد الله البجلي وحسان بن المنذر، ضربه البجلي، وطعنه ـ الآخر ـ»(٢).

وجاء في تاريخ الطبري: «اقتحم جرير على مهران فاحتز رأسه، وشد المنذر بن حسان فطعنه».

وقال البلاذري في فتوح البلدان: «التقى المسلمون وعدوهم، فأبلى شرحبيل بن السمط الكندي يومئذ بلاءً حسناً.. وحمل المسلمون حملة رجل واحد محققين صابرين، فقتل الله مهران وهزم الكفرة، فاتبعهم المسلمون يقتلونهم.. وكان الذي قتل مهران جرير بن عبد الله البجلي والمنذر بن حسان»(٣).

وذكر ابن خلدون عن رواية سيف التميمي إنه «.. انهزم الفرس وسبقهم الحارث والمسلمون إلى الجسر فهربوا مصعدين ومنحدرين، واستلحمتهم خيول المسلمين، وقُتِلِ فيها مائة ألف أو يزيدون ـ من الفُرس ـ وأُحْصِيَ مائة رجل من المسلمين قتل كلُ واحد منهم عشرة، وتبعهم المسلمون إلى الليل».

وقد أجمل الحافظ ابن كثير النباء اليقين عن الموقعة ونتيجتها قائلاً:

«واقع جريرُ بن عبد الله الفُرسَ، وقَتَلَ قائدهم، وهَزَمَهُم عند النخيلة، وقد قُتل من الفرس يومئذ وغرق قريبٌ من مائة ألف. وكانت هذه الوقعة بالعراق نظير اليرموك بالشام، وذلت لها رقاب فارس.. وبعث جرير بالبشارة والأخماس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه»(٤).

وكان انتصار موقعة النخيلة والبويب ـ وهي نفس الموقعة ـ يوم السبت آخر شهر رمضان سنة ١٣هـ. وقال البلاذري: «يُقال أن ما بين يوم النخيلة والقادسية ثمانية عشر

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٧٨.
(٢) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ جـ٢ ص٣١٩.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٤.
(٤) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٢٩.

شهراً». وهو قول قريب من الصواب لأن موقعة القادسية في شهر محرم سنة ١٥هـ وموقعة النخيلة في شهر رمضان سنة ١٣هـ، وهو الزمن الصحيح بتوفيق الله.

ولقد كان من قادة الفرس في موقعة النخيلة (ابن الأزاذب مرزبان الحيرة)، وذلك لأن الموقعة كانت في الحيرة، وبهذا النصر تم الفتح الحقيقي للحيرة، أما مصالحة خالد بن الوليد لأهل الحيرة في خلافة أبي بكر سنة ١٢هـ فبالرغم من أن ذلك كان فتحاً بالمصالحة على أداء الجزية مع عرب الحيرة فإن أثر ذلك انتهى بسيطرة الفرس وجيشهم على الحيرة ومناطقها، فالفتح الحقيقي للحيرة هوالذي تم في انتصار موقعة النخيلة والبويب بقيادة جرير في خلافة عمر بن الخطاب في رمضان سنة ١٣هـ.

فَتْح السيب وساباط: كان فلول الفرس يوم النخيلة قد انسحبوا من الحيرة إلى منطقة (السيب) وكان فيها وفي (ساباط) قوة فارسية، فانطلق الجيش العربي الإسلامي من الحيرة إلى السيب بقيادة الأمير جرير بن عبد الله البجلي ومعه الأمراء القادة على قبائلهم، ومنهم: المثنى بن حارثة الشيباني على ربيعة، وعرفجة بن هرثمة الأزدي على الأزد، وغالب بن عبد الله على قبيلة كلب، وعبد الله بن ذي السهمين على خثعم، وعروة بن زيد الخيلي على طيء، وشرحبيل بن السمط الكندي، وغيرهم. وكان كل قائد يحرض قبيلته.

قال الطبري: «قال المثنى بن حارثة يومئذ: مَنْ يتبع الناس حتى ينتهي إلى السيب.. فقام جرير بن عبد الله في قومه فقال: يا معشر بَجِيلَةْ إنكم وجميع مَنْ شهد هذا اليوم في السابقة والفضيلة سواء ـ [وليس لأحد منهم في هذا الخُمس غَدَاً من النفل مثل الذي لكم منه ولكم ربع خمسه نفلاً من أمير المؤمنين] ـ فلا يكونن أحدُ أسرعُ إلى العدو ولا أشدُ عليه منكم ـ [للذي لكم منه] ـ فإنما تنتظرون إحدى الحسنيين الشهادة والجنة أو الغنيمة والجنة». ونرى أن في هذه الرواية تم حشر كلمات النفل الذي لكم.. الخ. وهي من موضوعات سيف التميمي لأن النفل لم يكن لبجيلة فقط وإنما لكافة الذين كان أميرهم جرير. وقد جاء عن ابن إسحاق والواقدي إنه قال: «**يا معشر المسلمين، انتدبوا في آثار هؤلاء القوم إلى السيب، وابلغوا من عدوكم ما تغيظونهم به، فهو خير لكم وأعظم أجراً، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم**». قال الطبري: فساروا حتى بلغوا السيب فنصرهم الله، وأصابوا من الغنائم شيئاً كثيراً.. وكتب جرير إلى عمر يستأذنه في المضي والتقدم في بلاد فارس، فأذن لهم.. وأغاروا حتى بلغوا ساباط، وتحصن أهل ساباط منهم، فاستباحوا القريات دونها، وراماهم أهل الحصن بساباط، ففتح المسلمون الحصن، وكان أول

من دخل الحصن جرير وعصمه وعاصم[١] وكذلك قال الطبري في موضع لاحق «افتتح جرير والمسلمون ساباط، وتكريت، وميسان»[١]. وقد ذكر ابن خلدون أنه بعد فتح حصن ساباط «.. رجع فلول الفرس من ساباط إلى رستم بالمدائن فاستهانوا ورضوا أن يتركوا ما وراء دجلة». وبما أن موقعة النخيلة وفتح الحيرة كانت في آخر شهر رمضان، وتلاها غزو السيب ـ في شوال ـ ثم (كتب جرير إلى عمر يستأذنه في المضي والتقدم في بلاد فارس، فأذن له) ثم سار جرير بالمسلمين إلى ساباط، فتحصن الجنود الفرس في حصن ساباط، وراموا المسلمين ـ بالنبال وغير ذلك من الحصن ـ إلى أن فتح جرير والمسلمون الحصن، فإن زمن فتح ساباط يكون في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ١٣هـ. قال الطبري «قال ابن إسحاق: توفي المثنى بن حارثة من إصابته في هذه السنة وهي سنة ثلاث عشرة للهجرة» وكذلك قال ابن كثير: «انتقض جرح المثنى بن حارثة الذي كان جرحه يوم الجسر فمات رحمه الله». واستمر جرير أميراً للمسلمين ولجيشهم بالعراق.

فتح بانقيا وبسما باقليم الحيرة: كانت منطقة بانقيا وبسما من المناطق التي قام خالد بن الوليد بمصالحة أهلها وصاحبها (صلوبا بن نسطونا) لما بعثه أبو بكر إلى الحيرة سنة ١٢هـ، وكتب له كتاب مصالة شهد فيه جرير بن عبد الله البجلي في صفر ١٢هـ ـ وقد سلف ذكر ذلك ـ وتكتفي الروايات بذلك الفتح بالمصالحة، بينما الواقع أن ذلك الصلح تلاشى وانتهى وعاد القوم إلى الولاء للفرس إلى أن قام جرير بفتح بانقيا وأعمالها. وفي ذلك جاء في فتوح البلدان للبلاذري أنه:

«غزا بشير بن سعد الأنصاري إلى بانقيا، فلقيته خيل الأعاجم عليها (فرخبنداذ) فرشقوا من معه بالسهام، وحمل عليهم بشير فهزمهم، ثم انصرف وبه جراحة انتقضت به وهو بعين التمر فمات منها. ثم سار جرير إلى أهل بانقيا، فخرج إليه صاحب بانقيا (بصبص بن صلوبا بن نسطونا) فاعتذر من ذلك القتال ـ وإن الفرس أكرهوهم وحشروهم ـ وعرض عليه الصلح، فصالحه جرير على ألف درهم وطيلسان ـ يعني سنوياً ـ وقبض منهم جرير ومِنْ أهل الحيرة صلحهم، وكتب لهم كتاباً..» [ص٢٤٦].

ومما يزيل أي التباس أن صاحب بانقيا وبسما الذي صولح سنة ١٢هـ كان (صلوبا بن نسطونا) ولم يكن آنذاك قتال مع الفرس، بينما في هذا الفتح وقع قتال بين الفرس وقائدهم (فرخبنداذ) وبين قوة إسلامية بقيادة الصحابي بشير بن سعد

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٧ ص٧٧ و٧٨.

الأنصاري فانهزم الفرس، وعاد بشير إلى (جرير بن عبد الله في) عين التمر فمات من الجرح الذي أصابه في المعركة، فسار جرير إلى بانقيا، فاعتذر إليه صاحب بانقيا وبسما وهو هنا (بصبص بن صلوبا بن نسطونا) وطلب الصلح، فصالحه جرير على أداء الجزية وأداء ألف درهم وطيلسان ـ سنوياً ـ وكتب له كتاب الصلح (في حوالي شهر صفر ١٤هـ) وكان هذا الفتح والصلح على يد جرير في خلافة عمر هو الذي استتب، وكان له الدوام.

فَتْح الأنبار وبوازيج الأنبار: كانت مدينة ومنطقة الأنبار وبوازيجها من مناطق العراق التي سكنتها قبائلُ يمانية عربية من الأزد ولخم وغيرهما منذ زمن بعيد في الماضي، وقال البلاذري: «إنما سميت الأنبار لأن إهراء العجم كانت بها، وكان أصحاب النعمان بن المنذر وصنائعه يُعطون أرزاقها منها». ويشير ذلك إلى أنها كانت من إقليم الحيرة.

وكان خالد بن الوليد سار في خلافة أبي بكر ـ باواسط سنة ١٢هـ ـ من الحيرة وبانقيا إلى الأنبار «فتحصن أهل الأنبار، فبعث خالد المثنى بن حارثة وبعض القادة فأغاروا على بعض النواحي وعادوا إلى خالد بالأنبار فحصروا أهلها، وحرقوا في نواحيها، فلما رأى أهل الأنبار ما حلّ بهم صالحوا خالداً على شيء رضي به فأقرهم». فمشاركة المثنى بن حارثة في تلك العمليات بالأنبار أيام خالد ـ سنة ١٢هـ ـ هي أصل ما نقله ابن خلدون والطبري عن رواية سيف التميمي بأن المثنى فتح منطقة الأنبار بعد موقعة النخيلة وفتح ساباط التي تم فتحها في آخر سنة ١٣هـ، والصواب إن خبر المثنى في الأنبار كان أيام خالد من خلافة أبي بكر وقد مات المثنى في أواخر سنة ١٣هـ وكان صلح الأنبار ونواحيها قد تلاشى منذ مسير خالد إلى الشام، ثم قام جرير بن عبد الله البجلي بفتح الأنبار وبوازيج الأنبار ـ أي نواحيها ـ في أوائل سنة ١٤هـ، حيث كما جاء في فتوح البلدان:

«فتح جرير بوازيج الأنبار، وبها قوم من مواليه» [ص٢٤٧].

وفَتَح جرير مدينة الأنبار صلحاً، وفي ذلك قال البلاذري:

«حدثني مشايخ من أهل الأنبار أنهم صالحوا في خلافة عمر رحمه الله على طسوجهم على أربعمائة ألف درهم وألف عباءة قطوانية في كل سنة، وتولى الصلح جرير بن عبد الله البجلي. ويقال: صالحهم على ثمانين ألفاً. والله أعلم». [ص٢٤٧].

فَتْح جرير لبغداد وميسان وعين التمر: وقد امتدت فتوحات جرير من الأنبار وبوازيجها إلى عين التمر وإلى بغداد وتكريت وميسان. وقد أشار الطبري إلى فتح

(عين التمر) قائلاً: «شن جرير الغارات فيما بين أسفل كسكر والفرات ومثقب وعين التمر وما والاها». وقد كان جرير في عين التمر لما سار بشير بن سعد الأنصاري لفتح بانقيا، ومات بشير بن سعد رضي الله عنه في عين التمر، فسار جرير إلى بانقيا وعقد صلحها وعاد إلى جهات عين التمر والأنبار. وقد جاء في تاريخ الأمم والملوك للطبري أنه:

«افتتح جرير والمسلمون بغداذ، وساباط، وتكريت، وميسان». [ص٧٨ جـ٧].

وبغداذ هي بغداد، ولم تكن مدينة، وإنما كانت سوقاً للفرس وغيرهم. قال البلاذري: «كانت بغداد قديمة.. وسُمّي المخرم ببغداد مخرماً لأن مخرم بن شريح بن حزن الحارثي نَزَلَهُ. وكانت ناحية قنطرة البردان للسري بن الحطيم صاحب الحطيمة التي تُعرف ببغداد».

وقد كان من فتوح جرير قرية (بادوريا) وهي ذات علاقة ببغداد، فعندما اختط الخليفة أبو جعفر المنصور مدينة بغداد اشترى أرض مدينة بغداد من قوم من أرباب القرى بادوريا، وقطربل، ويهزبوق، ونهربين».

بقية فتوح جرير سنة ١٤هـ: وقد امتدت فتوحات جرير والمسلمين بقيادته ما بين عين التمر وما والاها شمالاً ومنطقة الأبُلة ـ وهي البصرة ـ جنوباً ـ وتجاوزت نهر دجلة والفرات ـ شرقاً ـ فقد ذكر البلاذري أنه: «أتى المسلمون حصن مليقيا وكان منظرة ففتحوه وأجلوا العجم عن مناظر كانت بالطف. وعبر بعض المسلمين نهر سورا، فأتوا كوثي، ونهر الملك، وبادوريا، وبلغ بعضهم كلواذي». ويوجد التباس في زمن ذلك، والثابت ما ذكره الطبري بأنه:

«شنّ جرير الغارات فيما بين أسفل كسكر، وأسفل الفرات، وجسور مثقب، إلى عين التمر وما والاها، وأرض الفلاليج، والغار.. وتوغل بعض القادة فكانوا في أمواه العراق.. وكان جرير في غُضّى، وغُضّى بحيال البصرة». [ص٨٢ جـ].

وبذلك تجاوزت فتوح جرير إقليم الحيرة بمدلوله الواسع القديم في سائر الاتجاهات، واستشعر الفرس عظيم الخطر فاستنفروا قواتهم من أرجاء الأمبراطورية الفارسية إلى الملك كسرى يزدجرد والقائد رستم في (المدائن) ومنطقة (رس)، وتم إبلاغ الخليفة عمر بن الخطاب بذلك فقام باستنفار واسع العرب المسلمين إلى العراق، ثم أسند إمْرَة وقيادة المسلمين إلى سعد بن أبي وقاص، وذلك في حوالي أواسط سنة ١٤هـ.

* * *

جرير . . في القادسية

قال الحافظ ابن كثير: «كان على ميمنة المسلمين يوم القادسية جرير بن عبد الله البجلي، وعلى الميسرة قيس بن مكشوح المرادي»(١). ويدل كون جرير قائد ميمنة الجيش الإسلامي على أنه كان بمثابة الرجل الثاني ـ بعد سعد ـ في القادسية، لأن قيادة الميمنة يتولاها الرجل الثاني في إمرة وقيادة الجيش.

ومن المفيد بشأن القادسية الإشارة إلى ما يلي:

ـ منذ منتصف سنة ١٤هـ أخذت الإمدادات تتدفق إلى الجيش الفارسي، وكان الجيش الفارسي بقيادة رستم في منطقة (رس) ثم عسكر ما بينها وبين السليحين أربعة أشهر، وأخذ يزدجرد يبعث إليه بالجيوش يعقب بعضها بعضاً.

ـ بينما في ذات الفترة كانت المستنفرون العرب يتدفقون إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة ثم ينطلقون إلى العراق، قال الطبري: «وكان فيهم من حضرموت والصدف ستمائة عليهم شداد بن ضمعج. وألف وثلاثمائة من مذحج على ثلاثة رؤساء: عمرو بن معدي كرب على بني منبه، وأبو سبرة بن ذؤيب على جُعْفيٰ، ويزيد بن الحارث الصُّدائي على صداء وجنب ومُسلية». ثم ألفان وثلاثمائة من أهل السروات والنخع، وعلى أهل السروات حميضة بن النعمان البارقي، وهم بارق وألمع وغامد وإخوتهم في سبعمائة من أهل السراة. وأما النمع فوصلوا بذراريهم ونسائهم ومقاتلتهم، فقال لهم عمر: «إن الشرف فيكم يا معشر النخع لمُتربع».

ـ وفي ذات الفترة انطلقت الإمدادات من الجيش العربي الإسلامي في الشام والذي كان قد افتتح دمشق في رجب سنة ١٤هـ وكان قيس بن مكشوح المرادي من قادة فتح دمشق. قال البلاذري: «كتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح: ابعث قيس بن مكشوح إلى القادسية فيمن انتدب معه، فانتدب مع قيس خلق، فقدم متعجلاً إلى القادسية». وقال ابن خلدون: «كان عمر بعد فتح دمشق عزل خالد بن الوليد وأمَّرَ أبا عبيدة بن الجراح، فأمره أن يؤمر على جند العراق هاشم بن عتبة ويردهم إلى العراق، فخرج بهم هاشم وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو» ويؤكد ذلك الزمن الصحيح لموقعة القادسية لأن فتح دمشق كان في رجب سنة ١٤هـ وانطلقت الإمدادات بعد ذلك إلى العراق والقادسية، وقد وصل قيس بن مكشوح والكثير من القادة بفرسانهم ورجال قبائلهم إلى العراق في أواسط وأواخر سنة ١٤هـ كما تواصلت الإمدادات من قبائل اليمن، ومنهم (أربعمائة من السكون عليهم معاوية بن

---

(١) البداية والنهاية ـ جـ٧ ص٤٣.

حُديج السكوني والحصين بن نمير، وعدة آلاف من همدان ومن بني الحرث بن كعب ومن خزاعة وطيء وغيرهم. وألف وسبعمائة من كندة عليهم الأشعث بن قيس الكندي). قال الطبري: «وكان جرير بن عبد الله البجلي بغُضَى، وغُضَى جبال البصرة.. وتوغل بعض القادة ومنهم سبرة بن أبي رهم فكانوا في أمواه العراق.. والعراق من أولها إلى آخرها مسالح للمسلمين، بعضهم ينظر إلى بعض، ويغيث بعضهم بعضاً».

- وأسند عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص قيادة المسلمين، وكان سعد عاملاً على صدقات هوازن، فأحضره عمر وولاه حرب العراق. قال ابن خلدون: «وسار سعد إلى سيراف فنزلها، واجتمعت إليه العساكر، ولحقه الأشعث بن قيس ومعه ثلاثون ألفاً». وقال الطبري: (كان مع الأشعث ألف وسبعمائة من كندة). قال: «وبعث سعد المغيرة بن شعبة فأتى غُضيا ونزل على جرير، فانتشر المسلمون ما بين غضَى إلى الجبانة». ثم تجمع المسلمون إلى القادسية، وتجمع الفرس وساروا إلى القادسية. قال ابن خلدون: «سار رستم فنزل القادسية بعد ستة أشهر من خروجه من المدائن في ستين ألفاً، وعلى مقدمته الجالنوس في أربعين ألفاً، وساقته عشرون ألفاً. وفي الميمنة الهرمزان وفي الميسرة ابن بهرام الرازي، ومعه ثلاثة وثلاثين فيلاً». وقال البلاذري: «كان المشركون مائة ألف وعشرين ألفاً ومعهم ثلاثون فيلاً، ورايتهم العظمى التي تدعى درفشكابيان».

- وكان سعد قد أتى القادسية فنزلها بحيال القنطرة بين العتيق والخندق.. واختط سعد قصره، ونزل بالقصر ثم أصابه مرض قبل موقعة القادسية. قال ابن خلدون: «كان بسعد عرق النساء وأصابته معه دماميل لا يستطيع معها الجلوس، فصعد على سطح القصر راكباً على وسادة في صدره وأشرف على الناس.. ثم خطب الناس وحثهم على الجهاد وذكرهم بوعد الله. وذلك في شهر المحرم.. وبرز أهل النجدات. فأشبوا القتال».

وكان جيش الفرس زهاء مائة وعشرين ألفاً، وقال الطبري كان المسلمون «بضعة وثلاثون ألفاً» ولعل الأصوب أنهم كانوا زهاء خمسين ألفاً ونيف، لأنه كان مع جرير في العراق منذ موقعة النخيلة زهاء عشرة آلاف ثم انضم إليهم زهاء ثلاثة آلاف من ربيعة كانوا مع المثنى بن حارثة، فأصبحوا زهاء ثلاثة عشر ألفاً، ثم بعث عمر المستنفرين إلى القادسية وكانوا زهاء ثلاثين ألفاً، والذين وصلوا من جيش الشام وكانوا زهاء تسعة آلاف، فبلغ المسلمون بضعة وخمسين ألفاً.

* * *

وقد اندلعت موقعة القادسية يوم الخميس من شهر محرم سنة ١٥هـ ويُسمى اليوم الأول (يوم رماة)، قال ابن خلدون: «وطلب البراز أسوار ـ أي قائد ـ من الفُرس، فبرز إليه عمرو بن معدي كرب فأخذه وجلده الأرض فذبحه، ثم حملوا ـ أي الفرس ـ بالفيّلة على المسلمين وأمالوها على بَجيلة فثقلت عليهم». وذلك أنه ـ كما ذكر الطبري وابن كثير ـ «عَلِم الفُرس أن بأس المسلمين في الجانب الذي فيه بَجِيلَة وكانوا ربع الناس ـ أي ربع جيش المسلمين ـ فوجهوا إليهم ستة عشر فيلاً، وإلى سائر المسلمين فيلين. وجعلوا يلقون تحت أرجل خيل المسلمون حسك الحديد، ويرشقونهم بالنشاب ـ أي النبال ـ وكان فيهم أسوار لا تكاد تسقط له نشابه. فقالت بَجِيلة ـ أو قال جرير ـ لعمرو بن معدي كرب: يا أبا ثور نُقْ ذلك الفارسي، فحمل عليه عمرو فاعتنقه وذبحه». وذكر ابن خلدون أنه لما أمال الفُرس بالفيّلة على بَجِيلة ثقلت عليهم، (فأرسل سعد إلى بني أسد أن يدافعوا عنهم، فجاءة طليحة بن خويلد وحمل بنو مالك فردوا الفيلة، وحمل طليحة على عظيم منهم فقتله، وعيّر الأشعث بن قيس كندة بما يفعله بنو أسد فاستشاطوا ونهدوا معه فأزالوا الذين بإزائهم).

وفي اليوم التالي ـ وهو يوم عماس ـ قال البلاذري: «حمل عمرو بن معدي كرب فاعتنق عظيماً من الفرس فوضعه بين يديه في السرج وذبحه، وقال: أنا أبو ثور افعلوا كذا. ثم حطم فيلاً من الفيلة ـ أي حطم نوابتها التي على ظهرها ـ وقال: الزموا سيوفكم خراطيمها فإن مقتل الفيل خرطومه». فانطلقت بَجِيلة وغيرها وحطموا نوابات الأفيال. وفي اليوم الثالث، قال ابن خلدون: «أصبح الفرس على مواقفهم، وأعادوا الصناديق على الفيلة، وأحدقوا الرجال بها يحمونها أن تُقطع وضنها. . وكان ذلك اليوم شديداً إلا أن الطائفتين فيه سواء، وأبلىٰ فيه قيس بن مكشوح وعمرو بن معدي كرب».

وفي اليوم الرابع ـ وهو يوم القادسية ـ آخر أيام الموقعة، وكما ذكر ابن كثير: «كان على ميمنة المسلمين جرير بن عبد الله البجلي وعلى الميسرة قيس بن مكشوح المرادي».

قال الواقدي: «وحمل عمرو بن معدي كرب يومئذ وفعل بالعدو الأفاعيل، ولحق به المسلمون. . وشد عمرو على رستم وهو على فيل، فضرب فيلة فجذم عرقوبيه فسقط الفيل» فانقلب رستم عن سريره وهوى به صندوقه في العتيق، فحمل إليه قيس بن مكشوح فقتله، وكذلك حمل إليه كل من عمرو بن معدي كرب، وطليحة، وزهير البجلي، وكثير بن شهاب الحارثي، وهلال بن علفة التميمي،

فضربوه بالسيوف والنبال. قال البلاذري: «قاتل قيس بن مكشوح يومئذ قتالاً شديداً وقتل رستم.. وقد وُجِد بدن رستم مملوءاً ضرباً وطعناً، فلم يُعلم من قاتله، وكان قد مشى إليه ـ أيضاً ـ عمرو بن معدي كرب، وطليحة، وقيل: إن زهير البجلي قتله، وقيل: هلال بن علفة التميمي». قال الهمداني: الثبت أن الذي قتل رستم قيس بن مكشوح المرادي. وبعد مقتل رستم أحدقت الهزيمة بالفرس. قال ابن خلدون: «قُتل منهم ذلك اليوم عشرة آلاف في المعركة، وستة آلاف بالخندق». قال ابن كثير: «أبْلَىٰ جماعة من الشجعان مثل عمرو بن معدي كرب، وجرير بن عبد الله، وقيس بن مكشوح، يوم القادسية».

وانسحب فلول الفرس من القادسية بقيادة الجالنوس، (فلحق بهم جرير، وقيس بن مكشوح، وعمرو بن معدي كرب، والأشعث بن قيس، وزهرة بن حيوة، وكثير بن شهاب الحارثي، في فرسان من المسلمين، فأصابوا، وغنموا)، وأمر سعد القعقاع وشرحبيل بن السمط الكندي باتباع العدو، فاشتركوا في ذلك، ولحق زهرة بن حيوة وكثير بن شهاب الحارثي بالجالنوس، قال البلاذري: «فجعل المسلمون يقتلون من لحقوا حتى انتهوا إلى برس.. فلحقوا جالنوس، فحمل عليه كثير بن شهاب فطعنه، ووثب زهير بن حيوة فقتله.. وهرب الفرس إلى المدائن». وجاء في تاريخ الطبري إنه: «انهزمت الفرس من القادسية فلحقوا بدير قُرّة.. ونهض المسلمون إلى دير قُرّة، فهربت الفُرس من دير قُرَّة إلى ـ اتجاه ـ المدائن.. واتّبعهم المسلمون وعلى ميمنتهم جرير بن عبد الله البجلي.. فأصاب المسلمون من الفيء أفضل مما أصابوا بالقادسية» فهرب فلول الفرس إلى المدائن، وعاد جرير بالمسلمين والغنائم إلى القادسية وإلى قصر سعد في العذيب، وكتب سعد بالفتح إلى عمر بن الخطاب، وأقام المسلمون بالقادسية ينتظرون كتاب عمر.

هوامش على موقعة القادسية وأنباء جرير

قال ابن خلدون «وكانت وقعة القادسية في محرم سنة أربع عشرة، وقيل خمس عشرة، وقيل ست عشرة» [اهـ] والصواب أنها في محرم سنة ١٥هـ، ومن الدلائل على ذلك أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح بعد فتح دمشق بأن يبعث قيس بن مكشوح المرادي فيمن انتدب معه إلى العراق، ثم كتب إليه أن يبعث جند العراق الذين كانوا مع خالد بن الوليد لما سار إلى الشام وشهدوا اليرموك وفتح دمشق، فبعثهم مع هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو إلى القادسية، وكذلك كان عمرو بن معدي كرب، ومعاوية بن حُديج، وعدي بن حاتم الطائي ممن شهدوا اليرموك وفتح دمشق ثم شهدوا القادسية، وكان فتح دمشق في رجب

سنة ١٤هـ والقادسية بعد ذلك بعدة شهور، فتكون في محرم سنة ١٥هـ، وقد ذكر البلاذري أن «بين موقعة النخيلة وموقعة القادسية ثمانية عشر شهراً». وقد كانت موقعة النخيلة في رمضان ١٣هـ وكان أمير المسلمين جرير بن عبد الله البجلي، فتكون القادسية في أواخر شهر محرم سنة ١٥هـ وكان جرير قائد ميمنة المسلمين في انتصار القادسية، وهو بمثابة الرجل الثاني بعد الأمير سعد بن أبي وقاص الذي لم يشهد المعركة لأنه كان مريضاً في قصره بالعذيب.

وتقول رواية أوردها الطبري وابن كثير أنه بعد انتصار القادسية (قال جرير بن عبد الله البجلي:

أنـا جـريـرٌ، وكُـنْـيـتِـي أبـو عـمـر ... قـد نَـصَـرَ الـلَّـهُ وسَـعْـدُ فـي الـقَـصَـر

وقال رجل منهم ـ أي من بَجِيلة ـ أيضاً:

نُـقـاتِـلُ حـتـى أنْـزَلَ الـلَّـهُ نَـصْـرَهُ ... وسـعـدُ بـبـاب الـقـادسـيـة مُـعْـصِـمُ
فـأُبْـنـا وقـد آمتْ نـسـاءُ كـثـيـرةٌ ... ونِـسـوةُ سَـعْـدٍ لـيس فـيـهِـنّ أيّـمُ

ولما بلغ ذلك من قولهما سعداً، خرج إلى الناس فاعتذر إليهم وأراهم ما به من القُرح في فخذيه وأليتَيْه، فعذره الناس، ولم يكن سعد يجبن. وقال سعد يُجيب جريراً فيما قال:

ومـا أرجـو بَـجِـيـلـة غَـيْـرَ أنـي ... أؤمِـلُ أجـرهـم يـوم الـحـسـاب
فـقـد لـقـيـت خـيـولـهـمُ خـيـولاً ... وقـد وقـع الـفـوارسُ فـي ضـرابِ
وقـد دلـفـتْ بـعـرصـتـهـم فـيـولُ ... كـأنّ زُهـاءهـا إبـلُ جـراب)

[ص٤١ جـ٤].

والواقع أن الشعر المنسوب إلى سعد إنما قيل في زمن لاحق وما كان سعد ليفتخر بأن خيول وأفيال الفرس اقتحمت عسكر جرير وبجِيلة الذين كانوا ـ فيما ذكر الطبري ـ (رُبع المسلمين)، أما الشعر المنسوب إلى رجل من بجيلة والذي فيه (وسعد بباب القادسية معصم) فقد ذكر البلاذري وغيره من العلماء أنه لكثير بن شهاب الحارثي، أو لبشر بن ربيعة الخثعمي، وكان كثير بن شهاب وبشر بن ربيعة اتهما سعداً بعدم العدالة في توزيع الغنائم، وقال بشر الخثعمي أبياتاً منها قوله:

وسـعـدُ أمـيـرُ خـيـره دون شـرِّه ... وخـيـر أمـيـر بـالـعـراق جـريـر

وبعث كثير بن شهاب وبشر بن ربيعة تلك الأشعار إلى عمر بن الخطاب فكتب عمر إلى سعد أن يعطيهما بقدر بلائهما في الحرب، لأنهما كانا من الأبطال الشجعان، وكان كثير بن شهاب هو الذي قتل الجالنوس، فأعطاهما سعد على قدر

بلائها من الغنائم. ويتبين من ذلك عدم صحة مزاعم تلك الرواية التي هي من موضوعات وتلفيقات سيف بن عمر التميمي للإساءة إلى جرير وإلى سعد معاً، وللتقليل من الدور القيادي لجرير في تحقيق انتصار القادسية من خلال تلفيق مثل تلك المهاترات، بينما الحقيقة أن العلاقة بين جرير وسعد في القادسية وما بعدها من فتوح العراق كانت مثالاً للتقدير المتبادل والأخلاق السامية لأصحاب رسول الله ﷺ، فقد ذكر ابن عبد البر القرطبي في كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) أنه: «قَدِم جرير بن عبد الله البجلي على عمر بن الخطاب من عند سعد بن أبي وقاص بعد فتح المدائن، فقال له عمر: كيف تركت سعداً؟ قال جرير: تركته أكرم الناس مقدرة وأحسنهم معذرة، هُوَلَهُمْ كالأُم البرّة تجمع لهم كما تجمع الذرة، ميمون الأثر مرزوق الظفر». وسيأتي نبأ ذلك بعد فتح المدائن.

ما بين القادسية وفتح المدائن

تنتقل بعض الروايات من فتح القادسية إلى بناء فتح المدائن، مما يؤدي إلى التباس الزمن، وذلك لأن بين القادسية ـ في محرم ١٤هـ ـ وبين المدائن ـ في صفر ١٥هـ ـ فترة سنة كاملة، وكان من معالم تلك الفترة ما يلي:

كتب سعد إلى عمر بالفتح، قال ابن خلدون «وأقام المسلمون بالقادسية ينتظرون كتاب عمر إلى أن وصلهم بالإقامة» وذكر الطبري أنه «كان مُقام سعد بالقادسية بعد الفتح شهرين في مكاتبة عمر في العمل بما ينبغي». [ص١٦٥/ ٤]. ثم بعد شهرين «كتب إليه عمر: أن قف مكانك ولا تطلبوا غير ذلك، واتخذ للمسلمين دار هجرة وجهاد».. وقد اقترن ذلك بما ذكره ابن كثير من أنه «كتب عمر إلى سعد أن يبعث جيشاً إلى أبي عبيدة بالشام فإنه محاصر. وأن يبعث جيشاً إلى أهل الجزيرة ـ الفراتية ـ الذين مالأوا الروم على محاصرة أبي عبيدة في حمص». وقد كان ذلك من العوامل الرئيسية لتهدئة جبهة العراق، فقد سار إلى دمشق الكثير من القادة بفرسانهم، منهم قيس بن مكشوح، عمرو بن معدي كرب، عياض بن غَنْم، شرحبيل بن السمط، عدي بن حاتم، وعشرات القادة وآلاف الفرسان والجنود، فانضموا إلى أبي عبيدة بن الجراح والمسلمين بدمشق في ربيع الثاني سنة ١٥هـ وشهدوا موقعة نهر اليرموك في رجب ١٥هـ ثم أجنادين الثانية، ثم إعادة فتح حمص في حوالى شهر شوال ١٥هـ.

وخلال تلك الفترة، وتنفيذ الكتاب عمر إلى سعد باتخاذ دار هجرة ومنزل جهاد ـ أي مدينة عاصمة للمسلمين ـ «نزل سعد بالناس مدينة الأنبار» وقد تقدم

ذكر افتتاح جرير للأنبار، قال البلاذري: «فتح جرير بوازيج الأنبار، وبها قومٌ من مواليه» وقال: «حدّثني مشايخ من أهل الأنبار أنهم صالحوا في خلافة عمر، على طسوجهم على أربعمائة ألف درهم وألف عباءة قطوانية في كل سنة، وتولى الصلح جرير بن عبد الله البجلي. ويقال: صالحهم على ثمانية ألفاً». [ص٤٧]. فتوح البلدان.

وقد نزل سعد بن أبي وقاص بالناس الأنبار، والناس هم الذين معه من الجيش العربي الإسلامي، وقد كان أغلبهم معهم عائلاتهم، فأقاموا شهوراً بالأنبار فلم توافقهم، وجاء في كتاب الوثائق السياسية أنه «نزل سعدُ بالناس الأنبار فاجتووها وأصابتهم الحُمَى، فكتب سعد إلى عمر يخبره بذلك». [ص٤١٦]. ثم «سار سعد حتى نزل كُويفة عمر بن سعد فلم توافق الناس مع الذباب والحُمى».. ثم نزلوا في الحيرة.

وفي أواخر شوال سنة ١٥هـ ـ وبناء على تعليمات عمر ـ بعث سعد جيشاً لفتح جهات المدائن، وكان المسلمون يريدون التوجه إليها بعد القادسية فأمرهم عمر بالوقوف، بينما كان الموقف قد تغير في شوال ـ وبالذات في الشام ـ فبعث سعد جيشاً من المسلمين، وكان قائد ميمنة الجيش جرير بن عبد الله البجلي. وفي ذلك ذكر الطبري عن محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أبي خالد أنه «بعث سعد خالد بن عرفطة، وجعل على مقدمة الناس هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعلى ميمنتهم جرير بن عبد الله البجلي، وعلى ميسرتهم زهرة بن حويّة التميمي، وتخلف سعد لما به من وجع، فلما أفرق سعد من وجعه اتبع الناس بمن بقي معه من المسلمين حتى أدركهم دون دجلة على بُهُرسير». [ص١٤١ جـ٤].

وكان مسير خالد بن عُرفطة وهاشم بن عتبة وجرير بن عبد الله البجلي بالجيش «لأيام بقين من شوال» قال البلاذري في فتوح البلدان «مضى المسلمون فلما جاوزوا دير كعب لقيهم (النخير خان) إليها وبدا في جمع عظيم من أهل المدائن فاقتتلوا وعانق زهير بن سليم الأزدي النخير خان فسقط إلى الأرض وأخذ زهير خنجراً كان في وسط النخير خان فشق بطنه فقتله». [ص٢٦٢] وكان النخير خان من كبار أمراء الفرس فقتله في ذلك اليوم البطل اليماني زهير بن سليم الأزدي.

قال البلاذري «وسار سعد والمسلمون فنزلوا ساباط واجتمعوا بمدينة بهرسير» والصواب أن فتح ساباط كان قبل قدوم سعد، افتتحها خالد بن عرفطة وجرير بن عبد الله البجلي، وجاء في رواية ابن إسحاق بتاريخ الطبري أن المسلمين «ساروا حتى انتهوا إلى مُظْلم ساباط فخشوا أن يكون به كمين للعدو فتردد الناس، فكان

أول من دخله بجيشه هاشم بن عتبة فلما أجاز عرف الناس أن ليس به شيء يخافونه فأجاز بهم خالد بن عرفطة». [ص١٤١ جـ٤] وقال البلاذري: «حدّثني عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة بن الحكم، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى حدّثني أبو عمرو بن العلاء، قال: وَجّه سعد بن أبي وقاص خالد بن عرفطة، فلم يَرِدْ سعد حتى فتح خالد ساباط». [ص٢٦٣ فتوح البلدان]. وقال الطبري: «فتح جرير بن عبد الله والمسلمون ساباط، وتكريت، وميسان». [ص٧٨ جـ٤] ويتبين من ذلك أن جرير بن عبد الله كان من قادة فتح ساباط مع خالد بن عُرفطة وهاشم بن عتبة، وكان فتح ساباط في ذي القعدة سنة ١٥هـ ثم سار المسلمون من ساباط إلى مدينة بَهُرَسير فنزلوا حولها وكان على ميمنة الجيش جرير بن عبد الله البجلي، ثم أتى سعد بِمَنْ بَقَي معه من المسلمين فأدركهم في بَهُرَسير دون نهر دجلة، فحاصروا بَهُرَسير، وذلك في ذي الحجة ١٥هـ. قال البلاذري: «وكان أهل مدينة بَهُرَسير يقاتلونهم فإذا تحاجزوا دخلوها، فلما فتحها المسلمون هرب يزدجرد من المدائن، ومضى إلى حلوان ومعه وجوه أساورته وحمل معه بيت ماله وخَفَّ متاعه وخزانته والنساء والذراري، ثم عبر المسلمون خوضاً ففتحوا المدينة الشرقية». قال الواقدي: «.. كان الفرس قد رفعوا السفن والمعابر إلى الجيزة الشرقية وحرقوا الجسر، فاغتم سعد والمسلمون إذْ لم يجدوا إلى العبور سبيلاً، فانتدب رجل من المسلمين فسبح فرسه وعبر فسبح المسلمون..» وذكر البلاذري أن المسلمين لم يجدوا معبراً «فَدَلّهُم رجلٌ على مخاضة عند قرية الصيادين فأخاضوها الخيل..» وكان مع جرير بن عبد الله البجلي قيس بن أبي حازم البجلي، فذكر الطبري عن قيس بن أبي حازم قال: «خُضنا دجلة وهي تطفح فلما كنّا في أكثرها ماءً لم يزل فارسٌ واقف ما يبلغ الماء حزامه». [ص١٧٢/ ٤]. فعبر المسلمون تلك المخاضة إلى المدائن ـ عاصمة كسرى ـ ودخلوها فاتحين في صفر ١٦هـ. ثم كان جرير على رأس الجيش الذي افتتح تكريت في جمادى الثاني ١٦هـ، وقد تقدم النص بأنه فتح تكريت، ثم رجع إلى المدائن.

* * *

مسير جرير إلى عمر.. ثم فتح جَلولَاءَ والسواد

وبعد فتح المدائن استقر سعد والمسلمون بالمدائن، وبعث سعدُ جريراً إلى عمر بن الخطاب ربما للتباحث بشأن الحشد الفارسي في جلولاء، قال قيس بن أبي حازم البجلي: «لما أقمنا بالمدائن حين هبطناها واقتسمنا ما فيها وبعثنا إلى عمر بالأخماس، وأوُطنّاها، أتانا الخبر بأن مهران قد عسكر بجلولاء وخَنْدَق

عليها..» قال عبد الله بن أبي طيبة البجلي (فكتب سعد بذلك إلى عمر)[1] وذكر القرطبي في كتاب الاستيعاب أنه «قدم جرير بن عبد الله على **عمر بن الخطاب** من عند سعد بعد فتح المدائن، فقال له عمر: كيف تركت سعداً؟ **قال جرير: تركته** أكرم الناس مقدرة وأحسنهم معذرة، هُوَلَهُمْ كالأُم البَرّة تجمع لهم كما تجمع الذَرّة، ميمون الأثر مرزوق الظفر.. قال عمر: فأخبرني عن حال الناس يا جرير، فقال: هُم كسهام الجعبة، منها القائم الرائش ومنها العصل الطائش الظفر وابن أبي وقاص ثقافها يغمز عصلها ويقيم ميلها، والله أعلم بالسرائر يا عمر، قال: أخبرني عن إسلامهم، فقال جرير: يقيمون الصلاة لأوقاتها ويؤتون الطاعة ولاتها. فقال عمر: الحمد لله إذا كانت الصلاة أُوتيت الزكاة وإذا كانت الطاعة كانت الجماعة»[1] ولما علم عمر بالحشود الفارسية التي يبعثها يزدجرد إلى جلولاء وأنه «اجتمع جمع عظيم في جلولاء» كتب عمر بمسير جيش إلى جلولاء، وجاء في رواية سيف أنه (بعث سعد إلى جلولاء هاشم بن أخيه عتبة في اثني عشر ألفاً وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي، فسار هاشم من المدائن لذلك حتى قدم جلولاء). وتجاهلت رواية سيف التميمي مسير جرير في خيل كثيفه إلى جلولاء وأنه كما ذكر البلاذري «كان على ميمنة المسلمين في جلولاء حجر بن عمرو الكندي، وكان عمرو بن معدي كرب على الخيل، وطليحة بن خويلد على الرجال» وربما كان هاشم بن عتبة قائداً على اثني عشر ألفاً وجرير بن عبد الله قائداً على الفرسان وبقية الجيش وهم زهاء عشرين ألفاً، وكان الفرس قد خندقوا على أنفسهم (فأحاط بهم وحاصرهم المسلمون في خنادقهم، وزاحفوهم ثمانين يوماً يُنصرون، عليهم في كلها، والمدد متصل من ههنا وههنا، ثم قاتلوهم آخر الأيام وهو يوم جلولاء) قال البلاذري «التقى المسلمون بالفرس وعليهم خرزاد اخورستم فاقتتلوا يومئذٍ قتالاً شديداً، ثم انهزم الفرس وولوا هاربين وركب المسلمون أكتافهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً.. وكانت وقعة جلولاء آخر سنة ١٦ هجرية». وقد نقل ابن خلدون عن رواية سيف التميمي أنه «قُتِل منهم يومئذٍ مائة ألف، وتتبعهم القعقاع التميمي بالطلب إلى خانقين» بينما الصحيح في فتوح البلدان هو:

ـ إن موقعة جلولاء كانت آخر سنة ١٦ هجرية، وهرب فلول الفرس إلى خانقين وهي قاعدة منطقة جلولاء والسواد، حيث «أتى جرير بن عبد الله البجلي

---

(١) تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص١٧٩ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ القرطبي ـ ترجمة جرير ـ جـ٢ ص٥٣٦.

خانقين وبها بقية من الأعاجم فقتلهم»(١) ومؤدى ذلك أن القعقاع إنما كان أحد الفرسان في جيش جرير غداة انتصار جلولاء وفتح خانقين، قال ابن كثير (وكانت جلولاء في ذي القعدة ١٦هـ).

ـ وتمركز جرير في جلولاء وخانقين، وانطلقت منهما سرايا الجيش الإسلامي إلى أرجاء مناطق السواد ـ سواد شرقي نهر دجلة وهي أخصب أرض العراق ـ حيث كما جاء في فتوح البلدان: «أقام جرير بن عبد الله بجلولاء في خيل كثيفة، ليكون بين المسلمين وعدوهم، ومضى المسلمون يغيرون في نواحي جانب دجلة الشرقي فأتوا (مهروذ» و(الدسكرة) و(البندنجين) وفتحوها صلحاً. وأتى جرير بن عبد الله خانقين وبها بقية من الأعاجم فقتلهم، ولم يبق من سواد دجلة الشرقي ناحية إلا غلب عليها المسلمون وصارت في أيديهم» ومنها «صراة جاماسب وما بين الفلوجتين والنهرين، وافتتحوا حصن مليقيا وأجلوا الأعاجم عن مناظر كانت بالطف.. وفتحوا نهر الملك وبادرويا وكلواذي وغيرها»(١) وتم فتح سائر أرجاء السواد الخصيب، وبذلك سنة ١٧هـ.

ـ ومما يتصل بفتح جلولاء والسواد بقيادة جرير ما ذكره البلاذري بأنه «كان عمر جعل لجرير وقومه ربع ما غلبوا عليه من السواد، فلما جُمعت غنائم جلولاء (وتم فتح السواد) طلب جرير ربع الغنائم، فكتب سعد إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: إنْ شاء جرير أن يكون إنما قاتل وقومه على جُعل فاعطوهم جُعلهم، وإن كانوا إنما قاتلوا لله واحتسبوا ما عنده فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. فقال جرير: صدق أمير المؤمنين ولا حاجة لنا بالربع»(١) وأقنع جرير قومه من بَجِيلة وبقية جيشه ـ الذين هم من قبائل شتى ـ بذلك فاقتنعوا بأن لهم من الغنائم كغيرهم من سائر المسلمين.

وأما أرض السواد التي افتتحها جرير وقومه من بَجِيلة (وبقية جيشه) فقد أعطاهم عمر ربع أرض السواد التي تشمل مناطقاً شاسعة ونواحي كثيرة، ولم يزل ربع السواد لهم ثلاث سنين كان جرير خلالها أمير منطقة جلولاء والسواد ثم حلوان وما إليها، ثم تنازلوا عن ربع السواد، وفي ذلك ذكر البلاذري أنه «كان عمر أعطى بجيلة ربع السواد، فأخذوه ثلاث سنين، ثم وفد جرير على عمر، فقال عمر: لولا أني قاسمُ مسؤول لكنت على ما جعلتُ لكم، وإني أرى الناس قد كثروا فرُدُوا ذلك عليهم. ففعل جرير وفعلوا.. وصالح عمر بجيلة عن ربع السواد بأن فرض لهم في ألفين من العطاء»(١) وكان ذلك في آخر سنة ١٩هـ أو مطلع سنة ٢٠هـ في ولاية عمار بن ياسر للكوفة.

* * *

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٦٨.

فتح جرير لحُلْوان والجبال . . وفترة ولايته عليها

منذ موقعة جلولاء ـ في آخر سنة ١٦هـ ـ وفتح السواد ـ سنة ١٧هـ ـ كان جرير مقيماً في جَلولَاءَ والسواد بصفته أميراً عليها، بينما كان سعد بن أبي وقاص في الكوفة التي تم اختطاطها سنة ١٧هـ، ومما يتصل بفترة إقامة جرير في جلولاء ما ذكره البلاذري بأنه «لما فرغ المسلمون من أمر جلولاء ضم ابن أبي وقاص إلى جرير بن عبد الله البجلي خيلاً كثيفة ورتّبه بجلولاء. ثم أن سعداً وَجّه إليه زهاء ثلاثة آلاف من المسلمين وأمره أن ينهض بهم وبمن معه إلى حلوان ـ في أوائل سنة ١٩هـ ـ».

وكانت مدينة حُلْوان مقر كسرى يزدجرد منذ انسحابه من المدائن إلى حُلْوان ـ في أوائل سنة ١٦هـ ـ وقد نقل ابن خلدون من مزاعم سيف التميمي أنه «أجفل يزدجرد من حلوان إلى الريّ واستخلف عليها حشرشوم، وجاء القعقاع التميمي إلى حلوان، فبرز إليه حشرشوم فقتله القعقاع، وهرب حشرشوم من ورائه (!) ومَلَك القعقاع حلوان». بينما الصحيح في فتوح البلدان هو: أن جرير بن عبد الله كان في جيش وخيل كثيفة بجلولاء، ثم أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بتوجيه قوة مدداً لجرير بن عبد الله لينهض بهم وبمن معه إلى حلوان، فَوَجّه سعد إلى جرير زهاء ثلاثة آلاف من المسلمين ـ ربما كان من بينهم القعقاع ـ فانطلق جرير بهم وبمن معه إلى حلوان في أول سنة ١٩هـ، قال البلاذري:

«فلما بات جرير بالقرب من حلوان، هرب يزدجرد إلى ناحية أصبهان، ففتح جرير حلوان صلحاً على أن كَفَّ عن أهلها، وأمَّنَهُم على دمائهم وأموالهم، وجعل لِمَنْ أحبَّ منهم الهرب أن لا يتعرض لهم»[١].

وكان هروب أو انسحاب كسرى يزدجرد مِنْ حلوان ـ في شرق العراق ـ إلى ناحية الريّ ومدينة أصبهان ـ في إيران ـ نقطة تحول حاسمة في التاريخ، فقد انتهى بذلك آخر تواجد للحكم الفارسي الكسروي في أرض العراق، ورحل آخر الملوك الأكاسرة مع اتباعه إلى إيران، وسمح جرير لِمَنْ أحبّ من الفُرس في حلوان بالهرب ـ أي الجلاء واللحاق بملكهم وبلادهم. وأنه لن يتعرض لهم، فلحقوا ببلادهم وملكهم في إيران، وتسنم جرير كرسي الولاية في حلوان والجبال إلى جانب السواد، وذلك في أول سنة ١٩ هجرية.

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٩٩.

وكان من أنباء فترة ولاية جرير لحُلْوان سنة ١٩ ـ ٢٣هـ ما يلي :

كانت ولاية جرير لحلوان والسواد في إطار ولاية الكوفة التي كان أميرها سعد بن أبي وقاص ثم عزل عمر سعداً عن الكوفة ـ في أوائل سنة ١٩هـ ـ ووَلّى على ولاية الكوفة عمار بن ياسر فكان جرير والياً لحلوان في إطار ولاية عمار للكوفة، قال البلاذري: «ثم خلف جرير بحلوان جنداً مع عزرة بن قيس بن غزية البجلي، ومضى نحو الدينور فلم يفتحها، وفتح قرماسين على مثل ما فتح حلوان. وقَدِمَ حلوان ـ أي عاد إليها ـ فأقام بها والياً عليها. . وقد نزل حلوان قوم من ولد جرير بن عبد الله فأعقابهم بها»[١].

وفي أواسط عام ١٩هـ حشد الفرس جيشاً كبيراً في (تُستر) لغزو البَصرة، وكان أمير ولاية البصرة أبو موسى الأشعري، فسار أبو موسى بجيش ولاية البصرة إلى تستر وكتب إلى عمر بن الخطاب بأمر الحشد الفارسي الكبير في تستر، فكتب عمر إلى عمار بن ياسر أمير ولاية الكوفة بأن يتوجه جرير بن عبد الله البجلي بجيشه من حلوان مدداً لأبي موسى في تستر. وفي ذلك قال البلاذري: «كتب عمار بن ياسر وهو أمير الكوفة إلى جرير بن عبد الله يعلمه أن عمر بن الخطاب أمره أن يُمِدّ بِهِ أبا موسى الأشعري، فاستخلف جرير عزرة بن قيس البجلي على حلوان، وسار حتى أتى أبا موسى الأشعري، وذلك سنة ١٩ هجرية»[١]. ثم سار عمار بن ياسر بجند الكوفة مدداً لأبي موسى في تستر، فكان جرير وعمار بن ياسر من قادة وأبطال الإسلام في موقعة تستر التي كان أبو موسى القائد العام للمسلمين فيها، حيث «التقى الجيشان، جيش المسلمين بقيادة أبي موسى، وجيش الفرس بقيادة الهرمزان في معركة من أشد المعارك ضراوة وباساً»[٢] وتتوجت الموقعة بالفتح والنصر «واستسلم الهرمزان وقادة الفرس حيث بعث بهم أبو موسى إلى أمير المؤمنين ليرى فيهم رأيه»[٢].

وفي أواخر سنة ١٩هـ توجه جرير مع عمار بن ياسر إلى الخليفة عمر بن الخطاب، ربما للتباحث في شأن أرض سواد دجلة، فقد تم في ولاية عمار استقراء ومسح سواد دجلة فبلغت مساحة السواد «ستة وثلاثين ألف ألف جريب»، وكان رُبع أرض السواد لبَجِيلة، كما كانت ولاية جرير لإقليم حلوان تمتد إلى السواد، ثم ـ كما ذكر البلاذري ـ:

«وَفَد جرير بن عبد الله بن عمر بن الخطاب مع عمار بن ياسر، وكان عمر

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٩٩.
(٢) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٨.

أعطى بَجِيلة ربع أرض السواد فأخذوه ثلاث سنين، فقال عمر لجرير: لولا أنّي قاسمُ مسؤول، لكنتُ على ما جعلتُ لكم، وإني أرى الناس قد كثروا، فَرُدّوا ذلك عليهم. ففعل وفعلوا (يعني جرير وبَجِيلة) وصالَحَ عمرُ بَجِيلة (أيْ عَوَضَهم) عن ربع السواد بأن فرض لهم من الفين (درهم) في العطاء (وهو الاستحقاق الشهري للمسلمين من بيت المال)، وأجاز عمر جريراً بأربعمائة دينار».

وأقرّ عمر فرض الخراج على أرض السواد على كل جريب درهماً وقفيزاً، وعلى جريب التمر خمسة دراهم وخمسة أقفزة، وعلى جريب الشجر عشرة دراهم، وغير ذلك من أحكام خراج السواد، وكذلك الجزية ومقدارها على أهل السواد الذين لم يُسلموا وكانوا يسكنون أرض السواد غداة الفتح التحريري العربي الإسلامي لسواد العراق بقيادة جرير.

وفي أواسط سنة ٢٠هـ استنفر كسرى يزدجرد ملك الفُرس ـ من مقره في أصبهان ـ أهل بلاد فارس (إيران) لغزو العرب المسلمين في العراق ـ ولاية الكوفة ـ فتدفقوا إليه، فأمَّرَ عليهم مردانشاه ذا الحاجب وتجمعوا في منطقة نهاوند الإيرانية التي تقع في مواجهة مناطق العراق التابعة لولاية الكوفة، قال البلاذري: «وكانت عدة المشركين في نهاوند ستين ألفاً ويقال مائة ألف. وكتب عمار بن ياسر بخبرهم إلى عمر بن الخطاب».

فأمر عمر بمسير ثلثي أهل ولاية الكوفة لقتال الفرس في نهاوند، فكان جرير سابع سبعة من الأمراء القادة الذين حددهم عمر بن الخطاب لقيادة المسلمين قائلاً ـ فيما ذكر البلاذري ـ «على الناس النعمان بن مقرن، فإن أُصيب فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أُصيب فالأمير جرير بن عبد الله، فإن أُصيب فالمغيرة بن شعبة، فإن أُصيب فالأشعث بن قيس الكندي». وقال ابن كثير «كتب عمر إلى أبي موسى أن يسير بجنود البصرة، وكتب إلى النعمان بن مقرن أن يسير بمن هناك ـ معه ـ من الجنود إلى نهاوند، وإذا اجتمع الناس فكل أمير على جيشه والأمير على الناس كلهم النعمان بن مقرن، فإن قُتِل فحذيفة بن اليمان، فإن قُتل فجرير بن عبد الله، فإن قتل فقيس بن مكشوح، فإن قُتِل قيس ففلان ثم فلان حتى عَدّ سبعة أحدهم المغيرة بن شعبة»[1] ويتبين من ذلك أن السبعة هم: النعمان بن مقرن، حذيفة بن الميان، جرير بن عبد الله البجلي، قيس بن مكشوح المرادي، المغيرة بن شعبة، الأشعث بن قيس الكندي، وأمير البصرة أبو موسى الأشعري.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١٠٨ ـ تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص٢٤٠.

قال ابن كثير «فكمل جيش المسلمين في ثلاثين ألفاً، فمنهم من سادات الصحابة ورؤوس العرب خلق كثير وجَمٌّ غفير، منهم عبد الله بن عمر أمير المؤمنين، وجرير بن عبد الله البجلي، وحذيفة بن اليمان، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وطليحة بن خويلد الأسدي، وقيس بن مكشوح المرادي. فسار الناس نحو نهاوند.. ثم أمر النعمان بن مقرن بحط الأثقال، فحط الناس أثقالهم، وتركوا رحالهم، وضربوا خيامهم وقبابهم. وضُربت للنعمان خيمة عظيمة. وكان الذين ضربوا ـ خياماً عظيمة ـ أربعة عشر من أشراف الجيش، وهُمْ حذيفة بن اليمان، وعتبة بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وبشير بن الخصاصية، وحنظلة الكاتب، وابن الهوبر، وربعى بن عامر، وعامر بن مطر، وجرير بن عبد الله البجلي، والأقرع بن عبد الله الحميري، والأشعث بن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حجر الحضرمي»[١] وكذلك عمرو بن معدي كرب، وقيس بن مكشوح. قال البلاذري: (وكان النعمان أول مقتول في موقعة يوم نهاوند، فأخذ الراية حذيفة بن اليمان) فقاد حذيفة المعركة ومعه جرير وقيس بن مكشوح والمغيرة والأشعث وأبو موسى، فتتوجت موقعة نهاوند بالنصر والفتح المبين، وذلك في أواخر سنة ٢٠هـ، وقيل: إن موقعة نهاوند كانت سنة ٢١هـ. وقد سُمّي فتح نهاوند: فتح الفتوح. قال الشاعر في حجر بن عديّ الكندي ـ وكان مع جرير والأشعث في جلولاء وتستر ونهاوند:

ويوم جلولاء الوقيعة لم يُلَمْ ويوم نهاوند الفتوح، وتسترا

وكان جرير لما سار إلى نهاوند استخلف على حلوان عزرة بن قيس البجلي، فلما تم انتصار نهاوند سار أبو موسى الأشعري في جيش إلى (الدينور) التي كان جرير قد سار إليها فلم يفتحها، ويبدو أنه سار إليها مع أبي موسى بعد انتصار نهاوند، قال البلاذري «فحاصر أبو موسى الدينور خمسة أيام قوتل منها يوماً واحداً، ثم إن أهلها أقرّوا بالجزية وسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، فأجابهم إلى ذلك. وخَلّف بها عامله في خيل» ومضى أبو موسى في فتوحاته، بينما عاد جرير إلى حلوان، وقام بتوجيه عزرة بن قيس البجلي لفتح بعض معاقل الأكراد، وفي ذلك قال البلاذري: «حاول عزرة بن قيس البجلي فتح (شهرزور) و(صامغان) و(دراباز) وهو والٍ على حلوان، ثم فتحها عتبة بن فرقد السلمي وهرثمة البارقي الأزدي لما فتح بلاد الموصل وتكريت وجميع معاقل الأكراد».

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١٠٨ ـ تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص٢٤٠.

وكان لجرير إسهامه في ذلك فقد ذكر الطبري أن جرير بن عبد الله فتح تكريت. [ص٨٢/ ٤]. وكان فتح تكريت ومعاقل الأكراد سنة ٢١ ـ ٢٢هـ، وقد أعفى عمر بن الخطاب عماراً بن ياسر من ولاية الكوفة واستعمل عليها المغيرة بن شعبة، ولم يزل جرير أميراً على إقليم حلوان إلى أن افتتح وتولى إقليم همذان سنة ٢٣هـ.

* * *

مرحلة فتح وولاية جرير لإقليم هَمَذان في إيران (٢٣ ـ ٣٥هـ)

كان إقليم هَمَذان من الأقاليم الكبيرة والمنيعة والهامة في إيران، وقد بدأت عمليات فتح مناطق من إقليم هَمَذان بعد موقعة نهاوند، حيث (ـ بعث أبو موسى قوة بقيادة السائب بن الأقرع، ففتح الصيمرة مدينة مهرجا نقذف صلحاً على أداء الجزية وخراج الأرض، وفتح جميع كور مهرجا نقذف من بلاد هَمَذَان)[١] وقامت فرقة من جيش الكوفة باجتياح منطقة من هَمَذان حيث نقل ابن خلدون عن رواية سيف التميمي أنه كان أهل هَمَذَان قد صالح عليهم خسرشنوم القعقاع بن عمرو التميمي ونعيم بن عمرو التميمي، ثم انتقض خسرشنوم، فكتب عمر إلى نعيم أن يقصدها، فاستولى عليها حتى صالحوه على الجزية، فبينما نعيم يجول في نواحي هَمَذان جاء الخبر بخروج الديلم وأهل الريّ، فاستخلف نعيم على هَمَذان يزيد بن قيس الهَمْدَاني، وسار إلى الريّ). وقد استدرك ابن خلدون قائلاً: «وقيل إن فتحها كان سنة أربع وعشرين.. وإن المغيرة بن شعبة أرسل من الكوفة جرير بن عبد الله البجلي إلى هَمَذَان ففتحها صلحاً وغلب على أرضها»[٢] ويتبين من ربط الوقائع أن دخول فرقة من جيش الكوفة إلى منطقة من إقليم همذان ومصالحة حاكمها (خسرشنوم) ـ سنة ٢١هـ أو٢٢هـ ـ كان قد حدث وتولى يزيد بن قيس الهمداني قيادة قوة إسلامية رابطت هناك، ثم استعاد (خسرشنوم) وقومه السيطرة على تلك المنطقة إلى أن تم الفتح بقيادة جرير بن عبد الله البجلي، وقد ذكر البلاذري النبأ اليقين في فتوح البلدان قائلاً:

«وَجَه المغيرة بن شعبة وهو عامل عمر بن الخطاب على الكوفة بعد عزل عمار بن ياسر، جريراً بن عبد الله البجلي إلى هَمَذان، وذلك في سنة ثلاث وعشرين ـ [فسار جرير من حلوان إلى هَمَذان] ـ فقاتله أهلها، ودُفِع دونها، فأصيبت عينه بسهم، فقال: احتسبتها عند الله الذي زيّن بها وجهي ونوّر لي ما شاء

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٤ و٣٠٦.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٢.

ثم سلبنيها في سبيله. ثم فتح جرير هَمَذَان على مثل صلح نهاوند في آخر سنة ثلاث وعشرين، وقاتله أهلها، ودُفع عنها، وغَلَبَ على أرضها فأخذها قسراً. وقال الواقدي: فتح جرير هَمَذَان سنة أربع وعشرين بعد ستة أشهر من وفاة عمر بن الخطاب..»[١].

لقد بدأ فتح جرير لإقليم هَمَذان بتوجيه من عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة بمسير جرير لفتح هَمَذان، وذلك لأن أحداً من الولاة لم يكن له توجيه جيوش إلا بكتاب من عمر بن الخطاب، وبناء على ذلك وَجّه المغيرة جريراً إلى هَمَذان، فانطلق إليها بجيشه من حلوان سنة ٢٣هـ، وتم لجرير فتح إقليم هَمَذان في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تقدم جرير إلى منطقة همذان التي كان حاكمها (خسرشنوم)، فقاتله حاكمها وجندها وأهلها، (ودُفع دونها)، وأُصيب أثناء المعركة بسهم في عينه، أو بالقرب من عينه، وتغلب جرير على العدو، وفتح تلك المنطقة قسراً، وتولاها.

المرحلة الثانية: تقدم جرير إلى المنطقة الثانية من إقليم هَمَذَان، فاستجاب أهلها إلى المصالحة على أداء الجزية والدخول في الطاعة، وهو ما يتبين من قول البلاذري: ثم فتح جرير هَمَذَان على مثل صلح نهاوند، وذلك في آخر سنة ٢٣هـ) وقد توفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ٢٦ ذي الحجة ٢٣هـ، وكان جرير قد فتح زهاء ثلثي إقليم همذان، وتولاها.

المرحلة الثالثة: انطلق جرير لفتح القسم الثالث من إقليم همذان في خلافة عثمان بن عفان، قال الواقدي: (وقد روى بعضهم أن المغيرة بن شعبة أمير الكوفة سار إلى هَمَذان وعلى مقدمته جرير). مما يشير إلى احتمال مشاركة المغيرة في بداية فتح القسم الثالث من إقليم همذان مع جرير، ثم عاد المغيرة إلى الكوفة، بينما مضى جرير في فتح ذلك القسم، (فقاتله العدو، ودُفع عنها، فتغلب عليهم جرير، فأخذها وفتحها قسراً) وذلك ـ كما ذكر الواقدي ـ (سنة ٢٤هـ بعد ستة أشهر من وفاة عمر بن الخطاب) ـ فيكون ذلك في أوائل شهر رجب ٢٤هـ في خلافة عثمان، وبذلك استكمل جرير فتح إقليم هَمَذان بمدلوله الواسع القديم الممتد إلى تخوم أرض قزوين وتخوم أرمينية وأذربيجان، وتولى جرير إقليم همذان وأسس العصر العربي الإسلامي في إقليم هَمَذَان، ونَشَرَ دين الإسلام في آفاقه الممتدة.

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٢.

وقد استمر جرير والياً لإقليم هَمَذَان في إيران طيلة خلافة عثمان بن عفان ـ من ٢٤هـ إلى نهاية ذي الحجة سنة ٣٥هـ.

وكان من أنباء ومعالم فترة ولاية جرير لإقليم هَمَذَان ما يلي:

في أواسط عام ٢٤هـ بعث جرير جيشاً بقيادة البراء بن عازب الأنصاري وحنظلة بن زيد الخيل الطائي لفتح منطقة حصن قزوين ـ المجاور لبحر قزوين ـ وما جاور قزوين من بلاد الديلم، وفي ذلك قال ابن خلدون:

«لما افتتح جرير هَمَذَان بعث البراء بن عازب إلى قزوين ففتح ما قبلها وسار إليها، فاستنجدوا بالديلم فوعدوهم، ثم جاء البراء في المسلمين فخرجوا لقتالهم، والديلم وقوف على الجبل ينظرون، فيئس أهل قزوين منهم، وصالحوا البراء على صلح أبهر قبلها، ثم غزا البراءُ الديلم وجيلان»[(١)].

وكان حصن قزوين يسمى بالفارسية (كشوين) ومعناه (إلى المحفوظ) وبينه وبين الديلم جبل، فلما بعث جرير البراء بن عازب الأنصاري ـ وكما جاء في فتوح البلدان ـ «سار البراء بن عازب ومعه حنظلة بن زيد الخيل الطائي فافتتحا حصن أبهر وصالحا أهل أبهر على الجزية. ثم ساروا إلى حصن قزوين، وقاتلوهم، فلما يئسوا من مساندة الديلم طلبوا الأمان والصلح، فصولحوا على صلح أبهر، وقيل إنهم أسلموا. فَرَتّب البراء خمسمائة رجل من المسلمين في حصن قزوين، ثم غزا الديلم حتى أدوا الجزية، وغزا جيلان والببر والطيلسان وفتح زنجان عنوة»[(١)] وبذلك بلغت فتوحات قوات جرير حصن قزوين وامتد نور الإسلام إلى جبال الديلم ومشارف بحيرة قزوين.

وساهم جرير بقواته ثم بنفسه في فتح بلاد أَذْرَبَيْجَان وأرمينية ما بين سنة ٢٥هـ وسنة ٣١هـ، وكان من بناء ذلك أنه:

في سنة ٢٥هـ استعمل عثمان بن عفان على ولاية الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان الأشعث بن قيس أميراً على منطقة من أذربيجان، وجرير أمير إقليم همذان، قال البلاذري: «وغزا الوليد بن عقبة أذربيجان ومعه الأشعث بن قيس، وكان على مقدمة الوليد عبد الله بن شبل الأحمسي البجلي». وكان عبد الله بن شبل من قادة جيش جرير البجلي أمير هَمَذَان فبعثه جرير على رأس قوة للمشاركة في ذلك المسير والفتح مع الوليد والأشعث بن قيس. وذكر الطبري أن الوليد بن عقبة سار إلى أذربيجان «وبعث عبد الله بن شُبيل بن عوف الأحمسي في

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص١١٥ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص٣١٨.

أربعة آلاف، فأصاب، وغنم، وتحرز القوم منه، ورجع عبد الله بن شُبيل إلى الوليد من غارته تلك وقد سَلم وغنم، فصالح الوليد أهل أذربيجان، على ثمانمائة ألف درهم»(١) وقال البلاذري «طلب أهل أذربيجان الصلح فصالحهم الوليد، فلما انصرف الوليد ولّىٰ الأشعث بن قيس أذربيجان، ثم انتقضت ـ سنة ٢٦هـ ـ فكتب إليه الأشعث يستمده، فأمدّه بجيش من الكوفة، فتتبع الأشعث أذربيجان حاناً حاناً ـ أي ناحية بعد ناحية ـ فافتتحها»(١) وساهمت في ذلك الفتح قوات من جيش جرير بقيادة عبد الله بن شبيل الأحمسي البجلي.

وفي سنة ٣٠هـ عزل عثمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط واستعمل على ولاية الكوفة سعيد بن العاص، فسار سعيد لغزو أعالي أذربيجان، فسار معه جرير وقواته من إقليم همذان، قال البلاذري: «وتجمع لسعيد بن العاص بناحية (أرْم) و(بلوا نكرج) خلق من الأرمن وأهل أذربيجان، فوجه إليهم جرير بن عبد الله البجلي فهزمهم، وأخذ رئيسهم فصلبه على قلعة باجروان»(١) فرفرفت رايات الإسلام في أرجاء بلاد أذربيجان واستمر الأشعث والياً لأذربيجان وهو الذي قام بتأسيس وترسيخ العصر العربي الإسلامي في ربوع أذربيجان.

وامتدت مساهمة جرير في الفتوح إلى أرمينية في القوقاز، فقد ذكر المؤرخ المقدسي أن: «افتتح جرير بن عبد الله البجلي أرمينية»(٢) وبما أن أرمينية من فتوح جند الجزيرة الفراتية والشام، يكون جرير قد سار بقواته من إقليم هَمَذان وساهم في فتوح أرمينية، ويبدو أن ذلك كان سبب مسير جرير إلى (قرقيسيا) التي ذكر الطبري أن جرير بن عبد الله تولاها سنة ٣٤هـ وإن سعيد بن قيس الهَمْداني تولى هَمَذْان، ثم قال: «ورجع جرير من قرقيسيا». ومؤدى ذلك أن سعيد بن قيس كان نائباً لجرير في إقليم هَمَذَان، ورجع جرير من أرمينية وقرقيسيا سنة ٣٤هـ لأنه استمر والياً على إقليم هَمَذَان طيلة خلافة عثمان.

وكان جرير لما تولى الوساد وحلوان في خلافة عمر بن الخطاب (١٧ ـ ٢٣هـ) وفي فترة ولايته لإقليم هَمَذَان في خلافة عثمان بن عفان (٢٤ ـ ٣٥هـ) يتردد بين وقت وآخر إلى مدينة الكوفة ويقيم بها فترات، فهو من الصحابة الذين شاركوا في تأسيس واختطاط مدينة الكوفة. وكان لبجيلة خطة كبيرة ـ أي منطقة

---

(١) تاريخ الطبري ـ جـ٥ ص٤٥ ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ ص٣٢٤.

(٢) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٧٢ ـ عن كتاب: البدء والتاريخ للمقدسي ـ جـ٥ ص١٩٨.

سكنية ـ بالكوفة وابتنى بها جرير داراً ومسجداً، وكان جرير من كبار الصحابة الذين أقطعهم عثمان بن عفان أرضاً بسواد الكوفة، وفي ذلك ذكر البلاذري أنه «اقطع عثمان عبد الله بن مسعود أرضاً بالنهرين، واقطع عمار بن ياسر اسبينا، واقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز، واقطع الأشعث بن قيس ظيزناباذ، واقطع جرير بن عبد الله البجلي أرضه بشاطئ الفرات». وقال الطبري أنهم اشتروها من عثمان.

وكان مسجد جرير بالكوفة يعرف بمسجد جرير، وجاء ذكره في خبر الشاعر عويف القوافي، وكان قد اغتاظ من بعض البجليين في الكوفة، فقال يهجو بَجِيلة:

أصبُ على بجيلة من شقاها ... هجائي حين أدركني المشيبُ

فلما قدم جرير الكوفة علم بذلك الشعر ثم لقي عويفاً في مسجده، وقد روى الأصفهاني ما حدث قائلاً: إن عويف القوافي الشاعر، وقف على جرير بن عبد الله في مسجده، فقال له جرير: ألا أشتري منك أعراض بَجِيلة؟ قال: بَلَىٰ، فقال جرير: قُلْ. فقال: بألف درهم وبرذون. فأمر له بما طلب. فقال عويف:

لَوْلَا جرير هَلَكَتْ بَجِيلَة ... نِعْمَ الفَتَى وبئست القبيلة

فقال له جرير: «ما أراهم نجوا منك بعد». ثم امتنع عويف عن ذكر بجيلة إلا بالخير[(١)].

وكان جرير من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ بولاية الكوفة، جاء في العقد الفريد وفي كتاب الأغاني للأصفهاني: أن راهباً أراد أن يسلم «فسأل عن أفضل أهل الكوفة، فقيل له جرير بن عبد الله، والأشعث بن قيس»[(١)] فأتى إليهما، ثم أسلم.

ولم يزل جرير أميراً لإقليم هَمَذَان إلى أن اهتزت البلاد الإسلامية بنبأ مقتل الخليفة عثمان بن عفان في ذي الحجة سنة ٣٥هـ، واندلعت الفتنة الكبرى.

* * *

خَيْرُ ذي يَمَنْ في الفتنة الكبرى

لما قُتِل عثمان بن عفان رضي الله عنه وبويع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة في المدينة المنورة ـ في ٢٥ ذي الحجة ٣٥هـ ـ انقسمت الأمة

---

(١) الأغاني ـ لأبي فرج الأصبهاني جـ٤ ص١٨٣.

وانقسم الصحابة، وتدافعت الأمور إلى الاقتتال وإلى الفتنة الكبرى، وفي أتون تلك الفتنة كانت مواقف جرير بن عبد الله البجلي في مبايعته لعليّ بن أبي طالب ثم في سعيه وجهوده لتحقيق الوفاق وحقن دماء المسلمين ثم في اعتزاله الاقتتال هي خير المواقف، توكيداً لقول رسول الله ﷺ أنه (خير ذي يَمَنْ).

الموقف الأول: مبايعة عليّ بالخلافة: كان جرير من أوائل العمال الأمراء الذين أعلنوا مبايعة عليّ بالخلافة، حيث ـ كما ذكر محمد رضا ـ «كان جرير بِهَمَذَان والياً عليها استعمله عثمان رضي الله عنه»[1] وكان أغلب العمال الأمراء في خلافة عثمان قد اتخذوا مواقف مناوئه لعليّ، فقد انضم إلى عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير أمير ولاية اليمن يعلى بن مُنيّة الحنظلي وأمير ولاية البصرة عبد الله بن عامر، ورفع معاوية أمير ولاية الشام وعمال الشام ومصر شعار (الثأر لعثمان)، بينما كان موقف جرير هو مبايعة عليّ، وقد تجلت رؤية جرير في قوله: «إنَّ أمر عثمان قد أعيّا من شهده، فكيف بمن غاب عنه، وإن الناس قد بايعوا علياً غير واتر ولا موتور». ولما أتى إليه كتاب عليّ قال جرير:

أتانا كتابُ عليّ فلمْ نَرُدِ الكتاب بأرض العجم

وكان ذلك في رجب ٣٦هـ حين دخل عليّ بن أبي طالب الكوفة، قال ابن كثير: ثم بعث عليّ إلى جرير بن عبد الله البجلي وكان على همذان من زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان من زمان عثمان: أن يأخذ البيعة على من هنالك من الرعايا ثم يُقبلا إليه، ففعلا ذلك. فلما أراد عليٌّ رضي الله عنه أن يبعث إلى معاوية رضي الله عنه يدعوه إلى بيعته، قال جرير:

«أنا أذهب إليه يا أمير المؤمنين فإن بيني وبينه وداً» [ص٢٥٤/ ٧ ـ البداية والنهاية]. وكان الذي بعثه عليّ إلى جرير هو زحر بن قيس الجعفي.

الموقف الثاني: مساعي جرير لتحقيق السلام: لقد كانت تلوح في الأفق ـ في رجب ٣٦هـ ـ بوادر صراع واقتتال كبير بين الخليفة علي بن أبي طالب والذين معه من جهة وبين أمير الشام معاوية بن أبي سفيان والذين معه من جهة أخرى، فانطلق جرير مبعوثاً برسالة من عليّ إلى معاوية وأهل الشام للدخول في طاعته ومبايعته، وهي مهمة صعبة وعظيمة ما كان من الممكن أن يقوم بها سوى جرير. وتزعم رواية ذكرها محمد رضا في نهاية أنباء مهمة جرير: (إن الأشتر كان يعارض في بعث جرير إلى معاوية ويتهمه بممالأته. لكن علياً قال وقتئذ دعه حتى ننظر ما

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب ـ تأليف محمد رضا ـ ص١٤٩ ـ ١٥٢.

الذي يرجع به، وارسله. فلما دعا جرير وأخبر علياً بما رأى وسمع، قال الأشتر: كنتُ نهيتك أن تبعث جريراً.. ولو كُنْتَ بعثتني كان خيراً من هذا). ولا شك أن هذه الرواية وما جاء فيها من محاولات تشكيك في جرير إنما هي من موضوعات بعض رواة الشيعة الغلاة المتأخرين، فمن غير المعقول أن يكون الأشتر قد أراد أن يبعثه عليّ بدلاً عن جرير، وقد ذكرت نفس الرواية استحالة بَعْث الأشتر في قولها على لسان جرير أنه رد على الأشتر قائلاً: «لو كُنتَ ثَمَّ لقتلوك، لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان» ولعل أصل تلك الرواية أن الأشتر وبعض الذين مع عليّ لم يكونوا يرغبون في بعث جرير خوفاً من نجاحه في مهمته وما قد يؤدي إليه الاتفاق من المساس بهم. فلم يكن الاعتراض على شخصية جرير وإنما كان على المهمة السلمية أيًا كان من يقوم بها.

قال أبو العباس المُبَرد: «وجّه عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه جَريرَ بن عبد الله البَجَليّ إلى معاوية رحمه الله يأخُذُهُ بالبيعة له. فقال له: أنّ حَوْلي من ترى من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار ولكني اخْتَرْتكَ لقول رسول الله ﷺ فيكَ خيرُ ذي يَمَن، ائتِ معاوية فَخُذْهُ بالبيعة، فقال جرير: والله يا أمير المؤمنين ما أدّخِرُكَ من نُصرتي شيئاً»(١).

* * *

وانطلق جرير من الكوفة إلى دمشق، قال محمد رضا «فقدم جرير على معاوية فألفاه وعنده وجوه أهل الشام، فناوله كتاب عليّ وقال: هذا كتاب عليّ إليك وإلى أهل الشام يدعوكم إلى الدخول في طاعته، فقد اجتمع له الحرمان والمصران والحجازان واليمن والبحران وعمان ومصر وفارس والجبل وخراسان، ولم يبق إلا بلادكم هذه وإن سال عليها وادٍ من أوديته غرّقها»(٢) ثم أورد محمد رضا نص كتاب عليّ إلى مغاوية وهو كتاب طويل قال عليّ في نهايته:

«وقد أرسلتُ إليك جرير بن عبد الله البجلي وهو من أهل الهجرة والإيمان، فَبَايع، ولا قوة إلا بالله»(٢).

قال محمد رضا «فلما قرأ معاوية الكتاب قام جرير فخطب..»، ثم ذكر خطبة جرير وهي التي عنها قال ابن الأزور القسري:

لَعَمْرُ أبيك، والأنباءُ تَنْمِىٰ ... لقد جَلىٰ بخطبته جريرُ

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد ـ جـ١ ص١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) الإمام علي بن أبي طالب ـ تأليف محمد رضا ـ ص١٤٩ ـ ١٥٢.

ولم تكن في نفس اليوم وإنما في يوم لاحق حيث اجتمع أمراء ووجوه أهل الشام في دمشق، وكان غالبيتهم من الذين يحفظون لجرير مكانة عظيمة في نفوسهم، فمنهم أذواء وأبناء أذواء وأقيال حِمْيَر الذين أسلموا على يده يوم بعثه رسول الله ﷺ إلى مناطقهم باليمن سنة ٨هـ، ومنهم زعماء مخلاف نجران والسراة الذين أرسى جرير دعائم الإسلام في قبائلهم ورجالات صنعاء ومخاليفها الذين بعثه رسول الله ﷺ إليهم، ومنهم رجالٌ من الأنصار والمهاجرين شهد معهم فتح مكة وترسيخ الإسلام بالجزيرة العربية في عهد رسول الله ﷺ وفي خلافة أبي بكر، ومنهم صحابة وزعماء انطلق معهم حاملين رسالة الإسلام إلى ميادين الفتوحات في الشام أو العراق أو نهاوند أو أذَرْبيجان أو أرمينية وقرقيسياء، في خلافة عمر وعثمان، فلما اجتمع وجوه الشام في مجلس معاوية قام جرير فخطب، فقال:

الحمد لله المحمود بالعوائد، المأمول منه الزوائد، المُرتجى منه الثواب، المستعان على النوائب، أحمدُه وأستعينُه في الأمور التي تحير دونها الألباب. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كل شيء هالكٌ إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بعد فترة من الرُسل الماضية والقرون الخالية، فبلّغ الرسالة، ونصح للأمة، وأدّى الحق الذي استودعه الله، وأمره بأدائه إلى أُمته ﷺ مِن رسول ومبُتعث ومُنتخب.

أيُها الناس: إنّ أمر عثمان قد أعْيَا من شهده، فكيف بِمن غاب عنه، وإن الناس بايعوا علياً غير واترٍ ولا موتور، وكان طلحة والزبير ممن بايعه ثم نكثا بيعته على غير حدث.

ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن، وقد كانت بالبصرة أمس روعة ملحة[١] إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس. وقد بايعتُ علياً، ولو ملكنا والله الأمور لم نختر لها غيره، فادخلْ معاوية ـ وادخلوا ـ فيما دخل فيه الناس.. وإن الله جعل للآخر من الولاة حق الأول، وجعل الأمور موطأة ينسخُ بعضها بعضاً»[٢].

وكان لكلمات وخطبة جرير تأثيرها العميق حتى قيل (إن جريراً رد بصائر أهل الشام).

* * *

(١) يعني موقعة الجمل في البصرة. وكانت في ١٠ جمادى الثاني ٣٦هـ قال ابن كثير «وكان مجموع من قُتل يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف، رحمهم الله ورضي عن الصحابة منهم» ـ جـ٧ ص٢٤٥ ـ البداية والنهاية.

(٢) الإمام علي بن أبي طالب ـ تأليف محمد رضا ـ ص١٤٩ ـ ١٥٢.

ولما طالب جريرُ معاوية بالبيعة دافَعَهُ مُعاوية، فقال جرير: . . لا أحسِبُكَ تُبايعُ حتى لا تجِدَ من البَيعةِ بُدًّا.

فقال له معاوية: إنها ليست بخَدْعةِ الصَبيَّ عن اللبن، أنه أمْرُ له ما بعده فأبلِغْني ريقي)[١].

فمكث جرير بدمشق بانتصار جواب معاوية، بينما «جمع معاوية إليه أشراف أهل بيته، فاستشارهم في أمره، فقال إخوة عتبة: استعن على أمرك بعمرو بن العاص. . فكتب إليه معاوية: إنه. . قدم علينا جرير بن عبد الله في أخذنا ببيعة عليّ فحبست نفسي عليك. فأقْبِلْ أُناظرك في ذلك». ولما قدم عمرو إلى معاوية جرى بينهما حديث يتصل بموضوعنا هنا أنه «قال معاوية: ما ترى؟ فقال عمرو: لقد أتاك في هذه البيعة خير أهل العراق. . ولست أرى لك أن تدعو أهل الشام إلى الخلاف فإن ذلك خطر عظيم حتى تتقدم قبل ذلك بالتوطين للأشراف منهم وإشراب قلوبهم اليقين بأن علياً مالأ على قتل عثمان».

قال أبو العباس المبرد: (فناظَر معاويةُ عَمرو، فطالت المناظرةُ بينهما وألَحّ عليه جريرُ. فقال له معاوية: ألقاكَ بالفَصلْ في أوّل مجلسٍ إن شاء الله تعالى. ثم كتب معاوية لعمرو بمصر طُعمةً) ـ لأن عمرو فيما تقول الروايات اشترط على معاوية أن يجعل له ولاية مصر ليشير عليه بما يعمل، وهي روايات فيها نظر ـ فلما اجتمع له أمْرُهُ رَفَعَ ـ (معاوية) ـ عقيرتهُ يُنشِدُ ليُسْمِعَ جريراً:

«. . أتاني جريرُ والحوادثُ جَمّةُ ... بتلك التي فيها اجتداعُ المعاطِسِ
أكابِدُهُ والسيفُ بيني وبينه ... ولستُ لا ثواب الدنيّ بِلابسِ
إن الشامُ أعطَتْ طاعةً يَمَنيةً ... تواصَفَها أشياخُها في المجالسِ
فإن يفعلوا أصدِمْ عليًّا بجَبْهةٍ ... تفُتُّ عليه كلّ رطْبٍ ويابسِ[٢]
وإني لأرجو خير ما نال نائِلُ ... وما أنا من مُلكِ العراق بيائس»

وأيًّا كان أمر ذلك الشعر فقد ذكر أبو العباس المبرد بعد ذلك مباشرة كتاب معاوية إلى علي بن أبي طالب، وهو ترتيب بالغ الأهمية، يُتيح إدراك حلقة هامة في مهمة جرير، تذكرها الروايات بصفة منفصلة، وهي من نتائج مهمة جرير ومن تأثير نشاط جرير في الشام، وقد وقعت ـ كما ذكر محمد رضا ـ في رجب ٣٦هـ

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد ـ جـ١ ص١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) قال المبرد: (الجبهة: جماعة الخيل).

(يناير ٦٥٧م) وهي الفترة التي بقي فيها جرير بالشام، فبعد أن قال معاوية لجرير: (ألقاكَ بالفصل في أول مجلس إن شاء الله تعالى) أدرك جرير أو بعض وجوه الشام أن الأمور لا تسير بالاتجاه المنشود، وكان من علماء الشام أبو مسلم الخولاني، (واسمه عبد الله بن ثوب: كان فاضلاً ناسكاً عابداً ذا فضائل). حيث كما جاء في البداية والنهاية «إن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية. فقالوا له: أنت تنازع عليًّا أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لا علم أنه خير مني وأفضل، وأحقّ بالأمر مني ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنا أطلب بدمه، وأنا ابن عمه، وأمره إليّ؟ قالوا: نعم. قال: فَلْيُسلم إليّ قتلة عثمان، وأنا أسلم إليه أمره»[١] والأصوب في بعض العبارات وكما جاء في كتاب الإمام عليّ لمحمد رضا «إن أبا مسلم الخولاني دخل على معاوية في أُناس من العُبّاد، فقال له: كيف تناوئ علياً وليست لك سابقته؟ فقال لهم: لستُ أدَّعي أنّي مثله في الفضل ولكن هل تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً؟ قالوا: بَلَىٰ. قال: فليدفع إلينا قتلته حتى نسلم إليه هذا الأمر. قال أبو مسلم: ما كُتب إليه بذلك حتى انطلقُ أنا بكتابك». ولم يكن ذلك التطور الهام مجرد استجابة من معاوية لأبي مسلم بقدر ما كان ـ وخاصة الكتاب ـ يمثل موقفاً اتفق عليه وجوه أهل الشام مع معاوية، فقد تبلور الموقف في فقرة هي جوهر كتاب معاوية وأهل الشام وتتمثل في قول معاوية في كتابه إلى عليّ بن أبي طالب: «فإن كنت صادقاً، فأمْكِنّا مِنْ قتلة عثمان تقتلهم به، ونحنُ أسرعُ الناس إليك». وقد أثار كتاب معاوية قلقاً عميقاً عند بعض بني أمية خوفاً من أن يستجيب علي بن أبي طالب بتسليم أو قتل الثلاثة الذين يقول بعض أهل المدينة والشام مصر أنهم قتلة عثمان، فقد بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي قصيدة إلى معاوية ينتقد فيها كتابه إلى عليّ، ومنها قوله لمعاوية:

وإنّك والكتابُ إلى عليٍّ كدابغةٍ وقد حَلُمَ الأديمُ[٢]

وانطلق أبو مسلم الخولاني في جماعة من الشام إلى علي بن أبي طالب في الكوفة، بينما مكث جرير بالشام ينتظر ما سيكون ـ وقام أبو مسلم بتسليم الكتاب إلى عليّ فلما قرأه، تكلم أبو مسلم الخولاني ـ باسم أهل الشام ـ وقال:

«يا أبا الحسن: إنك قد قُمتَ بأمر ووليته، والله ما نحبُ أنه لغيرك.. يا أبا الحسن: إن عثمان رضي الله عنه قُتِل مظلوماً، فادفع إلينا قتلته، وأنت أميرنا، فإن

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٨ ص١٢٩.

(٢) حلم الأديم: نقب الجلد وتمزق.

خالفك أحدُ من الناس كانت أيدينا لك ناصرة، وألسِنتنا لك شاهدة. وكنتَ ذا عذر وحجة. فقال له عليّ: اغد عليّ بالغداة، وأمر به فأُنزل وأُكرم، ـ هو والذين معه ـ فلما كان من الغد، دخل إلى عليّ وهو في المسجد ـ مسجد الكوفة ـ فإذا هو بزهاء عشرة آلاف رجل قد لبسوا السلاح وهُم ينادون كلنا قتلة عثمان. فقال أبو مسلم لعليّ: إني لأرى قوماً مَا لَكَ معهم أمر، وأحسبُ أنه بلغهم الذي قدمتُ له ففعلوا ذلك خوفاً من أن تدفعهم ـ أي قتلة عثمان ـ إليّ. فقال عليّ: إني ضربتُ أنف هذا الأمر وعينه فلم أر دفعهم إليك، ولا إلى غيرك»[1]. ثم كتب عليّ معه جواباً على كتاب معاوية، ويتمثل جوهر كتاب عليّ في قوله لمعاوية: «أما ما سألتَ مِنْ دفعي إليك قتلة عثمان فإني لا أرى ذلك لعلمي بأنك إنما تطلب ذلك ذريعة إلى ما تأمل ومِرقاة إلى ما ترجو، وما الطلب بدمه تريد»[1] وقد اكتفى الحافظ ابن كثير بذكر مسير أبي مسلم الخولاني والذين معه من الشام بكتاب معاوية إلى عليّ بتسليم قتلة عثمان وإنهم يبايعونه إذا سلمهم ثم قال ابن كثير: «فأتوا علياً فكلموه في ذلك، فلم يدفع إليهم أحداً، فعند ذلك صمم أهل الشام على القتال مع معاوية».

وكان ما حدث في مسجد الكوفة من احتشاد عشرة آلاف مسلح يهتفون (كلنا قتلة عثمان) ضربة قاضية لمساعي وجهود جرير بن عبد الله البجلي الذي كان ما يزال في دمشق عند عودة أبي مسلم الخولاني والذي معه من الكوفة إلى دمشق وانقلاب الموقف في الشام، «فحذر جريرُ معاوية من المخالفة والمعاندة، ونهاه عن إيقاع الفتنة بين المسلمين وأن يضرب بعضهم بعضاً بالسيوف» فوعده معاوية إلى اليوم التالي بمسجد دمشق، وكان ما حدث في مسجد دمشق رداً واضحاً على ما حدث في مسجد الكوفة، فقد «أمر معاوية منادياً فنادى في الناس الصلاة جامعة. فلما اجتمع الناس خطب فيهم معاوية إلى أن قال: وقد علمتم أن عثمان قُتِل مظلوماً، وأنا أُحبُ أن تُعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان. فقال أهل الشام بأجمعهم: نطلب بدمه. فأجابوه إلى ذلك وبايعوه.. فلما رأى جرير ما رأى، أفزعه ذلك، وعجب منه»[2]. فقد أفزعه أن عشرات الآلاف من المُسلمين كانوا ينادون (يا لثارات عثمان) ويقولون: (إن علياً مالأ في قتله وآوى قتلته، وسيقاتلونهم جميعاً) أما الذي (عجب منه جرير) فقد يكون قول معاوية لأهل الشام

---

(١) الإمام علي ـ لمحمد رضا ـ ص١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١٢٨ ـ ١٢٩.

(ما كنتُ لأخالف أمركم وإنما أنا واحد منكم) يعني أنه ينزل عند إرادتهم، وليسوا هُمْ الذين استجابوا لإرادته، فلما استوثق معاوية من موقف أهل الشام، قال لجرير: (الحق بصاحبك واعلمه أنّي وأهل الشام لا نجيبه إلى البيعة). ورجع جرير إلى عليّ بالكوفة، فأخبره بكل ما رأى وسمع في الشام.

الموقف الأخير: الاعتزال: أدرك جرير أن الاقتتال وشيك بين الفئتين، وبالسيوف سوف يقتل بعضهم بعضاً، فاختار موقف الاعتزال، قال العسقلاني: «اعتزل جرير الفريقين، وسكن قرقيسيا حتى مات سنة إحدى وخمسين. وقيل أربع وخمسين» قال ابن كثير: (قال الواقدي: لم يزل جرير مقيماً بالجزيرة إلى أن توفي بالسراة سنة ٥١هـ) فرضي الله عنه وأرضاه.

٣٣

عَمْرو بن مَعدي كَرِبْ الزُّبَيْدي

ـ فارسُ العرب في الجاهلية والإسلام ـ

مِنْ أعلام اليمن والعرب الذين نالوا الخلود في التاريخ هو عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي الذي بذكره سارت الركبان في الجاهلية وباسمه ترنمت الأجيال في الإسلام.

قال عنه ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

كان عمرو بن معدي كرب فارس العرب مشهوراً بالشجاعة وشاعراً مُحسناً، ومما يُستحسن من شعره قوله:

إذا لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ وجاوزهُ إلى ما تستطيعُ

وشعره هذا من مُذهبات القصائد، أوله:

أمِنْ ريحانة الداع السميع يؤرقني وأصحابي هجوعُ[١]

وقال عنه أبو عبيد:

(كان عمرو بن معدي كرب فارس اليمن، وهو مُقدم على زيد الخيل في الشدة والبأس)[٢]. وقال عنه الحافظ ابن كثير:

(كان عمرو بن معدي كرب من الشجعان المذكورين والأبطال المشهورين والشعراء المُجيدين)[٣].

وقال ابن حجر العسقلاني في ترجمة عمرو بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«له الوقائع المذكورة في الجاهلية، وله في الإسلام بالقادسية بلاء حسن،

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ٢/ ص٥٢٠.
(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٤ ـ وزيد الخيل هو زيد الخيل الطائي وله مبحث خاص في هذا الكتاب.
(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٧٢.

وهو فحلٌ في الشجاعة والشعر. قال عمرو بن العلاء: لا يُفَضَلُ عليه فارسٌ في العرب»[١].

* * *

ونستهل هذا المبحث بذكر نسبه فهو عمرو بن معدي كرب بن عبد الله بن عمرو بن عُصم بن عمرو بن زُبيد الأصغر وهو منبه بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن مُنبه بن زُبيد الأكبر بن الحرث بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[٢]. وأُم عمرو (امرأة من جرم)[٣] وجرم من قبائل قضاعة بن مالك بن حمير في منطقة صعدة ومخلاف نجران بأعالي اليمن.

وكانت قبيلة زُبيد من قبائل مذحج التي تسكن في مخلاف نجران، قال الحسن بن أحمد الهمداني:

«بلد زُبَيْد: بلاع واد فيه نخل، إلى الورة والأعدان وهي مراعي، ويسكن هذه البلاد من قبائل زبيد الأغلوق، وبنو مازن، وبنو عُصَم ـ رهط عمرو بن معدي كرب ـ. واراكه في أسفل بلد زُبيد، وتثليث وكان لعمرو بن معدي كرب فيه حصن ونخل»[٤]. يعني في تثليث نجران، وقد ذكرها الهمداني قائلاً «أرض مذحج من تثليث» وجاء في الهامش (أرض مذحج: منها قبيلة زُبيد رهط عمرو بن معدي كرب فارس العرب)[٤] وتجاور قبيلة زُبيد من قبائل مذحج في مخلاف نجران قبيلة جنْب المذحجية، قال الهمداني: (ديار جنْب: المختلف وأعقُق. وفيه يقول عمرو بن معدي كرب:

سِوَى أَنَّ أصواتاً بأعقق لَمْ يَزَلْ ... بها آنسُ من أَهْلِها غَيْرُ بارح)

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص.

(٢) جاء في نسب عمرو بكتاب الاستيعاب أنه (عمرو بن معدي كرب بن عبد الله بن عمرو بن خضم بن عمرو بن زبيد الأصغر وهو منبه بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن منبه بن زبيد الأكبر بن الحرث بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ). وجاء في كتاب الأغاني أنه (عمرو بن معدي كرب بن عبد الله بن عمرو بن عصم بن عمرو بن زبيد بن منبه بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان).

(٣) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٤ ـ وزيد الخيل هو زيد الخيل الطائي وله مبحث خاص في هذا الكتاب.

(٤) صفة جزيرة العرب ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٥٣ و٥٩ و٣٨٧.

قال الهمداني: (وقال طرفة، فجمع طرفاً من بلد مذحج في بيت:

أتعرفُ رسم الدار قفراً منازله كجَفن اليماني زخرف الوشيّ ماثله
بتثليث أو نجران أو حيث تلتقي من النجد في قيعان جاش مسايله)[١]

والمقصود أن منطقة عمرو وقبيلة زُبيد هي في مخلاف نجران بمنطقة تثليث وكان لعمرو حصن ونخل في تثليث، وقال عمرو في أبيات له بالجاهلية:

أعباس: لو كُنّا سَمَانًا خيولنا بتثليث ما لاقيت قبلي إلا كايسا

وما يزال اسم تلك المنطقة (تثليث) حتى اليوم.

* * *

من أنباء عمرو بن معدي كربْ في الجاهلية

وقد اشتهر عمرو بالفروسية ـ أول ما اشتهر ـ في غارة شنتها قبيلة خثعم اليمانية ـ التي تسكن منطقة تبالة في السّراة ـ على قبيلة زُبيد بسبب نزاع قَبَلي بينهما، فلما أغارت خثعم كادت زُبيد أن تنهزم (فرمى عمرو خثعماً بنفسه حتى خرج من بين أظهرهم، ثم كرَّ ـ بفرسه ـ عليهم، وفعل ذلك مراراً، وحملت عليهم بنو زُبيد فانهزمت خثعم. فقيل له يومئذ فارس زُبيد)[٢]. ثم قيل له فيما بعد فارس اليمن ثم فارس العرب.

* * *

وكان عبد الله بن معدي كرب ـ أخو عمرو ـ رئيساً لبني زُبيد، وكان عبد الله ذات يوم ضيفاً عند بني مازن، قال الأصمعي: «فجلس عبد الله مع بني مازن وَهُمْ رَهْط من سَعْدِ العشيرة، فقعد عبد الله يشرب معهم، وكان عَبْدٌ من عبيد المخزَّم قائماً يسقي القوم ـ والمخزَّم رجلٌ له مال وشرف ـ فَسَبَّ عبدُ الله عَبَد المخزم وضربه، فقام رجلُ نَشْوانُ من بني مازن فقتل عبد الله»[٣] وسبب ذلك أن عبد المخزم كان يُغني فَشَبَب بامرأة من بني زُبيد، فقام عبد الله فلطمه، فصاح العبد يا لبني مازن فقام رجل سكرانُ من بني مازن فقَتَلَ عبد الله بن معدي كرب.

قال الأصمعي: «فَرَأَسَ عمرو بعد أخيه، وكان عمرو غزا غزوةً فأصاب فيها ومعه أُبيٌّ المرادي، فادَّعى أنه كان مُساند عمرو، فأبى عمرو أن يعطيه. فلما رجع عمرو من غَزَاته ـ (تلك وسيأتي ذكرها) ـ جاءت بنو مازن فقالوا لعمرو: قَتَله ـ أي

---

(١) صفة جزيرة العرب ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٥٣ و٥٩ و٣٨٧.

(٢) الأغاني للأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٤.

(٣) الأمالي لأبي عليّ القالي ـ جـ٣ ص١٩٠.

عبد الله ـ رجلٌ منّا سفيه ونحن يدُك (عليه) وعَضُدُك، وإنما قتله سكران فنسألك بالرَّحم أن تأخذ الديّة وتأخذ بعد ذلك ما أحببت. فأخذ عمرو الديّة وزادوه بعد ذلك أشياء كثيرة»[١] والأصوب كما جاء في الأغاني أنه قال لهم: «إحدىٰ يديّ أصابتني ولم تُرِد». ونَوىٰ قبول الدية والأشياء التي عرضوها حسماً للقضية.

قال الأصمعي: (فغضبت أختُ له تسمى كَبْشة، وكانت ناكحاً في بني الحارث بن كعب). وكذلك جاء في كتاب الأغاني للأصفهاني إن كبشة أخت عمرو كانت ناكحاً في بني الحارث بن كعب. وهو خطأ لأن بني الحارث بن كعب في نجران، بينما كانت كبشة متزوجة ومقيمة في صعدة، ولذلك قالت في شعرها الذي سيأتي ذكره (وأتْرَكُ في بيت بصعدة مُظلم) وزوج كبشة هو الأجدع بن مالك الوادعي الهمداني من قبيلة وادعة في صعدة وما تزال وادعه في صعدة حتى اليوم. قال الهمداني في الإكليل: كان الأجدع بن مالك فارس همدان وشاعرها في عصره. وكانت تحته كبشة بنت معدي كرب الزُّبيدي، ولهما يقول الأجدع:

أَلَا أَبْلِغْ فَتَاةَ بني زُبَيدٍ كُبَيْشَةَ والحديثُ لَهُ نَمَاءُ
مُغَلْغَلَةً وجهرُ القول مِني يوكلُ في الخطوب به البلاءُ

ولها يقولُ صهرهُ عمرو بن معدي كرب فيما فعل بنو الأصيد مِنْ سفيان بن أرحب ـ (وكانوا سلبوا جواداً لعمرو):

لَعَمْرِكِ لولا أجدع الخير فاعلمي لقُدت إلى همدان جيشاً عرمرما
لَقُدتُ إلى همدان ألف طِمّرة وألف طُميرٍ من كُميْتٍ وأدهما»[٢]

وقوله (ألف طِمرة): الطِمرة ـ بكسر الطاء وتشديد الراء ـ الأنثى من الخيل ـ والطمر: الذكر من الخيل. والكميت: الخيل المختلط السواد والحمرة. والأدهم: الخالص السواد.

* * *

فلما علمت كبشة بنت معدي كرب أن عمراً قال لبني مازن: (إحدى يدي أصابتني ولم تُرد) وقرر قبول الدية منهم لإنهاء قضية قتل عبد الله، غضبت كبشة، وبعثت إلى بني زُبيد شعراً قالت فيه:

(أأرسَلَ) عبدُ الله إذْ حان يومُه إلى قومه ألا تُخَلُّوا لهم دمي؟[٣]

---

(١) الأمالي لأبي علي القالي ـ جـ٣ ص١٩٠.
(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ١٠ ص٩٢.
(٣) يبدأ الشعر في الرواية بكلمة (وأرسل) والأصوب (أأرسل) وجاء آخر البيت في الأغاني (تعقلوا لهم دمي).

(وأنْ) تأخذُوا منهم إفَالاً وأبْكُراً؟ وأُتْرَكُ في بيت بصَعْدة مُظْلِم؟[١]
فإنْ أنْتُمُ لم تَقْتُلوا واتَّديْتُموا فَمُشُوا بآذان النَّعَام المُصَلَّم[٢]
ولا تشربوا إلا فُضُولَ نسائكم إذا أُنهِلَتْ أعقابُهُنَّ من الدمَ[٢]

ومن هذا الشعر بيتٌ لا يتفق مع السياق، وربما أضيف إلى شعر كبشة فيما بعد، وهو:

وَدَعْ عنك عمراً، إن عمراً مُسالِمُ وهل بطنُ عمرٍو غير شبر لمطعم

والبيت الأخير من شعر كبشة في رواية الأصمعي:

جَدَعْتُم بعبد الله آنْف قومه بني مازن أنْ سَبَّ ساقي المُخَزَّم؟!

قال الأصمعي: فلما حَضَّت كبشةُ أخاها عمراً أكبَّ بالغارة عليهم وهم غارُّون، فأوْجع فيهم. ثم إن بني مازن احْتَمَلوا ـ (أي رحلوا عن منطقتهم) ـ فنزلوا في مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، ـ يعني في نجد ـ فقال عمرو في غارته عليهم:

تَمَنَّتْ مازنُ جَهْلاً خِلَاطي فذاقَتْ مازنُ طَعْمَ الخِلَاطِ[٣]
(أطَلْتُ فِرَاطَكُمُ عاماً فعاماً ودَيْنُ المَذْحِجِيّ إلى فِراطِ)[٣]
أطَلتُ فراطَكُم حتَّى إذا ما قَتَلْتُ سَراتَكم كانت قَطَاطي[٤]
غَدَرْتُم غَدْرةً، وغَدَرْتُ أُخرى فما أن بَيْنَنا أبَداً يَعَاطي[٤]
بِطَعْنٍ كالحَريقِ إذا الْتَقَيْنا وضرب المَشْرَفِية في الغُطَاط[٥]

* * *

وقد وقعت حادثة مقتل عبد الله بن معدي كرب بينما كان عمرو في غزوة بجهات نجد حيث كانت قوافل كسرى تأتي من الحيرة بالعراق إلى باذان عامل كسرى في صنعاء مروراً بمنطقة من نجد بخفارة قبيلة تميم حتى أطراف مخلاف نجران والجوف ثم بخفارة همدان إلى صنعاء، فكان بعض فرسان مذحج يغيرون على القوافل الفارسية وهي بمنطقة نجد في خفارة تميم، وقد اشترك (أبيّ بن

---

(١) يبدأ البيت في الرواية بكلمة (ولا تأخذوا) بينما البيت الأول والثاني استنكارٌ منها لقبول الدية.

(٢) النَّعَام: نوع من البقر. وقوله في البيت التالي (إذا أنهلت) جاء في معجم ياقوت (إذا ارتملت: أي تلطخت) والمقصود مخلفات الحيض.

(٣) الخلاط: أن يشتبك القوم في الحرب. وقوله: فراطكم أي إمهالكم والتأني بكم.

(٤) قطاطي: أي حسبي. وقوله: (يعاطي) جاء في الأغاني (تعاطي) والصواب: يعاط وهي كلمة كان ينذر بها الرقيب أهله إذا رأى جيشاً.

(٥) الغطاط: بالضم ـ أول الصبح أو بقية سواد الليل.

ربيعة بن صُبح المرادي) مع عمرو بن معدي كرب في غارة من تلك الغارات غالباً فغنما غنيمة كثيرة في تلك الغزوة (فٱدّعَىٰ أُبَيٌّ المرادي أنه كان مساند عمرو، فأبَىٰ، عمرو أن يعطيه)، والظاهر أنه طلب نصف الغنائم ولم يرض بحصته، فأبى عمرو أن يعطيه، فذهب المرادي غاضباً إلى منطقته وهي منطقة مراد في مأرب، بينما رجع عمرو إلى منطقته في تثليث نجران، وكان من أمره مع بني مازن ما سلف تبيينه.

ثم أراد عمرو إرضاء أُبَيّ بن صبح المرادي بأن يعطيه ما يرضيه، فبلغه أنه يتوعد بقتله، فقال عمرو قصيدةً منها البيت الذي يُروى أن علي بن أبي طالب تَمَثَّل به حين كان عبد الرحمن بن ملجم يتحين الفرصة لقتله[١] وهو:

أريدُ حباءهُ ويريدُ قتلي عذيرك مِنْ خليلك مِنْ مُراد

وهذه القصيدة ذكر القرطبي في ترجمة عمرو أنها (مما يُستحسن من شعره)، وقد وقع خطأ ووهم في الاستيعاب وبعض المصادر بأنه قالها في ابن أخته قيس بن مكشوح المرادي وكانا متباعدين في الجاهلية، والصحيح أنه قالها في (أُبَيّ بن ربيعة بن صبح المسلي المرادي) كما في الإكليل والأغاني، أما قيس بن مكشوح فهو ابن أخت عمرو بن معدي كرب ولم يكن بينهما إلا الخير، وهذه القصيدة من روائع شعر عمرو، فلما بلغه وعيد أُبيّ بن صبح قال عمرو:

أعاذلُ شكتي بدني ورمحي وكل مُقلصٍ سلس القياد
أعاذل إنما أفنى شبابي وأقرح عاتقي ثقل النجاد
تَمَنَّىٰ أن يلاقيني أُبَيٌّ وددتُ وأينما مني ودادي
تمناني وسابغتي دلاصٌ كأنّ قتيرها حلق الجراد[٢]
وسيفٌ لابن ذي قيفان عندي تخيّره الفتىٰ من طبع عاد
يَقُدُّ البِيض والأبدان قداً وفي الهام الململم ذو اجتذاذ[٢]
ورمحي العنبري تخال فيه سناناً مثل مقباس الزناد
وعِجلزة يزلّ اللبد عنها أمرّ سراتها جِلق الجياد[٢]
إذا ركَضَتْ سمعتَ لها وئيداً كوقع القطر في الأدم الجداد[٣]

---

(١) الأغاني ـ جـ١٤ ص٣٣.

(٢) سابغني: درعي. ويروى (سابغتي طلاس) وبعد هذا البيت:
(أريد حباءه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد)

(٣) البيض: يريد الخوذة. العجلزة: الفرس الشديد. والأدم والأديم: الجلد. واللبد: ما يوضع على الفرس. والوئيد: المشي الهوينى.

ويبقى بعد حلم القوم حلمي ... ويَفْنَى قبل زاد القوم زادي

وقال عمرو في أبيات له بكتاب الأمالي:

وابن صُبْح سادراً يُوعِدُني ... ما لَهُ في الناس ما عِشْتُ مُجِير

قال أبو علي القالي: (ابن صُبْح هو أُبَيُّ بن ربيعة بن صبح بن ناشرة بن الأبيض بن كنانة بن مُصْلِية بن عامر بن عمرو بن عُلَةَ. قاله ابن الكلبي)[١] والأصوب كما قال الهمداني أنه (يعني أُبَيّ بن ربيعة بن صبح المسلى، وفيه يقول أيضاً:

تمناني ليقتلني أُبَيٌّ ... نعامة قفرةٍ تبغي المبيضا

نصب نعامة على الشتم)[٢].

***

وكان سيف عمرو بن معدي كرب يقال له (الصمصامة) وهو المذكور في قوله:

وسيفٌ لابن ذي قيفان عندي ... تخيره الفتى من طبع عاد

وجاء في كتاب الأغاني (تخيره الفتى من قوم عاد) والصواب (من طبع عاد) يعني أنه قديم، وكان صاحب ذلك السيف علقمة بن ذي قيفان الأصغر بن ذي بيح بن ذي قيفان الأكبر بن شرحبيل بن أساس بن يغوث الحميري وهو من الملوك الأذواء في عصر الدولة الحميرية، قال الهمداني: (كان علقمة بن ذي قيفان ملكاً بعمران من أرض البون، وكانت همدان حرسه وحاشيته)[٢] ويبدو أنه كان في آخر الدولة الحميريه بعد عهد سيف بن ذي يزن، ثم أن جماعة من قبيلة شاكرونهم البكيلية الهمدانية بمنطقة الجوف أغاروا على قافلة لابن ذي قيفان كانت تمر بمنطقتهم وكانوا في مخمصة شديدة، فطلبوا بعض ما في القافلة، فمنعهم رجال القافلة وكانوا سبعة فقتلوهم وأخذوا الإبل، فبلغ ذلك ابن ذي قيفان فغضب غضباً شديداً، وأقسم ليقتصَنَّ بقتل سبعين ولدٍ من شاكرونهم، فأقبل وجوه شاكرونهم إلى زيد بن مرب الحاشدي الهمداني وكان نديم ابن ذي قيفان، فقالوا له: (أنت سيدنا وأنت نديم الملك وجليسه وقد أقسم بما تعلم، والله لا يصل إلى أولادنا، ومنّا رجل حيّ، فاسأله فليصفح عنا. فقال: إنه لا يفعل، قالوا: فإن أبَى فاقتله، ونحن نُملكك علينا. قال: لا تعجلوا وامهلوا حتى أرى لذلك موضعاً. فبينما زيد جالس مع علقمة، جرى ذكر السيوف، فقال علقمة: عندي سيف لأجدادي يُضرب به المثل. فأحضر السيف الصمصامة ثم ناوله زيداً، فنظر إليه فإذا فيه كتابة مزبورة،

---

(١) الأمالي لأبي علي القالي جـ٣ ص١٤٧.

(٢) الإكليل للهمداني جـ٢ ص٣٠٢.

فأخذ يتأمل السيف ثم هزّه ثم ضربه به فقتله. وذكر محمد بن نشوان الحميري من غير الإكليل أن عمرو بن معدي كرب وَفَد على علقمة بن ذي قيفان في وفد كهلان ـ يعني مع شاكرونهم ـ وهو الذي قتل ابن ذي قيفان) ونرى أنه ربما كان عمرو مع زيد بن مرب حين أحضر علقمة السيف فتأمله زيد بن مرب ثم تأمله عمرو فهزّه وضرب به علقمة فقتله. وفي ذلك قال الأجدع بن مالك الهمداني:

أَزَلَ ابن ذي قيفانَ عمرو بضربة ... على الرأس بالصمصام والناس حُضَّرُ
بَنَىٰ لكم يا مذحج الغر فاعلموا ... مفاخركم عمرو على الناس فافخروا

وأخذ زيد بن مرب السيف، ثم أن همدان أصابت نفراً من مذحج (فطالبتهم مذحج بالعُقل إن كان الصمصامة أو قوّد رجال، فدفع قيس بن زيد بن مرب إليهم الصمصامة، فاستأثر به عمرو بن معدي كرب، وأرضى قومه من ماله).

وكان مكتوب على السيف:

ذكرُ على ذكر بكفّ مُضارِبِ ... ذكرُ يمين في يمين يمان

فكان عمرو يشهد به الوقائع في الجاهلية، ثم وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص لما بعثه رسول الله ﷺ عاملاً على صدقات مذحج، وسيأتي بناء ذلك، ثم اشتراه الخليفة العباسي موسى الهادي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور من آل سعيد بن أبي العاص بمال جسيم، فقال الشاعر أبو الهول الحميري وكان من جُلساء موسى الهادي:

حَازَ صمصامةَ الزُبيدي عمرٍو ... خيرُ هذا الأنام موسى الأمينُ
سيفُ عمرو قد كان فيما علمنا ... خير ما أغمدت عليه الجفونُ
أخضر اللون بين حديه بُرد ... مِنْ ذُباح تميسُ فيه المنونُ[١]
أوقدت فوقه الصواعقُ ناراً ... ثم شابته بالذُعاف القيونُ[١]
فإذا ما سللته بَهَرَ الشمس ... ضياءً فلم تَكدْ تستبينُ
وكأنّ الفِرند والرونق الجاري ... على صفحتيه ماءُ معينُ[٢]
نِعْمَ مخراق ذي الحفيظة في الـ ... ـهيجاء يَعْصِي به ونِعْمَ القرينُ[٢]

* * *

---

(١) الذُباح ـ بالضم ـ نباتٌ قاتل. والذعاف مثل الذُعاف، يقال: سُمُ ذعاف. والقيون: جمع قين وهو الحداد.

(٢) الفرند ـ بكسر الفاء والراء ـ جوهر السيف. ويعصى: يُقال عصي بكسر الصاد ويعصي إذا ضرب بالسيف.

وقد زعم الأصفهاني في كتاب الأغاني قصيدة عمرو بن معدي كرب التي أولها:

أمِنْ ريحانَة الداعي السميع ... يؤرِقُني وأصحابي هجوع

قالها في أخته ريحانة بنت معدي كرب لما سباها الصمة بن بكر الجشمي وكان أغار على بني زبيد فاستاق أموالهم وسبا ريحانه. وزعم أن عمراً اتبعه يناشده أن يخلي عنها فلم يفعل، فلما يئس منها وَلّى وهي تناديه بأعلى صوتها فلم يقدر على انتزاعها، فقال: أمن ريحانة الداعي السميع... الخ. بينما تلك الرواية عارية من الصحة مثلها في ذلك مثل الرواية الثانية التي أوردها الأصفهاني عن حماد الرواية أن ريحانة امرأة من مراد تزوجها عمرو وذهب مُغيراً قبل أن يدخل بها، فلما قدم أُخْبِر أن قد ظهر بها وضح، وهو داء تحذره العرب، فطلقها، وتزوجها رجل آخر، وبلغ ذلك عمراً وأن الذي قيل فيها باطل، فقال قصيدته (أمِنْ ريحانة الداعي السميع)[١]. والواقع أنه لا صحة للروايتين فلم تكن ريحانة أخت عمرو ولا هي امرأة من مراد تزوجها، وإنما ريحانة اسم منطقة في وادي حَلية بين جيزان والليث في طريق الساحل وهو ساحل مخلاف نجران وعسير، وتلك الطريق هي الطريق أو المحجة القديمة لِحُجاج اليمن إلى مكة. قال الهمداني: (والمحجة القديمة ترتفع إلى حَلي العليا وتسمى حَلية وهي التي يعني الشنْفرىٰ بقوله:

بريحانة من بطن حَلية نَوَّرَتْ ... لها أرجُ من حولها غير مسنت)[٢]

وقال عمرو بن معدي كرب:

أمِنْ ريحانة الداعي السميعُ ... يؤرِقُني وأصحابي هُجوعُ

براني حُبُّ مَنْ لا أستطيع ... ومَنْ هو للذي أهوى منوعُ

ومَنْ قد لامني فيه صديقي ... وأهلي ثم كلا لا أطيعُ

.. إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيعُ

وهذا البيت الأخير قد تمثل واستشهد به كثير من الزعماء والعلماء لما فيه من حكمة عمرو بن معدي كرب الخالدة.

* * *

وقد كان من معالم الوضع السياسي في اليمن منذ نهاية عهد سيف بن ذي

---

(١) الأغاني ـ جـ١٤ ص٣٢ ـ قال ابن سلام: «وزاد الناس في هذا الشعر» يعني أبياتاً موضوعة لذلك اكتفينا بذكر أربعة أبيات صحيحة.

(٢) صفة جزيرة العرب ـ الهمداني ـ ص٣٤١.

يزن وفي الجاهلية أن الأذواء والحميريين استقلوا بحكم مناطق حمير التي تشمل بالتسميات الحالية محافظات إب وتعز ولحج والضالع وبعض مناطق أبين إلى صعيد شبوه شرقاً والبحر الأحمر غرباً، بينما كانت قبائل مذحج ومناطقها تمتد في أعالي شبوه والبيضاء وذمار ومأرب والجوف إلى نجران، فوقعت حرب بين حمير ومذحج في جهات أعالي أبين، أهاجها ابن سريع السكسكي، فتنادت سائر حمير وسائر مذحج إلى الحرب، وكان لحمير فضل في الدماء على مذحج، فَسَعت مذحج إلى السلم، وكان من أذواء حمير وقد حَثّته وعاتبته (أروى) وسألته أن يأتيها بفهد بن عبد كلال أسيراً، فقال عمرو:

ألا عَتَبَتْ عليّ اليومَ أرْوَىٰ ... لآتيها كما زَعَمَتْ بفَهْدِ
وحِمْيَرُ دُونه قَوْمُ عُتاة ... بكل مَسِيلةٍ وبِكُلِّ نَجْدِ
فما الأحلافُ تابعتي إليه ... ولا - وأبيك - لا آتيه وَحْدِي

وكان من أمر تلك الحرب القبلية التي أهاجها ابن سريع السكسكي بين حمير ومذحج، أنهم تنادوا إلى الكف عن الحرب، وكان القتلى من حمير أزيد بثلاثين قتيلاً عن القتلى من مذحج، فسار مالك بن عمرو الزُبيدي في ثلاثين راكباً من وجوه مذحج وطرحوا أنفسهم على زُرعة الخنفري قَوَداً في الدماء التي على مذحج (إذا شاء قَتَلَهُمْ مقابل القَتْلَى الذين من حمير)، فخافت قبائل همدان - وهي حاشد وبكيل - مغبة ذلك لأن زُرعة بن عمرو إذا عَدَى على وجوه مذحج الذي أقادوا أنفسهم دخلت قبائل كهلان في حرب حمير، فقال الأسفع بن أوبر البكيلي الهمداني، وكان من رؤساء همدان قصيدة منها:

ألا يا همدان فَجِدّوا وشَمِّروا ... فقد ضافكم في القوم أحدى الكبائر
ونادوا مُراداً ثم زمّوا مسلاحكم ... وضُمّوا جياد الخيل ضَمّ المُكَاثر
فإني أرى قوماً أقادوا نفوسهم ... وصاحبهم فيما يُرَىٰ أيُّ غادر
ونادوا بحار يا لكعب سَرَاتِكُمْ ... فليس جهولاً بالأمور كخابر[1]
ففي حِمْيَر أربابُ مُلْكٍ ونخوة ... جبابرُ ما فوقها من جَبَابر
ونادوا زُبَيْداً غاب عنها زعيمها ... وما هو فيما قد أخال بصابر

ولكن زعيم زُبيد - أيا كان - لم يكن يرغب في الحرب، وكان مُحسناً الظن في أذواء حمير، بينما تشاور زرعة بن عمرو وفهد بن عبد كلال وبقية أذواء حمير،

---

(١) قوله: (نادوا بحار بن كعب) يعني قبيلة الحارث بن كعب المذحجية في نجران.

ففعلوا الجميل وأسقطوا الدماء، وأجزلوا العطاء لوجوه مذحج. فقال مالك بن عمرو الزُّبيدي يُثني على زُرعة بن عمرو:

فَمَنْ مثل زُرعة في العالمين لِمَنْ عضّه الدهر في ضمّهِ
تَمَكَّنَ في الصّيد مِنْ خنفرٍ ومِنْ بيت حمير في صُمّهِ

ويستفاد من أنساب الإكليل أن زمن من تلك الحادثة أقدم من عمرو بن معدي كرب، ولكن شعر عمرو في فهد بن عبد كلال ليس له مناسبة مذكورة في المصادر، ولم يكن بين حمير ومذحج ما يستوجب ذلك الشعر غير تلك الحادثة التي انتهت بالوئام والاتفاق. وقد ذكر عمرو في تلك القصيدة أيضاً النعمان بن المنذر ملك الحيرة.

* * *

والنعمان بن المنذر هو أبو قابوس، وقد جاء ذكره في بيت واحد من قصيدة عمرو بن معدي كرب وهو:

أَؤُمُّ بها أبا قَابُوس حَتَّى أحلُّ على تحيَّته بجندي[1]

وغني عن البيان أن النعمان بن المنذر كان ملك إقليم الحيرة بالعراق في إطار الولاء للإمبراطوية الفارسية الكسروية التي كانت تبسط نفوذها أيضاً على بعض مناطق الخليج العربي وشرق الجزيرة حيث كانت تسكن قبائل من ربيعة وتميم، وكذلك كان الفُرس يحكمون صنعاء وبعض المراكز في اليمن منذ ما بعد نهاية عهد ابن ذي يزن ـ حوالي عام ٥٩٣م ـ وكان باذان بن ساسان عامل كسرى أبرويز بن هرموز في صنعاء.

وكان عمرو بن معدي كرب سادس ستة من وجوه وشخصيات قبائل العرب، بعث إليهم النعمان بن المنذر للقدوم إليه ومقابلة كسرى. وتقول رواية في كتاب الأغاني والعقد الفريد أن كسرى استنقص قدر العرب في كلام بينه وبين النعمان، فذكر له النعمان رؤساء قبائل العرب وأبطالهم وبلاغتهم، فأمره النعمان بأن يقدموا إليه، فبعث إليهم النعمان، وكان منهم عمرو بن معدي كرب والأشعث بن قيس الكندي وأربعة من تميم وربيعة، فلما دخلوا على كسرى تكلموا بكلام حسن، وقد جاء في كتاب العقد الفريد أن عمرو بن معدي كرب قال لكسرى:

«إنما المرء بأصغريه، قلبه ولسانه، فبلاغُ المنطق الصَّواب، ومِلاك النُجعة الارتياد، وعفو الرأي خيرُ من استكراه الفكرة، وتَوْقُف الخبرة خَيْر من اعتساف

(١) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ جـ٢ ص١٤٨ ـ وجاء في الهامش (التحية: أي المُلْك).

الحيّرة، فاجتذب طاعتنا بلفظك، واكتظم بادرتنا بِحِلْمك، وأَلِنْ كنفَك يسلُس لك قيادنا، فإنّا أناسٌ لم يُوَقسَّ صفاتنا قِراعُ مناقير من أراد لنا قضماً، ولكن منعنا حِمَانَا مِن كل مَنْ رام لنا هَضْما». انتهى[١].

وقد يمكن القول، أن سبب ذلك اللقاء يتصل بالسياسة وتأمين القوافل، فقد كان في اللقاء رؤساء قبيلة تميم وهي القبيلة التي بخفارتها كانت تسير فواقل كسرى والفُرس التي تتوجه من الحيرة إلى باذان والأبناء الفرس بصنعاء. وقد حضر اللقاء عمرو بن معدي كرب لأنه أبرز شخصيات قبائل مذحج التي كان بعض فرسانها قد يهاجمون تلك القوافل، وكان الأشعث بن قيس زعيم كندة وحضرموت حلفاء مذحج. ومما قد يتصل بسبب اللقاء قول عمرو بن معدي كرب: «فاجتذب طاعتنا بلفظك، واكتظم بادرتنا بحلمك..».

وقد أثْنَىٰ كسرى عليهم وأجزل لهم العطاء، وعادوا إلى مناطقهم، واستمر الوئام ـ بعد ذلك ـ فترة من الزمن، ثم إن كسرى هذا ـ وهو أبرويز بن هرمز ـ اختلف مع النعمان بن المنذر، وفي ذلك قال أحمد أمين (غضب كسرى على النعمان ففر هارباً ثم لجأ إليه فحبسه حتى مات، وبموته ألغت الحكومة الفارسية نظام إمارة اللخميين ـ المناذرة ـ وولّت من قبلها حاكماً فارسياً يخضع له أمراء العرب[٢].

وكان من مضاعفات ذلك موقعة يوم ذي قار التي انتصرت فيها قبيلة ربيعة والذين معها من العرب على قوة من الجيش الفارسي في مناطق إقليم الحيرة، وكانت موقعة ذي قار بعد البعثة النبوية بأمد يسير، قال أبو عبيدة في كتاب النقائض كانت وقعة ذي قار: «وقد بُعث النبي ﷺ، فقال النبيّ ﷺ في ذلك: اليوم انْتَصَفَتِ العربُ من العجم»[٣] وجاء في كتاب الإصابة للعسقلاني أنه «قال رسول الله ﷺ يوم ذي قار هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم»[٤] وكان للقائد اليمني يزيد بن حَمَار السكوني الكندي دور فعال في تحقيق انتصار يوم ذي قار مع قبيلة بكر بن وائل من ربيعة، وكان تميم مع الفُرس وكان في الأسر من تميم قريب مائتي أسير أطلقت بكر بن وائل سراحهم[٣]. وبالرغم من أهمية يوم ذي قار، فقد استمر الحكم والنفوذ الفارسي في إقليم الحيرة ومناطق النفوذ المجاورة لها، ولكن القوافل الفارسية لم تعد آمنة.

* * *

---

(١) العقد الفريد ـ لابن عبد ربه ـ وقوله: النجعة: أي طلب الكلا. ولم يوقس: لم يُخدش.
(٢) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص١٥.
(٣) النقائض لأبي عبيدة معمر بن المثنى البصري.
(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ١ ص٢٥.

لقد سلف تبيين أن قبيلة تميم كانت تقوم بخفارة القوافل الفارسية المتوجهة من الحيرة إلى اليمن، فأخذت جماعات من فرسان قبيلة مذحج تشن الغارات على بعض تلك القوافل بمنطقة نجد مما أدى إلى اندلاع صراع مع قبيلة تميم في نجد اشترك فيه عمرو بن معدي كرب. وكان من أنباء ذلك أن قبيلة بني الحرث بن كعب المذحجية كانت تستولي في بعض غاراتها على مواشي لعشائر من تميم، فقال رجل من تميم يحرض قومه:

فـي كـل عـام نَـعـمُ يـحـوونـه أربـابـه نَـوْكَـىٰ فـلا يـحـمـونـه
أنـعَـمَ الأبـنـاءِ يـحـسـبـونـه

والمقصود بالأبناء هُمْ الفُرس وملكهم باذان في صنعاء، ثم تحالفت قبيلة تميم مع بعض قبائل نجد في محاربة فرقة من بني الحرث بن كعب بمنطقة ماء الكُلَاب في نجد، فأسرت تميم في ذلك اليوم عبد يغوث بن صلأة الحارثي وكان من وجوه بني الحرث بن كعب المذحجيين في نجران، فقال وهو في الأسر قصيدته المشهورة التي منها قوله:

فـيـا راكـبـاً إمـا عَـرَضْـتَ فـبـلِّـغـهـن نـدامـاي مـن نـجـران ألا تـلاقـيـا
أبـا كـرب والايـهـمـيـن كـلـيـهـمـا وقيساً بأعلى حضرموت اليمانيا

وقيس هو أبو الأشعث بن قيس الكندي زعيم كندة وحضرموت فلما بلغته القصيدة قال: (لبيك، وإن أَخْرْتَنِي) وقد وقعت تميم في خطأ فادح فقامت بقتل عبد يغوث بن صلأة الحارثي، وكان العرب في الجاهلية يتفادون قتل الرؤساء والوجهاء بسبب ما يؤدي إليه ذلك من مضاعفات خطيرة، وقد أدى قتل عبد يغوث إلى حروب في بداياتها قال عمرو بن معدي كرب:

لَـعَـمْـرُكَ لـو تَـجَـرَّد مـن مُـرادٍ عَـرَانِـيـنُ عـلـى دُهْـم وجُـرْد
ومِـنْ عَـنْـسٍ مَـغـامِـرَةُ طَـحُـونُ مُـدَرَّبـة، ومِـنْ عُـلَّـةَ ابـن جَـلْـد
ومِـنْ سَـعْـدٍ كـتـائـب مُـعْـلَـمـاتٍ عـلـى مـا كـان مـن قُـرْبٍ وبُـعْـد
ومِـنْ جَـنْـبٍ مُـجَـنَّـبـة ضَـرُوب لِـهَـام الـقـوم بـالأبـطـال تُـرْدي
وأودُ نـاصـري وبـنـي زُبَـيْـدٍ ومَنْ بالخيف مِنْ حَكَم ابن سعدِ
وتُـجْـمِـعُ مَـذْحَـجُ فـيُـرَئِّـسـونـي لأبْـرأتُ الـمـنـاهِـل مِـنْ مَـعَـدِّ

والقبائل التي ذكرها عمرو هي قبائل مذحج، أو بطون قبيلة مذحج الذين لو اجتمعوا تحت رئاسته لَجَعل موارد المياه في نجد خالية من قبيلة تميم وحلفائها من عشائر معد، وكان ذلك الشعر بعد مقتل عبد يغوث الحارثي غالباً.

ثم انطلق قبائل زُبيد ومراد وبني الحرث بن كعب المذحجية ومعهم فرسان قبائل خثعم وثماله ودوس وخولان صعدة، فشنوا الغارات في أرجاء عديدة من مناطق نجد بقيادة عمرو بن معدي كرب والحصين بن قنان الحارثي، وتواصلت المواقع والغارات فترة من الزمن، وكان من أهمها موقعة (يوم فَيْفِ الريح في نجد).

قال أبو علي القالي: (قال ابن الأعرابي: قال عمرو بن معدي كرب هذه القصيدة التي على الحاء يوم فَيْفِ الريح وهي هذه:

ديار أقفرت من أُمّ سَلْمَى ... بها دَعْسُ المُعَزِّب والمُراحِ
وقفتُ بها فناداني صِحابي ... أغالَبَك الهوى أم أنت صاحيَ
وكَمْ مِنْ فِتْيَةٍ أبناء حَرْب ... على جُرْدٍ ضَوامِرَ كالقِدَاح
وصَفٌ ما تَسَايَرُ حَجْرتاه ... تُبَشِّره الأشائم بالشِّيَاح
شَهِدْتُ طِرادَه بأقبَّ نَهْدٍ ... كتَيْس الرَّبْلِ مُعْتَدِل وَقَاحِ[1]
يقول له الفوارس إذْ رأواه ... نرى مَسَداً أُمِّرَ على زِمَاح
إذا قاموا إليه ليُلْجموه ... تَمَطَّى فَوْقَ أعْمِدة صِحَاح
.. فلم نَقْتُل شِرارَهم ولكن ... قَتَلْنا الأفضلين ذوي السلاح
قَتَلْنَا مُطْعِن الأضياف منهم ... وأصْحَابَ الكريهة والصَّباح
فأثْكَلْنا الحَلِيلة مِنْ بنيها ... وخَلَّينا الخَرِيدة للنِّكاح)[2]

وقال في أبيات يذكر فيها أيام مذحج:

هُمُ وَرَدُوا المياهَ على تَميمٍ ... بألفِ مُدَجَّج شُمْطٍ ومُرْدِ
وهُمْ خَشُّوا مع الدَّيَّان حَتَّى ... تَغَشَّمَ كل عُضْرُوطٍ وعَبْدِ[3]
وهُمْ أخذوا بذي المرُوتِ ألفاً ... يُقَسَّم للحُصَيْن ولابن نهد[4]
وهُمْ تركوا القبائلَ مِنْ مَعَدٍّ ... ضِباباً مُحْجِرين بكل (حرد)[4]
فما جَمْعٌ ليَغْلِبَ جَمْعَ قومي ... مُكاثَرةً ولا فَرْدٌ لفَرْد

---

(١) جاء في هامش الأمالي: (الربل: ضروب من الشجر إذا برد الزمان عليها وأدبر الصيف تفطرت بورق أبيض من غير مطر).

(٢) الديان: يعني ابن عبد المدان بن الديان الحارثي. وقوله: خشوا: أدخلوا. وعضروط: تابع.

(٣) الحصين: هو الحصين بن قنان الحارثي. وكل حرد: كل قصد.

(٤) الأمالي ـ ص١٤٦ ـ ٣/ ١٤٩.

وقال الأصمعي: «اجتمعت زُبيد ومُراد وخَثْعَم وثُمالة ودوس، فقاتلوا بني عامر وجُشيم وسُلَيْما حيث أتوهم، فَهُزِمَتْ عامر ومن معها، وأصيبت عين عامر بن الطُّفيل. فقال عمرو بن معدي كرب:

ولـقـد أَجْـمَـعُ رِجْـلَـيَّ بـهـا حَـذَرَ الـمـوت وإنِّـي لَـفَـرُور

ولـقـد أَعْـطِـفُـهـا كـارهـة حـيـن لِلْـنَّـفس من الـمـوت هـريـر

كُـلُّ مـا ذلـك مِـنِّـي خُـلُـقُ وبِـكُـلٍّ أنـا فـي الـحـرب جـديـر»[١]

وقد انتهت تلك الحروب والمغارات بعودة الاتفاق والوئام مع قبائل نجد وهوازن، وأصبح عمرو بن معدي كرب فارس العرب بدون منازع، ثم اتجه عمرو إلى ميدان آخر.

* * *

كان الميدان الذي اتجه إليه عمرو هو مواجهة الحكم الفارسي المجوسي في صنعاء والعمل للقضاء عليه، وقد ذكر المؤرخ الرازي نبأ ما حدث قائلاً: «اجتمع جماعة من الرؤساء فتشاوروا، وأجمعوا على حرب باذان بن ساسان عامل كسرى بن هرمز. وكان اجتماعهم بمذاب في الجوف، وفيهم عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي، والحصين بن قنان، ويزيد بن عبد المدان، وعنبسة بن زيد الخولاني، وجماعة من الفرسان والأشراف، فعسكروا عسكراً عظيماً وجمعوا جمعاً كثيفاً. وبلغ ذلك باذان فخرج إليهم في خيل الأساورة، وخرجت همدان في لقائه في عشرة آلاف مقاتل من همدان ما بين فارس وراجل في عدة كاملة وعرضوا على باذان النُصرة والحلف.. وذلك أن همدان لم تزل تميلُ ميل الأساورة وتنصرهم»[٢].

ويتيح ذلك النص التاريخي الذي ذكره الرازي إدراك واستنتاج النقاط الجوهرية التالية:

إن الرؤساء الذين اجتمعوا وتشاوروا وأجمعوا على حرب باذان هم بصفة أساسية زعماء قبيلة مذحج، ومنهم الحصين بن قنان وهو الحصين بن قنان الحارثي من رؤساء قبيلة بني الحرث بن كعب المذحية في نجران وكان يتولى مع أولاده قيادة مذحج في الحروب، قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة قيس بن الحصين: «كان الحصين والد قيس رئيساً وكان له أربعة أولاد كان يقال لهم فوارس

(١) الأمالي ـ ص١٤٦ ـ ٣/ ١٤٩.

(٢) تاريخ صنعاء ـ الرازي ـ ص٣٦.

الأرباع، كانوا إذا حضر الحرب وُلّي كل منهم ربعها»[١] وأما عمرو بن معدي كرب فهو أول الرؤساء الذين جاء ذكرهم في نص الرازي عن اجتماعهم واتفاقهم على حرب باذان عامل كسرى بصنعاء، وكان عمرو رئيس بني زُبيد ولكن رئاسته في الحروب تشمل قبائل مذحج فهو ـ على الأقل ـ فارس فرسان مذحج، وبقيادته هو والحصين بن قنان اجتمعت زُبيد ومراد وبني الحرث بن كعب وكذلك خولان صعدة ونهد وجرم القضاعية وخثعم في يوم فيف الريح بنجد، وأما يزيد بن عبد المدان بن الديان فهو سيد نجران ومن كبار أقيال مذحج، قال الشاعر:

والبيتُ بين بني الديان نعرفه في آل مذحج مثل الجوهر الغالي

وعنبسة بن زيد الخولاني من رؤساء خولان صعدة ـ غالباً ـ وهم مع بقية قبائل قضاعة في صعدة ونجران والسراة حلفاء مذحج ومنهم نهد وجرم من عشائر قضاعة بنجران وصعدة، وقد تقدم ذكر الأجدع بن مالك الوادي الهمداني وكانت زوجته أخت عمرو بن معدي كرب وهي كبشة تقيم بمنزله في صعدة وكانت له زوجة ثانية بنجران هي بنت الحصين أخت فوارس الأرباع، وكان الأجدع بن مالك يشهد الحروب والغارات مع عمرو بن معدي كرب والحصين. وقد ذكر الرازي أن الرؤساء والأشراف «عسكروا عسكراً عظيماً وجمعوا جمعاً كثيفاً» في منطقة وادي مذاب في الجوف، وذلك بهدف الزحف لمحاربة باذان بن ساسان عامل كسرى أبرويز بن هرمز في صنعاء، وكان الذين تجمعوا في الجوف هم بصفة أساسية من قبيلة مذحج.

إن باذان لما بلغه نبأ تجمعهم بالجوف خرج من صنعاء في خيل الأساورة الفُرس وسار إلى منطقة همدان حيث التقاه عشرة آلاف مقاتل من همدان ما بين فارس وراجل في عدة كامله، ولم يكن ذلك من باب المصادفة، فعبارة (أن همدان لم تزل تميل ميل الأساورة وتنصرهم) إنما تشير إلى اتفاق وتحالف سابق بين الفريقين، فلما حشدت مذحج ذلك الجمع في الجوف قام بعض رؤساء همدان بجمع مَنْ أجابهم من قبائل همدان ـ أي من حاشد وبكيل ـ فجمعوا عشرة آلاف مقاتل بعدّتهم الحربية الكاملة لمناصرة باذان والفُرس في محاربة مذحج والثائرين المتجمعين في الجوف، ولم يذكر الرازي ما حدث على صعيد المواجهة وإنما اكتفى بذكر كتاب الحلف والتناصر بين همدان والفرس وإن ذلك كان قبل الإسلام، وقد استعمل عبارة قبل بعث النبي محمد ﷺ وهي عبارة يتم استعمالها كثيراً بمعنى

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٢٤٥.

قبل الإسلام وبمعنى قبل الإسلام في اليمن وبمعنى أن الفرس الأبناء وملكهم باذان كانوا مجوساً، لذلك قال الرازي إن باذان (عامل كسرى باليمن)، وقد كانت همدان ومذحج أيضاً تدين غالباً بعبادة (يغوث) و(يعوق) و(ود) ولذلك يقال (قبل الإسلام)، ويبدو أن التقاء باذان والفرس مع رؤساء همدان الذين حشدوا له عشرة آلاف مقاتل قد أسفر عن اتفاق بأن يتولى باذان دعمهم بالخيل والمال، ويعود إلى صنعاء، وتتولى همدان الهجوم ومحاربة مذحج الثائرين المجتمعين في الجوف، بحيث تبدو الحرب بين همدان ومذحج، وهو ما حدث في موقعة يوم الرَّدْم بالجوف.

❊ ❊ ❊

ـ لقد دارت موقعة يوم الرَّدْم في مكان يُقال له: (الرَّدْم) بالجوف، قال القاضي الأكوع في هامش ذكر الهمداني ليوم الردم بكتاب الإكليل: «يوم الرزم: ويقال له يوم الردم، ويقال له ردم ملاحاً ورزم ملاحاً وهو موضع بالجوف معروف لهذه الغاية. اجتمعت فيه همدان كلها ومذحج كلها.. فقامت الحرب بينهما، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة في ـ وقت ـ وقعة بدر»[1] ولكن ما ذكره الأكوع بأن موضع (الرَّدْم) هو الذي يُسمى حالياً (رزم) وتسمية الموقعة (يوم الرزم) فيه نظر، لأن الثابت في السيرة النبوية وفي كتب التاريخ وتراجم الصحابة وحديث رسول الله ﷺ لما وَفَدَ إليه فروة بن مسيك هو (يوم الرَّدْم) وليس (يوم الرزم) فقد يكون (رزم ملاحاً) غير موضع (الرَّدْم) وقد يكون هو نفسه، والأصوب عدم المساس بالاسم الثابت في السيرة النبوية وفي الحديث النبوي وهو (يوم الرَّدْم) واسم المكان الذي وقعت فيه الحرب هو (الرَّدْم) وذلك في منطقة وادي مذاب وهي منطقة واسعة بالجوف، وليس من باب المصادفة إنها نفس المنطقة التي ذكر الرازي أن الرؤساء الذين اجتمعوا وتشاوروا وأجمعوا على حرب باذان عامل كسرى (كان اجتماعهم بمذاب في الجوف، وكان فيهم عمرو بن معدي كرب، والحصين بن قنان، ويزيد بن عبد المدان، وعنبسه بن زيد، وجماعة من الفُرسان والإشراف، فعسكروا عسكراً عظيماً، وجمعوا جمعاً كثيفاً). أما همدان فكان قدومهم في موقعة يوم الرَّدْم على سبيل الهجوم، ويمكن تقدير عددهم بنحو عشرة آلاف مقاتل وليس همدان كلها وكذلك مذحج، وقد تميزت همدان بكثرة الخيول ـ أي الفرسان ـ في تلك الموقعة مما أدى إلى انهزام وتقهقر مذحج، وقد كان أبناء الحصين بن قنان الذين هم فوارس الأرباع يتولى كل واحد منهم قيادة رُبع قبائل

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ١٠ ص٩٧.

مذحج والذين معهم في الموقعة، ويبدو أن همدان أعطت اهتماماً خاصاً لقتل فوارس الأرباع وكانت تظن أن قتلهم سيؤدي إلى تقهقر وانهزام الجموع التي يقودونها، وكان ذلك هو ما حدث بالفعل، فما أن سقط فوارس الأرباع حتى وَلّتْ جموعهم الأدبار. وقد جاء في كتاب الإكليل وكتاب الأمالي أن أبناء الحصين (وهُمْ فوارس الأرباع، قتلتهم همدان في يوم الردم، وكان قائد همدان الأجدع بن مالك، وقال في ذلك:

أسالتني بركائب ورحالها ونسيت قتل فوارس الأرباع)[١]

وقد استندت بعض الروايات إلى ذلك البيت في قولها أن الأجدع بن مالك هو الذي قتل فوارس الأرباع في يوم الردم بالإضافة إلى أنه كان قائد همدان، ولكن الواقع إنه لم يكن قائد همدان، وفي ذلك قال ابن هشام في السيرة النبوية: «الذي قاد همدان يوم الرَّدْم مالك بن حُريم الهمداني»[٢] وهو الصواب.

ثم أن الأجدع بن مالك يمكن القول بأنه شهد يوم الردم مع عمرو بن معدي كرب والحصين بن قنان وأبناء الحصين فوارس الأرباع وليس ضدهم، أي مع مذحج وليس مع همدان، لأن الأجدع هو صهر عمرو بن معدي كرب فامرأة الأجدع هي كبشة أخت عمرو، ولها يقول الأجدع:

ألا أبلغْ فتاة بني زُبيد كبيشة والحديثُ له نماءُ

وكان للأجدع منزل وامرأة في نجران أيضاً، قال أبو عبيد البكري: «**كانت امرأة الأجدع من بني الحرث بن كعب ـ بنجران ـ ولها قال هذا الشعر بعد يوم الرَّدْم**»[٣] يعني الشعر الذي فيه ذكر (قتل فوارس الأرباع) وذلك لأن امرأة الأجدع التي من بني الحرث بن كعب في نجران هي بنت الحصين أخت فوارس الأرباع، وتدل أبيات شعر الأجدع على أنه لما وقع التقهقر في يوم الرَّدْم ورجعت بنو الحرث بن كعب وبنو زُبيد وغيرهم إلى مناطقهم، كان الأجدع معهم، فلما وصل إلى منزله بنجران سألته امرأته وهي بنت الحصين عن الركائب ـ أي الجِمال ـ ورحالها، فقال الأجدع:

أَسَأَلْتِني بركائبٍ ورحالِها ونَسَيْتِ قَتْلَ فوارِسِ الأرباعِ؟
بنت الحُصَين: أَلَمْ يَرُعْكِ نَعيبهم أهلُ اللّواءِ وسادَةُ المِرباعِ

(١) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ ص.
(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٦٤.
(٣) النوادر ـ لأبي عبيد البكري ـ ص٢٥.

تـلـك الـرزيّـةُ لا قـلائـصَ غُـودِرت ... بـرحـالـهـا مَـشـدُودة الأنـسـاعِ

ولم تذكر الروايات شعراً لعمرو بن معدي كرب في يوم الردم، ويمكن القول أن موقفه في ذلك اليوم كان شبيهاً بيوم من أيام وقائع الجاهلية قال فيه عمرو بن معدي كرب أبياتاً من روائع شعره، وهي هذه الأبيات:

ولـمّـا رأيـتُ الـخـيـلَ زَوراً كـأنّـهـا ... جَـدَاولَ زرعِ خـيـلّـت فـاسـبـطـرَّتِ

فَـجَـاشَـتْ إلـيَّ الـنـفـسُ أول مـرةٍ ... ورُدَّت عـلـى مـكـروهـهـا فـاسْـتَـعـرّتِ

عَـلام تـقـولُ الـرمـحُ يُـثـقـلُ سـاعـدي ... إذا أنـا لـم أطـعـن إذا الـخـيـلُ كـرَّتِ

لَـحَـا الـلّـهُ جَـرْمـاً كـلـمـا ذَرَّ شـارقٌ ... وجـوه (كـلاب) هـارشـت فـازبـأرتِ[1]

ظَـلَـلْـتُ كـأنـي لـلـرمـاح رديـئـة ... أقـاتِـلُ عـن أحـسـاب جَـرْمٍ وفَـرّتِ

فـلـو أنّ قـومـي أنـطـقـتـنـي رِمـاحُـهُـمْ ... نَـطَـقْـتُ ولـكـنّ الـرمـاحَ أجَـرّتِ

* * *

وكان عمرو في آخر فترة الجاهلية وقبل أن يأخذ مكانه في موكب الإسلام يقول شعراً عن ذكريات وأحداث أيام الجاهلية السابقة، فكان من آخر روائع شعره القصيدة التالية:

لـيـس الـجـمـالُ بـمـئـزرٍ ... فـاعْـلَـمْ وإنْ رُديـت بُـردا

إن الـجـمـالَ مـعـادنٌ ... ومـنـاقـبُ أورثـن مـجـدا

أعـددتُ لـلـحـدثـان سـا ... بـغـةً وعـداءً عَـلَـنْـدا

نـهـداً وذا شـطـبٍ يـقـدُّ ... الـبِـيـض والأبـدان قـدا

كـل امـرئ يـجـري إلـى ... يـوم الـهـيـاج بـمـا اسـتـعـدا

وعـلـمـتُ أنـي يـوم (راك) ... مُـنـازلُ كـعـبـاً ونـهـدا[2]

قـومٌ إذا لـبـسـوا الـحـديـد ... تـنـمـروا حـلـقـا وقـدا

لـمـا رأيـتُ نـسـاءنـا ... يـفـحـصـن بـالـمـضـراء شـدا

وبَـدَتْ لـمِـيـسُ كـأنّـهـا ... بـدر الـسـمـاء إذا تـبـدى

وبَـدَتْ مـحـاسـنـهـا الـتـي ... تـخـفـى وكـان الأمـر جـدا

نـازلـتُ كـبـشـهـم ولـم ... أر مِـنْ نِـزال الـكـبـش بُـدا

هُـمْ يـنـذرون دمـي ... وأنـذر أن لـقـيـتُ بـأن أشُـدا

---

(١) جرم: عشيرة جرم وهم أخوال عمرو بن معدي كرب.

(٢) جاء في الأصول والروايات (يوم ذاك) وإنما هو (يوم راك) يعني يوم موقعة (راك).

كـم مِـنْ أخ لـي صـالـحُ بـوأتُـه بـيـدي لـحـدا
مـا أن جـزعـتُ ولا هـلـعـتُ ولا يـرد بـكـاي زنـدا
ألـبـسـتُـه أثـوابـه وخـلـقـتُ يـوم خُـلـقـتُ جَـلْـدَا
ذهـب الـذيـن أحـبـهـم وبـقـيـتُ مـثـل الـسـيـف فـردا

* * *

عمرو . . في موكب وعهد رسول الله

كانت الديانة الشائعة في بني زُبيد ومذحج في الجاهلية هي عبادة (يعوق) و(يغوث) مع الإيمان بوجود (الله) وكان عمرو بن معدي كرب وبنو زُبيد يحجون بيت الله الحرام بمكة في الجاهلية كغيرهم من قبائل اليمن الذين كانوا يقولون بتعدد الآلهة ويحجون البيت الحرام. وفي ذلك قال العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

أخرج ابن سعد والبغوي والهيثم بن كليب والزبير في الموفقيات والطبراني وابن مندة. . عن عمرو بن معدي كرب قال: لقد رأيتنا من قريب ونحن إذا حججنا قلنا:

لبيك تعظيماً إليك عذراً هذي زُبيد قد أتتك قسراً يقطعن خبتا وجبالاً وعرا

الحديث. وفيه: وكنّا نمنع الناس أن يقفوا بعرفه، ونقف ببطن محسر يمنة عرفه، فَرَقاً أن يتخطفنا الجن. فقال رسول الله ﷺ: «**أجيزوا بطن عرفة، وعلمنا التلبية. .**»[١].

وجاء في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب للقرطبي عن شرحبيل بن القعقاع عن عمرو بن معدي كرب قال:

«**لقد رأيتنا منذ قريب ونحن إذا حججنا في الجاهلية نقول: لبيك تعظيماً إليك عذراً، هذي زُبيد قد أتتك قسراً، تعدو بها مضمرات شزراً، يقطعن خبتاً وجبالاً وعراً. فنحن والحمد لله نقول اليوم كما علمنا رسول الله ﷺ: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. في حديث طويل عن عمرو بن معدي كرب**»[٢] ومن ذلك الحديث الطويل«**وكنا نقول في الجاهلية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هُوَ لك، تملكه وما مَلَكْ**».

* * *

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص١٨.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ص.

وكان عمرو بن معدي كرب قد علم بأمر النبي محمد ﷺ ودعوته إلى الإسلام بمكة منذ وقت مبكر بعد البعثة النبوية، سواء عن طريق من يقصدون مكة للحج والتجارة في الجاهلية، أو لأن منطقة عمرو وهي تثليث نجران قريبة من مكة، وكان قيس بن مكشوح المرادي ابن أخت عمرو بن معدي كرب مقيماً في منطقة مراد بمأرب، فسار عمرو إلى قيس بن مكشوح في مراد، وربما سار لزيارة أخته، وكان عمرو يريد أن يذهب مع قيس لمعرفة النبأ اليقين عن النبي محمد ﷺ الذي يدعو إلى الإسلام بمكة. وقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية وابن سيد الناس في عيون الأثر وابن كثير في البداية والنهاية ما يلي نصه:

«كان عمرو بن معدي كرب قد قال لقيس بن مَكْشُوح المرادي حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ: يا قيس، إنك سيد قومك، وقد ذُكِر لنا أن رجلاً من قريش يُقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول: أنه نبيّ، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبياً كما يقول فإنه لن يَخفَى عليك، إذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه. فأبَى عليه قيس ذلك، وسَفَّه رأيه»[١].

ثم تذكر المصادر بعد ذلك مباشرة إنه «فركب عمرو حتى قدم على رسول الله ﷺ فأسلم، وصَدّقه، وآمن به»[١] بينما الصواب أن بين حديثه مع قيس وبين وفادته على رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة عدة سنوات لأن وفادة عمرو إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة كان في رجب سنة تسع للهجرة بينما حديث عمرو مع قيس بن مكشوح كان عندما بلغه نبأ دعوة النبي ﷺ بمكة ويدل منطوق الحديث على أن ذلك كان قبل الهجرة النبوية، فلما أبَى عليه قيس بن مكشوح فكرة المسير لمعرفة النبأ اليقين عن النبي محمد ﷺ آنذاك، ولم ينطلق عمرو لمعرفة النبأ اليقين بنفسه، واستمر مقيماً في منطقته باليمن.

* * *

ثُم تَيّقن عمرو بن معدي كرب بعد ذلك بنبوّة محمد ﷺ وأن دينه دين الحق، فأسلم عمرو في اليمن، وذلك قبل وفادته إلى النبي بالمدينة المنورة بعدة سنوات، ومما يُتّيح إدراك ذلك ما أشار إليه الحافظ بن كثير قائلاً: «**وقد قيل أن عمرو بن معدي كرب لم يأت النبي ﷺ**»[٢] يعني أنه أسلم باليمن وتستدل تلك الرواية

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ٤ ص٢٥٢ ـ وعيون الأثر في المغازي والسير لابن سيد الناس ـ ٢/ ص٣٠٧ ـ والبداية والنهاية لابن كثير ـ جـ٥ ص٧٣.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٧٢.

بقصيدة قالها عمرو بعد إسلامه وهو في اليمن ويذكر فيها إنه لم يأت ولم ير النبي ﷺ، وليس هنالك تعارض بين ذلك وبين وفادته إلى النبي ﷺ بالمدينة فيما بعد، ومما يتصل بذلك ما رواه الأصفهاني أن عمرو بن معدي كرب قال: «**أسلمتُ باليمن، ثم غزوت، فَشُغِلتُ عن حفظ القران**»(١) ويتيح ربط الروايات والوقائع إدراك الترتيب التالي:

ـ أن عمرو بن معدي كرب أسلم باليمن منذ وقت مبكر، وآمن بالنبي محمد ﷺ وصَدَّق برسالته قبل أن يراه، وهو في ذلك مثل كثيرين أسلموا وآمنوا بالنبي محمد ﷺ وهم في اليمن منذ وقت مبكر، ونشير هنا إلى (عسكلان بن عواكن الحميري) وقد أسلم باليمن في السنة الأولى للبعثه النبوية، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني حديث عبد الرحمن بن عوف لما أخبر النبي محمد ﷺ بأمر عسكلان فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن أخا حِمْيَر من خواص المؤمنين، ورُبّ مؤمنُ بي ولم يرني، ومُصَدِق بي وما شهدني، أولئك إخواني حقاً**»(٢).

وقد انشغل عمرو بعد إسلامه بالغزوات والحروب، وقد كانت آخر حرب شهدها عمرو ـ فيما نعلم ـ موقعة يوم الرَّدْم التي سبقها ما ذكره الرازي إنه «اجتمع جماعة من الرؤساء فتشاوروا وأجمعوا على حرب باذان بن ساسان عامل كسرى بن هرمز، وكان فيهم عمرو بن معدي كرب، والحصين بن قنان، ويزيد بن عبد المدان، وعنبسة بن زيد الخولاني، وجماعة من الفرسان والأشراف، وكان اجتماعهم بمذاب في الجوف، فعكسروا عسكراً عظيماً وجمعوا جمعاً كثيفاً». وقد تقدم نبأ ما حدث بعد ذلك، وموقعة يوم الرَّدَم بين حلفاء الفُرس من همدان وبين مذحج الذين تجمعوا في الجوف، وكانت الموقعة في رمضان سنة ٢ هجرية وتغلبت فيها همدان، فقال فروة بن مسيك المرادي المذحجي:

فإن نَغلِبْ فغلابون قِدْماً ... وإنْ نُغْلَبْ فَغَيْرُ مُغلّبينَا
وما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ ولكِنْ ... منايانا ودولة آخرينا

ولما تأمنت الطريق بين اليمن والمدينة المنورة بعد صلح الحديبيه «وَفَد على رسول الله ﷺ فروة بن مُسيك المرادي فقال له رسول الله ﷺ: يا فروة هَلْ سَاءَكَ ما أصاب قومك يوم الرَّدْم؟ فقال: يا رسول الله، مَنْ ذا يُصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الرَّدْم لا يسؤه ذلك. فقال رسول الله ﷺ: أما إنَّ ذلك لم

---

(١) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٥ و٢٦.
(٢) الإصابة ـ ترجمة عسكلان الميري ـ جـ٣ ص١٠٥.

يَزِدْ قومك في الإسلام إلا خيراً»[١] وقد ذكر الأصفهاني عن أبي عبيدة قال: **«قَدِم عمرو بن معدي كرب في وفد مذحج مع فروة بن مسيك على النبي ﷺ»**[٢] بينما قال القرطبي في الاستيعاب **«قدم فروة على رسول الله قبل قدوم عمرو بن معدي كرب»** وهذا التعارض بين الروايتين يزول بإدراك أن فروة بن مسيك قَدِمَ على رسول الله ﷺ سنة سبع للهجرة ـ كما جاء في كتاب الأنباء ـ ثم عاد إلى اليمن، ثم قَدِم فروة مع عمرو بن معدي كرب ووَفْد مذحج على رسول الله ﷺ منصرفه من غزوة تبوك.

ـ وفيما بين مسير فروة بن مسيك إلى رسول الله ﷺ سنة ٧هـ ومسيرة مع عمرو بن معدي كرب في سنة ٩هـ قال عمرو بعد معدي كرب وهو في اليمن القصيدة التالية[٣]:

إنني بالنبيّ مُوقِنَةُ نفسي ... وإنْ لَمْ أرَ النَبِيّ عَيَانا
جَاءَ بالناموسِ لَدُنِ اللّهِ ... وكانَ الأمينُ فيه المُعَانا
حكمةُ بعد حكمةٍ وضياءُ ... فاهتدينا بنوره مِنْ عَمَانا
وَرَكبْنَا السَبِيلَ حِينَ ركبناه ... جديداً ـ (بِهَدْيِه) ـ ورضانا
وعَبَدْنا الإله حَقاً وكُنَّا ... للجهالاتِ نَعْبُدُ الأوثانا
وائتلفنا به وكُنّا عَدُواً ... فرجعنا به معاً إخوانا
فعليه السلامُ والسِلْمُ مِنَّا ... حيثُ كُنّا مِنْ البلاد وكانا

وكان الإسلام قد انتشر في قبائل همدان على يد قيس بن نمط ومالك بن نمط الأرحبي الهمداني كما انتشر في قبائل مذحج على يد فروة بن مسيك المرادي وأوائل الذين أسلموا من مذحج، فرجع بين مذحج وهمدان الائتلاف والإخاء كما رجع بين سائر قبائل العرب في ظل الإسلام وألّفَ الله ورسوله بين قلوبهم، ولذلك قال عمرو:

وائتلفنا به وكُنّا عَدُواً ... فرجعنا به معاً إخوانا
فعليه السلامُ والسِلْمُ مِنّا ... حيث كُنَّ مِنْ البلاد وكانا

***

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥١.
(٢) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٥ و٢٦.
(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٧٢.

وفادة عمرو عَلَى رسول الله ﷺ

وفي رجب سنة ٩هـ. انطلق عمرو بن معدي كرب على رأس جماعة من بني زُبيد مع فروة بن مسيك وَوَفد مذحج إلى المدينة المنورة لمبايعة رسول الله عليه الصلاة والسلام فوصلوا المدينة ـ في شهر شعبان ـ وكان رسول الله ﷺ في تبوك، وعلى وشك العودة من تبوك، فانتظروه بالمدينة، فلما أقبل رسول الله ﷺ نحو المدينة، ترك عمرو فروةَ وبقية وفد مذحج، وبادر بالمسير في فرسان زُبيد للقاء رسول الله ﷺ حيث كان عمرو مشتاقاً ومتلهفاً لرؤيته وملاقاته.

قال المدائني: «**أقبل النبي ﷺ من غزوة تبوك يريد المدينة، فأدركه عمرو بن معدي كرب في رجال من بني زُبيد، فتقدم عمرو ليلحق بالنبي ﷺ، فأمسك عنه حتى أوذن به**» ـ أي أن الجيش والصحابة والذين مع النبي ﷺ أوقفوه ينتظر ليستأذنوا له، فأبلغوا النبي ﷺ فأذِن له ـ فتقدم عمرو حتى أصبح بالقرب من رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ راكباً على نَاقَتِه ـ قال المدائني: «.. **ورسول الله ﷺ يسير، فقال له عمرو: حَيَّاكَ اللَّهُ إلَهَكَ، أبَيْتَ اللعن**»[١]. فقال رسول الله ﷺ: أن لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.. يوم الفزع الأكبر. قال عمرو: وما الفزع الأكبر يا رسول الله؟ فقال: إنه فزعُ ليس كما يُحسبُ ويُظَنْ، أنه يصاح بالناس صيحة لا يبقى حَيٌّ إلَّا مات إلى ما شاء الله ذلك، ثم يُصاح بالناس صيحة لا يبقى ميتُ إلا نُشِر، ثم يلح تلك الأرض بَدوِيٌّ يَنْهَدُّ منه الأرضُ وتخرُّ منه الجبال وتنشقُ السماء انشقاق القبطية الجديد ما شاء الله في ذلك، ثم تبرز النار فتنظر إليها حمراء مظلمة قد صار لها لسان في السماء ترمي بمثل رؤوس الجبال من شرر النار فلا يبقى ذو روح إلا انخلع قلبه وذكر ذنبه، فأين أنت يا عمرو؟ فقال عمرو: «**إني أسمعُ أمراً عظيماً..**».

قال المدائني: «**فاسلم عمرو وبايع لقومه على الإسلام، وذلك منصرف رسول الله ﷺ من غزاة تبوك وكانت في رجب من سنة تسع للهجرة**»[٢] وقال ابن هشام في السيرة النبوية وابن كثير في البداية والنهاية وابن سيد الناس في عيون الأثر: «قَدِم على

---

(١) أبيت اللعن: هي تحية ملوك اليمن التبابعة وملوك العرب قبل الإسلام، قال ابن يعفر الشاعر للملك ياسر ينعم الحميري:

تُحيّا أبيتَ اللعن ما ذَرَّ شَارقٌ ... تحية ذي نعمن تدوم إلى الحشر

وقال النابغة الذبياني للملك النعمان بن المنذر:

أتاني أبيت اللعن أنك لُمْتَنِي ... وتلك التي أهْتَمُ منها وأنْصَبُ

(٢) الأغاني للأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٦.

رسول الله ﷺ عمرو بن معدي كرب في أناس من بني زُبيد، فأسلم، وصَدّقه، وآمن به»[١] وقال ابن عبد البر القرطبي: «**قَدِم عمرو على رسول الله ﷺ في سنة تسع**»[٢] وقال ابن حجر العسقلاني: «**قَدِم عمرو على رسول الله ﷺ في وفد زُبيد**»[٢] وكذلك قال العسقلاني: «**وَفَد فروة بن مسيك مع مذحج فأسلموا**». وذكر أبو عبيدة أنه «قدم عمرو في وفد مذحج مع فروة بن مسيك على النبي ﷺ»[٢] ويتبين من مُجمل ذلك إنهما ـ فروة وعمرو ـ قَدِماً على رأس وفد مدحج إلى رسول الله ﷺ، وبادر عمرو بلقاء رسول الله ﷺ قبل دخوله المدينة فالتقى به مع رجال بني زبيد وبايعه، ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة التقى به فروة وبقية وفد مذحج، ولذلك جاء ذكر قدوم عمرو منفصلاً عن قدوم فروة مع وفد مذحج، بينما قدومهم جميعاً كان في وقت واحد، والتقوا برسول الله ﷺ وبايعوه، وذلك منصرف رسول الله ﷺ من غزوة تبوك وكانت في رجب ٩هـ وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة في مطلع رمضان ٩هـ، وقد جاءت في الروايات كلمة (أسلم) و(أسلموا) بمعنى (بايع) و«بايعوا»، والأصوب التمييز يين المصطلحين لأن اعتناقهم دين الإسلام كان منذ زمن سابق في اليمن وجاءوا إلى النبي ﷺ وهم مسلمون، بينما المبايعة تشمل المدلول السياسي للفظ المبايعة، وقد جمع المدائني بين المصطلحين قائلاً: «**فأسلم عمرو وبايع لقومه**» فقيام عمرو بنطق الشهادتين والإسلام على يد رسول الله ﷺ هي إضافة مباركة، أما جوهر وسبب ذلك القدوم فهو المبايعة التي تشمل الارتباط السياسي.

ومِنْ المفيد الإشارة هنا إلى أن تلك الفترة شهدت قدوم وفود من مناطق وقبائل اليمن لمبايعة النبي ﷺ، وكان الإسلام قد انتشر منذ وقت سابق، ولكن النبي ﷺ لم يبعث عُمالاً إلى اليمن، فكانت الأوضاع السياسية كما كانت عليه مِنْ قبل، حيث كان أذواء مناطق حمير ملوكاً على مخاليف ومناطق حمير التي تمتد من ساحل تهامة غرباً إلى شبوه شرقاً وكان الحارث بن عبد كلال ذو رعين يقال له (ملك حمير) لأنه الأول بين أذواء حمير الملوك بمناطقهم، بينما كان الأشعث بن قيس الكندي ملكاً لكندة وحضرموت، وكان زعماء قبائل مذحج وهمدان والسّراة بمثابة حكام لقبائلهم، وكان باذان ملكاً للفُرس الأبناء في

---

(١) الأغاني للأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥٢ ـ وعيون الأثر ـ ٢/ ص٣٠٧ ـ والبداية والنهاية ـ ٥/ ص٧٣ ـ والاستيعاب ـ ص٥٢٠ ـ والإصابة ـ ٣/ ص١٨.

صنعاء وبعض المراكز متحالفاً مع همدان. ثم بعث الحارث بن عبد كلال ملك حمير والأذواء الملوك بمناطق حمير وفداً إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ومبايعتهم في رجب ٩هـ. وعندئذٍ انطلق وفد مذحج برئاسة فروة بن مسيك المرادي وعمرو بن معدي كرب، والتقى مبعوث ملوك حمير برسول الله ﷺ منصرفه من تبوك وكذلك عمرو وفروة بن مسيك. ثم وصل وفد همدان برئاسة مالك بن نمط الأرحبي، ووفد كندة وحضرموت برئاسة الأشعث بن قيس الكندي، ومما يؤكد طبيعة تلك الوفادات كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال وأذواء حمير، وقد تقدم ذِكر نص الكتاب ويتضمن بعث العمال إلى اليمن لأول مرة حيث قال رسول الله ﷺ في ذلك الكتاب إلى الحارث بن عبد كلال وأذواء حمير: «إنّي قد أرسلتُ إليكم من صالحي أهلي وأولي دينهم وأُولي علمهم، فآمركم بهم خيراً، فإنهم منظور إليهم» وقال: «**فأُوصيكم بهم خيراً: معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر، ومالك بن مُرّة، وأصحابهم. وإن أميرهم معاذ بن جَبَلْ**»[1] وهذا الكتاب النبوي متواتر في سائر المصادر وإنه عند منصرف رسول الله ﷺ من غزوة تبوك إلى المدينة في رمضان سنة ٩ هجرية[1] وكذلك منذ تلك الفترة بعث واستعمل رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري على منطقة الأشاعر وتهامة، وقيس بن نمط الأرحبي على قبائل ومناطق همدان، وزياد بن لبيد الأنصاري على حضرموت. قال ابن هشام: «**واستعمل النبي ﷺ فروة بن مسيك على مراد وزبيد ومذحج كلها**»[2] ويشملهم جميعاً قول رسول الله ﷺ في كتابه إلى أذواء حمير «وإن أميرهم معاذ بن جبل»، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «**بعثني رسول الله ﷺ خامس خمسة على مخاليف اليمن. فَبَعَثنا متساندين، وأن نُيسر ولا نُعسر. وأن إذا قَدِمَ معاذ طاوعناه**»[3] قال ابن سمرة الجعدي: «**وكان معاذ بن جبل عاملاً على اليمن وحضرموت، أمَّرَة رسول**

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ ص٢٢٠ ـ عن جمع الجوامع للسيوطي في مسند عمرو بن حزم عن النسائي والبيهقي وابن عساكر. وسنن الدارقطني. وطبقات ابن سعد ـ جـ٢ ص٨٤ ـ وتاريخ اليعقوبي جـ٢ ص٨٧ ـ والوفاء لابن الجوزي ص٧٤٢ ـ وأعلام السائلين لشمس الدين بن علي ص١٥ ـ والأموال لابن جوزية ص٧٠ ـ وإمتاع الأسماع للمقريزي ـ وكنز العمال ـ والسيرة النبوية لابن هشام جـ٤ ص٢٥٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥٢ ـ وعيون الأثر ـ ٢/ ص٣٠٧ ـ والبداية والنهاية ـ ٥/ ص٧٣ ـ والاستيعاب ـ ص٥٢٠ ـ والإصابة ـ ٣/ ص١٨.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني.

الله ﷺ، فكان معاذ يتنقل في عُماله من عامل إلى عامل في اليمن وحضرموت»[١].

* * *

صحبة عمرو بن معدي كرب لرسول الله ﷺ

منذ يوم لقاء عمرو بن معدي كرب برسول الله ﷺ عند منصرفه من غزوة تبوك إلى المدينة المنورة، أخذ عمرو مكانه بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام. وكان عمرو عظيم الجسم والخلق. قال المدائني:

(كان عُمر بن الخطاب إذا نظر عمرو بن معدي كرب قال: الحمد لله الذي خلَقنا وخَلق عَمْراً. تَعَجُباً مِنْ عِظم خَلْقِه)[٢].

وذكر ابن حجر العسقلاني في (الإصابة في تمييز الصحابة) عن أبي رميح قال:

(كان عمرو بن معدي كرب أعظم ما يكون من الرجال، أجش الصوت، إذا التفت التفت بجميع جسده)[٣].

وقد مكث عمرو في المدينة وصَحِب رسول الله ﷺ فترة من الزمن وتَعَلم فرائض الإسلام وقراء القرآن، وكان عمرو يسكن بمنزل سعد بن عبادة الأنصاري ومعه فروة بن مسيك، وكذلك قيس بن مكشوح المرادي الذي ما لبث أن وفد مع أخته كبشه، وهي بنت أخت عمرو بن معدي كرب، وعمرو هو خالها وخال قيس بن مكشوح.

فأما إقامة عمرو بالمدينة فترة من الزمن، فقد ذكر ذلك ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب قائلاً: (قدم عمرو على رسول الله ﷺ في سنة تسع.. قال أبو عمر: وأقام عمرو بن معدي كرب بالمدينة برهة)[٤].

وأما إقامته بمنزل سعد بن عبادة زعيم الأنصار فقد ذكر ابن حجر العسقلاني أنه «قَدِم عمرو بن معدي كرب على رسول الله ﷺ في وفد زُبيد» ثم قال: «فنزل عمرو على سعد بن عبادة بالمدينة فأكرمه سعد»[٣] وكذلك فروة بن مسيك وقد ذكر ذلك ابن خلدون قائلاً: «نزل فروة بن مسيك على سعد بن عُبادة وتعلم القرآن وفرائض الإسلام»[٥] وجاء في رواية عن ابن عمير أن عمر بن معدي كرب قال:

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة الجعدي ـ ص١٨.

(٢) الأغاني للأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٦.

(٣) الإصابة ـ ترجمة عمرو بن معدي كرب ـ جـ٣ ص١٨.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ٢/ ص٥٢٠.

(٥) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٦٧.

«قرأتُ ما بين دفتي المصحف»[١] قال ابن خلدون: «وقد كان فروة وعمرو بن معدي كرب أسلما وكذلك قيس بن مكشوح، واستعمل رسول الله ﷺ قيساً على صدقات مراد»[٢].

وفي فترة إقامة عمرو وفروة وقيس بالمدينة المنورة تقدم إليهم خالد بن سعيد بن العاص وأبان بن سعيد بن العاص بطلب زواج أبان بن سعيد بكبشة بنت مكشوح. وكان خالد بن سعيد وأبان بن سعيد من خيار الصحابة، وكانت أم خالد بن سعيد يمانية وهي (أُمَيْنَة بنتُ خلف بن سعد بن عامر الخزاعي)[٣] وجاء في مروج الذهب للمسعودي أن عمر بن الخطاب سأل عمرو بن معدي كرب أن يصف له قبائل اليمن ومن بينها خُزاعة، قال المسعودي: «قال عمر بن الخطاب: فأخبرني عن خُزَاعة؟ فقال عمرو بن معدي كرب: أولئك لنا نسبهم، وبهم نَصُرنا»[٤] وقد ذكرنا ذلك هنا لأن أخوال خالد بن سعيد بن العاص من خزاعة. وكانت كبشة بنت مكشوح قد وَفَدت مع أخيها قيس إلى المدينة وكان خالهما عمرو بن معدي كرب مع فروة في منزل سعد بن عبادة، فتم بحضورهم زواج كبشة بأبان بن سعيد. قال ابن حجر العسقلاني: «كانت كبشة بنت مكشوح، أخت قيس الفارس المشهور، موصوفة بالجمال، وتزوجها أبان بن سعيد بن العاص، زَوّجَها إياه أخوها قيس»[٥]

ثم تهيأ فروة وعمرو وقيس للعودة إلى اليمن، ويبدو أن ذلك كان في أواسط شهر ذي القعدة عند مسير الناس لأداء فريضة الحج، وقد تقدم حديث عمرو بن معدي كرب الذي (أخرجه ابن سعد والبغوي والهيثم بن كليب والطبراني وابن منده) وفيه ذَكَرَ عمرو ما كانوا يقولونه إذا حجوا في الجاهلية ثم قال: «وكنّا نمنعُ الناس أن يقفوا بعرفة، ونَقِفُ ببطن مُحَسِر يمنة عرفة، فَرَقاً ـ أي خوفاً ـ أن يتخطفنا الجن. فقال رسول الله ﷺ: أجيزوا بطن عرفة.. وعلمنا رسول الله ﷺ التلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والمُلك، لا شريك لك».

قال ابن هشام في السيرة النبوية وابن سيد الناس في عيون الأثر وابن كثير في

---

(١) الأغاني للأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٦.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٦٧.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٣٤٦.
(٤) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ جـ٢ ص٣٣٤.
(٥) الإصابة ـ ترجمة كبشة ـ جـ٤ ص٣٩٧.

البداية والنهاية: «واستعمل النبي ﷺ فروة بن مسيك على مُراد وزُبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة». قال ابن خلدون «واستعمل رسول الله ﷺ قيس بن مكشوح على صدقات مراد»[١].

ويبدو إن ذلك كان عند مسير الناس لأداء فريضة الحج في أواسط ذي القعدة سنة ٩هـ وإن الرؤساء الثلاثة فروة وعمرو وقيس توجهوا ومعهم خالد بن سعيد بن العاص من عند رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة إلى مكة المكرمة، فأدّى عمرو بن معدي كرب والذين معه من فرسان زبيد فريضة الحج وأجازوا بطن عرفة، ولبّوا كما علمهم رسول الله ﷺ التلبية، وكذلك فروة وقيس بن مكشوح وخالد بن سعيد أدوا فريضة الحج، وكان أمير الحج أبو بكر الصديق، أمَّره رسول الله ﷺ ونزلت بعد مسيرهم من المدينة سورة (برأة) فبعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب ليقرأ سورة براءة على الناس في الحج ومعه أبو هريرة الدوسي وجماعة من الصحابة، وفي ذلك أخرج الحاكم وأحمد والنسائي عن أبي هريرة قال: «كنّا مع عليّ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ببراءة» وفي رواية ثانية بلفظ «كنتُ في البعث الذين بعثهم رسول الله ﷺ مع علي ببراءة». وأخرج البخاري «أن أبا بكر الصديق بعث أبا هريرة في مؤذنين في تلك الحجة ليؤذن في الناس ببراءة، وكان عليّ يؤذن معنا ببراءة»[٢] والمقصود بالتأذين هنا أنهم كانوا يقرأون ويعلنون للناس حكم سورة براءة حتى يتحقق العلم بذلك عند الجميع، قال أبو هريرة: «كذا نقول: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله أربع أشهر»[٢] والمقصود بذلك العهود مع المشركين وأنها تنتهي بعد أربعة أشهر من يوم الحج الأكبر، وأما العهود التي أجلها مُحدد فأجلها انتهاء مدتها، وبما أن الغالب في العهود أن مدتها غير محددة فإن أجلها أربعة أشهر، تنتهي جميعها في ربيع الثاني سنة ١٠ هجرية.

وتَوَجه عمرو بن معدي كرب وفروة وقيس ومعهم خالد بن سعيد بن العاص بعد أداء فريضة إلى مناطق مذحج باليمن، فيكون ذلك في أواخر ذي الحجة سنة ٩ هجرية.

* * *

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٦٧.

(٢) أبو هريرة ـ لمحمود أبي ريّة ـ وأبو هريرة رواية الإسلام ـ للخطيب الحجاج ـ وقد تقدم ذلك في المبحث الخاص بأبي هريرة رضي الله عنه.

أنباء عمرو في الفترة التالية من عهد رسول الله ﷺ

لقد أجمل ابن هشام في السيرة النبوية وابن سيد الناس في عيون الأثر وابن حجر العسقلاني في الإصابة البناء اليقين عن عمرو بن معدي كرب منذ رجوعه من عند رسول الله ﷺ إلى اليمن وحتى وفاة الرسول ﷺ، حيث قال ابن هشام وابن سيد الناس: «أقام عمرو بن معدي كرب في قومه من بني زُبَيْد، وعليهم فَرْوة بن مُسَيْك، حتى توفي رسول الله ﷺ»(١) قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة: «رجع عمرو إلى قومه، فأقام فيهم مسلماً مطيعاً، وكان عليهم فروة بن مسيك، إلى أن مات النبي ﷺ»(٢) فذلك هو الإطار العام لأنباء عمرو منذ عودته مع فروة وقيس وخالد بن سعيد في أواخر ذي الحجة سنة ٩هـ وحتى ربيع الأول سنة ١١هـ.

وقد تقدمت النصوص بأنه «استعمل رسول الله ﷺ فروة بن مسيك على مراد وزُبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة» وأنه «استعمل رسول الله قيساً على صدقة مراد» وجاء في ترجمة فروة بالإصابة. أنه «استعمله النبي ﷺ على مراد ومذحج كلها. وقال له: ادع الناس وتألفهم، وإذا رأيت الغفلة فاغتنمها وأغز.. وفي رواية ثانية: قاتل بقومك مَنْ أدْبَر بِمَنْ أقْبَلْ». وجاء في ترجمة خالد بن سعيد بالإصابة: «بعث النبي ﷺ خالد بن سعيد إلى اليمن وقال له: إن مررت بقرية فلم تسمع بها آذاناً، فأسبهم». ولا بد من ربط هذه الرواية بتوجيه النبي ﷺ لفروة لأنه الأمير العامل على مذحج كلها ومعه خالد بن سعيد عاملاً على الصدقة، فيكون التوجيه هو دعوة مَنْ لم يسلم ويقيم الآذان إلى الإسلام ومحاربتهم إذا لم يستجيبوا وليس سَبْيَهم مباشرة. وقد وقع التباس عند أحد الرواة فجاء في روايته أن النبي ﷺ بعث خالد بن سعيد مع عليّ بن أبي طالب، والصواب المتواتر أن النبي ﷺ بعث خالد بن سعيد مع فروة بن مُسيك. ثم تقول الرواية: «فَمَرَّ خالد بن سعيد ببني زُبيد فلم يسمع آذاناً، فَسَباهم، فأتاه عمرو بن معدي كرب، فكلمه فيهم، فوهبهم إياه». بينما تزعم رواية ثانية أن خالد بن سعيد والذي معه لما أقبلا إلى بني زُبيد «بلغ عمرو بن معدي كرب ما قيل في جماعة من قومه، فقال عمرو لهم: دعوني آت هؤلاء القوم فإني لم أُسَمّ لأحد قط إلا هابني. فلما دنا من خالد بن سعيد والذي معه قال: أنا أبو ثور أنا عمرو بن معدي كرب، فابتدراه كل منهما يقول: خلني وإياه، فقال عمرو: العرب

---

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ ٢/ ص٣٠٨ ـ والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ص٢٥٣.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ٣/ ص١٩.

تفزع مني، وأراني لهؤلاء جُزراً، فانصرف». ويمكن القول أن الروايتين لهما أصل صحيح، ولكن الأمر التبس على أحد الرواة المتأخرين، فلم يعرف أن عمرو بن معدي كرب كان مع خالد بن سعيد وفروة بن مسيك وقيس بن مكشوح، وأنهم جاءوا معاً من عند رسول الله ﷺ وأن عمرو بن معدي كرب كان صحابياً، وكان بنو زُبيد قد أسلموا، فالقرية التي لم يسمعوا فيها الآذان لا بد أنها قرية في الطريق، وقد جاء في الإكليل أنهم جاءوا «من طريق نجد» فتكون القرية ما بين الطائف وطريق نجد المتفرع إلى مخلاف نجران، ويبدو أنهم لما وصلوا تلك القرية قال عمرو لخالد وفروة: دعوني آت هؤلاء القوم... الخ. فتقدم إليه اثنان من رجال القرية فقال: أنا أبو ثور أنا عمرو بن معدي كرب، ودعاهم إلى الإسلام، فابتدراه الإثنان كل منهما يقول: خلني وإياه، فقال عمرو ما قال، ورجع إلى فروة وخالد وقيس والذين معهم، ثم قاموا جميعهم بالهجوم على القرية، فانهزم واستسلم رجالها وتم أسرهم. وقد جاء في الرواية الأولى بكتاب الإصابة خالد بن سعيد لما سَبَى تلك القرية «أتاه عمرو بن معدي كرب، فكلمه فيهم، فوهبهم إياه». ويبدو من ذلك أنه تشفع للأسرى والتزم بصلاحهم وأنهم استجابوا للإسلام، فوهبهم إياه بمعنى أنه تم إطلاق سراح الأسرى، وبذلك أسلم أهل القرية وأقاموا الأذان، وكان ذلك في بدايات السنة العاشرة.

* * *

قال ابن حجر العسقلاني: «وثَبَتَ في ديوان عمرو بن معدي كرب أنه مدح خالد بن سعيد بن العاص لما بعثه النبي ﷺ مُصَدِقاً عليهم، بقصيدة قال فيها:

فَقُلت لباغي الخير إن تأت خالداً تُسَرُ، وتَرْجَعْ نَاعِم البال حامدا»[1]

ويتيح هذا النص إدراك أن خالد بن سعيد كان عاملاً للصدقة في مناطق مذحج التي تسكنها زُبيد مع عدد من بطون مذحج أهمها جَنْب وصُداء وسعد العشيرة وبنو الحرث بن كعب، وذلك في مناطق مِنْ مخلاف نجران بمدلوله الواسع القديم، بينما كان قيس بن مكشوح المرادي عاملاً للصدقة في مناطق مذحج التي تسكنها مُراد مع عدد من بطون مذحج أهمها أوْدْ وجُعْفَى والنخع وعنس، وتقع مناطقهم في مأرب والبيضاء وذمار وشبوة، وبما أن مراد كانت أهم وأكبر البطون في هذا القسم من مذحج، وكانت زُبيد أشهر بطون ذلك القسم من مذحج، فقد خصتهما النصوص التاريخية بالذكر، وهي نصوص السيرة النبوية

---

(١) الإصابة ـ جـ١ ص٤٠٧.

وعيون الأثر والبداية والنهاية وتراجم الصحابة بأنه «استعمل النبي ﷺ فروة بن مسيك على مُراد وزُبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة» وكذلك ما ذكره ابن خلدون وهو «استعمل رسول الله ﷺ قيساً على صدقات مراد» ويتبين من مجمل ذلك:

ـ إن أمير وعامل رسول الله ﷺ على قبائل مذحج جميعها في القسمين كان فروة بن مسيك وكان ينتقل بين القسمين.

ـ وكان قيس بن مكشوح عاملاً على صدقة مُراد والقسم الذي فيه مُراد من مناطق مذحج وكان مقيماً في مُراد.

ـ بينما كان خالد بن سعيد عاملاً على الصدقة في القسم الذي فيه زُبيد من مناطق مذحج بمخلاف نجران وهو القسم الذي فيه بتثليث نجران كان حصن عمرو بن معدي كرب. وكان خالد بن سعيد بمثابة نائب لفروة في ذلك القسم من مذحج. وبذلك تتكامل معرفة الواقع السائد في السنة العاشرة للهجرة التي فيها كان ما ذكره العسقلاني بأنه «ثَبَت في ديوان عمرو بن معدي كرب أنه مدح خالد بن سعيد بن العاص لما بعثه النبي ﷺ مُصدقاً عليهم بقصيدة قال فيها:

فَقُلتُ لباغي الخير إن تأت خالداً ... تُسَرُ وتَرْجَعَ ناعم البال حامداً»[1]

* * *

وقد أعطى عمرو بن معدي كرب خالداً بن سعيد ما هو أعْظَمُ من كل شعر، أعطاه السيف الصمصامة الذي بذكره سارت الركبان في الجاهلية والإسلام. ونكتفي بمجرد الإشارة هنا إلى أن الأصفهاني ذكر في كتاب الأغاني خبراً تم تلفيقه من أحد الرواة غير العارفين بشيء عن التاريخ في أيام الأصفهاني بالبصرة زعم فيه وقوع حرب بين خالد بن سعيد وعمرو بن معدي كرب فانهزم عمرو ومذحج، وأخذ خالد بن سعيد السيف الصمصامة، بينما النبأ اليقين مذكور في مصدر موثوق وسابق لزمن الأصفهاني وهو كتاب الإكليل للحسن بن أحمد الهمداني، ويتمثل النبأ اليقين في أنه لما «بعث رسول الله ﷺ خالد بن سعيد بن العاص (وهو ابن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شمس القرشي) إلى اليمن، مَرَّ ببني زُبيد، فنَزَّلَهُ عمرو بن معدي كرب، وأكرمه، فسأله خالد بن سعيد الصمصامة بيعاً أو هبةً، فوهبه له. وقال عمرو في ذلك:

خليلُ لم أهَبهُ مِنْ قَلَاةٍ ... ولكن المواهبَ للكرام

(١) الإصابة ـ جـ١ ص٤٠٧.

خليلٌ لم أخنه ولم يخنّي كذلك ما خلا لي أو ندامى
حَبَوتُ به كريماً مِنْ قُريش فَسُرَّ به وصِينَ عن اللئام»[١]

وبما أن خالد بن سعيد كان عاملاً على الصدقة في زُبيد وبقية قبائل مذحج بمخلاف نجران فإن نزوله بحصن عمرو بن معدي كرب في تثليث قد يكون مراراً، وتوثقت روابط المودة والإخاء بينهما، فآثره عمرو على نفسه، وَوَهَبَه الصمصامة.

وقد مكث خالد بن سعيد عاملاً على الصدقة حتى شهر ربيع الأول سنة ١١هـ، وفي ذلك جاء في السيرة النبوية لابن هشام وعيون الأثر لابن سيد الناس والبداية والنهاية لابن كثير: «استعمل النبي ﷺ فَرْوَةَ بن مُسَيْك على مُراد وزُبَيْد ومَذْحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ» [اهـ] ثم رجع خالد إلى المدينة في أوائل خلافة أبي بكر، قال الهمداني: «ولم يزل السيف الصمصامة ـ أي مع خالد بن سعيد ـ حتى قُتل يوم مرج الصُّفّر أيام عمر متقلدة»[١].

ونشير هنا إلى أن ابن هشام في السيرة النبوية وابن سيد الناس في عيون الأثر وابن كثير في البداية والنهاية ذكروا اسم خالد بن سعيد بأنه (خالد بن سعيد بن العاص) واعتماداً على ذلك ذكرناه في عدة مباحث من هذا الكتاب بلفظ (خالد بن سعيد بن العاص) وكذلك أخوه (أبان بن سعيد بن العاص) صهر قيس بن مكشوح المرادي، بينما جاء في الإكليل وعدة مصادر أنه (ابن سعيد بن أبي العاص) وجاء في فتوح البلدان للبلاذري إن الاسم هو (خالد بن سيعد بن العاصي) ويبدو أنه الأصوب، ولذلك لزم التنبيه، وقد وهبه عمرو بن معدي كرب سيفه الصمصامة في أواسط سنة ١٠ هجرية.

* * *

أن الإطار العام للنبأ اليقين عن عمرو بن معدي كرب منذ عودته من عند رسول الله ﷺ في ذي الحجة سنة ٩هـ وحتى ربيع الأول سنة ١١ هجرية هو ما ثَبَتَ في السيرة النبوية لابن هشام وفي الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني وعيون الأثر لابن سيد الناس أنه «رجع عمرو ـ من المدينة ـ فأقام في قومه مسلماً مطيعاً، وكان عليهم فروة بن مسيك إلى أن مات النبيّ ﷺ». وفي ذلك الإطار العام وهو ثَبَات عمرو على الإيمان والإسلام كانت مشاركته في موقعة يوم صنعاء ـ في ذي الحجة ١٠هـ ـ فقد كانت مدينة صنعاء وبعض المراكز المجاورة تحت حكم

---

(١) الإكليل للهمداني ـ جـ٢ ص٣٠٩.

باذان بن ساسان، فلما مرض باذان مرض الموت، وكما جاء في عيون الأثر «اجتمعت إليه أساورته فقالوا: مَنْ تُؤمر علينا؟ فقال لهم: مَلِكٌ مُقْبِلٌ ومَلِكٌ مُدبِر، فاتَّبِعُوا هذا الرجل وادخلوا في دينه. ومات باذان»[١] فوصية باذان لقومه الأبناء الفرس بأن يتبعوا هذا الرجل يعني النبي محمد ﷺ وأن يدخلوا في دين الإسلام شاهدٌ لا تخطئ دلالته على أنهم لم يسلموا ـ كما أسلم باذان ـ وإنما كانوا متمسكين بدياناتهم المجوسية حين مات باذان ـ في ذي القعدة ١٠هـ ـ بينما في ذات الوقت تكاتَب جماعةٌ من الرؤساء وأجمعوا على حرب الفرس الأبناء والزحف إلى صنعاء، واتفقوا على التجمع بفرسانهم وقبائلهم في نجران، وكان فيهم قيس بن مكشوح المرادي، وعمرو بن معدي كرب، ويزيد بن عبد المدان، وثات بن ذي جرة، ويزيد بن الأفكل الأزدي، وتولى الزعامة عبهلة العنسي بينما تولى القيادة الحربية قيس بن مكشوح وانطلقوا إلى صنعاء، وأسفرت المعركة بينهم وبين الفرس بقيادة شهر بن باذان ـ في ذي الحجة ١٠هـ ـ عن هزيمة الفرس ومقتل شهر بن باذان على يد قيس بن مكشوح ودخول القادة والفرسان اليمانيين مدينة صنعاء ظافرين[٢].

ولكن ذلك النصر الذي لم يتم تحت رايات الوطنية فحسب وإنما تحت لواء الإسلام أيضاً، ما لبث أن شَوَهَه الأسود عبهلة العنسي حيث ارتد وادعى النبوّة في مدينة صنعاء ـ خلال شهر محرم ١١هـ ـ وكان عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح في صنعاء، فحاول عمرو إقناع قيس بالخروج معه من صنعاء وأن يسيرا إلى النبي ﷺ وذلك في نفس اليوم الذي ادّعَى فيه الأسود العنسي النبوّة، فلم يقبل قيس رأى عمرو، وقرر البقاء في صنعاء وأن يتظاهر بتصديق ذي الخمار ـ وهو لقب الأسود العنسي ـ ويتحين الفرصة لقتله، بينما كان رأي عمرو أن بقاء قيس مع ذي الخمار وقائداً لجيشه في صنعاء يجعله مثل ذي الخمار، فَسَفَّه قيس رأيه، فغضب عمرو بن معدي كرب، وغادر صنعاء، وتوجه إلى فروة بن مسيك في مقره بمنطقة مراء، وأخبره بما حدث في صنعاء، فانطلق فروة بالخبر إلى رسول الله ﷺ، وأقام عمرو بمنطقة زُبيد بانتظار ما سيعود به فروة من تعليمات رسول الله ﷺ وقال عمرو يعاتب قيسَ بن مكشوح:

أمَرْتُكَ يَوْمَ ذي صَنْعَاءَ أمْراً بَيِّناً رَشَدُهُ

---

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ ابن سيد الناس ـ ص٣٣٥.

(٢) تقدم ذكر النصوص والوثائق التفصيلية في المبحث الخاص بقيس بن مكشوح المرادي.

رَســـول الله تـــأتــيـــه وأمـــر الـــحـــزم تـــتَّـــعِــدُهُ
فَـــكُـــنْـــتَ كـــذِي الـــخُـــمَـــيِّـــرِ غَـــرَّهُ مِـــمَّـــا بـــه وَتِـــدُهُ

وقوله (كذي الخُمير) تصغير (ذي الخمار) وهو لقب الأسود العنسي[١].

قال الطبري: (وكان أول خبر وقع إلى النبي ﷺ عن فعل الأسود العنسي مِنْ قِبل فروة بن مسيك)[٢] وقال البلاذري: (لما بلغ رسول الله ﷺ خبر الأسود العنسي بعث فروة بن مسيك وقيس بن مكشوح المرادي لمصاولته) وقد وقع التباس أو تصحيف في نص البلاذري فالصواب «وبعث إلى قيس بن مكشوح المرادي لمصاولته» وكان المبعوث إلى قيس وبر بن يحنس الخزاعي، قال ابن كثير: «فلما أعلم وبرُ قيساً، وأنبأه الشأن، وأبلغه عن النبي ﷺ كان كأنما وقع عليه من السماء لأنه كان في غَمض وضيق من أمره»[٢] وقد أبلغ وَبَرُ قيساً أمر النبي ﷺ بالعمل على قتل الأسود العنسي داخل صنعاء، قال البلاذري «وأمره باستمالة الأبناء، فاستمال قيس فيروزاً، ثم أتيا داذويه فأسلم»[٣] وكذلك أخبر وبر قِيساً بأن رسول الله ﷺ بعث الكتب والرُسل إلى عمال وزعماء مناطق اليمن بالتوجه إلى صنعاء لمصاولة الأسود العنسي. فأخذ قيس يعمل داخل صنعاء للقضاء على الأسود العنسي، وما لبث أن أقبل زعماء وفرسان حمير وهمدان ومذحج وعمال مناطق اليمن، فأحاطوا بمشارف صنعاء، وبعث إليهم قيس «أن لا تُحدِثوا شيئاً حتى نبرم أمرنا» يعني أن لا يهاجموا صنعاء. وقام قيس بتنفيذ خطة قتل الأسود العنسي في الليل، واشترك في الخطة فيروز الديلمي وأخته التي كانت زوجة الأسود العنسي، أما تنفيذ قتل الأسود العنسي فإن الذي قتله هو قيس بن مكشوح. قال الحسن الهمداني:

وزَارَ الأســودَ الــعَــنْــســي قَــيْــسُ بَــجَــمْــعٍ مِنْ غُـطـيـفٍ مُـردفـيـنـا
فــعَــمّــمَ رأســه بــذُبــابِ ســيــفٍ فـطـار الـقُحف يـسـمـعـه حـنـيـنـاً
وهــل غــيــر ابــن مــكــشــوح هُــمــامُ يــكــونُ بــه مِــنَ الــمُــتــمــرســيــنــا

قال ابن كثير: «فلما كان الصباح قام قيس على سور المدينة» وقال البلاذري «عَلَا قيس بن مكشوح سور المدينة فقال: الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن عبهلة كذاب، وخرج أصحاب قيس ففتحوا الأبواب»[٤]

---

(١) تقدم ذكر النصوص والوثائق التفصيلية في المبحث الخاص بقيس بن مكشوح المرادي.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢/ ٢١٢.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٤ ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٠٨.

فدخل زعماء وفرسان اليمن ومعاذ بن جبل، قال ابن كثير: «وألقى قيس برأس الأسود العنسي فانهزم أصحابه، وظهر الإسلام وأهله»(١) وبذلك انتهت فتنة الأسود العنسي التي لم تتجاوز صنعاء، ولم يكن عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح مع الأسود العنسي كما زعمت بعض التلفيقات وإنما كان عمرو بن معدي كرب أولُ من اتخذ موقف المواجهة، ورفَضَ حتى مجرد التظاهر بالولاء للأسود العنسي منذ الساعة الأولى لردته وادعائه النبؤة، وكان قيس بن مكشوح هو الذي اضطلع بالدور الرئيسي في القضاء على الأسود العنسي وأطاح برأسه، وذلك في عهد وحياة رسول الله ﷺ، ومكث عمرو بمنطقته ثابتاً على إيمانه الذي لا يتزعزع والذي لم يزدد إلا رسوخاً بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام في ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هجرية.

* * *

معارضة عمرو لتولية فيروز الديلمي والأبناء

بعد وفاة رسول الله ﷺ واستخلاف أبي بكر الصديق كانت الأوضاع مستتبه في سائر أرجاء اليمن والناس ثابتين على الإيمان والإسلام، وكان معاذ بن جبل الأنصاري مقيماً بصنعاء وهو أمير جميع عمال اليمن والأمير الوالي لليمن، وكان عمال مناطق اليمن في أعمالهم.

ثم بعد نحو ثلاثة أشهر من خلافة أبي بكر حدث ما تسميه بعض الروايات ردة عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح أو ردة أهل اليمن، وهي تسمية تفتقر إلى الصحة، فلم يرتد عمرو ولا قيس ولا أهل اليمن عن الإسلام ولا منعوا الزكاة حتى يقال أن ما حدث هو (رده) فالذي حدث وموقف عمرو بن معدي كرب يتمثل في التالي:

بعد نحو ثلاثة أشهر من خلافة أبي بكر انتهت ولاية معاذ بن جبل لليمن ورجع إلى المدينة، وكذلك رجع بعض العمال برغبتهم ومنهم خالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن حزم الأنصاري، ووبر بن يحنس الخزاعي. وقام أبو بكر الصديق بتولية فيروز الديلمي الفارسي على اليمن، وكان فيروز من رؤساء الأبناء الفرس بصنعاء، وكان قيس بن مكشوح مقيماً بصنعاء وكذلك فيروز، فكتب أبو بكر إلى زعماء وأذواء اليمن ما يلي نصه:

«مِنْ أبي بكر خليفة رسول الله، إلى عمير بن أفلح ذي مران، وسعيد بن

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٤ ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٢ ص٣٠٨.

العاقب ذي زود، وسميفع ذي الكلاع، وحوشب ذي ظليم، وشُهْر ذي يناف.

أما بعد، فأعينوا الأبناء على مَنْ ناوأهم، وحُوطُوهم، واسمعوا لفيروز فإنّي ولّيتُهُ»[١].

وبموجب ذلك بات فيروز الديلمي والياً لليمن، وابتهج الأبناء الفرس وافتخروا بداذويه الذي أصبح مستشار فيروز، ويبدو أن داذويه كان له دور في انتهاء ولاية معاذ وتولية فيروز الديلمي.

وقد أثارت تولية فيروز والأبناء استياء كثير من اليمنيين، واتخذ أذواء حمير ورؤساء حاشد وبكيل ـ الذين ذكرهم أبو بكر في كتابه ـ موقف الصمت وانتظار ما سيحدث، وبالذات موقف مذحج، وكان زعماء مذحج المنظور إليهم آنذاك هم الزعماء الصحابة الثلاثة فروة بن مسيك وقيس بن مكشوح وعمرو بن معدي كرب.

كان فروة بن مسيك هو عامل قبائل مذحج كلها منذ عهد رسول الله ﷺ وكان مقيماً في منطقة مراد، ويبدو أن موقفه كان الالتزام بالسمع والطاعة لفيروز، وربما وصل إلى حد التعبير عن وجوب إيمانه الأبناء الفُرس على مَنْ قد يناوئهم، وأما قيس بن مكشوح المرادي فكان القائد اليمني الوحيد المقيم في صنعاء وكان موقفه ـ المُعلن ـ هو الترحيب بتولية فيروز والبقاء بصنعاء متعاوناً مع فيروز ومستشارة داذويه الذي بات مفخرة الأبناء. وأما عمرو بن معدي كرب فكان مقيماً في حصنه بتثليث نجران ورئيساً لقبيلة زبيد وبني مُنبِه المذحجية، وكان موقف عمرو هو معارضة تولية فيروز الديلمي والأبناء من جهة والغضب من موقف فروة بن مسيك من جهة ثانية، والاستياء من موقف قيس بن مكشوح من جهة ثالثة. فقال وبعث عمرو بيتين من الشعر لفروة بن مسيك وبيتين للفرس الأبناء وبيتين لقيس بن مكشوح.

وقد أورد ابن هشام في السيرة النبوية عن ابن إسحاق البيتين اللذين قالهما عمرو في فروة بن مسيك مسبوقة بعبارة (قال حين ارتد) وكذلك في عيون الأثر لابن سيد الناس والبداية والنهاية لابن كثير والإصابة، بينما ليس في البيتين شيء من الردة، وهنا قول عمرو بن معدي كرب:

وَجَدْنَا مُلْكَ فَرْوَةَ شَرَّ مُلْكٍ   حِماراً سَافَ مَنْخُرهُ بِثَفْرِ[٢]

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد الله ـ ص٣٤٣.

(٢) ساف: شم. والثفر في البهائم بمنزلة الرحم من الإنسان.

وَكُنْتَ إِذَا رأَيْتَ أَبَا عُمَيْر   تَرَى الحُوَلَاء مِنْ خُبْثٍ وغَدْرِ[(١)]

لقد كان عمرو قاسياً وظالماً لفروة في ذلك الشعر، ولكن اتخاذ ذلك الشعر دليلاً على ردة عمر وهو ظُلْمُ وخطأ فادح، فذلك الشعر ليس دليلاً على الردة وإنما هو دليل على عدم صحة مزاعم الردة، فقد كان عمرو غاضباً من تأييد فروة لتولية فيروز ووجوب طاعته ومعاونة الأبناء على من قد يناوئهم، لذلك كان عمرو قاسياً على فروة في ذلك الشعر حتى لا يقتدي بقية الرؤساء بموقف فروة غالباً.

وبعث عمرو بيتين لقيس بن مكشوح قال فيهما:

غَدَرْتَ ولَمْ تُحْسِنْ وفاءً، وَلَمْ يَكُنْ   لِيَحْتَمِل الأَسْبَابَ إلّا المُعَوَّدُ

وكيف لِقَيسٍ أن يُنَوَّطَ نَفْسَهُ   إذَا ما جَرَى والمِصْرُ حيُّ المُسَوَّدُ

فقد اعتبر عمرو موقف قيس الذي بَقَى قائداً في صنعاء مع فيروز والأبناء غدراً وعدم وفاء من قيس لتضحيات قومه في الحروب السابقة، مع الأبناء الفُرس، بينما لم يكن ليحتمل مسؤولية قيادة المواجهة المنشودة إلا المتعود على ذلك مثل قيس، ثم ينتقد بقاء قيس في صنعاء وهي (المِصْر) لأنها مليئة بالأبناء الفُرس وهُمْ (حيُّ المُسَوَّدُ) أي الذي أصبح سيداً وهو فيروز الديلمي الذي ولاه أبو بكر، فكيف يمكن أن يقوم قيس بقيادة المواجهة أو حماية نفسه وهو في معقل الأبناء من وجهة نظر عمرو، وفي ذلك إشارة إلى أنه لم يستبعد أن قيس بن مكشوح ينوي القيام بشيء.

وأما الفُرس الأبناء الذين افتخروا بداذويه لمساعيه في تولية فيروز، أو لأنه أعاد إليهم الحكم، فقد بعث إليهم عمرو بن معدي كرب بيتين قال فيهما:

ومــا أن دَاذَوَيْـه لـكُـمُ بِـفَـخْـرٍ   ولَـكِـن دَاذَويـه فَـضَـحَ الـذمـارا

وفـيـروزاً غـداً سَـيُـصـابُ فـيـكـم   ويَـضْـرِبُ فـي جُـمُـوعِـكُـمُ الـقِـفَـارا

وتقولُ روايةُ أورها الطبري أن البيتين قالهما عمرو لقيس بن مكشوح يتوعده لأنه ثار ضد الأبناء وداذويه، ويتوعده بأن فيروز الديلمي غداً سيصيب قيساً وأصحابه، ولذلك جاء صدر البيت الثاني (وفيروز غداً سيصيب فيكم)، بينما لو كان ذلك هو موقف عمرو وقال تلك الأبيات والتي قبلها يلوم قيساً ويتوعده لأنه ثار ضد فيروز والأبناء، لما اتهمته الروايات بقيادة المعارضة الموصوفة بالردة مع قيس، فالصواب الذي تنطق به الأبيات هو أنه يتوعد الأبناء الفُرس بأنهم سيُصابون

(١) الحولاء: الجلدة التي يخرج فيها ولد الناقة. (جـ٤ ص٢٥٤/ السيرة النبوية ـ ابن هشام).

مع فيروز، بل ويتوعدهم بالنفيّ من اليمن وترحيلهم مع فيروز إلى بلاد فارس في قوله: (ويضرب في جموعكم القفارا)، وقد رسم عمرو في تلك الأبيات الخطوط العامة للعمل المنشود، وارتفع عمرو بهدف المعارضة لتولية فيروز بحيث شمل ذلك التركيز على (داذويه) بالذات من رؤساء الأبناء والوعيد بنفي الأبناء من اليمن، وكان ذلك قُبيل قيام قيس بن مكشوح ببعث رسالة سرية من صنعاء إلى سميفع ذي الكلاع وحوشب ذي ظليم ـ قادة قبائل حمير ـ وإلى عُمير ذي مران وسعيد العاقب ذي زود وشُهر ذي يناف ـ قادة حاشد وبكيل ـ قال فيها ما يلي نصه: «إنّ الأبْنَاء نُزّاعُ في بلادكم، وإن تركوهم لن يزالوا عليكم. وقد أرى من الرأي أن نقتل رؤوسهم، ونخرجهم من بلادنا». ويروى: «أن أقتل رؤوسهم، وأخرجهم من بلادنا»[1] . وكان الرؤساء الأذواء الذين كتب إليهم قيس بذلك هم نفس الرؤساء الذين كتب إليهم أبو بكر بأن يُعِينُوا الأبناء على مَنْ يناوئهم، ويحوطوهم، ويسمعوا من فيروز. ويبدو أن الشعر الذي قاله عمرو في فروة بن مسيك يمكن أن يكون له تأثير في موقف الرؤساء الأذواء فإن من المحتمل أن يقول فيهم عمرو مثل ذلك إذا وقفوا مع فيروز والأبناء، وقد جاء موقفهم مقبولاً إذْ إنهم «لم يمالؤ قيساً، ولم ينصروا الأبناء، واعتزلوا، وقالوا: لسنا مما هنا في شيء، أنت صاحبهم وهُم أصحابك. واستجاب لقيس عامة قبائل من كتب أبو بكر إلى رؤسائهم، وبقي الرؤساء معتزلين»[2] فلما علم قيس بتجاوب قبائل حمير وحاشد وبكيل ومذحج «كاتَبَهم قيسُ في السر، وأمَرَهم أن يتعجلوا بالقدوم إليه، ويكون أمرهم وأمره واحداً، ويجتمعوا على نَفْي الأبناء من اليمن» فانطلقوا إلى صنعاء، وكذلك عمرو بن معدي كرب، فلما باتوا بمشارف صنعاء، «أتى قيس إلى فيروز وهو كالفَرِق ـ المنزعج ـ من هذا الخبر، وأتى داذويه، فاستشارهما قيس لِيُلبِسْ عليهما، ولئلا يتهموه، فاطمأنوا إليه. ثم دعاهُم من الغد إلى طعام، (وهُم فيروز، وداذويه، وجفشيش) فلما دخل عليه داذويه عاجلة قيس فقتله». ويبدو أنه كان قد قال لداذويه أن يأتي قبل فيروز، فلما أتى داذويه مع حرسه من الفُرس الأبناء قام قيس بقتل داذويه واعتقل الذين معه. ولم يكن قيس يريد قتل فيروز، فحين (أقبل فيروز سمع امرأتين على سطحين تتحدثان، قالت إحداهما: هذا مقتول كما قُتِل داذويه. فركض فيروز هارباً، ولقى جفشيش

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٢ ص٧٨ ـ والوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ ص٣٤٢.

(٢) تاريخ الطبري ـ جـ٢ ص٧٩ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٦٣.

فهرباً سوياً)، وخرجا من أحد أبواب صنعاء، وفتح أصحاب قيس الأبواب، فدخل فرسان حمير وحاشد وبكيل ومذحج، وفيهم عمرو بن معدي كرب.

وقد استعمل الطبري وابن خلدون كلمة (ثورة) في التعبير عما حدث. فقال ابن خلدون «ثار قيس بصنعاء وجَبَى ما حولها» وقال الطبري: «ثار قيس بصنعاء فأخذها وجَبَى ما حولها.. وطابق مع قيس عامة قبائل من كتب أبو بكر إلى رؤسائهم». قال ابن خلدون: «.. وهرب فيروز وجفشيش، وخرج قيس في إثرهما، فامتنعا بخولان أخوال فيروز». ويبدو أن ذلك أيضاً كان بتدبير قيس لأنّ بقاء فيروز ملتجئاً عند أخواله في خولان كان مرغوباً. وعاد قيس إلى صنعاء، وكان فيها عمرو بن معدي كرب الذي كان قد قال له (غَدَرتَ، ولم تُحسن وفاءً)، فقال قيس:

وَفَيْتُ لقومي واحتشدتُ لِمَعْشر أصابوا على الأحياء عَمْراً ومَرْثِدا
وكنتُ لدى الأبناء لما لقيتهم كأصيد يسموا بالعزازة أصيدا

وتم تجميع الأبناء الفُرس وعائلاتهم الذين في صنعاء وغيرها، وكانوا زهاء خمسة آلاف وأربعمائة رجل ومعهم عائلاتهم من النساء والأولاد، وبما أن عمرو بن معدي كرب كان في صنعاء فإن مِنْ المفترض أن قيس بن مكشوح تشاور معه في الإجراء الذي قام باتخاذه، حيث قام بتقسيم الأبناء الفرس إلى ثلاث فِرَقْ، الفرقة الأولى هُمْ الذين كانوا مع سيف بن ذي يزن وساهموا مع اليمنيين في القضاء على الأحباش وكان عدد أولئك الأبناء ستمائة رجل من الديلم وكانوا قد أسلموا مع عائلاتهم، فأقرّ قيس أن يبقوا في اليمن. والفرقة الثانية كانوا ثمانمائة من الفُرس المقاتلين جاءوا عن طريق البحر بعد عهد سيف بن ذي يزن وكذلك الفرقة الثالثة وهم أربعة آلاف من الأساورة الفرس جاءوا مع عائلاتهم عن طريق البر أيام كسرى أبرويز بن هرمز، ولم يعتنق هؤلاء الإسلام، فقد ذكر البلاذري «إن معاذ بن جبل أخذ الجزية من مجوس اليمن» وأنه «فرض على كل مَنْ بلغ الحلم مِنْ مجوس اليمن مِنْ رجل أو امرأة ديناراً، أو قيمته من ثوب المعافر». وهُمْ أولئك. فأمر قيس بترحيل الفرقة الثانية من الأبناء الفرس عن طريق البحر، وبعثهم مصحوبين (بالسيّارة اللحجية) فقاموا بتسييرهم إلى لحج وعدن وتحميلهم بالمراكب إلى ساحل عُمان وتوجهوا من هناك إلى بلاد فارس. أما الفرقة الثالثة فتم تسييرهم براً مصحوبين بفرسان مذحج إلى مأرب ثم حضرموت، وقام فرسان الأشعث بتسييرهم إلى البحرين ولحقوا بالعراق. وقد جاء في المصادر التاريخية أنه «عَمَد قيسُ إلى الأبناء، فَفَرَّقَهُم ثلاث فرق؛ أَقَرَّ فرقة منهم وأَقَرَّ عيالهم. والفرقة الثانية أَمَرَ أن

يُحْمَلوا في البحر، وحمل الفرقة الثالثة في البر، وبعث من يُسيرهم، وقال لهم جميعاً: الحقوا بأرضكم»[(١)]. ويتبين من مجمل ذلك أن الذي حَدَث ليس فيه شيء من الرِّدة عن دين الإسلام، وإنما هو عَمَلٌ سياسيُ وطنيُ وعُروبيٌّ عظيم تم باجتهاد وقيادة اثنين من أصحاب رسول الله ﷺ هما عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح وبمشاركة عشرات الآلاف من المؤمنين المسلمين، بينما اتخذ بقية الصحابة والزعماء اليمانيين موقف الاعتزال وقالوا: لسنا مما ههنا في شيء وهو الموقف الذي اتخذه أيضاً فروة بن مسيك عندما انطلق فرسان ورجال قبائل مذحج وساهموا في ذلك العمل العظيم، فلم يكن في صالح الإسلام أن يبقى خمسة آلاف مِنْ المجوس مع عائلاتهم المجوسية في هذا المعقل العربي الإسلامي الذي لن يلبث أن ينطلق غالبية فرسانه ورجاله إلى الجهاد والفتوحات حاملين رسالة الإسلام إلى الآفاق.

وقد زعمت رواية أوردها الطبري عن رجل يقال له سيف بن عمر التميمي ومنسوبة إلى بعض الأبناء الفرس في عهود لاحقة أن أبا بكر الصديق بعث جيشاً لمناصرة فيروز والأبناء الفرس وأنهم هزموا وأسروا قيساً وعمراً واستنقذوا الأبناء واستمر فيروز والياً لليمن، وتفتقر تلك الرواية إلى الحد الأدنى من الصحة. فقد ذكر الطبري في رواية صحيحة أنه:

«بعث أبو بكر الصديق المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء وحضرموت، فاتخذ المهاجر مكة طريقاً، ومَرّ بالطائف، ثم مَضَى حتى حاذَى جرير بن عبد الله البجلي فَضَمّه إليه، ثم قدم على أهل نجران، فانضم إليه فروة بن مسيك. وفارق عمرو بن معدي كرب قيساً، وأقبل مستجيباً حتى دخل على المهاجر»[(٢)] وتكتسب هنا أهمية خاصة عبارة «وفارق عمرو بن معدي كرب قيساً وأقبل مستجيباً» فذلك يدل على أنه كان مع قيس بن مكشوح في صنعاء وأنه أتى إلى المهاجر والذين معه منفرداً وليس مع قيس. وقال ابن خلدون: «أمر أبو بكر المهاجر بن أبي أمية بأن يسير إلى اليمن ليُصلح مِنْ أمره، ثم ينفذ إلى عمله. ومَرّ المهاجر بمكة والطائف فسار معه خالد بن أُسيد وعبد الرحمن بن أبي العاص بمن معهما، ومَرّ بجرير بن عبد الله البجلي وعكاشة بن ثور فضمّهما إليه، ثم مَرّ بنجران وانضم إليه فروة بن مسيك المرادي، وجاءه عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح»[(٣)] وقال ابن

---

(١) تاريخ الطبري ـ جـ٢ ص٧٩ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٦٣.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٧٨.
(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٦٥.

سمرة: «استعمل أبو بكر على اليمن المهاجر بن أبي أمية.. وسار مع المهاجر إلى اليمن عبد الرحمن بن العاص، وجرير بن عبد الله البَجْلي. فبدأ المهاجر بنجران، فانضم إليه فروة بن مُسَيك المرادي، وجاءه عمرو بن معدي كرب على غير أمان»[١] بينما تقدم في نَص الطبري أن عمرو بن معدي كرب «أقبل مستجيباً، ودخل على المهاجر» وتتيح تلك النصوص إدراك أن أبا بكر الصديق بعث شخصاً واحداً هو المهاجر بن أبي أُمية المخزومي، ولم يبعثه والياً وإنما بعثه (لِيُصلح الأمور) وهي مهمة سلمية، وكان أبو بكر قد أمره أن يصطحب معه عبد الرحمن بن العاص، أو عبد الرحمن بن أبي العاص، وهو عم أبان بن سعيد بن العاص صهر قيس بن مكشوح المرادي، فمرّ المهاجر بمكة واصطحب معه عبد الرحمن بن العاص وخالد بن أسيد، وكذلك أبان بن سعيد، وأما جرير بن عبد الله البجلي فكان هو عامل نجران وإليه وَصَلوا، وانضم إليهم بنجران فروة بن مسيك، وتدل عبارة (وفارق عمرو قيساً، وأقبل مستجيباً)، تدل على أنهم بعثوا إلى عمرو بن معدي كرب في صنعاء بأن يأتي إليهم (فأقبل مستجيباً، ودخل على المهاجر)، وبالتالي يمكن استنتاج ما لم تذكره النصوص السالفة وهو أنهم اجتمعوا وتباحثوا في كيفية إصلاح الأمور، فتوصلوا إلى اتفاق حول ما يُصلح الأمور، وكان من نتائجه ما جاء في نهاية رواية ابن خلدون أنه «سار المهاجر حتى نزل صنعاء، وكتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء، فجاءه الجواب بأن يسير إلى كندة بحضرموت»[٢] فما هو الحل الذي أصلح الأمور؟

تقول الرواية التي ذكرها ابن خلدون أن المهاجر بن أبي أمية عندما «جاءه عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح ـ إلى نجران ـ أوثقهما وبعث بهما إلى أبي بكر، وسارا إلى لقائه» بينما في رواية الطبري أنه أوثق وبعث عمرو بن معدي كرب وفي رواية ابن سمرة أن ذلك بعد وصول المهاجر إلى صنعاء، ويرتبط ذلك بما ذكره ابن خلدون من أن المهاجر «كتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء» وبالتالي يمكن إدراك أنه بعد اللقاء والاتفاق في نجران حول ما يصلح الأمور توجه المهاجر وعمرو وجرير وفروة وابن العاص إلى صنعاء والتقوا بقيس بن مكشوح، فكتب المهاجر إلى أبي بكر بدخوله صنعاء وكذلك بما تم الاتفاق والتوصل إليه لإصلاح الأمور، ومع ذلك الكتاب كان مسير عمرو بن معدي كرب. وربما أيضاً قيس بن مكشوح، وقد جمع تعبير ابن خلدون وبين روايتين إحداهما (أوثقهما

(١) طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة ـ ص٣٥.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٦٥.

وبعثهما إلى أبي بكر) والأخرى (سارا إلى لقائه) وتدل على عدم صواب الزعم بأنه (أوثقهما) أو أنه أوثق عمرو بن معدي كرب وإنما سار عمرو إلى لقاء أبي بكر مع الذين ساروا بالكتاب لتوضيح ما يلزم ومنهم جرير بن عبد الله البجلي وعبد الرحمن بن العاص. وقد أسفر اللقاء مع الخليفة أبي بكر الصديق عن أربعة أمور ذكرتها الروايات بشكل متفرق، ومن المفيد تفصيل تلك الأمور الأربعة:

الأمر الأول: أن يعتذر عمرو وقيس لأبي بكر عن عدم امتثالهما لما كان كتب به حين وَلّى فيروز، وأن يعفو أبو بكر عن ما قاما به وإغلاق موضوع ما حدث. وقد عبّرت الروايات عن ذلك بقولها: «وحضر عمرو وقيس عند أبي بكر، وتاب عمرو بن معدي كرب واستقال ـ أي اعتذر ـ فأقالهما أبو بكر ورَدّهما». ولم يتجاوز موقف وعتاب أبي بكر أنه قال: «يا قبيس، أعَدَوْتَ على عباد الله تقتلهم وتنفيهم؟» وتضيف الرواية «وتتخذ المرتدين وليجة من دون المؤمنين» ولم تذكر الرواية جواب قيس ربما لأنه لم يكن موجوداً وإنما كان في صنعاء، فيمكن أن يكون أبو بكر بعث إليه ذلك الكلام مع المهاجر بن أبي أمية، ويمكن أن يكون قاله لعمرو لأنه يُمثل قيساً أيضاً، وربما كان قيس حاضراً. وأياً كان، فأنّ نَفْيَ الفُرس المجوس وقَتْل داذويه قد تم على يد المؤمنين، وقد تفَهَم أبو بكر وجهة نظر الصحابة والمؤمنين اليمنيين الذين اجتهدوا وقاموا بذلك وهم يعتقدون أن ما قاموا به يجلب المصلحة لبلدهم وأمتهم ودينهم ويدفع مضرة بقاء ذلك العدد الهائل من المجوس خلف ظهورهم إذا ساروا للجهاد والفتوحات.

الأمر الثاني: تولية أبان بن سعيد بن العاص على اليمن وهو من خيار الصحابة، وقد تزوج بأخت قيس بن مكشوح حينما وَفَد عمرو وقيس إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة وأقاما بالمدينة سنة ٩هـ، وهو أمر كان أبو بكر يعرفه، وقد اختار أبو بكر تولية أبان بن سعيد، فولاه على اليمن، وكتب أبو بكر إلى المهاجر بأن يسير لإصلاح الأمور في حضرموت، فسار المهاجر، واستقر أبان بن سعيد في صنعاء والياً لليمن ومكث قيس بن مكشوح معه في صنعاء.

الأمر الثالث: ويتصل بداذويه الذي قتله قيس بن مكشوح، وفي ذلك قال ابن خلدون في سياق الخبر السابق عن لقاء عمرو وقيس بأبي بكر أنه «حضر قيس عند أبي بكر، فَخَطر قتل داذويه، ولم يجد أمراً جلياً في أمره» وقال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة «لما بعث أبو بكر الصديق أبان بن سعيد إلى اليمن، كلّمه فيروز في دم داذويه الذي قتله قيس بن مكشوح، فقال أبان لقيس: أقَتَلْتَ رجلاً مسلماً؟ فأنكر قيس أن يكون داذويه مسلماً. فقال أبان لفيروز:

الحق بأمير المؤمنين وأنا أكتب لك بما قضيتُ بينكما. فكتب له. فأمْضَى ـ أمير المؤمنين ـ ما كتبه أبان بن سعيد». ولم يذكر العسقلاني ما هو الذي كتبه أبان وأمضاه وأقرّه أبو بكر. وهو ما أشار إليه ابن خلدون بأن أبا بكر لم يجد أمراً جلياً في أمر داذويه وذلك لأن قيس بن مكشوح أنكر أن يكون داذويه مُسلماً، وهو أعرفُ الناس بداذويه وقد كان داذويه من كبار المجوس وأسلم على يد قيس ووبر بن يحنس، ثم عرف قيس أنه لم يكن صادقاً في إسلامه، فلم يتبين أبو بكر جلية الأمر فيما إذا كان داذويه مسلماً أم كان باقياً على مجوسيته ويتظاهر بالإسلام، وبذلك انتهى موضوع داذويه.

الأمر الرابع: ويتصل بفيروز الديلمي الذي كان مقيماً ملتجئاً عند أخواله في خولان، فلما تولى أبان بن سعيد بن العاص، جاء إليه فيروز، فكتب له أبان الكتاب سالف الذكر بشأن داذويه وقال له: الحق بخليفة رسول الله ﷺ، فسار فيروز إلى المدينة، فأقام بالمدينة إلى أن مات فيها، ولم يرجع إلى اليمن أبداً، وقد مكث قيس بصنعاء وعمرو بتثليث إلى أن انطلقا لفتح الشام.

* * *

انطلاق عمرو للجهاد وبطولته في فتوح الشام

في أواخر سنة ١٢هـ بدأت مواكب أهل اليمن تتدفق إلى المدينة المنورة للجهاد وفتح الشام، وقد ذكر الواقدي عن عدد من الصحابة والتابعين أنه «كان أول أهل اليمن وصولاً قبائل حِمْير يتقدمهم ذو الكلاع الحميري رضي الله عنه.. ثم أقبلت كتائب مراد ومذحج يتقدمهم قيس بن مكشوح المرادي رضي الله عنه، فلما قرب من أبي بكر الصديق وأصحابه أشار بالسلام فقال:

أتـتـك كـتـائـبُ مِـنّـا سـراعـاً ... ذوي الـتـيـجـان أعـنـي مِـنْ مُـرادِ

فَـقَـدمـنـا أمـامـك كـي تـرانـا ... نُـبـيـد الـروم بـالأسـل الـنـجـادِ

فجزاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه خيراً». وفي أيام تالية «أقْبلتْ قبائل طيء يتقدمها حارث بن مسعدة الطائي رضي الله عنه.. ثم أقبلت الأزد ـ أزد السراة ـ في جموع كثيرة يتقدمها جندب بن عمرو بن حممة الدوسي رضي الله عنه» ثم «تتابعت قبائل اليمن يتلو بعضها بعضاً»[1] وكان أولئك اليمانيون هم الموجة الأولى من مستنفري أهل اليمن، وكانوا يُمثلون الغالبية العظمى في الجيش

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله محمد الواقدي ـ جـ١ ص٣ و٣٩.

الذي بعثه أبو بكر إلى الشام في صفر ١٣هـ بقيادة أربعة أمراء منهم أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة الكندي، ثم أسند أبو بكر القيادة العامة إلى خالد بن الوليد فانضم إليهم في شهر ربيع ١٣هـ وهزموا الروم في موقعة أجنادين في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣هـ.

قال الإمام أبو عبد الله الواقدي في فتوح الشام «فما تمت أيام قلائل حتى جاء إلى المدينة جَمْعُ مِنْ اليمن عليهم عمرو بن معدي كرب الزُبيدي رضي الله عنه يريد الشام، وما لبثوا حتى أقبل مالك الاشتر النخعي رضي الله عنه واجتمع بالمدينة نحو من تسعة آلاف» فوجههم أبو بكر إلى الشام وكتب إلى خالد بن الوليد كتاباً يأمره فيه بأن يمضي ـ بعد منازلة جموع الروم ـ حتى «ينزل دمشق إلى أن يأذن الله بفتحها» وقال أبو بكر في كتابه: «وقد تقدم إليك أبطال اليمن وأبطال مكة، ويكفيك عمرو بن معدي كرب ومالك الأشتر»[1].

* * *

لقد وصل عمرو إلى الشام مع ذلك الجيش الذي يضم زهاء تسعة آلاف من الفرسان والرجال في أواسط جمادى الأولى ١٣هـ وكان مع عمرو خمسمائة فارس وراجل من بني زُبيد ـ خاصة ـ وجماعات من عشائر بني منبه وسعد العشيرة المذحجية، وبقية الجيش من قبائل همدان ـ بقيادة مالك بن حُمرة ـ ومن النخع ـ بقيادة مالك الأشتر ـ ومِن السكون ـ بقيادة معاوية بن حُديج ـ ومن بقية القبائل. وانضم ذلك الجيش إلى الجيش العربي الإسلامي في الشام والذي كان خالد بن الوليد قائده العام، وبذلك بلغ عدد الجيش زهاء تسعة وثلاثين ألفاً، وتوجهوا إلى اليرموك حيث دارت موقعة اليرموك مع جيش الروم في جمادى الثاني سنة ١٣هـ.

قال ابن حجر العسقلاني: «شهد عمرو بن معدي كرب فتوح الشام، فقال ابن عائذ في المغازي عن أبي مسهر عن محمد بن شعيب عن حبيب قال، قال مالك بن عبد الله الخثعمي: ما رأيتُ أشرف مِنْ رَجُلٍ برز يوم اليرموك، فخرج إليه علجُ فقتله، ثم آخر فقتله، ثم انهزموا، وتبعهم، ثم انصرف إلى خباءِل عظيم، فنزل، ودعا بالجفان، ودعا مَنْ حوله. فَقُلتُ: مَنْ هذا؟ قالوا: عمرو بن معدي كرب»[2].

لقد برز عمرو بن معدي كرب في ذلك اليوم فخرج لمبارزته أحد القادة

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله محمد الواقدي ـ جـ١ ص٣ و٣٩.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص١٩.

الفرسان الرومان فبارزه عمرو، فقتله. ثم خرج إليه علج آخر ـ أي قائد روماني ـ فبارزه عمرو، فقتله. ثم حمل على المجموعة الرومية التي كان منها القائدان، فهربت تلك المجموعة وعادت إلى صفوف ومعسكر الجيش الرومي. وقد تقدم وصف عمرو بأنه (كان عظيم الخلقة، أعظم ما يكون من الرجال. وإن عمر بن الخطاب إذا نظر إليه كان يقول: الحمد لله الذي خَلَقَنا وخَلَق عمراً. تعجباً من عظم خلقه)، وبعد أن هربت تلك المجموعة الرومانية، رجع إلى عمرو إلى خباء له عظيم ـ أي خيمة عظيمة ـ في صفوف ومعسكر الجيش العربي الإسلامي، فدعا بجفان الطعام، ودعا من حوله، فأكلوا معه، وكان مالك بن عبد الله الخثعمي رضي الله عنه يشاهد تلك الملحمة، فقال: من هذا؟ قالوا: عمرو بن معدي كرب.

* * *

وقام خالد بن الوليد والصحابة القادة بتقسيم الجيش إلى ٣٦ كردوساً يضم كل كردوس ألف مقاتل، ويقود كل كردوس أمير قائدُ من الصحابة، وتم تقسيم الكراديس إلى ميمنة وقلب وميسرة، فكان عمرو بن معدي كرب قائداً على كل كردوس من كراديس الميمنة.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن من الصحابة القادة اليمانيين لكراديس الميمنة في اليرموك: شرحبيل بن حسنة الكندي على كردوس، ذو الكلاع الحميري على كردوس، جُندب بن عمرو بن حممه الدوسي على كردوس، معاوية بن حُديج السكوني على كردوس، السمط بن الأسود الكندي على كردوس، عمرو بن معدي كرب على كردوس. ومن قادة كراديس الميسرة والقلب: دِحْية بن خليفة الكلبي على كردوس، حوشب ذو ظليم الحميري على كردوس، عياض بن غَنْم الأشعري على كردوس، مسروق العكي على كردوس، امرؤ القيس بن عابس السكوني على كردوس، يزيد بن يحنس على كردوس[1]. وجاء في كتاب الجامع أن من القادة اليمانيين لكتائب اليرموك ـ وهي الكراديس: بشير بن كعب الحميري على كتيبة، عُبادة بن الصامت الخزرجي الأزدي على كتيبة، خالد بن زيد الأنصاري على كتيبة، علقمة بن الحكم على كتيبة. جرير بن عبد الله البجلي قائد الفدائيين اليمنيين الذين أثّرُوا على معنويات الجيش الرومي في اليرموك[2]. وذكر ابن كثير

(١) تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص٣٤.
(٢) الجامع لبامطرف ـ ص٦٠٤.

أن خالد بن الوليد «فَرّق الخيل فرقتين، وجعلها وراء الميمنة والميسرة، فكان خالد في أحد الخيلين وراء الميمنة، وجعل قيس ابن مكشوح في الخيل الأخرى ـ وراء الميسرة»(١).

* * *

وفي يوم القتال الحاسم باليرموك كانت كراديس الجيش مصطفة متأهبة للقتال وأمام كل كردوس قائده، وكان المقداد بن عمرو البهراني الحميري يقرأ سورة الجهاد وهي سورة الأنفال على الجيش، وأبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل يحثان الجيش على الاستبسال في الجهاد في سبيل الله والصبر في ملاقاة العدو، بينما في الجانب الآخر كانت كتائب أو فِرَق جيش الروم تكاد أن تسد الأُفق، وكان الروم ثلاثة أضعاف المسلمين.

وبدأ الروم بالهجوم ووجهوا معظم جيشهم للقضاء على كراديس ميمنة الجيش الإسلامي، قال أبو عبد الله الواقدي في فتوحِ الشام «حملت الروم على ميمنة المسلمين وكان فيها الأزد ومذحج وحضرموتَ وخولان وحمير، فحملت عليهم الروم حملة منكرة، فصبروا لهم صبر الكرام وقاتلوا قتالاً شديداً وثبتوا ثباتاً حسناً، وحملت عليهم كتيبة ثانية فصبروا صبراً جميلاً، وحملت عليهم كتيبة ثالثة فأزالوا المسلمين عن الميمنة، فابتدر منهم عمرو بن معدي كرب الزبيد وهو المُقدم على زُبيد والأمير عليهم، وهم يُعظمونه لما سبق من شجاعته في الجاهلية، فلما رأى قومه وقد انكشفوا صاح فيهم يا آل زُبيد يا آل زُبيد، تفرون من الأعداء وتفزعون من شرب كأس الردىٰ، أترضون لأنفسكم بالعار والمذلة. فما هذا الانزعاج من كلاب الأعلاج، أما علمتم أن الله مُطّلِعُ عليكم وعلى المجاهدين الصابرين فإذا نظر إليهم وقد لزموا الصبر في مرضاته وثبتوا لقضائه أمَدّهم بنصره وأيّدهم بصبرِه، فأين تهربون من الجنة، أرضيتم بالعار ودخول النار وغضب الجبار. فلما سمعت زُبيد كلام عمرو بن معدي كرب رجعوا إليه وعطفوا عليه عطفة الإبل على أولادها، فاجتمعوا حلوه وهُمْ زهاء خمسمائة فارس وراجل، وشَدّوا على الروم شدة واحدة، وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان، وحملوا حملة صعبة فأزالوا الروم عن أماكنهم.. وحملت دوس على الروم حملة مُنكرة، ودارت بينهم الحرب كما تدور الرحى»(٢).

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٧ ص١٠.

(٢) فتوح الشام ـ الواقدي ـ جـ١ ص١٢٧.

لقد كان ثبات عمرو بن معدي كرب حين انكسرت وتقهقرت كراديس الميمنة في بداية ذلك الهجوم من جيس الروم ثَبَاتاً عظيماً، ثم كانت كلماته تلك بالغة الأثر والتأثير، ويبدو أنها لم تكن موجهة لفرسان زُبيد فقط وإنما بدأ بهم ثم شملت كلماته كراديس حِمْير وحضرموت وخولان ودوس، فكان أول من رجع إليه فرسان ورجال زُبيد الخمسمائة وبقية فرسان كردوسه، فشدوا بقيادته على الروم شدة واحدة، وحمل معهم ذو الكلاع الحميري في كردوسه الذين كانوا من فرسان حِمْيَر، وكذلك بقية الكراديس الحميرية لأن قبائل وفرسان حِمْيَر كانوا عدة كراديس ثم تلتهم كراديس حضرموت بقيادة شرحبيل بن حسنة الكندي والسّمط بن الأسود الكندي ومعاوية بن حُديج السكوني، ثم انطلقت معهم خولان، ثم دوس وأزد السراة بقيادة جندب بن عمرو بن حُممه الدوسي، فكان مجموع الذين حملوا وانطلقوا وراء عمرو بن معدي كرب زهاء عشرة آلاف من أبطال وفرسان العروبة والإسلام اليمانيين، فحملوا على الروم حملة صادقة ومَزّقوا كتائب وفِرق الروم التي كانت أمام ميمنة الجيش الإسلامي فتقهقر الروم إلى جهة معسكرهم، بينما عمرو والمسلمون يتتبعونهم، وانضم إليهم خالد بن الوليد ومعه فرقة الخيل التي كانت وراء الميمنة وكانوا زهاء ستة آلاف من فرسان طيئ وقُضاعة وبَجِيلة وغيرهم، فلما حملت وتقدمت كراديس الميمنة التي وراء عمرو بن معدي كرب وفرقة الخيل بقيادة خالد بن الوليد «انكشفت الروم، وَوَلّت كما وَلّى الغنم بين يدي الأسد، وتبعهم المسلمون، وكانت الحملة على ميمنة الروم فانكشفوا انكشافاً قبيحاً. . وبلغت الحملة إلى مقربة من موضع الديرجان ـ أمير ميمنة الروم ـ فقال له البطارقة: أيها الأمير أما آن لك أن تحمل فنحمل معك أو تُولى فقد خالطتنا خيل العرب، فقال لهم: إن يوم السوء لا أحبه ولا أحبُ أن أراه ولا أحضره، ولَفّ رأسه حتى لا يرى الحرب، والناس يقتتلون حتى انهزمت الروم بين أيدي المسلمين ووصلوا إلى الديرجان وهو ملفوف الرأس» فحمل عليه وقتله فارس من فرسان المسلمين.

فكانت تلك الهزيمة الساحقة لميمنة جيش الروم بداية النصر الذي اكتمل بالانتصار على ميسرة بقية جيش الروم، وكان لقيس بن مكشوح، وشرحبيل بن حسنة الكندي، وأبي عبيدة بن الجراح، وغيرهم من القادة، إسهامهم الوافر في اكتمال الانتصار الذي بدأه عمرو بن معدي كرب وخالد بن الوليد في يوم اليرموك، وكان يوم انتصار اليرموك في أواخر جمادى الثاني سنة ١٣هـ بعد أيام من وفاة أبي بكر الصديق واستخلاف عمر بن الخطاب، وكان الذي أتى إلى عمر بنبأ النصر في اليرموك جرير بن عبد الله البجلي.

* * *

وقد توجه قسم كبير من الجيش الاسلامي بعد موقعة اليرموك إلى منطقة فحل بفلسطين وكان فيها جيش كبير من الروم، واستقرت المواجهة فترة إلى أن وقعت (موقعة فحل) في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣هـ وكان قائد المسلمين شرحبيل بن حسنة الكندي فتم هزيمة الروم بعد «قتل بطريقهم وزهاء عشرة آلاف معه، وتفرق الباقون في مدن الشام، وتحصن أهل (فحل) فحاصرهم المسلمون حتى سألوا الأمان على أداء الجزية والخراج، وتولى عقد الصلح أبو عبيدة بن الجراح، ويقال: تولاه شرحبيل بن حسنة الكندي»[١] وقد ثَبَتَ في تاريخ الطبري أنه: كان على المسلمين في (فحل) شرحبيل بن حسنة الكندي[١]. بينما توجه عمرو بن معدي كرب مع أبي عبيدة بن الجراح إلى منطقة (مرج الصُفر) الواقعة في الطريق إلى دمشق، وكان في مرج الصُفَّر جيش كبير مِنْ الروم فقاتلوا الجيش الإسلامي «وذلك لهلال محرم سنة ١٤هـ فاقتتلوا قتالاً شديداً، وجُرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف، ثم وَلَّى الروم منهزمين مفلولين حتى أتوا دمشق.. واستشهد يومئذ خالد بن سعيد بن العاصي بن أُمية»[١] وهو صاحب عمرو بن معدي كرب الذي كان عاملاً للصدقة في منطقة زُبيد وبعض مناطق مذحج في عهد رسول الله ﷺ سنة ١٠هـ، وقد ذكر الهمداني في الإكليل أن خالد بن سعيد «نزل على عمرو بن معدي كرب، وأكرمه. فسأله الصمصامة بيعاً أو هبة، فوهبه له، ولم يزل ـ السيف الصمصامة ـ معه حتى قُتِل يوم مرج الصُفَّر أيام عمر متقلده»[٢]، وذكر البلاذري في فتح البلدان: إن موقعة مرج الصُفَّر كانت «لهلال محرم وَجّهَه إلى اليمن عاملاً فَمَرّ برهط عمرو بن معدي كرب الزبيدي». ثم أورد البلاذري بعد تلك العبارة ما زعمه أحد الرواة عن معركة بين خالد وبني زُبيد وهي معركة وهمية سلف تبيين عدم صحتها. وأن سبب حصول خالد على الصمصامة وهو ما ذكره الهمداني، بل إن بقية رواية البلاذري تؤكد ذلك حيث قال: «فوهب له عمرو سيفه الصمصامة وقال:

خليلُ لَمْ أهبه مِنْ قَلَاة ... ولكن المواهب للكرام

حبوتُ به كريماً مِنْ قريشٍ ... فسرّ به وصِين عن اللئامِ

قال: فأخذ معاوية السيف من عنق خالد يوم المرج حين استشهد فكان عنده، ثم نازعه فيه سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي فقضى له به عثمان»[١]. وقد ذكر ذلك الهمداني قائلاً: «..لم يزل السيف معه حتى قُتِل يوم

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٢٢ ـ وتاريخ الأمم والملوك للطبري ـ جـ٤ ص٥٩.
(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ٢ ص٣٠٩.

مرج الصُّفَّر متقلده، فأخذه معاوية بن أبي سفيان، فنازعه فيه ابنه إلى عثمان، فحكم به عثمان لابن سعيد بن أبي العاص»[(١)]، ومن المفيد الإشارة إلى أن عبارة السيف (في عنقه) المقصود بها أنه كان يحمل السيف على ظهره، وقد أخذ معاوية السيف لأنه أقرب الناس لخالد بن سعيد، وذلك لأن ابنه وهو سعيد بن خالد كان قد استشهد بفلسطين، وكذلك استشهد في اليرموك أخوه أبان بن سعيد بن العاصي صهر قيس بن مكشوح المرادي فلما استشهد خالد أخذ معاوية بن أبي سفيان السيف فكان معاوية يتقلد سيف عمرو بن معدي كرب ـ الصمصامة ـ منذ سنة ١٤هـ وفي فترة ولايته للشام إلى أن نازعه فيه سعيد بن العاصي بن سعيد ـ وهو ابن أخي خالد بن سعيد وليس ابن خالد ـ فحكم عثمان بن عفان بأن السيف لسعيد بن العاصي فسلمه معاوية إليه. ثم انتقل السيف إلى عمرو بن سعيد بن العاصي وكان يتقلده وهو أمير لمكة ثم وهو في دمشق من نواب عبد الملك بن مروان إلى أن نازع عبد الملك الخلافة وبايعه قوم بالخلافة فحاربه عبد الملك، فَقُتِل عمرو بن سعيد ـ سنة ٦٨هـ ـ فأخذ السيف محمد بن سعيد، ثم صار إلى يحيى بن سعيد، ثم إلى أبان بن يحيى بن سعيد، ثم إن أيوب بن أبي أيوب بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي باع السيف الصمصامة بنيف وثمانين ألف دينار لموسى الهادي ابن الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي، وتولى موسى الهادي الخلافة سنة ١٦٩هـ فتقلّد موسى الهادي السيف الصمصامة أول ما قعد على الخلافة، فقال الشاعر أبو الهول:

حاز صمصامة الزُّبيدي عمرو خير هذا الأنام موسى الأمينُ
سيف عمرو وكان فيما علمنا خيرُ ما أطبقت عليه الجفونُ
أخضر اللون بين حديه يرد من زعاف تميس فيه المنون

إلى آخر قصيدة أبي الهول عامر بن عبد الله الحميري، وقال الشاعر سلم الخاسر قصيدة منها:

إن صمصامة الذي شهر الناس وأفنى القرون بعد القرون
كان سيفاً من الصواعق مَبْداه على مضربيه أُم المنون
لم يصب ربه من الناس حتى صار في حَيِّز الرشيد الأمين
فإذا ما أرتديت صمصامة السـ ـيف على ابن الشليل فوق المتون
لم تبل أن تقول عوداً وبَدْ للمنايا من حيث شئت فكوني

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ٢ ص٣٠٩.

فـرسُ مـن نـتـاج بـرق ورعـد وحسام في الموت جمّ الفنون

ثم انتقل السيف إلى هارون الرشيد بن المهدي ثم إلى الأمين والمأمون ثم إلى المعتصم بن هارون الرشيد ثم إلى الواثق وهو هارون بن محمد بن هارون الرشيد، تولى الخلافة سنة ٢٢٧هـ، فدعا الواثق بصيقل وأمره أن يسقي السيف، فلما فعل ذلك، ذهب ماؤه الأول ولم يعرف الصيقل حقيقة سقيه ففسد السيف وتغير[١]. وبذلك انتهى سيف عمرو بن معدي كرب الصمصامة ـ الذي لم يزل يتناقله الأمراء والخلفاء عبر تلك الأجيال ويتقلدونه ويحفظونه ويتوارثونه ويتباهون بحيازته لأنه سيف عمرو بن معدي كرب فارس العرب في الجاهلية والإسلام وصاحب رسول الله ﷺ، مما يدل على مدى اعتزاز الأمة بذلك الزعيم الصحابي اليماني العظيم في تلك الأزمنة والعصور.

* * *

لقد انطلق عمرو بن معدي كرب مع الصحابة والقادة في الجيش العربي الإسلامي من مرج الصُّفَّر إلى دمشق، ـ في أواسط شهر محرم ١٤هـ ـ وكان عمرو في القوة التي رابطت مع خالد بن الوليد في مواجهة الباب الشرقي لدمشق، حيث رابط أبو عبيدة بن الجراح على رأس قوة عند باب الجابية، وشرحبيل بن حسنة الكندي على رأس قوة عند باب توما ـ شمال دمشق ـ وقال البلاذري (نزل شرحبيل عند باب الفراديس). ورابط قيس بن مكشوح على رأس قوة عند باب الفرج، ويزيد بن أبي سفيان عند باب كيسان، وخالد بن الوليد عند الباب الشرقي ومعه عمرو بن معدي كرب وغيره من الصحابة، وفرض المسلمون الحصار على دمشق، وصمد الروم داخل دمشق وهم ينتظرون وصول الإمدادات من الملك هرقل ملك الروم الذي كان في مدينة حمص، وكان ذو الكلاع الحميري مرابطاً على رأس قوة من فرسان حمير في الطريق بين دمشق وحمص. قال الطبري: (فلما جاءت خيول هرقل أشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع، ولما أيقن أهل دمشق أن الإمداد لا تصل إليهم وَهَنوا وانقطع رجاؤهم)[٢].

قال الواقدي: «وكان هناك قسيس اسمه يونس بن مرقص، وكانت دارة

---

(١) من المصادفات العجيبة أنه لم يعد هناك من يستحق أن يتقلد ويمتلك سيف عمرو بن معدي كرب من الخلفاء العباسيين بعد المعتصم، فقد بدأت سيطرة الموالي الترك أيام الواثق ومات سنة ٢٣٢هـ ثم أصبح الخلفاء العباسيين تحت السيطرة الكاملة للموالي وتمزقت دولة الخلافة العربية الإسلامية العظيمة.

(٢) تاريخ الطبري ـ جـ٣ ص٥٧.

ملاصقة للسور مما يلي الباب الشرقي الذي عنده خالد، فنقب يونس من داره، وحفر موضعاً، وخرج على حين غفلة من أهله وأولاده في الليل، وقصد خالداً، وحدثه أنه خرج من داره وحفر موضعاً، والآن أريد أماناً لي ولأهلي وأولادي، فأخذ عهد خالد على ذلك، وأنفذ معه مائة رجل من المسلمين أكثرهم من حِمْير، وقال لهم: إذا وصلتم المدينة فارفعوا أصواتكم بأجمعكم، واقصدوا الباب واكسروا الأقفال وأزيلوا السلاسل. فساروا ومضى أمامهم يونس بن مرقص حتى دخل بهم من حيث خرج، فلما حطوا في داره تدرعوا واحترسوا ثم خرجوا وقصدوا الباب وأعلنوا بالتكبير وكسروا الأقفال وقطعوا السلاسل، فدخل خالد بن الوليد ومَنْ معه من المسلمين ووضعوا السيف في الروم.. ودخلوا دمشق من الباب الشرقي» قال الواقدي: «ووجد خالد في دمشق عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي ومالك الأشتر النخعي ومن كان معهما، وسلم المسلمون على بعضهم البعض»[1]. فوجود عمرو بن معدي كرب في دمشق حينما دخل إليها والذين معه يدل على أنه دخل دمشق قبلهم، مما يتيح إدراك أنه كان على رأس المائة من المسلمين الذين دخلوا المدينة من دار يونس بن مرقص وقصدوا الباب الشرقي فكسروا الأقفال وقطعوا السلاسل وفتحوا الباب ـ وسط قتال مع الروم ـ فدخل خالد بن الوليد ومَنْ معه من المسلمين وتم فتح ناحية دمشق التي عند الباب الشرقي.

وفي ذات اليوم والوقت صَالح أسقف دمشق أبا عبيدة بن الجراح على دخول دمشق صلحاً، فدخل أبو عبيدة من باب الجابية ودخل معه خمسة وثلاثون صحابياً من أعيان الصحابة منهم معاذ بن جبل، وذو الكلاع الحميري، وعبد الله بن عمرو الدوسي، وحسان بن النعمان، وجرير بن نوفل الحميري، ودخل قيس بن مكشوح والذين معه من باب الفرج، وشرحبيل بن حسنة الكندي والذين معه من باب توما والفراديس، وكان فتح دمشق صلحاً باستثناء ناحية الباب الشرقي التي كان أول من دخل منها عمرو بن معدي كرب والمائة الذين معه ثم دخلها خالد بن الوليد والقوة التي عند الباب الشرقي، فالتقى خالد بعمرو بن معدي كرب داخل دمشق، ثم التقوا بأبي عبيدة بن الجراح والذين معه، وكان فتح دمشق في رجب سنة ١٤ هجرية.

* * *

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ١ ص٥٢ و٧٠ و٧٨.

وبعد فتح دمشق بأمد يسير انطلق ثلث الجيش من دمشق لفتح حمص وقنسرين مع خالد بن الوليد، قال الواقدي: «فنزل خالد بثلث الجيش على حمص يوم الجمعة من شوال سنة ١٤ هجرية»، وكان مع خالد عياض بن غَنْم الأشعري، وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، فطلب أهل حمص الصلح، ووصل أبو عبيدة بن الجراح ببقية الجيش من دمشق، فصالح أهل حمص وعقد الصلح معهم سنة كاملة أولها ذو القعدة أو آخر شوال سنة ١٤هـ.

ثم توجه المسلمون لفتح قنسرين، وكان على قنسرين بطريق من بطارقة هرقل من أهل الشدة والبأس اسمه لوقا، فعقد العزم على الغدر بالمسلمين، وبعث إليهم يطلب الصلح أو التباحث في شأن الصلح، (فقال أبو عبيدة بن الجراح للصحابة الذين معه: ما ترون في أمر هذا البطريق، فقال خالد بن الوليد: أنا أسير إلى لقائه في عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ، فإن كادنا كان الله ورائه بالمرصاد وسوف نكيده أعظم مكيدة. فاستصوب أبو عبيدة ذلك وقال له: خذ مَنْ أحببت من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال خالد: عياض بن غَنْم الأشعري، عمرو بن سعيد، مصعب بن محارب اليشكري، أبو جندلة بن سعد، سهل بن عمرو العامري، رافع بن عمير الطائي، المسيب بن نجبه الفزاري، سعيد بن عامر الأنصاري، عمرو بن معدي كرب الزُبيدي عاصم بن عمر القيسي. عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. فأجابوا بالتلبية)[1]. فساروا مع خالد إلى بطريق قنسرين، فالتقاهم على رأس قوة من الروم، وأراد الغدر بهم وأن يأسرهم، فقاتوا قتالاً: شديداً، وجندلوا عساكر الروم الذين مع البطريق، فأقبلت جموع جيش الروم، وشعر الصحابة بالخطر، وعند ذلك أقبل أبو عبيدة بن الجراح في جيش المسلمين، فاندلعت معركة مع جيش الروم في قنسرين، وأخذ عمرو بن معدي كرب والصحابة مكانهم في قيادة الجيش مع أبي عبيدة بن الجراح. قال الواقدي: «فجعل أبو عبيدة يحمل على الروم بالخيل العربي، وكان في جملة خيله عمرو بن معدي كرب وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وربيعة بن عامر ومالك الأشتر وذو الكلاع الحميري، فأحاطوا بالروم من كل جانب، وقاتلوا قتالاً شديداً، فلما نظر الروم إلى فعلهم، رجعوا على أعقابهم طالبين الأسوار وأغلقوا الأبواب»[1] ثم طلب أهل قنسرين الصلح. فصالحهم أبو عبيدة، ورجع بالمسلمين إلى حمص، وذلك في حوالي شهر ذي القعدة سنة ١٤هـ.

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ١ ص٥٢ و٧٠ و٧٨.

وقد شهد عمرو بن معدي كرب فَتْح حمص ـ مرة ثانية ـ بعد موقعة نهر اليرموك في رجب سنة ١٥، حيث ساق الواقدي أنباء ذلك متصلة بأنها بعد فتح مدينة حمص وقنسرين، وإن موقعة اليرموك في رجب ١٥هـ وكذلك قال البلاذري في فتوح البلدان. ويتبين من استقصاء وربط الوقائع ومسار الأحداث أن عمرو بن معدي كرب بعد أن شَهَدَ فتح دمشق وحمص وقنسرين سنة ١٤هـ انطلق إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة ثم مضى إلى العراق حيث كان من أبرز أبطال موقعة القادسية ـ في محرم سنة ١٥هـ ـ ثم عاد عمرو بن معدي كرب إلى دمشق مع قيس بن مكشوح والجيش الذي عاد من العراق ـ في ربيع الثاني سنة ١٥هـ فشهد عمرو موقعة نهر اليرموك ـ في رجب ١٥هـ ـ ثم شهد فتح حمص وغيرها من فتوح الشام، وهو ما سنذكره فيا يلي حتى تتكامل وقائع مساهمة عمرو في فتوح الشام.

***

قال البلاذري في فتوح البلدان: «كان فتح دمشق في رجب سنة ١٤هـ وتاريخ كتاب خالد بصلحها في ربيع الآخر سنة ١٥هـ، وذلك أن خالداً كَتَب الكتاب ـ الأول ـ بغير تاريخ، فلما تجمع المسلمون للنهوض إلى مَن تَجَمّعْ لهم باليرموك، أتى أسقف دمشق خالداً، فسأله أن يجدد له كتاباً ويشهد عليه أبو عبيدة والصحابة، ففعل، وأثْبَتَ في الكتاب شهادة أبي عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وغيرهم، فأرخه بالوقت الذي جَدَدَه ـ وهو ربيع الآخر سنة ١٥هـ»[١]. ويتبين من ذلك أن المسلمين تجمعوا في دمشق للمسير إلى الجيش الرومي الذي تجمع في منطقة نهر اليرموك، وذلك في ربيع الثاني سنة ١٥هـ، وكان هرقل ملك الروم قد حشد جيشاً عظيماً من الروم والأرمن والجزيرة الفراتية، فنزل هرقل في حمص، وبعث جيشاً كبيراً بقيدة ماهان ملك أرمينية، فنزلوا في منطقة نهر اليرموك، فاجتمع المسلمون في دمشق ووصل إليهم الذين كانوا ساروا إلى العراق وشهدوا القادسية، ومنهم قيس بن مكشوح، وعمرو بن معدي كرب، وعياض بن غَنْم الأشعري، وغيرهم، فسار الجيش العربي الإسلامي من دمشق إلى منطقة اليرموك بقيادة الأمير أبي عبيدة بن الجراح ـ في ربيع الآخر سنة ١٥هـ ـ فنزل المسلمون عند الواقوصة في مواجهة الروم، وتواصلت الإمدادات والاستعدادات زهاء أربعة أشهر، وخلال تلك الفترة بعث أبو عبيدة بن الجراح جماعة من

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٢٩.

الصحابة إلى ماهان أمير جيش الروم يدعونه إلى الإسلام أو الصلح على أداء الجزية فيتم حقن الدماء. فبعث أبو عبيدة إلى ماهان خالد بن الوليد ومعه نحو عشرين من الصحابة، ذكر الواقدي أن منهم: شرحبيل بن حسنة الكندي، وعبادة بن الصامت الخزرجي، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وقيس بن مكشوح المرادي، وذو الكلاع الحميري، والمقداد بن عمرو البهراني، وعمرو بن معدي كرب الزُّبيدي، ومعاذ بن جبل الأنصاري، وغيرهم، ومعهم ثمانون من الفرسان[1]، فساروا إلى ماهان وكلموه، فأبَىٰ ماهان إلا الحرب، فرجعوا إلى أبي عبيدة ومعسكر المسلمين، وتهياء الفريقان للقتال.

ولما تم ترتيب كتائب وصفوف جيش المسلمين ـ قال الواقدي ـ «أقبل خالد بن الوليد على أبي عبيدة بن الجراح، وقال: أيها الأمير، مَنْ تجعل على الميسرة؟ فقال أبو عبيدة: عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي، أو قال كنانة بن مبارك الكناني، والله أعلم أيهما كان، فولاه الميسرة»[1]. ولا تعارض بين القولين، فقد كان على ميسرة المسلمين عمرو بن معدي كربَ ومعه كنانة بن مبارك كواحد من القادة. (وقال أبو عبيدة لخالد: قد وليتك على الخيل.. ثم إن خالداً جمع إليه خيل المسلمين، فقسمهم أربعة أرباع، فجعل على أحدهم قيس بن مكشوح المرادي، وقال له: أنت فارس العرب فكُنْ على هذه الخيل، واصنع كما أصنع. وجعل على الربع الآخر ميسرة بن مسروق العَبَسي[2]، وعلى الربع الثالث عامر بن الطفيل الدوسي. ووقف خالد ـ في الربع الرابع ـ مع عسكر الزحف»[1].

وفي يوم من أيام المعركة تقدمت جحافل الروم براياتهم وصِلبانهم نحو الجيش الإسلامي، «فقال أبو عبيدة: أين خالد بن الوليد، فأجابه بالتلبية، فقال له: أبرزْ في إبطال المسلمين إلى أن تأخذ الرجال صفوفها وتستعد بالآت حربها. فقال: حُباً وكرامة، فنادى خالد: أين الزبير بن العوام، أين عبد الرحمن بن أبي الفضل، أين ميسرة بن مسروق، أين عبد الله بن أنيس الجهني، أين عمارة الدوسي، أين المقداد، أين عمرو بن معدي كرب، أين أبو ذر الغفاري، أي عمار بن ياسر، أين عامر بن الطفيل، أين أبان بن عثمان بن عفان، وجعل خالد يدعوهم رجلاً بعد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، وكل رجل منهم يلقى جيشاً،

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ١ ص١١٣ و١١٧ و١١٨ و١٢٥.

(٢) ميسرة بن سمروق العَبَسي ـ بفتح العين والباء ـ قائد يماني من أبطال فتوح الشام. ترجم له بامطرف في كتاب الجامع ـ ص٦٠٤.

فاجتمعوا إلى خالد، واشتغلوا بحرب الروم، واشتغل أبو عبيدة بترتيب الصفوف وتعبئة العساكر، فعبأهم ميمنة وميسرة وجناحين، وجعل على الرجاله شرحبيل بن حسنة، وعلى الجناح الأيمن يزيد بن أبي سفيان، وعلى الجناح الأيسر قيس بن مكشوح المرادي. . ثم انتخب أبو عبيدة مائتي فارس من فرسان اليمن، ووقف بهم من وراء الجيش، وكان ورقة بن مهلهل التنوخي صاحب راية أبي عبيدة»[١].

وكان الروم زهاء مائة وخمسين ألفاً وقال ابن الحويرث: (أن المسلمين كانوا يوم اليرموك إحدى وأربعين ألفاً). ولما زحف المسلمون في يوم نهر اليرموك ـ وهو آخر أيام المعركة ـ كان عمرو بن معدي كرب من أوائل القادة الذين اجتاحوا جيش ومعسكر الروم، ودخلت قوات المسلمين معسكر الروم، ووقعت معركة مِنْ أشد المعارك، فقد ذكر الواقدي استشهاد أربعة آلاف مِنْ المسلمين، ومقتل مائة ألف وخمسة آلاف من الروم غير منْ غرق مِنْ الروم في الياقوصة ـ عند الفرار ـ، وتتبعت خيول المسلمين فلول الروم يقتلون ويأسرون، ويأتون من الجبال بالأسارى. ونجا ماهان ـ أمير جيش الروم ـ ومعه زهاء أربعين ألفاً، وهرب باتجاه دمشق، فلحق به جيش من المسلمين، فتفرق الروم، وسقط ماهان قتيلاً، قَتَله الفارس اليماني النعمان جهله الأزدي ومعه عاصم اليربوعي. وكانت موقعة نهر اليرموك في شهر رجب من سنة ١٥ هجرية، وتَتَبَعَ المسلمون من تَبَقَى مِنْ قوات الروم في (أجنادين) ـ شمال الرملة بفلسطين ـ وفي بعض المناطق فتم هزيمتهم. وبلغ هرقل هزيمة جيشه في نهر اليرموك ـ وأجنادين ـ فغادر مدينة حمص إلى أنطاكية فيما بين شهر رجب وشهر رمضان سنة ١٥ هجرية، بينما رجع عمرو بن معدي كرب مع أبي عبيدة بن الجراح إلى دمشق.

* * *

ثم شهد عمرو بن معدي كرب فتح مدينة حمص، وقد شاع في الروايات عدم التمييز بين المسير الأول إلى حمص لما بعث أبو عبيدة جيشاً بقيادة خالد بن الوليد إلى حمص ثم سار أبو عبيدة إليهم وقام بمصالحة أهل حمص في شوال سنة ١٤هـ، وبين المسير الذي تم فيه فتح حمص بعد موقعة نهر اليرموك ـ في رجب سنة ١٥هـ ـ والعودة إلى دمشق، حيث بعث أبو عبيدة جيشاً إلى حمص ليس بقيادة خالد وإنما بقيادة السّمط بن الأسود الكندي ومعه عمرو بن معدي كرب وجماعة من القادة الصحابة، وكان أبو عبيدة والمسلمون لما رجعوا إلى دمشق ـ وكما ذكر

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ١ ص١١٣ و١١٧ و١١٨ و١٢٥.

البلاذري ـ «أقبلتْ خيل للعدو كثيفة، بينما المسلمون عند أبواب دمشق، فسارت إليهم جماعة من المسلمين ـ خرجوا من دمشق ـ فلقوهم بين بيت لهياً والثنيه، فولوا منهزمين نحو حمص على طريق قاراً، واتبعوهم حتى وافوا حمص، فألفوهم قد عدلوا عنها، ورآهم الحمصيون وكانوا منخوبين لهرب هرقل عنهم، فاعطوا بأيديهم وهتفوا بطلب الأمان، فأمَّنعهم المسلمون.. وكان على المسلمين السمط بن الأسود الكندي»[1].

فدخل السّمط بن الأسود الكندي والذين معه من الصحابة القادة مدينة حمص فاتحين ـ وذلك في شوال أو في ذي القعدة سنة ١٥هـ ـ وكان فيهم عمرو بن معدي كرب الزبيدي، ومما يتيح إدراك ذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة بالمسير لفتح بيت المقدس، فعقد أبو عبيدة ألوية القيادة لسبعة من الصحابة وَوَجَهَهُم إلى بيت المقدس وهُم خالد بن الوليد في خمسة آلاف، وشرحبيل بن حسنة الكندي في خمسة آلاف، وعمرو بن العاص في خمسة آلاف، ويزيد بن أبي سفيان في خمسة آلاف، وقيس بن مكشوح المرادي في خمسة آلاف، والمسيب بن نجبة الفزاري في خمسة آلاف، وعروة بن مهلهل بن زيد الخيل الطائي في خمسة آلاف، فتوجهوا إلى نواحي بيت المقدس، وأحاطوا بها، ثم لحق بهم أبو عبيدة بن الجراح، فحاصروا بيت المقدس، وذلك في أوائل سنة ١٦هـ. قال الواقدي: «ولم يزل أبو عبيدة ينازل بيت المقدس أربعة أشهر كاملة». [ص١٤٦] وقد شهدت تلك الفترة مبارزات ومناوشات ليس فيها لعمرو بن معدي كرب أي ذكر، فعدم وجوده معهم يدل على أنه كان في حمص مع السمط بن الأسود الكندي، لأن أبا عبيدة سار بعد فتح القدس إلى حمص فكان عمرو بن معدي كرب ممن التقوه في حمص، مما يدل على إنه كان في حمص عندما كان أبو عبيدة والذين معه يحاصرون القدس، وقد طلب أسقف وأهل القدس وصول عمر بن الخطاب لتسليمه القدس وأن يكتب لهم بنفسه كتاب الصلح، فوصل عمر ودخل القدس وتَسَلمها مع الأمراء الصحابة وبينهم أبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة وخالد بن الوليد وقيس بن مكشوح المرادي، وعبادة بن الصامت، وغيرهم. بينما شهد وساهم عمرو بن معدي كرب مع السّمط الكندي في تأسيس العصر العربي الإسلامي في حمص خلال تلك الفترة، حيث «كان السّمط بن الأسود الكندي صَالَح أهل حمص، وقَسَم حمص خططاً بين المسلمين حتى نزلوها، وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة»[1] ثم أتى أبو عبيدة بن الجراح من

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١٣٦.

فلسطين إلى بعلبك ثم إلى حمص في أواسط سنة ١٦هـ. قال الواقدي: «توجه أبو عبيدة من بعلبك إلى حمص، فلما قرب من حمص وَجّه على مقدمة جيشه ميسرة بن مسروق العَبَسي وعَقَدَ له راية سوداء معلمة بالبياض وضم إليه خمسة آلاف فارس من المسلمين، فلما وصل إلى حمص خرج إلى لقائه خالد بن الوليد ثم بعث أبو عبيدة ضرار بن الأزور في خمسة آلاف، وبعث بعده عمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وقَدِم أبو عبيدة ببقية الجيش» فالتقاه الصحابة ـ ومنهم عمرو بن معدي كرب ـ وسلموا عليه وعلى من معه من المسلمين. قال البلاذري: «فلما قدم أبو عبيدة حمص، أمْضَى صلح السمط بن الأسود الكندي لأهل حمص، ثم استخلف بحمص عبادة بن الصامت الأنصاري، ومَضَى نحو حماة»[١].

* * *

وقد مَضَى عمرو بن معدي كرب من حمص مع أبي عبيدة بن الجراح، وكذلك مَضَى معه خالد بن الوليد، والسّمط الكندي وقيس بن مكشوح، وذو الكلاع الحميري، وعبد الرحمن بن أبي الصديق، وغيرهم من الصحابة، فتوجهوا نحو (قلعة الرستن) ثم (حماة). وكانت قلعة الرستن حصناً منيعاً مشحوناً بالرجال والعتاد، وكان أمير الحصن (نقيطاس الروماني)، فلما امتنع الحصن على المسلمين، استقر رأي أبي عبيدة والذين معه على أن يجعلوا عشرين رجلاً من الأبطال في عشرين صندوقاً من صناديق الطعام المنتجبة الكبيرة ويتم إدخالها مع صناديق الطعام التي كان الأهالي يسوقنها إلى حصن الرستن، فارتحل أبو عبيدة بالجيش إلى قرية يقال لها (السودية) وأدخل الأهالي الصناديق العشرين مع صناديق الطعام إلى الحصن، فلما كان الليل خرج الأبطال الذين في الصناديق، وكان منهم ـ كما جاء في فتوح الشام ـ (قيس بن مكشوح، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وذو الكلاع الحميري، وعمرو بن معدي كرب، وضرار بن الأزور الكندي، ومالك الأشتر، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب). فدخل عمرو بن معدي كرب وإياهم دار الإمارة، وقبضوا على امرأة نقيطاس وأهله، وقالوا له: نريد مفاتيح الأبواب، فأعطاهم المفاتيح، ففتحوا الأبواب، ورفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل، وكان قد كَمَن بالقرب من الحصن ألف من المسلمين، فلما سمعوا التكبير، اندفعوا ودخلوا الحصن، فاستسلم أهل الرستن بدون قتال، وأقبل أبو عبيدة والذين معه، فتم ترحيل نقيطاس وأهله إلى حمص، وجعل أبو عبيدة في الرستن «ألف رجل من أهل اليمن، وأوصاهم بحفظ الرستن».

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١٣٦.

ومضى أبو عبيدة، ومعه عمرو بن معدي كرب، وقيس بن مكشوح، وأولئك الصحابة إلى مدينة حماة، قال البلاذري: «فتلقاه أهل حماة مذعنين، فصالحهم على الجزية في رؤوسهم والخراج في أرضهم، فمضى نحو (شيزر)» فرضوا بمثل ما رَضَى به أهل حماه، ثم أتى معرة حمص ـ وهي مَعَرّة النعمان بن بشير الأنصاري ـ ثم أتى (فامية) فصالحهم على مثل صلح حماة، واستتم أمر حمص، فكانت حمص وقنسرين شيئاً واحداً.

وقد أتى أبو عبيدة والذين معه قنسرين فقاتله أهل قنسرين، ثم لجاؤوا إلى حصنهم وطلبوا الصلح، فصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح حمص.. ثم سار أبو عبيدة يريد حَلَبْ، فبلغه أن أهل قنسرين قد نقضوا وغدروا، فَوَجّه إليهم السّمط بن الأسود الكندي فحصرهم ثم فتحها ـ وكان حاضر قنسرين لتنوخ مُذ أول ما تنخوا بالشام، نزلوه وهُمْ في خيم الشّعر، ثم ابتنوا به المنازل. فدعاهم أبو عبيدة ـ أو السّمط الكندي ـ إلى الإسلام، فأسلم بعضهم، وأقام على النصرانية بنو سُليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير.. وافتتح السمط مدينة قنسرين. وكان حاضر طيئ قديماً، فأسلم بعضهم، وصَالَح كثير منهم على الجزية، ثم أسلموا بعد ذلك بيسير.. وقد تولى حمص وقنسرين عبادة بن الصامت الأنصاري، ولاهُ الخليفة عمر بن الخطاب.

* * *

ومضى أبو عبيدة من مناطق قنسرين إلى حَلَبْ، ومعه عمرو بن معدي كرب، وقيس بن مكشوح، وعياض بن غَنْم الأشعري، وغيرهم من الصحابة والقادة الذين كانوا في ذلك الجيش. قال البلاذري: «وكان بقرب مدينة حَلَب حاضرُ تدعى حاضر حلب، يجمع أصنافاً من العرب مِنْ تَنُوخ وغيرهم، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية، ثم أسلموا بعد ذلك.

ورحل أبو عبيدة إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غَنْم، فوجد أهلها قد تحصنوا فنزل عليها، وحاصرها..» وقد امتنعت قلعة مدينة حَلَبْ، فأسند أبو عبيدة محاصرتها إلى خمسة من القادة، ذكر الواقدي إن منهم قيس بن مكشوح المرادي، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وسار أبو عبيدة إلى نواحي حلب المجاورة، وما لبث أن طلب أهل حلب الصلح والأمان، فتم مصالحتهم، وأتى أبو عبيدة فأنفذ الصلح. وجاء في كتاب الجامع أن «عباد بن عارم النَّخَعي قائد إحدى الفِرق اليمنية فاتحة مدينة حَلَبْ. وكعب بن ضُمْرة الغَسّاني قائد إحدى الفِرق اليمنية

فاتحة مدينة حلب. وأن السّمط بن عمرو الكندي هو فاتح مدينة حَلَبْ»[١] وهو السّمط بن الأسود الكندي.

وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية ـ وكانت أنطاكية مقر هرقل ملك الروم عندما يكون في الشام ـ قال الواقدي: «لما سار المسلمون بأرض أنطاكية.. جعل أبو عبيدة على مقدمة الجيش سعيد بن زيد ومعه ثلاثة آلاف، ثم سَيّر وراءه رافع بن عميرة الطائي ومعه ألف فارس، وسار وراءه ميسرة بن مسروق العَبَسي في ثلاثة آلاف، وسار وراءه خالد بن الوليد في عسكر الزحف، وسار ورأهم أبو عبيدة في بقية الجيش ومعه عمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وذو الكلاع الحميري، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وأبان بن عثمان بن عفان، وأمثالهم». [ص١٩١ ـ فتوح الشام].

فكان عمرو بن معدي كرب من الصحابة القادة الذين افتتحوا أنطاكية مع أبي عبيدة بن الجراح، فشهد عمرو فتح أنطاكية ونواحيها حتى منتهى أرض الشام حيث تمتد أنطاكية إلى تخوم وثغور الشام التي تتاخم أرض الروم ـ وهي تركيا حالياً ـ وبافتتاح أنطاكية ونواحيها إلى تخوم أرض الروم ـ في تركيا ـ اكتملت فتوح الشام التي كان لعمرو بن معدي كرب كل ذلك الإسهام الوافر في افتتاحها وفي نشر الإسلام في ربوعها منذ أوائل سنة ١٣هـ إلى أواخر سنة ١٦هـ.

ملاحم وبطولات عمرو بن معدي كرب في موقعة القادسية بالعراق

في أواسط سنة ١٤ هجرية كان الخليفة عمر بن الخطاب قد استنفر رؤوساء وأهل اليمن وبقية جزيرة العرب لجهاد الفُرس الذين جمعوا جيشاً كبيراً لقتال المسلمين بالعراق الذين كانوا قد افتتحوا الحيرة بقيادة جرير بن عبد الله البَجَلي، فأخذ عمر بن الخطاب في توجيه المستنفرين الذين يَصِلون إلى المدينة المنورة من اليمن وغيرها إلى العراق، ثم أسند عمر القيادة العامة إلى سعد بن أبي وقاص، وكان سعد عاملاً على صدقات هوازن، فدعاه عمر إلى المدينة وولاه على المسلمين بالعراق، قال الطبري: «فخرج سعد من المدينة في أربعة آلاف. ثلاثة آلاف مِمَنْ قَدَم على عمر من أهل اليمن، وألفُ من سائر الناس، ـ فنزل سعد في شراف، ثم ارتحل حتى نزل بالعذيب ـ»[٢] وكان جموع المُستنفرين يتدفقون من اليمن إلى المدينة، ويقوم عمر بتوجيههم إلى العراق، وعند ذلك قَدِمَ عمرو بن

(١) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ص٦٠٤.
(٢) تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص٨٧.

معدي كرب في فرسان بني زُبيد إلى عمر بن الخطاب بالمدينة، ولكن قدومه لم يكن من اليمن، وإنما كان من الشام لأنه شَهد فتح دمشق ـ في رجب ١٤هـ ـ وشَهَد مصالحة أهل حمص وقنسرين ـ في شوال وذي القعدة ١٤هـ ـ فيكون قدومه مِنْ الشام إلى عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة في ذي القعدة سنة ١٤هـ.

والتقى عمرو بن معدي كرب بعمر بن الخطاب وهو أول لقاء بينهما منذ أصبح عمر خليفة للمسلمين، وقد تقدم قول المدائني: «إن عمر بن الخطاب كان إذا نظر إلى عمرو بن معدي كرب قال: الحمد لله الذي خَلقَنا وخَلَقَ عمراً، تعجباً من عظم خَلْقه». وقد وصل آنذاك إلى المدينة من فرسان وعشائر مذحج باليمن ثمانمائة مجاهد وكان مع عمرو بن معدي كرب خمسمائة من فرسان بني زبيد ومُنَبّه، فَبَلَغ المذحجيون ألف وثلثمائة. قال الطبري: «كان في المستنفرين ستمائة من حضرموت والصَّدف عليهم شَدّاد بن ضَمْعَج، وألف وثلثمائة من مذحج على ثلاثة رؤساء، عمرو بن معدي كرب عَلَى بني مُنَبّه، وأبو سُبرة بن ذؤيب على جُعْفَى، ويزيد بن الحارث الصُّدائي على صُدا وجَنْب ومسلية في ثلثمائة. هؤلاء شهدوا مِن مذحج فيمن خرج مِنْ المدينة مخرج سعد»[1] وكان خروجهم ومسيرهم من المدينة إلى العراق في أعقاب مسير سعد والذين معه ونزولهم في العذيب، وكان ممن سار من المدينة وقت مسير عمرو بن معدي كرب وطُليحة بن خويلد الأسدي في جماعة من بني أسد. قال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«أخرج الطبراني ـ إنه ـ كتب عمر بن الخطاب إلى سعد: إني أمددتك بالفيّ رجل، عمرو بن معدي كرب، وطليحة بن خويلد»[2]. وتُضيف إحدى الروايات «فلا تولهما شيئاً، فكلُ صانع أعلم بُصُنعته» بينما في العديد من الروايات «فأحضرهما، وشاورهما الحرب». فإذا صح أن عمر بن الخطاب قال: (فلا تولهما شيئاً. .) فالمقصود أنهما رجال حرب وقتال، وليسا ممن يتولى الإمارة، لذلك قال عمر: «فاحضرهما، وشاورهما الحرب».

وقد وصل عمرو بن معدي كرب والذين معه إلى سعد والذين معه بمنطقة العذيب بالقادسية ـ في أواخر ذي القعدة، أو في أوائل ذي الحجة ١٤هـ ـ قال الطبري: «وقَدِم الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن. . ومعاوية بن

(١) تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص٨٧.
(٢) الإصابة ـ جـ٣ ص١٩.

حُديج في أربعمائة من السكون. .»[١] وذلك «وصل قيس بن مكشوح من الشام في سبعمائة»[٢] وارتفع عدد المسلمين إلى بضعة وثلاثين ألفاً[١] قال البلاذري: «وكان المسلمون مُعسكرين بين العذيب والقادسية»[٢].

* * *

وقد تَقَدَم في أنباء عمرو بن معدي كرب في الجاهلية إنه سار مع الأشعث بن قيسُ الكندي وأربعة من رؤساء ربيعة وتميم إلى كسرى أبرويز هرمز في عاصمته المدائن لما بعث إليهم النعمان بن المنذر ملك الحِيرة بالقدوم للقاء كسرى بصفتهم أبرز رؤساء وفرسان العرب في ذلك الزمن، فالتقوا بكسرى أبرويز بن هرمز ـ وذلك ما بين عام ٦٠٠ وعام٦١٠ للميلاد ـ وكان مما قاله عمرو بن معدي كرب لكسرى يومذاك: «فاجتذب طاعتنا بلفظك، واكتظم بادرتنا بحلْمك، وألِنْ كنفَك يسلُس لك قيادنا» وكان نبأ ذلك المسير القديم لعمرو والأشعث والذين معهم إلى كسرى معروفاً في الذاكرة العربية، وبعد زهاء أربعة وعشرين سنة كان عمرو بن معدي كرب والأشعث بن قيس من الصحابة القادة في الجيش العربي الإسلامي بالقادسية، فسارا إلى رستم وإلى كسرى يزجرد ملك الفرس ـ في ذي الحجة ١٤هـ (٦٣٤ ميلادية) ـ يدعوانه إلى الإسلام، أو الجزية أو الحرب.

قال البلاذري في فتوح البلدان: «كتب عمر بن الخطاب إلى سعد يأمره بأن يبعثَ إلى عظيم الفرس قوماً يدعونه إلى الإسلام. فَوَجّه عمرو بن معدي كرب الزُبيدي، والأشعث بن قيس الكندي في جماعة، فَمَرُّوا برستم، فأُتِيَ بهم إليه، فقال: أين تريدون؟ قالوا: ملككم. فجرى بينهم كلام كثير حتى قالوا: إن نبينا قد وعدنا أن نغلب على أرضكم، فدعا بزبِّيل مِنْ تراب، فقال: هذا لكم من أرضنا، فقام عمرو بن معدي كرب مبادراً فبسط رداءه وأخذ من ذلك التراب فيه، وانصرف، فقيل له: ما دَعَاك إلى ما صنعت؟ قال: تفاءلتُ بأن أرضهم تصير إلينا وتَغَلِبُ عليها. ثم أتوا الملك ـ [وهو كسرى يزدجرد في مقرة بالمدائن] ـ ودعوة إلى الإسلام، فغضب، وأمرهم بالإنصراف، وقال: لولا أنكم رسلُ لقتلتكم. وكتب إلى رستم يعنفه على إنفاذهم إليه»[٢].

ورجع عمرو بن معدي كرب والأشعث بن قيس والذين معهما إلى سعد ابن

---

(١) تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص٨٧.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٦ و٢٥٨.

أبي وقاص في قصر العذيب، فأخبراه بكلامهما مع رستم ويزدجرد، واستبشر المسلمون بالتراب الذي أحضره عمرو بن معدي كرب وبقوله: تفاءلت بأن أرضهم تصير إلينا وتَغْلِبُ عليها. وفي أعقاب ذلك اندلعت ـ في محرم سنة ١٥هـ ـ حرب القادسية، وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر البلاذري ـ «أن علافة المسلمين وعليها زهرة بن حوية، لقيت خيلاً للأعاجم، فكان ذلك سبب الوقعة، أغاثت الأعاجم خيلها، وأغاث المسلمون علافتهم، فالتحمت الحرب بينهم وذلك بعد الظهر، وحمل عمرو بن معدي كرب فاعتنق عظيماً من الفُرس فوضعه بين يديه في السرج، وقال: أنا أبو ثور، أفعلوا كذا»[١].

* * *

وقد اندلعت حرب القادسية بعد ظهر ذلك اليوم، ويُقال له (يوم أرماث)، وكان سعد بن أبي وقاص مريضاً في قصر العذيب، قال الطبري: «كان بسعد عرق النساء ودماميل، واستخلف خالد بن عُرْفَطَة على الناس، وكتب سعد إلى أهل الرايات: إني قد استخلفتُ عليكم خالد بن عُرْفطة وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي، فاسمعوا له وأطيعوا. . وقرئ كتابه على الناس، فأجمعوا على عذر سعد». وكذلك قال البلاذري: «استخلف سعد على العسكر والناس خالد بن عُرفُطة العذري» ـ وهو خالد بن عُرفطة العذري القضاعي الحميري ـ (وأمرهم أن لا يحملوا حتى يسمعوا التكبيرة الرابعة)، قال الطبري: «وبينا الناس ينتظرون التكبيرة الرابعة، إذْ قام صاحب رجالة بني نهد، قيس بن حِذْيم بن جرثومة النهدي، فقال: يا بني نَهْد، انهدوا، إنما سُميتم نَهْداً لتفعلوا. فبعث إليه خالد بن عُرفْطة: والله لتكُفَنّ أو لأُولّينّ عليهم غيرك. فَكَفّ. ولما تطاردت الخيل والفرسان، خرج رجلٌ من القوم ـ الفُرس ـ ينادي مَرْدومَرد، فانتدب له عمرو بن معدي كرب، وهو بحياله، فبارزه فاعتنقه ثم جلد به الأرض فذبحه، ثم التفت إلى المسلمين فقال: أن الفارسي إذا فَقَد قوسه فإنما هو تيس». وذكر الطبري عن قيس بن أبي حازم قال: «مَرّ بنا عمرو بن معدي كرب وهو يُحضض الناس بين الصفين، وهو يقول: أن الرجل من هذه الأعاجم إذا ألقى مِزْراقه فإنما هو تيس، فبينا هو كذلك يحرضنا، إذْ خرج إليه رجل مِنْ الأعاجم فوقف بين الصفّين فرمى بنُشّابة فما أخطأت سِية قوْسه وهو مُتنكّبِها، فالتفت إليه، فحمل عليه، فاعتنقه ثم أخذ بمِنْطَقته فاحتمله فوضعه بين يديه فجاء به حتى إذا دنا منّا كسر عنقه ثم وضع

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٦ و٢٥٨.

سيفه على حلقه فذبحه، ثم ألقاه، ثم قال: هكذا فاصنعوا بهم. فقلنا: يا أبا ثَوْر من يستطيع أن يصنع كما تصنع». [ص١١٧/ ٤].

وقال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «أخرج أبو بكر بن أبي شيبة وابن عائذ وابن السكن والطبراني وغيرهم بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم قال: شهدتُ القادسية، فجعل عمرو بن معدي كرب يَمُرُّ على الصفوف ويقول: كونوا أُسوداً أشداء فإن الفارسي إذا ألقى رمحه يئس. فرماه أسوار من الأساورة بنشابة، فأصاب سِيّة قَوْسه، فحمل عليه عمرو فطعنه فَدَقّ صلبه.. وأخرجه ابن عساكر من وجه آخر أطول من هذا، وفي آخره: إذْ جاءته نشابة فأصابتْ قربوس سرجه، فحمل على صاحبها، فأخذه كما تؤخذ الجارية فوضعه بين الصفين ثم احتَزّ رأسه، وقال: اصنعوا هكذا». [ص١٩ جـ٣]. ويبدو من ذلك أن عمرو بن معدي كرب رَمَىٰ سِيَة قَوْسه رجل من الأعاجم، فحمل عليه عمرو، فقضى عليه، ثم رماه أسوار من الأساورة بنشابة، فأصابت قربوس سرجه، فحمل عليه عمرو، فأخذه كما تؤخذ الجارية، فوضعه بين الصفين، ثم احتز رأسه. وقال: أنا أبو ثور، اصنعوا بهم هكذا. فقالوا: يا أبا ثور مَنْ يستطيع أن يصنع كما تصنع. وكانت ملحمة عمرو تلك هي الواقعة الرئيسية التي حفظها التاريخ عن ذلك اليوم، فقد تقاتل الفريقان حتى غياب شمس ذلك اليوم، ثم انفصلوا، وعاد كل منهم إلى معسكره، ولا حديث للجميع إلا ما فعله عمرو في ذلك اليوم، وهو يوم أرماث، وقال ابن خلدون «اليوم الأول: يوم الرماة».

* * *

وكان الفريقان أكثر تعبئة وتجهيزاً للقتال في اليوم الثاني وهو «يوم أغواث» وذلك لأن المعركة اندلعت بعد ظهر اليوم الأولى بصورة مفاجئة، بينما في اليوم الثاني كان الفريقان في غاية التعبئة والجاهزية، وقد دمجت بعض الروايات وقائع وأنباء اليوم الثاني في اليوم الأول ـ كما في رواية سيف التميمي بتاريخ الطبري ـ وإنه قام الصحابة الأمراء في الناس يحرضونهم «فقال قيس بن هبيرة: أيها الناس، احمدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم يَزِدْكُم، واذكروا آلاء الله وارغبوا إليه في عاداته فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم، وليس وراء هذا القصر إلا العراء والأرض القَفْر والضراب الخُشْن والفلوات». وقد توهم سيف التميمي أن قيس بن هبيرة غير قيس بن مكشوح وهو نفسه قيس بن مكشوح المرادي، وقد ذكر الطبري إنه «قام قيس بن مكشوح فيمن يليه فقال لهم: يا معشر العرب، إنّ الله قد مَنّ عليكم بالإسلام وأكرمكم بمحمد عليه الصلاة والسلام، فأصبحتم بنعمته إخواناً، دعوتكم

واحدة وأمركم واحد. . فانصروا الله ينصُركم، وتنجزوا مِن الله فتح فارس فإن إخوانكم من أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام وانتثال القصور الحمر والحصون الحُمر». [ص١٢٧/ ٤] وقد تجاهلت رواية سيف التميمي حقيقة هامة ذكرها الحافظ بن كثير قائلاً: «كانت وقعة القادسية وقعة عظيمة لم يكن بالعراق أعجب منها، وكان سعد بن أبي وقاص قد أصابه عرق النساء ودمامل في جسده، فهو لا يستطيع الركوب، وإنما هو في قصر متكئ على صدره فوق وسادة وهو ينظر إلى الجيش ويدبر أمره، وقد جعل أمر الحرب إلى خالد بن عُرفطة، وجعل على الميمنة جرير بن عبد الله البجلي، وعلى الميسرة قيس بن مكشوح المرادي»[١] فمنذ صباح اليوم التالي ـ يوم أغواث ـ كان قيس قائد ميسرة المسلمين، وجرير قائد الميمنة، ويتبين من ذلك سبب توجيه الفرس غالبية أفيالهم إلى الجانب الذي فيه جرير وبَجيله. فقد ذكر ابن كثير عن محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم البجلي قال: كان معنا رجل من ثقيف فلحق بالفرس مُرتداً، فأخبرهم أن بأس المسلمين في الجانب الذي فيه بَجيله، وكنا ربع الناس، فوجهوا إلينا ستة عشر فيلاً. .[١] وكذلك ذكر الطبري بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم قال: «. . أخبرهم ـ الثقفي ـ أن بأس المسلمين في الجانب الذي فيه بَجيله، وكُنّا رُبع الناس، فوجهوا إلينا ستة عشر فيلاً، وإلى سائر الناس فيلين، وجعلوا يلقون تحت أرجُل خيولنا حَسك الحديد، ويرشقوننا بالنُّشّاب فكأنه المطر علينا، وقرنوا خيلهم بعضهما إلى بعض لئلا يفروا. وكان عمرو بن معدي كرب يمرّ بنّا فيقول: كونوا أُسوداً فإنما الأسد من أغنَىٰ شأنه، فإنما الفارسي تيسٌ إذا ألقى نَيْزكَهُ. وكان إسوار منهم لا يكاد تسقط له نُشّابه، فقلنا له: يا أبا ثور، نُقْ ذلك الفارسي فإنه لا تقع له نُشّابه، فتوجّه إليه ورماه الفارسي بنشّابه، وحمل عليه عمرو فاعتنقه فذبحه، واستلبه سوارَيْن من ذهب، ومِنطقة من ذهب، ويَلْمقاً من ديباج». [ص١٤٠/ ٤].

قد ذكر ابن خلدون عن رواية سيف التميمي في خير يوم أرماث أن الفُرس «حملوا بالفيّلة على المسلمين وأمالوها على بَجِيلة، فثقلت عليهم، فأرسل سعد إلى بني أسد أن يدفعوا عنهم، فجاءه طليحة بن خويلد، وحمل بن مالك، فرّدوا الغيّلة. فعيّر الأشعث بن قيس كندة بما يفعله بنو أسد، فاستشاطوا ونهدوا معه، فازلوا الذين بإزائهم». وقالوا الطبري: «فَنَهد الأشعث بن قيس ونَهَدت كندة معه،

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٤٣ و٤٥.

فأزالوا الذين بإزائهم. . فاجتمعت حَلْبة فارس ومعهم تلك الفيلة، فزحف إليهم المسلمون، ورحَى الحرب تدور. . وحملت الأفيال على الميمنة والميسرة على الخيول، فكانت الخيول تحجم عنها وتَحيد. .» وقد تجاهلت رواية سيف التميمي التي ذكرها الطبري هنا حقيقة يكتمل بها النبأ اليقين عن ذلك اليوم، وقد ذكرها البلاذري في فتوح البلدان قائلاً: «ثم حَطَم عمرو بن معدي كرب فيلاً مِنْ الفيلة» [ص٢٥٨ ـ فتوح البلدان].

والمقصود بأنه حَطَمَ فيلاً مِنْ الفيلة، هو تحطيم وكَسْر نوابتها أو توابيتها، وهي الصناديق التي فوق ظهر الأفيال والتي فوقها القادة والرماة الفُرس، فكان عمرو بن معدي كرب هو أول من حَطَم نوابة أو صندوق فيل من الفيلة، فقطع وُضُنها، فسقط الصندوق بِمَنْ فيه، ونادى عمرو المسلمين أن يصنعوا كما يصنع، فانْطَلَقُوا إلى الفيلة (فأخذوا بأذنابها وذباذب توابيتّها فقطعوا وُضُنها، فما بقي يومئذٍ فيل إلا أُعرِي، وقُتِل أصحابها، وتقابل الناس، وردوا فارساً عنهم إلى مواقفهم، واقتتلوا حتى ذهبت هدأة الليل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء). . وقد استشهد من المسلمين ألفان بين رثيث وميت، وقُتِل من المشركين عشرة آلاف من رثيث وميت. وأقبل المسلمون على قتلاهم فحملوهم من وراء ظهورهم، وأقبل الذين يجمعون القتلى يحملونهم إلى المقابر، ويبلغون الرثيث ـ أي الجريح ـ إلى النساء، وكان النساء والصبيان يحفرون القبور للشهداء في اليومين يوم أغواث ويوم أرماث بُعدْوتَيّ مُشرِّق، فَدُفِن ألفان وخمسمائة من أهل القادسية في موضع نخله بين القادسية والعذيب. ويشمل ذلك كافة شهداء القادسية.

* * *

ثم التقى الجيشان في اليوم الثالث، ويُقال له يوم عُماس. قال ابن خلدون: «ثم أصبحوا في اليوم الثالث. . وقد أصبح الفُرس على مواقفهم وأعادوا الصناديق على الفيلة، وأحدقوا الرجال بها يحمونها أن تُقَطَّع وُضُنَها. . فتزاحفت الكتائبُ طعناً وضرباً. . وكان هذا اليوم يوم عُماس شديداً. . وأبلى فيه قيس بن مكشوح وعمرو بن معدي كرب»[١].

وذكر ابن حجر العسقلاني عن ذلك اليوم أنه: «حمل عمرو بن معدي كرب وحدة، فضرب فيهم، ثم لحقه المسلمون وقد أحدقوا به، وهو يضرب فيهم بسيفه، فَنَحَوهم عنه». [ص٢٩/ ٣ ـ الإصابة].

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ٢٩٨.

وقد ذكر الطبري عن طريق الإمام الشعبي نبأ ملحمة عمرو بن معدي كرب في يوم عُماس قال: «قال عمرو بن معدي كرب: إنّي حَامِلٌ على الفيل ومَنْ حول الفيل بإزائهم، فلا تدعوني أكثر من جزر جَزور، فإن تأخرتم عني فَقَدْتُم أبا ثور، فإنَى لكم مثل أبي ثور، فإنْ أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف. فحمل عمرو إنْثَنَى حتى ضرب فيهم، وسَتَرة الغبار. فقال أصحابه: ما تنتظرون، ما أنتم بخلقاء أن تُدركوه، وإنْ فقد تموه فَقَد المسلمون فارسهم. فحملوا حملة، فأفرج المشركون عنه بعد ما صرعوا وطعنوا فرسه، وإن سيفه لفي يده يُضاربهم. فلما رأى أصحابه وانفرج عنه أهل فارس، أخذ عمرو برجل فرسِ رَجُلٍ من أهل فارس، فحركه الفارسيُّ فاضطرب الفرس، فالتفت الفارسي إلى عمرو، فَهَمّ به، وأبصره المسلمون فَغَشُوه، فنزل عنه الفارسي وهرب إلى أصحابه، فقال عمرو: أمْكِنوني مِنْ لِجامه، فأمكنوه منه، فركبه». [ص١٢٧/ ٤].

ثم حمل عمرو على كتيبة ـ أو مجموعة ـ من الفُرس، عليهم دروعُ لا ينفذ فيها السلاح، ومعهم فيل، فحمل عليهم عمرو، فقتل أول واحد منهم، وأخذ يضرب فيهم، وهو يقول:

أنا أبو ثورٍ وسيفي ذا النون أضْرِبُهم ضَرب غلام مجنون

يا لِزُبَيدٍ، إنهم يموتون

فاندفع فرسان زبيد وراء عمرو، يضربون القوم، فأزالوهم.

وقد كانت حملة عمرو في ذلك اليوم من أولها تستهدف الفيل، وقد تقدم نص الطبري عن الإمام الشعبي أن عمرو بن معدي كرب قال: «إني حامل على الفيل، ومَنْ حول الفيل بإزائهم». وقد ذكر الواقدي أنه «كان أمام الفيلة، فيلٌ إذا سار سارت وإذا وقف وقفت وأينما توجه كانت وراءه»[(١)]. ويتبين من ربط وقائع يوم عُماس أن ذلك هو الفيل الذي تَقَحَمْ عمرو المخاطر للوصول إليه، ولما أزال عمرو القوة التي بإزاء الفيل من الفرسان ـ وكان مع عمرو الذين معه من فرسان قومه ـ تقدم عمرو إلى ذلك الفيل القائد وأخذ يضرب خرطومه بالسيف ضربات عنيفة بكل ما أؤتي مِنْ قُوة. وقد جمع البلاذري بين واقعة قيام عمرو بقطع صندوق فيل من الأفيال في اليوم الأول وبين هذا الفيل الذي ضربه عمرو في اليوم الثالث وهو يوم عُماس، وهو ما يتبين بوضوح من نَصْ البلاذري في فتوح البلدان حيث قال البلاذري: «ثم حطمَ عمرو فيلاً من الفيلة،

---

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله الواقدي جـ٢ ص١١٧.

وقال: ألْزموا سيوفكم خراطيمها، فإن مقتل الفيل خرطومه». [ص٢٥٨].

وقد أدت ضربات عمرو إلى إصابة الفيل بإصابات بالغة في خرطومه وفي عينه، وولّى الفيل المصاب باتجاه معسكر الفرس في العتيق وخلفه الأفيال جميعها لا يردها شيء. وقد ذكر الطبري رواية عن سيف بن عمر التميمي، زعم فيها أن سعد بن أبي وقاص وَجَهَ القعقاع بن عمرو التميمي وعاصم بن عمرو التميمي إلى الفيل الذي كان يسير وراءه الأفيال، فضرب القعقاع التميمي والذين معه الفيل في مشافرة وعينه، وكان بجانبه فيل آخر فضرب عاصم التميمي عينه وقطع مشارفه، وبذلك جعل سيف التميمي الفيل الواحد فيلين. ثم عاد إلى القول بأنه فيل واحد «حمل عليه القعقاع وأخوه ففقأ عينيه وقطعا مشفريّه.. ثم ولّى الفيل الذي عُور فوثب في العتيق فاتبعته الفيلة، فخرقت صف الأعاجم فعبرت العتيق في أثره، فأتت المدائن في توابيتها وهَلَكَ مَنْ فيها» [ص١٢٨ جـ٤] ولكن رواية سيف التميمي تفتقر إلى الصحة فلا علاقة للقعقاع التميمي وعاصم التميمي بالفيل ولا بغير الفيل، ولم يبعثهما سعد بن أبي وقاص، فقد ذكر الواقدي نبأ الفيل قائلاً: «كان إمام الفيلة فيل عظيم، وكان إذا سار سارت، وإذا وقف وقفت، وأينما تَوَجه كانت وراءه، فلما حملت الكتائب واضطربت المواكب، وقتلت الفيلة من عسكر المسلمين، ولم تثبت لها خيل المسلمين، ـ قال القعقاع لسعد: أيها الأمير تقدمت الأعداء والفيلة أمامهم ولا مقام لخيل العرب عند رؤيتها ـ فرفع سعد بن أبي وقاص كَفْيّه مبتهلاً بالدعاء لرب الأرض والسماء. قال زهرة بن جويرية: فوالله لقد رأيت سعداً يدعو وعيني مع الفيلة، وإذا بالفيل الأعور قد ولي يرد المدائن، والفيلة بأجمعها ورائه، والرجال لا يقدرون على ردها، وهي سائرة على وجوهها، وكَفَىٰ الله المؤمنين القتال مع الفيلة»(١) وبما أن الدعاء وحده ليس كافياً، يمكن إدراك أن سعد بن أبي وقاص كان يدعو الله في الوقت الذي فيه كان عمرو بن معدي كرب يضرب الفيل في خرطومه وعينه، ويقول للذين معه «الزموا سيوفكم خرطومه، فإن مقتل الفيل خرطومه» ثم ولّى الفيل المُصاب، فوثب إلى العتيق، فاتبعته الفيلة، فخرقت صف الأعاجم، فعبرت العتيق في أثره، والرجال لا يقدرون على ردها، وهي سائرة على وجهها، وهَلَكْ من كان عليها.

والعتيق الذي إلى ما يليه مضت الأفيال هو آخر معسكر الجيش الفارسي، إذْ إنه (كان صف المسلمين على حائط قُديس، والخندق مِنْ ورائهم، فكان المسلمون

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله الواقدي جـ٢ ص١١٧.

والفُرس بين الخندق والعتيق، وكان صف الفُرس على شفير العتيق). وقد اقترنت الكتائب طعناً وضرباً.. وكان فيهم قيس بن مكشوح المرادي، فلما خالط القلب كَبَّر، وكَبَّر المسلمون معه، ثم كَبَّر فخرق الصفوف إلى العتيق، وعاد» قال ابن خلدون: «وكان هذا اليوم يوم عماس، وكان شديداً، إلا أن الطائفتين فيه سواء. وأَبلَىٰ فيه قيس بن مكشوح وعمرو بن معدي كرب»[1].

وغني عن البيان أن خروج الأفيال من ميدان الحرب في ذلك اليوم، كان يُمثل تطوراً هاماً لصالح المسلمين، فقد كان عدد الأفيال التي مع الفُرس ثلاثون فيلاً، فلم يبق منها سوى فيلٌ واحد هو فيل الأمير رستم قائد الفرس، بينما مضت بقية الفيلة وراء الفيل الذي مَزَّقَ عمرو بن معدي كرب خرطومه وفقأ عَيْنَهُ، فسارت على وجهها، باتجاه المدائن، وبذلك فَقَدَ الجيشُ الفارسي في آخر يوم عُماس سلاحاً خطيراً ومؤثراً، هو سلاح الأفيال.

* * *

وبعد انتهاء القتال وانفصال الجيشان مساء يوم عُماس، اندلعت في حوالي منتصف الليل معركة داخل قلب معسكر الجيش الفارسي، وهي معركة ليلة الهرير التي أشعلها عمرو بن معدي كرب.

وفي ذلك قال ابن خلدون: «أرسل سعد بن أبي وقاص طليحة بن خويلد وعمرو بن معدي كرب إلى مخاضة أسفل العسكر، يقومون عليها خشية أن يؤتي المسلمون منها». وتضيف إحدى روايات حتى يأتيكما أمري.

وجاء في مستهل رواية ثانية بتاريخ الطبري أنه «قال سعد لقيس بن هبيرة - وهو قيس ابن مكشوح - أخرج حتى تأتيني بعلم القوم، فخرج قيس وسَرَّح عمرو بن معدي كرب وطليحة..». بينما جاء في رواية ثالثة أن سعداً «أرسل عمراً وطليحة، ثم بعث قيساً في آثارهما، وقال له: إن لقيت قتالاً فأنت عليهم». وتتيح الروايتان إدراك أن الطرف الرئيسي في مسير عمرو وطليحة كان قيس بن مكشوح، وقد تقدم ما ذكره الحافظ ابن كثير بأن قيس بن مكشوح كان قائد ميسرة الجيش الإسلامي بالقادسية، فيمكن أن يكون هو الذي قام بتوجيهها إلى المخاضة الواقعة أسفل معسكر المسلمين، وذلك فيما يلي المعسكر، وكان مع عمرو مائة من الفرسان ومع طليحة مائة.

قال الطبري: «فلما انتهيا إلى المخاضة، لم يريا فيها أحداً - مِنْ الفُرس -

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون - ٢٩٨.

فقال طليحة: لو خُضنا فأتينا الأعاجم من خلفهم، فقال عمرو: لا بَلْ نعبر أسفل، قال طليحة: إن الذي أقوله أنفع للناس، فقال عمرو: إنك تدعوني إلى ما لا أُطيق. فافترقا ـ وتَرَكَ طليحة أصحابه المائة مع عمرو ـ فسار طليحة نحو العسكر من وراء العتيق وحده. وسفل عمرو بأصحابهما جميعاً، فأغار على الأعاجم» وقال ابن خلدون: «أغار عمرو أسفل المخاضة» فتكون الغارة على أول معسكر الفرس، وهو أدنى ـ أو أقرب ـ معسكرهم ـ بمنطقة العتيق ـ إلى المسلمين.

ويبدو أن قيس بن مكشوح كان قد عرف بما ينويه، فقد جاء في رواية تم تقديم زمنها بتاريخ الطبري أن سعداً بعد أن أرسل عمراً وطليحة «بعث قيساً في آثارهما، وقال له: إن لقيت قتالاً فأنت عليهم. فخرج قيس حتى التقى عمراً، فسأله عن طليحة، فقال: لا علم لي به.. وقال له قيس: ما تريد؟ قال: أريد أن أُغير على أدنى عسكرهم. فقال قيس: في هؤلاء؟ قال عمرو: نعم. فقال قيس: والله لا أدك وذاك، أتُعرض المسلمين لما لا يطيقون». ثم جاء في بقية الرواية الحديث بين سعد وعمرو، وإنما هو بين قيس وعمرو، لأن قيس بن مكشوح كان أميراً، فهو الأمير القائل لعمرو: «يا عمرو الخير والسلامة أحبّ إلينا من مصاب مائة بقتل ألف، أتعمد إلى حَلْبة فارس فتُصادمِهم بمائة؟ فقال أن الأمر لَكَمَا قُلتُ».

وفي أعقاب ذلك الحديث ـ غالباً ـ رجع قيس إلى معسكر الجيش الإسلامي، يتهياء لما سيحدث عند منتصف الليل، ويبدو أيضاً أن قيساً أبلغ سعداً بما عقد عمرو بن معدي كرب العزم عليه. ثم في شجاعة وإقدام عمرو ـ الذي بإقدامه يُضرب المثل عبر الأجيال ـ اقتحم عمرو في الفرسان المائتين الذي معه معسكر الجيش الفارسي في العتيق وهُمْ يكبرون، فتقاتلوا مع الذين في موقع الغارة من جيش الفُرس، وكان ذلك عند منتصف الليل، وبلغت أصوات التكبير معسكر الجيش الإسلامي، فانطلق قيس بن مكشوح في فرسان الإسلام لمؤازرة عمرو بن معدي كرب. وقد ذكر الطبري في النص السابق مفارقة طلحة لعمرو ثم قال: «وسَفَل عمرو بأصحابهما جميعاً، فأغار، وثارت بهم الأعاجم، وخشي سعد منهما الذي كان، فبعث قيس بن المكشوح في آثارهما.. فسار قيس نحوهم، فلما كان عند المخاضة، وجد القوم ـ أي الفرس ـ يكردون عمراً وأصحابه، فَنَهْنَه الناس عنه»(١) وقال ابن خلدون: «فأغار عمرو أسفل المخاضة ـ أي أغار على الأعاجم ـ، وزاحفهم الناس دون إذن سعد، وأول من زاحفهم دون إذن سعد، زاحفهم القعقاع

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص١٢٩ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٩٩.

وقومه فحمل عليهم، ثم حمل بنو أسد، ثم النخع، ثم بجيلة، ثم كندة. وسعد يقول في كل واحدة: اللهم اغفر لهم وانصرهم.. ولحق الناس بعضهم بعضاً»[١]
وقال ابن خلدون: «فأغار عمرو أسفل المخاضة ـ أي أغار على الأعاجم ـ، وزاحفهم الناس دون إذن سعد، وأول من زاحفهم دون إذن سعد، زاحفهم القعقاع
وقومه فحمل عليهم، ثم حمل بنو أسد، ثم النخع، ثم بجيلة، ثم كندة. وسعد يقول في كل واحدة: اللهم اغفر لهم وانصرهم.. ولحق الناس بعضهم بعضاً»[١].
وتتيح تلك النصوص إدراك السياق الصحيح لمعركة ليلة الهرير.

لقد بدأت معركة ليلة الهرير بالغارة الاقتحامية لعمرو بن معدي كرب والفرسان المائتين الذين معه، على مقدمة معسكر الجيش الفارسي في العتيق، فدخل عمرو وأصحابه معسكر الفرس وهُمْ يُكبرون، وتقاتلوا مع العدو.

وما لبث أن أقبل قيس بن مكشوح بفرسان وكتائب ميسرة الجيش الإسلامي، وذلك بناء على توجيه سعد بن أبي وقاص، مما يدل على أن قيساً كان يتوقع ما حدث، وكان قد أخبر سعداً، فأصدر سعد ما يلزم من تعليقات الاستنفار فما أن اقتحم عمرو معسكر الفُرس واندلعت المعركة بينه وبينهم، حتى انطلق قيس بن مكشوح، فوصل إلى مكان المعركة، وقد أطبقت كتائب الجيش الفارسي يكردون عمراً وأصحابه، وهو صامد صمود الجبال مع أصحابه، فالتحم قيس بن مكشوح وجيشه مع الفُرس، فأزال الفُرس وجعلهم يتقهقرون، وهو المقصود بعبارة «فنهنه الناس عنه»، مما يدل أيضاً على أن القوة التي مع قيس كانت قوة كبيرة، وقد نقل الطبري رواية عن سيف بن عمر التميمي زعم فيها أن الذين مع قيس كانوا سبعين رجلاً، بينما الصحيح الذي ذكره الحافظ ابن كثير أن قيس بن مكشوح كان قائد ميسرة الجيش الإسلامي بالقادسية وجرير بن عبد الله البجلي قائد الميمنة، وقد ذكر الطبري وابن كثير عن الإمام الشعبي إن الذين مع جرير كانوا ربع المسلمين، ويعني ذلك حوالي تسعة آلاف لأن المسلمين كانوا «بضعة وثلاثين ألفاً» مما يعني أن الذين مع قيس كانوا زهاء تسعة آلاف، أو سبعة آلاف على الأقل. ولما صَدّ قيس جموع الفرس تراجعوا إلى الوراء داخل معسكرهم، وأخذوا يرمون المسلمين بالنبال، وتدفقت كافة فرق وكتائب الجيش الفارسي إلى منطقة المواجهة، وكذلك تدفقت سائر قوات وقبائل الجيش الإسلامي، فأخذوا أماكنهم إلى جانب القوات التي مع قيس بن مكشوح وعمرو بن معدي كرب. وقد نظم الفُرس كتائبهم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص١٢٩ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٩٩.

وصفوفهم ثلاثة عشر صفاً. ونظم المسلمون جيشهم ثلاث فرق، فرقة الخيول ـ وهُم الفرسان ـ وفرقة المُرامية ـ وهُمْ رماة النبال ـ وفرقة الرّجالة.

قال الطبري: «وقام قيس بن مكشوح فيمن يليه فقال: إن عدوكم قد أبىٰ إلا المُزاحفة، والرأي ليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرّجالة، فإن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوُّهم على الخيل لا رجال معهم عقروا بهم ولم يطبقوا أن يُقدموا عليهم، فتَيسَّروا للحملة ـ يعني مرة واحدة ـ وانتظروا التكبيرة.. وكان نُشّاب الأعاجم تجوز صف المسلمين.. وقال الأشعث بن قيس الكندي: يا معشر العرب لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجراء على الموت ولا أسْخَىٰ أنفساً عن الدنيا، ولا تجزعوا مِنْ القَتْل فإنه أماني الكرام ومنايا الشهداء»[١].

وكان الجيشان متواجهان في أول معسكر الفرس بمنطقة العتيق، وتفصلهم مسافة عن منطقة معسكر المسلمين، ووراء معسكر المسلمين منطقة الخندق ووراء الخندق منطقة العذيب التي فيها قصر سعد بن أبي وقاص، لذلك فإن ما ذكره الطبري وابن خلدون عن رواية سيف التميمي بأن سعداً أمر المسلمين أن لا يزحفوا إلا بعد أن يكبّر في قصره بالعذيب، وعصى الناس سعداً فزحفوا قبل سماع تكبيرة سعد، وأول من زحف دون سماع التكبيرة القعقاع التميمي وقومه إلى آخر الرواية، فإنها تتنافى مع المسافة بين قصر سعد في العذيب وبين مكان الجيش في معسكر العتيق، فليس من الممكن سماع تكبيرة سعد من تلك المسافة الشاسعة، ولا يمكن أن يأمرهم سعد بالمستحيل، إلا إذا كان أصل ذلك سماع تكبيرة أمير ميمنة الجيش ومعه أمير ميسرة الجيش، وبالذات أمير الميمنة وهو جرير، أما تكبيرة سعد وأوهام سيف التميمي فهي مستحيلة الوقوع.

لقد انطلق المسلمون فور تنظيم صفوفهم، وحملوا حملة واحدة على الفرس الذين كانوا يرمونهم بالنبال، فالتحمت الفرق الإسلامية الثلاث، مع الفرق الفارسية الثلاثة عشر في معركة ليلة الهرير التي تواصلت من منتصف الليل حتى شروق الصباح. قال الطبري: «اجتلدوا تلك الليلة حتى الصباح لا ينطقون كلامهم الهرير، فَسُميت ليلة الهرير. قال أنس بن حُليس: شهدتُ ليلة الهرير فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون، ورأى العرب والعجم فيها أمراً لم يروا مثله قط، وانقطعت الأصوات والأخبار عن سعد ورستم، وأقبل سعد على الدعاء. حتى إذا كان وجه الصبح، انتهى الناس ـ أي عاد المسلمون ـ فاستدل بذلك على أنهم الأعلون والغلبة لهم»[١].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص١٢٩ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٩٩.

لقد أسفرت معركة ليلة الهرير التي أشعلها وخطط لها عمرو بن معدي كرب عن مقتل ألفين وخمسمائة من العدو وإصابة أضعاف ذلك العدد، وكان لها تأثير في إضعاف معنويات العدو، وارتفاع معنويات المسلمين وثقتهم في القدرة على حسم الحرب وتحقيق النصر، فلم تمض سوى زهاء ساعة واحدة على انتهاء معركة ليلة الهرير، حتى تهيأ المسلمون لخوض المعركة الحاسمة في القادسية.

***

ففي صباح اليوم التالي لليلة الهرير وهو يوم القادسية، تواجه الجيشان لخوض المعركة الحاسمة. قال الطبري: «قام في المسلمين رجال ـ يحضونهم ـ فقام قيس بن مكشوح، والأشعث بن قيس، وعمرو بن معدي كرب، وابن ذي السهمين الخثعمي وابن ذي البُردين الهلالي، فقالوا: لا يكونن هؤلاء أجراء على الموت منكم ولا أسخى أنفساً عن الدنيا، تنافسوها». وقال البلاذري: «قال قيس بن مكشوح: يا قوم إن منايا الكرام القتل، فلا يكونن هؤلاء القلف أولى بالصبر وأسخى نفساً بالموت منكم. ثم قاتل قتالاً شديداً..».

وأما عمرو بن معدي كرب فقال يحث على الثَّبَات:

أثبُتُوا للقوم ضَرْباً ... بسيوفٍ حِمْيَريه
واخطُبُوا الحُوَر إلى الله ... بضرب الفارسيه

وانطلق عمرو يخوض غمار المعركة ببسالة منقطعة النظير، وفي ذلك قال نياز بن مكرم الأسلمي ـ وهو من شهد القادسية ـ «اشتد القتال بيننا وبين الفرس، ورأيت عمرو بن معدي كرب يفعل يومئذ بالعدو أفاعيل، يقاتل فارساً، ثم يقتحم عن فرسه ويربط مقوده في حقوة فيُقاتل»(١).

وذكر الأصفهاني عن أبي عبيدة أن عمرو بن معدي كرب «كانت فرسه ضعيفة، فطلب غيرها، فأُتِيّ بفرس فأخذ بعكوة ذنبه وأجلد به إلى الأرض، فأقعى الفرس، فَرّده. وأُتيّ بآخر ففعل به مثل ذلك، فتحلحل ولم يقع، فقال: هذا على كل حال أقوى». ثم ذكر أبو عبيدة في بقية الرواية عن أبي زيد عمر بن شبة الواقعة التي تقدم ذكرها عن الطبري بأنها في اليوم السابق وهو يوم عُماس، ومن المُستبعد أن يتكرر ذلك يوم القادسية، فقد ذكر أبو عبيدة أنه «قال عمرو لأصحابه إني حاملُ ـ عليهم ـ فإن أسرعتم بمقدار جزر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي أُقاتِلُ به، وإن أبطأتم وجدتموني قتيلاً بينهم. ثم انغمس فحمل في القوم، فقال بعض بني زُبيد:

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٨.

يا بني زُبيد تدعون صاحبكم والله ما نرى أن تدركوه حياً، فَحَمَلوا، فانتهوا إليه وقد صُرع عن فرسه وقد أخذ بِرِجْلِ فَرْسِ رَجُلٍ مِنْ العجم فأمسكها، وإن الفارس ليضرب الفَرس فما تقدر أن تتحرك فلما غشيناه رمى الأعجمي بنفسه وخلى فرسه، فركبه عمرو، وقال: أنا أبو ثور كُدتُم والله تفقدونني، قالوا: أين فَرَسك؟ قال: رُميّ بنُشّابة فشب فصرعني». قال الأصفهاني: «وروى هذا الخبر أيضاً محمد بن عمر الواقدي عن أبي سبرة عن أبي عيسى الخياط، ورواه علي بن محمد أيضاً عن مُرّة عن أبي إسماعيل الهمذاني عن طلحة بن مصرف فذكر مثل هذا»[١].

فلما أخذ عمرو فرساً قوياً من خيول أصحابه انطلق مُخترقاً الصفوف إلى حيث كان رستم أمير الجيش الفارسي راكباً فوق الفيل الملكي ومعه راية الفُرس العُظمى التي تُدعى درفشكابيان، فضرب عمرو بن معدي كرب عرقوب فيل رستم ضربات قوية بالسيف، فألقى الفيلُ برستم، فهوى رستم إلى شفير العتيق.

وقد يكون من اللازم هنا الإشارة إلى أن الطبري أورد رواية عن سيف بن عمر التميمي نَقَلها أيضاً ابن خلدون، وتزعم رواية سيف التميمي أنه «هَبّت ريحٌ عاصفة فقلبت طيارة رستم عن سريره، فهوت في العتيق، وحمل القعقاع بن عمرو التميمي ومَنْ معه على رستم.. فقتله هلال بن علفة التميمي». بينما الحقيقة غير ذلك فلم تقع في يوم القادسية رياح عاصفة تقلب رستم والفُرس من فوق الفيل والخيول، وروايات سيف التميمي لا يُعتَدُّ بها في حالة وجود أقوال العلماء المؤرخين الثقاة وأسانيدهم الصحيحة القوية التي ذكرت النبأ اليقين. فقد ذكر الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي عن أسامة بن زيد عن أبان بن صالح قال:

«شَدّ عمرو بن معدي كرب على رستم وهو على فيل، فضرب فيلة فجذم عرقوبه، فسقط رستم، وحُمِل على فرس وسقط من تحته خُرجُ فيه أربعون ألف دينار فحازه المسلمون، وسقط رستم بعد ذلك عن فرسه، فقتله» وتؤكد ذلك رواية المدائني وابن إسحاق وهو الموثوق في رواية السيرة النبوية قال المدائني حدّثني علي بن مجاهد عن ابن إسحاق قال:

«لما ضرب عمرو بن معدي كرب الفيل وسقط رستم، سقط على رستم خُرج كان على ظهر الفيل فيه أربعون ألف دينار، فمات رستم مِنْ ذلك، وانهزم المشركون»[١].

ويتبين من ذلك أن عمرو بن معدي كرب هو الريح العاصفة التي أطاحت

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٨.

برستم عندما ضرب عمرو عرقوب الفيل، فسقط رستم وهَوَىٰ إلى شفير العتيق. وأما مقتل رستم فإنه لما هَوى إلى شفير العتيق حمل إليه عمرو بن معدي كرب، وفي ذات الوقت حمل إليه قيس بن مكشوح المرادي، وطليحة بن خويلد، وزهير بن عبد شمس البجلي، وكثير بن شهاب الحارثي، وقرط بن جماح العبدي، وهلال بن علفة التميمي، وكان رستم قد نهض في المكان الذي سقط فيه فركب فوق بغلة، فرماه أحد المسلمين بسهم فأصاب قدمه، وكان قيس بن مكشوح قد وصل إليه فضربه بالسيف فقتله، وفي ذات الوقت أصابه عمرو بن معدي كرب بالرمح فسقط ميتاً، ثم أقبل بقية أولئك الفرسان فطعنوه وهو ميت، ثم أقبل هلال بن علفة فضربه بالسيف. قال البلاذري: «قاتل قيس بن مكشوح قتالاً شديداً، وقتل الله رستم، فَوُجِدَ بَدَنَه مملوءاً ضرباً وطعناً فلم يُعلم مَنْ قتله، وقد كان مشى إليه عمرو بن معدي كرب، وطليحة بن خويلد، وقرط بن جماح العبدي. وقد قيل إن زهير بن عبد شمس البجلي قتله، وقيل أيضاً إن قاتله العوام بن عبد شمس، وقيل إن قاتله هلال بن علفة التميمي»[1]. وقال الحسن الهمداني: «ويقال إن الذي قتل رستم كثير بن شهاب الحارثي، وقيس بن مكشوح أثبت»[2] ويتبين من مجمل ذلك أن الذي قتل رستم هو قيس بن مكشوح ابن أخت عمرو بن معدي كرب. وقد ذكر البلاذري الذين مشوا إلى رستم بالترتيب وأولهم عمرو بن معدي كرب، وقد قال عمرو فيما بعد عن قتل رستم:

قد عَلِمَتْ سلمى وجاراتها ... ما قَطَّر الفارسُ إلا أنا

شَكَكْتُ بالرمح حيازيمه ... والخيلُ تعدو زيماً بيننا

وكان قيس قد ضربه بالسيف ثم أصاب عمرو حيازيمه بالرمح فسقط رستم صريعاً، ثم أقبل الفرسان الستة طليحة وقرط وكثير والعوام وزهير وهلال فطعنوه وهُمْ يظنون أنه لمّا يَمُت. ويتبين من ترتيب البلاذري أن آخرهم هلال بن علفة، وبذلك يزول التعارض ويكتمل النبأ اليقين.

ثم أطاف عمرو وقيس والفرسان الستة بجثمانُ رستم وهُمْ يُكَبِرُون ويقولون بأصوات عالية (الله أكبر، قُتِل رستم)، فأخذ المسلمون ينادون (قُتِل رستم)، وما أن سمع الفُرسُ بمقتل زعيمهم حتى تقهقروا منهزمين، وكان القائد الثاني بعد رستم هو الجالنوس، فوقف عند الردم ـ أو الجسر ـ وناداهم للعبور من العتيق، فاندفعوا

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٥٩.

(٢) شرح الدامغة ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٣٦٩.

ـ مُنسحبين ومنهزمين ـ إلى العبور للرجوع إلى المدائن، ولحق بهم أبطال وفرسان الإسلام وفي طليعتهم عمرو بن معدي كرب، وقيس بن مكشوح قائد ميسرة الجيش الإسلامي. وفي ذلك قال أبو عبيدة البصري عن أبي زيد عمر بن شبة قال: «لما قُتل رستم عَبَر عمرو بن معدي كرب نهر القادسية هو وقيس بن مكشوح المرادي ومالك بن الحرث الأشتر»[١] وقد ذكر ابن خلدون عن رواية سيف التميمي أنه «أمر سعدُ القعقاع وشرحبيل باتباع العدو، وقد كان خرج زهرة بن حيوة قبلها فلحق بالجالنوس..» بينما ذكر البلاذري أن الذي بعثه سعد هو خالد بن عرفطة العذري فيكون القعقاع مِنْ الجنود الذين ساروا مع خالد، وذلك بعد انطلاق ومسير عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح والذين معهم وعبورهم النهر يتتبعون العدو. قال البلاذري: «وبعث سعد خالد بن عرفطة على خيل الطلب، فجعلوا يقتلون من لحقوا حتى انتهوا إلى برس، واجتاز خالد بالصراة فلحق جالينوس فحمل عليه كثير بن شهاب الحارثي فطعنه.. وهرب الفُرس إلى المدائن ولحقوا بيزدجرد»[٢] وبذلك اكتمل الانتصار العربي الإسلامي العظيم في القادسية، وكان عمرو بن معدي كرب هو بطلُ أبطال القادسية، وفارس فرسان العرب والإسلام الذين حققوا ذلك النصر الكبير، ولا يساويه في ذلك من الأبطال الحقيقيين إلا قيس بن مكشوح المرادي، «قال زياد مولى سعد بن أبي وقاص، قال سعد: كان لعمرو بن معدي كرب موطنُ صالحُ يوم القادسية عظيم الغناء شديد النكاية للعدو. فقيل له: فقيس بن مكشوح؟ قال: هذا أبذلُ لنفسه وإن قسياً لشُجاع»[١].

وذكر ابن حجر العسقلاني جهاد وبلاء عمرو في القادسية ثم قال: «ورأيتُ في ديوان عمرو بن معدي كرب رواية أبي عمرو الشيباني من نُسخة فيها خط ابن الفتح بن جني قصيدة يقول فيها:

والقادسية حين زَاحَمَ رُسْتَمُ ... كنّا الكماةُ تهز كالأسطان
وَمَضىٰ ربيعُ بالجنود مُشَرِّقاً ... ينوي الجهاد وطاعة الرحمٰن»[٣]

وهذه القصيدة ذكرها أبو علي القالي في كتاب الأمالي عن الأصمعي، وقد قالها عمرو بعد موقعة نهاوند وأول هذه القصيدة:

لِمَن الديارُ بِرَوْضَة السَّلان ... فالرَّقْمتَيْن فجانب الصَّمّان

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـ جـ١٤ ص٢٨.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٥٩.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ٣/ ص١٩.

لـعِبَـت بـهـا هُـوجُ الـريـاح وبُـدِّلـت بَـعْـدَ الأنـيـس مـكـانِـسَ الـثِّـيـران
فـكـأنَّ مـا أبْـقَـيـن مـن آيـاتـهـا رَقْـمُ يُـنَـمَّـق بـالأكـف يَـمـانِ

وفيها يقول:

والـقـادِسِـيَّـة حَـيْـث زَاحَـمَ رُسْـتَـمُ كُـنَّـا الـحُـمَـاة بِـهـنَّ كـالأشـطـان
الـضـاربـيـن بـكُـلِّ أبْـيَـضَ مِـخْـذَم والـطَّـاعِـنِـيـن مَـجـامـع الأضـغـان
ومَـضَـى ربـيـعُ بـالـجـنـود مُـشَـرِّقـاً يَـنْـوي الـجـهـاد وطـاعـة الـرحـمـن
حتى استباح قُـرى الـسَّـواد وفـارسٍ والـسَّـهْـل والأجـبـال مـن مَـكْـران[1]

* * *

عمرو.. وسعد بن أبي وقاص

لقد كان سعد بن أبي وقاص عظيم التقدير لعمرو بن معدي كرب ولجهاده ودوره الكبير في القادسية، وقال سعد: «كان عمرو بن معدي كرب عظيم الغِناء شديد النكاية للعدو يوم القادسية» وقد تجلى ذلك التقدير في قيامه باختيار عمرو ـ من بين سائر الصحابة والقادة ـ للمسير إلى الخليفة عمر بن الخطاب بنبأ النصر والفتح المبين في القادسية. قال ابن عبد ربه في العقد الفريد: «لما فُتِحت القادسية أبْلَىٰ فيها عمرو بن معدي كرب بلاءً حسناً، فأوفده سعد إلى عمر بن الخطاب وكتب إليه معه بالفتح، وأثْنَىٰ في الكتاب على عمرو»[2] وقد ذكر ذلك أيضاً ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة قائلاً: «لما افتتح سعد العراق، أوفد عمرو بن معدي كرب إلى عمر بن الخطاب وذكر له شجاعته ومؤازرته» [اهـ].

وتدل تلك الحقيقة على عدم صحة الرواية التي ذكرها الأصفهاني في كتاب الأغاني عن الخلاف بين سعد وعمرو بسبب توزيع غنائم القادسية، وإن عمرو بن معدي كرب قال:

إذا قُـتِـلـنـا ولا يـبـكـي لـنـا أحـدُ قـالـت قـريـشُ ألا تـلـك الـمـقـاديـر
نُـعـطَىٰ الـسـويـة مِنْ طعـنٍ لـه نـفـذُ ولا سـويـة إذْ تُـعْـطَـىٰ الـدنـانـيـر

وقد جاء في تلك الرواية أن الخلاف الذي وقع كان بين سعد وبين عمرو بن معدي كرب وبشر بن ربيعة الخثعمي، فوجود اسم بشر الخثعمي يتيح استنتاج أن

---

(١) ربيع هو ربيع بن زياد الحارثي المذحجي وكان من كبار القادة وهو فاتح وأمير إقليم سجستان.

(٢) العقد الفريد ـ لابن عبد ربه الأندلس ـ جـ٢ ص٦٥.

قائل ذلك الشعر قد يكون بشر الخثعمي، فقد اختلف مع سعد اثنان من الأبطال الفرسان اليمانيين بالقادسية، أحدهما بشر بن ربيعة الخثعمي أما الثاني الذي تَوَهَمَتْ رواية الأصفهاني إنه عمرو بن معدي كرب فالصحيح إنه كثير بن شهاب الحارثي المذحجي الذي قتل القائد الفارسي الجالينوس، وقد أعطاهما سعد نصيبهما من الغنائم بالسوية مع سائر الناس، وكان نصيب الفرد حوالي ألف درهم، وفاض شيء من المال فأعطى سعد مِنْ ذلك الفائض لكل مَنْ يحفظ مِنْ القرآن الكريم حوالي ألف درهم فوق نصيبه، فأتى بشر الخثعمي وصاحبه إلى سعد، فقال سعد لصاحب بشر: أتحفظ من القرآن؟ قال: أسلمتُ باليمن وشُغلت عن حِفظ القرآن، فقال سعد: ليس لك في هذا المال نصيب. وكذلك قال لبشر الخثعمي، وكان بشر وصاحبه أسلما باليمن ولَمْ يكونا مِنْ الصحابة، وقد ذكرت ذلك نفس رواية الأصفهاني، وهذا يؤكد أن الذي كان مع بشر ليس عمرو لأن عمرو بن معدي كرب من الصحابة وأقام فترة من الزمنُ مصاحباً رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة وسكن بمنزل سعد بن عبادة وتعلم القرآن وفرائض الإسلام، وقد جاء في رواية أخرى ذكرها الأصفهاني إنه قال: (قرأتُ ما بين دفتيّ المصحف). فكل ذلك يدل على أن الذي كان مع بشر ليس عمرو بن معدي كرب، وإنما هو قائد وبطل يماني آخر مِنْ مذحج، وذلك القائد هو كثير بن شهاب الحارثي المذحجي، فغضب بشر الخثعمي وكثير بن شهاب من سعد بن أبي وقاص، وقال كثير بن شهاب أبياتاً منها:

وقاتلتُ حتى أنزل اللَّهُ نصرةُ ... وسعدُ بباب القادسية مُعصمُ
فابّنا وقد آمتْ نساءُ كثيرةُ ... ونسوة سعد ليس فيهن أيّمُ

وقال بِشْر بن ربيعة الخثعمي أبياتاً ينسبها أحد الذين لا يعلمون إلى عمرو بن معدي كرب، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني أبياتاً منها في ترجمة بِشْر بن ربيعة الخثعمي قائلاً إنه: «كان أحد الفرسان وشهد القادسية وهو القائل:

أنَخْتُ بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقاص عليّ أمير»

وقد ذكرها البلاذري في ختام أنباء القادسية قائلاً: «وقال بشر بن ربيعة بن عمرو الخثعمي:

ألَمّ خيالُ مِنْ أُميمةُ موهناً ... وقد جعلت أُولى النجوم تَغُورُ
.. ولا غرو إلا جَوْبُها البِيدَ في الدُجَى ... ومِنْ دوننا رَعْنُ أشم وقور
تحنُ بباب القادسية ناقتي ... وسعد بن وقاص عليَّ أميرُ
وسعدُ أميرُ شره دون خيره ... طويلُ الشذى، كأبي الزناد، قصير..»

وجاء هذا البيت في بقية المصادر، وقد يكون بعده:

وسعدُ أميرُ شره دون خيره وخيرُ أمير بالعراق جريرُ
وعند أمير المؤمنين نوافلُ وعند (المُعَنَّىٰ) فضةٌ وحريرُ

ثم قال مخاطباً أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

تَذَكَّرْ هداك اللَّهُ وَقْعَ سيوفنا بباب قُديسٍ والمكرّ عسيرُ
عشية وَدَ القومُ لو أنّ بعضهم يُعارُ جناحيّ طائر فيطيرُ
إذا ما فَرَغْنَا من قراع كتيبة دَلَفْنَا لأخرى كالجبال تسيرُ

وقد ذكرت رواية الأصفهاني أبيات بشر الخثعمي ثم قالت تلك الرواية «فكتب سعد إلى عمر بما قالا وبالقصيدتين». يعني بما قال بِشْر وعمرو بن معدي كرب، والصواب بِشر وكثير بن شهاب. وقال ابن حجر العسقلاني بعد ذكر أبيات بِشر الخثعمي «فكتب بشر إلى عمر بن الخطاب بهذا الشعر، فكتب عمر إلى سعد أن ألحِقه بأهل البلاء وَقَدِمه، ففعل» بينما جاء في رواية الأصفهاني بعد قوله: «فكتب سعد إلى عمر بما قالا وبالقصيدتين، فكتب إليه أن أعطهما على بلائهما، فأعطى كل منهما ألفيّ درهم». ويبدو أن رواية الأصفهاني زَجَّتْ باسم عمرو بن معدي كرب لأن سعداً كَتَبْ إلى عمر بشأنهما مع عمرو بن معدي كرب، أو لأن جواب عمر جاء مع عمرو بن معدي كرب لما رجع من المدينة المنورة.

إن قيام سعد بن أبي وقاص باختيار وبعث عمرو بن معدي كرب بنبأ النصر والفتح إلى أمير المؤمنين وعاصمة دولة الخلافة، يدل على تقديره لعمرو، وكذلك فإن جواب عمرو عندما سأله عمر عن سعد بن أبي وقاص يدل على تقديره الكبير لسعد، فلا صحة لما جاء في بعض روايات الأصفهاني وسيف بن عمر التميمي من تلفيقات تحاول الإساءة إلى عمرو بن معدي كرب وغيره من الصحابة، وإنما العبرة والاعتقاد بما ذكرته المصادر الموثوقة التي منها يأتي النبأ اليقين. قال ابن عبد ربه في العقد الفريد: «لَمّا فُتحت القادسية أَبْلَىٰ فيها عمرو بن معدي كرب بلاءً حسناً، فأوفده سعد إلى عمرو بن الخطاب وكتب إليه معه بالفتح وأَثْنَى في الكتاب على عمرو، فلما قَدَم على عُمر سأله عن سعد، فقال عمرو: أعرابيٌ في نمرَّته، أسدُ في تاموريته، يُقسم بالسويّة ويعدلُ في القضية.. فقال عمر: لَشَدّ ما تَقَارَضْتُما الثناء». وجاء في كتاب الإصابة إنه: «لما افتتح سعد العراق، أوفَدَ عمرو بن معدي كرب إلى عمر يذكر له شجاعته وموازرته» وقال ابن قتيبة: «كتب سعد إلى عمرو بن الخطاب يثني على عمرو بن معدي كرب، فسأله عُمر عن سعد، فقال:

هو كالأبّ، أعرابيٌ في نمريّه، أسدُ في تاموريه، يُقَسِمُ بالسوية، ويعْدِلُ في القضية، وينفر في السرية، وينقل إلينا حقنا كما تنقل الذّرّة، فقال عمر: لَشَدَ ما تقارضتما الثناء».

وجاء في فتوح البلدان للبلاذري عن الحسن بن عثمان الزيادي عن إسماعيل بن مجالد عن أبيه عن الإمام الشعبي «أن عمرو بن معدي كرب الزُبيدي وَفَدَ على عمر بن الخطاب بعد فتح القادسية فسأله عن سعد وعن رضاء الناس عنه، فقال عمرو: تركته يجمع لهم جمع الذَرّة، ويشفق عليهم شفقة الأم البَرّة، أعرابيٌ في نمرته، نبطيّ في جبايته، يقسم بالسوية ويعدل في القضية وينفذ بالسرية. فقال عمر: كأنكما تقارضتما الثناء؟ وقد كان سعد كتب يثني على عمرو. فقال: كلا يا أمير المؤمنين ولكني أنبأتُ بما أعلم» [اهـ].

* * *

عَمْرو.. وعُمَر بن الخطاب

في أيام الجاهلية وما قبل الإسلام كان عمر بن الخطاب يسمع عن عمرو بن معدي كرب وأنباء بطولته في المعارك التي كان يخوضها وينتصر فيها سواء في بعض النزاعات القبلية التي وقعت باليمن أو في الغزوات على قبائل تميم وبني عامر وهوازن في نجد واداني الحجاز، أو في الغارات التي كان يشنها على القوافل الفارسية والمواجهات التي خاضها ضد باذان والفُرس المجوس بصنعاء، فقد كان عمرو فارس اليمن والعرب بدون مُنازع، وكانت أنباء عمرو حديث الناس.

والتَقَىٰ عمر بن الخطاب بعمرو بن معدي كرب عندما وَفَد إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة ومكث فيها مُصاحباً رسول الله ﷺ زهاء مائة يوم في السنة التاسعة للهجرة، وكذلك عندما قَدَم عمرو إلى أبي بكر الصديق في أعقاب الثورة التي قادها مع قيس بن مكشوح ضد فيروز الديلمي والأبناء الفُرس وتم فيها نَفْيَ أغلب الفُرس من اليمن سنة ١١هـ، ثم عندما قَدَم عمرو على فرسان بني زُبيد وغيرهم للجهاد وفتح الشام في جمادى الأول سنة ١٣هـ وانطلق من المدينة إلى الشام حيث كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد القائد العام للجيش بالشام قائلاً: «ويكفيك عمرو بن معدي كرب». ولما تولى عمر الخلافة كان عمرو يُمزق صفوف الروم ويصرع قادتهم وفرسانهم في اليرموك ثم في دمشق وحمص وقنسرين، ثم أتى عمرو إلى المدينة والتقى بالخليفة عمر بن الخطاب وهو اللقاء الرابع بينهما واللقاء الأول في خلافة عمر، وكان عمير ـ ومنذ اللقاء الأول ـ يتعجبُ من عِظَم خَلْقِ عمرو بن معدي كرب، قال المدائني: «كان عمر بن

الخطاب إذا نظر إلى عمرو بن معدي كرب قال: الحمد لله الذي خَلَقَنا وخَلَقَ عمراً. تعجباً مِنْ عِظَم خلقه». ولما انطلق عمرو من عند عمر إلى القادسية كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص قائلاً: «أمددتُك بألفيّ فارسَ عمرو بن معدي كرب وطليحة بن خويلد، فأحضرهما وشاورهما الحرب». وأثناء المواجهة بين الجيش العربي الإسلامي وجيش الأمبراطورية الفارسية في القاديسية كان عمر بن الخطاب شديد الاهتمام بما سَيَكون. قال الحافظ ابن كثير: «وكانت العرب من العذيب إلى عدن أبين يتربصون وقعة القادسية هذه، يرون أن ثباتُ ملكهم وزواله بها، وقد بعث أهل كل بلد قاصداً يكشف ما يكون من خبرهم». وكان عمر بن الخطاب أعظم اهتماماً، قال ابن خلدون: «كان عمر يسأل الركبان حين يُصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله، فلما ألفى البشير، قال: من أين؟ فأخبره. فقال: حدّثني، قال: هزم الله المشركين، ففرح عمر». وبما أن الذي بعثه سعد بنبأ النصر وكتب معه بالفتح لم يكن رجلاً مجهولاً ولا مِنْ عامة الناس وإنما هو الزعيم القائد العظيم عمرو بن معدي كرب، فيمكن القول أن ذلك البشير كان طليعة بعثه عمرو بن معدي كرب، ولذلك اقتصر كلامه على تبشير عمر قائلاً: هزم الله المشركين، ففرح عمر. وما لبث أن دخل عمرو بن معدي كرب والفرسان الذين معه المدينة، وقد كان المعتاد في مثل تلك الحالة أن يدخل المبعوث بنبأ وكتاب الفتح والذين معه إلى المدينة وهم يُكبرون ويُهللون، فَيُكبِرُ لتكبيرهم أهل المدينة، ويتلقاهم الخليفة وكبار الذين بالمدينة أمام المسجد النبوي، وينزل المبعوث والذين معه من خيولهم أمام المسجد، ويتقدم الصحابي المبعوث بالنبأ إلى الخليفة فيسلم عليه ويخبره بنبأ النصر ويناوله الكتاب الذي بعثه الأمير، ويجري بين الخليفة والصحابي المبعوث ما يلزم من حديث، فيكون ذلك هو ما حدث عند قدوم عمرو بن معدي كرب بنبأ وكتاب الانتصار العظيم على جيش الأمبراطورية الفارسية في القادسية.

وقد جاء في تاريخ الطبري عن سيف بن عمر التميمي قال: «كتب سعد إلى عمر يخبره بالفتح، وبعث بالكتاب مع سعد بن عميلة الفزاري». ونقلت بعض المصادر ذلك القول عن رواية الطبري عن سيف التميمي، بينما ذلك الاسم يكاد يكون مجهولاً، ويبدو أنه من بني سعد الفزر بن زيد مناة بن تميم، وقد يكون من الأشخاص الذين رافقوا عمرو بن معدي كرب، فلم يكن أي شخص اسمه سعد بن عميلة مِنْ الصحابة ولا مِنْ قادة وأبطال وفرسان القادسية ولا مِنْ التابعين، ولذلك فإن الصحيح هو ما جاء في العقد الفريد عن الجهاد والبلاء الكبير لعمرو بن معدي كرب في القادسية وإنه «أوفده سعد إلى عمر وكتب إليه معه بالفتح وأثنى في

الكتاب على عمرو». ومما يؤكد ذلك أن الروايات، بل رواية سيف التميمي نفسها لم تذكر أي كلام بين عمر بن الخطاب وبين سعد بن عميلة الفزاري، بينما ذكرت كافة المصادر والنصوص الموثوقة الحديث الذي دار بين عمر بن الخطاب وبين عمرو بن معدي كرب وذلك يؤكد إنه المبعوث بنبأ وكتاب النصر، وكان نص الكتاب: «أما بعد: فإنّ الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سُنن مَن كان قبلهم مِن أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعُدَّةٍ لم يَرَ الراؤون مثل زُهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج»[1].

وجاء في الكتاب بعد ذلك ذكر الشهداء من المسلمين في القادسية، وقد جاء في العقد الفريد أن سعداً «أثْنَى في الكتاب على عمرو». ولم تتضمن الرواية الموجودة عن نص الكتاب ذلك الثناء الذي أشار إليه أيضاً ابن قتيبة. فلما انتهى عمر من قرأة كتاب سعد، «سأل عَمْراً عن سعد وعن رضاء الناس عنه. فقال عَمْرو: هو لهم كالأب، أعرابيٌ في نمّرته، أسدُ في تأموريته، يُقسم بالسوية ويعدلُ في القضية، وينفرُ في السرية. فقال عُمَر: لَشَدَ ما تقارضتما الثناء». وفي رواية البلاذري: «فقال عُمَر: كأنكما تقارضتما الثناء؟ فقال عَمْرو: كلا يا أمير المؤمنين ولكني أنبأتُ بما أعلم» [اهـ].

ثم اعتلى عمر بن الخطاب منبر المسجد النبوي وقرأ على الناس ذلك الكتاب الذي بعثه سعد بانتصار وفتح القادسية، وفي ذلك قال ابن كثير: «يُقال إن عُمَر قرأ الكتاب على الناس فوق المنبر رضي الله عنهم» [اهـ].

* * *

وقد جرى بعد الحديث سالف الذكر بين عمر بن الخطاب وعمرو بن معدي كرب والذي فيه السؤال عن سعد وجواب عمرو، جرى حديث بينهما ذكره البلاذري متصلاً بالحديث السالف وذكره المسعودي منفصلاً عنه، وتستلزم طبيعة ذلك الحديث إنه كان في وقت لاحق بمجلس عمر إما في نفس اليوم أو في اليوم التالي، فقد ذكر البلاذري بسنده عن الإمام الشعبي إنه: «قال عمر بن الخطاب: يا عمرو، أخبرني عن الحرب. فقال: مُرة المذاق إذا قامت على ساق، مَنْ صبر فيها

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد الله ـ ص٣٣١ ـ ولم يأت في كتاب الوثائق اسم المبعوث إلى عمر بهذا الكتاب. أما نص ما جاء في الكتاب فهو نفس النص في تاريخ الطبري وفي البداية والنهاية لابن كثير ـ جـ٧ ص٤٦.

عُرِف ومَنْ ضَعفَ فيها تَلَفْ»(١). وقد ذكر ذلك المسعودي في مروج الذهب بلفظ «سأله عُمْر عن الحرب، فقال عَمْرو: سألتَ عنها خبيراً، هي والله مُرّة المذاق، إذا شَمّرت عن ساق، مَنْ صَبَر فيها عُرف، ومن ضَعف فيها تلف. ولقد أحسن واصفُها فأجاد:

الْحَربُ أوّلُ مَا تَكُونُ فَتِيّةً تَبْدُو بِزِينَتِها لِكُلِّ جَهُول..»(٢)

ثم ذكر المسعودي البيتين اللّذين بعد هذا البيت، ولكن عبارة «ولقد أحسن واصفها فأجاد» قد يكون أصلها (أحسن وصفها فأجاد) لأنّ هذا الشعر لعمرو بن معدي كرب ولم يتمثل به، فقد جاء في هامش السيرة النبوية لابن هشام ما يلي: «قال السهيلي، قال عمرو بن معدي كرب:

الحَربُ أوّلُ ما تَكُونُ فَتِيّةً تَسْعَى بِبَزّتِهَا لِكُلِّ جَهُول

حَتّى إذَا اشْتَعَلَتْ وَشَبَّ ضِرَامُهَا وَلّتْ عَجُوزاً غَيْرَ ذَات حَلِيلِ(٣)

شَمْطَاءَ جَزّتْ رَأْسَهَا فَتَنكّرتْ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ والتّقْبِيلِ

وفي جامع البخاري: كان إذا وقعت الحرب يأمرون بحفظ أبيات عمرو بن معدي كرب هذه»(٤).

* * *

وبعد ذلك الوصف النثري والشعري للحرب، سأله عمر بن الخطاب عن السلاح. قال البلاذري عن الإمام الشعبي: «قال عمر: فأخبرني عن السلاح. قال عمرو: سل يا أمير المؤمنين عما شئت منه، قال: الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك. قال: فالسهام؟ قال: رُسُل المنايا تُخطي وتُصيب. قال: فالترس؟ قال: ذاك المجن عليه تدور الدوائر. قال: فالدرع؟ قال: مشغلة للفارس متعبة للراجل وإنها لَحِصْنُ حصين»(١).

ثم وقعت بعد تلك العبارة مشكلة بسيطة ربما قامت بعض الروايات بتضخيمها، فقد جاء في رواية البلاذري إنه «قال عُمَر: فالسيف؟ قال عَمْرو: هناك ثكلتك أمك. فقال عُمَر: بَلْ ثكلتك أمك. فقال عمرو: الحُمى أضرعتني إليك»(١) وبذلك انتهت

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ـ ص٢٧٨.
(٢) مروج الذهب للمسعودي ـ جـ٢ ص٣٣٤.
(٣) في مروج الذهب:
(حتى إذا حميت وشبَّ ضِرامها عادت عجوزاً غير ذات حليل)
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ـ جـ١ ص٣٠٢.

رواية البلاذري بسنده السالف عن الإمام الشعبي، فالذي حدث لا يتجاوز أن الحماس ارتفع عند عَمْرو حين سأله عن السيف فقال بشكل عفوي (هناك ثكلتك أُمك) فاستاء عُمَر بن الخطاب وقال (بل ثكلتك أمك) فاعتذر عمرو بأنه مُصاب بالحُمى وقال ذلك بسبب الحُمَى دون أن يقصد، ثم خرج بعذر الحُمَى بينما جاء في رواية المسعودي: «سأله عُمَر عن السلاح فأخبره حتى بلغ السيف، فقال: هنالك قارعتك أمك عن ثكلها، فَعَلَاه عُمر بالدِّرة وقال: بل أمك قارعتك والله إنّي لأهمُّ أن أقطع لسانك، فقال عمرو: الحُمَّى أضرعتني اليوم، وخرج من عنده وهو يقول:

أتُوعِدُني كأنّكَ ذُو رُعَيْنٍ ... بأنْعَمِ عِيشَةٍ أوْ ذُو نُوَاسِ
فكم قد كان قَبْلَكَ مِنْ مليك ... عَظيم ظاهِرِ الجَبْروت قَاسِي
فأصبح أهْلُهُ بَادُوا، وأمْسَى ... يُنَقَّلُ مِنْ أناسٍ في أُنَاسِ
فلا يغرُرْكَ مُلكك، كلُّ مُلْكٍ ... يَصيرُ مذلة بعد الشَّماس

فاعتذر عمر إليه، وقال: ما فعلتُ ما فعلته إلا لتعلم أن الإسلام أفضل وأعزّ من الجاهلية»[١].

وقد دمجت رواية المسعودي بين حادثتين إحداهما ما حدث بين عمر بن الخطاب وعمرو بن معدي كرب ولا يتجاوز النبأ اليقين عنها ما ذكره البلاذري في الرواية الأولى عن الإمام الشعبي فقيه التابعين، أما الحادثة الأُخرى فكانت بين عمرو وبين ملك من ملوك حِمْيَر الأذواء في الجاهلية وهو الذي رفع الدرة ـ أو العصا ـ على عمرو قائلاً: والله إني لأهمُّ أن أقطع لسانك، فخرج عمرو من عنده وهو يقول الأبيات التي أولها (أتَوعدني كأنَّكَ ذُو رُعَيْنٍ)، ومما يتيح إدراك ذلك وجود ثلاث روايات عند تلك الأبيات، فقد ذكر الهمداني في الإكليل أنها لعلقمة بن ذي جَدَنْ في الجاهلية، وذكر أبو عبيدة أن كلاماً وقع بين عمرو بن معدي كرب وسَلْمَان بن ربيعة الباهلي في فتح أرمينية بعد موقعة نهاوند، ثم قال: (فقال عمرو هذه الأبيات)[٢] وقال ابن هشام في السيرة النبوية عن ابن إسحاق «قال عَمْرو بن مَعْدي كرب الزُّبَيْدي في شيء كان بينه وبين قَيْس ابن مَكْشُوح المُرَادي، فبلغه إنه يتوعده، فقال:

أتُوعِدُنِي كأنَّك ذُو رُعَيْنٍ ... بأفْضَلِ عِيشَةٍ، أو ذُو نُواس[٣].

(١) مروج الذهب ـ جـ٢ ص٣٣٥.
(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ١ ص٤٠ ـ ٤١.
(٣) في الإكليل (أتوعدُني كأنك ذو رياش) يعني الحارث ذو رياش أعظم الملوك التبابعة وفي الإكليل أيضاً (كأنك ذو رعين).

وَكَـائِـنْ كَـانَ قَـبْـلَـكَ مِـنْ نَـعِـم وَمُـلْـكٍ ثَـابِـتٍ فـي الـنَّـاسِ راسِـي[١]
قَـدِيـم عَـهْـدُهُ مِـنْ عَـهْـدِ عَـادٍ، عَـظِـيم قَـاهِـرِ الـجَـبْـرُوتِ قَـاسِـي[٢]
فـأَمْـسَـى أهْـلُـهُ بَـادُوا وأَمْـسَـى يُـحَـوَّلُ مِـنْ أُنَـاسٍ فـي أُنَـاسِ»[٣]

ولكن قيس بن مكشوح لم يكن ملكاً من الملوك الحميريين في الجاهلية بينما هذا الشعر قاله عمر وهو يخرج من عند الملك الذي تَوعده وهَدَدَه، ولم يكن هناك مَلِكُ اختلف معه عمرو سوى الملك علقمة بن ذي قيفان صاحب السيف الصمصامة وقد تقدم الخبر عن ذلك. وبالتالي يمكن إدراك أن عمرو بن معدي كرب كان عند الملك علقمة بن ذي قيفان الحميري في قصره بمدينة عمران في الجاهلية فغضب علقمة من كلام قاله عمرو ذات يوم، فرفع علقمة عليه الدرة ـ أو العصا الصولجان ـ وربما السيف الصمصامة وقال: والله إني لاهمّ أن أقطع لسانك، فخرج عمرو من عنده وقال تلك الأبيات.

ولما وقع الحديث بين عمرو وبين عمر بن الخطاب عن السلاح وسأله عمر عن السيف فقال عمرو متحمساً ودون قصد (هنالك ثكلتك أمك)، قال عمر غاضباً: بل ثكلتك أُمك. فاعتذر عمرو قائلاً: الحُمّى أضرعتني اليوم، وخرج. [ويبدو أن ذاكرة أحد الحاضرين استحضرت يومذاك قصة الحادثة القديمة في الجاهلية بين علقمة وعمرو]، وما لبث أن دعا عمر بن الخطاب عَمْراً واعتذر إليه، وهو ما ذكره المسعودي قائلاً: «فاعتذر إليه عمر بن الخطاب، وقال: ما فعلتُ ما فعلتُه إلا لِتعلم أن الإسلام أفضل وأعزّ من الجاهلية» والمقصود: لم أعتذر لك يا عمرو إلا لِتعلم أنك في الإسلام أفضل وأعزّ مما كنت عليه في الجاهلية، فها هو أمير المؤمنين بنفسه يعتذر لك. قال المسعودي: «وفَضّله عُمَر على الوفد» ثم قال: «وقد كان عُمَر آنس عمراً بعد ذلك، وأقبل يسأله ويذاكره الحروب وأخبارها»[٤].

* * *

إن تلك الفترة التي قَدَم فيها عمرو بن معدي كرب إلى عمر بن الخطاب يمكن تحديدها بحوالي شهر صفر سنة ١٥هـ وتَقَعُ بين موقعتين حربيتين عظيمتين؛

---

(١) الأصوب كما في مروج الذهب (فكم قد كان قبلك من مليك) ومعنى (راسي): الراسي: المُستقر، يقال: رسا إذا استقر.

(٢) القاسي: الشديد، مأخوذ من القساوة وهي الشدة. وقد جاء في الإكليل أن هذا الشعر قاله علقمة. والأصوب أنه في علقمة.

(٣) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ١ ص٤٠ ـ ٤١.

(٤) مروج الذهب ـ جـ٢ ص٣٣٥.

موقعة القادسية في العراق وموقعة نهر اليرموك بالشام، وقد جاء عمرو بن معدي كرب إلى عمر من حرب القادسية ثم ما لبث أن عاد إلى العراق وانطلق منها مع القادة والفرسان الذين انطلقوا إلى دمشق وانضموا إلى الجيش العربي الإسلامي الذي سار من دمشق في ربيع الثاني ١٥هـ بقيادة الأمير أبي عبيدة الجراح لمواجهة جحافل الروم التي جمعها الملك هرقل مرة ثانية ودفعها إلى منطقة حمص وشمال فلسطين ومنطقة نهر اليرموك في أوائل سنة ١٥هـ، فكان عمرو من أبطال موقعة نهر اليرموك الكبرى التي توجت بالانتصار الأعظم على الروم في رجب سنة ١٥هـ، وقد سلف ذكر تفاصيل ونصوص ووقائع الفتوح التي شهدها عمرو بن معدي كرب في هذه المرحلة من فتوح الشام ابتداءً بموقعة نهر اليرموك في رجب ١٥هـ ومروراً بإعادة فتح حمص وقنسرين ثم مسيرة مع أبي عبيدة بن الجراح في الجيش العربي الإسلامي إلى حَلَبْ وافتتاحها في أواسط سنة ١٦هـ وانتهاء بفتح أنطاكية إلى منتهى الشام.

* * *

أنبأ عمرو مِنْ جلولاء إلى لقائه السادس بعُمر بن الخطاب

في حوالي شهر شوال سنة ١٦هـ عاد عمرو بن معدي كرب وفرسان بني زُبيد الذين معه من الشام إلى العراق حيث وَاجَه المسلمون أول خطر فارسي منذ ما بعد انتصار القادسية ـ في محرم ١٥هـ ـ وذلك أن كسرى يزدجرد ملك الفُرس الذي أنسحب من المدائن إلى حلوان ـ في أوائل سنة ١٦هـ ـ ما لبث أن استنفر وجمع جيشاً كبيراً أقبلوا إليه من أرجاء بلاد فارس إلى حلوان فوجههم إلى جلولاء ـ وهي مركز سواد شرق العراق الذي كان ما يزال بيد الفرس ـ وبلغ الجيش الفارسي في جلولاء ما يقرب من مائة ألف بقيادة خرزاذ أخو رستم، يتهيؤون للزحف على المسلمين، قال ابن كثير: «وكتب سعد إلى عمر يخبره بذلك، فكتب إليه عمر أن يقيم هو بالمدائن ويبعث هاشم بن عتبة بن أبي وقاص أميراً على الجيش الذي يبعثه إليهم». وقال البلاذري: «قال المسلمون: ينبغي أن نعالجهم قبل أن تكثر إمدادهم»[١] وكان جيش المسلمين الذي وجهه سعد مع هاشم بن عتبه أقل من أثنى عشر ألفاً. ولكن وصول عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح وغيرهما من القادة الذين كانوا في الشام وجرير بن عبد الله البجلي من المنطقة التي كان فيها بالعراق يشير إلى أن عدد المسلمين كان لا يقل عشرين ألفاً حين

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٦٤.

عقدوا العزم على مهاجمة العدو، قال البلاذري في فتوح البلدان:

«فلقوهم، وحجر بن عدي الكندي على الميمنة، وعمرو بن معدي كرب على الخيل، وطليحة بن خويلد على الرجال. وعلى الأعاجم يومئذٍ خرزاذ أخو رستم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، رمياً بالنبل وطعنا بالرماح حتى تقصفت وتجالدوا بالسيوف حتى انثنت، ثم إن المسلمين حملوا حملة واحدة قلعوا بها الأعاجم عن موقفهم وهزموهم فولوا هاربين، وركب المسلمون أكتافهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً حتى حال الظلام بينهم.. وجعل هاشم بن عتبة جرير بن عبد الله البجلي بجلولاء في خيل كثيفه... وكانت وقعة جلولاء في آخر سنة ست عشرة للهجرة[١] وقال ابن كثير: «كان في الأبطال يومئذٍ طليحة الأسدي، وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وقيس بن مكشوح، وحجر بن عدي.. وهربت الفرس كل مهرب، وأخذهم المسلمون من كل وجه، وقعدوا لهم كل مرصد، فقتل منهم في ذلك الموقف مائة ألف حتى جللوا وجه الأرض بالقتلى، فلذلك سميت جلولاء.. وكان فتح جلولاء في ذي القعدة من سنة ستة عشر للهجرة»[٢].

* * *

وبعد موقعة جلولاء افتتح جرير بن عبد الله البجلي مدينة خانقين وسواد العراق الممتد شرق نهر دجلة، وذلك في أوائل سنة ١٧هـ، وربما شهد عمرو فتح سواد العراق، فقد ذكر القرطبي في كتاب الاستيعاب إنه «شهد عمرو عامة فتوح العراق». وقد يكون ذلك لأنه شهد القادسية ثم كان قائد خيل المسلمين في موقعة جلولاء ـ في ذي القعدة ١٦هـ ـ ثم شهد موقعة نهاوند ـ سنة ٢٠هـ ـ وبما أن القادسية وجلولاء ونهاوند هي المواقع والفتوح الرئيسية الكبرى يكون من شهدها قد شهد عامة فتوح العراق، ولكن الفترة من موقعة جلولاء إلى موقعة نهاوند تزيد عن ثلاث سنوات، فأين كان عمرو خلال تلك الفترة؟

* * *

بعد فتح جلولاء وسواد دجلة، ثم اختطاط مدينة الكوفة، وقد ذكر ابن كثير إنه «في المحرم من سنة ١٧هـ انتقل سعد بن أبي وقاص من المدائن إلى الكوفة». وقد استخلف سعد بالمدائن شرحبيل بن السمط الكندي أميراً على المدائن، وتم اختطاط مدينة الكوفة واستقر بها المسلمون منذ شهر محرم سنة ١٧هـ وكان

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٦٤.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٦٩.

عمرو بن معدي كرب من الصحابة الذين استقروا بالكوفة واختط بها داراً، وكان لبني زُبيد ومذحج خطة كبيرة ـ أي منطقة سكينة ـ في الكوفة.

ومِنْ أنبأ عمرو في الكوفة ما ذكره أبو المنهال عيينه بن المنهال عن أبيه قال: «جاء رجلٌ وعمرو بن معدي كرب واقفُ بكناسة الكوفة على فرس له، فقال: لانْظُرن ما بقى من قوة أبي ثور، فأدخل يده بين ساقيه وبين السرج، وفَطَن عمرو فضمهما عليه وحرك فرسه، فجعل الرجل يعدو مع الفرس لا يقدر أن ينزع يده حتى إذا بلغ منه قال: يا ابن أخي مالك؟ قال: يدي تحت ساقك. فَخَلَىٰ عنه وقال: يا ابن أخي أن في عمك لبَقِيْهْ».

وتقول رواية في كتاب الأغاني: (أن الأشعث بن قيس وعمرو بن معدي كرب تنازعا في شيء) فوقع بينهما كلام، «قال جرير بن عبد الله البجلي: فأخذتُ بيد الأشعث فنثرته فوقع، ثم أخذت بيد عمرو فجذبته فما تحلحل، والله لكأنما حركتُ أسطوانة القصر» يعني عموداً من أعمدة القصر.

* * *

وَوَفَد عمرو بن معدي كرب على عمر بن الخطاب بعد اختطاط الكوفة، فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أنه «.. قَدَم عمرو بن معدي كرب من الكوفة على عمر بن الخطاب»[1] وقال ابن حجر العسقلاني «لما افتتح سعد العراق، ودرّ له الخراج، أوفد عمرو بن معدي كرب إلى عمر بن الخطاب، وذكر له شجاعته وموأزرته». فيكون ذلك بعد افتتاح جلولاء وسواد دجله من جهة وبعد اختطاط الكوفة ـ سنة ١٧هـ ـ لأنه كما ذكر المسعودي «قدم عمرو من الكوفة على عمر بن الخطاب» فيكون زمن ذلك في أواسط سنة ١٧هـ.

وتزعم رواية في كتاب الأغاني للأصفهاني إنه «خرج عمرو إلى المدينة فقدم على عمر بن الخطاب وهو يغدي الناس وقد جَفَن لعشرة عشرة، فأقعده عمر مع عشرة فأكلوا ونهضوا، ولم يقم عمرو، فأقعد معه تكملة عشرة حتى أكل مع ثلاثين، ثم قام، فقال يا أمير المؤمنين إنه كانت لي مآكل في الجاهلية منعني منها الإسلام وقد صررت في بطني صرتين وتركت بينهما هواء، فَسَدَهُ. فقال عمر: عليك حجارة من حجارة الحرّة فسده به يا عمرو» وهذه الرواية قد تكون في عام الرمادة فلا يمكن أن يقول عمرو: كانت لي مآكل في الجاهلية، وإنما يمكن أن تكون له مآكل منعه منها عام الرمادة حيث وقعت أزمة اقتصادية معروفة في ذلك

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٣٣٥.

العام، وربما قال له عمر ما جاء في الرواية على سبيل المزاح: قال الأصفهاني: «قال أبو عبيدة: قدم عمرو بن معدي كرب والأجلح بن وقاص على عمر بن الخطاب، فأتياه وبين يديه مال يوزن. فقال: متى قدمتما؟ قالا: يوم الخميس، قال: فما حبسكما؟ قالا: شغلنا بالمنزل يوم قدمنا ثم كانت الجمعة ثم غدونا عليك اليوم. فلما فرغ من وزن المال نَحَاهُ ثم أقبل عليهما، فقال: هيه؟ فقال عمرو: يا أمير المؤمنين هذا الأجلح بن وقاص، شديد المِرّة بعيد القّرة وشيك الكرّة، والله ما رأيتُ مثله من الرجال صارعاً ومصروعاً، والله لكأنّه لا يموت. فقال عُمْرُ للأجلح بن وقاص: هيه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، الناسُ صالحون، كثيرُ نسلهم، دَارّة أرزاقهم، خصبُ نباتهم، أجرياء على عدوهم، جبانُ عدوهم عنهم، صالحون بصلاح إمامهم، والله ما رأينا مثلك إلا مَنْ تَقَدَمك، فنستمتع الله بك. فقال عمر: ما مَنَعك إن تقول في صاحبك مثل الذي قال فيك؟ قال: منعني ما رأيت في وجهك ـ وكان قد رأى الغضب في وجهه ـ فقال عمر: قد أصبت، أما لو قُلت مثل الذي قال فيك لأوجعتكما عقوبة ـ [أو: لأوجعتك عقوبة] ـ فإن تركتك لنفسك، فوسف أتركه، والله لوددتُ لو سلمت لكم حالكم هذه أبداً ـ [يعني أن يُثني الصحابة والمسلمون بعضهم على بعض] ـ أما أنه سيأتي عليك زَمنُ تعضه وينهشك وتهرّه وينبحك ولست له يومئذٍ وليس لك، فإن لم يكن بعدكم فما أقربكم منه». [ص٣٨ جـ١٤]. وكلام عمر ـ إذا صح ـ فالمقصود به سيأتي وقتُ يعضُ وينهش المسلمون بعضهم بعضاً، أو يهرّ وينبح بعضهم بعضاً. وليس يومئذٍ بعضهم لبعض، فإن لم تدركوا ذلك الوقت فما أقربكم منه، وقد حدث ذلك في زمن الفتنة الكبرى بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ولم يدرك عمرو بن معدي كرب زمن الفتنة بحمد الله تعالى.

وبعد كلام عمر بن الخطاب مع عمرو والأجلح بن وقاص ـ غالباً ـ جرى في مجلس عمر بن الخطاب حديثُ طويل بينه وبين عمرو بن معدي كرب عن قبائل اليمن، وقد ذَكَرَ المؤرخ الجليل أبو الحسن المسعودي في مروج الذهب نبأ قدوم عمرو بن معدي كرب من الكوفة إلى عمر بن الخطاب، ثم أنه:

«سأله عُمْر عنه قومه، فقال له: أخبرني عن قومك مذحج، ودع طيئاً[(١)].

---

(١) قبيلة مذحج، هم بنو مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عَرِيب بن زيد بن كهلان بن سبأ.
وقبيلة طيء، هم بنو طيء بن أدد بن زيد بن يشجب بن عَرِيب بن زيد بن كهلان بن سبأ. ويقال: طيء بن مذحج.

قال: سَلْني عن أيهم شئت؟ قال: أخبرني عن عُلَة بن جَلْد[١].

فقال عمرو: هُمْ فُرسانُ أغراضنا، وشفاة أمراضنا، وهُمْ أعتقنا وأنجبنا وأسرعنا طلباً وأقلّنا هرباً، وهُمْ أهل السلاح والسماح والرماح. ـ [ويروى: أهل الصباح والسماح والرماح] ـ.

قال عمر: فما أبقيت لسعد العشيرة؟[٢]

فقال عمرو: هُمْ أعظمنا خميساً، وأسخانا نفوساً، وخيرُنا رئيساً[٣].

قال عمر: فما أبقيت لِمُراد؟[٤]

فقال عمرو: هُمْ أوسعنا داراً، وخيرنا جاراً، وأبعدنا آثاراً، وهُمْ الأتقياءُ البررة، والساعون الفَخَرة.

قال: فأخبرني عن بني زُبيد؟[٥]

فقال: أنا عليهم ضنين، ولو سألت الناس عنهم، لقالوا: هُمْ الرأس، والناسُ الأذناب.

قال: فأخبرني عن بني الحرث بن كعب[٦].

فقال: هم الحسكة المسكة، تَلْقَىٰ المنايا على أطراف رماحهم.

قال: فما تقولُ في عنس؟[٧] فقال: حجم عظيم، وزبنٌ أثير.

قال: فأخبرني عن طيئ. فقال: خُصوا بالجود، وهُمْ جَمْرة العرب[٨].

---

(١) عُلة بن جلد مذحج: بطون كبيرة من بطون مذحج، وهم: بنو مسلية، والنخع، وصُدا، والرها، وجَنْب، وبنو الحرث بن كعب.

(٢) سعد العشيرة بن مذحج: بطون كبيرة من بطون مذحج، وهم: أود، وجُعْفِيّ، وأوس الله، وحَكَمْ، وبنو زُبيد.

(٣) ويروى: أعظمنا جسماً. وأما: أعظمنا خميساً. فالمقصود: أعظمنا جيشاً. والخميس: الجيش.

(٤) مراد: قبيلة مراد بن مذحج، وهي أكبر وأهَمْ قبائل مذحج حتى اليوم.

(٥) بنو زبيد بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج، وهم عشيرة عمرو بن معدي كرب.

(٦) هم بنو الحرث بن كعب بن عمرو بن عُلة بن جَلْد بن مذحج، منهم بنو عبد المدان بن الديان رؤساء نجران، قال الشاعر:

والبيتُ، بيت بني الديان نعرفه ... في آل مذحج مثل الجوهر الغالي

(٧) عنس: قبيلة عنس بن مذحج، منهم عمار بن ياسر العنسي، ومنطقة عنس في لواء ذمار، وهُمْ مِنْ أكبر قبائل مذحج.

(٨) طيء: قبيلة يمانية كبيرة، انتقلوا من منطقتهم في الجوف باليمن، وسكنوا جبليّ أجا وسلمى في نجد، منهم حاتم الطائي: أجود العرب.

ثم قال عمر بن الخطاب: أخبرني عن حِمْيَر؟[١]

فقال عمرو بن معدي كرب: رَعَوُا العفو، وشربوا الصّفو.

قال: فأخبرني عن كِنْدَة[٢]. فقال: ساسوا العباد، وتمكنوا في البلاد.

قال: فأخبرني عن هَمْدَان[٣] فقال: أبناء الليل، وأهل النيل، يمنعون الجار، ويوفون بالذمار.

قال: فأخبرني عن لَخْم[٤] فقال: آخرنا مُلْكاً، وأولُنا هَلَكاً.

قال: فأخبرني عن جُذَام. فقال: أولئك كالعجوز الغبراء، وهُمْ أهل مقال وفِعال[٥].

قال: فأخبرني عن خُزاعة قال: أولئك لنا نسبهم، ولهم نصرهم[٦].

قال: فأخبرني عن غسان؟ قال: أرباب في الجاهلية، نجوم في الإسلام[٧].

قال: فأخبرني عن الأوس والخزرج؟[٦]

فقال: عمرو: هُمُ الأنصار، أعَزّنا داراً، وأمنعنا ذِماراً، وقد كَفَانا اللّهُ

---

(١) حمير بن سبأ: هُمْ قبائل حمير، وأغلب حِمْير يرجع نسبهم إلى الهميسع بن حمير، وقُضاعة بن مالك بن حمير، ومِنْ حمير: ملوك اليمن التبابعة القدماء ثم ملوك حمير الأذواء الذين أدركوا الإسلام وكتب إليهم رسول الله ﷺ ووفدوا إليه: الحارث بن عبد كلال ذي رُعين، وزُرعة بن سيف بن ذي يزن، وسميفع ذو الكلاع، وأبرهة بن الصباح، وغيرهم.

(٢) كندة: من قبائل كهلان بن سبأ، ومِنْ بطون كندة: بنو معاوية الأكرمين وبنو حُجر، وهُمْ ملوك كندة: منهم حُجر آكل المرُار الذي حكم نجد والحجاز، والحارث بن عمرو بن حُجر: ملك الحيّرة ونجد، وامرؤ القيس بن حُجر أمير الشعراء، والأشعث بن قيس.

(٣) همدان بن زيد، وهُمْ قبائل حاشد وبكيل، أكبر قبائل كهلان بن سبأ في اليمن حتى اليوم.

(٤) قبيلة لَخْم بن عديّ بن الحرث بن مُرّة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عَرِيب بن زيد بن كهلان بن سبأ. منهم المناذرة: ملوك إقليم الحيرة بالعراق، آخرهم النعمان بن المنذر أبو قابوس، وفيه قال عمرو بن معدي كرب:

أؤمُ بِهَا أبا قابوس حتى ... أحلُّ على تحيته بجُندي

(٥) قبيلة جُذام بن عدي، أخو لخم بن عدي، سكنوا وحكموا مَعَان وما حولها من الأردن وأرض الشام، وانتشروا إلى مصر.

(٦) خُزاعة: من قبائل الأزد، انتقلوا من مأرب مع الأوس والخزرج، فسكنت خزاعة في بطن مكة، والأوس والخزرج في يثرب.

(٧) غسان من قبائل الأزد، انتقلوا من مأرب وسكنوا الشام، منهم بنو جفنة ملوك العرب في الشام قبل الإسلام، آخرهم جَبَلة بن الأيهم الغساني.

مدحهم إذْ يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [الحشر: ٩] الآية.

فقال عُمَرْ: صدق الله العظيم» ـ انتهى ـ.

* * *

مُشاركة عمرو في فتوح أرمينية

لم يقتصر جهاد عمرو بن معدي كرب في سبيل الله على إسهامه الوافر في فتوح الشام وفي القادسية وفتوح العراق، وإنما كان عمرو من الصحابة والفرسان الذين انطلقوا حاملين رسالة الإسلام إلى بلاد أرمينية في القوقاز بقيادة عياض بن غَنْم الأشعري. وكان عمر بن الخطاب قد كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح بتوجيه جيش مع عياض بن غَنْم لفتح منطقة الجزيرة الفراتية، كما كتب عمر بذلك إلى عياض بن غَنْم الأشعري، فانطلق عياض بالجيش مِنْ الشام إلى الجزيرة الفراتية ومعه عدد مِنْ الصحابة القادة، مِنهم قيس بن مكشوح والمقداد، وذلك ـ فيما ذكر الواقدي ـ في شوال سنة ١٧هـ، ولم يذكر أن فيهم عمرو بن معدي كرب إلا عند الانطلاق من منطقة الجزيرة الفراتية ـ التي فتحها ـ إلى بلاد أرمينية، وذلك في أواخر جمادى الأول سنة ١٨هـ، وكان آخر فتوح الجزيرة افتتاح منطقة (آمد) فمكثوا بها عشرين يوماً ـ إلى ٢٠ جمادى الأول ١٨هـ ـ وعند ذلك ـ فيما يبدو ـ انْضَم إليهم عمرو بن معدي كرب قادماً من المدينة المنورة أو مِنْ الكوفة، وانطلق معهم لفتح بلاد أرمينية.

كانت أول منطقة دخل إليها الجيش العربي الإسلامي من بلاد أرمينية هي (جبل الجودي، وسيوان، وذي الفرض، فأخذوا من المسلمين صلحاً، وارتحل المسلمون حتى نزلوا أمام حصن الهتاج، فأبَىٰ أهله أن يُسلموا، وعولوا على القتال، ونصبوا الرعادات والمجانيق، فنظر عياض إلى ذلك فقال: هذا حصن منيع ومتى تركناه ومضينا عنه أغاروا على أهل هذه البلاد الذين صالحونا وإذا قوهم الشر، فلا نحيد عنه حتى نفتحه إن شاء الله) فنزل عياض بالجيش أمام حصن الهتاج، ومعه عدد من الصحابة، مِنْهم المقداد بن عمر، وعمار بن ياسر، وسعيد بن زيد، وعمرو بن معدي كرب، والمسيب بن نجبه، وقيس بن مكشوح، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. قال الواقدي: «وكان صاحب الهتاج شيطاناً مريداً وجباراً عنيداً، واسمه يانس بن كليوس، وكان قد تزوج بميرونه بنت يربول بن كالول صاحب الحصن الحديد.. فاتفق رأيه أن يصالح المسلمين حيلة منه ومكراً وخديعة حتى تحصل زوجته عنده ويغدر..»، وكان قيس بن مكشوح قد توجه على رأس جماعة من الفرسان إلى جهة الحصن الحديد، فوجد موكباً في

الطريق، فأغار عليهم، فاستسلموا، وعاد قيس بالأسرى والغنائم إلى عياض، فإذا بين الأسرى (ميرونة) زوجة (يانس بن كليوس) حاكم الهتاج، وكان ذلك الموكب موكبها. فلما علم (يانس) بذلك بعث رسولاً إلى عياض أمير الجيش الإسلامي يطلب مجيء عشرة من وجوه المسلمين ليتفق معهم على الصلح وتسليم القلعة، فبعث عياض عشرة من الصحابة والأبطال، قال الواقدي: وهُمْ (خالد، والمقداد، وعمار، وسعيد بن زيد، وعمرو بن معدي كرب، والمسيب بن نجبه، وقيس بن مكشوح، وميسرة بن مسروق، وضرار بن الأزور، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم.. فدخلوا القلعة، فلما وسطوا القلعة إذا بيانس واقف، وكان قد قال لجماعته إذا رأيتموني قد قربت منهم وصافحتهم فدونكم وإياهم.) ـ فلما اقترب منهم واقتربوا المصافحته، هجم عليهم أهل القلعة ـ (فهجم الصحابة العشرة على أهل القلعة ووضعوا فيهم السيف ـ وسقط يانس قتيلاً ـ وتكاثر العدو على الصحابة) ـ وكان عياض قد بعث خلفهم أبا الهول في أربعمائة من الرجال، فلما سمعوا الصياح قصدوا القلعة ووضعوا السيف في العدو، ثم أقبل عياض وبقية الجيش، فتمت السيطرة على قلعة الهتاج وأخذها المسلمون، وكانت الهتاج عاصمة إدارية لمنطقة واسعة منها قرى (فسطاس) و(فرساط) فاستجابوا للصلح، ترك عياض في قلعة الهتاج مائة فارس من المسلمين، ومَضى من الهتاج فافتتح حصن لغوب، ثم افتتح مدينة وحصن بدليس ـ وكان ذلك في حوالي شهر شعبان ١٨ هجرية ـ فمكث عياض وعمرو بن معدي كرب والصحابة والجيش فترة في بدليس. قال الواقدي: «ونظر المسلمون من أهل اليمن وبادية العرب إلى البنات وحسنهن فمالت أنفسهم إليهن، وشرب بعضهم الخمر، فلما رأى عياض ذلك صعب عليه، فأمر أن يأتوه بِمِن فعل ذلك، فأقام عليهم الحدّ، وقال لهم: أكفُر بعد إيمان، أبهذا أُمرتم، أم لهذا خُلقتم، أما سمعتم أمر الله.. فتابوا بأجمعهم»[١].

وكان مع عياض رجل من وجهاء الروم أسلم في الشام يُقال له (يوقنا)، فاجتمع يوقنا بعياض وأخبره بفكرة لفتح (أخلاط) وهي عاصمة أرمينية آنذاك، فلما أخبره يوقنا بالفكرة، «قال عياض: إذا كان الأمر كذلك فيجب أن نُطلع عليه خالد ومعاذ وقيس والمسيب وعمرو بن معدي كرب وعبد الرحمن بن أبي بكر، فدعاهم عياض وَحَدَثهم بالحديث وقال لهم: ما ترون من الرأي.. فقالوا: إذا كان

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله الواقدي ـ جـ٢ ص١٠٣ و١٠٨.

الأمر كذلك فابعث يوقنا رسولاً ونحن معه فإذا حصلنا هناك يفعل الله ما يريد والحاضر يرى ما لا يراه الغائب، قال عياض: فسيروا على بركة الله، فتأهبوا وساروا ـ بدليس إلى أخلاط ـ وكانوا خمسة وثلاثون مع الصحابة وعشرون من أصحاب يوقنا» فكان عمرو بن معدي كرب مِنْ الصحابة الذين ساروا مع يوقنا إلى ملك أرمينية في مدينة أخلاط، فدعوه إلى الإسلام فلم يستجب، واستنفر أمراء وأهل المناطق للحرب فأقبلوا إليه، وكانت بنت ملك أخلاط ـ واسمها طاريون ـ قد أسلمت في السر، فأخذت تعمل من أجل تمكين المسلمين من البلاد، ويُقال أنها قتلت أبيها، وكان أبوها قد ولاها الأمر، فأطاعها فريق من جيش أبيها، وعارضها فريق كبير منهم، فاندلعت الحرب بين الفريقين، فانضم عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح ويوقنا والذين معهم إلى طاريون، وأثناء القتال وصل عياض بن غَنْم بالجيش إلى مدينة أخلاط، فخاضوا غمار المعركة فانهزم الكفار وفتح المسلمون مدينة أخلاط، وذلك في أوائل سنة ١٩ هجرية تقريباً. ثم أسلم ملك إقليم (أرزن)، وبعث عياض إلى (خوى) و(سلواس) وما يلي تلك الأرض، فأسلم أهلها إلا القليل، وبعث عياض من المسلمين رجالاً إلى أرزن ومناطق وحصون أخلاط يعلمون الناس شرائع الإسلام، وأقرّ عياض طاريون أميرة على أخلاط وأرمينية مع زوجها، وأخذ عليهما العهد أن يعاملا الناس بالعدل ويأمرا بما أمر الله ورسوله ويقيما الشريعة، وبذلك تم فتح أخلاط وارزن وغيرها من بلاد أرمينية، وترك فيها عياض جماعات من العرب المسلمين ورجع بالجيش إلى منطقة الجزيرة الفراتية ومعه عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح وغيرهما من الصحابة، وبعث عياض بنبأ الفتح وخمس الغنائم إلى عمر بن الخطاب مع شرحبيل الكندي فتوجه إلى المدينة وكذلك توجه إليها عمار بن ياسر الذي ولاهُ عمر بن الخطاب أميراً على ولاية الكوفة بدلاً عن سعد بن أبي وقاص سنة ١٩هـ.

* * *

وكان عمرو بن معدي كرب في أرمينية حينما استعمل عمر بن الخطاب على الجيش سليمان بن ربيعة الباهلي، ولم تذكر الروايات زمن ذلك، وجاء في كتاب الأغاني للأصفهاني رواية عن أبي حفص السلمي زعم فيها إنه «كتب عمر إلى سليمان بن ربيعة الباهلي أن في جندك عمرو بن معدي كرب وطلحة بن خويلد الأسدي فإذا حضر الناس ـ الحرب ـ فأدنهما وشاورهما وابعثهما في الطلائع، وإذا وضعت الحرب أوزارها فضعهما حيث وضعا أنفسهما» ـ وأصل ذلك أن لا يوليهما شيئاً، وقد جاء في كتاب الإصابة أن عمر بن الخطاب كتب بذلك إلى سعد بن أبي

وقاص لما توجه عمرو إلى القادسية ـ في أواخر سنة ١٤هـ ـ وسيأتي أنه كتب بذلك إلى النعمان بن مقرن في موقعة نهاوند ـ سنة ٢٠هـ ـ وتزعم رواية السلمي إنه كتب بذلك إلى سليمان بن ربيعة الباهلي في أرمينية، ويبدو أن عمر بن الخطاب كان يكتب إلى الأمراء القادة يأمرهم بمشاورة عمرو بن معدي كرب في أمور الحرب نظراً لخبرته وتجربته الكبيرة في أمور الحرب في الجاهلية والإسلام، أما عدم توليته فيعود إلى إنه رجل حرب لا رجل إمارة وحُكم، ولكن بعض روايات الأصفهاني تحاول استغلال ذلك للإساءة إلى عمرو بن معدي كرب، قال الإصفهاني، قال أبو عبيدة: «وحدّثنا أبو حفص السلمي قال: عرض سليمان بن ربيعة جندة بأرمينية فجعل لا يقبل إلا عتيقاً، فَمَرّ به عمرو بن معدي كرب بفرس غليظ، فقال سليمان: هذا هجين، فقال عمرو: الهجين يعرف الهجين». وقد أضافت رواية الأصفهاني أن عمر بن الخطاب بلغه قول عمرو: «فكتب إليه: أما بعد، فإنك القائل لأميرك ما قُلت، وإنه بلغني أن عندك سيفاً تسميه الصمصامة وعندي سيف اسمه مصمم لئن وضعته بين أذنيك لا أقلع حتى يبلغ قحفك، وكتب إلى سليمان يلومه في حلمه عنه»[1]. وهذه الإضافات بعيدة عن الصحة، فقد وهب عمرو سيفه الصمصامة لخالد بن سعيد قبل عشر سنوات ـ أي في سنة ١٠هـ ـ ثم أخذه معاوية بن أبي سفيان يوم استشهاد خالد بن سعيد في الشام ـ سنة ١٤هـ ـ فكان السيف الصمصامة عند معاوية بن أبي سفيان منذ ذلك الوقت وأثناء جهاد عمرو في أرمينية ـ سنة ١٨ و١٩هـ ـ وليس عند عمرو. وقد ذكر ابن هشام رواية أبي عبيدة وليس فيها إضافات رواية الأصفهاني مما يؤكد عدم صحة تلك الإضافات والتلفيقات.

قال ابن هشام في السيرة النبوية: «حدّثني أبو عبيدة قال: كتب عمر بن الخطاب إلى سَلْمَان بن ربيعة الباهلي وهو بأرْمِينِيَة، يأمره أن يفضل أصحاب الخيل العِرَابِ على أصحاب الخيل المَقْارِف في العطاء ـ [والخيل العِرَاب: التي أبوها وأمها عتيقان، والمقارِف: جمع مُقْرِف، وهو ما كان أبوه هجيناً وأمه عتيقة] ـ، فعرض الخيل، فمرّ به فرس عمرو بن معدي كرب، فقال له سَلْمَان: فَرَسُك هذا مُقْرِف، فغضب عمرو فقال: هَجِينٌ عَرَفَ هَجِيناً مِثْله. فوثب إليه قَيْس بن مكشوح فَتَوَعَّدَهُ، فقال عمرو:

أَتُوعِدُني كَأَنَّكَ ذو رُعَيْنٍ بأَفْضَلِ عِيشَةٍ، أو ذُو نُوَاس

---

(١) الأغاني للأصفهاني ـ جـ١٤ ص٣٩.

ـ إلى آخر تلك الأبيات ـ»[١] وقد سلف تبيين أن عمرو بن معدي كرب قال تلك الأبيات في الجاهلية، ويمكن أن يكون عمرو لما قال لسلمان بن ربيعة ما قال، وَثَبَ قيسُ بن مكشوح إلى عمرو يلومه على ذلك، واعتذر قيس لسلمان بن ربيعة، لأن قيس بن مكشوح هو ابن أخت عمرو بن معدي كرب، وانطلق عمرو وقيس في ذلك الجيش مع سلمان بن ربيعة إلى مناطق أرمينية التي توجه إليها وفتحها ذلك الجيش، وربما كان ذلك بتوجيه عياض بن غَنْم الأشعري أمير إقليم الجزيرة الفراتية وأرمينية، ثم عاد عمرو بن معدي كرب وقيس إلى منطقة الجزيرة الفراتية ـ في أواخر سنة ١٩هـ تقريباً ـ قال الواقدي: «ووصل إلى عياض مِنْ العراق عامر بن مزينه رسولاً من عند سعد بن أبي وقاص يستنجد عياضاً على كسرى، فأنْفَذَ له نَجْدَهُ». [ص١١٤/ ٢]. ـ وقد افترضت رواية الواقدي أن أمير ولاية الكوفة كان ما يزال سعد بن أبي وقاص، والمقصود أن طلب النجدة ـ أو المدد ـ كان من أمير الكوفة، فكان عمرو وقيس على رأس القوة التي انطلقت إلى ولاية الكوفة بالعراق للمشاركة في مواجهة الجيوش الفارسية التي حشدها كسرى يزدجرد في نهاوند، وكان أمير الكوفة يومئذٍ عمار بن ياسر العنسي.

❊ ❊ ❊

عمرو في موقعة نهاوند بإيران:

كان كسرى يزدجرد ملك الفُرس قد انسحب من مدينة حلوان في العراق إلى مدينة أصبهان في إيران عندما افتتح جرير بن عبد الله البَجَلي مدينة حلوان والمناطق التابعة لها ـ سنة ١٨هـ ـ فانتهى بذلك الوجود الفارسي من آخر مناطق العراق، وأقام كسرى يزدجرد في مدينة أصبهان في إيران، ثم أخذ: يستنفر أهل بلاد فارس لمهاجمة المسلمين في العراق منذ سنة ١٩هـ. قال البلاذري: «لما هرب يزدجرد من حلوان في سنة تسع عشرة تكاتبت الفُرس وأهل الريّ وقومس وأصبهان وهَمَذَان والماهين ـ [وهي أقاليم إيران] ـ وتجمعوا إلى يزدجرد وذلك في سنة عشرين، فأمَّرَ عليهم مردانشاه ذا الحاجب، وكانت عدة المشركين يومئذ ستين ألفاً ويقال مائة ألف، ـ ونزلوا في نهاوند ـ وقد كان عمار بن ياسر كتب إلى عمر بن الخطاب بخبرهم، فكتب عمر إلى أهل الكوفة يأمرهم أن يسير ثلثاهم ويبقى ثلثهم لحفظ بلدهم وديارهم، وبَعَثَ مِن أهل البصرة بعثاً. . وكتب إلى النعمان بن مقرن المزني بتوليته الجيش. . وكان النعمان عاملاً على كسكر وناحيتها

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ١ ص٤١.

ـ بالعراق ـ ويقال: بل كان بالمدينة فولاه عمر أمر هذا الجيش مشافهة، فَشَخَص منها»[(١)]. وقال المسعودي في مروج الذهب أن عمر بن الخطاب بعث النعمان بن مقرن: «وبعث معه الزبير بن العوام، وعمرو بن معدي كرب، وحذيفة بن اليمان، والأشعث بن قيس»[(٢)].

وقال العسقلاني في ترجمة عمرو بن معدي كرب بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «قال البخاري في تاريخه: حدّثنا موسى حدّثنا حماد عن أبي عمران عن علقمة بن عبد الله بن معقل بن يسار، قال: بعث عمر بن الخطاب النعمان بن مقرن إلى نهاوند وبعث معه عمرو بن معدي كرب»[(٣)].

ويستفاد من مجمل ذلك أن عمرو بن معدي كرب قَدَم إلى عمر بن الخطاب والتَقَى به قبل موقعة نهاوند ـ وهو اللقاء السابع بينهما ـ وذلك بعد عودة عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح من منطقة الجزيرة الفراتية إلى الكوفة، ويبدو أن عدداً من الصحابة القادة توجهوا من الكوفة إلى عمر بن الخطاب للتشاور بشأن محاربة الفُرس في نهاوند، وكان منهم عمرو بن معدي كرب، والنعمان بن مقرن، وحذيفة بن اليمان، والأشعث بن قيس الكندي، وربما أيضاً جرير بن عبد الله البجلي، وقيس بن مكشوح المراد، ثم أسند عمر بن الخطاب قيادة الجيش في نهاوند إلى النعمان بن مقرن، وقال له ـ أو كما ذكر البلاذري ـ «كتب عمر إلى النعمان بتوليته الجيش، وقال: إنْ أصِبْت فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أُصيب فجرير بن عبد الله البجلي، فإن أُصيب فالمغيرة بن شعبة، فإن أُصيب فالأشعث بن قيس»[(١)]. وقال الحافظ ابن كثير: «كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجنود البصرة، وكتب إلى النعمان أن يسير بِمَنْ هناك ـ عنده ـ من الجنود إلى نهاوند، وإذا اجتمع الناس فكلُّ أميرُ على جيشه، والأمير على الناس كلهم النعمان بن مقرن، فإذا قُتل فحذيفة بن اليمان، فإن قُتل فجرير بن عبد الله، فإن قُتل فقيس بن مكشوح، فإن قُتل قيس ففلان، ثم فلان، حتى عَدّ سبعة، أحدهم المغيرة بن شعبة»[(٤)]. ويتبين من مجمل ذلك أن الأمراء السبعة الذين نَصّ عليهم عمر لقيادة الجيش الإسلامي في نهاوند هُمْ النعمان بُن مُقرن عامر كسكر، فإنْ أصيب فحذيفة بن اليمان عامل السواد، فإن أصيب فجرير بن

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٠.
(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٣٣٣.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص١٩.
(٤) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١٠٨.

عبد الله البجلي عامل حلوان، فإن أصيب فقيس بن مكشوح المرادي، فإنْ أصيب فالمغيرة بن شعبة، فإنْ أُصيب فالأشعث بن قيس الكندي، وكان سابع السبعة أبو موسى الأشعري أمير ولاية البصرة.

ووفقاً لما ذكره العسقلاني عن البخاري فإن النعمان بن مقرن وعمرو بن معدي كرب كانا بالمدينة، وكذلك فوفقاً لما ذكره المسعودي كان بالمدينة النعمان بن مقرن، وعمرو بن معدي كرب، وحذيفة بن اليمان، والأشعث بن قيس. وقد تقدم قول المسعودي أن عمر بن الخطاب «بعث معه ـ أي مع النعمان ـ الزبير بن العوام، وعمرو بن معدي كرب، وحذيفة بن اليمان، والأشعث بن قيس». وما ذكره العسقلاني عن البخاري قال: «بعث عمر بن الخطاب النعمان بن مقرن إلى نهاوند وبعث معه عمرو بن معدي كرب»(١).

* * *

ثم توجهت القوات مِنْ شتى أرجاء ولاية الكوفة والعراق إلى حيث اتعدوا مع النعمان بن مقرن على اللقاء للانطلاق إلى نهاوند، فاجتمعوا بمكان اللقاء، قال ابن كثير: «فكمل جيش المسلمين في ثلاثين ألفاً من المُقاتلة، فَمِنْهُمْ من سادات الصحابة ورؤوس العرب خلقٌ كثيرٌ وجَمٌّ غَفِيرٌ، مِنْهُمْ عبد الله بن عمر أمير المؤمنين، وجرير بن عبد الله البجلي، وحذيفة بن اليمان، وعمرو بن معدي كرب الزُّبيدي، وطليحة بن خويلد الأسدي، وقيس بن مكشوح المرادي. فسار الناس نحو نهاوند، وبعث النعمان بن مقرن الأمير طليحة بين يديه ثلاثة، وهُمْ طليحة، وعمرو بن معدي كرب، وعمرو بن أبي سلمة، ليكشفوا له خبر القوم ـ أي الفُرس ـ وما هُمْ عليه، فسارت الطليعة يوماً وليلة، فرجع عمرو بن أبي سلمة، فقيل له: ما رَجَعك؟ فقال: كنت في أرض العجم وقَتَلَتْ أرضٌ جَاهِلُها وقتل أرضاً عَالِمُها ـ (يعني أنه جاهلٌ بأرض العجم، بينما توغل عمرو مسيرة يوم وليلة داخل أرض العجم في إيران) ـ ثم رجع عمرو بن معدي كرب وقال: لم نر أحداً وخفتُ أن يؤخذ علينا الطريق ـ [وبالتالي فقد أخبرهم عمرو أن ليس هناك أحدٌ من جيش العدو مسيرة يوم وليلة] ـ ثم رجع طليحة وأخبرهم أن ليس بينهم وبين نهاوند ما يكرهون». فسار النعمان بن مقرن بالمسلمين حتى نزلوا في منطقة نهاوند، وأمامهم معسكر الجيش الفارسي، فعسكر المسلمون في مواجهة الجيش الفارسي بمنطقة نهاوند في إيران.

* * *

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص١٩.

وكان عمر بن الخطاب قد نَصّ على قادة جيش المسلمين بأن الأمير النعمان فإن أصيب فالأمير حذيفة، فإن أصيب فالأمير جرير بن عبد الله، فإنْ أصيب فالأمير قيس بن مكشوح، إلى أنّ عدّ سبعة، مهم الأشعث بن قيس، وما أن نزل الجيش في نهاوند حتى وصل رسول من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بكتاب إلى النعمان بن مقرن يأمره فيه بمشاورة عمرو بن معدي كرب وطليحة في كل ما يتعلق بالحرب، وعدم اتخاذ أي قرار بشأن الحرب إلا بمشورتهما، وقد ذكرت المصادر التاريخية ذلك بروايتين:

الرواية الأولى: قال ابن حجر العسقلاني: «ذكر ابن سعد عن الواقدي عن ربيعة بن عثمان أنه: لمّا ولّى عمر النعمان بن مقرن، كتب إليه: إن في جندك عمرو بن معدي كرب وطليحة بن خويلد، فأحضرهما وشاورهما في الحرب». قال العسقلاني: «وقد أخرج ابن أبي شيبة عن عبد الملك نحو الأول، وزاد «ولا تعطهما من الأمر شيئاً، فإن كل صانع أعلم بصناعته»»[(١)]. وقد أورد القرطبي في كتاب الاستيعاب رواية ابن أبي شيبة عن عبد الملك بن عمير قال: «كتب عمر إلى النعمان بن مقرن: استشر واستعنْ في حربك بطليحة وعمرو بن معدي كرب، ولاتولهما من الأمر شيئاً، فإن كل صانع أعلم بصناعته». وتتمثل الزيادة التي أشار إليها العسقلاني في عبارة (ولا تولهما من الأمر شيئاً). وبالتالي فإن كتاب وأمر عمر إلى النعمان هو: «استشر واستعن في الحرب بعمرو بن معدي كرب وطليحة فإن كل صانع أعلم بصناعته، فأحضرهما وشاورهما في الحرب»، وفي رواية أبي عبيدة بكتاب الأغاني: «فأحضرهما الحرب وشاورهما في الأمر».

الرواية الثانية: وهي رواية ابن أبي شبة عن عبد الملك بن عمير بزيادة عبارة «ولا تولهما من الأمر شيئاً»، وفي كتاب الأمالي عن الأصمعي: «فأحْضِرْهما الناس وشاوِرْهما في الحرب، ولا تُولِّهما عملاً»، وفي كتاب الأغاني للأصفهاني «فأحضرهما الحرب وشاورهما في الأمر، ولا تولهما عملاً، والسلام». فعبارة «لا تولهما شيئاً» أو «لا تُولِّهما عملاً» هي زيادة في الرواية الثانية لا وجود لها في الرواية الأولى التي يؤكد صحتها إن مناسبة رسالة عمر لم تكن تولية العمال ولم يكن النعمان والياً على إقليم حتى يقول له عمر: «ولا تولهما عملاً» وإنما كان النعمان قائداً للجيش في موقعة حربية واحدة هي نهاوند، فكتب إليه عمر قبل المعركة «استشر واستغن في الحرب بعمرو بن معدي كرب وطليحة فإن كل صانع أعلم بصناعته، فأحضروهما وشاورهما في أمر الحرب». وذلك لأنهما رجال

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ جـ٣ ص١٩.

حرب، ومناسبة الرسالة هي الحرب، وقد كان عمرو بن معدي كرب يومئذ يزيد عُمْره عن سبعين سنة، ولكن خبرته العميقة في الحرب، جعلت عُمَر يأمر باستشارته، وبذلك أصبحت استشارته وجوبية.

* * *

قال الأصمعي: «فلما قَدِم كتاب عمرُ إلى النعمان بعث إليهما. فقال: ما عندك يا عمرو»[١] بينما ذكر ابن كثير أن النعمان «جمع أهل الرأي من الجيش، وشاورهم كيف يكون من أمرهم حتى يتواجهوا هُمْ والمشركون». وكان المشركون زهاء مائة ألف ويزيدون ـ فقال أحد أهل الرأي: (إن بقاءهُم على ما هُمْ عليه أضرُّ عليهم، وأبقَى على المسلمين) ـ يعني عدم مهاجمتهم لأن جيشهم كبير ـ (فَردّ الجميع عليه وقالوا: إنّا لعلى يقين من إظهار ديننا، وإنجاز موعد الله لنا) ـ. وهنا قال النعمان بن معدي كرب: ما عندك يا عمرو؟ قال ابن كثير: «وتكلم عمرو بن معدي كرب فقال: نَاهِدْهُمْ، وكاثرهم، ولا تَخَفْهُمْ. فردوا جميعاً عليه وقالوا: إنّما تُناطح بنا الجدران، والجدرانُ أعوانٌ لهم علينا» ـ وذلك لأنهم في حصن كبير ـ فأضاف طليحة ما يمكن اعتباره تفصيلاً لرأي عمرو ـ بأن يتم بعث سَرِيَّة تناوشهم بالقتال، فإذا برز إليهم العدو، يتقهقرون، فسوف يخرج جيش العدو خلفهم، وعندئذ يُناهدهم الجيش الإسلامي، فتم توجيه السرية، وبرز لهم الفُرس، فتقهقروا إلى معسكر المسلمين فخرج الجيش الفارسي فتواجهوا مع الجيش الإسلامي. وتهيأ الفريقان للقتال واصطفوا للمعركة وجهاً لوجه، قال الأصمعي: «قال النعمان: ما عندك يا عمرو؟ فقال: أرُوني كبش القوم ـ أي قائدهم ـ فأعْتَنِقَهُ حتى يموتَ أو أموت..»[١] قال البلاذري: «وجعل النعمان على الميمنة الأشعث بن قيس، وعلى الميسرة المغيرة بن شعبة، فاقتتلوا، فكان النعمان بن مقرن أول مقتول يوم نهاوند.. فأخذ الراية حذيفة بن اليمان». فتواصلت المعركة بقيادة حذيفة بن اليمان وبقية القادة، قال الأصمعي: «فَشَدَّ عمرو بن معدي كرب على كَمِيٍّ مِنْ القوم فَقَتَلَه. وقُتِلَ النعمان بن مُقرن يومئذ». قال ابن حجر العسقلاني: «وقَاتَلَ عمرو بن معدي كرب يومئذ حتى كان الفتح». ـ وكان انتصار وفتح نهاوند سنة ٢٠هـ، وقيل: سنة ٢١هـ. والأصوب سنة ٢٠هـ، وربما في أواخر سنة ٢٠هجرية، قال ابن كثير: «وَلَمْ تقم للأعاجم بعد وقعة نهاوند قائمة»[٢].

* * *

(١) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ جـ٣ ص١٤٤.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١٠٨.

سنوات عمرو بن معدي كرب.. الأخيرة:

لقد عاد عمرو بن معدي كرب بعد فتح نهاوند إلى الكوفة، ولم يستشهد في موقعة نهاوند، كما جاء في إحدى الروايات التي وقع الالتباس فيها لأنه مات في منطقة نهاوند، فظن البعض أنه مات في موقعة نهاوند، والصواب أنه عاش عدة سنوات بعد موقعة نهاوند، ومات ـ كما سيأتي ـ في خلافة عثمان بن عفان.

فقد عاد عمرو بعد فتح نهاوند إلى الكوفة، قال أبو علي القالي في كتاب الأمالي عن الأصمعي ـ بعد نبأ موقعة نهاوند ـ أنه: «اجتمع العربُ فتفاخروا، وذلك في كُناسة الكوفة، فقال عمرو بن معدي كرب في ذلك:

لِمَنْ الديارُ بِرَوْضة السُّلان ... فالرَّقْمتَيْن فجانب الصَّمَّان

لَعِبَتْ بها هُوجُ الرياح وبُدِّلت ... بَعْدَ الأنيس مَكَانِسَ الثِّيران

فكأنَّ ما أَبْقَيْن مِنْ آياتها ... رَقْمٌ يُنَمِّق بالأكفِّ يماني

دارٌ لعَمْرة إذْ تُريكَ مُفَلَّجاً ... عَذْبَ المَذاقة واضحَ الألوان

خَضْراً يُشَبِّه بَرْدُه وبياضُه ... بالثلج أو بمُنَوِّر القُحْوان

والشُّهْدِ شِيبَ بماء وَرْد باردٍ ... منها على المُتَنفِّس الوَهْنان

وَأَغَرَّ مصقولاً وعَيْنَي جُؤْذَرٍ ... ومُقَلَّداً كَمُقَلَّد الأُدْمان[١]

سَنَّتْ عليه قلائداً منظومة ... بالشَّذْر والياقوت والْمَرْجان»

ثم انتقل عمرو إلى الفتوحات، وقد أورد كتاب الأمالي أربعة أبيات عن الفتوحات من هذه القصيدة، وهي:

«والقادِسيَّةُ حيث زَاحَمَ رُسْتُمُ ... كُنَّا الحُمَاةَ بِهِنَّ كالأشطان

الضارِبين بكُلِّ أبْيَضَ مِخْذَم ... والطَّاعِنين مَجامع الأضغان

ومَضَى ربيعُ بالجنود مُشَرِّقاً ... ينوي الجهاد وطاعة الرحمن

حتى استباح قُرَى السَّواد وفارسٍ ... والسَّهْل والأجبال مِنْ مَكْران»[٢]

والقائد ربيع الذي مَضَى شرقاً للجهاد وطاعة الرحمن هو الصحابي القائد ربيع بن زياد الحارثي المذحجي، وكان قد شهد موقعة نهاوند في جند البصرة مع أبي موسى الأشعري أمير ولاية البصرة، ثم سار بالجنود فاستباح وافتتح قرى إقليم

(١) الأُذمان: جمع أدمة، والأدمة في الظباء: لون مشرب بياضاً.
(٢) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ جـ٣ ص١٤٤.

فارس وإقليم مكران في جنوب إيران وذلك سنة ٢١هـ وسنة ٢٢ هجرية.

* * *

قال البلاذري: «وكان عمرو بن معدي كرب غزا الرَيّ أول ما غزيت». وقد ذكر البلاذري أول غزو لإقليم الريّ ـ في شمال إيران ـ قائلاً: «كتب عمر بن الخطاب إلى عمار بن ياسر وهو عامله على الكوفة، بعد شهرين من وقعة نهاوند، يأمره أن يبعث عروة بن زيد الخيل الطائي إلى الريّ ودُسْتَبَىٰ في ثمانية آلاف، ففعل. وسار عروة إلى ما هناك فجمعت له الديلم وأمدّهم أهل الريّ، فقاتلوه، فأظهره الله عليهم»[١]. وقد غزا إقليم الريّ في ذلك الجيش عمرو بن معدي كرب، والبراء بن عازب الأنصاري، وكثير بن شهاب الحارثي، وغيرهم من الصحابة، وتم فتح بعض مناطق إقليم الريّ ودُسْتَبَىٰ ومصالحة أهلها، وذلك في خلافة عمر، وولاية عمار بن ياسر للكوفة، سنة ٢١ هجرية. وعاد عمرو إلى الكوفة، ثم سار عمرو في جيش كثير بن شهاب الحارثي المذحجي وغزا إقليم الريّ سنة ٢٢هـ. وذلك أنه «لما عزل عمر بن الخطاب عماراً وولّى على الكوفة المغيرة بن شعبة، وَلّى المغيرةُ كثير بن شهاب الحارثي الريّ ودُسْتَبَىٰ، فلما صار إلى الريّ وجد أهلها قد نقضوا، فَقَاتَلهم حتى رجعوا إلى الطاعة وأذعنوا بالخراج والجزية، وغزا الديلم فأوقع بهم»[١]. وكان ذلك في أواخر سنة ٢٢هـ، وقيل سنة ٢٣هـ، ثم توفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ٢٦ ذي الحجة ٢٣هـ، وتولى الخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

* * *

وكان عمرو بن معدي كرب رضي الله عنه بمدينة الكوفة في أوائل خلافة عثمان بن عفان، وفي ذلك:

* قال ابن حجر العسقلاني: «اخرج أحمد بن سيار وعمرو بن شبة من طريق رميح بن هلال عن أبيه قال: رأيتُ عمرو بن معدي كرب في ولاية معاوية، شيخاً عظيم الخلقة، أعظم ما يكون من الرجال، أجش الصوت، إذا التَفَتَ إلْتَفَتَ بجميع جسده». ـ والمقصود في ولاية معاوية للشام وخلافة عثمان بن عفان، لأن عمرو بن شبة ذكر وفاة عمرو في خلافة عثمان ـ.

* وذكر الأصفهاني من طريق «أبي أياس البَصْري عن أبيه عن جويرية الهذلي

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣١٦.

قال: رأيت عمرو بن معدي كرب وأنا بمسجد الكوفة في خلافة عثمان حين وَجّهَهُ إلى الريّ، كأنّه بعيرُ مهنوّ».

* وقال هشام بن الكلبي: «حدّثنا أسعر عن عمرو بن جرير الجعفي عن خالد بن قطن قال: خرج عمرو بن معدي كرب في خلافة عثمان إلى الريّ ودُسْتَبَىٰ، فمات بروذة في طريقه إلى الريّ». وذكر الأصفهاني عن رواية عمرو بن شبة أنه «كانت مغازي العرب إذْ ذاك الريّ ودُسْتَبَىٰ، فخرج عمرو في شباب من مذحج حتى نزل الخان الذي دون روذه، فتغدى القوم ثم ناموا، ثم قام الناس للرحيل، وأبطاء عمرو، فصاحوا به يا أبا ثور، فلم يُجِبْهُمْ، فقصدوا إلى موضعه» وجاء في كتاب الإصابة أنه كان أُصيب بجرح في موقعة نهاوند، ثم «أثبتته الجراحة، فمات بقرية الروذة». فيكون ذلك عندما قصد الذين معه موضعه، فوجدوه قَدْ توفي، وكان ذلك وهو سائر لغزو إقليم الريّ في خلافة عثمان بن عفان، وقد ذكر البلاذري أن الريّ كانت ملتاثة ـ أي مضطربة ـ فغزاها أمير الكوفة في خلافة عثمان سنة ٢٥هـ، فيكون ذلك هو الغزو والجهاد الذي سار عمرو للمشاركة فيه، فمات بقرية الروذة من منطقة نهاوند وهو متوجّه إلى الريّ. وقال البلاذري: «غزا عمرو بن معدي كرب الريّ فلما انصرف توفي فَدُفن فوق روذة وبُوْسِنة بموضع يُسَمَّى كرمانشاهان»[١].

قال الحافظ ابن كثير: «وكان عمرو بن معدي كرب رضي الله عنه مِنْ الشعراء المجيدين.. وقال بعضُ مَنْ رثاه من قومه:

لَقَدْ غادَر الركبان يومَ تحملوا بروذة شخصاً لا جباناً ولا غمرا
فَقُلْ لزُبيد بل لمذحج كلها رزئتمْ أبا ثورٍ قريع الوغَىٰ عَمْرا[٢]

وبعد البيتين بيت ثالث:

فإن تجزعوا لا يُغْن ذلك عنكم ولكن سَلُوا الرحمن يعقبكم صبرا

وكانت وفاة عمرو سنة ٢٥هـ ولكن تاريخه المجيد كان وما يزال خالداً عبر الأزمنة والعصور، فرضي الله عنه وأرضاه.

* * *

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣١٦.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١١٩.

٣٤

عفيف بن معدي كرب الكندي

ـ أولُ مَنْ حَرَّم الخَمْرَ في الجاهلية ـ

مِنْ أعلام اليمانيين السابقين إلى الإسلام هو الأمير الشاعر الصحابي عفيف بن معدي كرب بن معاوية بن جَبَلة بن عَدِي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي وهو أولُ مَنْ حرم الخمر في الجاهلية.

قال ابن حجر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «قال الطبري: اسمه شرحبيل، وعفيف لقب. وقال الجاحظ: اسمه شراحيل ولُقِبَ عفيفاً لقوله:

وقالتْ لي هَلُمَّ إلى التَّصَابي فقلتُ: عَفَفْتُ عما تَعْلَمِينَا»[١]

وذكر القرطبي في كتاب الاستيعاب أن رجالاً حرموا الخمر على أنفسهم في الجاهلية قائلاً: منهم «عامر بن الظرب ويقال هو أول من حَرَّم الخمر في الجاهلية، ويُقال عفيف بن معدي كرب الكندي»[٢].

وقد كان عامر بن الظرب من الذين حرموا الخمر على أنفسهم في الحجاز ومات في الجاهلية، بينما كان عفيف بن معدي كرب الكندي وسُويد بن عَدِيّ بن عمرو بن سلسلة المَعْنِيُّ الطائي وأسد بن كَرْز القسري البجلي مِن رجالات اليمن الذين حرموا الخمر على أنفسم في الجاهلية وكان أول من حرمها عفيف بن معدي كرب، قال أبو علي القالي في كتاب الأمالي: «حَرَّمَ رجالُ الخَمْرَ في الجاهلية تكَرُّماً وصيانة لأنفسهم.. منهم عفيف بن معدي كرب عم الأشعث بن قيس، وقال في ذلك:

وقائلةٍ هَلُمَّ إلى التصابي فقلتُ: عَفَفْتُ عما تَعْلَمينا

وَوَدَّعْتُ القِدَاح وقد أراني بها في الدَّهْرِ مَشْغُوفاً رَهينا

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة عفيف الكندي ـ جـ٢ ص٤٨٧.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ جـ٣ ص١٠٣.

وحَرَّمتُ الخُمور عليَّ حتَّى أكونُ بقَعْرِ مَلْحُودٍ فينا»[1]

* * *

وعفيف بن معدي كرب هو أخو الملك قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جَبَلَةْ بن عَدِي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي، وكان بنو معاوية الأكرمين ملوك وزعماء حضرموت في الجاهلية، وقد جاء في كتاب الاستيعاب أن معاوية الأكرمين: ابن الحرث الأصغر بن الحرث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن ثور بن عفير بن عَدِي بن مُرّة بن أود بن زيد الكندي، وكندة هُمْ ولد ثور بن عفير»[2]. والأصوب أن ثور بن عفير هو كندة. قال ابن خلدون: «وأما كنده: فاسمه ثور بن عفير بن عدي بن الحرث بن مُرّة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عَرِيب بن زيد بن كهلان بن سبأ. . ومنهم الأشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جَبَلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية ـ الأكرمين ـ بن الحرث الأكبر». قال ابن خلدون: «وبلادهم بجبال اليمن مما يلي حضرموت، ومنها دمون التي ذكرها امرؤ القيس في شعره»[3]. يعني قول امرئ القيس بن حُجر بن الحارث بن عمرو بن حُجر آكل المُرّار الكندي وهو عند عمه معدي كرب في حضرموت:

تطاول الليلِ علينا دَمُون دَمُون إنّا معشرٌ يمانون
وإننا لأهلنا مُحِبُّون

وفي بني معاوية الأكرمين الزعماء الملوك في حضرموت قال الشاعر الجاهلي أعشى قيس:

فإنّ مُعَاوية الأكْرَمين عِظامُ القِبَاب، طِوَالُ الأمَمْ[4]
مَتَى تَدْعُهُمْ لِلقاء الحُرُوب تأتِكَ خَيْلٌ لَهُمْ غَيرُ جُمْ[5]
إذا ما هُمُ جَلَسُوا بالعَشِيّ فأحلامُ عادٍ، وأيْدِي هُشُمْ[6]

وكان قيس بن معدي كرب أخو عفيف بن معدي كرب من زعماء اليمن المشهورين الذين استقلوا بحكم مناطقهم وأصبحوا ملوكاً عليها بعد انتهاء عصر الدولة الحميرية التي كانت تحكم كل اليمن وانتهاء عهد سيف بن ذي يزن، حيث

---

(١) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ جـ١ ص٢٠٥.
(٢) الاستيعاب ـ للقرطبي جـ١ ص١٠٩.
(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٤٠.
(٤) الأمم: القامة.
(٥) أراد بالخيل: فرسان الخيل. الجم، الواحد أجم: مَنْ لا رمح معه.
(٦) الهضم: الواحد هضوم، التي تجود بما لديها.

استقل الزعماء الأذواء بحكم مناطقهم، ومنهم الحارث بن عبد كلال ذو رعين في مخاليف رُعَيْن، وفهد بن عبد كلال في المعافر، وزُرعة بن سيف بن ذي يزن في أبين وفي وادي عبدان والقسم الأدنى مِنْ شبوه، وقيس بن معدي كرب الكندي في القسم الأعلى مِنْ شبوة وفي حضرموت إلى المهرة بمشارق اليمن. قال أعشى قيس الجاهلي حين وفد من منطقته باليمامة إلى قيس بن معدي كرب الكندي في حضرموت للمرة الأولى:

ونُبِّئْتُ قَيْساً ولَمْ أَبْلُهُ ... كما زَعَمُوا خَيرَ أَهْلِ اليَمَنْ
رَفِيعَ الوِسَادِ، طويلَ النِّجادِ ... ضَخِمَ الدَّسِيعَة، رَحبَ العَطَنْ
.. فَجِئْتُكَ مُرْتَادَ ما خَبَّرُوا ... ولولا الذي خَبَّروا لَمْ تَرَنْ

فأكرمه قيس بن معدي كرب. فقال الأعشى قصيدة منها:

عُدَّ هٰذَا في قَرِيضٍ غَيْرِهِ ... واذكُرَنْ في الشّعرِ دِهْقَانَ اليَمَنْ[1]
بأبي الأشْعثِ قيسٍ إنّه ... يشتري الحَمدَ بمنفوسِ الثّمَنْ

ثم أصبح أعشى قيس دائم الوفادة إلى قيس بن معدي كرب أخي عفيف بن معدي كرب الكندي، وقال فيه عشرات القصائد وذكَر فيها الكثير مِنْ معالم تلك الفترة، فيتبين منها أن حكم قيس كان يشمل شبوة وحضرموت. فقد قال الأعشى وهو عنده في شبوة:

إنّا لَدَى مَلِكٍ بِشَبْوَةَ ... ما تَغِبُّ لَهُ النَّوَافِلْ
مُتَحَلِّبِ الكَفَّيْنِ مِثْل ... البدرِ قوّالٌ وفاعِلْ

وكان حصن النُجيّر في منطقة وادي حضرموت هو مقر قيس بن معدي كرب، قال الأعشى:

يَا حَبَّذا وادي النُّجَيرِ ... وَحَبَّذا قَيْسُ الفِعَالِ
القائِدِ الخَيْلَ الجِيَادِ ... ضَوَامِراً مِثْلَ المغَالي[2]

وكان مجلس قيس بن معدي كرب لا يخلو من النَدَامَى يشربون أقداحاً من الخمر، والفتيات المُغَنّيات يَصْدَحْنَ بالغناء ويَعْزِفْنَ ويَضْرِبن بالآت الطرب والغناء. وفي ذلك قال أعشى قيس:

.. وجُلُنْدَاء في عُمَانَ مُقيماً ... ثمّ قَيْساً في حَضْرَمَوْتَ المُنِيفِ

---

(١) دهقان: كلمة فارسية معناها تاجر كبير، وتُستخدم بمعنى زعيم عظيم. والمقصود هنا عظيم اليمن.
(٢) المغالي: السهام التي يرمى بها.

قَاعِداً حَوْلَهُ النَّدَامَى فما يَنْـ ـفَكّ يُؤْتَى بِمُوكَرٍ مَجْدُوفِ[١]
وَصَدُوحٍ، إذا يُهَيّجُهَا الشَّرْ بُ، تَرَقّتْ في مِزْهَرٍ مَنْدُوفِ[١]

والموكر المجدوف مِنْ آلات الغناء، والصدوح: المرأة التي تصدح بالغناء والشَّرْب: الذين يشربون أقداح الخمر وهم الندامى، والمندوف: المضروب على أوتاره من آلات الغناء والطرب.

وكان عفيف بن معدي كرب يحضر مجلس أخيه الملك قيس بن معدي كرب، ولكنه كان يترفع عن اللهو وشُرب الخمر صيانة لنفسه وتكرّماً وتحليّاً منه بمكارم الأخلاق. وقد حاولتْ الفتاةُ الصَدُوح أن تُغريه باللهو والشرب في مجلس أخيه الملك قيس، فأبَى عفيف، وقال في ذلك أبياته نادرة المثيل في الجاهلية:

وقائلةٍ هَلُمَّ إلى التصابي فقلتُ: عَفَفْتُ عَمّا تعلمينا
وَوَدّعْتُ القِداح وقد أراني بها في الدهر مَشْغُوفاً رهِينا
وحَرَّمت الخُمور عليَّ حتّى أكون بقَعْرِ مَلْحُودٍ دَفِينا

«وقال عفيف بن معدي كرب أيضاً:

فلا والله لا أُلْقَى وشَرْباً أُنازعُهُم شراباً ما حَيِيتُ
أبَى لي ذاكَ آباءُ كِرَامُ وأخْوالُ بِعِزّهُمُ رَبَتْ»[٢]

وكان عفيف بن معدي كرب تاجراً، وفي إطار نشاطه التجاري كان يسير إلى مكة في الجاهلية، فينزل عند العباس بن عبد المطلب، وكان العباس تاجراً وكان إذا سار للتجارة إلى الشام أو البحرين أو اليمن ينسب نفسه إلى بني حُجر آكل المُرَار الكندي. قال ابن هشام في السيرة النبوية: «كان العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحرث تاجرين، وكانا إذا شاعا في بعض العرب فَسُئِلا مِمَّنْ هُمَا قالا: مِنْ بني آكل المُرار، يَتَعَزَّزان بذلك، لأنهم كانوا ملوكاً»[٣] وقد كانت هناك علاقة وثيقة بين العباس وبين أسرة ملوك كندة ومنهم عفيف بن معدي كرب، ولذلك كان عفيف إذا سار إلى مكة ينزلِ بمنزلِ العباس بن عبد المطلب، وبينما هو عنده شاهَدَ مشهداً عند الكعبة لم يسبق له في التاريخ مثيل. وقد روى عفيف نبأ ذلك

(١) الموكر: المملوء. المجدوف: المقطوع. وهم من آلات الغناء. والمندوف: المضروب على أوتاره من آلات الغناء.
(٢) الأمالي لأبي علي القالي ـ جـ١ ص٢٠٥.
(٣) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥٥.

المشهد وذلك الأمر الذي وَصَفه بأنه أمر عظيم. وأخرج حديث عفيف عن ذلك البخاري والبغوي وأبو يَعْلَى والنّسائي وابن مَنْدَه والحاكم، وذكرته كتب تراجم الصحابة مِنْ عدة طُرق. فقد جاء في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب من طريق إسماعيل بن إياس عن عفيف الكندي قال: «كُنتُ امرأً تاجراً، فقدمت الحج، فأتيتُ العباس بن عبد المطلب، فوالله إني لعنده يوماً، إذْ خرج رجلُ من خباء قريب منه، فنظر إلى السماء فلما رأى الشمس زالت قام يُصلي، ثم خرجت امرأةٌ من الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل فقامت خلفه تُصلي. فقلتُ للعباس: مَنْ هذا يا أبا الفضل؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي، فقلتُ: مَنْ هذه المرأة؟ قال: خديجة بنت خويلد زوجته. ثم خرج غلامُ راهق الحلم من ذلك الخباء فقام يُصلي معه، فقلتُ: ومَنْ هذا؟ قال: علي بن أبي طالب ابن عمه. قُلتُ: فما هذا الذي يصنعُ؟ قال: يُصلي. ويزعم أنه نبيّ، ولم يتبعه إلا امرأته وابن عمه هذا الفتى. وهو يزعُم أنه ستُفتح عليه كنوز كسرى وقيصر»[(١)].

وقد جاء أول هذا الحديث في رواية ثانية ذكرها القرطبي في كتاب الاستيعاب من طريق خالد بن عبد الله البجلي عن أبي يحيى عن عفيف الكندي قال:

«جئت في الجاهلية إلى مكة، فنزلتُ على العباس بن عبد المطلب، فبينا أنا عنده أنا أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس وارتفعت، إذْ جاء شاب حتى دنا مِنْ الكعبة فرفع رأسه وانتصب قائماً مستقبلها، إذْ جاء غلامُ حتى قام عن يمينه ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى جاءت امرأةٌ فقامت من خلفهما، ثم ركع الشاب وركع الغلام وركعت المرأة، ثم رفع الشاب رأسه ورفع الغلام ورفعت المرأة، ثم خرَّ الشاب ساجداً. وخرَّ الغلام وخرّت المرأة..»[(١)] ثم بعد ذلك سأل عفيفُ العباس عن هذا الأمر.

وقد أورد ابن حجر العسقلاني في ترجمة عفيف بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة حديث عفيف قائلاً:

«روَى البغوي وأبو يَعْلَى والنسائي.. من طريق أسد بن وادعة عن أبي يحيى بن عفيف عن أبيه عن عفيف الكندي قال: جئتُ في الجاهلية إلى مكة وأنا أريد أن أبتاع لأهلي، فأتيتُ العباس، فأنا عنده جالس انظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء، إذْ جاء شابُ فاستقبل الكعبة ثم لم ألبث حتى جاء غلام فقام

---

(١) ترجمة عفيف بن معدي كرب الكندي ـ الاستيعاب ـ جـ٣ ص١٦٣ ـ والإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٤٨٨.

عن يمينه ثم جاء امرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة، ثم رفعوا ثم سجدوا، فقلت: يا عباس أمر عظيم؟ قال: أجل، قلت: من هذا؟ قال: محمد بن عبد الله بن أخي، وهذا عليّ بن أخي وهذه المرأة خديجة، وقد أخبرني أن رب السموات والأرض أمره بهذا الدين. ولا والله على الأرض كلها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة. قال عفيف: فتمنيت أن أكون رابعهم».

قال العسقلاني: «وله ـ أي هذا الحديث ـ طريق أخرى أخرجها البخاري في تاريخه، والبغوي، وابن أبي خيثمة، وابن منده، ورواه الحاكم في المستدرك»(١).

ويتبين من مجمل تلك الروايات الترتيب التالي:

ـ كان عفيف امرأً تاجراً، فقدم في الجاهلية إلى مكة في موسم الحج للتجارة وليبتاع أشياء لأهله، ونزل عند العباس.

ـ وبينما هو في منزل العباس ينظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء وارتفعت، شاهد رجلاً جاء إلى جوار الكعبة فنظر إلى السماء فلما رأى الشمس زالت، دَنَا مِنْ الكعبة فرفع رأسه وانتصب قائماً مستقبلاً الكعبة، ثم جاء اثنان امرأةُ وغلام، فقاما معه، ثم ركع الرجل فركعا بعده ثم رفع رأسه فرفعا رأسهما ثم سَجَد فسجدا بعده. ـ وكان عفيف يراقب باهتمام بالغ ذلك المشهد الذي لم يسبق له مثيل.

ـ ثم قال عفيف للعباس: مَنْ هذا يا أبا الفضل؟ قال: هذا محمد بن عبد الله، ابن أخي، وهذه المرأة خديجة زوجته، وهذا الغلام عليّ بن أخي. قال عفيف: فما هذا الذي يصنع محمد؟ قال: لي. فهو يزعم أنه نبيُّ، ثم أضاف العباس قائلاً: قد أخبرني ـ [وفي رواية الاستيعاب: قد حدثنا] ـ أن ربه رب السموات والأرض أمره بهذا الدين.

ـ ثم قال عفيف: يا عباس أمرُ عظيم. قال: أجل.

ـ ولما لاحظ العباس اهتمام عفيف، قال: لم يتبعه على دينه إلا امرأته هذه وابن عمه هذا الغلام. ويبدو أن العباس هو الذي أقسم قائلاً: «لا والله ما على الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة». ويبدو أنه استدرك ذلك القسم فقد جاء في رواية الاستيعاب أنه قال: «والله ما أعلم على وجه الأرض على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة» وقد يكون القائل هو عفيف وذلك بناءً على ما سمعه من

(١) ترجمة عفيف بن معدي كرب الكندي ـ الاستيعاب ـ جـ٣ ص١٦٣ ـ والإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٤٨٨.

العباس. ويبدو أن العباس أراد أن يصرف اهتمام عفيف الكندي، فأضاف قائلاً: «وهو يزعم أنه ستُفتح عليه كنوز كسرى وقيصر».

ولكن تأثير تلك العبارة على عفيف لا بدو سلبياً، كما لم يؤثر عليه أن لا يكون على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة، ويتجلى عدم التأثير في قوله: (تمنيتُ أن أكون رابعهم)، وقد تَمنى عفيف ذلك في نفسه، ولم يُسلم آنذاك، ولكنه أسلم في إحدى السنوات اللاحقة من سنوات فترة البعثة النبوية بمكة.

ـ لقد كان المشهد الذي شاهده عفيف وهو عند العباس في أوائل السنة الأولى للبعثة النبوية، وقد جاء في إحدى الروايات عند ذلك الإضافة التالية «كان عفيف يقول وقد أسلم بعد، لو كان الله يرزقني الإسلام يومئذٍ كنتُ ثانياً مع عليّ». فقال البخاري تعقيباً على ذلك «لا يُتابَعُ في هذا». وتعقيب البخاري يعود إلى ثبوت أنه كان قد أسلم زيد بن حارثة الكلبي وأسلمت خديجة وأسلمت أُم أيمن زوجة زيد بن حارثة (وهُمْ أول من أسلم في بيت محمد بعد نزول الوحيّ عليه مباشرة) وأسلم أبو بكر الصديق ـ وهو أول من أسلم من قريش ـ وأسلم عليّ بن أبي طالب ـ وهو أول من أسلم من الصبيان ـ وأسلم المقداد بن عمرو البهراني القضاعي الحميري وهو سابع سبعة كانوا أول من أظهر الإسلام، وأسلم ياسر العنسي وعمار بن ياسر العنسي وسُمية أُم عمار، وآخرون، وإنما لم يكن عفيف يعلم ذلك، وقد وَثَق بقول العباس (لم يتبعه على أمره إلا امرأته هذه وابن عمه عليّ هذا الغلام)، ويمكن أن يكون المقصود بقول عفيف: (لو أسلمت يومئذٍ كنتُ ثانياً مع عليّ) وقوله: (تمنيتُ أن أكون رابعهم) يعني في الصلاة يومئذٍ عند الكعبة مع النبيّ محمد عليه الصلاة والسلام، وقد كان لذلك المشهد ولذلك اليوم تأثيره في نفس وتفكير عفيف حين عاد ـ في اليوم التالي ـ إلى منطقته باليمن، ثم حين جاء ـ في سنة لاحقة لتلك السنة فأسلم وآمن برسول الله ﷺ، وعاد إلى منطقته باليمن وهي منطقة كندة وحضرموت، حيث ساهم عفيف في الدعوة إلى دين الإسلام في تلك المنطقة التي كانت تسودها الديانة المسيحة.

* * *

ومن المفيد هنا تبيين أن منطقة كندة وحضرموت كانت من مناطق اليمن التي تسودها الديانة المسيحية قبل الإسلام، وليس الديانة الوثنية ولا اليهودية كما يظن البعض. لقد كانت الديانة الوثنية سائدة في العديد من مناطق وقبائل اليمن، ومنها مناطق وقبائل همدان ـ وهي حاشد وبكيل ـ وكان معبودها الرئيسي (يَعُوق) وقبائل مذحج وكان معبودها الرئيسي (يعوق) و(ودّ) وكانت قبيلة خثعم تعبد الصنم (ذي

الخُلصة) وقبيلة دوس تعبد الصنم (ذي الكفّين) بينما كانت الديانة المسيحية هي الديانة الرئيسية والسائدة في ثلاث مناطق رئيسية باليمن هي مناطق حمْير وحضرموت ونجران منذ زمن الملك عبد كلال بن مثوب ذي رُعين ملك الدولة الحميرية، وقد ذكره العالم المؤرخ نشوان بن سعيد الحميري في قصيدته التاريخية عن ملوك دولة اليمن الحميرية قائلاً:

أمْ أين عبد كُلال الماضي على دين المسيح الطاهر المساح

وقد كانت تسود اليمن عبادة العديد من الآلهة والشمس والقمر والكواكب حين تولى الملك عبد كلال حكم اليمن في أواسط القرن الرابع الميلادي. قال الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «تولى عبد كلال بن مثوب مُلْك اليمن بسنٍ وتجربة وسياسة حسنة، وكان على دين النصرانية الأولى. وكان الذي دعاه إليه رجلُ مِنْ غسان قَدِم عليه مِنْ الشام»[١]. وغني عن البيان أن غسان قبيلة يمانية انتقلت من أرض مأرب في اليمن إلى الشام وأصبحت تتزعم سائر القبائل العربية في الشام واعتنقت الديانة المسيحية، وكان بنو جفنة الغسانيون ملوكاً للعرب في إطار سلطة الإمبراطورية الرومانية بالشام، وتذكر المصادر الرومانية إن الحارث بن أبي شمر الجفني الغساني كان «أميراً على جميع العرب بالشام وحامياً للكنيسة. ويحمل لقب فيلارك وبطريكوس PHYLARCH AND PATRICUS وهو أعلى لقب بعد الإمبراطور الروماني»[٢] ولما وَفَد حسان بن ثابت الأنصاري إلى الملك جَبَلة بن الأيهم الجفني الغساني قبل الإسلام، قال قصيدة ذكر فيها مناطق غسان بالشام، ثم قال:

ذَاكَ مَغنَى لآل جَفنة في الدهر، وحتى تقادم الأزمان

قد دنا الفصحُ فالولائدُ يَنْظُمْنَ سريعاً أكلّة المُرجان

صلوات المسيح في ذلك الدَير دعاء القسيس والرُهبان

وقد كان الذي دَعَا الملك عبد كُلَال إلى المسيحية رجلُ من غسان كان قسيساً راهباً، اسمه (فوفل) وقد ذكرته المصادر الرومانية بأنه (الراهب ثيوفيلوس) وأن الملك الروماني «قسطنسيوس بن قسطنطين» بَعثَه إلى «ملك حِمْيَر، فنجح الراهب ثيوفيلوس في إقناع ملك حمير باعتناق الديانة المسيحية، وقام ـ ملك حِمْيَر ـ ببناء ثلاث كنائس، إحداها في مدينة ظفار، والثانية في عبدن ـ وهي عَبَدان ـ

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ ابن جرير الطبري ـ جـ٢ ص٨٦.
(٢) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص١٩.

والثالثة في سأكلن»[١]. فذلك الملك هو عبد كلال بن مثوب ذي رُعَين ملك الدولة الحميرية، والديانة المسيحية التي اعتنقها هي التي وصفتها كتب التاريخ العربية بأنها (دين النصرانية الأولى) وقام بتشييد كنيسة في مدينة ظفار بمخلاف ذي رعين ـ بلواء إب حالياً ـ وكانت ظفار عاصمة الدولة، وقد جاء ذكر الكنيسة في نقشٍ حميري بالمسند في نجران بلفظ (قليس ظفار)[٢] أي كنيسة ظفار، وكانت الكنيسة الثانية في مدينة عبدان في وادي عَبْدَان بمنطقة شبوه، والكنيسة الثالثة في سأكلن في شرق حضرموت. ومنذ ذلك الزمن انتشرت المسيحية وكانت الديانة الرئيسية في مناطق حِمْيَر وفي نجران وفي حضرموت قبل الإسلام، ومما يتصل بالشواهد الأثرية على ذلك، يقول ميخائيل بيوتروفسكي: «إن من الدلائل النقوشية بصدد الديانة المسيحية في اليمن: خدوشُ منقورةُ ورسوم صلبان ونقوش في ضواحي نجران وفي حضرموت.. ونقش باسم برق بن مالك عبد المسيح في القرن الخامس الميلادي»[١] وكذلك تنطق بالديانة المسيحية نقوش عهد الملك (سميفع اشوع ملك حيمر) وهو صاحب النقش المنحوت على صخرة في موقع بئر علي بموقع ميناء قنا في حضرموت، وله أيضاً نقش مسند يختتمه بعبارة «باسم الرحمن وابنه المسيح الناصري نَفَسْ قُدس»[٣] وقد حكم الملك سميفع هذا في القرن السادس الميلادي وهو جد سيف بن ذي يزن الذي بشر بالنبي محمد ﷺ بعد سنتين من مولد النبيّ ﷺ وكان سيف وجده سميفع يدين بالديانة المسيحية التي بها أيضاً كان يدين أذواء حمير الملوك الذين أدركوا الإسلام وقيس بن معدي كرب ملك كندة وحضرموت الذي تؤكد إحدى قصائد أعشى قيس بأنه كان يدين بالمسيحية.

لقد قال أعشى قيس عشرات القصائد في قيس بن معدي كرب الكندي ـ أخي عفيف بن معدي كرب ـ إذْ كان الأعشى يفيدُ إلى قيس بن معدي كرب في حضرموت كل سنة تقريباً ويمكث عنده فترات، ولم يزل كذلك إلى ما قبل وفاته بيسير، وكانت قصائد الأعشى مشهورة في الجاهلية وبعد الإسلام. وقد ذكر أبو العباس المبرد: أن معاوية بن أبي سفيان قال لمحمد بن الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي (ما كان جدك قيس أعطى الأعشى؟ فقال: أعطاه مالاً وظهراً ورقيقاً وأشياء نسيتها، فقال معاوية: ولكن ما أعطاكم الأعشى لا يُنْسَى)[٤].

(١) ملحمة أسعد الكامل ـ ميخائيل بيوتروفسكي ـ عن كتاب تاريخ الكنائس ـ لفيلو ستروغ.
(٢) نقش شراحيل ذي يزن. نجران ١٠٢٨ جام.
(٣) نقش سميفع أشوع ملك حمير ـ ٣٠٩٤ ركائز ـ في العربية السعيدة ـ محمد بافقيه ـ ص١٦٤.
(٤) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد ـ جـ٢ ص٢٢٢.

وقصائد الأعشى في قيس بن معدي كرب مذكورة في ديوان الأعشى، ومنها قصيدة مِنْ ٥٤ بيتاً، قال فيها:

ولقد نزلْتُ بخَير من وطيءَ الحَصَى قَيْسٍ، فأثْبَتَ نعْلَها وقِبَالَهَا

ومنها قوله لقيس بن معدي كرب:

عَودْتَ كِنْدَةَ عادَةً فاصْبِرْ لها، أغْفِرْ لِجَاهِلِهَا، وَرَوّ سَجَالَهَا
وَكُنْ لها جَمَلاً ذَلُولاً ظَهْرُهُ احمِلْ، وكنتَ مُعَاوداً تَحمالَهَا

وتكتسب أهمية خاصة قصيدة (زنادك خير زناد الملوك) وهي من آخر قصائد الأعشى في قيس بن معدي كرب، وكان كل منهما قد بلغ من الكبر عتيا، فقد وصف الأعشى نفسه في أول القصيدة بأبيات منها قوله:

.. وإن أخاك الذي تَعْلمين لياليَنا إذْ نَحُلّ الجِفَارَا
أحلُّ به الشّيْبُ أثْقَالَهُ وما أعتَرّه الشّيْبُ إلا اعترارا
.. فأصْبَحْتُ لا أَقْرَبُ الغَانِيَات مُزْدَجِراً عن هَوَايَ ازدجارا

ثم مدح ووصف فيها قيس بن معدي كرب قائلاً:

إلى مَلِكٍ خَيْرِ أرْبَابِهِ وإنّ لِمَا كُلّ شَيْءٍ قَرارَا
إلى حامِلِ الثّقْلِ عن أَهْلِهِ إذا الدَّهْرُ سَاقَ الهَنَاتِ الكِبَارا
... وما أيْبُلَيُّ عَلَى هَيْكَلٍ بَنَاهُ وصَلّبَ فيه وَصَارَا
يُرَاوِحُ مِنْ صَلَواتِ المَلِيكِ طَوْراً سُجوداً وطَوْراً جُؤارا
بأعْظَمَ مِنْهُ تُقَى في الحِسَاب إذا النّسَمَاتُ نَقَضْن الغُبَارَا

إلى أن يقول في آخر القصيدة:

إذا الأرضُ وأرَتْكَ أعْلامُهَا فَكَفَّ الرّوَاعِدُ عَنْها القِطَارا

وتدل هذه القصيدة على أن قيس بن معدي كرب كان يدين بالمسيحية، فقد وصفه الأعشى بأنه أتْقَى مِنْ (أيْبُلَيِّ على هيكلٍ بناهُ وصَلّبَ فيه)، والأيْبُلَيُّ هو الراهب الذي يحمل الأيبل وهي العصا التي يضرب بها الناقوس. وقوله: (صلب فيه) يعني جعل الصليب في الهيكل وهو المعبد. وقد دلت الدراسات والمسوح الأثرية على أن «من الشواهد الأثرية بصدد الديانة المسيحية في اليمن: خدوش منقورة ورسوم صلبان في ضواحي نجران وفي حضرموت» وكل ذلك يؤكد أن قيس بن معدي كرب وأسرته الذين منهم عفيف بن معدي كرب والأشعث بن قيس بن معدي كرب وقبيلة كندة في حضرموت كانوا يدينون بالديانة المسيحية

التي كانت الديانة الرئيسية في حضرموت حين أسلم عفيف بن معدي كرب، ثم على يده ـ غالباً ـ أسلم أخوه الملك قيس بن معدي كرب، وأخذ الإسلام ينتشر في قبيلة كندة ومنطقة حضرموت.

* * *

لقد أسلم الملك قيس جد محمد بن الأشعث الكندي وهو باليمن، وكان قيس قد بلغ مِنْ الكبرِ عتياً، وذلك في الجاهلية ـ أي قبل الهجرة النبوية إلى يثرب ـ وَوَفَد قيس بن معدي كرب إلى النبي ﷺ ولكن في مكة وليس في المدينة، لأنه مات قبل الهجرة النبوية، ولذلك يُقال أنه مات في الجاهلية.

ومما يتيح إدراك ذلك ما جاء في ترجمة قيس بكتاب الإصابة، حيث قال العسقلاني ما يلي نصه: «قيس جد محمد بن الأشعث. أخرج المستغفري من طريق محمد بن تميم عن محمد بن الأشعث بن قيس عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ، كذا، ولم يذكر الحديث. قال ابن الأثير: أظنه الكندي» ثم عَقّب العسقلاني قائلاً: «قُلتُ: لو كان كذلك لم يكن له صحبة ولا رواية لأنه مات في الجاهلية» انتهى[(١)].

والواقع أن قول ابن الأثير عن (قيس جد محمد بن الأشعث) الذي روى الحديث (أظنه الكندي) هو قول صائب بل هو أكيد فليس هناك في التاريخ إلا محمد بن الأشعث بن قيس الكندي. وكذلك فإن اعتراض العسقلاني بأن قيساً الكندي جد محمد بن الأشعث ليس له صحبة ولا رواية قد استند فيه إلى أنه (مات في الجاهلية) وهو اعتراض سليم فهو لم يفِد إلى النبي ﷺ في المدينة بعد الهجرة النبوية لأنه مات قبل الهجرة وهي فترة توصف عادة بأنها في الجاهلية، ولكن ذلك لا يمنع من أن يكن وفَد إلى النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة، وقد تقدم في حديث عفيف قوله: «جئتُ في الجاهلية إلى مكة» بينما مجيئه كان بعد البعثة النبوية، وقد أسلم قيس على يد أخيه عفيف باليمن قبل الهجرة، ثم قَدِم إلى مكة والتقى بالنبي محمد ﷺ في مكة، بل وتَصَدق على آل بيت الله ـ وهو الكعبة ـ وأهل مكة صدقة جزيلة من البُرّ وهو القَمْح، فقد ذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ما يلي نصه: «قال بعض القُرشيِّين يذكر قيس بن معدي كَرِبَ ومَقْدَمَهُ مكة في كلمةٍ له:

قَيْسُ أبـو الأشعـثِ بطريـقُ اليَمَـنْ لا يسـأل السـائـل عـنـه ابـنُ مَـنْ
أشْـبَـعَ آل الله مِـنْ بُـرٍّ عَـدَنْ»[(٢)]

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٢٦٤.

(٢) البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ جـ١ ص١٨.

ويُستفاد من هذا الشعر أيضاً أن قيساً كان يُقال له (بطريق اليمن) وكلمة بطريق هي في الأصل كلمة رومانية مسيحية هي (بطريكوس PATRICUS) وكان ملوك الشام الغساسنة يحملون هذا اللقب بصفتهم حماة للكنيسة ونواب للقيصر الروماني، وتم تخفيف الكلمة الرومانية إلى (بطريق) وهي أصل اللقب الديني المسيحي (بطريرك) الذي يستعمله العرب المسيحيون بالشام ومصر حتى اليوم، وقد كان قيس بن معديكرب يجمع الزعامة السياسية والزعامة الدينية المسيحية بمنطقته في اليمن فقيل له (بطريق اليمن) كان كما قال أعشى قيس واصفاً إياه:

.. ما أيبليٌّ على هَيْكَلٍ بناه وصَلَّبَ فيه وَصَارا
يُرَاوِحُ مِنْ صَلَواتِ (المليك) طَوْراً سجوداً وَطَوْراً جُؤارا
بأعْظَم مِنْهُ تُقَى في الحِسَابِ إذا النّسَمَاتُ نَفَضْنَ الغُبَارَا

وقد اكتمل تقوى قيس بن معدي كرب بإيمانه بدين الإسلام وقدومه إلى النبي ﷺ في مكة والصدقات التي تصدق بها على الناس بمكة حيث (أشبع آل الله مِنْ بُرّ عدن)، ثم عاد إلى منطقته باليمن حيث ما لبث أن توفي قبل الهجرة النبوية إلى يثرب، فأصبح ابنه الأشعث بن قيس ملكاً لكندة وحضرموت.

ولم يزل عفيف بن معدي كرب ـ عم الأشعث بن قيس ـ يساهم بالدعوة إلى الإسلام في منطقة حضرموت بمدلولها الواسع القديم الذي يمتد من شبوه غرباً إلى المهرة ومفاوز عمان شرقاً حيث أخذ الإسلام ينتشر في تلك المنطقة الشاسعة من اليمن والتي أشرق فيها نور الإسلام قبل فَتْح مكة.

* * *

ثم وَفَد عفيف بن معدي كرب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، ولم تذكر التراجم زمن ذلك، فقد يكون قبل قدوم وفد كندة بزعامة الأشعث بن قيس إلى رسول الله ﷺ في السنة التاسعة، وقد يكون مع الأشعث بن قيس ووفد كندة.

ومكث عفيف فترة من الزمن بالمدينة، وصَحَبَ رسولَ الله ﷺ. قال ابن عبد البر القرطبي: «ولا يختلفون ـ أي العلماء ـ أن عفيفاً الكندي له صحبه. روى عنه أبناه يحيى وإياس أحاديث منها نزوله على العباس في أول الإسلام. حديث حسن جداً». [ص١٦٣/ ٣ ـ الاستيعاب].

وقال ابن حجر العسقلاني في ترجمة عفيف بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «روى البغوي والطبراني، وأبو زُرعة أحمد بن حسين الرازي في كتاب الشعراء، من طريق هشام الكلبي عن سعيد بن فروة، وفي رواية أبي زرعة عن

فروة بن سعيد بن عفيف بن معدي كرب عن أبيه عن جدة عفيف قال: بَيْنَا نحن عند رسول الله ﷺ إذْ أقبل إليه وَفْدُ مِنْ اليمن فقالوا: يا رسول الله لقد أحْيَانَا الله ببيتين من شعر امرئ القيس، فذكر القصة والحديث، وفيه ذاك رجلُ مذكور في الدنيا مَنْسيُ في الآخرة، شريف في الدنيا خاملُ في الآخرة. يجيء يوم القيامة في يده لواء الشعراء. إلى آخر الحديث». [ص٤٨٨ جـ٣ ـ الإصابة].

* * *

وكان أبو يحيى بن عفيف وإياس بن عفيف وسعيد بن عفيف مِنْ فرسان ورجالات كندة الذين انطلقوا إلى القادسية بقيادة الأشعث بن قيس الكندي وشهدوا فتح العراق وفارس وأذَرْبيجان واستقروا بالكوفة، وقد عاش عفيف بن معدي كرب الكندي إلى خلافة عمر بن الخطاب، ومات في أيام عمر إما باليمن وإما بالكوفة، حيث انتقل عفيف إلى جوار ربه راضياً مرضياً.

٣٥

الأشْعث بن قَيْس الكندي

ـ فاتحُ وأمير أذَرْبَيْجَان ـ

مِنْ أعظم الزعماء والفاتحين هو الصحابي الأمير الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي فاتح وأمير إقليم أذَرْبَيْجَان. قال البلاذري: «.. غزا الأشعث بن قيس أذربيجان ففتح حصن باجروان، وصالحهم على صلح المغيرة..»[١] وقال د. خليفة حسن: «إلا أن أذربيجان سرعان ما قاومت الحامية العسكرية التي تولاها الأشعث بن قيس، فأمّدّه وَالي الكوفة بجيش، حيث استطاع الأشعث فتح أذربيجان منطقة بعد أخرى، وأسكن فيها ناساً من العرب وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام»[٢] وكان الأشعث بن قيس أمير ولاية أذربيجان في خلافة عثمان بن عفان ثم في خلافة علي بن أبي طالب، وجعل الأشعث مدينة أردبيل عاصمة لولاية أذربيجان، قال البلاذري: « ـ أنزلَ الأشعثُ أردبيلَ جماعة من أهل العطاء والديوان مِنْ العرب، ومَصَّرَها ـ أي جعلها عاصمة ـ وبَنَىٰ مسجدها»[١] وفي عهد الأشعث «أسلم أكثر أهل أذربيجان وقرأوا القرآن»[١] ولذلك كله فإن لقب (فاتح وأمير أذربيجان) هو اللقب الذي اخترناه للأشعث بن قيس في هذا الكتاب من بين ألقاب كثيرة هو بها جدير.

قال القاضي محمد بن علي الأكوع في هامش كتاب قرة العيون بأخبار اليمن الميمون: «كان الأشعث بن قيس سيداً وجيهاً، وكريماً سمحاً، ومليكاً مُطاعاً، وهو آخر ملوك كندة وأحدُ أقيال وعظماء اليمانية، ومِنْ السابقين الأولين إلى الإسلام»[٣].

وقال سالم بن مُسافع الغطفاني لعيينه بن حصن الفزاري بمناسبة حادثة وقعت في الكوفة بعد الإسلام أبياتاً ذكرها ابن حَجَر العسقلاني في كتاب الإصابة

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ص٣٠٢ و٣٢٢.
(٢) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٧٠.
(٣) قرة العيون في أخبار اليمن الميمون ـ لابن الربيع ـ تحقيق الأكوع ـ ص٤٢.

في تمييز الصحابة منها قول ابن مسافع الغطفاني لعيينه بن حصن الفزاري:

لَسْتَ كالأشعثِ المُعَصَبِ بالتا ج، غلامُ قد ساد وهو فَطِيمُ
جَدُّهُ آكِلُ المُرار، وقيسُ خَطْبُهُ في الملوك خَطَبُ عظيمُ
فَلَهُ هَيْبَةُ المُلُوكِ، ولأ شعثِ تاجان، حادثُ وقديمُ[١]

وبالتاج القديم للأشعث نبدأ.

* * *

الأشعث.. وملوك كندة.. قبل الإسلام

أن الأشعث هو الأشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جَبلة بن عَدِي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحرث الأصغر بن معاوية بن الحرث الأكبر الكندي.

وأما آكل المُرار الذي قال ابن مسافع أن الأشعث (جدة آكل المرار) فهو الملك حُجر آكل المُرار بن عمرو بن معاوية الأكرمين بن الحرث الأصغر بن معاوية بن الحرث الأكبر الكندي.

ويتبين ذلك من قول ابن خلدون: «وحُجر آكل المُرار هو: حُجر بن عمرو بن معاوية بن الحرث الأصغر بن معاوية بن الحرث الأكبر»[٢] وجاء في الاستيعاب للقرطبي أن «.. معاوية الأكرمين بن الحرث الأصغر بن الحرث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مرتع الكندي»[٣] مما يتيح إدراك أن حُجْراً آكل المُرار هو ابن عمرو بن معاوية الأكرمين بن الحرث الأصغر، وبالتالي فإن ملوك كندة في عصر الدولة الحميرية وفترة الجاهلية منذ حُجر آكل المرار إلى الأشعث بن قيس كانوا جميعاً من بني معاوية الأكرمين الذين ذكرهم أعشى قيس في قصيدة مدح بها أبا الأشعث قيس بن معدي كرب الكندي قائلا:

فَإنَّ مُعَاوِيَة الأكْرَمين عِظَامُ القِبَاب، طَوالُ الأمَمْ[٤]

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ١/ ص٥١ و٢/ ص١٠٨.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٧٥.

(٣) الاستيعاب للقرطبي ـ جـ١ ص١٠٩.

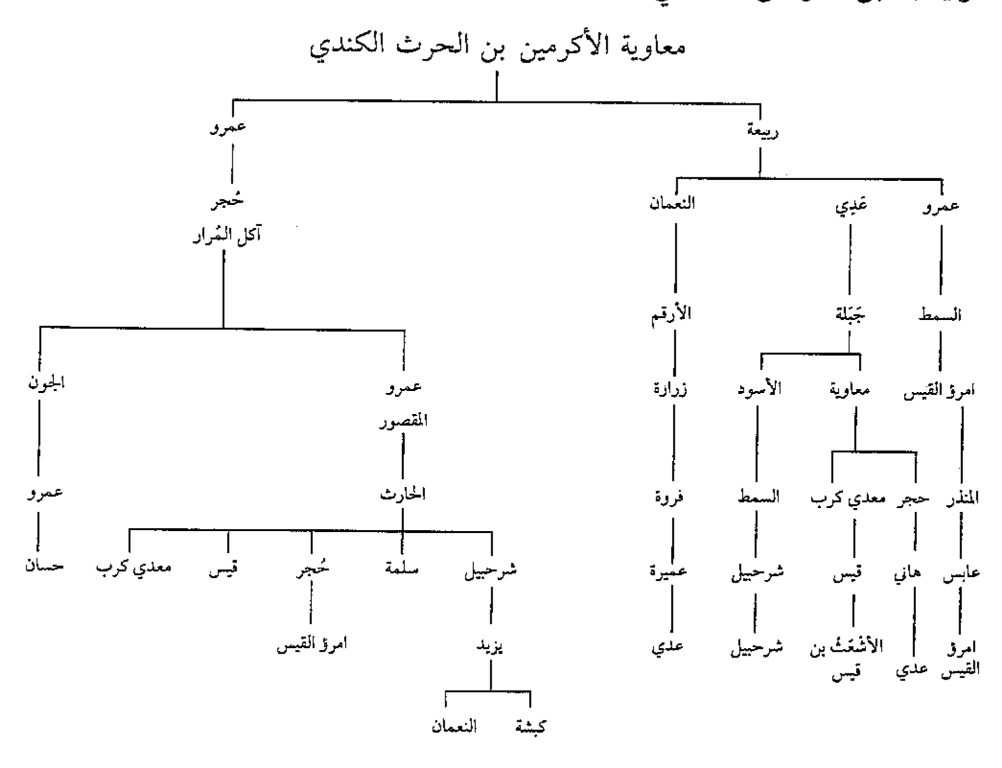
(٤) الأمم: جاء في هامش ديوان الأعشى أن (الأمم: سادات القوم ورؤسائهم. الواحد: أمْ). بينما جاء في نقش حميري بالمسند أن الملك «شرحبيل يعفر ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويُمانت» قام بتجديد بنيان سد مأرب «العرم ـ من أسفله إلى هشاقره: ستين أمَمْ» فيكون (أمم) وحدة قياس بمعنى (قامه)، فالمقصود في شعر الأعشى (طوال القامة).

مَتَى تَدْعُهُمْ لِلِقَاء الحُرُو ... بِ، تأتِكَ خَيْلُ لَهُمْ غَيرُ جُمْ[(١)]
إذا مَا هُمُ جَلَسُوا بِالعَشِيّ ... فَأحلامُ عادٍ وأيْدِي هُضُم[(٢)]

وقد تفرعت من بني معاوية الأكرمين أسرتين ملكيتين حكمت إحداهما منطقة كندة وحضرموت في اليمن وحكمت الثانية نجد والحجاز، وذلك في إطار دولة ملوك حِمْيَر التبابعة منذ أوائل القرن الرابع الميلادي حتى القرن السادس الميلادي. فالذين حكموا نجد والحجاز هم آل حُجر بن عمرو آكل المُرار، وترتيبهم: الملك امرؤ القيس بن الملك حُجر بن الملك الحارث بن الملك عمرو المقصور بن الملك حُجر آكل المُرار بن عمرو بن معاوية الأكرمين بن الحرث الكندي.

والذي حكموا كندة وحضرموت هُمْ بنو عَدِي بن ربيعة، وترتيبهم: الملك الأشعث بن الملك قيس بن الملك معدي كرب بن معاوية بن الملك جَبَلة بن عَدِي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحرث الكندي.

ويتبين من المصادر التاريخية ترتيب ونَسَب الملوك الكنديين والشخصيات الرئيسية مِنْ الفرعين كما يلي:



(١) غير جُمْ: أي لا يوجد بين الفرسان من هو غير مسلح. الجم، الواحد أجم: من لا رمح معه.
(٢) أحلام عاد: أي أن حلمهم قديم، والهضم ـ التي تجود بما لديها.

ومن المُفيد معرفة أنباء الملوك الكنديين أسلاف الأشعث بن قيس، والتعريف بهم بإيجاز فيما يلي:

ـ إن حُجر آكل المُرار بن عمرو بن معاوية الكندي كان رئيس قبيلة كندة بمنطقة حضرموت في إطار دولة اليمن الحميرية في عهد مَلِكٍ من ملوك اليمن التبابعة تذكرة كتب التراث بلقب (تُبّع) واسم (حسان الأكبر بن تُبّع)، فجاء في تاريخ ابن خلدون وتاريخ الأمم والملوك للطبري أن حجراً آكل المُرار: «كان أخا حسان بن تُبّع لأمه، فلما دَوَّخَ حسان جزيرة العرب وسار في الحجاز، وهَمّ بالانصراف، وَلّيَ على معد بن عدنان كلها أخاه حُجر بن عمرو هذا وهو آكل المُرار، فدانوا له، وسار فيهم أحسن سيرة»[١] وقد جاء في نقش حِمْيري باسم الزعيم (ملشان أريم) أنه قاد حملات واسعة (إلى اليمامة وهَجْر البحرين ونجد وأرض نزار حَتّى آبار سجابين أرض نزار وأرض غسان)[٢] ـ أي حتى أعالي الحجاز ـ وإن (كندة) شاركت في تلك الحملة، وذلك في أوائل القرن الرابع الميلادي. وهو نفس الزمن الذي أصبح فيه حُجر بن عمرو آكل المرار ملكاً على قبائل ومناطق نجد والحجاز، وجاء في كتاب الكامل لابن الأثير وكتاب أيام العرب في الجاهلية إنه «كان حُجر آكل المُرار والياً على الحجاز لِتُبّع ملك اليمن»[١] فكان حُجر آكل المُرار ملكاً يحكم الحجاز إلى البحرين ومعه نوابُ في القبائل، وكانت (قرية ذات كهل) في وسط الجزيرة هي مقر وعاصمة الملوك الكنديين في وسط وشمال الجزيرة، وقد حكم حُجر آكل المُرار حتى وفاته.

ـ ثم حكم نجد والحجاز الملك عمرو المقصور بن حجر آكل المُرار الكندي، وفي ذلك قال ابن خلدون «ثم هَلَك حُجر آكل المُرار، ومَلَك مِنْ بعده ابنه عمرو المقصور». وقال الهمداني في شرح الدامغة «أن الملك عمرو بن حسان تُبّع، وَلّى عمرو المقصور على مَعَدّ بن عدنان، وَرَتّبه في حصن المُشَقّر بالبحرين»[٣] وذكر ابن خلدون والطبري وابن الكلبي إنه «كان عمرو بن تُبّع ذا رأي ونُبل، فأراد أن يكرم عمرو بن حجر آكل المرار، فَزَوّجه بنت أخيه حسان، فولدت له الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار»[١] وقد حكم عمرو المقصور في نجد وشمال الجزيرة فترة طويلة وعاصر الملك النعمان الأول بن المنذر ملك الحيرة الذي عاصر (بهرام جور ملك فارس) ـ في الفترة (٤٢١ ـ ٤٣٨م) ـ والملك

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٧٥ ـ ١٨٠.

(٢) نقش ملشان ـ وادي عبدان ـ شبوه ـ تحقيق د. محمد بافقيه.

(٣) شرح الدامغة ـ الحسن الهمداني ـ ص١٢٦.

المنذر بن النعمان الأول ملك الحيرة في الفترة (٤٢٢ ـ ٤٤٥م) وكان ملك الدولة الحميرية حسان الثاني بن عمرو من ملوك تلك الفترة وهو الذي بابنته تزوج عمرو المقصور، وقد حكم في نجد والبحرين مع عمرو المقصور أيضاً الملك الجون بن حجر آكل المُرار. ويمكن أن يكون الجون حكم بعد عمرو المقصور. قال الجرجاني: «والجون هو معاوية بن حُجر آكل المرار أخو الملك المقصور عمرو بن حجر»[١].

ـ ثم تولى الحكم في نجد والحجاز الحارث بن عمرو المقصور بن حجر آكل المُرار بن عمرو الكندي وهو ابن أخت الملك تُبّع أسعد الثاني بن حسان الثاني بن عمرو (ذرا ـ أمر) ملك الدولة الحميرية في أواسط القرن الخامس الميلادي. قال ابن خلدون وابن الكلبي: «مَلَكَ تُبّع بن حسان على حِمْير وهابته حمير والعرب، وبعث بابن أخته الحارث بن عمرو بن حجر الكندي في جيش كبير إلى بلاد مَعَدْ وما والاها. .» وإنه «لما وُلّي الحارث بن عمرو على مَعَدّ ونجد اشتدت وطأته، وعظم بأسه، ونازع ملوك الحيرة». ويتبين من النصوص التاريخية وجود حالة اضطراب في إقليم الحيرة بالعراق الذي يحكمه الملوك المناذرة في إطار الولاء للامبراطورية الفارسية فقد كان بإقليم الحيرة ثلاثة ملوك منهم النعمان بن المنذر بن النعمان، والمنذر بن ماء السماء، وأمير ثالث منهم. قال ابن الكلبي: «فجاء الحارث بن عمرو الكندي في جيش كبير إلى بلاد معد والحيرة وقد وَلّاه تُبع بن حسان، فسار إليه النعمان وقاتله، فَقُتِل النعمان وانهزم أصحابه. وأفْلَتَ المنذر بن ماء السماء»[١] وقد اقترن ذلك بتأييد عرب الحيرة، فقد ذكر ابن خلدون: أن عرب الحيرة «جاؤوا بالحارث بن عمرو بن حُجر آكل المرار فَمَلكوه، وقاتلوا معه وظهر على مَنْ قاتله مِنْ العرب» ـ أي من أصحاب النعمان وأصحاب المنذر بن ماء السماء وأصحاب الأمير الثالث في إقليم الحيرة ـ واسْتّمد المنذرُ بن ماء السَمَاء الملكَ الفارسي قباذ، وكان قباذ مُضعفاً، فأبَى أن يُمدّه. ويقال أن قباذ دعا المنذر إلى دين المزدكية فأبَى المنذر، ثم أن المنذر «كتب إلى الحارث بن عمرو: أنّي في غير قومي، وأنت أَحَقّ مَنْ ضَمَّنِي وأنا متحولُ إليك، فتحول إليه، وزَوَجه الحارث بنته هنداً». وكان ذلك في الفترة ما بين عام (٤٦٢م) وعام (٤٨٩م) من عهد قباذ ملك فارس، ويُقابل ذلك عهد تُبّع أسعد الثاني ملك اليمن في الفترة ما بين (٤٥٧ ـ ٤٧٩م) وحتى عهد الملك شرحبيل (٤٨٠ ـ ٥٠٩م)، فخلال تلك الفترة:

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٧٥ ـ ١٨٠.

أ ـ كان الحارث بن عمرو الكندي ملكاً على قبائل نجد وشرق الجزيرة العربية ثم انضوى تحت حكمه إقليم الحيرة بالعراق.

ب ـ ثم اعترف قباذ بالحارث بن عمرو ملكاً على الحيرة «على أن لا يتجاوز الحارث بالعرب نهر الفرات» ـ وكان الفرات هو الفاصل بين إقليم الحيرة الذي يسكنه العرب في العراق، وبين الفُرس فيما وراء الفرات ـ ويقال أن قباذ (دعا الحارث إلى دين المزدكية فأجابه، فَمَلّكه على الحيرة)، والصحيح إنه (دعا الحارث إلى المصالحة على أن لا يتجاوز بالعرب الفرات، فأجابه، فَمَلكه على الحيرة ـ رسمياً ـ ونزل الحارث بالحيرة)، ربما في أوائل الفترة الثانية من عهد قباذ وكانت ما بين ٤٨٩ ـ ٥٢٧م.

جـ ـ وقام الحارث بن عمرو بتفريق أولاده ملوكاً على قبائل نجد وشرق الجزيرة والحيّرة، وهُم:

سَلْمَة بن الحارث الكندي: ملكاً على بكر بن وائل وتغلب. ويقال: كان سلمه على حنظلة وتغلب.

شرحبيل بن الحارث: ملكاً على بني سعد والرباب. ويُقال: كان شرحبيل على بكر بن وائل.

معدي كرب بن الحارث: ملكاً على قيس وكنانة. وقال الأصفهاني: هو غلف بن الحارث وكان على قيس.

حجر بن الحارث: ملكاً على بني أسد في نجد. ويُقال: على بني أسد وطوائف من بني عمرو بن تميم والرباب.

قيس بن الحارث: وكان سيارة أي قوم نزل بهم فهو ملكهم.

ـ ولم يزل الحارث بن عمرو الكندي وأولاده ملوكاً على نجد وشرق الجزيرة وإقليم الحيرة بالعراق إلى نهاية عهد الملك الحميري يوسف أسار ذي نواس ملك اليمن في الفترة (٥١٥ ـ ٥٢٥م) وإلى نهاية عهد قباذ ملك فارس ـ حوالي عام ٥٢٧م ـ قال ابن خلدون: (لما هَلَك قباذ تولى ابنه كسرى أنوشروان، فَرَدّ مُلْك الحيرة إلى المنذر). وقال هشام بن الكلبي: «وَلّى أنوشروان بعد الحارث بن عمرو، المنذر بن النعمان الذي أفْلَتَ يوم قُتِل أبوه ونزل الحيرة. فلما قوى سلطان كسرى أنوشروان واشتد أمره بَعَثَ إلى المنذر فَمَلّكه الحيرة وما كان يليه الحارث بن عمرو». وقد بدأ عهد كسرى أنوشروان حوالي عام ٥٢٨م، وكان الحارث قد بات شيخاً عجوزاً وكان يحكم الحيرة سَلَمْة بن الحارث وشرحبيل بن

الحارث وكان كل منهما يحكم قسماً من إقليم الحيرة. فلما قوى سلطان كسرى أنوشروان قام بتمليك ودَعْم المنذر للسيطرة على إقليم الحيرة، وتم إعدام ٤٨ رجلاً من كندة يوم السيطرة على مدينة الحيرة، وفيهم قال امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث بن عمرو بن حُجر بن عمرو الكندي:

ملوكٌ مِنْ بني حُجر ابن عمرو يُساقون العشية يُقتلونا
فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بني مرينا

وأغْرَى المنذر بين سلمة بن الحارث وشرحبيل بن الحارث فاقتتلا بمنطقة الكُلّاب ما بين البصرة والكوفة، ومات شرحبيل قتيلاً في موقعة يوم الكُلّاب، فدخلت القبائل التي كانت تحت حكمهما في طاعة المنذر فتم له امتلاك إقليم الحيرة، ومنع بنو سعد بن زياد مناة أقارب شرحبيل وغيرهم، وأوصلوهم مِنْ الحيرة إلى اليمن، فأثنى امرؤ القيس على بني سعد وقال:

هُمُوا مَنَعوا حيّ المُضَلَّل أهله وساروا بهم بين الفرات ونجران

واستمر حُجر بن الحارث ملكاً على منطقة نجد واليمامة إلى أن قتلته قبيلة بني أسد، وأتى نبأ مقتله إلى ابنه امرئ القيس بن حُجر وهو في منطقة كندة في حضرموت باليمن، وذلك حوالي عام ٥٣٠م.

وكان الرئيس على كنده بمنطقة حضرموت هو (معدي كرب بن معاوية بن جَبَلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين) وكان رئيساً زعيماً على كنده هو ويزيد بن كبشة الكندي الذي فيه قال امرؤ القيس:

(خالي ابن كبشة قد علمت مكانه)

وقد أتى نبأ مقتل حُجر بن الحارث إلى ابنه امرئ القيس وهو في دَمُون بوادي حضرموت، وقال فيما قال:

تطاول الليلُ علينا دمون دمون إنّا معشر يمانون وإننا لأهلنا مُحبون

وكان ملك الدولة الحميرية آنذاك هو سميفع أشوع ملك حِمْيَر وكان يحكم معه إخوته وأبناء عمه الأذواء وقد ذكرتهم النقوش ومنهم (مرثد أحصن بن لحيعة ذي جدن)[1] وكان مرثد زعيماً ملكاً على المنطقة الجدنية الحميرية التي تمتد إلى حضرموت وذلك في إطار عهد الملك سُميفع أشوع ملك حمير في الفترة (٥٢٥ ـ ٥٣٣م) فلما وقع مقتل الملك حُجر في نجد

(١) النقش المسند رقم R ٤٠٦٩ في العربية السعيدة.

انطلق امرؤ القيس من منطقة كنده على رأس فرسان مِنْ كنده إلى (مرثد أحصن بن ذي جدن) فأمَدّه مرثد بقوة من فرسان حمير، وفيه قال امرؤ القيس:

وإذْ نحن ندعو مرثد الخير ربنا وإذْ نحنُ لا ندعو عبيداً لقرمل

وسار امرؤ القيس إلى عاصمة حكم أبيه في نجد ـ وهي قرية ذات كهل ـ وتولى امرؤ القيس مقاليد الحكم، وأقبلت إليه قبائل نجد بالطاعة، وأنذر وأمهل امرؤ القيس بني أسد بكلمات منها قوله لرئيسهم «فرويداً ينكشف لك دجاها عن فرسان كنده وكتائب حمير». فشَدّ بنو أسد الرحال من ديارهم، ثم تتبعهم امرؤ القيس ومعه بنو بكر بن وائل وتغلب، قال ابن خلدون «فأجفل بنو أسد، وساروا إلى المنذر ملك الحيرة، وأوقع امرؤ القيس في كنانة وأثخن فيهم، ثم سار في اتباع بني أسد إلى أن أعيا ـ لأنهم دخلوا بلاد الحيرة ـ ورجعت عنه بكر وتغلب، فسار امرؤ القيس إلى مرثد الخير بن ذي جدن من ملوك حمير صريخاً، فنَصره بخمسمائة رجل من حمير وبجمع من العرب سواهم» ثم مضى امرؤ القيس قاصداً الحيرة، وكان الصراع قد تجاوز قضية الثأر من بني أسد. قال ابن خلدون «وجمع المنذر لامرئ القيس ومَنْ معه، وأمدّه كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة، والتقوا، فانهزم امرؤ القيس، وتفرقت حِمْيَر ومن كان معه، ونجا امرؤ القيس، وما زال يتنقل في القبائل، والمنذر في طلبه»[1] وقد انتقل إلى منطقة جبليّ طيء في نجد، مما يدل على أن المعركة التي دارت بينه وبين المنذر وجيش الأساورة كانت بالقرب من تخوم الحيرة في شرق نجد، وأسفرت المعركة عن انتهاء حكم امرئ القيس وانتهاء حكم كندة من نجد وجهاتها، بعد زهاء قرنين من الزمان، وليس من باب المصادفة إن حكم كندة في نجد وجهانها انتهى في تلك الفترة التي شهدت انتهاء عصر دولة اليمن الحميرية الكبرى ووقوع بعض مناطق اليمن تحت الحكم الأكسومي المسنود من الرومان ـ عام ٥٣٣م ـ وقد كان مِنْ نبأ امرئ القيس في نجد ثم في تيماء ما هو معروف في كتب التاريخ إلى أن سار إلى قيصر الروم يستنصره لمحاربة المنذر وكسرى فمات امرؤ القيس في انقره[2] بينما استمر سلطان كندة في منطقة حضرموت، وجاء ذكر (يزيد بن كبشة الكندي) بأنه حاكم كندة في نقش مسند عن حرب قادها الملك معدي كرب بن سميفع ذي يزن ضد أبرهة والأحباش

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٢.

(٢) جاء في ديوان امرئ القيس أنه مات سنة ٥٦٥م فيكون ذلك قبل مولد النبي محمد ﷺ بخمس سنوات.

لتحرير المناطق التي كانت تحت حكم أبرهة[١] وقد تحقق ذلك فيما بعد بزعامة سيف بن ذي يزن ـ سنة ٥٧٢م ـ وذلك بعد مولد النبي ﷺ بسنتين، وكان معدي كرب ويزيد بن كبشة من زعماء حضرموت الملوك.

ثم تولى حكم كندة ومنطقة حضرموت الملك قيس بن معدي كرب الكندي وهو والد الأشعث بن قيس، وقد جاء في كتاب الاستيعاب للقرطبي أن «أم الأشعث: كبشه بنت يزيد من ولد الحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار» ونشير هنا إلى أنه كان مع امرئ القيس بن حجر في آخر أيامه بنجد وتيماء (ابن عمه يزيد بن الحرث) ونقل ابن خلدون عن الأصفهاني أن أمراء القيس لما سار إلى الشام (خلف ابنته هند مع ابن عمه يزيد بن الحرث). والأصوب هنا (يزيد بن شرحبيل بن الحرث) لأن الحرث جد امرئ القيس فيكون ابن عمه (يزيد بن شرحبيل بن الحرث) وقد عاد إلى منطقة كندة باليمن ومعه هند بنت امرئ القيس وتزوج الملك بن معدي كرب ابنة يزيد بن شرحبيل بن الحرث وهي «أم الأشعث بن قيس: كبشة بنت يزيد»[٢] وجاء في كتاب الإصابة أن «النعمان بن يزيد بن شرحبيل.. خال الأشعث بن قيس، وكان يُلقَبُ ذا العرف»[٣].

وقد تعَصب الأشعث بن قيس بالتاج وشارك في الحكم منذ عهد أبيه الملك قيس بن معدي كرب ملك كندة وحضرموت، ومما يتصل بذلك قول ابن مسافع الغطفاني:

لَسْتَ كالأشعث المُعصب بالتا ... ج غُلامُ قد ساد وهو فَطِيمُ
جَدُهُ آكلُ المُرار، وَقَيْسُ ... خَطْبُهُ في الملوك خَطْبُ عظيمُ

يعني: (وأبوه قيس: خَطْبُهُ الملوك خَطْبُ عظيمُ).

ويتألق اسم الأشعث إلى جانب اسم أبيه في قصيدتين للشاعر الجاهلي الكبير أعشى قيس وهو مِنْ بني بكر بن وائل من ربيعة، وكان دائم الوفادة من اليمامة ومناطق بكر بن وائل في شرق الجزيرة وتخوم الحيرة إلى الملك قيس بن معدي كرب في حضرموت، فقال في إحدى قصائده التي مدح بها قيساً:

عُدّ هٰذَا في قَريضٍ غَيْرِهِ ... واذكُرَنْ في الشّعر دهقانَ اليَمَنْ
بأبي الأشْعثِ قَيْسٍ إنّهُ ... يَشْتَرِي الحَمدَ بمَنْفوس الثّمَنْ

---

(١) النقش المسند رقم ٥٤١ سي. اي. اتش. تاريخ اليمن القديم.
(٢) الإصابة ـ للعسقلاني ـ جـ٣ ص٥٦٦.
(٣) الاستيعاب ـ القرطبي ـ جـ١ ص١٠٩.

وقال في قصيدة ثانية:

إنّ قَيْساً قَيْس الفِعال ... أبا الأشْعَثِ أمْسَتْ أعداؤه لِشعوبِ

* * *

وذات مرة تلقى قيس بن معدي كرب رسالة مِنْ النعمان بن المنذر بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة يطلب فيها قدوم الأشعث بن قيس للقاء كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية، فانطلق الأشعث بن قيس على رأس موكب من فرسان كندة إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي وصل إليه أيضاً أربعة من رؤساء القبائل العربية لقاء كسرى، وأما سبب ذلك فتقول الروايات أنه «قال كسرى للنعمان بن المنذر: إن في العرب قبيلة تشرف على قبيلة؟ قال: نعم، قال: بأي شيء؟ قال: مَنْ كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال الرابع والبيت مِنْ قبيلته فيه، قال: فاطلب لي ذلك. فطلبه، فلم يصبه إلا في آل حذيفة بن بدر بيت قيس عيلان، وآل الأشعث بن قيس بيت كندة، وآل حاجب بن زرارة بيت تميم، وآل ذي الجُدين بيت شيبان من بني بكر بن وائل». قال أبو عمرو بن العلاء: (وبيت بني الديان من بني الحرث بن كعب بيت اليمن ـ يعني بيت مذحج باليمن ـ) فوصل رؤساء البيوت الخمسة، وذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد إن منهم عمرو بن معدي كرب الزُبيدي مما يعني أنه ممثل مذحج نيابة عن بني الديان. فدخل الرؤساء إلى كسرى ـ وليس كسرى أنوشروان لأنه مات سنة ٥٧٥م وإنما ـ هو كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان، لأن النعمان بن المنذر هذا كان ملك الحيرة في أيام أبرويز الذي بدأ عهده سنة ٥٩٢م، فيكون زمن اللقاء حوالى سنة ٦٠٠م، أو خلال العشر سنوات السابقة للبعثة النبوية بصفة عامة. فالتقى كسرى أبرويز بالرؤساء بحضور مُترجمين، (فقال للرؤساء: ليتكلم كل رجل بمآثر قومه وفعالهم، وليقُل شاعرهم فَيَصْدُق، فقام حذيفة بن بدر وكان أسَنّ القوم فتكلّم..) قال الأصفهاني وهشام بن الكلبي:

«ثم قام الأشعث بن قيس فقال: لقد عَلِمَتْ العربُ أنّا نُقاتِلُ عديدها الأكثر، وإنّا قديم زحفها الأكبر، وإنّا غياث اللّزبات. فقالوا: لِمح يا أخا كندة؟ قال: لأنّا ورثنا مُلك كندة. فاستظللنا بأفيائه، وتقلدنا منكبه الأعظم وتوسطنا بحبوحة الأكرم، ثم قام شاعر كندة فقال:

إذا قِسْتَ أبيات الرجال ببيتنا ... وجدت له فضلاً على مَنْ يُفاخرُ

فَمَنْ قال: كلا، أو أتانا بخطة ... يُنافرَها يوماً فنحن نُخاطرُ

تعالوا فَعُدّوا يعلمُ الناسُ أيّنا له الفضلُ فيما أورثته الأكابر»[١]

ثم تكلم بقية الرؤساء، (فلما سمع كسرى كلام الجميع قال: ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه، فأثنى حباءهم)[١] ويمكن القول أن ذلك الكلام جرى على هامش لقاء كسرى بأولئك الرؤساء وإن هدف اللقاء يتصل بالسياسة والمصالح التجارية، فقد كانت قبيلة ربيعة وكذلك تميم بمنطقة البحرين وما بين الحيرة واليمامة وهي مناطق كانت تحت تأثير النفوذ الفارسي، بينما كانت كندة وحضرموت ومذحج في اليمن مستقلة عن الحكم الفارسي بصنعاء وبعض المراكز في اليمن، وكان تأمين القوافل التجارية الفارسية من أهداف ذلك اللقاء، ثم عاد الأشعث بن قيس إلى قصر النُجَير مقر الحكم في حضرموت، وعاد عمرو بن معدي كرب إلى حصن تثليث نجران، ونشأت علاقة جيدة بين كندة وبين النعمان بن المنذر، وكان النعمان وأسلافه المناذرة من قبيلة لَخْم اليمانية.

* * *

وفي حوالى ٦٠٢م وقع خلاف بين كسرى أبرويز وبين النعمان بن المنذر، وآل الأمر إلى ما يوجزه أحمد أمين قائلاً: «غضب كسرى على النعمان بن المنذر الخامس وهو أبو قابوس فهرب ثم لجاء إليه فحبسه حتى مات وكان ذلك حوالى سنة ٦٠٢م وبموته الغت الحكومة الفارسية نظام إمارة اللخميين..»[٢] وذكر ابن خلدون الخلاف بين النعمان وكسرى أبرويز إلى أن قال: «وسار النعمان إلى كسرى ـ في المدائن ـ وتَبَيّنَ الغدر فلما بلغ إلى كسرى قَيّده وأودعه السجن إلى أن هلك فيه، ودعا ذلك إلى وقعة ذي قار بين العرب وفارس».

وقد ساهمت في موقعة ذي قار فرقة مِنْ كندة بقيادة يزيد بن حَمَار السكوني الكندي، وكانت موقعة ذي قار بين الفرس والذين معهم من بعض القبائل العربية مِنْ جهة وبين قبيلة بكر بن وائل والذين معهم من ربيعة وكذلك الفرقة الكندية بقيادة يزيد السكوني من جهة أخرى. قال أبو عبيدة في أنباء موقعة ذي قار: «قال يزيد بن حمار السكوني لبني شيبان ـ وهم رأس بكر بن وائل ـ: أطيعوني وأكمنوا لهم كميناً، ففعلوا، وجعلوا يزيد بن حَمَار رأسهم، فمكنوا في مكان من ذي قار يُسمى الخبئ» ثم أثناء المعركة مع الفُرس وأعوانهم «خرج عليهم الكمينُ من خبئ ذي قار مِنْ ورائهم وعليهم يزيد بن حَمَار السكوني فشَدّوا على قلب الجيش،

---

(١) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ جـ١٧ ص١٠٦.

(٢) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص١٩.

فانهزمت الفُرس»[١] وذكر ابن خلدون نبأ المعركة إلى أن قال: «واشتد القتال.. واعترضهم يزيد بن حماد السكوني في قومه كان كميناً أمامهم، فشدوا على إياس بن قبيصة ومن معه من العرب فولّت إياد منهزمة وانهزمت الفُرس وجاوزوا ماء ذي قار في حرّ الظهيرة في يوم قائظ فهلكوا أجمعين قتلاً وعطشاً»[٢].

أما زمن موقعة ذي قار فقال أبو عبيدة أنه كان «قد بُعث النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ (اليوم انْتَصَفَتِ العَرَبُ من العَجَم بي) فحُفِظَة ذلك اليومُ فإذا هو يوم وقعة ذي قار»[١].

وذكر ابن خلدون الزمن في موضعين، الموضع الأول في خاتمة خبر موقعة ذي قار بعد قوله: (وانهزمت الفرس وجاوزوا ماء ذي قار.. فهلكوا أجمعين قَتْلاً وعطشاً). حيث قال: (وأقام إياس في ولاية الحيرة مكان النعمان ومعه الهمرجان من مرازبة فارس تسع سنين، وفي الثانية منها كانت البعثة النبوية)[٢] وهذا يعني أن موت النعمان وموقعة ذي قار قبل البعثة بثمان سنين في حوالى سنة ٦٠٢م وهو الزمن الذي ذكره أحمد أمين في النص السالف. ثم ذكر ابن خلدون في موضع آخر خلاف النعمان بن المنذر مع كسرى ثم قال: «ووفد النعمان على كسرى بعد ذلك فقتله، وولى على الحيرة إياس بن قبيصة فلم تستقم له طاعة العرب وغضبوا لقتل النعمان وكان لهم على الفُرس يوم ذي قار سنة ثلاث من البعثة النبوية»[٢] وهذا يعني أن مقتل النعمان وموقعة ذي قار سنة ٦١٢م وذلك لثلاث سنين من البعثة. قال ابن خلدون: «وكان رسول الله ﷺ يومئذٍ قال: اليوم انْتَصَفَ العرب مِنْ العجم ونُصروا. وحفظ ذلك اليوم فإذا هو يوم الوقعة»[٢] وقال ابن حجر العسقلاني: «روى خليفة بن خياط والبخاري في تاريخه والبغوي من طريق يحيى بن اليمان العجلي عن رجل من بني تيم اللات اسمه عبد الله عن عبد الله بن الأخرم عن أبيه وكانت له صحبة، قال: قال رسول الله ﷺ يوم ذي قار: هذا أولُ يوم انتصفت فيه العرب من العجم»[٣].

وقد يبدو من ذلك كله أن ما حدث قبل البعثة بثمان سنوات هو خلاف النعمان بن المنذر مع كسرى ولجوؤه إلى القبائل التي لجاء إليها بتخوم الحيرة، ثم عاد بعد فترة وسار إلى كسرى في المدائن فغدر به وحبسه في إقامة جبرية في

---

(١) كتاب النقائض ـ لأبي عبيدة البصري ـ ص٦٣٩.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٦٨ ـ ١٧٠.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ جـ١ ص٢٥.

ساباط، ثم مات النعمان في سجنه وإقامته الجبرية في ساباط، ويقال مات مقتولاً، وعندئذٍ ألغى كسرى إمارة اللخميين المناذرة، واستعمل الهمرجان من مرازبة فارس ومعه إياس بن قُبيصة الطائي، وكان الهمرجان هو الحاكم الفعلي، فاندلعت موقعة ذي قار التي شاركت فيها فرقة من فرسان كندة وانتصف فيها العرب من العجم، وفي ذلك اليوم قال أعشى قيس:

لـو أن كـلّ مـعَـدٍّ كـان شـاركـنـا ... في يوم ذي قار ما أخْطَاهُمُ الشرفُ

* * *

وقد سجلت قصائد أعشى قيس قيام الملك قيس بن معدي كرب بقيادة أو توجيه غزوات حربية من حضرموت على قبيلة بني أسد ـ دودان ـ حليفة الفرس في نجد، وعلى بني عبس من بني سعد مناة أو غيرهم بتخوم الحيرة وبعض عشائر قبيلة تميم وكانت تميم هي التي تخفر ـ أي تحرس ـ القوافل الفارسية، وكانت تميم مع الفرس في موقعة ذي قار، فمن قصائد الأعشى في تلك الفترة قصيدة مدح بها قيساً أبا الأشعث وقال فيها:

أخُـو الـحَـرْبِ، إذْ لَـقِـحَـتْ بـازلاً ... سمـا لـلـعُـلـى وأحَـلَ الـجـمـارا[1]

وَسَـاوَرَ بـالـنَّـقْـعِ نَـقْـعِ الـكـتـيـبِ ... عَـبْـسـاً ودُودانَ يـومـاً سِـوَارَا[2]

فـأقْـلَـلْـتَ قَـوْمـاً وأعْـمَـرْتـهُـمْ ... وأخْـرَبْـتَ مِـنْ أرْض قَـوْمٍ ديَـارَا

فَـيَـا رُبّ نَـاعِـيَـةٍ مِـنْـهُـمُ ... تَـشُـدّ الـلِّـفَـاقَ عَـلَـيْـهَـا إزَارَا

تَـنُـوط الـتّـمِـيـمَ، وتـأبَـى الـغَـبُـو ... ق، مِـنْ سِـنَـةِ الـنّـوْمِ إلا نَـهـارَا

وكانت قبيلة بني الحرث بن كعب المذحجية تقوم بغارات على قوافل فارسية تخفرها قبيلة تميم عند مرورها بمنطقة نجد، وأدّتْ مضاعفات ذلك إلى وقوع معركة بين قبيلة تميم وبين مجموعة من فرسان بني الحرث بن كعب في منطقة بين الحيرة ونجد، فوقع عبد يغوث الحارثي أسيراً بيد تميم، فقال قصيدة منها:

فَـيَـا راكـبـاً إمّـا عَـرَضْـتَ فَـبَـلِّـغَـنْ ... نَـدَامَـايَ مـن نَـجْـرانَ أن لا تـلاقـيـا

أبـا كَـرِبٍ والأيْـهَـمَـيْـنِ كِـلَـيْـهـمـا ... وقَيْساً بـأعلى حَضْرَمَوْت اليمانيا

قال أبو علي القالي في كتاب الأمالي (قوله: وقيساً ـ هو قيس بن

(١) جاء في هامش هذا البيت بديوان الأعشى (الجمارا: لعله أراد جمرات العرب ـ الذين غزاهم ـ ومنهم عبس وبنو ضبة من تميم).

(٢) اللفاق: ثوبان يُلفق أحدهما على الآخر.

معدي كرب أبو الأشعث بن قيس)[١] ولما بلغت القصيدة قيس بن معدي كرب قال: (لبيك وإنْ أخرتني) لأنه ذكره بعد أبي كرب والأيهمين، وقد اندفعت تميم فقتلت القائد الأسير عبد يغوث الحارثي المذحجي، مما أدى إلى قيام فرسان قبائل مذحج وخثعم ودوس وقضاعة من جهة وفرسان كندة وحضرموت من جهة أخرى بغزوات على قبيلة تميم وحلفائها من بني عامر وغيرهم، وقال أعشى قيس خلال تلك الفترة قصيدة يمدح فيها قيساً أبا الأشعث بن قيس، منها قوله:

وإنّ غَـزَاتَـكَ مِـنْ حَـضْـرَمَـوْت أَتَـتْـني وَدُوني الـصّفَـا وَالـرَّجَـمْ[٢]
مَـقَـادَكَ بـالـخَـيْـلِ أرض الـعَـدُو وجُـذْعـانِـهـا كـالـفـيـظِ الـعَـجَـمْ
. . تـؤم ديـار بـنـي عـامِـرِ وأنـت بـآل عُـقَـيْـلٍ فَـغِـمْ[٢]
أذَاقَـتْـهُـمُ الـحَـرْبُ أنْـفَـاسَـهَـا وقـد تُـكْـرَهُ الـحَـرْبُ بَـعْـدَ الـسَّـلـمْ

ثم عاد السلام والوئام مع قبائل تميم ونجد، بينما بدأ الإسلام ينتشر في كندة ومنطقة حضرموت على يد أوائل السابقين إلى الإسلام ومنهم عفيف بن معدي كرب، وأسلم قيس بن معدي كرب أبو الأشعث، وقَدِم إلى النبي محمد ﷺ بمكة قبل الهجرة النبوية إلى يثرب، قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: «قال بعض القرشيين يذكر قيس بن معدي كرب ومقدَمَهُ مكة في كلمةٍ له:

قيـسُ أبـو الأشعـثِ بِطريـقُ اليـمـنْ لا يـسـألُ الـسـائـلُ عـنـه ابـنُ مَـنْ
اشـبَـعَ آلَ الله مِـن بُـرٍّ عَـدَنْ»[٣]

وما لبث أن مات قيس بن معدي كرب بعد عودته من مكة إلى حضرموت، وتم تمليك الأشعث بن قيس، ولم يزل الأشعث ملكاً قائداً لكندة ومنطقة حضرموت إلى أن قَدِم على رأس وفد كندة إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة.

* * *

الأشعث بن قيس في موكب رسول الله ﷺ

لقد أسلم الأشعث وآمن برسول الله ﷺ منذ وقت مُبكر وهو باليمن، ولذلك قال القاضي المؤرخ محمد بن علي الأكوع: (كان الأشعث بن قيس مِنْ السابقين الأولين إلى الإسلام)[٤].

---

(١) الأمالي لأبي علي القالي ـ جـ٣ ص١٣٣.
(٢) الصفا والرجم: أسماء مناطق. فغم: مِنْ فَغَم بالمكان: أقام به.
(٣) البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ جـ١ ص١٨.
(٤) قرة العيون ـ لابن الربيع ـ تحقيق القاضي محمد الأكوع ـ ص٤٢.

ولكن إسلام الأشعث لا يعني إسلام كل قبيلة كندة التي هو ملكها أو كل منطقة حضرموت التي هو كبير أقيالها، بل أن إسلام الأشعث ربما أدى إلى التفاف فريق من كندة حول السِمْط بن الأسود الكندي وابنه شرحبيل بن السِمْط، وهو من نفس أسرة الأشعث وبيت ملوك كندة، فالأشعث هو ابن قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جَبَلَة بن عدي.. وشرحبيل هو ابن السمط بن الأسود بن شرحبيل بن جبلة بن عَدِي. وقد ذكرت إحدى الروايات أنه «كان مضاهياً الأشعث بن قيس في الرياسة بحضرموت»، فيمكن أن يكون سبب ذلك معارضته للتوجه الديني الإسلامي في الذي يتبناه الأشعث والذين معه، ولكن الأمر لم يصل إلى النزاع، فاستمرت الرئاسة على الجميع للأشعث، وأخذ الإسلام ينتشر تدريجياً بالاقتناع والدعوة خلال السنوات الأولى للهجرة النبوية. وقد بعث رسول الله ﷺ إلى حضرموت قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري مرة أو مرتين، ولم تذكر الروايات مهمته[١] والظاهر أنه كان يأتي إلى الأشعث ويعود لأن الأشعث لما سار إلى المدينة في وفد كندة نزل بمنزل سعد بن عبادة، وقد سبق مسير الأشعث اكتمال انتشار دين الإسلام في بطون كندة وربوع حضرموت.

* * *

وفيما بين شهر رجب وشهر رمضان سنة ٩ هجرية انطلق الأشعث بن قيس من حضرموت على رأس وفد من وجهاء وأعيان كندة إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية نبأ قدومهم تحت عنوان: «قدوم الأشعث بن قيس في وفد كندة» فقال:

«قدم على رسول الله ﷺ الأشعثُ بن قيس في وفد كِنْدة: قال الزُّهْرِيُّ بن شهاب: قدم الأشعث في ثمانين راكباً من كِنْدة، فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده، وقد رَجَّلُوا جُمَمَهُمْ، وتكحّلوا، عليهم جُبَبُ الحَبرة، وقد كَفَّفُوها بالحرير»[٢].

ومما يتصل بهذا النص وهذا القدوم ما يلي:

إن وفد كندة الذين قدموا مع الأشعث كانوا ثمانين راكباً. بينما جاء في كتاب الاستيعاب للقرطبي أنه «قدم الأشعث في ثلاثين راكباً من كندة على رسول الله ﷺ سنة عشر من الهجرة»[٣] فرواية الاستيعاب فيها اختلاف في عدد الذين مع الأشعث

(١) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس.

(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥٤.

(٣) الاستيعاب ـ للقرطبي ـ جـ١ ص١٠٩.

وفي سنة القدوم، مما يتيح إدراك قدوم الأشعث مرتين، فقد جاء ترتيب قدوم الوفود في السيرة النبوية بذكر قدوم (فَرْوة بن مُسَيْك المرادي وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي) وذلك منصرف النبي ﷺ من تبوك إلى المدينة ثم قدوم (الأشعث بن قيس في وفد كندة) ثم (قدوم رسول ملوك حِمْير على رسول الله ﷺ مَقْدَمَه مِنْ تبوك) وذلك في رمضان ٩ هجرية[١] وهو الترتيب الثابت أيضاً في كتاب البداية والنهاية لابن كثير، وجاء في نص ابن كثير أيضاً أنه «قدم الأشعث في ثمانين راكباً»[٢] وكذلك في كتاب عيون الأثر «قَدِمَ الأشعث بن قيس في ثمانين راكباً من كندة»[٢] فزمن ذلك القدوم الأول للأشعث هو في رمضان سنة ٩هـ. أما قدومه سنة ١٠هـ فهو القدوم الثاني.

وقد دخل الأشعث بن قيس والثمانون راكباً الذين معه إلى المدينة المنورة في مظهر عظيم لم تشهد المدينة أحسن منه هيئةً، فقد كانت (عليهم جُبَبُ الْحَبَرة) والجُبب: جمع جُبة، وجاء في هامش السيرة (الحَبَرة: ضَربُ مِنْ برود اليمن ذو خطوط)[١] وهو من ملابس ملوك وأقيال اليمن، قال أعشى قيس:

إذا الحبراتُ تَلَوت بهم ... وجَرّوا أسافل هُدّابها

وقال أمية بن أبي الصلت لسيف بن ذي يزن (وأسْبِلْ اليوم مِنْ بُرْديك إسبالا)

وكان رجالات كندة الثمانين «قد رجَّلُوا جُمَمَهُمْ، وتكَحَّلوا» ـ أي مشطوا شعر رؤوسهم وسرّحوها، وكانت عيونهم مُكَحَّلة، فتقدموا وهُمْ في أحسن هيئة، يخترقون شوارع المدينة إلى المسجد النبوي، وقد خرج أهل المدينة يستقبلونهم، وفي ذلك قال أحد أهل المدينة من الصحابة:

«كنّا على باب مسجد رسول الله ﷺ، إذْ أقْبَلَ وفدُ كندة، فاستشرف له الناس، وما رأيتُ أحسن منهم. فلما دخلوا المسجد، دخل منهم أول من دخل ـ متوسط يضرب شعره منكبه، فَقُلْتُ: مَنْ هذا؟ قالوا: الأشعث بن قيس، فقلت: الحمد لله الذي نصر دينه وأعزّ نبيّه وأدخَلَك وقومك في هذا الدين مُكْرَمِينَ[٣]. ثم زارني الأشعث ـ في بيتي ـ فوهب لي غلاماً عبداً وشيئاً من الفضة ومِن غنم. ومكثوا أياماً ينحرون ويُطعمون الناس»[٣].

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥٤.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٧٢ عيون الأثر ـ ابن سيد الناس ـ جـ٢ ص٣٠٨.

(٣) جاءت كلمة (مكرمين) في رواية الإصابة (مكرهين) وهو تصحيف من الناسخين أو الطباعة.

وجاء في ترجمة جفشيش الكندي بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة، عن ابن عباس قال: «قَدِمَ وفد كندة فيهم الأشعث بن قيس، فذكر القصة ـ أي نبأ قدومهم ـ قال: وفي ذلك قال الجفشيش واسمه معدان بن الأسود الكندي:

جَادَتْ لَنَا العِيسُ مِنْ أعراب ذي يَمَنٍ تغورُ غوراً بِنَا مِنْ بعد أنْجَادِ
حتى أَنَخْنَ بِجَنْبِ الهَضْب مِنْ مَلَلٍ إلى الرسولِ الأمينِ الصادق الهادِي»[١]

ويمكن أن يكون وفد كندة لما قدموا مع الأشعث بن قيس إلى رسول الله ﷺ أنشدوا هذا الشعر بشكل جماعي (زامل) كما تقدم في نبأ قدوم وفد همدان مع مالك بن نمط الأرحبي رضي الله عنه.

* * *

فدخل الأشعث بن قيس ورجالات كندة إلى رسول الله ﷺ بالمسجد النبوي، وقد أوردت كتب السيرة النبوية، وتراجم الصحابة ثلاثة أحاديث في اللقاء بينهم وبين رسول الله ﷺ بالمسجد النبوي:

الحديث الأول: إن الأشعث وأصحابه لما دخلوا على رسول الله ﷺ «قالوا: أَبَيْتَ اللَّعْن. فقال لهم: لستُ ملكاً أنا محمدُ عبد الله ورسوله».

وهذه العبارةُ والتحية (أَبَيْتَ اللعن) هي تحية ملوك اليمن والعرب في عصور ما قبل الإسلام، وتعني الولاء والارتباط السياسي والمبايعة أيضاً للملوك، قال شاعرهم قديم الملك ياسر يُنعم الحميري:

تُحيّا أبيتَ اللعن ما ذَرَّ شارقٌ تحية ذي نعمن تدوم إلى الحشر

وقال النابغة: الذبياني للنعمان بن المنذر ملك الحيرة:

أتاني أبيتَ اللعنَ أنَّكَ لُمْتَنِي وتلك التي أهتمُ منها وأصنعُ

وقال عبد المطلب بن هاشم لسيف بن ذي يزن لما قدم إليه في وفد قريش إلى صنعاء: «فأنتَ، أبَيْتَ اللعن، مَلِكُ العرب، وربيعها الذي تخصُب به البلاد، ورأسُ العرب الذي لَهُ تَنْقَاد..»[٢].

وقال عمرو بن معدي كرب لما قدم إلى رسول الله ﷺ: (جَبَاكَ الربُّ إلهك، أبيت اللعن). وكذلك قال الأشعث بن قيس وأصحابه لما دخلوا إلى رسول الله ﷺ بالمسجد النبوي يُحيونه: (أبيتَ اللعن) لأن وفادتهم لم تكن لاعتناق

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة جفشيش الكندي ـ جـ٢ ص٢٤٠.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٣ ص٣٢٠.

الإسلام فقد أسلموا قبل ذلك بسنوات، وإنما كان قدومهم لمبايعاته بالمدلول السياسي للمبايعة، فقال رسول الله ﷺ: «**لستُ ملكاً، أنا محمد عبد الله ورسوله**».

الحديث الثاني: جاء في السيرة النبوية لابن هشام وعيون الأثر لابن سيد الناس والبداية والنهاية لابن كثير، أن الأشعث وأصحابه كان «عليهم جُبَبُ الْحَبرة، وقد كففوها بالحرير. فلما دخلوا على رسول الله ﷺ، قال لهم: أَلَمْ تُسْلِموا؟ قالوا: بَلَىٰ يا رسول الله، قال: فما بال هذا الحرير في أعناقِكُمْ؟ فَشقوه منها، فألقوه»[١].

فقول رسول الله ﷺ: «**أَلَمْ تُسلِموا**» يؤكد أنهم كانوا قد أسلموا باليمن ـ كما تقدم ـ ولذلك قالوا: (بَلَىٰ يا رسول الله)، فلما قال لهم: «**فما بال هذا الحرير في أعناقكم**»، عرفوا بأن تعاليم الإسلام تحريم الحرير على الرجال، فبادروا بنزع شرائط الحرير التي تُزين فتحة العنق في الجُبب، فألقوا بالحرير، ابتغاء مرضاة الله ورسوله.

الحديث الثالث: جاء في السيرة النبوية أنه «قال الأشعث بن قيس: يا رسول الله، نحن بنو آكل المُرَار، وَأنت ابن آكل المُرار. فَتَبسم رسول الله ﷺ وقال: نَاسِبُوا بهَذَا النَّسَبِ العباسَ ابنَ عَبْد المطلِب وربيعة بن الحرث». قال ابن هشام: «وكان العباس وربيعة رَجُلَين تاجرين، وكان إذا شاعا في بعض العرب فَسُئِلَا مِمنْ هُمَا، قالا: نحن بنو آكل المُرار، يتعززان بذلك، وذلك أنهم كانوا ملوكاً». قال ابن هشام: «ثم قال لهم رسول الله ﷺ: لا، بل نَحْنُ بنو النَّضْر بن كِنَانَة، لا نَقْفُوا أُمَّنَا ولا نَنْتَفِي مِنْ أَبِينا»[١].

وجاء في عيون الأثر أن بعض الذين مع الأشعث بن قيس قالوا: «نحن بنو آكل المُرار، وأنت ابن آكل المُرار»، فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: «**نحن بنو النَّضر بن كِنَانَة، لا نقفوا أُمَّنَا ولا نَنْتَفِي مِنْ أبانا**». ثم أضاف صاحب عيون الأثر قائلاً: «وللنبي ﷺ جدة مِنْ كندة مذكورة هي أُم كلاب بن مُرّة، . فذلك أراد الأشعث»[٢].

وقال ابن كثير في البداية والنهاية أنه: «قال الأشعث بن قيس: يا رسول الله نحن بنو آكل المُرار وأنت ابن آكل المُرار، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث. وكانا تاجرين إذا شاعا في العرب فسُئلا ممن أنتما؟ قالا: نحن بنو آكل المرار يعني ينتسبان إلى كندة لِيعزا في تلك البلاد لأنّ كندة كانوا ملوكاً، فاعتقدت كندة أن قريشاً منهم لقول عباس وربيعة: نحن بنو آكل المُراد. ثم قال لهم رسول الله ﷺ: لا، نحن بنو النظر بن

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٢٥٧.

(٢) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس ـ جـ٢ ص٣٠٨.

كنانة لا نقفوا أمَّنا ولا ننتفي مِنْ أبينا. فقال لهم الأشعث بن قيس: والله يا معشر كندة لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين».

قال ابن كثير: «وقد رُويّ هذا الحديث متصلاً مِنْ وجه آخر، فقال الإمام أحمد: حدّثنا بهز وعفان قالا: حدّثنا حماد بن سلمة، حدّثني عقيل بن طلحة عن مسلم بن هيضم عن الأشعث بن قيس أنه قال: أتيتُ رسول الله ﷺ في وفد كندة، ـ قال عفان: لا يروني أفضلهم ـ قال: قُلتُ يا رسول الله، إنّا ابن عمّ إنكم مِنّا، فقال رسول الله ﷺ: نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمّنا ولا ننتفي من أبينا. قال: وقال الأشعث: فوالله لا أسمعُ أحداً ينفي قريشاً مِنْ النظر بن كنانة إلا جلدته». وقد رواه أيضاً ابن ماجه من عدة طُرق[١].

ويتبين من ذلك:

أن للنبي ﷺ وقريش جدة مِنْ كندة من بني حجر آكل المُرار، وهي أُمُّ كلاب بن مُرّة، وكلاب هو والد قُصَيّ بن كلاب، فأنجب قصيّ أربعة أبناء هُمْ: عبد مناف وعبد شمس وعبد الدار وعبد العُزى. وأمهم أيضاً يمانية وهي (حُبّى بنت حليل بن كعب الخزاعي). وكانت أم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أيضاً يمانية وهي (سلمى بنت عمرو بن زبيد بن لبيد الخزرجي)، لذلك لما وَفَدَ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف إلى سيف بن ذي يزن في وفد قريش، وخطب بين يديه، قال له سيف: «وأيّهم أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. قال سيف: ابن أختنا؟ قال: نعم. فقال سيف: ادنُ مني.. وأجلسه بالقرب منه»[٢].

وكان العباس بن عبد المطلب بن هاشم وربيعة بن الحرث وغيرهما من تجار ورجالات قريش في الجاهلية يقولون إذا شاعوا في قبائل العرب (نحن من بني آكل المرار) يتعززون ويتباهون بأنهم من (بني آكل المُرار ملوك كندة) الذين ملكوا نجد والحجاز، وذلك لأن جدتهم العليا من بني آكل المُرار، وقد وصفها ابن سيد الناس بأنها «جدة للنبي محمد ﷺ» بل إن النبي ﷺ قد وصفها بأنها (أُمّهم) بقوله: (لا نقفوا أُمّنا) أي لا ننتسب إلى أمّنا لأن نسب الرجل إلى آبائه، وذلك يدل أيضاً على أن أم سائر بني كلاب القرشيين هي ابنة حجر آكل المرار الكندي، وبالانتساب إليها كانوا يتعززون قبل الإسلام. ولذلك قال عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٧٣.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٣ ص٣٢٠.

لما بويع بالخلافة أيام عبد الملك بن مروان: «إنْ كان هذا الأمر في قُريش. فَميني فُقئت بيضة قريش، وإنْ كان في العرب فأنا ابن الأشعث بن قيس».

* * *

وقد أقام الأشعث بن قيس والذين معه فترة بالمدينة المنورة وصحبوا رسول الله ﷺ، ومِنْ أنباء تلك الفترة ما يلي:

نزول الأشعث بمنزل سعد بن عبادة الأنصاري: جاء في الإصابة أن أبا بكر الصديق قال: (انظروا أين الأشعث؟ فإذا هو في غرفة من غرف الأنصار). وذلك بمنزل سعد بن عبادة زعيم الأنصار، وقد جاء في ترجمة عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة أنه «نزل عمرو على سعد بن عبادة بالمدينة، فأكرمه سعد». وقال ابن خلدون: «نزل فروة بن مُسيك المُرادي على سعد بن عبادة، وتعلم القرآن وفرائض الإسلام»(١). فكان عمرو بن معدي كرب وفروة بن مسيك ومعهما قيس بن مكشوح المرادي وأخته كبشة بنت مكشوح نازلين بمنزل سعد بن عبادة عند قدوم الأشعث بن قيس والذين معه إلى المدينة المنورة، فنزل الأشعث بمنزل سعد بن عبادة الذي ربما كان أكبر منازل المدينة. وقد تزامن ذلك مع زواج كبشة بنت مكشوح بالصحابي أبان بن سعيد بن العاصي. قال ابن حجر العسقلاني: «كبشة بنت مكشوح المرادية، أخت قيس الفارس المشهور. كانت موصوفة بالجمال، فتزوجها أبان بن سعيد بن العاص، زَوّجَها إياهُ أخوها قيس». [ص٣٩٧ جـ٤ ـ الإصابة].

زواج الأشعث بأخت أبي بكر الصديق: وشهدت المدينة المنورة في تلك الفترة زواج الأشعث بن قيس الكندي بأم فروة أخت أبي بكر الصديق، وقد وَصَفَ الصحابي وبرة بن قيس الخزرجي الأنصاري يوم زواج الأشعث بأخت أبي بكر قائلاً: «كان ذلك اليوم قد شُبّه بعيد الأضحى»، وجاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«إن الأشعث بن قيس لما خرج من عند أبي بكر بعد أن زَوّجه أخته، سل سيفه ـ هو وأصحابه ـ فلم يبق في السوق ذات أربع من بعير وشاة وثور إلا عقرها. فقيل لأبي بكر: الأشعث (فعل كذا وكذا..)، فقال: انظروا أين هو؟ فإذا هو في غرفة من غرف الأنصار، والناس مجتمعون إليه وهو يقول: هذه وليمتي ولو كنتُ ببلادي لأولمتُ مثل ما يُولم مثلي، فَلْيَأْخُذْ كل واحد مما وجد، واغْدُوا غداً

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص١٨ ـ وتاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٦٧.

تجدون الأثمان. فلم يبق دارٌ مِنْ دور المدينة إلا ودخله من اللحم، فكان ذلك اليوم قد شُبِه بيوم الأضحى»[1]. وقد تقدم حديث أحد الصحابة من أهل المدينة عن قدوم الأشعث بن قيس ووفد كندة ثم قوله: «زارني الأشعثُ فوهب لي غلاماً عبداً وشيئاً من الفضة ومن غَنَم، ومكثوا أياماً ينحرون ويطعمون الناس». فمناسبة مكوثهم أياماً يَنْحرون ويُطعمون الناس هي زواج الأشعث بأخت أبي بكر الصديق.

وفي ذلك قال الصحابي وبرة بن قيس الخزرجي الأنصاري:

لقد أولَم الكندي يوم مَلاكِهِ ... وليمة حَمَالٍ ثقيل الجرائم
لقد سَلّ سيفاً كان مُذْ كان مُغمداً ... لدى الحرب منها في الطلاق والجماجمَ
فأغْمَدَه في كُلِّ بكرٍ وسابح ... (وشاة وثور) في الحشا والقوائم[2]
فَقُلْ للفتى الكندي إمّا لقَيْتَهُ ... ذهبتَ بأسْنَىٰ مجد أولاد آدم[1]

قال القرطبي في كتاب الاستيعاب: «أخت أبي بكر الصديق التي تزوجها الأشعث هي أمُ فروة، وهي أمُ محمد بن الأشعث».

وقال العسقلاني في الإصابة: «ذكر ابن مندة: أن محمد بن الأشعث وُلد في عهد النبي ﷺ».

وجاء في كتاب قرة العيون لابن الديبع تحقيق القاضي محمد بن على الأكوع أن: «محمد بن الأشعث رابع أربعة وُلدوا في حياة رسول الله ﷺ وتَسموا بمحمد».

ويدل كل ذلك على أن زواج الأشعث بن قيس بأخت أبي بكر الصديق كان عند قدومه الأول إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة في رمضان أو شوال سنة ٩ هجرية، وقد عاد الأشعث ومعه زوجته أخت أبي بكر الصديق إلى اليمن فأنجبت له محمد بن الأشعث في حوالي شهر شعبان سنة ١٠ هجرية في حياة رسول الله ﷺ الذي قدم إليه الأشعث مرة ثانية في رمضان سنة ١٠هـ، بعد مولد محمد بن الأشعث، وقد سماه الأشعثُ محمداً تَيَمُّناً بِاسم رسول الله عليه الصلاة والسلام.

زواج رسول الله ﷺ بأسماء أخت النعمان الكندي: ـ وكان من أعيان كندة الذين قَدَمُوا مع الأشعث بن قيس إلى رسول الله ﷺ سنة ٩ هجرية (النعمان بن أبي الجون، وهو الأسود بن شراحيل بن حُجر بن معاوية الكندي) ـ وهو من نفس

---

(١) الإصابة ـ ترجمة وبر بن قيس ـ جـ٣ ص٦٣٠.

(٢) جاء في الإصابة (وعير وبغلٍ) بينما جاء في حديث وبرة بن قيس بالإصابة (وشاة وثور) وهو الأصوب.

أسرة الأشعث بن قيس، بيت ملوك كندة ـ وكانت أسماء أخت النعمان (أجملُ أيم في العرب)، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في الإصابة نبأ زواج رسول الله ﷺ بأسماء أخت النعمان، وأنه: «قال النعمان بن أبي الجون: يا رسول الله، أزوجك أجمل أيم في العرب، يريد أخته أسماء». وفي رواية الحاكم: «وكانت أسماء تحت ابن عم لها هَلَك عنها، وقد رغبَت فيك وخطبت إليك. فَتَزَوَّجَها رسول الله ﷺ على اثنتي عشر أوقية ونش»(١).

وكانت أسماء في حضرموت باليمن، فبعث رسول الله ﷺ مع النعمان الصحابي أبا أُسيد الساعدي الأنصاري لإحضارها. والظاهر أن ذلك عند عودة الأشعث بن قيس والذين معه من كندة، لذلك نذكر هنا أولاً، أنهم كانوا عند إقامتهم بالمدينة تعلموا القرآن والفرائض وسمعوا أحاديث رسول الله ﷺ ونالوا شرف صحبته، وكان منهم:

١ ـ **الصحابي عفيف بن معدي كرب الكندي،** عم الأشعث بن قيس. وقد تقدم ذكر صحبته لرسول الله ﷺ في المبحث السابق وأنه أول من حرم الخمر في الجاهلية، ومِنْ السابقين الأولين إلى الإسلام.

٢ ـ **الصحابي سيف بن قيس بن معدي كرب، أخو الأشعث بن قيس.** قال العسقلاني: «فأمره النبي ﷺ أن يؤذن في قومه.. ويُروى أنه قال: يا رسول الله هَبْ لي آذان قومي، فوهبه له، فلم يزل يؤذن فيهم ـ أي عند عودتهم إلى حضرموت ـ قال ابن الكلبي: وأم سيف هذا التيحاقينة من حضرموت، وهي إحدى الشوامت»(٢).

٣ ـ **الصحابي الجفشيش معدان بن الأسود الكندي،** القائل لما قدم مع الأشعث بن قيس في وفد كنده:

جادت بنا العِيسُ من أعراب ذي يَمَنِ … تغور غوراً بِنَا مِنَ بعد أنجاد

حتى أنخن بجنب الهضب من مَلَلٍ … إلى الرسول الأمين الصادق الهادي

٤ ـ **أماناة بن قيس بن شيبان** بن العاتك بن معاوية الأكرمين الكندي، وكان قد عاش دهراً، وفيه قال عوضة بن براء النخعي:

ألا ليتني عُمِّرتُ يا أم مالكٍ … كعمرِ أماناة ابن قيسِ ابن شيبانِ

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٥٦٠.

(٢) الإصابة ـ ترجمة سيف بن قيس الكندي ـ جـ٢ ص١٤٤.

لقد عاش حتى قيل ليس بميتٍ وأفنَىٰ فئاماً مِنْ كهولٍ وشبانِ

٥ ـ **أبو شرحبيل النعمان بن قيس الحضرمي**. جاء في ترجمته بكتاب الإصابة عن البخاري أنه «ختم القرآن في عهد النبي ﷺ».

٦ ـ **الصحابي «النعمان بن يزيد بن شرحبيل بن امرئ القيس** بن عمرو بن حُجر الكندي. خال الأشعث بن قيس. وكان يُلقب ذا العرف»[١] والأصوب أنه النعمان بن يزيد بن شرحبيل بن الحرث بن عمرو بن حُجر آكل المُرار الكندي، وهو خال الأشعث بن قيس. قال القرطبي في الاستيعاب: «وأم الأشعث: كبشة بنت يزيد، من ولد الحرث بن عمرو»[١].

٧ ـ **الصحابي (شرحبيل بن السمط بن الأسود** ـ بن شرحبيل ـ بن جَبَلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي)، قال العسقلاني: له حديثُ أخرجه ابن منده عن يحيى بن حمزة عن نصر بن علقمة عن كثير بن مرة عن شرحبيل بن السمط قال، قال رسول الله ﷺ: «**لا يزالُ مِنْ أمتي عصابة قوامة على الحق**». وقال ابن سعد في ترجمته بطبقات الصحابة: «..وَفَد على رسول الله ﷺ، وشهد القادسية، وافتتح حِمْص»[٢] وكان أميراً والياً لحمص كما كان أميراً للمدائن.

٨ ـ الصحابي (عَدِيّ بن هانئ بن حجر بن معاوية بن جَبَلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين. قال العسقلاني: ذكره المرزباني في معجم الشعراء في ترجمة الوليد بن عدي ابنه. وكان أبوه عَدِي مِمّن وفد على النبي ﷺ).

٩ ـ الصحابي (عَدِي بن همام بن مُرّة بن حجر بن عدي بن ربيعة بن معاوية بن الحرث بن معاوية الأكرمين. يكنى أبا عائذ. قال ابن الدباغ وابن فتحون: وَفَدَ على النبي ﷺ).

١٠ ـ الصحابي (عدي بن عميرة بن فروة بن زرارة بن الأرقم بن النعمان بن عمرو بن وهب بن ربيعة بن معاوية الأكرمين). قال العسقلاني في ترجمته أنه (صحابيٌّ معروف. له أحاديث في صحيح مسلم وغيره). وكان ابنه عدي بن عدي بن عُميرة من القادة والأمراء، استعمله عمر بن عبد العزيز والياً على أرمينية. قال العسقلاني: «وهو المراد بقول البخاري في الإيمان، من

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٣ ص٥٦٦ والاستيعاب القرطبي ـ جـ١ ص١٠٩.

(٢) الإصابة جـ٢ ص١٤٤ ـ وله مبحث خاص في هذا الكتاب بعنوان (شرحبيل بن السمط: فاتح عاصمة قيصر وأمير عاصمة كسرى).

صحيحه: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي.. وقال مسلمة بن عبد الملك: إن في كندة لثلاثة ينزل الله بهم الغيث، فذكر فيهم عدي بن عدي بن عميرة»[(١)].

١١ ـ الصحابي «امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس بن السمط بن عمرو بن معاوية الأكرمين. قال القرطبي في الاستيعاب: له صحبه. وقال العسقلاني في الإصابة، قال البغوي ما نصه: في كتاب البخاري في تسمية من روى عن النبي ﷺ: امرؤ القيس بن عابس..» وفي كتاب الجامع «كان امرؤ القيس بن عابس قائداً لإحدى الفِرق العربية المجاهدة يوم اليرموك»، وقال العسقلاني: «كان امرؤ القيس يوم اليرموك على كردوس»[(٢)].

١٢ ـ الصحابي (إبراهيم بن قيس. أخو الأشعث بن قيس. قال العسقلاني: وهو والد إسحاق الأعرج النسابة).

١٣ ـ الصحابي (النعمان بن أبي الجون) وهو أخو السيدة أسماء بنت النعمان التي تزوجها رسول الله ﷺ، وبعث أبا أُسيد الساعدي الأنصاري لإحضارها من حضرموت، عند عودة النعمان مع الأشعث بن قيس والذين معه من المدينة إلى حضرموت في أواخر سنة ٩هجرية، وكانت مع الأشعث زوجته أم فروة أخت أبي بكر الصديق. فلما وصلوا مدينة وحصن النُجير بحضرموت، إصطحب أبو أسيد الساعدي السيدة أسماء زوجة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

قال أبو أسيد: «فتحملتُ السيدة أسماء معي في مَحَفّة ـ أي في هودج ـ فقدمت بها المدينة، فأنزلتها في بني ساعدة، فدخل عليهانساء الحيّ فرحين بها، وكانت من أجمل النساء. فدخل عليها داخلُ من النساء فقالت لها: إنّكِ مِنْ الملوك، وإن كُنْتُ تريدين أن تحظى عند رسول الله ﷺ فاستعيذي منه. الحديث». [ص٥٦٠/٣ ـ الإصابة].

ثم تقول الروايات: إن رسول الله ﷺ لما دخل على زوجته السيدة أسماء «قالت: إني أعوذ بالله منك. فقال: لقد عُذْتُ بمعاذ، وفارقها، وطلقها». انتهى ـ

---

(١) الإصابة ـ جـ٣ ص١٦٥ ـ وله مبحث خاص في هذا الكتاب بعنوان: (عدي بن عدي بن عميرة.. أمير أرمينية وصاحب نهر عدي بالبلقان).

(٢) الاستيعاب للقرطبي ـ ص١٠٧ ـ والجامع لبامطرف ـ ص٩٦ ـ والإصابة للعسقلاني ـ جـ١ ص٦٤ ـ وله مبحث خاص في هذا الكتاب بعنوان: (امرئ القيس بن عابس.. الشاعر الجاهلي الوافد على رسول الله ﷺ).

وربما اكتفى بمفارقتها، ثم طلقها فيما بعد عند قدوم الأشعث بن قيس في وفادته الثانية إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة في شعبان سنة ١٠هـ، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل.

القدوم الثاني للأشعث إلى رسول الله ﷺ:

لم تميز الروايات بين القدوم الأول للأشعث بن قيس وقدومه الثاني إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، ومما يتصل بالقدوم الثاني للأشعث إلى رسول الله ﷺ ثلاثة أمور في كتب التاريخ وتراجم الصحابة:

أولاً: من قدوم الأشعث وعدد الذين معه: جاء في الإصابة عن ابن سعد أنه: «وَفَد الأشعث بن قيس على النبي ﷺ سنة عشر من الهجرة.. وكان الأشعث من ملوك كندة وهو صاحب مرباع حضرموت». وجاء في كتاب الاستيعاب للقرطبي أنه «قدم الأشعث بن قيس على رسول الله ﷺ سنة عشر». وأنه «قَدِم الأشعث بن قيس في ثلاثين راكباً من كندة»[1].

فهذا القدوم للأشعث بن قيس سنة عشر للهجرة هو القدوم الثاني، وقد جاء نبأ قدومه الأول في السيرة النبوية لابن هشام وعيون الأثر لابن سيد الناس والبداية والنهاية لابن كثير بأنه عند قدوم فروة بن مُسيك وعمرو بن معدي كرب، وقدوم رسول ملوك حِمْيَر بكتابهم إلى رسول الله ﷺ وذلك عند منصرفه من تبوك إلى المدينة في أول شهر رمضان سنة ٩هـ، وكان مع الأشعث بن قيس ثمانون راكباً من كندة، مما يدل على أن قدومه سنة عشر للهجرة في ثلاثين راكباً من كندة هو القدوم الثاني، وكان في شعبان أو رمضان سنة ١٠ هجرية.

ثانياً: مولد محمد بن الأشعث: كان الأشعث بن قيس قد تزوج أم فروة أخت أبي بكر الصديق عند قدومه الأول إلى المدينة المنورة ـ في رمضان أو شوال سنة ٩هـ ـ وعاد الأشعث آنذاك ومعه زوجته أخت أبي بكر إلى حضرموت، فأنجبت له ابنه محمد بن الأشعث عندما تهيأ لمسيرة الثاني إلى رسول الله ﷺ، فلما وصل الأشعث إلى المدينة المنورة ـ في حوالي شهر شعبان سنة ١٠هـ ـ أخبرهم بأن زوجته أخت أبا بكر أنجبت له ولداً سمّاه محمد. وقد تقدم قول القرطبي في الاستيعاب أن «أخت أبي بكر التي تزوجها الأشعث هي أم فروة، وهي أم محمد بن الأشعث». وجاء في قرة العيون: «إن محمد بن الأشعث رابع أربعة وُلدوا في حياة رسول الله ﷺ وتَسَموا بمحمد». وقال ابن حجر العسقلاني في

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ جـ١ ص١٠٩ ـ والإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٥١.

الإصابة: «ذكر ابن مندة: أن محمد بن الأشعث وُلِد في عهد النبي ﷺ».

وقد يكون محمد بن الأشعث هو الذي أخبر الأشعثُ بن قيس النبيّ ﷺ بمولده فقد جاء في ترجمته بالإصابة والاستيعاب أنه «لما وَفَد الأشعث بن قيس، سأله رسول الله ﷺ: هل لك من الولد؟ فقال: لي ابنُ وُلِدَ عند مخرجي إليك، وددتُ أن لي به سبعة. فقال له رسول الله ﷺ: إنهم لمجبنة مبخلة، وأنهم لقرّة وثمرة فؤاد»[(١)]. وقال ابن كثير: «قال الإمام أحمد، حدّثنا سريج بن النعمان حدّثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبي حدّثنا الأشعث بن قيس قال: قدمتُ على رسول الله ﷺ في وفد كندة، فقال لي: هل لك من الولد؟ قلتُ: غلامُ وُلد لي في مخرجي إليك [قال سريج: من ابنه حمد] قال الأشعث: ولوددتُ أن مكانه سبع القوم ـ [أو: شبع القوم] ـ فقال النبي ﷺ: «**لا تقولن ذلك فإن فيهم قرّة عين، وأجر إذا قُبضوا، ثم ولئن قُلت ذاك أنهم لمجبنة محزنة، إنهم لمجبنة محزنة**»». قال ابن كثير: (تفرد به أحمد وهو حديث حسن، جيد الإسناد)[(٢)].

وقد مكث الأشعث بن قيس في المدينة المنورة وصحب رسول الله ﷺ إلى حوالى شهر ذي الحجة سنة ١٠هـ وكان ممن وَفَدَ آنذاك (معاوية بن حُديج السكوني الكندي، مع أمه كبشة بنت معدي كرب، عمة الأشعث بن قيس) وقد سألت النبي ﷺ عن أمر يتعلق بالطواف والحج، فقال لها النبي ﷺ: طوفي سبعاً.. الحديث. أخرجه الدارقطني، وذكره العسقلاني في ترجمة الصحابي مُعاوية بن حُديج، وقال العسقلاني في ترجمة النساء الصحابيات: «كبشة بنت معدي كرب: عمة الأشعث بن قيس وهي والدة مُعاوية بن حُديج الصحابي المعروف» انتهى. ويستفاد من حديث عمة الأشعث بن قيس مع رسول الله ﷺ عن الطواف بالبيت، أنها أدت فريضة الحج مع ولدها معاوية بن حُديج في طريق العودة إلى اليمن في ذي الحجة ١٠هـ، وتلك الحجة هي حجة الوداع التي حج بالناس فيها رسول الله ﷺ، وشهدها كثير من الصحابة والرؤساء اليمانيين، منهم معاذ بن جبل الأنصاري أمير اليمن، وجرير بن عبد الله البجلي، وأبو موسى الأشعري، وربما شهدها الأشعث بن قيس والذين معه، ثم سار الأشعث مع الذين ساروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة.

ثالثاً: زواج رسول الله ﷺ بأخت الأشعث بن قيس. وفي تلك الفترة تزوج رسول الله ﷺ السيدة قتيلة بنت قيس بن معدي كرب الكندي أخت الأشعث بن

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ جـ١ ص١٠٩ ـ والإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٥١.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٥ ص٧٣.

قيس، زَوَّجَهُ إياها أخوها الأشعث، وكانت هي باليمن، فعندما تهيأ الأشعث للعودة إلى اليمن ـ في حوالى شهر محرم ١١هـ ـ تزوج رسول الله ﷺ السيدة قُتيلة أخت الأشعث بن قيس على أن يبعثها الأشعث عند عودته، وربما بعث رسول الله ﷺ مع الأشعث مَنْ يُحضرها إلى المدينة.

وقد ذكر خبرها ابن سيد الناس في كتاب (عيون الأثر) باب (ذِكر أزواج رسول الله ﷺ) إن منهن: «قُتَيْلة بنت قيس بن معدي كرب، أخت الأشعث، تزوجها رسول الله ﷺ قبل موته بيسير، ولم تكن قدمت عليه ولا رآها. قِيل: وأوصى النبي ﷺ أن تُخَير فإن شاءت ضُرِب عليها الحجاب وحُرِمت على المؤمنين، وإن شاءت طُلِقَتْ ونَكَحَتْ مَنْ شاءت»[(١)].

وأضاف ابن سيد الناس عطفاً على كلمة (قيل) ـ التي تدل على التضعيف ـ «فاختارت النكاح، فتزوجها بعدُ عكرمة بن أبي جهل»[(١)] وقد ذكر ابن خلدون أن التي تزوجها عكرمة بن أبي جهل هي أسماء أخت النعمان بن أبي الجون الكندي التي طلقها النبي ﷺ فتزوجها عكرمة عند قدوم الأشعث إلى المدينة.

أما قُتيلة أخت الأشعث فقد تزوجها رسول الله ﷺ، وذلك (قبل موته بيسير) فيكون ذلك عندما تهيأ الأشعث للعودة إلى اليمن ـ في حوالى شهر محرم سنة ١١هـ ـ فلما رجع الأشعث، وقبل أن يبعث بها إلى المدينة، أتى نبأ وفاة رسول الله ﷺ إلى حضرموت. وله يقول امرؤ القيس بن عابس الكندي:

سمعتُ النعايا يوم أعلن جهيّلُ　　بنعي أحمدِ النبيّ المُهتدي

[ص١/٢٣١ ـ الإصابة].

وبما أن التي تزوجها عكرمة بن أبي جهل هي أسماء أُخت النعمان الكندي، فإن قُتيلة أخت الأشعث لم تتزوج، ومؤدى ذلك أنها ربما اختارت أن يُضرب عليها الحِجاب، وحُرِمت على المؤمنين، فلم تزل كذلك إلى أن ارتفعت روحها إلى السماء، بعد زهاء سنة من وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

* * *

الأشعث في خلافة أبي بكر . . وفتنة الناقة بحضرموت

لقد توفي رسول الله ﷺ وتولى أبو بكر الصديق الخلافة ـ في ربيع الأول سنة ١١هـ ـ والأشعث بن قيس في حضرموت، وكان الناس في حضرموت كما في سائر بقية أرجاء اليمن ثابتين على الإيمان والإسلام، وكان

---

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ ابن سيد الناس ـ جـ٢ ص٣٨٩.

عمال رسول الله ﷺ على مخاليف ومناطق اليمن ثابتين في أعمالهم، وأميرهم جميعاً معاذ بن جبل الأنصاري.

وكان رسول الله ﷺ قَسَمَ عمل اليمن على جماعة من الصحابة، منهم أبو موسى الأشعري: على زَبِيد وما بين نجران وَرَمَعْ ـ وهي منطقة تهامة ـ وفروة بن مُسيك المرادي على مُراد وزُبيد ومذحج كلها ومعه خالد بن سعيد بن العاصي عاملاً على الصدقة. وعمرو بن حزم الأنصاري على نجران. والطاهر بن أبي هاله على مأرب. ويَعْلَى بن مُنَيّة الحنظلي، وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وعقبة بن نمر، وأصحابهم على مخاليف الجَنَد ـ وهي مناطق حمير ـ وأميرهم معاذ بن جبل. وقيس بن مالك الأرحبي على همدان.. وفَرّق عمالة حضرموت بين ثلاثة. قال ابن خلدون: (على بلاد حضرموت: زياد بن لبيد البياضي، وعلى السكون والسكاسك: عكاشة بن ثور، وعلى معاوية بن كندة: عبد الله المهاجر بن أبي أُمية، واشْتَكى المهاجر فلم يذهب فكان زياد بن لبيد يقوم بعمله. وكان معاذ بن جبل معلماً لأهل اليمن وحضرموت)(١) وقال ابن سمرة: (على حضرموت: زياد بن لبيد، وعكاشة بن ثور على السكاسك والسكون، ومعه على بني معاوية بن كندة: عبد الله المهاجر بن أبي أمية.. وكان معاذ بن جبل عاملاً لأهل البلدين: اليمن وحضرموت، أمَرَّه النبي ﷺ، فكان معاذ يتنقل في عمله من عامل إلى عامل في اليمن وحضرموت)(١). وقد توفي رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل في صنعاء وهو أمير عُمال اليمن، والوالي على اليمن. قال ابن سمرة: «وأمَرّ رسول الله ﷺ على كندة المهاجر بن أبي أمية، فمرض في حياة النبي ﷺ ولم يُطق الذهاب إلى حضرموت، فكتب النبي ﷺ إلى زياد بن لبيد ليقوم في عمل المهاجر، فأقرّه أبو بكر الصديق على ذلك.. مع بقاء معاذ وسائر عمال النبي ﷺ»(٢).

فاستمر معاذ وعمال مخاليف ومناطق اليمن في أعمالهم، وأحوال اليمن في غاية الاستقرار، والأمور مُستتبة في حضرموت وسائر بقية مناطق اليمن زهاء أربعة أشهر مِنْ خلافة أبي بكر الصديق، ثم رجع معاذ بن جبل إلى المدينة وانتهت ولايته لليمن، وانفرد ابن سمرة برواية تقول: «كتب معاذ إلى أبي بكر يستأذنه في القفول، وكذلك بقية العمّال، فكتب إليهم أبو بكر: .. مَنْ كان مؤتمراً ما أمره به رسولُ الله ﷺ بَقي، ومَنْ شاء أن يرجع فليرجع، ولْيَستخلف على عمله، ومن شاء

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٨.

(٢) طبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة الجعدي ـ ص٣٥ و٣٦.

أن يُقم فَلْيُقِمْ، فرجعوا»[1] فكان الذين رجعوا منهم: معاذ بن جبل الأنصاري وهو الوالي على اليمن إذْ إنه أمير جميع عمال اليمن، وخالد بن سعيد بن العاصي عامل صدقات مذحج، وعمرو بن حزم الأنصاري عامل نجران، وربما أن المهاجر بن أبي أمية كان بحضرموت فرجع آنذاك فتولى عمله زياد بن لبيد البياضي، فقد جاء في كتاب الوثائق السياسية وتاريخ الطبراني أنه: «مات رسول الله ﷺ وعماله على حضرموت: زياد بن لبيد البياضي على حضرموت، وعكاشة بن مِحصَن على السكاسك والسكون، والمهاجر على كندة.. وكتب أبو بكر كتاباً إلى المهاجر»[2] وكان رجوع معاذ والذين رجعوا من العمال في شهر جمادى الثاني سنة ١١ هجرية، وقد حرصنا على تبيين الأسماء والزمن لأنّ الأمر كان مستتباً في اليمن إلى ذلك الوقت.

ثم كتب أبو بكر بتولية فيروز الديلمي الفارسي على اليمن، فثار على فيروز والأبناء في صنعاء قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معدي كرب والذين استجابوا لقيس من فرسان قبائل اليمن، بينما وقعت في حضرموت فتنة الناقة التي تزعم بعض الروايات أنها (ردة عن الإسلام) فتزعم تلك الروايات أنه (ارتدت كندة، وأهلُ حضرموت) بينما لم يكن فيما حدث شيء من الردة، فما حدث كان فتنة بسبب (ناقة) وسمها زياد بن لبيد بميسم الصدقة عن طريق الخطأ، وفيما يلي تفصيل النبأ اليقين عن فتنة الناقة في حضرموت:

قال ابن خلدون: «إن كندة.. وقع بينهم وبين زياد بن لبيد البياضي في أمر فريضة من فرائض الصدقة، أطلقها بعض بني عمرو بن معاوية بعد أن وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً»[3] فعبارة (وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً) تكفي لإدراك عدم صواب موقف زياد بن لبيد في تلك الفتنة التي بدأت بأن رجلاً من بني عمرو بن معاوية كانت عليه ناقة واحدة صدقة ـ أي زكاة ـ على النوق التي يملكها ـ فاختار زياد ناقة عزيزة على الرجل، ووسمها بميسم الصدقة، ورفض أن يأخذ غيرها، فأخذها دون رضا صاحبها ووضعها بين أموال وإبل الصدقة ـ في تريم ـ بينما أصَرّ بنو عمرو على استعادتها لأن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل في شأن أخذ الصدقة «وإياك وكرائم أموالهم» ولأنّ قيمة الناقة التي أخذها تزيد عن الصدقة التي على الرجل، لذلك قال ابن خلدون أن الناقة «وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً»

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة الجعدي ـ ص٣٥ و٣٦.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد الله ـ ص٣٥٩.

(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٨.

فتوجه جماعة من بني عمرو إلى حيث الناقة ـ في تريم ـ فانتزعوا الناقة وأعادوها إلى صاحبها، فتهيأ زياد بن لبيد لمحاربتهم، وانقسم الناسُ بين فريق يؤيد بني عمرو ويعتبر ما قام به زياد بن لبيد عمل خاطئ، وبين فريق يؤيد زياد بن لبيد. قال ابن حجر العسقلاني: «لما انتزعت كندة من زياد بن لبيد ناقة كان وسَمَها بميسم الصدقة، قام فيهم عبد الله بن يزيد الكندي فقال: يا معشر الملوك، إني لا أصْغُرُ عن القول ولا يعظم أحدُ منكم عن الاستماع، وإني أناشدكم الله والرحم أن تصيروا أحاديث في ناقة أُخِذَت بحق وارتجاعها باطل، ثم قال:

ما كان في ناقة ضَلّتَ حلومكم ... ما تغدرون بعهد الله والذمم
ألقى زياد عليها حَقّ ميسمة ... بعد اللسان وبعد الكفّ والقدم»

وتضيف هذه الرواية «فبعث إليه الأشعث بن قيس قائلاً: أرى كلامك يدفعنا وإياك إلى ما نَكْرَه، وإنّا لا نحمل ذلك، فخرج عبد الله بن يزيد من بينهم وسار إلى المدينة»[١] بينما ذكر ابن حجر العسقلاني عن ابن إسحاق أنه: «قام الوليد بن حصن الكندي فوعظهم، فأخرجوه من بينهم، فقام عبد الله بن يزيد الكندي فقال: أكلٌ من قال حقاً اتهمتموه، إن رأيي ـ والله ـ رأي صاحبي، واشتد كلامه فطردوه. فقال:

أرْدَتْ ثموداً بوادي حِجْر ناقَتُهُم ... والحيُّ مِنْ قابلٍ في ناقة حوقِ
والحيُّ مِنْ كندةٍ صاروا بناقتِهم ... مثل الذين مضوا بالشؤم في النُوقِ»[١]

ولم يأت في هذه الرواية أن الأشعث بن قيس بعث إلى عبد الله بن يزيد بأي كلام، وإنما كانت موعظة عبد الله بن يزيد والوليد بن محصن في عشيرتهم الذين انتزعوا واسترجعوا الناقة من زياد بن لبيد في تريم، ولم يكن الأشعث طرفاً في تلك الأحداث وإنما كان في مقره بحصن النُجير، وربما كان رأي الأشعث قريباً من رأي عبد الله بن يزيد والوليد بن محصن وامرئ القيس بن عابس وشرحبيل بن السمط في عدم تأييد الذين انتزعوا الناقة بالرغم مِنْ خطأ زياد بن لبيد.

ثم وقع تصعيد للموقف من جانب زياد بن لبيد فقد قام بالغارة على بني عمرو في منطقتهم في وادي حضرموت وهُمْ آمنون، قال ابن خلدون «فقاتلهم زياد بن لبيد وهزمهم وهرب الباقون، ورجع زياد بالسبيّ والغنائم، ومرّ بالأشعث بن قيس وبني الحرث بن معاوية، واستغاث نساء السبيّ بالأشعث، فأغار

---

(١) الإصابة ـ ترجمة عبد الله بن يزيد ـ جـ٣ ص٩٥ ـ وترجمة الوليد بن محصن ـ جـ٣ ص٩٠.

الأشعث واستنقذهم»[١] وأنه «جمع الأشعث بني معاوية ومَنْ أطاعه من السكاسك وحضرموت. .»[١] ثم نقل ابن خلدون هنا كلمة بأنهم (ارتدوا) وفقاً لرواية سيف التميمي، بينما الذي قاموا به هو أنهم «حصروا زياد بن لبيد في مدينة تريم» كما سيأتي في كتاب أبي بكر الصديق.

إن الروايات التي اعتبرت ما حدث (ردة)، فقد انحازت انحيازاً يفتقر إلى الموضوعية إلى جانب زياد بن لبيد لمجرد أنه عامل أبي بكر على حضرموت، بينما قيام زياد بن لبيد بوسم الناقة بميسم الصدقة كان غلطاً ـ منذ البداية ـ وحتى إذا لم يكن غلطاً، فإن قيامه بالغارة على بني عمرو لاسترداد الناقة ثم قيامه بتشريد بني عمرو وبسبيّ النساء ونهب الأموال التي تسميها الروايات (غنائم)، ثم رجوعه بالسبيّ والغنائم قاصداً مدينة تريم ومروره بحصن ومقر الأشعث بن قيس زعيم كندة، كل ذلك كان موقفاً وعملاً يفتقر إلى الصواب، وبما أن زياد بن لَبيد كان صحابياً فأقل ما يمكن أن يُقال أن قيامه بالغارة وسبيّ النساء وتشريد الناس كان اجتهاداً خاطئاً حتى إذا كان يريد بذلك إظهار هيبة السلطة.

وفي مقابل ما قام به زياد بن لَبِيد، فإن ما قام به الزعيم الصحابي الأشعث بن قيس كان عملاً واجتهاداً صائباً، فهو لم يتدخل إلا عند مرور زياد بن لبيد بالنساء والغنائم أمام حصن ومنطقة الأشعث بن قيس، وبالتحديد «حينما استغاث نساء السبي بالأشعث، فأغار الأشعث واستنقذهم» ولم يلحق بزياد بن لبيد والذي معه أي ضرر، لأنهم حينما شاهدوا الأشعث وفرسان كندة هربوا إلى مدينة تريم، فأطلق الأشعث سراح النساء اللاتي سَبَاهنّ زياد بن لبيد. ثم أجمع بنو معاوية بن كندة والسكاسك وبقية قبائل حضرموت على استنكار ما قام به زياد بن لبيد، وتأييد الأشعث، فذلك يمثل إجماع غالبية أهل البلد المؤمنين ـ وبينهم أكثر من مائة صحابي ـ على صواب اجتهاد الأشعث بن قيس، وعلى خطأ وعدم صواب ما قام به زياد بن لبيد، فحاصروه في مدينة تريم مع أصحابه الذين لا يتجاوزن العشرات، ولم يُلحقوا بهم أي ضرر، وإنما اكتفوا بمحاصرتهم في تريم، وأصبحت مقاليد الأمور بيد الصحابي الأشعث بن قيس لأنه زعيم كندة وحضرموت حتى قبل الخلاف مع زياد بن لبيد، وكان مع الأشعث جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ مِنْ رجالات وزعماء كندة وحضرموت، ذلك أن عدد الصحابة من كندة وحضرموت يزيد عن مائتي صحابيّ مذكورين في تراجم الصحابة.

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٨.

وقد شهدت تلك الفترة ـ في رجب ١١هـ ـ قيام الصحابيان قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي وعشرات الآلاف من فرسان قبائل اليمن المؤمنين، باعتقال وتجميع الأبناء الفُرس بمدينة صنعاء، وترحيل الذي لم يُسلموا من الأبناء الفُرْس مِنْ اليمن براً وبحراً، وقد تم ترحيل فرقة منهم إلى عدن وتحميلهم بالمراكب إلى ساحل حضرموت ثم إلى ساحل عُمان، وترحيل الفرقة الثانية من الفُرس المجوس ـ وكانوا أربعة آلاف ومعهم عيالاتهم ـ عن طريق مأرب إلى حضرموت، مصحوبين بفرسان مذحج، ثم مصحوبين بفرسان كندة من حضرموت إلى البحرين غالباً، فلحقوا من عُمان والبحرين ببلاد فارس والعراق. وقد تزامن ذلك مع ترحيل الفرس المجوس الذين كانوا في عُمان. وفي ذلك قال د. فاروق عمر: «حين رفض الفرس الدخول في الدين الجديد قاد العربُ ـ في عُمان ـ حملة ضدهم في الرستاق وكذلك حاصروا الحامية الفارسية في صحار التي استسلمت بشرط أن يؤمن العرب إجلاء الفرس مع عوائلهم وأموالهم إلى الساحل الشرقي من الخليج، فقبل العرب بذلك الشرط»[١] وبذلك تم إجلاء الفرس من عُمان، وحدث مثل ذلك في البحرين، وقد أشارت الروايات إلى الثورة في صنعاء على الأبناء الفُرس بقيادة قيس بن مكشوح وأنه «رجل الأمر يستطير استطارة الحريق ما بين صنعاء وحضرموت وحتى أعمال البحرين». وليس ذلك الأمر إلا أمر ترحيل الفرس المجوس إلى بلادهم في رجب ١١هـ.

ثم بعث أبو بكر الصديق البعوث والرسائل، ويتبين زمن ذلك، بأنه ـ كما جاء في كتاب البداية والنهاية ـ «في جمادى الآخرة ركب أبو بكر الصديق في أهل المدينة إلى من حول المدينة من الأعراب.. فاتّبعهم أبو بكر إلى ذي القُصّة» ـ فقام بضبط الأمور في مناطق الأعراب ـ ونزل أبو بكر في ذي القصة، فيكون ذلك في رجب وشعبان ١١هـ ـ ثم «قطع أبو بكر البعوث، وعقد الألوية للأمراء المبعوثين.. فسار الأمراء من ذي القصة.. ومنهم المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وعكرمة بن أبي جهل إلى اليمامة، وبعث شرحبيل بن حسنة الكندي في أثره إلى اليمامة» وأمر عكرمة بالمسير إلى حذيفة بن محصن الحميري وعرفجة إلى عمان ومهره ويتوجه إذا فرغ من ذلك إلى حضرموت[٢] ويتيح ذلك إدراك أن بعث المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل كان في شعبان أو رمضان سنة ١١هـ.

---

(١) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٣١.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٦ ص٣١٦.

وقد ذكر الواقدي نبأ غارة زياد بن لبيد عامل حضرموت على الذين أغار عليهم من كندة، ثم قال: «وبلغ الأشعث بن قيس ما فعله زياد بن لبيد، فالتقى القوم قريباً من مدينة من مدن حضرموت يقال لها تريم، ووقعت الهزيمة على زياد ـ وأصحابه ـ وانهزموا حتى دخلوا تلك المدينة. وأقبل الأشعث بن قيس وأصحابه حتى نزل على مدينة تريم فحاصر زياد بن لبيد ومن معه حصاراً شديداً. وكتب زياد بن لبيد إلى المهاجر بن أبي أمية يستنجده على الأشعث.. وقال: وكتب زياد بن لبيد إلى أبي بكر الصديق كتاباً. فلما ورد كتاب زياد إلى أبي بكر بخبر كندة.. لم يجد أبو بكر بدّاً من الكتاب إلى الأشعث بن قيس بالرضا»[١].

ثم ذكر الواقدي كتاب أبي بكر إلى الأشعث بن قيس ثم كتاب أبي بكر إلى عكرمة بن أبي جهل، بينما ذكر الطبري أن أبا بكر كتب إلى المهاجر بن أبي أمية، وذكر ابن خلدون وابن سمرة والطبري أن أبا بكر بعث المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن (ليُصلح مِنْ أمره، ثم ينفذ إلى عمله)، ويتبين من مجمل المصادر والنصوص التاريخية ترتيب النبأ اليقين والوثائق كما يلي:

(إن أبا بكر الصديق أمر المهاجر بن أمية بأن يسير إلى اليمن ليُصلح من أمره) قال ابن خلدون «ففصل المهاجر لذلك ومَرّ بمكة والطائف، فسار معه خالد بن أُسيد، وعبد الرحمن بن أبي العاصي، ومَرّ بجرير بن عبد الله البجلي ـ عامل نجران ـ وعكاشة بن ثور، فضمهما إليه، ثم مَرّ بنجران فانضم إليه فروة بن مسيك ـ (عامل مذحج) ـ وجاءه عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح» وكذلك جاء في رواية صحيحة بتاريخ الطبري: «بعث أبو بكر المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء وحضرموت، فاتخذ المهاجر مكة طريقاً، ومَرّ بالطائف، ثم مضى حتى حاذى جرير بن عبد الله البجلي فَضَمّه إليه، ثم قدم على أهل نجران فانضم إليه فروة بن مسيك، وفارق عمرو بن معدي كرب قيساً، وأقبل مستجيباً ودخل على المهاجر»[٢] وقال ابن سمرة: «سار مع المهاجر بن أمية عبد الرحمن بن العاص وجرير بن عبد الله البجلي، فبدأ المهاجر بنجران، فانضم إليه فروه بن مسيك.. وجاءه عمرو بن معدي كرب» إلى أن قال: «فدخل المهاجر بن أبي أمية صنعاء»[٢] وقد تم خلال ذلك إصلاح الأمر في صنعاء وسار عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح إلى أبي بكر، وتم توضيح الأمور، واعتذرا لأبي بكر، فعفا عما حدث،

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ عن تاريخ الواقدي ـ ص٣٥٣ و٣٥٥.

(٢) تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص٧٨ ـ وطبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة ـ ص٣٥ ـ وتاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٦٥.

واستعمل على اليمن والعاصمة صنعاء أبان بن سعيد بن العاصي ـ صهر قيس بن مكشوح المرادي ـ وكتب أبو بكر إلى المهاجر بأن يسير إلى كندة، وتولى أبان بن سعيد في صنعاء، بينما توجه المهاجر إلى مأرب للمسير منها إلى حضرموت مع عكرمة بن أبي جهل.

وجاء في رواية الواقدي أنه: «كتب أبو بكر إلى عكرمة بن أبي جهل. أما بعد: فقد بلغك ما كان من أمر الأشعث بن قيس وقبائل كندة، وقد أتاني كتاب زياد بن لبيد، يذكر أن قبائل كندة قد اجتمعوا عليه وعلى أصحابه، وقد حصروهم في مدينة تريم بحضرموت، فإذا قرأت كتابي هذا فسر إلى زياد بن لبيد في جميع أصحابك ومَنْ أجابك مِنْ أهل مكة، وانظر: لا تمرّن بحيّ من أحياء العرب إلا استنهضتهم معك، فأخرجتهم معك إلى الأشعث بن قيس وأصحابه. والسلام. فسار عكرمة، حتى صار إلى صنعاء، فاستنهض أهلها، فأجابوه إلى ذلك، ثم سار إلى مأرب، فنزلها»[(١)]. والأصوب أن الذي أتى إلى صنعاء هو المهاجر بن أبي أمية، وهو الذي سار من صنعاء إلى مأرب، ولعل أبو بكر كتب بنفس الكتاب إلى المهاجر بن أبي أمية وإلى عكرمة بن أبي جهل، ولذلك وقع الالتباس، فالذي أتى إلى صنعاء ثم سار إلى مأرب هو المهاجر بن أبي أمية فنزل بمأرب، فيكون عكرمة أتى من عُمان أو من مكة إلى مأرب، فالتقى بالمهاجر ليسيرا سوياً إلى حضرموت.

قال ابن خلدون: «ثم سار عكرمة مع المهاجر إلى كندة، وكتب زياد إلى المهاجر يستحثه فلقيه الكتاب بالمفازة بين مأرب وحضرموت فاستخلف عكرمة على الناس وتعجل إلى زياد»[(٢)] ثم ذكر ابن خلدون ما جاء في رواية سيف بن عمر التميمي التي تجاهلت هنا حقيقة ووثيقة هامة وهي كتاب أبي بكر إلى الأشعث بن قيس، وقد وصل الكتاب إلى المهاجر وهو بالمفازة بين مأرب وحضرموت، فتعجل بالكتاب ـ أي سار بالكتاب ـ واستخلف عكرمة على الناس، وقد ذكر الواقدي أن كتاب أبي بكر إلى الأشعث بن قيس جاء فيه ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من أبي بكر خليفة رسول الله على أمته إلى الأشعث بن قيس ومَنْ معه من قبائل كندة.

أما بعد: فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه المنزَّل على نبيّه عليه السلام:

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ عن تاريخ الواقدي ـ ص٣٥٣ و٣٥٥.

(٢) تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص٧٨ ـ وطبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة ـ ص٣٥ ـ وتاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص٦٥.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وأنا آمركم بتقوى الله وحده، وأنهاكم أن تنقضوا عهده وأن ترجعوا عن دينه.. ولا تتّبعُوا الهوى فيُضِلّكم عَنْ سَبيلِ الله. وإن كان إنما حملكم.. ما فعله بكم عاملي زياد بن لبيد، فإني أعزله وأُولي عليكم مَنْ تحبّون. وقد أمرتُ صاحب كتابي هذا، إن أنتم قبلتم الحقّ، أن يأمر زياداً بالانصراف عنكم، فراجعوا إلى الحقّ. وفّقنا الله وإياكم لكل ما فيه رضى. والسلام»(١). ويتيح ذلك كله إدراك ما يلي

أولاً: إن أبا بكر الصديق اعْتَبَرَ ما قام به زياد بن لبيد عملاً خاطئاً، وبالتالي فلا صحة للمزاعم والأراء التي اعتبرت ما حدث (ردة عن الإسلام) وقامت باختلاف وترويج مزاعم باطلة عن ردة كندة وحضرموت والأشعث، فمما قاموا به ليس فيه شيء من الردة وإنما هو اجتهاد من الغالبية بسبب خطأ تصرفات زياد بن لبيد، لذلك قال أبو بكر الصديق «إن كان إنما حملكم على ما فعلتم، ما فعله عاملي زياد بن لبيد، فإني أعزله وأُولي عليكم مَنْ تُحبّون». وبذلك فقد اعتبر أبو بكر ما قام به زياد عملاً خاطئاً، يستوجب عزله عن عمله. مما يعني أن اجتهاد الأشعث والذين معه مِنْ الصحابة وأهل حضرموت المؤمنين قد وجد تفهماً من أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثانياً: أن أبا بكر الصديق قد اعتبر (الحق) في تلك الفتنة هو (عزل زياد) ويجب أن لا يتجاوز الأمر ذلك إلى قتله أو إلى الخروج عن الطاعة. وهو ما يتجلّى في قوله: «وقد أمرتُ صاحب كتابي هذا، إن أنتم قبلْتُم الحق أن يأمر زياداً بالانصراف عنكم». وصاحب الكتاب الذي بعث أبو بكر الكتاب معه هو المهاجر بن أبي أمية، ثم أردفه أبو بكر بعكرمة بن أبي جهل ـ صهر الأشعث بن قيس ـ وقد تعجل المهاجر فسار بالكتاب إلى حضرموت، ثم لحق به عكرمة فوصل والمهاجر وزياد في تريم، والأشعث بن قيس في حصنه وهو حصن النُجير، والمهاجر ينتظر جواب الأشعث، فأتى عكرمة إلى الأشعث فأجاب عليه بقبول كندة وحضرموت بما جاء في كتاب أبي بكر، وسار الأشعث مع عكرمة من حصن النجير إلى المهاجر بن أبي أمية في تريم، وأمر المهاجر زياداً بالانصراف عن حضرموت، فانصرف إلى المدينة، وتولى حضرموت المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسار الأشعث بن قيس إلى أبي بكر الصديق، فقبل منه أبو بكر تفسيره لما حدث، وقال له: (ليبلغني عنك خيراً)، فرجع الأشعث إلى

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ عن تاريخ الواقدي ـ ص٣٥٣ و٣٥٥.

حضرموت ولم يزل زعيماً مطاعاً إلى أن انطلق بفرسان كندة للجهاد والفتوحات سنة ١٣هـ.

ثالثاً: إن كتب التاريخ والروايات الشائعة عن ما حدث في كندة وحضرموت والتي وصفت ما حدث بأنه (رده) قد ذكرت مزاعماً ثالثه لا بد من التنبيه إلى عدم صحتها، وهي من روايات وتلفيقات سيف بن عمر التميمي التي ذكرها الطبري وذكر بعضها الواقدي، وشاعت في بقية المصادر، وتلك المزاعم هي:

أ ـ إن الأشعث بن قيس قتل الرسول الذي وصل إليه بكتاب أبي بكر الصديق. ولا صحة لذلك، فالذي وصل بالكتاب هو المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل، ولم يُقتل أيٌّ منهما فقد مكث عكرمة عاملاً على الشِحْر والمهرة ـ شرق منطقة حضرموت ـ إلى أن استنفر أبو بكر أهل اليمن للجهاد وفتح الشام، «فكان في أوائل المستنفرين ذو الكلاع ومعه حمير، وعكرمة بن أبي جهل ومعه من معه من الشحر ومهرة وعُمان..» فكان عكرمة في الجيش الذي سار إلى الشام في صفر ١٣هـ، ومكث المهاجر عاملاً في حضرموت إلى خلافة عمر بن الخطاب. قال ابن خلدون: (واستشهد عكرمة بن أبي جهل في موقعة اليرموك).

ب ـ وزعمت روايات سيف التميمي أن المهاجر بن أمية لما وصل حضرموت (حارب الأشعث بن قيس والذين معه وهم كندة والسكون والسكاسك ـ مِنْ كندة ـ ومَنْ أطاعه مِنْ حضرموت، فهزمهم المهاجر وزياد، فتحصنوا مع الأشعث في حصن النُجير، فحاصرهم المهاجر، وأتى عكرمة فحاصرهم، فخرج الأشعث وكندة للقتال، فغلبهم المهاجر وعكرمه، واستأمن الأشعث إلى عكرمة بما كانت أسماء بنت النعمان تحته، فخرج إليه وجاء به المهاجر وأمَّنَه في أهله وأمله وتسعة من قومه على أن يفتح لهم الباب، فاقتحمه المسلمون وقتلوا المقاتلة وسبوا الذُرية والنساء..) وبذلك قَضَت رواية سيف التميمي على قبيلة كندة، فأبادت رجالات كندة ـ باستثناء تسعة أفراد ـ وجعلت ذرية ونساء كندة سبايا. بينما لم يُقتل من كندة فرد واحد، ولم تقع أي معركة إلا في تلفيقات وأوهام سيف التميمي، وقد بَرزّ الواقدي عدم مقتل أحد من كندة بقوله: «كتب أبو بكر إلى عامله في حضرموت، أما بعد: أن الأشعث بن قيس قد سألك الأمان وقد نزل على حكمي. فاحمله إليّ مُكرَّماً، ولا تقتلنَّ أحداً من كندة صغيراً ولا كبيراً. والسلام»[1] ومما يؤكد عدم صحة تلفيقات التميمي

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد الله ـ عن تاريخ الواقدي ـ ص٣٥٣ و٣٥٥.

عن إبادة كندة ولم يبق منهم سوى تسعة أفراد كما زعم، أن ذلك يتنافى مع حقائق التاريخ، فقد جاء في تاريخ الطبري عن موقعة القادسية أنه «سار الأشعث بن قيس إلى القادسية في ألف وسبعمائة» وأنه «في موقعة اليرموك كان امرؤ القيس بن عابس الكندي على كردوس ـ ألف مقاتل من كندة ـ والسمط بن الأسود على كردوس ـ ألف مقاتل من كندة ـ ومعاوية بن حُديج السكوني على كردوس ـ ألف مقاتل مِنْ السكون من كندة ـ» وقال ابن خلدون: «سار الأشعث بن قيس ومعه ثلاثون ألفاً إلى القادسية». [ص٩٢ جـ٢]. وهُمْ من كندة وسائر حضرموت وغيرهم من أهل اليمن.

جـ ـ وزعمت رواية سيف التميمي وما شايعها من التلفيقات أنه «بعث عكرمةُ الأشعث بن قيس أسيراً مُكتفاً إلى أبي بكر، فقال له أبو بكر: ما أفعلُ بك أقتلك؟ فقال الأشعث: تعفو عني وتزوجني أختك، فعفا عنه أبو بكر وزَوَجه أخته أم فروة». وقد شاعت هذه الرواية في عدة مصادر لأن الأشعث تزوج أخت أبي بكر بالفعل، فظن البعض أن ذلك الزعم صحيح. بينما الصحيح أن ذلك الزواج كان عند قدوم الأشعث إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة سنة ٩هـ، وقد حاولت رواية ابن خلدون التوفيق بين تلك الحقيقة وبين مزاعم رواية التميمي عن وقوع الزواج بعد الردة، فجاء في رواية ابن خلدون أنه «قال الأشعث: يا أبا بكر احتسب فيّ وأقْلني، ورد عليّ زوجتي، وقد كان الأشعث تزوج أم فروة أخت أبي بكر حين قدم على رسول الله ﷺ وأخرها إلى أن يرجع. فأطلقه أبو بكر ورَدّ عليه زوجته، وقال: لِيَبْلُغني عنك خيراً». وكذلك قال ابن سمرة: أن المهاجر بعث بالأشعث إلى أبي بكر، ثم قال: «وقد كان الأشعث يوم هجرته إلى رسول الله ﷺ، تزوج من أبي بكر أخته أم فروة، ولم يدخل بها. . فسلم إليه أبو بكر زوجته أم فروة يومئذٍ» ـ أي يوم عفا عنه ـ. [ص٣٦/ طبقات ابن سمرة].

فرواية ابن خلدون وابن سمرة تنفي مزاعم التميمي لأنها تؤكدان الأشعث بن قيس تزوج بأخت أبي بكر حين قدم على رسول الله ﷺ سنة ٩ هجرية، وقد تقدم النبأ اليقين عن ذلك، وبقية الحقيقة تتمثل في أن الأشعث عاد آنذاك إلى حضرموت ومعه زوجته أم فروة أخت أبي بكر، فأنجبت له ابنه محمد بن الأشعث ـ في شعبان سنة ١٠هـ ـ ولما قدم الأشعث إلى رسول الله ﷺ ـ في شعبان أو رمضان، سنة ١٠هـ ـ أخبرهم بمولد محمد، وقال العسقلاني في الإصابة «ذكر ابن منده أن محمد بن الأشعث وُلد في عهد النبي ﷺ» وجاء في قرة العيون «أن محمد بن

الأشعث رابع أربعة ولدوا في حياة رسول الله ﷺ وتسموا بمحمد». وبالتالي فإن مزاعم التميمي التي نقلها بعض المؤرخين وأصحاب التراجم هي من النوع الذي أشار إليه ابن خلدون قائلاً: «يوجد في كلام بعض المؤرخين أخبار فيها مطاعنُ وشُبهُ في كبار الأمة وخيارهم من الصحابة والتابعين، أكثرها من أهل الأهواء..»[١].

ولقد كان الأشعث بن قيس مِنْ كبار الأُمة ومِنْ علية وخيار الصحابة، فجاء في قرة العيون أنه «من السابقين الأولين إلى الإسلام» وقال القرطبي: «روى الأشعث أحاديث عن النبي ﷺ، وروى عنه قيس بن أبي حازم، وأبو وائل، والشعبي، وعبد الرحمن بن عدي». وقال العسقلاني في ترجمة الأشعث «أخرج البخاري ومسلم حديثه في الصحيح». وجاء في العقد الفريد أن القاضي شريح وهو قاضي الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب ومن كبار علماء التابعين، «دخل إليه الأشعث بن قيس وهو في مجلس القضاء، فقال شريح: مرحباً وأهلاً بشيخنا وسيدنا، وأجلسه معه». وكان الأشعث بن قيس من كبار الصحابة والزعماء المجاهدين الذين كان لهم الدور الأكبر في فتوح العراق وفي مصاولة جحافل الإمبراطورية الفارسية في العراق ثم في فتح نهاوند في إيران، ثم الدور الأعظم للأشعث وهو فتح بلاد أذربيجان.

انطلاق الأشعث للجهاد والفتوحات في العراق

كان انطلاق الأشعث عندما استنفر الخليفة عمر بن الخطاب رؤساء وقبائل العرب لجهاد الفُرس الذين حشدوا في العراق جيشاً عظيماً من أرجاء الإمبراطورية الفارسية، وكان في إقليم الحيرة بالعراق زهاء عشرة آلاف من العرب المسلمين بقيادة الصحابي الأمير جرير بن عبد الله البجلي والذين معه من الصحابة والقادة في العراق ـ منذ أواسط سنة ١٣هـ ـ فحشد الفُرس جيشاً من شتى أقاليم وبلدان الإمبراطورية الفارسية وتوجهوا من المدائن ـ عاصمة كسرى ـ إلى ساباط وإقليم الحيرة ـ لمحاربة العرب المسلمين ـ فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس.. وقد كتب عمر إلى عماله على العرب أن يبعثوا إليه ويستنفروا من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي، فجاءت أفواجهم إلى المدينة»[٢].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ جـ٢ ص١٨٨.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٩٤.

ولقد كان أكثر الكتائب والفرسان الذين وصلوا إلى المدينة ـ عدة وعتاداً ـ هم كتائب وفرسان كندة وحضرموت الذين انطلقوا للجهاد بزعامة الأشعث بن قيس الكندي، فقد انطلق الأشعث بن قيس على رأس ألف وسبعمائة من فرسان كندة، وعدة آلاف من سائر بقية قبائل حضرموت والمهرة وظفار عُمان وأعالي شبوة، فوصل الأشعث على رأس ذلك الجيش إلى المدينة المنورة، والتقى بالخليفة عمر بن الخطاب، وكان قدوم الأشعث بعد أيام أو أسابيع من بداية وصول أفواج المستنفرين إلى المدينة، إذ أنّه:

«عيّن عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص وولاه حرب العراق، وسرحه في أربعة آلاف ممن اجتمع عند عمر من المستنفرين. فيهم حميضة بن النعمان بن حميضة على بارق ـ وبارق من أزد السَراة باليمن ـ وألف وثلاثمائة من مذحج على ثلاثة رؤساء: عمرو بن معدي كرب، وأبو سبرة بن ذؤيبة الجعفي، ويزيد بن الحرث الصُدائي. وأربعمائة من السكون من كندة عليهم معاوية بن حُديج السكوني والحصين بن نمير السكوني».

قال الطبري: ثم أمدّه عمر بعد خروجه ـ أي مسير سعد إلى العراق ـ «بثلاثة آلاف من أهل اليمن، وألف من سائر الناس». فالثلاثة آلاف من أهل اليمن كانوا من خثعم، ومن قضاعة، ومن نجران، ومن غيرهم من قبائل اليمن.

ثم وصل الأشعث بن قيس في فرسان كندة وكتائب حضرموت، فالتقى بالخليفة عمر بن الخطاب، وأقام أياماً في المدينة، وانطلق بالجيش من المدينة إلى حيث سعد بن أبي وقاص في سيراف. قال الطبري: «قَدِم على سعد بسيراف الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن»(١) وقال ابن خلدون: «سار سعد إلى سيراف فنزلها واجتمعت إليه العساكر، ولحقه الأشعث بن قيس في ثلاثين ألفاً»(٢).

ويبدو أن رواية الطبري ذكرت الذين كانوا مع الأشعث بن قيس من فرسان كندة وكانوا ألف وسبعمائة، بينما ذكر ابن خلدون الذين كانوا مع الأشعث من سائر مناطق وقبائل حضرموت بمدلولها الواسع القديم الممتد من أعالي شبوة غرباً إلى ظفار عُمان شرقاً، وكذلك الذين وصلوا من بقية مناطق وقبائل اليمن عند وصول الأشعث إلى المدينة، فتوجهوا مع الأشعث وجيشه إلى العراق، وقد كان منهم

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص٨٧.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٩٤.

(ستمائة من حضرموت والصدف عليهم شداد بن ضمجع، وستمائة من النخع عليهم دريد بن كعب النخعي)، ومنهم فرسان ورجال همدان ـ حاشد وبكيل ـ بقيادة سعيد بن قيس الهمداني والحارث بن سُميّ الهمداني، وفرسان بني الحرث بن كعب بقيادة الربيع بن زياد وكثير بن شهاب الحارثي، ومنهم أيضاً كتيبة من كندة بقيادة شرحبيل بن السمط الكندي، وكتيبة السكون من كندة بقيادة معاوية بن حُديج السكوني وهو ابن عمة الأشعث بن قيس: فلما اجتمع المسلمون إلى سعد بسيراف، (جعل على الميمنة عبد الله بن المعتمد، وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي، وأتى سعد القادسية فنزل بين الخندق والعتيق.. واختط سعد قصره بالعذيب.. بينما عسكر رستم بساباط في ستين ألفاً وعلى مقدمته الجالنوس في أربعين ألفاً وساقته عشرون ألفاً.. ثم سار رستم ـ بالجيش الفارسي ـ فنزل في كوثي.. وذلك قبل قدومه ونزوله بالقادسية)(١).

* * *

وفيما كان رستم في ساباط، كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص بأن يبعث جماعة من الصحابة القادة إلى عظيم الفرس يدعونه إلى الإسلام، بينهم الأشعث بن قيس وعمرو بن معدي كرب، وفي ذلك جاء في فتوح البلدان للبلاذري أنه: «كتب عمر إلى سعد يأمره أن يبعث جماعة إلى عظيم الفُرس. فبعث سَعْدُ الأشعث بن قيس وعمرو بن معدي كرب في جماعة. فمَرّوا برستم، فقال: أين تريدون؟ قالوا: مَلِكَكُم. فجرى بينهم كلام كثير حتى قالوا: إن نبينا قد وَعَدَنا أن نغلب على أرضكم»(٢).

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن (ساباط) التي كان فيها رُستم هي التي فيها حبس كسرى أبرويز بن هرمز النعمان بن المنذر أبا قابوس ـ آخر ملوك الحيرة المناذرة ـ وقد تمنى عمرو بن معدي كرب آنذاك لو أن قبائل مذحج تُجمِعُ على رئاسته فيسير بها لإنقاذ ومناصرة النعمان بن المنذر قائلاً:

أؤمُ بها أبا قابوس حتى ... أحلُّ على تحيته بجندي

ومات النعمان بن المنذر في سجن ساباط وهو محزرق (أي مُضيق عليه) وفي ذلك قال أعشى قيس:

فذاك وما أنْجَى مِن الموت ربه ... بساباط حتى مات وهو مُحَزْرَقُ

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٩٤.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٥٧.

وأدى موت أو قتل النعمان بن المنذر إلى موقعة ذي قار التي تقدم النبأ عنها، وكانت في السنة الثالثة للبعثة النبوية (٦١٢م) ولما التقى الأشعث بن قيس وعمرو بن معدي كرب والذين معهما برستم في ساباط، وجرى بينهم وبينه ما جرى من كلام، أنفذهم إلى كسرى يزدجرد في المدائن، التي سبق لهما بالذات ـ الأشعث وعمرو ـ القدوم إليها ولقاء كسرى أبرويز بن هرمز أيام النعمان بن المنذر، وكان الأشعث عمرو من بين خمسة رؤساء مثلوا العرب في ذلك الزمن، بينما في مسيرهما هذا إلى كسرى يزدجرد ـ سنة ١٤هـ (٦٣٤م) ـ كانا يُمثلان الإسلامُ ومَنْ معهما، قال البلاذري: «ثم أتوا الملك ـ وهو كسرى يزدجرد ـ ودعوه إلى الإسلام، فغضب، وأمرهم بالانصراف، وقال: لولا أنكم رُسلُ لقتلتكم. وكتب إلى رستم يُعنفه على إنفاذهم إليه»(١) وفي رواية الطبري أن كلام الوفد مع كسرى انتهى إلى قولهم: «اختر إما الإسلام وإما الجزية وإما السيف» فغضب وقال: «لو قتل أحدُ الرُسل قبلي لقتلتكم.. ارجعوا إلى صاحبكم، واعلموه أني مُرسلُ رستم حتى يدفنكم أجمعين في القادسية ثم يدوخ بلادكم» ولما رجعوا، سار رستم بالجيش الفراسي فنزل منطقة العتيق بالقادسية في مواجهة عسكر المسلمين، ثم ما لبث أن اندلعت موقعة القادسية.

* * *

ملاحم الأشعث بن قيس في القادسية

لقد كان للأشعث بن قيس ولفرسان كندة بقيادته إسهاماً وافراً وجهاداً عظيماً في موقعة القادسية التي قال عنها الحافظ ابن كثير: «كانت وقعة القادسية وقعة عظيمة لم يكن بالعراق أعجبُ منها وكان سعد بن أبي وقاص قد أصابه عرق النَسَاءَ ودمامل في جسده فهو لا يستطيع الركوب.. وقد جعل على الحرب خالد بن عُرْفَطَة ـ العِذَري ـ وعلى الميمنة جرير بن عبد الله البجلي، وعلى الميسرة قيس بن مكشوح المرادي»(٢).

وكان لكل قبيلة في الجيش أميرها ورايتها، فكان الأشعث بن قيس أمير وصاحب راية كندة فتحت قيادته ألف وسبعمائة من فرسان كندة وحضرموت، ويليه من قادة كندة شرحبيل بن السمط على رأس كتيبة من كندة، ومعاوية بن حُديج السكوني على رأس أربعمائة مِنْ السكون مِنْ كندة، وشداد بن ضمعج على رأس

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٥٧.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٤٣.

ستمائة من حضرموت والصُدُف ـ والصُدف أخو كندة ـ وكانت الرئاسة العامة عليهم للأشعث، ثم إن الأشعث وفرسان ورجال كندة أولئك ـ وهُمْ زهاء أربعة آلاف ـ كانوا في ميمنة الجيش العربي الإسلامي التي كانت تَضُم قبيلة بَجِيلة والذين معها ـ وهُمْ رُبع جيش المسلمين ـ كما تَضُم بني زُبيد من مذحج بقيادة عمرو بن معدي كرب، وغيرهم، وكان الأمير اليماني الصحابي جرير بن عبد الله البجلي هو قائد الميمنة.

وفي معارك اليوم الأول لموقعة القادسية كانت ميمنة الجيش الإسلامي هدف هجمات الفِرق الحربية الفارسية والأفيال، وفي ذلك قال ابن خلدون: أن الفُرس «حملوا بالفيلة على المسلمين، فأمالوها على بَجِيلة» وذكر الطبري وابن كثير عن قيس بن أبي حازم البجلي: أن الفُرس علموا «إن بأس المسلمين في الجانب الذي فيه بَجِيلة، وكنّا رُبع الناس، فوجهوا إلينا ستة عشر فيلاً، وإلى سائر الناس فيلين، وجعلوا يلقون تحت أرجُل خيولنا حسك الحديد، ويرشقوننا بالنّشّاب فكأنّه المطر علينا، وكان عمرو بن معدي كرب يمرّ بنا فيقول: كونوا أسوداً فإنما الفارسي تيس، وكان إسوار منهم لا يكاد تسقط له نُشّابه، فقلنا له: يا أبا ثور، نُقّ ذلك الفارسي، فحمل عليه عمرو فاعتنقه فذبحه». قال البلاذري: «ثم حطم عمرو بن معدي كرب فيلاً من الفيلة» ـ أي قطع وحطم نوابتها أو الصندوق التي عليها ـ وقال: ـ افعلوا هكذا ـ فاندفع فرسان بني زُبيد يفعلون كذلك، فانطلق الأشعث بن قيس بفرسان كندة يخترقون أفيال وصفوف العدو مع بجيلة وبني زُبيد. وذكر ابن خلدون عن رواية سيف التميمي أن الفُرس «حملوا بالفيلة على المسلمين فأمالوها على بجيلة فَثَقَلت عليهم، فأرسل سعد إلى بني أسد أن يدفعوا عنهم.. فردّوا الفيلة، فعيّر الأشعثُ بن قيس كندة بما يفعله بنو أسد، فاستشاطوا ونهدوا معه فأزالوا الذين بإزائهم». وقال الطبري: «فَنَهَدَ الأشعث بن قيس ونَهَدَت كندة معه، فأزالوا الذين بإزائهم». فكانت لكندة بزعامة الأشعث وزُبيد بزعامة عمرو بن معدي كرب وبَجِيلة وميمنة الجيش بقيادة جرير بن عبد الله دوراً باسلاً في ذلك اليوم الذي استمر فيه القتال حتى ذهبت هدأة الليل، وتقطعت وسقطت فيه توابيت وصناديق الأفيال، وتقهقر الفرس إلى معسكرهم بعد أن تكبدوا خسائر فادحة.

* * *

وفي اليوم التالي تقدمت فرقة من الفُرس (عليهم دروع لا ينفذ فيها السلاح، فازدلف لهم المسلمون فجالدوهم بالسيوف فرأوا أن السيوف لا تعمل في الحديد ـ أي الدروع ـ فارتدعوا) وكان قائد تلك الفرقة الفارسية تُرْك الطبري، قال الإمام

الشعبي «والله ما شهدها من كندة خاصةٍ إلا سبعمائة، وكان بإزائهم تُرْك الطّبري، فقال الأشعث بن قيس: يا قوم ازحفوا لهم، فزحف لهم في سبعمائة فأزالهم، وقَتَلَ تُركاً، فقال راجز كندة:

نحنُ تركنا تُرْكهم في المَصْطَرَةْ مُخْتضباً مِنْ بهرانِ الأبْهَره»[1]

وفي اليوم الثالث التحم الجيشان في معركة تواصلت حتى المساء، وانفصل الجيشان، ثم شَنّ عمرو بن معدي كرب غارة على معسكر الفرس منتصف الليل فاندلعت معركة (ليلة الهرير)، انطلق قيس بن مكشوح المرادي في قوة من الفرسان وانضم إلى عمرو بن معدي كرب والذين معه في القتال داخل معسكر الفُرس، ثم انطلق سائر جيش المسلمين إلى معسكر الفرس، وكان القتال في مقدمة المعسكر الفارسي، فاندفع الجيش الفارسي إلى ذلك المكان، فانتظمت صفوف الجيشين للقتال وتهيَّؤا للمزاحفة وكان المسلمون ثلاثة صفوف، فصفٌّ فيه الرّجالة أصحاب الرماح والسيوف، وصفّ فيه المُرامية وصفٌّ فيه الخيول ـ أي الفُرسان ـ وهم إمام الرّجالة، وكذلك الميمنة وكذلك الميسرة. فقام قيس بن مكشوح المرادي فقال: إن عدوكم قد أبَى إلا المُزاحفة، والرأي ليس بأن تحمل الخيل ليس معه الرّجالة فإنّ القوم إذا زحفوا وطاردهم عدُّوهم على الخيل لا رجال معهم عقروا بهم ولم يطيقوا أن يُقدِموا عليهم، فتَيسَّروا للحملة ـ جميعاً ـ. وقال الأشعث بن قيس: (يا معشر العرب إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجراء على الموت ولا أسخى أنفساً عن الدنيا، تنافسوا ولا تَجزَعوا من القتل فإنه أماني الكرام ومنايا الشهداء. وتَرَجَّل)»[1].

فلما ترجّل الأشعث متقدماً إلى صفوف العدو، ترجّلت وتقدمت وراء الأشعث مئات الصفوف من الفرسان والرّجالة والرماة العرب، وتقدم سائر الرؤساء بفرسانهم ورجالهم، الجيشان في معركة منْ أشد المعارك، ودارت رحى الحرب حتى الصباح، (حتى إذا كان وجه الصبح عاد العرب إلى معسكرهم وهُمْ الأعلون والغلبة لهم)[1].

* * *

وما لبث أن تهيأ الجيش العربي الإسلام فور عودتهم من ليلة الهرير، للمعركة الحاسمة في صباح يوم الرابع وهو يوم القادسية، وقد ذكر الطبري عن ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبد الله بن الزبير أنه «تعبى المسلمون فجعل سعد

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ جـ٤ ص١٣٠ و١٣٩.

على جماعة الناس خالد بن عُرفطة، وعلى ميمنة الناس جرير بن عبد الله البجلي وعلى ميسرتهم قيس بن مكشوح المرادي(١) قال الطبري: (وقام في القبائل رجال، فقام قيس بن مكشوح، والأشعث بن قيس، وعمرو بن معدي كرب، وابن ذي السّهمين الخثعمي وابن ذي البُردين الهلالي فقالوا: لا يكونن هؤلاء أهل فارس أجراء على الموت منكم، ولا أسْخَى أنفساً عن الدنيا، تنافسوها. فحملوا مما يليهم حتى خالطوا الذين بإزائهم من الفُرس)(١).

وتتوجت المعركة في ذلك اليوم بالانتصار التاريخي العظيم في القادسية، وسقط رستم أمير الجيش الفُرس صريعاً بسيف قيس بن مكشوح ورمح عمرو بن معدي كرب، وعصفت الهزيمة بالجيش الفارسي المجوسي، فكان أعلام الصحابة والأبطال الحقيقيين الذين بقياتهم تحقق انتصار القادسية قيس بن مكشوح، وعمرو بن معدي كرب، والأشعث بن قيس، وجرير بن عبد الله البجلي، وخالد بن عُرفطة العذري، وكثير بن شهاب بالحارثي وبشر بن ربيعة الخثعمي، والحارث بن سُميّ الهمداني القائل:

ولو شهدت رُهْمُ مكرّ جيادنا ... بباب قُديس، والأعاجمُ حُضَّرُ
إذاً لرأتْ يوماً يشيبُ لوقعهِ ... وبُعد مداه الأيفعيُّ الحزورُ
إذا ما فزغنا مِنْ جلاء كتيبة ... أتانا رجالٌ دارعونُ وحُسرُ
فطاعنتُ في أولاهم حين أقبلوا ... وثنيتُ بالمأثور حين تكركروا
رجاء ثواب الله لا رب غيره ... وناصر دين الله بالغيب يُنصر

* * *

ولما انهزم الفرس وانسحبت فلو لهم من القادسية بقيادة الجالينوس تتبعهم قادة وفرسان من المسلمين، وفي ذلك ذكر أبو عبيدة البَصْري أنه: «لما قُتِل رستم عَبَر عمرو بن معدي كرب نهر القادسية هو وقيس بن مكشوح ومالك بن الحرث الأشتر»(٢) وأمر سعدُ جماعة من القادة والفرسان بأن يتتبعوا الفُرس مع الذين عبروا النهر ولحقوا بهم، فكان من الذين بعثهم سعد شرحبيل بن السمط الكندي في كتيبة مِنْ كندة. قال ابن خلدون: «أمر سعدُ القعقاع وشرحبيل باتباع العدو، وقد كان خرج زهرة بن حيوة قبلهما فلحق بالجالينوس. .» قال الطبري: «. . ثم أتْبَعَهُ سعدُ عبد الله بن المُعْتَمّ ثم شرحبيل بن السمط ثم أتْبَعهم هاشم بن عتبة وجعل

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ جـ٤ ص١٣٠ و١٣٩.
(٢) الأغاني ـ لأبي فرج الأصفهاني ـ جـ٤ ص١٢٨.

خالد بن عُرْفُطة على الساقة. .» وذكر البلاذري أن القائد على خيل الطلب كان خالد بن عُرْفُطة العِذري ومعه عبد الله بن المُعتم وشرحبيل بن السمط الكندي. قال البلاذري: «بعث سعدُ خالدَ بن عُرفُطة على خيل الطلب فجعلوا يقتلون من لحقوا حتى انتهوا إلى برس، ونزل خالد على رجل يقال له بسطام فأكرمه وبرّه وسُمّي نهر هناك نهر بسطام، واجتاز خالد بالصراة فلحق جالينوس فحمل عليه كثير بن شهاب الحارثي فطعنه ويقال قتله. ويقال: قتله زهرة بن حوية السعدي»[١] والصواب أن زهرة بن حوية قتل قائداً ثانياً من الفُرس، فقد ذكر الطبري في خبر (يوم بُرْس) أنه «نزل عبد الله وشرحبيل بن السمط والمسلمون، وارتحل زهرة فلما انتهى إلى بُرْس لقيه بها بُصْبُهْرَي في جمع فناوشوه. . فطعن زهرة بُصْبُهْري فوقع في النهر فمات مِنْ طعنته في يوم بُرْس، فأقبل بِسْطام دهقان بُرس فاعتقد من زهرة وعقد له الجسور، وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل»[٢] وبِسْطام هذا هو الذي ذكر البلاذري نزول خالد بن عرفُطة عنده فأخبر خالداً بخبر الذين اجتمعوا ببابل بقيادة الفيرزان، فاجتاز خالد بالصراة فلحق جالينوس فحمل عليه كثير بن شهاب الحارثي المذحجي فطعنه وقتله، وبعث خالد بن عُرفُطة (عبد الله بن المعتم وشرحبيل بن السمط وهاشماً إلى بابل، فنزلوا على الفيرزان فاقتتلوا ببابل، فانهزم الفيرزان والفُرس، فهرب الفيرزان نحو الأهواز، وتم فتح بابل)[٢] وكان ذلك في محرم وصفر سنة ١٥هـ، لأن الزمن الصحيح لانتصار وفتح القادسية هو شهر محرم سنة ١٥هـ، وقد ذكر الطبري عن سيف التميمي أن فتح بَرُس وبابل في شوال سنة ١٥هـ، وقد سلف تبيين الترتيب الصحيح في المبحث الخاص بجرير بن عبد الله البجلي.

* * *

الأشعث في فتح المدائن وجلولاء. . واختطاط الكوفة

وكان الأشعث بن قيس من قادة الجيش العربي الإسلامي الذي انطلق من منطقة الحيرة لفتح جهات المدائن في أواخر شوال (لأيام بقين من شوال سنة ١٥هـ) وقد ذكر ابن سيد الناس في كتاب عيون الأثر أنه «شهد الأشعث بن قيس فتح القادسية والمدائن وجلولاء»[٣].

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٥٩ و٢٦٣.

(٢) تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص١٦٦ وجـ٤ ص١٤١.

(٣) عيون الأثر في المغازي والسير ـ ابن سيد الناس ـ جـ٢ ص٣٠٨.

وكان من نبأ المدائن أنه «كتب عمرُ إلى سعد بالمسير لفتح المدائن . .» قال الواقدي: «وكانت الفُرس لما انهزمت من القادسية قدم فُلّهم المدائن»[١] وذكر الطبري عن محمد بن إسحاق أنه «بعث سعدُ خالد بن عُرفُطة، وجعل على مقدمة الناس هاشم بن عُتبة بن أبي وقاص، وعلى ميمنتهم جرير بن عبد الله البجلي. . وتخلف سعدُ لما به من وجع، فلما أفرق سعد من وجعه اتبع الناس بمن بقي معه من المسلمين حتى أدركهم دون دجلة على بَهُرَسير»[٢] وكان قدوم سعد بعد أن فتح خالد بن عُرفُطة وجرير بن عبد الله وهاشم بن عُتبة ـ ومعهم الأشعث بن قيس ـ مدينة ساباط، قال البلاذري: «وَجَّه سعدُ خالداً بن عُرفُطة، فلم يرِد سعد حتى خالدُ ساباط»[١] وقال الطبري: «فَتَحَ جرير بن عبد الله والمسلمون ساباط»، وكان فتح ساباط في ذي القعدة سنة ١٥هـ ثم سار المسلمون من ساباط إلى (بَهُرَسير) فحاصروها، وأثناء حصار بَهُرَسير وصل سعد بمن بقي معه من المسلمين، وقد ذكر ابن خلدون والطبري حصار وفتح (بَهُرَسير) كان في ذي الحجة ١٥هـ، قال البلاذري: (فلما فتح المسلمون بَهُرَسير ـ وهي دون دجلة ـ هرب كسرى يزدجرد مِنَ المدائن إلى حلوان ومعه وجوه أساورته وحمل معه بيت ماله وما خَفَّ من متاعه وخزانته والنساء والذراري، ثم عبر المسلمون خوضاً) ـ أيْ مخاضةً في نهر دجلة ـ إلى المدائن، وكان سعد قد انتدب الفرسان لاقتحام مخاضة دجلة، قال الطبري: «فانتدب ـ لذلك ـ ستون، منهم أصمُّ بني ولّاد وشرحبيل بن السمط في أمثالهم فجعلهم نصفين ـ ثم انتدب بعدهم ستمائة ـ فاقتحم الستون دجلة، فكان أول مَنْ فصل من الستين أصمُّ بني وَلّاد والكلج وأبو مفزّر وشرحبيل ومالك بن كعب الهمداني وغلام من بني الحارث بن كعب. . وتلاحق الستمائة بالستين. . ثم تلاحق عُظم الجند، فدخلوا المدائن فاتحين، وذلك في صفر سنة ١٦ هجرية» فكان بين الفاتحين الذين دخلوا المدائن ـ عاصمة كسرى ـ فرسان كندة الذين بزعامة الأشعث بن قيس والذين بقيادة شرحبيل بن السمط، فكان ذلك هو الدخول الثالث للأشعث إلى المدائن، فقد دخلها عند قدومه مع خمسة من رؤساء قبائل العرب إلى كسرى ابرويز بن هرمز قبل الإسلام أيام النعمان بن المنذر، ثم قَدَمَ إليها مرة ثانية في الوفد الذي كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص أن يبعثهم إلى عظيم الفُرس ـ كسرى يزدِجرد ـ قبل موقعة القادسية، قال البلاذري: «فبعث سعدُ الأشعث بن قيس وعمرو بن معدي كرب في جماعة» وقد ذكر الطبري ذلك الوفد

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٥٩ و٢٦٣.

(٢) تاريخ الطبري ـ جـ٤ ص١٦٦ وجـ٤ ص١٤١.

وقال: «. . أمّا مَنْ لهم منظر لأجسامهم وعليهم مهابة ولَهُمْ آراء فعُطارد بن حاجب والأشعث بن قيس والحارث بن حسان وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معدي كرب والمغيرة بن شعبة والمعنّى بن حارثة، فبعثهم سعد دُعاة إلى الملك». فساروا إلى المدائن والتقوا بالملك كسرى يزدجرد ودعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فَرَدهم يزدجرد وتوعد المسلمين بأن جيشه سيدفنهم في القادسية، فكان ذلك هو القدوم الثاني للأشعث إلى المدائن وذلك سنة ١٤هـ، ثم دخل الأشعث مع الصحابة وفرسان الإسلام مدينة المدائن فاتحين في صفر سنة ١٦ هجرية (٦٣ ميلادية) حيث جاء في عيون الأثر أنه (شهد الأشعثُ فتح القادسية والمدائن وجلولَاءَ).

وذكر الطبري في بناء فتح المدائن أنه: «قَسَمَ سعدُ الفيء بين المسلمين بعد ما خَمّسَهُ، وكانوا ستين ألفاً، وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل، ونَفَل من الأخماس في أهل البلاد، وقَسَمَ في المنازل بين الناس، واستدعى العيالات من العتيق فأنزلهم الدُور، ولم يزالوا بالمدائن حتى تم فتح جلولاء. . واختطاط الكوفة».

وهذا التحديد لعدد الجيش العربي الإسلامي عند فتح المدائن بأنهم (كانوا ستين ألفاً) يُعزز ما ذكره ابن خلدون عن عدد الجيش عند المسير إلى القادسية قائلاً: «. . سار سعد إلى سيراف فنزلها واجتمعت إليه العساكر، ولحقه الأشعث بن قيس ومعه ثلاثون ألفاً. .» فقد كان بالعراق قبل مسير سعد إليها جرير بن عبد الله البجلي في نحو عشرة آلاف، ثم بعث عُمر سعداً (في أربعة آلاف. . ثم أمّده بثلاثة آلاف من أهل اليمن وألف من سائر الناس. . ثم لحقه الأشعث بن قيس ومعه ثلاثون ألفاً) ثم وصلت إمدادات من البصرة والشام، فبلغ المسلمون زهاء ستين ألفاً، غالبيتهم العظمى من اليمن، سواء في القادسية أو في فتح المدائن، واستقر المسلمون في المدائن زهاء ستة أشهر دون مواجهات مع الفرس.

* * *

ثم شهد الأشعث بن قيس موقعة جَلولَاء، وذلك أن كسرى يزدجرد بعد انسحابه من المدائن إلى حلوان قام باستنفار وجَمْعِ جيش كبير مِنْ الفُرس وتوجيههم إلى جَلولاء ـ وكانت جَلولاء قاعدة أو عاصمة مناطق شرق دجلة وهي سواد دجلة وكان السواد ما يزال بيد الفُرس، فحشد الفرسُ جيشاً كثيفاً في جلولاء، وأثناء ذلك سار جرير بن عبد الله البجلي من عند سعد إلى عمر بن

الخطاب، ولما علم عُمر بالحشد الفارسي في جَلولاء، وأثناء ذلك سار جرير بن عبد الله البجلي من عند سعد إلى عمر بن الخطاب، ولما علم عُمر بالحشد الفارسي في جَلولاء: كتب عمر إلى سعد بأن يبقى في المدائن، وأن يبعث هاشم بن عتبة بن أبي وقاص في جيش إلى جلولاء. قال البلاذري: «فسرح سعدُ هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً، فوجدوا الأعاجم قد تحصنوا وخَنْدَقوا وجعلوا عيالهم وثقلهم بخانقين، وجعلت الأمداد تقدم عليهم من حُلْوان والجبال إلى جلولاء، فقال المسلمون: ينبغي أن نعالجهم قبل أن تكثر أمدادهم. .» ـ وكان عدد الفُرس قد ارتفع إلى زهاء مائة وعشرين ألفاً، وكان جيش المسلمين منتشر في عدة مناطق بالعراق وفي منطقة الجزيرة الفراتية فتدفقت الإمدادات منهم إلى الجيش الإسلامي بجلولاء، قال الطبري: «وجاء في الإمداد قيس بن مكشوح وعمرو بن معدي كرب وحُجر بن عَدِي الكندي»، وأنه «تزاحف المسلمون والفرس ثمانين يوماً، والمددُ متصلُ من ههنا وههنا، ثم قاتلوهم آخر الأيام. .» ـ وهو يوم جَلولاء في ذي القعدة ١٦هـ وكان مكان الأشعث بن قيس هو نفس مكان حُجر بن عَدِي الكندي يوم جَلولاء ـ قال البلاذري: «كان حُجر بن عدي الكندي على ميمنة المسلمين، وعمرو بن معدي كرب على الخيل، وكان على الأعاجم يومئذ (خرزاذ أخو رستم)، فاقتتلوا قتالاً شديداً. . ثم إن المسلمين حملوا حملة واحدة قلعوا بها الأعاجم عن موقفهم وهزموهم فولوا هاربين وركب المسلمون أكتافهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً حتى حال الظلام بينهم ثم انصرفوا إلى معسكرهم، وجعل هاشم بن عتبة جرير بن عبد الله بجلولاء في خيل كثيفة. . وأتى جرير بن عبد الله خانقين وبها بقية من الأعاجم فقتلهم» ـ وبذلك تم الانتصار العربي الإسلامي في جلولاء وخانقين على الجيش الفارسي الذي قال ابن خلدون: «لم يفلت منهم إلا القليل، يُقال إنه قُتِل منهم يومِئذ مائة ألف». قال البلاذري: «وكانت وقعة جلولاء في آخر سنة ١٦هـ». وقال ابن كثير: «في ذي القعدة ١٦هـ». . فكان لميمنة المسلمين بقيادة الأشعث بن قيس وحُجر بن عدي الكندي إسهاماً وافراً في ذلك النصر، وقال الشاعر عن حُجر الكندي:

ويوم جَلولاً الوقيعة لَمْ يُلَمْ ويوم نهاوند الفتوح وتُسْتَرا

فلما تم فتحَ جلولاً وخانقين انطلق المسلمون يفتحون مدن ونواحي سواد العراق في شرق نهر دجلة، قال البلاذري:

«وَجّه سعد بن أبي وقاص هَاشمَ بن عُتبة بن أبي وقاص ومعه الأشعث بن قيس الكندي فَمَرّ بالراذانات، وأتى دقوقاً وخانيجار فغلب على ما هنالك، وفتح

جميع كورة باجرمي، ونفذ إلى نحو سن بارما وبوازيج الملك إلى حدِّ شهرزور»[١] فتلك المناطق جميعها افتتحها الصحابيان هاشم بن عُتبة والأشعث بن قيس الكندي بينما افتتح جرير بن عبد الله البجلي أرجاء واسعة مِنْ السواد، ومَكَث في جَلولاء أميراً قائداً لمنطقة السواد ـ سواد العراق ـ الشاسعة.

* * *

وفي شهر محرم ١٧هـ استقر الرأي على اختطاط مدينة عربية إسلامية عاصمة في موضع الكوفة، فاستخلف سعد بن أبي وقاص على المدائن ـ عاصمة كسرى ـ القائد اليماني الأمير شرحبيل بن السمط الكندي، وفي ذلك قال الطبري: «استعمل سعد على المدائن رجلاً من كندة يقال لهُ شُرحبيل بن السِّمْط، وهو الذي فيه يقول الشاعر:

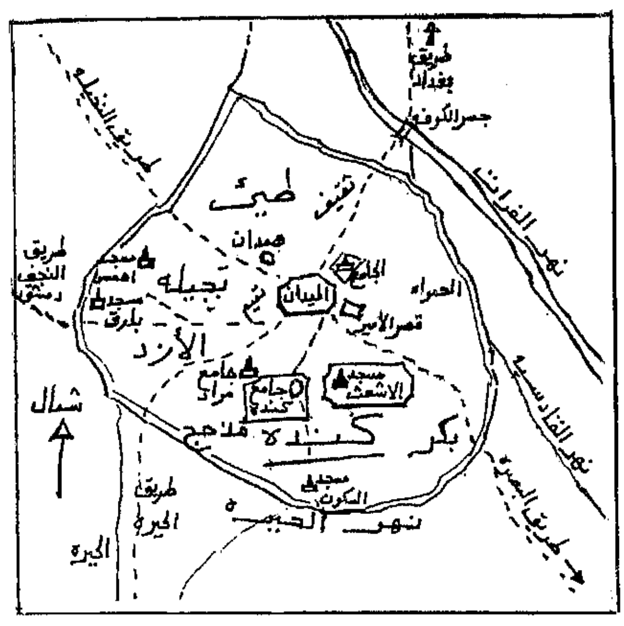
ألا لَيْتَنِي والمَرْءَ سعدَ ابن مالكٍ وزَبْرَاءَ وابن السِمْط في لُجّة البَحْر»[٢]

وهو الصحابي القائد شُرحبيل بن السِّمْط بن الأسود بن شُرحبيل الكندي، وكانت توليته على المدائن بأمر عمر بن الخطاب، فقد جاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة أن شرحبيل بن السمط (ولاهُ عمر على المدائن).

بينما سار الزعيم الأشعث بن قيس مع الأمير سعد بن أبي وقاص وغالبية الناس من المدائن إلى موضع الكوفة، قال الطبري: «بعث سعد ـ قبل ذلك ـ رجلاً من الأنصار يقال له الحارث بن سلمة، ويقال بل عثمان بن حنيْف ابني عمرو بن عوف، فارتاد لهم موضع الكوفة، فنزلها سعد بالناس وخَطّ مسجدها وخَطَّ فيها الخطط للناس»[٢]. وكان الأشعث من الصحابة الزعماء الذين شاركوا في تأسيس واختطاط مدينة الكوفة وتوطين الذين استقروا بها من كندة، وكانت خطة كندة ـ أي منطقتهم السكنية ـ في القسم الجنوبي الشرقي من الكوفة، ويتوسط خطة كندة (جامع كندة) وإلى الشرق منه كان الجامع الذي بناه الأشعث بن قيس وهو «مسجد الأشعث»، وبالقرب منه كان (دار الأشعث)، وقد كان عدد الجيش الذين اختطوا بالكوفة وسكنوها عند تأسيسها عشرين ألفاً وذلك دون عيالاتهم من النساء والأولاد، وكان من العشرين ألفاً اثنا عشر ألف من فرسان قبائل اليمن وثمانية آلاف من ربيعة ونزار وأهل نجد ويثرب والبحرين وسائر الناس، وأسهم سعد للناس ولأهل اليمن بسهمين، قال البلاذري: (فخرج سهم أهل اليمن الجانب الأيسر وهو

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٦٤.
(٢) تاريخ الأمم الملوك ـ الطبري ـ جـ٤ ص١٤٣.

خيرهما فصارت خططهم في الجانب الشرقي . .) قال الإمام الشعبي الهمداني «كنّا ـ أي أهل اليمن ـ اثني عشر ألفاً . . وخرج سهمنا بالناحية الشرقية فلذلك صارت خططنا بحيث هي : . . ألا ترى أنّا أكثر أهل الكوفة» ـ يعني كندة ومذحج والأزد وبجيلة وهمدان وطيئ ـ وكان مسجد الأشعث من معالم الكوفة المشهورة، ومما يتصل به في زمن الأشعث، جاء في كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) عن «أبي إسحاق أنه صلى الفجر في مسجد الأشعث بالكوفة، فَوُضِعَ بين يديه كيسٌ وحلّة ونعل، فسأل عن ذلك فقالوا: قَدِم الأشعثُ الليلةَ من مكة».



خارطة لمدينة الكوفة
وخطط القبائل ومنها خطة كندة ومسجد الأشعث

* * *

الأشعث في موقعة نهاوند في إيران:

كان من أنباء المواجهة مع الفُرس بعد فتح جلولاء ومنطقة السواد ـ غرب دجلة ـ أن جرير بن عبد الله البجلي كان أميراً قائداً في جلولاء والسواد معه (خيل كثيفة) ـ أي فُرسان من بَجيلة وغيرهم ـ فأتم جرير فتح السواد ـ سنة ١٧هـ ـ (ثم إن سعداً بعث إليه ثلاثة آلاف من المسلمين ـ من الكوفة ـ وأمره أن ينهض بهم وبمن معه إلى حُلوان) ـ وكان كسرى يزدجرد في حُلْوان فأتى كتاب عمر إلى سعد بأن يتوجه جرير لفتح حلوان فأمره سعد بذلك وأمدّه بثلاثة آلاف ـ قال البلاذري: «فلما بات جرير بالقرب من حُلوان هرب يزدجِرد إلى ناحية أصبهان، ففتح جرير حُلْوان صلحاً . . وفتح قرماسين على مثل ما فتح عليه حُلوان، وأقام جرير في حُلْوان والياً عليها» ـ وكان ذلك في أواخر سنة ١٨هـ في ولاية سعد للكوفة، ثم تولى ولاية الكوفة عمار بن ياسر العنسي سنة ١٩هـ.

واستنفر كسرى يزدجرد ـ وهو في أصبهان بإيران ـ أهالي أقاليم فارس والري

وقومس وأصبهان وهَمَذان والماهين ـ وهي أقاليم إيران ـ قال البلاذري: «فتجمعوا إلى يزدجرد ـ وذلك أواخر سنة ١٩هـ ـ فأمّر عليهم (مردانشاه ذا الحاجب) ـ ونزلوا في نهاوند ـ وكانت عدة المشركين يومئذ ستين ألفاً ويقال مائة ألف. وكان عمار بن ياسر كتب إلى عمر بن الخطاب بخبرهم.. فكتب عمر إلى أهل الكوفة أن يسير ثلثاهم ويبقى ثلثهم لحفظ بلدهم وديارهم، وبعث من أهل البصرة بعثاً»[(١)] ـ والمقصود بأهل الكوفة جيش ولاية الكوفة وليس مدينة الكوفة، فجيش ولاية الكوفة بأقاليمها الأربعة: حُلوان والجبال، والموصل، وقرقيسيا، وسواد الكوفة، كانوا زهاء ستين ألفاً، وذلك غير جيش ولاية البصرة التي كان أميرها أبو موسى الأشعري ـ واختار عمر بن الخطاب سبعة من أعلام الصحابة الأمراء لقيادة الجيش العربي الإسلامي في نهاوند، ومِنْ أولئك السبعة كان الأشعث بن قيس الكندي، وفي ذلك قال البلاذري: وكتب عمر إلى النعمان بن مقرن المزني بتوليته الجيش، وقال: إنْ أصبت فالأمير حذيفة بن اليمان فإن أصيب فجرير بن عبد الله البجلي فإن أصيب فالمغيرة بن شعبة، فإن أصيب فالأشعث بن قيس، وكان النعمان عاملاً على كسكر وناحيتها، ويقال: بل كان بالمدينة فولاه عمر أمر هذا الجيش مُشافهة، فَشَخَصَ منها»[(١)]. والظاهر أن النعمان بن مقرن كان بين عدد من الصحابة الأمراء ساروا من العراق إلى عمر للتباحث حول مواجهة الحشود الفارسية في نهاوند، وكان منهم الأشعث بن قيس، وحذيفة بن اليمان، وعمرو بن معدي كرب، ثم أسند عمر بن الخطاب قيادة الجيش الذي سيتوجه إلى نهاوند ـ مشافهة ـ إلى النعمان بن مقرن وبعثه من المدينة، قال المسعودي في مروج الذهب: «وبعث عُمر معه الزبير بن العوام، وعمرو بن معدي كرب، وحذيفة بن اليمان، والأشعث بن قيس»[(٢)]. فهذا يدل على أن الأشعث بن قيس وإياهم كانوا بالمدينة، واختار عمر بن الخطاب وسَمَى القادة الأمراء، وكتب أيضاً كتاباً بذلك، قال ابن كثير: «كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجنود البصرة، وكتب إلى النعمان بن مقرن يسير بِمَنْ هناك [عنده في كسكر] من الجنود إلى نهاوند، وإذا اجتمع الناس فكلُّ أمير على جيشه، والأمير على الناس كلهم النعمان بن مقرن فإذا قُتِل فحذيفة بن اليمان، فإن قُتِل فجرير بن عبد الله، فإن قُتل فقيس بن مكشوح، فإن قُتل قيس ففلان ثم فلان حتى عَدّ سبعة، أحدهم المغيرة بن شعبة»[(٣)]، وقد تقدّم

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٠.

(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٣٣٣.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١٠٨.

نصّ البلاذري بأنه قال: «إن أصيب النعمان فالأمير حذيفة. فإن أصيب فجرير بن عبد الله، فإن أصيب فالمغيرة، فإن أصيب فالأشعث بن قيس». ويرتبط ذلك بما ذكره ابن كثير والطبري، فالصحابة الأمراء السبعة الذين نص عليهم عمر بن الخطاب هُمْ: النعمان بن مقرن ـ عامر كسكر وناحيتها ـ وحذيفة بن اليمان ـ عامل السواد ـ وجرير بن عبد الله البجلي ـ عامل حلوان والجبال ـ وقيس بن مكشوح المُرادي ـ من عُمال الجزيرة ـ والمغيرة بن شعبة ـ من عمال السواد ـ والأشعث بن قيس ـ زعيم كندة ـ وكان سابع السبعة أبو موسى الأشعري أمير ولاية البصرة، «وإذا اجتمع الناسُ فكُل أمير ـ من أولئك الأمراء السبعة ـ على جيشه، والأمير على الناس كلهم النعمان بن مقرن فإن أصيب فالأمير حذيفة، فإن أصيب فالأمير جرير بن عبد الله، فإن أصيب فالأمير قيس بن مكشوح، فإن أصيب فالأمير الأشعث بن قيس، فإن أصيب فالمغيرة بن شعبة». قال الطبري: «حتى عدّ سبعة آخرهم المغيرة بن شعبة»[١].

ثم توجهت القوات من أرجاء ولايتي الكوفة والبصرة إلى مكان تم الاتفاق على الالتقاء فيه ـ عند تخوم إيران قَبْلَ مكان نهاوند بمسيرة يوم وليلة ـ قال ابن كثير: «فكمل جيش المسلمين في ثلاثين ألفاً مِنْ المُقاتلة، فَمِنْهُمْ من سادات الصحابة ورؤوس العرب خلقٌ كثير وجَمٌّ غفير، منهم عبد الله بن عمر أمير المؤمنين، وجرير بن عبد الله البجلي، وحذيفة بن اليمان، وعمرو بن معدي كرب، وطليحة بن خويلد، وقيس بن مكشوح»[٢] ومنهم أيضاً (الزبير بن العوام، والأشعث بن قيس، والمغيرة بن شعبة، وغيرهم، فسار المسلمون حتى نزلوا في منطقة نهاوند، وعَسْكروا في مواجهة الجيش الفارسي.

وضرب قادة المسلمين خيامهم وقبابهم في نهاوند، وكان الذين ضربوا خياماً لهم عظيمة أربعة عشر مِنْ أشراف الجيش، منهم الأشعث بن قيس، وفي ذلك ذكر الحافظ ابن كثير والطبري أنه «ضرب الناس خيامهم وقِبَابهم، وضُربت للنعمان خيمة عظيمة، وكان الذين ضربوا أربعة عشر من أشراف الجيش، منهم حذيفة بن اليمان.. والمغيرة بن شعبة، والأقرع بن عبد الله الحميري، وجرير بن عبد الله البجلي، والأشعث بن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حُجر الحضرمي»[١].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٢ ص٢٣٢ و٢٤٠ و٢٤٩.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١٠٨.

ثم تواجه الجيشان للقتال في نهاوند ـ يوم الأربعاء ـ وكان على ميمنة الجيش العربي الإسلامي الأشعث بن قيس الكندي مما يدل على أنه كان الشخصية القيادية الثانية بعد النعمان بن مقرن. وفي ذلك ذكر البلاذري في فتوح البلدان: «أن النعمان بن مقرن جعل على ميمنته الأشعث بن قيس، وعلى الميسرة المغيرة بن شعبة»[١].

فتزاحف المسلمون والفرس وتقاتلوا، «فكان النعمان بن مقرن أول مقتول في نهاوند»[١] وقد استشهد النعمان عند بداية المعركة يوم الأربعاء حيث «رُمِيَ النعمان بنُشّابة فَقُتِل»[٢] فذكر المسعودي في مروج الذهب أنه عندما قُتِل النعمان: «اجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس»[٣] وكذلك ذكر الطبري في رواية صحيحه عن مَعقِل بن يسار أنه «فاضت نفس النعمان، واجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس وفيهم عبد الله بن عمر، وابن الزبير، وعمرو بن معدي كرب، وحذيفة بن اليمان»[٢] ـ فذلك يؤكد علو مكانة الأشعث بين سائر الصحابة والقادة في نهاوند وأنه قائد ميمنة المسلمين وبقيادته تواصلت المعركة، فلما اجتمعوا إلى الأشعث ـ وكما جاء في رواية المسعودي والطبري «أرسلوا إلى أم ولد النعمان، فقالوا: هل عَهَدَ إليك عهداً؟ فقالت: ههنا سَفَط فيه كتاب، فأخذوه، فإذا فيه: إذا أصيب النعمان فَفُلان، فإن أُصيب فلان ففلان، وإن أصيب فلان ففلان، فامْتَثُلوا، وفتح الله على المسلمين فتحاً عظيماً»[٣]. إذْ إنه تولى القيادة العامة حذيفة بن اليمان، وكان الأشعث قائد الميمنة، فتواصلت المعركة يومي الخميس والجمعة، وتكللت بالنصر والفتح العظيم في نهاوند ـ يوم الجمعة ـ وذلك سنة ٢٠ هجرية، وقيل سنة ١٩هـ، وقيل سنة ٢١هـ، والأرجح أنها في أواخر سنة ٢٠هـ وقد سَمَّى المسلمون موقعة نهاوند (فتح الفتوح) لأن الفتوحات انطلقت بعد نهاوند إلى أقاليم وآفاق الشرق المُمتدة والتي كان من أهمها إقليم أذربيجان.

* * *

فَتْح الأَشْعَث بن قيس لإقليم أَذَرْبَيْجَان:

بدأت الغزوات العربية الإسلامية لبعض مناطق إقليم أذربيجان بعد شهور من فتح نهاوند ـ في سنة ٢٠هـ ـ فكان يتم غزو بعض المناطق ومصالحة حاكمها وأهلها ثم ما يلبث أن تنتقض، ولم يزل الأمر كذلك ـ لا يتجاوز غزو منطقة

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٠.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٢ ص٢٣٢ و٢٤٠ و٢٤٩.
(٣) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٣٣٣.

ومصالحتها ـ إلى أن فتحها الأشعث بن قيس في خلافة عُمَر وولاية المغيرة بن شعبة للكوفة سنة ٢٢ ـ ٢٣هـ، وقد اعتبرت بعض الروايات غزو إحدى المناطق أو مصالحتها فتحاً لأذربيجان بينما هو غزو لمنطقة محدودة ومُصالحة لأهلها ما يلبث أن ينتهي بالانتقاض، ولذلك قال الدكتور ناجي حسن في كتاب القبائل العربية في المشرق: «أما إقليم أذربيجان فالخلاف في كيفية الاستيلاء عليه واسع كبير، فالطبري يذكر أنها فُتِحَتْ بعد الريّ، تقدم إليها بكير بن عبد الله وسماك بن خرشة الأنصاري وعتبة بن فرقد، بينما يذكر البلاذري أنها فُتِحت بعد نهاوند على يد حذيفة بن اليمان في جُند الكوفة. كذلك يذكر الطبري عن زيد بن وهب ويشاركه في هذا المدائني بأن فتحها كان بعد نهاوند بأهل الكوفة، كما يذكر الطبري عن ابن إسحاق أن أذربيجان فُتحت سنة ٢٢هـ بأمارة المغيرة بن شعبة، ويذكر أبو عبيدة اشتراك أهل الشام مع حبيب بن مَسْلمة وأهل الكوفة ومعهم حذيفة وعتبة بن فرقد في فتحها في خلافة عمر»(١). وقال البلاذري: «روى ابن الكلبي: أن المغيرة بن شعبة غزا أذربيجان سنة عشرين ففتحها ثم إنهم كفروا فغزاها الأشعث بن قيس الكندي ففتح حصن باجروان وصالحهم، على صلح المغيرة، ومضى صلح الأشعث إلى اليوم»(٢).

وليس بين تلك الروايات اختلاف وتعارض، إذْ يتيح ترتيبها إدراك النبأ اليقين عن تسلسل الأحداث وصولاً إلى فتح أذربيجان على يد الأشعث بن قيس:

لقد ذكر البلاذري نبأ فتح الريّ، التي ذكر الطبري أن فتح أذربيجان كان بعد الري، قال البلاذري: «كتب عمر بن الخطاب إلى عمار بن ياسر وهو عامله على الكوفة، بعد شهرين من وقعة نهاوند، يأمره أن يبعث عروة بن زيد الخيل الطائي إلى الريّ ودُسْتَبَىٰ في ثمانية آلاف، ففعل. وسار عروة إلى ما هنالك فجمعت له الديلم وأمدهم أهل الرّي فقاتلوه، فأظهر الله عليهم، فقتلهم، واجتاحهم»(٢). ويتبين من ذلك أن فتح الريّ كان في ولاية عمار للكوفة وبقيادة عروة بن زيد الخيل الطائي، وذلك بعد شهرين من موقعة نهاوند، ـ في أواخر سنة عشرين هجرية، وبعد الريّ تقدمت إلى أذربيجان القوة التي ذكر الطبري أنها بقيادة: بكير بن عبد الله وسماك بن خرشة وعتبة بن فرقد، وكذلك القوة التي ذكر البلاذري مسيرها من نهاوند بقيادة حذيفة بن اليمان، وكذلك القوة التي ذكر البلاذري عن ابن الكلبي أنها بقيادة المغيرة في قوله: (أن المغيرة غزا أذربيجان سنة

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي محسن ـ ص١٦٨ و١٦٩.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٢٢ و٣١٣ و٣٢١.

عشرين وفتحها)، وهو نفس الخبر المنسوب إلى حذيفة بن اليمان وعتبة بن فرقد وأصحابهم، ويجمع ذلك أنهم اشتركوا في ذلك الغزو، وكان كل منهم على رأس عدة آلاف من المسلمين، وقد بدأ ذلك في ولاية عمار بن باسر للكوفة، ثم وَلّى عُمر بن الخطاب المغيرةَ بن شعبة على الكوفة ـ بدلاً من عمار بن ياسر ـ فأسند المغيرة قيادة قوة غزو أذربيجان إلى حذيفة بن اليمان ـ سنة ٢١هـ ـ وفي ذلك ذكر البلاذري «أن المغيرة بن شعبة قَدِم الكوفة والياً من قِبل عمر بن الخطاب ومعه كتاب إلى حذيفة بن اليمان بغزو أذربيجان، فأنفذه إليه وهو بنهوند، أو بقربها، فسار حتى أتى أردبيل وهي مدينة أذربيجان وبها مرزبانها، وكان المرزبان قد جمع إليه المقاتلة من أهل باجروان وميمذ والنرير وسراة والشيز والميانج وغيرهم فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً. .»[1]. وهنا يذكر البلاذري (أن المرزبان صالح حذيفة على أهل أذربيجان. .) ثم يذكر رواية ثانية تقول: «ولى عُمر أذربيجان عتبة بن فرقد السلمي فأتاها من الموصل، ويقال: بل أتاها من شهرزور، فلما دخل أردبيل وجد أهلها على العهد وانتقضت عليه نواحي فغزاها فظفر وغنم». ثم ذكر الرواية الثالثة وتقول: «إن المغيرة بن شعبة غزا أذربيجان من الكوفة سنة اثنتين وعشرين حتى انتهى إليها ففتحها، ووضع عليها الخراج». ويجمع تلك الروايات أن حذيفة بن اليمان لما جمع له مرزبان أذربيجان المقاتلين فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً، توجه عتبة بن فرقد من الموصل لغزو أذربيجان، وتوجه المغيرة بن شعبة من الكوفة فغزاها، ووضع عليها الخراج، وصَالحَ مرزبانها وأهلها، وهو نفس الصلح المنسوب إلى حذيفة بن اليمان، فقد كان حذيفة قائداً ولكن المغيرة بن شعبة كان هو أمير ولاية الكوفة، وبذلك الصلح انتهت الغزوات الأولى إلى بعض مناطق أذربيجان وعادت تلك القوات الإسلامية إلى الموصل وولاية الكوفة باستثناء حامية عسكرية رابطت في أذربيجان بقيادة الأشعث بن قيس، وكان ذلك سنة ٢٢هـ، وفي ذلك قال د. ناجي حسن:

«عَقَدَ حذيفة صلحاً مع أهل أذربيجان، دفعت بموجبه أذربيجان بعض ما وُضِعَ عليها مِنْ تعهدات، إلا أنها سرعان ما قاومت الحامية العسكرية التي تولاها الأشعث بن قيس الكندي»[2].

وكان ذلك نقضاً للصلح الذي عقده حذيفة والمغيرة بن شعبة ـ سنة ٢٢هـ ـ حيث جاء في فتوح البلدان للبلاذري ما يلي: «ثم إنهم كفروا، فغزاها الأشعث بن

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٢٢ و٣١٣ و٣٢١.
(٢) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي محسن ـ ص١٧٠.

قيس الكندي ففتح حصن باجروان، وصالحهم على صلح المغيرة، ومضى صلح الأشعث إلى اليوم»[١].

وتتبينُ من ذلك أمورُ ثلاثة:

الأمر الأول: أن الأشعث كان أميراً قائداً في منطقة أذربيجان التي منها حصن باجروان، وذلك منذ سنة ٢٢ ـ ٢٣هـ في خلافة عمر بن الخطاب وولاية المغيرة للكوفة، فلما نقض مرزبان وأهل تلك المنطقة الصلح المعقود معهم، غزاهم الأشعث ففتح حصن باجروان ـ عنوة ـ فأذعن المرزبان وأهل تلك المنطقة لمصالحة السلطة العربية الإسلامية، وتشمل تلك المنطقة (باجروان) و(ميمذ) و(سراة) و (النرير) و(الشيز) و(الميانج) وجهات (أردبيل) ـ وليس كل إقليم أذربيجان.

الأمر الثاني: أن الأشعث صالحهم على صلح المغيرة وحذيفة ـ الذي لم يلتزموا بتنفيذه فانتهى ـ بينما تم الالتزام بصلح الأشعث إذ إنه ـ كما جاء في فتوح البلدان ـ «مضى صلح الأشعث إلى اليوم». وهو نفس صلح حذيفة والمغيرة، وينص على أن يؤدي المرزبان وأهل أذربيجان: «ثمانمائة ألف درهم ـ جزية سنوية ـ وأن لا يُقتل منهم أحدٌ ولا يُسْبَى، ولا يُهدم لهم بيت نار، ولا يتعرض المسلمون لأكراد سبلان والبلاسجان وساتروذان، ولا يُمنع أهل الشيز خاصة مِنْ الزفن في أعيادهم وإظهار ما كانوا يظهرونه».

الأمر الثالث: إن حصن باجروان أصبح معقلاً ومركزاً لقوة عربية إسلامية بقيادة الأشعث بن قيس، وبذلك بدأت ولاية وإمارة الأشعث في أذربيجان منذ سنة ٢٢ ـ ٢٣هـ في خلافة عمر بن الخطاب، وذلك بصفته أمير وقائد الحامية العربية الإسلامية لأن أغلب أذربيجان لم يكن قد تم فتحها، كما أن المنطقة التي تم مصالحتها استمر الواقع السكاني والديني فيها على ما كان عليه وفقاً لذلك الصلح، فكان الوجود الإسلامي يتمثل في تلك الحامية والقوة التي تولاها الأشعث بن قيس، وقد توفي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في آخر ذي الحجة ٢٣هـ وتولى الخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ في محرم سنة ٢٤هـ ـ والأشعث بن قيس رضي الله عنه في أذربيجان أميراً قائداً للحامية العسكرية في حصن باجروان.

وفي سنة ٢٥هـ انتقض مرزبان وأهل تلك المنطقة من أذربيجان وقاوموا

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٢٢ و٣١٣ و٣٢١.

الحامية التي كان الأشعث بن قيس أميرها، فقام الأشعث بتثبيت مركز قواته في حصن باجروان، واستمد من أمير الكوفة الوليد بن عقبة، قال د. ناجي حسن: «فأمدّه والي الكوفة بجيش من الكوفة، حيث استطاع الأشعث فتح أذربيجان منطقة بعد أخرى، وأسكن فيها ناساً من العرب وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام، وهو أول استيطان للعرب بإقليم أذربيجان»[١].

* * *

عهد ولاية الأشعث لإقليم أَذَرْبَيْجَان

منذ سنة ٢٥هـ أصبح الأشعث بن قيس أميراً والياً لإقليم أذربيجان، فكان الأشعث أول الحكام الولاة لذلك البلد في الإسلام، لأن الفترة السابقة كانت فترة غزوات قادها عدد من القادة إلى بعض مناطق أذربيجان ثم حامية عسكرية تولاها الأشعث بن قيس ولم تكن فترة ولاة وحكام واستقرار، فعهد ولاية أذربيجان في إطار دولة الخلافة العربية الإسلامية بدأ بتولية الأشعث على أذربيجان في خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٥هـ حيث استمر الأشعث والياً عليها حتى نهاية خلافة عثمان ـ في ذي الحجة ٣٥هـ ـ وفي ذلك قال المسعودي (كان الأشعث بن قيس عاملاً لعثمان على أذربيجان وأرمينية)[٢] واستنفر الأشعث والياً عليها في خلافة علي بن أبي طالب، وفي ذلك قال البلاذري: (ثم وَلّى عليّ بن أبي طالب الأشعث أذربيجان) وقال البلاذري في أنباء أرمينية: «ووُلّي الأشعث بن قيس لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أرمينية وأذربيجان»[٣] وبذلك فقد دامت ولاية الأشعث لإقليم أذربيجان منذ سنة ٢٥هـ وحتى سنة ٤٠ هجرية كامتداد لقيادته العسكرية في أواخر خلافة عمر بن الخطاب، فكان الأشعث بن قيس هو أمير أذربيجان في عصر الخلفاء الراشدين للدولة العربية الإسلامية.

وكان من أبرز معالم عهد ولاية الأشعث بن قيس:

أولاً: استكمال فتح لإقليم أذربيجان:

لقد كان الأشعث مرابطاً في حصن باجروان بالمنطقة التي تم مصالحة حاكمها وأهلها من أذربيجان، ثم إنهم ـ كما ذكر د. ناجي حسن ـ «..سرعان ما قاوموا الحامية العسكرية التي تولاها الأشعث بن قيس الكنديّ فأمَدّه والي الكوفة

---

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي محسن ـ ص١٧٠.
(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٢٨١.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٠٧.

بجيش» ـ وقد كان والي الكوفة آنذاك الوليد بن عُقبة الأموي، ويبدو أن الأشعث قام بتثبيت سيادة قوته على حصن باجروان ثم أقبل إلى الكوفة فتشاور مع الوليد بن عقبة وتم إبلاغ الخليفة عثمان بن عفان بالأمر وبناء على توجيهات الخليفة عثمان بن عفان سار الوليد بن عقبة ومعه الأشعث بن قيس على رأس جيش من الكوفة وانضمت إليهم قوة من جيش أمير إقليم هَمَذان جرير بن عبد الله البجلي بقيادة عبد الله بن شبل البجلي، وفي ذلك جاء في فتوح البلدان للبلاذري عن المدائني أنه «غزا الوليد بن عقبة أذربيجان سنة خمس وعشرين وعلى مقدمته عبد الله بن شبل الأحمسي البجلي. .» قال البلاذري: «وحدّثني الحسين بن عمرو وأحمد بن مصلح الأزدي عن مشايخ من أهل أذربيجان أنه: قدم الوليد بن عقبة أذربيجان ومعه الأشعث بن قيس. .» وجاء في تتمة رواية المدائني أنه: «أغار على أهل موقان والببر والطيلسان، وطلب أهل كوران أذربيجان الصلح فصالحهم على صلح حذيفة». قال البلاذري: «فلما انصرف الوليدُ وَلّى الأشعثَ على أذربيجان، فانتقضت فكتب إليه الأشعث يستمده، فأمَدّه بجيش عظيم من أهل الكوفة، فتتبع الأشعث بن قيس أذربيجان حاناً حاناً فافتتحها ـ والحان: الحائر في كلام أهل أذربيجان ـ» ـ والمقصود المنطقة أو المحافظة ـ إذْ إنه كما ذكر د. ناجي حسن: «استطاع الأشعث فتح أذربيجان منطقة بعد أخرى». وكان ذلك الفتح سنة ٢٥ هجرية لمناطق أذربيجان التي تقع حالياً في إيران وتم تأسيس وترسيخ العصر الإسلامي فيها.

وفي سنة ٣٠ هجرية تم التقدم إلى مناطق أذربيجان القوقازية الأرمينية، واشترك في ذلك التقدم والفتح سعيد بن العاصي الذي تولى الكوفة بدلاً عن الوليد بن عقبة ـ سنة ٣٠هـ ـ وجرير بن عبد الله البجلي أمير إقليم هَمَذان في إيران، والأشعث بن قيس أمير أذربيجان، كما اشتركت في ذلك قوة من الشام، ومما يتصل بذلك ما ذكره البلاذري من أنه «غزا سعيد بن العاصي أهل موقان وجيلان، وتجمع له بناحية أرم وبلوانكرح خلق من الأرمن وأهل أذربيجان، فَوَجَه إليهم جرير بن عبد الله البجلي فهزمهم وأخذ رئيسهم فصلبه على قلعة باجروان». وكان ذلك التقدم بمشاركة الأشعث بن أمير أذربيجان، ويندرج فتح تلك المناطق في النص العام بأنه «تتبع الأشعث بن قيس أذربيجان حاناً حاناً ففتحها». وقد اكتمل فتح أذربيجان بمدلولها الواسع القديم ـ أي بقسميها ـ سنة ٣٠هـ، فشملت ولاية الأشعث بلاد أذربيجان جميعها وهو المقصود بقول المصادر التاريخية (كان الأشعث عاملاً لعثمان على أذربيجان وأرمينية) ـ أي على أذربيجان بما في ذلك القسم القوقازي الأرميني من إقليم أذربيجان.

ثانياً: الاستقرار العربي في أذربيجان:

منذ عام ٢٥هـ قام الأشعث بتوطين جماعات من القبائل العربية في مناطق أذربيجان فأسسوا عصرها العربي الإسلامي، وفي ذلك قال د .ناجي حسن في كتاب القبائل العربية في المشرق: «استطاع الأشعث فتح أذربيجان منطقة بعد أخرى، وأسكنها ناساً من العرب وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام، وهو أول استيطان للعرب بإقليم أذربيجان».

وقال البلاذري في فتوح البلدان: «تتبع الأشعثُ بن قيس أذربيجان حاناً حاناً ففتحها، وأسكنها ناساً من العرب من أهل العطاء والديوان وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام».

وبعد عام ٣٠هـ جعل الأشعث مدينة أردبيل عاصمة لولاية أذربيجان وأسكن فيها جماعة من العرب، وذكر البلاذري ذلك في سياق ولاية الأشعث لأذربيجان في خلافة علي بن أبي طالب قائلاً: «ثم وَلّى علي بن أبي طالب الأشعث أذربيجان. . فأنزل الأشعثُ أردبيل جماعة من أهل العطاء والديوان من العرب، ومَصَّرَهَا - أي جعلها مدينة عاصمة - وبَنَىٰ مسجدها».

وكان أغلب العرب الذين أوطنهم الأشعث في مناطق أذربيجان وفي مدينة أردبيل من رجال القبائل اليمنية في جيوش الفتح العربي الإسلامي الذين استقروا في المِصْرَين - أي في ولاية الكوفة وولاية البصرة - وكذلك في الشام، وقد وجد الذين أوطنهم الأشعث في أذربيجان وقاموا بنشر الإسلام ترحيباً من أهل أذربيجان، فلحقت بهم عشائرهم التي كانت بولايتي الكوفة والبصرة وبالشام، وفي ذلك جاء في كتاب القبائل العربية في المشرق وكتاب فتوح البلدان للبلاذري:

«إن العرب لما نزلت أذربيجان نزعت إليها عشائرها من المِصْرين - الكوفة والبصرة - والشام، وغلب كل قوم على ما أمكنهم وابتاع بعضهم من العجم الأرضين، ولجأت إليهم القرى للخفارة، فصار أهلها مزارعين لهم».

وكان من أهم مدن ومناطق أذربيجان التي استقر فيها العرب:

١ - مدينة أردبيل: إذ إنه (أنزلَ الأشعثُ أردبيل جماعة من أهل العطاء والديوان من العرب، ومَصَّرَها، وبَنَىٰ مسجدها).

٢ - مدينة تبريز: قال البلاذري: (نزل الرواد الأزدي بتبريز، ثم بَنَىٰ بها الوجناء بن الرواد وإخوته بَنَاءً وحَصَّنَها بسور، فنزلها الناس معه).

٣ - الميانج وخلباثا: (وأما الميانج وخلباثا فمنازل الهمدانيين، وقد مَدَّنَ

عبد الله بن جعفر الهمداني محلته بالميانج) ـ أي جعلها مدينة ـ والمقصود بمنازل الهمدانيين عشائر حاشد وبكيل.

٤ ـ مدينة أرمية: قال البلاذري: (وأما أرمية فمدينة قديمة يزعم المجوس إن زردشت صاحبهم كان منها. وغَلَبَ عليها صدقة الأزدي، وبَنَىٰ وإخوته بها قصوراً)

٥ ـ منطقة برزة: (وأما كورة برزة فنزلتها الأود، وقصبة كورة برزة لرجل من الأود، جمع الناس إليها وبَنَىٰ بها حصناً) ـ والأود من قبائل مذحج.

٦ ـ مدينة نريز: (وأما نريز فكانت قرية لها قصر قديم مُتشعث، فنزلها مُرّ بن عمرو الطائي فَبَنى بها وأسكنها ولده، ثم إنهم بنوا بها قصوراً ومَدَنوها وبنو سوق جابروان وكبّروه).

٧ ـ مدينة سراة: قال البلاذري: «وأما سراة فإن فيها جماعة من كندة أخبرني بعضهم أنه مِنْ ولد مَنْ كان مع الأشعث بن قيس الكندي» ـ انتهى ـ وقول البلاذري (أخبرني بعضهم) يعني في القرن الثالث الهجري، لأن البلاذري توفي سنة ٢٩٧هـ هجرية.

* * *

ثالثاً: إسلام أهل أذْرَبَيْجَان:

لقد أعطى الأشعث بن قيس اهتمامه الأكبر لنشر دين الإسلام بين أهل أذربيجان الذين كانوا في ظلمات المجوسية يعبدون النار، فمنذ فَتْح أذربيجان وولاية الأشعث عليها سنة ٢٥هـ أسكن الأشعث ناساً من العرب في مناطق ومدن أذربيجان «وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام» وقد اتسع نطاق ذلك بعد استكمال فتح أذربيجان ـ سنة ٣٠هـ ـ وقيام الأشعث باتخاذ مدينة أردبيل عاصمة لولاية وإقليم أذربيجان بمدلولها الواسع، وقد مكث الأشعث هناك إلى أن توفي الخليفة عثمان بن عفان وتَوَلَّى الخلافة علي بن أبي طالب فاستخلف الأشعث نائباً له على أذربيجان وعاد إلى الكوفة في رجب ٣٦هـ، قال البلاذري: «ثم وَلَى علي بن أبي طالب الأشعث أذربيجان فلما قَدِمها ـ سنة ٣٧هـ ـ وَجَدَ أكثر أهلها قد أسلموا وقراءوا القرآن».

فكان ذلك تتويجاً للجهود الصادقة التي بذلها الزعيم الصحابي الأشعث بن قيس والذين معه، فخرج أهل أذربيجان في عهده من الظلمات إلى نور الإسلام، وترسخت دعائم الإسلام في ذلك منذ عهد الأشعث وحتى اليوم.. وإلى الأبد.

النبأ اليقين عن الأشعث في الفتنة الكبرى:

انسياقاً وراء بعض أدعياء التشيع اتخذ طه حسين في كتابه المُسَمَّىٰ (الفتنة الكبرى) موقفاً معادياً للأشعث بن قيس لأنه ـ فيما قال طه حسين ـ «كان الأشعث بن قيس الكندي أشدّ الناس على عليّ بن أبي طالب في الدعاء إلى قبول التحكيم.. واستكره الأشعثُ ومن أطاعه علياً على كفّ القتال، فلم يرد بدّاً من الإذعان لما أرادوا..» ثم اندفع طه حسين إلى اتهام الأشعث بتدبير مؤامرة قائلاً أن (الأشعث بن قيس هو ماكر أهل العراق وداهيتهم) والمؤامرة المزعومة هي وقف الاقتتال بين المُسلِمين في صِفين وقبول التحكيم، بينما تأييد الأشعث لوقف الاقتتال ومساهمته في تحقيق السلام هو عمل نبيلٌ وعظيم، سوف يأتي عنه النبأ اليقين. والواقع أن طه حسين بدأ الكلام عن الأشعث بن قيس بدون علم وبدون حرص على الأمانة العلمية، فقال أن الأشعث بن قيس «خَمَل في أيام عمر بن الخطاب، وظهر في أيام عثمان فتولّى له بعض أعماله في فارس، فلما همّ عليٌّ أن ينهض إلى الشام عزله عن ولايته»[1]. فمثل هذا الكلام من طه حسين يدل على غياب العلم بالتاريخ في كتاب (الفتنة الكبرى).

إن الأشعث بن قيس لم يكان خاملاً في أيام عمر بن الخطاب كما زعم طه حسين، فمنذ السنة الأولى لخلافة عمر كان الأشعث من كبار الصحابة والزعماء والفاتحين، فقد توجه سعد بن أبي وقاص إلى القادسية في أربعة آلاف بينما توجه الأشعث في ثلاثين ألفاً بينهم ألف وسبعمائة من فرسان كندة وعدة آلاف من حضرموت، ثم كان الأشعث أحد الصحابة الذين ساروا إلى كسرى يدعونه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، ولما اندلعت موقعة القادسية كان الأشعث من كبار القادة الأبطال الذين دفنوا جيش العدو في القادسية وافتتحوا المدائن وجلولاء وأسسوا الكوفة، ثم كان الأشعث سابع سبعة صحابه نَصّ عمر بأن يقودوا جيش الإسلام في موقعة نهاوند وكان في الجيش أكثر من ألف صحابي ثم كان الأشعث هو قائد ميمنة الجيش العربي الإسلامي في نهاوند ثم قائد الفتح العربي الإسلامي لإقليم أذربيجان. ولم يظهر الأشعث أيام عثمان ويتولى بعض أعماله في فارس وإنما كان أمير ولاية أذربيجان في خلافة عثمان بن عفان، فأسس العصر العربي الإسلامي في إقليم أذربيجان ونشر الإسلام في آفاقه الممتدة، ولما اندلعت الفتنة الكبرى بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ومبايعة علي بن أبي طالب بالمدينة المنورة

---

(١) الفتنة الكبرى ـ طه حسين ـ ص٨٠.

ـ في ٢٥ ذي الحجة ٣٥هـ ـ كان الأشعث بن قيس في أذربيجان أميراً والياً عليها، وكما ذكر المسعودي (كان الأشعث عاملاً لعثمان على أذربيجان وأرمينية).

مبايعة الأشعث لعلي بن أبي طالب:

لقد انقسمت الأمة ـ وفي طليعتها الصحابة والولاة والرؤساء ـ إلى ثلاث فرق بعد مقتل عثمان ومبايعة عليّ بالخلافة في المدينة المنورة، فرقة بايعت عليّاً، وفرقة عارضته وتهيأت لمحاربته، وفرقة اعتزلت.

فكان الأشعث بن قيس من الصحابة الأمراء الذين بايعوا علياً بالخلافة وأيّدوه ونَاصَروه، وغني عن البيان أن أغلب الذين كانوا من الولاة والأمراء غداة مقتل عثمان ومبايعة عليّ اتخذوا موقفاً معارضاً ومعادياً، انضم عبد الله بن عامر أمير البصرة وفارس، ويَعْلَىٰ بن مُنيّة الحنظلي أمير اليمن إلى عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير والذين معهم فاجتمعوا بالبصرة حيث وقعة معركة يوم الجمل ـ في جمادى الثاني ٣٦ هـ ـ قال ابن كثير: «وكان مجموع من قُتِلَ يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف» وأما أمير الشام معاوية بن أبي سفيان وعُمال المناطق التابعة لولاية الشام وأغلب مصر والجزيرة الفراتية فإن اتخاذهم موقف الولاة الذين اتخذوا موقف المبايعة والتأييد لعلي بن أبي طالب وهمْ الأشعث بن قيس وجرير بن عبد الله البجلي وأبو موسى الأشعري، حيث كان أبو موسى أمير الكوفة، قال محمد رضا: «كتب أبو موسى إلى عليّ بطاعة أهل الكوفة ومبايعتهم، وبَيّن الكارهُ منهم للذي كان، والراضي بالذي قد كان، ومَنْ بَيّنَ ذلك». وقد أتى عليٌّ مِنْ البصرة إلى الكوفة ـ في ١٢ رجب ٣٦ ـ قال الحافظ ابن كثير: «ثم بعث عليٌّ إلى جرير بن عبد الله البجلي وكان على هَمَذان مِنْ زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان مِنْ زمان عثمان: أن يأخذا البيعة على مَنْ هنالك مِنْ الرعايا ثم يُقبلا إليه، ففعلا ذلك»[1].

وقد بعث عليٌّ بن أبي طالب كتابه إلى جرير بن عبدالله البجلي مع زحر بن قيس الجعفي المذحجي ولم تذكر الروايات اسم المبعوث إلى الأشعث بن قيس وقد يكون هو نفسه زحر بن قيس الجُعفي ومعه الحارث بن سارية الخزاعي، فأخذ البيعة لعليّ في إقليم هَمَذان، وفي ذلك قال جرير:

أتـانـا كـتـابُ عـلـيّ فَـلَـمْ نَـرُد الـكـتـاب بـأرض الـعـجـم

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٢٥٤.

وكذلك أخذ الأشعث بن قيس البيعة لعليّ في إقليم أذربيجان، وكان في كتاب عليّ إليهما أن (يُقْبلا إليه بالكوفة)، فاستخلف الأشعث على أذربيجان شريح بن المكدد الكندي ومعه سعيد بن سارية الخزاعي الذي بعثه علي بن أبي طالب فقد ذكر البلاذري عن ابن الكلبي أن علياً وَلَى أذربيجان سعيد بن سارية الخزاعي، وذكر الطبري أن الأشعث استخلف على أذربيجان شريح بن المكدد، وقد ذكره ابن حجر العسقلاني فقال: «شريح بن مُرّة بن سلمة بن مرّة بن حُجر بن عَدِي بن ربيعة بن معاوية الكندي، وهو شريح بن المكدد، قال ابن الكلبي: قيل له المكدد ببيت قاله وهو:

سَلُوني فكدُوني فإني لباذلٌ ... لكم ما حَوَتَ كفايّ في اليُسْر والعُسر

قال: ولشريح وفادة ـ على النبي ﷺ ـ قال الطبري: واسخلف الأشعث بن قيس على أذربيجان»[١].

فكان شريح بن المكدد الكندي والحارث بن سارية الخزاعي نواباً في أذربيجان منذ قدوم الأشعث إلى الكوفة ـ في رجب ٣٦هـ ـ إلى أن عاد إلى أذربيجان بعد موقعة صفين بأمد يسير ـ في سنة ٣٧هـ ـ حيث جاء في رواية البلاذري عن ابن الكلبي أنه «وَلَى علي بن أبي طالب أذربيجان سعيد بن سارية الخزاعي ثم الأشعث بن قيس الكندي» وقال البلاذري في نبأ ولاة أرمينية: «وَوُلي الأشعث بن قيس لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أرمينية وأذربيجان»[٢].

ويتبين من ذلك عدم صحة المزاعم التي نقلها طه حسين عن عزل الأشعث وما يتصل بذلك من تلفيقات وظنون، فقد استخلف الأشعث نائباً له على أذربيجان وأقبل إلى الإمام عليّ في الكوفة ثم سار معه إلى صفين في شوال ٣٦هـ.

ملحمة الأشعث في يوم الشريعة بِصفِّين:

قال المسعودي في مروج الذهب: «كان سير عليّ من الكوفة إلى صِفِّين لخمس خلون من شوال سنة ٣٦هـ واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر الأنصاري، فاجتاز في مسيره بالمدائن وسار حتى نزل الرقة، فعُقِدَ له هنالك جسر فعبر إلى جانب الشام.. وكان مع عليّ تسعون ألفاً. وسار معاوية من الشام، وكان معه (خمس وثمانون ألفاً)، فسبق عليٌّ إلى صِفِّين، وعسكر في موضع سهل أفْيَحَ اختاره قبل قدوم عليّ، وذلك على شريعة لم يكن على الفرات أسهل منها للوارد

(١) الإصابة في تمييز الصحاب ـ للعسقلاني ـ جـ٢ ص١٤٧.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٢٣.

إلى الماء، وما عداها أخراق عالياً ومواضع إلى الماء وَعْرة، ووكَلَ أبا الأعور السلمي بالشريعة مع أربعين ألفاً، وبات عليٌّ وجيشه في البر عطاشاً قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء»[1].

ويُروى أن عمرو بن العاص قال لمعاوية: (أن عليّاً لا يموت عطشاً هو وتسعون ألفاً من المسلمين ولكن دَعْهُم يشربون ونشرب، فقال معاوية: لا والله أو يموتوا كما مات عثمان)، بينما تذكر رواية أخرى أن عمرو بن العاص كان على رأس الذين منعوا عليّاً وجيشه من الماء، وأياً كان الأمر فقد انتشر أربعون ألفاً من جيش الشام في منطقة الشريعة وهي مورد الماء بينما بات عليّ وجيشه في البر عطاشاً، فلما اشتد بهم العطش قال رجل من ربيعة:

أيمنعنا القَوْمُ ماءَ الفراتِ ... وَفِينَا الرماحُ وَفِينَا الحَجَفْ
. . فما بالنا أمس أسْدُ العرين ... وما بالنا اليوم شَاء عجفْ

وخرج عليٌّ يدور في عسكره بالليل فسمع قائلاً يقول:

أيمنعنا القومُ ماء الفرات ... وَفِينَا عليٌّ، وَفِينا الهُدَىٰ
وفينا الصلاة، وفينا الصيام ... وفينا المناجُون تحت الدُّجىٰ

وأخذ الناس يستحثون كبار الأمراء والقادة فلم يكن هناك مَنْ يمكن أن يتقدم ويقود الجميع إلى الشريعة إلا إذا كان الأشعث بن قيس قائد ميمنة المسلمين في موقعة نهاوند وفاتح أذربيجان.

قال المسعودي في مروج الذهب: «وألقَيْت في فسطاط الأشعث بن قيس رقعة فيها»:

لَئِنْ لَمْ يُجلِّ الأشْعَثُ اليومَ كُربَةً ... مِنَ المَوتِ فِيهَا لِلنُّفوسِ تَفَلُّتُ
فَنَشْرِبُ مِنْ مَاءِ الفُراتِ بِسَيْفِهِ ... فَهَبْنَا أناساً قَبلُ كانوا فَمُوتُوا»[1]

وبعد البيتين في تاريخ الأمم والملوك للطبري:

فإنَّكَ إنْ لَمْ تَجْمَعَ اليومَ أمْرَنا ... وَتَنْضُوا التي فِيها عَلينَا المَذَلَةُ
فَمَنْ ذا الذي تُثْنَىٰ الحَنَاجِرُ باسمه ... سِواكَ، وَمَنْ هَذَا إليه التَلَفُتُ
وأنتَ امرؤ مِنْ عُصْبةٍ يَمَنِيةٍ ... وكُل امرئ مِنْ أصله حين ينبتُ

فلما قرأ الأشعث بن قيس الأبيات أمر فرسان كندة والذين معه بأن يتهيأوا وكانوا أربعة آلاف، وسار إلى علي بن أبي طالب فقال له: «يا أمير المؤمنين، فيما

---

(1) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٣٨٥ ـ ٣٨٧.

يمنعنا القوم ماء الفرات وسيوفنا بأيدينا. .» ثم قال: «ائذن لي، فوالله لا نرجع حتى نَرِدَهُ أو نموت». فوافق عليٌّ، وقال للأشعث ـ فيما روي المسعودي ـ «اخرج في أربعة آلاف من الخيل حتى تهجم وسط عسكر معاوية فتشرب وتستقي لأصحابنا أو تموتوا عن آخركم، وأنا مُسيرُ الأشْتَرَ في خيل ورجالة وراءكَ».

* * *

وعاد الأشعث إلى فسطاطه فاستكمل تهيئة فرسانه الأربعة آلاف، ونادى في الناس ـ أي في بقية الجيش ـ «مَنْ كان يريد الماء فميعاده موضع كذا، فأنا ناهض. . وسار الأشعث في أربعة آلاف من الخيل وهو يرتجز قائلاً:

لأُورِدَنَّ خَيلَيَّ الفُراتا شُعْثَ النَّوَاصي أو يُقالُ ماتا»

فلما تقدم الأشعث إلى أمام الشريعة، اندفعت قوات من جيش الشام لتعزيز المتمركزين في الشريعة بحيث بلغوا أربعين ألفاً وكان فيهم عمرو بن العاص فناداه الأشعث ـ أو بعث إليه ـ قائلاً: «ويحك يا ابن العاص، خلّ بيننا وبين الماء فوالله لئن لم تفعل لتأخذنا وإياكم السيوف. فقال عمرو بن العاص: والله لا نتخلى عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم، فيعلمُ ربُّنا أيّنا أصبر».

وكان قد انضم إلى الأشعث زهاء عشرين ألفاً من جيش أهل العراق والأشتر النخعي ومن وصل معه، فانطلق الأشعث بفرسانه يقود معركة يوم الشريعة في مواجهة أربعين ألفاً من جيش الشام بقيادة عمرو بن العاص وأبي الأعور السلمي، قال المسعودي: «مَضَى الأشعث فما رَدّ وَجْهَه أحدُ حتى هجم على عسكر معاوية، فأزال أبا الأعور عن الشريعة، وَغَرَّقَ منهم بشراً وخيلاً، وأورد خيله الفرات. وكان الأشعثُ يُقدمُ رمحه ثم يحثُ أصحابه فيقول: ازحموهم مقدار هذا الرمح، فيزيلونهم من ذلك المكان». فانتصر الأشعث والذين معه وسيطروا على الشريعة وتقهقر عسكر معاوية من ذاك الموضع، فكان الأشعث هو قائد وبطل النصر في يوم الشريعة. «وفي ذلك قال رجلٌ من أهل العراق:

كَشَفَ الأشْعث عَنّا كُرْبَةَ الموت عِيَانا
بعد ما طارت طِلاقاً طيرةٌ مَسّتَ لَهَانا
فلهُ المنُّ علينا وبه دارت رَحَانَا»[1]

وكان يوم موقعة الشريعة في ٢٨ ذي القعدة ٣٦هـ، وسَمَحَ علي بن أبي

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ ٣ ص ٥٦٠ .

طالب وأصحابه لأهل الشام أصحاب معاوية بالاستقاء من مات الفرات ولم يمنعوهم، فكانت انتصار يوم الشريعة مِنْ عوامل السعيّ إلى السلام والاتفاق، إذْ أنه: «لما كان أول يوم من ذي الحجة بعث عليٌّ إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة والدخول في الجماعة، وطالت المراسلة بينهم، فاتفقوا على الموادعة إلى آخر المحرم من سنة ٣٧هـ»، ثم اندلعت حرب صِفِّين في أول صفر ٣٧هـ.

* * *

الدور الجليل في اتفاق السلام والتحكيم:

إن مبادرة عليّ بدعوة معاوية والذين معه إلى اتحاد الكلمة ـ في أول يوم من ذي الحجة ٣٦هـ والمراسلة التي طالت بين الفريقين بعد ذلك، بالرغم من أنها لم تُسفر عن التوصل إلى اتفاق سوى الموادعة إلى آخر المحرم ٣٧هـ، فإنها تدل على حرص عدد كبير من الفريقين على الاتفاق، وبصفة خاصة الصحابة وكبار الأمة وأعلام التابعين الذين تهيبوا من حرب يقتل فيها بعضهم بعضاً، ولكن تلك الجهود أخفقت، فاندلعت الحرب في صفين يوم الأربعاء ـ الأول من صفر ٣٧هـ ـ وتواصلت الحرب تسعة أيام، وكان القتال الشامل في اليوم التاسع وهو يوم الخميس ٩ صفر قتالاً رهيباً، فقد تقاتلوا طيلة اليوم وطيلة الليل حتى امتلاء سهل صفين بعشرات الآلاف مِنْ القَتْلَىٰ بينهم عدد غير قليل من الصحابة وأعلام الأمة والفاتحين، وتوقف الفريقان عن الاقتتال عند الفجر وهم يُشاهدون ذلك المشهد الرهيب الذي اقشعرت له الأبدان وارتاعت منه النفوس.

وفي اليوم التالي ـ وهو يوم الجمعة ١٠صفر ـ ارتفع نداء السلام والتحكيم، فكان للأشعث بن قيس دوراً جليلاً في تحقيق السلام وحقن دماء الأمة والحيلولة دون زوال شوكة العرب والإسلام.

لقد شاع في بعض الروايات والدراسات تصنيف مناداة مشايخ وعلماء الإسلام والتحكيم بأنه خدعة من فلان أو فلان، وذلك لا يتفق مع الرواية الصحيحة التي ذكرها المسعودي في مروج الذهب وتتمثل في أنه:

«في يوم الجمعة نادت مشيخة أهل الشام: يا معشر العرب، الله الله في الحرمات والنساء والبنات.. ارتفع في عسكر معاوية نحو خمسمائة مصحف، ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم، مَنْ لِثغور الشام بعد أهل الشام؟ مَنْ لثغور العراق؟ مَنْ لجهاد الروم؟ مَنْ لجهاد التُرك؟ ومَنْ للكفار؟.. فلما رأى كثيرٌ مِنْ أهل العراق ذلك قالوا: نُجِيبُ إلى كتاب الله ونُنيب».

وقد وصف شاعرُ مِنْ أصحاب عليّ ما حدث وصفاً صادقاً وهو النجاشي الحارثي حيث قال:

وأصْبَحَ أهلُ الشام قَدْ رَفَعُوا القَنَا عَلَيْهَا كتابُ اللّهِ خيرُ قُرآنِ
ونادوا عليًّا: يا بنْ عمِ مُحمدٍ أما تَتَّقِي أنْ يَهلَكَ الثِقَلانِ

فلم يرغب الأشتر النخعي وعروة التميمي وبعض أهل العراق في ذلك، بينما «كثير من أهل العراق قالوا: نُجِيبُ إلى كتاب الله ونُنيب» وقال الأشعث بن قيس «نعم، نحنُ أحق بالإباحة إلى كتاب الله». وتقول إحدى الروايات أنه: «قيل لعليّ: قد أعطاك معاوية الحق ودعاك إلى كتاب الله فاقْبَل منه، وكان أشدهم في ذلك الأشعث بن قيس» بينما تكلم الأشتر داعياً إلى مواصلة الحرب، وتزعم إحدى الروايات أن الأشتر كان على وشك الانتصار في هجوم على جيش الشام ولكن الصحيح أن الحرب كانت في اليوم السابق وفي الليل وانفصل الجيشان عند الفجر ولم يكن بعد ذلك قتال، وكانت تفصلُ بين الجيشين ساحة المعركة المفروشة بجثث عشرات الآلاف من القتلى ـ قال ابن كثير: (قُتِل من الفريقين ـ فيما ذكره غير واحد ـ سبعون ألفاً، خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق.. وروى البيهقي أنه قُتِل من الفريقين ستون ألفاً. عشرون ألفاً من أهل الشام وأربعون ألفاً من أهل العراق) ـ وكان لا بد من دفن القتلى قبل مواصلة الحرب إلى نتيجة عكسية وإلى هلاك الفريقين، لذلك نادى أهل الشام إلى تحكيم كتاب الله وقال كثير من أهل العراق: نُجيب إلى كتاب الله. وقد تكلم علي بن أبي طالب عن عدم مصداقية القوم في كتاب الله وعن الذين يريدون الاستجابة لهم من أهل العراق والذين معه وقال فيما قال: «إنّي كنتُ بالأمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً» بينما «قال الأشعث: إنّا لك اليوم على ما كنّا عليه أمس، وقد والله فُلّ الحديد، وكَلّت البصائر، ولسنا ندري ما يكون غداً. وأظُنْ أكثر الناس قد رضوا بما دُعوا إليه، فإذا شئتَ أتيتُ معاوية فسألتُه ما يُريد. فقال عليّ: ذلك إليك فأتِهِ إن شئت.

فسار الأشعث وقال: يا معاوية لأي شيء رفعتم المصاحف؟ فقال معاوية: نرجع نحنُ وأنتم إلى كتاب الله وإلى ما أمر الله به في كتابه» ـ فجرى حديثُ عن كيفية ذلك بمشاركة علماء الشام الذين لا بد أن معاوية كان يتبنى رأيهم حيث أضاف قائلاً للأشعث ـ «تبعثون منكم رجلاً ترضونه وتختارونه ونبعث برجل، ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما في كتاب الله ولا يَخْرُجَا عنه وننقادُ جميعاً إلى ما اتفقا عليه من حُكم الله. فَصَوّبَ الأشعثُ

قوله، وانصرف إلى عليّ، فأخبره ذلك. فقال أكثر الناس: رضينا وقَبَلْنا»[١].

وكان مسير الأشعث إلى معاوية وعودته إلى عليّ بذلك الخبر ـ يوم السبت ١١ صفر ـ واتضح في اليوم التالي قبول الغالبية العظمى بذلك حيث (قال أكثر الناس: رضينا وقَبَلْنا). ويتبين من ذلك كله عدم صواب مقولة طه حسين بأنه: «استكره الأشعث ومَنْ أطاعه عليًا على كف القتال، فلم ير بدًا من الإذعان لما أرادوا». فالصحيح أن عليًا رأى قبول ورضاء غالبية الذين معه وكل الذين مع معاوية بذلك، ولم يكن عليّ أقل حرصاً منهم على حقن الدماء والاتفاق، فَقَبَل ورَضَى بما قَبلَت ورضت به الغالبية العظمى فانعقد بذلك إجماع الصحابة وخيار الأمة وجمهور المسلمين في الفريقين على الإسلام وتحكيم كتاب الله، أما الدور الجليل للأشعث بن قيس في تحقيق ذلك فإنه يبعث على المزيد من التقدير والاعتزاز بذلك الصحابي والزعيم العظيم.

* * *

اختيار الحَكمين وكتابة صحيفة التحكيم

بعد انعقاد الإجماع على القبول بالسلام والتحكيم اجتمع الإمام علي بن أبي طالب وكبار أهل العراق ومَنْ إليهم لاختيار الحكم الذي سيُمثلهم واختيار المُفوضين لكتابة صحيفة التحكيم، وهنا يزعم طه حسين في كتاب الفتنة الكبرى زعماً تالياً لقوله: (استكره الأشعثُ ومن أطاعه عليًا على كفّ القتال..) ـ فبعد أن اعتبر طه حسين ذلك (مؤامرة) ـ بينما عدم الاقتتال حتى هلاك الفريقين وفناء الجميع ليس مؤامرة إلا عند طه حسين ـ فقد اندفع وراء المزاعم والظنون قائلاً: (..إن المؤامرة لم تقف عند هذا الحد وإنما تجاوز إلى ما هو أشد منه خطراً، وهو اختيار الحكمين. فلأمر ما ألحّ الأشعثُ ومَنْ تبعه مِن اليمانية في أن يختار عليُّ أبا موسى الأشعريّ، ولم يطلقوا له الحرية في اختيار حكَم يثق به ويطمئن إليه.. فقد كان عليّ إذاً مكْرَهاً على قبول التحكيم ومكرهاً على اختيار أحد الحكمين)[٢] والواقع أن تلك المزاعم والظنون التي يُراد بها الإساءة إلى الأشعث إنما تؤكد عظمة الأشعث وتعني أنه الأعظم بين جميع الصحابة والزعماء الذين مع الإمام عليّ من أهل الجزيرة العربية والعراق والمشرق.

إن ما حدث في مسألة اختيار الحكمين يتمثل في أن معاوية وكبار أهل الشام

---

(١) مروج الذهب ـ جـ٢ ص٤٠٣ ـ قرة العيون ـ ص٤٣.

(٢) الفتنة الكبرى ـ طه حسين ـ ص٨٣ و١٢٣.

ومَنْ معهم مِنَ رجالات مصر والجزيرة العربية اتفقوا على اختيار عمرو بن العاص ـ حكماً ـ واختيار المُفوضين عنهم لكتابة صحيفة التحكيم، فلم يختاروا عتبة بن أبي سفيان ولا غيره من أقارب معاوية وعثمان، وإنما اختاروا أبرز شخصية من الصحابة والأمراء الفاتحين الذين معهم وهو عمرو بن العاص الذي كان من قادة فتح الشام وقائد فتح مصر وأمير مصر في خلافة عمر وأوائل خلافة عثمان، ثم اختاروا المفوضين لكتابة صحيفة التحكيم اختياراً فيه نفس الدلالات، فقد اختاروا مِنْ بين المفوضين الذين يُمثلونهم: حبيب بن مسلم الفهري ـ قائد فتح ثغور الروم وأرمينية ـ ومُعاوية بن حديج السكوني ـ قائد فتح إفريقية ـ وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعبد الله بن عامر ـ أمير البصرة السابق ـ، ومالك بن حمرة الهمداني، وابن ذي الكُلاع الحميري، وعتبة بن أبي سفيان، وأمثالهم.

واجتمع الإمام عليّ وكبار أهل العراق والذين معهم مِن رجالات الجزيرة العربية والمشرق لاختيار الحكم الذي سيَمثلهم واختيار المفوضين ـ وذلك يوم الثلاثاء ١٢ صفر، غالباً ـ وهنا تقول الروايات أنه «قال الأشعث بن قيس ومَنْ معه: رضينا بأبي موسى الأشعري: فقال عليّ: إني لا أرى أن أُولِّي أبا موسى الأشعري وقال أنه خَذَّل الناس عني، لكن هذا عبد الله بن عباس أُوَلّيه ذلك، فقال الأشعث ومن معه: لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري ـ والله لا يحكم فينا مضري ـ قال عليّ: فالأشتر النخعي، قالوا: وهل هَاجَ هذا الأمر إلا الأشتر؟».

ويُستفاد من ذلك إنهم تشاوروا في اختيار الحكم، فرأى الإمام عليّ اختيار عبد الله بن عباس فاعترضوا عليه، فتقول الرواية أنهم قالوا: (والله لا يحكم فينا مضريان) وفي بعض نُسخ مروج الذهب (والله لا يحكم فينا مضري) وجاء في هامش المروج تعليل ذلك بأنه (كان أكثر المتكلمين من أصحاب عليّ قحطانيون يمانيون) وهذا التعليل يعني أنهم اعترضوا أن يكون الحكمان من قبيلة مُضر لأن عمرو بن العاص من مُضر، ولكن صيغة (والله لا يحكم فينا مضري) تعني أنهم اعترضوا على عبد الله بن عباس بالذات ووصفوه بأنه (مضري) فيكون المقصود ليس أنه من قبيلة مضر وإنما تصحفت الكلمة التي قالوها إلى (مضري) ويبدو أن أصلها (مضيري) نسبة إلى أكلة مشهورة اسمها (مضيرة) وهي طعام دسم وباهظ الثمن، وقد يكون المضيري كناية عن أكل أموال من بيت المال وقد كتب أبو الأسود الدؤلي ذات مرة إلى الإمام عليّ قائلاً: «.. إن عاملك وابن عمك ـ عبد الله بن عباس، قد أكل ما تحت يده بغير علمك» فكتب الإمام عليّ إلى ابن عباس «أما بعد، فقد بلغني عنك أمر إن كنتَ فعلته فقد أسخطت ربك وأخربت

أمانتك وعصيت إمامك وخُنت المسلمين، بلغني أنك جرّدت الأرض وأكلت ما تحتَ يديك، فارفع إليّ حسابك واعلمْ أن حساب الله أشد من حساب الناس» وكان عبد الله بن عباس عاملاً على البصرة فكتب إلى الإمام عليّ: «إن الذي بلغك باطل. . فلا تُصدق عليّ الأظنَّاء، رحمك الله»[١] ولقد كان عبد الله بن عباس صادقاً، ولكن وجود مثل تلك الاتهامات والشائعات تفسر كلمة (مضيري). ويقول طه حسين في سبب اعتراض الناس على أن يكون ابن عباس أحد الحكمين «أبَى أصحابُ عليّ على إمامهم أن يختار ابن عباس لأنه شديد القرب منه»[١] وقد يُشير هذا التعليل إلى أنهم لاحظوا أن أهل الشام لم يختاروا أحد أقارب معاوية وإنما اختاروا أبرز شخصية معهم من الأمراء الفاتحين الكبار وجعلوا عتبة بن أبي سفيان واحداً من المفوضين، فلم يرغب أهل العراق والذين معهم أن يمثلهم مَنْ لم يشهد فتحاً ولا تولى عملاً في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر بن الخطاب ولكنهم لم يعترضوا على أن يكون عبد الله بن عباس واحداً من المفوضين في كتابة صحيفة التحكيم وكذلك كان.

وأما اعتراضهم على قول الإمام علي (فالأشتر النخعي) فيقول طه حسين أن أصحاب عليّ «أبَوْا عليه أن يختار الأشتَر لأن اجتهاده في الحرب كان عظيماً وحرصه على الغلب كان شديداً»[١] وقد استنتج طه حسين ذلك من قولهم: «وهل هاج هذا الأمر إلا الأشتر» وليس المقصود بذلك ما ذهب إليه طه حسين فقد جاء في كتاب الإمام علي لمحمد رضا في خبر عودة الصحابي جرير بن عبد الله البجلي من الشام قبل حرب صِفِّين أن جرير بن عبد الله قال للأشتر: «لقد ذكر أهل الشام إنك مِنْ قتلة عثمان»[٢] فقد كان الأشتر ثالث ثلاثة يتهمهم أهل الشام والمدينة بمباشرة قتل الخليفة عثمان بن عفان ويطالبون بقتلهم منذ بداية الفتنة، فبالرغم من أن الأشتر كان واثقاً مِنْ براءته فإن الاعتراض عليه قد استند إلى حجة قوية وإلى خوف على حياة الأشتر فقد كان من المحتمل أن يندفع بعض أهل الشام وأولياء دم عثمان فيقتلونه، ولم يتم اختيار الأشتر حتى كواحد من المفوضين حرصاً على حياته.

وقد أيد كبارأهل العراق والمشرق رأى الأشعث بن قيس باختيار أبي موسى الأشعري، ويمكن الإجابة على قول طه حسين: «. . لأمر ما ألحّ الأشعثُ ومن تَبعه من اليمانية في أن يختار عليٌّ أبا موسى الأشعري»: فالواقع أن الذين أيدوا

(١) الفتنة الكبرى ـ طه حسين ـ ص٨٣ و١٢٣.
(٢) الإمام عليّ ـ لمحمد رضا ـ ص١٥٢.

الأشعث وكانوا معه في أن يختار عليٌّ أبا موسى الأشعري ليسوا من اليمانية فقط وقد أدرك طه حسين ذلك فقال في موضع لاحق «أن أصحاب عليّ أبَوْا إلا أن ينذُبوا أميرهم القديم ـ أبا موسى الأشعري ـ الذي كره لهم الفتنة والذي لم يشترك في الحرب. .»[١] فعبارة (أميرهم القديم) قد اختزلت تاريخاً مجيداً لأبي موسى فقد كان أمير وقائد الصحابة في غزوة أوطاس بالحجاز في عهد رسول الله ﷺ ثم كان عامل رسول الله ﷺ على قسم واسع من اليمن، قال العسقلاني «كان أبو موسى عامل النبي ﷺ على زبيد وعدن وغيرهما من اليمن وسواحلها» ثم كان من كبار قادة الفتوحات، ولاه عمر بن الخطاب على ولاية البصرة فكان هو أمير ولاية البصرة منذ عام ١٦هـ حتى وفاة عمر في نهاية عام ٢٣هـ واستمر أبو موسى والياً للبصرة في أوائل خلافة عثمان، وافتتح أبو موسى في خلافة عمر أغلب أرجاء بلاد فارس وامتدت ولايته من البصرة والخليج العربي غرباً إلى إقليم كرمان وتخوم الهند شرقاً، وأسس العصر الإسلامي في تلك الآفاق الممتدة وكان والياً للكوفة في أواخر خلافة عثمان وأوائل خلافة عليّ بن أبي طالب. قال القرطبي في كتاب الاستيعاب «سُئل علي بن أبي طالب عن موضع أبي موسى في العلم فقال: صُبغ في العلم صبغاً». وقال العسقلاني: «أخرج البخاري عن الحسن البصري قال: ما أتى البصرة راكبٌ خيرٌ لأهلها من أبي موسى. وقال ابن المديني: قضاة الأمة أربعة عمر وعلي وأبو موسى وزيد بن ثابت»[٢] ولم يكن بين أهل العراق ومَنْ إليهم صحابياً تضاهي مكانته مكانة أبي موسى الأشعري ولذلك ألحّ الأشعث بن قيس والذين معه من الصحابة وكبار أهل العراق والمشرق والجزيرة على أن يختار عليٌّ أبا موسى الأشعري، ولا بد أن الإمام عليّ استجاب لذلك ـ ليس مكرهاً كما زعم البعض ـ بل عن قناعة أكيدة تنطق بها صحيفة التحكيم.

ثم اختار الإمام عليّ المفوضين العشرة لحضور وكتابة صحيفة التحكيم فكان منهم الأشعث بن قيس ـ فاتح وأمير إذربيجان وأرمينية ـ وعبد الله بن عباس ـ أمير البصرة ـ وسعيد بن قيس الهمداني، وأبو بشر بن عمر الأنصاري، وأمثالهم.

وفي اليوم التالي ـ الأربعاء ١٣ صفر ـ اجتمع المفوضون من الفريقين فكتبوا صحيفة سجلوا فيها الاتفاق على وضع الحرب واختيار الحكمين وأن الأمة لهما أنصار على ما يقضيان به وأن عليهما عهد الله وميثاقه أن يُصلحا بين الأمة ولا

---

(١) الإمام عليّ ـ لمحمد رضا ـ ص١٥٢.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٣٦٠.

يرداها إلى فرقة ولا حرب، وأنّ أجل القضية ـ أي التقاء الحكمين للحكم ـ شهر رمضان، وغير ذلك مما نصت عليه صحيفة التحكيم.

قال المسعودي في مروج الذهب: «ومَرَّ الأشعث بن قيس بالصحيفة يقرؤها على الناس فرحاً مسروراً، حتى انتهى إلى مجلس لبني تميم ـ في معسكر أهل العراق ـ فيه جماعة من رؤساء تميم، منهم عروة بن أُدَيَّة التميمي وهو أخو بلال الخارجي، فقرأها عليهم، فجرى بين الأشعث وبين أُناس منهم كلام طويل، وأن الأشعث كان بدء هذا الأمر والمانع لهم من قتال عدوهم. وقال له عروة: أتُحكِمون في دين الله وأمره ونهيه الرجال، لا حكم إلا لله. فكان أولُ من قالها.. وشدّ عروة بسيفه على الأشعث فكادت العصبية أن تقع.

وفي فعل عروة بن أدية بالأشعث ـ لما أشهر سيفه على الأشعث ـ قال رجلُ من بني تميم:

عُـرْو، يـا عـرو، كـلُّ فـتـنـة قـوم	سَـلَـفَـتْ إنـمـا تـكـون فَـتـيَّـهْ
ثـم تَـنْـمَـى ويعـظـم الـخـطـبُ فيهـا	فـأحـذرنْ غِـبَّ مـا أتـيـتَ عُـرَيِّـه
أعـلـى الأشـعـثَ الـمُـعَـصَّـبِ بـالـتـا	ج حَـمَـلْـتَ الـسـلاح يـا بـن أُديّـه
إنـهـا فـتـنـة كـفـتـنـة ذي الـعـجـل	أيـا عـروة الـعـصـا والـعـصيَّـهْ
فـانـظـر الـيـوم مـا يـقـول عـلـيٌّ	وأتّـبِـعـه فـذلـك خـيـرُ الـبـريـة»

ويتبين من قول الشاعر: (فانظر اليوم ما يقول عليٌّ) أن الذين لم يكونوا مع السلام والتحكيم كانوا مخالفين للإمام عليّ، بينما كان الإمام عليّ والأشعث بن قيس وغالبية الأمة مع السلام والتحكيم، فَمَضَت إرادة غالبية الأمة، وانصرف المسلمون من صِفّين إلى الشام وإلى العراق وغيرهما من البلدان ـ في شهر ربيع سنة ٣٧هـ.

وقد كان من أمر الخوارج بعد ذلك ما هو معروف من خروجهم وتكفيرهم للأمة تحت شعار (لا حكم إلا لله) ثم حاربهم الإمام عليّ والذين معه مما أدى إلى هلاكهم.

وأما نتيجة التحكيم فكان الموعد المتفق عليه للقاء الحكمين هو شهر رمضان وسيأتي النبأ اليقين عن ذلك في المبحث الخاص بالصحابي أبي موسى الأشعري لعدم علاقة الأشعث بذلك حيث كان قد عاد إلى أذربيجان.

* * *

عودة الأشعث والياً على أذْرَبيْجَان وأرمينية

لقد عاد الأشعث بن قيس مع الإمام علي بن أبي طالب والذين معه من صِفِّين إلى الكوفة ـ في شهر ربيع ٣٧هـ ـ فمكث الأشعث فترة في الكوفة، ثم عاد إلى أذربيجان التي كان الإمام عليّ قد بعث إليها سعيد بن سارية الخزاعي فكان والياً عليها بالنيابة ومعه شريح بن المكدد الكندي خليفة الأشعث بأذربيجان، ثم عاد الأشعث والياً على أذربيجان في أواسط سنة ٣٧هـ. وفي ذلك ذكر البلاذري عن ابن الكلبي أنه: «وَلَى علي بن أبي طالب أذربيجان سعيد بن سارية الخزاعي ثم الأشعث بن قيس الكندي». وذكر البلاذري في أنباء وولاة أرمينية أنه: «وُلِّيَ الأشعث بن قيس لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أرمينية وأذربيجان» [ص٢٢٣ ـ فتوح البلدان].

فتوجه الأشعث بن قيس من الكوفة إلى أذربيجان في أواسط سنة ٣٧هـ فمكث والياً عليها إلى وفاة الإمام عليّ في رمضان سنة ٤٠هـ، وقد ذكر البلاذري نبأ تلك الفترة قائلاً: «وَلّيَ عليُّ بن أبي طالب الأشعث أذربيجان فلما قَدِمها وَجَدَ أكثر أهلها قد أسلموا وقرأوا القرآن. فأنْزَلَ الأشعثُ ـ أي أوطن ـ في أردبيل جماعة من أهل العطاء والديوان من العرب، ومَصّرَها، وبَنى مسجدها». [ص٢٠٩ ـ فتوح البلدان].

وشهد إقليم أذربيجان استقرار الكثير من العشائر العربية واندمجوا ـ بعد القرن الثالث الهجري ـ في أهل أذربيجان وما تزال سلالتهم في تلك البلاد الإسلامية منذ عهد الأشعث بن قيس وحتى اليوم.

* * *

سنوات الأشعث الأخيرة

وقد عاش الأشعث بن قيس سنواته الأخيرة بمدينة الكوفة التي عاد إليها من أذربيجان واستقر فيها بشكل نهائي بعد وفاة الإمام عليّ بن أبي طالب في رمضان سنة ٤٠هـ ـ وكانت وفاته بعد سنة ٤٢هـ.

وجاء في الإصابة للعسقلاني والاستيعاب للقرطبي عن خليفة وأبي نعيم والحسن بن عثمان قالوا: «مات الأشعث بن قيس بالكوفة سنة أربعين بعد مقتل الإمام عليّ بأربعين يوماً. قال الهيثم بن عديّ: وصلى عليه الحسن بن علي بن أبي طالب».

والظاهر أن الذي مات سنة ٤٠هـ هو أخو الأشعث بن قيس لأن الأشعث

كان على قيد الحياة سنة ٤٢هـ، وفي ذلك قال العسقلاني: «وقيل: بل مات سنة اثنتين وأربعين. وفي الطبراني عن أبي إسحاق ما يدل على أنه تأخر عن ذلك فإن أبا إسحاق كان صغيراً على عهد عليّ، وقد ذكر ـ في الطبراني ـ أنه كان على رجل من كندة دين وأنه دخل مسجدهم فصلّى الفجر، فَوُضع بين يديه كيسُ وحلة ونعل، فسأل عن ذلك فقالوا: قدم الأشعث الليلة من مكة.

وفي الطبراني أيضاً من وجه آخر: استأذن الأشعث على معاوية بالكوفة وعنده الحسن بن علي وابن عباس فذكر قصته»[1]. وكان قدوم معاوية إلى الكوفة لما تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب وبايع معاوية بالخلافة وذلك سنة ٤١هـ فأتى معاوية إلى الكوفة والتقى بالحسن بن علي وابن عباس والأشعث وقيس بن سعد بن عبادة وغيرهم من وجوه أهل العراق ومشارقها، واجتمع أمر الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان.

وكان الأشعث من كبار وأفاضل الصحابة الذين سكنوا الكوفة منذ خلافة عمر بن الخطاب. قال ابن عبد ربه في العقد الفريد: (دخل الأشعث بن قيس على شريح القاضي وهو في مجلس القضاء فقال شريح: أهلاً بشيخنا وسيدنا، وأجلسه بجانبه). وجاء في كتاب الأغاني للأصفهاني: أن رجلاً راهباً أراد أن يُسلم فسأل عن (أفضل أهل الكوفة) لكيّ يُسلم على يده، فقالوا له: أفضل أهل الكوفة جرير بن عبد الله البجلي والأشعث بن قيس الكندي.

ولما مرض الأشعثُ مرض الموت أوصَى أبنائه ومنهم ـ محمد بن الأشعث، وإسحاق بن الأشعث، والقاسم بن الأشعث، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ـ أوصاهم بوصية تاريخية، ذكرها كتاب العقد الفريد وفيما يلي نصها:

«قال الأشعثُ بن قيس لبنيه: لا تَذِلُوا في أعراضكم، وانخدعوا في أموالكم، ولْتَجِفّ بطونكم من أموال الناس، وظهوركم من دمائهم، فإن لكل امرئ تَبِعة.

وأياكم وما يُعتذرُ منه أو يُستحى، فإنما يُعتذر من ذنبٍ ويُستحى مِنْ عيب.

أصلحوا المال لجفوة السُلطان وتَغَيُر الزمان. وكُفّوا عند الحاجة عن المسألة فإنه كفى بالرد مَنْعاً، وأجملوا في الطلب حتى يوافق الرزقُ قدراً.

وامنعوا النساء من غير الأكفاء، فإنكم أهلُ بيت يتأسى بكم الكريم، ويتشرف بكم اللئيم.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ١ ص٥٣.

وكونوا في عوام الناس ما لم يضطرب الحبل، فإذا اضطرب الحبل فالحقوا بعشائركم»[١].

* * *

وساد الحزن على وفاة الأشعث بن قيس في العديد من البلاد العربية الإسلامية، وصلّى عليه الحسن بن علي بن أبي طالب وأهل الكوفة، وتم دفنه في ساحة مسجد الأشعث بالكوفة، وذلك سنة ٤٢هـ ـ أو سنة ٤٣هـ ـ ولم يزل ذكره خالداً عبر الأجيال فقد كان الأشعث بن قيس من عظماء الأمة الخالدين، فعليه رحمة ورضوان رب العالمين.

* * *

أبناء الأشعث العظماء . . بعد الأشعث

ثم كان محمد بن الأشعث بن قيس زعيم كندة بالكوفة وغيرها من العراق ومشارقها، وأُم محمد بن الأشعث هي أم فروة أخت أبي بكر الصديق، وكان محمد بن الأشعث من الشخصيات القيادية وتولى إمارة الموصل فترة من الزمن، ولما انقسم أمر الخلافة وبويع عبد الله بن الزبير في مكة وما إليها ومروان بن الحكم ثم عبد الملك بن مروان في الشام ومصر ـ عام ٦٤ و٦٥هـ ـ استجاب أهل العراق لمبايعة عبد الله بن الزبير الذي بعث أخاه مصعب بن الزبير أميراً للعراق فبايعه الزعماء والقادة وكان أبو زهم المهلب بن أبي صفرة الأزدي ومحمد بن الأشعث الكندي وتولى محمد بن الأشعث الموصل والمهلب بن أبي صفرة الأهواز، ثم وقعت بالكوفة فتنة المختار الثقفي الكذاب الذي سيطر على الكوفة ونواحيها وادعى أن الوحيّ ينزل عليه وأفسد في الأرض، فسار لقتاله ـ عام ٦٧هـ ـ محمد بن الأشعث والمهلب بن أبي صُفرة مع مصعب بن الزبير وأهل البصرة والكوفة، فوقعت معركة كبيرة مع المختار الثقفي وأتباعه بالكوفة فقاتلهم محمد بن الأشعث حتى استشهد، وانهزم المختار وأتباعه هزيمة ساحقه، «فقال المهلب لمصعب بن الزبير: يا له فتحاً ما أهنأه لو لم يكن محمد بن الأشعث قُتِلْ فقال مصعب: صدقتَ فرحم اللّهُ محمداً»[٢].

وقال أعشى همدان ـ وهو عبد الرحمن بن الحارث بن نظام الحاشدي الهمداني ـ يرثي محمد بن الأشعث قصيدة منها:

---

(١) العقد الفريد ـ لابن عبد ربه ـ جـ٣ ص١٥٤.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٧ ص١٥٤.

تــأوّبَ عَـيْـنَـكَ عُـوّارُهَـا وعـاد لـنـفـسـك تـذْكـارُهـا
وقـام نُـعـاةُ أبـي قـاسـم فـأسـبـل بـالـدمـع تَـحْـدارُهـا
فـحـقُّ الـعـيـون عـلـى ابـن الأشج أن لا يُـفَـتّـر تـقـطـارُهـا
وألّا تـزالَ تُـبَـكّـى لـه وتَـبـتَـلُ بـالـدمـع أشـفـارُهـا
عـلـيـك مـحـمـدُ لـمـا ثُـوِيـت تـبـكـي الـبـلادُ وأشـجـارُهـا[١]

* * *

ثم تولى الزعامة عبد الرحمن بن الأشعث، قال الحافظ بن كثير: «وعبد الرحمن هذا هو أبو محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، ومنهم من يقول عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي. وقد روى له أبو داود والنسائي عن أبيه عن جده عن ابن مسعود حديث: (إذا اختلف المتبايعات والسلعة قائمة فالقولُ ما قال البائع أو تشكاركا). وروى عنه أبو العميس..»[٢].

وكان عبد الرحمن بن الأشعث من الأمراء القادة ـ بعد وفاة محمد بن الأشعث ـ فقد تولى عبد الرحمن القيادة في الكوفة ثم تولى المدينة المنورة ثم عاد إلى الكوفة ـ نهاية عام ٦٨هـ ـ واشترك مع المهلب في محاربة الخوارج الذين سيطروا على الأهواز وفارس في ولاية مصعب بن الزبير للعراق، وكانت دولة ابن الزبير أضعف من تحقيق الاستقرار وحكم البلاد، فلما أتى عبد الملك بن مروان من الشام إلى العراق ـ عام ٧١هـ ـ مال إليه الناس وبايعوه، وأتى عبد الرحمن بن الأشعث والمهلب إلى عبد الملك بن مروان فبايعوه، وأسند عبد الملك إلى عبد الرحمن بن الأشعث قيادة جيش أهل الكوفة لمحاربة الخوارج في الأهواز هو والمهلب قائد أهل البصرة، قال أبو العباس المبرد «خرج عبد الرحمن بن الأشعث إلى الأهواز فأبْلَى بلَاءً حسناً.. فقال له أعشى همدان في كلمة طويلة:

ويـومَ أهْـوازِك لا تَـنْـسَـهُ لـيـس الـثـنـا والـذكـر بـالـداثِـرِ»[٣]

ثم تولى عبد الرحمن إقليم الريّ في إيران عام ٧٢ ـ ٧٦هـ ثم تولى إقليم كرمان عام ٧٨هـ، وكان عبد الملك بن مروان قد وَلّى على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ـ عام ٧٥هـ ـ فاستعمل الحجاج على إقليم سجستان عبيد الله بن أبي بكرة فحاربه العدو وملكهم رتبيل وأخذوا إقليم سجستان ـ سنة ٧٨هـ ـ فبعث

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٧ ص١٥٤.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٩ ص٥٤.

(٣) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد ـ جـ٢ ص٢٥٤.

الحجاج ـ بأمر عبد الملك بن مروان ـ جيشاً بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث وولاه على سجستان، فسار عبد الرحمن إلى سجستان وتم له تحريرها بعد معارك باسله، ثم تقدّم عبد الرحمن إلى ما يلي سجستان، قال ابن خلدون: «سار عبد الرحمن إلى بلاد رتبيل، وبذل رتبيل الخراج فلم يقبل منه، ودخل بلادة فَحَوَاها شيئاً فشيئاً، وبعث عماله عليها، ووضع المسالح بالنواحي، والأرصاد على العقاب والشعاب»[١] قال المسعودي: «فحارب عبد الرحمن بن الأشعث مَنْ هنالك مِنْ أُمم الترك، وهم أنواع من الترك يقال لهم الغوز والخليج، وحارب مَنْ يلي تلك البلاد من ملوك الهند مثل رتبيل وغيره، وكان كل ملك يلي ذلك الصقع من بلاد الهند يُقال له رتبيل»[٢] قال الطبري: «ولما حاز ابن الأشعث من أرض الترك أرضاً عظيمة، حبس الناس عن الوغول في بلاد الترك وقال: نكتفي بما أصبناه مِنْ بلادهم حتى نعرفها ويجترئ المسلمون على طُرقها، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها، ثم لم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك في أقصى بلادهم وحصونهم، ثم لا نزايل بلادهم حتى يُهلكهم الله»[١].

وكان نجاح ابن الأشعث في تحرير سجستان ثم في فتح الكثير من أرض العدو ـ في باكستان وأفغانستان والهند ـ قد تم في فترة وجيزة ـ عام ٧٩ و٨٠هـ ـ ونشر ابن الأشعث المسالح وهي الحاميات العسكرية في البلاد التي فتحها، وعقد العزم في فتح ما يلي ذلك من بلاد العدو في العام المقبل وأخبر المسلمين بخطته فاستصوبوا ذلك. . وكتب عبد الرحمن إلى الحجاج بما فتح الله عليه من بلاد العدو وبما صنع الله للمسلمين وبهذا الرأي الذي رآه للمسلمين فيما يستقبل من أيامه. وامتزجت قناعة الحجاج بعظمة وصواب ذلك مع حقد وحسد الحجاج. . فقد كتب إلى عبد الرحمن بن الأشعث «أما بعد، فَمُر مِنْ قِبَلك من المسلمين فليحرثوا وليقيموا فإنها دارهم، حتى يفتح الله عليهم ـ أقصى بلاد العدو ـ» ثم ما لبث أن كتب الحجاج كتاباً ثانياً يأمر فيه ابن الأشعث بتعجيل التوغل في بلاد العدو، وقال: «إن مَضَيْتَ بالناس وتوغلت في بلاد العدو، وإلا فأخوك إسحاق أمير الناس» وكان الحجاج يريد أن يتوغل عبد الرحمن بن الأشعث والذين معه من جند أهل الكوفة والبصرة في أقاصي بلاد الترك والهند فيهلكوا فيها. . فجمع عبد الرحمن الناس وأخبرهم بنص كتاب الحجاج بتعجيل الوغول بهم في أرض العدو، وقال: (إنما أنا رجلُ منكم أمضي إذا أمضيتم، وأبَى إذا أبيتم). فقام وجهاء

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٨٤ ـ وتاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٩ ص٥ ـ ٨.
(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص١٣٨ و١٦٢.

الناس وكشفوا نوايا الحجاج، «فثار الناس إلى عبد الرحمن فقالوا: نأبَى على عدو الله الحجاج ولا نسمع له ولا نطيع».

فكان ذلك سبباً مباشراً لثورة عبد الرحمن بن الأشعث والتي كان لها أسباب وتراكمات سابقة من بينها السخط على انحراف بني أمية عن نهج الخلافة الراشدة والاستياء من الظلم والاستبداد والطغيان والتعسف من بعض بني أمية ومن الحجاج، والأمل في قيام دولة عادلة بزعامة عبد الرحمن بن الأشعث، إذْ أنه «لما ثار الناس وقالوا لا نسمع للحجاج ولا نُطيع، قال عامر بن واثلة الكناني: اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا الأمير عبد الرحمن، فتنادى الناس من كل جانب: فعلنا فعلنا.. ووثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه.. فقال لهم: تبايعون على خلع الحجاج وعلى النصرة لي وجهاده معي حتى ينفيه الله من أرض العراق. قالوا: نعم، فبايعه الناس، ولم يذكر خلع عبد الملك بن مروان إذْ ذاك بشيء»(١) ويقول الدكتور ناجي محمد ـ أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة بغداد ـ «كانت ثورة ابن الأشعث محاولة جدية للتخلص من سيطرة مُضَر، سيما وأن معظم القبائل العربية القوية في العراق كانت قحطانية.. ولهذا فإن عبد الرحمن بن الأشعث حينما عظم جمعه خلع عبد الملك بن مروان وسمى نفسه ناصر المؤمنين»(٢).

وكان أعشى همدان ـ عبد الرحمن بن الحارث بن نظام الحاشدي الهمداني ـ هو شاعر ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ناصر المؤمنين، قال المسعودي: «كان أعشى همدان أول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدي ابن الأشعث بسجستان.. وقال في أبيات له:

.. يا بنْ الأشج، قريع كندة، لا أُبَالي فيك عَتْبَا
أنت الرئيسُ بن الرئيس وأنت أعلى الناس كعبا
فانهض هُديت لعَلَّهُ يجلو بك الرحمنُ كَرْبَا..»(١)

ويقول الدكتور يوسف خليفة: «لما كانت ثورة ابن الأشعث التي أشعل نيرانها ضد الخليفة عبد الملك بن مروان وواليه على العراق، كان أعشى همدان هو شاعر هذه الثورة بدون منازع.. فقد وجد أعشى همدان في العصبية اليمنية صخرة عاتية تصلح مقاماً لِوكْرِه فَشَد جناحيه عبد الرحمن بن الأشعث سليل ملوك اليمن القدماء.. لقد كانت نفس الأعشى تسيطر عليها نزعة ارستقراطية عميقة آثارها

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص١٣٨ و١٦٢.
(٢) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي محسن ـ ص١٤٧.

فيه شعوره بمجد اليمن القديم وبأن زعيمه سليل ملوك اليمن القدماء وبأنه يعمل لإعادة ذلك المجد.. فأغلبُ الظن أن الأعشى لم يكن يتمثل ثورة ابن الأشعث ثورة سياسية بقدر ما كان يتمثلها محاولة لاسترداد اليمانية مُلكهم القديم، وهو في هذا لم يكن إلا مثلاً لشعور اليمانية الذين نظروا إلى الثورة من هذه الزاوية فكانوا لهذا أسرع الطوائف استجابة لابن الأشعث»[١] ويقول الدكتور فلهوزن: «إن اليمنيين كانوا مُمَثلين في هذه الثورة تمثيلاً ضخماً لأنهم نظروا إلى ابن الأشعث على أنه رَجُلَهُم الخاص»[١].

لقد بدأت ثورة ناصر المؤمنين عبد الرحمن بن الأشعث الكندي بمبايعته وخَلْع الحجاج في سجستان ـ في أوائل عام ٨١هـ ـ وكان الجيش العربي الإسلامي في سجستان زهاء أربعين ألفاً، نصفهم من أهل البصرة ونصفهم من أهل الكوفة، ولم يكن كلهم من اليمانية وإنما كان بينهم مِنْ ربيعة ومِنْ تميم وغيرهم من قبائل مُضْر العدنانية عدد غير قليل، وقد خلع جميعهم الحجاج وبايعوا ابن الأشعث، فقام بضبط أمور سجستان، واستعمل على مدينة بست ومناطق شرق سجستان وما يليها الأمير عياض بن هيمان السدوسي ـ من قبيلة بكر بن وائل من ربيعة ـ واستعمل على مدينة زرنج عاصمة ولاية سجستان عبد الله بن عامر التميمي.

ثم تقدم عبد الرحمن بن الأشعث إلى ولايتي مكران وكرمان ـ والتي يقع جزء منها في بلاد السند وجزء منها في إيران ـ فانضوت مكران وكرمان تحت لواء ابن الأشعث بعد انهزام عامل الحجاج واتباعه.. قال الطبراني: «كان بكرمان أربعة آلاف فارس فلما مَرّ بهم ابن الأشعث انجفلوا معه» ـ أي انضموا إليه ـ قال المسعودي: «خلع ابن الأشعث طاعة الحجاج بسجستان وصار إلى بلاد كرمان فَثَنَى بخلع عبد الملك بن مروان.. وانقاد إلى طاعته أهل الري والجبال.. وغيرهما.. وفي عبد الرحمن بن الأشعث يقول الشاعر:

خلع الملوك وسار تحت لوائه ... شجر العُرى وعراعرُ الأقوام»

واستعمل عبد الرحمن على ولاية مكران وكرمان خرشة بن عمرو التميمي وأبو إسحاق السبيعي الحاشدي الهمداني، وبَعَثَ الكُتب ـ من كرمان ـ إلى أقاليم وولايات فارس والريّ والجبال وخراسان وغيرها مما يلي الكوفة والبصرة، وبعث الحجاج بالقوات إلى إقليم فارس، وتقدم ابن الأشعث إلى بلاد فارس، قال الطبري «.. فجعل ابن الأشعث لا يلقى خيلاً إلا هزمها،

---

(١) حياة الشعر في الكوفة ـ د. يوسف خليفة ـ ص٨٠ و٨٥.

وكان على مقدمته عطية بن عمرو العنبري، فذلك قول الأعشى لابن الأشعث:

فإذا جعلت دُرُوبَ فارس خَلْفَهُمْ دَرْباً فَدَرْبَا
فابعثْ عطيةَ في الخيول يكُبّهُنّ عليه كبَّا

فلما دخل فارس اجتمع الناس إلى عبد الرحمن.. فخلعوا عبد الملك بن مروان، وبايعوه.. وكان أول الناس خلع عبد الملك بن مروان ـ الصحابي ـ تيحان بن أبجر.. ووثب مع الناس إلى ابن الأشعث فبايعوه ـ بالخلافة ـ وكانت بيعته: تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه وعلى خلع أئمة الضلالة وجهاد المُحلين، فإذا قالوا: نعم، بايع». وقال المؤرخ البجاوي: «كان عبد الرحمن من القادة الشجعان الدهاة، وقد تم له مُلك فارس وكرمان وسجستان»(١) فلما بويع بالخلافة ـ وكما ذكر د. ناجي محسن ـ « سَمَى ابن الأشعث نفسه ناصر المؤمنين»(٢) وكان ذلك في حوالى شهر رجب ٨١هـ، فانضوى إقليم فارس في طاعة وسلطة ناصر المؤمنين عبد الرحمن بن الأشعث، ثم أعلن إقليم الري والجبال ـ الممتد إلى بحر قزوين ـ الانضواء تحت لواء ابن الأشعث وبايعوه بالخلافة، فاستعمل على إقليم الريّ والجبال بسطام بن مصقلة الشيباني، وجعل الناس يتدفقون إلى ابن الأشعث من أرجاء المشرق.

وأخذ عبد الملك بن مروان يبعث الإمدادات من الشام إلى الحجاج الثقفي وجيشه بالبصرة، قال الطبري: «وأقام الحجاج بالبصرة وتجهز ليلقى ابن الأشعث، وفرسان أهل الشام يسقطون إلى الحجاج في كل يوم من قِبَل عبد الملك بن مروان». قال ابن كثير «وجعل الناس يلتفون على ابن الأشعث من كل جانب، حتى قيل أنه سار معه ـ إلى البصرة ـ ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل»(٣). وقال ابن خلدون: «سار ابن الأشعث إلى العراق بجموعه، وأعشى همدان بين يديه ترتجز بمدحه وذم الحجاج» فكان مما قاله أعشى همدان في ذلك المسير:

.. إنّا سَمَونا للكفور الفَتّانْ بالسيد الغطريف عبد الرحمنْ
سار بجَمْعٍ كالدَّبَى مِنْ قحطانْ ومِنْ مَعَدٍّ جاء ابنُ عدنانْ
فَقُلْ لحجاجٍ وليّ الشيطانْ يثبتْ لجمع مَذْحجٍ وهَمْدَانْ
فإنهم ساقوه كاس الذيفانْ ومُلحِقُوهُ بِقُرَى ابن مروانْ

---

(١) أيام العرب في الإسلام ـ البجاوي ـ ص٤٧٥.
(٢) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي محسن ـ ص١٤٧.
(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٩ ص٣٧.

وكان من معالم وأحداث الفترة التي تلت ذلك من ثورة وعهد ناصر المؤمنين عبد الرحمن بن الأشعث الكندي المعالم التالية:

التقى جيش ابن الأشعث وجيش الحجاج في معركتين إحداهُما في (تُستر) بالأهواز فانهزم الحجاج وانسحب إلى البصرة، والمعركة الثانية في ضواحي البصرة فانهزم الحجاج وجيشه، وتمكن مِنْ الهروب مع فلول جيشه من البصرة، فدخلها عبد الرحمن بن الأشعث في يوم عيد الأضحى من ذي الحجة ٨١هـ. قال الطبري: «. . لما دخل عبد الرحمن البصرة بايعه جميعُ أهلها من قُرائها وكهولها. .» وقال ابن خلدون: «دخل عبد الرحمن البصرة فبايعه أهلها وسائر نواحيها». وكانت نواحي ولاية البصرة تشمل مناطق واسعة من العراق إلى الأهواز ـ شرقاً ـ وإلى بادية السماوة وشرق شمال الجزيرة العربية ـ غرباً ـ وإلى البحرين بمدلولها الواسع القديم الذي يشمل منطقة الخليج العربي إلى تخوم عُمان ـ جنوباً ـ (وكان من أزد عُمان مِن الجهاضم الصحابي عقبة بن عبد الغافر فأتى وبايع عبد الرحمن)، كما أتى رجالُ من المدينة ومكة واليمن فبايعوه بالخلافة، قال ابن كثير «وكان ممن قدم عليه عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب بن هاشم»[96] وقال ابن خلدون «لما وصل عبد الرحمن بن الأشعث الكوفة، لقيّه أهل الكوفة، وحَفَّت به همدان، وجاء إلى القصر ـ قصر الإمارة ـ فمنعه مطر بن ناجية فصعد الناس القصر وأخذوه، فحبسه عبد الرحمن ومَلَك الكوفة». وقال الطبري: «. . خرج أهل الكوفة ويستقبلون ابن الأشعث حين أقبل فاستقبلوه بعد ما جاز قنطرة زبارا. . فلما دخل الكوفة مال إليه أهل الكوفة كلهم وسبقت هَمْدَانُ إليه فحَفَّت به. . وسار الناس إليه ـ في قصر الإمارة ـ فبايعوه، وتقوضت إليه المسالح والثغور» ـ يعني مسالح وثغور ولاية الكوفة ـ وقال ابن كثير: «دخل ابن الأشعث الكوفة فبايعه أهلها. . وكثر متابعوا ابن الأشعث. . واتسع الخُرقُ على الراقع»[1] وكان دخوله الكوفة في ربيع الأول ٨٢هـ ثم: تقوضت إليه مسالح وثغور ولاية الكوفة، وكثر متابعوه. . واتسع الخُرق على الراقع، وذلك لأن زهاء نصف البلاد العربية والإسلامية انضوت تحت لواء ناصر المؤمنين عبد الرحمن بن الأشعث الكندي وبايعه بالخلافة بقية الصحابة وعلماء التابعين ومشاهير القادة والشخصيات من سجستان وثغور بلاد السند ـ باكستان ـ شرقاً وحتى الكوفة والبصرة والبحرين غرباً، والكثير من أعلام الشخصيات في مكة والمدينة المنورة واليمانيين الذين قال

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٩ ص٣٧.

الدكتور فلهوزن: «أن اليمنيين كانوا مُمثلين في هذه الثورة تمثيلاً ضخماً لأنهم نظروا إلى ابن الأشعث على أنه رَجُلهم الخاص». وقد استدل الدارسون على ذلك بقصائد أعشى همدان الذي قال د. يوسف خليفة أنه «لم يكن إلا ممثلاً لشعور اليمانية..» وقال: «أن نفس أعشى همدان كانت تسيطر عليها نزعة عميقة آثارها فيه شعوره بمجد اليمن القديم، وبأن زعيمه سليل ملوك اليمن القدماء، وأنه يعمل لإعادة ذلك المجد..» فقد وقف أعشى همدان بين يدي عبد الرحمن بن الأشعث الكندي - في قصر الولاية بالكوفة - وقال:

يأبَى الإلهُ، وعزُّ دينِ مُحَمدٍ، ... وجُذورُ مُلْكٍ قَبلَ آلِ ثَمُودِ
أن تُنسبوا كمُذَمِّينَ عُرُوقُهم ... في الناس إن نُسِبُوا عُرُوق عَبِيدِ[١]
كَمْ مِنْ أبٍ لَكَ كان يَعْقِدُ تاجه ... بجَبينِ أبْلجَ، مِقْولٍ صِنديد
ما قَصّرتْ بك أن تنال ذُري العلا ... آباءُ مَكْرُمةٍ، وإرْثُ جُدُودِ
وإذا سألْتَ المجد أين مَحَلهُ؟ ... فالمَجْدُ بين مُحَمدٍ وسَعِيدِ
بين الأشَجّ وبين قَيْسٍ بَاذخ، ... بَخ بَخ، لوالده وللمولودِ[٢]
قِرْمٌ إذا سامَى القُرومَ ترى له ... أعراق مَجْدٍ، طارفٍ وتَلِيدِ
وإذَا دَعَا لعظيمة حشدتْ لَهُ ... همدانُ تحت لوائه المعقود[٣]
يَمْشُون في حِلَقِ الحديد كأنّهُمْ ... أُسدُ الأدباء سَمِعنّ زار أُسُودِ
وإذا دعا في آل كندة أجْفَلوا ... بكُهُولِ صِدقٍ سيدٍ ومَسُود
وشبابُ مأسدة كأنّ سُيوفُهم ... في كُلِ ملحمةٍ بروق رعودِ

وقد جاءت قصيدة أعشى همدان تلك في أعقاب قيام الموالين لبني مروان بنشر مقولة أن أمر الخلافة يجب أن يكون في قريش وأن بني مروان من قريش بينما عبد الرحمن بن الأشعث كنديٌ من اليمن فلا يجوز أن يكون خليفة، فقال أعشى همدان هذه القصيدة لتبيين أن الله عزّ وجلّ ودين محمد ﷺ يأبى ذلك القول، وأن ابن الأشعث سليل كهلان بن سبأ الذين ملكوا منذ ما قبل زمن ثمود فقد كان ملوك

---

(١) جاء صدر البيت في كتاب الأغاني (أن تأنسوا كمذمعين عروقهم) ويدل عجز البيت على أن الأصوب (أن تنسبوا كمذممين عروقهم) وكذلك جاء في صدر البيت الأول (وعزة بن محمد) والصواب (وعز دين محمد) أي دين الإسلام.
(٢) الأشج: لقب الأشعث. وقوله: (بخ بخ): أي هنيئاً هنيئاً.
(٣) همدان: حاشد وبكيل. وكان أعشى همدان من بني (زيد بن حرب بن قيس بن عامر بن مالك بن جشم بن حاشد).

سبأ وحمير بن سبأ وكهلان بن سبأ يحكمون اليمن وجزيرة العرب على امتداد آلاف السنين وكان أسلاف عبد الرحمن بن الأشعث من الملوك الكنديين يحكمون نجد والحجاز مئات السنين قبل الإسلام بينما نسب بني مروان نسبُ مُذمَمُ بين الناس وعروقهم عروق عبيد، فكيف تجوز الخلافة فيهم ولا تجوز في ابن الأشعث الذي الكثير من آبائه وأجداده: (كان يعقد تاجه بجبين أبلج، مقولٍ، صنديد). . وقد كان ذلك أيضاً سبب ما ذكره الطبري عن محمد بن السائب الكلبي: «إن الناس لما اجتمعوا بدير الجماجم ـ في الكوفة ـ قال عبد الرحمن: ألا أنّ بني مروان يعيّرون بالزرقاء والله ما لهم نسبُ أصحُ منه. . فإن يكن هذا الأمر في قريش فعني فُقئت بيضة قريش، وإن كان في العرب فأنا ابن الأشعث بن قيس». وكذلك فقد أراد أعشى همدان استمالة جند الشام الذين كان غالبيتهم العظمى من اليمانية بإثارة شعورهم بمجد اليمن القديم وبأن ابن الأشعث سليل ملوك سبأ وكندة سيعود بمبايعته ذلك المجد، فلم يكن في قصائد أعشى همدان نزعة تعصب يمانية قحطانية، ويؤكد ذلك قوله أن عبد الرحمن بن الأشعث:

سار بجمع كالدَبَى مِنْ قحطان ومِنْ مَعَدّ جاء ابن عدنان

وفي أواخر سنة ٨٢هـ اندلعت موقعة دير الجماجم بين عبد الرحمن بن الأشعث وجيشه من قحطان وعدنان ـ من جهة ـ وبين جيش عبد الملك بن مروان الذي كانت غالبيته العظمى من يمانية الشام ومصر ـ من جهة أخرى ـ وأسفرت المعركة عن انتصار جيش الشام وانهزام جيش ابن الأشعث بعد ملاحم عظيمة، وتواصلت المعارك بعد ذلك في الكوفة ثم البصرة ثم بلاد فارس وكرمان وخراسان وسجستان طيلة سنة ٨٣هـ، وقد كشفت ـ وتكشف ـ وقائع دير الجماجم وتلك المعارك ضخامة عدد الذين بايعوا ابن الأشعث بالخلافة وأن جيشه كان قد وصل إلى زهاء مائتي ألف مقاتل وأنهم قاتلوا قتالاً باسلاً مِنَ دير الجماجم ـ بين الكوفة والشام ـ وحتى خراسان ـ في أفغانستان ـ وسجستان ـ في تخوم الهند ـ ولم يحدث مثل ذلك لا في أيام موقعة الجمل وموقعة صِفّين ولا في حركة الحسين بن علي بن أبي طالب التي قادها ضد يزيد بن معاوية وأدت إلى مقتله في موقعة كربلاء ـ سنة ٦٢هـ ـ ولا في أيام عبد الله بن الزبير الذي تم القضاء على عهده بمعركة بسيطة في مكة ـ سنة ٧٣هـ ـ بينما عبد الرحمن بن الأشعث بايعه بالخلافة وقاتل تحت لوائه مئات الآلاف على امتداد زهاء نصف البلاد العربية والإسلامية، وبالرغم من أن ثورته لم تصل إلى هدفها النهائي وانتهت على يد جيش الشام ـ سنة ٨٣هـ ـ فلجأ ابن الأشعث إلى ما يلي سجستان من بلاد رُتبيل ومات بها سنة ٨٥هـ

فإن وقائع تلك المعارك ونهاية ثورة وعهد ابن الأشعث قد كشفت ـ وتكشف ـ أمراً بالغ الأهمية وهو أن بقية الصحابة وأبناء الصحابة وعلماء التابعين الذين هُمْ عمدة الفقه والسنة النبوية وأئمة العلوم والفكر بايعوا عبد الرحمن بن الأشعث بإمارة المؤمنين، وقد أثار ذلك انتباه الحافظ ابن كثير فقال: «وعبد الرحمن هذا هو أبو محمد بن الأشعث بن قيس.. والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة وليس من قريش وإنما هو كندي من اليمن.. وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش واحتج عليهم الصديق بالحديث في ذلك.. فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صلبية قريش ويبايعون لرجل كندي بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد؟»[١].

والواقع أن اتفاق أهل الحل والعقد في الأمة لم يتحقق في أحوال كثيرة، فأهل الحل والعقد في الشام ومصر لم يبايعوا الإمام عليّ بن أبي طالب ولم يبايعه العديد من الصحابة الذين اعتزلوا في المدينة والبصرة وغيرها بينما هو خليفة المسلمين ورابع الخلفاء الراشدين، وكذلك لم يبايع عبد الله بن الزبير إلا طائفة من الناس، بل أن عبد الملك بن مروان بويع بالشام ومصر ولم يبايعه أهل الحل والعقد في المدينة ومكة والجزيرة العربية والعراق ومشارقها، ولم يدخلوا في طاعته إلا بعد حروب هلك فيها خلق كثير. ثم إن التساؤل ليس عن الذين لم يبايعوا عبد الرحمن بن الأشعث وإنما عن الذين بايعوه بإمارة المؤمنين وليس من قريش وإنما هو كندي من اليمن، فذلك من الدلائل الهامة على أن مبايعة أبي بكر الصديق إنما كان لمكانته بين الصحابة، وأن الخلافة لا يشترط فيها النسب العلوي أو القرشي وقد وردت في ذلك أحاديث وأقوالُ مأثورة، ويعززها معرفة الذين بايعوا عبد الرحمن بن الأشعث بالخلافة، فقد ذكر ابن كثير من الصحابة الذين بايعوا عبد الرحمن بن الأشعث الصحابي الكبير أنس بن مالك الأنصاري[١] وذكر الطبري أن أول من بايع ابن الأشعث الصحابي تيحان بن أبجر، وأن ممن بايعه عقبة بن عبد الغافر الأزدي وكان له صحبة. وذكر الحافظ ابن كثير من أبناء الصحابة وعلماء التابعين الذين بايعوا عبد الرحمن بن الأشعث وكانوا من كبار قادته وأصحابه: «محمد بن سعد بن أبي وقاص.. وعبد الرحمن بن العباس.. وعبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة بن عبد المطلب بن هاشم.. وأبو عبيدة بن

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٩ ص٥٣ و٥٤ و٩١.

عبد الله بن مسعود.. وكميل بن زياد النخعي.. وجبلة بن زحر الجعفي.. ومسلم بن يسار.. وأبو مرانة العجلي.. وعقبة بن وشاح.. وعبد الله بن خالد الجهضمي، وأبو الجوزاء الربعي، والنظر بن أنس بن مالك، وعمران والد أبي حمزة الضبعي، وأبو المنهال سيار بن سلامة الرياحي، ومالك بن دينار، ومرة بن ذباب الهدادي، وأبو نجيد الجهضمي، وأبو سبيج الهنائي الأزدي، وسعيد بن أبي الحسن، وأخوه الحسن البصري، وعمران بن عصام الضبعي، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وسعد بن إياس الشيباني، وسعيد بن جُبير، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الله بن شداد، والإمام الشعبي، والمعرور بن سويد، وطلحة بن مصرف، وأبو البختري الطائي، وزبيد بن الحارث، وعطاء بن السائب.. وغيرهم من السادات الأخيار والعلماء الأبرار»[١].

وقد مات ناصر المؤمنين عبد الرحمن بن الأشعث الكندي في بلاد الرُّحج بسجستان عام ٨٥هـ وما لبث أن مات الخليفة عبد الملك بن مروان في شوال ٨٦ هجرية.. فعليهم جميعاً رحمة الله تعالى.

* * *

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٩ ص٥٣ و٥٤ و٩١.

٣٦

سَيِّدُ الفوارس . . أبو موسى الأشعري

ـ أمير ولاية البصرة وفاتح بلاد فارس ـ

مِنْ أوائل السابقين إلى الإسلام وكبار الصحابة وأعلام الأمراء وعظماء الفاتحين هو أبو موسى عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن غَنْم بن بكر بن عامر بن عذب بن وائل بن ناجية بن جماهر بن الأشعر الأشعري[(١)] أمير البصرة ومؤسس عصرها العربي الإسلامي وفاتح بلاد فارس.

قال عنه رسول الله ﷺ: «**سيدُ الفوارس، أبو موسى**»[(٢)].

وقال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «كان أبو موسى هو الذي فَقَّه أهل البصرة وأقرأهم ـ القرآن ـ وقال الشعبيّ: انتهى العلم إلى ستة منهم أبو موسى الأشعري، وذكره البخاري من طريق الشعبي بلفظ العلماء.

وقال ابن المديني: قضاة الأمة أربعة: عمر، وعليّ، وأبو موسى، وزيد بن ثابت.

وأخرج البخاري من طريق أبي التياح عن الحسن البصري قال: ما أتى البصرة راكبٌ خيرٌ لأهلها من أبي موسى»[(٣)].

* * *

لقد وُلِد أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري في منطقة قبيلة الأشاعر في وادي زَبِيد بمنطقة تهامة، وذلك قبل الهجرة النبوية بنحو عشرين سنة[(٤)] وكان والد أبي موسى ـ وهو قيس بن سُليم بن حضار الأشعري ـ من أعيان ووجهاء قبيلة الأشاعر، أما والدة

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٥٩ ـ والإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٣٥٩.
(٢) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٦.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ جـ٢ ص٣٥٩ و٣٦٠.
(٤) قدرنا زمن مولد أبي موسى استناداً إلى ما جاء في الإصابة والاستيعاب بأنه مات سنة ٤٤ هجرية وهو ابن ٦٣ سنة.

أبي موسى فهي السيدة ظبية بنت وهب من قبيلة عك[(١)] وكانت قبيلتا الأشاعر وعك تسكنان منطقة تهامة باليمن منذ عصور دولة سبأ والدولة الحميرية.

والأشعرُ جد قبيلة الأشاعر هو: نَبْت الأشعر بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن النبيّ هود عليه السلام[(٢)]. وقال القرطبي: «وقيل هو من ولد الأشعر بن سبأ أخي حِمْيَر بن سبأ»[(٣)] وقد جاء في كتاب الإكليل للهمداني: أن الأشعر اسمه نَبْت بن أدد، ولُقِب بالأشعر لأنه وُلِد وكله شعر[(٢)] وقيل: لأنهُ ولد أشعر الجسم[(٤)]. ولكن نقوش المسند اليمنية القديمة يتبين منها أن زعماء وأقيال اليمن في عصور دولة سبأ وحمير كانوا يحملون أسماء تتكون من اسم ونعت، ومثال ذلك اسم الملك (شعرام أوتر بن علهان نهفان ملك سبأ بن يارم أيمن) واسم الملك الحميري (شمر يُرعش بن ياسر ينعم) وكذلك هو اسم (نَبْت الأشعر) جد قبيلة الأشاعر، وكانت من الأقيال الزعماء في عصور دولة سبأ، فتناسلت من سلالته قبيلة الأشاعر.

قال القاضي المؤرخ محمد بن علي الأكوع: الأشاعر قبيلة يمنية قوية الشوكة والشكيمة مرهوبة الجانب، ومنازلها ما بين سيف البحر (أي ساحل البحر الأحمر) غرباً إلى حزاز الجبال شرقاً، وفيما بين شمير (بناحية مقبنة) جنوباً إلى بيت الفقيه شمالاً. ومِنْ مُدنهم: زَبِيد وحيس وبيت الفقيه. وموانيهم: غُلافقة والخوخة. وقبائلهم: الجماهر، والرَكْب، والمعازبة، والقراشية، (والزرانيق)[(٤)] ولعل الأصوب أن الزرانيق من الأزد، أزد شنؤة. وأن عشائر قبيلة الأشاعر هُمْ: الجماهر، والرَكْب، والمعازبة، والقراشية. وقد جاء اسم (الرَكْبْ) في نقوش المسند الحميرية بأنّ (الركب) اسم مدينة عاصمة في منطقة تهامة بالقرب من ساحل البحر الأحمر وأن المنطقة تسكنها قبيلة (الأشاعر) فكانت مدينة (الركب) عاصمة منطقة قبيلة الأشاعر[(٥)] مما يدل على أنها سُميت باسم (الرَكْب بن الأشاعر) وأما

---

(١) جاء في الإصابة أن أم أبي موسى (طفية بنت وهب بن عك) ثم قال: (ظبية بنت وهب من بني عك) وهو الصواب.

(٢) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ جـ١٠ ص٣٠.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ جـ٢ ص٣٧٣.

(٤) المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ـ لنجم الدين عمارة اليمني ـ تحقيق القاضي محمد الأكوع ـ ص٤٤ ـ ٤٥.

(٥) جاء ذكر (الركب) وقبيلة (الأشاعر) في النقش المسند الحميري رقم ١٠٢٨ جام ـ للقيل شرحئيل بن ذي يزن ـ وفي نقش للملك سميفع أشوع الحميري بموقع (شعب ينبق) مؤرخ بالموافق لعام ٥١٠م وذلك قبل البعثة النبوية بمائة سنة.

(جماهر بن الأشاعر) فَهُم رهط أبي موسى الأشعري لأنه: عبد الله بن قيس بن سُليم بن حضار بن حرب بن عامر بن غَنْم بن بكر بن عامر بن عذب بن وائل بن ناجية بن جماهر الأشعري. وأما قبيلة عك ـ أخوال أبي موسى ـ فَهُم مِنْ الأزد، وكانت منازل عك: (ما بين البحر الأحمر غرباً إلى الجبال شرقاً، ومِنْ مدنهم قديماً: المهجم والكدراء. وحديثاً: المراوعة، وباجل، والزيدية، والزُهرة، واللُّحَيَة. ومِنْ عشائر وبطون قبيلة عك: ذؤال، وفشال، ولعسان، واللامية، والقحرة، والواعظات، وصليل، وغافق)[١] فمناطق الأشاعر وعك هي في محافظة الحديدة بتهامة اليمن حالياً، وكانت تخالط قبيلة الأشاعر في تهامة قبيلة حيس بن ذي رُعين الحميرية وهُم (بنو حيس بن يريم ذي رعين) قال الهمداني في الإكليل (فأولد حيسُ: شيبان، وكُبران، فأولد شيبان: زيداً، فأولد زيد: الأقطون، وعيدان، وغيدان. بطون كلها. وأولد كبران: حرساً، ووهباً، وعذرة. بطون كلها)[٢] وباسم حيس بن ذي رعين سميت منطقة حيس بتهامة، وكذلك كانت تسكن في بلاد المعافر ـ بمحافظة تعز حالياً ـ قبيلة كبيرة من ذي رُعين وهي قبيلة ذُبحان، وهو (ذُبحان بن دوم بن بكثيل ـ مهموز ـ بن منبه بن حجير بن قاول بن زيد بن ناعتة بن شُرحبيل بن الحارث بن يريم ذي رُعين) وباسم ذبحان سميت منطقة ذبحان في بلاد المعافر، فكانت قبيلة حيس وقبيلة ذبحان ناقلة من مخلاف ذي رُعين ـ بلواءاب ـ وقد أتاح ذلك انبساط سلطان الملوك الأذواء من آل ذي رعين على بلاد المعافر وتهامة، فكان (فهد بن النعمان بن فهد بن عبد كلال ذي رعين) زعيماً قيلاً يحكم المعافر وتهامة في الجاهلية، قال الهمداني: «كان فهد قيلاً بالمعافر، وكان يجبي من بلد الحبش: زيلع وبربرة»[٢] وذلك أن سلطان فهد بن ذي رعين كان يشمل المعافر وتهامة إلى ساحل البحر الأحمر، ويمتد بحراً إلى زيلع وجزيرة بربرة في ساحل الحبشة قبالة باب المندب، وفيه قال أعشى قيس الجاهلي:

ونادمتُ فهداً بالمعافر حقبةً ... وفهدُ سَماحُ لم تَشِبْهُ المواعدُ
ووالده النعمان مِنْ حَفَدَاتِه ... رعينُ، وهُمْ قومُ ملوكُ أماجدُ

ويدل ذلك على أن منطقة تهامة وقبيلة الأشاعر كانت مشمولة بسلطان الملوك الأذواء الحميريين من آل ذي رُعين، وكان فهد بن ذي رعين هو القيلُ الملكُ على

---

(١) المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ـ لنجم الدين عمارة اليمني ـ تحقيق القاضي محمد الأكوع ـ ص٤٤ ـ ٤٥.

(٢) الإكليل ـ جـ٢ ص٣٦٠ ـ ٣٦٣.

المعافر وتهامة في الجاهلية وحتى ظهور الإسلام، وكانت سلطته تمتد إلى بربرة وزيلع في ساحل الحبشة، وقد كان والد أبي موسى الأشعري ـ قيس بن سُليم ـ تاجراً يمتد نشاطه التجاري إلى ساحل الحبشة وإلى مكة عن طريق البحر، وكانت له سفينة كبيرة تجوب الساحلين العربي والحبشي للبحر الأحمر، وربما كان ذلك النشاط التجاري سبب مسير أبي موسى إلى مكة بعد البعثة النبوية بأمد يسير.

* * *

أبو موسى في موكب رسول الله ﷺ

لقد كان أبو موسى الأشعري من أوائل السابقين إلى الإسلام، قال الأستاذ خالد محمد خالد: ـ

«غادر أبو موسى اليمن بلدة ووطنه إلى مكة فَوْرَ سماعه برسول ظهر هناك يهتفُ بالتوحيد، ويدعو إلى الله على بصيرة، ويأمرُ بمكارم الأخلاق.

وفي مكة، جلس بين يدي رسول الله وتَلَقَىٰ عنه الهُدى واليقين.

وعاد إلى بلاده يحمل كلمة الله»[١].

ويتبين مما ذكرته تراجم الصحابة أن أبا موسى قَدِم إلى رسول الله ﷺ بمكة نحو ثلاث مرات، وذلك ما بين السنة الرابعة والسنة الثامنة للبعثة النبوية، فقد ذكر ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ما يلي: «أن أبا موسى قدم مكة فحالف سعيد بن العاصي بن أمية أبا أحيحة، وكان قدومه مع أخوته في جماعة من الأشعريين فأسلم وهاجر إلى أرض الحبشة.. وقالت طائفةُ من أهل العلم: أن أبا موسى لما قدم مكة وحالف سعيد بن العاص انصرف إلى بلاد قومه ولم يهاجر إلى أرض الحبشة.. وقال ابن إسحاق: أن أبا موسى لما قدم مكة حالف آل عتبة بن ربيعة، وذكره فيمن هاجر من حلفاء بني عبد شمس إلى أرض الحبشة. قال أبو عمر: والصحيح أن أبا موسى رجع بعد قدومه مكة ومحالفته مَنْ حالف من بني عبد شمس إلى بلاد قومه»[٢].

فهذا الاختلاف بين الروايات يعود إلى قدومه إلى مكة نحو ثلاث مرات: ـ

المرة الأولى: كان قدوم أبي موسى ـ في نحو السنة الرابعة من البعثة النبوية ـ وذلك مع عمه وهو أبو عامر عُبيد بن سليم الأشعري الذي كان يسير إلى مكة للتجارة غالباً، فالتقى أبو موسى برسول الله ﷺ فأسلم وآمن برسالته وصَدّقه، هو

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٤.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ القرطبي ـ ص٣٧١.

وعمه أبو عامر، وكان أبو موسى آنذاك ـ ابن خمس عشرة سنة، وقد كان مَنْ يُقيم بمكة للتجارة أو غيرها يُحالف أحد شخصيات وبيوت مكة الكبيرة لتتوفر له بذلك الحماية، فحالف أبو موسى ـ مع عمه أبي عامر غالباً ـ آل عتبة بن ربيعة. ثم عاد إلى منطقته باليمن.

المرة الثانية: ثم قدم أبو موسى إلى مكة مع أخويه ـ أبو بردة وأبو رهم ـ في جماعة من الأشعريين، فحالف سعيد بن العاصي ومكث فترة بمكة، وكان بيت سعيد بن العاصي مِنْ البيوت التي دخلها الإسلام بمكة، فقد كان خالد بن سعيد بن العاصي من السابقين إلى الإسلام هو وزوجته اليمانية (أمينة بنت خلف بن أسعد الخزاعي) وكذلك أبان بن سعيد بن العاصي، فكان أبو موسى الأشعري يجلس بين يدي رسول الله ﷺ ويتلقى منه الهدى واليقين، وكذلك كان أبو عامر عُبيد بن سُليم عم أبي موسى.

وقد تزامن ذلك مع اشتداد إيذاء قريش للذين أسلموا في مكة، فأشار عليهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة قائلاً: (أنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحدُ وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً). فهاجرت جماعة من المسلمين إلى الحبشة وذلك في رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية، وكان منهم جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس الخثعمية اليمانية وخالد بن سعيد بن العاصي وامرأته أمينة بنت خلف الخزاعية اليمانية، وأبان بن سعيد بن العاصي، كما كان منهم عدد من اليمانيين المقيمين بمكة، وهم: المقداد بن عمرو، وشرحبيل بن حسنة الكندي، ومُعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي، ومُعَتِّب بن عوف الخزاعي، وسعد بن خولة، ومحمئة بن جَزءَ الزبيدي[١]. وسار معهم إلى الحبشة أبو عامر الأشعري وأبو موسى الأشعري، قال العسقلاني في ترجمة أبي عامر الأشعري «ذكره ابن قتيبة فيمن هاجر إلى الحبشة، فَكَأَنَّهُ قدم قديماً فأسلم»[٢]. وأما أبو موسى فقد ذكر القرطبي عن الإمام الواقدي إنه (.. هاجر إلى أرض الحبشة) وكذلك ذكره ابن إسحاق (فيمن هاجر من حلفاء بني عبد شمس إلى الحبشة)، ولكن مسير أبي موسى معهم إلى الحبشة ربما كان لأن أبا موسى وأخوته كانت لهم سفينة ينقلون بها التجارة وغير ذلك بين ساحل اليمن وساحل الحبشة وساحل مكة، وستأتي النصوص الدالةُ على سفينتهم، ولم يمكث أبو موسى مع المهاجرين في الحبشة وإنما عاد إلى منطقته بساحل زَبيد في اليمن.

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ١ ص٣٥٠.
(٢) الإصابة ـ ترجمة أبي عامر الأشعري ـ جـ٤ ص١٢٤.

المرة الثالثة: ثم سار أبو موسى إلى مكة، والتقى برسول الله ﷺ، وعاد مباشرة إلى منطقتة باليمن حاملاً كلمة الله وداعياً إلى دين التوحيد الحنيف في قبيلة الأشاعر، وكانت الديانة الرئيسية والسائدة في الأشاعر وفي سائر المناطق الحميرية والتي يحكمها الملوك الأذواء من آل عبد كلال بن ذي رُعين هي الديانة المسيحية التي انتشرت في قبائل ومناطق حمير منذ عهد الملك عبد كلال ذي رُعين الحميري الذي ذكره نشوان بن سعيد الحميري في قصيدته عن ملوك الدولة الحميرية قائلاً:

أم أين عبد كُلالٍ الماضي على ... دين المسيح الطاهر المَسَّاح

وقد أخذ الإسلام ينتشر في قبيلة الأشاعر على يد أبي موسى الأشعري وأبي عامر الأشعري كما كان ينتشر في قبيلة دوس وأعالي تهامة اليمن ومنطقة السّراة على يد الطفيل بن عمرو الدوسي وأبي هريرة الدوسي، وفي مذحج على يد فروة بن مُسيك المرادي، وفي همدان على يد قيس بن مالك الأرحبي ومالك بن نمط الأرحبي، وكانوا يُتابعون أنباء رسول الله ﷺ منذ هجرته إلى يثرب ـ المدينة المنورة ـ ومسار الحرب والصراع بين رسول الله والذين معه من المسلمين في المدينة وبين قريش ومَنْ إليهم من الكفار في مكة، وقد كانت قريش وقبيلة هوازن وثقيف التي تسكن ما بين الطائف ومكة يقطعون الطريق فيقتلون أو ينهبون الذين يمرُّون من أهل اليمن المسلمين قاصدين المدينة عبر طريق الطائف ومكة، لذلك فإن الطريق إلى المدينة لم تكن آمنة إلى أن وقع صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش في ذي القعدة سنة ٦ هجرية، فلما علم أبو موسى والأشعريون بنبأ صلح الحديبية والمهادنة عقدوا العزم على الهجرة إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، وفي ذلك قال محمود أبو ريّه أنه: «تكلم ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عن سبب تأخر الأشعريين في القدوم إلى النبي ﷺ بأنهم: علموا ما كان المسلمون فيه من المحاربة مع الكفار فلما بلغتهم المهادنة، أمِنوا وطلبوا الوصول إليه»[1] والمقصود بالمهادنة صلح الحديبية الذي أدى إلى تأمين الطرق لِمَنْ يُريد اللحاق برسول الله ﷺ في المدينة من المسلمين، ولقد كان ذلك أمر بالغ الأهمية للذين يريدون الهجرة من أهل اليمن المؤمنين، ومنهم الأشعريون ودوس وكَلْب وغيرهم، وكان رسول الله ﷺ يتوقع قدوم مواكبهم بعد صلح الحديبية، فبعد عودته من الحديبية إلى المدينة ـ في ذي الحجة ٦هـ ـ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**يطلع عليكم أهل اليمن كأنهم السحاب هُمْ خير أهل الأرض ـ أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار**

(١) فتح الباري ـ جـ٧ ص٣٩.

والطبراني ـ» فانطلقت مواكب دوس وغيرها من اليمن عن طريق البر إلى المدينة المنورة بينما انطلق أبو موسى الأشعري والمهاجرون معه من قبيلة الأشاعر عن طريق البحر في سفينة أبي موسى وأخوته من ساحل اليمن إلى الحبشة ثم إلى المدينة المنورة.

* * *

لقد كان أبو موسى الأشعري يعلم بأمر المهاجرين المقيمين في أرض النجاشي بالحبشة، وربما كان على اتصال بهم، فلما وقع صلح الحديبية، وعلم أبو موسى بالصلح والمهادنة عقد العزم على الهجرة إلى النبي ﷺ بالمدينة المنورة وأخبر أسرته وقبيلته إذا كان منهم مَنْ يرغبُ في الهجرة، فَرَغَبَتْ في الهجرة والدته ظبية بنت وهب العكية وأخوته أبو بردة وأبو رهم وثلاثة وخمسون من رجالات الأشاعر، فتهيأوا لذلك، ثم ركبوا على السفينة ـ باسم الله ـ وساروا إلى أرض النجاشي بالحبشة حيث كان جعفر بن أبي طالب والذين معه وفيهم محمئة بن جزء الزبيدي وشرحبيل الكندي وغيرهم من المهاجرين بالحبشة وربما كان منهم أبو عامر الأشعري، فالتقى بهم أبو موسى والذين معه، ثم مضوا جميعاً بسفينة أبي موسى والأشعريين إلى المدينة المنورة.

وفي ذلك جاء في ترجمة أبي موسى بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة إنه: روى البخاري أن أبا موسى قال: ـ

«خرجنا من اليمن مهاجرين إلى النبي ﷺ أنا وأخوان لي، أنا أصغرهم، في ثلاثة وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة فألقتنا إلى النجاشي بالحبشة ـ [وفي طبقات ابن سمرة: فبلّغتنا السفينة إلى النجاشي بالحبشة] ـ فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا النبي ﷺ وقد افتتح خيبر».

وجاء في ترجمة أبي بُردة بن قيس الأشعري عن طريق يزيد بن عبد الله بن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه عن جده أبي موسى قال:

«خرجنا من اليمن في بضع وخمسين رجلاً من قومنا، ونحن ثلاثة أخوة ـ أبو موسى وأبو بُردَة وأبو رُهْم ـ فأخرجتنا سفينتنا إلى النجاشي. الحديث»[(١)].

وجاء في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب من طريق آخر عن أبي موسى الأشعري قال:

«خرجنا من اليمن في بضع وخمسين رجلاً من قومنا ـ إما قال اثنين وخمسين

---

(١) الإصابة ـ ترجمة أبي بردة الأشعري ـ جـ٤ ص١٨.

وثلاثة وخمسين ـ ونحن ثلاثة أخوة: أبو موسى وأبو بُردَة وأبو رُهْم، فأخرجتنا سفينتنا إلى النجاشي بأرض الحبشة وعنده جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فأقبلنا جميعاً في سفينتنا إلى النبي ﷺ حين افتتح خيبر»(١).

وجاء في رواية أخيرة بكتاب الاستيعاب إنه: «قدم أبو موسى مع الأشعريين في سفينة، فألْقَتْهُم الريح إلى النجاشي بأرض الحبشة، فوافقوا خروج جعفر وأصحابه منها، فأتوا معهم، وقدمت السفينتان معاً؛ سفينة الأشعريين وسفينة جعفر وأصحابه على النبي ﷺ حين افتتح خيبر»(١).

ولم يكن مسير سفينة أبي موسى إلى أرض النجاشي بساحل الحبشة عن طريق المصادفة وإنما كان ذلك مقصوداً، ويدل على ذلك قوله (فأبلغتنا السفينة) وقوله: (فأخرجتنا سفينتنا) فالتقوا بجعفر بن أبي طالب وأصحابه وهم ما يزالون بأرض النجاشي، وتدل على ذلك رواية البخاري لحديث أبي موسى بلفظ «فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً» وكذلك الحديث الثاني «فأخرجتنا سفينتنا إلى أرض النجاشي بالحبشة وعنده جعفر بن أبي طالب وأصحابه»، فذلك يتيح إدراك أن أبا موسى والذين معه أبلغوا جعفراً والذين معه بصلح الحديبية والمهادنة وأقاموا معهم إلى أن تهيأوا للسفر، ثم انطلقوا جميعاً إلى ساحل المدينة المنورة إما بسفينة أبي موسى وأخوته كما جاء في قوله: «فأقبلنا جميعاً في سفينتنا إلى النبي ﷺ» أو في سفينتين كما جاء في الرواية الأخيرة بالاستيعاب إنه «قدمت السفينتان معاً، سفينة الأشعريين وسفينة جعفر وأصحابه..» ولا بدّ أن وصولهم كان إلى ساحل المدينة ثم توجهوا إلى المدينة فعلموا أن النبي ﷺ سار لغزو اليهود في خيبر، فتوجهوا إلى خيبر فوصلوا يوم فتح خيبر ـ وذلك في شهر محرم سنة ٧هـ ـ فالتقوا بالنبي ﷺ والذين معه، فاعتبرهم النبي ﷺ مثل الذين شهدوا موقعة فتح خيبر، قال أبو موسى (فَقَسم لنا النبي ﷺ من غنائم خيبر) ـ يعني أسوة بالذين شهدوا موقعة فتح خيبر ـ قال ابن سمرة الجعدي: «وفي بعض الروايات: أن أبا موسى وأصحابه شهدوا فتح خيبر»(٢) ويشمل ذلك جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وقد كان قدومهم مع أبي موسى وأصحابه في وقت واحد، بل في سفينة واحدة هي سفينة أبي موسى وأخوته التي هي سفينة الأشعريين وليس في سفينتين، بدليل قول أبي موسى «فأقبلنا جميعاً في سفينتنا إلى النبي ﷺ، فوافقنا

---

(١) الاستيعاب للقرطبي ـ ترجمة أبي موسى ـ ٤/ ١٩.

(٢) طبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة ـ ص٩ ـ وهذا الحديث في صحيح مسلم ـ جـ٢ ص٣٦٢ ـ وفي الإصابة جـ٤ ص٢٣١.

النبي ﷺ حين افتتح خيبر». ومما يؤكد ذلك أن جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس الخثعمية كانا في سفينة أبي موسى التي هي سفينة الأشعريين.

قال ابن سمرة في طبقات فقهاء اليمن: «قال أبو موسى الأشعري: وكان ناس يقولون لنا، يعني أهل السفينة، سبقناكم بالهجرة، فدخلت أسماء بنت عُمَيس، وهي ممن قَدِم معنا، إلى حفصة بنت عمر زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر بن الخطاب إلى حفصة، وأسماءُ عندها. . فقال عمر لأسماء: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فَغَضَبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ، يعظم طائعكم، ويعظ جاهلكم. الحديث» ـ وفي صحيح مسلم: (يطعم جائعكم، ويُعظ جاهلكم) ـ قال أبو موسى: «فذكرتُ ـ بضم التاء ـ ذلك للنبي ﷺ فقال: ليسوا بأحق بي منك، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان» ـ ويروى (فذكرت أسماء ذلك للنبي ﷺ) ـ الحديث ـ إلى قوله: «ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان. ولقد كان أهل السفينة يأتون أسماء إرسالاً، يسألونها عن هذا الحديث، فما من الدنيا شيء هُم به أفرح ولا أعظم في نفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ»[١٨].

وغني عن البيان أن سيرة أبي موسى الأشعري في موكب رسول الله ﷺ بدأت منذ قدومه الأول إلى رسول الله ﷺ بمكة ـ في نحو السنة الرابعة للبعثة النبوية، أي قبل الهجرة النبوية إلى المدينة بنحو ست سنوات ـ ولم يكن قدوم أبي موسى والذين معه من الأشعريين إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة ـ في محرم سنة ٧هـ ـ على سبيل الوفادة أو الزيارة وإنما كان قدومهم مهاجرين إلى الله ورسوله، فَهُم من المهاجرين لأنهم هاجروا قبل فتح مكة بسنة وتسعة أشهر، ومما يتصل بذلك وبلفظ المهاجرين حديث أبي موسى وقد أورده البخاري بلفظ «خرجنا من اليمن مهاجرين إلى النبي ﷺ أنا وأخَوَان لي في بضع وخمسين رجلاً» وقد أفرد ابن سمرة باباً بعنوان «تسمية المهاجرين من اليمن إلى رسول الله ﷺ» ثم قال: «فمن أهل وادي رِمَع وَزَبيد: أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، وأخواه أبو بُردَة وأبو رُهْم، واثنان وخمسون رجلاً مِنْ قومهم. . وهاجرت مع أبي موسى أمّه طفيه العكيه،»[١] ـ وقد جاء اسمها في الإصابة عن ابن الكلبي وابن العسكري (ظبية بنت وهب مِنْ بني عك) ـ وبقدوم أبي موسى والذين معه مهاجرين إلى رسول الله ﷺ

(١) طبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة ـ ص٩ ـ وهذا الحديث في صحيح مسلم ـ جـ٢ ص٣٦٢ ـ وفي الإصابة جـ٤ ص٢٣١.

بالمدينة المنورة ـ في محرم ٧هـ ـ بدأت صفحة جديدة من سيرته في موكب الرسول، وقد ذكر خالد محمد خالد قدوم أبي موسى من اليمن إلى رسول الله ﷺ بمكة في المرة الأولى وإنه عاد إلى بلاده حاملاً كلمة الله، ثم ذكر قدومه إلى المدينة المنورة غداة فتح خيبر ـ في محرم ٧هـ ـ فقال ما يلي نصه: ـ

«.. وفي هذه المرة لم يأت أبو موسى وحده، بل جاء معه بضعة وخمسون رجلاً من أهل اليمن الذين لَقَّنَهُم الإسلام، أخَوَان شقيقان له، هما: أبو رُهْم، وأبو بُردَة.. ونَعَتَهُم الرسول بأنّهم أرقُّ الناس أفئدة..

ومِنْ ذلك اليوم أخذ أبو موسى مكانه الدائم والعالي بين المسلمين والمؤمنين، الذين قُدِّر لهم أن يكونوا أصحاب رسول الله وتلامذته، وأن يكونوا حملة الإسلام إلى الدنيا في كل عصورها ودهورها»[١].

* * *

وقد مكث أبو موسى الأشعري مصاحباً رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة منذ هجرته في شهر محرم سنة ٧ هجرية، وبلغ أبو موسى مرتبة عالية بين الصحابة، فكان من معالم سيرة وأنباء أبي موسى في موكب رسول الله ﷺ والمدينة المنورة المعالم والأنباء التالية: ـ

أولاً: على الصعيد العائلي:

لقد كان أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري ابن سبعة وعشرين سنة تقريباً حين هاجر إلى المدينة واستقر فيها مع الذين هاجروا معه ـ في محرم ٧هـ ـ فتزوج أبو موسى أُم كلثوم بنت الفضل بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، فأنجبت له ابناً سَمْاهُ موسى، فأصبح يُكنى (أبو موسى) ـ منذ أوائل سنة ٨هـ ـ قال ابن حجر العسقلاني: «وقصة تزويج أبي موسى أم كلثوم بنت الفضل بن العباس ثابتة في طبقات ابن سعد، وولدت له موسى»[٢]. وقد ثَبَت في ثلاثة أحاديث نبويه أن النبي ﷺ كان يُكنيه أبا موسى وذلك في سنة ٨هـ ـ وسيأتي ذكر تلك الأحاديث ـ ويدل ذلك على أن زواجه بأم كلثوم بنت الفضل بن العباس كان سنة ٧هـ لأنها أم موسى ـ وممن تزوج بالمدينة أيضاً من أصحاب أبي موسى، عياض بن غَنْم الأشعري، قال له رسول الله ﷺ: **«يا عياض، لا تَزَوَجَنّ عجوزاً ولا عاقراً**

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٥.

(٢) الإصابة ـ ترجمة أم كلثوم بنت الفضل بن العباس ـ جـ٤ ص٤٩٣.

فإني مُكاثر بكم. الحديث: أخرجه ابن قانع والحاكم»[١] فتزوج عياض امرأة من بني فهر في المدينة المنورة.

وقد كان مع أبي موسى في المدينة والدته الصحابية (ظبية بنت وهب العكيه)، وقد يُروى اسمها (طفيه بنت وهب)، قال ابن سمرة: «وهاجرت مع أبي موسى أُمّه طفيه العكيه، وماتت بالمدينة»، وجاء في ترجمتها بالإصابة عن ابن الكلبي وأبي أحمد العسكري أن اسمها (ظبية بنت وهب من بني عك)، قال العسقلاني: ذكر المستغفري عن ابن قتيبة أنها: (أسلمت وهاجرت) وذكرها الطبراني وقال: (ماتت بالمدينة)[٢]. وقد كان إسلامها باليمن منذ وقت مبكر وهاجرت مع أبي موسى وأخويه ـ في محرم ٧هـ ـ وماتت بالمدينة سنة ٨هـ، عليها رحمة الله.

ثانياً: على صعيد الجهاد مع رسول الله ﷺ

وقد شهد أبو موسى والذين معه من الأشعريين الغزوات الجهادية مع رسول الله ﷺ ومع السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثها إلى أعالي الحجاز ونجد في السنتين السابعة والثامنة للهجرة، وكان أبو موسى وأغلب أصحابه من المشاة ـ ليس لديهم خيول ولا إبل، لأنهم قدموا عن طريق البحر ـ وقد وصف أبو موسى صبرهم في إحدى الغزوات الجهادية قائلاً: «خرجنا مع رسول الله في غَزاة، نُقّبَتْ فيها أقدامنا، ونقّبَتْ قدماي، وتساقَطتْ أظفاري، حتى لَفَفْنَا أقدامنا بالخرق».

وكان رسول الله ﷺ يضرب بالأشعريين المثل الأعلى لأصحابه، فيقول فيهم وعنهم:

«إن الأشْعَرِيين إذا أرْمَلُوا في غَزْو، أو قَلَّ في أيديهم الطعام، جمعوا ما عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بالسَّوِيَّة، فَهُمْ مِنّي، وأنا مِنْهُم»[٣].

ولقد كان أبرز الصحابة الأشعريين في مواطن الجهاد أبو عامر عبيد بن قيس الأشعري عم أبي موسى، وكان يقال لأبي عامر (الداهية الأرفد)، وكذلك كان عياض بن غَنْم الأشعري مجاهداً فذاً، وكان يُقال له (عياض زاد الراكب، لأنه كان يُطعم رفقته ما كان عنده، وإذا كان مسافراً آثرهم بزاده)، وذلك هو الخُلق

(١) الإصابة ـ ترجمة عياض بن غنم الأشعري ـ جـ٣ ص٥٠.
(٢) طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة الجعدي ـ ص٨ ـ والإصابة ـ ترجمة ظبية بنت وهب ـ أم أبي موسى ـ جـ٤ ص٣٥٥.
(٣) رجال حول الرسول ـ ص٧٤٦.

الأشعري الذي كان رسول الله ﷺ يضرب به المثل، وأما أبو موسى الأشعري فقد كان من أبرز المجاهدين المشاة ولما توفرت الخيول ـ من الغنائم أو بالشراء ـ كان أبو موسى فارس الفرسان، وقد وَصَفُه وسماه رسول الله ﷺ: (سيد الفوارس)، وفي ذلك قال الأستاذ خالد محمد أن أبا موسى الأشعري «مُقاتِلُ جسور، ومناضلُ صُلْب. . وفي مواطن الجهاد كان أبو موسى يحمل مسؤولياته في إستبسال مجيد مما جعل رسول الله ﷺ يقول عنه: «سيدُ الفوارس، أبو موسى» ـ(١).

وفي رمضان سنة ٨هـ كان أبو موسى وأبو عامر وعياض بن غنم وبقية الأشعريين ـ الثلاثة والخمسين ـ في جيش رسول الله ﷺ الذي انطلق من المدينة لفتح مكة المكرمة، وقد كان في الجيش من أعلام المهاجرين اليمانيين الطفيل بن عمرو الدوسي في زهاء مائة من فرسان دوس، وجرير بن عبد الله البجلي في فرسان بَجِيلة، وغالب بن عبد الله الكلبي، قال العسقلاني: «كان غالب بن عبد الله الكلبي على مقدمة النبي ﷺ يوم الفتح»، وكان في الجيش المئات من فرسان كلب وقضاعة والمئات من فرسان خزاعة، وسائر الأوس والخزرج اليمانيين أنصار رسول الله ﷺ فدخلوا مكة فاتحين مع رسول الله ﷺ في ٢٠ رمضان سنة ٨هـ.

ولقد كان أبو موسى هو بطل وقائد الانتصار في موقعة أَوْطاس التي دارت في وادي هوازن ـ بين مكة والطائف ـ في شوال ٨هـ ـ إذْ إنه بعد فتح مكة سار رسول الله ﷺ بالمسلمين من مكة لقتال قبيلتي هوازن وثقيف في حُنين فكاد المسلمون أن ينكسروا في غزوة حنين ثم نصر اللّهُ المسلمين في غزوة حنين فانهزمت هوازن وثقيف ـ في أوائل شوال ٨هـ ـ فتقهقرت جموع هوازن إلى منطقة أَوْطاس وعسكروا فيها، فبعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى أوطاس بقيادة أبي عامر الأشعري وكان في الجيش أبو موسى الأشعري، قال ياقوت الحموي: «أَوْطاس: واد في ديار هوازن كانت فيه وقعة حُنين»(٢) وقد كانت حنين في أول وادي هوازن، وكانت (أوطاس) بأسفل وادي هوازن، قال ابن هشام: «فبعث رسول الله ﷺ في آثار من تَوَجَه قِبَل أوطاس أبا عامر الأشعري»(٢) وقال الحافظ ابن كثير: «كان سبب غزوة أوطاس أن هوازن لما انهزمت ـ يوم حُنين ـ سارت فرقة منهم فعسكروا بمكان يُقال له أَوْطاس فبعث إليهم رسول الله ﷺ سَرِية من أصحابه عليهم أبو عامر

(١) رجال حول الرسول ـ ص٧٤٦.
(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٨٧.

الأشعري.. قال البخاري: لما فرغ رسول الله ﷺ من حُنين بعث أبا عامر الأشعري على جيشٍ إلى أوْطاس، فلقى دريد بن الصمّه، فَقُتل دريد وهزم اللّهُ أصحابه»[١].
قال القرطبي: «وقد قيل في هذا الخبر أن دريد بن الصمة قتل أبا عامر، وقتله أبو موسى الأشعري» ثم أضاف القرطبي رأيه الشخصي قائلاً: «وذلك غلط وإنما كان ابن دريد لا دريد فقد ذكرنا قاتل دريد يوم حنين في غير هذا الموضع»[٢] وهذا إنما يعني وجود قولين في مقتل دريد بن الصمة، **أحدهما**: أن مقتل دريد كان يوم حنين، **والثاني**: أن دريد بن الصمّة كان مع الذين انسحبوا وعسكروا في أوطاس، وهو ما يدل عليه قول البخاري: (لما فرغ رسول الله ﷺ من حُنين بعث أبا عامر الأشعري على جيش إلى أوطاس، فَلَقَى دُريد بن الصمّة، فَقُتل دريد وهزم الله أصحابه). ويتصل ذلك بالخبر الذي أشار إليه القرطبي بأن الذي قتل دريداً هو أبو موسى الأشعري. أما قول القرطبي: (وإنما كان ابن دريد لا دريد) فمقتضى ذلك أن الكفار كانوا بقيادة ابن دريد بن الصمّة فقتله أبو موسى الأشعري، ويؤيد ذلك الخبر الذي ذكره القرطبي عن الوليد بن مسلم وقد جاء في آخره أنه (شَدّ أبو موسى على ابن دريد بن الصمّة فقتله).[٢] ولكن أبا عامر لم يُقْتَل يومذاك وإنما انهزم أصحاب دريد ـ وهُمْ هوازن ـ وتراجعوا إلى مكان آخر في أوْطاس، فوقعت المعركة الثانية في أوطاس، وقد ذكرها ابن هشام في السيرة النبوية وابن كثير في البداية والنهاية (أن أبا عامر الأشعري لقى يوم أوْطاس عشرة أخوة من المشركين، فبارزهم حتى قتل تسعة، فحمل على العاشر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه، فقال الرجل: اللهم لا تشهد عليّ، فأفلت، فأسلم فيما بعد)، ثم وقعت الجولة الثالثة، فأُصيب أبا عامر بسهم مسموم في ركبته، وقيل بسهمين، فأقبل إليه أبو موسى فقال: يا عم مَنْ رماك؟ فأشار أبو عامر بيده وقال: ذاك الذي رماني، فقصد له أبو موسى، فلما رآه الرجل ـ وهو العلاء بن الحارث الجشمي ـ وَلّى فلحق به أبو موسى وهو يقول: ألا تستحي، ألا تثبت، فكفّ، فالتحما بالسيف فاختلفا ضربتين فقتله أبو موسى، ثم رجع إلى أبي عامر وقال له: قتل الله عدوك، قال: فانتزع هذا السهم، فنزعه أبو موسى فَنَزا مِنْهُ الماء، فقال أبو عامر: يا ابن أخي اقرئ رسول الله عليه السلام وقُل له: استغفر لي، واستخلف أبو عامر أبا موسى على الجيش، ومات أبو عامر، فولى المسلمون أبا موسى، قال ابن هشام في السيرة النبوية:

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٤ ص٣٣٨.
(٢) الاستيعاب ـ القرطبي ـ جـ٤ ص١٣٦ ـ والبداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٤ ص٣٣٩.

«فأخذ الراية أبو موسى الأشعري، فقاتل الكفار، ففتح الله على يديه وهزمهم»[١].

وبعد انتصار وفتح أوطاس بقيادة أبي موسى، رجع الجيش بقيادته إلى رسول الله ﷺ، قال أبو موسى: «انصرفت بالناس، فلما رآني رسول الله ﷺ أحمل اللواء، قال: أبا موسى قُتِلَ أبو عامر؟ قلتُ: نعم يا رسول الله، فرفع يديه يدعو لأبي عامر يقول: اللهم اغفر لِعبيد أبي عامر واجعله فوق الأكثرين يوم القيامة»[٢].

وكان انتصار وفتح أوطاس في شوال ٨هـ، ومنح رسول الله ﷺ قائد ذلك النصر والفتح لقب (سيد الفوارس) فقال عليه الصلاة والسلام (سيد الفوارس، أبو موسى).

وشهد سيد الفوارس فتح الطائف مع رسول الله ﷺ ـ في أواخر شوال ـ ثم عاد رسول الله ﷺ والذين معه إلى مكة، فأدوا العُمرة ـ في مطلع ذي القعدة ٨هـ ـ وذلك منصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة، ثم توجهوا راجعين مع رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، فأقام أبو موسى والذين معه من الأشعريين في المدينة إلى أن استنفر رسول الله ﷺ الناس للمسير إلى تبوك، فانطلق أبو موسى والذين معه في جيش رسول الله ﷺ إلى تبوك في رجب سنة ٩هـ، فكان أبو موسى وشرحبيل بن حسنة الكندي ودِحية بن خليفة الكلبي وغالب بن عبد الله وعياض بن غَنْم وأمثالهم من المهاجرين اليمانيين في الصفوف الأولى مع أخوانهم الأنصار في ذلك المسير الذي قال عنه عبد الرحمن بن حسان الأنصاري: ـ

ويوم سار رسولُ الله محتسباً ... إلى تبوك، وهُمْ راياته الأُولُ
وساسة الحرب إن حرباً بَدَتْ لَهُم ... حتى بَدَىٰ لهم الأقفالُ والقَبَلُ

فعادوا مع رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة في مطلع شهر رمضان سنة ٩ هجرية.

ثم كان أبو موسى خامس خمسة اختارهم وبعثهم رسول الله ﷺ عمالاً على مخاليف اليمن ـ في رمضان ٩هـ ـ كما سيأتي بعد ذكر المكانة العلمية العالية التي بلغها أبو موسى في موكب رسول الله عليه الصلاة والسلام.

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ جـ٤ ص٨٧.

(٢) الاستيعاب ـ القرطبي ـ جـ٤ ص١٣٦ ـ والبداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٤ ص٣٣٩.

ثالثاً: على صعيد علم أبي موسى ومكانته العلمية بين الصحابة

لقد بدأت مسيرة أبي موسى العلمية في موكب رسول الله ﷺ منذ جلس في مكة بين يدي رسول الله ﷺ يتلقى عنه الهدى واليقين قبل الهجرة النبوية بعدة سنوات ثم عاد إلى منطقته باليمن يحمل كلمة الله، ثم بدأت مكانته العلمية في الظهور والصعود منذ هجرته إلى المدينة في محرم سنة ٧هـ حيث أخذ مكانه العلمي العالي بين أبرز علماء الصحابة، فكان قارئاً حافظاً للقرآن الكريم عارفاً بالسنة النبوية، عالماً بالقضاء والفقه والأحكام وغير ذلك من العلوم، وقد بلغ أبو موسى في ذلك كله مبلغاً عظيماً، قالت ابن حجر العسقلاني: (قال الشَعبي: انتهى العلم إلى ستة منهم أبو موسى الأشعري. وذكره البخاري من طريق الشعبي بلفظ العلماء)[١] ـ أي أن العلم انتهى إلى ستة من الصحابة منهم أبو موسى الأشعري، وأن العلماء من الصحابة ستة منهم أبو موسى الأشعري ـ وقال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب «سُئل عليّ بن أبي طالب عن موضع أبي موسى من العلم فقال: صبغ في العلم صبغة»[١].

قال القرطبي: «وكان أبو موسى من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، قال فيه رسول الله ﷺ: لقد أُوتي أبو موسى مزماراً من مزامير آل داود»[١] وجاء في طبقات فقهاء اليمن لابن سمرة: «أن النبي ﷺ قال في أبي موسى حين سمع صوته وهو يقرأ القرآن: لقد أُعطى هذا مزماراً من مزامير آل داود. فقال أبو موسى: يا رسول الله لو علمتُ أنك تسمعني لحبَّرته تحبيراً»[٢] وجاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «كان أبو موسى حسن الصوت بالقرآن. وفي الصحيح المرفوع: لقد أُوتي أبو موسى مزماراً من مزامير آل داود. وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا ناي أحسن من صوت أبي موسى بالقرآن. وكان عمر بن الخطاب إذا رآه قال: ذَكِرّنَا رَبّنَا يا أبا موسى، وفي رواية: شَوِقْنَا إلى رَبّنَا يا أبا موسى، فيقرأ عنده»[١] وكان أبو موسى عالماً بأحكام القرآن، فعندما تولى البصرة في خلافة عمر قال لأهل البصرة: «أن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم، أُعلِمكُم كتاب ربكم وسُنة نبيكم»[٣].

وكان لأبي موسى علم واسع بالسنة النبوية، وله في كتب السنن والأحاديث

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ جـ٢ ص٣٦٠ ـ والاستيعاب للقرطبي ـ ص٣٧١.

(٢) طبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة ـ ص١٠.

(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٥١.

النبوية «ثلاثمائة وخمسة وخمسون حديثاً، أو ثلاثمائة وستون حديثاً»[١] وهي الأحاديث النبوية التي سمعها ورواها أبو موسى، قال ابن حجر العسقلاني: «.. وروى عن أبي موسى، أولاده: موسى وإبراهيم وأبو بردة وأبو بكر، وامرأته: أم عبد الله، ومِنْ الصحابة: أبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وطارق بن شهاب. ومِنْ كبار التابعين فَمَنْ بعدهم: زيد بن وهب، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعبيد بن عمير، وقيس بن أبي حازم البجلي، وأبو الأسود، وسعيد بن المسيب، وزرّ بن حبيش، وأبو عثمان النهدي، وأبو رافع الصائغ، وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود، وربعي بن خراش، وحطان الرقاشي، وأبو وائل، وصفوان بن محرز، وآخرون».

وكان أبو موسى عالماً بالقضاء والفقه والإفتاء، قال العسقلاني: «قال ابن المديني: قضاة الأمة أربعة: عمر، وعلي، وأبو موسى، وزيد بن ثابت». وقال خالد محمد خالد: أن أبا موسى «فقيهُ، حصيفُ، ذكيٌّ، يُجيد تصويب فهمه إلى مغاليق الأمور، ويتألق في الافتاء والقضاء، حتى قيل: قضاة هذه الأمة أربعة: عمر، وعلي، وأبو موسى، وزيد بن ثابت»[٢].

ولقد كانت كل تلك المناقب والمكانة العالية والكبيرة لأبي موسى الأشعري هي التي جعلت رسول الله ﷺ يختار ويبعث أبا موسى عاملاً على منطقة شاسعة من اليمن.

رابعاً: ولاية أبي موسى لتهامة وعدن في عهد رسول الله ﷺ

في شهر رمضان سنة ٩هـ بعث وَوَلى رسول الله ﷺ عماله على اليمن وكان على رأسهم معاذ بن جبل الأنصاري وأبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري. قال ابن سمرة في طبقات فقهاء اليمن: «قال البخاري: بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن. قال: وبعث كل واحد منهما على مخلاف. قال: واليمن مخلافان. وقال لهما: يسرا ولا تُعسِرا، وبشِرا ولا تُنفِرا وتَطَاوعا... فانطلق كل واحد منهما إلى عمله». [ص١٧].

وقال الحافظ بن كثير في البداية والنهاية: «قال البخاري: باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، حدّثنا موسى حدّثنا أبو عوانة حدّثنا عبد الملك عن أبي بردة قال: بعث النبي ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن.

(١) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ص٣٤٢.
(٢) رجال حول الرسول ـ ص٧٤٦.

قال: وبعث كل واحد منهما على مخلاف. قال: واليمن مخلافان. وقال لهما: يسرا ولا تُعسرا، وبشرا ولا تُنَفرا. وفي رواية: وتطاوعا ولا تختلفا. وانطلق كل واحد منهما إلى عمله..»[١]. [ص٩٩ جـ ٥].

وقد استعملت تلك الروايات عبارة (واليمن مخلافان) بمعنى (واليمن قسمان). قال ابن خلدون: «اليمن على قسمين: تهامة والجبال. ومعنى تهامة ما انخفض من بلاد اليمن مع ساحل البحر مِنْ السرّين إلى آخر أعمال عدن دورة البحر الهندي»[٢] فالمقصود بما جاء في رواية البخاري وطبقات فقهاء اليمن والبداية والنهاية هو أن (اليمن قسمان) وهما قسم المناطق الساحلية المنخفضة ـ التهامية ـ وقسم المناطق الجبلية، فبعث رسول الله ﷺ معاذاً وأبا موسى إلى اليمن، وبعث كل واحد منهما على قسم، فكان أبو موسى عاملاً على قسم المناطق الساحلية التهامية بالمدلول الواسع الذي ذكره ابن خلدون لمصطلح تهامة ويشمل ذلك مناطق تهامة الغربية المطلة على البحر الأحمر ثم المناطق الساحلية المنعطفة إلى عدن ثم من عدن إلى آخر أعمال عدن دورة البحر الهندي، أي المحيط الهندي.

وفي ذلك قال ابن حجر العسقلاني: «كان أبو موسى عامل النبي ﷺ على زبيد وعدن وغيرهما من اليمن وسواحلها». وقال القرطبي في ترجمة أبي موسى بالاستيعاب: «ولاه رسول الله ﷺ مخاليف اليمن: زبيد وذواتها إلى الساحل». وجاء في ترجمته بالإصابة: «استعمله النبي ﷺ على بعض اليمن كزبيد وعدن وأعمالهما»وقال البلاذري: «وَلَى النبي ﷺ أبا موسى الأشعري على زبيد ورمع وعدن والساحل»[٣].

وتتيح تلك النصوص إدراك أن ولاية أبي موسى كانت تشمل القسم الساحلي التهامي بذلك المدلول الواسع الذي ذكره ابن خلدون، والذي يتفق مع ما ذكره الحسن بن أحمد الهمداني بعنوان (مدن اليمن التهامية) قائلاً ما يلي: «عدن جنوبية تهامية.. ولحج وبها الأصابح.. وأبين وبها مدينة خنفر.. وموزع والشقاق والمندب.. والخُصيب وهي قرية زبيد.. وقرى بوادي زبيد: حيس.. والقحمة.. والكدراء.. ثم المهجم وهي مدينة سردد.. ومور.. ثم الساعد.. ثم الهجر قرية ضمد وجازان (جيزان).. والمخارف، وصبيا، ثم بيش وساحله عثر.. وأم

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ـ ص١٧ ـ البداية والنهاية ـ جـ٥ ص٩٩.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٦٤٤.

(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٨٠.

جحدم: قرية على البحر، وهي حَدُّ اليمن»[١] وقال ابن خلدون: «السِّرّين: آخر أعمال تهامة اليمن، وهي على البحر»[٢] وقرية السِّرَين هي أم جحدم في نص الهمداني وكانت تقع في منطقة الليث بأعالي ساحل تهامة. ويتبين من ذلك أن ولاية أبي موسى كانت تشمل قسماً واسعاً من اليمن.

أما زمن تولية أبي موسى فهو نفس زمن تولية معاذ بن جبل، ويرتبط ذلك بواقعة ثابتة في سائر المصادر التاريخية وهي وصول مبعوث وكتاب ملوك وأذواء مناطق حِمْيَر إلى رسول الله ﷺ عند قدومه من تبوك إلى المدينة المنورة في أوائل رمضان ٩ هجرية، وفي ذلك قال ابن كثير: «قدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حمير ورسولهم بإسلامهم مَقدمه من تبوك وكان ذلك في رمضان سنة تسع». فلما وصل كتاب ومبعوث ملوك وأذواء حمير وهم (الحارث بن عبد كلال ذي رعين، والنعمان بن عبد كلال قيل المعافر، وزرعه بن سيف بن ذي يزن، وسائر بقية أذواء مناطق حمير) كانت الأهمية الرئيسية لذلك تتمثل بالإنضواء الرسمي والشامل لمناطقهم في إطار الدولة الإسلامية بزعامة رسول الله ﷺ قد تَجَسَدَ ذلك أيضاً في قدوم وفود زعماء مذحج وهمدان وحضرموت إلى رسول الله ﷺ وكان قدوم أغلبهم للمبايعة السياسية لأن انتشار الإسلام كان سابقاً لذلك، فاختار وبعث رسول الله ﷺ عُماله على اليمن: معاذ بن جبل، وأبا موسى عبد الله بن قيس، ومعهما عدد من عمال الصدقة، وذلك في شهر رمضان سنة ٩هـ، فقد جاء في كتاب رسول الله ﷺ إلى أذواء حمير قول رسول الله ﷺ: «**أما بعد، فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من تبوك، فَلَقِيَنا بالمدينة، فَبَلَغ ما أرسلتم به وخبَّر ما قِبَلكم..**» إلى أن قال رسول الله ﷺ في نفس الكتاب «**.. وأني قد أرسلتُ إليكم من صالحي أهلي وأُولي دينهم وأُولي علمهم: معاذ بن جبل، وعبد الله بن...، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر، وأصحابهم.. وأن أميرهم معاذ بن جبل.**»[٣] وقد جاء الاسم الثاني بعد معاذ في الكتاب في بعض الروايات بأنه (عبد الله بن رواحة) ـ قال ابن الأثير: «وفي هذا نظر، فإن رسول الله ﷺ كاتب الناس باليمن سنة تسع، وعبد الله بن رواحة قُتل بمؤته سنة ثمان»[٣]. وجاء في بعض الروايات (عبد الله بن زيد) وقد يكون أحد العمال، ولكن الاسم الثاني من المفترضِ إنه (عبد الله بن قيس) وهو

(١) صفة جزيرة العرب ـ الحسن الهمداني ـ ص٧٦.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٦٤٤.
(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص٢٢٠ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ جـ٣ ص٣٦٨.

اسم أبي موسى لأن النبي ﷺ بعثه مع معاذ بن جبل كما هو ثابت في صحيح البخاري وتراجم الصحابة والمصادر التاريخية.

وقد جاء في طبقات ابن سمرة من طريق أبي بردة عن أبي موسى الأشعري قال: «بعثني رسول الله ﷺ خامس خمسة على مخاليف اليمن. الحديث». [اهـ]. وقد ذكر هذا الحديث ابن حجر العسقلاني في ترجمة الطاهر بن أبي هالة بكتاب الإصابة إنه «قال أبو موسى: بعثني النبي ﷺ خامس خمسة على مخاليف اليمن، أنا، ومعاذ، والطاهر بن أبي هالة، وخالد بن سعيد، وعكاشة بن ثور. فبعثنا متساندين، وأن نُيسر ولا نُعسر، ونُبشر ولا تُنفر، وأن إذا قدم معاذ طاوعناه». [اهـ]. وعبارة «أن إذا قدم معاذ طاوعناه» تتفق مع قول رسول الله ﷺ في كتابه إلى أذواء اليمن عن العمال «أن أميرهم معاذ بن جبل».

ولقد كان معاذ وأبو موسى هما الشخصيتان الرئيسيتان، لأن بقية العمال كانوا عُمالاً أو رُسلاً يقبضون الصدقة، بينما كان أبو موسى عاملاً والياً على مخاليف القسم الساحلي التهامي من اليمن بأكمله، وكان ذلك في إطار الولاية العامة لمعاذ بن جبل لأنه أمير جميع عمال اليمن. قال البلاذري: «وَلّى النبي ﷺ أبا موسى الأشعريّ زبيد ورمع وعدن والساحل، وولى زياد بن لبيد حضرموت، وولى عمر بن حزم الأنصاري نجران، وولى معاذ بن جبل الجَنَد، وصَيّر إليه القضاء وقبض جميع الصدقات باليمن». وقال ابن كثير: «كان معاذ قاضياً، وحاكماً في الحروب، ومُصدقاً إليه تُدفع الصدقات». وقال ابن سمرة: «كان معاذ بن جبل عاملاً لأهل اليمن وحضرموت، أمّرَه رسول الله ﷺ، فكان معاذ يتنقل في عُماله من عامل إلى عامل في اليمن وحضرموت». [اهـ].

فكان معاذ يمكث فترة في مدينة الجَنَد ويكون تارة في مناطق مذحج وتارة في مناطق صنعاء وتارة في حضرموت وتارة عند أبي موسى في القسم الساحلي التهامي الذي كان مركزه في وادي زبيد، ومما يتصل بذلك: جاء في البداية والنهاية لابن كثير عن البخاري أنه: «سار معاذ بن جبل في أرضه قريباً من صاحبه أبي موسى، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه، فإذا هو جالس وقد اجتمع الناس إليه وإذا رجُلٌ عنده قد جمعت يداه إلى عنقه، فقال معاذ: يا عبد الله بن قيس أيم هذا؟ قال: هذا رجلٌ كفر بعد إسلامه، قال معاذ: لا أنزل حتى يقتل، فقال أبو موسى: إنما جئ به لذلك فانزل، قال: ما أنزل حتى يُقتل، فأمر به فَقُتل، ثم نزل».

ونقل ابن كثير عن البخاري أنه «قال معاذ لأبي موسى: يا عبد كيف تقرأ القرآن؟

قال: أتفوقه تفوقاً فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم فأقرئ ما كتب الله لي فاحتسب نومتي كما أحتسب قومتي[١]».

* * *

ولقد كان بعث وتولية معاذ بن جبل وأبي موسى عند منصرف رسول الله ﷺ من غزوة تبوك إلى المدينة المنورة في رمضان ٩هـ ولذلك قال البخاري: «باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع». وذلك لأنهما مكثا باليمن منذ بعثهما رسول الله ﷺ إلى ما قبل حجة الوداع، ثم قدما على رسول الله ﷺ في حجة الوداع ـ في ذي الحجة سنة ١٠هـ ـ ومما يتصل بذلك، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه «.. جئت ورسول الله ﷺ مُنيخ بالأبطح، فقال: أحججت يا عبد الله بن قيس؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: كيف قلت؟ قال: قُلتُ لبيك إهلالاً كإهلال رسول الله. قال: فهل سُقت معك هَدْياً؟ قلتُ: لم أَسُق. قال: فَطُف بالبيت، واسعْ بين الصفا والمروة، ثم حِلّ. ففعلتُ» قال ابن سمرة: «وبهذا أخذ أبو حنيفة، فلا يصح إلا حج من ساق الهَدْى، وإلا فإحرامه يقع عمرة»[١].

وقد توجه أبو موسى ومعاذ بن جبل وجرير بن عبد الله البجلي والأشعث بن قيس الكندي بعد حجة الوداع إلى المدينة المنورة مع رسول الله ﷺ فكانوا معه بالمدينة في أواخر ذي الحجة سنة ١٠هـ، ومما يتصل بذلك إنه: ـ

«قال معاذ: يا رسول الله رأيتُ رجالاً باليمن يسجد بعضهم لبعض أفلا نسجدُ لك؟ فقال: لو كنتُ آمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها»[١].

«وقال أبو موسى: سألتُ رسول الله ﷺ عن أشربة تُصْنَعُ باليمن، فقال: ما هي؟ قُلتُ: البتع والمِزْر، فقال: كل مُسكر حرام». وفي رواية ثانية «قال أبو موسى: يا نبيّ الله، إن أرضنا بها شراب من الشعير المِزْر، وشراب من العسل البتع ـ أو المبتع ـ فقال النبي ﷺ: كل مُسكر حرام». وجاء في رواية البخاري ومسلم لهذا الحديث: «البتع: نبيذ العسل. والمِزْر: نبيذ الشعير»[١].

* * *

ثم تهيأ معاذ بن جبل وأبو موسى للعودة من المدينة إلى عملهما في اليمن، وخرج رسول الله ﷺ يودع معاذاً والذين معه إلى مشارف المدينة ثم قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمُرّ بمسجدي وقبري. فبكى معاذ خَشَعاً لفراق رسول الله ﷺ فقال له: لا تبك يا معاذ، للبكاء

---

(١) البداية والنهاية ـ جـ٥ ص١٠٠ ـ طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة ـ ١٨ و٢٤.

أوان، البكاء من الشيطان. ثم قال عليه الصلاة والسلام: إنّ أولَى الناس بي المُتقون مَنْ كانوا وحيث كانوا»[(١)].

فودع معاذ وأبو موسى والذين معهما رسول الله ﷺ وانطلقوا إلى اليمن ـ في أوائل شهر محرم ١١هـ ـ فسار أبو موسى مع معاذ بن جبل إلى مأرب، ثم توجه معاذ من مارب إلى حضرموت بينما توجه أبو موسى من طريق نجران وجيزان إلى وادي زبيد حيث استمر أبو موسى عاملاً لرسول الله ﷺ على زبيد وتهامة وعدن والسواحل، ومعاذ بن جبل أميراً على جميع عمال اليمن يتنقل في عمل كل عامل من عمال مخاليف اليمن، وبينما معاذ بن جبل في مدينة صنعاء توفى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة ـ في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ ـ وتولى الخلافة أبو بكر الصديق، فأقرّ أبو بكر معاذاً وأبا موسى وبقية عمال اليمن على أعمالهم، فمكث أبو موسى أميراً على منطقة تهامة وعدن والسواحل في خلافة أبي بكر إلى أن انطلق إلى الجهاد والفتوحات مع أبناء اليمن الذين حملوا رسالة الإسلام إلى الآفاق الممتدة.

* * *

جهاد أبي موسى في فتوح العراق والشام (١٤ ـ ١٦ هجرية)

قال ابن حجر العسقلاني: «كان أبو موسى عامل النبي ﷺ على زبيد وعدن وغيرهما من اليمن وسواحلها، ولما مات النبيّ ﷺ، قَدِمَ المدينةَ، وشهد فتوح الشام ووفاة أبي عبيدة، واستعمله عمر على إمْرة البصرة بعد أن عزل المغيرة، وهو الذي افتتح الأهواز وأصبهان»[(٢)].

ويتبين من استقصاء ما ذكرته المصادر التاريخية أن أبا موسى قَدِم مِنْ اليمن على رأس فرقة من أبناء قبيلة الأشاعر وغيرهم للجهاد في سبيل الله، وذلك في أول خلافة عمر بن الخطاب، وكان عياض بن غَنْم الأشعري قد توجه على رأس فرقة من الأشاعر إلى الشام وشهد موقعة اليرموك ـ في آخر جمادى الثاني ١٣هـ ـ وموقعة مرج الصُفر ـ في محرم ١٤هـ ـ بينما توجه أبو موسى والذين معه إلى منطقة البصرة لما بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى منطقة البصرة ـ وكان اسمها (الأُبلة) ـ وذلك في أوائل سنة ١٤هـ ـ فدخل المسلمون منطقة الأبلة ـ البصرة ـ بقيادة عتبة بن غزوان، ووقعت أول معركة مع الفُرس في محور البصرة

---

(١) البداية والنهاية ـ جـ٥ ص١٠٠ ـ طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة ـ ١٨ و٢٤.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة أبي موسى ـ جـ٢ ص٣٦١.

على تخوم إقليم الأهواز وهي موقعة الهرمزان الأولى ـ سنة ١٤هـ ـ وفي ذلك قال ابن كثير: «كان أبو موسى الأشعري على رأس جيش البصرة، والأحنف بن قيس على رأس المدد.. ثم طلب هرمزان الأهواز مصالحتهم، فكتبوا إلى عتبة بن غزوان ـ فصالح عتبة الهرمزان ـ»(١) فكان أبو موسى من قادة المجموعة الأولى من العرب المسلمين الذين دخلوا إلى منطقة البصرة ـ الأبلة ـ ورابطوا فيها واختطوا البصرة مع أميرهم القائد عتبة بن غزوان ـ سنة ١٤هـ ـ حيث «بنوا المساكن بالقصب،.. فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فإذا رجعوا أعادوا البناء بذلك القصب»(٢).

وسار عتبة بن غزوان لأداء فريضة الحج ـ سنة ١٤هـ ـ فمات منصرفه من الحج، وكان بالبصرة أبو موسى الأشعري والمغيرة بن شعبة الثقفي، وسبرة بن أبي رُهَم، فيقال أن عتبة استخلف المغيرة، ويقال أن عمراً وَلَى المغيرة على البصرة بعد عتبة بن غزوان، والأصوب أن الذي ولاه عمر على البصرة بعد عتبة بن غزوان هو أبو موسى الأشعري ثم وَلَى عمر المغيرة بعد القادسية، وفي ذلك قال البلاذري: «قد روى قوم أن أبا موسى كان بالبصرة فكتب إليه عُمرُ بولايتها». ومما يؤكد ذلك إنه «لما حضر يوم القادسية كتب عمر إلى أبي موسى يأمره بإمداد سعد ـ بن أبي وقاص ـ فأمَدّه أبو موسى بالمغيرة بن شعبة في ثمانمائة، ويقال في أربعمائة». أما تولية المغيرة فكانت بعد موقعة القادسية حين توجه أبو موسى لفتح الجزيرة الفراتية، قال البلاذري: «وقد قيل أن المغيرة إنما ولّى البصرة بعد قدومه من القادسية»(٢) قال السيوطي: «وكان أبو موسى أول مَنْ ذكر وخطب لعمر في المنبر بأمير المؤمنين»(٣) فيكون ذلك في ولايته الأولى للبصرة ـ بعد عتبة بن غزوان وقبل المغيرة ـ لأن تلقيب عمر بلقب أمير المؤمنين كان قد أصبح شائعاً في سنة ١٥هـ مما يدل على أن أبا موسى كان أميراً وكان أول من ذكر وخطب لعمر بن الخطاب بلقب أمير المؤمنين ـ في أواخر سنة ١٤هـ ـ وكتب إليه عمر بأن يمدّ سعداً في القادسية فأمَدّ أبو موسى بالمغيرة بن شعبة في أربعمائة من المسلمين، فذلك يؤكد أن أبا موسى كان الأمير على البصرة بعد عتبة وقبل موقعة القادسية.

ثم انطلق أبو موسى في ثمانمائة مِن الفرسان الأشعريين وغيرهم من البصرة

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٨٣.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٤٠.
(٣) تاريخ الخلفاء ـ للسيوطي ـ خلافة عمر بن الخطاب.

إلى القادسية، فوصلها قبل أيام من الموقعة، فبعثه سعد بن أبي وقاص إلى رَسْتُم أمير الجيش الفارسي. وفي ذلك ذكر الإمام أبو عبد الله الواقدي: «أن أبا موسى الأشعري قَصَدَ القلب ـ أي قلب معسكر الجيش الفارسي ـ فلما رآه الحاجب أتوا إليه والترجمان معهم، فقال له: يا عربي ما الذي تريد؟ قال: أنا رسول إلى صاحب جيشكم، فقالوا: مَا لَكَ وصول إليه ولكن أفصح لنا عما تُريد حتى نأتيك بجوابه، فقال أبو موسى: قل له ندعوكم إلى الإسلام فإن أبيتم فأدوا الجزية فإن أبيتم فالسيفُ أصدق شاهد، وقد قال الله تعالى في كتابه (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين). فقام الترجمان بإبلاغ رستم بذلك فلم يأذن بوصوله إليه، فعاد أبو موسى إلى سعد والمسلمين»[١].

وبعد أيام اندلعت موقعة القادسية، فكان أبو موسى من كبار الصحابة والزعماء اليمانيين الذين شهدوا موقعة القادسية والذين كان منهم جرير بن عبد الله البجلي قائد ميمنة الجيش العربي الإسلامي وقيس بن مكشوح المرادي قائد الميسرة، وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، والأشعث بن قيس الكندي، وشرحبيل بن السِمْط الكندي، وبشر بن ربيعة الخثعمي، ومعاوية بن حُديج السكوني، وكثير بن شهاب الحارثي، وعياض بن غَنْم الأشعري، وأمير البصرة أبو موسى الأشعري الذي كان قد قال للفُرس ولأميرهم رُستم «..السيفُ أصدق شاهد، وقد قال الله تعالى في كتابه: وكان حقاً علينا نصر المؤمنين». وكذلك كان، فانتصر المؤمنون في القادسية أعظم انتصار، وسقط رسْتُم صريعاً بسيف قيس بن مكشوح ورُمح عمرو بن معدي كرب، كما سقط الفيرزان نائب رستم قتيلاً بسيف كثير بن شهاب الحارثي، وتتوجت موقعة القادسية بالفتح والنصر المبين، وذلك في أواخر شهر محرم سنة ١٥ هجرية.

* * *

وبعد شهرين من موقعة القادسية انطلق أبو موسى الأشعري على رأس جيش ـ من البصرة أو من القادسية ـ إلى إقليم الجزيرة الفراتية ـ في شمال العراق وجنوب سورية ـ وكان سبب ذلك أن الجيش العربي الإسلامي بالشام كان قد افتتح دمشق ـ في رجب ١٤هـ ـ ثم افتتح حمص وغيرها ـ في أواخر سنة ١٤هـ ـ ثم أتى قسم من قادة وجيش الشام إلى القادسية في العراق وشاركوا في موقعة القادسية، وأثناء ذلك قام هرقل ملك الروم باستنفار الروم وأهل أرمينية وأهل الجزيرة الفراتية فاجتمع إليه جيش عظيم فقام بتوجيههم إلى حمص، فرأى أبو

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله الواقدي ـ جـ٢ ص١١٧.

عبيدة بن الجراح والمسلمون الانسحاب من حمص والتجمع في دمشق، وكتبوا إلى عمر بن الخطاب بذلك وبخبر الحشود الرومية الكبيرة، وأن يبعث إليهم إمدادات لمواجهة العدو الذي انتشرت جيوشه من حمص إلى نهر اليرموك وأجنادين، وكان سعد بن أبي وقاص والصحابة والقادة والجيش الذين شهدوا القادسية مقيمين بالقادسية بانتظار جواب عمر بن الخطاب بالأذن لهم بالتقدم لفتح المدائن وغرب نهر دجلة بالعراق، فأقاموا زهاء شهرين في القادسية وما إليها ينتظرون كتاب وأذن عمر، ثم أتى كتاب عمر إلى سعد يأمره بأن يقيم في القادسية وما إليها من أرض العراق، ويأمره بما ذكره ابن كثير قائلاً: «كتب عمر بن الخطاب إلى سعد أن يندب الناس مع فلان إلى حمص لنجدة أبي عبيدة فإنه محصور، وكتب إليه أن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة الذين مالأوا الروم على حصار أبي عبيدة ويكون أمير الجيش عياض بن غَنْم الأشعري، فسار إليها عياض وفي صحبته أبو موسى الأشعري»[1]. قال ابن كثير: «وقال شيخنا الحافظ الذهبي: وَجّه أبو عبيدة عياض بن غَنْم إلى الجزيرة فوافق بها أبو موسى الأشعري»[1].

وما ذكره الحافظ الذهبي هو الأصوب فقد كان عياض بن غَنْم من القادة الذين انطلقوا بفرسانهم من القادسية إلى أبي عبيدة بن الجراح والمسلمين في دمشق ثم ساروا معه من دمشق إلى نهر اليرموك ـ في ربيع الثاني ١٥هـ وكان فيهم قيس بن مكشوح، وعمرو بن معدي كرب، وأبو هريرة، وشرحبيل بن السمط، ومعاوية بن حديج السكوني، فتم النصر على الروم في موقعة نهر اليرموك ـ في رجب ١٥هـ بينما كان أبو موسى قد سار إلى إقليم الجزيرة الفراتية وبدأ بفتح بعض مناطقها، ثم وَجَّه أبو عبيدة جيشاً بقيادة عياض بن غَنْم إلى إقليم الجزيرة، فسار عياض وجيشه إلى منطقة الرها فالتقى بأبي موسى وجيشه في الرها بإقليم الجزيرة الفراتية ـ في جنوب شرق سورية ـ وذلك في حوالي شهر شوال سنة ١٥هـ.

فَتْح الرها وسميساط: قال ابن كثير «سار عياض بن غُنْم وفي صحبته أبو موسى فنزل الرها فصالحه أهلها على الجزية. وقال شيخنا الحافظ الذهبي في تاريخه: إفتتح أبو موسى الأشعري الرها وشمساط عنوة»[1] ـ فوفقاً لما ذكره الحافظ الذهبي فإن أبا موسى افتتح الرها عنوة ـ أي بالقوة ـ قبل قدوم عياض، بينما وفقاً للرواية الأولى فإن أبا موسى وعياض اشتركا في فتح الرها، وإن فتحها كان صلحاً على أداء الجزية وليس عنوة، ويتيح ذلك إدراك أن أبا موسى كان قد

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير جـ٤ ص٧٦.

افتتح نواحي منطقة الرها عنوة ـ وليس مدينة الرها ـ فأتى عياض بينما أبو موسى على مشارف مدينة الرها محاصراً إياها، فاشترك عياض في حصارها، وجاء في كتاب الوثائق أن عياض بن غَنْم كَتَب «إلى أسقف الرها: إن فتحتم باب المدينة على أن تؤدوا عن كل رجل ديناراً ومُدَّيْ قمح، فأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومَنْ تَبِعكم، وعليكم إرشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين»[١].

فاستجاب أسقف وأهل الرها ـ وكان من العرب النصارى ـ فتم فتح مدينة الرها على ذلك الصلح، ودخلها المسلمون بقيادة عياض وأبي موسى الأشعري، فاكتمل بذلك فتح منطقة الرها.

وأما منطقة (سميساط) التي ذكرها الذهبي بلفظ (شمساط) وقال إن أبا موسى افتتحها عنوة، فقد ذكر البلاذري ما يشير إلى افتتاح قرى وحصون من منطقة سميساط قبل قدوم عياض وقبل فتح مدينة الرها، وإن أبا موسى ترك قوة من المسلمين في تلك القرى والحصون، فلما تم فتح مدينة الرها توجه منها عياض وفي صحبته أبو موسى فاكتمل فتحها صلحاً. وفي ذلك قال البلاذري: «سار عياض من الرها إلى سميساط، فوجد صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة مقيمين عليها وقد غلبا على قرى وحصون مِنْ قراها وحصونها، فصالحه أهلها على مثل صلح أهل الرها»[١]. وذلك في حوالي شهر ذي القعدة من سنة ١٥هـ.

فَتْح حَرّان ونَصِيبين: ثم توجه أبو موسى وعياض إلى منطقة ومدينة حَرّان، وكان يسكنها السريانيون وهُمْ عرب قدماء يسكنون سورية منذ زمن قديم، وأصلهم من اليمن، وكانوا من أوائل المسيحيين بالشام، فحاصر عياض وأبو موسى مدينة حران، وأغلق أهلها أبوابها، ثم استجابوا إلى المصالحة على أداء الجزية فتم فتحها صلحاً على مثل صلح الرها، قال الإمام الذهبي: «سار عياض وأبو موسى: فافتتحا حران، ونصيبين، وطائفة من الجزيرة عنوةً، وقيل صلحاً»[٢]. وكان فتح حران في حوالي شهر ذي الحجة ثم تلى ذلك فتح نَصيبَين ـ في حوالي شهر محرم ١٦هـ ـ وفي ذلك قال ابن كثير: «ثم بعث عياضُ أبا موسى إلى نصيبين فافتتحها»[٢].

غزو عين الوردة وطائفة من بلاد الجزيرة: بعد فتح نَصِيبين مضى أبو موسى إلى طائفة من مناطق إقليم الجزيرة من بينها منطقة (عين الوردة) فغزا تلك الجهات

---

(١) الوثائق السياسية ـ محمد حميد الله ـ وفتوح البلدان ـ للبلاذري ـ والبداية والنهاية ـ جـ٧ ص٨٤.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير جـ٤ ص٧٦.

في أوائل سنة ١٦هـ. وقد ذكر البلاذري عن الهيثم بن عدي قال: «بعث عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري إلى عين الوردة فغزاها بجند الجزيرة بعد وفاة عياض». ثم انتقد البلاذري رواية الهيثم بن عدي لأن الذي فتح عين الوردة بعد وفاة عياض ـ سنة ٢٠هـ ـ هو عمير بن سعد الأنصاري، وهو الصواب، فقد وقع التباس في قول الهيثم بن عدي «بعد وفاة عياض»، بينما الأصوب أن أبا موسى غزا إلى عين الوردة بعد فتح نصيبين حيث ذكر الإمام الذهبي أن أبا موسى وعياض افتتحا بعد نصيبين «طائفة من الجزيرة عنوة، وقيل صلحاً»، وكان من ذلك غزو عين الوردة في أوائل سنة ١٦هـ، وكان ذلك آخر فتوح وغزوات إقليم الجزيرة في تلك المرحلة، فقد توجه أبو موسى وعياض بن غنم ـ بعد ذلك ـ إلى منطقة الجابية في دمشق حيث اجتمع الصحابة والأمراء لاستقبال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما قدم من المدينة المنورة لاستلام القدس ـ بيت المقدس ـ (وكان ذلك في أوائل سنة ١٦هـ) وقد رجع عياض بن غنم وولاه عمر على إقليم الجزيرة ـ في شعبانِ ١٧هـ ـ فسار إليها واستكمل فتحها وتولاها إلى أن توفي سنة ٢٠هـ ثم تولاها عمير بن سعد الأنصاري، ولم يرجع أبو موسى إلى إقليم الجزيرة بعد فتوح المرحلة الأولى التي تَوَجه بعدها إلى أكناف بيت المقدس في أوائل سنة ١٦هـ.

أبو موسى في أكناف بيت المقدس: لقد كان أبو موسى من الصحابة الذين شهدوا فتح بيت المقدس لما أتى عمر بن الخطاب من المدينة المنورة فالتقى به الصحابة والأمراء في الجابية ثم ساروا معه إلى بيت المقدس وشهدوا استلام وفَتْحَ القدس وفيهم أبو موسى الأشعري، ولذلك قال العسقلاني: «شهد أبو موسى فتوح الشام». وذلك لأنه كان في الجابية وفي بيت المقدس ثم في طاعون عمواس، قال ابن كثير: «كان فتح الجابية وبيت المقدس سنة ست عشرة، وقال أبو معشر: ثم كان عمواس في سنة ست عشرة».

وعمواس اسم بلدة في أكناف بيت المقدس ـ بمحافظة القدس حالياً ـ اتخذها أبو عبيدة بن الجراح والمسلمون مركزاً قيادياً ومقراً بعد فتح بيت المقدس، إذْ إنه لم يستقر في بيت المقدس سوى عدد يسير من المسلمين حينما استلم عمر بيت المقدس وعاد إلى المدينة المنورة، فنزل أبو عبيدة بن الجراح والذين معه من الصحابة والجيش في مدينة عمواس بأكناف بيت المقدس، وكان أبو موسى مع أبي عبيدة في عمواس، فظهر في عمواس وباء الطاعون الذي اشتهر باسم طاعون عمواس وأُصيب فيه كثير من الناس، قال ابن كثير: «قال أبو موسى الأشعري: ثم كتب عمر إلى أبي عبيدة: سلام عليك، أما بعد، فإنك أنزلت الناس أرضاً عميقة

فأرفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة، فلما أتاه كتاب عمر دعاني أبو عبيدة فقال: يا أبا موسى إن كتاب أمير المؤمنين قد جاءني بما ترى، فاخرُجْ فارْتَدْ للناس منزلاً حتى أتبعك بهم، فرجعتُ إلى منزلي لأرتحل، فوجدتُ صاحبتي قد أصيبت ـ يعني بالطاعون ـ فرجعتُ إلى أبي عبيدة وقلتُ: والله لقد كان في أهلي حدث، فقال: لعل صاحبتك قد أصيبت؟ قُلتُ: نعم. فأمر ببعير فرُحل له فلما وضع رجله في غرزه طُعِن فقال: والله لقد أصبت، ثم سار بالناس حتى نزل الجابية، ورُفع عن الناس الوباء»[١].

وقد شاع في بعض الروايات أن طاعون عمواس الذي تحدث عنه أبو موسى هو طاعون عمواس الذي مات فيه أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٨هـ ولذلك قال العسقلاني: (شهد أبو موسى فتوح الشام ووفاة أبي عبيدة)، بينما الصواب والذي يدل عليه حديث أبي موسى هو أن أبا عبيدة «سار بالناس من عمواس حتى نزل الجابية، ورُفع عن الناس الوباء»، ويتيح ذلك إدراك عدم وفاة أبي عبيدة وأن حديث أبي موسى هو عن طاعون عمواس الأول ـ في سنة ١٦هـ ـ وهو المقصود بقول أبي معشر «كان عمواس في سنة ست عشرة»، وقد ذكر ابن كثير عن عبد الله بن عمر أنه (كان طاعون عمواس وقع مرتين)[١]. فحديث أبي موسى هو عن طاعون عمواس الأول سنة ١٦هـ وكان أبو موسى مع أبي عبيدة لما «سار بالناس حتى نزل الجابية، ورُفع عن الناس الوباء»، وقد توجه أبو موسى بعد ذلك من الجابية إلى المدينة المنورة، بينما سار أبو عبيدة بالجيش إلى طبرية ثم إلى حمص وقنسرين فاستعمل على حمص وقنسرين وأعمالها عبادة بن الصامت الأنصاري، وذلك في النصف الثاني من سنة ١٦هـ، ومضى أبو عبيدة والذين معه من الصحابة وفيهم عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح وذو الكلاع الحميري إلى حَلَبْ ونواحيها ثم إلى أنطاكية، فتم فتح تلك الأرجاء سنة ١٧هـ ورجع منها أبو عبيدة إلى طبرية، فأتاه كتاب عمر ببعث وتولية عياض بن غنم لاستكمال فتح إقليم الجزيرة الفراتية، فمضى عياض من طبرية إلى إقليم الجزيرة الفراتية ـ في شعبان ١٧ هجرية ـ[٢] ـ بينما كان أبو موسى قد أصبح أميراً لولاية البصرة منذ قدومه من الشام إلى عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة في شهر ربيع سنة ١٦هـ حيث بدأت بذلك مرحلة مجيدة من تاريخ أبي موسى الأشعري وتاريخ ولاية البصرة في فجر الإسلام.

* * *

(١) البداية والنهاية جـ٧ ص٩٣ و٧٨.
(٢) فتوح الشام ـ للواقدي ـ جـ٢ ص٥٩ ـ وفي بعض النصوص (في شعبان ١٦هـ).

ولاية أبي موسى لإقليم البَصْرة ومعالم عهده (١٦ ـ ٢٩ هجرية)

لقد كانت تولية أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري أميراً للبصرة في ربيع الأول سنة ١٦هـ نقطة تحول هامة وعظيمة في تاريخ ولاية البصرة التي مكث أبو موسى والياً عليها حتى وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ في ذي الحجة سنة ٢٣هـ ـ واستمر والياً عليها في خلافة عثمان بن عفان ـ من محرم سنة ٢٤هـ حتى سنة ٢٩ هـ ـ فقد دامت ولاية أبي موسى لإقليم البصرة ١٣ عاماً، وكان هو مؤسس العصر العربي الإسلامي في ولاية البصرة التي امتدت في عهده من جنوب غرب العراق والخليج العربي غرباً إلى أرجاء أقاليم بلاد فارس حتى إقليم كرمان وتخوم بلاد السند ـ باكستان ـ شرقاً.

لقد كان أبو موسى من قادة الفرقة الأولى من العرب المسلمين الذين استقروا في منطقة البصرة بقيادة الأمير عتبة بن غزوان ـ في أوائل سنة ١٤هـ ـ فكان عتبة أول أمير للمسلمين في البصرة، فلما مات عتبة بن غزوان ـ منصرفه من الحج سنة ١٤هـ تولى أبو موسى البصرة إذْ إنه «كان أبو موسى بالبصرة فكتب إليه عمر بولايتها» ثم «كتب عمر إلى أبي موسى يأمره بإمداد سعد في القادسية فأمّده أبو موسى بالمغيرة بن شعبة في ثمانمائة أو أربعمائة من المسلمين». ولما انطلق أبو موسى لفتح إقليم الجزيرة الفراتية ـ في شهر ربيع سنة ١٥هـ ـ وَلَّى عُمرُ بن الخطاب المغيرةَ بن شعبة الثقفي على البصرة، ولم تمض سوى زهاء سنة على إمارة المغيرة للبصرة حتى عزله عمر وأمره بالقدوم إلى المدينة مع الذين اتهموا المغيرة بارتكاب فاحشة الزنا، وكان أبو موسى في المدينة المنورة التي قَدِمَ إليها مِنْ الشام ـ في أواسط سنة ١٦هـ ـ فاختاره عمر والياً على البصرة، قال البلاذري:

«قال عمر لأبي موسى: إني أريد أن أبعثك إلى بلد قد عشعش فيه الشيطان ـ يعني البصرة ـ، فقال أبو موسى: فأعنّي بعدة مِنْ الأنصار. فبعث معه البراء بن مالك الأنصاري، وعمران بن الحصين أبا نجيد الخزاعي، وعوف بن وهب الخزاعي، وَوَلَّاهُ البصرة.. وكانت ولاية أبي موسى البصرة في سنة ست عشرة. ويُقال سنة سبع عشرة. والثَبْت أن أبا موسى وُلّي البصرة سنة ست عشرة»[١].

وذكر ابن كثير أنه «ولى عمر أبا موسى الأشعري البصرة، وأمره أن يُشخص إليه المغيرة في ربيع الأول سنة ١٦هـ، وقدم أبو موسى البصرة فناول المغيرة كتاباً

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٤٠ و٣٧٠.

من عمر هو أوجز كتاب، فيه «أما بعد، فإنه بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً، فَسلم ما في يديك، والعجل»[١].

* * *

وكان يوم قدوم أبي موسى من المدينة إلى البصرة والياً عليها ـ في ربيع الأول سنة ١٦هـ ـ يوماً مشهوداً، فقد وصل إلى البصرة في موكب يضم تسعة وعشرين من الصحابة، وفي ذلك قال ابن خلدون: «بعث عمر أبا موسى أميراً في تسعة وعشرين من الصحابة، فيهم أنس بن مالك، وعمران بن الحصين، وهشام بن عامر»[٢] وذكر البلاذري أن منهم (البراء بن مالك الأنصاري، وعمران بن الحصين أبا نجيد الخزاعي، وعوف بن وهب الخزاعي)، إلا أن قدوم عمران بن الحصين كان بعد أبي موسى وليس معه[٣].

فلما دخل أبو موسى والذين معه البصرة، تَوَجَّه إلى دار الأمارة الذي بناه عتبة بن غزوان بالقصب، وقام بمناولة المغيرة كتاب عمر الذي قال فيه: (أما بعد، فإنه بلغني نبأ عظيم، فبعثت أبا موسى أميراً، فسلم ما في يديك، والعجَل)، فسلم المغيزة الأمر لأبي موسى، وما لبث أن تَعَجّل المغيرةُ بالمسير إلى عمر في المدينة مع الشهود الأربعة الذين اتهموه بفاحشة الزنا.

وفي ذات يوم قدوم أبي موسى إلى البصرة اجتمع أهلها إلى المسجد الجامع في البصرة، وهو مسجد مِنْ القصب بناه عتبة بن غزوان في الرجة بالقرب من دار الأمارة، فاجتمع أهل البصرة إلى المسجد للاستماع إلى أميرهم الجديد الذي دعاهم إلى الاجتماع، فصلى الناس الصلاة جامعة، ثم صعد أبو موسى إلى المنبر فخطب خطبة أذهلت الناس، قال الأستاذ خالد محمد خالد يذكر ذلك:

«إن أبا موسى الأشعري ـ عندما بعثه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى البصرة، ليكون أميرها وواليها، جمع أهلها وقام فيهم خطيباً فقال: (إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم، أُعلِّمكم كتاب ربكم، وسنة نبيكم، وأُنظِّفُ لكم طرقكم). وغَشِيَ الناسَ من الدهشة والعجب ما غَشِيَهُم، فإنهم ليفهمون كيف يكون تثقيفُ الناس وتفقيههم في دينهم من واجبات الحاكم والأمير، أما أن يكون من واجباته تنظيف طرقاتهم، فذاك شيء جديدُ عليهم بل مثير وعجيب»[٤].

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٨٢.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرج ـ ص٣١٤.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٤٠ و٣٤٢.
(٤) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٤.

وقد سبق كلمة أبي موسى تلك، قراءة كتاب عمر إلى أهل البصرة بتوليته، وقرأ الكتاب إما أبو موسى وإما أنس بن مالك الأنصاري، وقد جاء نَصُّ الكتاب في تاريخ الأمم والملوك للطبري والوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة بعنوان: «كتاب عمر إلى أهل البصرة في تأمير أبي موسى الأشعري» وهو: «أما بعد، فإني قد بعثتُ أبا موسى أميراً عليكم، ليأخذ لِضَعِيفكم مِنْ قويكم، ولِيُقَاتِل بكم عدوَّكم، ولِيَدْفع عن ذمتكم، ولِيُحصي لكم فَيْئكم، ثم لِيُقَسّمه بينكم»[١].

وفي ذلك اليوم بدأت ولاية أبي موسى الذي قال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«أخرج البخاري من طريق أبي التياح عن الحسن البَصري قال: ما أتى البصرةَ راكبٌ خيرٌ لأهلها مِنْ أبي موسى».

وكان من أبرز معالم عهد أبي موسى ومنجزاته العظيمة:

أولاً: تحويل البصرة إلى مدينة عاصمة:

وذلك أنه لما اختط عتبة بن غزوان موضع البصرة وسكنها المسلمون ـ سنة ١٤هـ ـ «بَنُوا المساكن بالقصب، وبَنَىٰ عتبةُ مسجداً من قصب، وكذلك بَنَىٰ عتبة دار الإمارة دون المسجد في الرحبة ـ بالقصب ـ وفيها السجن والديوان، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فإذا رجعوا أعادوا بناءه، فلم تزل الحال كذلك، ثم بَنَىٰ أبو موسى الأشعري المسجد ودار الإمارة بلبن وطين، وزاد في المسجد. واختط الناسُ في البصرة وبنو المنازل»[٢].

وبذلك تحولت البصرة من بيوت مَبْنِيَّة بالقصب، يتم نزع مساكنها عند المسير للغزوات، إلى مدينة ثابتة وعاصمة حقيقة، منذ عودة أبي موسى من فتح إقليم الأهواز سنة ١٧هـ، حيث قام أبو موسى ببناء المسجد الجامع في البصرة باللّبن والطين، وزاد في مساحة المسجد، وقام ببناء دار الإمارة والديوان والسجن باللّبن والطين، واختط الناس المنازل والدور في البصرة باللبن والطين وبالحجر والأساطين، فارتفعت المنازل والدور والقصور في البصرة وتحولت في عهد أبي موسى إلى مدينة حقيقة، فكان مؤسس البصرة كمدينة وعاصمة هو أبو موسى الأشعري، وكان من الدور والقصور الأولى في البصرة « دار ابن تُبّع: نُسِبَتْ إلى عبد الرحمن بن تُبّع الحميري. ودار دمون: وكان دمون من أهل الطائف فتزوج

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الرشيدة ـ محمد حميد الله ـ ص٤٢٤.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٤٠ ـ ٣٤٢.

أبو موسى ابنته فولدت له أبا بردة بن أبي موسى وقصر أنس بن مالك الأنصاري.. وقصر أوس الطائي.. وقصر عطية.. نُسِبَ إلى عطية الأنصاري»[1] وذكر ابن كثير «أن دار عبد الله بن خلف الخزاعي كانت أعظم دار بالبصرة»[2].

وقد اقترن ذلك التحول للبصرة إلى مدينة عاصمة وازدهارها وتشييد الدور والقصور فيها، بالفتوحات التي قادها أبو موسى إلى أرجاء بلاد فارس عام ١٧هـ وعام ١٩هـ وافتتاح المدن والعواصم الفارسية الكبيرة التي سيأتي ذكرها ـ عام ٢٠هـ ـ والغنائم الوفيرة التي غنمها العرب من جهة، واستقصاب البصرة لكثير من العشائر العربية التي أقبلت من اليمن وعمان والبحرين واليمامة للمشاركة في فتوح بلاد فارس واستقرت بالبصرة وخاصة بعد قيام أبي موسى بحفر وشق نهر البصرة الذي أدى إلى ازدهار عمراني وزراعي واسع من جهة أخرى.

ثانياً: حفر وشق أبي موسى لنهر البصرة:

كانت البصرة ـ كما وصفها الأحنف بن قيس ـ أرضاً «سبخة بشاشة لا يجف نداها ولا ينبت مرعاها، ناحيتها قِبل المشرق البحر الأجاج، ومن قِبل المغرب الفلاة، ويخرج الرجل الضعيف فيستعذبُ الماء من فرسخين، وتخرج المرأة لذلك فتربق ولدها كما يربق العنز يخاف بادرة العدو وأكل السَّبْع..» قال أبو عبيدة: «..وكان شرب الناس من مكان يُقال له دير قاووس فوهته في دجلة فوق الأبلّة بأربعة فراسخ يجري في سباخ لا عمارة على حافاته، وكانت الرياح تدفنه» ـ ولم يكن للمسلمين في البصرة زرع ولا ضرع ـ فلما تولى أبو موسى البصرة، أو لما رجع من فتح منطقة الأهواز وغيرها من بلاد فارس سنة ١٧هـ عقد العزم على حفر وشق نهر في البصرة، ونظراً لما يستلزمه ذلك من تكلفة مالية وجهود، كان التنفيذ يستلزم موافقة وأمر الخليفة عمر بن الخطاب، فسار الأحنف بن قيس وجماعة من أهل البصرة إلى عمر، فأخبروه بما يعانيه المسلمون وشرحوا له الحالة سالفة الذكر للبصرة، قال البلاذري: «فكتب عمر إلى أبي موسى يأمره أن يحفرَ لأهل البصرة نهراً». وجاء في كتاب الوثائق السياسية أنه:

«كتب عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما يأمره بحفر نهر لأهل البصرة، فحفر لهم النهر المعروف بنهر الأبلّة»[3].

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٤٠ ـ ٣٤٢.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٢٤٥.
(٣) الوثائق السياسية ـ محمد حميد الله ـ ص٥٢٢ ـ وفتوح البلدان للبلاذري ـ ص٣٥١ ـ ٣٥٢.

وكان مشروع النهر متكاملاً في تفكير أبي موسى، فلما وصل إليه كتاب عمر، بدأ أبو موسى بتنفيذ حفر وشق النهر، فذكر البلاذري عن جماعة من أهل العلم أنه: «كان لدجلة العوراء وهي دجلة البصرة خور، والخور طريق للماء لم يحفره أحد يجري فيه ماء الأمطار إليها ويتراجع ماؤها فيه عند المدّ وينضب في الجزر، وكان طوله قدر فرسخ، وكان لِحَدّه مما يلي البصرة غورة واسعة تُسمى الأجانة وهو على مقدار ثلاثة فراسخ من البصرة»(١).

فبداية خور دجلة الذي ذكره البلاذري هو الذي ذكره أبو عبيدة قائلاً: «كان شرب الناس من مكان يقال له دير قاووس فوهته في دجلة فوق الأبلّة بأربعة فراسخ يجري في سباخ لا عمارة على حافاته، وكانت الرياح تدفنه». ويتبين من ذلك أن أبا موسى بدأ بحفر وإصلاح ذلك الخور من فوهة دجلة العوراء إلى موضع الأجانة، وكان طول ذلك الخور نحو فرسخ [أي حوالي اثني عشر ألف متر] من فوهة دجلة إلى الأجانة، ثم ـ كما ذكر البلاذري ـ:

ابتدأ أبو موسى الحفر من الأجانة، وقاد النهر ثلاثة فراسخ حتى بلغ به البصرة، فصار طول نهر الأبلّة أربعة فراسخ ـ فالمساحة التي حفرها وشقها أبو موسى وقاد النهر فيها من الأجانة إلى البصرة ثلاثة فراسخ (وذلك حوالي ستة وثلاثين ألف متر) ـ وذلك غير الفرسخ الأول ـ وفي ذلك قال أبو عبيدة:

«قاد أبو موسى الأشعري نهر الأبلّة من موضع الأجانة إلى البصرة»(١).

وبذلك بلغ طول النهر الذي حفره وشقه أبو موسى من فوهة دجلة العوراء إلى داخل مدينة البصرة أربعة فراسخ ـ (وذلك حوالي ثمانية وأربعين ألف متر) ـ فازدهرت البصرة ازدهاراً عظيماً، وتم استصلاح مساحات هائلة من الأراضي وزراعتها، وتفرعت من النهر قنوات وفروع كثيرة، كما قام أبو موسى بحفر نهر فرعي على يد معقل بن يسار، وانتشرت القنوات والأنهار الفرعية، ولم يمض سوى وقت قصير حتى أصبحت أرض البصرة أخصب أرض، وارتفع عدد سكانها إلى زهاء مائة ألف من العرب، وذلك إلى جانب السكان السابقين الذين كانوا بنواحي البصرة قبل الفتح العربي الإسلامي، ثم الذين أوطنهم أبو موسى بالبصرة من الأساورة والزط ـ الذين سيأتي ذكرهم ـ إذْ إن البصرة أصبحت منذ عهد أبي موسى إحدى المدن والعواصم العربية الإسلامية الكبرى.

---

(١) الوثائق السياسية ـ محمد حميد الله ـ ص٥٢٢ ـ وفتوح البلدان للبلاذري ـ ص٣٥١ ـ ٣٥٢.

ثالثاً: التنظيم الخراجي والمالي:

ولقد كان لأبي موسى معرفة ودراية واسعة بتنظيم وإدارة الأمور الاقتصادية والمالية والإدارية والتوثيقية، منذ الفترة التي كان فيها والياً لقسم واسع من اليمن في عهد رسول الله ﷺ وخلافة أبي بكر الصديق، إذْ إن ولايته في اليمن خلال تلك الفترة (ما بين سنة ٩هـ وسنة ١٣هـ) أتاحت له اكتساب خبرة ممتازة، وكانت المناطق التي تولاها في اليمن من المناطق التي كانت تحت حكم الملوك الأذواء الحميرين وكان فيها تراث إداري وتنظيمي منذ عصر الدولة الحميرية يمكن الاستفادة منه:

ولما تولى أبو موسى البصرة، قام في سنة ١٦ ـ ١٧هـ بمسح شامل للمناطق التابعة للبصرة والتي كان أهمها مناطق كور دجلة التي تمتد إلى تخوم الأهواز في بلاد فارس، وتحديد وتنظيم الخراج المستحق عليها، وفي ذلك قال البلاذري:

«استقرى أبو موسى كور دجلة، فوجد أهلها مذعنين بالطاعة، فأمر بمساحتها، وَوَضَعَ الخراج عليها على قدر احتمالها».

وبذلك أصبح الإيراد المالي للولاية من الخراج معروفاً محدداً ومكتوباً في ديوان بيت المال، كما هو الحال بالنسبة للجزية على الرؤوس، ومبالغ المصالحة التي يؤديها حكام وأهالي الأهواز والمناطق التي تم ـ ويتم ـ مصالحتها، وتنظيم وتدوين العطاء الذي يتم صرفه للجيش والأهالي العرب المسلمين وغير ذلك من الأمور المالية، فكان ذلك التنظيم المالي من العوامل التي أتاحت تنفيذ مشاريع كبيرة مثل شق نهر البصرة وبناء وتوسيع المسجد الجامع ودار الأمارة وغير ذلك من المرافق العامة.

ولما شهدت المدينة المنورة والحجاز أزمة القحط والمجاعة التي اشتهرت باسم (عام الرمادة)، قال ابن كثير: «وكان عام الرمادة في آخر سنة سبع عشرة وأول سنة ثماني عشرة.. كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى بالبصرة أن: يا غوثاه لأمة محمد، فبعث إليه أبو موسى بقافلة عظيمة تحمّل البرّ وسائر الأطعمات»[(١)].

رابعاً: التنظيم الإداري.. والقضاء:

كان التنظيم الإداري ماثلاً في تفكير أبي موسى منذ قال له عمر بن الخطاب

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٩٠ و٩١.

(إني أريد أن أبعثك إلى البصرة) ـ أو (إني أريد أن أُوليك على البصرة) ـ فقال أبو موسى: (فأعِنّي بعدة من الأنصار)، فولاه عمر أميراً للبصرة وبعث معه ـ فيما ذكر ابن خلدون ـ تسعة وعشرون من الصحابة. ولم يكونوا جميعاً من الأنصار فقد كان بينهم من خزاعة ومن مذحج ومن الأزد ومن قريش وغيرهم، وإنما كانوا جميعاً من الصحابة، وبعد أن تولى أبو موسى البصرة بأمد يسير، بدأ بتنظيم وتوزيع المسؤوليات والاختصاصات فيما يشبه هيكلاً تنظيمياً إدارياً للولاية، وهو أمر غير مسبوق لا في البصرة ولا في الكوفة ولا في الشام وغيرها، فقد كان الأمير يتولى كل المسؤوليات، وهو ما ينطق به أيضاً كتاب عمر إلى أهل البصرة بتولية أبي موسى حيث قال: «إني قد بعثتُ أبا موسى أميراً عليكم، ليأخذ لضعيفكم من قويكم، وليُقاتل بكم عدوكم، وليدفع عن ذمتكم، وليُحصي لكم فيئكم ثم ليقسمه بينكم». وذلك بالإضافة إلى ما ذكره أبو موسى قائلاً: «إن أمير المؤمنين بعثني إليكم، أُعلمكم كتاب ربكم، وسنة نبيكم، وأنظف لكم طرقكم».

ثم ما لبث أن استحدث أبو موسى منصب نائب الأمير وخليفته إذا سار في الغزوات، وأسند ذلك المنصب ـ بالإضافة إلى تعليم الناس الفقه والقرآن ـ إلى الصحابي عمران بن الحصين الخزاعي اليماني، وربما كتب أو بعث أبو موسى إلى عمر يقترح ذلك، فأتى كتب عمر بإسناد ذلك إلى عمران بن الحصين، وفي ذلك ذكر البلاذري عن أبي مخنف والواقدي أنه «قَدِم أبو موسى البصرة واستكتب زياداً، وأتْبَعه عمر بن الخطاب بعمران بن الحصين الخزاعي، وصيّره على تعليم الناس الفقه والقرآن وخلافة أبي موسى إذا شَخَص عن البصرة». ولم يكن لذلك المنصب مثيل في بقية الولايات، وإنما تم في البصرة وفي عهد أبي موسى بناءً على إرادته.

وقام أبو موسى بإسناد الأعمال ومسؤوليات الدواوين والخراج ونيابة النواحي والقيادة العسكرية للمناطق والمحاور إلى ذوي الكفأة من الصحابة والشخصيات الفذة، وكان من أبرزهم: أنس بن مالك الأنصاري، والبراء بن مالك الأنصاري، والربيع بن زياد الحارثي المذحجي، وسمرة بن جندب الفزاري، وعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعرفجة بن هرثمة البارقي، وأمثالهم من الصحابة الأفذاذ.

وفي عام ١٧هـ تم استحداث منصب قاضي البصرة، وتولى ذلك المنصب القاضي كعب بن سوار الدوسي الأزدي، وقد وصفته عائشة أم المؤمنين بأنه «قاضي عمر بن الخطاب، وشيخ أهل البصرة، وسيد أهل اليمن»[1] وقد ولاه عمر

---

(١) الإمام علي ـ لمحمد رضا ـ ص٩٤ ـ والبداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٧ ص٩٣.

القضاء في البصرة سنة ١٧هـ، وقال ابن كثير: «في سنة ١٨هـ استقضى عمرُ كعب بن سوار على البصرة»[١]، وكان ذلك استجابة لرأي أبي موسى، أو في إطار مسؤولية أبي موسى عن القضاء، وقد جاء في كتاب أخبار القضاة لوكيع «عن القطّان بن سفيان عن أبيه قال: قرأتُ في كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى: لا تستقضيّن إلا ذا مال وذا حسب، فإن ذا مال لا يرغب في أموال الناس، وذا حسب يخشى العواقب بين الناس». ثم تولى قضاء البصرة كعب بن سوار الدوسي قاضي البصرة في ولاية أبي موسى.

ولقد كان أبو موسى من كبار قضاة الأمة، يؤكد ذلك قول ابن المديني «قضاة الأمة أربعة: عمر، وعلي، وأبو موسى، وزيد بن ثابت». ويبدو أن أبا موسى أراد وجود وثيقة تكون بمثابة تشريع مكتوب في سياسة ونهج القضاء، فكتب إليه عمر بن الخطاب الكتاب الذي ذكرته عشرات المصادر بعنوان «كتاب عمر إلى أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري المشهور بكتاب سياسة القضاء وتدبير الحكم» وهو «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري سلام الله عليك. أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمةٌ وسنة متّبعة، فافهم إذا أُدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلُّم بحق لا نفاذ له. وآس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيفُ من عدلك، وإن البينة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين الناس، إلا صلحاً أحلَّ حراماً أم حرم حلالاً. ولا يمنعك قضاءُ قَضَيته بالأمس فراجعتَ فيه نفسك وهُديت لرُشدك أن ترجع إلى الحقِّ فإن الحقّ لا يبطله شيء، واعلمْ أن مراجعة الحقّ خير من التمادي في الباطل. والفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سُنَّة، واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور بعد ذلك، ثم أعمد لأحبِّها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. وأجعلْ لمن ادَّعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بَيِّنة أخذَ بحقه، وإلا استحللت عليه القضاء. والمسلمون عدول في الشهادة إلا مجلوداً في حدٍ أو مُجرَّباً عليه شهادة زُور، أو ظنيناً في ولاءٍ أو قرابةٍ. . وإياك والقلق والضجر والتأذّي بالخصوم في مواطن الحق التي يُوجب الله بها الأجر ويُحسن الذخر، فإنه من صلحتْ سريرته فيما بينه وبين الله، أصلح اللَّهُ ما بينه وبين الناس. . والسلام عليك ورحمة الله»[٢].

---

(١) الإمام علي ـ لمحمد رضا ـ ص٩٤ ـ والبداية والنهاية ـ لابن كثير ـ جـ٧ ص٩٣.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد الله ـ ص٤٢٥ ـ ٤٣٥ ـ وقد أورد نص الكتاب عن عشرات المصادر المتواترة.

خامساً: استحداث ووضع التقويم الهجري الإسلامي:

وقد كان لأبي موسى الأشعري الدور الأساسي في استحداث ووضع التاريخ أو التقويم الهجري الإسلامي، وذلك أن أبا موسى لما تولى البصرة في ربيع الأول سنة ١٦هـ، أخذت تأتي إليه كتب من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليس لها تاريخ، فأشار أبو موسى على عمر بضرورة اتخاذ تاريخ سنوي للمسلمين تُؤرخ به الكتب والوثائق، فتشاور عمر مع الذين بالمدينة من الصحابة حول فكرة أبي موسى فاتفقوا على أن يبدأ التاريخ من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة فتكون السنة الأولى من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة هي السنة الأولى في التاريخ الإسلامي، وفي ذلك جاء في كتاب قرة العيون:

«إن أبا موسى هو الذي أشار على عمر بن الخطاب بوضع تواريخ للإسلام»[(١)].

وجاء في كتاب الوثائق السياسة للعهد النبوي والخلافة الراشدة ما يلي نصه:

«كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر: أنه تأتينا منك كُتبُ ليس لها تاريخ. فجمع عمر الناس للمشورة، فوضعوا التاريخ لهجرة المدينة، وكان ذلك في سنة ١٦ هجرية»[(١)].

* * *

وكان من أوائل الكتب المؤرخة، كتاب من عمر بن الخطاب إلى أبي موسى ـ في صفر سنة سبع عشرة ـ بشأن افتلاء أرض لتربية الخيول، فقد اقتنى رجل من أهل البصرة، يقال له نافع بن الحارث بن كلدة أبو عبد الله، خيلاً بالبصرة، وطلب أن يتم منحه أرضاً لافتلاء خيوله، (فكتب عمر إلى أبي موسى أن يقطعه عشرة أجربة ليس فيها حقُّ مسلم ولا معاهد، فأقطعه أبو موسى أرضاً على شاطئ دجلة، ليتخذ فيها قضباً لخيله، فكان نافع أول من افتلى الخيل في البصرة). وتم تطبيق ذلك المبدأ بمنح أرض (ليست من أرض الخراج، ولا تضر بأحد من المسلمين، ولا تكون أرض جزية ولا أرضاً يُجرى إليها ماء جزية) لمن يريد افتلاء الخيول، فساهم ذلك في انتشار اقتناء وتربية الخيول، وكان للخيول دور هام في الفتوحات التي انطلقت من البصرة إلى أرجاء بلاد فارس وغيرها بقيادة وتوجيه أبي موسى في خلافة عمر ثم في خلافة عثمان.

* * *

---

(١) قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ـ ابن الديبع ـ تحقيق الأكوع ـ ص٥٢ ـ والوثائق السياسية ـ محمد حميد الله ـ ص٥٢١.

ومن الكتب الهامة مكاتبة يصفها د. حميد الله بأنها «مكاتبة مع عمر في جمارك التجارة بين الدول» إذْ إنه «كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب: أن تجاراً من قِبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العُشر. فكتب إليه عمر: خُذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذِّمة نصف العشر. ومن المسلمين من كل أربعين درهماً، درهماً. وليس فيما دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة درهم، وما زاد فبحسابه». [ص٥١٩/ الوثائق السياسية].

فقام أبو موسى بتطبيق ذلك النظام الذي كان الأول من نوعه في عشور التجارة الخارجية ـ أو جمارك التجارة بين الدول في الإسلام ـ وكان ذلك بعد فتح الأهواز وما يليها سنة ١٧هـ.

* * *

وفي سنة ٢٢هـ «كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن: فرّقوا بين المجوس وحرمهم كيما نلحقهم بأهل الكتاب، واقتلوا كل ساحر وكاهن». وفي رواية ثانية: «كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن: اضربوا الزمازمة حتى يتكلّموا، وفرقوا بين كل رجل من المجوس وبين حرمته، واقتلوا السحرة»، وفي «رواية ابن حنبل: فرّقوا بين كل ذي محرم من المجوس، وانهوهم عن الزمزمة» وفي «رواية ابن زنجويه: أعرضوا على مَنْ قِبَلكم مِنْ المجوس أن يدعوا نكاح أُمهاتهم وبناتهم وأخواتهم..» فذلك تفسير قول عمر لأبي موسى «فرقوا بين المجوس وحرمهم..» وكان ذلك «قبل وفاة عُمر بسنة». حيث كان أغلب بلاد فارس والمجوس قد تم فتحها بقيادة وتوجيه سيد الفوارس أبي موسى الأشعري.

* * *

فتوح سيد الفوارس لبلاد فارس

لقد كان أبو موسى الأشعلاري الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «**سيد الفوارس، أبو موسى**» من أعظم عظماء الفاتحين، فهو فاتح بلاد فارس وقاهر مدن وعواصم ومعاقل الإمبراطورية الفارسية العتيدة، ففتوحات أبي موسى لا تقل أهميتها عن فتوح العراق والشام، بل إن أهميتها تفوق القادسية وغيرها من فتوح العراق التي دارت داخل أرض عربية يحتلها الفُرس فتم تحريرها تحت لواء الإسلام وانهزم وخرج كسرى يزدجرد من المدائن بالعراق ـ في صفر ١٦هـ ـ إلى أصبهان ثم لحق به بقية جيشه بعد موقعة جلولاء ـ في ذي القعدة ١٦هـ ـ وعادوا إلى بلادهم وهي بلاد فارس (إيران) التي هي أرض الإمبراطورية الفارسية، وفيها ـ ليس

في العراق ـ كانت المواجهات الكبرى وكانت العواصم والمدن والمعاقل العتيدة للإمبراطورية الفارسية والتي تُضاهي القسطنطينية وروما بالنسبة لإمبراطورية الروم، فقد انسحب الروم وملكهم هرقل من أرض الشام العربية إلى بلادهم التي كانت تُعرف بأرض الروم، وساق المسلمون الجيوش لفتحها على امتداد زهاء مائتي سنة فلم يتمكنوا من ذلك بينما انسحب الفرس وملكهم كسرى يزدجر من أرض العراق العربية إلى بلاد فارس فافتتحها سيد الفوارس أبو موسى الأشعري في سبع سنين، ومع ذلك يسود تجهيل مُريب بدوره العظيم وتتجاهل المناهج التعليمية والأكاديمية أنه من الفاتحين ناهيك من أنه كان من أعظم عظماء الفاتحين في التاريخ العربي الإسلامي، وفيما يلي عن ذلك النبأ اليقين.

أولاً: فتح الأهواز ونهر تيري:

في أوائل سنة ١٧هـ انطلق أمير البصرة أبو موسى الأشعري بجيشه العربي الإسلامي من البصرة إلى إقليم الأهواز في إيران. ونشير هنا إلى المنطقة الواقعة ما بين شرق نهر دجلة في البصرة إلى تخوم إقليم الأهواز كان يحكمها الهرمزان الفارسي أمير إقليم الأهواز غداة فتح تلك المنطقة حين كان عتبة بن غزوان أميراً للمسلمين في البصرة سنة ١٤هـ وكان أبو موسى من قادة فتح تلك المنطقة، فقد ذكر ابن كثير أنه «جهز أبو موسى من البصرة وعتبة بن غزوان جيشين لقتال الهرمزان، فنصرهم الله عليه، وأخذوا منه ما بين دجلة إلى دجيل، وغنموا من جيشه ما أرادوا، ثم صَانعهم وطلب مصالحتهم عن بقية بلاده، فشاوروا في ذلك عتبة بن غزوان، فصالحه». وكان ذلك سنة ١٤هـ لأن عتبة بن غزوان مات منصرفه من الحج سنة ١٤هـ. ولما تولى المغيرة بن شعبة إمارة البصرة سنة ١٥هـ قام بتوجيه غارة إلى الأهواز، وفي ذلك قال البلاذري: «غزا المغيرة بن شعبة سوق الأهواز فقاتله البيرواز دهقانها، ثم صالحه على مال، ثم نكث». وبذلك انتهى أثر تلك الغارة، فكان سلطان الفُرس ثابتاً في إقليم الأهواز فقد ساهم جنود حاكم الأهواز في الجيش الفارسي الذي احتشد في جلولاء التابعة لولاية الكوفة في ذي القعدة ١٦هـ فانهزموا وعادوا إلى إيران، وكان حاكم إقليم الأهواز وغيره من أقاليم بلاد فارس مرتبطين بملكهم كسرى يزدجرد في مدينة أصبهان.

وفي أوائل سنة ١٧هـ كان أبو موسى الأشعري على رأس أول جيش عربي إسلامي يجتاز العراق إلى أرض الأهواز في إيران، قال البلاذري: «غزا الأهواز أبو موسى الأشعري حين ولاه عمر بن الخطاب البصرة، فافتتح سوق

الأهوار عنوة، وفتح نهر تيري عنوة، وتولى ذلك بنفسه في سنة سبع عشرة»[١].

وذكر البلاذري عن أبي مخنف والواقدي أنه «سار أبو موسى من البصرة إلى الأهواز، فلم يزل يفتحها رستاقاً ونهراً نهراً، والأعاجمُ تهرب من بين يديه»[١].

وكان الهرمزان حاكم إقليم الأهواز قد حشد جيشاً في مدينة سوق الأهواز ـ وهي عاصمة الإقليم ـ حيث استعان الهرمزان بطائفة (من الزط والأساورة) وذلك إلى جانب جنوده من أهل الأهواز (فلما تقدم المسلمون بقيادة أبي موسى إلى مدينة سوق الأهواز وقع قتالُ مع الهرمزان) تشير إليه رواية في البداية والنهاية بقولها: «فبرز إليه المسلمون، فَنُصروا عليه، وقتلوا من جيشه جماً غفيراً، وخلقاً كثيراً، وجمعاً عظيماً، واستلبوا منه ما بيده من الأقاليم والبلدان إلا تستر، وتحصن بها، وبعثوا إلى عمر بذلاك، وقال الأسود بن سريع المذحجي في ذلك، وكان صحابياً رضي الله عنه:

لعمرَكَ ما أضاع بنو أبينا ... ولكن حافظوا فيمن يطيعوا
أطاعوا ربهم وعصاهُ يومُ ... أضاعوا أمرُه فيمن يضيعُ
مجوسٌ لا يُنهنهها كتابُ ... فلاقوا كبةً فيها قبوعُ
وولى الهرمزانُ على جوادٍ ... سريع الشدِّ يثفنُه الجميعُ
وخلى سرةَ الأهواز كرهاً ... غداةَ الجسرِ إذ نجم الربيعُ»

ويستفاد من البيتين الأخيرين أن هزيمة الهرمزان وجيشه تمت عندما هجم الربيع بن زياد الحارثي يوم جسر سوق الأهواز، وكان الربيع من كبار قادة جيش أبي موسى الأشعري، فلما هجم الربيع انهزم وهرب الهرمزان على جواد سريع إلى مدينة تستر فدخل أبو موسى والمسلمون مدينة سوق الأهواز وغيرها من نواحي الأهواز فاتحين. وقال شويش العدوي ـ وكان من جند أبي موسى ـ: «أتينا الأهواز وبنا ناس من الزط والأساورة فقاتلناهم قتالاً شديداً، فظفرنا بهم، فأصبنا سبياً كثيراً اقتسمناهم، فكتب إلينا عمر ـ أنه لا طاقة لكم بعمارة الأرض فخلوا ما في أيديكم من السبي واجعلوا عليهم الخراج، فرددنا السبي ولم نملكهم». وجاء في رواية بتاريخ الطبري عن مزاعم سيف بن عمر التميمي إن حرقوص بن زهير السعدي التميمي افتتح سوق الأهواز وأقام بها وكتب إلى عتبة بن غزوان، بينما عتبة كان قد مات قبل ثلاث سنوات، فيمكن أن يكون حرقوص السعدي من جنود أبي موسى، فتركه أبو موسى مع القوة التي رابطت في سوق الأهواز بعد الفتح بقيادة سمرة بن

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٧٠.

جندب، فقد ذكر البلاذري أنه «وَلّى أبو موسى سوق الأهواز سمرة بن جندب الفزاري حليف الأنصار»، ثم توجه أبو موسى إلى مناذر، قال الواقدي وأبو مخنف «سار أبو موسى من البصرة إلى الأهواز، فلم يزل يفتحها رستاقاً رستاقاً ونهراً نهراً، والأعاجم تهرب بين يديه، فغلب على جميع أرضها إلا مناذر وتستر ورامهرمز والسوس».

ثانياً: فتح مناذر الكبرى والصغرى:

انطلق أبو موسى من الأهواز إلى مناذر وهي مدينتان مناذر الكبرى ومناذر الصغرى، وكانت مناذر الكبرى مدينة حصينة فيها جيش من الفُرس فقاتلوا قتالاً شديداً وتحصنوا بالمدينة، قال البلاذري في فتوح البلدان:

«سار أبو موسى الأشعري إلى مناذر فحاصر أهلها، فاشتد قتالهم، فكان المهاجر بن زياد الحارثي أخو الربيع بن زياد بن الديان في الجيش فأراد أن يشري نفسه وهو صائم، فقال أبو موسى: عزمتُ على كل صائم أن يفطر أو لا يخرج إلى القتال، فشرب المهاجر شربة ماء، وقال: قد أبررت عزمة أميري والله ما شربتها من عطش، ثم راح في السلاح فقاتل حتى استشهد. فأخذ أهل مناذر رأسه ونصبوه على قصر لهم بين شرفتين، وله يقول القائل:

وفي مناذر لما جاش جَمْعُهم ... راح المُهاجرُ في حل بأجمال

والبيتُ بيتُ بني الديان نعرفه ... في آل مذحج مثل الجوهر الغالي

واستخلف أبو موسى الربيع بن زياد الحارثي على ـ حصار ـ مناذر، وسار إلى السوس، ففتح الربيع مناذر عنوةً، فقتل المقاتلة وسَبَى الذرية، وصارت مناذر الكبرى والصغرى في أيدي المسلمين.. وقال قومٌ: إن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى وهو مُحاصرُ مناذر يأمره أن يخلف عليها يسير إلى السوس، فخلف الربيع بن زياد الحارثي» [اهـ].

وكان حصار أبي موسى لمدينة مناذر واستشهاد المهاجر في رمضان ١٧هـ فاستخلف أبو موسى الربيع بن زياد، وجاء في ترجمة الربيع بن زياد بكتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) للقرطبي أنه «استخلفه أبو موسى سنة سبع عشرة على قتال مناذر فافتتحها عنوة، وقتل وسَبَىٰ، وقُتل يومئذ أخوه المهاجر بن زياد»(١). فلما فتح الربيع بن زياد مدينة مناذر ـ وكما ذكر البلاذري «صارت مناذر الكبرى والصغرى في أيدي المسلمين، فولاهما أبو موسى عاصماً ابن قيس بن

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ جـ١ ص٥١٦.

الصلت» وقال ابن حجر العسقلاني في ترجمة الربيع بن زياد بكتاب الإصابة أن الربيع «استخلفه أبو موسى على حرب مناذر سنة تسع عشرة، فافتتحها عنوة»[(١)]. فهذا التحديد لزمن فتح مناذر في سنة ١٩هـ قد يعود إلى وجود مدينتين باسم مناذر تم فتح إحداها سنة ١٧هـ ولم يتم غزو وفتح الثانية إلا بعد موقعة تستر ـ الآتي ذكرها ـ فأصبحت مناذر الكبرى والصغرى في أيدي المسلمين، واستعمل أبو موسى عليها عاصم بن قيس بن الصلت.

ثالثاً: فتح السوس وبرسيبوليس عاصمة الإمبراطورية الفارسية:

في شوال سنة ١٧ هجرية (٦٣٧ ميلادية) انطلق سيد الفوارس أبو موسى الأشعري إلى مدينة السوس SUSO عاصمة الإمبراطورية الفارسية العتيدة، قال ابن كثير في خبر فتح السوس: «والسوس بلد قديم العمارة في الأرض، يقال إنه أول بلد وضع على وجه الأرض، والله أعلم، وذكر ابن جرير أنهم وجدوا قبر دانيال بالسوس وأن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب في أمره. فكتب إليه أن يدفنه وأن يُغيب عن الناس موضع قبره. ففعل»[(٢)].

ولم تكن السوس أقدم مدينة في الأرض وإنما كانت مدينة قديمة العمارة في الأرض الفارسية وكانت عاصمة الإمبراطورية الفارسية منذ عهد مؤسسها الأقدم الملك كورش (CYRUS) في القرن السادس قبل الميلاد (٥٥٩ ـ ٥٢٠ق.م.) وقد جاء ذكرها في التوراة باسم (شوشن) واسمها (سوس) وفي المصادر الأجنبية (SUSO) وفي الترجمات (سوسة)، وكانت عاصمة الإمبراطورية الفارسية منذ عهد الملك كورش (٥٥٩ ـ ٥٢٠ق.م.) وهو الذي غزا بلاد بابل ـ العراق ـ وقضى على الدولة البابلية التي كان الملك بختنصر (نبوخذ نصر) أشهر ملوكها وكان بختنصر قد غزا ممالك الشام الأرامية العربية والكيان اليهودي وسبى اليهود إلى بابل وكان معهم النبي دانيال، ثم غزا الملك كورش بلاد بابل وقضى على الدولة البابلية وأسس الإمبراطورية الفارسية، وقام ابنه الملك دارا (داريوس الأول ٥٢٢ ـ ٤٨٥ق.م.) بتشييد قصر عظيم في مدينة السوس، تصفه الدراسات بأنه: «قصر فخم منيف قام ببنائه داريوس في مدينة سوسة SUSO واستخدم لتشييده مهرة الصُّناع من بلاد الإغريق ومصر وليديا وفارس»[(٣)]. وجاء في التوارة وصف للقصر

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ العسقلاني ـ جـ١ ص٥٠٤.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٨٨.
(٣) كتاب المعرفة ـ ترادكسيم ـ ص١٢٤.

في عهد الملك أكزركيس XERXES ملك الفرس عام (٤٨٦ ـ ٤٦٥ق.م.) وأنه «عمل الملك لجميع الشعب الموجودين في شوشن القصر وليمة سبعة أيام في دار جنة، قصر الملك»[1] وقد استمرت السوس عاصمة للفرس إلى عهد الملك سابور الذي غزا واحتل العراق في أوائل القرن الرابع الميلادي وأسس مدينة (المدائن) في شرق نهر دجلة بالعراق فأصبحت المدائن عاصمة ومقر الملوك الفرس الأكاسرة كما أصبحت القسطنطينية في تركيا عاصمة الإمبراطورية الرومانية في ذات الفترة بدلاً عن روما، ولكن روما وكذلك السوس بقيتا ذات مكانة كبيرة وهامة، فكانت السوس مقر المرزبان الذي يحكم السوس وما إليها من فارس القديمة (Persia) حين تقدم إليها الصحابي الأمير أبو موسى الأشعري بجيشه العربي الإسلامي في شوال ١٧هـ (٦٣٧م)، قال البلاذري في فتوح البلدان:

«سار أبو موسى إلى السوس فقاتل أهلها ثم حاصرهم حتى نفذ ما عندهم من الطعام فضرعوا إلى الأمان، وسأل مرزبانهم أن يُؤمَّن ثمانون منهم على أن يفتح باب المدينة ويُسلمها..» [اهـ].

وكان أبو موسى قد عرض على المرزبان منذ البداية الإسلام أو الصلح والجزية أو الحرب، فاختار المرزبان الحرب وتحصن بالمدينة فحاصرها أبو موسى وأثناء الحصار أصيب كثير من المسلمين بسهام ورماية الفُرس، قال البلاذري: «قال خالد بن زيد المزني، وكانت عينه أُصيبت في السوس» حاصرنا مدينتها وأميرنا أبو موسى، فلقينا جهداً، ثم صالحه دهقانها على أن يفتح له المدينة ويُؤمن له مائة من أهله، ففعل ـ فلما دخل أبو موسى وجنوده المدينة ـ قال أبو موسى للدهقان المرزبان: إعزلهم ـ أي الثمانين أو المائة الذين طلب لهم الأمان ـ فجعل المرزبان يعزلهم، وأبو موسى يقول لأصحابه: إني لأرجو أن يغلبه الله على نفسه، فعزل المائة وبقي عدو الله، فأمر به أبو موسى أن يُقتل، فنادى: رويدك أعطيك مالاً كثيراً، فأبَىٰ، فضُربت عنقه». قال البلاذري: «ولم يَعرَض أبو موسى للثمانين، وقَتَل من سواهم من المقاتلة ـ [الذين قتلوا من جند المسلمين] ـ وأخذ الأموال والسّبي» [اهـ]. وكان فتح أبو موسى لمدينة السوس في شوال أو في ذي القعدة سنة ١٧هجرية، وغنم المسلمون من كنوز ملوك الفرس القدماء والأكاسرة في مدينة السوس غنائم عظيمة، وارتفع نداء (الله أكبر) في عاصمة الفُرس العتيدة.

وكانت هناك مدينة ثانية اسمها السوس، أو أن اسم المدينة الأولى سوسة

---

(١) التوراة ـ سِفرا سترا.

Susa والثانية السوس وهي مدينة (برسيبوليس)، ولم تميز الروايات بين المدينتين والاسمين والفتحين، ولذلك جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير أنه: «قال بعضهم: أن فتح السوس ورامهرمز وتسيير الهرمزان من تستر كان في سنة عشرين». فأصل ذلك هو وجود مدينة ثانية باسم (السوس) تقع بالقرب من المدينة الأولى ولكن بين جبال شاهقة فلم يتعرض لها أبو موسى لما افتتح مدينة السوس الأولى (سوسة) سنة ١٧هـ، وقد جاء في كتاب المعرفة عن تلك المدينة الثانية أنها:

«مدينة أخرى، أحفلُ من مدينة سوسه بالعظمة والفخامة هي (برسيبوليس) التي أسسها (داريوس الأول) وكان موقعها وادياً خصباً تحميه الجبال الشاهقة، وقد عمل داريوس على تشييد مسطح فوق قمة صخرية عند طرف الوادي، وطوقه بالأسوار من الجبل ذاته. وفوق ذلك المسطح شُيدت قلعة شامخة»[١].

فلم يتعرض أبو موسى لتلك المدينة والقلعة الشامخة لما افتتح مدينة السوس (سوسة) ـ في ذي القعدة ١٧هـ ـ وقد طلب هرمزان (تُستر) وأهل (رامهرمز) و(جند سابور) المصالحة، فصالحهم أبو موسى على أداء ما تم فرضه عليهم، واكتفى بما تم فتحه، ورجع إلى البصرة. ثم حشد الفرس جيشاً عظيماً في (تُستر) ـ سنة ١٩هـ ـ فحاربهم وهزمهم المسلمون بقيادة أبي موسى في موقعة تُستر ـ التي سيأتي ذكرها ـ فلما تم انتصار وفتح تُستر، توجه أبو موسى من تُستر إلى مدينة وقلعة السوس الشامخة، وفي ذلك جاء في تاريخ الطبري والبداية والنهاية عن رواية سيف بن عمر التميمي أنه «سار أبو سبرة في طائفة من الجيش ومعه أبو موسى الأشعري والنعمان بن مقرن حتى نزلوا على السوس، فأحاطوا بها، وكتب أبو سبرة إلى عمر فجاء الكتاب بأن يرجع أبو موسى إلى البصرة» ـ ومن الملفت للانتباه في رواية سيف التميمي هذه أن الجندي (أبو سبرة) هو الذي كتب إلى عمر، بل أن (أبا سبرة سار في طائفة من الجيش ومعه أبو موسى الأشعري) بينما لم يحدث في التاريخ أن الأمير يسير مع الجندي وأن الجندي يكتب إلى الخليفة ويأتي الجواب إلى الجندي بعودة الأمير إلى البصرة، ولكن مزاحم وتلفيقان سيف التميمي تحاول دائماً قلب حقائق التاريخ، فالصحيح أن أبا موسى سار في فرقة من الجيش إلى مدينة وقلعة السوس (برسيبوليس) فحاصرها، فتحصن أميرها (شهريار أخو الهرمزان) وجنوده بمدينتهم وقلعتهم الشامخة، واستمر الحصار بعض الوقت.

---

(١) كتاب المعرفة ـ ترادكسيم ـ ص١٢٤.

قال البلاذري: «حدّثني جماعة من أهل العلم: أن سياه الأسواري كان على مقدمة يزدجرد ـ أي على مقدمة جيش كسرى يزدجرد ـ ثم أنه بعث به إلى الأهواز ـ (والأصوب: إلى اصطخر) فنزل سياه الأسواري الكلبانية وأبو موسى مُحاصرُ السوس». وقال المدائني: «وَجّه يزدجرد سياه الأسواري إلى اصطخر في ثلاثمائة فيهم سبعون رجلاً من عظمائهم، وأمره أن ينتخب مَنْ أحَب مِنْ أهل ومقاتلة كل بلد، فلما صار باصطخر وجهه إلى السوس وأبو موسى مُحاصرُ لها، فنزل سياه الكلبانية» قال البلاذري: «لما نزل سياه والأساورة الكلبانية، وَجه أبو موسى إليهم الربيع بن زياد الحارثي، فقاتلهم، ثم أنهم استأمنوا على أن يُسلموا، وأن يُحالفوا من شاءوا، وينزلوا بحيث أحبوا ـ من البلدان ـ وعلى أن يُلْحَقُوا بشرف العطاء.. فقال أبو موسى: بل لكم ما لنا وعليكم ما علينا، قالوا: لا نرضى. فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن أعطهم جميع ما سألوا»[1]. ويرتبط ذلك بما ذكره ابن كثير في خبر محاصرة السوس أنه: «جاء كتاب عمر بأن يرجع أبو موسى إلى البصرة» مما يتيح إدراك أن رجوعه إلى البصرة كان بسبب أولئك الفرس الأساورة وكانوا من نخبة الجيش الفارسي وبينهم ستة من القادة الفُرس، فلما جاء كتاب عمر إلى أبي موسى بأن يعطيهم جميع ما سألوا ـ أي الموافقة على الأمور التي اشترطوها ـ ومن بينها أن يسكنوا بحيث أحبوا، وأن يُفرض لهم في شرف العطاء ـ أي المرتبات ـ فأحبوا أن ينزلوا ويسكنوا في البصرة، فرجع أبو موسى من السوس إلى البصرة لكي يُسكِنهم بها ويقوم بترتيب أوضاعهم، فساروا معه إلى البصرة، واستمر جيش أبي موسى في محاصرة مدينة وقلعة السوس، وكان فيهم أبو سبرة بن أبي رهم، والنعمان بن مقرن، والقائد الربيع بن زياد. وقال ابن خلدون (كتب عمر إلى أبي موسى بالرجوع إلى البصرة، وأمّر أبو موسى مكانه الأسود بن ربيعة بن مالك وهو صحابي) ونعود بعد هذا التبيين إلى ما ذكره الطبري وابن كثير: «إن أبا سبرة والذين معه من الأمراء والجيش في حصار السوس، نَازَلوها حيناً، وقُتِل من الفريقين خلقٌ كثير، فأشرف عليهم علماء أهلها فقالوا: يا معشر المسلمين لا تتبعوا في حصار هذا البلد فإنّا نأثر فيما نرويه عن قدمائنا من أهل هذا البلد أنه لا يفتحه إلا المسيح الدجال أو قوم معهم المسيح الدجال. واتفق أنه كان في جيش أبي موسى الأشعري صاف بن صياد، فأرسله أبو موسى فيمن يحاصر السوس، فجاء إلى الباب فَدَقّهُ برجله فتقطعت السلاسل، وتكسرت الأغلاق، ودخل المسلمون البلد فقتلوا ـ أو قاتلوا ـ مَنْ وجدوا حتى نادوا بالأمان

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٦٥ ـ ٣٦٦.

ودعوا إلى الصلح فأجابوهم إلى ذلك»[1] وكان أبو موسى قد رجع من البصرة إلى السوس وهو الذي وَجَّهَ صاف بن صياد فكسر سلاسل وأغلاق الباب بضرب موضع عند الباب ترتبط به تلك السلاسل والأغلاق، فدخل المسلمون أول المدينة، وعندئذٍ طلب أهل السوس الأمان والمصالحة، فقد ذكر البلاذري عن المدائني «أن أهل السوس سألوا أبا موسى الصلح، فصالحهم»[2].

قال البلاذري: «ورأى أبو موسى في قلعتهم بيتاً وعليه سِتْر، فسأل عنه، فقيل له أن فيه جثة النبي دانيال عليه السلام، فإنهم كانوا قحطوا ـ أي أصابهم القحط قديماً ـ فسألوا أهل بابل دفعه إليهم ليستسقوا به ففعلوا، وكان بختنصر سَبَى دانيال وأتى به بابل فمات بها. فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن كِفّنه وأدفنه. فَسَكَّرَ أبو موسى نهراً حتى إذا انقطع، دفنه، ثم أجرى الماء عليه»[2].

ويتبين من عبارة «ورأى أبو موسى في قلعتهم بيتاً» إن مدينة السوس تلك هي مدينة (برسيبوليس) التي تَقَدَم ذكر أن الملك داريوس قام بتشييد مسطح فوق القمة الصخرية عند طرف الوادي وطوّقه بالأسوار من الجبل ذاته وفوق ذلك المُسطح شيد قلعة شامخة، وهي القلعة التي وجد فيها أبو موسى جثة النبي دانيال، ويبدو أن مدينة السوس تلك كان فيها جماعة من اليهود سكنوا فيها منذ زمن الملك الفارسي داريوس الأول بنك ورش ـ في القرن الخامس قبل الميلاد ـ إلى أن افتتحها سيد الفوارس أبو موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ ـ في القرن السابع الميلادي ـ وجاء في كتاب الوثائق السياسية ما يلي:

«لما فتح المسلمون السوس، وعليهم أبو موسى الأشعري، وجدوا دانيال في إيران، وإذا إلى جنبه مال موضوع، وكتاب فيه: «من شاء أتى فاستقرض منه إلى أجل، فإن أتى به إلى ذلك الأجل، وإلّا برص»، فالتزمه أبو موسى، وقَبّله، وقال (دانيال ورب الكعبة). ثم كتب في شأنه إلى عمر، فكتب إليه عمر أن: كفّنه، وحنّطه، وصلّ عليه، ثم أدفنه كما دُفِنت الأنبياء صلوات الله عليهم، وانظر ماله [المال الذي معه] فأجعله في بيت مال المسلمين. فكفّنه أبو موسى في قباطي بيض، وصلى عليه ودفنه»[3] وجاء في كتاب الوثائق أن فتح السوس سنة ١٧ هجرية[3] وهي السوس الأولى (سوسة) أما مدينة وقلعة السوس (برسيبوليس) فقد افتتحها أبو موسى بعد موقعة تُستر، وكانت موقعة تُستر في سنة ١٩ هجرية.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص٨٨.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد الله ـ ص٥٢٧.

رابعاً: موقعة تُسْتَر التاريخية الكبرى

قال الأستاذ خالد محمد خالد:

«في المعارك التي خاضها المسلمون ضد إمبراطورية الفُرس كان لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه بلاؤه العظيم وجهاده الكريم.. وفي موقعة تُسْتر بالذات، حيث انسحب الهُرْمز بجيشه إليها وتحصَّن بها، وجمع فيها جيوشاً هائلة، كان أبو موسى بطل هذه الموقعة»(١).

وكان الهُرْمزان حاكم إقليم الأهواز قد انسحب إلى مدينة وقلعة تُسْتر لما افتتح أبو موسى مدينة سوق الأهواز ورساتيق إقليم الأهواز ونهر تيري ـ سنة ١٧هـ ثم افتتح (مناذر) ومدينة السوس الأولى (سوسة) ـ في شوال أو ذي القعدة سنة ١٧هـ ـ واستجاب أهل (رامهرمز) و(جندي سابور) و(سُرق) إلى المصالحة، فصالحهم أبو موسى على أداء ما فَرَضَهُ عليهم من مال، واستعمل أبو موسى الصحابي سمرة بن جندب على مدينة سوق الأهواز ورساتيق الأهواز، وعاصم بن قيس على مناذر، وبعث أبا مريم الحنفي إلى (رامهرمز)، كما أسند أبو موسى إلى شبل بن معبد البجلي قبض المغانم والجزية، فلما رأى الهُرمزان ذلك بعث إلى نائب سوق الأهواز يطلب المصالحة، وكان أبو موسى قد رجع إلى البصرة، فكتب إليه نائب سوق الأهواز برغبة الهرمزان في المصالحة، فتمت الاستجابة لذلك ـ في أوائل سنة ١٨هـ ـ فوقع نوع من الاطمئنان إلى بقاء الهُرمزان وجيشه في تُسْتر، وكان كسرى يزدجرد ملك الفُرس مقيماً في مدينة أصبهان التي أصبحت عاصمته، فهاله ذلك الفتح العربي الإسلامي للأهواز والسوس ورامهرمز ومناذر وجند يسابور، فقام كسرى يزدجرد بالتحركات التي سبقت موقعة تستر. حيث ذكر ابن كثير سبب موقعة تستر قائلاً: «كان سبب ذلك أن يزدجرد كان يحرض أهل فارس في كل وقت ويؤنبهم بِمُلك العرب بلادهم، وقصدهم إياهم في حصونهم، فكتب يزدجرد إلى أهل الأهواز وأهل فارَس، فتحركوا وتعاهدوا وتعاقدوا على حرب المسلمين، وأن يقصدوا البصرة». وقال المدائني «وَجَه يزدجرد الهرمزان إلى تُستر» ويدل ذلك على أن الهرمزان سار إلى كسرى يزدجرد في أصبهان واشترك في ذلك التحرك والتعاهد والتعاقد الفارسي المجوسي على حرب المسلمين ورجع إلى مدينة تُستر فتدفقت إليه جحافل الفرس التي استنفرها كسرى يزدجرد والتي توجهت إلى تُسْتر، بحيث قال خالد محمد خالد أن الهُرمزان «جَمَع فيها جيوشاً هائلة» وهُمْ

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٧.

الذين ذكر ابن كثير أنهم «تحركوا وتعاهدوا وتعاقدوا على حرب المسلمين وأن يقصدوا البصرة».

وكان أبو موسى الأشعري أمير ولاية البصرة يتابع ويُراقب ذلك التحرك والحشد الفارسي، فقرر المبادرة بالمسير والهجوم على العدو في تُستر ـ قبل أن يتعاظم جيشهم ـ فاستنفر أبو موسى جيش ولاية البصرة. قال البلاذري: «وسار أبو موسى إلى تُسْتر، وبها شوكة العدو وحَدّهم، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمده، فكتب عمر إلى عمار بن ياسر ـ أمير الكوفة ـ يأمره بالمسير إليه في أهل الكوفة، فقدَم عمار جرير بن عبد الله البجلي».

ويؤكد ذلك أن زمن موقعة تُسْتر هو سنة ١٩هـ لأن عمار بن ياسر تولى إمرة ولاية الكوفة سنة ١٩هـ وكان جرير بن عبد الله البجلي أميراً لمنطقة حلوان والسواد ـ سواد شرق دجلة ـ بولاية الكوفة وشرق شمال العراق التابع للكوفة. قال البلاذري: «قدم عمار بن ياسر الكوفة، فكتب إلى جرير بن عبد الله البجلي يُعلِمَه أن عمر بن الخطاب أمره أن يُمدّ به أبا موسى الأشعري. فاسْتَخلَفَ جريرُ على حلوان عزرةَ بن قيس البجلي، وسار حتى أتى أبا موسى، في سنة تسع عشرة»[١].

فانضم جرير بن عبد الله وجنوده إلى أبي موسى الأشعري وجيشه في مشارف تُستر، وما لبث أن وصل إليهم عمار بن ياسر في جيش الكوفة مدداً لأبي موسى أمير البصرة والقائد العام للجيش العربي الإسلامي في موقعة تستر.

وقد يكون من المفيد هنا التنبيه إلى رواية ذكرها الطبري عن سيف بن عمر التميمي فنقلها عن الطبري ابن كثير وابن خلدون، فقد زعم سيف التميمي في تلك الرواية أن موقعة تستر سنة ١٨هـ وهو خطأ، والصحيح سنة١٩هـ، ثم زعم أن المسلمين حاصروا تُستر ولحقهم أهل الكوفة فحاصروها جميعاً وعلى الجميع أبو سبرة، فوجدوا الهرمزان قد حشد بها خلقاً كثيراً، وجماً غفيراً، وكتبوا إلى عمر في ذلك وسألوه أن يمدّهم، فكتب إلى أبي موسى أن يسير إليهم، فسار إليهم، وكان أمير أهل البصرة، واستمر أبو سبرة على الإمرة على الجميع ثم زعم في موضع آخر أنه: «كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يبعث جنداً كثيفاً مع سعد بن عدي أخي سهيل ويكون فيهم البراء بن مالك ومجزاءة بن ثور وعرفجة بن هرثمة وغيرهم، وعلى الجند أبو سبرة بن أبي رهم. وكتب عمر إلى سعد أن يبعث جنداً كثيفاً من الكوفة وعليهم النعمان بن مقرن، وعلى الجُندين ـ جند البصرة والكوفة ـ

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٩٩.

أبو سبرة، فاجتمعوا بتستر»، ثم كان ذكر ابن خلدون «أمدّهم عمر بأبي موسى وجعله على أهل البصرة». بينما الترتيب الصحيح أن المسلمين المرابطين في مدينة سوق الأهواز، وكان أميرهم الصحابي سمرة بن جندب، وليس أبو سبرة ـ كتبوا بخبر الحشود الفارسية في تُستر إلى أميرهم وهو أمير البصرة أبو موسى الأشعري لأنهم جنوده، ولا يمكن أن يكتبوا إلى عمر مباشرة، ثم كما ذكر البلاذري في فتوح البلدان «سار أبو موسى إلى تستر، وبها شوكة العدو، فكتب إلى عمر يستمده». وقد يكون أبو موسى بعث ـ أولاً ـ قوة من جيش البصرة مع سعد بن عدي، وفيهم البراء بن مالك ومجزاءة بن ثور وعرفجة بن هرثمة وأبو سبرة التميمي، فانضموا إلى القوة الإسلامية في مدينة سوق الأهواز بقيادة سمرة بن جندب عامل أبي موسى على مدينة سوق الأهواز، وكتب أبو موسى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بأن الفُرس قد حشدوا خلقاً كثيراً في تُسْتر، ويستأذنه في المسير لقتالهم ـ قبل أن تتعاظم حشودهم ـ ويسأله في ذات الوقت أن يمدّه بجيش من ولاية الكوفة، فكتب عمر إلى أبي موسى بأن يسير إليهم، فسار ببقية جيش وأهل ولاية البصرة إلى سوق الأهواز فانضمت إليه القوة الموجودة هناك، فانطلق بالجميع إلى تُستر، وانضم إليه جرير بن عبد الله البجلي ومن معه من جند ولاية الكوفة الذين كانوا في منطقة حلوان، إذْ إنه: «كتب عمار بن ياسر ـ أمير الكوفة ـ إلى جرير بن عبد الله يُعلمه أن عُمر أمير المؤمنين أمره أن يمدّ به أبا موسى، فسار جرير حتى أتى أبا موسى في تُستر» أو كما ذكر البلاذري «كتب عمر إلى عمار بن ياسر يأمره بالمسير إلى أبي موسى، فَقَدَم عمارُ جريراً بن عبد الله البجلي، ثم سار عمار ـ بجيش الكوفة ـ إلى تُستر». ولم يلتفت الأستاذ خالد محمد خالد إلى تلفيقات ومزاعم رواية سيف التميمي بأن عمر بن الخطاب أَمَدّ أبا سبرة التميمي بجند وأمراء البصرة والكوفة، فلم يحدث في التاريخ أن يكون أحد الجنود أميراً وقائداً على الصحابة والأمراء والولاة، وقد اعتمد خالد محمد خالد على المصادر الموثوقة قائلاً ما يلي نصه:

«في المعارك التي خاضها المسلمون ضد إمبراطورية الفُرس كان لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه بلاؤه العظيم وجهاده الكريم.. وفي موقعة تُسْتر بالذات، حيث انسحب الهُرْمُزان بجيشه إليها وتحصَّن بها، وجمع فيها جيوشاً هائلة، كان أبو موسى بطل هذه الموقعة، وقد أمدّه أمير المؤمنين عمر يومئذٍ بأعداد هائلة من المسلمين، على رأسهم عمار بن ياسر، والبراء بن مالك، وأنس بن مالك، ومَجْزَأة البكري، وسلمة بن رجاء.. والتقى الجيشان، جيش

المسلمين بقيادة أبي موسى، وجيش الفرس بقيادة الهُرْمُزان، في معركة مِنْ أشد المعارك ضراوة وبأساً»[١].

قال البلاذري في فتوح البلدان:

«وكان على ميمنة أبي موسى الأشعري ـ في معركة تستر ـ البرّاء بن مالك أخو أنس بن مالك، وعلى مسيرته مَجْزأة بن ثور السدوسي، وعلى الخيل أنس بن مالك. وعلى ميمنة عمار بن ياسر: البرّاء بن عازب الأنصاري، وعلى ميسرته حذيفة بن اليمان، وعلى خيلة قرظة بن كعب الأنصاري، وعلى رجالته النعمان بن مقرن المزني»[٢].

فكان ذلك هو التشكيل القيادي لجند ولاية البصرة بقيادة أبي موسى أمير البصرة وجند ولاية الكوفة بقيادة عمار بن ياسر العنسي أمير الكوفة، وكان أبو موسى هو الأمير والقائد العام للجميع حيث كما ذكر خالد محمد خالد «التقى الجيشان، جيش المسلمين بقيادة أبي موسى، وجيش الفرس بقيادة الهُرمزان في معركة من أشد المعارك ضراوة وبأساً». قال البلاذري: «تقاتلوا قتالاً شديداً» وقد بدأت المعركة بالمبارزة في مكان التقاء الجيشين ـ في السهل الممتد بمشارف مدينة تستر ـ فأخرج أبو موسى للمبارزة قائد ميمنته البراء بن مالك الأنصاري، وقائد الميسرة مَجْزَأة بن ثور السدوسي، وكعب بن ثور، وأبو يمامة، وأبو عتبة، وغيرهم من فرسان البصرة، وأخرج الهرمزان مائة من فرسان وقادة الفُرس للمبارزة، فبارزهم البراء بن مالك والذين معه، فسقط جميع أولئك الفُرسان بسيوف البراء بن مالك وأصحابه، ورجع البراء وإياهم إلى صفوفهم في الجيش الإسلامي، ثم أخرج الهُرمزان مائة من الفرسان للمبارزة فأخرج أبو موسى إليهم البراء بن مالك وعدد من فرسان جند الكوفة، فبارزوا فرسان العدو، فسقطوا جميعاً. وفي ذلك قال ابن كثير: «قَتَلَ البراء بن مالك يومئذٍ مائة مبارز سوى من قتل غير ذلك، وكذلك فعل كعب بن ثور، ومجزأة بن ثور، وأبو يمامة، وغيرهم من أهل البصرة. وكذلك أهلُ الكوفة قَتَل منهم جماعةٌ مائةَ مبارزةً، كحبيب بن قرة، وربعي بن عامر، وعامر بن عبد الأسود».

ثم التحم الجيشان، قال ابن كثير: «وكثر القتل من الفريقين، وقد تزاحفوا أياماً متعددة، حتى إذا كان آخر زحف قال المسلمون للبراء بن مالك ـ وكان

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٧.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٩٩.

مجاب الدعوة ـ: يا براءَ أقْسِم على ربك لَيَهْزِمَنْهُم لنا. فقال: اللهم اهزمهم لنا واستشهدني، فهزمهم المسلمون حتى أدخلوهم خنادقهم واقتحموها عليهم، ولجأ المشركون إلى البلد فتحصنوا به» [اهـ].

ويبدو أن أبا موسى قال للبراء بن مالك: يا براء أقسِم على ربك لَيَهْزِمَنْهُم. لأن أبا موسى كان قد نوى حسم تلك المواجهة في سهل مشارف مدينة تستر في ذلك، فقال البراء: اللهم اهزمهم لنا واستشهدني، فانطلق المسلمون بقيادة أبي موسى وعلى ميمنته البراء بن مالك فهزموا جيش الفُرس حتى تقهقروا ودخلوا خنادقهم، فاقتحم المسلمون الخنادق، فتقهقر الفُرس هاربين ومُنسحبين إلى داخل مدينة تُستر. قال البلاذري «وحمل أهل البصرة وأهل الكوفة حتى بلغوا باب تستر، فضاربهم البراء بن مالك على الباب حتى استشهد، ودخل الهرمزان وأصحابه المدينة في شرحال، وقد قُتِل منهم تسعمائة، وأُسِرَ ستمائة» ـ فحاصر أبو موسى مدينة تُستر ـ.

قال خالد محمد خالد «انسحب الفُرس إلى داخل مدينة تُستر المُحصنة، وحاصرها المسلمون أياماً طويلة حتى أعْمَلَ أبو موسى عقله وحيلَته، وأرسل مائتي فارس من المُسلمين مع عميلٍ فارسي، أغراهُ أبو موسى بأن يحتال حتى يفتح باب المدينة أمام الطليعة التي اختارها لهذه المهمة». وقال ابن كثير عن ذلك العميل الفارسي «طلب رجل من أهل البلد الأمان من أبي موسى فأمّنَهُ، فبُعث يدل المسلمين على مكان يدخلون منه إلى البلد، وهو مِنْ مدخل الماء إليها، فانتدب إلى ذلك رجال من الشجعان والأبطال، وجاءوا فدخلوا مع الماء ـ كالبط ـ إلى البلد، وذلك في الليل، وجاءوا إلى البوابين فأناموهم وفتحوا الأبواب، وذلك في وقت الفجر..» قال خالد محمد خالد: «ولم تكد الأبواب تُفتح، وجنود الطليعة يقتحمون الحِصْن حتى أنقضَ أبو موسى بجيشه انقاضاً مُدمْدِماً، واستولى على المعقل الخطير في ساعات» [اهـ].

وكان دخول أبو موسى وجيشه مدينة تستر الحصينة وهُمْ يُكبرون. قال ابن كثير: «.. وذلك في وقت الفجر حتى تعالى النهار، ولم يصلوا الصبح يومئذٍ إلا بعد طلوع الشمس كما حكاه البخاري عن أنس بن مالك قال: شهدتُ فتح تُستر، وذلك عند صلاة الفجر، فاشتغل الناسُ بالفتح فما صلوا الصبح إلا بعد طلوع الشمس. فما أحبُ أن لي بتلك الصلاة حُمر النعم. احتج بذلك البخاري لمكحول والأوزاعي في ذهابهما إلى جواز تأخير الصلاة لعذر القتال».

وذكر البلاذري أن الذي استأمن إلى المسلمين رجل من الأعاجم (فعاقده أبو

موسى. . ثم ندب أبو موسى أربعين رجلاً مع مجزأة بن ثور، واتبعهم مائتي رجل وذلك في الليل والمستأمنُ يقدمهم فأدخلهم المدينة، فقتلوا الحرس وكبروا على سور المدينة. . وعبر أبو موسى حين أصبح حتى دخل المدينة فاحتوى عليها. فلما سمع الهرمزان التكبير هرب إلى قلعته وكانت موضع خزانته وأمواله) قال ابن كثير (فلما حصروه في مكانه من القلعة. . قالوا له: ماذا تريد؟ قال: تُؤمنوني حتى أُسلمكم يدي فتذهبوا بي إلى عمر فيحكم فيّ بما يشاء) وقال البلاذري: «طلب الهرمزان الأمان، وأبى أبو موسى أن يعطيه ذلك إلا على حكم عمر، فنزل على ذلك» وقال خالد محمد خالد: «واستسلم قادة الفُرس حيث بعث بهم أبو موسى إلى المدينة ليرى أمير المؤمنين فيهم رأيه». وقد بعث أبو موسى بالهرمزان وخمس الغنائم مع أنس بن مالك الأنصاري إلى عمر فأخبره بالفتح العظيم في تُستر بقيادة أبي موسى الأشعري ـ وربما ناوله كتاباً من أبي موسى بالفتح كما هي العادة في الفتوح الكبرى ـ وابتهج أهل المدينة بالفتح، وتوجهوا جميعاً إلى المسجد النبوي حيث كان عمر بن الخطاب، (فنظر عمر إلى الهُرمزان وعليه الديباج والذهب المكلل بالياقوت واللألئ، فقال: أعوذ بالله من النار وأستعينُ بالله. ثم قال: الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدي نبيكم، ولا تغرنكم الدنيا فإنها غرارة. فقال له الوفد: هذا ملك الأهواز فكلمه، فقال: لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء، ففعلوا ذلك وألبسوه ثوباً صفيقاً) ـ ويبدو أن أنس بن مالك أخبر عمر بكل شيء في وقت تغيير ملابس الهُرمزان فلما ألبسوه ثوباً صفيقاً ومَثَل بين يدي عمر ـ وكما ذكر ابن كثير: «قال له عمر: يا هُرمزان كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال الهُرمزان: أنّا وإياكم في الجاهلية كان اللَّهُ قد خَلَى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا، فقال عمر: إنما غلبتونا في الجاهلية باجتماعكم وتَفَرُقنا. ثم قال: ما عذرك وما حجتك في انتقاضك. . فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أُخبرك، قال: لا تخف ذلك. فاستسقى الهرمزان ماءً، فأُتي بالماء في قدح، فلما أخذه قال: إني أخاف أن أُقتل وأنا أشرب، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه. فقال: لا حاجة لي في الماء إنما أردتُ أن أستأنسُ به، فقال له عمر: إني قاتِلُك، فقال: إنك أمنتني، قال عمر: كذبت، فقال أنس بن مالك: بل صَدَقَ يا أمير المؤمنين. فقال عمر: ويحك يا أنس أنا أُؤمِنُ مَنْ قتل مَجْزأة والبراء بن مالك، لتأتيني بمخرج وإلا عاقبتك، فقال أنس: قُلْتَ له لا بأس عليك حتى تخبرني وقُلْتَ له لا بأس عليك حتى تشرب. وقال له مَنْ حوله مثل ذلك. فأقبل عمر على

الهرمزان فقال: خدعتني والله لا أنخدع إلا أن تُسلم. فأسلم المرزبان ففرض له عمر في ألفين وأنزله المدينة» [اهـ]. ويبدو من تأمُل هذه الرواية عمر بن الخطاب لم يخدعه الهرمزان وإنما كان عمر وأنس بن مالك يرغبان في أن يعتنق ذلك الملك الفارسي دين الإسلام، لأن ذلك سيكون له تأثير إيجابي في بلاد الأهواز وما يليها، فاتخذ إسلامه الشكل المذكور في الرواية، وفرض له، عمر ألفين درهم في العطاء وأسكنه المدينة، وعاد أنس بن مالك والذين معه إلى أميرهم سيد الفوارس أبي موسى الأشعري الذي مَضَى في اجتياح وفتح بلاد فارس.

خامساً: فتح (رامهرمز) و(سُرق) و(مناذر الثانية)

كان أبو موسى قد صالح أهل (رامهرمز) و(سُرق) وهي (دورق) لما افتتح سوق الأهواز ورساتيق الأهواز، سنة ١٧هـ، ثم أنهم نكثوا واستجابوا لكسرى يزدجرد وحشدوا مع العدو في موقعة تُستر، فلما انتصر أبو موسى على جموع الفرس في موقعة تُستر، افتتح أبو موسى بالقوة مدينة تستر ثم (رامهرمز) و(سُرق) أو (دورق) ـ سنة ١٩هـ ـ وفي ذلك قال البلاذري: «فتح أبو موسى تستر والسوس ودورق عنوة». وكان «هادن أبو موسى أهل رامهرمز، ثم انقضت هدنتهم فوجه إليهم أبا مريم الحنفي فصالحهم على ثمانمائة ألف درهم». وذلك سنة ١٧هـ.

قال البلاذري: «حدّثني روح بن عبد المؤمن، قال: حدّثني يعقوب بن أبي عاصم الرامهرمزي، وكان قد بلغ المائة أو قاربها، قال: صالح أبو موسى أهل رامهرمز على ثمانمائة ألف أو تسعمائة ألف، ثم أنهم غدروا، ففُتِحَتْ بعد تُسْتر عنوةً، فتحها أبو موسى».

وكذلك «فتح أبو موسى سُرق على مثل صلح رامهرمز، ثم إنهم غدروا، فوجه إليها أبو موسى حارثة بن بدر الغُداني في جيش كثيف» فتم فتحها عنوة بعد موقعة تُستر وفتح رامهرمز. وقال ابن كثير: «قال بعضهم إن فتح السوس ورامهرمز الهرمزان من تستر إلى عمر في سنة عشرين للهجرة» والأصوب في أواخر سنة ١٩هـ.

ولما سار أبو موسى إلى فتح مدينة السوس الثانية (برسيبوليس) حاصر مدينة مناذر الثانية ثم استخلف على حصارها الربيع بن زياد الحارثي، قال العسقلاني: (استخلف أبو موسى الربيع بن زياد على حرب مناذر سنة تسع عشرة، فافتتحها عنوة) وقال البلاذري: «استخلف أبو موسى الربيع بن زياد على مناذر وسار إلى السوس، ففتح الربيع مناذر عنوة، وصارت مناذر الكبرى والصغرى في أيدي

المسلمين، فولاهما أبو موسى عاصم بن قيس بن الصلت». وسار الربيع بن زياد إلى السوس واشترك مع أبي موسى في حصار مدينة السوس الثانية (برسيبوليس) في أوائل سنة ٢٠ هجرية.

سادساً: فتح الكلبانية وإسلام الأساورة والزط والسيابجة

أثناء حصار أبي موسى الأشعري لمدينة السوس (برسيبوليس)، توجه القائد الفارسي (سياه الأسواري) في جيش من الأساورة ـ وهم فُرسان الفُرس ـ فنزلوا الكلبانية، وفي ذلك قال البلاذري: «حدّثني جماعة من أهل العلم، قالوا: كان سياه الأسواري على مقدمة يزدجرد، ثم إنه بعث به إلى الأهواز فنزل الكلبانية وأبو موسى محاصر السوس». وقال المدائني: «لما توجه يزدجرد إلى أصبهان دعا سياه الأسواري فوجهه إلى اصطخر في ثلاثمائة فيهم سبعون رجلاً من عظمائهم وأمره أن ينتخب من أهل كل بلد ومُقَاتِلَته من أحب. ثم اتبعه يزدجرد فلما صار باصطخر وجهه إلى السوس وأبو موسى مُحاصر لها، فنزل سياه الكلبانية، وبلغ أهل السوس أمر يزدجرد وهربه فسألوا أبا موسى الصلح، فصالحهم، وسياه بالكلبانية».

وقال البلاذري: «أن الأساورة لما انحازوا إلى الكلبانية، وَجَهَ أبو موسى إليهم الربيع بن زياد الحارثي، فقاتلهم، ثم إنهم استأمنوا على أن يُسلموا ويحاربوا العدو ويحالفوا من شاءوا وينزلوا بحيث أحبوا..» ـ فأرسل الربيع بذلك إلى أبي موسى.

وجاء في الرواية الأولى للبلاذري عن جماعة من أهل العلم إنه «.. نزل سياه الأسواري الكلبانية وأبو موسى محاصر السوس، فلما رأى سياه ظهور الإسلام وعزّ أهله وأن السوس قد فُتحت، والإمداد متتابعة إلى أبي موسى، أرسل إليه قائلاً: إنّا قد أحببنا الدخول في دينكم على أن نقاتل عدوكم، وعلى أنه أن وقع بينكم اختلاف لم نقاتل بعضكم مع بعض، وعلى إنه إن قاتلنا العرب منعتمونا منهم وأعنتمونا عليهم، وعلى أن ننزل بحيث شئنا من البلدان، ونكون فيمن شئنا منكم، وعلى أن نُلْحق بشرف العطاء. فقال أبو موسى: بل لكم ما لَنَا وعليكم مَا عَلينا، قالوا: لا نرضى. فكتب أبو موسى إلى عمر بذلك».

بينما قال أبو الحسن المدائني: «لم يزل سياه الأسواري مقيماً بالكلبانية حتى سار أبو موسى إلى تستر، فتحول سياه فنزل بين رامهرمز وتستر، حتى قدم عمار، فجمع سياه الرؤساء الذين خرجوا معه من أصبهان، فقال: قد علمتم بما كنا نتحدث به من أن هؤلاء القوم سيغلبون على هذه المملكة وأمرُهم في ظهور على ما

ترون فانظروا لأنفسكم وادخلوا في دينهم، فأجابوه إلى ذلك، فَوَجّه شيرويه في عشرة إلى أبي موسى الأشعري فأخذوا ميثاقاً على ما وصفنا من الشرط وأسلموا».

وقال ابن كثير: «كان يزدجرد قد صرف طائفة من أشراف أصحابه قريباً من ثلاثمائة من العظماء عليهم رجل يُقال له سياه. فكانوا يفرون ـ أو ينتثلون ـ من بلد إلى بلد حتى فتح المسلمون تستر واصطخر، فقال سياه لأصحابه: إن هؤلاء قد ملكوا أماكن الملوك الأقدمين ولا يلقون جنداً إلا كسروه، وما هذا عن باطل، ودخل في قلبه الإسلام وعظمته، فقالوا له: نحن تَبعٌ لك. وبُعث عمار بن ياسر في غضون ذلك يدعوهم إلى الله، فأرسلوا إلى أبي موسى الأشعري بإسلامهم. وكتب فيهم إلى عمر في ذلك، فأمره أن يفرض لهم في ألفين وألفين، وفرض لستة منهم في ألفين وخمسمائة، وحسن إسلامهم».

وكان ذلك بعد أن بعث أبو موسى الربيع بن زياد من السوس إلى الكلبانية، فقاتلهم، وحاصرهم، وفي غضون ذلك أتى إليهم عمار بن ياسر فدعاهم إلى الإسلام، فتشاوروا، وأرسلوا وفداً منهم إلى أبي موسى، فأنفذ الربيع بن زياد ذلك الوفد إلى أبي موسى ـ في مدينة السوس (برسيبوليس) ـ فأبلغوه بطلباتهم وشروطهم لكي يسلموا، وكان أبو موسى حريصاً على إسلامهم. قال البلاذري: «فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن أعطهم جميع ما سألوا، فخرجوا حتى لحقوا بالمسلمين وشهدوا مع أبي موسى حصار تستر (؟) فلم يظهر منهم نكاية، فقال أبو موسى لسياه: ما أنت وأصحابك كما كنّا نظن. فقال سياه: أخبرك إنه ليست بصائرنا كبصائركم، ولا لنا فيكم حرم نخاف عليها ونقاتل، وإنما دخلنا في هذا الدين في بدء أمرنا تعوذاً وإن كان الله قد رزق خيراً كثيراً. ثم فرض لهم أبو موسى في شرف العطاء». [ص٣٦٦ ـ فتوح البلدان].

وكان أبو موسى لما أتى إليه كتاب عمر بأن يعطيهم ما سألوا ويوافق على ما طلبوا، كتب لهم أبو موسى وثيقة بذلك، وهو ما يستفاد من قول المدائني (فأخذوا من أبي موسى ميثاقاً على ما وصفنا من الشرط، وأسلموا)، وسار معهم أبو موسى إلى البصرة التي اختاروا أن يسكنوها، فقام بترتيب أوضاعهم، وحدد لهم مساكنهم، وفرض لهم في شرف العطاء ـ أي المرتبات ـ وكانوا ثلاثمائة من فرسان الفرس الأساورة، ففرض لكل واحد منهم الفيّ درهم في العطاء، وفرض لستة منهم في الفين وخمسمائة، ثم رجع أبو موسى إلى مدينة السوس (برسيبوليس) فافتتحها، وقد تقدم نبأ فتحها.

وجاء في رواية البلاذري الأخيرة أن الأساورة شهدوا مع أبي موسى (حصار

تُستر). ويبدو أن ذلك التباس، لأن إسلامهم كان بعد موقعة وفتح تُستر، فربما شهدوا معه (موقعة نهاوند) أو (حصار وفتح جنديسابور)، ثم ساهموا مع أبي موسى في فتح (اصطخر)، قال ابن كثير: «وكان لهم ـ أي للأساورة ـ نكاية عظيمة في قتال قومهم حتى بلغ من أمرهم إنهم حاصروا حصناً فامتنع عليهم، فجاء أحدهم فرمى بنفسه في الليل على باب الحصن وضمخ ثيابه بدم، فلما نظروا إليه حسبوا إنه منهم، ففتحوا له باب الحصن ليأووه فثار إلى البواب فقتله، وجاء بقية أصحابه ففتحوا ذلك الحصن، وقتلوا مَنْ فيه مِن المجوس». [ص٨٩/ ٧ ـ البداية والنهاية].

وأمر أبو موسى بنشر خبر إسلام الأساورة وما نالوه من مزايا حتى يرغب آخرون من جند الفُرس وينضمون إلى الأساورة فيدخلون الإسلام بتلك المزايا، قال المدائني:

«فانضم إلى الأساورة السبابجةُ وكانوا قبل الإسلام بالسواحل، وكذلك الزط وكانوا بالطفوف يتتبعون الكَلَاء».

وقال البلاذري في فتوح البلدان:

«وانحاز إلى هؤلاء الأساورة قوم من مقاتلة الفرس ممن لا أرض لهم فلحقوا بهم بعد أن وضعت الحرب أوزارها في النواحي، فصاروا معهم حتى دخلوا الإسلام».

«وأما السيابجة والزط والاندغار فإنهم كانوا في جند الفرس ممن سبوه وفرضوا له من أهل السند، فلما سمعوا بأمر الأساورة، أسلموا وأتوا أبا موسى فأنزلهم البصرة كما أنزل الأساورة»[١].

سابعاً: فتح (جنديسابور) بعد السوس (برسيبوليس)

كان أبو موسى لما رجع من السوس إلى البصرة ـ لترتيب وضع الأساورة ـ (استخلف على حصار السوس: الأسود بن ربيعة بن مالك وهو صحابي يُسمى المُقترب، ومعه أبو سبرة بن أبي رهم، والربيع بن زياد، وغيرهم) قال ابن خلدون: «فأحاط أبو سبرة بالسوس ومعه المقترب بن ربيعة في جند البصرة، فسأل أهل السوس الصُلح فأجابوهم. ثم كانت وقعة أبي موسى فحاصرهم وصالحهم على الجزية، وسار إلى رامهرمز».

---

(١) قال البلاذري «وكانت جماعة السيابجة موكلين ببيت مال البصرة، يقال أنهم أربعون، ويقال أربعمائة».

وقد سلف تبيين أن أبا موسى رجع من البصرة إلى مدينة السوس (برسيبوليس) فافتتحها، وصالح أهلها على أداء الجزية، ودفن جثمان النبي دانيال، ووضع أبو موسى حامية في مدينة السوس، ثم أعاد افتتاح رامهرمز. قال ابن خلدون: «وسار المقترب بن ربيعة ـ من السوس ـ إلى ذَرّ بن عبد الله على جنديسابور، فحاصروها مدة» وقال ابن كثير أن الذي سار من السوس إلى جنديسابور هو (أبو سبرة بن أبي رُهم) فحاصرها. ويجمع ذلك إنهم كانوا جميعاً ـ المقترب وذر بن عبد الله وأبو سبرة ـ في القوة التي وجهها أبو موسى إلى مدينة جنديسابور، فحاصروها، ثم ما لبث أن وصل أبو موسى من (رامهرمز) التي افتتحها إلى (جنديسابور) التي يحاصرها جنوده.

وجاء في الرواية التي ذكرها ابن خلدون إنه «سار المقترب بن ربيعة إلى ذر بن عبد الله على جنديسابور فحاصروها مُدة، ثم رُمي السهم بالأمان من خارج على الجزية، فخرجوا لذلك، فناكرهم المسلمون، فإذا عبدُ فعل ذلك أصله منهم، فأمضى عُمر أمانه». والأصوب أن الذي أمضى أمان ذلك العبد وافتتح جنديسابور وصالح أهلها هو أبو موسى الأشعري حيث وصل إليها وجنوده يحاصرونها، فقد جاء في فتوح البلدان للبلاذري إنه:

«سار أبو موسى إلى جنديسابور، فطلبوا الأمان، فصالحهم على أن لا يقتل منهم أحداً ولا يسبيه، ولا يتعَرَض لأموالهم سوى السلاح».

وبذلك تم فتح جنديسابور على يد أبي موسى، وكان ذلك آخر فتوح أبي موسى سنة ٢٠ هجرية، والتي شملت بقية الأهواز، وتُستر، ومناذر، ورامهرمز، وسُرق وهي دورق، والسوس (برسيبوليس)، والكلبانية، وجنديسابور، وإسلام الأساورة وغيرهم على يد أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ورجع أبو موسى من تلك الفتوح إلى مدينة البصرة التي تحولت على يده إلى مدينة كبيرة وعاصمة لولاية واسعة يمتد نطاقها إلى برسيبوليس عاصمة الفُرس التليدة.

ثامناً: موقعة نهاوند «فتح الفتوح»

كانت الفتوحات العربية الإسلامية التي تمت بقيادة أبي موسى الأشعري ـ سنة ١٧ ـ ٢٠هـ ـ في إقليم الأهواز وإقليم فارس ـ في شرق وسط وجنوب إيران، فلم يتعرض المسلمون لمناطق شرق شمال إيران وإقليم أصبهان الذي في عاصمته ـ مدينة أصبهان ـ كان مقر الملك كسرى يزدجرد ملك الأمبراطورية الفارسية، وكانت منطقة نهاوند ـ التابعة لإقليم أصبهان ـ تقع في مواجهة مناطق ولاية الكوفة

بالعراق، فحشد كسرى يزدجرد جيشاً كبيراً في نهاوند. قال ابن خلدون: «لما فُتحت الأهواز، بعث يزدجرد إلى الملوك ما بين الباب والسند وخراسان يستمدهم، فأجابوه واجتمعوا إلى نهاوند وعلى الفُرس الفيرزان في مائة وخمسين ألف مقاتل». وقال ابن كثير: «اجتمع أهل فارس من كل فج بأرض نهاوند، حتى اجتمع منهم مائة وخمسون ألفاً، وعليهم الفيرزان، ويقال بندار، ويقال ذو الحاجب..» وجاء في فتوح البلدان للبلاذري: أن الذين اجتمعوا من الفُرس «أهل الريّ وقومس وأصبهان وهمذان والماهين، فاجتمعوا إلى يزدجرد وذلك في سنة عشرين للهجرة، فأمَّرَ عليهم مردانشاه ذا الحاجب، وكانت عدّتهم يومئذٍ ستين ألفاً ويقال مائة ألف، وكان عمار بن ياسر قد كتب إلى عمر بن الخطاب بخبرهم». [ص٣٠٠ فتوح البلدان]. وذلك لأن عمار بن ياسر كان أمير ولاية الكوفة منذ سنة ١٩هـ.

فأمر عمر بمسير ثلثي جيش ولاية الكوفة إلى نهاود. وبقاء الثلث مع أمير الكوفة لحماية البلد، وأسند عمر قيادة جيش الكوفة إلى النعمان بن مقرن، قال البلاذري: «وقال عمر للنعمان: إن أصبت فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أصيب فجرير بن عبد الله البجلي، فإن أصيب فالمغيرة، فإن أصيب فالأشعث بن قيس». قال الحافظ ابن كثير:

«وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجند أهل البصرة إلى نهاوند، وإذا اجتمع الناس فكُلُ أميرُ على جيشه. والأمير على جميع الناس النعمان بن مقرن، فإذا قُتل فحذيفة بن اليمان، فإنِ قُتل فجرير بن عبد الله، فإن قُتِل فقيس بن مكشوح المرادي، فإن قُتل ففلان ثم فلان حتى عد سبعة بينهم المغيرة بن شعبة». وكذلك ذكر الطبري وقال: (حتى عدّ سبعة آخرهم المغيرة بن شعبة). وإن أول السبعة: النعمان بن مقرن، ثم حذيفة بن اليمان، ثم جرير بن عبد الله البجلي، ثم قيس بن مكشوح المرادي. وقد ذكر البلاذي منهم (الأشعث بن قيس). فأولئك خمسة، ولم تذكر الروايات السادس، أما السابع فالمغيرة بن شعبة، فقد يكون السادس أبو موسى، أو أن ذلك التحديد خاص، بجيش ولاية الكوفة، بينما كان أبو موسى أميراً قائداً لجيش ولاية البصرة في موقعة نهاوند، وهو مقتضى قول عمر: «إذا اجتمع الناس فكلُ أمير على جيشه». وقال خالد محمد خالد في كتابه (رجال حول الرسول): «أرسل عمر إلى المقاتلين كتابه يقول: إذا اجتمع المسلمون فليكن كُلُّ أمير على جيشه، وليكن أمير الجيوش جميعاً النعمان بن مقرن، فإذا استشهد فليأخذ الراية حذيفة. فإذا استشهد فجرير بن عبد الله. وهكذا مضى أمير

المؤمنين في تحديد قواد المعركة حتى تسمّى منهم سبعة». [ص٢٥٣]. وقال ابن خلدون: «ولى عمر على الحرب النعمان بن مقرن المُزني وكان على جند الكوفة. . فرحل النعمان ـ إلى نهاوند ـ وعَبّى المسلمين ثلاثين ألفاً، فلما ترأى الجمعان، كبر المسلمون وحطت العرب الأثقال، وتبادر أشراف الكوفة إلى فسطاط النعمان وفيهم حذيفة بن اليمان. . وجرير بن عبد الله، وحنظلة الكاتب، وبشير بن الخصاصية، والأشعث بن قيس، ووائل بن حُجر، وسعيد بن قيس الهمداني»[1] فقد اجتمع في نهاوند كبار الصحابة والأمراء والقادة اليمانيين في مناطق ولاية الكوفة وغيرها مِنْ العراق أمثال جرير بن عبد الله البجلي خيرُ ذي يمن. وكان جرير يومئذٍ أمير إقليم حُلوان والجبال، ووائل بن حُجر الحضرمي ـ وهو الجد الأعلى لابن خلدون ـ وسعيد بن قيس الحاشدي الهمداني، وفيه قال حارثة بن بدر الغُداني (وهو الذي كان أبو موسى بعثه إلى منطقة سُرق بفارس):

اللَّهُ يجزي سعيد الخير نافلة — أعني سعيد ابن قيس قِرم همدان

وقال حارثة بن بدر الغُداني في قصيدة أخرى:

. . يقودهم ملكٌ جزلٌ مواهبه — واري الزناد لدى الخيرات مذكورُ
أغرّ أبلج يُستسقى الغَمامُ به — جنابه الدهر يضحى وهو مطمور
أعني سعيد بن قيس خير ذي يمنٍ — سامي العماد لدى السلطان محبور[2]

وكان من الصحابة القادة في نهاوند عمرو بن معدي كرب الزُبيدي فارسُ العرب، وقيس بن مكشوح المرادي بطل اليمن في فجر الإسلام، والأشعث بن قيس الكندي قائد ميمنة المسلمين في نهاوند، بينما كان أبو موسى الأشعري قائد وأمير جيش ولاية البصرة في موقعة نهاوند، فاندلعت موقعة نهاوند يوم الأربعاء، قال البلاذري: «فكان النعمان بن مقرن أول مقتول يوم نهاوند». قال الطبري والمسعودي: «فاجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس الكندي»، ثم أخذ راية القيادة حذيفة بن اليمان، وكان على الميمنة الأشعث بن قيس، وعلى جيش البصرة أبو موسى الأشعري، فتم الفتح والنصر في اليوم الثالث لموقعة نهاوند ـ وهو يوم الجمعة ـ وانهزم الفرس (هزيمة لا نكاد نجد لها نظيراً). وَسَميٰ العرب فتح نهاوند باسم (فتح الفتوح). قال الشاعر في حُجر بن عَدِي الكندي:

ويوم جَلَوْلاَ الوقيعة لم يُلمْ — ويوم نهاوند الفتوح وتُسْترا

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٢٧ و٣٢٨.

(٢) الأغاني ـ لابن فرج الأصفهاني ـ جـ١٠ ص٢٥.

تاسعاً: فتح أبي موسى للدينور

قال ابن خلدون: «كان أبو موسى الأشعري قد حضر نهاوند على أهل البصرة، فلما انصرف مَرّ بالدينور فحاصرها خمسة أيام ثم صالحوه على الجزية»[١].

وقال البلاذري: «انصرف أبو موسى الأشعري من نهاوند وقد كان سار بنفسه إليها على بعث أهل البصرة ـ [فلما تم فتح نهاوند انصرف منها أبو موسى إلى الدينور] ـ فأقام أبو موسى محاصراً الدينور خمسة أيام، قُوتل منها يوماً واحداً، ثم أن أهلها أقَرّوا بالجزية والخراج وسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، فأجابهم أبو موسى إلى ذلك، وخَلَفَ بها عامله في خيل»[٢].

وذكر البلاذري عن المبارك بن سعيد الكوفي قال: «كانت نهاوند من فتوح أهل الكوفة، والدينور من فتوح أهل البصرة ـ [فتحها أبو موسى] ـ فلما كثر المسلمون بالكوفة احتاجوا أن يُزادوا في النواحي التي كان خراجها مقسوماً فيهم، فصُيرت لهم الدينور، وعُوض أهل البصرة نهاوند لأنها من إقليم أصبهان»[٢] بينما منطقة الدينور التي فتحها أبو موسى الأشعري كانت من إقليم هَمَذَانْ، وقد استكمل فتح إقليم هَمَذان جرير بن عبد الله البجلي، فأصبحت منطقة الدينور مع بقية إقليم هَمَذَانْ تابعة لولاية الكوفة وتولى إقليم همذان الأمير جرير بن عبد الله البجلي، بينما أصبحت منطقة نهاوند تابعة لولاية البصرة ولأميرها أبي موسى الأشعري لأن نهاوند من إقليم أصبهان فانتقل عامل أبي موسى في الدينور إلى نهاوند، ومما يتصل بالدينور أن القائد اليمني كثير بن شهاب الحارثي بَنَى قصراً في الدينور.

عاشراً: فَتْح (ماسبذان) و(سيروان)

قال البلاذري في فتوح البلدان: «ثم مضى أبو موسى من الدينور إلى ماسبذان. فلم يقاتله أهله ـ فصالحهم ـ وقوم يقولون: أن أبا موسى فتح ماسبذان قبل موقعة نهاوند». والأصوب أن فتح ماسبذان بعد الدينور لأنهما من إقليم هَمَذَان، وبالتالي فإن فتح الدينور وماسبذان كان بعد نهاوند. ومما يتصل بماسبذان في فترة لاحقة أن: «زهرة بن الحارث بن منصور بن قيس بن كثير بن شهاب الحارثي اتخذ بماسبذان ضياعاً»[٢].

قال ابن خلدون؛ «وسار أبو موسى إلى أهل شيروان، فصالحوه كذلك»[١]

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٢٧ و٣٢٨.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٤.

وشيروان في تاريخ ابن خلدون هي (السيروان) في فتوح البلدان وقد سار إليها أبو موسى بعد فتح الدينور وماسبذان، قال البلاذري:

«وصَالَح أبو موسى أهل السيروان على مثل صلح الدينور، وعلى أن يؤدوا الجزية والخراج، وبث السرايا فيهم فَغَلَبَ على أرضها»[١].

حادي عشر: فَتح (الصيمرة) و(مهرجانقذف)

قال ابن خلدون: «وبعث أبو موسى السائب بن الأقرع إلى الصيمرة ففتحها صلحاً»[٢]. والصيمرة هي عاصمة ومدينة منطقة مهرجانقذف ـ بإقليم هَمَذَان ـ قال البلاذري في فتوح البلدان:

«بعث أبو موسى الأشعري السائب بن الأقرع الثقفي وهو صهره على ابنته وهي أُم محمد بن السائب، إلى الصيمرة مدينة مهرجانقذف، ففتحها صلحاً على حقن الدماء وترك السباء والصفح عن الصفراء والبيضاء وعلى أداء الجزية وخراج الأرض. وفَتَح جميع كور مهرجانقذف»[١].

وقد تولى كثير بن شهاب الحارثي المذحجي ـ فيما بعد ـ إمرة منطقة ماسبذان ومهرجانقذف والماهين. قال البلاذري: «فَبَنَىٰ قصره المعروف بقصر كثير في ماسبذان، ثم إن زهرة بن الحارث بن منصور بن قيس بن كثير بن شهاب اتخذ ضياعاً بماسبذان».

ويتبين من ذلك أن أبا موسى الأشعري افتتح بعد موقعة نهاوند قسماً واسعاً من إقليم هَمَذَان يشمل مناطق الدينور، وماسبذان وسيروان والصيمرة وجميع كور مهرجانقذف، وقد فتح أبو موسى تلك المناطق خلال شهرين بعد موقعة نهاوند، وذلك في أواخر سنة ٢٠ هجرية، ثم عاد أبو موسى إلى البصرة.

ثاني عشر: مسح الأهواز. والمشاركة في فتح إقليم الرّي

جاء في فتوح البلدان إنه «لما انصرف أبو موسى الأشعري من نهاوند سار إلى الأهواز فاستقرأها». فيكون ذلك بعد قيامه بفتح الدينور وماسبذان والصيمرة ومهرجانقذف ـ بإقليم همذان ـ ثم رجع إلى إقليم الأهواز، فاستقرى مناطق ومدن الأهواز، والمقصود أنه أمر بمساحتها. ووضع الخراج عليها على قدر احتمالها، ثم عاد إلى البصرة.

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٤.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٢٧ و٣٢٨.

وما لبث أن أتى كتاب وإذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الأمراء والقادة في ولايتي الكوفة والبصرة بالانسحاب في بلاد الأعاجم، قال ابن خلدون: «أمر عمر بالانسياح في بلاد الأعاجم. . وَوَلّى عمار بن ياسر على الكوفة، وأمدّهم بأبي موسى الأشعري. .» والظاهر أن ذلك كان في فتح إقليم الري، وفي ذلك قال البلاذري: «كتب عمر إلى عمار بن ياسر بعد شهرين من موقعة نهاوند يأمره أن يبعث عروة بن زيد الخيل الطائي إلى الرّي ودُسْتُبى في ثمانية آلاف، ففعل، وسار عروة إلى ما هناك فجمعت له الديلم وأمدّهم أهل الري فقاتلوه، وأظهره الله عليهم فقتلهم واجتاحهم». . وذكر ابن خلدون أنه «جاء الخبر بخروج الديلم وأهل الري واسفنديار أخو رستم» وعندئذٍ وَجّهَ عمر عدداً من القادة بينهم نعيم بن مقرن، ويزيد بن قيس الهمداني، وجرير بن عبد الله البجلي. . وأمر عمر نعيماً بقصد الريْ» فيبدو أن ذلك هو وقت ما أشار إليه ابن خلدون قائلاً: «وأمدّهم عمر بأبي موسى» ومما يدل على ذلك قول البلاذري «وقد كان أبو موسى غزا الري بنفسه». [ص٣١٥ ـ فتوح البلدان].

فساهم أبو موسى في غزو وفتح القسم الذي تم فتحه من إقليم الري آنذاك ـ سنة ٢١هـ ـ ثم ولى عمر بن الخطاب المغيرة بن شعبة على الكوفة بعد عمار بن ياسر ـ في آواخر سنة ٢١هـ ـ فولى المغيرة كثير بن شهاب الحارثي على إقليم الري، وعندئذٍ «غزا كثير بن شهاب الديلم فأوقع بهم وأذعنت له البلاد وغزا الببر والطيلسان» وذلك سنة ٢٢ ـ ٢٣هـ، ثم «افتتح أبو موسى بقية أعمال الري وطالقان ودماوند، في خلافة عثمان»(١).

ثالث عشر: فتح (بيروذ) و(الثيبان) و(ذي الرناق)

بعد أن ساهم أبو موسى في فتح مناطق إقليم الري التي تم غزوها سنة ٢١هـ، توجه إلى منطقة بيروط ـ الواقعة بين نهر تيري وبين مناذر من الأهواز ـ حيث أتاه النبأ بأن جموعاً كبيرة من الأعاجم وأعظمهم الأكراد تجمعوا في منطقة بيروذ لغزو المسلمين، قال ابن خلدون: «خبر الأكراد وفتح بيروذ»:

«اجتمع ببيروذ بين نهر تيري ومناذر من الأهواز جموع من الأعاجم أعظمهم الأكراد، وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى أن يسير ردءاً للأمراء المنساحين، فسار أبو موسى إلى بيروذ وقاتل تلك الجموع قتالاً شديداً، ثم وهن اللّهُ المشركين فتحصنوا منه في قلة وذلة، فاستخلف أبو موسى عليهم الربيع بن

---

(١) البدؤ والتاريخ للمقدسي ـ جـ٥ ص١٩٧ ـ والمعارف لابن قتيبة ـ ص١٩٢ ـ وفتوح البلدان للبلاذري ـ ص٣١٤.

زياد وسار إلى أصبهان . . ففتح الربيع بن زياد بيروذ، وغنم ما فيها»[١].

وكان أبو موسى قد عهد إلى الربيع بن زياد الحارث أن يتوجه بعد فتح بيروذ إلى الثيبان وأن يتوجه ابن ذي جرة الحميرية لفتح قلعة ذي الرناق، وكذلك كان، قال البلاذري عن أبي رجاء.

«فتح الربيع بن زياد الثيبان من قِبل أبي موسى عنوة. . .

قال المدائني: وفتح ثات بن ذي جرة الحميري قلعة ذي الرناق»[١].

وبذلك تم فتح مدن ومعاقل الأكراد المنيعة في إيران، ويبدو أن (نهر تيري) هو (نهر رندة) حالياً، وبيروذ هي (شهركرد).

رابع عشر: فتح (قُمْ) و(قاشان)

كان (قُمْ) و(قاشان) و(جيّ) و(اليهودية) و(أصبهان) هي المدن والمناطق الرئيسية في إقليم أصبهان، وكان أبو موسى لما سار بجيش البصرة إلى (بيروذ) قد استخلف على البصرة عمران بن حصين الخزاعي لأنه (كان عمران خليفة أبي موسى إذا شَخَصَ من البصرة)، وجاء في رواية ذكرها ابن خلدون إنه (تولى البصرة عمرو بن سراقة) فلما ألحق أبو موسى الهزيمة بالأعاجم والأكراد في (بيروذ) استخلف الربيع بن زياد الحارثي على حصار (بيروذ) في قوة من جيش البصرة، وبعث أبو موسى قوة بقيادة عبد الله بن بديل الخزاعي لفتح منطقة (جيّ) و(اليهودية) بينما مضى أبو موسى على رأس قوة لفتح مدينة (قُمْ) ومنطقة (قاشان) فافتتحهما، وفي ذلك قال ابن خلدون:

«افتتح أبو موسى قُمْ وقاشان»[١].

وقال البلاذري في فتوح البلدان:

«أتى أبو موسى مدينة قُمْ، وأقام عليها أياماً فافتتحها».

وقد أصبحت مدينة قُم التي فتحها سيد الفوارس أبو موسى الأشعري مركزاً للزعامة الدينية والعلمية الإسلامية في إيران، وما تزال مركزاً دينياً وعلمياً هاماً في إيران حتى اليوم.

وأما (قاشان) فقد ذكر البلاذري رواية تقول: «وَجَهَ أبو موسى الأحنف بن قيس إلى قاشان فافتتحها عُنوة، ثم لحق به ـ أي إلى أصبهان ـ» ثم قال البلاذري: «. . وأصح الأخبار: أن أبا موسى فَتَح قُم وقاشان». ويتفق ذلك مع ما ذكره ابن خلدون بأنه (فَتَحَ أبو موسى قُمْ وقاشان).

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٢٩ ـ وفتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٧٥.

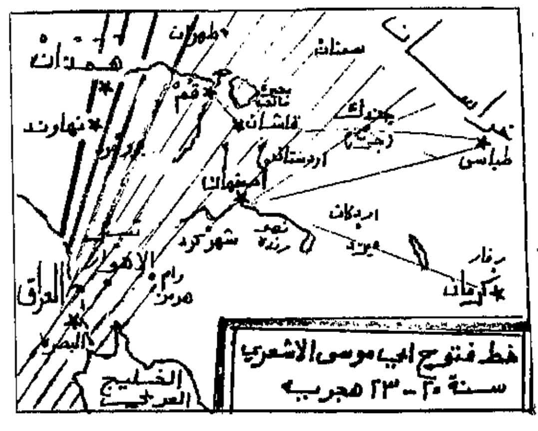
وقال ابن كثير في أحداث (سنة إحدى وعشرين للهجرة):
«وفيها افتتح أبو موسى الأشعري قُمْ وقاشان»[(١)].

خامس عشر: فتح عاصمة وإقليم أصبهان

كانت مدينة أصبهان (أصفهان)، أو مدينة (جيّ) في إقليم أصبهان، مقر وعاصمة كسرى يزدجرد ملك الأمبراطورية الفارسية منذ انسحابه من (المدائن) و(حلوان) في العراق إلى إيران ـ سنة ١٧هـ ـ ومن مدينة أصبهان قام يزدجرد باستنفار وتوجيه الجيوش إلى تُسْتر ـ سنة ١٩هـ ـ فهزمها أبو موسى الأشعري وافتتح تُستر ورامهرمز وغيرهما ـ سنة ١٩ ـ ٢٠هـ ـ ثم بعث يزدجرد الجيوش التي استنفرها من مناطق شمال إيران إلى نهاوند ـ سنة ٢٠هـ ـ وبعد انهزام جيشه في نهاوند بأمد يسير افتتح أبو موسى مناطق شرق إقليم همذان، ثم أخذ يتقدم إلى إقليم أصبهان ـ سنة ٢١هـ ـ وحينئذٍ حدث ما ذكره البلاذري قائلاً: «لما فرغ المسلمون من نهاوند هرب يزدجرد من أصبهان إلى اصطخر» ثم «هرب إلى كرمان»، ويتبين من ربط الوقائع أن انسحاب وهروب كسرى يزدجرد من أصبهان كان حين تقدم إليها الجيش العربي الإسلامي بقيادة سيد الفوارس أبي موسى الأشعري أمير ولاية البصرة، فقد قام أبو موسى بتقسيم جيشه إلى ثلاث فرق، فرقة بقيادة الربيع بن زياد الحارثي في (بيروذ) بمنطقة الأكراد ـ التي منها ـ (شهركرد) حالياً ـ إلى نهر تيري (نهر كرده) في جنوب إقليم أصبهان، وفرقة بقيادة عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي[(٢)] الذي انطلق إلى أصبهان (اليهودية وجيّ) في

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٧ ص١١٢.

(٢) هو الصحابي والزعيم اليماني (عبد الله بن بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي) قال القرطبي في ترجمته (كان سيد خزاعة، وكان له قدر وجلاله، وكان من وجوه الصحابة) وجاء في كتاب الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن لبامطرف أن عبد الله بن بُديل: «صحابي، كان من الدعاة الفصحاء، انتهت إليه السيادة في خزاعة» [ص٣٢٩] وخزاعة قبيلة من اليمن وهم بنو (خزاعة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ).



خط فتوح أبي موسى الأشعري
سنة ٢٠ ـ ٢٣ هجرية

ذات الوقت الذي انطلق فيه أبو موسى على رأس الفرقة الثالثة من جيشه فافتتح (قم) و(قاشان) في شمال إقليم أصبهان ثم توجه جنوباً ليلتقي بالفرقة التي يقودها عبد الله بن بديل الخزاعي في (جي) و(اليهودية). وقد نسبت بعض الروايات توجيه عبد الله بن بديل إلى عمر بن الخطاب، وجاء في الرواية التي ذكرها ابن خلدون عن فتح أصبهان أنه «بعث عمر بن الخطاب عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى أصبهان، وكان من الصحابة مِنْ وجوه الأنصار» بينما جاء في فتوح البلدان للبلاذري أنه: «وَجّه عمر بن الخطاب عبد الله بن بُديل بن ورقاء الخزاعي إلى أصبهان. ويُقال: بل كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بتوجيه عبد الله بن بُديل في جيش إلى أصبهان فَوَجَهَهُ». وقال البلاذري: «وقد رُوِيّ أن عمر بن الخطاب وَجه عبد الله بن بديل في جيش فَوَافى أبا موسى وقد فتح قُمْ وقاشان فغزوا جميعاً أصبهان، وعلى مقدمة أبي موسى الأحنف بن قيس ففتحا اليهودية جميعاً، ثم فتح ابن بُديل جيّ..»[١].

وبما أن أبا موسى هو أمير ولاية البصرة يمكن إدراك أنه الذي وَجّه فرقة من جيش البصرة بقيادة عبد الله بن بديل الخزاعي، ومعه عبد الله بن عبد الله بن عتبان الأنصاري، ـ وكان ذلك عن أمر وموافقة عمر أمير المؤمنين ـ بينما توجه أبو موسى إلى شمال إقليم أصبهان فافتتح قُمْ وقاشان، في ذات الوقت الذي تقدم فيه عبد الله بن بديل إلى المنطقة الجنوبية من إقليم أصبهان التي منها (اليهودية). في رواية البلاذري ـ بينما ذكرها ابن خلدون باسم (رستاق أصبهان) ويبدو أن اليهودية كانت مدينة رئيسية في (رستاق أصبهان) ـ الأول ـ الذي فيه مدينة (أصفهان) ومدينة (أردستان) وكان أمير ذلك الرستاق (الإسبيدان). وفي فتح ذلك الرستاق قال ابن خلدون: «فسار عبد الله بمن معه نحو أصبهان، وكان على جندها الإسبيدان وعلى مقدمته شهريار بن جادويه في جمع عظيم برستاق أصبهان. فاقتتلوا، وبارز عبد الله بن ورقاء شهريار فقتله، وانهزم أهل أصبهان ـ بذلك الرستاق ـ وصالحهم الإسبيدان على ذلك الرستاق». وقد ذكر البلاذري مدينة اليهودية بصفتها المدينة الرئيسية في ذلك الرستاق الذي يمكن تمييزه بأنه (رستاق الإسبيدان) ويبدو أن (اليهودية) تقع في منطقة (أردستان) حالياً. فذكر البلاذري رواية تقول: «وَجّهَ عبد الله بن بديل الأحنف بن قيس وكان في جيشه إلى اليهودية فصالحه أهلها..». وفي رواية ثانية: «أن عبد الله بن بديل فتح اليهودية» وفي رواية ثالثة ـ وهي الأرجح ـ إنه «وَجّه عبد الله بن بُديل في جيش، فوافى أبا موسى وقد فتح قم

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٨.

وقاشان فغزوا جميعاً أصبهان، وعلى مقدمة أبي موسى الأحنف بن قيس، ففتحا اليهودية جميعاً». فقدوم أبي موسى وجيشه من قاشان في الشمال وقدوم عبد الله بن بديل وجيشه من رستاق أصفهان في الجنوب، والتقاء الجميع عند اليهودية ـ في منطقة أردستان حالياً ـ يتفق مع التخطيط الحربي فقد تم اجتياح ذلك الرستاق من الشمال والجنوب في وقت واحد، ودخل أبو موسى وعبد الله بن بديل مدينة اليهودية، وتم مصالحة الإسبيدان على ذلك الرستاق، وعند ذلك فيما يبدو هرب أو انسحب كسرى يزدجرد من مدينة جيّ ـ التي كان مقيماً بها في أصبهان ـ إلى اصطخرا وإلى كرمان.

* * *

ثم تقدم الجيش العربي الإسلامي ـ من أردستان ـ إلى رستاق مدينة جيّ (جيندك حالياً) في شرق أصبهان، قال ابن كثير: (ومدينة جيّ هي مدينة أصبهان) ـ أي أنها كانت عاصمة إقليم أصبهان ـ وقد تقدم الجيش العربي الإسلامي إلى رستاق ومدينة جيّ من اتجاهين، حيث سار عبد الله بن بُديل على رأس فرقة من الجيش وأبي موسى على رأس فرقة من الجيش إلى رستاق ومدينة جيّ وكان حاكم إقليم جيّ وأصبهان يقال له: (الفوذ سفان). وهنا تذكر الروايات إنه (وَجَه عمر بن الخطاب عبد الله بن بديل إلى أصبهان وكان مرزبانها يُسمى الفاذسفان). ويتصل بذلك قول البلاذري: «ويقال: بل كتب عمر إلى أبي موسى بتوجيه عبد الله بن بديل في جيش إلى أصبهان، فَوَجَهَه». ولا شك أن التوجيه كان من أبي موسى مباشرة، وخاصة بعد فتح رستاق الإسبيدان واليهودية (أردستان). قال ابن خلدون: «ثم ساروا ـ (يعني عبد الله بن عبد الله بن عتبان وعبد الله بن بديل وجيشه) ـ إلى أصبهان وتُسمى جيّ وملكها الفاذوسفان، فصالحهم على الجزية، والخيار بين المقام والذهاب، وقال: ولكم أرضُ من ذهب. وقدم أبو موسى على عبد الله فدخل معه أصبهان». وذكر البلاذري عن رواية محمد بن إسحاق إنه «كان مرزبان أصبهان يُسمى الفاذوسفان، فحاصره عبد الله بن بديل، وكَاتَبَ أهل المدينة فخذلهم عنه، فلما رأى المرزبان إلتياث الناس عليه اختار ثلاثين رجلاً من الرماة يثق ببأسهم وطاعتهم، ثم خرج من المدينة هارباً يريد كرمان ليتبع يزدجرد ويلحق به. فانتهى خبره إلى عبد الله بن بديل فاتبعه في خيل كثيفه، فالتفت إليه المرزبان وقد علا شرفاً ـ أي تلاً مرتفعاً ـ فقال: اتق الله على نفسك فليس يسقط لِمَن ترى سهم فإن حملت رميناك وإن شئت أن تبارزنا بارزناك. فبارزه عبد الله بن بديل.. ثم قال له: يا هذا ما أحبُّ قتلك فإني أراك عاقلاً شجاعاً فهل لك في أن أرجع

معك فأصالحك على أداء الجزية، فَمَنْ أقام ـ من أهل البلد ـ كان ذمة، ومَنْ هرب لم أتعرض له. فرجع عبد الله بن بديل معه، ففتح جيّ، وَوَفَىٰ بما أعطاه»[١].

وكان أبو موسى الأشعري قد وصل إلى مدينة أصبهان (جيّ) عندما سار عبد الله بن بديل لمطاردة الفاذوسفان والذين معه، فحاصر أبو موسى المدينة وافتتحها، أو أن عبد الله بن بُديل رجع بالفاذوسفان إلى أبي موسى، فتمت مصالحة الفاذوسفان، ودخل عبد الله بن بديل مع أبي موسى مدينة أصبهان (جيّ) فكان أبو موسى هو فاتح مدينة أصبهان (جيّ) وإقليم أصبهان، وكان لعبد الله بن بُديل اسهامه الوافر في ذلك، ولكن بصفته قائداً وطليعة في جيش أبي موسى لأن أبا موسى هو الأمير، وقد ثبت في كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) للعسقلاني أن أبا موسى الأشعري «هو الذي افتتح أصبهان»[٢] ويؤكد ذلك كتاب الصلح للفاذوسفان وأهل أصبهان، فقد جاء في الرواية التي ذكرها ابن خلدون أن أهل أصبهان وتُسمى جيّ وملكها الفاذوسفان «صالحهم عبد الله بن عبد الله بن عتبان على الجزية والخيار بين المقام والذهاب» وقال ابن كثير في أحداث (سنة إحدى وعشرين) إنه «وفي هذه السنة افتتح المسلمون مدينة جيّ وهي مدينة أصبهان بعد قتال كثير وأمور طويلة، فصالحوا المسلمين، وكتب لهم عبد الله بن عبد الله كتاب صلح وأمان». وفي رواية البلاذري وابن إسحاق (عبد الله بن بديل بن ورقاء). والصحيح أن عبد الله بن بديل كان شاهداً في كتاب الصلح وإن الذي فتح أصبهان وكتب كتاب الصلح للفاذوسفان وأهل أصبهان هو سيد الفوارس أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري، فقد جاء في تاريخ الطبري وفي كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة في نهاية نص (كتاب معاهدة أصفهان) إنه «كتب وشهد عبد الله بن قيس. وعبد الله بن بديل بن وَرقاء. وعِصمة. .» وفيما يلي نص (كتاب عهد أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري لأهل أصبهان):

«بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب من عبد الله بن قيس للفاذوسفان وأهل أصبهان وحواليها:

إنكم آمنون ما أدّيتم الجِزية بقدر طاقتكم في كل سنة، تؤدُّونها إلى الذي يَلي [يتولى] بلادكم، عن كل حالم. وعليكم دلالة المسلم، وإصلاح طريقه، وقِرأة يوماً وليلةً، وحُملان الراجل إلى مرحلةٍ، لا تُسلطوا على مسلم. وللمُسلمين

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٨.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة أبي موسى الأشعري ـ جـ٢ ص٣٦١.

نُصحكم وأداء ما عليكم. ولكم الأمان ما فعلتم. فإذا غَيّرتم شيئاً أو غيّره مغيّر منكم ولم تُسلِّموه. فلا أمان لكم.

كتب وشهد عبد الله بن قيس، وعبد الله بن بُديل بن وَرقاء، وعِصمة بن عبد الله»[1].

واستعمل أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري على عاصمة وإقليم أصبهان الأمير عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، ومعه السائب بن الأقرع الثقفي صهر أبي موسى عاملاً على بعض رستاق أصبهان ونائباً لعبد الله بن بديل، ورجع أبو موسى إلى البصرة. قال البلاذري: «وسار عبد الله بن بُديل في نواحي أصبهان سهلها وجبلها فَغلب عليها، وَعامَلَهم في الخراج نحو ما عومل عليه أهل الأهواز. وكانت للأشراف من أهل أصبهان معاقل بجفرباد من رستاق الثيمرة الكبرى ببهجاورسان وبقعلة ماربين، فلما فُتحت جيّ دخلوا في الطاعة على أن يؤدوا الخراج وانفوا من الجزية فأسلموا».

عودة أبي موسى من أصبهان إلى البصرة والمكاتبة مع عمر

عاد سيد الفوارس أبي موسى الأشعري من فتح إقليم أصبهان إلى البصرة، وفي ذلك قال ابن خلدون: «سار أبو موسى إلى أصبهان.. فلما فُتحت رجع إلى البصرة، وفتح الربيع بن زياد الحارثي بيروذ وغَنَم ما فيها ولحق به بالبصرة، وبعثوا إلى عمر بالفتح والأخماس. وأراد ضبه بن محصن العنزي أن يكون في الوفد فلم يجبه أبو موسى..».

فقد بعث أبو موسى وفداً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فيهم أنس بن مالك الأنصاري، والربيع بن زياد الحارثي، والأحنف بن قيس، وبعث معهم بكتاب عن فتح قُمْ وقاشان ومدينة وإقليم أصبهان وبيروذ والثيبان وذي رناق، وَوَجَه أبو موسى مع الوفد خمس الغنائم من تلك الفتوحات، وكان خُمس الغنائم شيئاً كثيراً من المال والتحف والسبيّ، فوصل الوفد إلى المدينة في موكب مهيب، والتقوا بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وذلك سنة ٢١هـ ـ ربما أواخر سنة ٢١هـ ـ وقد شملت مهمة الوفد إبلاغ أمير المؤمنين بهروب أو انسحاب كسرى يزدجرد إلى إقليم كرمان أو إلى اصطخر، ونقل الأحنف بن قيس إلى أمير المؤمنين أنه «لا يزال أهل فارس يقاتلون وينتقضون ما دام ملكهم فيهم، أو حتى يهلك ملكهم، فلو أذنت بالانسياح في بقية بلادهم، فأزلنا مُلكهم انقطع رجاؤهم». فأذن عمر بذلك.

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد الله ـ ص٤٤٢.

وكان ضبة بن محصن العنزي أراد أن يبعثه أبو موسى في ذلك الوفد إلى عمر، فلم يُجبه أبو موسى، قال ابن خلدون: «فغضب ضبة، وانطلق شاكياً إلى عمر، بانتقاء أبي موسى ستين من أبناء الدهاقين لنفسه، وإنه أجاز الحطيئة بألف درهم ـ أو ألف دينار ـ وولى زياد بن أبي سفيان أمور البصرة. واعتذر أبو موسى، وقَبلَه عمر»[1].

وقد شملت وشاية ضبة بن محصن العنزي ـ النجدي ـ بأبي موسى إنه قد صار له ولأهل بيته هيئة في لباسه ومركبه وموكبه ليس للناس مثلها، وإنه انتقى ستين من أبناء دهاقين بلاد فارس لنفسه ـ أي موالي له ـ وإنه أعطى الشاعر الحطيئة ألف درهم ـ أو ألف دينار ـ بالإضافة إلى الزعم بأنه ولى زياد بن أبي سفيان أمور البصرة. وقد تَبين لعمر أن أبا موسى لم يولى زياد بن أبي سفيان أمور البصرة وإنما اتخذه كاتباً، وكان زياد بليغاً فصيحاً. قال البلاذري: «واستكتب أبو موسى زياداً» وكان «عمران بن حصين الخزاعي رضي الله عنه هو خليفة أبي موسى إذا شَخَصَ عن البصرة». وأما إنه أعطى الحطيئة ألف درهم ـ أو ألف دينار ـ فإن ذلك لم يكن من بيت المال، وإنما من ماله الخاص مِنْ سهومه في الفتوحات والغنائم، وقد كان سهم الأمير أبي موسى بل وسهوم سائر الناس من تلك الفتوحات ابتداء من فتوح الأهواز وحتى فتح أصبهان شيئاً عظيماً، ويدخل في ذلك السبيّ من أبناء الدهاقين وغيرهم، وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى كتاباً ـ قد يعود إلى تلك الفترة بالذات ـ وهو كتاب هام في سياسة الحكم، ذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار، قال فيه:

«أما بعد، فإنّ للناس نفرة عن سلطانهم، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة. أقم الحدود ولو ساعةً من نهار، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا، فآثر نصيبك من الله، فإن الدنيا تنفذ والآخرة تبقى. وأخيفوا الفسّاق واجعلوهم يداً يداً ورِجلاً رِجلاً. وعُدْ مرضى المسلمين، واشهد جنائزهم وافتح لهم بابك، وباشر أمورهم بنفسك، فإنما أنت رجلٌ منهم؛ غير أنّ الله جعلك أثقلهم حملاً.

وقد بلغني إنه قد فَشَا لَكَ ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرّتْ بوادٍ خصيب فلم يكن لها هَمٌّ إلا السمن وإنما حتفها في السمن. واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته. وأشقى الناس مَن شقى الناس به. والسلام»[2].

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٢.
(٢) عيون الأخبار ـ لابن قتيبة ـ جـ١ ص١١.

وقد تلقى أبو موسى كتاب عمر بن الخطاب بارتياح كبير، بل وقرأه على الناس، وكان ما جاء في كتاب عمر يمثل سياسة ونهج أبي موسى منذ ولايته للبصرة، فكان كتاب عمر للتذكير، وقد ألزم أبو موسى نفسه وعماله بذلك النهج الرشيد.

وقد عاد الوفد الذي بعثه أبو موسى إلى عمر بن الخطاب بنبأ فتح إقليم أصبهان وهروب ـ أو انسحاب ـ كسرى يزدجرد من أصبهان إلى اصطخر، عاد الوفد بالأذن والأمر من أمير المؤمنين عمر بالأنسياح إلى بقية بلاد فارس والعمل على افتتاحها، فانطلق سيد الفوارس أبو موسى الأشعري من البصرة ـ سنة ٢٢هـ ـ إلى ساحات الجهاد والفتوحات، فكان من فتوحات سيد الفوارس في بلاد فارس بعد إقليم أصبهان ما يلي:

سادس عشر: التقدم إلى اصطخر وفتح سابور

كان كسرى يزدجرد قد هرب ـ أو انسحب ـ من أصبهان ـ في شمال إيران ـ إلى مدينة اصطخر في إقليم اصطخر وفارس ـ جنوب إيران ـ فتقدم عبد الله بن بُديل الخزاعي من أصبهان وأبو موسى من البصرة إلى اصطخر، مما يدل على أن أبا موسى كتب إلى عبد الله بن بديل عامل أصبهان بأن يتقدم بجنوده من أصبهان إلى اصطخر بينما يتقدم إليها أبو موسى من البصرة، فيلتقيان لمحاربة يزدجرد وفتح اصطخر، فاستخلف عبد الله بن بديل السائب بن الأقرع على أصبهان، وتقدم بالجنود الذي معه إلى اصطخر. وفي ذلك جاء في فتوح البلدان للبلاذري إنه:

«لما فرغ المسلمون من أمر نهاوند هرب يزدجرد من أصبهان إلى اصطخر، فتوجه عبد الله بن بُديل بن ورقاء بعد فتح أصبهان لإتباعه، فلم يقدر عليه، ووافى أبو موسى اصطخر»[1].

ويبدو أنه عند تَقَدُم عبد الله بن بديل قاصداً اصطخر، وانطلاق أبو موسى إليها من البصرة، عرف يزدجرد بخطة وهدف ذلك التقدم، فبادر بمغادرة اصطخر إلى إقليم كرمان ـ في أقصى شرق إيران ـ واستلزم ذلك التطور عودة عبد الله بن بُديل بجنوده إلى مدينة أصبهان (جيّ)، بينما بقى أبو موسى لفتح إقليم اصطخر وفارس الواقع في جنوب إيران وفي شرقها المُطل على الخليج العربي.

* * *

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٣١.

قال د. ناجي محسن في كتاب القبائل العربية في المشرق: «تقدم أبو موسى إلى اصطخر، وافتتح جنديسابور»[١] والمقصود (مدينة سابور) وكان فيها جيش فارسي كثيف وكان أميرها (أخو شهراك مرزبان فارس)، وكان في (توج) حامية عربية إسلامية بعثها عامل البحرين عثمان بن سعيد بن أبي العاص الذي تولى إمْرَة البحرين بعد أبي هريرة الدوسي ـ سنة ٢١هـ ـ حيث (بعث عثمان أخاه الحكم في ألفين رجل إلى توج وعلى مجنبته الجارود، وأبو صفرة والد المهلب) فحاربهم أمير سابور، وذلك في الوقت الذي تقدم أبو موسى من البصرة إلى إقليم اصطخر ومدينة سابور، فكتب عمر إلى عثمان بن سعيد عامل البحرين بالمسير إلى سابور التي تقدم أبو موسى لفتحها، وقال البلاذري: «كتب عمر إلى عثمان بالبحرين بالمسير ـ إلى سابور ـ وكتب إلى أبي موسى وهو بالبصرة أن يكاتف عثمان بن سعيد، فغزا أبو موسى ـ سابور ـ من البصرة». ولكن النصوص والوقائع السالفة تدل على أن أبا موسى هو الذي سار من البصرة إلى إقليم اصطخر، وكان ذلك يتصل بوجود يزدجرد في اصطخر ـ ثم تقدم أبو موسى إلى سابور، واشتركت معه حامية (توج) في مواجهة أو حصار سابور، ثم وصل عثمان بن سعيد بالمدد من البحرين، فاشترك مع أبي موسى في حصار مدينة سابور، قال ابن خلدون: «وحاصروا مدينة سابور حتى صالح ملكها»[٢] وملكها هو (أخو شهراك مرزبان فارس). قال البلاذري: «ورأى أخو شهراك في منامه كأنّ رجلاً من العرب دخل عليه فسلبه قميصه، فنخب ذلك قلبه، فامتنع قليلاً، ثم طلب الصلح والأمان، فصالحه عثمان بن سعيد على أن لا يقتل أحداً ولا يسبيه وعلى أن تكون له ذمة، ويُعجل مالاً. ثم أن أهل سابور نقضوا وغدروا، ففتحها أبو موسى الأشعري عنوة وعلى مقدمته عثمان بن سعيد بن أبي العاص ـ سنة ٢٦هـ ـ» [اهـ].

وقد كان أبو موسى هو الذي صالح أمير سابور ـ في المرة الأولى سنة ٢٢هـ ـ وكان معه عثمان بن سعيد، وذلك لأن أبا موسى هو أمير ولاية البصرة وتلك المناطق تتبع ولاية البصرة، بل أن منطقة البحرين وعاملها أصبحت ترتبط بولاية البصرة وأميرها، وذلك لأمور ترتبط بالعطاء للجنود والناس والتنظيم الإداري والمالي كما هو الحال بالنسبة للأهواز وعاملها، وأصبهان وعاملها، وغيرهما من المناطق والأقاليم التابعة لولاية البصرة، ومما يدل على ذلك أن أهل سابور الذين تم مصالحتهم على ما تقدم ـ سنة ٢٢هـ ـ في خلافة عمر، نقضوا وغدروا فيما بعد

---

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي محسن ـ ص١٦٦.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٦.

ـ في خلافة عثمان ـ «ففتحها أبو موسى الأشعري عنوة ـ بالقوة ـ وعلى مقدمته عثمان بن سعيد بن أبي العاص» وذلك من الشواهد على إنه قد كان من عمال وقادة أبي موسى في فترة ولايته للبصرة.

سابع عشر: فَتح (أرّجان) و(شيراز) و(سينيز)

وقد تقدم أبو موسى الأشعري بعد مصالحة أهل سابور ـ في سنة ٢٢هـ ـ إلى ما يليها من إقليم فارس الجنوبي، فافتتح (أرجان) و(شيراز) و(سينيز) وبقية مناطق إقليم فارس إلى تخوم إقليم كرمان.

وفي ذلك قال البلاذري في فتوح البلدان:

«اجتمع أبو موسى الأشعري وعثمان بن سعيد، فافتتحا أرجان صلحاً على الجزية والخراج.

وفتحا شيراز وهي من أرض (أردشير خرة) على أن يكونوا ذمة يؤدون الخراج إلا مَنْ أحب منهم الجلاء، ولا يُقتلوا ولا يُستعبدوا.

وفتحا سينيز من أرض أردشيرخرة، وترك أهلها عماراً للأرض»(١).

قال معمر بن المثنى: (أن عمر بن الخطاب أمر أن يُوجه الجارود العبدي إلى قلاع فارس، سنة ٢٢هـ، فلما كان الجارود بين جرة وشيزار تخلف عنه أصحابه في عقبة هناك، فأحاطت به جماعة من العدو فقتلوه فسُميت تلك العقبة عقبة الجارود). وقد كان الجارود بن المنذر العبدي، وأبو صفرة الأزدي ـ أبو المُهلب ـ وهرم بن حيان العبدي مع أبي موسى في ذلك الفتح، واستعمل هرم بن حيان العبدي على (جرة) وهي مدينة (أردشيرخرة)، كما كان مع أبي موسى من كبار القادة الربيع بن زياد الحارثي، وفيه قال عمرو بن معدي كرب:

ومَضىٰ ربيعُ بالجنود مُشَرِّقاً ... ينوي الجهاد وطاعة الرحمن
حتى استباح قُرى السواد وفارسٍ ... والسهل والأجبال من مكران

وكانت استباحة واجتياح الربيع بن زياد (قرى فارس) مع سيد الفوارس أبي موسى الأشعري، ومنها سابور ثم أرجان، وشيراز وسينيز إلى تخوم إقليم كرمان الذي إليه كان قد هرب كسرى يزدجرد.

---

(١) وقال ابن خلدون: «لحق أبو موسى الأشعري بعثمان بن أبي العاصي فافتتحا مدينة شيزار وأرجان على الجزية والخراج». [ص٣٣٦] وإن الفتح شمل: جور، واصطخر، وكازرون، والنوبندجان، وشيزار، وأرجان.

ثامن عشر: فتح إقليم كرمان

بعد استكمال فتح ما كان يُسمى (إقليم فارس) قام أبو موسى الأشعري بتوجيه قوة بقيادة الربيع بن زياد وقوة بقيادة سهيل بن عدي وقوة بقيادة عبد الله بن بُديل الخزاعي لفتح إقليم كرمان في أواخر سنة ٢٢هـ فتوجه إليها القادة الثلاثة بجنودهم من ثلاثة اتجاهات، سهيل بن عدي من إقليم الأهواز وعبد الله بن بُديل من إقليم أصبهان والربيع بن زياد من إقليم فارس، وكان ذلك بتخطيط وتوجيه أبي موسى الأشعري، وفي ذلك قال البلاذري في فتوح البلدان:

«وَجّهَ أبو موسى الأشعري عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي غازياً فأتى كرمان»[١].

وقد كان عبد الله بن بُديل الخزاعي عامل إقليم أصبهان، وكان معه بأصبهان عبد الله بن عبد الله بن عتبان الأنصاري والسائب بن الأقرع ـ صهر أبي موسى الأشعري ـ فكتب أبو موسى إلى عبد الله بن بديل بأن يسير جنوده إلى كرمان، وأن سهيل بن عدي قد توجه إليها من الأهواز، كما توجه الربيع بن زياد بن فارس، فيفتتحون كرمان من الجهات الثلاث، ولم تذكر الروايات هذا الربط، وإنما جاء في الرواية التي ذكرها الطبري وابن خلدون أنه: «قصد سهل بن عدي من أمراء الانسياح كرمان، فكتب عمر إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان أن يسير إلى سهيل بن عدي لقتال كرمان، فاستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع، ولحق بسهيل قبل أن يصل كرمان».

ـ ثم ذكر ابن خلدون خبراً عن فتح عبد الله بن عبد الله بن عتبان لكرمان مع سهيل بن عدي، ثم استدرك قائلاً «وقيل أن الذي فتح كرمان عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي» وكذلك ذكر الطبري عن المدائني أنه «فتح كرمان عبد الله بن بديل بن ورقاء في خلافة عمر». ويتفق ذلك مع ما ذكره البلاذري لأن عامل أصبهان كان عبد الله بن بديل والذي كتب إليه بالمسير إلى كرمان هو أبو موسى الأشعري في خلافة عمر ـ وليس عمر ـ فقد وَجَّه أبو موسى القائد سهل بن عَدي في قوة من إقليم الأهواز إلى كرمان، وفي ذات الوقت ـ وكما ذكر البلاذري ـ «وَجَّه أبو موسى الأشعري عبد الله بن بديل غازياً كرمان» وبالتالي استخلف عبد الله بن بديل السائب بن الأقرع على أصبهان، وسار إلى كرمان ومعه عبد الله بن عبد الله بن عتبان، وكذلك جاء في فتوح البلدان أنه: «وَجَّه أبو موسى

(١) فتوح البلدان ـ ص٣٩٤ و٣٨٣ و٣٦٩ ـ اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٧.

الأشعري الربيع بن زياد الحارثي إلى ما حول الشيرجان وهي مدينة كرمان..» ـ أي عاصمة إقليم كرمان ـ.

قال ابن خلدون: «وقصد سهيل بن عدي [وعبد الله بن بديل] وعبد الله بن عبد الله بن عتبان كرمان، وحشد أهل كرمان، واستعانوا بالقفص وقاتلوا المسلمين في أدنى أرضهم، فهزمهم المسلمون بإذن الله، وأخذوا عليهم الطريق بل الطرق، ودخل النسير بن عمرو العجلي إلى جيرفت وقتل في طريقه مرزبان كرمان، ودخل عبد الله بن عبد الله مفازة سيرزاد، وأصابوا ما أرادوا.. وقيل: إن الذي فتح كرمان عبد الله بن بديل»[1] وقد كان النسير بن عمرو وعبد الله بن عبد الله بن عتبان من قادة جُند عبد الله بن بُديل بن ورقاء فكان هو الذي فتح ذلك القسم الأعلى من إقليم كرمان، وفي ذلك قال المدائني: «فتح عبد الله بن بديل بن ورقاء كرمان في خلافة عمر».

بينما فتح الربيع بن زياد الحارثي الشيرجان وبم والاندغار، وفي ذلك قال البلاذري:

«وَجَّه أبو موسى الأشعري الربيع بن زياد الحارثي ففتح ما حول الشيرجان وهي مدينة كرمان، وصالح أهل بم والاندغار»[1].

فلما تم فتح إقليم كرمان هرب كسرى يزدجرد إلى بلاد سجستان ـ في جهات السند ـ ومما يتصل بذلك الفتح، إسلام السيابجة والزط والاندغار، إذْ إن الربيع بن زياد (صالح أهل بم والاندغار) أي فتحها صلحاً، قال البلاذري: «والاندغار من ناحية كرمان مما يلي سجستان». وقد تقدم نبأ إسلام الأساورة الذين أسكنهم أبو موسى البصرة. قال المدائني: «وأما السيابجة فكانوا قبل الإسلام بالسواحل وكذلك الزط وكانوا بالطفوف» وقال البلاذري: «أما السيابجة والزط والاندغار فإنهم كانوا في جند الفرس ممن سبوه وفرضوا له من أهل السند، فلما سمعوا بما كان من أمر الأساورة أسلموا وأتوا أبا موسى فأنزلهم البصرة». وذلك عند فتح كرمان، سنة ٢٢ ـ ٢٣هـ.

تاسع عشر: فتح إقليم مكران:

كان توجيه أبي موسى للربيع بن زياد وعبد الله بن ورقاء والذين معهم من القادة والجنود لفتح إقليم كرمان يشمل فتح إقليم مكران إذ إن مكران جنوب كرمان على ساحل المحيط الهندي، فلما تم فتح كرمان وما حول الشيرجان تقدم إلى

(١) فتوح البلدان ـ ص٣٩٤ و٣٨٣ و٣٦٩ ـ اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٧.

مكران الربيع بن زياد وعبد الله بن عبد الله بن عتبان وسهل بن عدي ـ قال ابن خلدون: «فافتتحوا مكران وبلغوا النهر ـ وهو نهر السند ـ ورجعوا إلى مكران فأقاموا بها». [ص١٢٤ جـ٢]. وقال عمرو بن معدي كرب في بلوغ الربيع بن زياد الحارثي إلى مكران في تلك الفتوح:

..حتى استباح قرى السواد وفارس والسهل والجبال من مكران

ومكث الربيع بن زياد عاملاً قائداً في مكران وكرمان لأبي موسى الأشعري.

عشرون: فتح الطبسين.. (بابا خراسان)

قال البلاذري: «وَجّه أبو موسى الأشعري عبد الله بن بديل بن ورقاء غازياً فأتى كرمان، ومَضَى منها حتى بلغ الطبسين وهما حصنان يقال لأحدهما (طبس) وللآخر (كرين)، وهما جُرم فيهما نخل، وهما بابا خراسان». فافتتحهما عبد الله بن بديل صلحاً وتم مصالحة أهل الطبسين على أداء ستين ألف درهم سنوياً، وكان ذلك في أواسط سنة ٢٣هـ، ومكث عبد الله بن بديل عاملاً أميراً لإقليم أصبهان في إطار ولاية سيد الفوارس أبي موسى الأشعري لولاية البصرة، فبفتح كرمان ومكران إلى تخوم سجستان ـ شرقاً ـ وإلى بابي خراسان ـ شمالاً ـ بلغت فتوح مصر بقيادة أميرها عمرو بن العاص إلى صعيد وجنوب مصر، فمات عمر بن الخطاب راضياً مرضياً في ٢٧ ذي الحجة ٢٣ هجرية.

أبو موسى.. في خلافة عثمان

لما تولى عثمان بن عفان الخلافة ـ في مطلع شهر محرم سنة ٢٤هـ ـ أقَرَّ أبا موسى الأشعري أميراً على ولاية البصرة، قال ابن كثير: (قال الشعبي: كتب عمر في وصيته أن لا يُقرّ لي عاملُ أكثر من سنة إلا أبا موسى فَلْيُقَرّ أربع سنين ثم أقرّه سنتين، فاستمر أبو موسى أميراً على ولاية البصرة حتى سنة ٢٩هـ، وبذلك فقد دام عهد أبي موسى منذ ربيع الأول ١٦هـ وحتى سنة ٢٩هـ وذلك زهاء ثلاث عشرة سنة تأسست وترسخت فيها دعائم البنيان الشامخ للعصر العربي الإسلامي في ولاية البصرة بمدلولها الواسع القديم، وبلغت فيها مدينة البصرة شأواً كبيراً في العمران والفقه والعلم والرخاء وأشرق منها إشعاع الإسلام على بلاد واسعة.

ومن المفيد أن نذكر هنا عمار ونواب أبي موسى الأشعري منذ خلافة عمر بن الخطاب، فقد: كان الصحابي عمران بن الحصين الخزاعي على تعليم الناس الفقه والقرآن، وخلافة أبي موسى إذا شَصَ من البصرة. وكان كعب بن سوار الأزدي قاضي البصرة. ومجاشع بن الأسود السلمي على أرض البصرة

وصدقاتهم. وشبل بن معبد البجلي على قبض المغانم. وأخو أبي بكرة على بيت المال وعشور الأبُلة. وكان زياد بن أبي سفيان كاتب أبي موسى وكان من عمال أبي موسى على مناطق وأقاليم ولاية البصرة: الحجاج بن عتيك على الفرات. وجزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس عاملاً على سُرق، كما بعث أبو موسى إلى سُرق حارثة بن بدر الغُداني. وكان بشر ابن المحتفز عاملاً على جند يسابور، وعاصم بن قيس بن الصلت عاملاً على مناذر الصغرى والكبرى. وسمرة بن جندب الفزاري حليف الأنصار عاملاً على سوق الأهواز. والنعمان بن عدي بن نضلة عاملاً على كور دجلة. وعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي عاملاً على إقليم أصبهان، ومن نواب عبد الله بن بديل على رساتيق أصبهان عبد الله بن عبد الله بن عتبان الأنصاري، والسائب بن الأقرع، وخالد بن الحرث الدهماني على بيت مال أصبهان، بينما كان الربيع بن زياد الحارثي في كرمان ومكران، وعثمان بن سعيد بن أبي العاصي عاملاً على مناطق إقليم اصطخر وفارس.

وذكر البلاذري أن أصبهان «كان عبد الله بن بُديل العامل عليها إلى أن مضت من خلافة عثمان سنة، ثم ولاها السائب بن الأقرع ـ صهر أبي موسى ـ» فرجع عبد الله بن بُديل إلى البصرة وكان من وجوه الصحابة والقادة بالبصرة.

قال ابن خلدون: «وفي السنة الثالثة من خلافة عثمان بن عفان خرج أبو موسى الأشعري من البصرة غازياً إلى أهل آمد والأكراد لما كفروا..» ـ أي أنهم نقضوا الصلح ـ ففتحها أبو موسى عنوة. وذكر البلاذري: «إن أهل سابور نقضوا وغدروا، ففتحت سنة ٢٦ فتحها أبو موسى الأشعري وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص» [ص٣٨١].

ويتصل بذلك ما ذكره ابن خلدون بأنه «كان عبيد الله بن معمر ـ قد ـ أقام محاصراً مدينة اصطخر، وأراد ملك سابور الغدر به ثم أُحصر، وأصابت عبيد الله بن معمر حجارة منجنيق فمات بها، ثم فتح المسلمون المدينة فقتلوا بها بشراً كثيراً منهم». ويبدو من ذلك أن حركة تمرد مجوسية واسعة حدثت سنة ٢٦هـ، وكان من المدن والمناطق التي شملتها سابور ومدينة اصطخر وأهل آمد والأكراد، فانطلق سيد الفوارس إلى تلك المناطق من بلاد فارس فأعاد بسط سيادة الدولة عليها، باستثناء مدينة اصطخر التي كانت حصناً معيناً، وقد أُعيد فتحها فيما بعد[1].

---

(١) لما تولى البصرة عبد الله بن عامر سنة ٢٩هـ (سار عبد الله بن عامر إلى اصطخر، فقاتل أهل اصطخر، وعلى ميمنته أبو برزة، وعلى الخيل عمران بن حصين الخزاعي، ففتح اصطخر). [ص٣٨٢ ـ فتوح البلدان].

وفي السنتين الرابعة والخامسة من خلافة عثمان، أقطع عثمان العديد من الشخصيات أراضي وقرى في سواد دجلة، وقد قيل في تبرير ذلك أنه أقطعهم عوضاً عن أراضي لهم بالمدينة أو مكة أو اليمن، بينما لم تذكر بعض المصادر ذلك التبرير، والظاهر أنه أقطعهم تقديراً لدورهم وجهادهم ومكانتهم، وبما أن تلك الأراضي كانت من أرض الخراج ـ في سواد ولاية البصرة وكذلك في سواد الكوفة ـ يبدو أن ذلك أدى إلى قيام بعض الأشخاص أو العشائر بالبسط على بعض أراضي الخراج والرعي فيها تمهيداً للبسط عليها، وكان لا بد أن يتصدى الأمير أبي موسى لتلك الظاهرة ويمنع البسط على الأراضي التي هي من الموارد العامة للمسلمين، فلم يكن من الممكن ترك الذين يقومون بالبسط بذريعة أن الخليفة عثمان أقطع بعض الشخصيات، وقد أثار منع محاولات البسط استياء من يحاولون القيام بذلك، فقد ذكر القرطبي عن الهيثم بن عدي قال: «رعت بنو عامر بالبصرة في الزرع فبعث أبو موسى الأشعري في طلبهم، فتصارخوا يا آل عامر، فخرج النابغة الجعدي ومعه عصبة له، فأُتي به أبو موسى، فقال له: ما أخرجك؟ قال: سمعتُ داعية قومي، فضربه أسواطاً، فقال النابغة الجعدي في ذلك:

رأيتُ البكر بكر بني ثمود ... وأنت أراك بكر الأشعرينا
فإن تك لابن عفان أمينا ... فلم يبعث بك البرّ الأمينا . . »[1]

يعني أن الذي بعث وولى أبا موسى ليس عثمان وإنما بعثه وولاه عمر فهو إلى ذلك العهد ينتمي.

وأخذ أصحاب المصالح في تأليب عثمان بن عفان على أبي موسى الأشعري، فذكر الطبري في أحداث (سنة تسع وعشرين للهجرة) أنه «خرج غيلان بن خَرَشة الضَّبّي إلى عثمان بن عفان فقال: أما لكم صغير فتستشبّوه فتُولوه البصرة حتى متى يلي هذا الشيخ يعني أبا موسى. وكان وُليها بعد موت عمر ست سنين، فعزله عثمان عنها، وبعث عبد الله بن عامر بن كُريز وهو ابن خال عثمان بن عفان فقدم البصرة وهو ابن خمس وعشرين سنة وذلك سنة ٢٩هـ»[2].

وأورد الطبري رواية عن طريق سيف بن عمر التميمي زعم فيها أنه «لما كان في السنة الثالثة من خلافة عثمان، كفر أهل إيذَج والأكراد فنادى أبو موسى في الناس وحضّهم وندبهم وذكر من فضل الجهاد في الرُّجْلة ـ أي فضل جهاد الرّاجِل

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ٣/ ص٥٨٦.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٥ ص٥٤.

غير الراكب ـ حتى حمل نفر على دوابهم وأجمعوا على أن يخرجوا رُجالاً، وقال آخرون: لا والله لا نعجل بشيء حتى ننظر ما صنيعه فإن أشبه قوله فعله فعلنا كما فعل أصحابنا، فلما كان يوم خَرج ـ أبو موسى ـ أخرج ثَقَله من قصره على أربعين بغلاً، فتعلقوا بعِنانه وقالوا: احملنا على بعض هذه الفضول وارغب من الرُّجلة فيما رغّبتنا فيه، فقنّع القوم حتى تركوا دابّته، ومَضَىٰ» ـ أي لجهاد إيذَج والأكراد ـ فزعم سيف التميمي أن أولئك النفر من أهل البصرة ـ «أتوا عثمان فاستعفوه من أبي موسى فقال: من تحبون؟ فقال غيلان بن خرشة الضّبي: في كل أحد عِوضُ عن هذا الذي قد أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا فلا ننفك من أشْعري كان يعظمُ ملكه على الأشعرين ويستصغرُ ملك البصرة وإذا أمَّرتَ علينا صغيراً كان فيه عِوَض منه.. فدعا عبد الله بن عامر وأمَّره على البصرة». ثم أورد الطبري رواية ثالثة بأنه «قال غيلان بن خرشة الضبي لعثمان بن عفان: أمَا مِنكم خسيس فترفعوه، أمَا مِنكم فقير فتجبروه يا معشر قريش، حتى متى يأكلُ هذا الشيخ الأشعريُّ هذه البلاد، فانتبه لها الشيخ فولاها عبد الله بن عامر»[1] وقد وقع في رواية سيف التميمي شيء من الكذب والتحريف والتلفيق كما هي عادته فزعم إن إعفاءَ أبي موسى في السنة الثالثة والصحيح في السنة السادسة من خلافة عثمان كما ذكر الطبري نفسه وكما في الرواية الأولى، ثم إن عبارة «أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا» وعبارة (حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد) هي اختلاق وتحريف فالذي قاله غيلان هو كما في الرواية الأولى الصحيحة السند (حتى متى يلي هذا الشيخ البصرة يعني أبا موسى، وكان وُليها بعد موت عمر ست سنين) وكذلك نحو ثمان سنين في خلافة عمر، وأما حديث أبي موسى عن فضل جهاد الرَّاجل فالمقصود بذلك من ليس له خيل ولا مركوب، وأما زعم التميمي بأن أبا موسى أخرج ثَقَله من قصره على أربعين بغلاً، فليس من المعقول أن يسير أبي موسى إلى المعركة ويحمل معه ثَقَله ـ الشخصي ـ من عتاد وسلاح على أربعين بغلاً، فربما يكون الثقل هو سلاح ومؤنة للجيش الذين خرجوا معه لجهاد العدو فرجعوا بالنصر والظفر، بينما سار غيلان الضبي وأمثاله إلى عثمان فزينوا له عزل أبي موسى صاحب رسول الله ﷺ وفاتح بلاد فارس، وأن يولي على البصرة من يريد مِنْ أقاربه، وكان عثمان قد عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وَوَلّى عليها عبد الله بن أبي السرح ـ سنة ٢٥هـ ـ قال ابن عبد البر القرطبي «وفي سنة تسع

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٥ ص٥٤.

وعشرين عزل عثمان أبا موسى الأشعري عن البصرة وعثمان بن أبي العاص عن فارس وجمع ذلك كله لعبد الله بن عامر بن كريز وهو ابن أربع وعشرين سنة»[١]. وتولية عبد الله بن عامر على البصرة بما فيها منطقة فارس يؤكد تبعية فارس لولاية البصرة وأن عثمان بن أبي العاص كان عاملاً لأبي موسى على إقليم فارس كغيره من عمال أقاليم ولاية البصرة، فلما عزل ـ أو أعفى ـ عثمان بن عفان أبا موسى عن ولاية البصرة عزل في ذات الوقت عثمان بن أبي العاص عن إقليم فارس، وقد تلقى أبو موسى تولية عبد الله بن عامر بالرضا فقد ذكر الطبري عن الحسن البصري أنه «قال أبو موسى ـ لأهل البصرة ـ يأتيكم غلامٌ خراجُ ولّاج، كريم الجدّات والخالات والعمات، يُجمع له الجندات، فقدم عبد لله بن عامر فجُمع له جُند أبي موسى وجُند عثمان بن أبي العاص الثقفي»[٢].

وقد كتب عثمان بن عفان كتاباً مع عبد الله بن عامر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي قال فيه: «إني أعطيتك الشطّ لمن ذهب إلى الأبلّة من البصرة والمقابلة لقرية الأبلّة، والقرية التي كان الأشعري عمل فيها، وأعطيتك ما كان الأشعري عمل من ذلك. وأعطيتك براح ذلك الشطّ، أجمة وسبخة فيما بين الخرارة إلى دير جابيل إلى القبرين اللذين على الشطّ المقابلين للأبلّة..»[٣]. وكان ذلك الإقطاع الواسع لعثمان بن أبي العاص تدشيناً للإقطاعات الواسعة التي بدأت بانتهاء ولاية أبي موسى للبصرة وتولية عبد الله بن عامر، وكان ذلك الكتاب «لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين»[٣] ويتبين من ذلك أن أبا موسى الأشعري مكث والياً للبصرة منذ ولاه إياها عمر بن الخطاب في ربيع الأول سنة ١٦هـ وحتى ٢٢ جمادى الثاني سنة ٢٩هـ يوم تولية عبد الله بن عامر على البصرة، فانتهت ولاية أبي موسى الذي كان عهده خير العهود، قال العسقلاني:

«كان أبو موسى هو الذي فَقَّهَ أهل البصرة وأقْرأهم القرآن.. وأخرج البخاري من طريق أبي التياح عن الحسن البصري قال: ما أتى البصرة راكبُ خير لأهلِها من أبي موسى»[٤].

فلما انتهت ولاية أبي موسى للبصرة انتقل منها إلى مدية الكوفة، قال

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ القرطبي ـ جـ٢ ص٣٦.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٥ ص٥٤.

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ ص٥٣٢ ـ عن معجم البلدان لياقوت الحموي ـ جـ٣ ص٢٩٠ ـ مادة (شط).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ـ جـ٢ ص٣٦٠.

العسقلاني: «فسكن أبو موسى الكوفة وتفقه به أهلها حتى استعمله عثمان عليهم بعد عزل سعيد بن العاصي»(٩٢).

الاختيار الشعبي لأبي موسى والياً للكوفة

كان قبول الخليفة عثمان بن عفان بعزل سعيد بن العاصي الأموي عن الكوفة وتولية أبي موسى الأشعري سنة ٣٤هـ يُمثلُ استجابة للاختيار الشعبي والإرادة الشعبية، وذلك أنه في سنة ٣٣ ـ ٣٤ هجرية، وكما ذكر ابن كثير في كتاب من الصحابة وتولية جماعة من بني أمية من أقربائه، وأغلظوا له في القول وطلبوا منه أن يعزل عماله ويستبدل غيرهم من السابقين من الصحابة. فشق ذلك عليه جداً، وبعث إلى الأمراء فأحضرهم، فاجتمع إليه سعيد بن العاصي أمير الكوفة وعبد الله بن عامر أمير البصرة ومعاوية بن أبي سفيان أمير الشام وعمرو بن العاص أمير مصر ـ [كان عمرو أميراً على الصلاة فقط] ـ وعبد الله بن أبي السرح ـ [وكان أمير مصر على الخراج والحرب] ـ فاستشارهم عثمان فيما حدث من الأمر وافتراق الكلمة. فأشار عبد الله بن عامر بأن يشغلهم بالغزو وعَمَاهُمْ فيه فلا يكونَ هَمّ أحدهم إلا نفسه.. وأشار سعيد بن العاصي بأن يستأصل شافة المُفسدين ويقطع دابرهم، وأشار معاوية بأن يرد عماله على الأقاليم وأنه لا يلتفت إلى هؤلاء وما تألبوا عليه فإنهم أقل وأضعف جنداً، ـ [ويقال أن معاوية تحدث عن الشام ورضا الناس عنه بالشام وعدم وجود أي نقمة بالشام وهو الصحيح] ـ وأشار عبد الله بن أبي السرح بأن يتألفهم بالمال فيعطيهم منه ما يكفّ به شرهم ويأمن غائلتهم ويعطف به قلوبهم إليه. وأما عمرو بن العاص فقام فقال: أما بعد يا عثمان فإنك قد ركبت الناس ما يكرهون فأما أن تعزل عنهم ما يكرهون وإما أن تَقَدَمَ فَتُنْزِل عُمالكَ على ما هم عليه، وقال له كلاماً فيه غلظة».. وهنا تقول الرواية (ثم اعتذر عمرو إليه في السر بأنه إنما قال هذا ليُبلغ عنه من كان حاضراً من الناس إليهم ليرضوا من عثمان بهذا) ـ وهذا القول فيه نظر لأن عثمان ما لبث أن عزل عمرو بن العاص عن إمرة الصلاة بمصر وجمع عمالة مصر لابن أبي السرح في السنة التالية مما يدل على أن انتقادات عمرو بن العاص في ذلك اللقاء ونصيحته كانت عن قناعة ولذلك تم عزله فيما بعد، أما في ذلك اللقاء والتشاور فقد سمع عثمان مشورة الأمراء ثم كما ذكر ابن كثير «فعند ذلك قرر ـ أي أقرّ ـ عثمان عماله على ما كانوا عليه، وتألف قلوب أولئك بالمال.. ولما رجع العمال إلى أقاليمهم، امتنع

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ـ جـ٢ ص٣٦٠.

أهل الكوفة من أن يدخل عليهم سعيد بن العاصي ولبسوا السلاح، وحلفوا أن لا يمكنوه من الدخول حتى يعزله عثمان ويُولي عليهم أبا موسى الأشعري».

قال ابن كثير: «وكان اجتماعهم ـ أي أهل الكوفة ـ بمكان يقال له الجرعة» فيكون ذلك على مشارف ولاية الكوفة وليس مدينة الكوفة لأن (الجرعة: مكان مشرف قرب القادسية). فقد أجمع الصحابة والتابعين وقادة وأهل الكوفة على اختيار أبي موسى الأشعري والياً للكوفة وأن يمنعوا سعيد بن العاص من دخول أرض ولاية الكوفة حتى يعزله عثمان ويُولى عليهم أبا موسى الأشعري صاحب رسول الله عليه الصلاة والسلام.

«وقد قال يومئذ الأشتر النخعي: والله لا يدخلها علينا ـ سعيد ـ ما حملنا سيوفنا، وتواقف الناس بالجرعة، فأحجم سعيد عن قتالهم وصمموا على منعه، ثم إن سعيد بن العاصي كرّ راجعاً إلى المدينة، فأعجب ذلك أهل الكوفة وكتبوا إلى عثمان أن يولي عليهم أبا موسى الأشعري، فأجابهم عثمان إلى ما سألوا، ووَلى أبا موسى على الكوفة وذلك سنة ٣٤هجرية».

عهد ولاية أبي موسى للكوفة

لقد توافقت إرادة أهل ولاية الكوفة مع إرادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان في تولية سيد الفوارس أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري أميراً على ولاية الكوفة، فاستجاب أبو موسى لتلك الإرادة وتولى الكوفة مدة سنتين ـ سنة ٣٤ وسنة ٣٥هـ ـ فاستتبت الأمور في عهده في أقاليم ولاية الكوفة بالعراق وفي أقاليم إيران التابعة لولاية الكوفة حيث استمر الصحابي جرير بن عبد الله البجلي أميراً لإقليم هَمَذان في إيران والأشعث بن قيس الكندي أميراً لبلاد أذربيجان ـ في إيران والقوقاز ـ بينما كان الأمر مضطرباً في إقليم الرّيْ ودُسْتُبَى ـ في شمال إيران ـ وكان فتح إقليم الري قد بدأ في ولاية عمار بن ياسر العنسي للكوفة حيث وَجّه عمار بن ياسر إلى الريّ عروة بن زيد الخيل الطائي في ثمانية آلاف مجاهد، فافتتح عروة قسماً من إقليم الري ـ سنة ٢١هـ ـ ولما تولى الكوفة المغيرة بن شُعبة بعث القائد اليماني كثير بن شهاب الحارثي المذحجي أميراً على إقليم الري (فلما صار كثير إلى الري وجد أهلها قد نقضوا فقاتلهم حتى رجعوا إلى الطاعة وأذعنوا بالخراج والجزية، وغزا كثير بن شهاب الديلم فأوقع بهم وغزا الببر والطيلسان). ثم انتقضت الري في ولاية سعد بن أبي وقاص الثانية للكوفة في خلافة عثمان ـ سنة ٢٥هـ ـ فغزاها سعد فأصلح بعض أمرها ثم انتقضت في ولاية سعيد بن العاصي للكوفة فلما تولى أبو موسى الكوفة ـ سنة ٣٤هـ ـ استجاب الناس للجهاد تحت

رايته فانطلق بهم إلى إقليم الري، قال البلاذري: «غزا أبو موسى الرّي بنفسه وقد نقض أهلها ففتحها على أمرها الأول» وقال البلاذري: «حدّثني بكر بن الهيثم عن يحيى بن ضريس قاضي الرّي قال: لم تزل الري تنتقض وتُفتح حتى كان آخر من فتحها قرظة بن كعب الأنصاري في ولاية أبي موسى الأشعري الكوفة لعثمان بن عفان، فاستقامت»[١] وذلك عندما «غزا أبو موسى الري بنفسه ففتحها» حيث كان قرظة بن كعب الأنصاري من قادة أبي موسى وكانت أطراف إقليم الري لم يسبق للمسلمين غزوها وفتحها، فغزاها أبو موسى وفتحها حتى بلغ بحر قزوين، قال المقدسي في كتاب البدء والانتهاء «افتتح أبو موسى الأشعري بقية أعمال الرّي وطالقان ودماوند في خلافة عثمان»[٢] ثم استعمل أبو موسى قرظة بن كعب الأنصاري أميراً على إقليم الرّيْ فاستقامت الرّي وتلك الجهات وانتشر فيها الإسلام، وعاد سيد الفوارس أبو موسى الأشعري إلى الكوفة بالنصر والظفر، ولم يزل والياً للكوفة حتى انتهت خلافة عثمان بن عفان بمقتله في ذي الحجة سنة ٣٥هجرية.

النبأ اليقين عن أبي موسى في الفتنة الكبرى

بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ومبايعة عليّ بن أبي طالب بالخلافة ـ في ذي الحجة ٣٥هـ ـ بالمدينة المنورة، بدأت الفتنة الكبرى التي تَعَرض موقف أبي موسى الأشعري فيها لقدر كبير من التشويه والافتراء، بينما يتمثل النبأ اليقين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ومواقفه في الفتنة الكبرى وقضية التحكيم فيما يلي:

مبايعة أبي موسى علياً بالخلافة

لما قتل عثمان وبُويع عليّ بالخلافة في المدينة المنورة انقسم الصحابة والناس إلى أربع فِرق، منها فرقتان عارضت علياً واتخذت منه موقف العداء؛ فرقة بزعامة عائشة أم المؤمنين والذين استجابوا لها في مكة، وفرقة بزعامة أمير الشام معاوية بن أبي سفيان ومعه أهل الشام والجزيرة الفراتية وغيرهم من رفعوا شعار الثأر لعثمان. بينما اتخذت فرقة من الصحابة موقف الاعتزال ولم يبايعوا علياً، قال المسعودي: (كان مِمَن قعد عن بيعة عليّ: سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، والمغيرة بن شعبة في آخرين من الناس)[٣] ولم يكن أبو موسى الأشعري من

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣١٥.
(٢) البدء والانتهاء ـ للمقدسي ـ جـ٥ ص١٩٧ ـ والمعارف لابن قتيبة ـ ص١٩٣.
(٣) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٤٠٦.

الفرقتين اللتين عارضتا عليًا، ولا من الفرقة التي اعتزلت وقعدت عن بيعة عليّ، وإنما كان أبو موسى من فرقة الصحابة الذين بايعوا عليًا بالخلافة، بل إن أبا موسى لم يقف عند مبايعته الشخصية لعليّ وإنما دعا أهل ولاية الكوفة لمبايعته، وأخذ له البيعة من أهل الكوفة وأقاليمها، وعليٌ ما يزال بالمدينة المنورة، وكتب له بطاعة ومبايعة أهل الكوفة. وفي ذلك قال الحافظ ابن كثير:

«كتب أبو موسى إلى عليّ بطاعة أهل الكوفة ومبايعتهم إلا القليل منهم».

وقد شاعت في كتب التاريخ رواية تزعم أن علياً لما بويع في المدينة عزل أبا موسى عن ولاية الكوفة وبعث إليها والياً يُقال له عُمارة بن شهاب، وعلى ضوء تلك الرواية قال ابن كثير: «أما عُمارة بن شهاب المبعوث أميراً على الكوفة فَصَدّه عنها طليحة بن خويلد غضباً لعثمان، فرجع إلى عليّ فأخبره». واعتماداً على تلك الرواية أيضاً قال محمد رضا: «أما عُمارة بن شهاب فلما بلغ زُبالة ـ وهي بطريق مكة من الكوفة ـ لقيه طليحة بن خويلد يطلب بثأر عثمان.. وقال لعمارة: ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً، فإن أَبَيْتَ ضَرَبْتُ عُنقك ـ وكان عامل عثمان على الكوفة أبا موسى ـ فرجع عُمارة إلى عليّ بالخبر».

والواقع أن هذه الرواية ـ سواءً قام بتلفيقها سيف بن عمر التميمي أو غيره ـ فإنها لا تخلو من الصحة فحسب وإنما تخلو حتى من مهارة الكذب والتلفيق، لأن طليحة بن خويلد مات شهيداً في موقعة نهاوند سنة ٢١ هجرية، وذلك ثابت في البداية والنهاية لابن كثير وفي تراجم الصحابة وكتب التاريخ، أما الشخصية الثانية في تلك الرواية المُلفقة وهو (عُمارة بن شهاب) فهو مجرد اسم ليس له وجود، وقد أشار الأستاذ محمد رضا إلى ذلك قائلاً: «عُمارة بن شهاب لم نجد له ذكراً بين الصحابة»[1] ويُضاف إلى ذلك ما ذكرناه بأن طليحة بن خويلد مات في خلافة عمر بموقعة نهاوند سنة ٢١هـ وذلك قبل مقتل عثمان ومبايعة علي بأربع عشرة سنة، ويتبين من ذلك أن تلك الرواية وأمثالها تفتقر إلى الصحة، فما عزل عليٌ أبا موسى ولا وَلّى مكانه عمارة بن شهاب، ولا صَدّ طليحة بن خويلد عمارة بن شهاب، وإنما ذلك محض افتراء وتلفيق للزعم بأن أبا موسى كان ضد عليّ بن أبي طالب في قضية التحكيم واختيار الحكمين لأنه عزله عن الكوفة لما بويع بالخلافة، بينما الصحيح أن أبا موسى كان مع عليّ وأخذ له البيعة في الكوفة وأقاليمها وهو ما يزال بالمدينة وكتب إليه بذلك ـ في محرم سنة ٣٦هـ ـ وفي ذلك قال الحافظ ابن

(١) الإمام علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين ـ لمحمد رضا ـ ص٧٤ وص٩٢.

كثير: «كتب أبو موسى إلى عليّ بطاعة أهل الكوفة ومبايعتهم إلا القليل منهم» وقال الأستاذ محمد رضا:

«كتب أبو موسى إلى عليّ ـ رضي الله عنه ـ بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم، وبيّن الكاره منهم للذي كان، والراضي بالذي قد كان، ومَنْ بين ذلك»(١).

وكان لموقف أبي موسى ودعوته إلى مبايعة عليّ بالخلافة تأثيره في استجابة الأمراء والناس بالكوفة وأقاليمها، فأخذ الأشعث بن قيس الكندي أمير أذربيجان البيعة لعليّ في إقليم أذربيجان وأخذ جرير بن عبد الله البجلي أمير إقليم هَمَذان وقرظة بن كعب الأنصاري أمير إقليم الرّيْ، البيعة لعليّ في إقليم همذان وإقليم الرّيْ، ومكثوا في أعمالهم إلى أن قدم علي بن أبي طالب إلى الكوفة بعد موقعة الجمل ـ في رجب ٣٦هـ ـ فكتب إليهم بالقدوم إلى الكوفة، فقدموا إليه، وكان أبو موسى هو أمير ولاية الكوفة منذ مبايعة عليّ ـ في ذي الحجة ٣٥هـ ـ وحتى قدوم عليّ إلى الكوفة ـ في رجب ٣٦هـ ـ مما يتيح إدراك أن أبا موسى كان هو عامل علي بن أبي طالب على الكوفة حتى موقعة الجمل ثم حتى قدومه الكوفة.

معارضة أبي موسى لاقتتال الصحابة والمسلمين ونصيحته باعتزال القتال

في شهر ربيع الثاني ٣٦هـ شهدت فتنة الانقسام تطوراً خطيراً.. كانت عائشة أم المؤمنين قد وصلت من مكة إلى البصرة ومعها طلحة والزبير ـ وهما من الصحابة العشر المبشرين بالجنة ـ ويَعْلى بن منيّة الحنظلي أمير اليمن في خلافة عمر وعثمان، وعبد الله بن عامر أمير البصرة، والذين معهم. وقبل دخولهم البصرة أو قبل مسيرهم إليها، (قال الزبير لعبد الله بن عامر: مَنْ رجال البصرة؟ قال: ثلاثة كلهم سيدُ مطاع، كعب بن سوار الأزدي في اليمن، والمنذر بن ربيعة في ربيعة، والأحنف بن قيس في البصرة ـ أو في تميم بالبصرة ـ فكتب طلحة والزبير ـ ومعهم عائشة ـ إلى الرؤساء الثلاثة، ثلاثة كُتب تدعوهم إلى الانضمام). منها كتابهم إلى كعب بن سوار الأزدي الذي كان قاضي البصرة في ولاية أبي موسى الأشعري للبصرة حيث كتبوا إليه: «أما بعد، فإنك قاضي عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة وسيد أهل اليمن وقد كُنتَ غضبت لعثمان من الأذى، فاغضب له من القتل. والسلام» فكتب كعب بن سوار إلى طلحة والزبير «أما بعد، فإنّا غضبنا لعثمان من الأذى، فجاء أمر الغير فيه بالسيف» ثم انتقد كعب بن سوار طلحة والزبير إلى أن قال: «وإن كان أمر عثمان قد أشكل على من شهده فهو على

(١) الإمام علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين ـ لمحمد رضا ـ ص٧٤ وص٩٢.

من غاب عنه أشكل». قال محمد رضا: «وارتحل جيش عائشة حتى بلغوا البصرة، فكتبت عائشة إلى رجال من أهل البصرة ومكثت تنتظر الجواب بالحفير، ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن حصين الخزاعي وأبا الأسود الدؤلي ليسألا عائشة عن مسيرها»(١) وعثمان بن حنيف صحابيٌّ من الأنصار كان من عمال العراق في خلافة عمر وولاية أبي موسى ثم استعمله عليّ بن أبي طالب على البصرة، أما عمران بن حصين الخزاعي فكان نائب أبي موسى في فترة ولايته للبصرة «.. فسار عمران بن حصين وأبو الأسود إلى عائشة وطلحة والزبير.. فتكلما مع عائشة فقالت لها ما قالت: ثم أتيا طلحة وقالا له: ما أقدمك؟ فقال: الطلب بدم عثمان، فقالا: ألم تُبايع عليًا؟ فقال: بَلَى، والسيف في عُنقي، وقال الزبير مثل ذلك. وعاد عمران بن حصين وأبو الأسود إلى عثمان بن حنيف وأخبراه بما سمعا من عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم»(١) وأخذ أكثر أهل البصرة ينضمون إلى عائشة وطلحة والزبير فدخلوا البصرة، وانقسم الناس وتنادوا للاقتتال ثم اجتمعوا في المربد فاتفقوا ـ بعد قتال يسير ـ على أن يبعثوا كعب بن سوار إلى المدينة فإن كان طلحة والزُبير أُكرِها على البيعة خرج عثمان بن حنيف من البصرة، وإن لم يكونا أُكرها خرج طلحة والزبير عنها. فسار كعب بن سوار قاصداً المدينة المنورة.

وفي تلك الفترة كان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد سار من المدينة المنورة قاصداً البصرة والكوفة، وذكر الحافظ ابن كثير: أن الإمام عليّ لما تهيأ للمسير من المدينة: «جاء إليه ابنه الحسن بن عليّ فقال: يا أبتي دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين ووقوع الاختلاف بينهم، فلم يقبل منه». فلما خرج الإمام عليّ من المدينة كان كل الذين أجابوه وساروا معه من أهل المدينة والحجاز تسعمائة رجل فقط، ولحق به الحسن بن علي إلى الطريق، قال ابن كثير: «جاء إليه ـ أي إلى الإمام عليّ ـ الحسن بن عليّ في الطريق فقال له: لقد نهيتُك فعصيتني، تُقتلُ غداً بمضيعة لا ناصر لك. فقال له الإمام عليّ: إنك لا تزال تحنُّ على حنين الجارية وما الذي نهيتني عنه فعصيتك». إلى أن قال له: «فكفّ عني يا بُني». فكفّ عنه الحسن، ومضى الإمام علي قاصداً البصرة والكوفة، حتى نزل بمشارف ولاية الكوفة ومعه بضعة آلاف. «وجاء رجلُ من أهل الكوفة يُقال له عامر بن مطر الشيباني إلى علي بن أبي طالب، فقال له

(١) الإمام علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين ـ لمحمد رضا ـ ص٧٤ وص٩٢.

الإمام علي: ما وراءك وسأله عن أبي موسى. فقال عامر: إن أردت الصلح فأبو موسى صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه. فقال عليٌّ: والله ما أُريدُ إلا الصلح ممن تَمَرَّد علينا»[١].

ويشير كلام عامر الشيباني إلى أن أبا موسى كان يدعو إلى الصلح ويُحذر من سفك الدماء وأن يقتل الصحابة والمسلمون بعضهم بعضاً منذ أتاه نبأ عائشة وطلحة والزبير بالبصرة وأن الكثير من أهل البصرة استجابوا لهم فانقسم الناس بالبصرة ثم بعثوا كعب بن سوار إلى المدينة ليسأل عما إذا كان طلحة والزبير أُكرها على البيعة أم بايعا طوعاً.. وعندئذٍ أخذ أبو موسى يدعوا إلى المصالحة وينصح أهل العراق باعتزال الاقتتال بما في ذلك أهل البصرة الذين اندفعوا في الاستجابة لطلحة والزبير وعائشة.. وكان الكثير من أهل ولاية البصرة يتطلعون لمعرفة موقف أبي موسى الذي علمهم كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وقد «أتى عبد الخير إلى أبي موسى وقال له: الناسُ أربع فرق، عليٌّ بمن معه في ظاهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا تُقاتل ولا عناء بها. فقال أبو موسى: أولئك خير الفرق، وهذه فتنة».

والفرقة التي قال أبو موسى عنهم (أولئك خير الفرق) هُم الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة فلم يستجيبوا لطلحة والزبير وعائشة ولا لعليّ بن أبي طالب، ومنهم (سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، والمغيرة بن شعبة) الذين قال المسعودي أنهم (قعدوا عن بيعة عليّ، في آخرين من الناس). وذكر محمد رضا حديث عبد الله بن الحسن بأن الذين لم يبايعوا عليّاً من الأنصار، منهم (حسان بن ثابت الأنصاري، وزيد بن ثابت الأنصاري[٢] وأبو سعيد الخُدري، ومحمد بن مَسْلَمة، والنعمان بن بشير، وكعب بن مالك الأنصاري، ومَسْلَمة ابن مُخَلَّد، ورافع بن خَدِيج، وفضالة بن عُبيد، وكعب بن عُجرة، وأسامة بن زُيد)[٣] ولما وصل كعب بن سوار الأزدي إلى المدينة مبعوثاً من أهل البصرة لمعرفة أمر طلحة والزبير «قال كعب بن سوار: يا أهل المدينة إني رسول أهل البصرة إليكم، أأكره هؤلاء القوم طلحة والزبير على بيعة عليّ أم أتياها طائعين؟.. فقام أسامة بن زيد بن حارثة ـ وهو حِبُّ رسول الله ﷺ ـ وقال:

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٩.

(٢) زيد بن ثابت الأنصاري: من كبار الصحابة العلماء، كان عمر يستخلفه على المدينة، وهو أحد علماء وقضاة الأمة الأربعة (عمر، وعلي، وأبو موسى، وزيد بن ثابت).

(٣) الإمام علي ـ محمد رضا ـ ص٦٥ وص٩٢.

اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان. فواثبه بعض الناس، وثار صهيب بن سنان وأبو أيوب بن زيد في عدة من الأنصار ومنعوا الناس عن أسامة، وأخذ صهيب بيده حتى أخرجه فأدخله منزله، وقال) أما وسعك ما وسعنا من السكوت؟ فقال أسامة: لا والله ما كنتُ أرى أن الأمر يترامى إلى ما رأيت. ورجع كعب بن سوار إلى أهل البصرة وأخبرهم بما كان»(١).

وفي تلك الأجواء وقف أبو موسى الأشعري خطيباً على منبر جامع الكوفة: «فقال: أيها الناس إن أصحاب محمد ﷺ الذين صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقاً وأنا مؤد إليكم نصيحة: ألا إن هذه فتنةُ النائمُ فيها خير من اليقظان، واليقظان خيرُ من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائمُ خيرُ من الراكب، والراكب خير من الساعي، فاغمدوا الأسنة، واقطعوا الأوتار، وأووا المضطهد والمظلوم حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة».

وكانت نصيحة أبي موسى تشمل أهل الكوفة وأهل البصرة، وكان لها تأثير إيجابي في البصرة التي اندفعت في الاستجابة لطلحة والزبير وعائشة، خاصة عودة كعب بن سوار من المدينة ومعرفة أهل البصرة بشهادة أسامة بن زيد بن حارثة أن طلحة والزبير لم يبايعا إلا وهما كارهان(٢)، ويتجلى تأثير موقف ونصيحة أبي موسى في أنه «استشار عثمان بن حنيف الأنصاري عمران بن حصين الخزاعي، فقال له عمران؛ اعتزل فإني قاعد» قال ابن حجر العسقلاني «اعتزل عمران الفتنة ولم يُقاتل فيها». وكان عمران من خيار الصحابة وله تأثير كبير في البصرة، قال ابن سيرين «أفضلُ من نزل بالبصرة من الصحابة عمران بن حصين وأبو بكرة، ولم يكن يُقدم على عمران أحد من الصحابة في البصرة». ولما رجع كعب بن سوار من المدينة (بعث أهل البصرة المؤيدين لطلحة والزبير وعبد الله بن عامر وعائشة إلى عثمان بن حنيف أن ينضم إليهم أو يخرج من البصرة، فاحتج بكتاب أتاه من عليّ، فوثب عليه الناس وحبسوه في منزله. وأما كعب بن سوار الأزدي فاعتزل في منزله فأتت عائشة أم المؤمنين إلى كعب بن سوار في منزله، فاستجاب لها وقال: أكرهُ ألا أُجيب أُمي)، فانضم كعب بن سوار والكثير من أهل ولاية البصرة إلى عائشة

---

(١) الإمام علي ـ محمد رضا ـ ص٦٥ وص٩٢.

(٢) وذكر الطبري من طريق محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: «قال طلحة: بايعتُ والسيف فوق رأسي. فقال سعد بن أبي وقاص: لا أدري والسيف على رأسه أم لا، إلا أنني أعلم أنه بايع كارهاً» ـ جـ٥ ص١٥٤ ـ تاريخ الطبري.

وطلحة والزبير، ولكن عدد الذين اعتزلوا كان عدداً كثيراً أيضاً، ولا شك أن ذلك الاعتزال الذي تم بتأثير أبي موسى كان لصالح الإمام عليّ الذي كان مرابطاً في الربذة ـ بمشارف الكوفة ـ وقد انضم إليه من يرغب من أهل الكوفة.

* * *

ويُروى أن الإمام عليّ بعث الأشتر النخعي وعبد الله بن عباس لاستنفار أهل الكوفة لمحاربة أهل البصرة فجاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير أنه: «قال عليٌّ للأشتر: أنت صاحب أبي موسى والمعرض في كل شيء فاذهب أنت وابن عباس فأصلح ما أفسدت، فقدما الكوفة وكلما أبو موسى واستعانا عليه بنفر من الكوفة، فقام أبو موسى في الناس فقال: أيها الناس إن أصحاب محمد ﷺ الذي صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقاً وأنا مؤد إليكم نصيحة، ألا إن هذه فتنة النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، والراكبُ خير من الساعي، فأغمدوا الأسنة، واقطعوا الأوتار، وآووا المضطهد والمظلوم حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة، فرجع ابن عباس والأشتر إلى عليّ فأخبراه بالخبر».

بينما تزعم رواية ثانية ذكرها محمد رضا أنه «استأذن الأشتر أن يبعثه أمير المؤمنين إلى الكوفة لأنه يرجو أن لا يخالفه أحد منهم، فقال له عليّ: إلحق بهم، وكان عليّ أرسل ابنه الحسن قبل الأشتر، فانتهى الأشتر إلى القصر في جماعة من الناس فدخله وأبو موسى في المسجد يخطبهم ويثبطهم، والحسن يقول: اعتزل عملنا وتنح عن منبرنا، وعمار ينازعه. فأخرج الأشتر غلمان أبي موسى من القصر فخرجوا يعدون وينادون يا أبا موسى قد دخل الأشتر القصر فضربنا وأخرجنا، فنزل أبو موسى فدخل القصر، فصاح به الأشتر: اخرج.. اخرج الله نفسك، فقال: أجِلّني هذه العشية، فقال: هي لك، ودخل الناس ينهبون متاع أبي موسى فمنعهم الأشتر وقال: أنا له جار، فكفوا عنه» [اهـ]. وهذه الرواية الثانية عارية من الصحة، وهي من تلفيقات سيف بن عمر التميمي التي ذكرها الطبري، بينما الرواية الأولى التي ذكرها الحافظ ابن كثير ليس فيها شيء من ذلك الافتراء وإنما بعث الإمام عليّ الأشتر وابن عباس فسمعا أبا موسى يحث الناس على اعتزال الفتنة، قال ابن كثير: «فرجع ابن عباس والأشتر إلى عليّ فأخبراه الخبر» وقد ذكر تلك الرواية الطبري أيضاً وأنه «قال عليّ: يا أشتر أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترضُ في كل شيء، اذهب أنت وعبد الله بن عباس.. فخرج ابن عباس والأشتر فَقَدِمَا الكوفة وكلما أبا موسى.. فجمع أبو موسى الناس فخطبهم وقال: يا

أيها الناس إن أصحاب رسول الله الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله عزّ وجلّ وبرسوله ﷺ ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقاً فأنا مُؤديه إليكم.. إنها فتنة صَمّاء النائمُ فيها خير من اليقظان» إلى أن قال: «فكونوا جُرثومة من جراثيم العرب فاغمدوا السيوف، وانصلوا الأسِنة.. حتى يَلْتَئِمَ هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة. ورجع ابن عباس إلى عليّ بالخير»(١).

ثم ذكر ابن كثير رواية ذكرها أيضاً الطبري وجاء فيه أنه:

«لما رجع عبد الله بن عباس ـ مع الأشتر ـ إلى عليّ بالخبر، دعا الحسن بن عليّ فأرسله مع عمار بن ياسر وقال له: انطلق فأصلح ما أفسدت، فأقبلا حتى دخلا المسجد.. فخرج أبو موسى فلقي الحَسَن فضمه إليه.. فقال الحسن: يا أبا موسى لِمَ تُثبَط الناس عَنَا فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يُخافُ على شيء. فقال أبو موسى: صدقت بأبي أنت وأمي ولكن المستشار مؤتمن، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خيرُ من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خيرُ من الراكب.. فغضب عمار وساءَه فقام فقال: يا أيها الناس إنما قال له خاصَّةً أنت فيها قاعداً خير منك قائماً ـ أو: إنما قال له رسول الله وحده أنت فيها قاعداً خيراً منك قائماً»(١).

وذكر الطبري في هذه الرواية عن طريق سيف بن عمر التميمي إضافات وتلفيقات تتعارض معا لحقائق الثابتة، ومنها أن الحسن قال لأبي موسى اعتزل عملنا.. ثم قام عمار والحسن يدعوان الناس إلى النفير. فخرج معهما تسعة آلاف. بينما جاء في رواية أخرى أنه: «لما بلغ عليّاً أن أبا موسى يثبط أهل الكوفة عن القتال كتب إلى أبي موسى: اعتزل عملنا.. وولّى عليّ قرظة بن كعب الأنصاري على الكوفة»(١) وتتفق الروايات على أن ذلك كان «في آخر شهر ربيع الثاني سنة ٣٦هـ». ويؤكد ذلك أن أبا موسى كان أمير الكوفة لعليّ بن أبي طالب إلى آخر شهر ربيع الثاني ٣٦هـ ـ على الأقل ـ أما تولية قرظة بن كعب الأنصاري فإنه كان في إقليم الرّيْ، وأتى إلى الكوفة لما قدم إليها عليّ بعد موقعة الجمل ـ أي في رجب ٣٦هـ ـ فيمكن توليته بعد ذلك وليس قبل ذلك. وأما الحسن بن عليّ فقد ذكرت سائر المصادر موقفه وكلامه مع الإمام عليّ لما سار من المدينة فلم يكن الحسن مع القتال نهائياً ومكث بالمدينة غالباً.. فالذي بعثه الإمام عليّ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٥ ص١٨٩ ـ والبداية والنهاية لابن كثير ـ جـ٧ ص٢٣٦ ـ والإمام علي لمحمد رضا ـ ص١٠٥.

إلى الكوفة هو عمار بن ياسر، فسمع الناس رأى أبي موسى ودعوته إلى عدم القتال وأن رسول الله ﷺ قال: (ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب). فقال عمار: (أيها الناس، إنما قال له رسول الله ﷺ وحده، أنت فيها قاعداً خيرُ منك قائماً..). فسار الذين رغبوا في المسير للقتال إلى الإمام عليّ مع عمار بن ياسر، فبلغ عدد الذين مع الإمام علي من أهل الكوفة زهاء اثني عشر ألف رجل غير الذين جاءوا معه من المدينة والذين انضموا إليه من قبيلة طيء، وكذلك كان عدد الذين مع عائشة وطلحة والزبير مثل ذلك العدد، والتزم برأي ونصيحة أبي موسى كثير من أهل الكوفة والبصرة ولزموا بيوتهم، فالتقى جيش الإمام عليّ أمير المؤمنين وجيش عائشة أم المؤمنين في المعركة الرهيبة التي اشتهرت باسم (موقعة الجمل) والتي تقاتل فيها زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين بينهم مئات الصحابة قتالاً مريراً يوم الخميس ١٠ جمادى الثاني ٣٦ هجرية، قال الحافظ ابن كثير: «وكان مجموع من قُتِل يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف، خمسة آلاف من هؤلاء، وخمسة آلاف من هؤلاء» وقال محمد رضا: «كان القتلى من أهل البصرة عشرة آلاف نصفهم من أصحاب عليّ ونصفهم من أصحاب عائشة. وقُتِل من أهل الكوفة خمسة آلاف ـ وقيل: ستة آلاف ـ وقُتل حول الجمل سبعون رجلاً كلهم قد قرأ القرآن سوى الشباب ومَنْ لم يقرأ». ثم قال محمد رضا: قال المرحوم الشيخ محمد الخضري في تاريخ الأمم الإسلامية: «هكذا انتهت موقعة الجمل التي سهلت على المسلمين فيما بعد أن يقف بعضهم بإزاء بعض محاربين يستحلُ كُلٌ دَمَ الآخر بعد أن كان ذلك الموقف في نظرهم عظيماً مهيباً».

* * *

وفي ١٢ رجب ٣٦هـ قدم الإمام عليّ من البصرة إلى الكوفة، وكانت ولاية أبي موسى للكوفة قد انتهت إما بتولية قرظة بن كعب الأنصاري قبل موقعة الجمل ـ كما قالت إحدى الروايات ـ وإما بقدوم الإمام عليّ إلى الكوفة حيث استقر فيها واتخذها عاصمة ومقراً له، وطالما أنها أصبحت مقراً للخليفة فقد لا يصح تولية أحد عليها، وإنما استخلف الإمام عليٌّ قرظة بن كعب الأنصاري على الكوفة حينما سار من الكوفة إلى صِفِّين في ٥ شوال ٣٦هـ.

لقد انجلى الموقف منذ شهر رجب ٣٦هـ في انقسام الصحابة والمسلمين إلى ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: مع الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، ومنهم كان أبو

موسى الأشعري لأنه من الذين بايعوا علياً منذ البداية واعتراضه على الاقتتال مع أهل البصرة ونصيحته بالاعتزال إنما هي اعتزال الاقتتال وسفك الدماء، ولا يمس ذلك مبايعته الإمام عليّ بالخلافة، فقد كان أبو موسى من أهم الصحابة الذين بايعوا الإمام عليّ واستمروا معه، فقد كان من أعلام الصحابة والأمراء الذين مع الإمام عليّ: أبو موسى الأشعري، وعمار بن ياسر، والأشعث بن قيس، وعبد الله بن بُديل بن ورقاء الخزاعي، ومحمد بن أبي بكر الصديق، وعبد الله بن عباس، وسعيد بن قيس الهمداني، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، وسهل بن حنيف، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وقرظة بن كعب الأنصاري، والأشتر النخعي، وسليمان بن صُرَد الخزاعي، والحارث بن مرة العبدي الرَبعي، والأحنف بن قيس، وجُندب بن زهير الأزدي، وحُجر بن عدي الكندي، وأمثالهم.

الفرقة الثانية: مع معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، وكان من أعلام الصحابة والأمراء الذين معه: عمرو بن العاص، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عامر بن كريز، وشرحبيل بن السمط الكندي، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والنعمان بن بشير الأنصاري، ومعاوية بن حُديج السكوني، ومالك بن حُمرة الهمداني، وحسان بن بحدل الكلبي، وحوشب ذو ظليم الحميري، وحبيب بن مسلمة الفهري، وعقبة بن عامر الجهني، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وأمثالهم.

الفرقة الثالثة: الذين اعتزلوا الفريقين، وكان من أعلام الصحابة الذين اعتزلوا الفريقين: سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وجرير بن عبد الله البجلي، وعمران بن حصين الخزاعي، والربيع بن زياد الحارثي، والمغيرة بن شعبة، وأسامة بن زيد بن حارثة، وزيد بن ثابت الأنصاري، وقُدامة بن مظعون، وكعب بن مالك الأنصاري، وحسان بن ثابت، ومحمد بن مَسْلَمة الأنصاري. وسعيد بن العاصي، وأمثالهم.

ولما سار الإمام علي من الكوفة في تسعين ألفاً من المقاتلين إلى صِفِّين ـ في ٥ شوال ٣٦هـ ـ سار إليه معاوية بن أبي سفيان من الشام في خمسة وثمانين ألفاً.. ثم اتفقوا على المهادنة والموادعة ـ في أول ذي الحجة ـ وتوادعوا إلى آخر محرم ٣٧هـ، وارتفع عدد الفريقين إلى زهاء ثلاثمائة ألف، فاندلعت حرب صِفِّين ـ في مطلع صفر ٣٧هـ ـ واستمر القتال تسعة أيام، وكان ما حدث في اليوم التاسع من القتال لا يكاد يصدقه عقل، فقد امتلأ سهل صفين بجثث عشرات الآلاف منْ قَتْلَى

الفريقين. قال ابن كثير: «قُتل من الفريقين سبعون ألفاً.. وروى البيهقي أنه قُتل من الفريقين ستون ألفاً» وذلك سوى الجرحى الذين لا يقل عددهم عن ذلك. قال النجاشي الحارثي وهو من أصحاب علي:

وأصبح أهلُ الشام قد رفعوا الْقَنَا عليها كتاب الله خيرُ قُرآنِ
ونادوا عليّاً: يا بنْ عم محمدٍ أما تَتْقِي أن يهلك الثقلانِ

وقد وصفت أبيات النجاشي ما حدث وصفاً صادقاً ليس فيه ما شاع في بعض الروايات المتأخرة بأن الدعوة إلى تحكيم كتاب الله كان خدعة، فقد أسفرت معركة اليوم التاسع التي استمرت طيلة ذلك اليوم ـ وهو يوم الخميس ٩ صفر ـ وطيلة الليل عن بلوغ عدد القتلى من الفريقين زهاء سبعين ألفاً.. قال أبو الحسن المسعودي: «وفي يوم الجمعة نادت مشيخة أهل الشام: يا معشر العرب، الله الله في الحُرمات والنساء والبنات.. وارتفع في عسكر معاوية نحو خمسمائة مصحف ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم، مَنْ لِثغور العراق بعد أهل العراق؟ مَنْ لجهاد الروم؟ مَنْ لجهاد التُرك؟ مَنْ للكفار؟.. فلما رأى كثيرٌ مِنْ أهل العراق ذلك قالوا: نُجيبُ إلى كتاب الله ونُنيب»[١].

اختيار الحكمين.. ونَص صحيفة التحكيم

بعد انعقاد اتفاق الفريقين على السلام وتحكيم كتاب الله في الخلاف الذي وقع بينهم وأن يختار كل من الفريقين رجلاً يرضون به، ليحكما بما في كتاب الله.. اجتمع معاوية وأهل الشام والذين معهم من أهل الجزيرة العربية والمشرق ومصر، واتفقوا على اختيار عمرو بن العاص، وكذلك اختاروا المُفوضين لحضور كتابة صحيفة التحكيم.

.. وفي الجانب المُقابل اجتمع الإمام عليّ وأهل العراق والذين معهم من أهل الجزيرة العربية والمشرق واتفقوا على اختيار أبي موسى الأشعري، وكذلك اختاروا المفوضين عنهم لحضور كتابة صحيفة التحكيم.

ويبدو أن أبا موسى لم يكن حاضراً وقت اختياره فقد ذكر المسعودي أن أصحاب الإمام عليّ وهُمْ أهل العراق والذين معهم:

«بعثوا إلى أبي موسى وكتبوا له القضية، وقيل لأبي موسى: أن الناس قد اصطلحوا، فقال: الحمد لله. قيل: وقد جعلوك حكماً، قال: إنّا لله وإنا إليه راجعون»[١].

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٤٠٣.

وقد ذكر محمد رضا هذا الخبر بإضافة يسيرة عن رواية الطبري وكما يلي:

«بعث الناس إلى أبي موسى وقد اعتزل القتال فأتاه مولى له. فقال: إن الناس قد اصطلحوا، فقال الحمد لله رب العالمين. قال: قد جعلوك حكماً، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون».

ويُروى أن الإمام عليّ لما اجتمع مع أهل العراق والذين معهم ـ أي مع كبار ووجوه الذين معه بصفين ـ لاختيار الحكم الذي يُمثلهم «قال الأشعث بن قيس الكندي والذين معه: رضينا بأبي موسى الأشعري. فقال عليّ: إني لا أرى أن أولي أبا موسى. وذكر أشياء فعلها أبو موسى وإنه خذل الناس عني ـ كما زعمت الرواية ـ وقال عليّ: ولكن هذا ابن عباس نُوليه ذلك. فقال الأشعث وزيد بن حصين الطائي ومِسْعَر بن فَدَكيّ: لا نرضى إلا بأبي موسى، وقال الأشعث: والله لا يحكم فينا مُضري ـ أو مُضيري ـ فقال عليٌّ: فإني أجعل الأشتر، فقال الأشعث: وهل سعرّ الأرض غير الأشتر ـ وفي رواية أخرى: قالوا: وهل هاج هذا الأمر غير الأشتر.. قال عليّ: فقد أبيتم إلا أبا موسى؟ قالوا: نعم. قال: فاصنعوا ما أردتم».

ولعل مما يُلقى ظلالاً من الشك حول صحة تلك الرواية أن يكون الإمام عليّ قد طرح اسم الأشتر النخعي، فإذا صح ذلك فإن أصحاب الإمام عليّ من الصحابة ووجوه أهل العراق لم يقبلوا بالأشتر لأسباب وجيهة يكفي أن من بينها أن أهل الشام والذين معهم من أهل المدينة ومصر وأقارب عثمان بن عفان يذكرون منذ بداية الفتنة أن الأشتر ومحمد بن أبي بكر من قتلة عثمان الذين يطالبون الإمام عليّ بتسليمهم وقتلهم، ولذلك لم يتم اختيار الأشتر حتى بين المفوضين لحضور كتابة صحيفة التحكيم. وأما عبد الله بن عباس فقد جاء في رواية ذكرها محمد رضا أن الإمام علي لما قال: (هذا ابن عباس نوليه ذلك. قالوا: لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء..) ولعل أصل هذه الرواية هو (لا نريد إلا رجلاً هو مِن الذي اختاره معاوية وأهل الشام سواء في المكانة) فلم يرغب الصحابة ووجوه أهل العراق الذين مع الإمام عليّ أن يكون ممثلهم أدنى من ممثل أهل الشام، وذلك لأن عمرو بن العاص صحابي وكان من عمال رسول الله ﷺ بينما كان عبد الله بن عباس طفلاً في العاشرة حينما توفى رسول الله ﷺ، ولم يكن عبد الله بن عباس قد بلغ سن الحلم حين تولى عمرو بن العاص قيادة الفتوح في الشام، ثم أن عمرو بن العاص هو قائد فتح مصر وأمير مصر في خلافة عمر وحتى خلافة عثمان بينما عبد الله بن عباس لم يشهد فتحاً وليست له مثل تلك المكانة والسابقة. فاختار

الصحابة ووجوه أهل العراق والجزيرة والمشرق أبا موسى الأشعري لأنه من الصحابة السابقين إلى الإسلام ومن كبار وعلماء الصحابة قبل أن يسلم عمرو بن العاص، وقدكان أبو موسى من عمال رسول الله ﷺ وأبي بكر وعثمان، وكان من قادة فتوح الشام والعراق وهو فاتح بلاد فارس وأمير ولاية البصرة والكوفة، ولم يكن بين أهل العراق ومَنْ إليهم صحابياً تضاهي مكانته وسابقته مكانة أبي موسى. فلما رأى الإمام عليّ إجماع الناس على اختيار أبي موسى اقتنع باختياره حكماً، فبعثوا إليه وأخبروه «أن الناس قد اصطلحوا. فقال: الحمد لله رب العالمين. قيل: وقد جعلوك حكماً، قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

ولا بدّ أن أبا موسى حضر إلى الإمام عليّ وأخذ الإمام عليّ ما نصت عليه صحيفة التحكيم من عهد الله وميثاقه، واختار الإمام عليّ والذين معه المفوضين لحضور وكتابة صحيفة التحكيم.

وفي يوم الأربعاء ١٣ صفر ٣٧هـ ـ وهو اليوم الرابع لوقف الاقتتال ـ أو كما جاء في تاريخ الطبري: (يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين)، التقى المفوضون من الفريقين بحضور الحكمين فكتبوا صحيفة التحكيم. ولا شك في أن ما تم تدوينه في صحيفة التحكيم هو أهم مِنْ الاتفاق على التحكيم وأهم مِنْ اختيار الحكمين لأن مَا تَم تدوينه في صحيفة التحكيم بحضور ومشاركة المفوضين الشهود من الفريقين ـ وهُمْ أربعون من الصحابة والأمراء والقادة من الفريقين ـ يكتسب أهمية تاريخية كبيرة.

يقول د. طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى):

«اجتمع المفوضون من الفريقين فكتبوا صحيفة سجّلوا فيها ما اتفق عليه الخصمان من وضع الحرب وإيثار الحكومة واختيار الحكمين وتحديد الزمان والمكان لاجتماعهما، وتأمينهما على أنفسهما وأموالهما مهما يكن حُكمهما، واستنصار الأمة كلها على من خالف عمّا في هذه الصحيفة».

ثم يضيف طه حسين قائلاً: «حدّدوا كل هذا تحديداً دقيقاً، ولكن شيئاً واحداً أطلقوه اطلاقاً ولم يحددّوه تحديداً قريباً أو بعيداً، وهو موضوع القضية التي يجب أن يفصل فيها الحكمان»[١] ولكن رأى طه حسين هذا فيه نظر، فالمفروض أن الصحيفة حددت القضية التي يجب أن يفصل فيها الحكمان.

---

(١) الفتنة الكبرى ـ طه حسين ـ ٢/ ص٨٣.

وهذا نص صحيفة التحكيم التي تم كتابتها يوم الأربعاء ١٣ صفر ٣٧هـ الموافق ٣١ يوليو ٦٥٧ ميلادية:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. قاضى عليٌّ على أهل العراق ومَن كان مِن شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومَنْ كان مِن شيعتهم من المؤمنين والمسلمين:

إنّا ننزل عند حكم الله، وبيننا كتاب الله فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته، نُحيي ما أحيا ونُميت ما أمات. فما وجد الحَكمان في كتاب الله فإنهما يَتبعناه، وما لم يجداه مما اختلفنا فيه في كتاب الله نصاً، أمضيا فيه السنة الجامعة العادلة غير المُفرقة.

والحكمان عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، وأخذنا عليهما عهد الله وميثاقه ليحكمان بما وجدا في كتاب الله نصاً فما لم يجداه في كتاب الله مُسمًّى، عملاً فيه بالسنة الجامعة غير المفرقة[١].

وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن جند كليهما وممن تأمّرا عليه من الناس عهد الله ليقبلُنّ ما قضيا به عليهما[٢]. وأخذا لأنفسهما الذي يرضيان به من العهد والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما وأموالهما، وأن الأمة لهما أنصار على ما يقضيان به على عليّ ومعاوية وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما.

وأن على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يُصلحا بين الأمة ولا يَرُدَهُم إلى فرقة ولا حرب[٣].

وأنّ أجَل القضية إلى شهر رمضان. فإن أحبَّا أن يُعجلاها دون ذلك عجلا؛ وإن أحبَّا أن يؤخرّاها عن غير ميل منهما أخراها.

---

(١) في رواية الجاحظ: «والحكمان عبد الله بن قيس الأشعري وعمرو بن العاص، وقد أخذ عليٌ ومعاوية عليهما عهد الله ليحكمان بما وجدا في كتاب الله..».

(٢) في رواية الدينوري وغيره بالوثائق السياسية «وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على عليّ ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه...» وفي رواية الجاحظ «وقد أخذ الحكمان من علي ومعاوية الذي يرضيان من العهود والميثاق ليرضيان بما يقضيانه فيهما من خلع من خلعا وتأمير من أمّرا».

(٣) في رواية الجاحظ: «وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ليقضيان بين الأمة ولا يذراهم في التفرقة والحرب..».

وإن مات أحد الحكمين قبل القضاء فإن أمير كل شيعة وشيعته يختارون مكانه رجلاً، لا يألون عن أهل المعدلة والنصيحة والإقساط.

وأن يكون مكان قضيتهما التي يقضيانها فيه مكان عدل بين الكوفة والشام والحجاز، لا يحضرهما فيه إلا مَنْ أرادا، فإن رضيا مكاناً غيره فحيث أحبَّا أن يقضيا. وأن يأخذ الحكمان مِن كل واحد مَن شاء من الشهود..

اللهم نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً أو ظلماً.

شهد من أهل العراق ومَنْ معهم: عبد الله بن عباس، والأشعث بن قيس، وسعيد بن قيس الهمداني، وورقاء بن سُمَّى البجلي وعبد الله بن طُفيل، وحُجر بن عدي الكندي، وعبد الله بن حجل البكري، وعقبة بن زياد الحضرمي، ويزيد بن حُجَيّة التميمي. ومالك بن كعب الأرحبي.

ومن أهل الشام: حبيب بن مسلمة الفهري، وعمرو بن سفيان السُّلْمي، ومعاوية بن حُديج الكندي، والمُخارق بن الحارث الزُبيدي، وزَمْل بن عمرو العُذْري، وحُمرة بن مالك الهمداني، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وسُبَيع بن يزيد الحضرمي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، وعُتبة بن أبي سفيان، ويزيد بن الحُرّ العبسي».

وجاء في كتاب الوثائق أن من أهل الشام والذين معهم أيضاً: عبد الله بن عامر القُرشي، ومسلم بن عمرو السكسكي، ومسروق بن جبلة العكي، والصباح بن جلهمة الحميري، وعمار بن الأحوص الكلبي، وبسر بن أرطأة القرشي، وعبد الرحمن بن ذي الكلاع، وثمامة بن حوشب ذي ظُليم، وعلقمة بن حكيم، وبسر بن يزيد الحميري.

ومن أهل العراق ومن معهم أيضاً: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وأبو سعيد بن ربيعة الأنصاري، وسهل بن حنيف، وعبد الله بن خباب بن الأرت، وعمرو بن الحمق الخزاعي، والطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، ويزيد بن عبد الله الأسلمي، وربيعة بن شرحبيل، وأبو بشر بن عمر الأنصاري، وعوف بن الحارث بن عبد المطلب[1].

وقد أورد طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى) نص صحيفة التحكيم ـ وهو نفس النص السالف ـ ثم قال: «أن الفريقين قد حدّدا في صحيفتهما كل شيء إلا

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ ص٥٣٨ ـ ٥٤١ ـ عن الأخبار الطوال للدينوري ص١٩٦ ـ وأنساب الأشراف للبلاذري ١/ ٣٨٢.

الموضوع الذي اختلفا فيه والذي يجب أن يقضي فيه الحكمان. ففيم كانا يختلفان بالفعل؟ كان معاوية يطلب بدم عثمان ويريد أن يسلم إليه عليٌّ قتلة الخليفة المظلوم. وكان عليٌّ لا يعرف لعثمان قاتلاً بعينه ولا يقدر على أن يُسلم إلى معاوية جميع من ثاروا بعثمان حتى قُتل. أفكان الفريقان يريدان من الحكمين أن يفصلا في هذه القضية؟ وإذاً فما بالهما لم ينصّا عليها بل لم يذكرا عثمان وقتلته في الصحيفة أصلاً». ثم يمضي طه حسين قائلاً: «وكان معاوية يرى بعد مقتل طلحة والزبير، وبعد أن استحصد أمره واشتد بأسه أن يكون أمر الخلافة شورى بين المسلمين. وكان عليّ يرى إنه قد بُويع كما بويع الخلفاء من قبله.. ولم يبق لمعاوية إلا أن يدخل فيما دخل فيه الناس، ويدخل معه أصحابه من أهل الشام.. وإذاً فما بال الفريقين لم ينصَّا على ذلك في صحيفتهما، بل لم يذكرا الخلافة ولا الشورى في الصحيفة أصلاً. والغريب أن هذه الصحيفة التي رواها المؤرخون قد أرضت الفريقين المختصمين، لم ينكرا فيها غموضاً ولا عموماً ولا إبهاماً، مع أنها من أشد ما كتب المسلمون غُموضاً وعموماً وإبهاماً فيما يتصل بموضوع القضية الذي كان يجب أن يحدَّد تحديداً لا لبس فيه». [ص٨٥ ـ الفتنة الكبرى].

وهذه الملاحظات التي أشار إليها طه حسين هي ملاحظات وتسأولات هامة، فقد نصت صحيفة التحكيم بعبارات واضحة لا غموض فيها ولا إبهام بأن عليًّا ومعاوية والذين معهما اختاروا أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص ليحكما في قضية الاختلاف بين الفريقين وأن الأمة لهما أنصار على ما يقضيان به. ولم تحدد الصحيفة موضوع القضية ولكنها لم تترك الموضوع دون تحديد. إن عدم النص على مسألة مقتل الخليفة عثمان بن عفان يدل على أن موضوع مقتل عثمان لم يعد قضية رئيسية، فقد سقط أكثر من عشرة آلاف قتيل في موقعة الجمل وأكثر من ستين ألف قتيل في موقعة صِفِّين، وبات موضوع وقضية الاختلاف هو الخلافة والحكم، وأن على الحكمين: «أن يُصلحا بين الأمة ولا يرداها إلى فرقة ولا حرب». فهذا النص الهام في صحيفة التحكيم هو القضية التي أسندت الأمة إلى أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص أن يحكما فيها.

* * *

موقف أبي موسى في لقاء التحكيم

نأتي الآن إلى موقف أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه في لقاء التحكيم، وقد وصفه الأستاذ خالد محمد خالد قائلاً إنه: «أكثر مواقف حياة أبي موسى شهرة، وهو موقفه في التحكيم بين الإمام عليّ ومعاوية، هذا الموقف الذي

كثيراً ما يُؤخذُ آية وشاهداً على إفراط أبي موسى في الطيبة إلى حدّ يسهل فيه خداعه. بيد أن الموقف كما سنراه ورغم ما عسى أن يكون فيه من تَسرُّع أو خطأ، إنما يكشفُ عن عظمة هذا الصحابي الجليل، عظمة نفسه، وعظمة إيمانه بالحق، وبالناس»[١].

إن النبأ اليقين عن موقف أبي موسى وعن حقيقة ما حدث في لقاء التحكيم يرتبط بعدة حقائق تكتسب أهمية كبيرة في المعرفة التاريخية السليمة، فقد انتهت حرب صِفِّين باتفاق الناس على السلام والتحكيم ـ في صفر ٣٧هـ وارتحل الفريقان من صِفِّين إلى العراق والشام وغيرهما من الأقاليم، وكان الموعد الذي حددته صحيفة التحكيم للقاء الحكمين هو شهر رمضان، فانتقل أبو موسى من الكوفة إلى مكة المكرمة فمكث في الرحاب المقدسة وسكن في منطقة يُقال لها (المعلاة) بمكة وحفر بها بئراً ذكرها البلاذري في آبار مكة قائلاً: «بئر أبي موسى بمكة: كانت لأبي موسى الأشعري بالمعلاة»[٢] وتشير بعض الأخبار إلى أن عمرو بن العاص سكن في منطقة من فلسطين قد تكون من أكناف بيت المقدس، فلم يزل أبو موسى بمكة وعمرو بأكناف بيت المقدس إلى أن حددا مكان وموعد اللقاء للتناظر والحكم في القضية.

لقد نصت صحيفة التحكيم على الموعد بقولها: «أن أجّل القضية إلى شهر رمضان، فإن أحبَّا أن يعجلاها دون ذلك عجلاً. وإن أحبَّا أن يؤخرّاها عن غير ميل منهما أخراها». وقد وقع للموعد حيث ذكر الطبري ثم ذكرت بقية المصادر عن الطبري إنه: «زعم الواقدي أن اجتماع الحكمين كان في شعبان سنة ٣٨هـ» بينما في رواية أبي مخنف بتاريخ الطبري (في سنة ٣٧هـ)، وقال محمد رضا: «كان اجتماع الحكمين في شعبان سنة ٣٨ من الهجرة في زعم الواقدي». وقال المؤرخ أبو الحسن المسعودي في مروج الذهب «كان التقاء الحكمين في رمضان من سنة ثمان وثلاثين» وبذلك تتعزز رواية الواقدي ويتبين أن التقاء الحكمين كان في شعبان ورمضان سنة ٣٨هـ وقد قيل عن سبب تطويل الأجل (لعل الله عزّ وجلّ يُصلح في هذه الهدنة هذه الأمة). ويمكن أن يكون سبب التأجيل وقوع اضطرابات بسبب الخوارج في بعض مناطق العراق فلما استقرت الأمور هناك[٣] حدد أبو موسى وعمرو أن يتم لقاء التحكيم في أواخر شعبان وفي رمضان ٣٨هـ.

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٩.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٦٢.

(٣) بدأت مشاكل الخوارج منذ أواسط سنة ٣٧هـ وحاربهم الإمام عليّ في النهروان (في صفر ٣٨هـ) وفي الأنبار (ربيع الثاني ٣٨هـ) والبنديجين (رجب ٣٨هـ)،

وأما مكان اللقاء والذين يحضرون اللقاء فقد نصت صحيفة التحكيم على «أن يكون مكان قضيتهما التي يقضيانها فيه مكان عدل بين الكوفة والشام والحجاز. ولا يحضرهما فيه إلا من أرادا». فهذا التحديد بأن يكون مكان اللقاء مكاناً عدلاً بين الكوفة والشام والحجاز يعني أن يكون مكاناً عدلاً بين ثلاث فرق، فبينما ترمز الكوفة إلى الإمام عليّ والذين معه وترمز الشام إلى معاوية والذين معه، فإن الحجاز ترمز إلى الذين اعتزلوا الفريقين، حيث قيل منذ ما قبل موقعة الجمل «وفرقة بالحجاز لا تُقاتل ولا عناء بها، أولئك خير الفرق». وقد حدد أبو موسى مكان اللقاء وهو (دومة الجندل) ـ بأعالي الحجاز وأداني الشام ـ كما تم تحديد الذين يحضرون اللقاء لأن ذلك من صلاحية الحكمين بموجب ما نصت عليه الصحيفة بقولها: «ولا يحضرهما فيه إلا من أرادا». فتم تحديد أن يحضر اللقاء أربعمائة من فريق الإمام عليّ وأربعمائة من فريق معاوية، ونحو أربعين من الذين اعتزلوا الفريقين، وتم إبلاغ الجميع، فأقبلوا جميعاً إلى دومة الجندل حيث توجه إليها أبو موسى من مكة وعمرو بن العاص من القدس وأقبل الآخرون من الكوفة ودمشق والحجاز.

قال المسعودي: «وفي رمضان سنة ٣٨هـ كان التقاء الحكمين بدومة الجندل.. وبعث عليّ بعبد الله بن العباس وشريح بن هانئ الهمداني في أربعمائة رجل فيهم أبو موسى الأشعري. وبعث معاوية بعمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن السمط في أربعمائة»[١].

وذكر الطبري من طريق المجالد بن سعيد عن الشعبي عن زياد بن النظر الحارثي: «أن عليًّا بعث أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي، وبعث معهم عبد الله بن عباس وهو يصلي بهم.. وأبو موسى الأشعري معهم. وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام حتى توافَوا بدومة الجندل بأذْرُح»[٢].

وقد دمجت هذه الروايات بين الذين قدموا إلى دومة الجندل لقدومهم في ذات الوقت إلى المكان المحدد، فالظاهر الذي تدل عليه القرائن هو أن أبا موسى وصل من مكة إلى دومة الجندل كما وصل إليها عمرو بن العاص من القدس وفي ذات الوقت وصل من الكوفة أربعمائة من الجنود بقيادة شريح بن هانئ الحارثي الهمداني ووصل من دمشق أربعمائة من الجنود بقيادة شرحبيل بن السمط الكندي،

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٤٠٦.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٦ ص٣٧.

وقد تم بعث هؤلاء وأولئك من الإمام علي والأمير معاوية ليكونوا تحت إمرة الحَكَمين وليسوا ممثلين لعليّ ومعاوية، قال الطبري: (وقد كانوا افترقوا من صِفِّين على أن يَقْدِم الحكمان في أربعمائة أربعمائة). والمقصود أن يمد الفريقان الحكمين بأربعمائة أربعمائة فيكون الفرسان الثمانمائة تحت إمرة الحكمين عندما يلتقيان للحكم، ويمكن أن يطلب الحكمان ذلك العدد من الفرسان لأن صحيفة التحكيم يوجد في نصوصهما ما يتيح لهما ذلك الحق، وقد جاء في الرواية التي ذكرها الطبري «أنّ عليًا بعث أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي» ولكن الإضافة التي تقول: «وبعث معهم عبد الله بن عباس يصلي بهم..» وأي إضافات تزج فيها بعض الروايات اسم عبد الله بن عباس في أحادث لقاء التحكيم وإنه قدم مع الجنود لا يمكن أن تصح فقد كان عبد الله بن عباس أمير البصرة وهي مرتبة كبيرة ولا يمكن الهبوط به إلى مُجرد مُرافِقٍ يصلي بمجموعة من الجنود قائدهم شريح بن هانئ. ويوجد نص قاطع في صحيفة التحكيم يقول عن لقاء الحكمين «أن لا يحضرهما فيه إلا من أرادا». فلا صحة إلا لحضور شريح بن هانئ في أربعمائة من فرسان الكوفة وشرحبيل بن السمط في أربعمائة من فرسان دمشق، والذين تم دعوتهم للحضور من الصحابة الذين اعتزلوا الفريقين، وفي ذلك قال المسعودي:

«ووافاهم ـ بدومة الجندل ـ سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن عبد يغوث الزُهري، والمغيرة بن شعبة الثقفي وغيرهم، وهؤلاء ممن قعد عن بيعة عليّ، في آخرين من الناس»[١].

وقال الطبري: «وشهد جماعتهم ـ أي لقاء الحكمين ـ عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وعبد الرحمن بن عبد يغوث الزهري، وأبو جهم بن حذيفة العدوي، والمغيرة بن شعبة الثقفي»[٢] وجاء في رواية ذكرها محمد رضا إنهم «ساروا جميعاً إلى دومة الجندل، وحضر معهم سعد بن أبي وقاص، وسار المغيرة بن شعبة وكان مقيماً بالطائف، ولم يشهد شيئاً من تلك الحروب، حتى أتى دومة الجندل».

وكان سعد بن أبي وقاص معتزلاً عند ماء لبني سليم بالبادية فحضر مع ابنه عمر بن سعد بن أبي وقاص، وقد كان حضورهم جميعاً بناءً على دعوة كتابيه من أبي موسى وعمرو بن العاص أن «اقدموا علينا إن كنتم قد اعتزلتم الحرب ولم

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٤٠٦.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٦ ص٣٧.

تدخلوا فيما دخل فيه الناس، لتشهدوا ما يكون منا. والسلام». ولم تذكر هذه الروايات أسماء بقية الذين حضروا من المعتزلين وهُمْ بصفة عامة من أهل المدينة الأنصار في آخرين من الناس[1].

وقد اكتمل حضور الجميع إلى دومة الجندل في أواخر شعبان، وانعقد لقاء الحكمين بحضور الجماعة في مسجد دومة الجندل في أوائل شهر رمضان، ويتبين من مجمل ما تقدم أن لقاء التحكيم لم يكن بالصورة الساذجة التي أشاعتها بعض الروايات التي أشار إليها الإمام الواقدي بأنها من «تشنيع الروافض بأصحاب رسول الله ﷺ». . أن أسماء الصحابة والأمراء الذين حضروا لقاء التحكيم هي أسماءٌ اهتزت لها مشارق الأرض ومغاربها، وقد تم اللقاء بشكل بالغ الدقة والتنظيم، وبحضور نحو خمسين من الصحابة ويليهم ثمانمائة من الفرسان، بينما أخذ الصحابيان الحكمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص مكانهما في الصدارة، وفي مواجهتهما جلس الكاتب لتدوين صحيفة التقاضي والحكم. قال المسعودي في مروج الذهب:

«وكان الكاتب غلاماً لعمرو، فقال له عمرو بحضرة الجماعة: أكتُب فإن كتابك شاهد علينا، ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نَهَاكَ فانْتَهِ، حتى يجتمعُ أمرنا».

بداية التناظر في القضية

ثم «قال عمرو لأبي موسى: تكلم وقُلْ خيراً يا عبد الله». وهنا يقول الطبري عن أبي جناب الكلبي «أن عمراً وأبا موسى حيث التقيا بدومة الجندل أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام ويقول أنك صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسن مني فتكلم وأكلم». وقال محمد رضا: «إن عمرو بن العاص أخذ يُظهر التبجيل لأبي موسى ويُجلّه ويقدمه في الكلام ويوقره ويقول له: صحبت رسول الله ﷺ قبلي وأنت أكبر سناً مني». والواقع أن ذلك لم يكن من أجل الخديعة كما يتوهم أو يزعم الذين لا يعلمون، فقد كان تقديم أبي موسى عبد الله بن قيس في صحيفة التحكيم قبل عمرو بن العاص في النصوص التي ذكرتهما بالصحيفة مرتين لأن أبا موسى من

---

(١) من أهل المدينة الأنصار والمعتزلين: (زيد بن ثابت الأنصاري، كعب بن مالك الأنصاري، أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، أبو سعيد الخدري، حسان بن ثابت الأنصاري، مَسْلَمة بن مُخَلَّد الأنصاري، فَضالة بن عُبيد، كعب بن عُجرة، محمد بن مسلمة، ورافع بن خُديج).

الصحابة السابقين الأولين وأقدم من عمرو هجرة وصحبة، وأعظم فتوحاً ومكانة وعلماً. وقد كان عمرو بن العاص وكافة الصحابة يعرفون مكانة وفضل وأقدمية أبي موسى، ولذلك ـ وكما جاء في مروج الذهب ـ: «قال عمرو لأبي موسى: تكلم وقُلْ خيراً يا عبد الله، فقال: بل تكلم أنت يا عمرو، فقال عمرو: ما كنتُ أفعل وأقدم نفسي قبلك، ولك حقوق كلها واجبة لسنك وصحبتك رسول الله ﷺ. . وأنت أكثر مني فضلاً وأقدم هجرة».

فحمد اللَّهَ أبو موسى وأثنى عليه، وذكر الحدث الذي حلّ بالإسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال: فَهَلُمَّ ـ يا عمرو ـ إلى أمر يجمع الله به الألفة ويلمّ الشَّعَثَ ويُصلح ذات البين.

فجزاه عمرو خيراً وقال: إن للكلام أولاً وآخراً، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله، فاجعل. . ما يكون من كلام بيننا في كتاب يصير إليه أمرنا».

كتاب صحيفة الحكم

فأمر عمرو وأبو موسى الكاتب فكتب ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص: تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».

ثم قال عمرو: ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ عمل بالكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله وقد أدى الحق الذي عليه. قال أبو موسى: أكتب. ثم قال في عمر بن الخطاب أمير المؤمنين مثل ذلك. فقال: اكتب.

ثم قال عمرو: إن عثمان وُلي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المُسلمين وشُورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضا منهم وأنه كان مؤمناً وقُتِل مظلوماً.

فقال أبو موسى: ليس هذا مما قعدنا له.

قال عمرو: والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً.

فقال أبو موسى: كان مؤمناً.

قال عمرو: فمُره يكتب.

فقال أبو موسى: أُكتب.

قال عمرو: فظالماً قُتِلَ عثمان أو مظلوماً؟ قال أبو موسى: بل قُتله مظلوماً. قال عمرو: فمُره يكتب. فأمر أبو موسى الكاتب فكتب ذلك».

حوار أبي موسى مع عمرو بعد كتابة ما تقدم

ثم جرى بينهما حديث وحوار لم يتفقا عليه فلم يكتباه **في الصحيفة، وكان** ذلك بحضور الجماعة. وقد شمل ذلك ما يلي:

قال المسعودي أن أبا موسى لما أقرّ بأن عثمان بن عفان قُتل مظلوماً: (قال عمرو: أفليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم فقال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولياً أولَى من معاوية.. أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟). وجاء في رواية الطبري أن عمراً قال: (إن معاوية ولّي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه..) وجاء في رواية الدينوري نحو ذلك وأن علياً مالأ على قتل عثمان أو لم يُسلم قتلة عثمان ـ فنفى أبو موسى ذلك وقال لعمرو: «أما قولك أن معاوية ولّي عثمان، فأولَى منه ابنه عمرو بن عثمان» ثم حسم أبو موسى ذلك الموضوع قائلاً:

«هذا أمر قد حدث في الإسلام، وإنما اجتمعنا لغيره».

وقد ذكر محمد رضا في كتاب (الإمام عليّ) وخالد محمد خالد في (رجال حول الرسول) ما ذكره الدينوري في كتاب (الأخبار الطوال) بأنه في بداية اللقاء والحوار، ويدل السياق على أن ترتيبه بعد الكلام سالف الذكر، حيث:

«قال أبو موسى: يا عمرو هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله؟ قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسى: نُولي عبد الله بن عمر بن الخطاب فإنه لم يُدخل نفسه في شيء من هذه الحروب».

وجاء في مروج الذهب أنه «قال عمرو: أيفعل ذلك عبد الله بن عمر؟ قال أبو موسى: نعم إذا حَمَلَه الناسُ على ذلك فعل».

وذكر الطبري عن طريق نافع مولى عبد الله بن عمر أنه «قال عمرو بن العاص لأبي موسى: أن هذا الأمر لا يُصلحه إلا رجلٌ له ضِرْس يأكل ويُطعم. وكانت في عبد الله بن عمر غفلة فقال له عبد الله بن الزبير: افطُنْ فانتبه، فقال عبد الله بن عمر: لا والله لا أرشو عليها أبداً». [ص٣٩/٦]. وقد دار هذا الكلام بين عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر لأنهما كانا من الذين حضروا لقاء الحكمين، وكان الحديث بين الحكمين بحضور جميع من سلف ذكرهم من الصحابة والحاضرين، فلم يتجاوب عمرو بن العاص مع رأي أبي موسى بتولية عبد الله بن عمر قائلاً: إن هذا الأمر لا يصلح له إلا رجُل له ضِرْسٌ يأكل ويُطعم.

ثم ذكر الدينوري أنه (قال عمرو: فأين أنت من معاوية؟ قال أبو موسى: ما معاوية موضعاً لها ولا يستحقها).

وذكر الطبري أنه «قال عمرو: ما يمنعك من معاوية يا أبا موسى وبيتُه في قريش كما قد علمت، وهو أخو أم حبيبة زوجة النبي ﷺ وقد صحبه.. وَوَلّى عثمان والطالب بدمه، الحسن السياسة، الحسن التدبير.

فقال أبو موسى: يا عمرو اتق الله عز وجل، فأما ما ذكرتَ من شرف معاوية فإن هذا الأمر ليس على الشرف يُولّاهُ أهله، ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصَّبَّاح، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أني لو كنتُ مُعطيه لأفضل قريش شرفاً أعطيته عليّ بن أبي طالب». وجاء في كتاب الإمام عليّ لمحمد رضا أنه: «قال أبو موسى: إتق الله يا عمرو، أما ما ذكرت من شرف معاوية فلو كانت الخلافةُ تُستحق بالشرف لكان أحق الناس بها أبرهة بن الصباح فإنه من أبناء ملوك اليمن التبابعة الذين ملكوا شرق الأرض وغربها.. ثم أي شرف لمعاوية مع علي بن أبي طالب».. ويقول طه حسين تعليقاً على ما جاء في الروايات بأن عمرو بن العاص اقترح أن يكون معاوية الخليفة: «من المُستبعد أن يكون عمرو قد رشح معاوية. ومهما يكن من شيء فالذين يروون هذا الترشيح يرون كذلك إن أبا موسى قد رفضه. وفضل عليه علياً لسابقته وبلائه ومكانه من النبيّ ﷺ».

ثم كما ذكر المسعودي في مروج الذهب: (قال أبو موسى لعمرو: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً، وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً، فهلم نستخلف عبد الله بن عمر).

وجاء في رواية الطبري أن أبا موسى قال: (ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه). وجاء في كتاب الإمام علي لمحمد رضا ورواية الدينوري أن أبا موسى قال: (ولكن إن طاوعتني أحيينا سنة عمر بن الخطاب وذِكْرَه بتوليتنا ابنه عبد الله الحبر).

ويقول طه حسين عن موقف عمرو بن العاص: «ولكن عمراً رفض هذا الاقتراح لأن عبدالله بن عمر لم يكن صاحب بأس ولا بطش ولا قوة على النهوض بهذا الأمر.. ويتزيد الرواة من أهل العراق فيزعمون أن عمراً لقي عبد الله بن عمر وخلا إليه وعرض عليه الخلافة إن أعطاه مصر. فأبَى عبد الله أن يشتري الخلافة بالرشوة ويُعطي الدنية في دينه. وما أرى إلا أن هذا غلوّ دُفع إليه الذين أبغضوا عمراً من أهل العراق» [ص٩٩]. والواقع أن الرواية التي أشار إليها طه حسين

عارية من الصحة لأن لقاء التحكيم لم يكن فيه مجال ليخلو فلان بفلان وإنما كان الحديث بين الحكمين يدور علناً وحولهما زهاء أربعين من الصحابة وخلفهم زهاء ثمانمائة من الجنود وذلك داخل جامع دومة الجندل، وقد وَاجَه عمرو بن العاص اقتراح أبي موسى بتولية عبد الله بن عمر باقتراح معارض هو تولية عبد الله بن عمرو بن العاص، فقد ذكر الطبري من طريق أبي جناب الكلبي أن أبا موسى لما قال: إن شئت أحيينا اسم ـ أو سنة ـ عمر بتولية ابنه عبد الله: «قال له عمرو: إن كنت تحبّ بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني ـ عبد الله بن عمرو ـ وأنت تعرف فضله وصلاحه. فقال أبو موسى: إن ابنك رجل صِدْق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة». وكذلك جاء في كتاب الدينوري وأنه «قال أبو موسى لعمرو بن العاص: إن ابنك رجل صِدْق ولكنك قد غمسته في هذه الحروب. . فَهَلُمَّ نجعلها للطيب ابن الطيب عبد الله بن عمر بن الخطاب. . إن المسلمين قد أسندوا إلينا أمْراً بعد أن تقارعوا بالسيوف وتشاكوا بالرماح فلا نردهم إلى فتنة».

وجاء في تاريخ الطبري عن نافع مولى عبد الله بن عمر «قال أبو موسى: يا ابن العاص إن العرب أسندت إلينا أمرها بعدما تقارعت بالسيوف وتناجزت بالرماح فلا ترُدَّنهم في فتنة».

انتهاء لقاء التحكيم

إن عدم تجاوب عمرو بن العاص مع رأي أبي موسى بتولية عبد الله بن عمر قد أدى إلى الوصول إلى طريق مسدود، ويبدو أن عمراً لم يرغب في أن يؤخذ عليه معارضة تولية ابن عمر ـ حِبر الأمة ـ فقد جاء في مروج الذهب أنه «قال عمرو: أرأيت إن رضيَ أهل العراق بعبد الله بن عمر وأباه أهل الشام أتُقاتِل أهل الشام؟ فقال أبو موسى: لا. قال عمرو: فإن رضيَ أهل الشام وأبَىٰ أهل العراق أتُقاتِل أهل العراق؟ قال أبو موسى: لا». وقد جاء قبل تلك الفقرة في مروج الذهب أنه «أخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختماها جميعاً» [اهـ]. وبذلك وصلت قضية التحكيم إلى نهايتها الحقيقة وانتهى لقاء التحكيم وانصرف أبو موسى وعمرو وجميع الذين حضروا اللقاء إلى المناطق التي جاؤوا منها.

وقد ذكرت كتب التاريخ ثلاثة روايات عن نهاية اللقاء، فقد شاعت رواية تقول أن الحكمين تشاورا ـ سراً ـ واتفقا على خلع عليّ ومعاوية وأن يكون الأمر شورى تختار الأمة من تشاء خليفة للمسلمين، واتفقا على أن يعلنا ذلك للناس، فقام أبو موسى فأعلن أنهما قد اتفقا على خلع عليّ ومعاوية ورد الأمر شورى بين

المسلمين يختارون من يرضون، ثم قام عمرو فقال: إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلعه مثله ولكني أُثَبِّتُ صاحبي. وقد أشاعت تلك الرواية كلاماً وتشنيعاً كثيراً على أبي موسى وعمرو فجعلت الأول طيباً مغفلاً وجعلت الثاني غادراً فاجراً، وقد كاد طه حسين أن يُصدق تلك الرواية فقال في كتابه (الفتنة الكبرى): «إذاً فقد غدر عمرو غدرةً منكرة، إن صح ما كان المؤرخون أن يُجمعوا عليه. اتفق مع أبي موسى على خلع الرجلين ثم لم يخلع منهما إلا واحداً. جار إذاً على العهد الذي أعطاه على نفسه في الصحيفة، فسقط حكمه وسقط حكم صاحبه أيضاً. وقال طه حسين: «..ولم يكن أبا موسى مغفلاً.. ولو كان مغفلاً لما اختاره عُمر لولاية الأمصار، ولما اختاره أهل الكوفة لولاية مصرهم أيام عثمان، ولكنه كان رجلاً تقياً ورعاً سمْح النفس رضيَّ الخُلق يظن أن المسلمين ولا سيما الذين صحبوا النبي منهم خاصة، أرفع مكانة في أنفسهم وفي دينهم من أن ينزلوا إلى الغدر»[١].

وقد احتاط طه حسين في قوله: «إن صح ما كاد المؤرخون أن يُجمعوا عليه». والواقع أن المؤرخين نقلوا ذلك عن بعض الرواة القصاصين في العصر العباسي المتأخر الذي انتشر فيه تشنيع بعض رواة الشعوبية والروافض بالصحابة والفاتحين، فلقاء الحكمين لم يكن لقاء رجلين يتشاوران ويتفقان سرّاً ثم يغدر أحدهما، وإنما كان اللقاء والحديث بينهما بحضور أربعين من الصحابة وثمانمائة من الجنود ويتم كتابة كل ما يتفقان عليه في الصحيفة، بل إن عمرو بن العاص حين قال: «إن عثمان كان مؤمناً وقُتِل مظلوماً». قال أبو موسى: «ليس هذا مما اجتمعنا له» فقال عمرو: «والله لا بد أن يكون مؤمناً أو كافراً. فقال أبو موسى: كان مؤمناً. قال عمرو: فَمُره يكتب. قال أبو موسى: اكتب». فهذه الدقة في تدوين كل كلمة، وذلك الجمع في اللقاء، يعطينا اليقين باستحالة وقوع ما قالته تلك الرواية. ولقد كان أبو موسى وعمرو أعظم مِنْ مزاعم ذوي الأهواء الذين قاموا بتلفيق ما جاء في تلك الرواية من أكاذيب.

أما الرواية الثانية فيقول عنها طه حسين: «ومن المؤرخين من زعم أن عمراً لم يبلغ بكيده هذه المنزلة من الغدر، وإنما اكتفى بخلع الرجلين ما خلعهما أبو موسى، فسوّى بين عليّ ومعاوية. ولكن هذه الرواية لا تستقيم. فلو قد قال عمرو كما قال أبو موسى: أنهما اتفقا على خلع الرجلين جميعاً، لما عاد أهل الشامُ مُسلِّمين على معاوية بالخلافة.. ولَمَّا قَبل كثير من أهل العراق إمرة عليّ بعد أن خلعه الحكمان

(١) الفتنة الكبرى ـ طه حسين ـ ص١٠١.

اللذان ارتضاهما وأعطاهما العهد على نفسه بأن ينفذا حكمهما، ولكان من الطبيعي أن يضطرب الأمر أشد الاضطراب في مكة والمدينة، فهؤلاء قوم أعطوا على أنفسهم عهداً ليسمعنّ لحكم الحكمين.. وليس لهذه الرواية معنى إلا أنها تتهمُ الأمة كلها بإيثار المنفعة الخاصة واتباع الهوى والمخالفة عن أمر الله عز وجل حيث قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]. وليس من المعقول أن تجتمع الأمةُ كلها على نقض العهد وإيثار الضلالة على الهدى والغدر على الوفاء»[١].

أما الرواية الثالثة فقد ذكرها المسعودي في مروج الذهب وتقول ما يلي نصه: «لم يكن بين الحكمين غير ما كتباه في الصحيفة وإقرار أبي موسى بأن عثمان قُتل مظلوماً وغير ذلك مما قدمنا. وإنهما لم يخطبا»[١]. وهذه هي الرواية الصحيحة فلم يتفقا إلا على ما كتباه في الصحيفة وهو ما يلي نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص: تقاضيا على أنهما يشهدان لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. وإن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله إليه وقد أدى الحق الذي عليه. وأن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين عمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حتى قبضه الله إليه وقد أدى الحق الذي عليه. وإن عثمان وُلِّي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضاً منهم، وإنه كان مؤمناً، وقُتِل مظلوماً». وقد «ختم أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على الصحيفة بختمهما. وطوى عمرو الصحيفة وأخذها». وانصرف عمرو إلى بيت المقدس وأبو موسى إلى مكة المكرمة، وشريح بن هانئ والذين معه إلى الكوفة، وشرحبيل بن السمط والذي معه إلى دمشق، والصحابة المعتزلون إلى مناطقهم التي كانوا فيها، فكانت النتيجة الواقعية للتحكيم هو استمرار الأمر الواقع.

إن أصل المقولة الشائعة بأن أبا موسى خلع علياً ومعاوية يعود إلى قوله لعمرو في الحوار والحديث بينهما، وبحضور الجماعة، (يا عمرو، هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله؟ قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسى: نوّلي عبد الله بن عمر فإنه لم يدخل نفسه في شيء من هذه الحروب). وكذلك قول أبي موسى

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ جـ٢ ص٤١١.

لعمرو: (قد علمتَ أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً، وأهل الشام لا يحبون علياً أبداً، فهلم نستخلف عبد الله بن عمر).

وقد ذكر الأستاذ خالد محمد خالد لقاء الحكمين وأنه: اقترح أبو موسى «أن يتفق الحكمان على ترشيح عبد الله بن عمر بل وعلى إعلانه خليفة للمسلمين، وذلك لما كان ينعَمُ به عبد الله بن عمر من إجماع رائع على حبه وتوقيره وإجلاله». وقال خالد محمد خالد في رؤيته الصائبة لموقف أبي موسى ما يلي:

«إن رأي أبي موسى في قضية التحكيم يتلخص في أنه وقد رأى المسلمين يقتلُ بعضهم بعضاً، كل فريق يتعصب لإمام وحاكم.. كما رأى الموقف بين المتقاتلين قد بلغ في تأزمه واستحالة تصفيته المدى الذي يضع مصير الأمة المسلمة كلها على حافة الهاوية، نقول: إن رأيه وقد بلغت الحال من السوء هذا المبلغ كان يتلخص في تغيير الموقف كله والبدء من جديد.

إن الحرب الأهلية القائمة يومذاك إنما تدور بين طائفتين من المسلمين تتنازعان حول شخص الحاكم، فليتنازل الإمام علي عن الخلافة مؤقتاً، وليتنازل عنها معاوية، على أن يرد الأمر كله من جديد إلى المسلمين يختارون بطريق الشورى الخليفة الذي يريدون.. صحيح أن الإمام عليًّا كرم الله وجهه بويع بالخلافة بيعة صحيحة. وصحيح أن كل تمرُّد غير مشروع لا ينبغي أن يمكَّن من غرضه في إسقاط الحق المشروع. بيد أن الأمور في النزاع بين الإمام ومعاوية، وبين أهل العراق وأهل الشام كانت ـ في رأي أبي موسى ـ قد بلغت المدى الذي يفرض نوعاً جديداً من التفكير ومن الحلول، فعصيان معاوية لم يعد مجرد عصيان، وتمرد أهل الشام لم يعد مجرد تمرُّد، والخلاف كله لم يعد مجرد خلاف في الرأي وفي الاختيار، بل إن ذلك كله تطوَّر إلى حرب أهلية ضارية ذهب فيها آلاف القتلى من الفريقين، ولا تزال تهدد الإسلام بأسوأ العواقب، فإزاحة أسباب النزاع والحرب، وتنحية أطرافه، مثَّلا في تفكير أبي موسى نقطة البدء في طريق الخلاص»[١].

* * *

ولقد عاد أبو موسى الأشعري من لقاء التحكيم في دومة الجندل إلى مكة المكرمة، وقضى ما تبقى له من عمر في جوار البيت الحرام، ولم يزل الناس يقصدونه ليتعلموا منه كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وكان أبو موسى يقول: «اتِّبعوا القرآن، ولا تطمعوا في أن يَتْبَعكم القرآن».

---

(١) رجال حول الرسول ـ ص٧٤٩.

وبينما هو في رحاب البيت الحرام وقد استوفى الثالثة والستين من عمره المبارك، دُعي إلى رحلة الأبد، فلّبت روحه الدعاء في شوق عظيم إلى لقاء رسول الله ﷺ وإخوانه من الصحابة الأخيار في جنات الفردوس والخلود[١].

* * *

وقد كان أبناء أبي موسى الأشعري من علماء التابعين بالبصرة والكوفة وهُم موسى وإبراهيم وأبو هريرة وأبو بكر، ويبدو أن موسى بن أبي موسى الأشعري هو الذي مات سنة ٥٣ هجرية في الكوفة مما أدى إلى الالتباس والقول: «إن أبا موسى مات سنة ٥٣ بمكان يقال له الثوبة على ميلين من الكوفة» بينما الأصوب أن أبا موسى مات بمكة سنة ٤٢هـ أو سنة ٤٤هـ وقد يكون الذي مات بالكوفة هو موسى بن أبي موسى الأشعري.

وكان أبو بكر بن أبي موسى من العلماء الزعماء بالكوفة، ولما تولى العراق يزيد بن المهلب الأزدي اليماني في خلافة سليمان بن عبد الملك تولى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى. قال الطبري في ذكر ولاية يزيد بن المهلب للعراق سنة ٩٦هـ. «وعلى البصرة سفيان بن عبد الله الكندي من قِبل يزيد بن المهلب، وعلى قضاء البصرة عبد الرحمن بن أذينة وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى الأشعري». وقال في ذكره للولاة سنة ٩٧هـ «كان يزيد بن المهلب استعمل على الكوفة حرملة بن عمير اللخمي ثم عزله وولى على الكوفة بشير بن حسان النهدي.. وكان على قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى الأشعري»[٢] وقد ذكرنا أن أبا موسى الأشعري قام ببناء دار الإمارة في البصرة باللّبن والطين في خلافة عمر، ثم أن الحجاج بن يوسف الثقفي لما تولى العراق أخرب دار الإمارة بالبصرة. (فلم تكن بالبصرة دار إمارة حتى تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك وولى يزيد بن المهلب على العراق، فأعاد بناء دار الإمارة في البصرة بالآجر والجُصّ على أساسها، ورفع سمكها).

---

(١) قال العسقلاني: «قال البغوي: بلغني أن أبا موسى مات سنة اثنتين وقيل أربع وأربعين وهو ابن نيف وستين. قال العسقلاني: وبالأول جزم ابن نمير وغيره. وبالثاني جزم أبو نعيم وغيره. وقال أبو بكر بن أبي شيبة عاش أبو موسى ثلاثة وستين. وقال الهيثم: مات سنة خمسين ويقال سنة بإحدى وخمسين. وقال المدايني: سنة ثلاث وخمسين» [٢/ ص٢٦٠ ـ الإصابة] والأرجح ما ذكره البغوي وابن نمير وأبو نعيم وغيرهم من العلماء بأنه مات سنة ٤٢هـ أو سنة ٤٤هـ بمكة.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ٨ ص١١٣.

وكان أبو بردة بن أبي موسى الأشعري من علماء التابعين والقضاة في البصرة، قال الحافظ ابن كثير: «كان أبو بردة بن أبي موسى الأشعري فقيهاً حافظاً عالماً، له روايات كثيرة. تولى أبو بردة قضاء الكوفة قبل الشعبي.. وكان أبو بردة قاضياً في زمن الحجاج ثم عزله الحجاج وولى أخاه أبا بكر»(١) وكذلك تولى أبو بكر قضاء الكوفة في ولاية يزيد بن المهلب سنة ٩٦ ـ ٩٩هـ وانتقل أبو بردة إلى البصرة، وتوفي سنة ١٠٤ هجرية.

وكان بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري من أعلام العلماء الزعماء، وتولى بلال بن أبي بردة قضاء البصرة في أوائل عهد الأمير اليماني خالد بن عبد الله القسري أمير العراقين في خلافة هشام بن عبد الملك ـ منذ سنة ١٠٧هـ ـ فكان بلال قاضياً للبصرة سنة ١٠٩ ـ ١١٠هـ «قال الشاعر رؤبة في بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري:

وأنتَ يا بنَ القاضِيَيْنِ قاضي مُعْتَرِمُ على الطريق ماضي»(٢)

قال الطبري: «وفي سنة ١١٠هـ جعل خالد بن عبد الله القسري القضاء والصلاة والشرطة والأحداث بالبصرة إلى بلال بن أبي بردة» وقال الطبري في ذكره للولادة سنة ١١٨هـ «كان على العراق والمشرق كله خالد بن عبد الله القسري.. وعامله على البصرة وقضائها بلال بن أبي بردة» وبذلك استمر بلال أميراً لولاية البصرة وقاضياً لها منذ سنة ١١٠ ـ ١١٩هـ. قال أبو العباس المبرد «كان بلال بن أبي بردة أمير البصرة وقاضيها، وكان داهيةً لقِناً أديباً، وفيه قال ذو الرُمّة الشاعر:

سمعتُ الناسَ يَنْتَجعونَ غَيْثاً فَقُلْتُ لِصَيْدَح انْتَجعي بلال

تُناخِي عند خَيْرِ فَتًى يَمانٍ إذا النَكْباءُ ناوَحَت الشَمَالا»(٢)

وقد تقدم ذكر قيام أبو موسى الأشعري بحفر وشق نهر البصرة المُسمى نهر الأبُلّة في خلافة عمر، وكذلك قام أبو موسى آنذاك بشق نهر معقل في البصرة. وقد سار بلال بن أبي بردة بن أبي موسى على نهج جده العظيم. قال البلاذري: «كان بلال بن أبي بردة الذي فتق نهر معقل في فيض البصرة، وكان

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ جـ٩ ص٢٣١.
(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد ـ جـ١ ص٢٦٨.
ـ وصيدح: اسم ناقة ذي الرُمّة.
ـ والنكباء: الريح التي تأتي بين ريحين (فإذا كانت النكباء تناوح الشعال فهي آية الشتاء.. ومعنى تناوح: تقابل).

قبل ذلك مكسوراً يفيض إلى القبة التي كان زياد يعرض فيها الجند»[١].

وكذلك «احتفر بلال نهر بلال في البصرة وجعل على جنبتيه حوانت ونقل إليه السوق»[١] قال أبو العباس المبرد: «ومن أحسن ما امتَدح به ذو الرُمَّة بلالاً بن أبي بُردة قوله:

تقولُ عجوزٌ مَدْرجي مُتَرَوِّحاً ... على بيتها من عند أهلي وغاديا[٢]

أذو زَوْجَةٍ بالمِصْرِ أم ذو خُصومة ... أراكَ لها بالبَصْرةِ العام ثاويا[٣]

فقلتُ لها: لا إن أهلي لجيرةٌ ... لأكْثِبَةِ الدَهْناء جميعاً وماليا[٤]

وما كنتُ مذ أبصرتِني في خصومةٍ ... أُراجعُ فيها يا ابْنةَ الخَيْرِ قاضيا

ولكنني أَقْبَلتُ من جانِبَيْ قسَاً ... أزورُ فتًى نَجْداً كريماً يمانيا[٥]

مِن آل أبي موسى ترى القوم حوله ... كأنَّهُمُ الكِرْوانُ أبْصَرْنَ بازيا[٦]

مُرمِّينَ من ليْثٍ عليه مهابةٌ ... تفادَى أسودُ الغاب منه تفاديا[٧]

وما الخُرْقَ منه يرهبونَ ولا الخَنَى ... عليهمْ، ولكن هَيْبَةُ هِيَ ما هيَا»[٨]

* * *

وبهذا أختتم ـ بتوفيق وعون الله تعالى ـ هذا الجزء الأول من كتاب (يمانيون في موكب رسول الله ﷺ ـ عظماء الصحابة والفاتحين اليمانيين في فجر الإسلام). فعليهم رضوان الله تعالى.

والله الموفق

محمد حسين الفرح

صنعاء ٢٦ سبتمبر ٢٠٠١ ميلادية

٩ رجب ١٤٤٢ هجرية

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٥٨.

(٢) مدرجي: مروري.

(٣) ثاوياً: مقيماً.

(٤) اكثبه: جمع كثيب، والدهناء: صحراء الدهنا.

(٥) قساً: اسم موضع في الدهناء.

(٦) الكِرْوانُ: جمع كَرَوان وهو طائر معروف.

(٧) مُرِّمين: يعني سكوتاً مُطرقين. وقوله: تفادى أسود الغاب، معناه تفتدي منه بعضها ببعض.

(٨) الكامل في اللغة والأدب ـ جـ١ ص٢٧١.

فهرس المحتويات



هـذا الكتـــاب

ثمّة نورٌ سيضيء طويلاً في حنايا روح القارئ وعقله وقلبه بعد أن ينتهي من قراءة هذا الكتاب. وقليلةٌ هي الكتب التي تفعل ذلك في هذا الزمان. كتابٌ لا يغادر القارئ بسهولة. ربما لأنه كُتب بإخلاص وعناء، وحبٍ وحماس.

كتابٌ يعلّمُ ويضيء. يعلّم البطولة، ويضيء صفحات بعضُها مطمورٌ، وأدوارا جلّها مغمورٌ، ربما لأنها تناثرت بين الكتب، وتباعدت بين المراجع، لأبطال أشعلوا أعمارهم ضوءاً في ليل العالم، وبهيم ظلامه، وزرعوا حبّات قلوبهم وعداً في فلوات اليأس، ونثروا براعم دمهم عهداً في جنبات اليباب، بالتغيير، والإنتصار للإيمان، والإنسان والعدل، والحرية... يقود موكبهم بطل الأبطال، النبيُ العربي، رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم.

أبطالٌ يمانيُون، أفاقت الدنيا على صهيل جيادهم، وضوء وجوههم، وبرق سيوفهم، وشقشق وهجُ عزائمهم أصقاعَ العالم القديم وبدّدت أنداءُ تكبيرهم وحشةَ الفجاج، وغربةَ الوهاد، وتهلّلت لأفياء تهليلهم آمالٌ وقلوب، وبلدانٌ وشعوب... وتغيّر العالم بعدها، ولم يعد كما كان.

خالد عبد الله الرويشان

وزير الثقافة والسياحة



الجمهورية اليمنية

وزارة الثقافة والسياحة

صنعاء - ص.ب.: (٣٦)-(٢٣٧)- هاتف: ٢٣٥١١٤ - فاكس: ٢٣٥١١٣

بريد الكتروني moc@y.net.ye